



سينا
للنشر

الحملة الفرنسية في مصر بونابرت والوسلهم



تأليف: هنري لورنس

شارل جيليسي - جان - كلود جولقان - كلود ترونيكر

ترجمة: بشير السباعي

الحملة الفرنسية
في مصر
بونابرت والاسلام

الكتاب : الحملة الفرنسية في مصر

بولابورت والإسلام

الكاتب : هنري لورنس وآخرين

ترجمة : بشير السبباني

الطبعة الأولى ١٩٩٥

جميع الحقوق محفوظة

الناشر : سينا للنشر

المدير المسؤول : روية عبد العظيم

١٨ في فريج سعد - القصر العيني -

القاهرة - جمهورية مصر العربية -

تليفون / فاكس : ٢٥٤٧١٧٨ / ٢٠٢

هذه ترجمة للكتاب :

L'EXPÉDITION D'ÉGYPTÉ

1798 - 1801

تأليف :

HENRY LAURENS

الناشر :

ARMAND COLIN

صدر هذا الكتاب بمطبعة
الحملة الفرنسية
للأبحاث والتعميم
قسم الترجمة - القاهرة



التمثيل : منير الشمراوي

الاخراج الداخلي : إيتاس حسني

التمثيل : سينا للنشر

تأليف: هنري لورنس
شارلجيبي . جان . كلود جولقان . كلود ترونيكر

الحملة الفرنسية في مصر بونابرت والاسلام

ترجمة: بشير السباعي



إلى القارئ

شكلت حملة مصر الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١) نقطة تحول مهمة في التاريخ المصري، وهو واقع يعلم به المؤرخون على اختلاف مدارسهم، ويسلط أضواء جديدة عليه هذا الكتاب المهم الذي صدر بالفرنسية في عام ١٩٨٩ ضمن الجهود العلمية للوكالة لإحياء الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية الكبرى. ويصدر هذا الكتاب بالعربية مع اقتواب الذكرى المئوية الثانية لحملة مصر الفرنسية، والتي نأمل أن تواكبها جهود علمية من جانب المؤرخين المصريين، من شأنها توضيح دلالات هذا الحدث المهم، بالنسبة لحمل تطور المجتمع المصري الحديث والمعاصر.

ولابد من الاعتراف بأن ما حلزنا إلى ترجمة هذا الكتاب إلى العربية هو الرغبة في تشييط نقاش جاد بين المؤرخين المصريين، حول سياق ونتائج هذا الحدث، وهو نقاش طال أمد انتظاره، بالرغم من عدد من الإسهامات - النادرة - التي لا يخامرنا شك في أهميتها.

بشير الصباصي

شكر وتقدير

ما كان يمكن إنجاز هذا العمل دون تصور معين للتاريخ والمجتمع الشرقي، تهللوا
عبر مشاركة نامت أكثر من عشر سنوات في نشاطات مركز تاريخ الإسلام المعاصر
بجامعة السوربون - باريس (باريس ٤). وبيني كبير بوجه خاص للأستاذ دومينيك
شوفالييه مؤسس المركز ومحرره. أما جورج بوهاس، مدير المعهد الفرنسي للدراسات
العربية بدمشق، فقد أتاح لي، ضمن إطار منحة دراسية لمدة سنة قدمها معهد في علم
١٩٨١ - ١٩٨٢، أن أكرس جانباً كبيراً من وقتي للقراءة للتأنيب لحواليات الجبرتي، بصحبة
الأستاذ لياخوري بجامعة حلب. وقد وفر لي جان - لوي باكي - جرامون، مدير المعهد
الفرنسي للدراسات الأناضولية بآسطنبول، كل تسهيلات العمل بمعهد خلال إقامتي
المتعاقبة في تلك المدينة. وهكذا تسنى لي الاطلاع على الحقائق التاريخية العثمانية بشكل
أفضل. أما السيدة فوزييه، مديرة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، فقد تكرمت
بإستقبالي في معهدنا خلال زيارتي للتحفة لمصر وأهدت اهتماماً خاصاً بدراساتي حول
الجنرال كليبر. وكان عونها ضرورياً بالنسبة لنهر الأوراق الشخصية لهذه الشخصية
الكبيرة. وأما الأب مارتان بكلية العائلة للقصة بالقاهرة فقد أتاح لي كل الحرية للاستفادة
من المكتبة الضخمة التي يتولى إدارتها والنقاش معه بعد - دائماً - إثراء - لمعارف المستمع
إليه. وقد استقبلني أندريه ريمون وجيلبير ديلانو موجهين في مناسبات عديدة وساعدا
عليّ إثراء معارفي بعلمهما الغزير بأحوال مصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.
وفتح لي جان تولار أبواب معهد نابوليون بينما فتح لي ميهيل فوفيل أبواب مكتبة كليبر -
سوريو.

وخلال كل هذه الأعوام، حظيت بمعاملة كريمة فائقة من جانب جميع أفراد قسم
التاريخ بالجيش القوي بقلعة فانسان. إن مناخ العمل للمقاز بهذا القسم إنما يدين لهم
كثيراً.

وقد أعاد جاك لورنس والعبيدة مها باكليتي لورنس ونيكولا فالتان عن طيب خاطر
قراءة مخطوط هذا العمل وقدموا عونهم.

تجملات

بالرغم من مؤلفات مؤرخين كبار، كمؤلفات جورج لوفاتر وباك جونسون، فإن فترة الثورة الفرنسية التي تبدأ مع (حكومة) الإطيرة تظل بوجه علم موضع إهمال وإزدراء. وبالمناسبة لعدد من بيننا أيضاً، فإن الثورة تنتهى مع سقوط روبسبير، وما يحدث، بين عامي ١٧٩٤ و ١٧٩٩، ليس غير احتضار طويل للنظام الجمهوري، والمحنة النابوليونية الوليدة هي وحدها التي تُعدّ جذيرة بالاهتمام والتحول جميع الأبحار نحو رجل، نحو الفاتح. أمّا للمناقشات الأيديولوجية والسياسية التي شارك فيها بنشاط فهي لا تُدرس إلا من زاوية سيرته.

وهكذا فإن حملة مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) وحروب الائتلاف الثاني قد شكلت تلاحق وقصات غريباً وبلا طائل. وخلال السنة الأولى، يجتنب وجود بوناپارت في مصر الانتباه، ثم يعود تعزيز الوضع الفرنسي في أوروبا، بلطمل عمل القنصل الأول، إلى أعمال المقامرة المصرية التي تستمر سنتين.

على أن الحملة، حتى خلال نيرانها، قد حركت مشاعر أوروبا. وقد تسببت صحافة العصر في نقل أخبارها للباشرة. وتظهر تمثيل كامل لأحداثها. وفي السنوات التالية، تُدم عمل فيثان بيزون، ثم اوصف مصراً تعميقاً لصورها إلى درجة خلق جمالية متمصرة ومتمشقة، نجدها ماثلة في جميع فنون مستهل القرن التاسع عشر. وقد دام هذا الائتقان إلى أيامنا. ومنذ عام ١٨١٥، وعلى مدار الأهمام، تظهر مذكرات أو دراسات عن الحملة. والواقع أن صورة الفاتح - المؤلف على لائحة أهرامات مصرية - إنما ترمز بشكل بليغ إلى هذا اللقاء بين مجاثب مصرية سرمدية والقدر الفريد لبطل.

فما الذي يمكن إنك لكتاب جديد أن يقدمه إلى مثل هذه الأدبيات التي لا أول لها ولا آخر؟ سؤال لا مفر من طرحه على النفس. لكننا إذا ما درسنا الأمور عن قرب، نصوف نرصد وجود ثغرات مهمة، إن الأسطورة النابوليونية والأسطورة السوءاء التي ترافقها قد

جعلنا من أحداث معينة موضوعات للجدل. والفترة التي تلتو وحيل بوناپارت تظل مهمة، خاصة فترة قيادة كليبر. والأثر المقيم للحملة في العمل العلمي بحاجة إلى تقييمه بدقة؛ وتاريخ الشرق الإسلامي ما يزال بحاجة إلى دراسة.

إن الكتابة التاريخية الليبرالية في الشطر الثاني للقرن التاسع عشر، في أوروبا كما في الشرق، قد جعلت من حملة مصر نقطة بداية للحداثة في الشرق العربي. فهي تذهب إلى أن عالمًا مقللاً وراكناً قد شهد - عبر العنف - انفتاحاً عسرياً على العالم الحديث أدى إلى نهوض ثقافي ورومي ما يزال ناثيره محسوساً في أيامنا. ونجد صورة غير مغايرة جدياً لهذه الفكرة عند الإسلاميين المعاصرين؛ فهم يذهبون إلى أن تجانس وانسجام الحضارة الإسلامية للمصرية وشرق الأوسطية قد تمرقاً بشكل لا يمكن علاجه من جراء العدوان الثقافى الذى رافق هذه الحملة العسكرية وتلاها - وهي صورة باطلة - في نظر عدد من المؤرخين الأنجلو - ساكسونيين، الذين أعلنوا منذ وقت مبكر أن هذه المسألة لم تك غير حدث بلا أثر مقيم في تاريخ مصر العام في أواخر القرن الثامن عشر.

وبالنسبة للمشجعين على الحملة، كان الشرق يبدو على حافة التمرد، وكان العالم العثماني يبدو مدفوعاً بالحركة، وعلى وشك أن يشهد «أحداثاً جساماً». وهذا التصور له مبرراته، هناك في ذلك شأن واقع التطورات السياسية والاجتماعية في الولايات العربية للإمبراطورية العثمانية.

لقد كان الثوار الفرنسيون ينتمون إلى عالم التنوير، ولم يك يوسع تناول اقتصادى للمشكلات أن يكليهم. ومن المؤكد أن فكرة الاستيلاء على مصانع المواد الأولية والاستحواذ على أسواق جديدة لمنتجات المتروبول للمصنعة لم تك غريبة عليهم. لكنهم - تمسحياً مع ما قاموا به في أوروبا - كانوا يفكرون من زاوية إسفال تحويل شامل على المجتمعات الإسلامية. وقد أكنوا على ذلك باستمرار وحاولوا تحقيقه.

وبعبارة من المغامرة الشخصية لبوناپارت وعن ملحمة جيش الشرق الفرنسى الأول، فمن المؤكد أن حملة مصر هي مواجهة بين ثورة فرنسية على طريق التوسع العسكرى وإسلام، عزيز بتراثه التقليد، لكنه في معمان تهند اجتماعى واقتصادى.

للمانا تنتهى الثورة الفرنسية بحملة استعمارية ؟ وما هو واقع المجتمعات العربية شرق الأوسطية في أواخر القرن الثامن عشر؟ وما الذى كانت عليه العلاقات بين الفرنسيين والمصريين خلال تلك الفترة للوارة بالحركة ؟ وما هي الأهمية الفعلية التي

مثلاً هذا الحدث بالنسبة للشرق الأوسط ؟ إن دراسة الهياكل والأحداث هي وحدها التي تسمح بتقديم إجابات على هذه التساؤلات. وهذا يفسر اختيارنا، هنا، المنظور كرونولوجي (متتبع لتسلسل الأحداث) صارم.

ومن نواحٍ عديدة تبدو تلك المصادر الثلاث بمثابة نبوءة بالمعقود التالية. وتكشف كل لحظة من أصلاتها وتستحق دراستها في ذاتها. وهذا هو السبب في أننا، مجازين بالاتجاه إلى استشهادات طريقة، قد تركنا الكلام قسراً الإمكان للأدبي الأنوار أنفسهم. إن كلامهم - الذي غالباً ما يجري إبرائه من جديد بالعسنتهم - إنما يحمل قوة وشحنة لزمنة البدايات.

وسعيًا إلى الإبقاء على نكهته، فقد حافظنا في غالبية الحالات على تهجئة للكلمات الشرقية قريبة من التهجئة المستخدمة في أواخر القرن الثامن عشر. لكن الأمر قد استلزم - حرصاً على التماسك - توحيدها، بما في ذلك في غالبية الاستشهادات. ونأمل أن المستعربين سوف يستعيدون - نون صعبة - الصيغ العربية الأصلية. ومن جهة أخرى، فقد اخترنا تهجئة علمية مبسطة، مستخدمين الأحرف الإيطالية (المنظرة)، للمصطلحات المتصلة بمؤسسات ووظائف المجتمع شرق الأوسط سعيًا إلى إبراز أصلاتها للراصة في وجه محاولات اللغائين.

الفصل الأول

الحملة

جيولوجيا القارة للغالب القطري

شهد الشطر الثاني للقرن الثامن عشر تحولاً ملحوظاً للجغرافيا السياسية العالمية، التي كانت شبه مستقرة منذ الكشوف الكبرى، فبلغت واحدة، توحد أمريكا أبوابها في وجه التوسع الأوروبي، فحرب السنوات السبع تؤدي إلى طرد الفرنسيين من أمريكا الشمالية (١٧٦٣)، وحرب استقلال الولايات المتحدة تختزل حصّة إنجلترا التي تضطر إلى التسليم باستقلال ثلاثي متزايد الأهمية لممتلكاتها الأخيرة، وجزر الأنتيل يبدو أنها تضطر - في مستقبل قريب - إلى الاعتماد على الولايات المتحدة، وكل الاعتبارات تصيح بتصور أن أمريكا اللاتينية - التي تملكها القوتان الأيبيريّتان (أسبانيا والبرتغال) - سوف تتبع تطوراً مماثلاً لتطور أمريكا الشمالية، وينتهي الفصل الأوروبي في تاريخ القارتين الأمريكيتين وبانتهائه تنتهي أول إمبراطورية استعمارية أقامتها القوى البحرية الأوروبية الغربية، ومع إسراء تحرر القارتين الأمريكيتين، يحل مصطلح «الغرب» محل مصطلح «أوروبا» للإشارة إلى المجال الجغرافي للثقافة الأوروبية.^(١)

لم يكن العالم القديم قد تعرض بالكاد لتغير يذكر منذ القرن السادس عشر، ففي أثر التوسع الأوروبي في هذه الأرجاء يشهد القرن التالي انكفاءً، فالصين واليابان توصلان أبوابهما، والإمبراطورية العثمانية وفارس لا تسمحان إلا بعلاقات تجارية وديبلوماسية، والانفراس الإقليمي الأوروبي الحقيقي لا يوجد إلا في أرخبيلات المحيطين الهندي والهادئ وفي بعض القاليم الأرياف.

إلا أن هناك استثناءً ملحوظاً، الهند، إن انهيار القوة المغولية يسمح ب بروز توازن محلي بين القوى التي تستخدم في نهاية الأمر مرتزقة أوروبيين لتدريب جيوشها، ومنذ

لذلك الحين، في القرن الثامن عشر، يقف الفرنسيون والإنجليز وجهاً لوجه بالفعل في لعبة كبرى، فاصرة على شبه القارة (الهندية - المترجم) هدفها السيطرة على تجارتها. وقد كسبتها إنجلترا خلال حرب السنوات السبع، فأصبحت بذلك قوة إقليمية، تشارك بلا مواربة في لعبة التوازن المحلي المعقدة، حيث يؤدي نظام سياسي جديد مزيج إلى الحفاظ في آسيا على توازن أوروبي هش، لفرنسا يمكنها العودة بشكل هجومي إلى هذه الأقاليم بحشدها حولها جميع القوى المحلية للناوچ لإنجلترا؛ وروسيا كاترين الثانية تبدأ في التفكير في تغلغل صوب المحيط الهندي، مروراً بأفغانستان، الطريق التقليدي للقنوات البحرية التي تستهدف شبه القارة الهندية.

إن الهند غولية وإنجلترا نموذج. أمّا فارس فهي غير متاحة إلا لروسيا. ومنذ عصر بطرس الأكبر، كانت روسيا قد بدأت تعدياتها، مستفيدة من انهيار الإمبراطورية الصفوية. لكن البلد ليس ضعيفاً بالدرجة التي يبدو عليها. والمغامرة قريبة العهد التي قام بها نادرشاه، الذي سارت جيوشه في بغداد إلى نهر في ثلاثينيات وأربعينيات القرن، ما تزال حية في الأذهان للتذكير بذلك. ومع صعود سلالة القاجاريين الحاكمة، يبدو أن البلد يستقر بعد أكثر من نصف قرن من الاضطرابات التي أثارت مشاعر أوروبا.

الإمبراطورية العثمانية

والإمبراطورية العثمانية أقرب (إلى أوروبا - المترجم)، وهي تجمع تحت سلطتها كل غرب الإسلام باستثناء المغرب الأقصى وتوسع نفوذها، في القرن السابع عشر أيضاً، على حساب أوروبا المسيحية. وهذه الدولة العظمى تُعدّ - منذ القرن السادس عشر - منمنجة في النظام السياسي الأوروبي، وتُوجد في عاصمتها بشكل دائم سفارات أوروبية. ومن حين لآخر، تولد الحكومة العثمانية رسلاً مفاوضات إلى كبرى بلدان أوروبا. ويوجد تحالف تقليدي مع فرنسا.

لكن هذه الإمبراطورية تبتدي علامات اضمحلال، والظاهرة معقدة، لعملية انهيار المركزية السياسية، والتي بدأت منذ أواخر القرن السادس عشر، تشهد عندئذ لوجهاً. وتحت قيادة سلطوية من جانب الباشاوات الولاء على الولايات، تتشكل لشباه دول في الأقاليم الرئيسية للإمبراطورية والسلطة المركزية - الباب العالي - تجد صعوبة كبيرة في كسب

الانضباع لها، لكن لجميع يظلون داخل النظام العثماني. وإذا كان بوسع حروب أن تنود بين الولاة، فإنه لا توجد في الواقع حدود غير الحدود الإدارية، وجميع هؤلاء الموظفين الإمبراطوريين الكبار شركاء في اللعبة السياسية. والباب العالي، العاجز عن اختزال درجات هذا الاستقلال، بالشكل الذي يتناه، إنما يلعب على هذه التناقضات ويدير بمفرده ما يمكن تسميته بالتوازن العثماني.

ويتمشى مع هذا الانهيار للمركزية ضعف للانضباط الداخلي. ومن جراء التعرض لضغوط قوية، تجعل من الوحدات العسكرية تعبيراً عن المجتمع المدني الإسلامي، لا تتمتع السلطة للمركزية بعد بأداة عسكرية متماسكة ومنضبطة بدرجة تماسك وانضباط الأداة العسكرية التي عرفها زمن العصور العثمانية الأولى. وبهتما يبلغ التحكم في سلوك الرجال، في أوروبا، أدوته في الانضباط البروسي، فإن الجيش العثماني يبدو مفككاً بشكل مطرد.

والشيء الأهم هو أن الإمبراطورية لا تعرف - في القرن الثامن عشر - نمو سكاني مساوياً لنمو سكان أوروبا، التي تتحرر من الأسباب الرثيصة للارتفاع الكبير لنسبة الوفيات، فتدشن بذلك ثورتها الديموغرافية. ففي المجال العثماني الضامع، تتكرر لوهنة الطاعون بصورة منتظمة ويصبح الغاء متوطناً هناك، وثقل البدولة وانعدام الأمن - للذين يؤكد البدو والتركمانيون هيمنتهم - يحلان من المجال الزراعي. وتزايد الضرائب ونظام جباية غير ملائم - بالرغم من التدابير التي اتخذتها السلطة المركزية لإصلاحه - لا يحفزان الفلاحين على زيادة إنتاجهم، على الرغم من ظهور تدويع للمحاصيل، بسبب طلبات الأسواق الأوروبية للتزاييد. وعلى المستوى الديموغرافي، تظل الإمبراطورية العثمانية في مرحلة تاريخ ركدة، مرحلة تهاين لعدد السكان بين قواعد متغيرة وسقف لن يتسنى تجاوزه إلا في القرن التاسع عشر مع إعادة فرض سلطة مركزية قوية. وعلى مدار زمن جد طويل (من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر) يمكننا رصد ارتفاع لعدد السكان في الولايات الآسيوية على الأقل، لكن هذا الارتفاع لا يتناسب لبة مع الأرقام الأوروبية.

وهكذا فإن وزن الإمبراطورية من الناحية الديموغرافية يصبح أقل فأقل قياساً إلى جاراتها الطموحتين اللتين - تحت قيادة مستبدين مستبدين - تعززان قوة الدولة مع تعبيرها العسكري وتُشرفان بذلك - عبر الانضباط - على الدمو للمحوظ لعدد السكان. وفي الشطر الثاني للقرن، يختل التوازن بين الإمبراطورية العثمانية، من جهة، والنمسا

وروسيا، من جهة أخرى، لاختلالا حاسما. وتوضح ذلك حرب ١٧٦٨ - ١٧٧٤، حيث تهب الإمبراطورية العثمانية، استجابة لنداء من فرنسا، إلى مساعدة بولندا ضد روسيا كاترين الثانية؛ وتُمنّى الإمبراطورية بهزائم مريرة بحيث أن مستقبلها يصبح محل شك. وحرب ١٧٨٧-١٧٩٢، حيث تندغم النمسا إلى روسيا، متصورة أن يوسعها للمشاركة بذلك في الانقسام للبalkan مطابق لاقتسام بولندا، أما فرنسا للفرقة في قلاقل ما قبل الثورة، ثم في الثورة نفسها، فهي لا تهتم باللعبة، ويخاطر العثمانيون للحاصرون إلى مثلثة بروسيا وإنجلترا، القابضتين الجديدتين إلى الساحة. ويؤدي التوتر للتزايد الذي قررت الثورة والتقسيم الثاني لبولندا إلى إنقاذ الإمبراطورية العثمانية - مؤقتا في نظر المعاصرين - من الفناء الذي توقعه المراقبون الأنكباء.

فرنسا والشرق

بينما تبدأ الثورة، يرى الحس المشترك الأوروبي أن «المسألة الشرقية»، أي مستقبل الأراضي العثمانية، هي المسألة الجوهرية التي سوف تهيمن على لواخر القرن. وما جرى في فرنسا يبدو لكثيرين بمثابة حادث عابر لن يدوم طويلا، فسوف يحدث استقرار مؤقت للثورة ثم ترجع بالضرورة إلى الاهتمام بالشرق. (٢)

إن فرنسا النظام القديم هي الشريك الأكبر للإمبراطورية العثمانية، والشبكة التجارية الرائعة في ثغور شرقي البحر المتوسط، والتي ثقامتها بأناة غرفة مارسيليا التجارية ولعانة الدولة للبحرية منذ زمن كولبير، إنما تجعل من فرنسا الدولة الأوروبية الأفضل انغراسا في العالم العثماني. ويعمل كابر مؤلف من القناصل والتراجعة (الترجمين العلميين باللغات الشرقية) على مساعدة التجار الفرنسيين ويطلع الملكية (الفرنسية - المترجم) بشكل دقيق على شتى المجريات المهمة في تلك المنطقة من العالم، ويؤدي مجمل إلزامي من الأحكام التنظيمية، تم إضطام للبر من المرونة عليه في لواخر القرن - تحت تأثير الاقتصاديين - إلى احتواء كافة نشاطات للثغور، والحال أن تجارة شرقي البحر المتوسط، المراقبة بحراسة من جهة أخرى في فرنسا، إنما تشهد مَرَكَزَةً حقيقية لها حول مارسيليا، دون تأطيرها بشركة قانونية. وهذا الانسجام للراسخ في الدراية والخبرة يسمح بانتهاج سياسة متمسكة ومتمشية مع الحقائق الواقعية. (٣)

لكن ذلك ليس ممكناً تماماً إلا إذا ما واصلت الإمبراطورية الوجود، ومن هنا أهمية الجدل الذى يب بين القيايلات السياسية الفرنسية منذ لواخر عهد لويس الخامس عشر، ما هو الموقف الذى يجب اتخاذه إذا ما تفككت الإمبراطورية العثمانية وانحلت؟

لم تك هذه المناقشة تنتمى إلى عالم التجار المارسييليين. فالنظرة السياسية إلى لدى القعيد لم تكن تهمهم وهم لا يمارسون ضغطاً على حكومتهم. والأشخاص المعنيون هم فى أن واحد يعيدون عن الغرفة التجارية للمارسييلية وإلى جانبها. (٤)

فإلى جانبها، نجد ترجمة مستشرقين، مثل فينتور نو پارلى، وقناصل، مثل ماجالون، وضباطاً ومستشارين عسكريين للباب العلى فى ظل الملكية، كالبارون نو توت، وفى ظل الثورة، مثل لازوفسكى. وهؤلاء كلهم موظفون يحتلون مناصب مرموقة، وتدخلاتهم، على شكل خطط فتوحات، لا تستمد شرعيتها إلا من الكفاءة التقنية لأصحابها. وهى أراء خبراء لا أكثر ولا أقل. ويعيد عنها (عن الغرفة التجارية المارسييلية - المترجم)، نجد المستوى الأعلى للدولة، مديرى الإدارة المركزية، كسان - بيدييه، ومفراء فرنسا لدى القسطنطينية، كسان - برييه أو شواسول - جوليهيه. وشخصيات بارزة، كلافاهيت، ووزراء، كسارتيين أو قاهيران فى ظل (حكومة - المترجم) الإدارة، بل و وزيراً أول، كشواسول. (٥)

وأولئك الذين يمكن وصفهم بنماة التدخل يرون أن شبكة النفوذ محكوم عليها بالدمار من جراء وجود الإمبراطورية العثمانية ذلك. فإذا ما استولت روسيا والنمسا على الجزء الأكبر من المجال العثماني، فإن سياستهما التجارية سوف تؤدي إلى طرد الفرنسيين من هناك لا محالة. والصداقة العثمانية التقليدية لم يعد لها مبرر مع ضعف النظام القديم لتحالف نكبات، فالسويد لم تعد قوة عظمى؛ وبولندا بسبيلها إلى الزوال؛ والنمسا - منذ قلب تحالفات حرب السنوات السبع - تصبح الشريك المعتمد لفرنسا. ومن ثم، فإن هذه الأخيرة لا يمكنها بعد دعم إمبراطورية عثمانية مصيرها زوال سريع. على العكس، إن إنشاء إمبراطورية استعمارية فرنسية فى شرقى البحر المتوسط سوف يسمح بتعويض الخسارة المعتمة لجزر الصكر، وذلك بفضل استثمار هائلانى لإمكانات ضخمة غير مستغلة بسبب الاستبعاد الشرقى. ومن شأنه أن يوفر لفرنسا السيطرة على تجارة ترانزيت، من شأنها أن تصبح إحدى أهم تجارات الترانزيت فى العالم إذا ما توصلت إلى إعادة فتح طرق تجارية كطريق السويس، قليل الاستغلال منذ الدوران حول إفريقيا. وهناك

حجة إضافية تتمثل في أن النمسا وروسيا تعرضان تعويضاً لتوسعهما بمنح فرنسا حصة كبيرة من الأراضي الآسيوية والأفريقية للإمبراطورية العثمانية تُعدُّ مصر مركزها، ونادراً ما يُشار إلى إنجلترا في مشاريع الفتح الاستعماري هذه، وهي لا تظهر إلا في ثمانينيات القرن الثامن عشر حيث تعزى إليها أطماع في مصر وهذا التأكيد هو بوجه خاص وسيلة لانتزاع القرار النهائي من الهيئات الحاكمة.

والواقع الأساسي هو أن دعاة التدخل لا يفكرون من زاوية للمجريات الواقعية المباشرة كالأوساط الاقتصادية للمراسلية، بل وفق تحليلات جيوبوليتيكية وتوقعات بعيدة الأجل. ومثل هذا التصور للمشكلات إنما ينتمي إلى مجال جهاز الدولة لا إلى مجال تجار يفكرون على المدى القصير.

وبالرغم من تصوراتهم للذهلة للمستقبل ومواقفهم الراسخة في الإدارة، فإن دعاة التدخل يفشلون في محاولاتهم الرامية إلى تعديل سياسة الملكية الأتلة. فحرب أمريكا التي تعبر جميع الإمكانيات المتاحة وتحرك ائتلافاً قارياً ضد إنجلترا التي لا تتمتع (وهو واقع نريد في التاريخ الحديث) بتحالف تكهات ضد فرنسا، إنما تعنى بالتحديد عدم تدخل في مجال جد حساس (كالمجال العثماني - للترجم) بالنسبة لروسيا والنمسا. ثم إن الأزمة المالية التي سجلت بها نفقات هذه الحرب نفسها سرعان ما تتحول إلى أزمة سياسية وتلغى في التو والحال كل مشروع مكلف لمغامرة شرقية.

وثمة رجل يحمي السياسة المضادة، هو فيرجان. فالصلم الأوروبي يبدو بالنسبة له قائماً على توازن قارى يحد من دور إنجلترا ويشكل عقبة أمام توسع روسيا الإقليمي. وهو يشارك بنشاط في النهضة السياسية للسويد في ظل جوستاف الثالث، الذي يجنب هذا البلد مصيراً مماثلاً لمصير بولندا. وهو يحسب التحالف النمساوي بمرص حتى لا يزعج المصالح الأساسية لفرنسا. كما أنه يرى أن الإمبراطورية العثمانية، التي يعرفها معرفة جيدة لأنه كان سفيراً لوقت طويل لدى القسطنطينية، بعيدة عن أن يكون محكوماً عليها بالزوال، يمكنها على العكس من ذلك تهديد نفسها وتحديث نفسها. وهو يرى أن دور فرنسا هو أن تكون مهتمس هذا المشروع، الضروري للتوازن الأوروبي، والمفيد للجميع. إن فرنسا سوف تكسب من ذلك، علاوة على صون صلاتها في الإمبراطورية، الفائدة الأدبية والسياسية للتمثلة في كونها ملهمة أفكار التنوير التي يجري إنخالها إلى العالم الإسلامي. وشأنه في ذلك شأن خصومه، لم يكن يوسع فيرجان أن يتصور إمبراطورية عثمانية

غمارة في ركودها الواضح. فمثل هذا الوضع إنما يعنى بنوا أجلها. وتتصل معارضة فيرجان لدعاة التدخل بطابع التحولات التي لا يمكن للشرق الإفلات منها، فهو نتيجة فرعية حتمية للحول. الغرب الذي حاز، عشية الثورة الصناعية، الأسس العلمية والتكنولوجية والتربوية والثقافية الضرورية لتأكيد سيطرته على الطبيعة وعلى العالم. وبالنسبة لآخر وزير عظيم للملكية، فإن هذه التحولات لابد لها من أن تجيء من الداخل لا أن تفرض عن طريق سيطرة استعمارية. ومع بقاءه ضمن استمرارية سياسة شرقية قرامها للصداقة مع الإمبراطورية العثمانية وترجع إلى القرن السادس عشر، فإنه يوسع حدودها بإرساء أسس تعاون ثقافي وعلمي في إطار تجديدهات الشرق. إنه ليس بالمحافظ الذي يصله خصومه، بل هو حامل توقع سياسي للمستقبل أغنى من توقع دعاة التدخل. وموته لا يدم الساحة مفتوحة أمامهم، فعند تلك الحين تؤدي مقدمات الثورة إلى إصابة للدولة الملكية بالشلل. (٦)

مفهوم جديده، الحضارة

إن المسألة تنتقل من المجال السياسي البسيط لتمس أسس التحليل الاجتماعي والثقافي عيها. فلعلمنة الفكر لم تعد تسمح بوضع المسيحية في مواجهة الإسلام. ولما كانت السيطرة الاستعمارية ذات أهداف لتصلبية خالصة، شأنها في ذلك شأن السياسة التي ينتهجها الانجليز في الهند، فإنها تعتشر انتقابات مهمة في عصر جد «أخلاقي»، كالأخر القرن الثامن عشر. وكان نقد الاستعمار الذي صاغه أنصار التنوير قد نصف التبريرات الدينية المقدمة خلال تأسيس أول إمبراطورية استعمارية أوروبية. ولتبرير سيطرة جديدة، لابد من أيديولوجية جديدة، ترتبط ارتباطاً عضوياً بأيديولوجية التنوير الأعم.

ونقطة الانطلاق هي إدراك أوروبا لتفوقها للمادى على مجمل البيئات الثقافية الأخرى. وهذا الحدث يرجع بشكل تقريبي إلى عام ١٧٥٠. فعند ذلك الحين، تظهر فكرة تأخر شرقي بشكل، بالإحالة إلى ماضي أوروبا، العلم الذي لا غنى عنه لقياس التقدم الأوروبي. وإذا كان للشروع الاستعماري ممكناً، فإن ذلك لا يرجع إلى اضطلال شرقي ظاهر، يمكن التشكيك فيه في الواقع، بل يرجع بالأحرى إلى أن أوروبا تملك إمكانات جديدة أرقى - بما لا يقلس - من إمكاناتها السابقة.

وهذا التفرق يفسره الغربيون من زاوية العقل، وهو عقل له تاريخ بل هو التاريخ

نفسه، فهو قد ولد في مصر، وانتقل عبر الإغريق والرومان، ثم عبر العرب ووجد أخيراً مستقره النهائي في أوروبا، وهذه الأسطورة / التاريخ حديثة النشأة، حتى وإن كانت تستند إلى عناصر قديمة، وهي تقوم إلى التأكيد على أن كل ثقافة، لا تنتمي إلى مسيرة العقل في المكان كما في الزمان، إنما تُعدُّ بلا أهمية ومن ثم بلا شرعية، وهي تدار من جانب خصم العقل هيته، الاستبداد. وهذا الأخير، الذي لم يك شرقياً إلا من باب الاصطلاح لدى المنظرين الأوائل، يتمشّق في التحليلات السياسية عندما يتصل الأمر بتفسير وفهم تأخر الشرق. فالصينيون والفرس، نماذج الحكمة اللغناء، والعثمانيون، موضع الرهبة والإعجاب في الماضي، لعبوا بعد غير ضحايا تعساء خاضعين لنير لا يرحم يفرسه استبداد عدو للازدهار العام مثلما هو عدو لهناء الأفراد.

إن فهم تأخر الشرق إنما يعنى العثور من جديد على تقدم أوروبا، وظهور مفهوم الغرب إنما يولد من هذه المقابلة مع الشرق. والحنس الرئيسى للعلوم الإنسانية لزمن التنوير هو الاتصاد الذي لا ينفصل للمادى والمعنوى في إطار التحليل الانتقائى. وكل مؤسسة، كل ممارسة، كل سلوك لابد من فحصه بدقة عبر هذا التحليل للزوج المعيار. وهو واثق علاوة على ذلك من أن درجة الازدهار (العام) وهناء (الأفراد) واحدة دائماً.

ومثل هذا التصور للعالم يسمح بتجاوز التناقض الذى طرحه روسو بين الطبيعة والمجتمع. فمع حالة الطبيعة، نقطة انطلاق لتاريخ الإنسانى، تتطابق حالة طبيعة فى المجتمع، تنويج التاريخ ذاته، المتميز بالصى درجة ممكنة من الازدهار والهناء. وحركة التاريخ هذه اسمها الحضارة، التى لا تعتبر شيئاً آخر غير عملية تدجين العنف ومن ثم تدجين مشاعر الأفراد، وما التقدم التقنى غير أحد أشكال هذه العملية، فمجمال الخبرة الإنسانية إنما يقاس وفق معيار الحضارة.

وهذا المفهوم الدينامى للتاريخ لا يجد تعريفاً محدداً له بالفعل إلا فى زمن الثورة. وإذا كانت كلمة «الحضارة» نفسها تظهر فى منتصف القرن، فإنها لا تكتسب كامل مغزائها إلا فى تسعينيات القرن الثامن عشر، فى أواسط الأيديولوجيين، الجيل الأخير من مفكرى التنوير، والمشاركين النشطين فى الثورة. إنهم يسعون إلى تغيير العقلم وفق الواعد عقلانية وقد لعبوا دوراً عظيماً فى مستهل الثورة، وكانوا ضحايا للإرهاب (اليعقوبى - المترجم)، لكنهم، بعد سقوط روبسبير، يصبحون من جديد مؤثرين فى الأوساط الحاكمة.

والحال أن المفهوم الجديد إنما يتضمن، بنزوحه إلى إصانة تعريف للممارسات الإنسانية تعريفًا عقلانيًا، مجمل الطموح الهيروميثوسى للثوار الفرنسيين. والحضارة، حركة التاريخ، تسمح أيضًا بتأسيس مفهوم مراتبى للماضى بين العصور والبلدان المتتجة لو العقيمة. وهى إذ تستعيد مراحل لسطورة - تاريخ العقل، إنما تسمح باستخلاص لحظاتها الأساسية.

والحضارة شرقية فى نشأتها. فهى تولد فى مصر حيث تتجلى على شكل الحكمة. وهى تنتقل بعد ذلك إلى اليونان وإلى روما حيث تصبح قبل كل شيء نزعة مواطنة. ويستأنف العرب حمل الراية فيبرزون الحضارة على شكل علوم. وهى تصل أخيرًا إلى أوروبا وتوث على ملر الزمن كالة خصائصها، لولا العلم، وهو جزء من التراث العربى، ثم، مع الثورة، نزعة للمواطنة. والتاريخ الذى للثورة حافل بالصورة الرومانية واليونانية والمصرية، ويجهز زمن الحكمة مع إنجاز البرنامج الثورى لإعانة تعريف التجربة الإنسانية تعريفًا كاملاً. وهكذا فإن عقلانية التنوير والأيدولوجيين للعلة تعاد استعادة التصورات الفغوصية والباطنية القديمة وتعبير للماسونية عن ذلك تعبيرًا جيدًا فى إعلانها الدائم لانتسابها إلى مصادر مصرية وشرقية. وهى تنشر بشكل واضح إلى هذا الحد لو ذلك هذه الأفكار وهذه الأساطير، التى تتغلغل من ثم فى الألمان، وبشكل مشوش، يشعر الجميع أن الشرق لا يمكن إلا أن يكون الأصل. (٧)

وتسمح الحضارة بالحكم على حالة العالم مشبة الثورة. فأوروبا هى الأكثر تقدمًا فى طريق الحضارة وهى بوجه خاص تتحرك. أما الشرق فإنه يظل فى الخلف بسبب حاجز الحركة الذى لا يحتمل والذى يتمثل فى الاستبداد. ولما للتوحشون فإنهم ليسوا إلا فى بداية العملية. وبشكل مشروع، يمكن للمرء أن يتصور أن الشعوب التى كانت، قديمًا، حاملة للحضارة، الشعوب المصرية والإفريقية - الرومانية والعرب، تعد مؤهلة للمشاركة فى التجربة الجديدة للحضارة، والتى لن تكون بالنسبة لها غير استعادة لطبيعتها الحقيقية. وما يدعو للمشقة أن البرنامج الثورى ينزع إلى أن يكون عودة إلى الأصول (هذا هو أحد معانى الكلاسيكية الجديدة للميزة للعصر الثورى). بل إن الأتراك الذين يمارسون الاضطهاد سوف يحرمون من اضطهادهم الخاص. ومن الواضح تعلمًا أن مثل هذا المشروع إنما يفترض تدمير هذا الوحش المتمثل فى الاستبداد الشرقى. وهذا التدمير، الذى ترجوه كالة شعوب الشرق، لا يمكن أن يجهز إلا من الخارج.

وهبر الثورة، تجد فرنسا نفسها على رأس الحضارة. والثوار يعلنون طابعها العائلي. نمثل هذا البرنامج لا يمكن أن يكون قاصراً على أوروبا وحدها. وما أن يتم صد الأعداء للبشرين، سوف تمتد الثورة إلى مجمل الجنس البشري.

بونابارت والثورة والشوق

إخفاق الجمهورية

يؤدي فتح بونابارت لإيطاليا وانتهاء الحرب مع النمسا (١٧٩٧) إلى إطلاق أيدي المسؤولين الفرنسيين أخيراً. وهكذا يمكن أن يبدأ عهد جديد. والحال أن تحرير الشرق، ونشر الحضارة، والتوسع الاقتصادي والسياسي لـ «الأمة الكبرى» والمتمتع تماماً لهذا المشروع، قد وجدت، في بونابارت الشاب، الرجل العظيم ذا الأبعاد المتناسبة مع أبعاد مثل هذا البرنامج. لكن الثورة، حتى في اللحظة التي تبلغ فيها أيضاً أكبر توسع إقليمي لها، يظل بالإمكان تصور، كما تصور ذلك بعض معاصريها، أنها قد انتهت بالفعل.

والواقع أنه إذا كان يبدو أن على الثورة أن تمتد إلى مجمل العالم، فإنها قد أخفقت في عملها الداخلي. وكان الإرهاب قد أشار بالفعل إلى الانزلاق في مشروع تأسيس حكومة نهائية، لكن التاسع من ثيرميدور (شهر الحرية بحسب التقويم الثوري، ويوافق هذا اليوم التاسع ٢٧ يوليو ١٧٩٤، تاريخ الانقلاب للعادي للجمهورية - المترجم) قد سمح بالتفكير في إمكانية إقامة جمهورية معتدلة تحترم شرعيتها الخاصة. والواقع أن الجمهوريين كانوا أقلية في عالم الوجهاء الذين أمطروهم للسلطة مع دستور العام الثالث (الثورة - المترجم). وإذا يسمى الثيرميدوريون إلى تخليد وجوبهم في مناصب المسؤولية، وهي مسألة وجود شخصي بالنسبة لهم، فإنهم يصطلمون بالغالبية المنهكة من التجديدات السنوية للمجالس النهائية. وهذه الغالبية، والتي لا تعتبر بالضرورة ملكية بل ليبرالية، إنما تهدد غلبة الكادر السياسي المنبثق من إعدامات المؤتمر (القيادي اليقوي - المترجم). فهي، برعونة، تحارب الثيرميدوريين حول المسألة الجوهرية المتعلقة بمصير الفتوحات العسكرية التي شهدتها السنوات السابقة. فالمعتدلون، المتحرقون إلى السلم، مستعدون للتنازل عن الجزء الأكبر من الفتوحات، وقد أتركوا أن أوروبا لا يمكنها قبول هزيمة فرنسية ساحقة وأن الوصول إلى الاستقرار الداخلي إنما يمر عبر التسوية الإقليمية مع الخارج، ومثل هذا

للولاق يدفع العسكريين إلى مساندة الكابو الجمهورى، ولكى يحافظ هذا الأخير على وجوده فإن عليه قبول مواصلة حرب الفتوحات والتجارب مع مطالب الهنرالات، والتواطؤ بين العسكريين والجمهوريين بالغ السهولة بقدر ما أنهم يتكلمون بلغة سياسية واحدة ويقدر ما أنهم آخر ممثلين للزخم العظيم لعامى ١٧٩٢ - ١٧٩٣. ومن ثم فإن هوش على ضللك الراين ويوناهاى فى إيطاليا سوف يحفز ان احتجاجات «جمهورية» من جانب جنودهما وسوف يعملان بوجه خاص على تزويد السلطة التنفيذية بالعسكريين الضرورىين لانقلاب ١٨ فروكتيدور من العام الخامس (الثورة - المترجم) (٤ سبتمبر ١٧٩٧) الذى يلقى الانتخابات ويلقى بالقوة على معارضة للجلس.

وحتى إذا كانت الوثائق التى تم العثور عليها بعد الانقلاب تسمح بكشف تواطؤ بعض الزعماء المحتلين مع الملكيين والدول المعادية، فإن الضرورة للوجهة إلى الجمهورية كانت قاطعة. فلم يعد هناك أحد يخامره وهم حول طابع حكومة لم تنجح قط فى أن تكون تمثيلية.

وهكذا يندرج العسكريون فى اللعبة السياسية. والحال أن مورد هوش ويوناهاى قد ورطوا حاشيتهم للباشرة. إن ديزيه ودينيه وكلبير ومينو، قادة الثورة جيش الشرق فيما بعد، هم فى أن واحد شهود على صيف ١٧٩٧ المضطرب هذا وفاعلون فيه. (٨) ومع احتفاظهم بإيمانهم بمبادئ الثورة، يتعين عليهم التصالح مع الاعتراف بإخفاق دستور العام الثالث. وسوف يكون وزن كل ذلك عظيماً فى مواقفهم تجاه يوناهاى، للنقد المحتمل.

والحال أن استئناف حكومة الإدارة لسياسة توسع إيديولوجى وإقليمى إنما يندرج ضمن منطلق خيار فروكتيدور. والحرب النابوليونية تنبع منه بشكل مباشر. وفى خريف ١٧٩٧ هذا، يقدم يوناهاى للشعار السياسى الذى يحدد هذا البرنامج، «الأمة للعظمى». وأصل هذا التعبير غنى بالإحاطات. فهو ينبع من الاسم الذى يعطيه، فى مراسلاتهم الرسمية مع الفرنسيين، مختلف القادة العثمانيين لولايات البلقان فى بحثهم عن صيغة بروتوكولية جديدة لمخاطبة هذا الواقع غير الواضح والذى تمثله الجمهورية الفرنسية. ونجد فى ذلك صدق البيانات التى وجهها الفرنسيون إلى العالم فى السنوات السابقة وعنفداً يدرك يوناهاى أهمية هذه الصيغة التى تصبح بعد معاهدة كامبو - فورميو مع النمسا (٢٦ فينديمير من العام السادس، ١٧ أكتوبر ١٧٩٧)، للتيمة الدائمة فى البيانات للحكومة. (٩)

بونابارت والشرق

إن الانتصارات الخرافية لعملة إيطاليا تبرز بونابارت في صدارة المسرح، وجيشه يحبه، والفرنسيون - للعلن في غلبتهم للحكومة الجمهورية - يرون فيه منقذاً محتملاً، ذلك الذي سوف يضع نهاية للثورة مع حفاظه على مكانتها. وهو، منافسه الرئيسي الذي قام مثله، وربما أكثر منه، بدعم حكومة الإنارة ضد أغلبية للجلوس، يموت في ١٩ سبتمبر ١٧٩٧. لكن فاتح إيطاليا يدرك أن من شأن فترة عدم نشاط عسكري، أو إخلال في محاولة إنزال في إنجلترا، التهديد بتعريض وضعه لم يتعزز بعد للخطر.

ثم إن الشرق يجلبه بشكل عفوي.

في شبابه، قرأ وسجل ملاحظات على أعمال مارييني (تاريخ العرب) والبارون دي توت (مذكرات حول الأتراك والترك). وعشية الثورة، كتب حكاية عربية قصيرة، «القناع النسي»، تحكي قصة شخصية حقيقية من شخصيات التاريخ الإسلامي تحاول الظهور - بدافع من الرغبة في نيل للمجد والقوة - في مظهر رسول للرب عبر اللجوء إلى مختلف أشكال الحيل، وينتهي بونابارت الشاب عندئذ حكايته بالتساؤل: «إلى أي مدى يمكن للمرء دفع جنون الشهرة؟» (١٠). وسوف يرى فرويد في هذا العشق للشرق وخاصة لمصر أثر «عقدة جوزيف» لدى بونابارت، إرادة الانتقام من الأخ الأكبر، للناس المكروه والذي يصبح فيما بعد أكثر من محبوب، بعد تسلط الكراهية على أشياء أخرى. إن الذهاب إلى مصر، الأرض الأثيرة ليوسف (جوزيف) للتوراة، أو الزواج من جوزيفين (يوسيف)، مؤنث جوزيف، يوسف - للترجم) لن يكونا غير تجليات لهذه العقدة الأصلية التي يستمد منها نابليون كل قوته. (١١)

والحال أن إخوته يشاركون تماماً لحلامه الشرقية. ففي عام ١٧٩٣، يعبر لوسيان عن رغبته في إيفاده إلى السفارة الفرنسية في القسطنطينية (عاصمة الإمبراطورية العثمانية، اسطنبول - للترجم). وفي السنة التالية، كان يوسف جوزيف أن يفكر في استغلال الساحات الشاسعة للإمبراطورية العثمانية، بفضل زواجه من فتاة اسمها كلاري كانت اسرتها مرتبطة بالتجارة المارسلية في شرقي البحر المتوسط. وقد لئن نابليون نفسه من ذلك مع تفكيره في عام ١٧٩٥ في الانخراط في صفوف الخبراء العسكريين المرسلين لخدمة سليم الثالث. وقد حالت أحداث ١٣ فينديمير دون أن يصبح رئيساً للبعثة العسكرية الفرنسية في القسطنطينية. (١٢)

وشأنه في ذلك شأن كثيرين من معاصريه، فإن مفهومه عن الشرق كان مزيجاً

فمن جهة، نجد نقداً صارماً للاقتصاد السياسي، بلد استبداد واضطهاد، ليس فيه أى شيء إيجابى بالفعل، حيث يتوجب إعادة بناء كل شيء عبر إدخال الحضارة. ومن جهة أخرى، فإن هذا الغياب نفسه (للحضارة - المترجم) بالتحديد هو الذى يفتنه. فالشرق، بسبب تأخره، هو المكان الذى يمكن للمرء أن يحقق فيه الأشياء عظيمة، إنه أرض الفاتحين والمشرعين للعظام. وبونابارت هو ممثل الروح البروميهيوسية للثورة. وهو يرى أن بوسع المرء تحويل كل شيء وابتكار كل شيء فى الشرق، بأكثر مما فى أوروبا. (١٢)

وفى تأملاته، يقدم الشرق للميزة للزوجة التى تتمثل فى انتظار رجل وعدم الحد من لشوائه. إن ثورات تعلن عن نفسها فى أرض الإسلام، وهى لا تستطيع بلوغ مراتبها إلا عبره. وعلى مدار حياته، وخاصة فى زمن الأسف هذا الذى يمثله أسره فى سلاط - هيلين (فى جنوب المحيط الأطلسى - المترجم)، سوف يشهد بونابارت على هذا الدور الذى كان مدعواً إلى لعبه والذى لم يتسن له تحقيقه إلا بشكل جزئى. (١٣) وهو ينظر إلى نفسه باعتباره فاتحاً لا تمثل قوة السلاح بالنسبة له غير وسيلة. فهو سوف يحول هذا العالم بقوة للكلمات أساساً، ونموذج هو محمد فولتير. والشخصية وحالة الشرق المعاصر تبدو أن له تماثلين،

انظر ماذا يكون محمد. نحن وحدنا؛ انصت:

طموح أنا، ولا مرأ أن كل إنسان طموح!

لكن أى ملك لو حَبَّرَ أو زعيم لو مواطن لم تدر بخلده قط رسالة فى عظمة رسالتى.
كل شعب تفوق بدوره على الأرض بالقوانين، بالفنون، وبالحراب خاصة. وأخيراً جاء
زمن بلاد العرب

هذا الشعب السخى، المنسى منذ زمن بعيد، سمح بظن مجده فى صحرائه؛

والآن تحين الأيام الجديدة التى تحمل علامة النصر.

انظروا من الشمال إلى الجنوب خراب العالم، ما تزال فارس تنزف الدماء وعرشها
يذهب لنراج الرياح؛

والبهاء يذهب عن أسوار السطنتين،

انظروا إمبراطورية الروم تسقط من جميع الجهات،

هذا الجسد الهائل الممزق، الذى يهوى أعضائه للهدون

مشقتين أدلاء بلا رمق،

على انقاض العالم هذه سوف تبنى بلاد العرب. لا بد من ديانة جديدة، لا بد من
نصال جديدة، لا بد من رب جديد للكون الضريع.

[٠٠٠]

اجيء بعد ألف عام، لتهديل هذه الشوائع الضالة،

احمل إلى اعم باكملها عبودية انبل؛ ازيل الأرباب الزائفين؛ وديانتى الطاهرة

أول درجات عظمتى الوليدة.

لا تتهمونى الهة باننى أفسد وطنى

فلنا أئمر ضعفه وورثيته.

لجىء لتوحيدى فى ظل ملك، فى ظل إله، ولا ملو من إخضامه حتى يكتب له
للجدة (١٥)

الاستشراق والثورة

هذا الشرق، الرومانسى بالفعل، هو محصلة قرن من الاستشراق. ويونانبارت لا
يخترع شيئاً، لكنه، بشكل أحسن من أى أحد آخر، يترجم كلية المعارف الاستشرافية
لزمانه إلى عدد من المبادئ البسيطة.

إن هذا العلم، الذى تكون فى البداية ضمن إطار اهتمام عادى بالمعرفة الإنسانية، يجد
نفسه مواجهاً بالضرورات التى أوجدها الانزلاق الذى لا يقاوم للتوسع الأوروبى نحو العالم
القديم.

وفى زمن التنوير، لا يمكن بعد لنشر الدين المسيحى أن يكون مبرراً ذى مصداقية
للنضال ضد الإسلام. لكن الإسلام بالتحديد، من حيث كونه القوة التى تكفل التلاحم
للإمبراطورية العثمانية، إنما يظل العدو الذى تجب محاربتة. والإمبراطورية العثمانية يُنظر
إليها آنذاك على أنها النموذج الكامل للنظام الاستبدادى فى مظهره العسكرى. والأوروبيون
يضعون عنصراً تركياً فاتحاً ومطلقاً فى تعارض مع كتلة من الجماعات السكانية المستغلة
ولكن المستعدة للتمرد. وهم يشعرون بإيجاد معاكسة، فالأتراك هم المثلثون الشرقيون

لأرستقراطيات الإقطاعية في أوروبا، وهير الأتراك يشكلون لغة تلك شرقية حقيقية (مماثلة للغة الثالثة الفرنسية التي كانت تتكلم من غير النبل ومن غير رجال الأكليروس؛ أي من الفلاحين والحرثيين والبورجوازية - للترجم). واستطاعاً لصيغة سبيس الشهيرة (في كتابه؛ ملهى اللغة الثالثة؟ [١٧٨٩] - للترجم)، فإن هذه اللغة الثالثة الشرقية هي كل شيء في المجال الاجتماعي ولا شيء في المجال السياسي وتتوق إلى أن تصبح شيئاً.

والتمزبات اليونانية في أواخر القرن الثامن عشر هي البوهان للحموس على صحة هذا التفسير. فهذه الحركات، الدينية في جوهرها، تمكنت من اتخاذ الشكل الخارجي المطلوب لكي تكون مقبولة في نظر الغرب. والغرام الأوربي بالهيلينية يرى فيها البحث القريب لليونان القديمة. أما بعد الدين، ولقد أن كلمة «يوناني» إنما تعنى في ذلك العصر، حتى في البلدان، أحد اتباع المسيحية الأرثوذكسية وليس شخصاً يعبر عن نفسه باستخدام اللغة اليونانية، فهو بعد لا يوضع في المقامة. إن الطائفة الدينية تعامل بوصفها إمة.

وكل شيء يجري إسقاطه على مجمل هذه اللغة الثالثة الشرقية، للعرب والمصريون والأرمن واليهود ربما كانت لديهم قدرة على أن يصبحوا أو بالأحرى يصبحوا من جديد أمة. ومن ثم فإن الحضارة سوف تفر، ليس عبر إنشاء أمة جديدة، بل عبر بحث الأمم القديمة. وهذا التصور طرحه الأيديولوجي والمستشرق لوانى منذ عام ١٧٨٧ وأعاد التأكيد عليه في عام ١٧٩١ في «الأطلال». وقد استخدم بوناپارت إيطاليا كمنضبة تجريب لهذا المشروع الإحيائي الهائل.

إن هذا البحث للعنف للأمم هو الرغبة التي يخطط الجنرال الدافع للاعتماد عليها. فالإمبراطورية العثمانية سوف تتفكك عبر ثورة شرقية عظمى، والأمم سوف تصطف خلف محرريها، بوناپارت وجيش الشرق.

والحال أن الإشارة إلى العصور الذهبية سوف تكون السمة الدائمة للخطاب الثوري الصاصر عن بوناپارت. فسوف يجري تذكر الفرنسيين بالغالين وخاصة بالمأثر الحربية لإغريق الأسكندر ورومان القيصر، وسوف يجري تذكر المصريين بجلال مصر القديمة، والعرب بأمجاد سلالاتهم الحاكمة في زمن الخلافة.

مفارقة بونابارت

إن مصدر قوة بونابارت إنما يكمن في هيمنته الأبدية على الوسائل وقدرته، في ذلك العصر على الأقل، على حسابها بصفة في الوقت الذي تعتبر فيه الغايات زائدة عن الحد. وعلى الرغم من أنه كثير الكلام، فإنه رجل وحيد. وما أندر الأفراد للكبار للذين كان يمكنه الإصلاح لهم بما يحتمل في صدره. وخلال صيف ١٧٩٧، يكتشف تاليران، العائد من منفاه في الولايات المتحدة ليصبح - بفضل حسه التأمري - وزيراً للعلاقات الخارجية (١٦ يوليو ١٧٩٧). والرجلان لم يلتقيا من قبل. إنهما يتبادلان رسائل مهمة يكتشف بونابارت فيها أن الوزير يكرر مثله في مصر، وهو يكشف له أنذاك عن التوتر القائم في فكرة بين الخطاب السياسي للتهوس الذي يوحى به الأيديولوجيون - والاثنان تلميذان لهما - والبعد شبه الكوني لغاياته وقوانينه الناجمة من الحساب الدائم للوسائل. (١٦)

وهو يشير إلى أنه لا يؤمن، من زلوية الفعالية على الأقل، ببياناته الخاصة بإحياء الإيطاليين. «منذ أن كنت في إيطاليا، لم أجد البتة عوناً في حب للشعوب للحرية والمسواة، أو أن هذا العون، بالأحرى، كان عوناً هزئياً للغلبة. لكن الانضباط الرائع للجيش، مع الاحترام الكبير الذي نكته كلنا للجمهورية، والذي وصلنا به إلى حد التزلف لوزراء العدل، وخاصة النشاط الكبير والسرعة الكبيرة في قمع قوى النوايا الشريرة وفي معاقبة أولئك الذين يجهرون بالعناء لنا، كان العون الحقيقي لجيش (حملة - المترجم) إيطاليا؛ ذلك هو الواقع التاريخي. وكل ما لا يكون جميلاً إلا إذا قيل في بيانات وخطابات مطبوعة لا يعدو أن يكون روايات».

إن الشيء الجوهرى يكمن في حسابات الوسائل، فالمرء لا يمكنه الوصول إلى غايات عظيمة ولا يمكنه اجتياح جميع العقبات إلا بالتعقل، بالحكمة، بالحدق الكبير؛ وإلا فإنه لن ينجح في أى شيء. ولا يفصل بين النصر والصفوط غير خطوة واحدة. وقد رأيت، في أضخم الظروف، أن ما لا يحسب له حساب قد قرر دائماً مصير أعظم الأحداث».

وتكمن المفارقة في اجتماع وهج الخيال وبهودة الوسائل، «إننا إذا ما اتخذنا كأساس لجميع العمليات السياسية الحقيقية، وهي ليست غير نتيجة للحساب والتوليفات والفرص، فسوف نكون لزمان طويل الأمة العظمى وحكم أوروبا؛ وأنا أقول علاوة على ذلك أننا يجب أن نحافظ على التوازن، وأننا سوف نجعله يميل كما نشتي، بل إنني - وهذا هو حكم القدر - لا أرى استحالة في أن يصل المرء في غضون سنوات قليلة إلى هذه النتائج للعظيمة التي يحلم بها الخيال الجامع والمتقد، وأن الإنسان البارد في تقديره للأمور والنحوب والمحكم إلى أقصى حد هو وحده القادر على بلوغها».

إن هذا الاجتماع لجموح الخيال وبهودة الحسابات، والذي سوف يميز بوناپارت في مصر، إنما يتكون في إيطاليا عندما يفتح طريق الشرق مع تدوير البندالية وفتح الجزر الأيونية خلال صيف ١٧٩٧. وهو يرى، منذ تلك اللحظة، أن هذا الفوز الجديد يعدّ حيويًا بصورة مطلقة، فهو القاعدة الضرورية لكل مشروع في شرق البحر المتوسط.

الانزعاجات الروسية

هذا التوسع الثوري الجديد يزعج كثيرين، خاصة العثمانيين والروس. فبالنسبة للأوائل، تأسس التحالف مع فرنسا على البعد الجغرافي، فملكية النظام القديم لم يك يومها أن تستهدف الأرض للعثمانية. لكن استقرار الفرنسيين في الجزر الأيونية، واتصالاتهم مع اليونانيين المستعدين دائمًا للتمرد، بينما يميل كبار البلاشوات (الولاة - المترجم) إلى زيادة درجة استقلالهم (عن الباب العالي - المترجم) بلا توقف، ليس من شأنه إلا أن يزيد انزعاجات الباب العالي، أمّا فيما يتعلق بالروس، فإن هذه الدعاية نفسها الموجهة إلى اليونانيين، إنما تهدد بخلق منافسة رهيبة لهم بين صفوف هؤلاء العملاء جد المفيدين لهم منذ عام ١٧٧٠. ثم إن سان بطرسبورغ، وهو ما يشكل مفارقة مميزة لكل وضع دبلوماسي معقد، تخشى من أن يؤدي التدخل الفرنسي إلى تقديم عون لإمبراطورية عثمانية يسببها إلى الاستسلام في أوروبا تحت ضربات الهجمات الروسية. إن عملاً فرنسيًا في البلقان انطلاقًا من البحر الأبيض إنما يشكل خطراً أكيداً بالنسبة لتحقيق المشاريع الروسية الخاصة بالسيطرة على تلك المنطقة، والوجود الفرنسي في البحر الأبيض يجعل التوازن السياسي في البحر المتوسط ومن ثم في أوروبا.

تاليران

إن المشجع الآخر على سياسة فرنسا هذه في البحر المتوسط هو تاليران. فهو ورث

دعلة لتدخل في زمن الملكية الآخذة بالزوال. وقد عرف شواسول وتعرف على المسائل الشرقية من الديبلوماسيين الذين تولوا مناصب في الشرق. وتردد، في الولايات المتحدة، على فولني الذي كان عليه أن يكون أول من يطلعه على شخصية بوناپارت وعلى مصر نفسها. (١٧)

وعلى المستوى السيلسي، لم يعد التحالف مع الإمبراطورية العثمانية يثمر شيئاً وقد أنت الحرب البحرية إلى تدمير تجارة الثغور. والانحطاط العثماني لا علاج له. وقد استندت فرنسا نفسها بلا طائل في دعم إصلاحات مستحيلة. واحتلال مصر يفرض نفسه بوصفه الرسالة الوحيدة لمهاجمة إنجلترا في الهند.

والهند، في أواخر القرن الثامن عشر هذه، هي العماد للرئيسي للقوة الإنجليزية. إنها لم تصبح بعد موقفاً كبيرة مصيرها استقبال المنتجات المصنعة التي زانتها الثورة الصناعية الإنجليزية. ومثل جهود الأوروبيين هو السيطرة على الصادرات الهندية. وفي ذلك العصر، بفضل عمل جماهير غفيرة من الحرفيين، تعتبر صناعة القطن أول صناعة في العالم، أكان ذلك من حيث نوعية أم من حيث كمية منتجاتها، وحجم صادراتها. ثم إن الهند، عبر شبكاتنا التجارية، تفتح أمام الأوروبيين مجمل الأسواق الآسيوية. وفي أواخر القرن الثامن عشر، تسيطر إنجلترا، بفضل عملها الدمو، على نسبة ٨٥ إلى ٩٠ في المائة من تجارة الهند الخارجية. (١٨)

والحال أنه إذا كان هناك من درس هذا الاقتصاد، فإنه تاليران أساساً. وخلال إقامته في الولايات المتحدة، فكر في عدة مشاريع للمضاربات التجارية. (١٩)

ومن المؤكد أن التجارة الإنجليزية مع الفارتين الأمريكيتين تظل الأهم. والشئ الرئيسي هو أن الفرنسيين يجهلون الدور الذي تلعبه بداية الثورة الصناعية في اقتصاد الجزر البريطانية، وذلك بالرغم من احتجاجات على الدخول جد السهل للمنتجات البريطانية إلى فرنسا في السنوات الأخيرة للنظام القديم. وبالنسبة لأهل القارة، فإن سر القوة الإنجليزية لا يمكن إلا أن يكون كامداً في تجارة إنجلترا، وهي ظاهرة جد مصطنعة، قياساً إلى الرسوخ الطبيعي، الزراعي، للسكان الفرنسيين، وهذا البنيان التجاري للهش سوف ينهار بسرعة إذا ما جرد من عنصره الحيوي، التجارة الهندية. (٢٠) والمسؤولون الإنجليز يلقاسمون هذا التفسير نفسه للمجريات الواقعية. فبالنسبة لهم هم أيضاً، لا تعد إنجلترا دولة أوروبية عظمى إلا بفضل تجارتها مع الهند. وقبل أن يمر أسبوع على تعيينه

ونيرا، بوجه تاليران إلى (حكومة) الإدارة، في ٢٣ يوليو ١٧٩٧، ثلاث مذكرات تدمو في النهاية إلى الاضطلاع بعمل مشترك مع الأمراء الهنود ضد السيطرة الإنجليزية انطلاقاً من الجزر الفرنسية في المحيط الهندي. (٢١)

ومن لم يجرى تدشين المشروع الهندي عندما يبلغ بوناپارت (حكومة) الإدارة، في ١٦ أغسطس ١٧٩٧، بفتح الجزر الأيونية ويختتم رسالته قائلاً: «لن يمر وقت طويل حتى ندرك أننا لكي ندمر إنجلترا فعلاً، يجب أن نستولى على مصر. إن الامبراطورية العثمانية للترامية الأطراف والتي تهلك كل يوم إنما تملئ علينا التفكير في اللحظة المناسبة لاتخاذ الوسائل التي نسمح لنا بالحفاظ على تجارتنا في شرقي البحر المتوسط».

وفي اليوم نفسه، يكتب إلى تاليران: «إن مما لا طائل من وراءه أن نسعى إلى دعم إمبراطورية تركيا؛ إنما سوف نشهد سقوطها في أيامنا [١٨٠٠] وكودلو وزانت تجعلنا سادة للبحر الأبيض وشرقي البحر المتوسط».

ويحمل رد تاليران تاريخ ٢٣ أغسطس، «لا شيء أكثر أهمية من اعتمادنا على البانيا واليونان ومقدونيا والولايات الأخرى للإمبراطورية التركية في أوروبا، بل وجميع الولايات المطلة على البحر المتوسط، كمصر خاصة، التي يمكننا أن تصبح عظمى النظم لنا». (٢٢)

القوار

بوناپارت في باريس

وهكذا، فعند صيف ١٧٩٧، تلتقى الفكر تاليران وبوناپارت، رغم اختلاف النواحي، حول حملة مصر. وهما بحاجة إلى مآزبات واحدة. ففي ٣ يوليو ١٧٩٧، ذكر تاليران للجمهور في مذكرته للوجهة إلى المعهد الوطني، حول الفوائد المترتبة على إيجاء مستعمرات جديدة في الظروف الحاضرة، بمشروع شواسول. والحال أن المعهد الوطني، حديث التأسيس، إنما يهتق من وسط الأيديولوجيين جد للثريين في السياسة الجمهورية. (٢٣)

وبوناپارت يدرك ذلك، فهو عند عودته من إيطاليا، يصبح منتخباً هو أيضاً في المعهد ويبرز في بياناته إلى الجنود لالتعاضد إلى تلك المؤسسة. وهكذا يظهر بوناپارت وتاليران، في تلك اللحظة من تاريخهما، كمنتهين للأيديولوجيين في الأوساط الحاكمة. (٢٤)

والواقع أن العودة إلى استقلال أودوي نصبي، منذ معاهدات بال في عام ١٧٩٥، إنما

تسمح بعوبة ظهور مذكرات، موجهة إلى المسؤولين السياسيين الفرنسيين، ترى إيجاد مستعمرة فرنسية في مصر. وما ذلك غير أمانة على أن تراخى الحرب الثورية بعيد المسؤولين السياسيين تدريجياً إلى مشكلات ما قبل عام ١٧٩٢.

وصلح كامبو - فورميو (١٨ أكتوبر ١٧٩٧) مع النمسا لا يتوك بعد غير خصم عنيد واحد، هو إنجلترا. وبما أنها لا تملك بعد قاعدة للعمل على القارة فإن الصراع لا يمكن مواصلته إلا عبر «نزول» على الجزر البريطانية أو عبر عمل يتم الاضطلاع به ضد الهند. هذا هو الخيار الذي تفرضه قوة الأشياء على زعماء «الأمة العظمى».

وفي ٢٦ أكتوبر ١٧٩٧، يحمل بيرثيه ومونج، رفيقا بوناپارت الأوليان، نص معاهدة كامبو - فورميو إلى باريس. ويتمثل القرار، المتخذ في اليوم نفسه من جانب (حكومة) الإدارة، في الأمر بتكوين جيش لحملة إنجلترا تحت قيادة بوناپارت. ويتولى ديزيه قيادته مؤقتاً بينما يشارك بوناپارت في مفاوضات راسيات حول تطبيق بنود معاهدة كامبو - فورميو على ألمانيا. (٢٥)

ومنذ نهاية أكتوبر ١٧٩٧، يبدأ الجهاز الإداري لحكومة الإدارة في تنظيم جيش إنجلترا، إن النزول ممكن، إذا ما توافرت، في لحظة محددة في نقطة محددة، هيمنة على البحر تكفي لنقل الجيش الفرنسي. ولكي يتسنى ذلك، لابد من توافر المبادرة في العمليات ولابد من توافر عدة نقاط ممكنة لحشد القوات سعياً إلى إرباك إنجلترا فيما يتصل بنوايا القيادة الفرنسية. وسوف يجرى الجانب الرئيسي من «الجيش الكبير» في إيطاليا بينما يصعد بوناپارت الموجود بعد في موقعه، الأوامر الضرورية.

وهو يصل إلى باريس في ديسمبر ١٧٩٧. ويقابل لأول مرة تاليران. ويحمل فاتح إيطاليا معه التصديق الذي قدمه الإمبراطور على معاهدة كامبو - فورميو. ويقدمه إلى حكومة الإدارة في اجتماع مهيب في ١٠ ديسمبر ١٧٩٧. ويتميز خطابه بالتصور السياسي شبه الخلاص الذي تبناه الأيديولوجيون «إن أجمل جزأين في أوروبا، جد الشهيرين في سلف الزمان بالفنون والعلوم وبالعظماء واللذين كانا مهلكاً لهم، يتطلعان بأعظم الآمال إلى انبثاق روح الحرية من لرماس لسلالهما».

والحال أن روح الحرية، الفكرة المألوفة للبلاغة الثورية، قد أبرزها فولني في «الأطلال» في عام ١٧٩١. وفي هذا النص، فإنه يجعل الروح (بالف ولام التعريف - المترجم) تقتنأ بانتهاء الإمبراطورية العثمانية، وببعث الأمم المكونة لها وبالدور القائد لـ «الأمة العظمى» في هذا المشروع. وفي ذلك العصر، يعدُّ الأيديولوجي فولني الولي الفكري والسياسي لبوناپارت الشاب. (٢٦)

والصورة واضحة، فالمسألة هي مسألة بحث قومي، كما أن بوناپارت ينه حكومة الإدارة، «عندما تركز سعادة الشعب الفرنسي على الفضل القوانين الأساسية، سوف تصبح أوروبا كلها حرة».

والحال أن دستور العام الثالث، بعد انقلاب ١٨ بروكتيدور، هو دستور بالغ للهشاشة بالرغم من استثناء الزخم الثوري لـ «الأمة العظيمة». وفي مراسلاته مع تاليران، كان بوناپارت قد فكر بالفعل في مشروع إصلاح دستوري ينطوي على تعزيز ملحوظ للسلطة التنفيذية على حساب السلطة التشريعية. (٢٧)

الجيش وحكومة الإطاعة

عند وصوله إلى باريس، اقترح عليه جنرالات مثل مورو وكليبر وكالفاريلى تنظيم انقلاب جديد يضع حداً لنظام حكومة الإدارة، وهم يقدمون إليه هبتهم في جيوش حملة لمانيا. وهؤلاء الجنرالات كلهم يواجهون بهذه الدرجة أو تلك صعوبات مع حكومة الإدارة. لمورو، بسبب موقفه في ١٨ بروكتيدور، كان قد أُحيل إلى الاستبداد. أما كليبر، الجمهوري المخلص، فقد عانى باستمرار من تمرد لجنة الخلاص العام في وقت كان يمكن لذلك أن يعنى فيه إعطائه ولم يك يحتمل عيوب الحكومة. وهو يلوم الحكومة على أنها، خلال حملة لمانيا الكبرى في عام ١٧٩٦، قد تركت الجيوش الجمهورية في شقاء مريع مع سيطرتها جد القصارمة على تحركاتها من باريس. وهو يحكم حكومة الإدارة المسئولية عن فشل الحملة بينما تمكن بوناپارت في إيطاليا من التخلص من تعليمات كارنو ونجح، اعتماداً على خبرات الهلاد، في أن يوفر للجند أخيراً شروط وجود لائقة. وقد أثر الجنرال الأكراسي عندئذ القنعى.

لما كالفاريلى، المولود في عام ١٧٥٦ لأسرة تنتمى إلى صفار النبلاء، فهو نتاج المدارس الحربية التي عرفها النظام القديم، خاصة مدرسة ميزيير الهندسية. وهذا القارئ لأعمال الفلاسفة، يرشح نفسه للأركان العامة، لكنه لا ينتخب. وهو يستأنف الخدمة في عام ١٧٩١ ويجرب الاعتقال في زمن الإرهاب (اليعقوبي - للترجم). وهو يشارك كليبر في حملات ١٧٩٥ و ١٧٩٦. ولما كان صاحب عقل رائع، فهو ينتخب عضواً في المعهد في عام ١٧٩٦ في شعبة العلوم الأدبية والسياسية. ويعتبره مؤرخون تالون له أحد رواد الاشتراكية الطوباوية. ونحن لا نعرف متى أصبح صديقاً حميماً لبوناپارت، الذي يقدم إليه كليبر.

لما بهزيه، المولود في عام ١٧٦٨، فهو ينحدر هو الآخر من صفوف النبلاء وهو

خريج مدارس عسكرية في زمن الملكية. وبالرغم من أن تأييده للثورة كان مخلصاً بالرغم من الضغوط العائلية، فقد أداته الليعاقبة مواراً بوصفه أرسطوكراتياً. وقد لمع في العمليات في ألمانيا، وخلال صيف ١٧٩٧، استفاد من توقف الأعمال الحربية لكي يزور فاتح إيطاليا وقد أصبح أحد المقربين إليه. وقد حدثه بوناپارت عن مشروعاته الشرقية. (٢٨) ولا يبدو أنه كان شريكاً في المؤامرة، التي أصبحت أسهل من جراء موت هوش الذي كان هو نفسه ضحية لليعاقبة. وقد اقترح في المقابل على بوناپارت انقلاباً بقيادته هو. (٢٩)

ويرى بوناپارت أن من السابق لأوانه التخطيط للإطاحة بحكومة الإدارة عبر انقلاب عسكري (٣٠). لكنه يعرف الآن أن كوابر جيش حملة ألمانيا مستعدة لدمعه وأن عداء الجيش لليعاقبية، والذي يترافق مع ضغط متزايد على عجز حكومة الإدارة عن تصريف شئون الحكم بشكل جيد، يمكن أن يكون سنده له في تحقيق طموحاته. وعليه أن ينتظر تآكلاً أكبر للسلطة، مع حفاظه على رأس مال الثقة الذي عادت عليه به انتصاراته في إيطاليا وسماعته حول فكرة «الامة العظيمة». وحتى إذا كانت حكومة الإدارة تجهل تفاصيل الفكر بوناپارت السياسية، فإنها تملك أسبهاً جدياً للانزعاج من الكاره ومن مشاريعه.

في الحادي عشر من ديسمبر، تحدد حكومة الإدارة المواقع المختلفة للحشد البحري، من البحر الأدياتي إلى بحر الشمال. وهذه الحكومة التي سوف يصورها الأحقاد على أنها ضعيفة وعدومة للكفاءة، إنما تمتلك خبرة رهبة في استخدام الإمكانيات الحربية، وهي خبرة موروثة من نحو ست سنوات من الحرب المستمرة. وتبدأ بشكل عام حركة نقل لوجستيات بحرية وهرية من إيطاليا إلى فرنسا.

وفي يناير ١٧٩٨، يبدو مشروع النزول (على الجرد البريطانية - المترجم) بصيبل إلى التحلق، لكن تعقيدات سياسية تظهر على المسرح. ففي روما، يلقي الجنرال دولو حلفه خلال عصيان. وتأمّر حكومة الإدارة بيرثيه، الذي خلف بوناپارت في قيادة جيش حملة إيطاليا، باحتلال روما. ويستولى الفرنسيون أيضاً على ميناء سبقيتا - فيتشيا للهم، وهو ما سوف يسمح بتخفيف إعباء ميناء طولون. ويجري طرد البابا من روما ويتم إعلان جمهورية رومانية (نسبة إلى روما لا إلى رومانيا - المترجم) في ١٥ فبراير ١٧٩٨.

وفي ١٢ فبراير ١٧٩٨، تحدد حكومة الإدارة اللوجستيات للمشاركة في جيش حملة إنجلترا. وهي تعزز أعباءه للقائمة من جيش حملة إيطاليا بقوات قائمة من جيوش أخرى. ويقود هذا الجيش الهائل الكبير ثمانية عشر جنرال فرق وسبعة وأربعون جنرال لوية واحد وعشرون جنرالاً مصاعداً وثلاثة عشر قائد لوية مدفعية وأربعة قادة لوية هندسة.

إنجلترا أو مصر

في فبراير ١٧٩٨، توجه بوناپارت إلى فحص الإمكانيات التي تتيحها الموانئ المواجهة للبلاد للواطئة (بلجيكا - المؤلف) بينما يتفقد كافاريللي الشمال، ويتفقد كليبر نورماندي، ويتفقد ديزيه بريتانيا. ويدرس جميع هؤلاء الجذالات بهالغ البقا إمكانيات نجاح النزول ويذهبون على الساحة في أعمال تهيئية.

وخلال تلك الوقت، فإن أسطول البحر الأبيض، تحت قيادة بروي، بدلا من أن يتجه إلى بريست كما كان متوقعا، يتجه إلى طولون. والسبب الرئيسي هو نقص للوقود الذي لا يسمح له بالإبحار مباشرة في البحر الأبيض. ولا يعود بإمكان بوناپارت الاعتماد على هذا الأسطول لحماية الإنزال في إنجلترا.

وفي ٢٣ فبراير، توجه بوناپارت إلى حكومة الإدارة لطلب لا يخلي مصاعب المشروع؛ وإن حملة إنجلترا لا تبدو من ثم ممكنة إلا في العام القادم؛ على أن من المرجح أن المتاعب التي سوف تمثل في القارة سوف تعترض سبيلها، وربما تكون اللحظة المناسبة للاستعداد لهذه الحملة قد ضاعت إلى الأبد.

ولذا ما تخطى الرد عن النزول في إنجلترا، فإنه لا يبقى عندنا غير حائل للنضال ضد هذه القوة البحرية، والحل الأول هو انتزاع هانوفر منها والاستيلاء على هامبورج في ألمانيا، وبمعنى أعم، تكثيف الحصار الاقتصادي الذي خاضته حكومة الإدارة ضد إنجلترا منذ الانتصارات الفرنسية لعام ١٧٩٧. ويتألف هذا الحل من الانخراط في عملية توسع لا حدود له سعياً إلى صد ثغرات الحصار القاري. وسيكون ذلك هو حل ناپوليون بعد عشر سنوات، بما يشير إلى التواصل بين سياسة حكومة الإدارة وسياسة الإمبراطور.

أما الحل الثاني فهو: القيام بحملة في شرق البحر المتوسط من شأنها تهديد تجارة الهند. ولابد من ملاحظة أن بوناپارت يدرك خطر العلاقات الأوروبية، تشكل ائتلاف ثانٍ ضد فرنسا، حتى وهو يقترح حملة شرقية.

وتجرى دراسة تقرير بوناپارت في ٢٤ و ٢٥ فبراير. وعلى مدار أسبوع أيضاً، تكثف حكومة الإدارة التناهي التحضيرية للنزول. لكن ديزيه، الذي يرجع من بريتانيا في ٢٧ فبراير، يبدو جد متشائم بشأن حالة القاعنة البحرية الفرنسية الرئيسية، قاعدة بريست. ووزير البحرية يؤكد مشروعية مخاوف ديزيه.

منعك لتخلي حكومة الإدارة عن مشروع النزول. والحق أن تاليران يقترح عليها، منذ بعض الوقت، خطة عمل أخرى.

إن تاليران هو ممثل الاتجاه الاستعماري للنهضة من النظام القديم. ومنذ صعوده إلى منصب وزير العلاقات الخارجية، تسقى له جمع المشاريع المتراكمة منذ ثلاثين سنة. وتعليماته المؤرخة في ١٩ يناير ١٧٩٨ والموجهة إلى برنادوت، الذي عين سفيراً في فيينا، إنما تتميز بهذه الشواغل التدخلية: «من المؤكد أن كاترين وجوزيف قد فكرا في التمسك تركيا. وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن ورثتهما لم يتخلوا عن هذه الخطة. وقد سعت فرنسا في الزمن الفاهر مراراً إلى تعزيز هذه الدولة إلى حد ما؛ لكن جميع هذه المحاولات ظلت غير مثمرة، ولم تؤد إلا إلى التعجيل بخراب العثمانية. واليوم، فإن للجمهورية عازمة بذات على عدم السماح لخراب الباب العالي أن يتم دون أن تكفل لنفسها حصة جد ملحوظة حتى لا يتسنى تجريدتها من تجارة البحر المتوسط». (٣١)

وترد مذكرات جديدة في تلك اللحظة، خاصة مذكرات لازوفسكي، عقيد سلاح المهندسة البولوني الأصل (كانت أسيرة قد رافقت ستانيسلاس ليهينيسكي في اللودين) والذي أوفدته الجمهورية كمدرّب للجيش العثماني، ومذكرات ماجالون، قنصل فرنسا في الإسكندرية.

والحال أن لازوفسكي، الذي تحمل مذكرته تاريخ ٤ يناير ١٧٩٨، إنما يؤكد على الانحطاط العسكري للإمبراطورية العثمانية. وعلى ضرورة اشتراك فرنسا في التسلم الإمبراطورية وفتح مصر، الذي سوف ينتزع «المصري المجدّ» من العبودية التي يردح تحت نيرها منذ زمن طويل». (٣٢)

أمّا ماجالون الذي ألقم في مصر لمدة ثلاثين سنة كتاجر ولدة خمس سنوات كقنصل للجمهورية، فهو نصير قديم لفتح مصر. وشأنه في ذلك شأن فينتور دو پارادي، إنه يقدم رواية متخصصة بالشئون المحلية. وهو يقضى إجازته في باريس في الفترة الحاسمة لأواخر عام ١٧٩٧. وتاليران يطلب منه إعداد مذكّرة عن مصر، يفرغ من كتابتها في ٩ فبراير ١٧٩٨. وينهل تاليران منها عندما يقدم مذكرته الخاصة إلى حكومة الإدارة في ١٤ فبراير ١٧٩٨.

والأسلوب قريب من أسلوب بوناپارت، «لقد كانت مصر ولاية من ولايات الجمهورية الرومانية. ولا بد من أن تصبح ولاية من ولايات الجمهورية الفرنسية. لقد كان فتح الرومان

(المصر - المترجم) عصر انحطاط لهذا البلد الجميل. أما فتح الفرنسيين له فسوف يكون عصر ازدهاره.

وهو يصف بشكل سريع النظام السياسي المصري ليتوصل إلى أن مصر لا يمكن أن تعتبر - متعمية بعد - إلى الإمبراطورية العثمانية. إن للمماليك مضطهدون التجار الفرنسيين والسكان المصريين ومصر تحمل «الأمّة العظمى» الازدهار إلى الجميع بفضل استغلال عقلائي للبلد. وعبر إعادة فتح طريق السويس، سوف يجرى توجيه ضربة قاتلة إلى التجارة الإنجليزية في الهند.

والحكومة العثمانية جد منشغلة بالتمسك بالسلطنة بحيث لا يمكنها التدخل في مصر وسوف يكون يوم مع مفاوضات باريس (يفكر تلييران في نفسه)، يجرى إرساله إلى القسطنطينية، لن يحصل على اعتراف من الباب العالي بالوجود الفرنسي (في مصر - المترجم) في مقابل الاعتراف بالسلطة الاسمية للسلطان على البلد. لما إنجلترا فهي مهتولة بالخوف من نزول الفرنسيين القريب في الجزر البريطانية. ودول القارة الأوروبية تخشى من حرب مع فرنسا. ولن تصمد قوة للمماليك العسكرية طويلا في وجه الفرنسيين الذين سوف يستقبلهم المصريون كمحررين. والحال أن الفتح سوف يكون سريعا ويمكن إرسال قوة حملة فرنسية ثانية عبر البحر الأحمر سوف تدعم انتفاضة شاملة من جانب الأمراء الهنود ضد الإنجليز. ومن ثم فإن فتح مصر يعتبر «سهلا بل ومضمونا». ولابد من اتخاذ القرار فوراً بسحب نظام الرياح في البحر المتوسط وفي البحر الأحمر.

وربما لم يحدث من قبل قط أن مذكّرة لهذا دبلوماسي كبير وسياسي شهير قد كذبتها الأحداث التي تلتها كما حدث لهذه المذكرة...

القوار

إن حكومة الإنلوة تجد نفسها مضطرة إلى التخلي عن مشروع النزول في إنجلترا والذي اعتبره العسكريون غير عملي. ومن شأن التدخل في ألمانيا أن يعقد وضعاً شائكاً بالفعل وأن يهدد بإشغال الحرب القارية. ومشروع فتح مصر مشروع بالغ الجاهلية. وبوسعنا أن يجبر إنجلترا على عقد صلح يعترف بهيمنة الأمّة العظمى على القارة الأوروبية. وهناك احتمال لثورة من جانب الفئة الثالثة الشرقية بحسب آراء للتخصصيين

وهي تتطلب مع مالية البرنامج الثوري. وسوف تنتزع الأمة العظمى من ذلك مكاسب اقتصادية وتجارية ملحوظة. ويبدو أن تاليران وبونابارت على اقتناع بحججهما ويبدو أنهما على ثقة من أن مخاطر المشروع قليلة. والنشر العالمي لبادئ الثورة يستهوى جميع أولئك الرجال السياسيين القريبين إلى هذا الحد أو ذلك من الأيديولوجيين. ثم إن بونابارت جد مرن في فرنسا، ومن شأن ابتعاده عنها أن يكون مريحاً.

ومن ثم فإن السلطة التنفيذية تقبل للمشروع في ٥ مارس ١٧٩٨.

ويبدو أن الجميع قد نسوا، ولولهم بونابارت، خطر الإخراج الأوروبي المنتظر في عام ١٧٩٩، والذي كان قد أشير إليه مع ذلك قبل أيام قليلة.

لتظهر الحملة

الجيش

كان تاليران قد أكد في تقريره على ضرورة الوصول بسرعة إلى مصر. على أن السرعة التي جرى بها تجهيز الحملة تعتبر مذهلة. لقد كانت التدابير للتخفيف للنزول في إنجلترا جد مفيدة، إلا أنه لا بد الآن من تركيز كل شيء على طولون وبشكل إضافي على كاشيو وجنوه وسيفيتا - فيتشيا. وفي يوم صدور القرار نفسه، كثفت حكومة الإدارة القرارات المنظمة للمجهود الحربي. ويجري إنشاء لجنة تسليح لسواحل البحر المتوسط، وتلقى القوات أمر التحرك إلى طولون.

ويحصل ديزيه على قيادة سيفيتا - فيتشيا، المنطقة الثانية لحشد القوات (٦ مارس ١٧٩٨). وفي ٢ أبريل، يصل إلى طولون أسطول البحر الأبيض تحت قيادة بروي. وفي ١٢ أبريل، تنظم حكومة الإدارة بشكل نهائي جيش الشرق الذي ما يزال يسمى رسمياً بـ «فصيل جيش حملة إنجلترا للرباط على سواحل البحر المتوسط». ومعياً إلى خداع العدو، يجري الحفاظ في الإعلان على مشروع النزول في إنجلترا. وتنتشر أكثر للشائعات تنوعاً عن غليات المهمة؛ وتسمح الإشاعات عديدة للأسرار في الصحافة بتصور أن مصر هي الهدف، لكن الحيرة عظيمة بحيث أن جميع التخمينات تجد مجالاً رحباً لها. وفي ٤ مايو، يخادر بونابارت باريس ليشراف على الاستعدادات الأخيرة. وفي ٦ مايو تبدأ القوات في ركوب البحر.

وما يشكو منه الجيش الفرنسي، في تلك اللحظة كما خلال كل الفترة الثورية، هو نقص التلويح. إن وحدات عديدة لم تحصل على رواتبها منذ وقت طويل، وحتى في جيش حملة إيطاليا، الذي استفاد مع ذلك كثيراً من الضرائب المتنوعة المفروضة على البلد، حدثت حالات عصيان. والجنود يحتجون على تأخر رواتبهم بينما يثرى بعض الضباط الكبار كما سينا على حساب البلد. وكثيراً ما كان من الصعب العثور على الإمكانيات المالية الضرورية لتسوية حساب المشتريات اللازمة لمشروع هذه الضخامة. وسعى إلى التمتع بموارد جديدة وتدعيم وضع الأمة العظمى في أوروبا، فإن حكومة الإدارة تأمر باحتلال سويسرا بجيوش فرنسية وتضيف الجمهورية السويسرية إلى الجمهوريات الشقيقة الأخرى (يناير - أبريل ١٧٩٨). وهذه العملية تسمح فعلاً بضمان تصفية متأخرات النفقات إلا أنه لا يمكن ضمان أي احتياطي مالي ثابت.

والجيش الذي يتم تكوينه في النهاية يضم نحو ستة وثلاثين ألف جندي منهم أكثر من ألفين ومائتي ضابط. وهذا العدد الزائد عن الحد للضباط إنما يجد تفسيره في الانخفاض المتواصل لأعداد جنود الجيوش الجمهورية بعد التجنيبت للضخمة التي شهدتها بداية الثورة. فبعد عام ١٧٩٤ لم يتم تجنيد غير أعداد قليلة وقد انخفض إجمالي الجنود العاملين من أكثر من سبعمائة ألف إلى أقل من أربعمائة ألف في عام ١٧٩٧. وعدد الضباط ينخفض بنسبة أقل بكثير ويصبح من الضروري الاتجاه إلى تركيبة ثانية في عامي ١٧٩٥ و ١٧٩٦. ومن ثم فسوف يستفيد جيش الشرق من إمكانية الاحتفاظ بقيادة جيدة بالرغم من خسائره. وكان نصف الضباط جنوداً أو صف ضباط في جيوش النظام القديم، أما النصف الآخر فقد جاء من متطوعي عامي ١٧٩١ و ١٧٩٢. (٣٣) ويوجه علم، فإن مزاج الضباط مزاج (جمهوري).

وتجيء القوات من جيش حملة ألمانيا (في خريف ١٧٩٧ تم تجميع كافة الجيوش المختلفة التي حاربت وراء الراين) ومن جيش حملة إيطاليا. وسوف توجد دائماً منافسة معينة بين هذين العنصرين. فحاشية بوناپارت سوف تنبثق من جيش حملة إيطاليا، أما هالبية قانة للفرق لسوف تنبثق من جيش حملة ألمانيا. وتتألف للوحدات العسكرية من مخضرمي حروب الثورة. ومن المؤكد أنها تشكل الفضل جيش في ذلك الزمان. ولما كانت تعرف معرفة تامة كافة تقنيات القتال، فإنها قادرة على الزحف زمناً طويلاً. والضباط يتميزون بروح مبادرة عظيمة. وسوف يتمكن الجيش على المستوى للتفاني من التكيف مع

الصعوبات الجسيمة لحملة مصر. وينبع تفوق القوات الفرنسية على جميع الجيوش الشرقية من القدرة الرائعة على الابتكار والتكيف مع الأسلحة والتي يتميز بها جندى منبثق من الطبقات الشعبية للمجتمع الفرنسي في أواخر القرن الثامن عشر. وليست الكفاءة التكنولوجية حكرًا على الأجهزة الفنية وأعضائه لجنة العلوم والفنون، فهي ماثلة على جميع مستويات الهراركية العسكرية، بما في ذلك أدائها. ويتراقب الانضباط في المعركة مع قدر كبير من المرونة. والهيبة الشخصية للضباط وصف الضباط لها نور كبير. والخطر الدائم هو أن ينهار هذا الجهاز العسكري الرائع إثر تفسيخ تدريجي، وقد أدرك الإنجليز ذلك. وسوف يخوضون حرباً سيكولوجية حقيقية ضد الفرنسيين.

بوناهارت والعلماء

إن بوناهارت، وهو أيدولوجي حقيقي، قد حرص على أن يصحب معه علماء ومهندسين، ومبرراته لذلك عديدة. فالعقل الذري الذي يهيئه تجاه العلوم يعود عليه بقدر كبير من العطف من جانب جماعة الأيدولوجيين البالغة الأهمية. ومع رغبة الفاتح في المهمة على العالم، تتطابق، في مجال العلوم، رغبة توحيد كافة (المعارف - المترجم) في معرفة موحدة. ومجد «الرجل العظيم» إنما يستند أيضاً إلى العلماء والفنانين والكتّاب الذين يحشدهم حوله، والحال إن بوناهارت يريد أن يقدم نفسه، اعتماداً على قوة المفاهيم الجديدة، بوصفه البطل نصير الحضارة بامتياز. وبرنامجها الخاص بالحضارة التي تواصل مسيرتها إنما يتلخص على الفكرة المستعانة بلا ملل والتي تتمثل في أن حملة مصر تشكل عودة العلوم والفنون إلى وطنها الأصلي. والعمل الذي يتوجب الاضطلاع به كان قد تم تحديده في الإنسيكلوبيديا نفسها في مادتها عن «مصر»؛ «لقد كانت في الزمن الطائر بلداً يستحق الإعجاب وهي اليوم بلد يستحق الدراسة». وفي هذا المشروع، فإنه يجد عوناً قوياً من كافاريللي، الذي يبدو في أعين الجمهور بوصفه لحد ملهم هذا المشروع للمثير (٣٦).

وفي باريس ينشغل بوناهارت بكل شيء. فهو مهووم باختيار الضباط كما باختيار العلماء. والاهتمام الذي تستثيره الحملة، التي يظل هدفها لغزاً، هو اهتمام مظيم. لكن الخيار الذي يتجه إليه، يتميز أيضاً باعتبارات سياسية. ففي هذا المجتمع جد الممزق، مجتمع فرنسا التي تحكمها حكومة الإدارة، يقترح بالفعل صيغة وحدة قومية حول

شخصه. والجانب الرئيسي من التجديد يتلّف بوجه خاص من مهندسين شبان، خاصة خريجي المدرسة الهندسية حديثة الإنشاء، بالرغم من وجود جنود مضمّرين متفانين بواسطة مثل مونج أو تولومير.

وسوف تتمثل مهمة العلماء في توحيد جميع المعلومات للتجارة من مصر. وهذا العمل الضخم، وهو رصد الأحوال القليلة والحاضرة على شكل بيان وتبيان للتحوّلات التي يجب الاصطلاح بها، سوف يصبح ذلك للمصنف الرائع الذي يحمل عنوان «وصف مصر» (٢٠).

التعليمات

في ١٢ جبرمينال من العام السلس (١٢ أبريل ١٧٩٨) يجري تحرير التعليمات النهائية للحكومة الإنارة: إن المالك هم حلفاء إنجلترا ومن هنا إهانتهم للفرنسيين، ولا بد من فتح طريق جديد إلى الهند لأن الانجليز قد احتلوا مستعمرة الكاب الهولندية، وخيار (فتح - المترجم) مصر يفرض نفسه. إن بوناپارت: «سوف يطرد الانجليز من جميع الممتلكات الشرقية التي يمكن الوصول إليها، وسوف يقضى بشكل خاص على جميع وكالاتهم التجارية على البحر الأحمر [...] وسوف يحتل خليج السويس، ويتخذ جميع التدابير الضرورية لضمان تمتع الجمهورية الفرنسية بالملكية الحرة والقاصرة عليها للبحر الأحمر. [...] وسوف يحسن، بحيثى الإمكانيات التي تتوافر له، حالة أهل مصر. [...] وسوف يحافظ، بقدر ثوابك ذلك عليه، على اتفاق مع السلطان (العثماني - المترجم) ورعاياه المباشرين» (٢١).

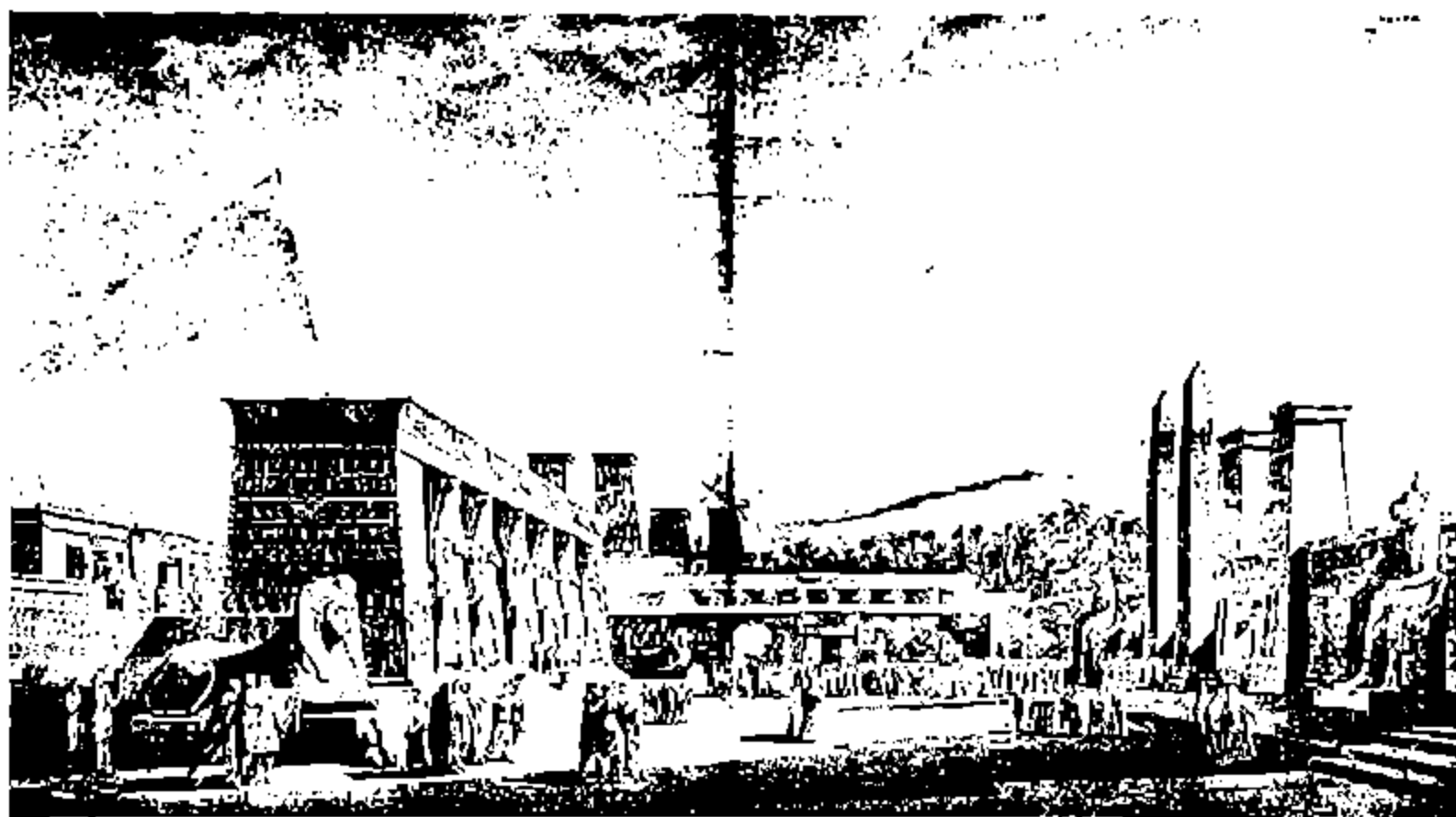
ولا يتخلّى بوناپارت بالكامل عن مشروع النزول في إنجلترا. وهو يدرس إمكانيته خلال غيابيه. فالجمهورية تتمتع بقوات مسلحة كالية ومشروعه الشرقي ورغم إنجلترا على بعثة أسطولها في الأطلسي لمحاصرة الأسبان حلفاء الفرنسيين، وفي البحر المتوسط للتضال ضده، وفي البحر الأحمر والمحيط الهندي لحماية الهند (٢٢). إن الحرب مع إنجلترا تتخذ أبعاد حرب عالمية.

وفي ٢٢ أبريل تحرر حكومة الإنارة أوداق اعتماد الرسل الفرنسيين إلى الأمراء الهنود لحثهم على التحالف مع الفرنسيين:

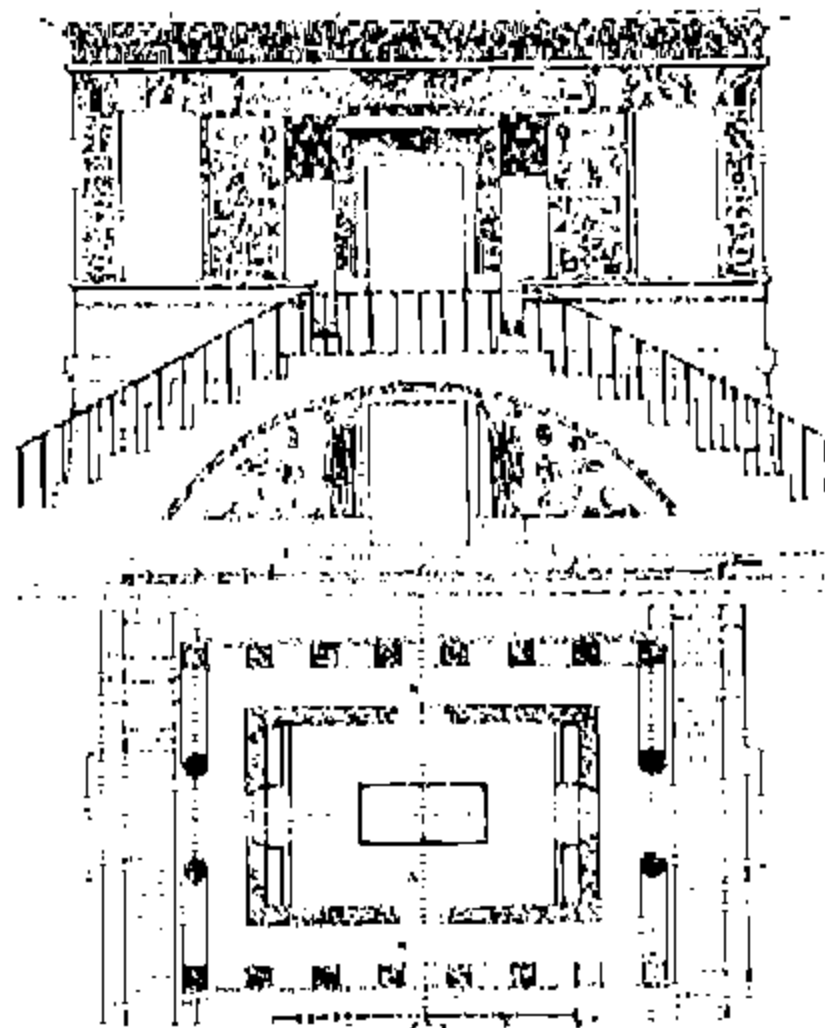
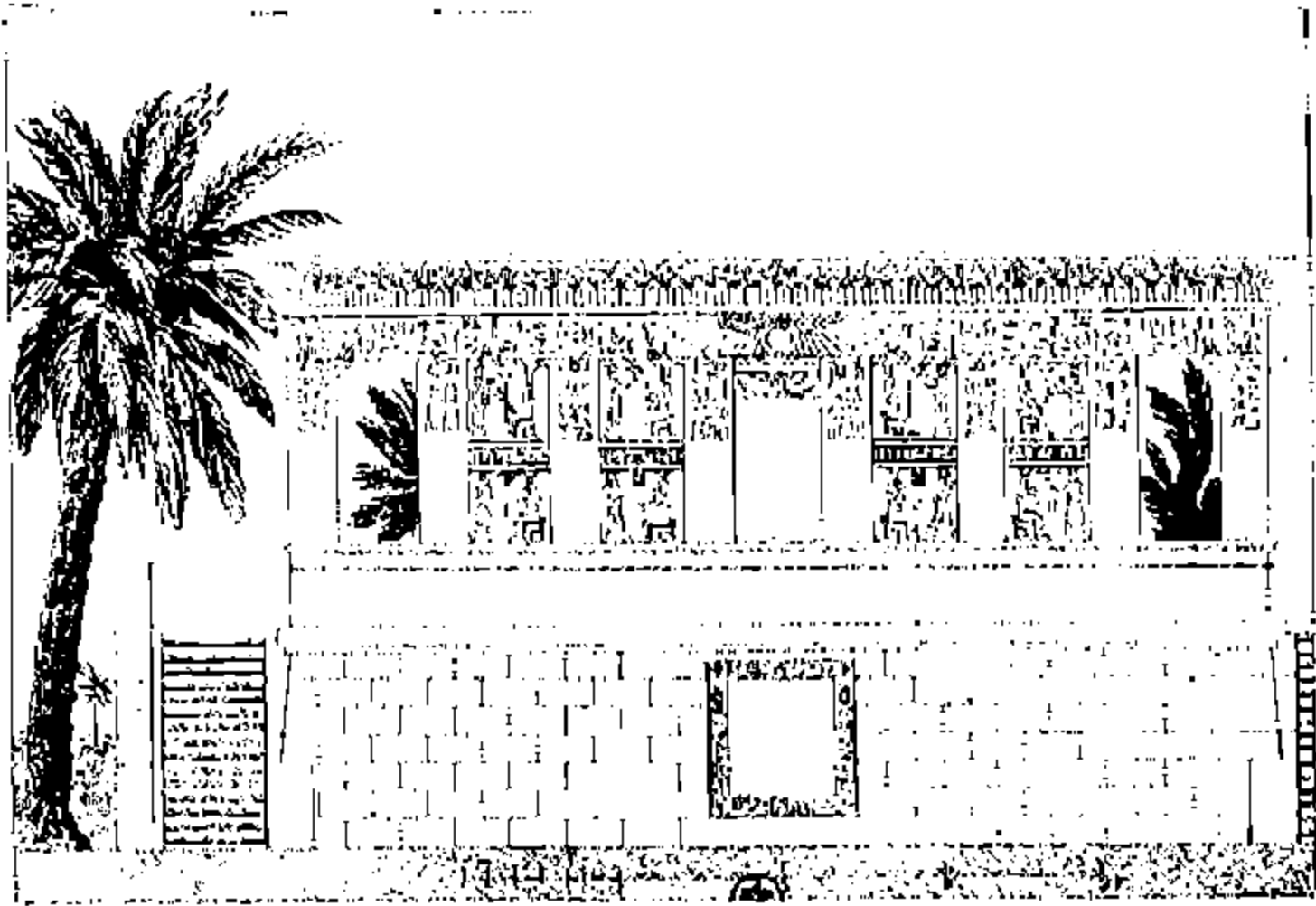
«السلطان المعظم



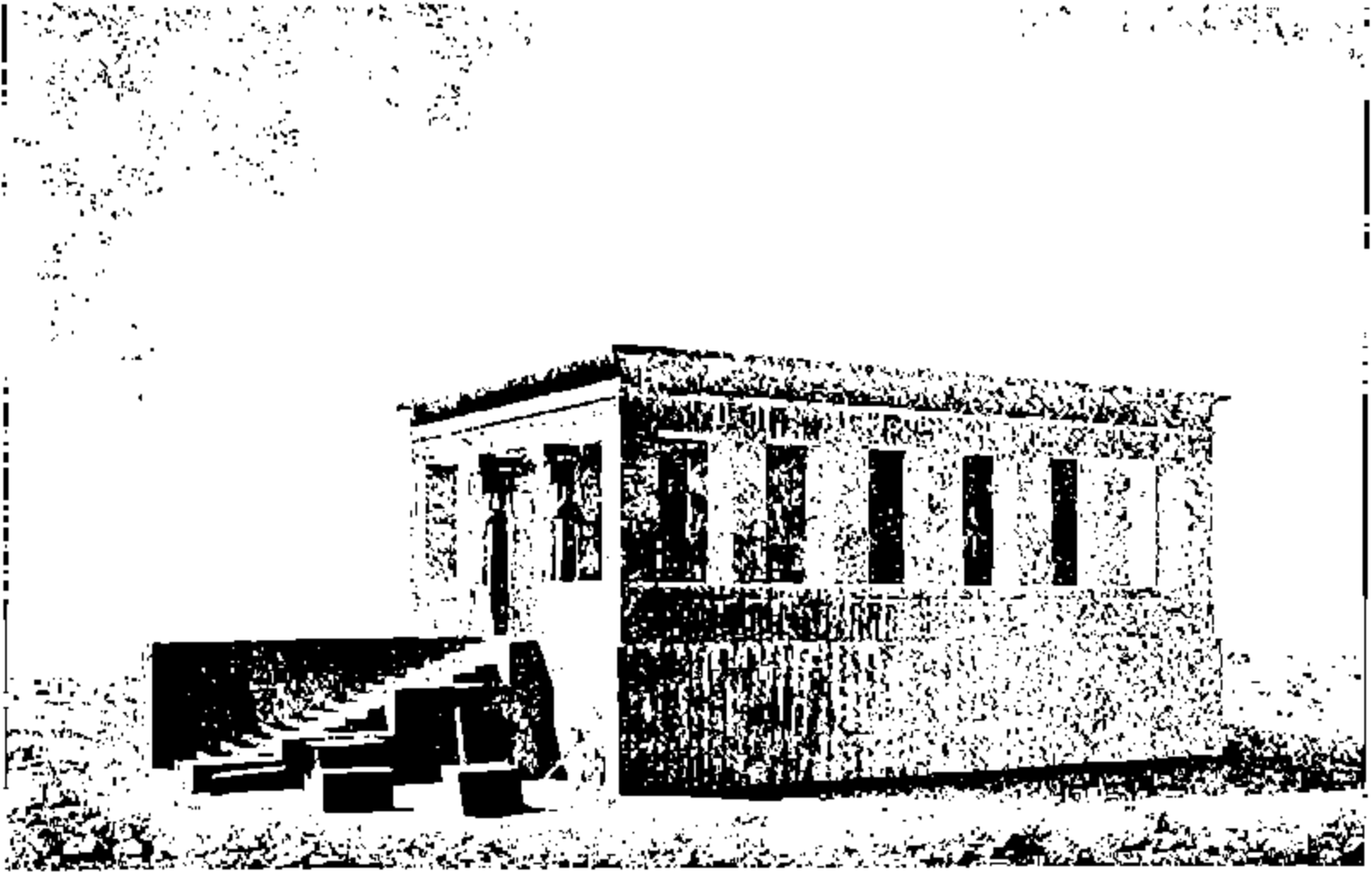
١ - مسلة هليوپوليس.



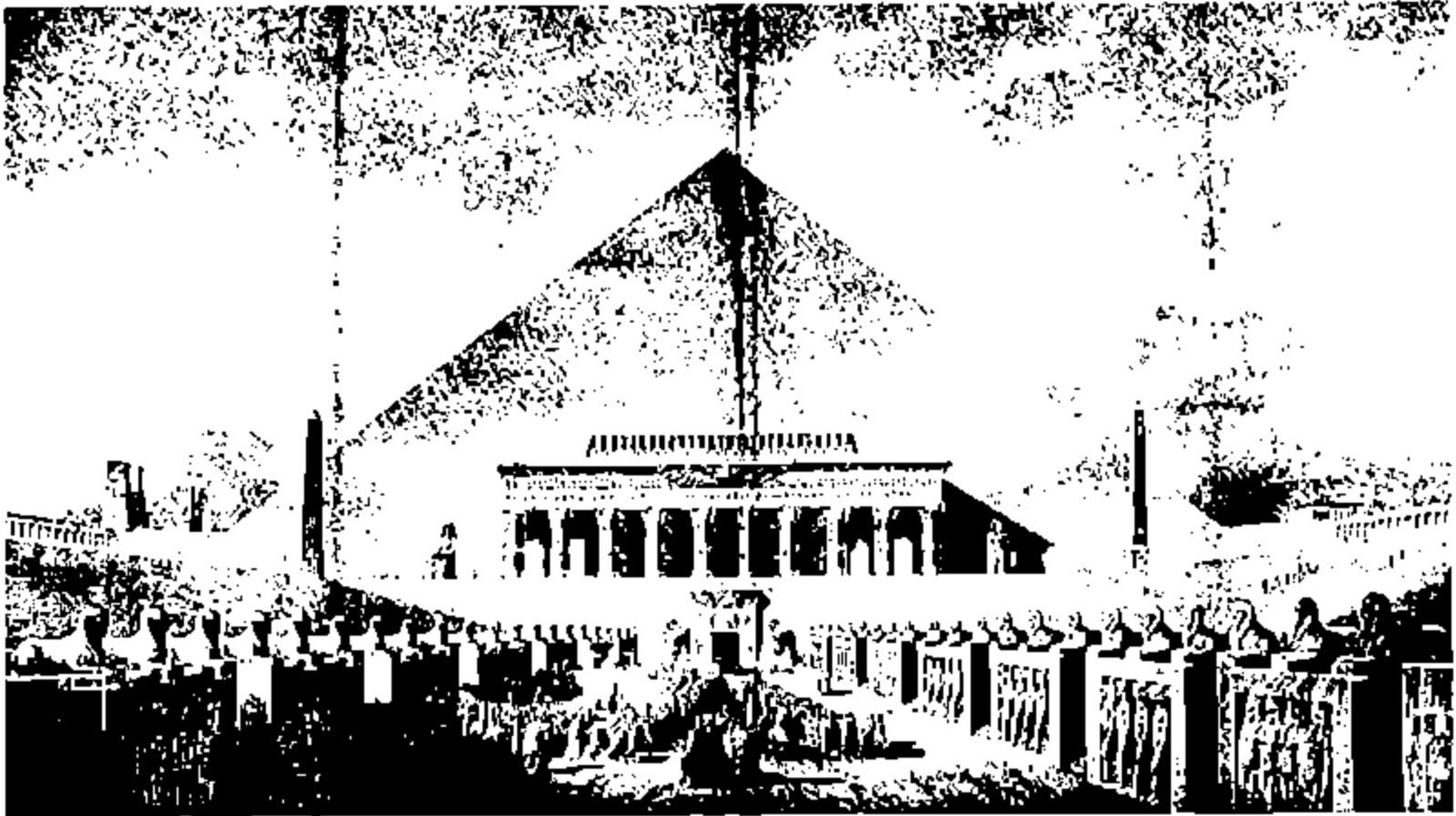
٢ - ساحات القصور والمعابد.



٣ - الجناح المصري كما رسمه كليبر، الجنرال فيما بعد.
(ب) الواجهة.



٤- (١) معهد أمهنرليس الثالث ذو الأعمدة في اللنتين.



(ب) موكب.



٥ - «مجمع الآلهة» المجتمعين في ليل بناء معبد مدينة - هابو ل - إملاء شرائع الحكمة، على الملك.



Beethollet

٦ - (١) بهرتولليه.



Polomiro

(ب) پولوميو.



(ج) لستقبال يونانهارت في المعهد.



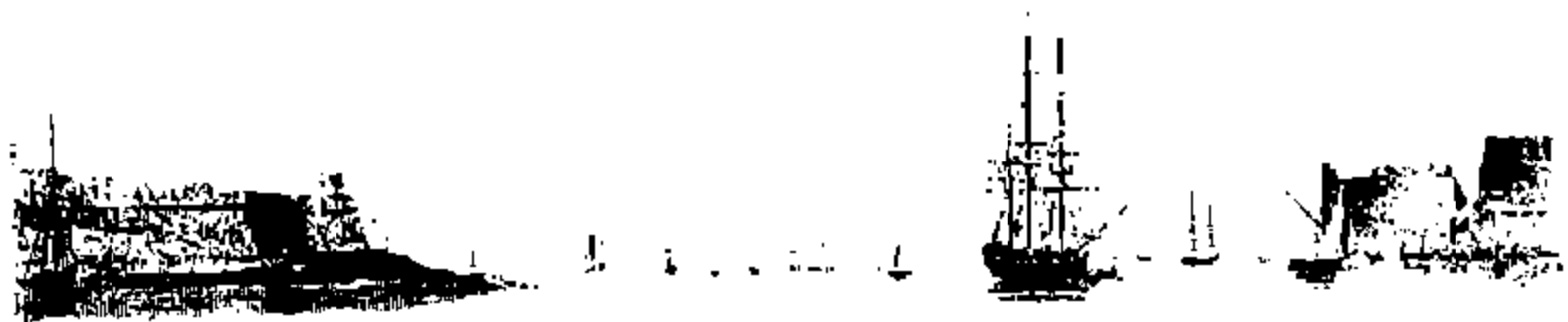
۷ - (ا) کالاریلی.



(ب) ہلزاك.



(ج) جومار.



«بارك الله أيامكم وعزذ منعتكم»

«منذ وقت طويل والإدارة التنفيذية للجمهورية الفرنسية تود إشعاركم بتوليها الحكم. ووسط مشاغل ضخمة تسببت لها فيها عصابة هائلة، غالباً ما وجهت لكمها إليكم. ولم يك برسمها نسيان أن فرنسا تعتبركم من بين أصدقائها، وقد تأملت لكاً يفوق الوصف وهي تراكم عرضة لهجمات أعدائكم، دون أن تتوانر لها إمكانية تزويدكم، بوصفكم حليفاً مخلصاً، بإمكانات صلبهم. لكن الأزمات تغيرت. فالجمهورية الفرنسية ظفيرة. وقد أملت الصلح على أعدائها، باستثناءه عدو واحد ما يزال عدواً لها وعدواً لكم أيضاً. إن اللحظة التي نعيشها فيها بالقضاء على الأعداء على طغيانته في أوروبا، لابد من أن تهو لكم مواتية لنزع الغير الذي يخبئ بكليلة على أسياء» (٣٨).

والحال أن هذه الأوراق - الرسائل لن تستخدم لهذا وذلك بسبب الحصار الذي فرضه الأسطول الإنجليزي على مصر. وهي غير مفيدة على أية حال. ذلك أن ريتشارد كولي وويلسلي، كونت مورننجتون الثاني (شقيق من سوف يصبح في المستقبل دوق ويلينجتون)، يسافر بالفعل إلى الهند كحاكم عام. وهو، منذ وصوله في مايو ١٧٩٨، يشرع بهداء إمبراطورية إنجليزية حقيقية عبر القضاء على قوى الأمراء الهنود. وحتى دون أن يكون لديه علم بمشاريع الفرنسيين، وخروجاً على تعليمات حكومته، فإنه يهتمهم بأنهم على اتصال بفرنسا، وفي غضون شهور قليلة يجعل من الأراضي التي استولى عليها الإنجليز القوة المهيمنة في الهند. إن الهيمنة البريطانية قد حلت محل توازن السلطات للحلي. وقد أصبح الأمراء الهنود ضحايا لالتقاء الآراء بين تاليران وويلسلي (٣٩).

وفي أواخر أبريل هذه، فإن تمرداً في فيينا ضد سفارة فرنسا استثاره دعوة برناتوت، قليل للرغبة فيما يتعلق بالديبلوماسية، إنما يهدد بإعادة الحرب إلى القارة. وعندئذ تفكر حكومة الإدارة في وقف استعدادات الحملة سعياً إلى مواجهة هذا الخطر الجديد. ويتأخر رحيل بوتابارت إلى طولون. وفي النهاية، سعياً إلى تجنب التضحية بالعمل الضخم المبذول في الإغراق للحملة، تبحث الحكومة عن تسوية مع النمساويين؛ لسوف يجرى التراجع جزء من الغنيمتة العثمانية عليهم. لكن النمساويين لا يهتمون إلا بتعديلات إقليمية مع إيطاليا والمانيا (٤٠).

على أنه يتعين الإسراع بالرحيل. وأوروبا كلها تتسائل عن غاية الاستعدادات في طولون. لمي نابلي أم لبرتغال أم شرق البحر المتوسط؟ إن الإنجليز ما يزالون منشغلين

بمحاصرة للموانئ الأسبانية والفرنسية على المحيط الأطلسي، لكن بوسعهم من حين لآخر إنضال أسطول إلى البحر المتوسط. ومن شأن أي تأخير إضافي زيادة المخاطر زيادة ملحوظة. ويفكر بوناپارت للحظة في أن يترك في فرنسا كليبر وبيزيه لقيادة الجيوش في حالة استئناف للحرب في القارة. لكن حكومة الإدارة ترفض، فهي ترتاب كثيراً في هذين الجنرالين، اللذين من المشتبه به مودود خلال ١٨ بروكتيدور، واللذين الآن من بوناپارت.

بوناپارت في طولون

يصل بوناپارت إلى طولون في ٩ مايو. وكعاقبة، يوجه بياناً إلى الجيش،

«أيها الجنود!

«لقد كنتم لحد لحظة جيش حملة إنجلترا. وقد خضتم حرب الجبال والسهول والحصارات؛ ويبقى أمامكم خوض الحرب البحرية.

«إن الفيلق الروماني، التي قلستوها أحياناً، ولكن دون مدائناتها بعد، قد حاربت الرطاجنة فيلقاً إثر آخر في هذا البحر نفسه وفي سهل زامبا. إن النصر لم يتخل عنها قط، لأنها كانت على اللوام مقدمة وصابرة على الشدائد ومنضبطة ومتحدة فيما بينها.

«أيها الجنود! إن أوروبا تحول أبحارها شطركم. وأمامكم حصم مصائر عظيمة ومعارك تخوضونها ومخاطر ومناعب تتغلبون عليها. إنكم سوف تفعلون للمستحيل من أجل ازدهار الوطن وسعادة البشر ومجديكم إنتم أنفسكم.

«أيها الجنود، أيها البحارة، أيها للمشاة، يارجال المدفعية لو الفرنسيان، اتحدوا؛ تذكروا إنكم ساعة للمعركة، بحاجة أحكمكم إلى الآخر.

«أيها الجنود - البحارة، لقد كنتم حتى الآن مهملين. أما اليوم فإن أولي اهتمام من جانب الجمهورية إنما يتركز عليكم. وسوف تكونون أهلاً للجيش، الذي تشكلون جزءاً لا يتجزأ منه.

«إن روح الحرية، التي جعلت الجمهورية منذ ميلادها حكماً أوروبا، نشاء أن تجعل منها حكماً البحار والامسى الهلن،^(١١).

إن تأثير قولني واضح. وهذه الحملة هي بالفعل تحقيق لبرنامج «الأطلال» في الأمة العظمى، سوف تمد ملكوت الحرية إلى كل الإنسانية.

والإحالة إلى العصر القديم ثابتة، فإنجلترا، القوة التجارية والبحرية، هي قرطاجنة الجديدة التي يجب تدميرها. وبوتانيارت هو سيبليون الأفريقي الجديد، الذي يمكنه التوحد معه دون صعوبة. ومن المعروف إلى أي أحد كانت الجمهورية الرومانية تخشى على مؤسساتها من مجد قاهر قرطاجنة.

والفلكد العام يعرف أيضاً العداء الدائمة بين القوات البحرية، التي حققت كثيراً من الانتصارات للجمهورية، والقوات البحرية، الأتني دائماً من قوات الإنجليز البحرية. ولعلاج ذلك، يجري توحيد البحرية بالجيش البري. فالبحارة أجنود، والأسطول الفرنسي هو «الجيش البحري».

الأسطول

هذا الجيش البحري للجمهورية هو وريث الأسطول الرائع الذي كانت الملكية الفرنسية الأخذة بالزوال قد أعانت بنائه بعناية. وإذا كانت توجد بعض الوحدات القديمة التي لا تحظى برعاية جيدة في أسطول طولون، فإن هذا الأسطول يضم أيضاً سفناً حديثة مثل لوريان (الشرق)، أضخم سفينة حربية في تلك الزمان، والتي بُشنت في عام ١٧٩٠ وكذلك سفينة لوفرانكلين، حديثة البناء، والتي تعتبر مواصفاتها العامة لرقى بكثير من مواصفات السفن الإنجليزية من النوع نفسه، ويبدو مؤكداً أن البناء البحري الفرنسي قد بلغ أوجه في أواخر القرن الثامن عشر مع بناء سفن حربية متفوقة على للوحدات الإنجليزية للمناظرة من حيث قوة نيرانها (١٢).

على أن للهجرة قد اختزلت بشكل ملحوظ سلاح ضباط البحرية الذين يصعب إحلال ضباط جدد محلهم بشكل سريع. والحال أن هوش، خلال استعداداته للإنزال في أيرلندا في عام ١٧٩٦، قد وجد الأميرال فيلاتوف جويوز يرد عليه: «ضباط البحرية؟ لقد ماتوا كلهم في كيببيرون» (١٣).

أما نقص البحارة للتدربين، الجسم جسمامة نقص الضباط الجيدين على الأقل، فهو يرجع إلى حروب العصيان الملكي البريتوني التي كانت قد أدت إلى عزل بريست على مدار شهور، مما قاد إلى نسبة وفيات مرتفعة بين البحارة وإلى وقف التجنيد. كما أن معارك طولون في عام ١٧٩٣ قد أدت بتورها إلى التأثير بشكل قاسٍ على أعداد بحارة البحر

المتوسط. وقد كانت البحرية الفرنسية من الحروب الأهلية للثورة بكثير مما عانت من المعارك ضد الإنجليز. وهي تفتقر بشكل قاسي إلى الكوادر المؤهلة.

إن التشجاعة الفرنسية لجنود بحرية الجمهورية لا جنال فيها. وسوف تثبت أبواقير ذلك. لكن إيراك التفوق التقني لجنود البحرية الإنجليز، الأوفر عنداً، والأفضل تأهيلاً والأكثر خبرة، وإيراك عدم كفاية الأطقم الفرنسية في حالة القتال إنما ينحط في أغلب الأحوال إلى شلل للإدارة وإلى رفض لكل عمل جسور. وهذا الضعف للمعوى للبحرية سوف يكلف الحملة هلياً جداً.

وعندما يصل بروي إلى طولون، فإنه سوف يسعى إلى إعادة تنظيم أطقمه. وهو يتجه إلى تغييرات في القيادة وإلى عمليات تجنيد إضافية. وهو يحظر على أطقمه النزول إلى البر، خوفاً من تزايد حالات الفرار. وهذا الوضع يزيد سخط رجال البحرية الذين ينتظرون منذ عدة أشهر تسلم رواتبهم. (٤٤)

والأسطول الذي يتمتع به بوناپارت ضم ١٣ سفينة حربية، ٦ فرقاطات، حراسة و ٢٥ سفينة أخرى من أحجام مختلفة لا بد من أن تضيق إليها سفن النقل (أكثر من ٣٠٠). وتؤدي إضافة جنود البحرية إلى الجنود وإلى الكوادر الأخرى التي تتركب البحر إلى إجمالي نحو أربعة وخمسين ألف رجل يتحركون من موانئ مختلفة. ولا يملك للره شهر الإحجاب بالجهد الإنلري الذي بذلته حكومة الإدارة في مثل هذا الوقت القصير.

اجتياز البحر المتوسط

مألفه

بدأ رحيل أسطول طولون في ١٩ مايو ١٧٩٨. وتتمثل مهمته الأولى في تحريك الحشد مع القوافل الأخرى القادمة من موانئ البحر المتوسط الأخرى. وتنضم إليه قافلة جنوة في عرض هذا لليناء بعد يومين. ثم يحاذي الأسطول كورسيكا حيث يتم الارتباط بقافلة أجلسيو. وامتيازاً من ٢٩ مايو، تجرى محاولة ساحل سردينيا بحثاً عن قافلة سيبيتا - فيتشيا. وعندئذ يبلغ أحد القراصنة بونابارت بوجود نيلسون في البحر المتوسط، ويثير مصير القافلة الأخيرة حيرة وانزعاج المسؤولين الفرنسيين. وتقدم سفن محايدة تم اعتراضها معلومات تؤكد ضعف الأسطول البريطاني. وعندئذ يقرر بونابارت عدم انتظار بحرية والتحرك مباشرة صوب مالطة. والواقع أن قافلة سيبيتا - فيتشيا توجد بالفعل أمام هذه الجزيرة ويتم الارتباط بها في ٩ يونيو أمام الهدف الأول للحملة.

والحال أن الاستيلاء على مالطة يعتبر مشروعاً قديماً من مشاريع بونابارت. وقد خطط لذلك منذ فتح الجزر الأيونية في يوليو ١٧٩٧. وقد ظلت أخوية مالطة محايدة خلال حروب الائتلاف الأول. وكانت الجمعية التأسيسية قد حظرت في ٣٠ يونيو ١٧٩١، تحت طائلة فقد الجنسية، انتماء الفرنسيين إلى أخوية فرسان أجنبية. وكانت ممتلكات الأخوية في فرنسا قد صودرت وضمت إلى الممتلكات القومية (الفرنسية - المترجم) الأخرى (في ١٩ سبتمبر ١٧٩٢، وهذا القرار هو أحد القرارات الأخيرة للجمعية التشريعية). وحتى تتمكن الأخوية من البقاء، فقد كان عليها عندئذ التقارب مع روسيا والنمسا. وخلال صيف ١٧٩٧، يكتب بونابارت عدة مرات إلى حكومة الإنارة وإلى تاليران حول ضرورة الاستيلاء على مالطة، القاعدة الأساسية للعمليات في شرق البحر المتوسط.

وهو يورد إلى مالطة بوسيلج، الأمين الأول للمفوضية الفرنسية في جنوة، وذلك بحجة تفقد ثغور شرق البحر المتوسط، وإن كان الهدف الفعلي هو الاطلاع على دفاعات الجزيرة وعقد صلات مفيدة في الساحة. وفي تلك اللحظة (نوفمبر ١٧٩٧)، يخطط للاستيلاء على الجزيرة من جانب أسطول البحر الأبيض الذي يقوده بروي في تحركه نحو الأطلسي للمشاركة في النزول في إنجلترا. ويتحرك بروي متأخراً عن الموعد وهو

بفضل خلاصة التحرك مباشرة إلى طولون بسبب نقص مؤن. ويسمح تحرك الحملة بتطبيق هذا المشروع للزجل حتى تلك الحين، ومن ثم يفتح هذا للواقع الاستراتيجي الرئيسي.

والواقع أن أخوية مالطة كانت قد اضمحلت كثيراً منذ زمن مجدعا في القرن السادس عشر وألوانها العسكرية لا تعدو أن تكون ظاهرية. لكن أعمال التحصين ضخمة ويمكنها أن تشكل عقبة حقيقية في وجه الفرنسيين. وهي القوة الوحيدة القائمة، لأن الأخوية لا تتمتع إلا بألف وخمسمائة مقاتل متفرغ أما الميليشيات فهي لا توجد إلا على الورق.

والواقع أن الفرسان - وكثير منهم من أصل فرنسي - لا ينفون القتال. ورجال الميليشيا الجندون من بين اللطفيين الأصليين لا يشتبهون الموت من أجل الفرسان. وقد نجح هوسيلج وقنصل فرنسا في اجتذاب كثير من اللطفيين.

ويطلب بونابارت السماح له بدخول ميناء فاليتا للتزود بالمياه. لكن الفرسان، المرتلين عن حق، لا يسمحون إلا بتواجد أربع سفن في المرة الواحدة، الأمر الذي من شأنه تلخير تحرك الأسطول. ويجري استخدام هذه الذريعة لتبرير الهجوم على الجزيرة. وكما كتب قنصل فرنسا إلى الراعي الأكبر لأخوية مالطة، فإن: «الجنرال بونابارت عازم على أن يأخذ بالقوة ما يتعين تسليمه له. استرسانا بمبادئ كرم الضيافة، التي تعدّ أساس أخويتكم. [...] والجنرال لا يريد شيئاً غير أن يعود إلى منجته يرى أنه مضطر منذ ذلك الحين إلى معاملتها كعدو وأنها لم يعد لها أمل إلا في استقامة الجنرال بونابارت. وقد أصدر الأوامر الأكثر صرامة بالاحترام التام لديانة وعلمات وممتلكات اللطفيين» (١٥).

وقد أصدر القائد العام الأوامر في ٩ يونيو ١٧٩٨. وينجح إنزال رياضي في ١٠ يونيو. ومنذ ١١ يونيو، يطلب الراعي الأكبر وفقاً لإطلاق النار وإجراء مفاوضات. وسوف يلعب بولوميو، عالم المعائن، والفارس القديم، دور الوسيط مع هوسيلج. ويتم توقيع اتفاق في ١٢ يونيو، إن الأخوية تتنازل لفرنسا عن جميع حقوقها في السيادة على مالطة وتوابعها. وسوف يحصل الراعي الأكبر على تعويض مناسب ويحصل الفرسان على معاش هزيل سوف يتلقونه في بلنعم الأصلي.

ويقبل عدد معين في فرسان مالطة الانضمام إلى الحملة. والحال أن بعضاً منهم، مثل شانغليليس ولاسكاريس، سوف يلعبون دوراً مهماً في إدارة مصر. لكن جميع

الأخرين، إذا كانوا دون الستين من العمر، يجرى طرحهم على الفور. ويلقى القصاصات الذين ليست لهم أصول مالطية المصير نفسه. ويتعين على رجال الدين الباقين الامتناع عن الاعتراف بسلطة البابا في إدارة الشؤون الدينية.

ويجرى الامتناع بنهب جميع نور الخزائن العامة وكنائس الأخوية سعياً إلى التمتع بإمكانات نقدية في مصر. ولا تتمتع الحملة باحتياطات نقدية كافية، ثم إن المصارفات التي جرت في ملطه سرعان ما سوف يتضح أنها غير كافية.

وينتقل بوناپارت بتنظيم فتحه الجديد. فهو يعين لجنة حكومية تتكلف من تسعة وجهاء محليين ومن مفوض فرنسي، وهي مكلفة بالتنظيم المادي والقبضات والإدارة. والمفوض الفرنسي هو الذي يملك بطبيعة الحال سلطة القرار.

ويقرض بوناپارت على اللاطين النظام الفرنسي. فهم يصبحون متساوين أمام القانون، ويجوز حظر جميع الألقاب والعلامات الأرستقراطية. والشارة الثلاثية الأكران إلزامية، لكن ارتداء الزى القومي الفرنسي، وهو علامة للمواطنة الفرنسية، ليس مصرحاً به إلا لأولئك الذين يثبتون تعلقهم بالجمهورية الفرنسية أو يتميزون بلضطلاعهم بعمل رائع ما. ويصبح الانتماء إلى الأمة العظمى شرفاً في ذاته. ويتعين إرسال الأبناء الذكور للوجهاء إلى فرنسا على نفقة عائلاتهم والحصول على تعليم فرنسي؛ ومن المؤكد أن هذا يمثل تذكرًا لممارسات الرومان القدماء. ويجري إنشاء بلديات وحرس قومي تحت قيادة ضباط فرنسيين. ويتم تقسيم البلد إلى كانتونات ودوائر. ويحصل الأرثوذكس اليونانيون واليهود على حق ممارسة عباداتهم بحرية.

والواقع أن كل شيء يعتمد على الحاكم العسكري الفرنسي، الجنرال فوبوا، الذي يتعين عليه البقاء هناك مع نحو ثلاثة آلاف جندي. ويجري إجبار جنود الأخوية السابقين على الانضمام إلى الحملة. وبشكل ما، فإن ملطه تمثل التطبيق الأول للأفكار النابولونية في مجال الحكم.

والواقع أن سقوط أخوية ملطه سوف يخدم سياسة بوناپارت الإسلامية. وهو يخبر قنصل (فرنسا - للترجم) في الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بما حدث، ويكلفهم بإعلان الخبر السعيد لبايات هذه الولايات التي تتمتع بقدر من الاستقلال. وهو يأمر بتحرير العبيد المسلمين الألفين الذين كانوا يخدمون في الصفين الشرعية للأخوية ويطلب معاملة مماثلة من القوى المغربية. وهو يرسل مرافقه لاقليات إلى الجزر الأيونية للاتصال

بعلی باشا الجهادیناوی واقتراح عروض سیاسیه علیہ. القواقع ان باشا البانیا يمكنه التلیم بعمل مهم فی البلقان من شأنه تحويل أنظار العدو عن بؤرة الصراع.

كما ان الاستحواذ علی مالطه وسمج بتهدید مملكة نابولی تهدیداً مباشراً وفرض مخطوط قوية علیها. لكن لسطول نیلسون یرسو فی الترو والحال فی نابولی.

الوحلة البحرية

فی ١٨ يونيو، يستأنف الأسطول الفرنسى طريقه إلى مصر. وهو بالغ الهشاشة فی مواجهة معركة بحرية. وصحيح ان بوناپارت كان قد ارتلى (إجراء مناورات تدريب یومية حيث یتمعن علی رجال مدفعية الجيش البری مساعدة رجال مدفعية البحرية. والقائد العام یقنع نفسه بهذا الشكل بقوة وضعه. لكن جنود البحرية كانوا اقل ثقة بشكل واضح، فالسفن محملة أكثر من الممكن بالرجال والعتاد، الأمر الذى یختزل قدرتهم علی المناورة.

وفی المساء، تعزف فرقة للموسیقی العسكرية الحاناً حزبية تهدف إلى الحفاظ علی العزيمة القتالية لدى الجنود وإلى إعلانهم لولجبة تالية مع الأسطول الإنجليزى. وعندما تتقارب السفن، تتوقف للموسیقی ویجرى التساؤل عن انتهاء المبحرين الآخرين. وبعد غروب الشمس، یمثل الجنود كوميديات من بنات خیالهم (كان موضوعها ظمناً تقريباً هو تخليص جارية من جوارى العسرای واختطافها من أیدی تركى عجز وزواجها من الجندى الفرنسى محررها). (٤٦)

كما یجرى اللعب كثيراً بأوراق الكوتشينة ویتمعن علی الجدران التتخل لولف القمار. ویشكو الجميع من الازسحام والتكدس وتتفجر شجارات صغيرة عديدة علی الصندرة وعلى مكانة متميزة بین ضباط البحرية وضباط الجيش البری والعلماء.

وعلى متن «لوريان»، سفينة الأميرالية وأضخم سفينة فی ذلك العصر، یحب بوناپارت التناقلش مع العلماء وضباطه الرئیسیین. ومحادثوه المعتانون هم مونج وپيرونوليه وكافاريللى. وتتصل موضوعات الحديث بالكيمياء والرياضيات والدين. ویعرض كافاريللى نظرياته، المستلهمة من روسو، حول إلغاء الملكية. كما یقف القائد العام علی شئون المناورات البحرية من بروى. (٤٧)

ویهدى ديزيه وكليبر الفضول الفكرى نفسه مع حاشيتهما. أمّا رينيه، وهو أحد

لرؤع ضابط الجيش (قائد لواء وهو في الرابعة والعشرين من عمره في عام ١٧٩٥ وقائد فرقة في العام التالي) والمعروف بشخصيته المنطقة، فقد طلب أن يحضر إلى سفينته هيلبروا سانت - هيلبر وهو من نفس عمره، لكي يتحدثا سوياً عن التاريخ الطبيعي، لحد موضوع شغفه الكهربيين (حيث كان موضوع شغفه الكبير الآخر هو البحث عن اللحد كما هو واضح) (٤٨).

وعند رحيلهم عن مالطة يهدأ العسكريون للبحرون في إسراك الوجهة الحقيقية للحملة، الأمر الذي يشكل مفاجأة للكثيرين (٤٩). لكن سفينة منفصلة عن الأسطول كانت قد رصدت أسطولاً إنجليزياً يتجه نحو الغرب، ويدرك بوناپارت أن عليه إصرار الحركة. ويحول بيته ويبن ذلك عدم تجانس السفن التي تشكل القافلة الفرنسية وتؤدي عاصفة عانية إلى تفرق السفن. ومن ثم فإن السير أمام كريت يتعطل.

نيلسون

من الواضح أن الانجليز كانوا على علم بحشد القوات الفرنسية في طولون. لكن الفرنسيين كانوا قد استخدموا هذا للبقاء ملتصقين بالالتفاف على الحصار الإنجليزي لموانئ المحيط الأطلسي. وعندئذ ترى القيادة البحرية أن الأولوية يجب أن تولى للدفاع عن الجزر البريطانية ضد نزول الفرنسيين الذي ذاع الحديث عنه. ومن ثم فإن الحصار يمتد من هكسبل إلى كاديكس، لأن إسبانيا حليفة فرنسا في الحرب ضد إنجلترا.

وفي ١٧ أبريل، تفرض الحكومة الإنجليزية على القيادة البحرية إرسال قوة بحرية إلى البحر المتوسط في مستهل يونيو. وفي أواخر أبريل، تطلق جميع السفن المتوافرة الأمر بالاتجاه إلى البحر المتوسط. ومن ثم فإن الحكومة الإنجليزية تغامر بتعرية الجزر البريطانية من الحماية لحساب الدفاع عن الهند.

ويتولى نيلسون قيادة هذه القوة البحرية التي تتعاضد بسرعة. إلا أنه ينقصه الأكثر أهمية، السفن الصغيرة السريعة التي يمكنها قطع شوط أطول في مجال الاستطلاع وإبلاغ الأسطول بالمعلومات الضرورية حول تحركات الفرنسيين. ولا يعرف الإنجليز أية وجهة يتخذون، فإن لم يهاجم الفرنسيون الجزر البريطانية، فلا بد أنهم يستهدفون الهند. إلا أن بومسهم السعي إلى الوصول إليها عن طريق المحيط أو مصر أو بقية شرق البحر المتوسط. وتؤكد تقارير جواسيس كثيرة أن الهدف هو مصر، لكن للمعلومات متناقضة. ويبدو طريق الهند عبر سوريا وبلاد الرافدين والخليج الفارسي بوصفه الطريق الأرجح في نظر المسئولين البريطانيين.

والى ١٥ يونيو، لم يخطر نيلسون على شيء فى غربي البحر المتوسط. وهو يرى أن الفرنسيين قد وصلوا بالفعل إلى شرقى صقلية، والأرجح أنهم قد وصلوا إلى الإسكندرية. ونبا الاستيلاء على مالطة، الذى عرفه فى ميسينا فى ٢٠ يونيو، يؤكد رأيه. وهو يتجه بسرعة إلى مصر بمحاذاة الساحل الأفرقى وفى ليلة ٢٢/٢٢ يونيو يتجاوز الأسطول الفرنسى. والحال أن الغمام والعاصفة التى لشرنا إليها بالفعل بمنعاه من رؤية الفرنسيين. ويؤدى تأخر الأسطول (الفرنسى - المترجم) إلى إنقاذ بوناپارت. وفى عصر البحرية الشراعية، يصعب تحديد موقع أسطول متحرك. وكانت المعارك تدور قرب المراسى.

والى ٢٨ يونيو و٢٩ يونيو، يصل نيلسون إلى الإسكندرية. وهو يثير الانزعاج فى المدينة، لكن أحدًا لم ير الفرنسيين. ومن ثم فإنه يتجه إلى الساحل السورى، ثم إلى قبرص. وإذا لا يرى مجيء شيء فى جميع الأحوال، فإنه يرجع إلى غربى البحر المتوسط ويرسو فى سيراكوز وهو بحاجة إلى التزود من جنيد باحتياطياته من المياه ومن المؤن كما أنه بحاجة إلى الاضطلاع بأعمال على سفنه. وهو لا يعرف البتة نوايا الفرنسيين عندما يغادر سيراكوز فى ٢٥ يوليو. وفى ٢٨ يوليو فقط يعرف أن الأسطول الفرنسى قد شوهد متوجهاً إلى مصر قبل شهر. وهو (نيلسون - المترجم) يصل لملم الإسكندرية فى ٢١ يوليو.

بيان بوناپارت إلح الجيش

فى اللحظة التى يسبق فيها نيلسون بوناپارت فى توجهه إلى الإسكندرية، يحدد الأخير بيانه إلى الجيش، والذى يعلن تغييراً بشكل رسمى غاية الحملة:

«إلى الجيش البحرى،

«من على متن لوريان، فى ٤ ميسيدور من العلم الرابع [٢٢ يونيو ١٧٩٨]

«إيها الجنود !

«إنكم سوف تجتروون فتحاً يصعب قياس آثاره على الحضارة وتجارة العالم

«إنكم سوف توجهون إلى إنجلترا الضربة الأكبدة أكثر من سواها والمحمومة أكثر من سواها انتظاراً للحظة التى يتسنى لكم فيها توجيه الضربة القاتلة إليها.

«إننا سوف نقوم ببعض التمركات للرهقة، وسوف نخوض عدة معارك وسوف نتجح فى جميع معامينا؛ فالأقدار معنا.

«والبيكوات للمالكيك، الذين لا يحملون غير التجارة الإنجليزية والذين كانوا لتجارنا صدف للهائات ويستهبون بسلطان خلفك الذيل التعصاء، لن تقوم لهم قائمة بعد أيام قلائل من وصولنا.

«إن الشعوب التي سوف نحيا معها شعوب محمدية؛ ولول أعراف إيمانها هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فلا تخالفونهم؛ تعاملوا معهم مثلما تعاملنا مع اليهود، ومع الإيطاليين؛ احترموا رجال الفتوى بينهم واحترموا أئمتهم، مثلما فعلتم مع الحاخامات والقساوسة. ولتبدو تجاه الشعائر التي يوحى بها القرآن، وتجاه المساجد التسامح عيده الذي أبدىتموه تجاه الأنيرة للصحية والمعابد اليهودية، تجاه ديانة موسى وديانة يسوع المسيح.

«لقد حمت الفيلق الرومانية جميع الأنهار

«وسوف تجنون هنا أعرافاً مختلفة عن أعراف أوروبا، وعليكم التعود على ذلك.

«والشعوب التي سوف نتجه إليها تعامل النصل معامل مختلفة عن معاملتنا لهم؛ لكن من يمارس الاحتصاب هو، في جميع البلدان، وحش.

«والذهب لا يثرى غير عدد قليل من الرجال؛ وهو يجربنا من الشرف، إنه يدمر مواردنا؛ ويجعلنا أعداء للشعوب، التي من صالحنا أن تكون صديقة لنا.

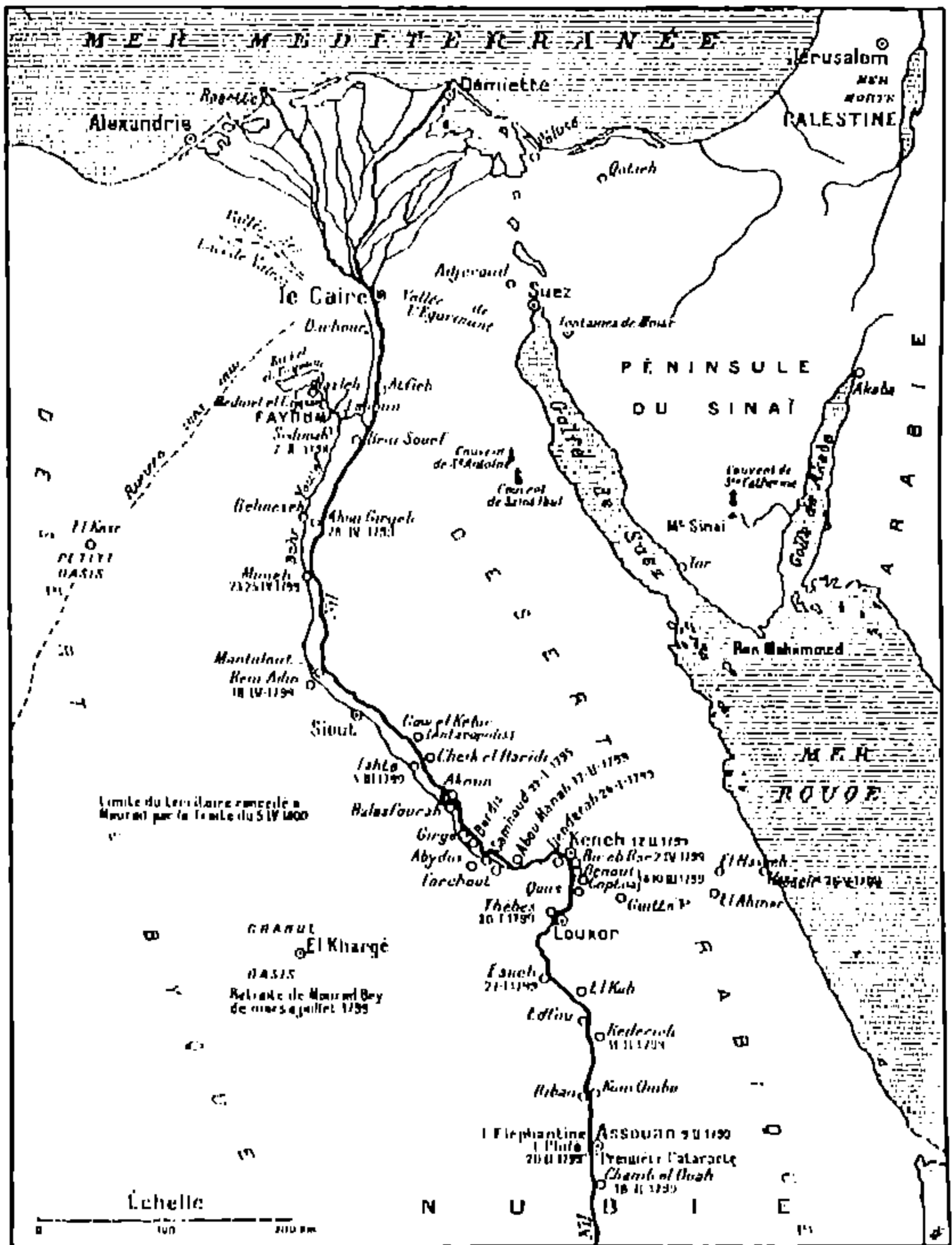
«إن المدينة الأولى التي سوف نقابلها قد بناها الإسكندر. وسوف نجد في كل خطوة تنكارات عظيمة جديدة بأن يستلهمها الفرنسيون».

إن الإسكندر الأكبر، ففتح آسيا الشاب، ذلك الذي رعى امتزاج الغرب والشرق، من الواضح أنه الأسطورة الأسلمية لبونابارت الشاب مثله والذي يتهيا لتجديد ماثرة الزحف مع جيشه على خلف البحر المتوسط إلى الهند وتوحيد العالمين في ثقافة واحدة.

وسوف يتهيا لأول اتصال فعلى بين عالم التنوير وعالم الإسلام أن يتأسس. فالحقيقة الفريدة في التاريخ هي أن هذا الجيش الفرنسي لا يتألف إلا من ملحدين ومؤلهين للطبيعة ولا لربين. وهذا التسامح، الذي يضع الديانات التوحيدية للثلاث على قدم المساواة، إنما هو تعبير أصيل عن تيار أعمق يعبر عن نفسه في مفهوم الحضارة. والمصطلح، الذي يظهر هنا لأول مرة في نص سياسي بشكل مباشر، إنما يملك قوة الأفكار الجديدة. ومكانته لا تدعبر بعد من جراء استهلاكه المفرط وتخطيه لخصايها جد مريبة.

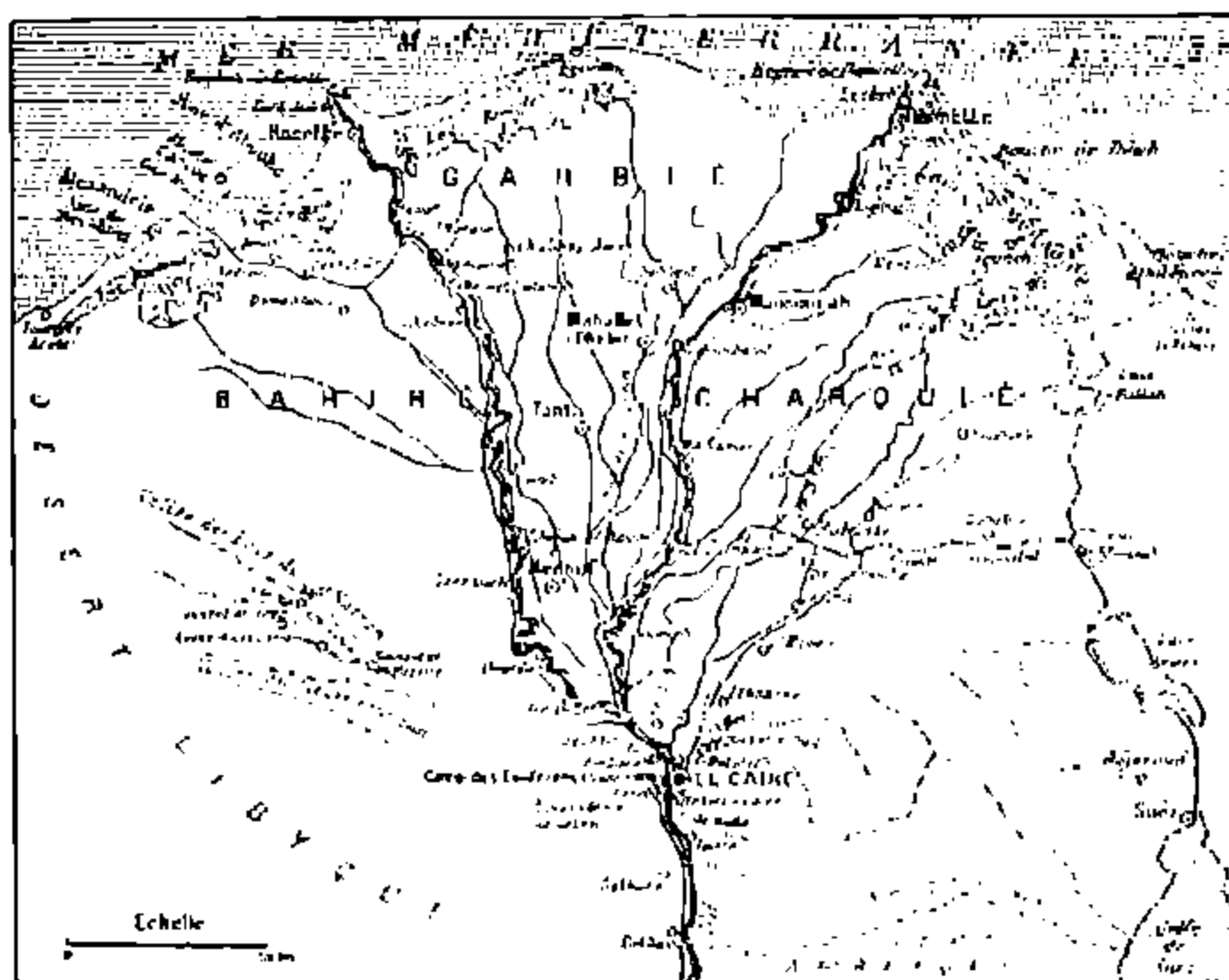
والحضارة، انعكس الغرب على نفسه، على تاريخه، على مستقبله، هي أيضا
برنامج للغريب الآخرين. وسوف تكون مصر أول أرض من أراضي الإسلام، أول أرض غير
غربية، تواجه هذا التحدي العظيم.

لكن مصر هذه، ما هي؟

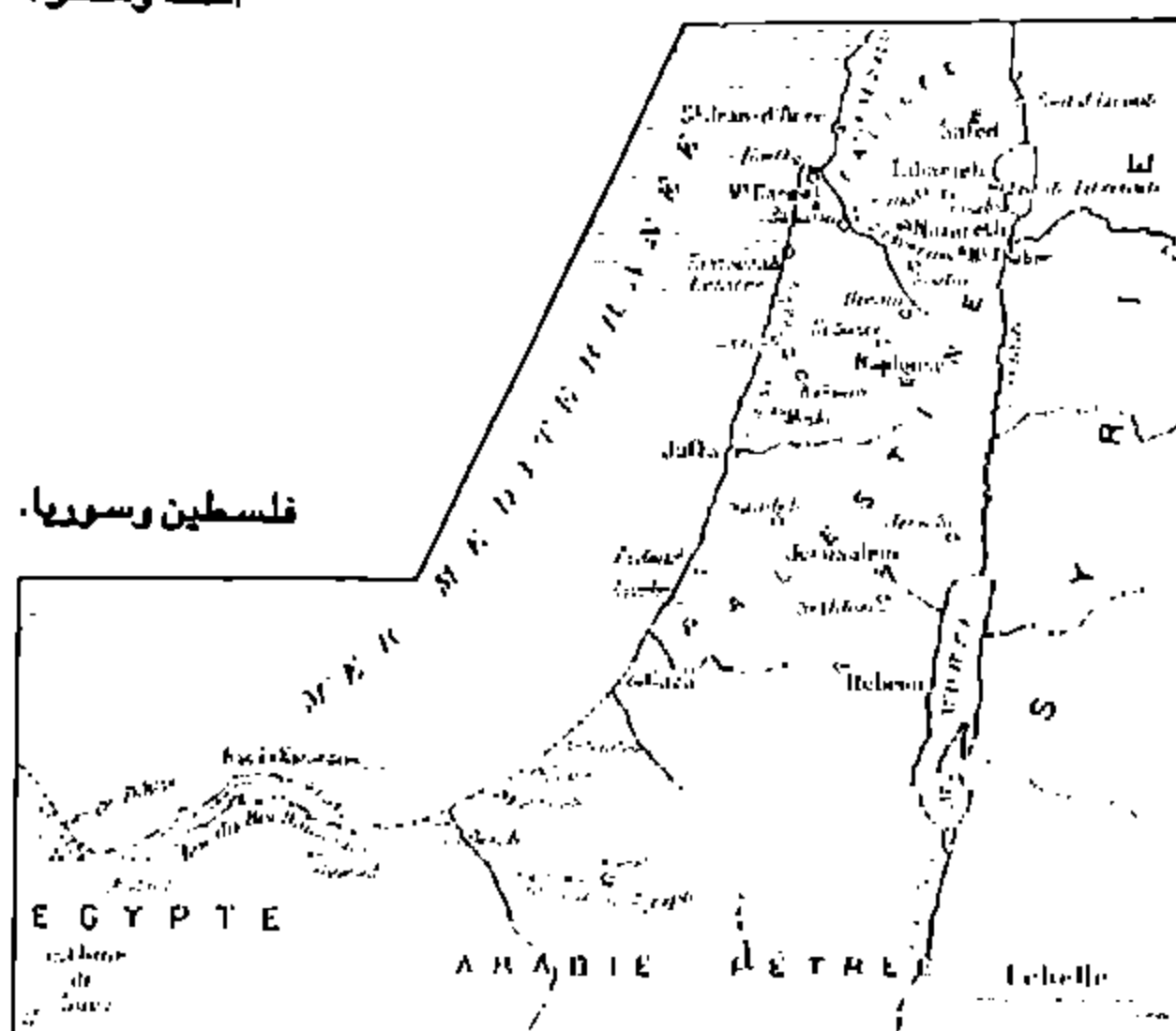


مصر الوسطى والعليا.

L'EXPÉDITION



البلتا ومصر السفلى.



فلسطين وسوريا.

حواشي الفصل الأول

١ - يظهر القرب بمعنى الحديث منذ كوندورسييه.

Sur la vision culturelle et politique de l'Orient musulman en France - ٢
au XVIII^e siècle, voir mon ouvrage sur les *Origines intellectuelles de l'expédition d'Égypte, l'orientalisme islamisant en France 1698 - 1798*, éditions Isis, Institut Français d'Études Anatoliennes, Istanbul - Paris, 1987.

Voir Paul Masson, *Histoire du commerce Français dans le Levant - ٣*
au XVIII^e siècle, Paris, 1911.

Sur l'absence du rôle de Marseille dans la formulation des projets - ٤
d'intervention, voir Charles CARRIÈRE, "Économie et Imaginaire" in *Le Miroir Égyptien*, Robert Ilbert et Philippe Joutard Editeurs, Marseille, 1984, pp. 133 - 138. La position inverse, celle de Peter GRAN, "The changing meaning of merchant capital in Egypt", in *L'Égypte au XIX^e siècle*, C.N.R.S., 1982, pp. 267 - 282, n'est pas convaincante.

Sur les projets de conquêtes de l'Égypte, voir les travaux de F. - ٥
CHARLES - ROUX, *Les origines de l'Expédition d'Égypte*, Paris, 1910; *Autour d'une route. l'Angleterre, l'Isthme de Suez et l'Égypte au XVIII^e siècle*, Paris, 1922; *Le projet français de conquête de l'Égypte sous le règne de Louis XV*, Le Caire, 1929. Sur La Fayette en particulier, Charles L. LOKKE, "La Fayette et l'Expédition d'Égypte", *Annales Historiques de la Révolution Française*, 1954.

Sur ces problèmes, voir mon article, "Le siècle des Lumières face à - ٦
l'Empire Ottoman : l'élaboration d'une image", in *L'Empire Ottoman, la République de Turquie et la France*, Jean - Louis Bacqué - Grammont et Hâmit Batu éditeurs, Éditions Isis, Institut Français d'Études Anatoliennes d'Istanbul, Istanbul - Paris, 1986.

Sur ces thèmes, voir H. LAURENS, "La Raison dans l'histoire", in - ٧
Le Miroir Égyptien, Marseille, 1984; "La vision de l'Orient aux XVII^e et XVIII^e siècles", in *L'Orient : Concept et images*, XV^e colloque de l'Institut de Recherches sur les civilisations de l'Occident moderne, Presse de

l'Université de Paris - Sorbonne, 1988; "Orient et origine", in *Primitivisme et mythes des origines, 1680 - 1820*, chez le même éditeur.

Sur cette question, voir Jacques GODECHOT, *Regards sur - A l'époque révolutionnaire*, Toulouse, édition Privat, 1980. En particulier, pp. 159 - 161, *Moreau et les papiers de Klinglin*, et son livre sur *La Contre - Révolution*, Paris, 1984, pp. 282 - 314.

Volr H. Laurens, "Bonaparte, l'Orient et la Grande Nation", *Annales - Historiques de la Révolution Française*, n° 273, juillet - septembre 1988, pp. 289 - 301.

Tous ces textes dans MASSON et BIAGI, *Napoléon, manuscrits - ١٠ inédits*, Paris, 1910.

Ernest JONES, *La vie et l'oeuvre de Freud*, Paris, 1969, III, pp. - ١١

520 - 521, lettre de Freud à Thomas Mann, le 29 novembre 1936
هرامه بهوزيلين بولونيه نتيجا إكراه نفسي، وذلك بسبب الاسم الذي حملته، لكن ذلك بالطبع لم يكن لوحده مع جوزيف. إن هذا التوحد يتجلى بأكثر الأشكال وضوحاً في حملته المصرية الشهيرة. فإلى أين يذهب المرء، إن لم يكن إلى مصر، عندما يكون جوزيف [يوسف] الذي يريد أن يبدو عظيماً في نظر إخوته ؟ وإذا ما درسنا عن قرب أكثر الدوالع السياسية لهذه الفاعلة التي قام بها الجنرال الشاب، فسوف نجد بلا ريب أنها لم تكن غير تبريرات عنيفة لفكرة استيهامية [...].

وإن الدنيا التي نطعت ناپوليون إلى الذهاب إلى مصر فتخلق فيها بعد في أوروبا، فهو يرتب لإخوته مكائبات يجعلهم أمراء وملوكاً. [...] وفيما بعد، يصبح خائفاً لأسطوره ويسمح لنفسه بأن تجره اعتبارات واقعية إلى هجر جوزيفين للصهيبة حباً عاماً. وإلى هذا الفعل يرجع تاريخ انحداره. إن المدمر العظيم يعمل منذ ذلك الحين على تدمير نفسه. رحمة روسيا، الخطرة، الصيغة الإمداد، تجر إلى سلوطة. ويبدو ذلك كما لو كان عقاباً ذاتياً على خيائته لجوزيفين، على ارتداد حبه إلى العبادة الأصلية لجوزيف. لكن القدر، هنا أيضاً، وخلافاً لتوايا ناپوليون، قد استنسخ جزءاً آخر من قصة جوزيف [يوسف]. إن حلم يوسف، الذي سجلت فيه الشمس والقمر والنجوم له، قد ترتب عليه رغبة في الهبة (Voir aussi pp. 218 - 219 du même ouvrage la lettre à Arnold Zweig du 6 novembre 1934 et le commentaire de Jones).

MASSONE, Napoléon et sa famille, Paris, 1902, T.I, p. 81, pp. 96 - ١٢ - 97, pp. 120 - 124.

١٢ - إن السر الذي باح به فيما بعد لنيلام دو ريموسا هو سر شهير : إلى مصر، وجئت نفسي متحمداً من كوابح حضارة مزعجة. لقد كان يوسفى أن أحلم بكل شيء وأن أرى وسائل تحقيق كل ما حلمت به. فسوف أؤسس نهضة، وسأجد نفسي على طريق نسيان، ولكنني فيلا، وعلى رأسى عمامة وبين يدي قرآن جديد أولفه على هواي. وسوف أجمع في مشاريعي بين تجارب وخبرات العالمين، نابشاً لمسابي ملكوت جميع التواريخ والتخصص، مهاجماً الجبهوت الإنجليزى

في الهند ومستعبدًا بهذا الفتح ربط صلاتي مع أوروبا العجوز. لقد كان ذلك الوقت الذي قضيت في مصر لجمال لوقت عسري، لأن كان الوقت الأكثر مثالية،. *Mémoires de Madame de Rémusat*, Paris, 1881, p. 274.

١٤ - بشكل قريب، سوف تعارو هذه الفكرة الظهور عند عبد الناصر الشاب : «إن ظروف التاريخ أبشراً مليئة بالثور البطولة للجهينة التي لم تجد بعد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه، ولست أرى لماذا يخيّل إلى نائمًا أن في هذه المنطقة التي نعيش فيها نورًا هائمًا على وجهه يبحث عن البطل الذي يقوم به، ثم لست أرى لماذا يخيّل إلى أن هذا النور الذي أراه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان حولنا، قد استقر به اللطف متعبدًا مذهوك القوى على حدود بلادنا يشير إلينا أن نتحرك، وأن ننهض بالثور وندردى ملاهسه فإن أحدًا غيرنا لا يستطيع القيام به.

«وأبشر هنا فاقول إن الدور ليس نور زعامة.

«إنما هو نور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل، يكون من شأنه تلجهر الطاقة الهائلة الكامنة في كل اتجاه من الاتجاهات للحضارة بهاء. جمال عبد الناصر، «فلسفة الثورة»، القاهرة، نون تاريخ، ص ٦٠.

١٥ - VOLTAIRE, *Mahomet ou le fanatisme*, acte II. في عام ١٨١٧، في سانت - هيلين، عاد نابوليون إلى قراة هذه للمسرحية وألقى بالملاحظات التالية :

«هناك أبليت جميلة، لكن هذا [العمل] يجرى على التاريخ. [إنه يزعم] أن محمدًا كان شهابًا ثم ماذا ؟ [إنه يزعم] أنه قد لها إلى الاغتصاب، وأن هذا هو كل ما في الأمر. لهذا كان الأمر كذلك، فلماذا إذا نخل إلى مكة ركونًا إلى الهند ؟ لقد جاء إليها بعد معركة بدر البطولية.

ولماذا لا نتحدث عن الجهاز ؟ وهذا القسم القسم الذي يتم في الوقت المناسب تعلمًا : إن فولتير يريد تمثيل كل شيء، لقد اعتدى على يسوع - المسيح في شخص محمد وهو يتصور أن العظماء يستخدمون وسائل ذهنية؛ يستخدمون نص القسم، لكن الأمر لم يكن كذلك. لقد جاء محمد في وقت كان الرأي العام كله مهيبًا فيه للإيمان بالله واحد. ومن المرجح أن شبه الجزيرة العربية كلها كانت تمور بحروب أهلية، هي، وحدها، التي تنجذب للشجعان. ومنذ بدر، أخذ الناس ينظرون إليه بوصفه بطلا. إن أي إنسان لا يعدو أن يكون إنسانًا في جميع الأحوال، لكنه، غالبًا، ما يستطع فعل الكثير، إنه، غالبًا، ما يكون قلعة شرد وسط مواد قابلة للاشتعال. إنني لا أعتقد أنه كان بوسع محمد أن ينجح لو كان قد ظهر في شبه الجزيرة العربية الآن.

«إن ديانة يسوع تنبع من أخلاق سقراط؛ وفي ذلك الزمن البعيد لهذا، كان الرأي العام مهالًا إلى الإيمان بالله واحد. وما هو أرقى في محمد، هو أنه قد تمكن في غضون عشر سنوات من فتح نصف الأرض، بينما احتاجت للمسيحية إلى ثلاثمائة سنة لكي تثبت وجودها.

«إن ديانة للمسيح جد مرهقة [بحيث يصعب] على الشرقيين [اتباعها]، فهم بحاجة إلى أداء سياسية أكثر. والحال أن محمدًا بدر في نظريهم أرقى من يسوع، لقد رآه الناس يتحرك ويفعل

[...]

«إنه مثلي [...] لقد كان هناك سام من الفوضى، وكانت هناك رهبة في وضع حد لها. إنني

ما كنت لأظهر لو كان من المرجح أن يجرى شخص آخر يقوم بما فعلت به. لقد كان بوسع فرنسا أن تنتهي إلى فتح العالم الإنسي أكثر، إن أي إنسان لا يدعو أن يكون إنساناً. ووسائله لا تطلق من ورائها إن لم تكن الظروف، إن لم يكن الرأي العام مؤيداً لها. إن الرأي العام يحكم كل شيء. هل تظنون أن لوثر هو الذي أتى بالإصلاح ؟ كلا، إن الرأي العام هو الذي هب ضد الباباوات، [...] .

ثم بقرا جلالة [مسرحية] محمد، ويوجد فيها أحياناً جميلة. «لكننا، نحن للمسلمين الآخرين، نود لو أنها كانت على مستوى أعلى من حيث الصبغ التاريخي، لو أنها كانت لها نكهة عربية أكثر». GÉNÉRAL BARON GOURGAUD, Sainte - Hélène, Journal inédit de 1815 à 1818 avec préface et notes de M. le Vicomte de Grouchy et Antoine Guillois. Paris, 1889, pp. 77 et 152. ويسجل برتران من جهته فيما يتعلق بالحديث نفسه : «إن أي إنسان لا يدعو أن يكون إنساناً. وهو بحاجة إلى قوى لكن يتحرك ويفعل. ما هي النار التي أتت إلى غليان الرجل ؟ لابد من معرفة وضع شبه الجزيرة العربية قبل قرنين من ظهور محمد.

ما هو المد الذي وجد ؟ هذا مالا نعرفه. هذا ما ينبغي لنا معرفته. كيف أمكن لمحمد ولخلفائه أن يقوموا بمثل هذه الفتوحات الكثيرة والمدهشة بشعب هزيل ؟ إنهم ما كانوا ليهلكوا في القتال بها اليوم بالعرب على نحو ما هم عليه الآن. إن الناس إنما يتدفقون إلى ابتراح مآثر عظيمة في أعقاب الثورات دائماً. وإذا كانت فرنسا قد نجحت في السيطرة على أوروبا، فإن مرجع ذلك إلى الثورة. ولا مرء في أمتي الذي توليت قبيلتها [فرنسا]، لكنني فعلت ذلك مستفيداً من قوى». BERTRAND, Cahiers de Sainte - Hélène, Manuscrit déchiffré et annoté par Paul Fleuriot de Langle, Paris, Albin Michel, 1959 I, p. 225.

Correspondance inédite, III, pp. 209, lettre confidentielle à Talleyrand le 16 vendémiaire an VII (7 octobre 1797). Comme pour beaucoup de textes de la Correspondance inédite, on peut toujours avoir un doute sur l'authenticité. Mais il m'est arrivé de retrouver les originaux de certaines lettres avec des variantes non significatives. G. DOUIN, dans La Flotte de Bonaparte sur les côtes d'Égypte, les prodromes d'Aboukir, Le Caire, 1922, a démontré que ce regroupement de textes correspond à ce que les éditeurs de la Correspondance de Napoléon appellent la Collection Napoléon.

١٧ - في نص كتبه تاليران في عام ١٨١٦، وإن كان، بما يمثل شيئاً له دلالة، قد أورد في مذكراته حول نهاية النظم القديم، يحدد [تاليران] مستقبل فرنسا في البحر المتوسط، فعلى فرنسا أن تكف عن الاهتمام بالقارتين الأمريكيتين وأن توجه أبصارها شطر البحر المتوسط. وتجرى الفكرة من مراسلي تاليران في الشرق،

«إن عدة سنوات من المراسلات المتصلة مع السيد شواسول - جوفيه، الذي كان آنذاك سفيراً لدى القسطنطينية، ومع السيد هيمونيل، القنصل في ثغور شرق البحر المتوسط، قد

انتمنى تماماً بجميع الزايات التي كان يمكن أن يحققها لنا، واليوم أيضاً، تحول إحصائنا السياسية والتجارية شطر العلم القديم أساساً. TALLEYRAND, *Mémoires*, I, 1754 - 1807, introduction, notes et établissement du texte par Paul - Louis Gouchoud et Jean - Paul Gouchoud, Paris, Plon, 1957, pp. 63 et suivantes.

وقد تستنى لتاليران أن يقابل فولني، قبل الثورة، في المحادثات الثقافية كصالحون سوار وصالحون مدام هيلفيتيوس. وكانا زميلين في الجمعية التأسيسية. وتواجدنا في الولايات المتحدة التي لم يكن فولني قد عاد منها بعد في بداية الحملة. كما تردد فينتور دو پارادي أيضاً على صالحون سوار، انظر Attia AMER, *Venture de Paradis, Orientaliste et Voyageur*, 1739 - 1799, Thèse de doctorat, Université de Paris, s.d., multigraphiée p. 61. وفي مذكراته، يشهد تاليران على نور المحادثات، على نور ما يسمى بالمجتمع.

إن قوة ما يسمى في فرنسا بالمجتمع كانت عظيمة في السنوات التي سبقت الثورة، بل وفي مجمل القرن الثامن عشر، ومن المرجح أن الأشكال الخفيفة والمتنوعة التي تميز بها قد منعت مؤرخينا من رصد أصل، وتبع هذا الأثر للحضارة الحديثة العظيمة.

Pour l'Inde au XVIII^e siècle, je m'inspire directement de Fernand - ١٨
BRAUDEL, *Civilisation matérielle, Économie et Capitalisme*, Paris, Armand Colln, 1979 tome III, *Le temps du monde*, pp. 428 - 450.

Sur Talleyrand et l'Inde, voir M. Michel PONIATOWSKI, - ١٩
Talleyrand aux États - Unis, Paris, Librairie Académique Perrin, pp. 236 - 356.

Sur les Français et l'économie anglaise au XVIII^e siècle, voir M. - ٢٠
Français CROUZET, "Les sources de la richesse de l'Angleterre vues par les Français du XVIII^e siècle", in *De la supériorité de l'Angleterre sur la France*, Paris, 1985, pp. 105 - 119.

CHARLES - ROUX, *Les origines de l'Expédition d'Égypte*, Paris - ٢١
1910, p. 320. Les différents ouvrages de Charles - Roux sur les origines de l'expédition d'Égypte restent essentiels et sont suivis ici pour tout ce qui concerne l'élaboration des différents projets.

LA JONQUÈRE, *L'Expédition d'Égypte*, I, pp. 29 - 30. - ٢٢

٢٣ - بشكل تدريجي بالغ لقط، تتمكن الكتابة التاريخية عن الثورة الفرنسية من إبراز أهمية حركة الأيديولوجيين كحركة سياسية متميزة عن القوى السياسية التي كان يجري تقديمها عادة. وعلى الرغم من أنها كانت قريبة من حركة الجيروندي، فإنه ليس بالإمكان التوحيد بينهما، وذلك بالرغم من وجود عدو مشترك هو الجبل. كما أن جانبا كبيرا من العمل التأسيسي للحكومة الإنلرة إنما يرجع إليهم، ومن هان الاكتفاء بتحليل حكومة الإنلرة على أنها مجرد وسط بورجوازي

مؤذع بين الليبرالية المتطرفة من جانب والثورة للضامة من الجانب الآخر، أن يكون إعمالاً جسيماً لما لا يدعو أن يكون استمرارية للتجربة الثورية في محاولة تأسيس وطيد. حول الطبيعة للسياسية للأيديولوجيين، انظر، Brigitte SCHIEBEN - LANGE et Franz KNAPSTEIN, "Les idéologues avant et après Thermidor", *Annales Historiques de la Révolution Française*, 217 (1988), pp. 35 - 59, en particulier pp. 37 - 38. من يدرس النشاطات السياسية للأيديولوجيين، سرعان ما يتوصل ليس إلى مجرد تعدد الطابع النسبي لنواياهم، وإنما أيضاً إلى القطيعة مع الأسطورة التي تتحدث عن براءتهم السياسية. إن الأيديولوجيين - وبوسع المرء قول ذلك دون مبالغة - هم أيضاً سياسيون يتحركون ويريدون التحرك من أجل تحقيق غايات فلسفية مع مراعاة «القوانين السياسية» التي يجب الخضوع لها بأي ذى بدء، وإلا فإنه سوف يكون من الصعب إحراز الانتصار الضروري لصوغ مجتمع جديد والحصل، بالتأكيد. [...] وسعيًا إلى تجنب أية تورية خادعة في تحليل للممارسة العيسية للأيديولوجيين، فإنه لا يجب حسب النظر عن واقع انهم قد شاركوا بنشاط في النشاط من أجل الفوز بالسلطة، وهم نفعال كان ينطوي بالضرورة على قدر معين من الواقعية القاسية.

٢٤ - لا ينفصل الأيديولوجيون عن بونابارت إلا اعتباراً من نهاية القنصلية. وفي ظل الإمبراطورية، سوف يخوضون نوعاً من المعارضة الأدبية للنظام. إن ناپوليون الذي يتقلب بطراد مع النظام القديم سوف يأخذ عليهم قبحي فكر مجرد لا يأخذ في اعتباره دروس التاريخ. وليس هناك ما هو أكثر توضيحاً لهذا الأمر من خطابه في مجلس الدولة في أواخر سبتمبر ١٨١٢ إثر حملة روسيا الكارثية،

«إلى الأيديولوجية، إلى تلك الليتافيزيا للدلهمة، التي، في بحثها برهانة من الأسباب الأولى، تريد على هذه الأسس تأسيس شرائع الشعوب، بدلاً من استخلاص القوانين من احساس القلب الإنساني ومن دروس التاريخ، [إلى الأيديولوجية] يجب إرجاع جميع المصلب التي حلت ببلدنا الجميل فرنسا. وكان لابد لهذه الأخطاء أن تجتذب وقد اجتذبت بالفعل حكم رجال دمويين. فالواقع، من هو الذي أعلن مبدأ الانتفاضة بوصفه واجباً؟ ومن هو الذي تعلق الشعب معلقاً له سيادة كان عاجزاً عن ممارستها؟ ومن هو الذي نمر قسرية واحترام القوانين، بجعلها متوقفة، ليس على المبادئ المقدسة للعدالة، وطبيعة الأشياء والعنفة المدنية، وإنما فقط على إرادة جمعية، مؤلفة من رجال غرباء عن معرفة القوانين المدنية، والجنائية والإدارية والسياسية والعسكرية؟

«وعندما يكون للمرء مدعواً إلى تجديد دولة، فإن عليه اتباع مبادئ متقابلة باستمرار. إن التاريخ هو الذي يلون قلب الإنسان؛ وفي التاريخ يجب البحث عن مزايا وعيوب مختلف التشريعات. ذلكم هو المبدأ الذي لا يجب أبداً أن يغيب عن نظر مجلس دولة إمبراطورية عظمى؛ وعندئذ يجب عليه أن يواجه كل مصنة بشجاعة وأن يكون مستعداً، على غرار الرئيس مارلاي وموليه، لأن يهلك في الدفاع عن الملك والعرش والقوانين». P.J.B. BUCHEZ et P.C. ROUX, *Histoire parlementaire de la Révolution Française*, Paris, 1838, T. 39, p. 395. إن بونابارت حملة مصر ليس بعد معهد العروش والكنيسة. فالواقع أن الحكومات النهائية هي التي يريد نشرها بين البشرية كلها. وإذا كان يخدم الأيديولوجيين، فمن الواضح أن

لديه ذية في أن يمتدح إلى ما هو أبعد من ذلك. وإلى حد ما، فإن مشاريع [الأيديولوجيين
وبونابارت] متطابقة، لكن الالتباس لن يزدل إلا فيما بعد.

Pour tous les détails d'ordre militaire et administratif, je suis - ٢٥
l'ouvrage fondamental de C. DE LA JONQUIÈRE, *L'Expédition d'Égypte*,
Paris, 1899 - 1907, 5 volumes. Les quelques trois mille pages de ce grand
historien militaire ont été la base de toutes les études sur la première année
de l'Expédition. La richesse en documents cités a été d'une très grande
utilité, en particulier pour les historiens égyptiens qui n'avaient pas accès
aux sources archivistiques.

٢٦ - كان فولني قد استقر في كورسيكا في عام ١٧٩١ لكي ينتهي استثمار زراعية
حديثة وقد لعب دوراً سياسياً مهماً في الصراع بين بونابارت وولف لشابل. وقال فولني
فولني ذات مرة إنه عندما رأى بونابارت، فيما بعد، وهو يتجه إلى التمسك بالملك وتوزيع التيجان،
تذكر أنه، خلال إقامتهما في كورسيكا، قد أرفعه تقريباً على أن يتنازل له، في مقابل مبلغ جد
زهيد، عن جزء من مزرعته؛ وقد أضاف أنه ربما لمكن القول إنه كان يهدف عندها لتقسيم حلوى
الملوك. CHAPTAL, *Mes souvenirs sur Napoléon*, Paris, 1893, p. 188.

TALLEYRAND, *Mémoires*, pp. 262 - 264. - ٢٧

Arthur CHUQUET, *Journal de voyage du général Desaix, Suisse - ٢٨
et Italie (1797)*, Paris, 1907. Desaix s'est enthousiasmé pour le projet de
conquête de l'Égypte (pp. 254 - 255).

Mathieu DUMAS, *Souvenirs du comte Mathieu Dumas de 1700 - ٢٩
à 1836 publiés par son fils*, Paris, 1839, III, pp. 156 - 157.

Sur cette affaire, voir l'introduction historique de l'édition de la - ٣٠
correspondance de Kléber en Égypte, H. LAURENS, *Kléber en Égypte*,
Kléber et Bonaparte (par abréviation *Kléber et Bonaparte..*) Le Caire,
I.F.A.O., 1988, pp. 93 - 95.

H. DE SYBEL, *Histoire de l'Europe pendant la Révolution - ٣١
française*, Paris, 1886, T.V, p. 168.

Sur LAZOWSKI, Adam SKALKOWSKI, *Les polonais en - ٣٢
Égypte, 1798 - 1801*, Paris, 1910, et Frédéric HITZEL, *Le rôle des militaires
français à Constantinople, 1784 - 1789*, mémoire de maîtrise, Université de
Paris - Sorbonne, 1987. Son compatriote Joseph Sulkowski aussi est
important : il avait été chargé par la République en 1793 - 1794 d'une
mission d'information en Inde. Il ne dépassa pas Constantinople. Un peu

plus tard, il devint l'un des aides de camp de Bonaparte en Italie. Il avait épousé la fille de Venture de Paradis, lui - même fervent partisan d'une conquête de l'Égypte depuis les années 1770. Voir aussi Marcel REINHARD, *Avec Bonaparte en Italie d'après les lettres de son aide de camp Joseph Sulkowski*, Paris, 1946.

Jean Paul BERTAUD, *La Révolution armée, les soldats - citoyens* - ٢٢ et la Révolution française, Paris, Robert Laffont, 1979, p. 271. Sur les officiers de l'armée d'Orient, voir G. RIGAULT, *Inventaire des états de services des officiers de L'armée d'Égypte*, Paris, 1911.

٢٤ - يجعل ميشيليه من كالاريلى المسؤول الرئيسى عن الجانب العلمى للحملة ؛ إن هذه الآلة العظيمة قد جهزت، ليس على طريق انتان، لى بيت جوزيفين الصغير، بشارع هاتريان، بل لى باريس الحسنة اليسرى، الأكل شروفا بكثير، والأوسع خيالاً. [...].

وعلى رأس كل ذلك، ومن أجل بث الثقة، كان هناك [وهو شىء نادر]، كان هناك رجل، كالاريلى، وهو رجل محب، ومحب حبه للناس كلهم،. *Histoire du XIXe siècle, II, Jusqu'au 18 brumaire*, Paris, 1875, pp. 260 - 261.

٢٥ - إن شهادة تيبو دولها دلالتها ؛

القد اتخذ بونابارت موقف الكاهن الأكبر الذى يملك وحده مفتاح سر عميق، ومارس هيمنة عظيمة على كل ما يتعلق بالحملة. وبالنسبة له، لم يكن هناك فرق بين جمهورى أو ملكى، أرسطوقلى أو يعلوى، خريطة أن يتسنى له استخدامها جميعاً فى تحقيق أهدافه [...].

القد جند الجنرال بونابارت من كل حبيب وصوب خباطاً وجنوداً، علماء وإنهاء، عمالاً وفنانين. وحشد معدات وأنوات وكتباً وآلات، ونماذج؛ والواقع أنه بدأ بكل هذه الاستعدادات كما لو كان يتجه، لى صورة كولومبوس الجديد، إلى اكتشاف عالم وإلى نقل الحضارة إليه. وقد تجمع كل ذلك فى طولون؛ وكان يمكن القول إن باريس سوف تهاجر إلى البحر المتوسط. وبالرغم من كل جهاز الحرب، لقد جرى الترحيل كما لو كان إلى نزهة استمتاع. وكان الأمر أشبه بمهرجان؛ وكان عند أولئك الذين اشركوا فيها حماسة جد مختلفة عن تلك التى تسبق المعارك؛ ولم يكن دينون يتحدث إلا عن الرافضات الشرقيات، وعن صفو السماء وعن العطور التى تفوح بها أرض اللهب. THIBAudeau, *Mémoires sur la Convention et le Directoire*, Paris, 1824, II, p. 348.

Correspondance de Napoléon, IV, pp. 68 - 71. - ٢٦

LA JONQUIÈRE, I, pp. 351 - 352, Note sur la guerre à - ٢٧
l'Angleterre dntée du 13 avril 1798.

LA JONQUIÈRE, I, pp. 368 - 369. - ٢٨

Edward INGRAM, *Commitment to Empire : Prophecies of the* - ٢٩

Great Game in Asia, 1797 - 1800, pp. 115 - 195, Oxford, Clarendon Press, 1981.

٤٠ - لقد قدمت هذه المقترحات من جانب فرانسوا دو نيفهاتو إلى مؤتمر سيلز للكلف بتسوية الخلاف مع فرنسا، في ٥ يونيو ١٧٩٨، وبما أن كويينزل قد ألوم بحزم فيما يتعلق بالمسألة الألمانية، فقد صاح فرانسوا، لئلا ما هي الوسيلة الأخرى التي يمكن أن ترسيكم. ما الذي ينسبكم ؟ إن تغنم ولايات تركية مشاريعكم ؟ ومن جديد يرفض كويينزل، فهو يقول إنه لكي يتم ذلك لابد من حرب جديدة لم يقدم لنا الباب العالي حتى الآن أبسط ذريعة لها. وبطبيعة الحال فإن ذلك سوف يحدث يوماً ما، وسوف يكون من السهل عليكم أن تتفاهموا حول هذه المسألة معنا ومع روسيا؛ لكن ذلك لن يحدث إلا عندما تتم تسوية كل شيء في راستات H. DB SYBEL, *Histoire de l'Europe pendant la Révolution française*, Paris, 1886, T.V, p. 274.

٤١ - LA JONQUIÈRE, I, pp. 416 - 465. كان بونابارت قد ألقى خطبة أولى على الجنود بأسلوب أبسط منكراً بمكاسب حرب إيطاليا وواعداً كل جندي بأنه عند العودة من هذه الحملة، سوف يكون معه ما يمكنه أن يشتري به ستة أقدح من الأرنيس. والواقع أن هذه إشارة أخرى إلى الفيلق الروماني.

٤٢ - Georges DOUIN, *La flotte de Bonaparte sur les côtes de l'Égypte, - les prodromes d'Aboukir*, Le Caire, Société Royale de Géographie, 1922, pp. 34 - 35.

٤٣ - Robert GARNIER, *Hoche*, Paris, Payot, 1986, p. 272. في عام ١٧٩٥، كان جيش من المهاجرين قد نزل في كيبيريون لشن انتفاضة ملكية جديدة في غربى فرنسا. وقد الحق بهم هوش الهزيمة وتم إعدام جميع المهاجرين الأسرى ومها بالرمصاص.

ومن أول يناير ١٧٩٢ إلى ٣١ ديسمبر ١٧٩٧، كان الأسطول الفرنسي قد خسر ٢٠٤ سفن، من بينها ٢٥ بارجة و ٦١ فرقاطة و ١٠٨ سفن من درجة أنفى. ولم تكن الفسلفة الإنجليزية سوى ٧٧ سفينة، من بينها ١٤ بارجة و ٢٠ فرقاطة و ٤٢ سفينة من درجة أنفى. (LA JONQUIÈRE, I, P. 17).

٤٤ - DOUIN, op. cit. pp. 40 - 42.

٤٥ - Le 10 juin 1798. LA JONQUIÈRE, I, P. 585.

٤٦ - A. MARTIN, *Histoire de l'Expédition française en Égypte*, Paris, 1815, p. 148. Ce livre très précieux est la première histoire de l'Expédition écrite par un de ses témoins, qui ne soit pas un ouvrage de propagande napoléonienne.

٤٧ - *Mémoires de M. de Bourrienne sur Napoléon*, édition de Désiré Lacroix, Paris, s.d., I, pp. 247 - 249.

Étienne GEOFFROY SAINT - HILAIRE, *Lettres d'Égypte*, Paris, - 1810, p. 27 et pp. 44 - 45 ; *Dictionnaire Napoléon*.

٤٩ - فكرة كليبر ، لم يكن هناك ٤٠ شخصاً من الحملة على علم بالرجعة التي ستجدها إليها. احتجاج بلانكو على حملة مصر، التي لم يشأ تصديقها. إنه يريد الذهاب إلى القرم، لماذا ؟ إن آخرين في الليرة، وآخرين في صقلية، وآخرين ثالثاً في البرتغال، وإن كنا قد تجاوزنا الطريق؛ وأخيراً هجرى الإعلان من الوجهة. وعندئذ يصود كثير من الضحك، ويتبادل [المراد الحملة] النظرات... إذن لقد كنت على علم بها ؟... وانت ؟ إلخ. *Kléber et Bonaparte*, I, p. 534.

الفصل الثالث

السلطة والمجتمع في مصر العثمانية

الإمبراطورية العثمانية ومصر

الفتح العثماني

قضى العثمانيون على السلطة المملوكية وفتحوا سوريا ومصر في ١٥١٦ - ١٥١٧، بما يشكل مرحلة كبرى في العملية للزوجة الخاصة بتكوين اقتصاد - عالم عثماني وإعادة بناء جماعة موحدة من المؤمنين. وينبع إجماع العالم العربي في النظام العثماني من هذه الأزمة للزوجة، بداية تحول الطرق التجارية التقليدية إلى الهند، والراجع إلى اكتشاف قهرتغاليين للطريق البحري الذي يمر برأس الرجاء الصالح، وتصعد للجال الإسلامي السني في القرون الأخيرة للعصور الوسطى، والنشأ عن تحول الإسلام الشيعي في فارس إلى دين للدولة تحت قيادة الأتراك الصفويين.

والحال أن السلطنة العثمانية، البارزة بالفعل في عالم الإسلام السني بفضل فتحها للبلقان على حساب القوى المسيحية وبفضل الاستيلاء على القسطنطينية الذي يمنحها الاستمرارية الإمبراطورية لروما ولبيزنطة، إنما تصبح أكثر من ضرورية للقطاع من مصالح الجماعة في وجه هذا الخطر للقائد المزيج. وبعد سنوات قليلة من فتح مصر، فإن أفريقيا الشمالية، فيما عدا المغرب الأقصى، تنضم بنورها إلى العثمانيين، ومما له دلالة أن خلافة العباسيين الشيعية في القاهرة تختفى دون ضجيج وأن الشارات التي ترمز إلى شرعية واستمرارية الخلافة تنتقل إلى السلالة الحاكمة العثمانية التي تصبح حارسة للمعنى المقدسة وحامية للحج. وخلال الأزمة التالية، يكتفى البابايشاهات، أو السلاطين من آل عثمان، بدمج القاب الخلافة في الألقاب السلطانية، للتوفرة بما يكفي بالفعل. لكن أحدا لا

تخافه شكوك حول ذلك، فهم يمارسون بالفعل كامل الوثائق الضرورية للدفاع من الإسلام السننى ضد جميع خصومه.

والواقع أن الصلوبيين، لى إثر نزاعات عسكرية عديدة خاضعت منها مواجهة أيديولوجية وحرب شعائرية بين الإسلام الشيعى والإسلام السننى، قد جرى ردهم إلى الحدود السياسية الحالية بين الإسلام الشيعى والإسلام السننى. ولى لخل الإمبراطورية العثمانية، تعرض السكان الشيعة لقمع قاس من جراء محارلاتهم الانتفاضية وتعرضوا بشكل متواصل للتصميم والسيطرة وغالباً ما جرى إبعادهم أو دفعهم إلى الهرب بعيداً عن المناطق الاستراتيجية. وهذا التصديق لجال الإسلام يجعل من الإمبراطورية العثمانية للمثل الجديد للجماعة الإسلامية. فهى لا جار لها غير للمغرب الأقصى الذى يتميز بتقاليد الدينية الخاصة والإمبراطورية الفارسية الشيعية وهى (الإمبراطورية العثمانية - المترجم) لا تحتفظ إلا بعلاقات باهتة مع القوى الهندية فى أفغانستان والهند.

وفى البحر الأحمر وفى الخليج الفارسى وفى للمحيط الهندى، يبنى العثمانيون أساطيل ويحاربون البرتغاليين. بل إن أسطولاً عثمانياً يتحرك فى عام ١٥٢٨ من السويس لكى يصل إلى الهند، ويجرى إنشاء قاعدة أمامية فى اليمن. وتستمر الحرب البحرية أكثر من عشرين سنة وتكفل للعثمانيين السيطرة على البحر الأحمر، ويعاد مؤقتاً لنج الطريق التقليدى لتجارة الهند. ولم يك بوسع البرتغاليين تدبير القوة والإمكانات الضرورية لوقف تجارة البحر الأحمر بصفة مستدامة.

وكان لابد من انتظار الشكل المتقدم للتقى التى عرلها القرنان التاليان وظهور سلفن الإنجليز والهولنديين البحرية الضخمة حتى يمكن للبحر الأحمر، للمحظور على الأوروبيين، أن يكف عن أن يكون مهماً من الناحية الاقتصادية كطريق للمرود بين أوروبا والهند. وقد رأى المستشرقون والمؤرخون فى القرن الثامن عشر فى نهاية تجارة الترانزيت بين الهند وأوروبا أحد الأسباب الرئيسية للانحطاط المتصور للإمبراطورية العثمانية.

تجارة مصر

الواقع أنه بتشكيل اقتصاد - عالم يتميز بإبعاد هذه الإمبراطورية المتنامية الأطراف، وهى أكبر إمبراطورية مطة على البحر المتوسط منذ زمن الرومان (١). وقد اتخذت الإمبراطورية مشروعها التوسيعى الخاص بإعادة بناء للمجال الإسلامى.

إن تجارة منتوج جديد، هو بن اليمن، تحل محل تجارة التوابل التى يجرى نقلها إلى

الأوروبيين. ويصمم ترامى أطراف للجمال العثماني يتكوين شبكة رائعة من الطرق التجارية البحرية التي تستخدمها قوافل الجمال. والتي تضاف لها طرق بحرية تصنع بشكل متزايد في البحر المتوسط من سفن أوروبية مؤجرة من جانب تجار عثمانيين، مسلمين بشكل خاص (٢).

والواقع الرئيسي هو أن اتصالات إقاليهم الإمبراطورية المختلفة تصبح مكملة لبعضها للأخرى. ولتراكب وحدة الجماعة، بالرغم من التنوع الديني والإنسي، مع الوحدة التجارية، وبالرغم من الاتجاهات المائلة إلى تمتع الولايات بقدر من الاستقلال، فإن الواقع الإمبراطوري يظل واقعاً دائماً وإطاراً دائماً ضرورياً.

وهكذا، ففي البحر الأحمر، لا يتروك التجار والبحارة للمصريون كثيراً على الهند مثلما كانوا يفعلون في العصور الوسطى. وإذا يتحركون من السويس، فإنهم لا يتجاوزون جدة حيث يتولون شحن المنتجات القادمة من اليمن والمحيط الهندي. كما أن بحارة الأقاليم الأخرى للبحر الأحمر والمحيط الهندي لا يتجاوزون للدينتين للقنستين. ويضطر الأوروبيون إلى الإعانة لهذا المنع الذي تعلنه السلطات العثمانية رسمياً، في حلقهم (٣).

ويصدر المصريون إلى الحجاز منتجات أوروبية (منسوجات) ومنتجات محلية (مؤن غذائية بشكل خاص)، مصحوبة بكميات مهمة من العملات النقدية. وهم يستوردون من الحجاز بن اليمن وتوابل ومقاهير متنوعة ومنسوجات وليرة من الهند. ومن ثم فإن اقتصاد الحجاز يعتمد بشكل حيوي على اقتصاد مصر لكن التجارة للمصرية تتفدى، بدورها، على نقل منتجات من البحر الأحمر إلى أوروبا وبقية الإمبراطورية العثمانية.

وترحل تجارة قوافل عبر الصحراء من خلال «طريق الأربعين يوماً» نحو نازور وسنار. وهي تتألف بشكل خاص من استيراد منتجات أفريقية متنوعة (العبيد، الجمال، الصمغ، الجلود...)، وتصدير منسوجات ومصنوعات حرفية. وهي أقل أهمية بكثير من التوجهات التجارية الأخرى (٤).

وإذا كانت التجارة مع أوروبا مهمة (مُبع إجمالى تجارة مصر)، فإنها لا تمثل غير جزء صغير من التبادلات مع بقية العالم العثماني (نصف إجمالى تجارة مصر). واقتصاد - العالم العثماني ليس منتمياً بعد بالفعل في السوق العالمية التي تهيمن عليها أوروبا. وهذه التجارة يهيمن عليها أفراد غير منحصرين من سكان مصر الأصليين.

العلاقات مع أوروبا في أيدي الإيطاليين وخاصة الفرنسيين. والصلات مع المغرب يحتكرها مغاربة مقيمون في القاهرة وفي الإسكندرية (بوجه عام، يلعب للمغاربة دوراً متزايداً في مصر في القرن الثامن عشر). والسوريون المسيحيون والمسلمون يسيطرون على التجارة مع سوريا الطبيعية (٥)، بينما يسيطر الأتراك على التجارة، جد المهمة، مع إسطنبول. وتجارة البن هي وحدها التي تظل مصرية بشكل لخص، وسوف يتعين الانتظار حتى نهاية القرن الثامن عشر لكي تشهد لفتحام السوريين للمسيحيين لها.

والحال أن وجود هذه العناصر غير المختصرة من صفوف سكان البلد الأصليين إنما يفسر الوجه الكوزموبوليتي والعثماني الخاص لمصر في القرن الثامن عشر كما يفسر صعوبة اثبات هوية مصرية بشكل حقيقي.

التنظيم السياسي

إن ترامي أطراف المجال العثماني واستحالة السيطرة على كل شيء من العاصمة قد فرضا على الباب العالي ضرورة نزع مركزية السلطة. ومنح سلطة جد واسعة للوالى، الباشا - الحاكم للولاية، إنما يعنى السماح بالعمل بقدر كبير من إغراءات الانفصال السياسى. والحال أن أول والٍ عثماني على مصر قد تعمد، منذ عام ١٥٢٤، على السلطان معتمداً على المعاليك قبل أن يتم اغتياله في تعمد شعبى في السنة التالية. ويضطر العثمانيون إلى القيام بحملة جديدة على مصر وإلى إعادة تنظيم البنية المحلية للسلطة.

وتشير التجربة إلى أنه يتعين الحد من هامش سلطة كل جهاز من الأجهزة المحلية للدولة. وعندئذ فإن المسؤولين العثمانيين يمشون نظاماً مركباً من التوازن والكوابح المتبادلة، وهو نظام، بالرغم من اختلالاته، سوف يثبت لفعاليته على مدار أكثر من قرنين.

وتصبح مصر التزاماً خريبياً خضعاً يديره الوالى، وهو يلبس بحمل رتبة وزير، يتعين عليه أن يرسل سنوياً خزينة إلى الباب العالي (الإدارة المركزية العثمانية) وأن يلى بعدد معين من الواجبات للدولة عن السلطة المملوكية، كتنظيم قافلة الحج للقائمة من أريقتها وإمداد للدينتين للديستين في الحجاز بالمؤن. أمّا كبار الموظفين الآخرين فهم يمينون من قبل الباب العالي مباشرة ويشرفون في أن واحد على الوالى، الذى تعتبر مدة ولايته قصيرة الأجل، وأعمال زملائهم و، بوجه عام، على حسن تطبيق القوانين السلطانية.

ويقيم في البلد بشكل دائم عدد معين من فرق القوات للمشاة (الإنكشارية خاصة)

والفرسان. وهذه الأوجاقات أو الميليشيات بحسب المصطلح الذي استخدمه الرحالة الأندلسيون، والمؤلفة من أنصاريين أو بلقاريين، هي وحدات عسكرية نظامية تحصل على رواتبها من الخزنة للحلية. وحيازة أى امتياز عرصى محظورة بشكل صارم على أفرادها. وفى حالة حرب كبرى، فإنها تخدم خارج مصر.

ويعهد بإدارة الأقاليم إلى الكُشاف (أربعة عشر كاشفاً فى القرن السادس عشر)، وهى وظيفة كانت موجهة بالفعل فى ظل النظام السابق، وهم يستثنون إلى حاشيتهم المؤلفة من ممالك. أما مصطلح السنهق بك، «الفارس القائد»، والذي يساوى مصطلح الأمير فى العربية، فهو مصطلح شرفى بشكل خاص ويستخدم فى الإشارة إلى أكثر الممالك أهمية. وتدرجياً، يجرى تجنيد الكُشاف من بين الممالك ويحملون رتبة السنهق بك، والتي تختصر إلى بك. ومن ثم فإن كل جماعات السلطة هذه ذات تجنيد مختلف وتراقب إحداها الأخرى، الأمر الذى لا بد له، بحسب تصورات الباب العلى، أن يحول دون أية محاولة للانفصال وأن يسمح بإدارة هائلة ومفيدة بالنسبة لمجموع السكان. أما الجهاز الرئيسى هو الديوان الذى يمثل فيه مختلف ضباط الميليشيات، وكبار موظفى الإدارة وكبار رجال الدين المسلمين فى القاهرة. ويدير نيولان مصفر الشئون الحارية.

الهياكل

قام نظام الممالك فى القرن الثالث عشر لمواجهة الخطر الذى شكله، بالنسبة للإسلام، المغول ثم الصليبيون. ويتعلق الأمر بالاضطلاح، إثر تنجيد بشرى حقيقى، بتأميل عبيد فتيان من أصل مسيحى، يجيئون غالباً من القوقاز، لكي يصبحوا محاربين محترفين ومنضبطين. والواقع أن للحصيلة قد حققت التوقعات، ذلك أن للممالك قد صدوا المغول. وأنزلوا الهزيمة بصليبيى القديس لويس، الذين كانوا قد انخرطوا فى حملة أولى على مصر ودمروا مستعمرات الفرنجة الأخيرة فى الأرض المقدسة. لكن هؤلاء العبيد قد استولوا أيضاً على الحكم ومع تأييدهم لنظام تجنيد العبيد شيخوا سلطنة هيمنت على مصر وسوريا على مدار نحو قرنين.

ولا يرى العثمانيون أية مشكلة فى تعديد هذا النظام شرط التمكن من السيطرة عليه. ويصمم وجود وحدات عسكرية أخرى ذات أصل غير عربى بموازنة دور الممالك. وهكذا فإن الميليشيات والممالك يقدمون للموظفين الرئيسيين لإدارة مصر.

وفى العصر العثمانى، كانت غالبية الممالك منحدره من القوقاز، حيث كان

الشراكسة يتمتعون بالتقدير الأعلى. لكننا نجد بينهم منحدرين من الهللكان بل ومن أوروبا الغربية. بل إن بعض المصريين الأصلاء والعبيد السود يصبحون ممالك - وخلافا لما كان عليه الحال في العصور الوسطى - فإنه لا يبدو أنه قد حدث تنحدر بسبب الأصول الاثنى والعرقية.

وغالبا ما كان يتم تأهيل أولى في اسطنبول أو في أجزاء أخرى من الإمبراطورية، قبل الوصول إلى مصر. وفي العصور الوسطى، لم يك توسع أبناء الممالك لتخلف وطبقة أبنائهم. وفي العصر العثماني، يصبح ذلك ممكنا وإن كان قليل الشيوخ، بينما تلعب الارتباطات الزوجية دورا هاما. ويتأيد النظام عبر لجوء دائم إلى عبيد جدد. ولا يستثير ذلك أية صدمة لأن للتصور أن الإنارة السلطانية لا تتألف إلا من عبيد (قول) للسلطان، فيما عدا الهيئات القضائية الدينية كما هو واضح.

وبوجه عام فإن العبيد يباعون لمملوك محدد، عضو بيت مملوكي. وهم يتلقون عيشة تأهيلات عسكرية طويلة يجعل منهم فرسانا مرهوبى الجانب. ويتألف البيت للمملوكي من مجموعة من الممالك حول رئيس مؤسس (استاذ، أب، مولى، سيد). وهؤلاء الممالك إما أنهم أحرار بالفعل أو ما يزالون عبيدا. ويترافق التحرير مع الصعود إلى وظيفة مهمة في الإنارة لكنه لا يلغى لواصل الولاء تجاه السيد السابق. وهذا الأخير محاط أيضا بأخوة من الممالك للمنتقلين من البيت نفسه ويواصلون ويدعمون مسيرته العملية (خُشداشيه). والمملوك الذي يصل إلى أرفع مكانة، ينشئ بيته الخاص. وتؤدي روح التفصيل إلى توحيد كل أفراد البيت الواحد وتدفعهم إلى ازدياد أفراد البيوت الأخرى (٦).

كما أن معاونين الرئيسيين يرتبطون بساتتهم عبر أواصل زواجية، فهم يتزوجون أخت أو ابنة أو مطلقة أو جارية سيدهم. وتشكل النساء للمملوكيات وسطا على حدة فهن يتميزون بنسب الأصل الاثنى والعبودية. وبوجه عام فإن بنات الممالك يتزوجن ممالك. بل إن بعض النساء يلعبن دورا بالغ الأهمية في السياسة المصرية.

وعلى الرغم من أن الممالك ليسوا مصريين من حيث أرومتهم، فهم الوحيدون الذين يحملون اسم «المصريين»، تحت شكل المصرية للتُرك المشتق من مصطلح مصر الذي يعنى في آن واحد مصر على اتساعها والقاهرة. ومعناه الأول على الأرجح هو «الحضري» وهو يتطابق مع مصطلح «العثماني»، أى عضو للطبقة الحاكمة. وفي تيار القرن الثامن عشر، يبدو من الواضح أن شكلا معينا من الوعي «المصري» يظهر في لوساط الأمراء الممالك الكبار.

المصطلحات

وأياً كان الأمر، فإن أولئك الذين نسميهم بـ «المصريين الأصلاء» لا يشار إليهم بهذا الاسم. فالتمييز الرئيسي، الضروري لتعريف الهوية، إنما يمر أولاً بالطريق الذي يبين للمسلمين وغير المسلمين. وبالنسبة للأقليات، فإن هذا التعريف كافٍ، وأياً كان الأمر، فإن مصطلح القبطي يحيل بالفعل إلى مصر ما قبل الإسلام وقد استخدم في البداية للإشارة إلى مجموع المصريين.

ولتسمية المسلمين للمصريين، يجرى استخدام عدة مصطلحات، لمصطلح «ابن البلد» شائع وضميل الاتصال بمعناه، فهو يتطابق مع مصطلح «الأصيل»، ومصطلح «أولاد العرب» يحيل إلى خليط اثني حفزته الفتوحات العربية في القرون الأولى للإسلام. وهو اقرب إلى «المعريين» من «العرب». ويوجد هؤلاء الأخيرون في مصر على شكل القبائل بدوية تنسب لنفسها عبر سلاسل نسب طويلة أصلاً يرجع إلى العرب الأوائل والحقيقيين في شبه الجزيرة للجاورة. وحتى اليوم، فإن كلمة «عربي» في اللهجة الشائعة في مصر تعني «البدوي» ولا تستثير توحداً تلقائياً معها من جانب المصري العادي.

ومصطلح «الفلاح» يستخدم استخفافاً تحقيراً ويستوعب أبرز المصريين بمن في ذلك رجال الدين الأشهر بعلمهم أو أحفاد النبی. وهو مصطلح لاحتقار يستخدمه كبار الموظفين العثمانيين الذين لا يعرفون أنفسهم هم أنفسهم بأنهم «أتراك» والذين يسميهم المصريون على نحو بليغ للدلالة بالروميون (٧) للتذكير بالخضوع المفروض على هؤلاء الرعيين من جانب السلطة المركزية (٨). وهو يتطابق (مصطلح الفلاح - المترجم) مع مصطلح الرعية، أي ذلك الذي لا ينتمي إلى الطبقة الحاكمة. وهكذا فإننا نجد في مصر في القرن الثامن عشر جماعة من المالكين ذوي الأصل المصري وتلعب دوراً مهماً في السياسة المملوكية، تحمل بشكل له دلالة اسم جماعة الفلاح (٩).

أما الأقباط، وهم مصريون مسيحيون قليلون بوحدة طهية للشيخ، فهم الأحفاد المباشرين أكثر من سواهم لمصريي العصر القديم. وهم معروفون بالكامل على المستوى اللغوي منذ نهاية العصر للمملوكي. ومن حيث كونهم جماعة سكانية فلاحية، فإننا لا نجد لهم إلا في مصر الوسطى بين بني سويف وجرجا، وللك إثارة تقلبات التاريخ. وهم لا يشكلون غير نسبة نحو ٧ في المائة من إجمالي سكان مصر. وفي القرن الثامن عشر، عرفت كنيسةهم انحطاطاً مادياً عميقاً، لعدم الأسقفيات بقل؛ وقد تم هجر الأنبيسة فيما عدا

استلذذات قليلة، ولا تجمع جماعات عديدة من الأقباط بكنائس. والآباء هائبون ومنما يوجعون، فإنهم يوجه علم جهلاء ومثعنون. وقد قامت كنيسة روما القوية بعمل تبشيري موجه إلى مساعدة هؤلاء المسيحيين الشرقيين للتشقين سعياً إلى إعلانهم إلى حظيرة الكاثوليكية. وإذا كانت المحاولات الرامية إلى توحيد الكنائس تفشل، فإن لشكال هؤلاء التي ولدت في أوروبا من الإصلاح المضاد يجرى إنخالها، بما يسمح بإحياء معين للألب العربي - المسيحي.

وهذا العمل يمس بشكل أساسي الأعيان المستنيرين لكنه لا يمس رجال الدين والجمهير الشعبية القبطية المتعلقة بالطقوس، للملاذ الأخير نوعي الانتماء إلى جماعة متميزة. وهؤلاء الأعيان الحضريون يشكلون جماعة الأمناء المسؤولين عن الضرائب وعن إيرادات الدولة والالتزامات الضريبية، بما يشكل تخصصاً طائفيًا حقيقياً لأن الأقباط دائماً هم الذين يتولون على المستوى الأدنى للإدارة الضريبية مهمة أعمال مسك الدفاتر الحسابية والكتابة، والحال أن ثقل الأعيان في الطائفة يعتبر بالغ الأهمية بحيث أن وضع الهيراركية الكنسية يخطط بشكل متواصل. والواقع أن الأعيان المنفتحون نسبياً على الغرب بفضل المبشرين ولعمية للتعليم في عملهم، إنما يلعبون دوراً أساسياً في إدارة مصر العثمانية (١٠).

تحويلات القرنين السابع عشر والثامن عشر التحويلات السياسية

لا يعمل النظام العثماني بشكل دقيق إلا لبضعة عقود. وهو يتأسس على للمبدأ المزدوج للسلطات وعلى تهميشها قياساً إلى المجتمع. وواقع أن تجنيد وتحويل الطبقة الحاكمة يجب أن يتما دون علاقة مباشرة مع الجماعات الاجتماعية المختلفة إنما يشكل ضماناً حماية متساوية بالنسبة للجميع.

على أن العسكريين يندمجون بسرعة بالغة في المجتمع. ومنذ لواخر القرن السادس عشر، يندخل الممالك في الميليشيات وينهضون بنفوذ البيوت المملوكية على السلطة النظرية المضادة لهم. وهذه الميليشيات نفسها، بدلا من أن تجري تجنيدها خارج مصر، إنما تفتح صفوفها لأوساط التجار والحرفيين الحضريين. والحال أن الانتماء إلى قوة ميليشيا

إنما يؤول إلى ضمان دخل منتظم وإلى الاستفانة من شكل معين من أشكال الحماية. وفي المقابل، فإن رجال الميليشيا يبدلون في المطالبة بطرح تصحيحات مالية على النشاطات الاقتصادية الحضرية. وهذه العملية تعود الظهور في مجمل الإمبراطورية العثمانية، وذلك بقدر ما إن من الصحيح أن تطور مصر يتبع تطور البلدان العثمانية الأهم.

ولتمثل ظاهرة أكثر أهمية أيضاً في أن سلطة الوالي العثماني تأخذ في الانحطاط. فالمعسكريون يشعرون أنهم جد اقوياء بحيث يمكنهم تنمية الباشاوات عن مناصبهم وتعيين مستول كبير من صفوفهم ليتولى مهام الحكم الموقوت إلى حين إرسال الباب العالي والياً جديداً إلى مصر. وقد حدثت أول تنحية في عام ١٥٨٦.

ويسمح ضمها لسلطة الوالي بإعادة توزيع الالتزامات الضريبية الحضرية والريفية لحساب الطبقة الحاكمة المحلية وعلى حساب الإيرادات الإمبراطورية ودافعي الضرائب. ويستمر إرسال الخزينة إلى القسطنطينية، ولكن مع الحفاظ على قيمتها الاسمية في فترة تضخم أسعار واضحة. ومعياً إلى تجنّب تدفوع جديد لسلطته، يتجه الباب العالي من جهته إلى زيادة حدة التناقضات الداخلية. والجانب الرئيسي من نشاط الباشاوات، المجردين من بقية سلطاتهم، إنما يتمثل في صون روح الحصول لدى الطبقة الحاكمة. وتفضل جميع المحاولات الرامية إلى قطع شوط أبعد في تعزيز مرجعية السلطة للركزية.

والواقع أن هذه الصراعات تعتبر بالغة العنف بقدر ما إن رهنها هو إعادة توزيع الإيرادات الضريبية. والسلطة القائمة تنقسم إلى مجموعات، إلى أحزاب يوحد كل منها بكوات ممالك وميليشيات بل وأنصاراً حضريين وأحلافاً بدوية. وخلال القرن السابع عشر، تشهد هذه الصراعات غلبة البكوات للتتالية، ثم، في أواخر القرن، غلبة ميليشيا الأنكشارية. واعتباراً من عام ١٧١١، يستعيد البكوات تدريجياً هيمنتهم. والواقع أن للملك كانوا يسبيلهم إلى إعادة توحيد الطبقة الحاكمة باحتكارهم لحسابهم جميع للمناصب الرسمية، في الإدارة كما في الميليشيات على حد سواء.

والحال أن الانحطاط الحاصم لقوة الميليشيات، التي تحولت في أواخر القرن الثامن عشر إلى قوات شرطة عادية وأصبحت تحت سيطرة الممالك للحكمة، إنما يعد بالغ الضرر بالنسبة للحرفيين وللتجار الحضريين. وهذه المهن، للوظرة تأطيراً واسعاً عن طريق نظم طوائف كايك يكتف للمخالصة ويبدو معانها لكل روح تجديدية، كانت، في آن واحد، مستغلة بشكل جيد نسبياً من جانبها، في الوقت نفسه. أما البكوات للممالك لهم يبدون أكثر

جسماً بقدر ما أنهم، خلافاً لرجال المياشيا المصريين، يعتبرون معزولين تماماً من السكان الحضريين. وفي أعقاب تنظيم اجتماعى سياسى مفتوح نسبياً يجرى نظام مطلق لا يؤدي فيه أى شىء بعد إلى تخفيف حراسة استغلال الرعايا من جانب حكامهم الجدد. (١١)

الاقتصاد

هذا التحول السياسى معاصر لتطور بالغ الخطورة بالنسبة للاقتصاد المصرى. فلو اتع أن التغفل الاقتصادى الأوروبى يبدأ فى ممارسة آثاره على التجارة والإنتاج الحرفى للبلاد.

إن اقتصاد - العالم العثمانى ينشطر. فالبن، المنتج الرئيسى البديل لتجارة التوابل التى عرفتها العصور الوسطى، يجد نفسه محل منافسة فى الأسواق الأوروبية من جانب بن جزر الأنتيل الذى تبدأ زراعته فى تلك الجزر اعتباراً من عام ١٧٢٦، وهو، بفضل نظام الزراعة، ينتج بتكلفة أقل وبكميات أضخم. ومنذ عام ١٧٣٠، يجرى إدخال هذا البن الجديد إلى أوروبا. وسرعان ما يتجه العثمانيون إلى استيراد بنهما يتجه المصريون أنفسهم إلى استهلاكه. والنتيجة أن تجارة البن الكبرى تدخل فى انحطاط. وهو عين ما يحدث لتجارة الأعفشة الهندية عن طريق البحر الأحمر. فالكميات تنخفض بشكل ملحوظ بسبب تزايد حظر الأوروبية ومنافسة للمنتجات الأوروبية.

ويشهد إنتاج السكر تطوراً مماثلاً فى وجه منافسة الجزر الأمريكية. ويتراجع السكر المصرى فى جميع أسواقه المعتادة وينهار نشاط أسلسى للصناعة التقليدية للمصرية. وتنحط تجارة وحرف المنسوجات المصرية فى الفترة نفسها. فالمنتجات الأوروبية وأسلاً الفردسية تحل محلها جزئياً فى السوق العثمانية وفى مصر نفسها. وتعتبر النتائج جد سلبية بالنسبة للأوساط الحضرية للمصرية (١٢)، لكن جماعات أخرى تفيد من هذا التطور.

وهكذا فإن بورجوازية من المسيحيين السوريين، من الكاثوليك اليونانيين أساساً (من اللغة الأرثوذكسية وإن كانت عربية الأصل)، تثرى عن طريق تودها كوسيط وتصبح إحدى القوى الصاعدة فى المجتمع المصرى. وهذه الطائفة حديثة النشأة. ويرجع أصلها إلى المدن التجارية الكبرى فى أعماق سوريا، دمشق وحلب، لكنها تتطور مع نمو المدن الساحلية فى سوريا ومصر والمزيج بالتجارة مع أوروبا. والحال أن تحول العرب

الأرثوذكس إلى الكاثوليكية، في أواخر القرن السابع عشر ولأوائل القرن الثامن عشر، إنما يجد تفسيره في الحاجة إلى تأكيد درجة من الاستقلال المحلي تجاه الكنيسة الأرثوذكسية التي يهيمن عليها رجال دين من أصل إثنى يوناني، على ارتباط وثيق بهيكلية القسطنطينية والتي تمثل قريناً كنسياً للسلطة المركزية التي يمثلها الباب العالي. ويرمز (هذا التحول - المترجم) أيضاً إلى رغبة في التقارب مع أوروبا الكاثوليكية المطلّة على البحر المتوسط. ومن جهة أخرى، فإنه إذا كانت روما تدعم الانشقاق من خلال مبشريها، فإن فرنسا تعدّ معادية له بسبب التعهيدات الديبلوماسية التي يخلقها لمحيطها الدينية وبسبب المنافسة التجارية التي يمكن أن تتسبب لها فيها الشبكة الكاثوليكية اليونانية في موانئ شرق البحر المتوسط. على أن النشاط التجاري للكاثوليك اليونانيين غالباً ما أصبح مكملاً لنشاط التجار الإفرنج (الفرنسيين - المترجم). وفي مصر، يصل عندهم إلى نحو أربعة آلاف يقيمون في القاهرة والإسكندرية وخالصة بمياط، مبداء العلاقات مع سوريا.

والباب العالي لا يعترف رسمياً بهذه الطائفة الجديدة التي تضعف الكنيسة الأرثوذكسية، إحدى الروافع الأساسية للإدارة المركزية للإمبراطورية. ثم إن الكاثوليك اليونانيين يتضامنون مع نزعات الاستقلال المحلية. كما أنهم يدخلون في تنافس مع الشبكة اليهودية التي تمتد إلى القسطنطينية في حين أن شبكتهم تقتصر على الشرق الأدنى. وهناك الصراع هو الإدارة المالية لأشياء قبول (شبه المستقلة - المترجم). وفي عكا كما في مصر، ينجحون في الحلول محل اليهود في إدارة الجمارك وفي وظيفة ممولى السلطات شبه المستقلة. ويكمن مفتاح نجاحهم في كفاءتهم التقنية وتضامن جماعتهم كما يكمن في تبعيتهم الوثيقة تجاه المحاكم المحليين. ولما كانوا يدينون بكل شيء للسيد المحلي، فإنهم لا يخافون بالخيانة.

ويؤدى الانشقاق الباهوى إلى إنشاء جماعة من رجال الدين العرب بشكل خالص والمنفصلين عن النفوذ اليوناني. وفي التسميات المحلية، غالباً ما يسمى أفراد الطائفة الجديدة بأولاد العرب بدلاً من الروم. ويوجد هنا الإحياء العربي في الإبداع الأدبي والثقافي الذي يلهمونه في اللغة العربية والذي يستشرف النهضة، الحركة الكبرى للتجديد الأدبي العربي في القرن التالي والتي تبشر بالعروبة. ومع ارتباطهم بأوروبا وانفتاحهم عليها، فإن الكاثوليك اليونانيين يشكلون أحد أهم عوامل تجديد الشرق الأدنى (١٢).

ويؤدى انحطاط السلطة العثمانية والتغلغل الاقتصادي الأوروبي إلى تعديل هيكل الإنتاج الزراعي بشكل ملحوظ (١٤).

الأوساط

في القرن الثامن عشر، نجد أنفسنا في المرحلة النهائية لنظام الزراعة للرؤس على فرشة الفيضان النيل. فكل فيضان يفرش على سطح النهر أثقل للجزئيات التي يحملها الماء. ومن ثم، فإن النهر يصبح مؤطراً بهطانتين غرينيتين تصيحان، بفضل الجهد البشري، سدين شطيين عظيمين أعلى من أعلى مستوى مياه الفيضان، في حين أن السهل التحتي يبدو منخفضاً بشكل انسيابي حتى بداية النجد الصحراوي حيث تترسب المياه الأكثر صفاءً.

ومنذ العصر الفرعوني، كانت الأرض الزراعية المصرية تدار عبر سلسلة من أحواض فرشة الفيضان التي تغذى بقنوات تبعاً لاتحاد الوادي. ويبدأ الفيضان نحو منعطف الحيف وينفتح السد الشطى نحو منتصف المسطس. وكانت الأحواض تُعلا بالتدالي من الأقرب إلى النهر إلى الأبعد.

وفي العصر الوسيط، حَسُنَ العرب النظام بتوسيع طرائق رفع المياه في مصر السفلى حيث كان ارتفاع الفيضان اضعف بكثير مما في مصر العليا. ومنذ ذلك الحين، ظلت مصر العليا في نظم استغلال جماعي من جانب الجماعة القروية مع دفع ضرائب معينة بينما عرفت مصر السفلى عملية فريدة لقطع الأرض في إطار الاستغلال العائلي والمخول في مجال الاقتصاد النقدي.

والحال أن الخيار الذي اتخذه العثمانيون في القرن السادس عشر باستغلال مصر إنلياً عن طريق الالتزام الضريبي قد أدى إلى نظام الالتزام. فشريحة الدفع المقدم لضريبة (مهرى) واجبة السداد للدولة، يحصل الملتزم، الحاصل على الامتياز الضريبي، على حق الانتفاع بجزء من الأملاك العامة. وهو يلتزم بجباية المهرى من الفلاحين وبرعاية السدود والقنوات. ويتولى تحصيل إيراده هو الفاض، ثمناً لخدماته.

ويغطي الالتزام قرية أو عدة قرى. وهو ينقسم، من جهة، إلى الأراضي الفلاحية (ملاح) التي تلحق بالضريبة وتتولى أعمال السخرة، ومن جهة أخرى، الأراضي المخصصة للملتزم، أراضي الرسمية، وهي الأفضل عموماً. وفي أغلب الأحوال يتولى الملتزم استغلالها عن طريق عمل مقابل أجر أو من طريق تاجيرها. ومن الناحية النظرية، فإن الأراضي المخصصة للملتزم (لوسية) تشكل الجانب الرئيسي من الفاض.

والحال أن الملتزم، للقيم بوجه عام في المدينة، يلزم التزامه إلى قطع تشمل نومي الأرض (أرض الفلاح وأرض الوسية) ويعهد بهما إلى أهم فلاح في الجماعة القروية، وهو شيخ البلد (رئيس القرية). وهذا الأخير هو الشخصية الأهم في العالم الفلاحي لأنه يلزم ويجمع الضرائب ويقود مجمل نظام استغلال الأرض الزراعية القروية (١٥). ومن ثم فإن الدولة ليست لها اتصالات مباشرة مع العالم الفلاحي. وشيخ البلد يمثلها في الساحة، لكن الملتزم يتوسط بالكامل بينه وبين النظام الإداري.

وفي القرن الثامن عشر، يتحول الالتزام من التزام ضريبي مؤقت بسيط إلى شبه ملكية خالصة لحساب الملتزم. وبفضل حيل قانونية، يصبح قابلاً للتوريث، وقابلاً للرهن بل وقابلاً للبيع. ثم إن الملتزم يزيد الحيل التي تسمح له بزيادة حصته على حساب الأراضي الفلاحية ويختلق ضرائب جديدة تنهش بكلكلها على الفلاح. ومن القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، تزيد غلة الضرائب المفروضة على الفلاحين أربعة أضعاف. ولا تحصل الدولة منها إلا على ثلث (١٦).

ويتعزز العبء الضريبي الإضافي على الفلاحين من جراء الاتاوات التي يفرضها البدو المهاجرون عليهم فرضاً تعسفياً. وهؤلاء البدو يهيمنون بشكل خاص في مصر العليا وعلى تخوم الدلتا. وهم يفرضون على الفلاحين التعساء لتاوات حماية باهظة.

إلا أنه لا يجب لنا أن نستنتج من ذلك أن القرى المصرية، على الأقل قرى مصر السفلى، تجد نفسها خارج اقتصاد التبادل وأنها في حالة اكتفاء وعزلة. على العكس، فالريف المصري يرتبط بالمدن من طريق شبكة من الأسواق الدورية في المدن والقرى (١٧). كما أن الأوساط الحضرية تلعب مبالغ ملحوظة للفلاحين مقدماً مقابل للحصول.

والانتقال الواسع للثروات يسمح بتمايز معين للمجتمع الفلاحي إلى منتفعين كبار ومتوسطين وصغار وأناس محرومين من الأرض، كما يسمح بصوق حقيقية للانتفاع الفلاحي الذي يصبح هو أيضاً شكلاً من أشكال الملكية (١٨). وهذا الوضع يسمح بتعزيز دور مشايخ البلد الذين هم في آن واحد رؤساء شبه ورثيين للجماعات الفلاحية ومنتفعون بأهم الاستثمارات الزراعية ووكلاء للطبقة المسيطرة. ويورثهم الإداري يعزز سلطتهم كما يعزز دخولهم، للؤلؤة أساساً من حصانات ضريبية مهمة. ومن الواضح أن العلاقات الزوجية تعزز تلاحم هذه الجماعة الاجتماعية التي تحوز السلطة الفعلية في الأرياف (١٩).

وتساعد فئة مشايخ العرب الاجتماعية على توسيع فئة مشايخ البلد. وتتكيف الفئة

الأولى من شيوخ من أصل يهودى يتفادون بنسب عربى يرجع إلى شبه الجزيرة العربية. وهم يقيمون فى القرى اليهود للمستقرين خاصة فى مصر العليا والوسطى. وغالباً ما يختصب أمم مشايخ البلد صفة شيخ العرب. وهذا الأخير يتزعم عمومياً قرية توية تجمع انتلافات من اليهود والفلاحين. وهو يمارس دوراً شبيهاً بدور شيخ البلد، لكنه خلافاً له، يستطيع أن يضيف إلى هذه الصفة صفة الملتزم. وكل هذه الخصائص تمنحه قوة محلية عظيمة قياساً إلى السلطات العامة وذلك بقدر ما أنه، خلافاً للملتزمين الآخرين، يقيم فى الأرياف وليس فى المدن (٢٠). وهذا التدخل اليهودى - الفلاحى يقود إلى حروب بين القرى، سعياً للاستيلاء على الأرض، وخاصة للهدا. وتسمى كل قرية إلى أن تدير لحسابها لقرب جزء إليها من نظام القرى، وذلك على حساب الصالح العلم كما هو واضح. وما أن ننحط مرجعية السلطة للركزية، حتى يتوقف المنطق للعام لنظام القرى عن أن يكون محل مراعاة. وفى المقابل، فإن هذا التدخل يسمح للسلطات المحلية بالتصدي على نحو فعال لتعديلات للمالك. وعندئذ فإن جبهة الضرائب من جانب السلطة للركزية لا تتم إلا عبر مفاوضات، وهى ظاهرة واضحة بشكل خالص فى الجزء الشرقى من الدلتا.

على أن العلاقة بين الفلاحين واليهود إنما تنهض، بوجه عام، على حساب الفلاح. وقد رسم لنا هومار عنها لوحة جد كالحة، إن عند المضايقات والأضرار الصغيرة التى يرتكبونها [العرب] يفوق للتصور؛ وعلى سبيل المثال، فى أسواق القرية، حيث يتجمع الناس لبيع اللؤلؤ والهيل والذرة والتبغ... إلخ، يتمتعون بكل ميزة عصبيتهم، ويهيمنون بسهولة على الجميع. ولا يمكن لك أن تجد فلاحاً يملك الجراة على منازعتهم فى أى شىء أو على الامتناع عن تقديم سلعته إليهم بالسعر الذى يحدونه. والشومة التى يغرزاها العربى بوالحة إلى جانبه فى قلب السوق، يبدو أنها تقول: أنا الذى أقرض القانون هنا.

إن أعمال السلب والعنف على حساب الفلاحين جد متكررة ومتواترة وهى لا تتعرض للعقاب البتة. وتتراجع للحاصل بسبب تعديلات اليهود (٢١).

وانعلم الاستقرار السياسى فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر بعد ترجمة له فى تدميرات توية للأرياف من جانب الأحزاب للموكية للتنافس ومن جراء تفاقم غارات اليهود للمستفيدين من فترات انعدام الأمن. كما أن لويثة الطاعون والجدوى والأمراض للمعوية تنزل كوارث رهبة بمجموع السكان. والنتيجة هى ثبات لسكان مصر حول أربعة ملايين وخمسمائة ألف نسمة وتراجع للمحاصيل قياساً إلى عصور سابقة معينة. (٢٢)

الاستثمار الريفي والروح الجديدة

إن الالتزامات الريفية هي أساس القوة الاقتصادية للممالك. وهم يسيطرون على نحو ثلثها. أما الالتزامات الأخرى فيحوزها كبار القادة الدينيين وكبار التجار للمصريين، لكن للملتزمين غير للممالك يعانون في أواخر القرن من تعديلات كثيرة يفرضها الحكومات على الأرياف، وقيمة التزامهم تميل إلى التدهور.

ويرمز انحصار للمالك على المملشيات الحضرية في منتصف القرن إلى انحصار الاستغلال الريفي الزائد على علاقات الاستغلال المعتدل للأوقاف. كما أن الارتفاع السريع للضرائب المفروضة على الأوساط الحضرية يشير إلى تراجع للاستغلال الحضري مع الاستغلال الريفي. كما يمكن تفسيره على أنه انحصار للاقتصاد الحضري لحساب الاقتصاد الريفي.

وبدايات التقليل الاقتصادي الأوروبي غير مؤاتية للعالم الحضري، لكنها تجعل الاستثمار الريفي أكثر جاذبية. وتشير خصخصة الالتزام إلى ذلك بشكل واضح. وتبدأ السوق الأوروبية في طلب مواد أولية زراعية، كالقطن، وسلع مخلائية. وفي حين أن أسعار السلع المصنعة تظل مستقرة من حيث القيمة الثابتة بسبب المنافسة الأوروبية، فإن المنتجات الزراعية تشهد ارتفاعاً مماثلاً لارتفاع المنتجات الأوروبية (٢٢).

ويتفكك اقتصاد - العالم العثماني لحساب البناء البطيء لهيكل جديد لمباينة للواد الأولية للشرقية بالمنتجات المصنعة الأوروبية والتي تصاحبها غلبة، على التباين العثماني الداخلي، لعلاقات مباشرة بين كل جزء من أجزاء العالم العثماني وأوروبا.

وهذا التطور الذي يبدأ في أواخر القرن الثامن عشر لن ينجز إلا في النصف الثاني من القرن التالي. وفي مصر نهاية القرن الثامن عشر، تتواجد هذه العملية في إرساء وفي توسيع تقنيات زراعية جديدة، خاصة في الإقليم الشمالي للبلد، بشكل له دلالة قرب مرفأى بمياط ورشيد كما في إقليم المنصورة. وفي هذا الجزء من مصر السطلي (٢٤)، فإن مستوى مياه النيل المنخفضة يتطابق مع مستوى السهل الغربي.

وهذا الوضع يسمح بإيجاد رى دائم لا يعود بحاجة إلى فيضان النيل ويقود إلى استغلال مكثف للأرض دون أية إراحة لها. وهذه الثورة الزراعية ترتبط على نحو مباشر بتوسيع زراعة الأرز (٢٥)، لكن هذا الأخير يزرع في تلالوت مع الحبوب والخضروات (٢٦).

ولا يمكن لنا أن نحدد بدقة لحظة ظهور الأسلوب الجديد للرى. والأرجح أنه يرجع

إلى العقود الأخيرة للسلطنة المملوكية، لكن توسعه وضبطه النهجى بصبحان كيندين فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر. والحال أن إدخال الرى الدائم بشكل تحولاً أساسياً سوف يمتد، بفضل نظام السندود، إلى مجمل مصر السفلى فى القرن التاسع عشر وإلى الوادى بأكمله فى القرن العشرين. وهذا التحول الرئيسى الأساسى بالقياس إلى النظام الموروث من الفراعنة، إنما يستثيره الطلب المتزايد للسوق العثمانية والسوق الأوروبية بالفعل (٢٧). إلا أنه يظل فى مذهبته كما فى تطبيقه من فعل المجتمع المصرى. فهو يرتبط بإملاء استثمار رؤوس الأموال الحضرية فى الريف المصرى (٢٨).

ومن الواضح أن مصر فى القرن الثامن عشر، تتحرك بالفعل، ولكن ليس فى الاتجاه الذى يتخيله الثوار الفرنسيون.

ملك بك ومصر وإنشاء المملوكية الجديدة

ملك بك

إن صعود للملك في اتجاه السلطة هو حركة طويلة الأمد. وهو يتخذ طابعاً ملموساً نحو عام ١٧٢٠ عبر ظهور وظيفة جديدة في الهيراركية للمملوكية، هي وظيفة شيخ البلد السيد البلاد (هنا لا تعني البلد القرية بل مصر كلها). وهذه الوظيفة يعهد بها إلى أهم زعيم مملوكي، الزعيم الذي ينجح في فرض سلطته على البكوات الآخرين. والحال أن شخصية غير عادية سوف تنجز هذا التطور بإنشاء ما يمكن للمؤرخين تسميته بالدولة للمملوكية الجديدة. إنه على بك الكبير (الكبير سنًا). وهو ينحدر من بيت مملوكي، بيت القازنقلية (من اسم مؤسسه مصطفى كَتَخًا للقازنقلية، الذي مات نحو ١٧٠٣ - ١٧٠٤). وهذا البيت، في النظام السياسي، يستفيد من النزاعات التي تستند البيوت الأخرى ويصبح في أربعينيات القرن الثامن عشر البيت المهيمن (٢٩).

ويخطو على بك الخطوات العلنية لملوك. وفي عام ١٧٦٠ يصبح شيخاً للبلد. ونحو ذلك التاريخ، يحصل على مملوك شاب، محمد، أبو الذهب فيما بعد، الذي يرفعه بسرعة إلى وظائف مهمة. وفي عام ١٧٦٤، يجري التصريح لهذا الأخير بإطلاق لقبه، رمز الإعتاق، ويعد نفسه وقد صعد إلى رتبة لقب ذلك الاعتبار. وبدلاً من القيام بفعل السفاه للعتاد المتمثل في توزيع قطع من الفضة على الجمهور خلال الاحتفال، يستعاض عنها محمد بك بقطع من الذهب، ومن هنا لقبه، أبو الذهب.

وعلى بك رجل طموح وله أعباء كثيرون. وخلق بكوات جدد هو بالنسبة له وسيلة لتعزيز سلطته. وهو يشرع في تحويل بيته إلى أهم بيت بين جميع البيوت للمملوكية. ففي عام ١٧٦٦، يضم هذا البيت ثلاثة آلاف مملوك من ممالك مصر الذين يصل عددهم إلى عشرة آلاف. ولابد من تولف الفرق كبير من المال لإعاشة مثل هذا الجيش الشخصي الخاص. ويجد على بك التمويل اللازم بزيادة الضرائب غير العادية وغير المشروعة المفروضة على التجار اليهود أو للمسيحيين أو الأجانب، «الأتاوات»، وزيادة التعذيب والمظالم المفروضة على الأوساط الحضرية للسلعة.

وفي عام ١٧٦٦، بعد فترة نفي قصيرة إلى سوريا من جراء نساتن الوالي

العثماني، يرجع على بك إلى مصر عازماً على الاستيلاء على السلطة للطلقة. ومنذ لواخر عام ١٧٦٧ وحتى عام ١٧٧٠، يتمكن، عبر القتل أو التلوي، من القضاء على جميع للمالك للهمين الذين لا ينتمون إلى بيته. ولأول مرة، تتركز قوة للمالك في بيت واحد تحت زعامة زعيم طموح وليس في عدة بيوت منشقة بالتنازع فيما بينها. ويجري اختزال ميليشيات للشاة المختلفة لاختزالاً حاسماً إلى مستوى قوات شرطة هادية (٢٠).

واعتباراً من عام ١٧٧٠، فإن توازن السلطات، لهذا الرئيسى للسياسة العثمانية، لا يعود له وجود في مصر. وتلاحظ الظاهرة نفسها في مجمل الإمبراطورية حيث تبدأ أشياء بول حقيقية في الظهور في أفريقيا كما في آسيا وفي أوروبا.

والحال أن أحد صحابة (خُصَماءه) على بك، أحمد الجزار (الذي يبدو أنه حمل هذا اللقب بسبب وحشيته)، وهو مملوك من أصل بوسنى، يرفض للمشاركة في نهج لصقائه، وذلك بالرغم من أن على بك كان قد رفعه إلى سنة البكوية. وإذا يتحسس بنو انتقام على بك، فإنه ينجح في الهرب في الوقت المناسب إلى الإسكندرية ثم إلى القسطنطينية حيث يدخل في خدمة الباب العالي. ويدرك هذا الأخير أهمية استخدام هذه الشخصية القوية لإخضاع سوريا الثائرة. وهكذا يبدأ أحمد باشا الجزار مهمته الصورية التي سوف تقوده إلى التصدى لبوناپارت أمام عكا. وفي السنة نفسها (١٧٦٨)، يشتري أبو الذهب لبيته مراد الشاب الذي يجري تصعيده على الفور تقريباً إلى رتبة البك.

إخماد المظاهرات في مصر

يشرع على بك، سيد القاهرة، في إخماد الفتن في مصر. وهو يصطدم بالتحالفات البدوية القوية. وفي مصر السفلى، يتهب تحالف نصف سعد لتمرد في ناحية البحيرة بتحريض من الجزار الذي قِيمَ مراراً من سوريا. وعن طريق القمع، ينجح إسماعيل بك، أحد مساعدي على بك، في إرهاب بنو مصر السفلى الذين سوف يعتصمون بالعسكينة في الأهمام التالية.

وفي مصر العليا، كان تحالف الهوارة القوي تحت قيادة الشيخ همام قد شكل دولة مستقلة حقيقية تستند بشكل خاص إلى محصول قصب السكر. وكان البدو قد تجاوزوا مرحلة الذهب صعوداً إلى مرحلة الزراعة التجارية. وفي عام ١٧٦٩، يقضى أبو الذهب على

سلطة الهوارة. ويتمثل واقع جدير بالانتباه في أن جهته، إلى جانب للمالك التقليديين، يضم قوات تحصل على رواتب مؤلفة من مغاربة ولبانين ومتاول (شعبة من جنوب لبنان الحالي) بل ومن مسيحيين سوريين. وهو ما يعنى أن على بك يبدأ في استهداف سوريا وفي تنفيذ سياسة مسيحية حقيقية. وكما هو شأن حرب للمالك، فإن النشائس والمفاوضات تلعب دوراً أعظم من الصلح المباشر. والحال أن إمارة فتح مصر العليا إنما تتم أساساً عن طريق تفكيك التحالفات المحلية إلى جماعات مختلفة.

ويتيح إخلاء الفتن في مصر انطلاقة كبرى للسكان الفلاحين الذين يتخلصون من جانب من الاضطهاد البدوي، لكن سياسة سيد مصر التوسعية تستتبع نفقات باهظة ومن ثم تعزيزاً لزيادة العبء الضريبي على المدن والأرياف.

والواقع أن نزاع السلطة العثمانية في مصر يتحقق في اللحظة التي تجد فيها الإمبراطورية نفسها مواجهة بأول امتحان رئيسي لقدرتها على البقاء الحرب مع روسيا كاترين الثانية التي تبدأ في عام ١٧٦٨.

وفي البداية، يبدى على بك متصاعاً إذ يرسل وحدات الجيش التي يطلبها الباب العالي. وما يهمه بشكل خاص هو تجارة البحر الأحمر، فهو يرى فيها وسيلة تمويل تكوين قوات مسلحة قوية ضرورية لحصون سلطته. وتكلف حاشيته في جانب منها من تجار لودويجين كالتاجر البندقي كارلو روزيتي، ومن مسيحيين الباط متخصصين في الشئون المالية ومن مسيحيين سوريين مهتمين على نحو متزايد بتجارة بن البحر الأحمر. ويرى مجمل هذا الفريق أن من الضروري إعانة فتح طريق البحر الأحمر لعمارة التجارة الدولية الكبرى. وفي فرنسا وفي إنجلترا، يتجمع تجار وقناصل لتكوين جماعة ضغط تهدف إلى دفع حكوماتها أيضاً في هذا الاتجاه وذلك بالرغم من امتيازات الشركات الاحتكارية التي تباشر تجارة الهند وبالرغم من العنوة الحازمة التي يبديها الباب العالي الذي لا يريد السماع عن جهود سفن لودويجية على مقربة من المدينتين المقدستين في الحجاز (٢١).

والحال أن نزاعاً على وراثة الإمارة في صفوف الأسرة الشريفة (المنتسبة إلى النبي) التي تحوز إمارة مكة تحت السلطة الاسمية للإمبراطورية العثمانية، سوف يكون ذريعة للتدخل المملوكي. والباب العالي نفسه هو الذي يطلب إلى على بك تأمين صعود المرشح الذي تدعمه إسطنبول. ويلود أبو الذهب قوة الحملة التي تحتل الحجاز خلال صيف

١٧٧٠. وتذكر بعض المصادر الأوروبية أن علي بك حصل عندئذ من شريف مكة على لقب سلطان مصر، بما يعيد دولة المماليك التي عرفها العصر الراسخ. ويبدو ذلك قليل الوجدان، لكن انتشار هذه الشهادة يشير إلى الأهمية التي اكتسبها عمل سيد مصر. بل إن الأمر سوف يصل به إلى حد حروب العملة في مصر باسمه إلى جانب اسم سلطان فلسطين.

بيان علي بك

في أواخر عام ١٧٧٠، ينفرد علي بك في مشروع لوضع بكثير، فتح فلسطين وسوريا. وهو يتمتع هناك منذ وقت طويل بحليف مضمون، ضاهر العمر الزيداني، سيد مكة. وسعيًا إلى تبرير مسلكه، فإنه يرفع ديوان القاهرة إلى توجيهه بيان إلى سكان سوريا. وهذا النص، الذي أوردته وأصفه القندى، للتؤرخ الرسمي للباب العالي، في حولياته، يمكن اعتباره أفضل مثال للوظيفة السياسية العثمانية في ذلك العصر، أصدر هذا الفرمان الجليل الشأن من ديوان مصر للحروسة العالي، بامت له للفاخر والعالي، بأمر من من به الكريم للثان على أهل هذا الزمان، فأظهر العدل والأمان، وهم بالفضل والإحسان جميع أهل القرى والبلدان، ولزعم أنوف أهل الجور والظلم؛ أمير الأمراء الكرام، كبير الكبراء العظام، المختص بمزيد منة الملك العلام، أمير اللواء الشريف السلطاني، والعلم للديف الخاقاني، الأمير على بك أمير الحج سابقًا وقائم مقام بمصر للحروسة حالًا بام عزه ويقاضه أمين.

المضمون حمد لبارئ النعم ومحبي الرعم. الذي قدس وعظم قدر الحرم وبارك حوله بجزيل النعم، وأمر بالعدل في سائر الأمم، ولوعده الظلم بالهلاك والنقم، القائل في كتابه للبين، والله لا يحب الظالمين، إن الله لا يصلح عمل للفسدين [...]

وبعد مزيد السلام والتحيات، وتوأمي الأمن والبركات وجزيل النعم والخيرات في سائر الأوقات والساعات إلى حضرات العلماء العاملين، والفقهاء للحنثين للفتين بشرية سيد الأنام، وتفضلة الإسلام، وأرباب المناصب والحكام، والأكابر والأعيان الكرام، والخواص والعوام من أهل مدينة دمشق الشام، أمزهم الله بنور العدل وأحكامه وأجارهم من الظلم وظلامه وعاملهم بالطاعة وإكرامه، وتقاض عليهم جزيل إنعامه أمين

والذى يحيط به كرم علمكم وسلمهم لهمكم أن الأمة لا تجتمع على الضلالة. وقد علمتم ما فعله عثمان باشا في أرضكم وإلى غيرها من الظلم والجهالة، وأنه قد تعرض للحجاج والزوار وسلط عليهم الأشرار والقجار بالآنية والأضرار وظلم المسافرين والتجار، ولذى أهل الأماكن الشريفة ويدل أمن الحرمين الشريفين بالخيلة، وتعدى على حدود الدين وصنع مالا يليق بالمسلمين [...] ولما بلغنا عنه ما بلغ وأنه في إنشاء الأرض للقنصة قد بلغ، فهايرنا لسوء فعله بالنقض [...] ولربنا أن نظهر منه تلك الأرض حصوة للدين وغيرة على المسلمين [...].

«وبلغنا أيضاً ما فعله بالعلماء في غزة، وقد ألقاهم الذلة بعد العزة، وبغضهم في الأرض بالحياة، والتحديث للقنص من الإله من لذى ولما فقد أتيته بالحرب. والعلماء لا شك أولياء الله لقوله في كتابه الأسمى إنما يخشى الله من عباده العلماء، وإذا كنتم بذلك راضين، وعلى دفع ضرره غير قارين، فمن إن شاء الله القارين على إزالة ما هنالك وقد اقتبنا المذاهب الأربعة بذلك، فاستخرنا الله، وهو نعم الولي، وسألناه أن ينصر بين محمد وعلى. وقد صرفنا الهممة والأموال في خدمة الملك للتعالي، ووجهنا المعسكر والأبطال ليرفعوا يد الظالم ويستردوا للظالم [...]».

«والمتصود منكم ترك الظالمين والبعيد عنهم، ومن يتوله منكم فإنه منهم. وأن تجهدوا فيما يدفع الشرور ويوجب لكم الراحة والسرور والغبطة والعبود [...]».

«وما نحن قد أخبرناكم، والمعونة على الخير قد اخترناكم، ومن قبول هذا الظلم في أرضكم حزنناكم. فالمعسكر قاصدة إليه وجميع ما لديه، وقد سلطها غضب الله وسخطه عليه، فاحفظوا منه سائر أموالكم وأحوالكم ولا تنصروهم يقيم في أرضكم وبين عيالكم ورأي العلماء والأكابر على وأنتم بالمعونة على الخير أولى».

«وعلى القريب منكم والبعيد والطارف والتلبد، والأحرار والعبيد، أمان الله ورسوله وإماننا للسعيد، والله يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، والخير يكون والصعب يهون بعون الله والسلام» (٣٢).

ضلعو الغهر

كما في بقية أرجاء الإمبراطورية العثمانية، فإن الهيكل الاقتصادي الرئيسي في

سوريا - فلسطين هو الالتزام الضريبي، المقاطعة، التي تصبح، في القرن الثامن عشر، وراثية تحت اسم الملكية. ويعتمد الأعيان المحليون قوتهم من هذه الالتزامات الضريبية التي تنطوي، بشكل أكبر مما في مصر، على تفويض حقيقي للسلطات من جانب الدولة العثمانية. وهكذا ففي فلسطين، تتمكن عائلة عربية من أصل بدوي، هي عائلة الزيداني، من أن تركز لحسابها عينا كبيرا من الالتزامات الضريبية إلى درجة إنشاء شبه دولة لها عاصمتها، عكا، وتعتمد من البحر للتوسط إلى الجليل. والحال أن رئيس العائلة، ضاهر العمر، وهو عجوز ما يزال بالغ الحيوية برغم أنه في الثمانين من عمره في عام ١٧٧٠، قد حارب نائما الهشوات العثمانيين في المنطقة بالتعاون مع كبار أعيان الجبل اللبناني، الشيعة والدروز والموارنة. وهو يطور في ممتلكاته زراعة القطن بهدف التصدير إلى الأسواق الأوروبية، الأمر الذي يشكل هناك أيضا علامة على التحويل التدريجي لتوجه الاقتصاد للشرق الأدنى.

وهو على ارتباط وثيق بالكاثوليك اليونانيين الذين يمثلهم بشكل خاص صرافه وحائز ثقته، الشهير إبراهيم الصباح. وفي بداية صعوده، كان ضاهر قد سعى إلى التحالف مع يهود طبرية، الذين كان يوسعهم التوسط لحسابه لدى الباب العالي من خلال المراجع اليهودية في القسطنطينية. وغبته للتزاييد في نيل قدر من الاستقلال لقوته إلى الاعتماد على الكاثوليك اليونانيين إلى درجة جعله إبراهيم الصباح أغنى رجل في المنطقة وصفيه الأمين على سره. وهكذا فإن عائلة الصباح تتوحد مع عائلة ضاهر (٢١).

وكان على بك قد تعرف على ضاهر العمر خلال فترة نفيه القصيرة في عام ١٧٦٦ (٢٠). ولد ظلًا على علاقات طيبة وقد قدم له سيد فلسطين الشمالية وحملت مسلحة خلال حملاته. والواقع أن الهزائم العثمانية في مواجهة الروس الذين أرسلوا أسطولًا إلى البحر للتوسط، يبدو أنها تتيح لهما فرصة فريدة لتأكيد استقلالهما بشكل حاسم ونهائي. وإبراهيم الصباح هو الذي يدفع إلى التحالف بين الرجلين سعياً إلى إنشاء دول مستقلة تماماً. وينسب إلى الرجل المتمتع بثقة ضاهر التصريح الذي يذهب إلى أن «الإمبراطورية العثمانية لم يعد لها وجود، وأنه لا يوجد على الأرض هيرونة واحدة، هي روسيا، مثلما لا يوجد في السماء غير رب واحد» (٢٢).

الفصل

يجدد على بك آمداك ضخمة من الجنود، بل ويلجأ إلى مستشارين عسكريين

لأوروبيين. وهو يبقى فى القاهرة، بينما يسلم القيادة الليبانية لمسامية الرثيبين إسماعيل وأبو الذهب. وفى ٨ يونيو ١٧٧١، يستولى أبو الذهب على دمشق. لكنه نور ذلك - وبما يشكل مفاجأة للجميع - ينسحب إلى مصر ويرجع إلى القاهرة. ويبدو أن أسباب هذا التغير المفاجئ إنما تكمن فى عزوف المماليك عن الابتعاد عن مصر. فهم يتحصنون تجاه هذه الأرض للتهنئة تعلقاً حقيقياً، وسوريا تبدو لهم منفى. ثم إن محاربة السلطان العثمانى خارج مصر وليس مجهود الاحتلال من الانصياع له إنما تبدو لهم بمثابة خيانة للإسلام. وقد تعرضوا لدمار جده فعالة من جانب الباب العالى الذى يدعو، سعياً إلى مواجهة ملعات الحرب مع روسيا، إلى اتحاد جميع المؤمنين للنود عن الإسلام للهند من المسيحيين.

وليس من شأن عودة أبو الذهب إلى مصر إلا أن تفتتح على حرب أهلية بين صفوف المماليك. ويتعرض على بك للهزيمة ويضطر إلى اللجوء إلى فلسطين (أبريل ١٧٧٢) بينما يصبح أبو الذهب شيخ البلد الجديد. ويدخل على بك فى تحالف سطر مع الروس ويحشد مع آل الزيدانى حصار يافا، وهو أول حصار بين حصارات طويلة لمدن فلسطين الساحلية. وتسقط المدينة فى فبراير ١٧٧٣، بعد صمودها لمدة ثمانية أشهر. ويتصور على بك أن يوسع وسط الاضطراب المعاكس إمامة فتح مصر بحشد جميع العناصر المخلوطة لخصمه، ويمول إبراهيم الصباح عودة على بك إلى مصر.

وعندئذ يدعو أبو الذهب إلى اتحاد جميع المماليك ضد هذا الفائن عميل للمسيحيين. وهو يذكر بما حدث للهند التى سقطت فى أيدي الإنجليز الذين لعبوا إليها فى البداية كتجار عابدين. ويؤدى التفضال ضد على بك إلى تعبئة مجمل السكان المصريين. وسرعان ما يمتنى بالهزيمة ويموت متأثراً بجراحه فى ٨ فبراير ١٧٧٣.

التحور الأوروبي

لقد جعل على بك مصر مستقلة عن الباب العالى وسياسته تهدف بشكل واضح إلى إحياء السلطنة المملوكية القديمة. وفى عام ١٧٧٢، أمر بأن يوضع فى الخصر، الذى قام بترميمه، والذي يضم رفات الخلفاء الإسلامى الكبير، الإمام الشافعى، لوح يحمل اسم عزيز مصر، وهو مصطلح مستخدم فى القرآن للإشارة إلى يوسف، وزير فرعون، والذي يستخدمه الكتاب فى العصر العثمانى أحياناً للإشارة إلى السلاطين للمماليك السابقين (٣٧). لكن مصر تلك هى مصر للمماليك. أما جمهرة السكان المصريين فهى تعيد صياغة الهوية الإسلامية فى مواجهة عدو الإسلام الذى أصبح الزعيم للملوكى رمزاً له.

والى أوروبا، خلافاً لذلك، يجرى تتبع مغامرة على بك بحملات. فالصحف تنشر كل يوم تقريباً أخبار الزعيم للملوكى الكبير. بل إن الجازيت دو فرانس تنهب إلى حد وصفه بـ «سودان [سلطان] مصر، خليفة الفراعنة، محرر لرض الممك ومكة». وينظر الأوروبيون إلى مغامرة على بك بوصفها تحلياً لانبعاث الشخصية المصرية وإلى مغامرة ضاهر العمر بوصفها علامة النهضة العربية (٢٨).

كما يرى البعض، فى النهاية للتوقعة للهيمنة العثمانية فى فلسطين، إمكانية إنشاء دولة يهودية فى ذلك البلد. وينسب إلى على بك، خاصة فى لائها، إجراء اتصالات مع يهود ليفورنو بهذا الصدد (٢٩). والواقع أنه يتخذ بالأحرى مواقف العداء تجاه يهود مصر الذين يجردهم من صلاحيات التصايد عديدة لحساب الكاثوليك اليونانيين مباشرة، خاصة فى إنارة الجمارك (٣٠).

وهكذا فإن على بك يجد نفسه حائزاً - فى للخيلة السياسية الأوروبية - لنور رجل عظيم، متاح ومجند للدولة. وهذا الدور، بالنسبة للأوروبيين، إنما تعلقه طهية للجمع الشرقى ذاتها (٣١). أما خلفته، أبو الذهب، وخصمه، أحمد باشا الجزار، وهما من كبار السياسيين، لقد جرى تصويرهما خلافاً لذلك - وإن كان بموجب منطق للخيلة ذات - كممثلين للاستبداد الأكثر عمقا والأكثر تدميراً.

أبو الذهب والحكم الإسلامى السالح

المقالة

فى ٢١ يوليو ١٧٧٤، توقع الإمبراطورية العثمانية معاهدة صلح كوتشوك كايينارها مع روسيا. ويتميز هذا الصلح، بين أمور أخرى، بالتنازل عن السيادة العثمانية على القرم، التى تصبح بذلك من الناحية النظرية مستقلة ثم تضمها روسيا بصرمة. وعلى قرار حق الحماية الدينية لمسيحيى الشرق الذى حصلت عليه الدول الأوروبية، يجد سلطان القسطنطينية نفسه وقد تم الاعتراف له بسلطة دينية على مسلمى القرم، القتر، وسعيًا إلى إيجاد أساس حقوقى لهذه الخدمة للأوسية، يتخذ السلطان لقب الخليفة، القليل الاستخدام منذ القرن السادس عشر. ووقع ذلك شديد قلق ما أن الأوروبيين يتصورون هذا المنصب الدينى كنوع من بابوية إسلامية (٣٢).

ومصالة الأساس الحقوقى للادعاء العثمانى معقدة. فمن جهة، من المؤكد أن العلماء

بوجه عام يدون أنه منذ نهاية الخلافة العباسية لا يوجد خليفة في أرض الإسلام مع أن وجود ضروري لتأمين نظم الجماعة. ومواقع الزمن هي التي تحول دون تحقيق هذه الحالة المنشوبة (٤٢).

ومن جهة أخرى، من المؤكد بدرجة غير أقل أننا نجد بين الألقاب السلطانية العثمانية مبدأ معيناً من الألقاب المرتبطة على نحو مباشر بفكرة الخلافة (٤١). والأرجح أنه يتعين البحث عن حل في تصورات سياسية كتصورات ابن خلدون الذي يعاد اكتشافه من جهة أخرى في تلك العصر في الأوساط الحاكمة في إسطنبول. والحال أن هذا الكاتب للمسلم العظيم الذي عاش في أواخر العصر الوسيط، في زمن لم تكن الخلافة موجودة فيه من الناحية العملية، قد ميز بين النظم السياسية بحسب قيمتها الأخلاقية، وإن للملك الطبيعي هو حمل الكلفة على مقتضى الغرض والشهوة؛ والسياسي هو حمل الكلفة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية، ولحق الضرر؛ والخلافة هي حمل الكلفة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها. إذ لحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة من صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به. (٤٣)

ومن ثم فإن النظام السياسي الأمثل هو النظام الذي تصود فيه شريعة الله. وجميع الأشكال الأخرى للحكم يمكن أن تكون لها قيمتها ووجوه استحقاقها الخاصة، لاسيما تلك الأشكال المؤسسة على النظر العقلي، لكنها تظل لدى منزلة من شكل الخلافة المعروف على هذا النحو. وهذه الوظيفة للزوجة للتمثلة في حراسة الدين وسياسة الدنيا به كانت على الدوام وظيفة السلاطين العثمانيين. والكون العثماني بحكم اتساعه نفسه يضم إجمالي علم الإسلام السني الغربي. ومن المؤكد أن بولاً سنبة قد توجد خارج الإمبراطورية، لكن هذا الواقع إنما يترتب على مواقع جغرافية بشكل خالص (تحول دون اندراجها فيها - للترجم). و بشكل أساسي، فإن الإمبراطورية يجرى النظر إليها من الناحية الأيديولوجية بوصفها جماعة للمؤمنين التي أعيد توحيدها. وجيوشها التي يشار إليها في النصوص، كنصوص واصف، هي جيوش المسلمين. ولا وجود لإشارة إثنية محددة.

وبالنسبة للباب العقلي، فإن بحث الخلافة إنما يسهر في اتجاه دعوة اللود عن الإسلام التي تستخدم كأداة للتصدي لتمهيلات روسيا ويظهر كآلة لتعزيز تلاحم

الإمبراطورية في وجه التأكيد للتواصل لأشباه دول في الولايات. لكن حكام الولايات يرون فيه أيضاً إمكانية مؤسسية لإقامة نوع من كومنولث عثماني كما في زمن هابسبورغ في النمسا.

توطيط سلطة أبو الذهب

في مصر، ينجز أبو الذهب تطبيق قدر من الاستقلال الفعلي لدولته. ويسيطر معاليك بيته على جميع وظائف الإدارة الرئيسية. ويجري التصريح للمباشرة العثمانية بالعودة إلى القاهرة، لكنه لا يزيد عن كونه أشبه ما يكون بسفير للباب العالي، مهمته التصديق على قرارات شيخ البلد.

وهذا الأخير يتزوج زوجة على بك الأولى بينما يتزوج مراد بك زوجته الثانية، ليست نفيسة خاتون بنت عهد تلك البهضاء، السيدة نفيسة ابنة عبد الله (أى التى تحولت من دينها إلى اعتناق الإسلام) البهضاء (الشركسية الأصل). وهى تقدم إليه ثروات زوجها الراحل وللمزيد من الهيبة السياسية. أما للمساعد الآخر لأبو الذهب، إبراهيم بك، وهو أكبر سناً من مراد بقليل، فهو ينال أخت سيده كما ينال جاريته المعتقة. وهذه المصاهرات تعزز الأواصر بين المراد المجموعة الحاكمة للنهضة الآن من بيت أبو الذهب، بيت الحمدي.

وتسيطر هذه المجموعة على أهم الالتزامات في مصر. وتتواصل زيادة للعبء الضريبي، لكن النظام الذى يستتب في مصر يخلص للملاحين من الجانب الرئيسي من الضغط البدوي ويسمح للتجار بتوزيع سلعهم بحرية.

العلماء

يرد أبو الذهب تمويه على سيده بالذود عن الإسلام. وهو يلتزم بالحكم عبر مراعاة كبار رجال الدين في البلد، العلماء. وهؤلاء العلماء، جهابذة الفقه الديني، إنما ينقسمون إلى فريقين.

الفريق الأول يتطابق مع الهيراركية القضائية، وهى عنصر أساسى من عناصر السلطة العثمانية وإحدى أنوار صون مرجعية السلطة المركزية. ورئيس الهيراركية القضائية في مصر هو القاضى عسكر، «قاضى الجيش»، المهتم على محاكم مصر ليست

والثلاثين، التي يتولى مهامها القضاة بمساعدتهم دواب. وفي الأصل، كان جميع هؤلاء القضاة عثمانيين مذهبين من نظام العلمية، وهي وظيفة إدارية جبهة التنظيم لها عدة درجات وعدة مراتب في بلخ كل درجة. وكانوا يعينون لسنوات قليلة في مصر وكانوا على دراية أفضل بالتركية، اللغة الإدارية المستخدمة في المراسلات مع السلطة المركزية، من دراستهم بالعربية لغة موعودهم وتابعيهم. وكانوا تابعين من الناحية الإدارية للقاضي عسكر الأناضول الذي يحضر على التعيينات والتحركات. أما نوابهم، خلافاً لذلك، فقد كانوا بوجه عام من أرومة مصرية. وهؤلاء القضاة موظفون عثمانيون حقيقيون بالرغم من أنهم يعتبرون أحراراً لا عبيداً للسلطان. ويعمل على بك وأبو الشعب على تقليل عدد القضاة القادمين من الهيراركية العثمانية كما يعملان على تمصير الهيراركية القضائية، ففي عام ١٧٩٨ لن نجد عثمانيين غير القاضي عسكر وخمسة قضاة آخرين. وسوف يكون الآخرون كلهم مصريي الأرومة، يدينون بمناصبهم لعلاقاتهم مع الأمراء للمالك وللعمال المدفوع، ومن هنا تزايد برحلة النظام القضائي وانحطاطه (١٦). وللمفارقة، التي سوف نرصدتها في القرن التاسع عشر من جديد إنما تكمن في واقع أن هذه التأكيدات الإقليمية، والتي تتمثل محصلتها للمنطقية في تعريب وتمصير الدولة، هي من عمل فريق حاكم، يتحدث بالتركية أساساً، وغير قادر غالباً على التعبير عن نفسه بالعربية. والحال أن التأكيد من جانب السلاطين على الخلافة إنما يعد، بين أمور أخرى، وسيلة لمواجهة هذا التطور السلسي والاستعانة بالسيطرة على الهيراركية القضائية في الولايات.

لما الفريق الثاني فهو يمثل الوظيفة الدينية ويتولى إقراة الوعظ والتدريس في المساجد وأرفعها منزلة هو الجامع الأزهر في القاهرة. وهم يمثلون العنصر المصري الأرومة في جهاز السلطة، ويعتبرون أنفسهم مستشارين ضروريين للأمراء. ولما كانوا ينتمون قانوناً إلى الديوان، فإنهم يحضرون على تمشى القرارات المتخذة مع مبادئ الشريعة الإسلامية كما أنهم يعتبرون أنفسهم وسطاء لا غنى عنهم بين الأقوياء والشعب يلتزمون بمراعاة جانب الضعفاء لصون الوحدة الاجتماعية لجماعة المؤمنين.

وقوتهم الاقتصادية مهمة. فهم يسيطرون على الأوقاف، المؤسسات الخيرية للكلية بتمويل جميع النشاطات الدينية للمجتمع. وهم جزاً لا يتجزأ من استغلال الالتزامات الحضرية والريفية، لكن حصتهم أقل بكثير وأكثر تشرداً من حصة كبار للمالك. وعندما تسنح الفرصة، فإن بعضهم يشاركون في المضاربات التجارية، وجماعاتهم العائلية تحالف

مع كبار التجار لكنها تحالف أيضاً مع المملوك أنفسهم الذين يشكلون معهم طبقة حاكمة حقيقية (١٧).

لكن قوتهم الاجتماعية بشكل أساسي، فهم عين معلى الإسلام، وهيبته ملحوظة، ثم إن عنداً من بينهم يحوزون نفوذاً قوياً أو يقدون طرقاً صوفية تغذى الجانب الرئيسى من الحياة الدينية للشعب وتؤطر النشاطات الدينية والاجتماعية لجماهير السكان المصريين. ويستنكر عدد صغير، من أنصار إسلام أكثر نقاء، انحرافات دين الصوفية الشعبي ويتحسسون قريهم من الإصلاحية الدينية التى يروج لها شخص كمحمد بن عبد الوهاب فى شبه الجزيرة العربية المجاورة. أما الشعب فإن يعتبر إسلامه الإسلام الحقيقى الوحيد والضغط الاجتماعى شديد بحيث أن المصلحين للمسلمين يترددون فى البوح بأرائهم (١٨).

وهذا الوسط من العلماء حامل لدور من الإحياء الفكرى خلال السنوات المائة الأولى. فالثقافة الإسلامية الكلاسيكية تصبح من جديد محل تكريم، إذ يجرى إعداد القواميس وبحوث فى النحو وتعليقات على النصوص للقيسة. كما أن الشعر ممارسة شائعة بين هؤلاء العلماء. وبعضهم، كالشيخ حسن الجهرتى، والد للورخ، يهتمون بالعلوم وخاصة الفلك. وقد قل هذا النشاط من جهة أخرى إلى دراسة الميكانيكا. بل إن ابنه، عبد الرحمن الجهرتى، سوف يصل به الأمر إلى حد الانعلاء بأنه قبل نصف قرن من حملة مصر، كان عدد من الإنجليز (الفرنسيين - المترجم) يتلقون العلم من والده فى القاهرة وأنهم، فى انتقالهم من النظرية إلى التطبيق، قد اخترعوا الطاحونة الهوائية وماكينات نقل (١٩).

ولا يجب للبلغة من شأن النهضة الفكرية. فهى تظل قاصرة على دائرة محدودة تماماً من المثقفين وتعتمد بالكامل على تداول نصوص مخطوطة. فالمطبعة، النامسة والمروجة للهائلة للمعارف، والمعروفة بالفعل فى لبنان فى بعض الأوساط المسيحية، مجهولة فى مصر. والبحوث التقنية التى تستهدف تحسين أدوات العمل لا تهم طوائف الحرف، للعقل الحقيقى للنزعة المحافظة. على أن علماء الحملة سوف يتسنى لهم العثور على بعض المحاورين التواقين إلى المعرفة فى مجال العلوم.

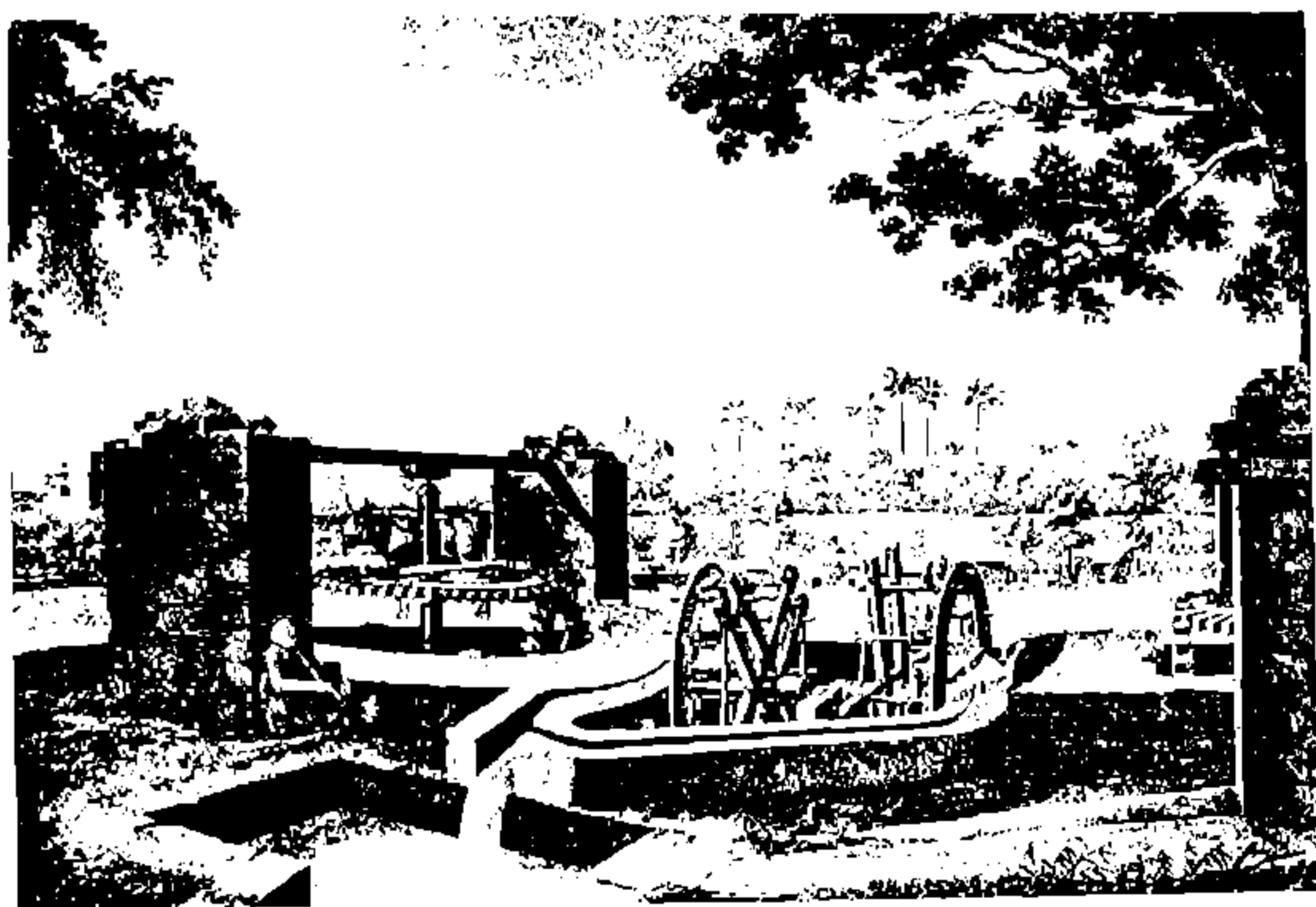
حملة سوريا الثانية

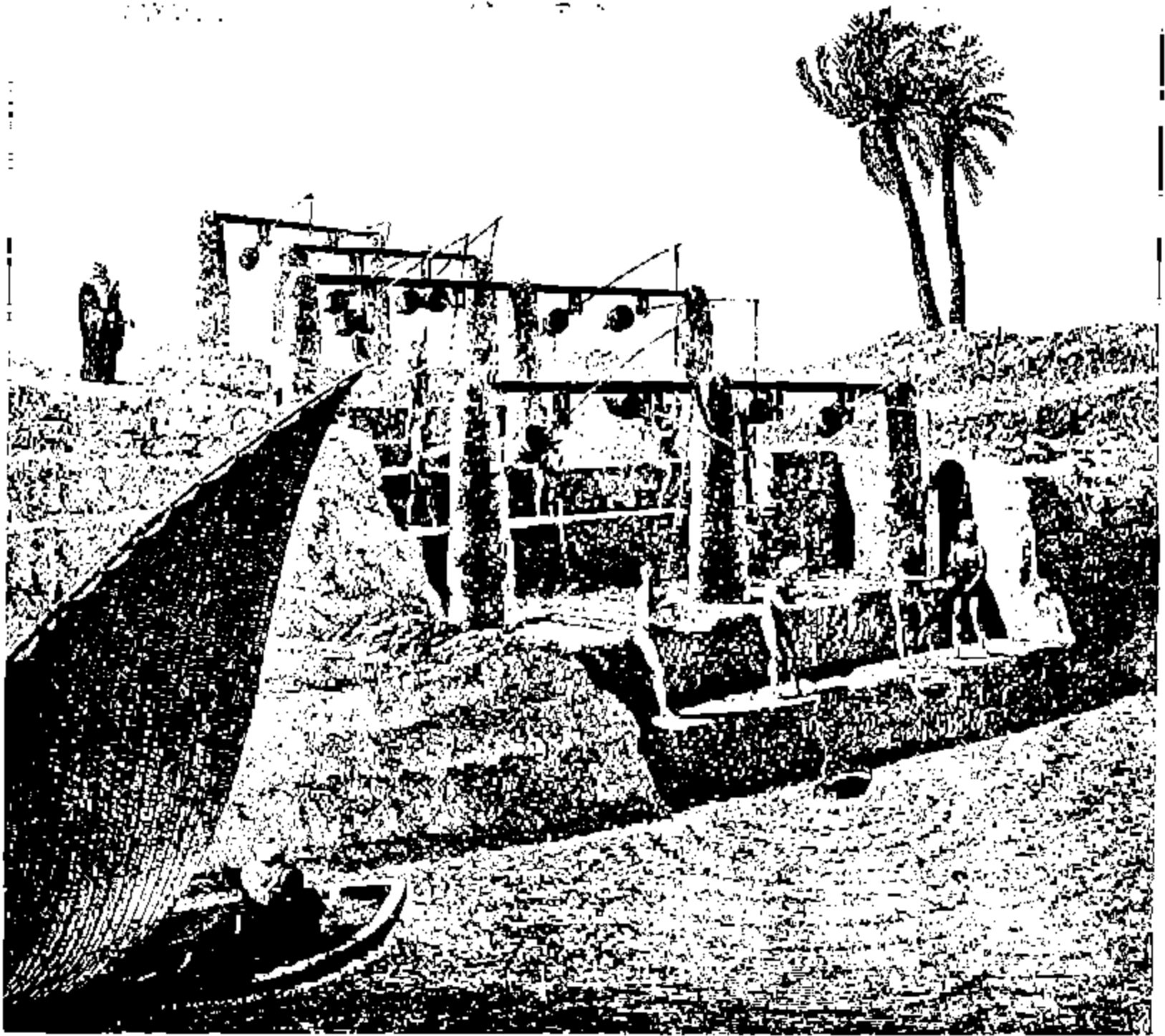
بالنسبة للعلماء، يمثل حكم أبو الذهب (١٧٧٢ - ١٧٧٥) عصرًا ذهبياً حقيقياً. فهو يقبل مشورتهم ويكن المودة لأشخاصهم ويتخذ موقفاً سخياً تجاه نشاطاتهم. وعديدون











١٣ - نولاب الأوعية لوكالة الري.





١٥ - مشهد داخلي للقصر قاسم بك.



١٦ - شخصيتان مصريتان : الشاعر (إلى اليسار) ، عالم الفلك (إلى اليمين) .

منهم يصبحون مستقله حميمين له. وهو يبدو بالنسبة لهم تجسيدا لمثل الأمير المسلم الصالح.

وإذا كان يراعى جانب الأقطاب، فإنه يتخذ موقفاً معادياً من الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية. وخلال حملته الثانية على سوريا، سوف يمارس عنتاً حقيقياً تجاه رجال الدين الكاثوليك في الأرض المقدسة.

وقد استأنف العلاقات الطيبة مع الباب العالي. فهو يرفع الخزينة للقسطنطينية إلى جانب الأقساط السنوية للتأخرة منذ زمن على بك، وهو يستخدم لقب الخليفة عندما يتعين عليه ذكر سلطان القسطنطينية (٥٠).

لكن هذا الاعتراف بالسلطة العثمانية اختلف شكلياً. فهو يواصل، مثلاً، التفاوض مع التجار الإنجليز على إعانة فتح البحر الأحمر أمام تجارة الهند.

ومعها إلى استنهاضه ضد ضاهر العمر، كان الباب العالي قد منحه التزام جنوب فلسطين (غزة، يافا، نابلس، الرملة). ومنذ عام ١٧٧٤، يجهز أبو النعب الحملة الثانية للقائمة من مصر على سوريا. ويبدأ الغزو الذي طال انتظاره في مستهل ربيع عام ١٧٧٥. وبعد الاستيلاء السهل على غزة والرملة، تهرى محاصرة يافا في ٢ أبريل ١٧٧٥. وتصمد المدينة حتى ٢٩ مايو. وعندما تسقط، يقرر أبو النعب ضرب مثل لترويع السكان الفلسطينيين، إن جيشه يذبح للدفاعيين من المدينة وسكانها.

وهذا للتكتيك فعال لكل للراكز الحضرية في فلسطين تصلط دون مقاومة صلبة. وسوف يتذكر بونابارت هذه الحادثة ويستلهمها في عام ١٧٩٩.

وفي عكا، يهدى أبو النعب عنفاً فائقاً، ويهدد للمسيحيين بملبحة جماعية، لكنه يموت لجأه في ١٠ يونيو ١٧٧٥. ويؤدي موته إلى الإخفاق الثاني لمحاولة إنشلاء دولة مملوكية سورية - مصرية. وأحال أن الأمراء للمالكي، الذين كانوا معادين لفكرة الترحيل عن مصر، يسارعون إلى العودة إلى القاهرة للانخراط في صراعات وراثية الحكم. ويستشعر مراد بك ضعفك خاصك وقد أزعجته كثيراً مشيئة سيده في إبقائه في سوريا.

لكن الحملة المصرية الثانية قد كسرت مع تلك شوكة ضاهر العمر. وأحمد باشا الجزائر هو للمستفيد من تلك في نهاية الأمر. فهو يدمر القوى الأخيرة لآل الزيداني ويصبح السيد الجديد لعكا والجليل. ويهرى إلقاء القبض على إبراهيم الصباح ومصارعة ثرواته. وهو يموت بعد وقت قصير من ذلك في ظروف غامضة (٥١). وتلجأ أسرته إلى مصر.

وكان أبو الذهب قد أمر بأن يُنقل على قهره وهو ضريح بالغ التواضع قرب الأزهر، ما يفيد أنه قهر عزيز مصر، مقتنياً بذلك أثر سيده الذي خافه. والحال أن الجبرتي، الشاهد الرئيسي على التاريخ المصري، والمعبر عن وجهة نظر العلماء، يشير بشكل واضح إلى أن حكم أبو الذهب هو آخر حكم صالح عرفته مصر.

وبالجملة، كان (أبو الذهب - المترجم) آخر من أركاننا من الأمراء المصريين شهامة وصرامة وسعياً وحزماً وحكماً وسماحة. وحلماً وكان قريباً للخير يحب العلماء والصلحاء ويميل بطبعه إليهم ويعتقد فيهم ويعظمهم وينصت لكلامهم ويعطيهم العطايا الجزيلة ويكره المخالفين للدين، ولم يشتهر عنه شيء من اللويقات والمحرمات ولا ما يشينه في دينه أو يخل بمروءته، بهي الطلعة جميل الصورة أبيض اللون معتدل القامة والبدن مسترسل اللحية مهيب الشكل وقوراً محتشماً قليل الكلام والالتفات ليس بمهتاز ولا خوار ولا عجول، مبعلاً في ركوبه وجلوسه يباشر الأحكام بنفسه ولولا ما فعله آخره من الإسراف في قتل أهل يافا بإشارة من وزيره لكانت حصناته أكثر من سيئاته، ولم يلق لأمر مثله في كثرة الممالك وظهور شأنهم في الملك الصغيرة وعظم أمرهم بعده وانحرفت طباعهم من قبول العدالة ومالوا إلى طرق الجهالة واشتروا الممالك فنشئوا على طرائقهم وذابوا من سوابقهم وألقوا للظلم وظنوها مقام وتعاونا على القهور وتلاحقوا في البغي على القهور إلى أن حصل ما حصل ونزل بهم وبالناس ما نزل وسيتلى عليك من أنباء وأخبار وما حل بالإقليم بسببهم من الخراب والدمار والله تعالى أعلم. (٥٢)

خوذة العثمانيين ومشكلة المجتمع المدني الإسلامي

إبراهيم وهراط

يرجع لنا الجبرتي أن زمن الفتن، والذي سوف تكون حملة مصر (الفرنسية - المترجم) إحدى لحظاته القوية، إنما يبدأ مع موت أبو الذهب. فلروح الحزبية تستأنف غلبتها والصرع على السلطة ينشب في التو والحال وينقسم للمعاليك إلى فصليين: لفصيل العلوية الذي يجمع أنصار على بك السابقين وعلى رأسهم إسماعيل بك، وفصيل للحمدية المنبثق من بيت محمد بك أبو الذهب حيث والذي يقوده مساعداه إبراهيم بك ومراد بك. وعلاوة على ذلك، فإن هذين الزعيمين الأخيرين يتناحسان فيما بينهما ويحاذيان بالتدخل في حرب لا تهدأ أحدهما ضد الآخر.

أما إبراهيم بك فهو رجل يتميز بشخصية متزنة ودينية. ولما كان مقاتلاً معتزلاً لكنه يكره إراقة الدماء، فإنه يسعى إلى تجنب احتدام النزاعات فيما بين الأمراء. وروح الاعتدال هذه تحول بينه، خلافاً لسلفه، وبين لعب دور الزعيم الأوحيد للمماليك. وهو لا يملك السلطة الكافية لمنع تعدييات وتجاوزات الأمراء (٩٣).

وأما مراد بك فهو يتميز، على العكس من ذلك، بمزاج عنيف وأهوج. وروثهم الجبروتى بالجهن وباعدام الكفالة فى الشأن العسكرى، إلا أنه لابد من الاعتراف له بسمعة أساسية فى هذا المجال، الإصرار والمثابرة فى وجه اللعن. وسوف تؤدى تعدياته الكثيرة ومنته إلى خراب النظام المملوكى، لكن أحد أسباب احتياجه للنائم إلى المال هو إراكه لضرورة تغيير وتصحيح الجيوش المملوكية. وشأنه فى ذلك شأن كثير من الأمراء، فإنه يحب محاربة العلماء والمثقفين. وهذه المحاورات لا غنى عنها لهم لإنجاز تكويدهم كعماليك فى شأن معين من شئون الحكم كإدارة القضاء (٩٤).

زمن الفتن

عندما تكتب القلعة لمزب، فإنه يطرد الحزب الآخر من القاهرة. وعندئذ يلجأ هذا الحزب الأخير إلى مصر العليا أو إلى فلسطين وبعد لعنته الهجومية. كما أن للمماليك يلجأون إلى طلب عون البدو والموتزقة الذين يدمرون الأرياف. وهذه الصراعات المتواصلة تبقى على حلة من الفوضى والخراب. وحتى عندما يصبح للممالية القوة السائدة، فإن النظام العام لا يعود. وهكذا يقدم لنا الجبروتى صورة جد كالحة لعام ١١٩٨ للهجرة (١٧٨٣-١٧٨٤)؛

وانقضت السنة كلفتى قبلها فى الشدة والفلاء والقصور القليل والفتن المستمرة وتواتر المصائب والمظلم من الأمراء وانتشار أتباعهم فى النواحي لجبى الأموال من القرى والبلدان وإحداث أنواع للمظلم ويصمون بها مل الجهات ورفع المظالم والفردة حتى أهلوا الفلاحين وضاق ذرعهم واشتد كربهم وطفشوا من بلائهم فحاولوا للطلب على الملتزمين وبعثوا لهم المعينين فى بيوتهم فاحتاج مساتير الناس لبيع أمتعتهم وبنورهم ومواشيهم بحسب ذلك مع ما هم فيه من المصائب الخارجة عن ذلك وتبع من يشم فيه رائحة الفنى فليخذ ويحبس ويكلف بطلب أضعاف ما يقدر عليه وتوالى طلب السلف من تجار القن والبهار عن المكوسات المستقبلية ولما تحقق للتجار عدم الرد استعوضوا خساراتهم من زيادة الأسعار ثم منوا أيديهم إلى اللواريث فلما مات للميت لحاطوا بموجوده سواء كان له وارث أو

لا. [...] وأسست النيات وتغيرت القلوب [...] وكثر الحسد والحقد في الناس لبعضهم البعض فابتدع الشخص هويات أخيه ويطلق به إلى الظالم حتى خرب الإقليم وانقطعت الطرق وعريت لولاء الحرام ولقد الأمن ومنعت السبل إلا بالخفارة وركوب الغرور وجلت الفلاحون من بلادهم من الشراقي والظلم وانتشروا في المدينة بنسائهم ولولادهم يصيحون من الجوع ويأكلون ما يتساقط في الطرقات من قشور البطيخ وغيره فلا يجد الزيل شيئاً يكتسه من ذلك. [...] ومات الكثير من الفلّاحين بالجوع. [...] ولولا لطف الله تعالى ومجيء الفلّال من نواحي الشام (سوريا) والروم (البلاد التركية) لهلك أهل مصر من الجوع».

وهكذا فإن مصر المصدرة تقليدياً للحبوب تجد نفسها مضطرة إلى استيرادها من بقية الإمبراطورية العثمانية. والمدينتان المقصدتان في الحجاز، للمعتمدين اعتماداً وثيقاً على مصر في مؤنهما، تعانيان بتوردهما معاناة جسيمة. ويعم السخط مجمل البلد.

ماجاليون

كما أن التجار الفرنسيين هم أيضاً ضحايا للتعهدات المفروضة من جانب البهكيين. ويبدو مورد، قنصل فرنسا، عاجزاً عن التصدي لهذا الوضع. ويرجع الدور الرئيسي إلى تاجر شهر هادي، هو شارل ماجاليون. وهو أحد معثي الأمة الفرنسية منذ عام ١٧٦٨. وفي عام ١٧٧١، يستقر في البلد ويعمل لحسابه الخاص. وهو يتزوج ونزوجه، وهي أرملة تاجر بندي، تقوم بتجارة الأقمشة، وهو ما يسمح لها بالاتصال بنساء المماليك الأعلى مكانة. وبسبب هذا الوضع، جرى إعفاء ماجاليون من جانب السلطات الفرنسية من الحظر المفروض على تجار الثغور والذي يحرم عليهم اصطحاب زوجاتهم معهم.

وتتوسط مدام ماجاليون بصورة منتظمة لدى القست نفيسة وتحصل في أغلب الأحيان على تخفيضات للتعويضات التي يتعرض لها الفرنسيون. وفي عام ١٧٧٧، إثر البعثة القنصلية التي قام بها البارون نوتوت، والمكلف في واقع الأمر بدراسة إمكانية الاستيلاء على مصر، يجري نقل القنصلية القاهرة إلى الإسكندرية وذلك من جراء انعدام الأمن المهيمن على عاصمة مصر. ولا يؤدي ذلك إلا إلى تعزيز دور ماجاليون. وفي عام ١٧٨٥، يوقع البهكيان مع للبعوث الفرنسي تروحيه معاهدة تسمح للفرنسيين بالملاحة في البحر الأحمر، ومن المؤكد أن دور ماجاليون في المسألة دور مهم. لقد شغل إلى حد ما المكانة التي كان يتمتع بها روزيتي، عند على بك (٥٥).

وفي عام ١٧٨٦، حصل مراد إلى الإسكندرية، ويزيد التعديلات المفروضة على الإلرنج

(الفرنسيين) ويهدد بهدم كنيساتهم. ويطلب القناصل عون سفاراتهم في القسطنطينية. ومن جديد تتوصل مدام ماجالون إلى السميت نفيسة التي تتدخل لدى زوجها وتتوصل إلى وضع حد للتعديلات، لكن السفراء الأوروبيين في القسطنطينية كانوا قد احتجوا احتجاجاً شديداً بالفعل لدى الباب العالي وطلبوا مراعاة لنق اللامتيازات (٥٦).

الباب الثالث وهو

في عاصمة الإمبراطورية العثمانية، تبدأ السلطة المركزية ببطء في التفكير في إصلاح نفسها وإعادة تدعيم صلاحياتها. وهي لا يمكنها التسليم بأن يكف مراد وإبراهيم، وقد أصبحا سادة مصر، عن إرسال الخزينة السنوية إلى الباب العالي وبأن يتصرفا كحكم «الولايات» القريبة الشمالية ليوثعان على اتفاقيات تجارية مع الدول الأوروبية. ولا يقتصر الأمر على أنهما يتجاوزان حدود صلاحياتهما الإدارية، بل إنهما يتصرفان أيضاً بشكل يتعارض مع الأوامر الرسمية للباب العالي في مجال حساس هو مجال حماية المدينتين المقدستين، وهو اختصاص رئيسي من لاختصاصات الخلافة. ثم إنهما يستلزان بعد ذلك الدول الأوروبية في لحظة يجرى فيها ضم القرم إلى روسيا وتحتاج فيها الإمبراطورية تماماً إلى مؤازرات في النزاع الجديد الذي يوشك أن ينشب مع روسيا والنمسا. وتصرفهما يعتبر غير محتمل بل قد ما أن الظرف السياسي المصري يهدد ملائماً لاستعادة سلطة الباب العالي المباشرة. ومنذ عام ١٧٨٥، فإن الباب العالي، وقد استحوذ عليه بدوره الجنس الأدنى جد الرائج في جهاز الدولة الفرنسي، يطلب إلى الرجل القوي أحمد باشا الجزائر، سيد فلسطين وحائز السلطة الأهم في سوريا، أن يقدم إليه تقريراً عن إمكانية فتح مصر (٥٧).

ويفكر الجزائر فوراً في قيادة الحملة. وهو يقترح حشد قوات عثمانية في لفة بحجة الفضال ضد آخر لحقاد ضاهر العمر، خصومه في فلسطين. ومن هناك، سوف يؤدي زحف سريع (لا تزيد منه عن اثنين وثمانين ساعة) إلى تمكين القوات العثمانية من للوصول إلى بركة الحاج التي لا تفصلها عن القاهرة غير مسيرة أربع ساعات. وسوف تتلو الحاجة للتامة حرب دمائية من شأنها نسف قوة للماليك. ويؤكد الجزائر على المبدأ الأساسي لكل سياسة مصرية، الاعتماد على كبار العلماء، ومشايخ الطرق الصوفية، خاصة الشيوخ البكري، سليم أول خليفة مسلم، والشيوخ السماعات، سليم النبي من على، واللذين سوف يحاوران بونابارت فيما بعد. فهذان الرجلان، «بوسعهما أن يجمعا في يوم واحد قوة ضخمة من الجنود الوامها ما بين سبعين ألفاً وثمانين ألفاً على الأقل من الرجال التابعين والمخلصين لهما، ومن ثم فإن بوسعهما مساعدة لوالى».

ويعد هذين العنصرين، لا بد من الحصول على مساندة رجال الأزهر الذين يقدمهم مفتو مصر الأربعة، «فلما كان طفاة مصر قد امتنوا عليهم واقتصبوا حلولهم، فإنهم سوف يكونون على اتفاق مع الجماعة الأولى في النعمة والرغبة في التخلص (من الطفاة)» (٥٨).

ولإثارة السكان على المماليك، لا بد من وعد الفلاحين بالقضاء على جميع الضرائب التي أضيفت بشكل غير مشروع في العقود السابقة والتي تعتبر مخالفة للشرعية. وسوف يجرى التصرف عبر بيانات، توزع في مجمل البلد وتتلى على السكان من جانب موظفين، تعد السكان بالحوبة إلى تشريعات القرن السادس عشر الصالحة. وهكذا يتسنى بسرعة القضاء على «الطفاة» عبر التمرد الشعبي وتبدأ إعادة تنظيم تامة لمصر وفق نموذج إعادة التنظيم التي عرفها القرن السادس عشر.

ويحتفظ الباب العالي بالنصائح، إلا أنه من الواضح تماماً أنه يفضل أن يعهد بتنفيذها إلى رجل آخر غير باشا عكا القوي، الذي يسعى، بشكل واضح، إلى تحقيق وحدة سوريا ومصر، شأنه في ذلك شأن سلفيه، على بك وأبو النعب.

إضفاء الشوعية الإسلامية على التمردات

إن الحملة العثمانية، تمت قيادة حسن باشا للجزائري (الجزائري)، وهو أحد المصلحين العثمانيين الكبار الأوائل، تهبط في رشيد في يوليو ١٧٨٦. واعتقاداً منهم أن الفرنسيين يتحملون المسؤولية عن هذا التدخل، يطلب البكوات إلى ماجالون، عبر الست دليسه، للتدخل لدى قنصل فرنسا حتى يتوصل إلى وقف الحملة العثمانية. وهم يجهلون أن نوايا العثمانيين أكبر أهمية بكثير من شكايات التجار الفرنسيين. على أن فكرة عمل مشترك من جانب الباب العالي والفرنسيين ضد المماليك تبدو وجيهة في نظر البكوات. وسوف نجد هذه الفكرة من جديد في عام ١٧٩٨. أما فيما يتعلق بال ماجالون، فسوف يتعرضون للخرب من جراء المشروع، لأن لهم ديوناً تزيد عن خمسمائة ألف جنيه مستحقة على البكوات الرئيسيين.

ويشرع العثمانيون على الفور بتطبيق السياسة التي توصى بها الجزائر. فحسن باشا يرسل بيانات إلى السكان احتفظ الجبرتي لنا بنموذج منها،

«إلى مشايخ العرب ولولاد حبيب بذاحية نجوة ولقهم الله تعالى، نعرفكم أنه بلغ حضرة مولانا السلطان نصره الله ما هو واقع بالقطر المصري من الجور والظلم للفقراء وكافة الناس وإن سبب هذا خائنوا الدين إبراهيم بيك ومرك بيك واتباعهما فتعيننا بخط شريف من حضرة مولانا السلطان أيده الله بعسكر منصوره بحراً لنرفع الظلم ولايقام الانتقام من المذكورين وتعين عليهم عسكر منصوره برأ يسارى عسكر عليهم من حضرة مولانا السلطان نصره الله وقد وصلنا إلى ثغر إسكندرية ثم إلى رشيد في سادس عشر رمضان فحردنا لكم هذا الفرمان لتحضروا تقبلونا وترجعوا إلى لوطانكم مجبورين مسرورين إن شاء الله تعالى فحين وصوله إليكم تعلموا به وتعتمدوه والحذر ثم الحذر من المخالفة وقد عرفناكم».

ويُدعى علماء القاهرة ويذهبون في وفد إلى رشيد لمقابلة قائد الحملة العثمانية. وهم يشكون عجزهم أمام قوة للماليك. ويذكر الجبرتي:

«دعاهم (حسن باشا الجزارلى - المترجم) في ثانى يوم وكلمهم كلمات قليلة وقال له الشيخ العروسى بامولانا رعية مصر قوم ضعاف وبهوت الأمراء مختلطة بهيوت الناس فقال لا تخشوا من شيء فإن أول ما لوصانى مولانا السلطان لوصانى بالرعية وقال إن الرعية ولاة الله عندى وأنا استودعتك ما لوبعنيه الله تعالى فدموا له بخير ثم قال كيف ترضون أن يملككم مملوك كان كافران وترضونهم حكاماً عليكم يسومونكم بالعذاب والظلم لماذا لم تجتمعوا عليهم وتخرجوهم من بينكم فأجابه إسمعيل البندى الخلوتى بقوله يا سلطاتم هؤلاء عصبة شديرو اللباس ويد واحدة لفضب من قوله ونهره وقال تخوفنى بهماسهم وقال إنما أعنى بذلك أنفسنا لأنهم بظلمهم أضعلوا للناس ثم أمرهم بالانصراف».

وبالرغم من شبه الفشل هذا، فإن توسع العثمانيين أن يصلوا بسهولة إلى القاهرة. وتحركهم ثورى بشكل مناسب، فهو يتمثل لأول مرة في إبراز التعارض المباشر بين طبقة المفلولين (رعية مصر) وطبقة الحاكمين للمصرية للساوية في بقية الإمبراطورية للعثمانية. ولا يمكن فهم مثل هذا التحرك إلا في إطار الفكر السياسى الإسلامى السنى. فالسلطة السياسية لا أساس لها إلا بقدر ما تحمى جملة المؤمنين من التهديدات الخارجية وإلا بقدر ما تطبق الشريعة فى الداخل. وهذه الشريعة هى من ثم دعامة ما يمكن تسميته، بون آية مبالغة، بالمجتمع المبنى الإسلامى. ومن ثم فالسلطة السياسية لا تملك غير وجود وظيفى: هى قائمة خارج المجتمع. ولهذا بالتحديد تتألف الطبقة الحاكمة العثمانية

(العثمانية) أو المملوكية (المصرية) من الناحية القانونية من عبث (قول). وإذا تعدت السلطة السياسية على المجتمع لطلعت وظلمت ونهبت، فإنها تنتهك الشريعة الإسلامية نفسها التي تكفل أمن الأفراد والممتلكات. وسلمتها فإن الثورة التي يقرر العلماء مشروعيتها تصبح لريضة. ومن ثم فإن هذا المفهوم عن المجتمع الإسلامي يؤكد شرعية الحق في مقاومة الجور. والثورة على انتهاك الحقوق للتضمة في الشريعة الإسلامية شرعية، وهو ما يحيل إلى جوانب معينة من جوانب الثورة الفرنسية (٥٩).

والحال أن إضفاء الشرعية الإسلامية على التمرد هو من ثوابت تاريخ الإمبراطورية العثمانية من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر؛ كما أن مشاريع التحديث الغربي الطراز سوف تعتبر انتهاكاً للشريعة الإسلامية وسوف يجرى تفسير تعزيز الدولة التحديثية اعتباراً من أواسط القرن التاسع عشر باعتباره التزاماً لاستبدال خلف الغرب (٦٠).

والواقع الرئيسي هنا هو أن للعثمانيين مخاطبون السكان باسم الإسلام لكنهم يسمونهم أيضاً بالمصريين، ولو أن من الصحيح أن الهوية المصرية (أو العربية) في ذلك العصر إنما توجد أولاً في نظر الآخر، العثماني أو الأوروبي سواء بسواء.

ال فشل العثماني

ينهج مراد وإبراهيم النهج المعتاد من جانب المماليك في هذه الظروف، فهما ينسحبان إلى مصر العليا لخوض حرب عصيات نشيطة ضد أعدائهما. ويصائر العثمانيون ممتلكات المماليك المتمردين ويتتبعونهم حتى أسوان عند الشلال الأول للنيل. وكما سوف يترك الفرنسيون ذلك بعد اثني عشرة سنة، فإن المماليك هم سادة هذه الحرب للتحركة، ويتعذر القضاء عليهم بسبب استحالة الإمساك بهم. وهم (العثمانيون) يحاولون، في مصر السفلى، استعادة سلطة المماليكيات (الأوجهات) لكنهم يلحظون أن هذه الأخيرة لم تعد لها قوة عسكرية حقيقية. ومن ثم يتعين عليهم الاعتماد على العلوية، الحزب المملوكي المخزى لحرك وإبراهيم. ويعيدون إسماعيل بك إلى سدة السلطة في القاهرة.

وكل هذه الحملات تكلف ثمناً جدياً باهظ وسرعان ما يضطر العثمانيون إلى إعادة فرض المخارم الثقيلة وغير المشروعة التي كان من المتصور أنهم إنما جأوا للقضاء عليها.

وقد سعوا إلى إصلاح تسجيل مسح الأرض وتحصيل إيرادات الالتزامات، وذلك سعياً من جهة أخرى، إلى زيادة الخزينة المدفوعة للباب العالي، لكن ذلك يبدو غير كافٍ وتصير العمر بشكل خاص^(٦١). وتصبح خيبة أمل السكان المصريين كاملة. وفي عام ١٧٨٧، يجرى استثناء القوات العثمانية، بسبب استئناف الحرب مع روسيا. ويوضح الجبرتي أبعاد الفشل العثماني بإشارته إلى مرور حسن باشا بمصر، ولم يحصل من مجيئه إلى مصر ونهايه إلا الضرر ولم يهطل بدعة ولم يرفع مظلمة بل تقويت به المظالم والحوادث فإنهم كانوا يفعلونها قبل ذلك مثل السرقة ويخالفون من إشاعتها وبلغ خبرها إلى الدولة (الدولة العثمانية) فينكرون عليهم ذلك وخابت فيه الآمال والظنون وهلك بقدمه البهائم التي عليها مدار نظام العالم وزاد في المظالم التحرير لأنه كان عندما قدم أهبط ورفع المظالم ثم أعاده بإشارة إسماعيل بك وسماه التحرير فجعله مظلمة زائفة وبقي يقال رفع المظالم والتحرير لئلا يفسد من البلاد خلاف أموال الخراج عدة أقاليم منها المضاف والبراني وعوائد الكشوفية والفرد المتعددة ورفع المظالم والتحرير ومال الجهات وغير ذلك ولو مات حسن باشا بالإسكندرية أو رشيد لهلك عليه أهل الإقليم أسفاً وبدوا على قبره مزاراً وقبة وضريحاً يقصد للزيارة.

ومن عام ١٧٨٧ إلى عام ١٧٩١، يحكم إسماعيل بك مصر السفلى. وغالباً ما يدخل ممالك مصر العليا في صلح معه بل ويحاولون إعانة صوغ التحالف مع الروس كما حدث في زمن علي بك. وتدفع السلطات العثمانية ممالك القاهرة والعلماء إلى محاربة متمردى الجنوب. ويدرك إسماعيل بك ضرورة تسليح أراقى، ويرسل إلى ملجتلون، وهو مجرد تاجر آنذاك، في مارس ١٧٨٩، طلباً بإرسال بعثة عسكرية فرنسية^(٦٢). وكانت الرغبة في التنصل من الشئون العثمانية في وقت تخوض فيه الإمبراطورية حرباً مع روسيا والنمسا قد أدت إلى سحب البعثة العسكرية الفرنسية من القسطنطينية منذ عام ١٧٨٧. والحق أن فيرجان يموت في تلك اللحظة. وهذا السبب، علاوة على الظروف السياسية المتقلب في عام ١٧٨٩، يفسران واقع أن السلطات الفرنسية لا تستجيب لهذا الطلب.

عوضة إبراهيم ومراط

في نهاية الأمر، يصيب وباء طاعون رهيب مصر السفلى في عام ١٧٩١، بما يؤدي إلى وفيات خطيرة بين السكان. كما يسقط إسماعيل بك ومساعدوه الرئيسيون ضحايا له. وهكذا يصبح بومع مراد وإبراهيم استعانة مصر السفلى بسهولة. ويضطر الباب العالي

إلى الاعتراف بالأمر الواقع. لكنه عازم بشكل واضح على عودة مصلحة ما إن تتبرح له الظروف إمكانية ذلك. وهذا أحد ثوابت سياسة السلطة للركزية في عصر سليم الثالث، أول سلطان مصلح للدولة العثمانية.

وفي مدن مصر السفلى، تتم عودة الأميرين في مناخ عنف وأزمات. ويحاول العلماء استخدام نفوذهم على الشعب للحد من تعديت المماليك. وهذا واضح بشكل خاص في الإسكندرية حيث لا يتسنى للشريف الكريم، وكيل مراد بك، السيطرة على إيرادات الجمارك إلا بالقوة، وذلك بسبب مقاومة العلماء المحليين الذين يتزعمهم الشيخ للسيوى ويدعمهم جزء مهم من السكان (٦٣)؛ وفي هذه الحالة المحددة، فإن العلماء يدافعون، علاوة على الإنصاف والعدالة، عن المصالح التجارية في الأجل الطويل لمدينتهم. وهكذا فإن الشيخ للسيوى يجعل من نفسه حامياً للتجار الفرنسيين في المدينة ويحاول للتصدي، والقرآن بيمينه، لهوى الطاغية (٦٤).

سياسة مراد بك العسكرية

لمواجهة عودة محتملة للعثمانيين، ينظم مراد بك أسطولاً حربيّاً صغيراً على النيل. وهو يعهد بتنظيمه إلى مغامر يوناني هو نيكولاس باياس لوفلو، الذي تحول إلى اعتناق الإسلام. والمعروف باسم الحاج نقولا أو الرئيس نقولا. وتتألف أسطول الصغير من يونانيين مخلصين لرئيسهم (٦٥). بل إنهم على استعداد لحمل السلاح ضد الزعيم للملوكي عندما يحاول هذا الأخير الانتقاضي عليهم إثر مشاجرات مع سكان القاهرة. ويضطر مراد إلى التراجع بحكمة، الأمر الذي يثير عظيم سخط الجبرتي الذي يتهمه بمحاباة للمسيحيين على حساب المسلمين (٦٦).

كما أنه لكي يجهز نفسه بالدفاعية، يلجأ إلى يونانيين من زانت (وهي من ممتلكات البندقية آنذاك)، هم الأخوة جايتا الثلاثة. وإذا يتحولون هم أيضاً إلى اعتناق الإسلام بل ويصبحون مماليك، فإنهم ينظمون مسبكاً للمدافع قرب قصر مراد في الجزيرة. والحال أن الأخ الأكبر، أحمد أغا، سوف ينهمك في عام ١٧٦٩، تحت رعاية روزيتي، في إنشاء سلاح مدفعية لمملكة بلرفور السويدانية. وهو يصبح مستشاراً عسكرياً للملك في الوقت الذي يعد فيه لغزو للبلد من جانب رجال مراد بك. وطبيعي أن لغزو الفرنسي يقلب خططه (٦٧). وفي تلك الأثناء، كان أخواه قد نجحوا في تزويد مراد بمدفعية خفيفة وخاصة بعمال قارين على إنتاج المدافع.

وهكذا نرى مصر كما في بقية الإمبراطورية العثمانية يصبح اليونانيون وسطاء في إدخال التقنيات الغربية. وحركة الالتجاء إلى المستشارين العسكريين الأوربيين، والتي بدأها علي بك، تتواصل في ظل مراد.

التهديدات

إن أشكال الكيد للتجار الفرنسيين تصبح جسيمة بشكل مطرد. ماجاللون، الذي جاء إلى باريس لنقل شكايات زملائه، تعيينه الجمهورية، في ٣٠ يناير ١٧٩٣، اتصالاً للجمهورية الفرنسية في القاهرة. وعندما يصل إلى منصبه، فإنه يستقدم عدوّه كارلو روزيتي، المستشار السابق لعلّي بك، والذي أصبح وكيلًا قنصليًا إمبراطوريًا (للنمسا)، وعاد إلى الفوز بحظوة البكوات للمماليك (٦٨). ويكسب الفرنسي مساندة الست نفيسة. لكن ذلك لا يكفي، وفي عام ١٧٩٤، ينقل ماجاللون القنصلية التي كان قد أعيد فتحها في القاهرة إلى الإسكندرية لتجنب ضرر الأُمراء. وعند فشل جميع التدخلات الدبلوماسية، يصبح ماجاللون نصيرًا لحملة فرنسية ويسافر لتأييد هذه القضية في يوليو ١٧٩٧ في اللحظة ذاتها التي يبدأ فيها تاليران في طرح الموضوع (٦٩).

والصدمات المتوالية بشكل مطرد بين العلماء والمماليك تصل إلى ذروتها في عام ١٧٩٥ في القاهرة حيث يثير أحد العلماء، وهو الشيخ الشرفاوي، تمردًا شعبيًا عظيمًا ضد المماليك إثر تعديلات جديدة على الفلاحين. ويضطر الأُمراء إلى الصلابة وقبول مختلف المطالب الشعبية، ثم إنهم :

«اللتزموا [...] بأن يسيروا في الناس سيرة حسنة وكان القاضي حاضراً بالمجلس لكتب حجة عليهم بذلك وفرمن عليها البشاً وختم عليها إبراهيم بك وأرسلها إلى مراد بك لختم عليها أيضاً وانجلت الفتنة ورجع للشايع وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة وهم ينادون حسب ما رسم سادتنا العلماء بأن جميع الظالم والحوادث والكوس بطلانة من مملكة الديار المصرية وفرح الناس وظنوا صحته وفتحت الأسواق وسكن الحال على ذلك نحو شهر ثم عاد كل ما كان مما ذكر وزيانة ونزل عقيب ذلك مراد بك إلى بمياط وضرب عليها الضرائب العظيمة وغير ذلك» (٧٠).

وبحسب الجبرتي، فإنه لا يحدث شيء مهم بين عامي ١٧٩٥، ١٧٩٨. وهو يذكر لنا في سطور قليلة أن الأُمراء يزيّدون بشكل متواصل تعدياتهم ولن الوضع لا يأخذ إلا في التزايد سوءاً.

أزمة نهاية القرون

على هذا النحو ينتهى بالنسبة له عهد الكولوث الأول الذى بدأ عند موت أبو الذهب. والواقع أن الوضع الاقتصادى يصبح متروكاً بإطراد. فالفتن السياسية التى أعقبت موت أبو الذهب وأعمال التخريب والتدمير والمجاعات وتعديات البكوات للممالك قد وضعت نهاية للأيام الصاعدة لأواسط القرن. بل إن التوجهات الجديدة، التى حفز إليها التفلفل الاقتصادى الأوروبى، تشهد فشلاً محققاً. وقيمة الالتزامات، إلى الاستثمارات فى الاقتصاد الريفى، تأخذ فى الانحطاط. والتجارة مع الأوروبيين تتدهور ويشهد رخاء الكاثوليك اليونانيين للتطور نفسه. وتعديات البكوات على القجار يصبح من الصعب بإطراد احتمالها. وانحصار التجارة مع مصر يصبح أحد للبريات الرئيسية لحملة على مصر فى الأوساط الحكومية الفرنسية.

وتتزايد جسارة القيد. ويعيداً من أن تملك مصر الدولة القوية والمركزة التى جرى العرف على تخيلها، فإنها تجد نفسها بالأحرى فى واحدة من فترات الانهيار التى تتداخل فيها الفتن السياسية والأزمات الاقتصادية مع صعود نزعات استقلالية محلية.

لكن هذه الفترة ثورية أيضاً. فالجماعات الاجتماعية المختلفة تنخرط فى التنافس على السلطة منذ أن توجه العثمانيون إلى الشعور الإسلامى سعياً إلى إثارة المصوبين تحت لاية العلماء ضد للملك. وقد نجح رجال الدين فى خلق تحالف مع الشعب ضد للملك فلم يعربوا مجرد وسطاء وانفصلوا عن الجماعة السائدة المملوكية بالرغم من الروابط الاقتصادية والعائلية التى جعلتهم شركاء للطبقة الحاكمة. والواقع أن إضفاء الشرعية الإسلامية على التمردات مع التأكيد على حق مقاومة الجور إنما يمثل للنظير الشرقى للثورة الفرنسية. والحال أن بونابارت، بفضل مستشاريه من أمثال ماجالون وفينتور دو بارادى اللذين كانا شاهدين على التطورات السياسية المصرية، سوف يسعى إلى أن يستغل لحسابه هذه القوى وإلى إحياء الائتلاف المعادى للممالك والذى خلقه العثمانيون فى عام ١٧٨٦.

وبالنسبة للجبروتى، فإن عام ١٧٩٨ إنما يرمز إلى بداية نهاية العلم، سنة ثلاث عشرة ومائتين والى، هى أول سننى للملاحم العظيمة والمجاولات الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشروب وترابف الأمور وتوالى المحن واختلال الزمن وانعكاس للطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأحوال واختلاف الأحوال ونساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب وما كان ربك يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون، (٧١).

حواشي الفصل الثالث

١ - حول اقتصاد - العالم العثماني، انظر BRAUDEL, *Civilisation matérielle...*, Tome III, *Le temps du monde*, pp. 402 - 417. ومصطلح «اقتصاد - عالم» مجالاً جغرافياً تهيمن فيه التبادلات الداخلية هيمنة كبيرة بحيث يمكن اعتبار التبادلات الخارجية هامشية.

٢ - Sur le commerce maritime dans l'Empire Ottoman, voir les travaux de Daniel PANZAC, par exemple "Négociants ottomans et capitaines français : la caravane maritime en Crète au XVIII^e siècle", in Hamit BATU et Jean - Louis BACQUÉ - GRAMMONT, *L'Empire Ottoman, la République de Turquie et la France*, Istanbul - Paris, éditions Isis, 1986, pp. 99 - 118.

٣ - Pour tout ce passage sur le commerce, je suis étroitement les analyses de M. André RAYMOND dans ses *Artisans et commerçants au Caire au XVIII^e siècle*, Damas, Institut Français d'Études Arabes, 1973.

٤ - Ce commerce a été étudié par Terence WALZ, *Trade between Egypt and bilâd as - Sûdân*, Le Caire, I.F.A.O., 1978.

• - La Grande Syrie ou bilâd al sham (pays de Damas), d'où le nom générique donné à ces Syriens en Égypte, Shami pluriel Shawwam.

٦ - David AYALON, "Studies in Al - Jabarti, Notes on the transformation of Mamluk Society in Egypt under the Ottomans", *Journal of Economic and Social History of Orient*, III, 1960, pp. 148 - 174 et pp. 275 - 325.

٧ - أي «بيزنطيين». وفي مصر كما في الولايات العربية الأخرى في الإمبراطورية العثمانية، انتهى هذا للمصطلح إلى الإشارة إلى جميع غير الناطقين بالعربية، من مسيحيين أو مسلمي الإمبراطورية، من أصل انطاكي أو بلقاني. والحال أن هاجر، الذي عمل مترجماً في الجيش الإنجليزي في عام ١٨٠١، قد حدد على النحو التالي الفرق بين «التركي» و«العثماني»، «إن الوصف بـ «التركي» ينظر إليه على أنه مهين، وكان ذلك على لسان الغربي، أم على لسان العثماني، وإذا ما اتجهنا إلى أساس الأمور، فسوف نجد أن نواح ذلك واحدة عند الغربي والعثماني على حد سواء. ففي نظر العثماني، ليس «التركي» غير الابن للفظ والجلف للبراري، الذي يظل غربياً عن كل ثقافة وكل تمدن؛ وفي نظر الأوروبي، فإنه [التركي] البربري الأسوي، المتفريع لأشكال حكمه وديانته. ويعامل العثماني التركماني الجلف على أنه تركي بينما يخلع الأوروبي هذا

Histoire de l'Empire Ottoman, postface, Paris, 1841, pp. XXXVI - XXXVII. نظر لهذا في Bernard LEWIS, *Islam et laïcité*, رد فعل السفير التركي في فرنسا، الذي «إذ يهني نفسه على إحباط متاركة معادية، [...] يشير إلى أنهم لم يكونوا هذه المرة يولجعون «السفير التركي» - أي الفلاح الأحمر - الذي كلنوا يتخيلونه». Paris, 1988, p. 292.

Cette analyse des termes ethniques s'appuie sur les usages trouvés - A chez le grand chroniqueur égyptien JABARTI (mort en 1825) et sur l'article de M. Louis AWAD, "L'Égypte face à son passé", in Robert Ilbert et Philippe Joutard éditeurs, *Le Miroir Égyptien*, Marseille, Jeanne Lafitte, 1984, pp. 271 - 280.

AYALON, op. cit. p. 314.

- ٩

Synthèse essentielle de la question dans l'article du Père Maurice - ١٠ MARTIN, "Note sur la communauté copte entre 1650 et 1850", *Annales Islamologiques*, XVIII, Le Caire, I.F.A.O., 1982, pp. 193 - 216.

André RAYMOND, *Artisans et commerçants au Caire...*, II, 817. - ١١

Sur ce sujet, voir André RAYMOND, "L'impact de la pénétration- ١٢ européenne sur l'économie de l'Égypte au XVIII^e siècle", in *Annales Islamologiques*, Le Caire, Institut Français d'Etudes Orientales, 1982, XVIII, pp. 217 - 235; du même "Les effets négatifs de la pénétration commerciale européenne sur l'économie égyptienne", in *Le Miroir Égyptien*, pp. 101 - 109.

Sur les Grecs catholiques, le livre essentiel est celui de Thomas - ١٣ PHILIPP, *The Syrians in Egypt, 1725 - 1975*. Stuttgart, 1985.

Pour l'évolution de l'agriculture égyptienne, je suis de près le - ١٤ travail de Mlle Christine de SAINTE - MARIE, *Les agricultures égyptiennes, les transformations du système agraire de la vallée du Nil dans l'Égypte indépendante*, thèse de III^e cycle, Université de Paris I, juin 1987, multigraphiée.

Description de l'Égypte, Paris, 1822, XI, pp. 477 et suivantes, - ١٥ Michel - Ange LANCRET, *Mémoires sur le système d'imposition de l'Égypte dans les dernières années du gouvernement des Mamlouks* :

«إن كل ملتزم يختار من الفلاحين الذين يحوزون الأرض والذين يدفعون له الضريبة، مزارعاً رئيسياً، هو رئيس الآخرين، ويحمل اسم شيخ البلد. ويحدث أيضاً أنه إذا كانت حيانات لحد

للملتزمين جد واسعة في القرية الواحدة، فإنه يقسمها بما يتراضى له إلى عدة أقسام، ويوزع المسؤولية عنها على مشايخ مختلفين، بحيث إن هناك قرى [...] يوجد فيها عدد كبير من المشايخ. والعدد المتوسط ثمانية أو عشرة؛ إلا أنه ليس من النادر أن تشهد لوتظلمه إلى عشرين وأكثر. ويمارس شيخ البلد مسؤولية الإشراف على الفلاحين الذين يزرعون تلك القسم من الأرض الذي يتحمل المسؤولية عنه، وإليه هو وحده يطلب الالتزام غلة القرية، وهو يترك له الاهتمام بجمعها من أيدي فلاحين مختلفين، ومن ثم، فإن له حق ضريبةهم بالقصا أو سجنهم [...] حتى يؤدوا ما عليهم. والمشايخ لهم مصلحة أيضاً في عدم التمسير في دفع الفلاحين إلى سند ما عليهم وذلك بقدر ما أنه إذا ما تعرض للملتزمون لحالات تخلف في تحصيل إيراداتهم، فإن المشايخ هم الذين سوف يعاقبون على ذلك. [...].

دولى كل قرية، يوجد شيخ بلد أول، هو بحق نائب البلد، وهو الذي يؤدي بشكل شخصي وظائف القاضي الصالح، وتناقش أمامه الخلافات التي تتميز بقدر من الأهمية. وتمتد سلطته ليس فقط على الفلاحين المزارعين، وإنما أيضاً على جميع سكان القرية. وهذه المكانة ليست مجرد مكانة شرفية، فهي تعود عليه أيضاً بعدة منافع مالية، وعلى سبيل المثال، فإنه إذا ما طلب للمالك قدر معيناً من اللال، أو من المواد الغذائية، من إحدى القرى، فإن الشيخ الأول يأمر بتقديم المطلوب دون أن يدخل فيه شيء من ممتلكاته الخاصة. وهذا الحق لا يتنازله أحد فيه. [...] وعلى جميع الحالات تقريباً، فإن مكانة الشيخ الأول إنما يحوزها الأثني، وهي تنتقل غلة من الأب إلى الابن. على أنه ليس من النادر أن نراها تخرج من الأسرة التي كانت تعوزها لتصبح من نصيب أسرة أخرى أكثر ثراءً وتلك مكانة أعلى.

Sur l'évolution de structures rurales au XVIII^e siècle, voir l'article - ١٦ de synthèse de Kenneth M. CUNO "The Origins of Private ownership of Land in Egypt : a reappraisal". in *International Journal of Middle East Studies*, 12, 1980, pp. 245 - 275. Cette évolution se retrouve dans l'ensemble de l'Empire Ottoman.

CUNO, *Landholding, Society and Economy in Rural Egypt, 1750 - ١٧*
- 1850, *A Case Study of al Daqahliyya Province*, thèse multigraphiée, University of California, Los Angeles, p. 188.

Ibid, pp. 280 - 291. - ١٨

Ibid, pp. 332 - 345. - ١٩

Ibid, pp. 345 - 352. - ٢٠

٢١ - إن أحد مظاهر العنف الذي لا يمكن للفلاحين كبحه، هو ذلك العنف الذي تمارسه القبيلة عندما تستأجر أراضي بينهم. ففي البداية يخيم جزء من القبيلة في حقل بعد كلاء بالوفرة؛ وما إن يصبح المكان ملائماً للعرب وما إن يقيموا فيه، فإنهم يدخلون في مسابقة مع المزارعين على ثمن الإيجار؛ لكن الجمال والحياء تكون قد اكثرت بالفعل جزءاً كبيراً من الكلاء وتكون الضياع مملوكة في كل مكان. فكيف يحدث ذلك؟ إن زعيم العرب يعرض ثمناً غالباً مالا يكون غير مقرر القيمة، ولا يملك الفلاح خياراً آخر غير القبول. [...] إنه لشيء محزن أن نجد اتاليهم بأكملها شبه

مواجهة من أنفاسها إلى اتصالها بمخيمات العرب ، فالواقع أن المخيمات هناك منتشرة انتشار القرى ، وهي تزود بون تولف بفرسان جيد لا يشكلون البتة جزءاً من القبيلة ، لكنهم يجيئون للفوز بحق النهب والسلب ، لأن للفاطحيين حوزون ملكيات ، وما أكثر الأراغسي البور والمهجورة في مواقع الخيام والمنطق المجاورة لها وما أكثر الأراغسي التي قضت فيها الأعشاب الخضرة على الحبوب لأن الفلاحين قد اضطروا إلى الهرب ولا يتجرأون على معاونة الظهور لا في موسم الحصاد ولا في موسم إلقاء البذور « JOMARD, "Observations sur les Arabes de l'Égypte « moyenne", in *Description de l'Égypte*, Paris, 1823, T. XII, pp. 285 - 290.

Voir Daniel PANZAC, "Endémies, Epidémies et Population en - ٢٢ Égypte au XIX^e siècle", in "*L'Égypte au XIX^e siècle*", op. cit., pp. 83 - 100; du même, "The population of Egypt in the nineteenth century", *Asian and African Studies*, Vol. 21, 1987, pp. 11 - 32.

CUNO, *Landholding...* p. 60.

- ٢٣

٢٤ - يرى دولوميو أن هذه المنطقة قد تمتد من الخط الذي يقود من الرحمانية إلى المنصورة ، "Quelques notices sur l'agriculture de la Basse - Égypte", in *Dolomieu en Égypte*, Mémoires présentés à l'Institut d'Égypte par A. LACROIX et G. DARESSY, T. III, Le Caire, 1922, pp. 81 - 82.

٢٥ - ربما أن النيل يفيض بدرجة جد قليلة على الدلتا ، خاصة نحو الجزء الشمالي الذي يزرع الأرز فيه ، فإن يجري غمر الأراغسي بالمياه بمساعدة آلات هيدروليكية ، وهكذا فإن زراعة الأرز لا تتوقف على ارتفاع منسوب النيل ، كزراعة الحبوب التي تنتجها مصر العليا ، ومن الممكن أن تكون جد وفيرة ، حتى عندما لا يكون هذا الارتفاع موجداً بالمرء ، Jean - Baptiste TRÉCOURT, *Mémoires sur l'Égypte, année 1791*, édité et annoté par Gaston WIET, Publication de la Société Royale de Géographie, Le Caire, 1942, p. 8. Ce mémoire très important a appartenu à Monge, mais il semble n'avoir été connu qu'après le retour de Bonaparte d'Égypte.

Pour une vue comparative, voir l'article de Halil INALCIK, "Rice Cultivation and the *Celtûkci - Re'aya* System in the Ottoman Empire", *Turcica*, XIV (1982), pp. 69 - 141.

٢٦ - DOLOMIEU, pp. 87 - 88 يوضح هذا الأخير أن زراعة الأرز تمارس في إقليم أرشيد ودمياط والمنصورة والريتين فقط في الغربية (P. 86) . ولهما يتعلق ببعض أساليب الري ، يلاحظ أن « للزارعين ليسوا محرومين من كل نكاح (P. 85) .

٢٧ - إن تصدير الأرز يخضع لعقبات أقل ، إذ يسمح بتصديره إلى تركيا ، بل إن الحكومة تسمح في بعض سنوات الوفرة بتصديره إلى أوروبا وذلك في مقابل نسبة ١٥ في المائ. وكانت عمليات شحنه تتم في دمياط . وفي عام ١٧٧٦ ، صدر منه ٧٠٠٠٠ قنطاراً إلى مرسيليا ، TRÉCOURT, p. 27.

٢٨ - لا يكاد يوجد ملاك أو مستأجرون أهله بما يكفي لتغطية النفقات التي تتطلبها مزارع الأرز؛ وهم لا يقومون عادة بهذه النفقات (إلا اعتماداً على المال الذي يقرضونه من التجار، الذين لا يقرضون إلا بالشرط المعلن والذي يتمثل في شراء كل أوز الحنظل بسعر يقل عن سعر السوق ببوطاين للأرضية. DOLOMIEU, p. 106. ويعد لهذا النوع من الاستثمار في جميع المحاصيل، لكنه مهم في هذا المجال.

٢٩ - l'étude la plus complète sur le début du régime néo - mamlouk, est le livre de Daniel CRECELIUS, *The roots of modern Egypt, a Study of the Regimes of Ali Bey al Kabir and Muhammad Bey Abu Dahab, 1760 - 1775*, Minneapolis, Bibliotheca Islamica, 1981. Voir aussi André RAYMOND, ALI BEY AL KABIR, in *Les Africains*, Paris, 1977, II, pp. 17 - 41, et John W. LIVINGSTON, "The rise of shaykh al - balad Ali Bey al - Kabir : A study in the accuracy of the chronicle of Al Jabarti", *Bulletin of the school of Oriental and African Studies*, 1970, pp. 282 - 294.

٣٠ - حول الأوجهات في أواخر القرن الثامن عشر انظر مقال يوسف محمد، الموجود في *المعالي للملك في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر*، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥، ١٥٧، صفحة.

٣١ - L'étude essentielle reste celle de F. CHARLES - ROUX, *Autour d'une route, l'Angleterre, l'isthme de Suez, et l'Égypte au XVIII^e siècle*. Paris, 1922. Voir aussi David KIMCHE, "The Opening of the Red Sea to European ships in the late Eighteen Century", *Middle Eastern Studies*, VIII, 1972, pp. 63 - 71.

Vasif WASSIF, Istanbul, 1805, II, pp. 215 - 216. - ٣٢

٣٢ - Bibliographie essentielle dans Abdul Karim RAFAQ, *The Provinces of Damascus*, Beyrouth, 1966, Amnon COHEN, *Palestine in the 18th Century*, Jérusalem, 1973 et Moshe Ma'oz éditeur, *Studies on Palestine during the Ottoman Period*, Jérusalem, 1975. Je n'ai pu consulter le livre de Ahmad Hasan JOUDAH, *Revolt in Palestine in the Eighteenth Century : The Era of Shaykh Zahir al - Umar*, Princeton, Kingston Press, 1987.

PHILIPP, op. cit., pp. 28 - 29. - ٣٣

٣٤ - Sur les relations entre les Mamlouks égyptiens et la Palestine, voir - ٣٥ Daniel CRECELIUS, "Egypt's Reawakening Interest in Palestine During the Regimes of Ali Bey al Kabir and Muhammad Abu al Dahab, 1760 - 1775",

in David Kushner (ed.), *Palestine in the Late Ottoman Period, Political, Social and Economic Transformation*, Jerusalem, 1986, pp. 247 - 262.

PHILIPP, p. 29.

- ٣٦

P.M. Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, Londres, 1966, p. 96. - ٣٧

Voir mes *Origines intellectuelles de l'Expédition d'Égypte*, pp. 159- ٢٨ - 169. "Soudan" terme médiéval pour "Sultan".

Ben HALPERN, "A Note on Ali Bey's "Jewish State "Project", - ٣٩
Jewish Social Studies, XVIII, pp. 284 - 286.

John W. LIVINGSTON, "Ali Bey al Kabir and the Jews", - ٤٠
Middle Eastern Studies, 1971, VII, pp. 221 - 228.

٤١ - لقد استمد برناهارت الكثير من أسطورة على بك الكبير. وقد امر بمعاملة خاصة
للمست نفيسة لرملة التي تزوجت فيما بعد مراد بك. وفي ١١ يوليوز من العلم السابع (٢٠ يناير
١٧٩٩)، كتب إلى برسيليغ : إن السيدة المست نفيسة، لرملة على بك وزوجة مراد بك الآن، يجب
أن تحتفظ بذلك الجزء من ممتلكاتها الذي ورثته من على بك، فنحن نريد بذلك أن نقدم دليل
احترام للتكري هذا الرجل الشهير، . *Correspondance...*, V, p. 376.

٤٢ - إن لقب «ال خليفة للمحمدي الأعلى» - في اللغة الثالثة - والذي يشير إليه النص
الأصلي، الإيطالي، للمعاملة إنما يجد توسيعاً له في الترجمة الفرنسية ليصبح «خليفة الدولة
للمحمدي صاحب السيادة»؛ أما في النسخة التركية، فهو لا يبدو أن يكون «إمام المؤمنين وخليفة
للمؤمنين» [...]، وهو لقب لا ينطوي على الانعلاء شديد العمومية والاتساع الذي توهمه الصيغ
التي يستخدمها الأجانب. . Bernard LEWIS, *Islam et laïcité...*, p. 470

والواقع أن كل شيء يبدأ منذ عام ١٧٧٢ عندما يرسل الباب العالي مفوضين عثمانيين
للتفاوض مع الروس على خلاف الدانوب. وكان أحد الرجلين العثمانيين هو ياسين زاده «شيخ
أيا - صوفيا» الذي يتمتع برتبة قاضي القسطنطينية [...] والمكلف بشكل خاص بمناقشة المواد
التي قد تكون لها صلة بالدين. وحرصاً منه على ألا تغيب عن بابه «مبادئ شريعة الأوروبيين»،
فإنه ينكب على قراءة العهد الجديد. ونحن نرى في ذلك دليلاً على عدم فهم السياسة الغربية في
ذلك العصر.

وخلال اللقاء الثاني، يطالب الروس باستقلال التتر، أي بحماية الروسية على القوم في
واقع الأمر : أواد رفض المفوضان التركمان بقوة المطلب الخاص باستقلال التتر، وهو مطلب أملاً
أنه لن يكون موضعاً أبداً لتبعية، لأنه يتعارض مع شريعة نيانتها. وقد أشارا إلى أن السلطان،
بوصفه خليفة، إنما يمارس السلطة الروحية على جميع أهل السنة، وأنه إذا كان لا يدعي لنفسه
هذه السلطة في الهند، وفي بخارى وفي إمبراطورية المغرب الأقصى، التي يحكم شعوبها كلها
أمره يتعمون إلى اللعيب الصني، فإن السبب الوحيد لذلك إنما يتمثل في بعد هذه البلاد : وقد
زعموا أنه إذا ما تخلى في أي وقت عن سيطرته على التتر، فإنه سوف يكون بذلك متتهكاً للتوجيهات

التي تعرضها عليه صفة كخليفة، T. HAMMER, *Histoire de l'Empire Ottoman*, XVI, pp. 319 - 325.

ويستند هامر بشكل أساسي على نصوص عثمانية وعلى الأرشيفات الدبلوماسية النمساوية. أما واصف القدي، وهو أحد مصنفه الأساسيين، فهو أكثر تحفظاً فيما يتعلق بهذا الحادث.

«لقد أثار الوزراء العثمانيون إلى أنه إذا ما كف خان القرم عن الخضوع للسلطان، فإنه سوف يصبح خليفة ثانياً للنبي».

CAUSSIN DE PERCEVAL, *Récit historique de la guerre des Turcs contre les Russes, tiré des Annales de L'historien turc Wassif Effendy*, Paris, 1822, pp. 207 - 208.

وهذه النقطة الأساسية تعود إلى قطع المفاوضات التي لا يجرى استثنائها إلا بعد ذلك بحامين. وتجب الإشارة إلى أن الروس يقومون على الفور بحملة إعلامية لدى الدول الأوروبية لكي يائسوا لها لتقلل الانعلاء العثماني إلى الأسس. وهم يشعرون على واقع أنه قد وجد، في فترات معينة من تاريخ الإسلام، عدة خلفاء في وقت واحد وأن المسألة لا تتعلق من ثم بديانة محمد، بل بالسياسة العثمانية، (voir mes *Origines intellectuelles*, pp. 32 - 33) ومن المؤكد أن التشديد الذي قلمت به الدول الأوروبية على فكرة الخلافة للمهومة على غرار البابوية الكاثوليكية هو الذي يعود للسلوليين العثمانيين إلى تكثيف دور الخلافة في العلاقات الدولية. والحال أنني لم أتبين على أي شيء استند لوى ماسينيون عندما قال في عام ١٩٢٠ إن عودة الخلافة إلى الظهور هي الفكرة [...] تصورها بنكاه الكونت سان - بريست بمناسبة معاهدة كوتشوك كايينارجا. "Introduction à l'étude des revendications islamiques (1920)", in *Opera Minora*, Paris, 1969, I, p. 273.

Gilbert DELANOUE, "La doctrine scolaire de l'Imamât", in - ١٣ *Moralistes et politiques musulmans dans l'Égypte du XIXe siècle*, Le Caire, I.F.A.O., 1982, I, pp. 32 - 41.

Samir GIRGIS, *The Predominance of the Islamic Tradition of Leadership in Egypt during Bonaparte's Expedition*, Frankfurt, 1975, pp. 5 - 30.

Discours sur l'Histoire Universelle, traduction nouvelle, préface - ١٥ et notes par Vincent Monteil, Paris, 1967, I, p. 370.

S.J. SHAW, *Ottoman Egypt in the age of the French Revolution*, - ١٦ Harvard University Press, 1966, pp. 95 - 100, et Charles BACHATLY, "L'administration de la justice en Égypte à la veille des réformes de l'an IX", *Bulletin de l'Institut d'Égypte*, XVIII, 1935, pp. 1 - 18.

Sur le groupe familial du alim al Jabarti, voir André RAYMOND, - 14
 "La Fortune des Gabarti et leurs liens avec la caste dominante et les milieux
 commerçants", in Ahmad Bizzat Abd al Karim éditeur, Abd al Rahman al
 Jabarti, *dirasat wa buhuth*, Le Caire, 1974, pp. 73 - 84.

Sur les ulama dans la société égyptienne, voir André RAYMOND, - 14
 "Le Caire, économie et société urbaines à la fin du XVIII^e siècle", in
l'Égypte au XIX^e siècle, op. cit. pp. 121 - 139. Afaf Lutfi al - Sayyid Marsot,
 "The Political and Economic Functions of the ulama in the 18th Century",
Journal of the Economic and Social History of Orient, Vol. XXVI, pp. 130 -
 154.

A la lecture de Jabarti, se dégage un esprit très proche finalement des
 réformistes de la Salafiyya du XIX^e siècle. D'ailleurs, Jabarti a été attiré par
 la prédication wahabite (Gilbert DELANOUE, op. cit. I, pp. 49 - 53).

JABARTI, nécrologie de l'année 1188. Cet épisode se situe au - 14
 temps du voyage de l'abbé d'Orvalle qui est arrivé en Égypte en 1747 et qui
 prétend avoir fréquenté des shaykh d'Al Azhar. Il avait été chargé de faire
 l'acquisition de manuscrits orientaux (R. CLÉMENT, *Les Français d'Égypte*
aux XVII^e et XVIII^e siècles, Le Caire, I.F.A.O., 1960, pp. 188 - 189).

CRECELIUS, *The Roots of Modern Egypt*, p. 148. - 14

PHILIPP, op. cit. p. 30. - 14

JABARTI, nécrologie de l'année 1189. - 14

JABARTI, nécrologie de l'année 1231. - 14

JABARTI, nécrologie de l'année 1215. - 14

Voir Moustapha FAHMY, "La première convention commerciale - 14

franco - égyptienne au XVIII^e siècle (10 janvier 1785)", *Cahiers d'Histoire*
Égyptienne, VII, 1955, pp. 21 - 34. Sur la réaction anglaise, Edward
 INGRAM, "From Trade to Empire in the Near East - I : The End of the
 Spectre of the Overland Trade, 1775 - 1801," *Middle Eastern Studies*, XIV,
 1977, pp. 3 - 21.

Sur cette affaire, R. CLÉMENT, *Les Français d'Égypte aux* - 14
XVII^e, et XVIII^e siècles, Le Caire, I.F.A.O., 1960, pp. 219 - 229.

L'étude essentielle et novatrice sur l'expédition ottomane est celle - 14
 de Abd AL WAHAB BAKR, *Al dawlat al utmâniyya wa misr fi al nisf al*

thâni min al qarn al tâmin ashâr, Le Caire, 1982, dâr al ma ârif, p. 240 (l'État ottoman et l'Égypte dans la seconde moitié du XVIII^e siècle).

Standford J. SHAW, *Ottoman Egypt in the Eighteenth Century*, - ٥٨
The Nizamname -i Misir, Oxford University Press, 1964, pp. 22 - 23.

٥٩ - هل يجب التذكير بالمادة الثانية من إعلان حقوق الإنسان الصادر في عام ١٧٨٩ ؟ إن غاية كل اجتماع سياسي هي صون حقوق الإنسان الطبيعية والثابتة. وهذه الحقوق هي الحرية والملكية والأمن ومقاومة الاضطهاد ؟ وإذا كانت الحقوق متماثلة، فإن الضرعية هنا لا تنبع من الطبيعة، بل من الله.

يرى برنارد لويس أن هذا المذهب الإسلامي الخاص بواجب مقاومة الحكومة الجائرة هو أقل أهمية برفض من المذهب للقبائل والذي يدعو إلى الطاعة لأطول زمن ممكن سعياً إلى تجنب حدوث فتنة في الأمة. (Le retour de l'Islam, Paris, 1986, pp. 50 - 63). ولما كان صحيحاً أن العلماء قد كثفوا للوائح في وجه تجاوزات مذهب واجب العصيان، فإن ما لا يحترق أقل صحة هو أن الإسلام العثماني، في إطار تحديثاته في القرن الثامن عشر، قد عرف تحولاً سياسياً - دينياً عميقاً (والأمثلة على ذلك هي نص على بك الكبير الذي ألهته أملاه، ومسألة الخلافة، وسياسة أبو المذهب).

Je m'inspire ici très directement de la pensée de M. Sherif - ٦٠
MARDIN et, en particulier, du cycle de conférences qu'il a tenues à Paris en 1986 sur la légitimation islamique des révoltes.

S.J. SHAW, *Ottoman Egypt in the age of the French Revolution...*, pp. 164 - 167. - ٦١

٦٢ - إن رغبة إسماعيل بك في استقبال رئيس مهتمين مع ما بين أربعة وخمسة أشخاص يمكنهم معاونته، وضابط مدفعية معه عدد مماثل من الأشخاص ورئيس سبلكين مع عدد من العمال يمكنهم أن يسبقوا له مدافع، ومدافع هاون، وقنابل وكرات مدافع، ويتعين يمكنهم أن يبنوا له عمارات خلصة بالنيل وجسوراً خشبية، إلخ، وسوف يلقي هؤلاء القديون معاملة لائقة، لأن إذا كان البك غير مبذر بالطبع، فإنه لا يضر مالأ عندما يكون بوسع هذا اللال أن يسهم في توليد الأمن له. cité par H. DEHÉRAIN, "L'Égypte turque", in *Histoire de la nation égyptienne*, T.V, p. 148.

Sur la situation intérieure à Alexandrie dans les années 1790, voir - ٦٣
Kléber et Bonaparte..., T.I., pp. 31 - 37.

DEHÉRAIN, op. cit., p. 217. - ٦٤

GUÉMARD, *Les réformes en Égypte, d' Ali Bey El Kébir à Méhémet Ali*, Le Caire, 1936, pp. 63 - 65. - ٦٥

JABARTI, nécrologie de l'année 1215. - ٦٦

AURIANT, "Histoire d'Ahmed Aga le Zantiote, un projet de - ١٧
conquête du Darfour", *Revue d'Histoire des Colonies Françaises*, 1926, pp.
181 - 234.

٦٨ - كان دوزيقي قد تزوج امرأة يوسف البيطار، وهو كاثوليكي يوناني من حلب ينتمي
إلى حاشية إبراهيم الصباح، وزير مالية ضاهر الممر

(GIBB and BOWEN, *Islamic Society and the West*, T. II, Londres,
(1957) ثم مسئول بميلاد الجمركي ومنظم عودة على بك الكارثية إلى مصر. (PHILIPP,
op. cit. p. 48) ومن ثم إياه حليف لطائفة الكاثوليك اليونانيين السوريين المساعدة.

٦٩ - يرى مكالكركلسكي (Les Polonais en Égypte, Paris, 1910, p. V) معتمداً
على ثيودور التاريخ العلمي، أن ماجالون هو مؤلف التتأملات السياسية المنشورة في عام
١٧٨٣ والتي أعيد نشرها في عام ١٧٩٨، والتي ترى فتح مصر (sur ce texte, voir mes
Origines Intellectuelles, pp. 180 - 181) ويبدو ذلك قليل المعنوية، بقدر ما أن مصير
ماجالون، في عام ١٧٨٣، كان يتوقف بدرجة وثيقة على مصير المماليك.

C'est le récit de Jabarti. Sur ce sujet, voir les commentaires de - ٧٠
Peter HOLT, "The last phase of the neo - mamluk regime in Égypt", in
L'Égypte au XIX^e siècle, op. cit., pp. 142 - 151. Voir aussi Afaf LUTFI AL
SAYYID, "The role of the ulama in Egypt during the early nineteenth
Century", in P.M. Holt éditeur, *Political and Social change in Modern
Egypt*, Londres, Oxford University Press, 1968. pp. 264 - 291. Dans le
même ouvrage, voir pour une vision d'ensemble des révoltes cairotes,
l'article d'André RAYMOND, "Quartiers et mouvements populaires au
Caire au XVIII^e siècle", pp. 104 - 117, du même. "Deux leaders populaires
au Caire à la fin du XVIII^e siècle, et au début du XIX^e siècle", *La Nouvelle
Revue du Caire*, I, Le Caire 1975, pp. 281 - 298. Voir aussi Gabriel BAER,
"Popular Revolt in Ottoman Cairo", *Der Islam*, 54, 1977, pp. 212 - 242.

Traduction de Gilbert DELANOUE *Moralistes et politiques - ٧١
musulmans dans l'Égypte du XIX^e siècle, (1798 - 1882)*, Le Caire, Institut
Français d'Archéologie Orientale, 1982, p. 82.

الفصل الثالث

الانتصارات والانتكاسات

الاستيلاء على الإسكندرية

البيان الموجة إلى الشعب المصري

في ٩ ميسينور من العام السادس (٢٧ يونيو ١٧٩٨)، يصدر بوناپارت من على متن لوريان تعليماته بشأن إنزال ثلاثي في الإسكندرية ورشيد ودمياط. لفضل السيطرة السريعة على موانئ مصر الثلاثة الكبرى على البحر المتوسط، يرى أنه سيكون بوسعهم تمكين القوات الفرنسية من التعلق على القاهرة. وهو يرى أن للملك، وقد فوجئوا، لن يجدوا الوقت لتنظيم المقاومة، وكل ذلك يتطلب التزام والصراحة في العمليات. وفي اليوم نفسه، يحرر الفاتح بيانه الشهير للوجه إلى المصريين. ويساعده في ذلك فينتور دو هارادي الذي يقدم إليه مشورته في تحرير البيان ويتولى ترجمته. والحال أن المترجمان للمستشرق المعجوز عليهم جيد بشئون مصر، التي كان قد عاش فيها سنوات عديدة في عهد علي بك، كما أنه أحد واضعي خطط فتح مصر. ونحن نحوز نسختين من البيان، واحدة عربية والأخرى فرنسية. وهذه الأخيرة مسخ مقصود للنص العربي خاصة فيما يتعلق بدعوى بوناپارت الإسلامية^(١). ويجري استخدام الرطانة الثورية للقوة للأمة العظمى، «السلام للأكواخ، الحرب على القصور» والتي ميزت الحروب الأولى للثورة، لكن هناك سعيًا، في تيار الفكر نفسه، إلى أسلمتها وتمصيرها باستعادة لغة بياني على بك وحسن باشا.

وفي تمشٍ تام مع المشروع العثماني لعامي ١٧٨٦ و ١٧٨٧، يحاول بوناپارت، بمساعدة مستشاريه، أن يصور نفسه في صورة القائم للقضاء على المظالم وإعانة تأكيد السلطة الشرعية العثمانية. فهو يريد استعادة (خطاب - المترجم) إضفاء الشرعية الإسلامية الذي استخدمه حسن باشا الجزائري، قبل ذلك باثنتي عشرة سنة، لكنه يضيف إليه استيهاماته كفاتح شرقي،

«بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، لا ولد له ولا شريك في ملكه.

«من طرف الجمهور الفرنسي للنهض على أساس الحرية والتسوية، مصر عسكري الكبير بوتنهارت، أمير الجيوش الفرنسية، يُعرف أهالي مصر جميعهم أنه من زمان مديد، السناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق للملة الفرنسية ويظلمون تجارها بأنواع البلبس والتعدي، فعند الآن ساهمة عقوبتهم. واحسرتنا من مدة مصور طويلة، هذه الزمرة للمعاليك للجلوبون من بلاد الأبهة والجواكسة يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها، فاما رب العاملين القادر على كل شيء فقد حكم على لنقضه بولتهم.

«يا أيها المصريين قد يقولون لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، لذلك كتب صريح فلا تصدقوه وقرلوا للمفتزين، إنني ما قدمت إليكم إلا لكيما أخلص حلقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المعاليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم دينه محمداً والقرآن العظيم.

«وقولوا أيضاً لهم إن جميع الناس يتساوون عند الله، وإن الشيء الذي يفرقهم من بعضهم بعضاً هو العقل والفضائل والعلوم فقط.

«وبين المعاليك والعقل والفضائل تضارب، فماداً يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء لحسن فيها من الجوارى الحسن والخييل العتاق و المساكن المفرحة. فإن كانت الأرض المصرية للتماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم. ولكن رب العالمين رحوف وعقل وحليم، ويعونه تعالى من الآن فصاعداً لا يياس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب للراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيديرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة.

«ومسابقاً كان في الأراضي المصرية للدين العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر للتكاثر وما أزال تلك كله إلا للظلم والطمع من المعاليك.

«أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجريحية وأعيان البلد قرلوا لأمتكم إن الفرنسية هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذي كان دائماً يحث للتصاري على محاربة الإسلام ثم تصدوا جزيرة مالطة

وطردوا منها الكوالمهوية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة للمسلمين، ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأولات صاروا محبين مخلصين لخدمة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أيام الله ملكه، ومع ذلك إن للماليك امتنعوا من إطاعة للسلطان غير ممثلين لأمره فما أطاعوا أصلاً إلا لطمع أنفسهم.

طوبى ثم طوبى لأهل مصر الذين يتفلقون معنا بلا تأخير ليصلح حالهم وتعالى مراتبهم. طوبى أيضاً للذين يفتنون في مسلكهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب، لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على للماليك في محاربتنا فلا يفتنون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر.

المادة الأولى: جميع القرى الواقعة في دائرة قرية بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للعسكر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو البيض وكحلى وأحمر. (٢)

المادة الثانية: كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار.

المادة الثالثة: كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي أيضاً تنصب صنجد السلطان العثماني محبنا نام بقاؤه.

المادة الرابعة: المشايخ في كل بلد يختصمون حالا جميع الأذواق واليهوت والأملاك التي تتبع للماليك وعليهم الاجتهاد لنلا يضيع أذى شئ منها.

المادة الخامسة: الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلزمون وظائفهم وعلى كل واحد من أهلى البلدان أن يبقى في مسكنه مطمئناً وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة، والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة للماليك قائلين بصوت عال أيام الله إجلال السلطان العثماني، أيام الله إجلال للعسكر الفرنساوي، لعن الله للماليك وأصلح حال الأمة المصرية. (٣)

الإنزال في الإسكندرية

منذ مرور نيلسون، من ٢٢ إلى ٢٥ يونيو، بحثاً عن الأسطول الفرنسي، وسلطات الإسكندرية منزوعة. وتهيمن قرية على الشريف محمد كريم^(٤) الذي يحكم المدينة

لحساب مراد بك. لقد قبل تزويد الأسطول الإنجليزي بالماء واللبن الفلثية بشرط رحيله بأسرع ما يمكن. وطلب عون بنو البحيرة، سعياً إلى تعزيز دفاعات المدينة الهزيلة. (٥) لكن الإسكندرية التي لا يتجاوز سكانها ستة آلاف نسمة بعد لوثة الطاعون الكارثية في أواخر القرن الثامن عشر لا يمكن اعتبارها مكاناً حصيناً. ويستمر الانزعاج بالرغم من رحيل الأسطول الإنجليزي. ووجود سفينة حربية عثمانية مهمة، هي الريال، في مرسى الميداء القديم، لا يكفي لتهدئة الخواطر.

ويرسل بوناپارت في مهمة استطلاعية فرقاطة، هي جودون، لجمع المعلومات الأخيرة عن حالة المدينة ولكي تأخذ على متنها قنصل فرنسا، وهو ابن أخ لماجاللون. وتود السلطات الاعتراض على رحيل القنصل، لكن قبطان الريال يعطى موافقته بشرط أن يصحب القنصل مسلمان. (٦)

وعندئذ يعلم الفرنسيون بمرور الأسطول الإنجليزي ويقبلون على الاستعدادات الدفاعية للإسكندرية. وعندئذ يجري تغيير خطط بوناپارت الأولية (٧). فهو يقرر تحقيق الإنزال الرئيسي في الإسكندرية.

ويصبح الاستيلاء على رشيد عملية تكملية لا تتميز بأثر رئيسي على سير العمليات. والخيار جسيم، لأنه يحوم الجيش من نقل عتله الثقيل عبر النهر، انطلاقاً من مصب رشيد ومياط، ويلدخ، بالنسبة للزحف، اجتيازاً جدياً صعباً للصحراء لا يملك الجنود الفرنسيون استعداداً له بالمرة. ولابد من الإقدام على هذه للخطر لأنه من غير الوارد إبقاء الجنود على الأسطول بسبب خطر معركة بحرية. وكان من شأن مياط ورشيد أن تشكلا موقعي إنزال أكثر ملاءمة للزحف التالي للجيش، إلا أنه لا يمكن التفكير في ذلك بقدر ما أن الماليك يحوزون الإمكانيات، مع شئ من الجهود، لجعل صعود فرعى البلتا صعباً.

ومن ثم فإن الأسطول يتمركز، في أول يوليو، في جوين مربوط في غربي الإسكندرية (٨). ويتعين القيام بعمليتين؛ ففرق كليبر وبون، للرابطة على سفن الجبهة، تظل تحت سلطة بوناپارت؛ وفرق مينو وبيزيه ورينيه التي تنقلها القوارب، تظل تحت قيادة جنرالات فرقها.

وبهذا الإنزال في ليلة ١ - ٢ يوليو، بالرغم من ثورة أمواج البحر. فبوناپارت يفضل

علم الانتظار. وتصل مرفق مينو إلى الشاطئ قبل الفرق الأخرى. ونحو ساعتين ونصف صباحاً، يتمتع القائد العام بما يكفي من القوات من فرق بون ودينييه ومينو لكي يتسنى له الزحف في ثلاثة طوابير نحو الإسكندرية، بالرغم من هيبس المدفعية والفرسان.

وقبل الفجر، يبدأ بعض الجنود في مطاردة الطوابير إلى جانب وحدة فرسان قاعدة من الإسكندرية بقيادة كاشف المنطقة. ويسبب هيبس الجهاد، يكتفى الفرنسيون بالزحف في نظام. وعند الاقتراب من المدينة، تتوزع الفرق الثلاث على أنحاء مختلفة من النطاق المسمى بـ «برج العرب»، القريب من المدينة الحديثة. وعندئذ ينسحب الكاشف إلى رشيد بحثاً عن العون. ويحاول بوناپارت التفاوض، لكن كان الإسكندرية للمحتشدين على الأسوار يلجأون إلى المقاومة. وبون مدفعية، لا يملك القائد العام إلا إصدار الأمر باجتياح الأسوار في ثلاث هجمات متزامنة. وتحت قيادة الجنرالات والضباط، يتمكن الجنود من الاستيلاء على الحصون بسهولة ويصاب كليبر بجرح في الرأس خلال ذلك الهجوم، ويصاب مينو إصابة أقل جسيمة.

وفي بداية ما بعد الظهر، يجري تراشق نشيط بالرصاصة في المدينة نفسها، فالسكان يواصلون المقاومة. وفي نهاية الأمر، فإن السكان، الذين يقوهم الأعيان، يستسلمون، وذلك بسبب تفوق أعداد (الجنود الفرنسيين) وسبب التنازحهم إلى القنطرة. ومحمد كريم هو آخر من يستسلم.

وبالنسبة للسكندريين، تعتبر الصلحة قاسية، فالفرنسيون جد عنيدون بحيث أنهم يظهرون حول المدينة، بحسب تعبير الجبرتي، «كالجمل»^(٩). وعرب البحيرة، تحت قيادة الكاشف للملوكي، ينسحبون فوراً إلى الداخل. أما الأعيان، وفي صدارتهم العلماء، فقد تفاوضوا على إنهاء للمعارك.

وبوناپارت، المقتنع بالطابع الثوري للوضع المصري، يفسر المقاومة على إنها سوء فهم^(١٠). وهو يأمر السكان على الفور بحمل الشارة الثلاثية الألوان ويحفظ للعلماء حق الاحتفاظ بأسلحتهم ولربلاء الشال الثلاثي الألوان^(١١). ومن الواضح أن الهدف هو جعل المصريين «جمهوريين».

سياسة الأعيان

يعتبر بوناپارت الإسكندرية منضمة لاختبار لسياسة الشرقية. فخلال المعارك من أجل الاستيلاء على المدينة، جرى البدء بتوزيع البیان الشهير والاكتفاء بنزع سلاح المقاتلين

وتركهم يعودون إلى بيوتهم (١٢). ويصدر القائد العام لأمر صارمة بأن يحترم الجنود السكان وأماكن العبادة. وهو يرسى بشكل خاص سياسة تجاه الأعيان. ففي ٤ يوليو، يحصل على التوقيع على اتفاق بينه والعلماء بشكل ميثاقاً حقيقياً للعلاقات بين الفرنسيين والمصريين. (ويعوجب هذا الاتفاق) يحتفظ العلماء بإدارة القضاء، ويتمتعون بعدم إثارة الفتن والمؤامرات ضد الفرنسيين. ويعد الفرنسيون بعدم المساس بالسكان وباحترام الممتلكات وعدم إكراه السكان على تغيير ديانتهم وعدم إدخال بدعة في الممارسات الدينية (١٣).

ويتقبل العلماء عن طيب خاطر عروض بوناپارت والتي تعثل بالنسبة لهم ثاراً من المهانات التي خلقتها نظام مراد بك. وخلال الحملة العثمانية، كان رجال الدين قد توصلوا، تحت قيادة للشيخ المسيري، إلى السيطرة على المدينة التي أصبحت، إن صبقنا الجهرتي، للمجتمع الإسلامي المثالي (١٤).

وبعد عام ١٧٩١، اضطر محمد كريم، وكيل مراد بك، إلى فرض سلطته بالقوة، بما في ذلك اللجوء على ما يبدو إلى اغتيال شريف. وبالنسبة للشيخ المسيري، فإن وصول الفرنسيين إنما يسمح باستعادة السيطرة على المدينة. وهذا هو معنى حلفه واتفاقه الموقع في ٤ يوليو. ومن سوء الحظ بالنسبة له، إن الفرنسيين يجهلون هذا للوضع السياسي ويعتقدون أن من المناسب كسب كرههم نفسه إلى للنظام الجديد. ومن ثم فإن رجل مراد يحتفظ بالسلطة في المدينة حيث يحمل اللقب الجديد عليه، لقب «محافظ دائرة الإسكندرية» (١٥)، ويفضل العلماء التوقيع والانتظار.

وبشكل مواز، يجري للتوصل إلى اتفاق مع بدو المنطقة. ويصل الأمر بهم إلى حد ادعاء أن المعارك الأولى إنما كانت نتيجة سوء فهم والتباس، ولقد ألتئم لنا إنكم إنما جئتم من أجل صالحنا وإنكم لا تحاربون غير المماليك، ظالمينا، لكنكم هبطتم سرّاً وزحفتم بأسلحتكم علينا، ولم تك تدرى أنكم فرنسيون ولم يك يوسعنا أن نتصور إلا أنكم روس، أملاء صديقنا السلطان (١٦).

ويبدو أن السياسة المصرية تبدأ بداية طيبة. لكن السفارة الهندية تصطدم بوحدة فرنسية لم يتم إخطارها بالاتفاق ولا تتمهل لتقرأ تصريح اللورد الذي يبرزه الهند. ويلقى أربعة من بينهم مصرعهم وتنقطع الاتصالات (بين الهند والفرنسيين).

وفي لحظة الاستيلاء على الإسكندرية عيبتها، كانت القوات الأخرى قد نزلت. وتجرى الاستفانة من توقف العمليات في المدينة لإعادة تنظيم الوحدات التي كان الانتقال قد بعثها بالكامل. وبالنسبة للمجنود، الذين يتذكرون راحة للحارب الهائلة في إيطاليا، فإن خيبة الأمل مريعة. فالساحل الصحراوي والمدينة شبه الخربة والسوة للنخ وعذوبة السكان تسمح بتوقع أن الإقامة في مصر سوف تكون أقل هناك. ومنذ البداية، بهذا الجيش في الظهور من مصر، بينما لا يملك بوناپارت غير تعزيز الانضباط مراعاة للسكان.

وهنا بوناپارت

مع استكمال الإنزال، تبرز مسألة الأسطول المهدد على الدوام بعودة هجومية من جانب الإنجليز. ويملك بوناپارت خيار إدخاله إلى ميناء الإسكندرية لو إعادته إلى أوروبا أو توجيهه إلى المراقبة في خليج أبو قير شرقاً الإسكندرية، المرسى الحقيقي الوحيد الآمن من الرياح على الساحل.

وبالرغم من إصرار الأميرال بروي، فإن بوناپارت الذي يريد التمتع بإمكانية العودة إلى فرنسا في أية لحظة، يرفض فكرة إعادة الأسطول إلى كورفو. والاختبارات التي أجريت في الميناء تشير إلى أن للموت خطيرة. وهذا التقييم يؤكد بشكل محزن فرق سلطنة النقل لوپاتريوت التي كانت تحمل عليها من المعدات العلمية، تحديداً في مصر كان قد تم مع ذلك استكشافه بشكل جيد (٤ يوليو). ومن ثم يرفض بروي إدخال السفن إلى الميناء ولا يبقى عندئذ غير الحل الوسط الذي يمثله مرسى أبو قير.

وبما أن الإسكندرية، بسبب ضعف سكانها، لا تستطيع تقديم المؤن الضرورية، فإن هجرى استنزاف احتياطيات البحرية بشكل واسع لتغذية الجيش. ومنذ ذلك الحين، يتعين انتظار فتح مصر السفلى كلها حتى يتسنى جمع ما يكفي من الإمدادات الغذائية والسماح للأسطول بالعودة إلى كورفو. لكنه، في الواقع، يظل حبيب أبو قير حيث يستقر في ٧ يوليو.

وهكذا يجرب بوناپارت الحظ، إن حملة المصرية سوف تكون سلسلة من الرهانات الجسورة ومن العقبات غير المتوقعة. وسوف يكون الأسطول، فضلاً عن الجيش، محببها.

ومع إملة تنظيم الجيش وإرسال السفن إلى أبو قهر، يتقل بونايات قيادة الإسكندرية إلى كليبر الذى يضطر، بسبب جرحه، إلى ترك قيادة فرقته. ويتمتع الأكراسى فى الساحة بنصف لواء كامل يتألف من ألف وثمانمائة رجل وعناصر احتياطية من الجيش تصل بالإجمالى إلى أكثر من ستة آلاف وخمسمائة رجل، أى أكثر من إجمالى سكان المدينة.

عندئذ يمكن استئناف الزحف على القاهرة. والطريق الأفضل هو الطريق المحاذى للنيل على امتداد فرع دمياط، لكنه يفرض إعادة صعود للجنود إلى السفن ومسيرة ست وثلاثين ساعة، وهو ما ينطوى على قدر كبير من المخاطر بسبب احتمال عودة نيلسون. ومن ثم يتعين الارتداد إلى فرع رشيد (١٧). ولاعتبارات تتعلق بالسرية وسعيًا إلى تجنب الهجمات للمماليك للمعكة على النيل، يفضل بونايات اجتياز طريق الصحراء عبر دمنهور. ويتعين على فرقة بوجا الاستيلاء على رشيد وشغل المماليك ثم تحقيق التوحد مع بقية الجيش عند نقطة التقاء طريق الدهر وطريق الصحراء (١٨).

الزحف على القاهرة

ومما فعل المالكة

ولما لما ذكره كلوت بك، الطبيب والعلامة الذي خدم محمد علي، قام روزيتي، بعد استيلاء الفرنسيين على ملطه، بزيارة مراد بك لتخليصه من الخطر المحدق بمصر. ويقال إن مراد بك قد رد عليه :

«لتحصب أن هناك ما يدعونا إلى الخوف من الفرنسيين، خاصة إن كانوا كهؤلاء الكاثاريات (التجار) للوجهين عندما ؟ عندما يهبط منهم مائة ألف، يكفيني أن أرسل للقائم التلاميذ المالك لشبان، الذين سوف يقطعون رؤوسهم بعد ركاب سروج خيولهم».

ولا تحصل الإسكندرية على قدر من النخائر إلا بعد إلحاح من روزيتي.

وبعد الاستيلاء على المدينة، يستدعي مراد القنصل الإمبراطوري ويهوج إليه بامتزاه أن يكتب إلى الفرنسيين لإنذارهم بالرحيل فوراً «فيشير روزيتي، لكنهم لم يجهثوا إلى هذا البلد لكي يرحلوا عنه لدى أول إنذار.

«ويواصل مراد نالقه الصبر، ما الذي يريد إنك هؤلاء الكفار؟ هؤلاء الموتى من الجوع؟ أرسلوا إليهم عدة آلاف من البوطاقات (نحو خمسين ألف لفرنك)، وسوف يرحلون. اعندند برد القنصل، لكن ذلك للبالغ يا سيدي لا يكفي لسداد ولو نول أصغر السفن التي حملتهم. إن عليكم الاستعداد للطاع» (١٩).

ويؤكد الجبرتي تلالل الأمراء. على ٢٧ يونيو ١٧٩٨، يصل خبر مرور الأسطول الانجليزي بالإسكندرية وهو ما يستثير انزعاجاً قوياً بين صفوف سكان القاهرة. لكن الأمراء يربون بالتاكيد على أنهم سوف يدمرون الأوروبين بسهولة عبر حملات للفرسان. والواقع أن نزول الفرنسيين سوف يكشف عن التوتر القائم بين المالك والعثمانيين. وكان محمد كريم قد كثف للرسالات لإبلاغ القاهرة بالوضع. وخبر الاستيلاء على الإسكندرية يهيج سكان القاهرة. ويقرر الأمراء عقد ديوان بحضور الوالي العثماني ومهاجر الدين الرثيسيين وأهم الأعيان.

ويقوم الشيخ السلاط مراد علناً على تعدياته على الفرنسيين والتي تعتبر سبب

للفرد. ولا يرد الزعيم المملوكى بشيء، لأنه مضطر إلى مبالاة للشيخ القوي، لكنه يقرر
الثأر لنفسه عندما تسنح الفرصة لذلك (٢٠). ويتهم شيخ آخر للمماليك بأنهم تركوا موانئ
مصر بلا دفاعات. ويرد عليه مراد بأنه لو كان الأمراء قد اتجهوا إلى تحصين الموانئ،
لاتهم العلماء بالتحضير لتمرد على السلطان (٢١).

والأرجح أنه كان على علم بمحتوى بيان بوناپارت، بل وردها برسالته إلى والى مصر
والتي جرى التأكيد فيها على أن الفرنسيين لم يجهتوا إلا لإنزال العقاب بالمماليك الذين
كاثروا المهانات للتجار الفرنسيين، وأن الباب العالي قد أعلن أن البكوات، وهم أناس يحركهم
الهوى والشهرة، لا يراعون مبادئ العدل وأنه ليس فقط لا يجيز للفظائع التي يرتكبونها في
حق أصدقائه الفرنسيين الصالحين والقديماء، بل إنه يشملهم بحمايته (٢٢).

ويهاجم مراد بك للعثمانيين الذين يشتبه في تواطؤهم مع الفرنسيين. وهو يهاجم
بشكل خاص والى العثماني، بكر باشا:

«- إن هؤلاء الفرنسيين ما دخلوا على هذه الفيار إلا بإذن للدولة العثمانية، ولا بد أن
الوزير عنده علم بتلك النية، ولكن القدرة تساعدا عليكم وعليهم.

«فأجابه الوزير - لا يجب عليك أيها الأمير أن تتكلم بهذا الكلام العظيم. ولا يمكن
أن دولة بني عثمان تسمح بدخول الفرنسيين على بلاد الإسلام. فدعوا عنكم ذلك المقال
وانهضوا نهوض الأبطال واستعدوا للحرب والقتال» (٢٣).

ولاستجلاء الأمر، يقرر الديوان الكتابة إلى الباب العالي. وكان قد جرى قبل ذلك
إرسال رسول إلى الفرنسيين لسؤالهم عن أسباب مثل هذه الأعمال التي تتعارض مع
الصداقة التقليدية بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية. لكن للتأكيد، الوارد من روزيتي،
والخاص بالاستيلاء على الإسكندرية بضع حدا للترديدات. وعندئذ يقرر الديوان أن يعلن
العلماء الجهاد - فمصر تعتبر أرضاً للإسلام - كما يقرر طلب العون للعاجل من الباب
العالي (٢٤).

وفي مرحلة أولى، يبدو تكتيك الفصل بين العثمانيين والمماليك ناجحاً. ومن المؤكد
أن التعارض بين الطبقتين الحكمتين القوي من التعارض بين المماليك والمصريين الأصلاء.
والدفاع عن الإسلام هو الشعار الوحيد الذي يسمح بخلق جبهة مشتركة ضد الفرنسيين.
وهذا الوضع ليس إلا وضعاً مؤقتاً وخلال السنوات الثلاث للحملة، يفكر العثمانيون

والماليك في الصراع الذي لابد أن يجرى في أثرها من أجل السيطرة على مصر. والماليك المعرضون للتهديد بالفعل من جانب العثمانيين، عليهم أيضاً أن يواجهوا تمرد العلماء. وقد هددت الأعرام السابقة تعاطف الخلافات بين أرباب السيف وأرباب القشر والآن يتهم هؤلاء الآخرون للماليك بالعجز عن التصدي للفرنسيين. والاثام من أخطر الاتهامات لأنه يشكك في مبرر وجود هذه الجماعة العسكرية عيثة. لفلقان الشرعية هو جزاء هزائم الماليك وهؤلاء يعرفون ذلك جيداً.

كما يناقش الديوان مصير للسيحيين والأوروبيين المقيمين في القاهرة، والذين يهددون بتشكيل طابور خامس في داخل المدينة. ويؤيد الوالي العثماني لاحتجاز الأوروبيين وتفتيش بيوت المسيحيين بحثاً عن الأسلحة التي قد تكون هناك. وبعض الماليك، بدعمهم عمر مكرم، نقيب الأشراف، يقترحون تطهير أكثر تجاوزاً كإبادة النصارى قبل الخروج لمحاربة الكفار. لكن الوالي يغلّب رأيه بمساعدة إبراهيم بك ملكاً بالمبادئ الأساسية للسياسة العثمانية، «غير ممكن أننا نسلم إلى هذا الفروم والرأى، لأن هؤلاء رعية مولانا السلطان، صاحب النصر والشان» (٢٥).

ويحصل مراد بك على تكليف بالخروج لمحاربة الفرنسيين، بينما يجرى حشد بقية القوات في القاهرة. ويكثف الجنود للمصادرات التعسفية على حساب سكان القاهرة بينما ينتاب النصارى الذعر. وينشق إبراهيم بك والوالي العثماني يومياً بتهنئة خواطريهم. ومن جهة أخرى فإن الأوروبيين، ومن بينهم روزيتي، يجرى لاحتجازهم في القلعة. ويجد آخرون من بينهم مأمناً في بيت العت نفيسة (٢٦).

طولهوور

إن الطريق الذي اختاره بوناپارت هو الطريق الذي يحدى التربة التي تربط الإسكندرية بالنيل. وهذه التربة، قبل تعميق حفرها من جديد في القرن التاسع عشر، تربة جافة في الجزء الأعظم من السنة. وهي لا تمتلئ بالماء إلا خلال فيضان النيل. وفي تلك الفترة القصيرة، تساعد على رى المحاصيل وتغذية خزانات الإسكندرية، وهي تعتبر المكون الرئيسي لها بالماء. ومن جهة أخرى فإن توزيع هذه المياه هو رهان نزاع سنوى قاس بين المدينة والريف. على أن المسؤولين الفرنسيين يأملون في أن يجدوا الماء بكمية تكفى لتغذية الجيش.

ومنذ ٢ يوليو فإن نهريه، الذي حصل على قيادة القوة الامامية، يرحل مع فرقته

ونصف لواء من المشاة الخفيفة بقيادة مارمون. وخيبة الأمل مريعة، فالأمر يتطلب اجتياز منطقة جافة لا يوجد بها غير القليل من مصائد المياه. وهذا الوضع ورغم القيادة الفرنسية على توزيع قواتها حتى يتسنى لها الاستيلاء على الأبرار والخزانات النادرة. والجنود غير المهينين الهبة لبلاد حارة والذين يحملون أمتعتهم يشكون من الحر. ويخافون رينيه وفرقة بعورهما الإسكندرية في ٥ يوليو ويتمان الالتقاء مع ديزيه في مهنود، في ٧ يوليو. وكان القائد العام قد أمرهما بمراعاة السكان إلى أقصى حد ممكن وبأن يدعيا بصورة منتظمة ثمن مشترياتهما، وبأن يوزعا اللبانات الشهيرة. ويتعين عليهما اختزال استخلام للدفعبة قدر الإمكان سعياً إلى توفير الأخيرة والتحضير بشكل خاص لمفاجأة تقنيات المعارك الأوروبية، إن لظن هنا إنما يتمثل في إخفاء كلفة إمكانات غير العادية، وعدم اللجوء إلى استخلامها، وبالأحرى عدم مفاجاتهم باستخلامها، إلا عنفاً يكون علينا قتل قوات ضخمة (٢٧).

والواقع أن زحف القوات الفرنسية يتم دون مشكلات عظيمة مع المصريين باستثناء هجمات البدر، أما التهدة التي تمت في الإسكندرية فإنها لا تدوم طويلاً، وبما كان ذلك بسبب صحة الجهاد التي أطلقها العلماء (٢٨). ويجري إلزام الجنود بالمراماة الصارمة لانضباط الزحف (٢٩) وفي الليل، تتكاثر الاستنفارات التجريبية.

وفي مهنود، فإن أحد كبار رجال الدين هو الذي يستقبل الفرنسيين بأمارات الصداقة. على أن جندياً يلقى مصرعه. ويتم إلقاء القبض على الجناة، إلى جانب رجل الدين المشار إليه، ويجري إعلام أربعة أشخاص رمياً بالرصاص ويتم نزع سلاح المدينة.

وشهد

في الإسكندرية، كان هوناهارت قد قرر أن يعهد بالمعتك الثقيل للجيش (خاصة المعلقة) إلى دوجا الذي تولى قيادة فرقة كليهر. ويتعين عليه الزحف بمحاذاة الساحل على رشيد وصمود النيل من هناك. وهو يغادر الإسكندرية في ١٦ يوليو ويخيم في العراء مسلاً في أبو قير في اللحظة ذاتها التي يتمركز فيها الأسطول في الخليج. ويقدم له السكان الزوارق الضرورية لاجتياز الممر بين بحيرة للمعدة والبحر. وتبوء الساعات الأخيرة للزحف جد مرهقة ويموت عدة جنود من العطش والتعب. على أن الفرنسيين لا يصادفون أية مقاومة. بل إن عدداً من الفلاحين يرتدون للشارة الثلاثية الألوان.

وفي القرن الثامن عشر، كانت رشيد هي المدينة المصرية الأكثر انفتاحاً على

الأوروبيين في رأى الرحالة، ومن هناك شهرتها بأنها أنسب مكان في مصر. وكان تدفق اللاجئين من الإسكندرية قد أدى إلى إثارة نفور السكان. ويود عدد من التجار الكريستيين المسلمين حمل السلاح وذهب الأوروبيين للوجوديين. ويلقى خاتم فرنسي مصرعه على أيدي للعوام. لكن تلاوة بيان بوناپارت تساعد على تهدئة الخواطر وتقرر السلطات جعل رشيد مدينة مفتوحة. أما لولئك الذين يريدون المقاومة والصراع فإنهم يدخلون إلى اللخل(٢٠). ويبدو أن السكان يؤمنون على نحو خاص بجهنم للمالك ويخشون من وقوع أعمال انتقامية في حالة تقديم خدمة للفرقة(٢١).

ويصدر نوجا بياناً يهدف إلى دعوة الأعيان الذين فروا إلى العودة إلى المدينة. وهو يضع تحت الحراسة مختلف الخزائن العامة التي سوف تخضع لرقابة لجنة مؤلفة من التاجر الفرنسي فارسي وجان بلنكي، وهو تاجر يوناني على ما يبدو، وثلاثة أعيان مسلمين من بينهم السيد بدوي، نقيب الإشراف (٢٢). وبعد أن أراح القوات وحصل على تعزيزات، يواصل الرحيل في ٩ يوليو محالفاً النيل في اتجاه الرحمانية. ويصحبه أسطول صغير من الزوارق المسلحة للكلية بمساندة الجيش. وعندئذ يتولى مينو قيادة رشيد ودولحيها.

زحف الجيش

اعتباراً من ٦ يوليو تزحف بقية الجيش - فيما عدا حامية الإسكندرية - على دمنهور. ويغادر بوناپارت وأركان حربه للبناء في اليوم التالي ويتولون حشد القوات في دمنهور في يومي ٨ و ٩ يوليو. وكانت القوة الأمامية قد استنفدت احتياطات المياه المحلية إلى حد بعيد. وقعر الخزانات يبدو أكثر شحاً باللوحل مما بالسائل الثمين. كما أن أوجاع الجنود مبرحة. فهم يرتدون بزات عسكرية تتلام مع للناخات الأوروبية. وظناً منهم أن بوسعهم شن غارات سلب ونهب كما في إيطاليا، فإن كثيرين منهم قد تخلصوا من احتياطات المؤن الغذائية التي تكفي لأربعة أيام والتي كانت قد سلمت إليهم. وعندئذ يضطرب الجوع إلى العطش. وتتحول خيبة الأمل التي أصيبت بها في الإسكندرية إلى نفور تام من بلد الحرمانات هنا. وتتدخل القوات وتفتقر همتها. بل إن البعض سوف ينتحرون. ثم إن جنرالاً من سلاح الفرسان، هو ميريور، إذ يرى أن شرفه العسكري قد أهين بنقله من وحدة إلى أخرى، يبحث عن الموت طوعاً على أيدي العدو. ويتصور الجندي أن هذا المصير إنما يرجع إلى شكوى الجنرال إلى بوناپارت من معاناة القوات.

والواقع ان الفاتح لم يك امامه اى حل اخر غير الإسراع بالتحرك مع صون انضباط الجيش. وانطلاقاً من منهجه، تبدأ المناوشات الأولى مع المماليك، ولكن هؤلاء لا يصمدون أمام تلاحم القوات. وفي ١١ يوليو، تصل الوحدات الأمامية إلى ضفاف النيل وتتوزع بخوض النهر وبالتدقيق على حلول البطيخ. ويتم الالتقاء مع قوات لوجا التي صنعت النيل دون صعوبات. ويلقى الجيش الاتصال بقاعدته في المنصورة، الإسكندرية وأبو قير ورشيد. ويتصرف كجسم فريد تماماً في الطبيعة المصرية. وقد لجأ سولكويسكى وصف هذا الوضع،

«ربما كان من الجائز تشبيه مجهود الجيش بمجهود كتلة لا تقاوم تنبثق من جسم لندن مطاط، لكن هذا الجسم سرعان ما ينكمش بعد خروجها. ولم يك يعيننا إلا ما يوجد في مرمى أسلحتنا؛ وكان للجبال التالية مهابلاً بالعرب والمساكن. وكنا نجهل أيضاً وضع العدو، نجهل تلك المعلومات الضرورية التي لا يمكن دون توافرها تحديد أية حركة بإيمان كامل بالنجاح». (١٣)

المماليك والحرب

كان مراد بك قد تولى مسئولية التصدي لغزو الفرنسيين بينما حشد إبراهيم بك بقية القوات في بولاق، قرب القاهرة. والواقع ان المماليك لم يكونوا مهئين البتة لهذا النوع من المعارك. وهم يجهلون تماماً الانضباط الأوروبي. ثم إنهم، باستثناء حملات على بك وأبو الذهب السورية، لا يملكون أية معارسة قتالية في المعارك. والحرب، بالنسبة لهم، ليست غير إحدى أدوات سياسة قائمة على المكائد والنعاس. ويقدم قولنى وصفاً مهماً لذلك: «إن الفريق الأقوى أو الأكثر جسارة يطارد الآخر؛ فإذا كانا ندين في الشجاعة، فإنهما يتمهلان أو يتواعدان، وعندئذ، بدون مراعاة لمزايا الوضع، تتقارب القوات على شكل ركاب؛ وتختار كل قوة رجلها، ويبدأ الرمي، إن أمكن، ويجرى الانتقال بسرعة إلى الحسام؛ عندئذ يتجلى فن الفارس ومرونة الجواد. وإذا ما سقط الجواد، ضاع الفارس [...] وغالباً ما تحسم المعركة بمصرع رجلين أو ثلاثة رجال». (١٤)

أما جوزيف كنت، وهو مبشر ألماني عاش في القاهرة من عام ١٧٧٠ إلى عام ١٧٨٢، فإنه يقدم هذه للصورة الأعم: «ما زال في القاهرة الكبرى كتاب أخبار حرب يروون الأخبار الأكثر تهجماً عن معركة تالمة وبلا طائل بين الهكوات للمصريين، لا يموت فيها على الأرجح غير خمسة أو ستة رجال من عدة آلاف. وأنا على ثقة من أن للمره لو قرأ رواياتهم

بعد بضعة قرون لتصور أن مثل هذه المعارك كانت أعظم بكثير من أية معركة بين ملك بروسيا والنمساويين خلال حرب السنوات السبع^(٣٥).

على المستوى الفردي، يعتبر الفارس المملوكي أكثر تفوقاً من الفارس الفرنسي؛ فهو أكثر قوة وأفضل تسليحاً. وقبل أن يهجم، يستخدم ستة أسلحة، الخنجر، وطبقة وذو حدين من المسدسات، حيث يحمل الزوج الأول في قبض السرج والزوج الآخر على صدره. وخلال الهجوم، يعيد خاتم السلاح ضمن أسلحة سيده الذي يمكنه بذلك تكثيف الهجمات. على أن نابوليون يرى أن سلاح الفرسان الفرنسي الكبير العدد (أكثر من مائتي جواد) يعتبر أكثر تفوقاً من سلاح فرسان المماليك وذلك بسبب الانضباط الجماعي والمساندة التي يقدمها سلاح المشاة^(٣٦).

ومنذ على بك، تطور القبكات قوات من المرتزقة للهنود من أصول مختلفة، وذلك لتخفيف نقص المشاة المراجع إلى انحطاط القيمة العسكرية للوحدات العثمانية القديمة. وقد رأينا أنهم كانوا مدركين لضعف مدفعيتهم وقد بدأوا في علاج ذلك الضعف. وهم يتمتعون في المقابل بقوة بالغة على الحركة وهم متخصصون في حرب العصابات في مصر العليا. والواقع أن الفريق للملوكي الذي ينسحب إلى مصر العليا يستحيل عملياً القضاء عليه أو استحصال الإمساك به على الأقل. على أن مراد وإبراهيم سوف يتبعان، بسبب عدم الإثراك أو بسبب واجب المدافع عن جماعة المسلمين، نوع الحرب الذي يفرضه الفرنسيون. وسوف يبدوان عاجزين عن المزاوجة بين التطور الجديد لأسلحتهم (المدفعية، المشاة، الأسطول النهري) وسلوكهما التقليدي كفارسيين والذي سرعان ما سوف يعود إلى الصلابة.

شهوراً جهات

يقرر بوناپارت تحقيق الحشد الجديد لإمكاناته في الرحمانية عند مخرج طريق الصحراء. ويسمح له ذلك بإراحة رجاله. وفي ١٢ يوليو، يعلم أن مراد يقترب، وعندئذ يأمر قواته بالخروج. وفي ١٣ يوليو، تبدأ المعركة قرب شبراخيت، على الأرض وعلى النيل^(٣٧). وكان للمماليك قد نصبوا بطارية مدفعية تغطي النهر وتساند أسطولهم الحربي الصغير.

وعلى الأرض، يتسنى لبوناپارت استغلال مفاجاته الشهيرة، التشكيل الذي يأخذ شكل مربع. وكان النمساويون والروس قد طردوا هذا النوع من التشكيل في حروبهم ضد

العثمانيين في مستهل القرن الثامن عشر، لمواجهة سلاح الفرسان العثماني للماتل لسلاح فرسان المماليك. والجيش الفرنسي يعرف هذه للتورة لأنها مقررمة منذ عام ١٧٧٦، لكنه لم يمارسها قط من قبل (٢٨). وفي الابتكار العسكري الكبير للحملة؛ وسوف يجرى تعميمها خلال حروب القمصلية والإمبراطورية. وعلاوة على هجر الأشكال الكلاسيكية التي عرفها القرن الثامن عشر، فإن التشكيل الذي يأخذ شكل مربع إنما يرمز إلى ازدهار القيمة العسكرية لجنود الثورة بعد الأموام الأولى حيث كان المجلس يعوض انعدام الخبرة. ومن ثم تتخذ الفرق الخمس شكل مربعات أو بشكل ألق شكل متوازيات أضلاع يتم داخلها حماية معدات الفرق والقليل من سلاح الفرسان (١٠). وعلى الزوايا، يجرى توزيع قطع المدفعية. ويجرى توزيع القوات بشكل يسمح بتغطية إحداها للأخرى.

وبحكم جدة التشكيل بالنسبة للجندي الفرنسي، لقد كان يتوجب الأخذ بالخصائل والكتائب باليد واحدة إثر الأخرى لتوزيعها على المواقع التي يتعين عليها شغلها في التوزيع العام، (١١).

ويحيط المماليك بالمربعات بحثاً عن نقطة ضعيفة، ولا يجدون نقطة كهذه، ويبدو أنهم يدهشون لدقة تراشقات الجنود الذين يقتلون عدداً من المهاجمين. والواقع أن هذه الخسائر الطفيفة إنما تكفى، بحسب للنطق المملوكى، لوالف معركة تبدأ بنهاية سيئة. وعندما ينسحبون، يتركون بطارية المدفعية للفرنسيين، وهو ما سوف يسمح بتخليص الأسطول النهري من وضع صعب.

والواقع أن مراد وباباس لوغلو كانا قد وضعا زوارقهما ومدافعهما في منحني للنهر، وهو ما يسمح لهما بإخضاع الوادى لنيران متتابعة على امتداد فرسخ. ويطلق رجال المدفعية نيرانهم بدقة على الهدف ويلحقون خسائر جسيمة بالسفن الفرنسية التي يتولى قياداتها بيريه. وتخرج عدة سفن من المعركة النهرية وتتخذ أطقمها والجنود النازلون منها تشكيل مربعات على الضفة انتظاراً لحيء بقية الجيش لنهبتها، وهو ما يصبح ممكناً من جراء انسحاب المماليك. وهذا الحادث يثبت كفاءة بحرية مراد بك النهرية التي كانت أن تجهز بالكامل على بحرية الفرنسيين بالرغم من الخسائر الفاسحة التي لحقت بها. وفي الجانبين، فإن العدد الوثيسى من القتلى والجرحى إنما يجرى من المعركة النهرية. وبالنسبة للمستوليين الفرنسيين، فإن الشيء الأهم هو النهزان الماتل، إن توسع الجيش للصمود أمام هجمات سلاح الفرسان للملوكى.

سأمر الجيش

عندئذ يمكن استئناف الزحف. لكن الجنود، الذين يعانون من الحر، وتعوزهم المؤن وينتابهم السخط على الوجود في بلد يؤس جد مختلف عن إيطاليا اللرية، ينهزمون في نهب كل ما يجدونه في طريقهم. بل إنهم يفعلون ذلك لئلا يلقوا القائد العام. ويواجه، للكلف باستعادة النظام في فرقته، يجد أن جنوداته الأتوية يعلنون سخطهم على حال الجنود. ويعتمد الضيق إلى الكوارث الوسطى التي لا تفهم سبب وجودها في مصر. وسوف يتذكر ناهوليون ذلك في سانت - هيلين.

«كان الجيش مصاباً بمزاج سوادوى كثيف لم يك يوسع أى شئ قهره؛ وكان هناك للسام؛ وقد رمى عدة جنود بأنفسهم في النيل حتى يجدوا فيه موتاً عاجلاً. وعلى مدار الأيام، بعد أخذ المخيمات في العراء، كانت للضرورة الأولى للرجال هي السباحة. وعند خروجهم من النيل، كان الجنود يهبطون في الانشغال بالسياسة، وفي الإعراب عن سخطهم، وفي إبداء الأسف تجاه الحالة المزعجة للأمور. «لأجل أى شئ جئنا إلى هنا؟ إن حكومة الإنارة قد حكمت علينا بالنفى». وأحياناً ما كانوا يهبطون على قائدهم، الذي يخيم بشكل متواصل على ضفاف النيل، وللحروب من كل شئ شأنه شأن آخر جندي؛ فعشاء أركان الحرب يتألف غالباً من طبق من العدس. وكانوا يقولون «لقد أرادوا للتخلص منه؛ لكنه بدلاً من أن يقربنا إلى هنا، كانت تكفى منه إشارة واحدة حتى نطرد أعداءه من القصر كما طردنا الكليشييين من قبل» (٤٢).

والأوامر اليومية تذكر الجيش بأنه لم يأت إلى مصر لمحاربة المصريين، بل لمحاربة للماليك، وتجعل الضباط مسئولين عن مسلك جنودهم. لكن أعمال النهب، الراجعة أساساً إلى نقص المؤن، تستمر بالرغم من الأوامر التي تنهى عنها. وللمرة الأولى منذ الإنزال، يهرب السكان جماعات هند وصول الفرنسيين. وبما أن الفترة لفترة انخفاض للمياه، فإن الأسطول النهري يجد صعوبة في صعود النيل ويتخلف عن زحف الجيش. وهذا يزعم كثيراً القيادة الفرنسية التي تجد نفسها أمام استحالة إصدار الأمر للجنود بعبور النيل. وإذا حشد للماليك قواتهم على الضفة اليمنى (ضفة القاهرة)، فسوف يخطر الفرنسيون إلى العودة إلى الدلتا، لتعزيز مؤنهم قبل بدء الفيضان مباشرة. ومن ثم يهاجم بوناپارت بالزحف لئلا، للحصول على معلومات وإرهاب العدو وإرغامه على القتال (٤٣).

الفولسيون والجماليك

يؤدى خبر معركة شبراخيت وانسحاب مراد بك إلى إثارة الذعر فى القاهرة. وعندئذ يقرر الأمراء للماليك إقامة تحصينات على ضفتى النيل على مشارف للقاهرة. ويتولى إبراهيم بك للمستولية عن الضفة اليمنى بدءاً من مدينة بولاق، بينما يتولى مراد بك للمستولية عن الضفة اليسرى، مجاله التقليدى (كان قصره فى الجيزة)، بدءاً من أمبابة، وتجرى دعوة سكان الناحية إلى العمل من أجل إقامة هذه التحصينات. كما يطلب الأمراء من الأحلاف البدوية الكبرى حتى أحلاف مصر العليا. ويؤدى وصول البدو إلى إثارة رعب سكان عاصمة مصر. ويجرى إغلاق النكاكين والأسواق.

وينزعج الجميع من بيان بوناپارت: «من الناس من يقول هذا أمر سلطانى وأن الفرنج صحتهم بشوات من عند السلطان وغالب بلاد للريف والفلاحين يعتقد ذلك بسبب المكاتبه التى أرسلوها إلى البلاد» (٤٤).

وكلما ازداد الفرنسيون اقتراباً من المدينة، كلما تجلى لتقسام للماليك وعجزهم عن اتخاذ قرار. وبالنسبة للجبرتى، فإن الهوة محيقة بين سلوك كل من الخصمين، الفرنسيون يتحملون بالنظام والانضباط، وهما خاصيتان تقربهما من مجاهدى الإسلام الأوائل. أما الماليك فإنهم لا يستحقون بالمرة مثل هذه الصفة. لقد كانوا «منحليين العزائم متناظرين للقلوب، مختلفين الآراء، متحاسدين لبعضهم، محرصين على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم، مغمورين فى غفلتهم وغرورهم، مختالين فى زينتهم وكبرهم، خائفين من نقص عندهم، متبخرين فى حكمهم وحليهم، غير ملكرين فى عاقبة أمرهم، محتقرين لعبوهم، فاسدين العقل فى رؤيتهم ورأيهم، بخلاف الطائفة الأخرى الفرنسية، فإنهم بالعكس فى جميع ما ذكر كأنهم مقتلين لأثار الأمة فى صدر الإسلام، ويرون أنفسهم مجاهدين ولا يستكثرون عند عبوهم ولا يبالون بمن قتل منهم، ويرون أن من ولى منهم كفر ملته وخرج من بيته وطريقته، ينفلون لأمر أميرهم ويمثلون طاعة لكبيرهم، مظلة لحدهم شبقته التى على رأسه، ومركبه قدميه، وطعامه وشرابه بلغة وجرة معلقان تحت إبطه، ومتاعه وما يغيره من ملهوسه معلق خلف ظهره كالرسالة، فإذا نام اضطجع عليها كالعبد ولهم علامات وإشارات فيما بينهم يلفون عندها ولا يتعمنون حدها» (٤٥).

الأهرام

عندما يصل بوناهارت على مقربة من الموقع للملوكية، في ٢١ يوليو ١٧٩٨، يأمر جيشه باتخاذ تشكيل للريعات ويهتلي مع فرقة نرجا. وهو يهتلي خطبة لصبرة في الرجال المحيطين به، وهو يشير إلى الأهرام، «تقدموا، دخلوا في امتباركم أن لرعين قرنا تطل علينا من فوق هذه الآثار». وهذه الكلمات القصيرة سوف تستعد بشيء من التهويز من جانب كتّاب القرن التاسع عشر لتصبح العبارة الشهيرة: «إن لرعين قرنا ترقبكم من درى هذه الأهرامات» (١٦). ويهاجم المملوك القوات الفرنسية، لكن هجماتهم لتعظم تحت وابل من ديران مدفعية ومشاة الغزاة للتلاقية. وفي تلك الأثناء، تفتاح فرقتا بون ومينو تمصينات مراد بك وتشنان هجوما مضادا على القوات للملوكية ويتبعثر شمل هذه القوات الأخيرة وتلقى بنفسها في النيل بما يؤدي إلى خرق الكثيرين. وفي ختام هذه المعركة القصيرة، التي لا تدوم أكثر من ساعتين، يجمع مراد مملوكه للرئيسيين وينسحب إلى مصر العليا.

وهذه المعركة، التي دلت في لمباة، سوف تسمى، لاعتبارات الفخر والهيبة، بـ «معركة الأهرام». والحق أن بالإمكان رؤية الأهرام على بعد مسافة معينة. وسوف يتفاخر بوناهارت أمام حكومة الإنارة بأنه قد دمر الجانب الرئيسى من للملك، «إننى لقد خسائر للملك يهتلي رجل من صفوف الفرسان. إن جزءا كبيرا من البكوات قد جرحوا أو قتلوا» (١٧). والواقع أن خسائر للملك بالمعنى الحقيقي للمصطلح ناهية، فالجانب الرئيسى من القتلى يتألف من للمشاة وخدم الصلاح. ويذكر الجبرلى «لم يمت فى هذه الواقعة إلا أيوب بك الدفتردار، وإبراهيم بك الوالى الذى بنفسه ولزمه إلى البحر لفرق ومات وثلاثة كشاف ونحو العشرين مملوك وأسروا منهم جماعة» (١٨).

والأرجح أن الخسائر كانت أكثر من تلك بكثير، وهو ما لا يذكره المؤرخ المصرى، لكن اتساع المقاومة للملوكية اللاحقة يشير بوضوح إلى أن الجانب الرئيسى من قوات للملك للقتلة يظل سليما. والمملك، مرة أخرى، لوفياء لعائلاتهم الحربية؛ فإذا كان عدد القتلى فى صفوفهم يأخذ فى أن يصبح مهما، فإنهم يتسحبون، حتى لو ترتب على ذلك هجر عاصمة مصر.

وفى مثل هذه الظروف، يحمل للملك معهم الحد الأقصى من الذهب والمجوهرات،

لهم يتركون بقية ممتلكاتهم في القاهرة. كما أن الجنود الفرنسيين ينقضون على جثث المماليك القتلى في المعركة، ويستولون على ثروات حقيقية.

وعلى الضفة الأخرى للنيل، يرى إبراهيم هزيمة مراد. وعلى الرغم من أنه في وضع قوة على النوام، لأن الفرنسيين لا يحوزون إمكانات عبور النهر، فإنه يفضل الهرب إلى السلا مع ممتلكاته والوالى العثماني، تاركاً القاهرة بلا أية سلطة شرعية.

وكان السكان قد تابعوا المعارك من بولاق. وقد تكثر أفراد الطرق الصوفية جد العديد من صيحات التوصل إلى الله. ويشير الجبرتي إلى فشلها التام. وبعد انتصار بوناپارت على الضفة اليسرى، فإنه يأمر بالقصف الضفة اليمنى. وعندئذ يردد السكان إلى القاهرة.

وسرعان ما ينتشر الذعر هناك. وما تكثر الأعيان والسكان للميسورين الذين يسعون إلى الهرب دون أن يعرفوا ما إذا كان الأفضل هو التوجه إلى الجنوب ثم التوجه إلى الشمال. وما أن يبتعدوا قليلاً عن المدينة، حتى يجرى سلبهم من كل ما معهم، من الأشياء الثمينة إلى جميع ثيابهم، على أيدي البدو، المستفيدين الرثيسيين، هم والجنود الفرنسيون، من هذه المعركة.

استسلام القاهرة

في المدينة نفسها ينهك السكان - الغاضبون من تخلي السلطات الشرعية عنهم - في نهب دور وقصور المماليك. ويتزايد الرعب بقدر ما أن أسطول مراد بك النهري يأخذ في الاحتراق وتؤدي السنة القلبي والانفجارات إلى تصور أن الفرنسيين يزحفون في الليل وهم يحرقون ويحرقون كل شيء.

وفي صباح اليوم التالي، يجتمع العلماء في جامع - جامعة الأزهر. وهم يمثلون ما بقي من السلطة الشرعية. وكان بعضهم قد حاول الهرب من المدينة لكنهم تراجعوا عن ذلك خوفاً من القدر. وتمكن بعضهم الآخر من اللحاق بإبراهيم بك. وتلك هي حالة عمر مكرم، نقيب أشراف القاهرة.

ويذكر الجبرتي أنه جرى اتخاذ قرار بإرسال تاجر مغربي يتحدث بالفرنسية إلى الغزاة، سعياً إلى دخول سلمى من جانب الفرنسيين. أما نقولا الترك، فهو يذكر أن تجاراً

فرنسيين هم الذين اختيروا لهذه المهمة. ويبقى أن بوناپارت يرد بأنه يريد لقاء وفد من العلماء وأنه سيعهد بجزء ملحوظ من الإلمنة إلى هذه الجماعة الاجتماعية من خلال ديوان. ويوجه بوناپارت إلى الوفد الذي وصل مؤخرًا بيانًا يشكك استمرارًا لسياسته: «ها أهل القاهرة، إثنى راض عن مسلككم. لقد احسنتم عملًا بالامتناع عن الوقوف ضدى. لقد جئت للقضاء على جنس المملوك ولحماية التجارة وأهل البلد».

«الليطمئن كل من انتابه الفزع؛ وليرجع كل من رحلوا إلى بيوتهم؛ وليهرأ أبناء الصلاة اليوم كالمعتلدة، أناأ أود أن تستمر على الدوام. لا تخافوا من شىء على عائلانكم ويهولكم وممتلكاتكم، وخاصة على بين النوى الذى أحبه. وبما أن من اللجأ الأ يعكر الطمانينة شىء، فسوف يكون هناك ديوان من سبعة أشخاص سوف يجتمعون فى الجامع الأزهر. وسوف يوجد منهم هناك بشكل دائم اثنان إلى جانب قائد الموالج، وسوف يهتم أربعة بحفظ للسكينة العامة والسهر على الأمن» (١٩).

وهذا الضمان اللقديم إلى السكان يطمئن أهل القاهرة ويعود الهدوء تدريجيًا. كما ينجح بوناپارت فى الحصول من الأعيان على القوارب الضرورية لنقل وحدة كانية من الجنود إلى الضفة الأخرى. ومنذ مساء ٢٢ يوليو، تدخل القوات الفرنسية إلى القاهرة، وفى ٢٣ يوليو، يكتمل احتلال المدينة.

القاهرة

بولهارت في القاهرة

إثر العصر العثماني - بعيداً عن أن يكون عهد انحطاط - قد عرف نمواً حضرياً وديموغرافياً قوياً للقاهرة بما جعل من هذا التجمع مركزاً حضرياً لهو متناسب مع المدن المصرية الأخرى نظراً لما هو عليه من ضخامة. إذ يبدو أن المدينة قد انتقلت من نحو مائة وخمسين ألف نسمة في أوائل القرن السادس عشر إلى مائتين وستين ألف نسمة في أواخر القرن الثامن عشر. وهذا التطور يرجع إلى السوق العثمانية الواحدة المضمخة إثر الفتح. وعلاوة على لرسنقراطية للمالك وكبار العلماء السائنة، تضم المدينة بورجوازية مهمة من التجار والحرفيين. على أن الأزمة السياسية والاقتصادية في أواخر القرن قد عرقلت بالتأكيد نمو عدد البشر، وعززت وجود بروليتاريا مهمة تتألف من ستين ألف شخص، بما يشكل طبقة خطيرة؛ حقلية في نظر الأرثوذكسية الدينية، لأنها غالباً ذات دين محل شك وسريعة إلى المشاركة في التمردات. والأعيان ينزعجون دائماً من أعمال هذه الجماعة السكانية (الجميحية، أو بعبارة الناس)، حتى عندما ينجحون في نهاية الأمر في تسريح حركاتها، بفضل الطرق الصوفية (٥٠).

ويقيم بولهارت في البداية في الجيزة، في سكن مراد بك السابق. وهو ينشغل بإعادة نشر الجيش في اتجاه الوجهتين اللتين اتخذهما إبراهيم ومراد. ويتخذ بيزيه موقفاً في جنوب الجيزة للتصدي لغزو هجومية محتملة من جانب مراد. ومنذ ٢٤ يوليو، وسعيًا إلى حل المسألة المالية، يشكل القائد العام لجنة، مؤلفة من مونج وماجاللون وبيرتوليه، مكلفة بالسيطرة على جميع المولد الضريبية ووضع الاختتام على كافة ممتلكات المالك، التي يجري اعتبارها ممتلكات عامة، شأنها في ذلك شأن ممتلكات المنفيين السياسيين الفرنسيين (٥١).

ويجري إرسال بوجين بوأرنيه من جانب صهره إلى الصت نفيسة، لطمانتها، هي وجميع نسله للمالك. وتقدم إليه مائة جميلة، شكرًا له.

ويتم تعيين قائد اللواء لويوى قائدًا لمدينة القاهرة. وبهذه المناسبة تجرى ترقية إلى رتبة جنرال لواء (٥٢).

والى اليوم نفسه، يدخل بوناپارت إلى القاهرة ويقوم فى قصر محمد بك الألفى فى
سلعة الأنكية، حتى الأعيان والأمراء للمالك بهركه المتصلة بالنيل خلال الفيضان
ويحلقه الواسعة. وكان القصر قد تم الانتهاء من بنائه للتو ولم يك مأهولا بعد.

ويكتب القائد العلم تقريره إلى حكومة الإنارة حول زحفه للظافر على القاهرة.
ويمجد ثروات مصر للمكتة بالرغم من فقر السكان الرهيب ويشير إلى ضرورة استثمار
وشهد. ويهتم بسفر نابليون إلى القسطنطينية، ويرى أن وجوده لدى الباب العالي ضرورى
للحيلولة نون دخول إلى الحرب من جانب الإمبراطورية العثمانية.

على أن بوناپارت يمر فى القلعة بأزمة فتور همة معينة. فالحملة - على أية حال -
كلت أصعب مما تصور والجهش كاد يشهد فى موات عديدة قدراً سيئاً. وكان على
بوناپارت أن يحافظ على رباطه جاشه وسط فتور الهمم العام وأن يكثف المغامرات
المسورة. لكنه، وسط كل هذه المحن، يسمع من جانب وفاته شائعات عن خيانة زوجته له.
وهو يصف لأخيه جوزيف، فى رسالة سوف تسقط فى أيدي الإنجليز، شعوره للتزايد
بالنفور من الناس وحاجته إلى الوحدة: «حاول أن توفر لى منتجاً ريفياً حال وصولى، إما
قرب باريس، أو فى بوجونيا؛ فأنا أريد الضياء القشنة هناك والخلو إلى نفسى؛ إننى متبرم
من طبايع البشر. وأنا بحاجة إلى الوحدة والعزلة؛ والأمجاد تصيبنى بالضجر؛ ويذابيح
الحماس تجف. والمجد بلا مطلق فى التاسعة والعشرين؛ لقد استنفدت كل شىء، ولم يعد
لعمى غير أن أصبح متوحداً حقاً. إننى أريد حماية بيتى؛ فلن أضع أبداً لاي كان ولم أعد
أملك ما يبقينى على ظهر الدنيا» (٥٤).

السياسة الإسلامية

لكن هذه الانهزامية لا يجب أن تتكشف أمام حاشيته. وعليه بادئ ذى بدء أن يعيد
النظام إلى القاهرة نفسها وأن يطبق خطة سياسته الإسلامية (٥٥) للديكتة من تأملاته
ومناقشات مع المستشرقين.

وكان فولنى قد تنبأ منذ عام ١٧٨٨ بأنه «الإقامة فى مصر لابد من تحمل ثلاث
حروب: الأولى ضد إنجلترا، والثانية ضد الباب العالي، لكن الثالثة، والأصعب مما عداها،
هى الحرب ضد المسلمين، الذين يشكلون سكان هذا البلد. وسوف تتسبب هذه الحرب
الأخيرة فى كثير من الخصائر، الأمر الذى قد يجعل من للحتم اعتبارها عقبة يستحيل
التغلب عليها».

والد أمعن بوناهاارت النظر فى هذه التحليلات، ويحاول، بمساعدة مستشاريه المستشرقين، دمج الخطاب الثورى الفرنسى بالمرطانة السياسية الإسلامية المصرية. وفى التو والحال، يصطدم بعداوة السكان العميقة: «لقد كانت نهضة فولنى بسبيلها إلى التحقق؛ فإما الرحيل أو التوافق مع الأفكار الدينية، الإللات من لعنات النبى، عدم السماح للفتات بالاندراج فى صفوف أعداء الإسلام؛ وكان لابد من اقناع وكسب رجال الإفتاء والعلماء والأشراف والأئمة، حتى يتولوا تفسير القرن بما يناسب الجيش».

وكما قال أحمد باشا الجزار للباب العالى، قبل إحدى عشرة سنة، فإن عماد السلطة إنما يكمن فى كبار العلماء ومشايع الأزهر، وهو مؤسسة يسميها بوناهاارت بـ «سوريون الشرق». فهم الذين يصوغون رأى العام. ومن ثم فإن عليه ربط السلطة الفرنسية ربطاً وثيقاً برجال الدين هؤلاء. فسوف تجد الأمة للعظمى فيهم الوسطاء الضروريين لمد مجال الحكومات النيابية إلى الشرق (٥٦).

ويجرى تشكيل ديوان مؤلف من علماء وكبار موظفين، ويصدر الأمر بتاريخ ٢٥ يوليوز

«بوناهاارت، عضو المعهد الوطنى، القائد العام، قرر»

١ - تحكم القاهرة من جانب ديوان مؤلف من تسعة أشخاص.

٢ - يجتمع للشيوخ السادات والشرقاوى والمصارى والبكرى والفيومى والعريشى وموسى السرسى ونقيب الأشراف السيد عمر (مكرم) ومحمد الأمير هذا المساء، فى الساعة الخامسة فى دار كيايا الشوييد (٢). ويشكلون الديوان.

«يتولون تعيين واحد منهم رئيساً، واتخاذ أمين من خارج صفوفهم، وأمينين مترجمين يعرفان الفرنسية والعربية.

«يتولون تعيين لجنة من ثلاثة أشخاص لمراقبة الأسواق وتزويد المدينة بالمؤن. ويعينون لجنة مكلفة بدان جميع المؤتى الذين يموتون فى القاهرة على بعد نحو فرسخين.

٣ - يجتمع الديوان كل يوم ظهراً ويوجد فيه بشكل دائم ثلاثة أعضاء بلا انقطاع.

٤ - يوجد عند باب الديوان حرس فرنسى وحرس تركى.

٥ - يوجد الجنرال بيرتييه وقائد للواقع هذا المساء، فى الساعة الخامسة، فى

الديوان، لإقامته وأخذ اليمين من أعضائه بعدم فعل شى يتعارض مع مصالح الجيش» (٥٧).

ويطلب الفرنسيون ألا يوجد أى مملوك (جنس مملوك) بين كبار الموظفين؛ لكن رجال الدين يردون بأن للملك وحدهم هم الذين يمكنهم توفير الاحترام من جانب سكان القاهرة. وفى المقابل، يطلب المحتلون اشتراك موظفين عثمانيين باقين فى القاهرة، مصطفى بك كَتَّخْنا الباشا (المعتمد، نائب الباشا) والقسى للعسكر (رئيس الهيراركية القضائية). ويتمشى ذلك مع رغبة بوناپارت فى التوصل إلى ترضية مع الباب العالى. ومن جهة أخرى فإنه يكتب عدة مرات إلى الباشا سعياً إلى حثه على العودة إلى القاهرة. (٥٨)

إنشاء إطارة جطيطة

ويستمر نهب منازل المالكين، بالرغم من الأختام التى وضعها الفرنسيون عليها. ويشارك الجنود الفرنسيون بنشاط فى هذا الفعل، فاتحين للطريق على رعايته أمام اللصوص المصريين. ويتغلب الديوان عن أية مسئولية فى مجال حفظ النظام العام الذى يختص به الحكام وحدهم. عندئذ يعين الفاتحون مغامراً، هو بارثيليمى سيرا، وهو يونانى من شير (٥٩)، وملقى سابق فى خدمة الألفى بك، رئيساً (كَتَّخْنا) للمعتطفان، قوة للحياة للكلفة باستعادة الهدوء. ويعيد سيرا تنظيم وحدته ويقمع الفتن قمعا لا يرحم، مما يثير عظيم سخط سكان القاهرة الذين يرون مسيحياً (من الشرق) يحتل مثل هذا المنصب (٦٠). وسرعان ما يرجع السلم إلى عاصمة مصر.

هكذا ينظر الجبروتى إلى إعادة تشكيل القوات المحلية للكلفة بحفظ النظام. والواقع أن الفرنسيين قد شكلوا خمس سرايا من رجال الشرطة منبهة من الليلهيات العثمانية السابقة. وقائدها، أغا الشرطة، يتبع بشكل وثيق قائد الموقع، الجنرال ديهوى. (٦١)

وفى البداية كان نور الديوان استشاريا وكان يلعب دور وسيط مع السكان المصريين (٦٢). وأعماله الأولى تتمثل فى استصدار تصاريح مرور تسمح للأعيان بالعودة إلى القاهرة (٦٣).

ومنذ ٢٧ يوليو، يمد بوناپارت إلى مجمل الأراضى المفتوحة نموذج التنظيم الإدارى المطبق فى القاهرة، ديوان لكل مديرية، أغا إنكشارية مسئول عن الأمن، أمين مسئول عن الضرائب وإيرادات ممتلكات المالكين، وكيل فرنسى يشرف على عمله (٦٤).

وفى ٢٨ يوليو، يجرى تطبيق نظام القاهرة فى الضواحي للجواردة، حيث تصبح

بولاى ومصر العتيلة البثرتين التاسعة والعاشره بحسب الترتيب من بواشر القاهرة. وتحصل كل ضاحية من الضاحيتين على تنظيم الشرطة ذاته وتنظيم العاصمة. وفى ٣٠ يوليو، يتم تعيين القبطى جرجس الجوهري اميناً عاماً لمجمل مصر بملك سلطة على أمناء المديرية. والحال أن جميع الموظفين للبلديات، بمن فى ذلك موظفى التزامات الممالك، يجرى الإبقاء عليهم فى مناصبهم. وفى ٢١ يوليو، يتم إقرار جميع للممتلكات، ما عدا ممتلكات الممالك. ويتعين على السكان تسليم أسلحتهم. وفى أول أغسطس، يجرى فرض ضرائب باهظة على نساء للممالك حتى يتسنى لهن الحفاظ بشكل شرمى على ممتلكات أزواجهن. ويتعين على القست نفيسة وحدها أن تدفع خمسمائة ألف جنيه. وأمام فداحة هذه الضريبة، تتصور أن بوارنيه للشباب قد خدمها (٦٥). وهى تبرز سخطها بالتخلى عن ساعة مشقولة بالماس كان ماجاللون قد ألحها إليها منذ عهد قريب باسم الحكومة الجمهورية اعترافاً بالامتدان لمساعدتها الحميدة (٦٦). على أن يهرتبه، بذاءً على طلب ماجاللون، قدم إليها اماناً عاماً لها ولجميع أهل بيتها (٦٧).

وتبدو العلاقات الأولى بين الجنود والسكان طيبة. وصحيح أنهم يجدون متعة فى المحاكاة الساخرة للشعائر الإسلامية بتقليد شعائر الصلاة فى ثكناتهم (٦٨)، لكن ذلك يحدث بون أن يلحظه السكان. وينشأ نشاط تجارى حقيقى حولهم. فالمسلمون يلتفتون محال للمأكولات والمشروبات؛ وبما أن الفرنسيين يشترون كل شىء بأعلى من سعره الجارى، فإن حالات الغش تتزايد من حيث النوعيات والكميات. ويتخصص المسيحيون فى الخضارات، وتشير للوائد والكراسى والأسعار المعلن عنها إلى إدخال أسلوب الحياة الأوروبية (٦٩).

وسعى إلى تدبير إمكانات مالية بسرعة، يجرى فرض ضريبة باهظة على تجار للدن الرئيسية. وتتكاثر لجان جرد للممتلكات العامة. ويلعب ماجاللون دور مستشار مالى ويهين المصادر الرئيسية لإيرادات مصر. (٧٠) وعلى المستوى العسكرى، يجرى إنشاء مستشفيات فى القاهرة. وسعى إلى تأمين ركوب الفرسان، تجرى مصادرة جميع الجياد المتوافرة. ويتم تكوين مجلس للكساء، فالقائد العام يميل إلى تغيير للزى للرسمى الفرنسى بقربه من اللبس الشرقى. لكن الضباط يعاونون ذلك ويتقرو الإبقاء على الأزياء الأوروبية (٧١).

ويتخذ بوناپارت تدابير وقائية للتصدى لتمرد محتمل. ويتم تأسيس نظام للاستنفار، يسمح للقوات أن تتخذ مواقع لها فى المدينة بأسرع ما يمكن. ويتم الإصعاك

بزماء العاصمة، بفضل لحظة نؤوية، من جانب مالا يزيد عن اللين من الرجال. ومن جديد تصبح قلعة القاهرة مولعا حصينا تحرسه المنفعة في جانب منه. ويصدر الأمر بتنمير جميع البوابات التي من شأنها إغلاق الدروب وقطع اللواصلات. ويتعين على السكان تسليم جميع أسلحتهم؛ ويجازف المخالفون لهذا الأمر بالتعرض لعقوبات بدنية (ماتة جلدة) ولغرامات فاسحة، ولذا كانت للخلفة لتتعلق بحيازة مدافع أو احتياطات من البارود، فإن للمخالفين يجازفون بالتعرض للإعدام. وهذان الإجراطن سوف يكونان باعثين على ضيق شديد، فهما يطالان على نحو مباشر التمثيلات الذهنية للأفراد وللجماعات، فالرجل الأمز يكف من أن يكون رجلا كاملا ويجرى النظر بوجه خاص إلى فتح الأحياء بوصفه انتهاكا حقيقيا لتضامات الجماعات. (٧٢)

ويروق لبوناپارت أن يكون للمستبد الشرقي الجموح ولكن العايل. وهو يكتب من تلك إلى مينو، في ٢١ يوليو: «إن الأتراك لا يحسنون التصرف إلا عبر أكبر قدر من القسوة؛ إننى أصدر الأمر كل يوم بقطع خمس أو ست رؤوس في شوارع القاهرة. وكان قد تعين علينا حتى البارحة أن نرأس جانبهم سعيا إلى تهديد سمعة الإرهاب تلك التي سبقتها، أما اليوم، خلافا لذلك، فلا مفر من استخدام اللغة لللائمة حتى ينصاع هؤلاء الناس والانصياع، بالنسبة لهم، مستحيل دون الخوف» (٧٣).

الأثر الفعلي للبيان

لكنه كان على حق تماما في تصور أن المسلمين يكونون له عدوة عميقة. ولم يك لبهان بوناپارت أن يكون مؤثرا إلا بقدر تمكنه من إقناع عدد كبير من المصريين بأن الفرنسيين قد تحركوا بالاتفاق مع الباب العالي لتحريرهم من المماليك أو بتعبير أكثر تمهيدا مع لغة الزمان، لمعاقبة هؤلاء الأخيرين على اللظالم التي اقترافوها في حق السكان.

لكن أحدا لم يك من الممكن أن يتخدد بالمظهر الإسلامى لنعاية الفرنسيين. فالمرج بين اللغة الثورية الأيدوية التي تسخر مفاهيم لم يك لها بعد معنى في الشرق وللصطلحات الإسلامية لغة السياسية العثمانية إنما يمثل مظهر شذوذ كامل في نظر النخبة المصرية. ويقدم لنا الجبرتي، في تاريخ مدة الفرنسيين بمصر، شرحا حقيقيا لنص بيان بوناپارت إلى الشعب المصري بعد تفنيدها تماما له.





١٨ - شيخ من القاهرة (إلى اليسار)، ترجمان مراد بك (إلى اليمين) -





٢٠ - بوناپارت يمنح سيفاً للقائد العسكري للإسكندرية.



٢١ - (أ) عرب بلدية رشيد.

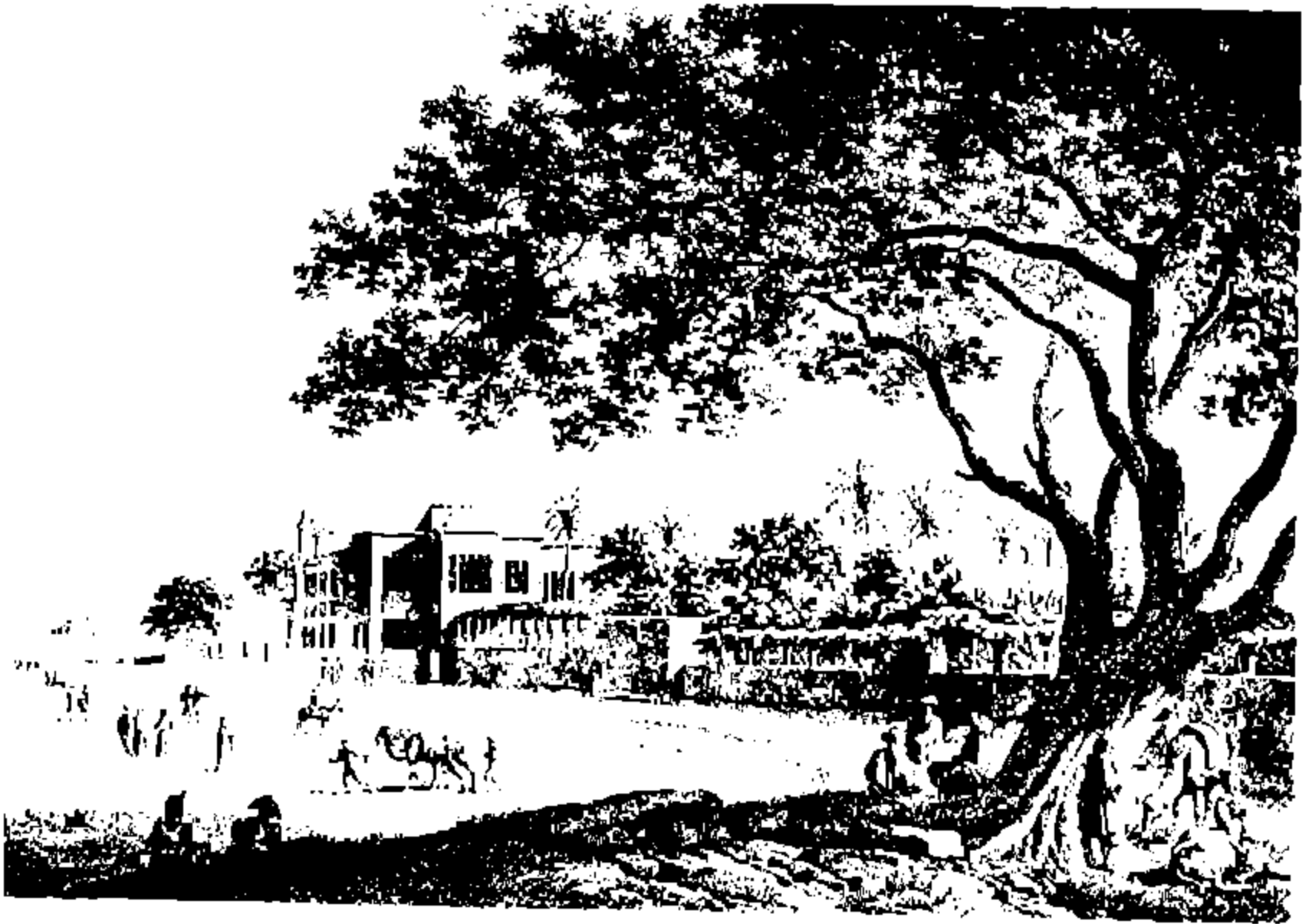


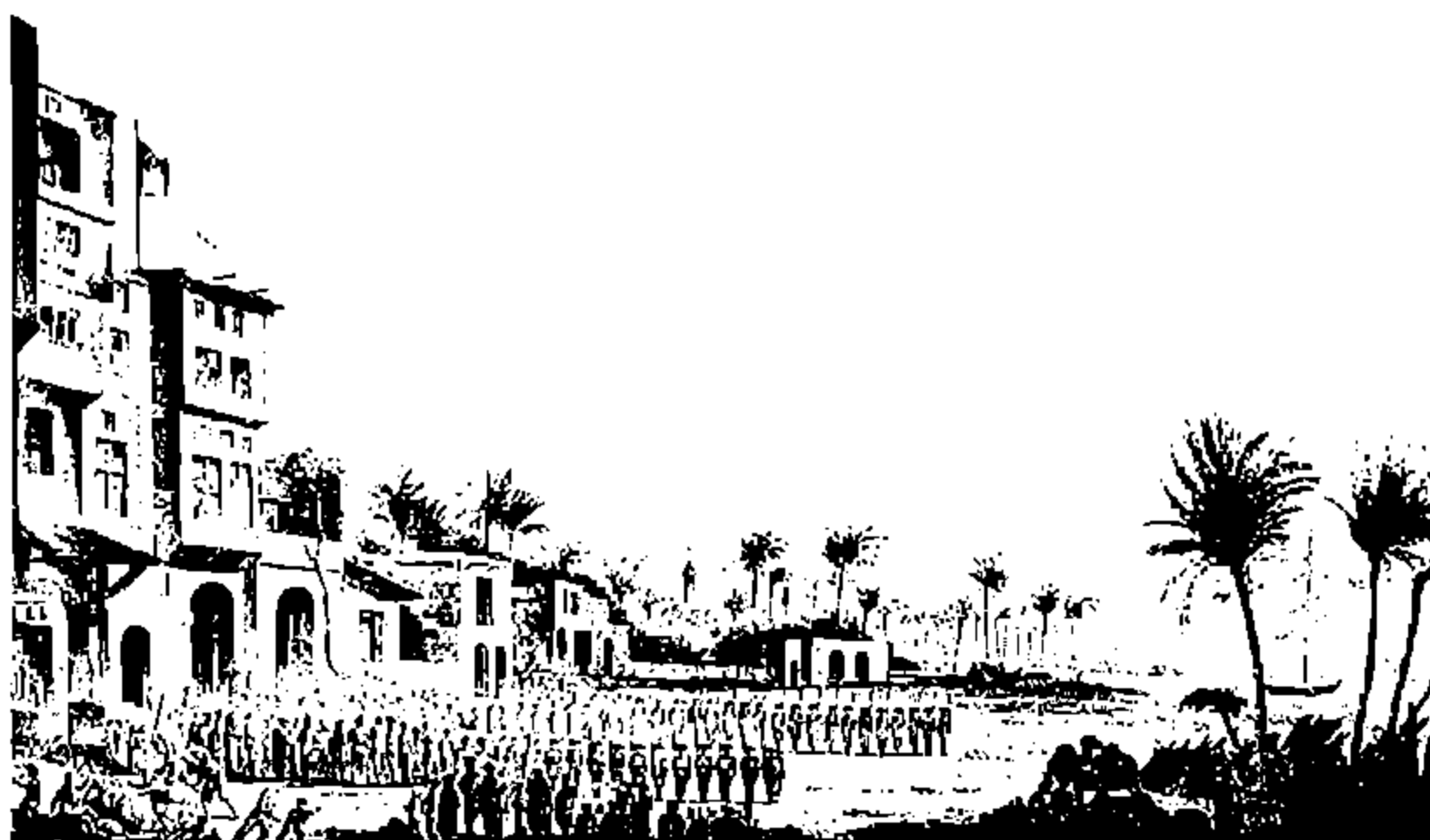
1871. *Members du Gouvernement d'Alexandrie*

"*Le Tour*"

"*Le Tour*"

(ب) عضوان بحكومة الإسكندرية (إلى اليسار)، رأس عربي (في الوسط)، الشريف كريم، حاكم الإسكندرية (إلى اليمين).





إنه يشير غير مرة إلى الأخطاء النصوية والأسلوبية. وجانب (البيان) المعادى للكالوليكية، بدلاً من أن يخضع للمسلمين كما يظن كاتبه، يصممهم على الضد من ذلك صدمة عميقة، «قوله» «بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك في ملكه»، في ذكر هذه الجمل الثلاث إشارة إلى أنهم موافقون للعمل الثلاث ومخالفون لهم بل وجميع الملل، موافقون للمسلمين في ذكر للتسمية ونفى الولد والشريك ومخالفون لهم في عدم الإتيان بالشهادتين وجحد الرسالة ورفض الأقوال والأفعال الشرعية المعلومة من الدين بالضرورة وموافقون للنصارى في تحالب أقوالهم وأفعالهم ومخالفون لهم في القول بالتثليث وجحد الرسالة أيضاً ورفض دياناتهم وقتل القسوس وهدم الكنائس».

والحادثة الجمهورية لا تستثير في حد ذاتها موقفاً سلبياً:

«وقولهم «من طرف الجمهور» إلخ، أي هذه الرسالة مرسلّة من جهة جمهورهم أي جمعيتهم لأنهم ليس لهم كبير ولا سلطان تجتمع كلمتهم عليه كغيرهم ويختص بالخطاب عنهم فإنهم لما خرجوا على سلطانهم من مدة ست سنّوات وقتلوه وأجمع رأى الجمهور منهم على عدم الانفراد بل يكون أمر دولتهم وممالكهم وتديبر أمورهم لأصحاب الرأى والعقل فيهم ورتبوا أشخاصاً اختاروهم وجعلوهم رؤساء للعساكر وبوّنهم قواداً وأمراء لوف ومثّنين وعشرلوات وأصحاب تنبير ومشورة بشرط المساواة وعدم الترفع على بعضهم نظراً للمساواة في أصل الخلقة والطبقة وجعلوا ذلك قاعدة وأساساً لطريقتهم، فهذا معنى قولهم «المبنى على أساس الحرية والتسوية». فقولهم الحرية أي ليسوا أرقاء كالممالك والتسوية للمعنى السابق [...] وعلى هذا القانون سلّكوا فالكبير والصغير والجليل والحقير والذكر والأنثى متساويان. وبما ارتكبوا خلال ذلك في بعض الأحيان بحسب شهواتهم وميل نفوسهم وتحكيم عقولهم».

أما موقف نسائهم فهو في المقابل موقف صادم تماماً: «نساءهم لا يستترون ولا يحتشمون ولا يبالون بكشف العورات [...]». قوله: «بونابارته» هذا لقب صارى عسكري وليس بلسم ومعناه المجلس الطيب لأن بونا معناه الطيب وبارته المجلس. [...] قوله: «يتعاملوا... بالذل والاحتقار» (في حق الملة الفرنسية - المترجم)... هم لحق بتلك للعامة [...]».

لكن الأمر كله، في الواقع، كذب ورياء، «قوله» «فأما رب العالمين»، كلام مستأنف، «القادر على كل شيء»، ومن قدرته الباهرة وأبائه الظاهرة جلب هؤلاء الشياطين إلى مراتع

للملوك والصلاطين ودجور الكفرة عليهم والطمع نابهم ونواصيهم. وقوله: «قد حتم، إلخ، هذا تحكم على الغيب وما بعد الكفر عيب». [...] قوله: «والولوا للمفترين»، جمع مفترى وهو الكاذب، وما أحلهم بهذا الوصف ومصداق ذلك قوله: «إننى ما قنعت إليكم إلا لكيما أخلص حقكم من يد الظالمين». هذه أول كذبة ابتدعها وحرية ابتكرها، ثم ترقى إلى ما هو أعظم من ذلك رماه الله فى الهالك بقوله: «وإننى أكثر من للملك لعبد الله، إلخ، لا شك أن هذا خبل فى العقل وغلو فى الجهل، أى عبادة فضلا عن كثرتها مع كفر خطى على فؤاده وحجبه عن الوصول إلى طريق رشده». [...].

«قوله: «وأحترم نبيه»، معطوف على ما قبله عطف الكذب على الكذب، لأنه لو أحترمه وأمن به صدقه واحترم أمته.

«قوله: «والقرآن العظيم» [...]، هذا كذب أيضاً، فإن احترام القرآن تعظيمه وتعظيمه بالتصديق بما فيه وهو من آيات النبى الدالة على صدقه وأنه نبي آخر الزمان وأن أمته أشرف الأمم، وهؤلاء لجميع ذلك ظنون ولها عتوه كالتبوء وكأين من آية فى السموات والأرض يبرون عليها وهم منها معرضون. قوله: «متسلون عند الله تعالى»، هذا كذب وجهل وحمالة، كيف وقد فضل الله بعضهم على بعض وشهد بذلك أهل السموات والأرض. [...] قوله: «الحجة التى كتبها لهم الله»، هذا من الجهل والكفر بمكان، فإن الله لا يملك الناس شيئاً بحجة يكتبها لهم. شايته أن القوم يتنزلون البلاد عن إسمائهم كهؤلاء لو عن أعقابهم لو بالظبية والقهر. [...]».

والواقع أنه يبدو أيضاً أنه كانت هناك خيبة أمل من جانب العلماء تجاه وعود الفرنسيين الزائفة، «قوله: «أبى للمناصب السامية»، أبى المرتفعة، فيه احتراز عن نفع اللوم عنهم بتقليدهم مناصب الأحكام الجلييلة للأسافل والرعاع منهم كجعلهم برطلمان الطبهى كتحذا مستحفظان. قوله: «وبذلك يصلح»، نعم بتدهير العللا والفضلا والعلماء يصلح حال الأمة، ولكنهم لم يفعلوا ذلك [...]».

وتتكشف طبيعة الفرنسيين الحقيقية: «إن إسلامهم نصب. قوله: «وخرّبوا فيها كرمسى البابا»، بهذه الفعلة خالفوا النصرارى كما سبقت الإشارة إليه، فهؤلاء القوم خالفوا النصرارى والمسلمين ولم يتمسكوا من الألبان بدين، فتراهم بخرية معطلون والمعاد والحشر منكرون وللنبوة والرسالة جاحدون ويقولون بقسم العالم وتأثير العلوية والحوادث للكونية بالحركات الدورية وظهور الليل وانتقال الدول بموجب طبع للقرانات وامتزاج

المناظرات، وربما امتنعوا تناسخ الأرواح إلى غيرها من الأشباح، لذلك لا ينبغي حيواناً ياكلوه ولا يقطعون رأس التيل حتى يقطعوه لئلا يتفرق أجزاء روحه ويتناثر فلا يلتئم في جسم آخر ومثل ذلك من الخيالات وأنواع الضلالات. [...].

«عجل الله لهم الويال والنكال وأخوس منهم عضو اللقال ولفق جمعهم وشئت شملهم والعد رايهم واخذ انفسهم إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير».

والحال أن الثوار الفرنسيين، بدلا من أن يظهروا في أعين العلماء في صورة مبتكرين لعلم جديد، إنما يجرى النظر إليهم بوصفهم اتباعا لما بهى العصر القديم و زمن الإسلام الكلاسيكي. ويعتمد الجهرتي على عقد مقارنات، فما دام الفرنسيون نالون للديانات السماوية، فإنهم يتوحدون مع من تسميهم كتب العلم الإسلامي عن الملل والنحل المارقة بالملاحدة، في تحسن الأحوال مع أولئك الذين لا يؤمنون إلا بالعقل، أي بنمط معرفة أننى من نمط المعرفة الذى يوافره الوحي، وفي أسوأ الأحوال مع عبدة النجوم، الذين يؤمنون بالتناسخ.

ومسلكتهم العامة، خاصة عاداتهم السيئة، إنما تجعل منهم كائنات قليلة التمدن وجديرة بالاحتقار. وما يستحق الإعجاب فيهم هو ما يتوصلون إلى استخلاصه، في العلوم والتقنيات، من أعمال العقل. أمّا فيما يتعلق بما هنا ذلك، فإن مسلكهم وخطابهم إنما يدلان بشكل واضح على أنهم ليسوا أكثر من منافقين.

إخراج إبراهيم بك من ساحة النزاع

سوف يستعمل بوناپارت للأوهام حتى النهاية فيما يتعلق بمشاعر العلماء الحقيقية. وسوف يواصل ذلك الخطاب الذى يضطر الآخرون، بحكم الضرورة السياسية، إلى سماعه. أما الآن، فإن عليه الانشغال بإنجاز فتح مصر السفلى.

ومنتد ٢٥ يوليو، أصدر الأمر باحتلال منفى، القريبة من القاهرة. وصباح اليوم التالى، يبدأ فيال مع فرقته زحفه على مياط. وفي ٤ أغسطس، يصل الفرنسيون إلى المنصورة ويدخلون مياط في ٦ أغسطس. وتتم هذه العملية بون صعوبة. فالقوى تستقبل الجنود بأمارات الصداقة ويؤدى المشايخ يمين الولاء للجمهورية الفرنسية والسلام مع السلطان والحرب على المماليك والعرب، حيث يرجح أن هذا الشعور الأخير كان الأكثر إخلاصاً. (٧١)

ولما حصل إلى علم بونابارت أن مراد قد انسحب إلى مسافة بعيدة عن القاهرة، فإن
يقترح عليه تسوية، ينتقلها روزيتي الذي يزور الزعيم المملوكي سرًا. فالفرنسيون
مستعدون لمنحه مصر العليا من جرجا إلى الشلال الأول بشرط اعترافه بالترعية لهم وبيع
قتلة لهم.

وفي تلك الأثناء، يركز القائد العام عمله على إبراهيم الموجود في بلبيس على بعد
عدة كيلو مترات من القاهرة. وبالمناسبة للقائد، فإن من الأهمية بمكان إنجاز فتح الدلتا
وتأمين حرية مرور قافلة الحج العائمة من مكة لإظهار أن الفرنسيين قادرين على حفظ
النظام والنزاع مجمل اترياقيا الشمالية بأن العلاقات التجارية والدينية تظل ممكنة دائما.
والحال أن القوات الأمامية، تحت قيادة الجنرال لوكليرك، تتحرك في اتجاه إبراهيم بك
اعتباراً من ٢ أغسطس. وفي ٥ أغسطس، في الخانكة، تصطم بالمعاليك للتحالفين مع
الفلاحين المحليين. وتستمر المعركة، لكن انضباط الفرنسيين يجعلهم صلبة للساحة. وفي
ذلك اليوم، يغادر الجانب الرئيسي من القوات العائمة في ترتيب مجزأ. ومن جديد، يتلزم
الجنود أمام قصرة الحملة. (٧٥)

ويتم حشد الفرق المختلفة في الخانكة، في ٨ أغسطس. وفي ٩ أغسطس، يدخل
الجيش إلى بلبيس التي رحل عنها للمعاليك. وهو يجد هناك جزءاً من قافلة الحج ويكفل لها
حرية المرور إلى القاهرة. وكان الجزء الآخر قد ترك لقدره من جانب أمير الحج، صالح
بك (٧٦)، حائزاً أعلى المناصب في مصر العثمانية، الذي فشل اللحاق بمعاليك إبراهيم
بك.

وكان الحجاج قد طلبوا من الهدو توفير حمايتهم. ويتعهد هؤلاء الأخيرون مقسمين
بعدم خيانتهم، لكنهم ينهبون القافلة بالكامل في منتصف الطريق. وسوف يرفض
الفرنسيون الهدو على رد جزء كبير من أسلابهم. وكان للمصري، رئيس تجار القاهرة،
والذي كان مشاركاً في القافلة، قد قدم طلباً قوياً بذلك إلى السلطات. وهو أيضاً الذي
سوف يوجه البحث عن الجنحة وتقدير ثمن الأسلاب لإعانة سبانه (٧٧).

وفي ١١ أغسطس، يتم الوصول إلى الحد الشرقي للدلتا عند الصالحية. وتتلقى
وحدة الفرسان الفرنسية الأمامية خبراً للمعاليك. ويدرك الفرسان قدرة المعاليك الرهيبة في
هذا النوع من القتال، لأن عين الفرنسي الذي يصاب بضرر فادح يتلقى في الساحة
ضرراً سيئاً من اليد نفسها، هكذا يرسم ديتروا صورة لما يحدث في يوميات. (٧٨) لكن

للماليك يفضلون الاستقالة من المهزة التي يتمتعون بها للإسراع بانصيحتهم إلى سوريا. وعندئذ يوقف بوناپارت المطالبة ويعرض على إبراهيم بك إمكانية تسوية، يمكن بموجبها التنازل له وللماليكة كلهم عن جميع ممتلكاتهم في مصر في مقابل تعهدهم بخدمة الجمهورية. ويبدو أن إبراهيم يهتم بالعرض ويرسل رسولا مكلفا بالتفاوض بشأنه (٧٩).

وخلال تلك الزحف، تبدو ردود أفعال السكان متباينة. ومكنا، على جهات معينة، يتكون لدى الجنود الانطباع بأنهم محل ترحيب (حيث يصل الأمر إلى حد الامتناع عن أخذ ثمن ما يحصلون عليه) بينما يضطرون بعد وقت قصير من ذلك إلى مواجهة تجمعات الفلاحين الذين يقتلونهم بالحجارة التي يردون عليها بأعيرة نارية قاتلة؛ وبحجة البحث عن الخبز، يقترب الجنود «تجاوزات» في القرى، وهو ما يدفع لضباط إلى فرض عقوبات قاسية ومن هنا «الشكايات والسخط الشامل» (٨٠).

وقبل العودة إلى القاهرة، يأمر بوناپارت بإقامة موقع حصين في الصالحية، سوف يسمح بتغطية الدلتا وبأن يكون قاعدة انطلاق للعمليات التالية ضد سوريا (٨١).

وعندئذ يمتد الانتشار العسكري الفرنسي إلى كل الدلتا، ويتعين على لوجا بشكل خاص احتلال إقليم المنصورة. وفي ١٢ أغسطس، على طريق العودة، يصل إلى علم القائد العام من خلال أحد مساعدي كليهر نبا كارثة أبو قير.

الإسكندرية ورشيد وأبو قير

كليبر فتح الإسكندرية

على مدار نحو ثلاثة أسابيع، اعتباراً من ٨ يوليو ١٧٩٨، لا تصل إلى الساحل، الذي يحتله الفرنسيون، أنباء عن أحداث الداخل. لكن الانتشار للعسكري الرى: فكلير فى الإسكندرية ومينو فى رشيد يحوزان قوات كافية، بغضل احتياطى الجيش، للإمساك بزملم الضواحي واللبه فى السيطرة على بلاد المؤخرة؛ ويوجه خاص لى الأسطول قد اتخذ موقعه فى خليج أبو قير بين المدينتين بالضبط. (٨٢)

وفى الإسكندرية، فإن العلماء هم أول من يتم اجتذابهم، ثم يليهم الشريف محمد كريم، ممثل مراد بك. إلا أنه، منذ ٨ يوليو ١٧٩٨، تتردد شائعة فى المدينة بإبادة الجيش الفرنسى، ويضطر كليبر إلى تهديد أولئك الذين يروجون هذا النوع من الشائعات بعقوبات جسيمة. وإثر حوالت مع السكان، يشكل الجنرال الفرنسى ثوريات مشتركة مكونة من فرنسيين ومسلمين ويحظر على الجنود الإتيان بأية أفعال من شأنها استفزاز السكان. وهو ينهمك بنشاط فى تحصين المدينة للتصدى لهجوم محتمل من البحر. وشاغله الرئيسى هو نقص الأموال الذى يقوده إلى أن يطلب من أمين صندوق الجيش، باسم ضرورات حيوية للخدمة، أكثر مما صرح له بوناپارت بتسليمه.

وفى الظاهر، يتعارف محمد كريم بون ترند. لكن جندى متطوعة فرنسياً يتعرض فى ١٢ يوليو لاعتداء عليه فى الليل، الأمر الذى يستثير هياجاً عاماً بين صفوف الفرنسيين والمصريين. ويطلب كليبر من الأعيان الفرنسيين أن يسلموا إليه رهائن. ويبدى الشيخ للعيرى استعداده للتعاون. والواقع أنه يبدو من الواضح أن ما حدث هو محاولة للتمرد نظمها كريم الذى يعتمد على مشاركة بحارة السفن العثمانية المراسية فى ميناء الإسكندرية القديم. ويستفيد الجنرال من الموقف لى يعيد النظام والانضباط إلى الحامية ويبدأ فى الارتياح فى إخلاص القائد المسلم.

وبناءً على تعليمات من بوناپارت، يرسل طابوراً متحركاً تحت قيادة الجنرال دوموى مكلفاً بتذكير سكان دمهور بتوليد سلطة الفرنسيين (١٧ يوليو). ويشكو الطابور من نقص حيوانات الجر، التى اختلفت بشكل غريب من الإسكندرية. وعلى بعد مسافة قليلة من دمهور، يتعرض للهجوم من جانب البدو الذين جاؤوا بأعداد ضخمة. وفى المدينة

نفسها، بجرى لقاء الفرنسيين بأميرات الصداقة الخارجية، ثم يحاطون فجأة بعدة آلاف من الرجال الذين ينقضون عليهم. ولأول مرة، يواجهون ائتلافاً من الفلاحين والبورجوازية المتزعمة الأعيان المحليين، وهو ما سوف يكون الشكل المعتاد للمقاومة في الوسط الريفي. ويتمكن دوماً من الإفلات بفضل مدفعيه، لكن الطاهور يضطر إلى العودة إلى الإسكندرية ويضمن رئيسه أن متعدي الداخل قد حصلوا من الإسكندرية على معلومات عن تحركات الطاهور (٨٢).

وفي ١٩ يوليو، تتفجر الأزمة بين كليبر وكريم. فلما كان الفرنسيون بحاجة إلى المال، فإنهم يجمعون التجار لإبلاغهم بحماية قرض إيجارى قدره ثلاثون ألف جنيه موزعة بالتساوي بين المسلمين وغير المسلمين. ويصل الشريف والمنويون للمسلمين متأخرين سامتين ويولون بشكل خاص أن يتحمل اليهود وحدهم الجزء الرئيسي من المساهمة المطلوبة منهم. وعندئذ ينفذ صهر كليبر، ويأمر بالقبض على محمد كريم الذي يشتبه في خيانتة منذ حادث الطاهور المتحرك، ويحتجزه على متن إحدى سفن الأسطول ويلزم التجار المسلمين بنطح مائة ألف جنيه تحت تهديد المساس بالرهائن.

ويسمح إتصال كريم لفريق العلماء بالصعود إلى مناصب المسئولية. ويجري تعيين محافظ مسلم جديد، هو محمد شوريجي الجورجاني، لكن القائد الحقيقي لهذه الجماعة ليس أحداً آخر غير الشيخ المسيحي. لكن حزب للمعاليك لا تقطع رأسه مع ذلك. فهو ينظم نفسه تحت قيادة عميل آخر لمراد بك اسمه عبد الله باشي. وهو تاجر من أصل مغربي، كان قد تزوج أخت أحد كبار التجار في المدينة ويبدو أنه كان واسع الثراء فقد فكر الفرنسيون في تحويل داره إلى مستشفى. وقد عمل بالتناظر مع محمد كريم على تأمين هيمنة مراد على الإسكندرية وشكل شبكة واسعة من العلاقات مع قبيلة لولاد على الهدوية القوية التي ترتحل بين الإسكندرية وبورقة. وعند الاستيلاء على الإسكندرية، قدمه محمد كريم إلى بوناپارت الذي منحه جواز مرور. وقد استفاد منه للخروج من المدينة، وشارك على الأوجع في معركة الأهرام، وهو الآن يحرك المقاومة ضد الفرنسيين. (٨٤)

وفي ٢٥ يوليو، تصل السفينة كورتييميس إلى الإسكندرية، وعلى متنها الجنرال لانوس وتاليان. ووصول هذا السياسي يثير استياء العسكريين. وفي اللأية التي اتهمت على شرفه، يهاجم كليبر عجز السياسيين. وبدأ على تاليان، الذي يحاول للدفاع عن المؤتمر، يشير كليبر إلى «الإبرة المسببة لتلك الجمعية». ويصورها في صورة ذليلة

ومحتقرة، ويشير إلى أن الأمة أصبحت عظيمة ومحترمة في الخارج بحسب الرعب الذي تستثيره حروبها، ويقارن بين الاحتقار الذي يستثيره العدد الأكبر من هؤلاء المشرعين والاحترام والإعجاب الذي يستثيره في البلدان الأجنبية خاصة، لاسم وجود ضابط فرنسي. (٨٥).

ويشير الحادث إلى مدى تهاعد العسكريين من سياسيين الثورة. ويدفع نجاح منهور الهدو إلى الاحتشاد بأعداد كبيرة حول الإسكندرية. ويرسل كليبر وحدات من الخيالة تنجح في مواجهة الهدو مواجهة ظافرة. وفي ٢٠ يوليو، يصل إلى علمه من خلال مينو خبر الانتصار الفرنسي في معركة الأهرام. وتحتفل الحامية بالحدث عبر طلقات المدفعية. وفي المساء، تضاء بناكسين وأسواق الإسكندرية، بينما يختلط الأعيان المسلمون بالضباط الفرنسيين خلال حفل الاستقبال الرسمي. «مكث الزعماء المسلمون في قاعة رحبة دخلها الفرنسيون والأتراك على حد سواء. وقد بقيت هناك قليلاً ورايت توزيع المرطبات هناك بشكل واسع ودون مقابل على من يريد تناولها. وشوهدت هناك بعض زوجات الضباط والتجار الإفرنج اللاتي ظهرن لأول مرة في حياتهن، في هذا المكان. وبوجه عام، فقد بدأ الحبور وبدأ ظهر مصطنع» (٨٦).

وموقف المسلمين تجاه النعماء الأوروبية يبدو في أعين الضباط الفرنسيين بالاً على التحيزات الأخذة في الحسوث. «بالإمكان الإشارة، تليلاً على أن الأتراك يتجربون بشكل محسوس من نظافة سلوكهم، إلى أن النساء الأوروبيات اللاتي كن في السابق، عند مرورهن في الشوارع، يتعرضن للكثير من الإهانات، وربما للملاحقة والقتل بالحجارة، وهناك عدد من الأمثلة على ذلك، أصبحن يُعاملن معاملة مهينة من جانب الأتراك، الذين يلقون احتراماً لهن عند اقترابهن» (٨٧).

ويحاول محمد كريم التوصل مع الفرنسيين، لكن كليبر يتخذ موقفاً متصلباً. إذ يجرى إرسال المحافظ المسلم السابق، بأكبر قدر من المرافقة، إلى أسطول أبو قهر، حيث يتسنى الاطمئنان إلى أنه لن يتمكن من إجراء أية اتصالات مع سكان الإسكندرية. ويجري تولب أن يهت بوناپارت في قضيته.

ميلو فهد وشليط

شخصية مينو جد مختلفة عن شخصية كليبر. إن هذا الرجل، الذي ولد في عام ١٧٥٠، هو أكبر قادة فرق بوناپارت سنّاً (لا يصغره كليبر إلا بثلاث سنوات). ولما كان قد

لتحدر من أسرة تنتمي إلى نبالة جد قديمة (تراجع إلى القرن الحادى عشر)، فقد خدم فى جيوش الملكية حيث حصل، لكونه من غير العوام، إلى رتبة الكولونيل. وفى عام ١٧٨٩، حين كان نائباً فى المجالس العامة، يشارك بنشاط فى الثورة فى صفوف النبالة الليبرالية التى تقبل انتماج الفئات الثلاث. وفى الجمعية التأسيسية، يصبح مشروعاً نشيطاً، خاصة فى اللجان العسكرية، وينتمى إلى أنصار الملكية الدستورية، مما يجر عليه عداوة وسطه الأسمى. وهو يستأنف فى عام ١٧٩١ الخدمة فى الجيش، بالرغم من أن دوره كان بالأحرى سياسياً: فهذا للسئول العسكرى عن قصر التويليرى فى ١٠ أغسطس ١٧٩٢، يدع الكوميون الثورى بأسر الملك. وفى السنة التالية، تجرى ترقيته إلى جنرال فرقة فى الثاندييه، حيث يهزم عدة مرات. وإذ يواصل الخدمة فى الحروب الأهلية، فإنه يصبح قائداً عسكرياً بارزاً فى عام ١٧٩٥، ويقع تمرد ٢ بريريال الشعبى الكبير الأخير. وفى الوضع السياسى المضطرب خلال الأشهر التالية، وبالرغم من صفته كقائد هام لجيش الداخل، فإنه يتصرف بشكل ملتبس فى وجه خطر العصيان للملكى بحيث أن باراً يفضل تنحيته ويعين فى مكانه يوناپارت الذى سوف يصبح بذلك رجل ١٢ فينديمير. ولن ينسى فاتح المستقبل أبداً أنه يدين ببداية صعوده الخاطف لتربلات مهنه وسوف يتصرف نحوه بتواطؤ غير عادى مع إشكال افتقاره للمختلفة للانضباط العسكرى. ويوناپارت هو الذى يدعو إلى الخدمة فى حملة مصر بعد أن كانت حكومة الإدارة للرتابة فيه قد لحاقته إلى التقاعد. وعلى الرغم من أنه يملك العمر للتوظيفى العسكرى الأطول بين قادة فرق جيش الشرق، فإنه لا يملك من الناحية العملية أية خبرة حربية حقيقية، خلافاً لزملائه اللذين يرون فيه بالدرجة الأولى باراً من صفوف الأرستقراطية ورجلاً سياسياً ذا ماضٍ مشعون. والواقع أنه لن يفعل شيئاً لتعديل هذا المظهر للأمور، فهو يفضل الأعمال الإدارية على المعارك، بالرغم من أن جراحه العنيدة فى الثاندييه وخلال الاستيلاء على الإسكندرية تشهد على شجاعة شخصية مؤكدة.

وفى وشيد، حيث تولى مهام القيادة فى ١٠ يوليو، يتمتع مينو بأعداد جنود أقل أهمية بكثير من الأعداد التى يتوقع بها كليبر، فهى تتراوح بين أربعمئة وخمسمئة جندى تقريباً. والحق أنه يواجه مصاعب أقل فى المدينة نفسها. فأنصار الماليك يهربون. ثم إن التجار الفرنسيين، خاصة أسرة فارمى للمستقرة فى المدينة منذ زمن بعيد، قد ساعدوه كثيراً فى تهدئة السكان. ولا يبقى غير حزب «المحمدين الأنقياء» وهو الحزب الأوفر عدداً،

«إن حزب الرجال المفضوب عليهم من الحكم ليس وفير العدد؛ لكنه سوف يوجه ويقاد بسهولة لحسابنا شأنه في ذلك شأن الحزب الثاني». والموقف السائد بين صفوف السكان هو مواقف الترقب والانتظار؛ «إن الاستيلاء على القاهرة سوف يتم توظيف الجميع بما يتمشى مع مصالحنا. فجميع الأفراد يخشون المماليك بأكثر بكثير من خشيتهم منا؛ وهذا هو ما يبقئهم في انحناء اليقين» (٨٨).

وهكذا يتسنى لمينو الاتجاه إلى تشكيل مجلس من ثلاثة أميان يسميه بشكل له دلالة ببلدية رشيد، عبد الله بدوى الذى كان نوجا قد عينه بالفعل، وسيد أحمد الخازندار وعلى شاويش. ويتعين عليهم العمل على استتباب الأمن والانضباط فى دائرة رشيد، وهم يهتمون لذلك الهدف بصلاحيات شرطة واسعة، تطل أيضاً الفرنسيين الذين يعكرون النظام والذين سوف يحصلون فوراً إلى قائد الموقع كما أنهم يعملون على كفالة انتظام المعاملات فى الأسواق. (٨٩)

وبعد وقت قصير من ذلك، يحصل بدوى على رتبة الأغا، محافظ رشيد للمسلم (٩٠). ومينو، خلافاً لكليبر، ينهمك فى الجنس الأدبى الخالص بتوجيه بيانات إلى السكان؛ فهو سوف يحمى الدين الإسلامى، وغاية الفرنسيين هى القضاء على المماليك وإنهاء المظالم العديدة التى يعانى منها السكان؛ وهم يريدون «تشجيع التجار والمزارعين وتأمين السعادة للجميع تحت حكمهم. إن الفرنسيين يحبون عظمة السلطان ويساندونه، إنهم الله عزه. وهم ليسوا أعداء إلا للمماليك وحدهم» (٩١).

والواقع أنه، شأنه فى ذلك شأن كليبر، لا يسهط بصورة مطلقة على داخل الأراضى، وهو يتعرض لهجمات من البدو. ومن ثم فإنه يكتفى بتأمين الاتصال بين رشيد وأبو قير حيث يوجد الأسطول.

وشاغله الرئيسى يتميز بطابع مالى. إذ تعوزه الأموال اللازمة للمهام المختلفة التى عهد بها إليه بوناپارت قبل رحيله. وكان هذا الأخير قد أصدر تعليمات صارمة فيما يتعلق بالمصادرات، المحرمة، مالم يصدر تصريح من القائد العام، إلا فى حالة الضرورة الملحة (٩٢). ثم إن مينو، وهو نصير مخلص بالفعل للمشروع الاستعمارى ومقتنع بضرورة اجتذاب السكان المصريين، ينفر من اللجوء إلى هذه الأساليب.

مشكلة الأسطول

الواقع أن اجتياز البحر المتوسط قد أدى إلى استهلاك جزء كبير من احتياطات مؤن

الأسطول. ثم إن الجيش، في زحفه على القاهرة، قد سحب الكثير مما تبقى. ومن ثم فإن المسؤولين الفرنسيين يجهنون أنفسهم في الوضع للخرج الذي يتمثل في ضرورة إعادة تكوين احتياطيات بون إن تتوافر لديهم الإمكانيات المالية لإتمام المشتريات الضرورية أو الرغبة السياسية في طلب تسليمات إلزامية وقروض إجبارية تتناسب مع الاحتياجات. والإسكندرية، وهي موقع تجاري بشكل خالص جد قريب من الصحراء، لا يمكنها تقديم مؤن هائلة. ويتوافر كل شيء على رشيد ومينو، لكن إمكانياته محدودة. «وسط الوفرة، لا أستطيع عمل شيء، لأنني لا أملك الأرض الزراعية. على أن للمستشفيات والأفران والبطاريات، وتفذية القوات، وعمود الجيش البحري والإسكندرية، تلك هي الأشياء التي تتطلب إنفاقاً يومياً بالغ الأهمية. وسوف أسمى إلى عقد قروض، باسمي الخاص والشخصي... والخلاصة، أيها الجنرال، إنني أملك حماسة تزيد ألف مرة عن الإمكانيات التي أملكها...» (٩٢).

وفي ٢٠ يوليو، يقرر جبهة ضريبة من المدينة، بالاتفاق مع بوسليج واستيف، المسؤولين عن ملية جيش الشرق، «لقد كابدنا لكثير حتى نجعلها تتمشى مع قراركم للورخ في ٢ ميسيدور؛ لكنني أخشى تماماً من أن نكون قد تجاوزنا صلاحياتنا إلى حد ما» (٩١).

ولا يهبط إشباع طلبات الفرنسيين إلا في أواخر الشهر.

وفي ٣٠ يوليو، يجرى نقل محمد كريم إلى السفينة لوريان في رشيد. ويحتفى السكان بالرجل. وعندئذ يأمر مينو باحتجازه في سفينة حربية صغيرة. ولا يثق الشريف بعد إلا في مينو. فهو يكتب إليه في عدة مناسبات، ويطلب إليه أن يرسل إليه صديقهما المشترك، جان باسكي، لأنه يريد للتنبيه إلى أشياء مهمة، فوضع الإسكندرية ينتظر بأن يتدهور تدهوراً جسيماً، إذا لم يجر الاهتمام بإصلاح الخزانات والأجهزة الهيدروليكية التي الحق بها الجنود الفرنسيون الأضرار، وأنا ما تركت الحرية للقرويين وللعرب في عملهم الرامى إلى تحويل مياه القترعة التي تربط الإسكندرية بالنيل، والتي لا تعمل إلا خلال فيضان النيل؛ إن الحرمان من المياه «سوف يؤثر تأثيراً صلباً على الأسطول والقوات» (٩٥). وسوف تؤدي أحداث الأيام التالية إلى دفع الفرنسيين إلى إهمال تحذير الشريف.

وفي ٣١ يوليو، يتوجه بالنداء من جديد إلى مينو ويطلب إرسال أحد أفراد عائلة فارسي إليه، حتى يتسنى له أن يوجه عبره تهانيه إلى السلطات الفرنسية على نجاحها. وفي أول أغسطس، يكرر طلبه (٩٦)، لكن ذلك اليوم هو يوم معركة أبو قير.

وكانت السلطات العثمانية قد حظرت على الدوام دخول السفن الأوروبية إلى الميناء القديم. وهكذا فإن البحارة الفرنسيين كانوا يجهلون عمق ممرات هذا الميناء. ومن ثم فقد اضطر بروي إلى اتخاذ موقع في خليج أبو قهر لأن الميناء الجديد لا يكفل أمناً كافياً بسبب انفتاحه على موانئ البحر المتوسط العنيفة. وهو ينتظر نتائج اختبارات ممرات الميناء القديم التي اضطلع بها القبطان باري. وعندما وصله في ١٢ يوليو أنه يرى، محققاً على ما يبدو، أنها غير مرضية. إن أضيق السفن لن يكون بوسعها دخول الميناء القديم دون المجازفة على نحو خطير بأن تنقلب على جوانبها.

ولم أبو قهر نفسها، لا يملك بروي الخرائط الدقيقة ولا الدليل. وهو يأمر باصطفاف أسطوله على مسافة بعيدة من الضفة. وبسبب ضعف إمكاناته، فإنه يفضل الاستعداد لصد هجوم محتمل من جانب العدو في وضع ثابت، وصفته واسعة وليست متحركة. ويعتقد عدد من رؤوسه علناً هذا الاختيار. والحال أن البحر البالغ الاضطراب والألوية للمنوحة لمواصلة تفريغ سفن الأسطول يمنعهم من الاتجاه إلى اختبارات أدق لخليج أبو قهر. وكان من شأن هذه الاختبارات أن توضح لهم أن بوسع العدو للناوذة بين الضفة وصف السفن الفرنسية. وأياً كان الأمر فإن بروي يرى أن موقعه بالغ الهشاشة في وجه هجوم من جانب العدو. وشأنه في ذلك شأن مينو وكلهر، فإنه لا يتلقى أى نفا من القائد العام، وذلك في لحظة كان بحاجة فيها إلى تعليمات واضحة.

وتصبح حالة المؤن كارثية؛ فإن الأسطول لم يجد في وضع يسمح بالتصبر، إن مجازف بأن يسلط ضحية للجوع؛ كما أنه لا يمكنه البقاء في المرسى دون الحصول على مؤن غذائية فهو مجازف بأن يجد نفسه مختزلاً إلى آخر كسرة خبز. ومن المهم ألا يضطر، من جراء إعانت متأخرة، إلى أن يستهلك ما بقي له من الخبز، لأن مما لا مراء فيه أن غذاءً يومياً يتألف من الأرز إنما يهدد صحة الأطقم (١٧).

ولا يملك مينو سفناً قادرة على اجتياز فتحة مصب النيل، ذلك أن جميع الزوارق قد استخدمت للحاق بالجيش على طول النهر. ولا يبدأ اللوات في التحسن إلا في أواخر الشهر بالفعل.

مهركة أبو قهر البحرية

لكن نيلسون هو الذي يصل، في أول أغسطس، مع أسطوله. والفرنسيون لا يتوقعون وصوله بعد، فقد ركنوا إلى أنه قد اضطر إلى العودة إلى غربي البحر المتوسط

لإعادة التزود بالمؤن واللاهتمام بالإصلاحات التي تتطلبها إقامة طويلة في البحر. ولم يتوقعوا الاستقبال الذي تم في سيراكوز والذي سمح للإنجليز بكسب وقت ملحوظ للتزود بالمياه والمؤن للغذائية بفضل نفوذ السير ويليام هاميلتون والليدي هاميلتون على بلاط نابولي. وقد تسنى لنيلسون العودة بسرعة إلى عرض البحر، لكن مملكة نابولي تعتبر في نظر الجمهورية الفرنسية متهمة بانتهاك خطير لحيلاتها، وهو ما سوف يكون أحد الأسباب الرئيسية لاستئناف الحرب في إيطاليا.

وفي أول أغسطس، في بداية ما بعد الظهيرة، يرصد البحارة الفرنسيون السفن الشراعية الإنجليزية. وبعد اجتماع مجلس حرب قصير، يقرر بروي التمسك بقراره الخاص بالقتال من المواقع الثابتة. ويمسك نيلسون بزمam للبادرة في العمليات، ويرى تركيز زهران سفنه، للوضوعة في المواقع الأنسب، على رأس ووسط صف السفن الفرنسية. وعندئذ يلاحظ أنه يملك للموقع وخاصة العمق الكافي اللازم للسماح لسفنه بالمناورة بين الضفة والصف الفرنسي. ومن ثم يمكنه اجتياح هذا الأخير بين نارين (٩٨). وجسارته تسمح له بالأمر يقوم إلا باختبارات سريعة في منطقة لم يقم فيها البحارة الفرنسيون بأي شيء على مدار شهر.

وعند غروب الشمس، يتخذ الأسطول الإنجليزي تشكيلة للقتلى. والمدفعية الفرنسية على البر، جد للهيئة، لا يمكنها أن تطال الإنجليز. وعندئذ تبدأ المعركة. وبسرعة بالغة، بنهار رأس الصف الفرنسي تحت زهران السفن الإنجليزية للتلاقية. ويبدى البحارة الفرنسيون شجاعة رائعة في ضراوة مقاومتهم للهجمات الإنجليزية، لكن الموقف يتدهور أكثر فأكثر. ويصاب بروي بجراح في بداية المعركة ويلقى حتفه على متن سفينة الأميرالية، في الساعة السابعة والنصف، حيث يتمزق فخذه. ومع لختفاء الأميرال، لا يوجد بعد من يصدر الأمر إلى فيلنيلف، الذي يقود آخر الصف الفرنسي غير المشارك في المعركة، بالإقلاع والهجوم على السفن الإنجليزية.

ونحو الساعة التاسعة، ينشب حريق على متن السفينة لوريان، بينما يواصل البحارة القتال بضراوة. ونحو الساعة العاشرة، يأمر العميد البحري جانتوم بإخلاء السفينة، عندما يرى أن من المستحيل إغراق البارود. وبعد ذلك بربع ساعة، تنفجر أعظم سفينة حربية في ذلك العصر. ويعقب انفجار سفينة الأميرالية صمت طويل، ثم يجرى استئناف المعركة. وتدرجياً يخطر رأس الصف الفرنسي إلى الاستسلام.

وأخيراً، نحو ظهيرة اليوم التالي، يقرر فيلنثيف (الذى سوف يهزم فيما بعد في الطرف الأخرى)، والذي يلود للمؤخرة الفرنسية، الاتجاه إلى لودوها بالسفن التي ما تزال قادرة على الإبحار، تاركاً للسفن غير القادرة على الإبحار، بالرغم من أنها لم تستسلم. وفي ٢ أغسطس فقط تستسلم السفن الفرنسية الأخيرة أو يتم إحراقها على أيدي أطقمها. والخسائر الفرنسية جسيمة، فقد تم إغراق أو إحراق سفينتين عظيمتين وفرقاطتين، وسقطت تسع سفن في أيدي الإنجليز، بينما تمكنت سفينتان وفرقاطتان من الإفلات مع فيلنثيف. وقتل أو غرق ألف وسبعمئة من البحارة الفرنسيين، وجرح ألف وخمسمائة. سقط ثلاثهما في الأسر. وكان الإنجليز قد أسروا ثلاثة آلاف، لكنهم أخرجوا عنهم، بسبب نقص مؤنهم، في ختام أيام قليلة، وذلك بشروط عدم للمشاركة في بقية قوات الحملة. والحال أن موقف هؤلاء الأسرى السابقين للذين لا يريدون سوى العودة إلى فرنسا سوف يثير غضب ضباط القوات البحرية وعضب كليبر^(٩٩). وفي الأعوام التالية، سوف يتهم الإنجليز الفرنسيين على نحو منتظم بأنهم قد أخلفوا الوعد حول هذه المسألة. وإذا كانت أية سفينة إنجليزية لم تغرق أو تحرق، فإن الجانب الأكبر من هذه السفن يشكو من إصابات بالغة، الأمر الذي يفرض العجز عن مطاردة فيلنثيف. ويرتفع حجم خسائرها في الرجال إلى ٢١٨ قتيلًا و ٦٧٧ جريحاً.

وفي الإسكندرية كما في رشيد، سمعت على مدار الليل أصوات نوى مدافع المعركة وشعر الناس برجة انفجار السفينة لوريان. ولا يتمكن كليبر إلا بعد ظهيرة لليوم التالي من إبراك حجم الكارثة الفرنسية، ويبلغ بوناپارت بها.

وسوف يحمل هذا الأخير بروي، في تقريره إلى حكومة الإنلرة، كامل المسؤولية عن الهزيمة. فهو يذكر أن الأميرال قد خرج على طاعته بالبقاء في أبو قير بدلا من أن يذهب إلى الميناء القديم أو ينسحب إلى كورفو. والواقع أن ممرات الميناء القديم كانت جد خطيرة بالنسبة للسفن الفرنسية للضخمة ولم يصدر بوناپارت قط أمراً واضحاً بالانسحاب إلى كورفو، الذي يبدو علاوة على ذلك مسيراً يصعب نقل المياه ومؤن الأسطول (وإن كان فيلنثيف قد تمكن من الوصول إلى مالطه). وسعماً لزعمه، يقدم القائد إعدام مقتطفات مزيفة من مراسلاته مع الأميرال. ثم إنه، ما أن يصبح قنصلاً لول، سوف ينتزع من الأرشيفات العسكرية الوثائق الأكثر إساءة إليه وسوف يدخل تعديلات على وثائق أخرى^(١٠٠).

ومن الواضح أن الأسباب الرئيسية للهزيمة الفونسية إنما تكمن في الموقع السيء الذي تشله أبو قير - الموقع الوحيد الممكن بمجرد اتخاذ قرار بإلقاء الأسطول قرب الساحل المصري - وفي النقص العددي وهزال تكوين البحرية، وهي أمور لم يك بإمكان أعمال البطولة الفردية العديدة أن تعوضها. ومن المرجح أن رسوا أكثر قريبا من الساحل ما كان يوسع أن يغير شيئا من حيث الجوهر. والأسطول عاجز عن كسب معركة بحرية واسعة للنطاق لا يملك حلاً سوى اللجوء إلى ميناء. ولما كان مهله الإسكندرية غير آمن، فلم يبق هناك سوى كورفو. لكن بونابارت اتخذ قراراً آخر.

إعاقة تخطيط الانتشار الفرنسي

بعد المعركة، ينهمك كليبر بنشاط في التصدي لهجوم عسكري إنجليزي مباغت محتمل على الساحل وهو يحرك سلسلة كاملة من البطاريات لحماية الإسكندرية، ويرسل نومي و طابوره المتحرك للتمركز في أبو قير. وهو يكلف جانتوم بإعادة تنظيم البحرية الذين يتنقلون على المدينة. وهو يشكو من جهة أخرى من مسلكتهم السيئة. ويجري تدريجياً نقل البحرية إلى لشباه قوية الجيش البري أو أنهم يشكلون وحدة خاصة سوف تسمى بالفيلق البحري. كما ينزعج كليبر في هذه الظروف المضطربة من عدم تلقي تعليمات من القائد العام. وهو يفضل تكريس الأموال للهزيمة المتاحة له لتلبية احتياجات الجيش البري بدلاً من تلبية احتياجات البحرية وذلك بالرغم من أوامر سابقة. ويبدو له أن الموقف يهدد هذا الانتهاك لتعليمات بونابارت.

وفي ١٥ أغسطس فقط، في لحظة يبدو فيها أن الأسطول الإنجليزي يريد اتخاذ مواقع لفصل المدينة، يتلقى رسالة من بونابارت مؤرخة بتاريخ يوم معركة أبو قير نفسه. لمهرات احتجاز محمد كريم تؤكد معلومات تم الحصول عليها في القاهرة عن ريك، وهو ما يسمح بالتراض أن المندوب السابق لمواد يك له أعداء في العاصمة. وعندئذ يتجه كليبر إلى إلقاء القبض على القارب محافظ الإسكندرية السابق. ويتعين على نومي و طابوره المتمركز في الرحمانية بينما يتعين على كليبر سحب قوات من الإسكندرية للحفاظ على أبو قير. وفي الرحمانية، يتعين على نومي أن يعهد بطابوره المتحرك إلى العميد بريي المكلف بالخروج لتأنيب سكان مهنود على سوء مسلكتهم.

ويواصل مينو عمله التنظيمي في رشيد ويهتم بتأمين الاتصال مع الداخل. وسعي

إلى ذلك، فإنه لا يتردد في انتهاج سياسة إرهاب (لقد خدم مينو مثله في ذلك شأن كليبر في القانسييه). وبهاته، الموزع في ١٢ أغسطس في الإقليم كله، حول تدمير قرية السالمية الواقعة على ضفاف النيل بهان واضح، ولقد كان سكان السالمية إشراراً ومتوحشين. إن مدناً منهم، وعلى رأسهم شيخهم الكريه سلامه وأكد، قد قتلوا، منذ شهر، ثمانية فرنسيين كنت قد أرسلتهم إلى القاهرة، لحمل رسائل إلى الجنرال بوناپارت. وأمس، انتقلت إلى السالمية مع جنود فرنسيين؛ وأصبحت الأمر بقتل جميع المسلحين، وأمرت بمصاهرة البهائم؛ كما أمرت بإحراق القرية، حتى تعرف مصر كلها لى شيء يتعرض الناس إذا ما قتلوا فرنسيين... (١٠١).

وفي ١٢ أغسطس، يعاود مخاطبة سكان القرية بمنحهم عفوه. وينفى شيخ القرية ويصغر ممتلكاته. ويعين شيخاً آخر يبدو أنه كان قد جرد فيما سبق من هذه الوظيفة على يد الشيخ الذي تم نفيه. (١٠٢)

ومنذ ٥ أغسطس، كان قد أمر بنقل محمد كريم إلى القاهرة. ويهدى مينو منذ بداية حياته خصاله كلبارى، بالرغم من تظاهره بأنه يفضل العمل العسكري على الحياة في رشيد. هذا هو ما يكتب عنه، بأسلوبه اللهاج دائماً، إلى بيرتييه، «إن ما يهمنى بشكل خاص، عزيزى الجنرال، هو ألا أترك طويلاً هناك فأنت تعرف إننى أفضل مائة مرة أن أكون على رأس فرقتى بدلاً من الهرب في هذا المكان. لقد جئت إلى مصر طلباً للمجد، لو أن قتل فيها، لا لكى أجمع المال منها» (١٠٣).

ويرد عليه بيرتييه بأن الوضع الذى خلقته معركة أبو قير يجعل وجود مينو في رشيد ضرورياً في الوقت الحالى (١٠٤).

وفي ١١ أغسطس، يوجه مينو دعوة إلى جميع مشايخ البلد لحضور اجتماع في ١٧ أغسطس. وهو يخبرهم بأن عليهم أن يمارسوا مهام الحكم بالقوانين وليس بالتعسف ويطلبهم على التنظيم الجديد للبلدية. (١٠٥)

ويترقب بريب دائماً يومى الزحف على مذهب، فهو لا يتمتع بقوات كالية، وخلصه الفرسان، لمواجهة البدو. والحال أن إيمان تلك المدينة، المنزعجين، يرسلون إليه رسائل ولاء لا يثق فيها. (١٠٦)

رحيل الأنجليز

يتأخر كليبر، بالرغم من تحذيرات محمد كريم، في إدراك الضرورة القصوى،

بالنسبة لبقاء الإسكندرية، والخاصة بمنع القرى القريبة من «استنزاف» القناة التي تربط المدينة بالنيل، خلال الفيضان. وينشغل للشيخ المسيحي باستئناف الاتصالات مع إهيان بمنهور. ويتم التوصل إلى تهدئة ويتعهد الأعيان بأن يقدموا، كما في الماضي، الجياد والرجال الضروريين لتنظيف القناة وتشغيل الآلات الهيدروليكية. (١٠٧) ويحمل الأمير إبراهيم الشوريحي المسؤولية عن هذا العمل، وهو يتعهد بتسليم رهائن لضمان حسن سلوك بمنهور والقباط المجاورة.

ويثق كليهر في خطر هجوم إنجليزى على الإسكندرية. ويذكر له بوناپارت مآثره الخاصة في طولون، لكن الأزماتى يذكره بعدم كفاية للدفع للناحية في الميناء للمصري (١٠٨). ويتزايد انزعاجه من جراء محاولة بريطانية رامية إلى حفز انتفاضة شعبية في الإسكندرية، في ١٧ أغسطس ١٧٩٨. وكان الإنجليز قد سعوا إلى الاتصال بالأعيان المعينين من جانب الفرنسيين عبر تجار مغاربة كانوا يقيمون فيما قبل في الإسكندرية. ويسارع من يخاطبهم هذا البريد الخطر، وعلى رأسهم للشيخ المسيحي، إلى لقاء للقائد الفرنسي بمجرد وصول الرسائل، ونون أن يفتحوها، يقومون بتسليمها إلى كليهر. وبعد قراءة الرسائل، سألت للشيخ ما إذا كان يعتقد أن من شأن النزول على مقترحات الانجليز أن يسهم في هذه الإسكندريين، فأجابنى «إننى أهد ما أكون عن تصور ذلك»، فمثل هذه الخيانة ليس من شأنها، على العكس من ذلك، غير أن تجر عليهم سلسلة طويلة من النوائب والكوارث. وأضاف «إننى ليس هناك ما يدعو إلى الخوف من حدوث شيء كهذا من جانبهم» (١٠٩).

والواقع أن نيلسون جد ضعيف فيما يتعلق بالهجوم على المواقع الفرنسية. فعليه قضاء خمسة عشر يوماً لإصلاح الأعطال التي تسببت فيها المعركة. وهو يستقر في جزيرة أبو قير الصغيرة. ويكتفى بوموى بمراقبته دون استنزازه. ويحاول الفرنسيون الحيلولة دون أى اتصال مع المصريين، بينما يمنع الإنجليز كل استخدام للطريق البحرى بين رشيد والإسكندرية، ويهدمون في حصار للموانئ المصرية. وفي ١٢ أغسطس، يتلقى نيلسون تعزيزات، هي الفرقاطات التي اقتطعها خلال بحثه عن أسطول العدو. ويأمر بالرحيل التدريجى للجانب الرئيسى من سفنه إلى غربي البحر المتوسط. ويقابل هو نفسه الضفة المصرية في ١٩ أغسطس، تاركاً ست سفن، تحت قيادة القبطان هود لمراقبة الشواطئ البحرية المصرية. ثم يتجه إلى نابولي التي يصل إليها في ٢٢ سبتمبر. ويجرى استقبال الأسطول بحماس من جانب السكان ثم يذهب هو نفسه إلى لقاء الليدى هاميلتون...

حواشي الفصل الثالث

١ - خلال زمن الإمبراطورية، لم يجرى سيلفيستر نو ساسي على نشر هذا النص العربي في كتابه *Chrestomathie arabe* ، «عدد إصدار الطبعة الأولى للمختارات، طبعت الترجمة العربية لهذا النص في المجلد الأول، وكنت خائفاً من اتهامي بسوء النية إذا ما وضعت تحت نظر الجمهور هذا البيان الذي يتلخّص فيه قائد الجيش الفرنسي بأنه قضى على البابا ، فالواقع أن ذلك الزمن كان هو الزمن الذي توصل فيه، وقد تبينت مباحثه مع غايات طموحه، إلى عقد اتفاق مع الحبر الأعظم. ومن ثم فقد حلت ورقة النص العربي التي كان موجوداً فيها واستبدلت به نصاً آخر. وقد رأيت أن من واجبي أن أزيد، في هذه الطبعة الثانية، وضع هذا النص الذي يستحق، بما يتميز به من غرابة ومن أسلوب متعجرف ومثير للسخرية، أن يحفظ للأجيال القادمة».

SILVESTRE DE SACY, *Chrestomathie arabe*, Paris, 1827, III, pp. 368.

والموقوف على تحليل للمعجم المستخدم والمفارق بين النصين الفرنسي والعربي، انظر دراسة عبد العزيز محمد الشناوي، صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر، القاهرة، ١٩٧١، ص ١٤ - ١٧.

٢ - في ذلك الزمن، كان العلم الثلاثي الألوان يتلف عمومًا من معيّن كهر لو مربع أبيض في وسط العلم، بينما كان اللونان الأزرق والأحمر يتخذان في الزوايا الأربعة توزيعات متباينة. (LA JONQUIÈRE, II, p. 63)

٣ - ينتهي للنشور العربي للموزع بعد الاستيلاء على الإسكندرية على النحو التالي ، «تميرياً بمعسكر إسكندرية في ١٢ شهر ميسيدور سنة ٦ من إقامة الجمهور الفرنسي، يعني في آخر شهر محرم سنة ١٢١٢ هجرية» (الأول من يوليو ١٧٩٨).

٤ - الشريف هو أحد ألقاب النبى. وهذا اللقب يتيح حق احترام معين يتميز بطابع ديني (ومن هنا العدد الكبير للأشراف في الهيئات القضائية الدينية)، لكنه لا يشكل في حد ذاته علامة من علامات الأرستقراطية. ونحن نجد اشرافاً في جميع الفئات الاجتماعية المصرية في الإمبراطورية العثمانية وهم يشكلون جماعة قوية، تمارس نفوذاً قوياً على صوام المدن. وسوف نرى فيما بعد أن محمد كريم يمكن النظر إليه بوصفه منشقاً على جماعته الاجتماعية.

• - Je préfère utiliser la graphie Bahireh, extrêmement courante dans les texte européens du temps plutôt que celle de Buhaira plus proche de l'original arabe. C'est la province occidentale de la Basse - Égypte, entre Alexandrie et le Nil.

٦ - Je me réfère ici le récit envoyé par le diwan du Caire à la Porte pour l'informer du débarquement des Français. Ce texte a été publié dans une translittération en turc moderne par Enver ZIYA KARAL dans son

Fransa - Misir ve Osmanlı Imperatorlugu, 1797 - 1802. (France - Égypte et Empire Ottoman), Istanbul, 1938, pp. 160 - 163. Je remercie M. Nicolas VATIN de m'avoir fourni une traduction littérale de ce texte difficile.

Pour tout le détail des opérations militaires, je suis les analyses de - ۷ La Jonquière. Ce dernier a bien démontré la modification de plan originel en raison du passage de Nelson, mais n'insiste pas suffisamment sur les implications concernant la marche sur le Caire.

۸ - محطة حملات العجمي الآن.

CUOQ, op. cit. p. 23.

- ۹

۱۰ - انظر تقرير بيرتيني إلى حكومة الإدارة في ۱۸ ديسمبر من العام السادس (٦ يوليو ۱۷۹۸) ، بعد فشل محاولة الدخول السلمي إلى الوادي ، «توجب اتخاذ قرار بمهاجمة لولئك الذين كانت هناك رغبة في أن يكونوا أصدقاء» وعقد الاستسلام ، وجاء الأتمة والمهاجرين والشريف إلينا ، كأصدقاء ، مؤكدين أنهم قد أخطأوا في فهم نوايا الفرنسيين (LA JONQUIÈRE, II, pp. 42 - 49).

۱۱ - Ordre du 15 messidor (3 juillet 1798), LA JONQUIÈRE, II, p. 64, voir aussi CUOQ, p. 23 : Jabarti compare la cocarde à un tournesol.

۱۲ - فنسان (الهيئة التاريخية للجيش البري) ، B6 4 ، تقرير للمواطن سوريه ، رئيس مكتبة الهندسة ، حول أحداث يومي ۱۲ و ۱۴ ديسمبر من العام السادس ، وهو ينكر ، «إن البرابرة قد ضربوا بلا رحمة ، من النواندا ، جنودنا أمت مروعتهم وانضباطهم إلى كبح الميل إلى الدار» . La série B 6 regroupe l'ensemble des archives concernant l'armée d'Orient.

Texte dans LA JONQUIÈRE, II, pp. 65 - 66.

- ۱۳

۱۴ - توجد الشهادة الأسلمية عن الإسكندرية في «تاريخ مدة الفرنسيين بمصر» الذي حمله وترجمه سي. موريه تحت عنوان *Al Jabarti's chronicle of the first seven months of the French occupation of Egypt*, Leyde, 1975. من ص ۴۱ - ۴۲ من النص العربي ومن ص ۶۸ - ۷۰ من الترجمة الإنجليزية. وهذا النص هو التحرير الأول لروايته من الاحتلال الفرنسي ، والتي تعتبر معاصرة للأحداث من الناحية العملية ، ومن هنا أهميته بالنسبة إلى هجائب الآثار ، الذي يرجع تحريره الأخير إلى ما بعد الحملة بعدة سنوات ، «وعندهم رجل من الفقهاء المالكية يسمى الشيخ محمد المسيري يلقي لهم الدروس ويقرر لهم فقه الإمام مالك ويظهر التزهد عما بأيديهم ويتورع عن الشبهات [...] فاجتمعت قلوبهم على محبته وعكفوا على طامته بحيث صار مرجعهم في كل الأمور ، فإذا بهم أمر فزعوا إليه وعرضوه عليه وانتظروا رايه فيه [...] فإن أمرهم بأمر امتثلوه أو نهامهم عنه اجتنبوه ، فإذا أراد أحد من الحكام أو غيرهم التعرض لأبني شخص منهم من غير وجه وأعلموه بذلك ، أمرهم فيه بأمر بانروا جميعاً إليه وربما ضربوه وأخرجوه من بينهم» .

أما نص هجائب الأكر في جزئه المتعلق بالحملة الفرنسية في مصر، فقد ترجمه جوزيف كوك، تحت العنوان غير الدقيق : *Journal d'un notable du Caire durant l'expédition française*, Paris, 1979.

وبعيداً من أن يكون نصاً كتب يوماً بيوم، فإنه قد عرف إشارات تحرير متتالية تتألف من عمليات حذف وإضافات مهمة لمبدأناً. وهناك نص متوسط بين اللغة والنسخة النهائية [من هجائب الآثار]، معروف تحت عنوان : مظهر التقليد بذهاب نولة الفرنسيين. وهو عمل كتب بناء على طلب المصدر الأعظم عند صولة العثمانيين في عام ١٨٠١. وهو يتميز بالرغبة في مراعاة جانب العثمانيين وفي تبرئة سلحة العلماء الذين، شأنهم في ذلك شأن الكاتب نفسه، كانوا قد تعارفوا مع النظام الفرنسي. وسوف أعطى الأولوية هذا لتاريخ اللغة، الذي لم يستخدم حتى الآن إلا بدرجة قليلة والذي يعتبر أقرب من الأحداث والهجائب الأكر الذي يقدم صورة ملطخة أكثر لما جرى. ويقتصر إلى تعدد طبعات هذا النص الأخير، فسوف تشير إلى اليوم والشهر سعياً إلى تبسيط الإحالات أو إلى ترجمة كوك الفرنسية عندما استشهد بها على نحو مباشر.

Sur ces questions, voir Gilbert DELANOUE, *Moralistes et politiques musulmans...*, essentiel pour la compréhension de l'œuvre de Jabarti et dont je m'inspire pour analyser le texte de Jabarti et Ismail K. POONAWALA, "The Evolution of Al Gabarti's Historical Thinking as reflected in the *Muzhir* and the *Aja'ib*", *Arabica*, 15, 1968. pp. 270 - 288.

Acte de nomination dans La Jonquière, II, pp. 101 - 102. - ١٥

LA JONQUIÈRE qui cite Laugier, II, p. 66. - ١٦

SULKOWSKI, "Notes sur l'expédition d'Égypte", in- ١٧
SKALKOWSKI, *Les Polonais en Égypte*, Paris, 1910, pp. 29 - 30.

١٨ - يرى لاجونكيير (II, pp. 103 - 104) احتمالاً على المعلومات التي قدمها للهنسيون - الجغرافيون، أن اتخذوا طريق النيل لم يكن من شأنه تأخير بونابارت خير يومين أو ثلاثة أيام. لكن بونابارت لم يكن يحوز في تلك اللحظة هذه المعلومات، علاوة على أنه قد جرى تصوير طريق ممنهول له على أنه طريق سهل؛ وشهر سولكوفسكي إلى ذلك : «إن هذا الطريق الصعب من الطريق الآخر، ويبدو أن الوصول إليه يحتاج إلى مسيرة يوم؛ وقد قيل لنا إنه مأمول؛ وجرى الإشارة إلى أسماء المناطق للأهولة؛ والحق أنها توجد وسط هذه الصحراء، لكن ذلك ليس من شأنه إلا أن يجعلها أكثر بهامة». Ibid, p. 30.

Clot BEY, *Aperçu général sur l'Égypte*, Bruxelles, 1840, T. II. pp. - ١٩

164 - 165 وهو يؤكد أن هذه الحكاية «صحيحة تماماً». والحال أنه لم يتمكن من سماعها من روزيتي نفسه الذي كان قد مات قبل وصوله. ومن المحتمل أن هذه الشهادة، التي انتقلت شفاهة، إنما ترجع بالأحرى إلى مهمة روزيتي التالية لدى مراد بك.

JABARTI, nécrologie de l'année 1228. - ٢٠

٢١ - الجبرتي، للمدة، النص العربي، ص ٤. في نسخة نصه، يرى الجبرتي في زعم مولد بك
أمرات سوء ذية جد كبير. فبالنسبة لكاتب الحوليات، يتلخص الأمر في أن الأمراء قد حولوا،
لاستعمالهم الشخصي، الأموال المرسومة للقطاع من مصر.

٢٢ - *Correspondance de Napoléon*, IV, p. 267. Rédigé à bord de l'Orient, le 12 messidor an VI (30 juin 1798).

٢٣ - Nicolas TURC, *Chronique d'Égypte, 1798 - 1840*, éditée et traduite par Gaston WIET, Le Caire, 1950, p. 19.
الكبير الآخر حول الحملة الفرنسية في مصر. وهو كاثوليكي يوناني ولد في عام ١٧٦٣ في دير
القمر في لبنان. وهو أحد أفضل ممثلي النهضة الأدبية العربية للكاثوليك اليونانيين. ولما كان
شاعر بلاط بشير الثاني، أمير الجبل اللبناني، فإننا نملك ديواناً شعرياً مهماً له. وقد كانت له
أسرة في دمياط، المركز الكبير للكاثوليك اليونانيين وقد زار مصر في عدة مناسبات. وفي عام
١٧٩٨، أرسله بشير الثاني إلى هذا البلد لكي يجمع معلومات من عمل الفرنسيين الذين يدخل في
اتصال معهم، خاصة مع المستشرق ج. ج. مارسيل. وهو يرجع في عام ١٨٠٤ إلى دير القمر
ويموت في عام ١٨٢٨ بعد أن عانى من أمراض جعلته شبه عاجز على ملو عشر سنوات.

ونحن نملك نصين جد مختلفين أحدهما من الآخر عن تاريخه للحملة الفرنسية، يحمل
الأول عنوان «تذكركم جمهور الفرنسية الأقطار المصرية والبلاد الشامية»، ويحمل الثاني عنوان
«مذكرات نغولا الترك». وقد نشر نيجرانتج نص التملك في عام ١٨٢٩ وجرى نسخه في كتاب
حوليات حيدر الشهابي (الذي كان قريباً من نغولا الترك)، الذي نشره أسد رستم وفؤاد البستاني،
وأعيد نشره عدة مرات منذ عام ١٩٢٢. أما نص المذكرات فقد نشر جزء منه على يد كارديان في عام
١٨٢٨ (تكملة لطبعته الأولى للجبرتي) ونشر كاملاً على يد جاستون ويت (انظر أملاء). وتشير
دراسة المخطوطات والمقارنة بين النصوص إلى أن التملك هو النص الأصلي الذي يرجع أنه قد كتب
قبل عام ١٨١٠ في حين أن للمذكرات تنقيح سابق على عام ١٨٢٩، فلم به شخص مجهول لابد أنه
قد عاش في مصر في زمن الأحداث وكان، هو الآخر، قريباً من الفرنسيين. ولا ندري إلى أي من
الكتبتين يمكن رد الجزء التالي لعام ١٨٠١ في المذكرات. والدراسة الأساسية التي تنبع منها كل
هذه التحقيقات هي عمل Margarethe Elise WEYERGANG, *Nigula al Turk as a source on the French Occupation of Egypt*, Thesis for the Master of Arts
Degree, Université Américaine du Caire, juin 1985.

٢٤ - إنتى أتبع هنا النص الذي قدمه كارال للمرسلة المرسلة إلى الباب العالي - (pp. 160-163) ومصر لرفض مقبسة من حيث إنها ألغى إسلام ومن حيث إنها مجاورة للمدينتين المقدستين
في الحجاز.

Nicolas TURC, pp. 19 - 20.

- ٢٥

٢٦ - يتحدث نغولا الترك عن القلعة، ويشير سولكوفاكي بشكل واضح إلى أن فرنسيين
آخرين قد وجدوا ملائناً عند زوجة مراد بك (P. 44)؛ أما الجبرتي (المدة، ص ٤٩)، فهو يتحدث عن
«بيوت الأمراء».

Bonaparte à Desaix, le 3 juillet 1798, LA JONQUIÈRE, T. II, p. - ٢٧
106.

٢٨ - إن العرب - الهند هما أنهم قد تمركزوا لتسليم الجهاد والجمال التي كانتا ملزمتين بتقديمها بموجب معاملتهم في الإسكندرية، قد حصلوا على فتوى من العلماء ومن مشايخ القاهرة، تلمزمهم باللجوء إلى السلاح للثود عن دين النبي، للهند من الكفار. وقد أعلنوا لمحمد كريم أنه بما أن دينهم قد تعرض للاختناق، فإنهم يعتبرون للمعاملة كلن لم تكن: : NAPOLÉON, *Campagne d'Égypte et de Syrie, in Correspondance de Napoléon I^{er}*, Tome XXIX, Oeuvres à Sainte - Hélène, Paris, 1869, p. 524.

٢٩ - إن الطواغيت الفرنسية المحلطة بالهند، قد بدت كاستطيل تتبعها اسمك القرش حيث، كما كان الهندي يقول، «كانت للماريشالية هي التي تحافظ على الأمن». وكان هذا الحفظ على الأمن قاسياً، لكنه كلن يساعد على النظام، وقد تعود الهندي على ذلك. . Ibid, p. 525.

٣٠ - La principale source pour les événements de Rosette est le livre de souvenirs tardifs de CHALBRAND, *Les Français en Égypte ou souvenirs des campagnes d'Égypte et de Syrie par un officier de l'expédition, recueillis et mis en ordre par J.J.E. Roy*, Tours, 1875, pp. 51 - 53.

٣١ - انظر المقتطف من يرميات لوجيبه في LA JONQUIÈRE, II, pp. 123 - 127، «إن المصريين خائفون كما أنهم شحيحون؛ ولذا فإنهم لم يتجرأوا على عمل شيء لضمة الفرنسيين، وذلك خوفاً من هوية المماليك، ولقد أياهم بعمل أبسط شيء، فإنهم يعبرون من أكثر لمنيائهم حسارة في أن تنتصر على المماليك. ولم تكن لديهم فكرة من استبعاد قواتنا لخوض الحرب، وفي هذا الحسد كان الفرنسيون المقيمون في رشيد يشاطرونهم خوفهم».

٣٢ - B6 4, du général Dugua du 21 messidor an VI (9 juillet 1798).

٣٣ - SKALKOWSKI, op. cit. p. 70.

٣٤ - *Voyage en Égypte et en Syrie*, publié avec une introduction et des notes par Jean Gaulmier, Paris - La Haye, 1959, p. 106.

٣٥ - Cité par CRECELIUS, *Roots of Modern Egypt...*, op. cit. p. 61.

٣٦ - *Campagne d'Égypte, Correspondance...*, op. cit., XXIX, p. 615.

٣٧ - Pour le nom de Shubrâkhîit, je suis la graphie arabe de la carte de Jacotin dans la *Description de l'Égypte*. SHANAWI propose Shubrârit (op. cit. p. 24).

٣٨ - Colonel Roger MICHALON et chef de bataillon J. VERNET, *L'adaptation d'une armée française de la fin du XVIIIe siècle à un théâtre*

d'opérations proche - oriental, Colloque International d' Histoire Militaire, Téhéran, juillet 1976, Château de Vincennes, 1976, p. 9.

Voir l'article Infanterie du *Dictionnaire Napoléon*. - ٢٩

١٠ - من منا المسيحية الشهيرة والحمير والعلماء في الوسط.

Le général Pelleport cité par Jacques BAINVILLE, *Bonaparte*, - ١١
Paris, 1936, p. 32.

Campagne d'Égypte..., op. cit., pp. 534 - 535. Les Clichyens sont - ١٢
les royalistes et les constitutionnels battus au 18 fructidor.

Sulkowski, in SKALKOWSKI, op. cit. p. 72. - ١٣

JABARTI, *Mudda*, 19 (texte arabe). - ١٤

Ibid, pp. 20 - 21. - ١٥

Voir l'étude de LA JONQUIÈRE, II, pp. 584 - 586. - ١٦

LA JONQUIÈRE, II, p. 181. *L'Histoire Scientifique* reprend ce - ١٧
chiffre.

Mudda, p. 23. - ١٨

١٩ - *Correspondance de Napoléon I^{er}*, IV, p. 431. يلاحظ الجبرتي أن كلمات
البيان معروفة وأن الفلانة معجزة (الليلة، من ٢٧)، وقد كتبه فيكتور؛ ولقد كان المستشرق الأول في
أوروبا؛ وكان يتحدث بلغة بلقاء ويسهولة وبأسلوب من شأنه إحياء الأثر المنسب.
(Napoléon I^{er}, *Campagne d'Égypte...*, XXIX, p. 541).

Sur le Caire au XVIII^e siècle, voir l'ensemble des travaux de M. - ٥٠
André RAYMOND et, en particulier "Le Caire sous les Ottomans, 1517 -
1798, in *Palais et maisons du Caire, II, époque Ottomane*, Paris, 1983, pp.
15 - 90 et *Grandes villes arabes à l'époque ottomane*, Paris, 1985.

LA JONQUIÈRE, II, p. 203. - ٥١

LA JONQUIÈRE, II, p. 198. - ٥٢

Sur ce quartier, voir Doris BEHRENS - ABOUSEIF, *Azbakiyya - ٥٣*
and its environs from Azbak to Isma'il, 1476 - 1879, Le Caire, I.F.A.O.,
1985.

LA JONQUIÈRE, II, p. 208 et MASSON, *Napoléon et sa famille*, - ٥٤
Paris, 1902, I, p. 236. لم تصل هذه الرسالة إلى المرسل إليه والحال أن جوزيفين في نفسها
التي سوف تختار في نهاية الأمر المنزل الشهير "الماليزون" (MASSON, "La Malmaison

(pendant le Consulat", in *Jadis*, Paris, 1905, I, p. 294).
هذه الرسالة إلى جوزيف بشأن جوزيفين تصويهاً راجعاً لـ «عقبة جوزيف» تلك التي شخصها
فرويد لدى ثابوليون (انظر أملاه)

ونحن نجد الشعور نفسه لدى كثيرين آخرين من المسؤولين الفرنسيين، وهكذا، فإن تلك
اللقاءات الهائلة تلمس يكتب، في ٢٧ يوليو ١٧٩٨ إلى صديقه الحميم كليبر :

«لقد وصلنا أخيراً إلى البلد الذي طالما اشتبهته. فما أبعد حتى عما تصوره الخيال الأكثر
اتزاناً. [...] إن حي المليك وحده هو الحي الصالح للسكنى، ويسكن القلعة العلم في منزل جميل
لأحد البكوات [...] وقد سكنا نحن كلنا في بيوت مهجورة وجد رديئة. [...] وقد تلقى الجنرال
لان لمرراً بالتحرك لتولى قيادة فرقة ميدو بدلاً من فيال الذي تحرك مع كتيبة إلى دمياط، وهو يؤكد
في أنه سوف يرفض تنفيذ الأمر Vincennes, B6 4, copie certifiée d'un original
communiqué par M. Charavay.

٥٥ - يستخدم المؤرخون المصريون الحاليون عادة هذا المصطلح للإشارة إلى سياسة
بونابارت خلال الحملة. كما يستخدمون مصطلح «السياسة الإسلامية القومية».

٥٦ - NAPOLÉON I^{er}, *Campagne d'Égypte...*, T. XXIX, pp. 572 - 573.
C'est lui - même qui cite Volney.

٥٧ - *Correspondance de Napoléon I^{er}*, IV, p. 359. J'ai ici modifié les
transcriptions des éditeurs de la correspondance. يحدد الجبرتي عدد الأشخاص في
الديوان عشرة، ولا يحضر السجلات الجلسة الأولى لأنه يريد القضاء من الأدنى الشخصي الذي
تعرف له (كان الهندو قد اعتلوا عليه عندما حاول الهرب من القاهرة)، أما عمر مكرم فهو مع
إبراهيم بك ولا يريد العودة بالرقم من عهد الأمان الذي أرسله إليه الفرنسيون، وأما الأمير فهو
هائب من القاهرة، وهذا أيضاً شأن محمد المهدي ومصطفى المنهوري ويوسف الشهبازي
ومحمد التوخلي. ولا يتحدث نقولا الترك إلا عن ثمانية معلمين والذين من القهار، إلا أن من الواضح
أنه يشير إلى التركيب التالي للديوان. وتشير بطاقات الدعوة للرسالة إلى الأشخاص الغائبين إشارة
واضحة إلى أننا بلقاء قائمة أعدت سلفاً من جانب فيكتور دو بارادي بالتحديد. وفقاً لـ ج. ج.
مارسيل، وهو شاهد من الدرجة الأولى، فإن فيكتور قد تبع الحملة «بوصفه ترجماناً لول للقلعة
للعام، لكنه كان في الواقع بالأحرى وزيره الأول في كل ما يتعلق بالهند ويسكن الشرق».

*Supplément à toutes les biographies, Souvenir de quelques amis
d'Égypte*, Paris, 1834, p. 7.

SHANAWI, op. cit. pp. 30 - 31.

- ٥٨

٥٩ - يوناني، أي رومي، ومن هنا لقبه بالعربية، فرط القرمان،

على أن الجبرتي، في هذه الفترة، يسميه بالفرنسي.

JABARTI, *Mudda*, pp. 29 - 30.

- ٦٠

LA JONQUIÈRE, II, pp. 283 - 284, et B 6 4.

- ٦١

La Correspondance de Napoléon (IV, p. 367), à la suite de la - ٦٢
Correspondance inédite, met une Correspondance entre Bonaparte et le
 diwan sur les réformes essentielles à faire. C'est une erreur chronologique,
 car il s'agit des questions posées au diwan général d'octobre 1798, voir infra:

B 6 5, le août 1798; c'est la seule trace conservée par les archives - ٦٣
 d'activités du diwan du Caire dans cette période.

٦٤ - بوناپارت إلى اللجنة الإدارية، ٢٨ يوليو ١٧٩٨ : «إن ما أرمى إليه، أيها المواطنون،
 ليس هو أن يكون الأمين فوق المفوض الفرنسي [فكل ما هناك] هو أنني على ثقة من أنه يجب ترك
 المسؤولية كلها إلى الأقباط وإلى أن يتمكن الفرنسي من أن يكون أكثر نراية بعلمات ولغة البلد.
 ويجب على الفرنسي أن يكون هناك فقط للوقوف على العائلات للشار إليها والإشراف والتمكن
 من تقديم جميع المعلومات التي قد تكون مطلوبة. إنه أشبه ما يكون بمراقبه».
Correspondance de Napoléon, IV, p. 380.

٦٥ - هذا هو ما سوف توطئحه لهن كيث في مارس ١٨٠٠ : «لقد كانت هذه السيدة
 تمكنت اسم الفرنسي نفسه. وقد حدثتني من العمة التالية لشهامتهم. لقد جاء الشاب بوارنيه
 ليراه، وأقدم لها سواراً جميلاً من اللص. وأحال أن بوناپارت، عندما رأى الجمهورية، أصدر قراراً بأن
 تلغح طرية قدرها ٥٠ كيساً [من الدراهم] لجهزت على سداها». Public Record Office,
 Adm 402.

Histoire Scientifique, III, pp. 228 - 229. - ٦٦

٦٧ - LA JONQUIÈRE, II, 288 : «سيدة لو فتاة واثنان من الخصيان Le texte
 est conservé dans B 6 6.

Histoire Scientifique, III, p. 132. - ٦٨

JABARTI, 12 safar 1213. - ٦٩

LA JONQUIÈRE, II, p. 291. - ٧٠

LA JONQUIÈRE, II, p. 335. - ٧١

٧٢ - LA JONQUIÈRE, II, pp. 327 - 332. حول التناهي، انظر Domminique
 CHEVALLIER ed., *L'espace social de la ville arabe*, Paris, 1979.
 مشكلة المجال الاجتماعي، انظر Domminique CHEVALLIER, *La ville arabe : notre*
vision historique, p. 11. إنه «مجال يصوغه هيكل للمجتمع العربي، الذي تعتبر الجماعات
 العائلية والقبلية، على أساس نظام قرابة أصلي، أساساً له، والذي يؤدي إلى انزواء وحجب الهويات
 والأحياء وجميع عناصر الشبكة الحضرية، وهكذا فإن التخطيط الحضري ينتج التماسك الداخلي
 للمجتمع» إن تدبير فتح الأحياء إنما تمثل عنواناً حقيقياً، جد اضطراري، من جانب الفرنسيين.

٧٣ - *Correspondance de Napoléon*, IV, 403. يبلغ بوناپارت في معنى
 سياسته، وهو يستلهم قولني مباشرة : «إن الباشا، على مرار السلطان، هو رئيس كل شرطة

حكومتها، وتحت هذه الصفة، يجب أن نلهم القضاء الجنائي أيضاً. فهو يملك الحق المطلق تماماً على الحياة والموت؛ وهو يمارسه دون مراعاة للشكليات، ودون استئناف. وحيثما صلب جريمة، فإنه يأمر بإلقاء القبض على اللص؛ ويتولى الجانيون الذين يراقبونه هناك أو قطع رأسه فوراً. Voyage..., p. 366.

LA JONQUIÈRE, II, pp. 305 - 306.

- ٧٤

٧٥ - إن الجيش «ما إن صوف أنه يفتخر القلعة، قد أخذ يعبر عن ثمرات. وقد اتخذ السخط لون عصيان وتأمر، لم يكن معروفاً حتى ذلك الحين. وقد أرسلت الوحدات مخدوعين عنها. وأخذ عدد من الجنرالات ينساقون الأمور بينهم. لقد كان من الغريب أن يدور حديث، في عز القبط، من إسدال أمر بتحريك القوات في صحراء بلا ماء، وتعريضها، دون ظل، لشمس الصيف الحارقة». NAPOLÉON I^{er}, *Campagne...*, XXIX, pp. 543 - 544.

٧٦ - إن صالح بك هذا صوف يلجأ إلى القدس لكي يودع هناك مهمات الحج، وصوف يستقر بعد ذلك في غزة حيث يسقط مريضاً ويموت (الجهنمي، المدة). وفي مذكراته، يزعم وصتم، مملوك ناپوليون، الذي كان ينتمي إلى هذا الأمير، والذي رافق سيده إلى هناك، أن هذا الأخير قد جرى نص القسم له من جانب الجنرال وأنه مات بعد ذلك مباهرة. *Souvenirs de Roustam*, introduction et notes de Pal COTTIN, Paris, s.d. pp. 40 - 41. لوكوندييه دو ليهييت. فهي تذكر في عدد ٢٠ فيفيمبير من العام السابع (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) «إن صالح بك، أمير الحج السابق، قد مات في القدس. وهناك تأكيدت بأنه قد جرى نص القسم له سعيًا إلى الاستحواذ على خزائنه». ويقدم نقولا الترك رواية أخرى:

«الحينما شاعنوه أهلى للنبية [القدس] بدوا يشتمون ويقولون: لعنكم الله يملعين، وبما انظلم الظالمين، سلمتم مدينة الإسلام إلى الفرنسيات للثام، وهربتم من وجه الكفار، وابتديتم تخريبها هذه الديار. فلما سمع صالح بك تلك الشتائم المذمومة والألفاظ المسمة، انتقدت بقلبه النيران وغاص في البحران. ونزل في منزله وهو مثل الششوان، ومرض جملة أيام من قهرة ثم قوارى في قهرة. وهكذا جأ إلى إبراهيم بك ولان معه لما حضروا إلى أراضي الشام؛ فكانوا يسمعون من الناس غليظ الكلام وقد ذاقوا المشقة والاعطاب وتقصوا الإهانة والعلاب، في البرارى والقفار من اللذل والإصرار، وكانوا أهلى الشام يحبرونهم في الكلام، ويلومونهم وهم لا يستحقون اللام». (WIET, pp. 29 - 30).

Voir sa correspondance avec les Français, Vincennes, B 6. 2. - ٧٧
JABARTI (CUOQ, p. 45) minimise l'ampleur des restitutions.

LA JONQUIÈRE, II, p. 375.

- ٧٨

NAPOLÉON I^{er}, *Campagne d'Égypte...*, XXIX, p. 564.

- ٧٩

B 6 6, Mouvements de la division aux ordres du général de - ٨٠
brigade Lannes depuis le 19 thermidor jusqu' au 28 thermidor
inclusivement.

Textes dans LA JONQUIÈRE, II, pp. 380 - 381. - ٨١

Sur Alexandrie durant l'été 1798, voir *Kléber et Bonaparte*. - ٨٢

B6 5 , Rapport de Dumuy du 3 thermidor an VI, 21 juillet 1798. - ٨٣

٨٤ - B6 15 , سلسلة الشهادات المتعلقة بعبد الله بلقي ، « لقد انتقل إلى معسكر العرب الذين يجمع على اتعابهم بسطوة كبيرة شأنهم في ذلك شأن سكان رندسيين في مدن إقليم البحيرة ، والذين تعلمد معهم - هؤلاء وأولئك - على حمل السلاح ضد الفرنسيين ، وذلك تأكيدات في الرات نفسه بأن هذا للفري بلقي على رأس تلك القوة من الجنود المسلمين التي تقوم الآن بأعمال الرصنة في البحيرة وتعترض سبل المواصلات وتنهك في جميع التجاوزات ضد الفرنسيين ».

٨٥ - *Kléber et Bonaparte...*, I, pp. 161 - 162. Sur Tallien, la réhabilitation du personnage par Marie - Hélène BOURQUIN, *Monsieur et Madame Tallien*, Paris, 1987. كان تاليان صديقاً لليونهارت (كان هامداً على نواجه) ، وبعد أن عرف أهلاً سياسياً إثر فشل سياسي ، أخذ يطمح في التمكن من الاستفادة من صعود الفاتح.

٨٦ - *Kléber à Bonaparte*, le 13 thermidor (31 juillet 1798), *Kléber en Égypte...*, pp. 166 - 167.

٨٧ - *Journal des opérations du général Kléber pendant toute la durée du commandement qu'il exerça à Alexandrie*, in LA JONQUIÈRE, II, p. 234. L'intégralité de ce manuscrit a été publiée par la *Revue d'Égypte*, 1895, II, pp. 17 - 50, et pp. 31 - 111.

٨٨ - *Menou à Bonaparte*, le 27 messidor an VI, 15 juillet 1798, LA JONQUIÈRE, II, pp. 238 - 239 et B 6 4. يشكو إليه من أنه وقع ضحية للمعاليك متعلماً إليه رواية مشوشة عن عدم الإصناف ، ويطلب أن يأخذ الفرنسيون مصالحه في الحسبان (B6 2 ، نون تاريخ) . والأرجح أن هذا الشخص هو [عبد الله] بدوي أها (انظر انهاء) .

٨٩ - B 6 2, Instruction pour le commandement égyptien de la ville de Rosette.

٩٠ - [إن بدوي ، الذي لابد وأنه كان نظيفاً للأشراف ، كان يحمل بالفعل رتبة شورجي أعليد ميليشيا [لوجان] الإنكشارية. (B 6 4, sans date mais mois de juillet, nomination de l'aga de Rosette).

B6 2, sans date.

- ٩١

Ordre du 6 messidor an VI, 24 juin 1798, LA JONQUIÈRE, II, p. – ٩٧
25.

Menou à Bonaparte, le 28 messidor VI, 16 juillet, LA – ٩٨
JONQUIÈRE, II, p. 239.

Menou à Bonaparte, LA JONQUIÈRE, II, p. 239. – ٩٩

Al Kurayyim à Menou, B6 5, sans date, mais à bord d'un navire – ١٠٠
français, extrait dans *Kléber en Égypte...*, I, pp. 168 - 169.

B6 4, lettres de al Kurayyim à Menou, textes arabes et – ١٠١
traductions.

Jaubert, ordonnateur en chef de l'armée navale, à Menou, le 18 – ١٠٢
juillet, DOUIN, *La flotte de Bonaparte...*, p. 99. C'est le livre indispensable
sur cette question, je ne fais qu'en suivre la démonstration.

Pour le récit de la bataille, je suis essentiellement les analyses et – ١٠٣
les nombreux documents cités par La Jonquiére.

٩٩ – كان كليبر قد عرف أيضاً اتفاق تسليم يلزمه لديها بعدم العودة إلى القتال خلال
الحمية مابينس في بداية حروب الثورة، لكنه استأنف الخدمة على الفور مقاتلاً في الثائدييه. وكانت
السلطات الثورية قد رأت أن بنود الاتفاق لا تنسحب على الحرب الأهلية.

١٠٠ – تلقى تحليلات لاجونكيير ودون تماماً بشأن التزييفات التي قام بها بوناپارت.

LA JONQUIÈRE, II, 453 et B6 5. Voir aussi pour cette affaire, – ١٠١
Histoire Scientifique, III, pp. 259 - 261. Vivant Denon assiste à la
destruction du village et en fait un dessin à lueur de l'incendie (*Voyage dans
la Basse et Haute - Égypte pendant les campagnes du général Bonaparte*,
Paris, 1802, p. 33.

B6 5. – ١٠٢

LA JONQUIÈRE, II, p. 452. – ١٠٣

Berthier à Menou, le 14 août 1798, B6 5. – ١٠٤

Proclamation de Menou, B6 5. – ١٠٥

Bribes à Menou, le 16 août 1798, B6 5. – ١٠٦

Kléber à Bonaparte, le 20 août 1798, *Kléber en Égypte...*, I, p. – ١٠٧
223.

Kléber en Égypte..., I, p. 263. – ١٠٨

Kléber à Bonaparte, le 19 août 1798, *Ibid*, I, pp. 226 - 229. – ١٠٩

الفصل الرابع

التعاون والمقاومة

محاولة الإغواء

حفظ بونابارت

إن كارثة أبو قير بعد مرور نيلسون الأول بالإسكندرية، إنما تبدو لبونابارت بوصفها تحليفاً ميثاقياً جديداً من جانب القدر. لكن الحظ لم يحقه، كما يوضح ذلك لحكومة الإنارة، «لقد شامت الأعداء في هذا الطرف كما في كثير من الظروف الأخرى، إن تثبت لنا أنها إذا كانت تمنحنا هيمنة عظمى على القارة (الأوروبية - المترجم)، فإنها قد وهبت إمبراطورية البحر لخصومنا (البريطانيين - المترجم). إلا أنه على الرغم من جسامه هذه النكسة، فإنها لا يمكن أن تُعزى إلى خيانة الحظ؛ وهو لم يخنا أصلاً؛ على العكس، لقد خدمنا في هذه العملية بأكثر مما فعل من قبل [... فقد كان الإنجليز غائبين لوقت طويل بما يكفي للسماح بالاستيلاء على مصر السفلى]. ولم يترك الحظ أسطولنا لقدره، إلا عندما أبرك أن كل محاولاتنا بلا طائل» (١).

على أن هذا الحظ، يحرمه الآن من أي أمل في العودة إلى أوروبا، وهي إمكانية لم يتخل عن التفكير فيها. وإذا وجد نفسه حبيس فتحه، فإنه يتعين عليه إنجازه ويعاود تأمل أحلامه في إنشاء إمبراطورية شرقية. وفي سانت - هيلين، سوف يروق له أن يحكى كيف أنه، في مواجهة فتور همه جنونه، جعل لهم بهذا الخطاب، «حسنًا، ها نحن ملزمون باجتراح أشياء عظيمة؛ وسوف نجتريها؛ إننا ملزمون بتأسيس إمبراطورية عظمى، وسوف نؤسسها. إن بحاراً، لا نهيمن عليها، تفصلنا عن الوطن؛ لكن أي بحر لا يفصلنا لا من أفريقيا ولا عن آسيا. إن عددنا كبير، ولن يعوزنا رجال لا اختيار كوالسونا. ولن تعوزنا ذخيرة حربية، فلدينا منها كثير؛ وعند الحاجة، سوف ينتجها لنا شامبي وكوتتيه» (٢).

والواقع أن الحالة النفسية لجنود الثورة هي من الرهالة بحيث لن رد الفعل على

الهزيمة في صفوف الجيش البري يتميز على نحو خاص بالرهبة في الثار. والحق أن البحارة هم الذين هُزموا...

هبط وهما النيل

عندما يصل بونابارت إلى العاصمة في ١٥ أغسطس، يتخذ التلاميذ التي يحتمها تغير الوضع والمصاعب التي قوبلت في البلقا. والحال أن الاحتفال بصلصلة كاملة من الأعياد يبدو له وسيلة لتخفيف الأثر المعنوي على السكان المصريين لهزيمة أبو قير، التي يحاول من جهة أخرى التستر عليها لأطول وقت ممكن.

وفي مواجهة القاهرة، على جزيرة الروضة، يوجد مقياس النيل. وعندما يصل لارتفاع الماء إلى ستة عشر ذراعاً، يجرى فتح السد المقام عند مدخل القناة التي تربط النيل بالقاهرة. وهناك العيد هو أحد الأعياد الرئيسية التي تحدد إيقاع حياة السكان القاهريين. ويحتفل به بونابارت بالقصى حد ممكن من البهارج في الأول من فبروكتيدور من العام السادس (١٨ أغسطس ١٧٩٨). وعند الأول من الصحيفة الأولى المطبوعة في مصر، لوكورنيه نو ليهيهت، يقدم وصفاً لما حدث: وفي الساعة السادسة صباحاً، حضر إلى المقياس القائد العام، يرافقه جميع الجنرالات وركان حرب الجيش، وكتخا البلشا والديوان والقاضي وأما الأنكشارية. وقد اعتلى جمع كبير من الناس جميع الكشبان المتاخمة للنيل والقناة.

«وشكل كل الأسطول الصغير للزينة بالأعلام وجزء من الحامية المسلحة مشهداً بالغ العظمة وبالغ الجلال والحسن. وجرى استقبال وصول الموكب إلى المقياس بإطلاق عدة طلقات من المدافع. وعزفت للموسيقى، الفرنسية والعربية، عدة أغان خلال عملية فتح السد.

«وبعد ذلك مباشرة، عبر النيل السد وتدفق كسيل في القناة التي ينقل عبرها الخصوية إلى وادي القاهرة.

«ونثر الجنرال عدة آلاف من الهدايا على الناس [...] ثم عاد الموكب إلى صاحة الأزبكية، يتبعه جمع كبير من الناس الذين يتغنون بمدح النبي والجيش الفرنسي، لاعنين البكوات وطغيانهم. وقيل بلى لقد جهتم من أجل إنقاذنا بأمر الله الرحمن الرحيم؛ لقد حالفكم النصر وجاء لجعل ليضمان للنيل منذ قرن، وهاتان نعمتان لا يقدر على الإنعام بهما سوى الله وحده» (٢).

ويرسم الجبرتي صورة للحادث قبل تفلاؤلا بشكل واضح. فمما لا مراء فيه أن الفرنسيين مرأون حين يطلبون من الناس التتره والاستمتاع في الوقت الذي يزيون فيه الخرائب والأكوات على سكان القاهرة. فم إته. فيما عنا قليل من البطالين (الصنادلة)، لم يشارك في الأفراح النهارية والليلية عبر الإفرنج و الأقباط والنصارى الشوام .

مولد الله

في اليوم نفسه ، يؤدي الرحيل السريع لوحات فرنسية متجهة إلى تعزيز دفاع الساحل إلى تأكيد الشائعة التي تحدث عن نمار للأسطول الفرنسي على أيدي الإنجليز، والتي تروج في القاهرة منذ بعض الوقت (4). ويحظر الفرنسيون أي تعليق على هذا الموضوع، وبالرغم من تدخلات القبول، يفرضون ضرائب فاحشة على كل مخالف. ويستفيد الجبرتي من الحادث لكي يتحدث عن تطوق الإنجليز البحري وتلقو الفرنسيين البحري وكذلك عن رهان حملة مصر، السيطرة على الهند. (5)

ويعرف بوناپارت أن للشايخ لا ينوون تنظيم احتفال عام بالعيد السنوي لمولد النبي. ومن المرجح أن لك كان شكلا من أشكال الاحتجاج للعنوي. وعند سؤالهم، يجيب كبار رجال الدين بأنهم لا يحوزون الأموال الضرورية للاحتفال. وسعياً إلى تعزيز صورته كصديق للإسلام، يعطي القائد العام للشايخ البكري للبلغ الضرورية للمصاييح والفرايس والمشاعل للمثلية. (6)

ويستمر مولد النبي عدة أيام منذ ٢١ أغسطس. ويدهش الفرنسيون لعروض البهلوانات القصيرة والرقصات للتنشئة التي يقوم بها أفراد الطرق الصوفية. وهذه للموسيقى تبدو لبيتروا باروكية غريبة. (7)

ويشارك الجيش في الأفراح باستعراضات عسكرية وبحللات موسيقية والعاب نارية. ويستفيد بوناپارت من الاحتفالات ليخلق على الشايخ البكري منصب نقيب الأشراف، حيث تكون له السلطة على جميع أشراف مصر. وكان حائز للمنصب، عمر مكرم، قد لحق بإبراهيم بك في سوريا. وقد تم التنصيب في نمر الشايخ. وفي النهاية التي تطلو لك، يكاد الفرنسيون من الاضطراب إلى أن يأكلوا بأيديهم اصنافاً جد متبلة تعافها نفوسهم (8). ويجري طبع منشور بالعربية عن العيدين لتوزيعه في مصر وفي القبلتان المجاورة. (9)

وكل هذه الأعياد توحى للجندال نيهوى، قائد مواقع القاهرة، بملاحظات متفائلة، «إننا نخدع المصريين بتعلقنا بالصوري بديانتهم التي لا يؤمن بها بوناپارت ولا نحن بأكثر من إيماننا أو إيماننا بديانة [إلهيا الكاثوليكي - المترجم] هي الراحل. [لأنه، ومهما كان رأى المرء فى ذلك، فإن ذلك البلد سوف يصبح بالنسبة لفرنسا بلداً لا يقدر بثمن، ولعل أن يخلق [كذا] هذا الشعب الجاهل من غيبوبته، سوف يتاح الوقت لجميع الكولون لتدبير شئونهم. إننا نحل هنا محل مجرمين لم يتركوا للشعب غير ما يستر العورة، وسوف يشهد أيضاً تغيراً عظيماً حين نجعلهم يسهمون بشكل موحد. والحال أن حفاظة السكان تأخذ بالفعل فى التحول إلى لطف. وتبدو رقتنا بالنسبة لهم غير عادية؛ شيئاً فشيئاً سوف نجعلهم أقل حفاظة، وإن كنا سوف نضطر إلى كبحهم فى ظل نظام قس حتى نثبت قدرنا من الخوف الضرورى فى نفوسهم، فمن شأن معالمة بعضهم من أن لاخر أن تهيئهم هذا الحد الذى يجب عليهم عدم تجاوزه» (١٠).

إنشاء المعهد المصوح

هذا التفاؤل يعاود الظهور فى قيام بوناپارت بإنشاء المعهد (المجمع العلمى) المصرى، فى ٥ فبروايبر من العلم السادس (٢٢ أغسطس ١٧٩٨). وهدف هذه المؤسسة يتطابق تماماً مع فلسفة الأيديولوجيين، فهو معهد «للعلوم والفنون»، يهدف إلى:

١ - ترقية ونشر الآتوار فى مصر؛

٢ - بحث ودراسة ونشر للمعلومات الطبيعية والصناعية والتاريخية عن مصر؛

٣ - إبداء رأى حول مختلف المسائل التي تستشير فيها الحكومة.

وهو ينقسم إلى أربع شعب (لرياضيات، الفيزياء، الاقتصاد السياسى، الآداب والفنون) من اثنى عشر عضواً. وسوف تعقد جلستان هوميتان كل عشرة أيام. ومن بين المنكرات التي تتلى فى هذه الاجتماعات، سوف يجرى نشر المنكرات التي تعتبر الأكثر أهمية؛ وأخيراً فسوف يقدم المعهد كل ستة جائزتين، الأولى لموضوع يتصل بتقديم الحضارة للمصرية، والثانية لموضوع يتصل بتقديم الصناعة» (١١).

ويجرى تعيين ستة وثلاثين عضواً للمعهد. وهم أهم شخصيات لجنة العلوم والفنون. والحال أن الأوقات الأولى لإقامة العلماء لم تكن جد سعيدة وذلك بسبب الضرورات

العسكرية التي طغت للمستولين إلى مراعاة الأمور الأكثر إلحاحاً وإعمال الكوادر المدنية. وكان العلماء قد تركوا في البداية لشأنهم في الإسكندرية ورشيد أو أنهم قد رافقوا الأسطول الصغير على النيل، الأمر الذي عاد عليهم بمحن معارك أكثر قسوة من محن الجيش البري. ووجه هام فإن روايتهم لم تك قُطع. وقد قدم بعضهم مثل كوكتيه في الإسكندرية خدمات جد نفعه لصلاح المهندسين ولسلاح للدفعية. وتجمعهم في القاهرة وإنشاء للعهد يشيران بوضوح إلى أن الاستقرار يبدو الآن مؤكداً بشكل واضح. (١٢)

وتعقد الجلسة الأولى في ٢٣ أغسطس ١٧٩٨. ويجري انتخاب مونج رئيساً، ويوناهارت نائباً للرئيس وفورييه أميناً عاماً. وينشر تقرير عن عمل الجلسة في العدد الأول من صحيفة للعهد، لاديكاد ليهيبيتيان. والمصائل الواردة في جدول الأعمال هي بالدرجة الأولى مسائل عملية: تحسين الأكران التي يستخدمها الجيش، إيجاد بديل لحشيشة إديتار في صنع البيرة، تنقية مياه النيل، الاختيار بين طواحين الهواء أو طواحين الماء في القاهرة، موارد إنتاج القارود. ولكن للشروع التمهيني مائل أيضاً مما هي في مصر حالة القضاء، والنظام القضائي للدني والجنائي، والتعليم ؟ ما هي التمهينات الممكنة في هذه المجالات، والمرفوب فيها من جانب أهل البلد ؟.

وسوف تكون تلك هي الأسئلة المطروحة على يونان القاهرة. ومن جهة أخرى، فإن عنداً من أعضاء للعهد سوف يتولون مهام موفدين إلى الديوان. والحال أن رئيس تحرير الصحيفة، وهو تاليان على الأرجح، يختم هذا العدد باستدعاء الفكرة الأيديولوجية الرئيسية للمهمة على الحملة.

إن أوروبا المثقلة لا يمكنها أن تنظر بلا مبالاة إلى قوة العلوم المطبقة على بلد أعانتها إليه الحكمة للسلحة وحب الإنسانية، بعد أن نلتها منه لزمان طويل روح البربرية والهرس الديني. (١٢ مكتب)

لوكونرييه ذو الوجهين

في ٢٩ أغسطس، يستكمل يوناهارت العدة بإصدار صحيفة خاصة بالجيش، هي لوكونرييه ذو الوجهين. وهي تواصل تقاليد صحيفتي حملة إيطاليا، لوكونرييه ديغالي ولافرانس نو نو لارمييه ديغالي. ويتوجب عليها أن تكون أداة دعائية وسط جيش يشعر بالفعل بأن وجوده في مصر هو نفي لا يستحقه. وفي البداية يتحمل مسئولية النشر شخص مستقل، هو مارك لوريل، وهو صديق للقائد العام منذ إقامته في فالينس قبل

الثورة. والمصريون لهما غير فينتور دو هارادي وسكرتير بوناپارت، بوريان. والصحيفة صحفية رسمية تقدم المعلومات بما يتمشى مع آراء القائد العام (١٢).

وهكذا، يجرى التذكير بمسلك بروي البطولي في أبو قير، حتى يتسنى بعد ذلك على نحو أفضل إلقاء مسئولية الهزيمة على كامله (١٤). ويجري الحديث عن النجاحات الباهرة للانتفاضة الأيرلندية ضد السيطرة الإنجليزية (١٥). ويجري اختراع رسالة منسوبة إلى بحار إنجليزي مرسلة إلى عضو في البرلمان واستولت عليها سفينة مالطية من سفينة إنجليزية وأرسلت إلى مصر عن طريق تونس، حيث يجرى التهوين من شأن الانتصار الإنجليزي في أبو قير بينما يجرى الاندهاء بأن فتح مصر قد جعل من البحر المتوسط بحيرة فرنسية بل وربما أكثر من ذلك.

والقد أصبحت مصر بشكل حاسم تحت هيمنة الفرنسيين، الذين يمكنهم في غضون خمسين يوماً تلقى الرد على رسائلهم للرسالة إلى الهدد. إنهم سوف يعززون أمل انتصارهم، ويستثيرون سخط أعدائهم؛ وسوف يحتلّون كل التجارة عبر السويس. ولكن ماذا نقول ؟ من يرى الآن أين هم بالفعل ؟ ولماذا لا يصنع هذا الجيش الذي اجتاز الأكب الجوليانية والسويدي، وهي طريق غير معروفة في التاريخ الحديث، لكي ينقض على قلب ألمانيا، ما صنعه المقدونيون والرومان ؟ وإذا ما وصل مجرد ظل هذا الجيش، غير المظهر حتى الآن، إلى هناك، فما هو مصير القوة الإنجليزية... إنها ستصبح لثراً بعد حين (١٦).

بوناپارت والأعيان

في الأول من سبتمبر، يجرى تعيين مصطفى كلخدا (وكيل) الباشا، المسئول العثماني الكبير الوحيد الذي اختار البقاء، أميراً للحج مسئولاً عن القافلة (المحمل) التي تحمل كسوة الكعبة، حرم مكة (١٧). ويتعهد بوناپارت بتأمين الأموال اللازمة لمحمل استعادت قافلة العلم التالي.

وفي اليوم نفسه، يجد مشايخ الديوان أخيراً استجابة لطلباتهم المتكررة حول الأتعاب المتعلقة بوظائفهم. وهم يمشون إذ يعرفون أنهم سوف يحصلون على راتب منتظم وليس، كما هي العادة العثمانية، على حقوق ضريبية. وهذه الهدمة تستلزم خسارة ملحوظة للدخل قياساً إلى النظام القديم. (١٨)

ثم إن الفرنسيين يطلبون مقننات (حكوان) من إيرادات الالتزامات لكثير أهمية من تلك التي لرتأها التنظيم العثماني الذي ما يزال ساري للفعول من الناحية النظرية. وهم يعدون بلخذ ذلك في الحسبان عند تصوية الحساب الإجمالي القائمة على تسجيل مجهل الحقوق الضريبية. وهذا الإجراء يمس بوجه خاص للشايخ الذين يشكلون الفئة الأهم بين حائزي الالتزامات، منذ مصافرة التزامات للمالك. على أن بعض أعضاء الديوان يتمكنون من الاستفاعة من وظائفهم للاستيلاء على ممتلكات تخص للمالك أو لتقاضى أموال لقاء توسطاتهم لدى الفرنسيين. والحال أن نساء للمالك سوف يكن ضحايا بشكل خاص لهذه التصرفات.

ويرجع ذلك إلى أن الفرنسيين قد قرروا الإبقاء على النظام الضريبي القائم. فلم تك لديهم بعد غير أفكار مشوشة من تنظيم الإيرادات الضريبية وتوزيعها الجغرافي. لكنهم قد أصبحوا ملاكاً للالتزامات للملوكية وهم يستغلونها بشكل عام (١٩). وبما أن خزائن الجيش تشكو بشكل دائم من نقص الأموال، فإنهم يجبون، في الأرياف، رسوماً إضافية يعدون بخصمها من إجمالي الضريبة العقارية. والحال أن الاتباط، وهم الوكلاء للمعتلبن للإدارة الضريبية، هم الذين يتولون جباية هذه الضرائب. وهم يبدون متشددين بشكل خاص، فلا يترددون أمام الاستخفاف للتواصل للتهديد باستدعاء الجنود الفرنسيين (٢٠). والحق أن المصريين قد تكلفت سمعتهم على مدار القرون بأنهم لا يدفعون ضرائبهم إلا بعد استخدام القوة.

وفي ٦ سبتمبر، جرى إعلام محمد كريم. وكان بونلهارت على ثقة من خيانتة، وقد تردد لحظة قبل إنلتته. وكان العنصر منه يتوقف بشكل وثيق على الهموم المالية للفرنسيين. وكان هؤلاء الأخيرون قد بحثوا بلا جدوى، بما في ذلك في خزانات الإسكندرية، من كنوز الشريف التي تقدرها الشائعات العامة بأنها بالغة الأهمية. ولما لم يجدوا شيئاً له قيمته، فإنهم يقررون أن يدمروا له إمكانية اقتناء حياته. ويوجه الشريف التماساته إلى العلماء، للمعين له من جهة أخرى، ولحمد للحرقى، كبير التجار. وكلهم مهتمون بما يكفي بنجاتهم الشخصية ويرفضون مساعدته. وعظيماً جرى إعلام محمد كريم ومبا بالرمصاص على اللأ والطع رأس جثته. ويرى الجبرتي في ذلك عقاباً يستحق لعجرفته ورفيته في الاستعلاء. (٢١) لكن كريم يصبح بالنسبة لمكان القاهرة، خلافاً لذلك، شهيداً من شهداء الإسلام.

الإسلام والشارقة الثلاثية الألوان

كما أنه لا غرابة في أن يتبها أعضاء الديوان للمعارضة. وفي يوم إعدام كريم ذلك، يدعوهم بوناهارت إلى الاجتماع (٢٣). وهو يريد أن يفرض على رئيس الديوان، الشيخ للشرقائي، ارتداء وشاح أو شال ثلاثي الألوان. وهذا الأخير يرمي به إلى الأرض. ويعبر بوناهارت عن استيائه بينما يطلب المشايخ مهلة للتفكير قبل ارتداء الشارقة. ويجد الشيخ الصلوات نفسه هدفًا لمحاولة إغواء حقلية (القائد العام يتوسط إلى أبعد حد في التعامل معه ويقدم إليه هدايا ثمينة) لكنه ينزع شارته بمجرد خروجه من الاجتماع مع الفرنسيين. وبصورة مؤقتة، يجد السكان أنفسهم ملزمين بارتداء هذه الشارقة، لكن ذلك سرعان ما يقتصر على الأعيان. وأخيرًا، وبسبب تطور الأحداث، تسقط هذه القاعدة في حوزة النصارى. فغالبيت المسلمين يرون فيها رمز انحطاط جديد لوضعهم (٢٤). وينظر البعض، بموجب مقولات الشريعة، إلى فعل ارتداء الشارقة على أنها مجرد مكروه، وإن كانت لا تستحق عقابًا؛ ومن ثم، فإنهم يرتدونها لتفادي اللخصات (٢٥).

وتشير صحيفة الكورييه دو ليبييهت إلى الحدث مستحضرة ذكرى (المسوف عليه كاميل ديمولان الذي كان قد أعلن في ١٢ يوليو ١٧٨٩ أن: «الشارقة للثلاثية الألوان سوف تعم للعالم»؛ وبسبب انزعاجات سكان القاهرة، توجه بوناهارت إلى الديوان والأعيان، ولقد استمع إلى اعتراضاتهم؛ وانتقدتها على نحو مفيد؛ بل إنه قد سخل في هذا الصدد في مناقشات ليلية أدهشت بل وأقنعت الأتراك. وهكذا بدأ انزعاجات الرجال الذين استولت عليهم القوماسوس، وبعد اجتماعين جد طويلين جاء أعضاء الديوان إليه مرتدين الشارقة للثلاثية الألوان، وأكدوا أن جميع سكان مصر سوف يرتدونها في أقرب وقت ممكن» (٢٦).

بل إن الفاتح الشلب يفكر في إحدى اللحظات في ارتداء الملابس الشرقية لكي يظهر به أمام الديوان ويجعله يرى أنه لا يتربد في تبني ما يميز الطرف الآخر. لكن قاله بانج في إقناعه بأنه سوف يكون مضحكًا إلى أبعد حد ويتخلى عن الفكرة. (٢٧)

ويشكر بوناهارت المسيحي على حسن سلوكه في القاهرة. ويكلف مارمون بإبلاغه «إنني أمقد ثلاثة أو أربعة اجتماعات كل عشرة أيام مع الأئمة وأشراف القاهرة الرئيسيين وأن أحدًا لا يفوقني إيمانًا بطهارة وقدسيتها الدينية المحمدية» (٢٨).

ثم إن رسالته إلى الشيخ أكثر وضوحًا: «إنك تعرف الاحترام الخاص الذي تكون لدى نحوك في اللحظة الأولى التي التقيت بك فيها؛ وأرجوك ألا تتأخر اللحظة التي يتمنى لي

فيها جمع كل الرجال الحكماء والمتقنين في البلاد، وإقامة نظام متسق، قائم على مبادئ القرآن، وهي المبادئ الصحيحة الوحيدة، والقاتلة وحدها على تحقيق سعادة للبشر (٢٩).

وقد فرض الإنجليز حصارهم على سواحل البحر المتوسط، لكنهم لا يوجدون بعد في البحر الأحمر. ويعلق بوناپارت للكثير من الآمال على العلاقات مع شريف مكة الذي يتحمل المسؤولية أيضاً عن إنارة المدهنتين للقدسيتين. وفي ٢٥ و ٢٧ أغسطس، يتوجه إليه بالخطاب لطمأنته على نواياه السلمية وعلى رغبته في الحفاظ على قافلة الحج وتزويد الحجاز بالمؤن وعلى الأوقاف الخيرية التي تعمل في مصر من أجل رعاية الأماكن المقدسة. «إننا أصدقاء للمسلمين ولديانة النبي، ونحن نود عمل كل ما من شأنه أن يرضيكم وأن نكون مفيدين للدين» (٣٠).

ويضيف بوناپارت إلى هذه الرسائل رسالة طويلة إلى ديوان القاهرة، هي نوع من منشور معم مطبوع بالعربية يهدف إلى نشر الأفكار الرئيسية للدعاية الفرنسية. ويجري توزيعها في البلدان المجاورة لمصر. وهي تذكر جميع الأحداث منذ نزول الفرنسيين: فهؤلاء لم يجهتوا إلا لمحاربة للمعاليك؛ وهم حلفاء السلطان؛ ويحترمون الدين الإسلامي؛ وقد قضوا على الهابا وأخوية فرسان مالطه، العدو الأزلي للإسلام ويحرصون على إرسال قافلة (الحج) التالية. (٣١)

ومنذ ٢٢ أغسطس، كتب بوناپارت إلى الصدر الأعظم في القسطنطينية، طالباً إليه تفهم إيضاحات تاليران الذي من المفترض وصوله إلى عاصمة الإمبراطورية العثمانية كرسول. وإذا لم يك هذا الأخير قد وصل إلى عاصمة الإمبراطورية، فإن بوناپارت مستعد لأن يرسل هو نفسه رسولا إلى الباب العالي. إن الفرنسيين والعثمانيين لهم عدو مشترك، للمعاليك. ومن ثم فإن عليهم التوصل إلى تفاهم متبادل. (٣٢)

وقد وجهت رسائل أخرى ذات طابع مماثل إلى وإلى مصر للوجود في للنفي لحثه على العودة، وإلى باشا دمشق، للإعراب له عن صداقة الفرنسيين ورغبتهم في العيش في سلام (٣٣). وبشكل خاص، يسعى بوناپارت إلى الاتصال بالقوى شخصية في المنطقة، أحمد باشا الجزائر.

بعثة بوفوازان

في ٥ أروكتيدور (٢٢ أغسطس)، كلف بوناپارت قائد الأسطول النهري، والمفوض

لدى نيهوان القاهرة، بوفوازان، بالذهاب إلى سيد عكا، حاملاً رسالة من بوناپارت تتضمن التأكيدات المعتادة التي تتميز بها بعائته حول نراها الفرنسيين السلمية. كما كلفه بتكذيب الشائعات الخاصة باعتزام الفرنسيين الزحف على القدس، حيث راجت شائعة بذلك في سوريا، وطمأنه الباشا على رغبة الجنرال الفرنسي في اعتباره صديقاً. (٢١)

ويبحر الرسول الفرنسي من سمياط في ٣٠ أغسطس على متن سفينة تنتمي إلى الجزائر. ويقبل القبطان التستر عليه خلال اعتراض السفن الإنجليزية التي تعارض حصار الساحل المصري. وفي يافا، تحظر السلطات نزوله إلى البر وتبلغه بأن الجزائر قد حصلت على قيادة جميع الولايات السورية. وهو يصل أخيراً إلى عكا في ١٨ أروكتيدور (٤ سبتمبر ١٧٩٨). وهناك أيضاً، يجري منعه من النزول. ويهدده سكان وجنود عكا بسوء المصير. ويأمر الباشا بإبلاغ بوفوازان بأنه لا يستطيع مقابلته بسبب وجود رسل عثمانيين وبأنه سوف يلتقي به كما سوف يلتقي بي أكان ذلك في غزة، أم في الصحراء، وأخيراً في القاهرة الكبرى إلى الحد الذي يمكنه اللحاق بنا عنده. وقد جرى ترديد هذا التهجج على مسامعي [...] أكثر من عشر مرات، حتى لا أنساه.

وأمام هذه التهديدات، لا يملك الفرنسي إلا أن يعجل بعونه إلى مصر التي يصل إليها في ٧ سبتمبر (٢٢).

وكان بوفوازان قد أخذ معه تاجرين مسيحيين من المؤكد أنهما من الكاثوليك اليونانيين. وقد أمرهما الجزائر بالنزول إلى البر وأمر بحبسهما. ووفقاً لحيدر شهاب ونقولا الترك، فإن القبطان السفينة عندما تحدث عنهما مع الباشا قد قدمهما على أنهما «نصارى من أبناء العرب». وهذه واحدة من الحالات النادرة التي نجد فيها نكر مصطلح «العرب» بملهوم جد جماعي في نص عربي في ذلك العصر. وهذه الإحالة إلى العروبة، بالشكل الكلاسيكي تماماً عن طريق النسب والأصل، إنما يكتسب ملامحه عندما يساعد على تمييز مسيحيي الشرق عن مسيحيي الغرب. لكن ذلك لا يؤثر ساعتهما على الجزائر الذي يأمر بإعدامهما بعد وقت قصير من ذلك. (٢٣)

وهكذا فإن الجزائر، بتأكيدات التشديد كما بمسلكه الذي يحظر أي اتصال مع الفرنسيين الموجودين في مصر، إنما يشير إلى عزمه على عدم الاعتراف بالوجود الفرنسي وتحريك المقارمة المضادة لأهدافه التوسعية. والحال أن الرجل الذي يمثل في نظر الفرنسيين منذ وقت طويل التجسيد الأكمل والأكثر دموية لاستبداد الشرقيين العسكري،

إنما يصبح في نظر السكان المسلمين السوريين وفي نظر مهمل مسلمي الإمبراطورية العثمانية بشكل أعم بطل الإسلام الذي يتحدى للثوار الفرنسيين. ويخطر بوناپارت إلى مراعاة ذلك ويلتزم بالفعل في حملة على سوريا للقضاء على هذا الخطر. وهو يطمح الآن مع ذلك إلى كسب ولاء الجزائر ويتصرف على أية حال كما لو أن هذا الأخير قد أصبح صديقاً للفرنسيين.^(٣٧) وهو يختار رسولا جديداً للذهاب إلى باشا حلب. وهذا الرسول هو مهلي نو شانتورنو، وهو ابن نائب في الجمعية التأسيسية وفي المؤتمر. ويجري معه في السجن عند وصوله إلى اللانقية وسوف يجري إعلامه بأمر من الجزائر خلال الحملة على سوريا^(٣٨).

حصار مصر وتزايد الضغط الضويف

إن الخطر جدى بقدر ما أن المؤشرات على تقسّد عثمانى تتزايد منذ بداية سبتمبر. وهكذا فإن سفينة تجارية تنتمي إلى أحد سكان دمياط تصل إلى هذا الميناء قادمة من تارص بعد تفادى الحصار الإنجليزي. ويشير استجواب ريلها إلى ضغط مسلمي الإمبراطورية العام للترتب على ضياع أرض من أراضي الإسلام جد قريبة من المدن المقدسة وإلى ضرورة أن يبدو السلطان حازماً في هذه المسألة حتى لا يجرى اتهمه بالتواطؤ مع الفرنسيين وإلى ضرورة فرض حظر عام على جميع الصلات مع مصر وهو ما يعزز الحصار الإنجليزي^(٣٩).

وتصل معلومات من جميع الجهات حول تدابير إلقاء القبض على القناصل والتجار الفرنسيين في ثغور شرق البحر المتوسط. وفي ١٢ سبتمبر ١٧٩٨، يحتج بوناپارت لدى باشا حلب ويرجع هذه التدابير^(٤٠) إلى سوء تفاهم مؤقت. وهو يأمر بتوزيع بياناته بالعربية في جميع الأراضي العثمانية المجاورة^(٤١).

وتسمح التدابير العثمانية الأولية بالاعتقاد بأن حرباً مع الباب العالي وليس مع الجزائر باشا وحده قد أصبحت واردة. وفي التو والحال، لا يمكن للعزلة التجارية التي تجد مصر نفسها فيها إلا أن تؤدي إلى زيادة مشاكل الوضع المالي للحملة. ولا يتسنى للمستولين الفرنسيين الأمل في دخول ممرتبة على الرسوم الجمركية، التي تعتبر أحد المصادر الرئيسية لإيرادات الدولة. وهم يضطرون إلى زيادة الضغط الضريبي على السكان ومن ثم مواصلة «الظالم» التي اقترنها أسلافهم للملك. وبما أنهم في ذلك شأن العثمانيين في عام ١٧٨٧، فإن السكان المصريين سوف ينظرون إليهم على أنهم متخلفون.

وتتم هذه الزيادة للضغط الضريبي عبر إعادة تنظيم الشبكة التجارية والضريبية المصرية، ففي ١٠ سبتمبر ١٧٩٨، ينشئ بوناپارت محكمة تجارية في القاهرة وفي الإسكندرية وفي رشيد وفي دمياط. وأعضاء هذه المحكمة تجار ممارسون وظائفهم بلا مقابل. وتجرى تغطية النفقات عبر رسم قضائي نسبته القسوى ٢ في كل مائة من المبالغ المتحصلة من الأحكام (١٢).

لما الإجراء الأقدم من حيث النتائج فهو إنشاء مكتب لتسجيل الممتلكات. ومهمته هي التحقق مما يخص للمالك ومن ثم الجمهورية وما يخص الأفراد. ويتوجب على هؤلاء الآخرين إثبات ملكيتهم بحجة. ويجرى فرض ضرائب على جميع حالات نقل الحيازة. كما يجرى فرض ضرائب على جميع الأوراق الشرعية كصكوك الزواج والتوصية. بما يعنى إدخال الإدارة الفرنسية إلى ملخل خصوصيات الأسر نفسها. ويتعين على جميع التجار للحصول على رخصة.. إلخ. و باختصار، فإن يجرى لفة واحدة تطبيق النظام الفرنسي الخاص بالضرائب غير المباشرة والأوراق المدفوعة، حيث يتعين عمل كل شيء في غضون شهرين. ويجرى إنشاء إدارة لضريبة التسجيل وإدارة للممتلكات من أجل إدارة كل هذه الضرائب والممتلكات العامة. وبين آخرين، يتولى قيامها تليان وپاليانو وملطى ومصطفى القندى (١٣). ويسمح للتطبيق الفوري لهذه الترتيبات بالأمل في عوائد مالية مهمة وللتخلص من الضرائب غير العادية الباهظة التي تم اللجوء إليها منذ دخول القاهرة مع إقامة إدارة من النمط الأوروبي (١٤).

الزجاج السكك

بالنسبة للمصريين، يشكل مجموع هذه التدابير كارثة حقيقية. إن المحكمة التجارية في القاهرة تعطي مساواة عديدة للمسيحيين والمسلمين (سنة مسلمين وسنة قبط)، والذي يرأسها قبطى، هو ملطى، بينما يمتد مجال اختصاصها إلى شئون الميراث والشكاوى الرسمية. وبعبارة أخرى، فإن المحكمة لها صلاحيات في مجال الأحوال الشخصية، أحد المجالات الأكثر أساسية للشرعية الإسلامية. وينظر الجبرتي إليها باستياء على أن لها «قواعد من الخبث و أساساً من الكفر ودعايم من الظلم وأركاناً من الهدم المسية».

أما الوثائق المقدمة لإثبات ملكية الممتلكات فلا يُنظر إليها البتة على أنها جديرة بالاعتبار ولا يستطيع عدد كبير من الملاك إثبات حقوقهم بالرغم من شهادة الشهود (تولى الشرعية الإسلامية أهمية كبيرة لشهادة الشهود) (١٥).

وتستولى الريب على الفرنسيين لأنهم يخشون من إلالات ممتلكات للمالك من الخزانة من جراء تدهور شكلية لنقل الحياة. وهم يعتمدون على الوكلاء الأتباط للذين يجتهدون في زيادة المصالحات بهم إلى الدرجة التي يتوجب معها التخفيف منها. (٤٦) وهكذا يجد عدد معين من الملتزمين أنفسهم بلا حياة. بل إن الحائزين على الأوقاف، للممتلكات الدينية للصوم، والتي لا تعتبر، من الناحية النظرية بالنسبة للشرعية، ممتلكات خاصة، يتعين عليهم تسجيل ممتلكاتهم.

ويصبح مناخ القاهرة بالغ التوتر. وتصل رسائل من إبراهيم بك، تعلن أن الباب العالي سوف يرسل قريباً جيوشه لطرد الفرنسيين. ويرد هؤلاء الآخرون بأن هذا الكلام كذب يروج له للملك. ويُرْحَل كليبر إلى القاهرة وجيهاً عثمانياً، كان قد تم حبسه في الإسكندرية. ويميل السكان إلى أن يروا في ذلك علامة وصول قريب لجيش عثماني. وفي ١٥ سبتمبر، يذهب بوناپارت إلى الشيخ الصلوات ليطرح عليه عدة أسئلة بشأن رسالة يقال إن الشيخ تلقاها من العثمانيين. وينفي الشيخ وجود مثل هذه الرسالة (٤٧). وينزعج السكان على الشيخ ويشكلون تجمهراً أمام البيت. ويتصور بعضهم أن بوناپارت سوف يطلب من الشيخ تصريح أمان لمفارقة مصر، ويقول كثيرون إنه يخشى من تمرد شعبي وإنه، خوفاً على حياته، أصبح مستعداً للتحويل إلى اعتناق الإسلام، وهم يتلون الفاتحة عند خروج القائد العام. وينزعج هذا الأخير، إلا أنه تهوى طمأنته بإبلاغه أن السكان يدعون له. والواقع أن الموقف صار قريباً جداً من التمرد الشعبي. (٤٨).

المقاومة

في هذه الفترة نفسها، يشتبه الفرنسيون في وجود شبكة للمقاومة. ويبدأ كل شيء في أواخر شهر أغسطس عندما يقومون، إثر معلومات البعها عملاء أتباط، بتفتيش بيت زوجة وضوان كاشف الشعراوي، إحدى نساء للملك الباقيات في القاهرة. وهم يجدون فيه ملابس للمعاليك وبشكل خاص أسلحة. ويجري احتجاز السيدة ثلاثة أيام ثم الإفراج عنها بشرط دفع غرامة جد باهظة (٤٩). ويرى الفرنسيون أن هناك مؤامرة تحركها لست نفيسة. ويقومون بتفتيش بيتها بحجج مختلفة، لكن مشايخ الديوان وأمير الحج وقاضي القاهرة يتولون الدفاع عن زوجة مراد بك. وفي النهاية، يفرض الفرنسيون عليها آتاة جديدة وباهظة. (٥٠)

وبعد ذلك بشهر، يفسلون في آخر لحظة في القبض على تاجر مغربي تصنى له

الإفلات بفضل تدخل مُعَوَّظٍ من جانب الشيوخ الشرقيين، الأمر الذي يستثير غضب بوناپارت، ويبحث الفرنسيون عنه بسبب صلاته مع عهد الله باشي (لو باشا)، وهو، بحسب تعبير الجبرتي «من شياطين الإنس يقتل القليل ويمشي في جنازته». وتتلق رواية كاتب الحواريات للمصري مع رواية الفرنسيين. فقد تظاهر عهد الله بخدمة للفرنسيين ليكون في وضع أنسب للتجسس عليهم، فهو عميل لمراد بك (٥١) وقد ذهب للقاء في مصر للعليا بصحبة روزيتي (٥٢). وقد اضطر إلى العودة إلى القاهرة بعد فشله في محاولته القامية إلى احتجاز مياه قناة الإسكندرية. ولما كان رجلاً من رجال مراد يتمتع بثقة منذ زمن بعيد شاك في تلك شأن محمد كريم ومستعداً لاستئناف الاتصال به، فليس هناك ما يدعو إلى الاستغراب في اتصاله بالسبت نفيسة. وكما يقول الجبرتي في خاتمته: «والله أعلم بحقيقة الحال».

النظام العام والصحة واحتياط الجيش

تجد إعادة تنظيم قوات الشرطة المحلية ترجمة لها في إنشاء سرية جنود «تركية»، يقودها أنكشاري سابق، لسمه عمر. ويجري إدخال للمالك الذين تقل أعمارهم عن ستة عشر عاماً في الجيش، حيث يتولى أصغرهم سنًا ضرب الطبول. ويتم إنشاء حرس وطني أودوس في القاهرة. (٥٣)

كما يهتم بوناپارت بالجيش. ويجري اتخاذ احتياطات صحية بالنسبة للقوات وفي المستشفيات. ويتم تكليف أشخاص برعاية الحمامات، وتصدر أوامر بإنتاج زى جديد، يتألف من ثوب قصير دون ثنيات، وينظفون ذى الحالت تحتية، وقبعة من جلد الماعز المدبوغ تنثنى على الأذنين، ولها ولقية وجه و «برقة» (لو خصلة خيوط) من الصوف في جزئها الأعلى. والثوب من القطن، إلا أنه بسبب برودة الليل وبداية الشتاء، يضاف إليه معطف عسكري. ويترتب على هذه التدابير ظهور حاجة ماسة إلى الأقمشة في السوق المصرية (٥٤).

ويجري اتخاذ تدابير لمكافحة أوبئة الطاعون. ووفقاً للاعتقاد الشائع في القرن الثامن عشر في أوروبا، فإن للمقابر هي بؤر الوباء بسبب الأبخرة المنبعثة من تحلل الجثث. وهكذا فإن نظرية الأبخرة الفاسدة قد قامت للسلطات إلى إزالة المقابر المدينية وطرد الموتى إلى خارج الضواحي. وكان الحادث الأشهر هو للقيام، في عام ١٧٨٦، بإزالة جبهة سانت - اينوسينت في باريس. ويجري تكليف للقاهرة مع الواقع الأودوس، ويتم إغراق المقابر

للموجهة داخل المدينة ويتوجب بشكل إلزامي لمن اللواتى فى خارج المدينة. ويسجل الجمهورى هذه التظاهرات ويأخذها بون أى تعليق محدد. (٥٥)

وتتكاثر التظاهرات للموجهة إلى الجندالات فى الأقاليم لتنشيط توفير الخيل لسلاح الفرسان. فى ١٨ أغسطس، لا نجد غير ثمانمائة وستة وأربعين جوناكاً لألفين وتسعمائة وخمسة عشر فارساً. ولا يصبح هناك مناص من اللجوء إلى مشتريات إهبارية ومصانرات تؤدي إلى زيادة عدد الفرسان التركيين فى بداية ديسمبر إلى ألف وثلاثة وعشرين فارساً (٥٦). وينشئ شامبى ونورى وكورتية معملًا للبارود. (٥٧) وتجرى إقامة سلسلة من الاستحكامات الدفاعية حول نطلق القاهرة لتخدم فى حالة هجوم خارجى كما فى حالة تمرد بلخلى (٥٨). ويتم إخلاء قلعة القاهرة من ساكنيها لكي تستعيد مهمتها العسكرية الخاصة. وتؤدي تظاهرات الفرنسيين إلى أعمال هدم ملحوظة تحزن سكان العاصمة. (٥٩)

ويصبح من الضروري الصبر على انضباط الجيش. ويسوء المترجمانات والأتراك الذين يعملون فى خدمة الفرنسيين استقلال مناصبهم لكي يتخلوا بيوت أفراد غير رسميين فى الخدمة، وينشئ بوناپارت لجنة مكونة من روزيتى وچونو والشيخ السائبات مكلفة بتلقى الشكاوى (٦٠). وكان الجنود قد اكتسبوا عادة استئجار الصبر فى القاهرة وكانوا يعملون أنفسهم بتنظيم سباقات حلقية فى الشوارع مما أثار عظيم ملع السكان. ويجرى إنذارهم بأنهم فى حالة وقوع حوادث وتلقى شكاوى فإنهم سوف يحكم عليهم بملع لمن الخسائر... (٦١)

ويجرى إصدار كلمات سر محددة للحراس، حيث أن العرب قد اعتادوا الرد على أى سؤال بكلمة «الرائس» (٦٢). ويتجهل الضباط فى المدينة للتأكد من عدم جرح الجنود لحياء نساء البلد. (٦٣)

خبط الجمهورية

فى القاهرة وفى كبرى مدن الأقاليم، يجرى الاحتفال فى صخب بالعيد السنوى للجمهورية، الأول من فينيمبير (٢١ سبتمبر ١٧٩٨)، اليوم الأول من العام السابع. وفى العاصمة، يجرى رسم بلثرة واسعة فى ساحة الأزبكية تتوسطها معلة خشبية تحمل أسماء البواسل الذين لقوا حتفهم خلال فتح مصر. ويتحرك الجيش فى أرتال أمام الأركان العامة والأعيان المصريين. ثم يجرى تنظيم سباقات عدو على الأقدام وسباقات جرى على الجهاد. وكان بوناپارت قد أمر باستدعاء أكبر عدد ممكن من القوات للتأثير على سكان القاهرة. وتتبارى أعداد الجنود والقوة المنطعية وبقا للناورات فى تحقيق هذه النتيجة. (٦٤)

وتعقب الاحتفال مائدة عظيمة حيث، «تتمد الأعلام للفرنسية بالأعلام التركية وتصطف على خط واحد قلنسوة الحرية والهلل ولائحة حقوق الإنسان والقرآن. وتترك الحرية للمسلمين لاختيار أصناف الطعام والشراب ويبدو أنهم جد مرتاحين لأشكال المراجعة التي تبدى لهم». (٦٥)

ولا يسمح هذا الاحتفال الصاخب بإخفاء واقع أن معنويات الفرنسيين هي في أدنى مستوى. إنهم يدركون شيئاً فشيئاً أن دخول الباب العالي في الحرب قد أصبح حتمياً وأنهم سوف يبقون في مصر مدة أطول. (٦٦) وعقب تلاوة بيان القائد العام للذي يشيد فيه بمآثر الجنود، يخيم صمت شبه شامل، بدلاً من هتاف «عاشت الجمهورية» المعتاد. (٦٧)

لوايا بوناپارت

تجرى مواصلة الأعياد بعيد مولد المسين. ولم تك لدى الشيخ السادات نية في الاحتفال به، لكنه، إذ يجرى إخبار الفرنسيين بعزمه، يجد نفسه ملزماً بتنظيم الاحتفالات. وفي تلك المساء، يتناول بوناپارت للعشاء عند الشيخ. (٦٨)

ويكون أن يصاب الجنرال بخيبة الأمل في فتحه الشرقي، فإنه يواصل متابعة الموقف الأوربي. على أن الأخبار تصبح نادرة باطراد من جراء الحصار الإنجليزي. وتقريره إلى حكومة الإدارة والمؤرخ في ١٦ فينديمير صريح: «عندما يصل إلى علمي القرار النهائي الذي سوف يتخذه الباب العالي، ويصبح البلد لكثير تقدماً، وهو ما لن يتأخر حدوثه، سأخذ قراراً بالانتقال إلى أوروبا، وبوجه خاص، فإنه إذا ما بعثني الأخبار الأولية إلى الاعتقاد بأن السكينة لم تسد لأوروبا بعد، فسوف أقرر الانتقال». (٦٩)

لكن يؤمن بقدره. ومما له دلالة أنه يأمر بالاحتفال بعيد ١٢ فينديمير (٤ أكتوبر ١٧٩٨)، التاريخ التذكاري لنهاية صعوده السياسي (من الناحية الرسمية، يجرى الاحتفال بذكرى سحق للكيين) (٧٠). وفي إحدى المآتب، يجرى رفع سلسلة من الأخاب. والنخب الخامس هو النخب الأفتى بالإحلامات،

والشراب نخب حضارة مصر.

«إننا نضرب للعالم أول مثال على مشرّع فاتح. وقبلنا، كان الغالبون يتبنون دائماً شرائع المغلوبين. فلنحوز عليهم انتصار العقل، والأصعب من انتصار السلاح ولنظهر لهم أننا أرقى من الأمم الأخرى، بقدر ما أن بوناپارت أرقى من جنكيز». (٧١) ومن الواضح أن هذا الرهان الثقافي هو الهدف الرئيسي للحملة...

فتح الدلتا

الانتشار الفولسي

منذ غداة دخوله إلى القاهرة، أصدر بوناپارت أوامره، تنظم احتلال الدلتا، ويجرى تكليف الجنرال فيال بالاستيلاء على نعياط، الميناء الأخير على البحر للمتوسط الذي لا يسيطر عليه الفرنسيون، بينما يجرى تكليف زايونشيك بالاستيلاء على الجزء الجنوبي من الدلتا بدءاً من منوف (٢٥ يوليو ١٧٩٨). ويتعين على القلدين نزع سلاح البلاد، وتأمين جبهة الضرائب وإنشاء إدارة جديدة قائمة على الدواوين المحلية، التي يساعدوا وكيل فرنسي وأمين قبطي للتعامل مع المسائل المالية.

ويتم زحف فيال على نعياط دون مشكلات. بل إن القوات الفرنسية ستكون لديها انطباع بأن الأعيان والسكان يرحبون بها (٧٢). ويكتفل استقرار المهمة في ٦ أغسطس. على أن زايونشيك، الذي لحق به الجنرال فوجيير، يواجه صعوبات أمام مقاومة قريتي خميرين وقتا. وهو يضطر إلى خوض معركة شوارع حثيثة ويفقد خسائر اللاحين بما يتراوح بين أربعمئة وخمسمئة. وهو يفشل في محاولته الرامية إلى أسر أبو شاعر، الشيخ - الملقوم للعربي القوي في المنطقة. وفي منوف، يأمر بإلقاء القبض على الديوان الذي يشتبه في تواطئه مع المتمردين كما يأمر بإلقاء القبض على الأمين القبطي. (٧٣)

وهذه التدابير تستتبع توبخاً من جانب بوناپارت: «إنني لم أنظر بعين الرضا إلى الأسلوب الذي تصرفت به تجاه القبطي؛ إن مقصدي هو مراعاة هؤلاء الناس وإبداء حسن النوايا نحوهم. قل ما هي موضوعات شكواك منه وعندئذ أقوم بإحلال شخص آخر محله. كما أنني لا أوافق على إصدارك الأمر بإلقاء القبض على الديوان دون التأكيد مما إذا كان مذنباً أم لا، ثم الإخراج عنه بعد ساعتين؛ ليست تلك هي الوسيلة للتصالح مع طرف من الأطراف. أرس الناس الذين تجد نفسك بين ظهرائهم؛ وميز لولئك الأكثر استعداداً لتوظيفهم؛ واضرب أحياناً أمثلة علنية وقاسية، دون أن تُقيم أبداً على أي شيء يقترب من الهوى والاستخفاف» (٧٤).

ويسمح انتهاء العمليات ضد إبراهيم بك بتعزيز انتشار القوات. فيبقى رينيه في الصالحية لمراقبة طريق سوريا، ويحصل موريا على إقليم قليوب، بينما يحصل دوجا على

المنصورة وإقليم الدلتا للشرقي (١٢ - ١٣ أغسطس ١٧٩٨). وتصبح الطريق البرية نهر عملية من جراء فيضان مياه النيل، ومن هنا ضرورة التزود بزوارق يعزف الفلاحون من تقديمها (٧٥). ويشير ذلك إلى الوضع الصعب الذي كان يمكن أن يشهده بوناپارت، لو كان مراد قد رفض القتال على الضفة الغربية للنيل.

المنصورة

عند وصول نوجا إلى المنصورة، في ١٧ أغسطس، لا يجد الجنود الذين كان من المفترض أن يتركهم فيال هناك. وهو يعلم أنذاك أن الحامية الفرنسية المؤلفة من مائة وعشرين رجلاً قد هوجمت من جانب العرب وأنها قد خرجت بعد ذلك لمطاردتهم. ولا يرضى ذلك نوجا الذي يرسل قواته للنهب في الريف المجاور. وهذه القوات، خلال نهبها لإحدى القرى، تكتشف جندياً لاجئاً عند الفلاحين وأنه للوحيد الذي بقي من الحامية. ومنذ رحيل فيال، كانت الوحدة الصغيرة ضحية لهجمات من جانب السكان وقد تحصنت في ثكناتها. على أن الأعيان قد واصلوا تزويدها بالمؤن الغذائية. وفي نهاية الأمر، في مجازلة بالاجتياح من جانب حشد مسلح تمكن من حصار منازل الثكنة الفرنسية، يقوم الجنود بعملية خروج من أجل التخلص من هذا المأزق والعودة إلى القاهرة. وفي الريف، يتعرض للطاير الفرنسي باستمرار لهجمات من جانب الفلاحين والعرب ويجد نفسه وقد أبعد من الناحية العملية (١٠ أغسطس ١٧٩٨) (٧٦).

وعندئذ يحاول نوجا المنصورة للتوصل من المسؤولية عما حدث بتقديم روايته للأحداث، إن المعتدين قد جاءوا من الشرق ومن الغرب بأعداد لا حصر لها. وقد حارب السكان إلى جانب الفرنسيين. وبعد انسحاب هؤلاء الآخرين، لم الجزء الأعظم من السكان، والديوان يطلب ضمانات للسماح لهم بالعودة إلى المدينة (٧٧).

ويهتم نوجا بادئ ذي بدء باستعادة الثقة وذلك بإظهار الاعتدال في القمع وفي جباية الضرائب والمصارف. ونقص المدفعية وخاصة الذخيرة يبرر هذا المسلك، الذي ينتقده مع ذلك مرموسه (٧٨)، على أنه يهتم بمعاقبة المذنبين بالإقليم على هجمات ضد الفرنسيين سبقت تمرد المنصورة. وفي ٢٨ أغسطس، يطلب إلى بوناپارت منح عفو لسكان المدينة ولكن ليس لسكان القرى التي تعتبر، على أية حال، عصية المثال بسبب فيضان النيل. والواقع أن جزءاً عظيماً من السكان لا يرجع البيت، بسبب الخوف، الأمر الذي يؤدي إلى

إصابة الحياة الاقتصادية بالشلل. وبالنسبة لبونابارت، فإن القمع هو بوجه خاص وسيلة
للمرض ضرائب جديدة مهمتها إلحاق خزانة الجيش الخاوية بشكل مهتوس منه؛ وهذا هو
معنى تعليمات الصائرة إلى بوجا. (٨٠)

مديانط

في ٢٢ أغسطس، كان فيال، للوجود في مديانط، قد أبلغه بأن جماعة من سكان
للمنصورة قد لجأوا عند حسن طوبار. وهذا الأخير هو الفصل مثال على ظهور سلطة شبه
مستقلة في الأقاليم في أواخر العصر للملوكي الجديد. فهو ملتزم لجميع عمليات الصيد
التي تتم في بحيرة المنزلة. لكن ذلك ليس غير قاعدة واحدة من قواعد قوته. ووفقاً
لأندريوس، فإنه كان علاوة على ذلك أحد أغنى الملاك في مصر، وربما كان الوحيد الذي
تجاسر على مراكمة مقاربات بالضخامة التي توافرت له؛ فعائلته من المنزلة؛ وخلفها ما بين
أربعة إلى خمسة أجيال من للشايخ. لقد كانت سلطة حسن طوبار جد ملحوظة؛ وقد
تأسست على سمعته وثرواته وضخامة عدد لقاريه والعند الكبير للأجراء المعتمدين عليه
ومعانة البدو الذين قدم لهم أراضى لفلاحتها ونمرو زعمامهم بالهدايا (٨١).

وهكذا فإنه يجمع شتى الخصائص التي جعلت من كبار مشايخ العرب والمسلمين
قوى محلية يتعين على للمالك مراعاتها. وينفل الجنرال الفرنسي في مراسلات مع
الشيخ الذي أعلن ولاءه للسلطة الجديدة. لكن اللاجئين، بالرغم من تأكيدات بوجا الذي
وصل به الأمر إلى حد التمسك بالسماح لهم بالاحتفاظ بأسلحتهم وجيادهم، يرفضون
العودة. (٨٢)

البدو

يسمح احتلال المحلة الكبيرة الذي قام به فوجيير بإيجاد ارتباط بين مختلف
الوحدات الفرنسية، مع إثارة لمشكلات تحديد إقليمي لدوائر اختصاصها المختلفة، بينما
تستفيد أربع قرى على فرع رشيد من الفيضان لتنجز انفصالها (٨٣). وصرعان ما يتعين
على فوجيير طلب العون من بوجا، لأن ائتلاف القرى يهدد بمهاجمة المحلة الكبيرة التي
تجد نفسها مزودة بعدد غير كاف من القوات (٨٤). ثم إن فيال لا يستطيع تقديم عون له من
مديانط، وذلك بسبب انقطاع المواصلات للترتب على الفيضان (٨٥).

وبعد مصاعب بداية استقرار زايونشيك، فإنه ينجح، بالرغم من ضعف عدد قوته، في استعادة النظام في إقليم مندوف. وإذا يجد أن أسلوبه في الإدارة يواجه اعتراضاً في القاهرة، فإنه يطلب استعفاءه لتولى مهمة أخرى، وهو طلب يلبى في نهاية شهر أغسطس، ويحل الجنرال لانوس محله. أما مورا، للوجود في إقليم قليوب الأكثر قرباً من القاهرة، فإنه لا يصطدم أيضاً بمصاعب رئيضية. وبوسعنا أن نسمح لنفسه بأن يقترح تقديم مساعدته في حالة الضرورة إلى نوجا (٨٦) ويتجه إلى الجزء الشمالي من إقليمه لمواجهة احتشادات العرب (٨٧). وهو يجد نفسه مولجهاً بمسألة نزع سلاح الفلاحين في حين أن هؤلاء الآخرين مهذبون دائماً بأن يكونوا عرضة لهجمات البدو. وهو يقترح إرجاء اتخاذ هذا الإجراء، «هنا يعتبر العرب المزارعون المسلحون نافعين، إنهم حماة للبلد من العرب للترحلين [...]». وأنا أعتقد أن من المستحيل، من الآن ولوقت جد طويل - دون التسبب في تصرفات شبيهة مثلاً لها في أقاليم أخرى - تجريد هؤلاء الناس - الذين يحسنون معاملتنا من جهة أخرى - من الأسلحة التي يعتبرونها ملكية طبيعية لهم والتي يحتاجون إليها كل يوم للدفاع عن بلادهم وممتلكاتهم ضد أعدائهم. ومن ثم فإنني أعتقد أنكم سوف ترون أن من الحكمة انتظار تعزيز الحكم الجديد قبل التفكير في تنفيذ إجراء على هذه الدرجة من الحساسية» (٨٨).

وفي هذه المراسلات مع القائد العام، يوضح مورا أنه قد حدد الجماعة اليهودية المسئولة عن الهجوم على المنصورة «عرب سنباط». ومن سوء الحظ أن الفيضان يمنعه من شن هجوم مباشر عليهم. ويقدم لوجيبير المعلومات الجيدة الأولى حول هذا العدو ومنشأه، «منذ نحو خمس سنوات وجد في هذه القرية فريقان متصارعان. وعلى مدار الأيام، دارت معارك أزهقت أرواح عديد من السكان. وسعيًا إلى وضع حد لهذه الشقاكات المحلية، قام أيوب بك، سيد هذه القرية، بإحضار نحو مائتي عربي للقيام بأعمال الحراسة فيها. وفي المقابل، وزع عليهم أراضى. لكنه بتبذيرهم هناك، لم ينجح مع ذلك في محو روح أعمال السلب والنهب المميزة لأمتهن. وكالة القرى المجاورة تشكو يومياً من أعمالهم للتكديرة ولا تتمنى سوى القضاء عليهم» (٨٩).

وينقل نوجا إلى بوناهارت هذه المعلومات بشكل شبه حرفي. وهو يضيف أنهم عرب متحصرون من قوته في طرابلس الغرب (وهو ما يوحى بأنهم من لولاء على، نفس الذين يواجههم كليبر في البحيرة). ويؤكد أنه إذا كان سكان سنباط حلفاء للبدو، فإن سكان القرى المجاورة سوف يهتدون الحياء أو حتى سوف يشاركون في العمليات إلى جانب

الفرنسيين (٩٠). ويأمر بونابارت نوجا بأن يرد: «عرب قرية سنباط الأشرار إلى صوابهم. أحرقوا تلك القرية؛ اضربوا مثلاً رهيباً ولا تسمحوا بعد لهؤلاء العرب بالعودة إلى سكنى هذه القرية إن لم يسلموا لكم عشرة رهائن من الأشخاص المهمين ترسلونهم إلى احتجازهم في قلعة القاهرة» (٩١).

وبعد حصوله على الخسائر الضرورية لاستئناف عملياته، يكلف نوجا الجنرال فيرديه على رأس خمسمائة وخمسين رجلاً مزودين بمدافع عيار ٢ وطل للقنبلة بالهجوم على سنباط. ويقع الهجوم في ١٤ سبتمبر ١٧٩٨. ويتم تدمير عرين البدو. ويشير فيرديه في تقريره إلى الدور الرئيسي الذي لعبه الشيخ موسى من قرية حنوت والذي واصل السير على رأسنا، محمداً لنا بسرور الطرق التي من شأنها أن تقودنا بأصغر ما يمكن إلى العدو» (٩٢).

وهذا الشيخ نفسه ينهى الفرنسيين إلى أن العرب يسبيلهم إلى التجمع من جديد للثأر (٩٣). ويصدر بونابارت الأمر إلى مودا وإلى لانوس بمحاربة عرب درنة حيثما وجدوا (٩٤). ويلحق بهم الجنرال خسائر فادحة، لكن قرية حنوت قد تعرضت مع ذلك للإحراق على أيدي البدو الذين ينقضون على جميع مجموعات الفرنسيين الصغيرة المعزولة في المنطقة (٩٥). وفي النهاية يتعين على مودا مواصلة صدهم عن طريق عمليات محدودة (٩٦).

والحال أن بونابارت، البعيد عن أفكار شبابه الرومانسية، يصف على النحو التالي لحكومة الإنارة هذا العدو القوي الحركة: «إن العرب في مصر هم كالبهاريت في كونيتي نهم، مع هذا الفارق الكبير الذي يتمثل في أنهم بدلاً من العيش في الجبال، يمتطون كلهم الجبال ويحيون وسط الغيابة. وهم يذهبون ويصلون الأتراك والمصريين والأوروبيين سواء بسواء. وتسألونهم كفضالة الحياة التي يحيونها، فهم معرضون على مدار أيام بأكملها في الرمال المحرقة لأوار الشمس، نون ماء يرويههم. وهم بلا شفقة وبلا عهد. إنهم يشع مثال للإنسان للتوحش يمكن للخيال تصوره» (٩٧).

مشاريع البلدة

• ينتهي مودا إلى إزالة الجانب الرئيسي من الضغط البدوي بإجباره القبائل للتهكة على توقيع اتفاقات سلام. وهكذا ينجح الفرنسيون تدريجياً في كسر التحالفات بين البدو وبعض الجماعات الفلاحية. وبالنسبة لمهاجر البلاد، فإن هذا العمل يتناسب مع استعادة

لنظام العام يخشونها من صميم انذبتهم، وهو ما يؤدي إلى تسارع ولاء جزء عظيم من هذه الفئة الاجتماعية جد المؤثرة في الأرياف. ويوضح موراك ذلك جيداً ليونانهارت، وإن عديداً من زعماء القرى يجيئون ليشهدوا لي باننا مثرتنا على الوسيلة التي من شأنها جعلهم [العرب] أكثر رقة في التعامل معهم؛ وهم يقولون أنهم يمرون اليوم أمامهم منكسري الأعين وسائليهم حمايتهم، (٩٩).

وصوف يعتاد المهايخ على اللجوء بصورة منتظمة إلى العسكرين للقضاء على بدو القلتا. وصوف يشكل ذلك للعمل الرئيسي للطواوير للتحركة التي ستكفل النظام خلال سنوات الاحتلال الثلاث. ويتطور عقد اجتماعي ضمني بين المهايخ، الذين يكفلون سداد الضرائب وخضوع السكان، والفرنسيين الذين يقضون على الخطر البدوي (١٠٠). وفي هذا العمل، الذي يجذب للمرة الأولى إلى الفرنسيين جماعة اجتماعية أساسية، تبدو السلطة الجديدة مواصلة للعمل النشط الذي قام به على بك الكبير ومحمد أبو الذهب اللذان حافظا بنشاط على هذا النظام العام الذي كثيراً ما تمناه الفلاحون. وهكذا فإن معركة منبهاط تشكل أحد للنقطات الحاسمة في تاريخ حملة مصر. لكن الفرنسيين، قبل أن يقطعوا ثمارها بالكامل، يضطرون إلى مواجهة خطر رهيب في شرقي القلتا.

حسن طوبار

بمجرد عودة فيرديه من حملته في منبهاط، يرسل لوجا الجنرالين داماس وديستان للزحف على قرى المنية والقباب القريبتين من المنزلة واللتين كانتا قد رفضتا دفع الضرائب والإعانة للمصالحات. وهو يشتبه في أن شيخيهما على تفاهم مع حسن طوبار، السيد القوي لبحيرة المنزلة. ويتعين على العملية أن تعمل على تخويف هذا الأخير الذي يشتبه في أنه يعد لانتفاضة واسعة (١٠١). وفي ١٩ سبتمبر، يصطدم داماس بمقاومة قوية في قرية الجمالية. وبعد معركة شوارع رهيبة تؤدي إلى سقوط عدد كبير من الضحايا بين صفوف المصريين (١٠٢)، ينسحب داماس إلى المنصورة محرقاً في طريقه قرية يتهمها بالاشتراك في الانتفاضة (١٠٣).

ومنذ ١٧ سبتمبر، فإن فيال نفسه هو الذي يضطر إلى صد هجوم على منبهاط في حين أن المراكب التي تكفل للواصلات بين مختلف أماكن تولد الفرنسيين، تتعرض للهجوم من جانب الفلاحين. ويتخذ السكان مواقف الانتظار والترقب ويرفضون الانضمام

إلى العرب والفلاحين. ويقتل الربيع مسيحيي المدينة، الذين يتلفون بشكل أسلبي من الكاثوليك اليونانيين، ذلك أن المهاجمين يهتدون بنجاحهم. وفي اليوم التالي، يتمركز المتمردون في قرية شوارا على مقربة من دمياط، ويهتدون في الحصول على تعزيزات قادمة من بحيرة المنزلة. والحال أن للمسيحيين الذين يشتبهون في أن الفرنسيين يريدون الجلاء عن المدينة بما يؤدي إلى تركهم في مواجهة للمتمردين، يتألفون الجنرال أن يهلي. وهم يحملون السلاح ويقاثلون إلى جانب الفرنسيين (١٠٥).

وبعد أن طمانهم فيال الذي حصل على تعزيزات فإنه يهتدون الهجوم في ٢٠ سبتمبر بالاشتراك مع الجنرال أندريوس الذي يلود أسطولاً صغيراً على البحيرة. ويجري دفع العرب من إقليم دمياط. والحال أن الأمر اليومي العسكري المؤرخ في ٢ فينيمبير من العام الثامن (٢٤ سبتمبر ١٧٩٨) يحول هذه العملية إلى ماثرة حربية مجيدة: إن الفرنسيين لم يخسروا غير قتل واحد وأربعة جرحى في حين أن العرب قد خسروا أكثر من ألف وخمسمائة بين قتل وغرق (١٠٦). ثم إن ما بين أربعمائة وخمسمائة فرنسي قد هاجموا وغلبوا ما بين عشرة آلاف وأثنى عشر ألفاً من العرب (١٠٧). والشيء الأكثر إزعاجاً هو المعلومات التي قدمها الأمين القبطي، إن حسن طوبار هو الذي يلق ولاء المتمرد بالرغم من نفيه للتكرار لذلك؛ وقد تلقى رسائل من سوريا والبرص تبلغه بأن الجزائر بعد إنزال في تلك المنطقة، ثم إنه على اتصال مع إبراهيم بك (١٠٨). والأمر اليومي، الذي نشرنا إليه بالفعل، يوضح تماماً ضرورة تحرك الفرنسيين بسرعة ضد الحرب الدعائية التي تبدأ في شرقي الدلتا والتي تنذر بالامتداد إلى مصر كلها. «إن طوابير متحركة عديدة تجوب كل لوى دمياط والمنصورة، لإنزال العقاب الحصار بقيادة للمتمردين، وإنزال ثار نمونجى بهؤلاء التساء، الذين خدعتهم مكاتبات إبراهيم بك ووعوده الزائلة».

والواقع أنه لا يمكن بدء العمليات إلا مع عودة القوات التي أرسلت إلى القاهرة، خلال عيد الجمهورية، للتأثير بعدها على سكان العاصمة. ويحصل نوجا على القيادة العليا لإقليم المنصورة ودمياط ويصل إلى هذه المدينة الأخيرة. وهو ينتقد بقسوة إدارة فيال الذي لم يتمكن من الاضطلاع بالأعمال الضرورية لتحصين الموقع ومن كسب ود السكان. وسوف يصل الأمر ببعض الضباط إلى حد الاعتقاد بأن اختلاسات فيال الملقية وأعماله الوحشية تجاه السكان تعتبر مسئولة جزئياً عن القلاقل في المنطقة (١٠٩). ويجري تكليف أندريوس بالعمليات البحرية وتكليف ناعس بالعمليات البرية، حيث يتمثل هدفها المشترك في الاستيلاء على المنزلة. ويبدأ تحركهما في ١١ فينيمبير من العام السابع (٢)

أكتوبر ١٧٩٨). وهما في سياق مع الزمن، فقد كلنا يتصوران أن قوات الجزائر لابد وأن تبدأ الوصول اعتباراً من ٤ أكتوبر (١١٠).

ويبلغ حسن طوبار الفرنسيين بمواقفه حول مصلحة تالية، إنني لا أريد رؤية الفرنسيين لا من بعيد ولا من قريب. ولذا ما قدموا لي برهان استعلائهم لتركى وشأنى بون مضايقات، فسوف أبلغ لهم الطريقة التي كنت ألقها بلثماً، لكننى لا أريد البتة الاتصال بهم، (١١١).

ويصطدم أندريوسى بمعكسات قوية في البحيرة، الأمر الذى يقوده إلى تغطية محيط بهجوم جديد. ويقلع العبد الرئيسى من العمل على عائق نامس. ويتزايد إراكه للشعبية الكبيرة التى يتمتع بها الشيخ في الإقليم: «على مجمل الطريق حتى المنزل، بل وفى هذه الناحية، لقتننا كلنا بأن حسن طوبار يتمتع بحب المصريين. إنه لرى يملك عدة ملايين، أكان ذلك من خلال أراضيه أم منتوجاته القطنية لم تجارتها» (١١٢).

وفى ١٥ فينديمير (٦ أكتوبر)، يستولى نامس بون قتال على للمنزلة. ويتمثل الشاغل الرئيسى للمضباط الفرنسيين في منع القوات من الإغارة من أجل السلب والنهب. وفى اليوم التالى، يتمكن أندريوسى من اللحاق به وتجهز القوات احتلال منطقة البحيرة. ويلجأ حسن طوبار وأسرته إلى غرة، بينما يستأنف السكان وسيلة عيشهم الرئيسة، الصيد. وعبر السيطرة على محيط والمنصورة، يهيمن الفرنسيون على منافذ هذا النشاط الاقتصادى الحيوى بالنسبة للسكان. كما أن التهديد تتم بسرعة. ويعين فيال شيخاً جديداً للإقليم، هو المدعو عبد الفتاح، وهو عدو لحسن طوبار تعاون منذ البداية مع الفرنسيين (١١٣). ويأخذ رهائن من الضواحي ويأمر بإحراق أبواب القرى المحصنة في الإقليم (١١٤). ويبقى أندريوسى على البحيرة حتى نهاية أكتوبر. ويستكشف بشكل منهجى كل تعرجاتها؛ وعلاوة على الاهتمام العلمى، فإن مثل هذا التحديد للمعالم ضرورى، بالنسبة للعمليات التالية في اتجاه سوريا.

الشوكة

في الشرقية (الجزء الشرقى من الدلتا)، يجد رينيه، بوجه عام، مصاعب أقل بكثير من تلك التى يقابلها زملاؤه. وعدا حفظ النظام وجباية الضرائب، فإن مهمته الرئيسة تتمثل في مراقبة ما يجرى في سوريا، وإقامة مواقع حصينة ومستودعات عسكرية. ويتعين على هذه المنشآت أن تساعد على مواجهة غزو محتمل لمصر قادم من سوريا لو أن تكون مواقع حشد لجيش فرنسى يتحرك في الاتجاه المضاد. (١١٥)

وعند وصول الفرنسيين، يلجأ فلاحو الإقليم إلى الصحراء مع مواشيهم وقوات
نباغتهم. ويكدر رينيه التنبؤات الناصية إلى موطنهم، مستخدماً التعبيرات المألوفة للدعاية
الفرنسية، لكنه لا يستطيع منع جنوده، الذين تموزهم الأغذية، من زيادة للمصادر
التعسفية ومن ثم إخلالة السكان (١١٧). ويتحالف هؤلاء الأخيرون في روابط قروية حقيقية
لحماية أنفسهم من الغزاة (١١٨). ويلحق الجنرال للتجمعات ويأخذ رهائن يهدد بقتلهم رمياً
بالرصاصة إن لم يجر تزويده بالجياد الضرورية لركوب الفرسان.

ويقوده نقص الإمدادات الغذائية إلى ترك الصحاحية والتمركز في بلبيس الأفضل من
حيث توافر الإمدادات بها (٢٧ أغسطس ١٧٩٨). ويمنعه الفيضان من تنفيذ للمصادر،
ولذا فإنه يسمح للفلاحين بالاحتفاظ بحياتهم حتى لا ينضموا إلى الثائرين الآخرين في
الصحراء. ويتيح السماح للمنوح إحصاء الجهاد من أجل عمليات تنفيذ تتم في
المستقبل (١١٩). وهو يواصل إرسال جواسيس إلى سوريا، يبلغونه بأن إبراهيم بك
ومعاليه يربطون في غزة، وأن الجزائر قد منعهم من الصعود إلى مسلة أبعد إلى حين
وصول أوامر من القسطنطينية. ومن جهة أخرى، فإن عملاءه يبلغونه بالانتقال المتواصل
للرسل بين سوريا ومصر العليا للاتصال بمراد بك (١٢٠). ويرسل بوناپارت قائد الأسطول
الصغير بوفوازان، الذي عاد من مهمته في القسطنطينية، لمساندة رينيه حيث يتولى قيادة
بلبيس (١٢١). ويأمل القائد العام في الاستغاثة من فيضان النيل لإرسال لاحتياطيات مهمة
من المؤن إلى الصحاحية وبلبيس، استعداداً لعمليات تالية في سوريا. إلا أنه يجرى تأجيل
للمشروع لعدة أسابيع بسبب نقص الزواقي وضرورة تهئية الأقليم أولاً. ويسبب التخلف
وبدلية هبوط مياه النيل، فإن مستوطنات الشرقية تجد نفسها من جديد ذات لاحتياطيات
غير كافية بالمرّة لجيش في الميدان. (١٢٢)

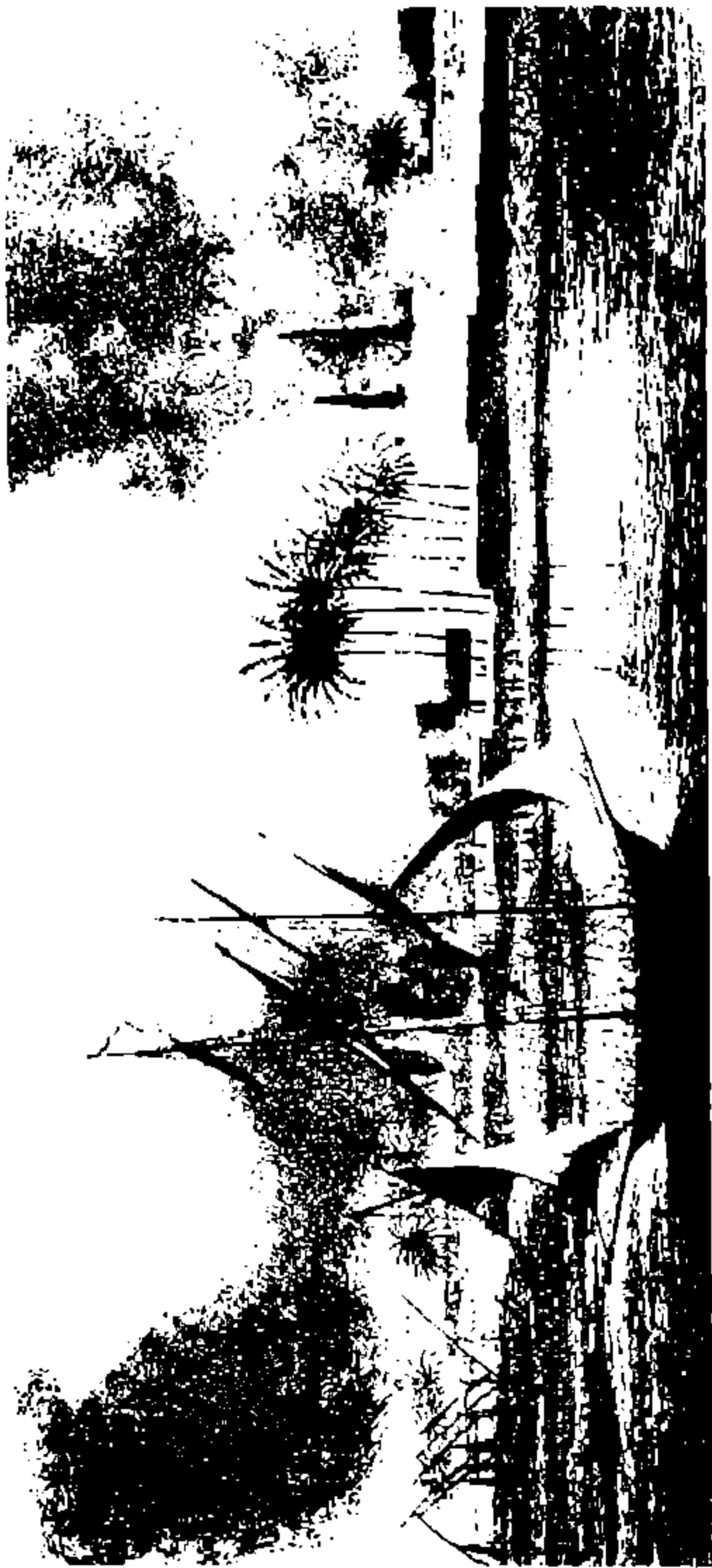
والحال أن مرعوسى رينيه، بوفيه وبوفوازان، القلمين إلى القاهرة، يشكوان علناً
من الحالة المادية الكارثية التي توجد فيها فرقتهما. وعندئذ يستغل بوناپارت أول ذريعة
لإقصال بوفوازان ويعيده إلى فرنسا. أمّا بوفيه، الذي يتضامن مع زميله، فإنه يلقى للمصير
نفسه. ويبدو أنه علاوة على الضرورة المشروعة للمتعلة في الحيلولة دون ترويع شائعات
من شأنها تهديد معنويات الجنود، فإن بوناپارت قد استفاد من الفرصة لمعاينة بوفوازان
على فشل مهمته لدى الجزائر (١٢٣). وفيما عدا ذلك، فإن رينيه، شأنه في ذلك شأن قادة
الأقليم الآخرين، ينشغل بإنجاز للتهبة، أي بمحاربة قبائل البدو والتفاوض معهم (١٢٤).

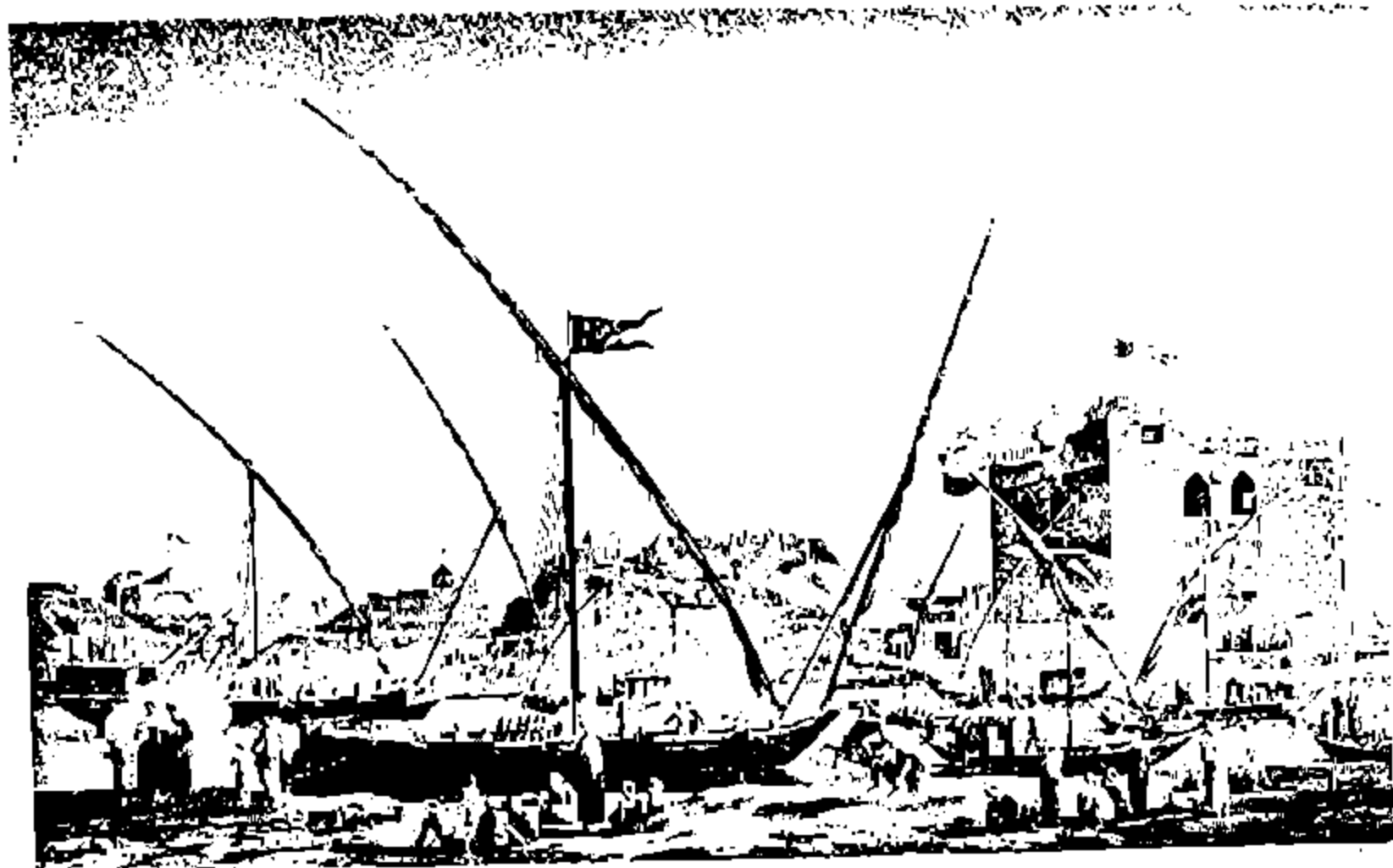
الإدارة الجديدة

إن أهداف فتح الدلتا ليست ذات طابع عسكري بشكل وحيد. فهو نهائيات يفكر بالفعل في إقامة إدارة جديدة تحل محل إدارة المماليك. وعلى المستوى المصري، تجرى إقامة نظام قائم على تعاون أمين قبطى ووكيل فرنسى. ومشاركة الأقباط لا تخفى عنها، فهم وحدهم الذين يعرفون التعقيدات للورثة من الإدارة العثمانية. وللازم للفرنسيين هو بالدرجة الأولى ولاء موظفين يواصلون ممارسة وظائفهم الإدارية. ويضاف إلى ذلك على الأرجح شعور بالتحرر والتأثر من وضعية «الخميين»، التي كانت وضعيتهم في العصر الإسلامى، كما تضاف إليه، بدرجة يصعب قياسها لكنها واقعية، حساسية خاصة تجاه «الزمة المصرية» التي طورها الفرنسيون. ومن حيث أصلهم التاريخى، فإن الأقباط يعتبرون - ويعتبرون أنفسهم - للمثليين الأصديق لمصر. لكن قدرًا من سوء الفهم يتولد، لأن الفرنسيين لا يدرون في البداية فيهم غير أنوار ضرورية لاستكمال درايتهم بالحقائق الضرورية والإدارة للبلد. وإعادة تنظيم البلد، المفهومة وفقًا لنموذج الإدارة العقلانية الذي طوره الثورة الفرنسية، لن تمنح لهم في المستقبل غير نور ثانوى. ومن جهة أخرى، فإن طموحات سياسة بوناپارت «الإسلامية» وواقع أن الفرنسيين يدرون، بوجه عام، أن المسيحيين سوف يتحازون دائمًا إلى جانبهم، إنما تلغى سلة مصر الجدد إلى تجاهل المطالب الخاصة للأقليات، خاصة في مجال المساواة.

كما تستند السلطات العسكرية إلى نظام قواوين إقليمية على غرار ديوان القاهرة. وقوامها أكثر أصالة. فمن الواضح أن العلماء يدعون على الفور إلى للمشاركة فيها، لكن الفرنسيين يضيفون إليها الأعيان، وأغلبهم من التجار المنتمين إلى الميليشيات العثمانية (١٢٠). وليس في ذلك ما يثير الانزعاج بشكل خاص وذلك بقدر ما أن كبار ضباط الميليشيات كانوا ينتمون بالفعل إلى الإدارة. ويكاد ذلك يمثل عومة للفترة الزائلة التي كانت الميليشيات تشكل فيها مراكز سلطة مستقلة عن مراكز سلطة الأمراء المماليك. وفي نسق الأفكار نفسه، يجرى تشكيل قوة شرطة مجهزة بشكل خاص من قوة الانكشارية العصابة تحت المراقبة الدقيقة من جانب مسئولين فرنسيين.

ويظهر التغير الكبير مع مشاركة مشايخ البلد في الديوان. ويقدر ما هو متوافر لدينا من معلومات، فإن ذلك لم يك نتيجة فكرة مسبقة لدى الفرنسيين، بل نتيجة إصرار

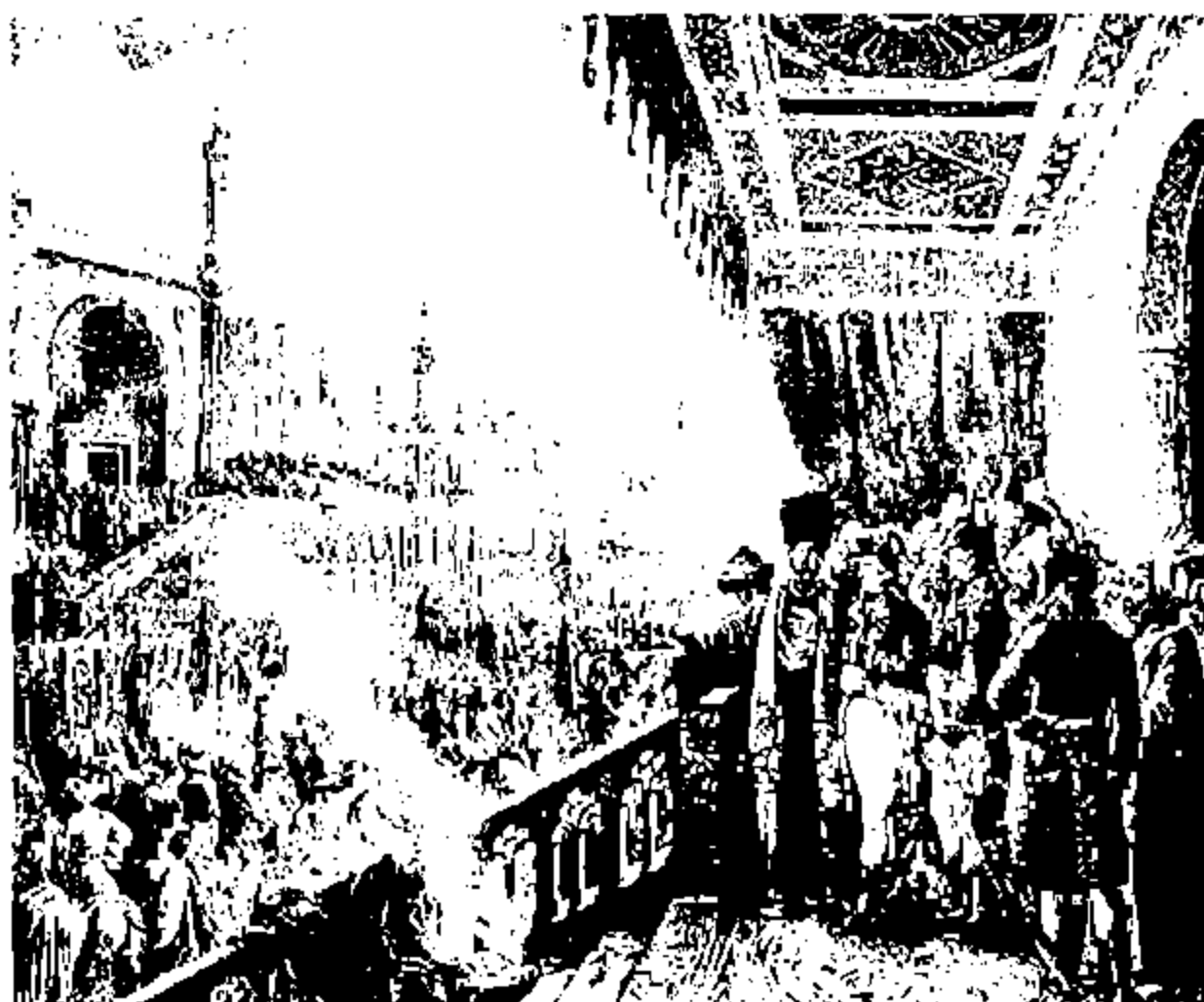




٢٦ - مأخذ الماء من قناة القاهرة.



٢٧ - (١) الشاح الثلاثي
اللون يهديه بونابارت إلى
أحد بكوات مصر.



(ب) بونابارت يشهد عهد مولد النبي محمد.





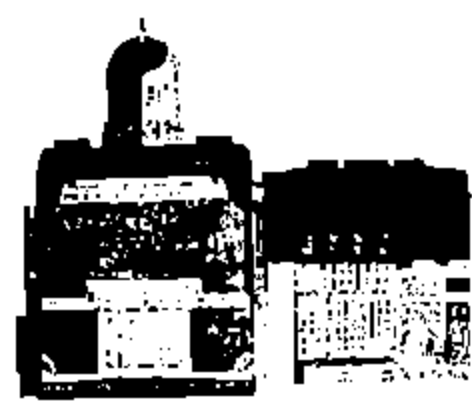
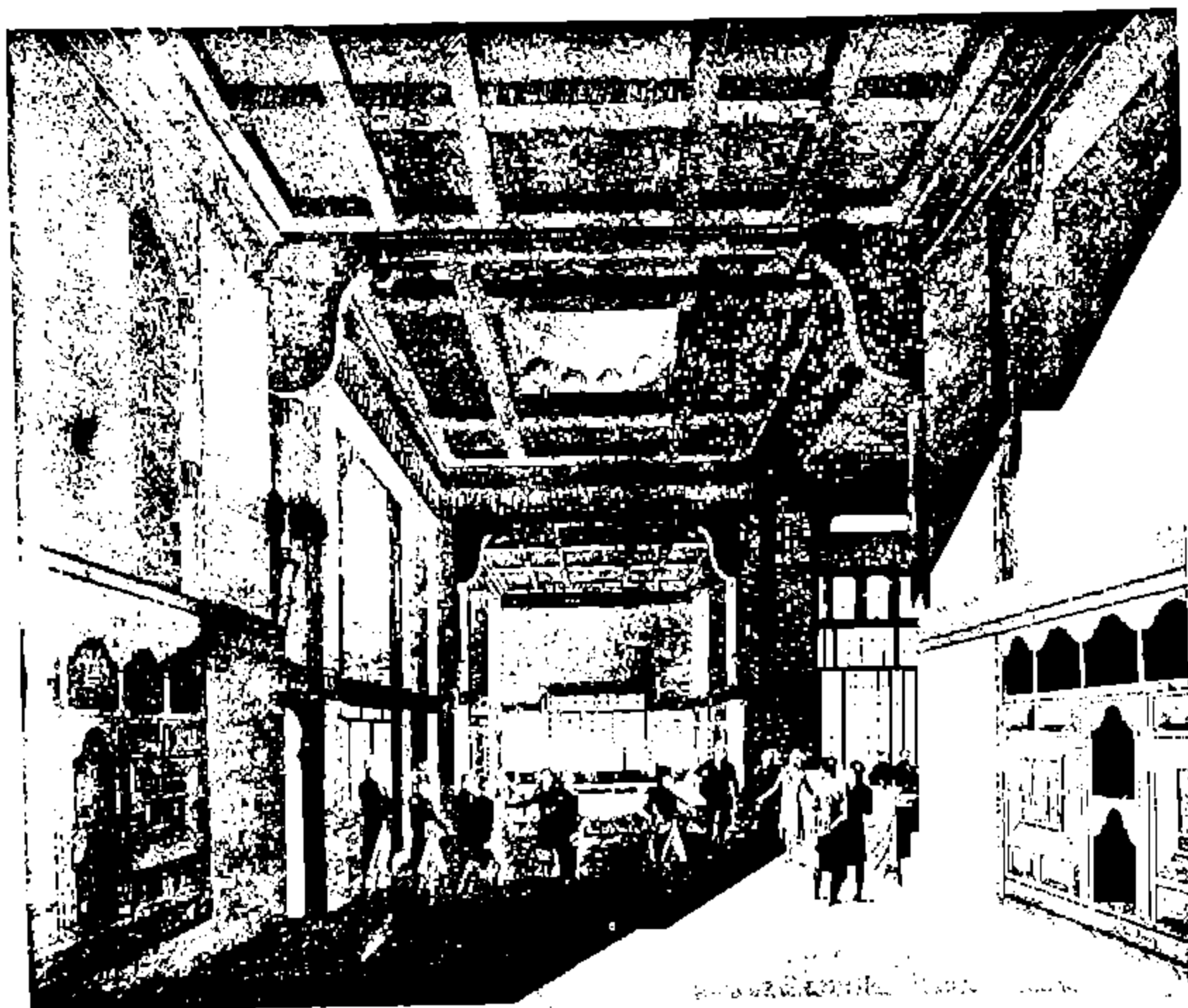




٢١ - (١) بورتريه سليم الثالث.



(ب) قصر الأبراج المسبعة.



من جانب السلطات الجديدة للدور الأساسي لهذه الجماعة الاجتماعية في الأرياف. وإذا كانت لشكل المقاومة الإقليمية والفلاحية للاحتلال قد نهت بشكل خاص من كبار مشايخ العرب، الذين كانوا يكتفون وظائف متولى إدارة الأراضى، للالتزم، وكانوا رأس القسامات القبلية والعائلية (العصبيات) الفلاحية والبنوية، فإن مشايخ البلد قد أتركوا بسرعة مهمة التحالف مع العسكريين الفرنسيين للقضاء على الضغط البدوي. ولم يك من شأن إختفاء الجزء الأعظم من الالتزامات، التي جرى تحويلها إلى ممتلكات عامة كما حدث لممتلكات أمراء الثورة (في فرنسا - للترجم)، والموعد للقبضة التي لحقها الفرنسيون (١٧٦) الذين تركوا الناس يتصورون إمانة توزيع ثلثة للملكية العقارية، إلا أن تشجيع على هذا الولاء الذي يتعارض معه بشكل طبيعي شعور بأن الفرنسيين أمراء للإسلام.

ومنذ البداية، يتصرف الفرنسيون في اتجاه استعادة النظام. ولا يعنى ذلك مجرد القضاء على عمليات السلب والنهب التي يقوم بها البدو، بل يعنى بوجه أشمل استعادة تماسك النظام الهيدروليكي للوادي، الذي تنحدر خلال فترة الفتن التي بدت بعد موت أبو الذهب. والأمر اليومي الصابر في ٦ أروكتيدور من العام السليس (٢٢ أغسطس ١٧٩٨) يوضح جيداً طموح هذا لبرنامج :

«إن نجاحات فيضان النيل إنما تتوقف على صيانة القنوات أو على الأقل الحفاظ عليها. وملايات الجيش، شأنها في ذلك شأن مالهات للمصريين، من مصلحتها أن يتم توزيع المياه بنظام وبراعة واقتصاد وتسلي.

«وعندما يصل فيضان النيل، يسعى المزارعون متنقلين إلى الاستحواذ على مياه القنوات وإلى تحويلها لحسابهم.

«وبناءً على ذلك فإن القائد العام، إنراكا منه لوجود عدة محاولات تمت الفحل، يأمر جميع الجنرالات ومساعدى الجنرالات الذين يتولون القيادة في الأقاليم أن يقدموا في التو وال حال إلى أمراء الأقاليم المذكورة يد العون التي قد يحتاجون إليها، وأن يوفرُوا الحراس الذين قد يكونون ضروريين.

«ويأمر القائد العام بوجه خاص قائد إقليم القليوبية بحراسة ومراقبة ترعة أبو منهى، وهى إحدى أهم الترع في مصر. فقد اعتاد العرب على مدار الأعوام بذل كل جهودهم لتحويل مياهها؛ وأن يأخذ بعين الاعتبار أنهم إذا نجحوا في ذلك، فإن الجزء الأعظم من الأرض الذي ترويه هذه التربة سوف يظل مجفياً» (١٧٧).

الإسكندرية ورثتها

من الطبيعي أن هذه الاستعادة للنظام أكثر تقدماً في إقليم غرب الدلتا التي سقطت بشكل مبكر أكثر في أيدي الفرنسيين. ومنذ رحيل الإنجليز، يهتم كليبر بإقامة ميون (١٢٨)، الذي يتولى أموره حزب العلماء، وعلى رأسه الشيخ المسيرى. وهو يأمر باحتفال مهيب بمولد النبي (٢٢ أغسطس ١٧٩٨). ويواصل إنشاء تحصينات جديدة. وتزايد ضرورة ذلك بقدر ما أن السفن البرتغالية تنضم إلى السفن البريطانية التي بقيت لغرض الحصار على الميناء. وتحدث قنارات لنهران المدافعية، حيث يسعى الإنجليز بشكل خاص إلى رصد مواقع البطاريات الفرنسية (٢٩ أغسطس ١٧٩٨). ثم إن الفيلق البحري، للمشكل من البحارة السابقين الناجين من أبو قير، يحل محل اللوحدات الموجودة في أبو قير (٢ سبتمبر ١٧٩٨).

والشواغل الأساسية ذات طابع مالي. فالأعمال التي يجري الاضطلاع بها في الإسكندرية تكلف خالياً، ثم إنه يجب تأمين النفقات الضرورية لتوجيه مسار المياه خلال فيضان النيل، وشراء حبوب لسكان المدينة التي تجازف بأن تشهد مجاعة. ومن ثم فإن يتعين فرض ضرائب إلزامية جديدة على التجار واستغلال الأموال التي خصصها بونابارت للبحرية في أغراض أخرى. وكل ذلك يجر على كليبر توبيخاً قاسياً من جانب القائد العام الذي يتهمه بالتبذير البالغ. ويثور الأرناسي (كليبر - المترجم) على ما يعتبره ظلماً ويرد بإباء:

«لقد نسيت، أيها المواطن الجنرال، وأنت تكتب تلك الرسالة، أنك تمسك بإزميل التاريخ وأنت تكتب إلى كليبر، على أنني لا أظن أنك قد راوتك أدنى فكرة غير الفكرة التي أصريت منها، وإلا فإن للمرء أن يصطبك.

«إنني أنتظر، أيها المواطن الجنرال، عهدة عودة البريد، الأمر بإعطائي من وظائف ليس فقط في موقع الإسكندرية وإنما أيضاً في الجيش إلى أن تتكون لديك فكرة أفضل عما يجري وما جرى هنا. إنني لم أت اللبته إلى مصر لكي أكون ذروة. وقد تمكنت إلى الآن من احتلالها بعدما كنت. على أنني لن أسمع أبداً مع ذلك بإحاطتي بأية شبهة».

ويسعى بونابارت إلى تدليك وقع رسالته باستعادة كلمات مخاطبه: «إذا كنت أمسك بإزميل التاريخ، فإن آخر إنسان يمكنه أن يخشى من ذلك هو أنت» (١٢٩).

وكان بونابارت قد أرسل مارمون إلى البحيرة وإلى الإسكندرية لتفقد الوضع. والواقع أن القائد العام كان ينوي الاستجابة لمطالب كليبر الذي كان يريد استئناف قيادة

فرقت، وكان يفكر في أن يحل محله الجنرال مانسكورد، الذي وصل مع مارمون إلى الإسكندرية. ويرى مارمون، وهو لم يخطئ في ذلك، أن البديل للرشح غير كاف. وليس من غير المرجح أنه قد فكر في نفسه لهذا المنصب (١٢٠). والنتيجة المباشرة للصدام الأول بين بوناپارت وكليبر هي تأخير استهلال الثاني في الإسكندرية.

ويشهد هذا الميناء توافد الحجاج المغاربة للعائدين من مكة والذين لا يستطيعون ركوب البحر بسبب الحصار الإنجليزي. ويأمر بوناپارت بترحيلهم عبر الطريق البري وذلك بالرغم من الخطر الذي يتهددهم من جانب العدو (١٨ سبتمبر ١٧٩٨). وهؤلاء العدو أنفسهم، تحت قيادة عبد الله باشي، ينهمكون في سد القناة التي يتعين عليها نقل المياه إلى الإسكندرية. وهم يهاجمون أولئك الذين يتعهدون، لدى الفرنسيين، بتأمين انتقال المياه، الأمير إبراهيم المنهوي وأتباعه. ولما هذا الخطر الذي ينذر بهلاك المدينة بالكامل، يحزن جنود الديوان ويطلب على الفور إلى كليبر اتخاذ أكثر التدابير صرامة. ويقرر هذا الأخير القيام بحملة تليبية ضد قرية بركة غيطلس المتحالفة مع لولاد علي. ويتم نهب القرية وتدميرها بينما يجري نهب جانب من السكن (١٤ - ١٥ سبتمبر ١٧٩٨). وعندئذ يعود مارمون طابوراً متحركاً مكلفاً بضمان الأمن على طول القناة. ولا يمنع ذلك الأمير إبراهيم، الذي كان قد طلب مع ذلك بهذا الإجراء، من الانتقال إلى صف عبد الله باشي (١٢١).

أما فيما يتعلق بكليبر، الذي لم تنجح رسالة بوناپارت في تهينة خاطره، فهو يتلوع بعودة الألام، الناشئة عن الجرح الذي أصيب به خلال الاستيلاء على الإسكندرية، لكي يسلم قيادته للجنرال مانسكورد الذي يبدو مع ذلك جد متردد في قبولها (١٨ سبتمبر ١٧٩٨). وبعد ذلك بوقت قصير، يطلب عودته إلى فرنسا. وكان لابد من تدخل كافاريللي لمصالحة الجنرال الأكراسي مع بوناپارت. وعندئذ يرحل كليبر إلى القاهرة التي يصل إليها لحظة الانتفاضة الأولى للمدينة. وفي رشيد، يصطدم مينو بالمشاكل ذاتها تماماً التي يصطدم بها كليبر في الإسكندرية: التهديد البحري الإنجليزي، انعدام الأمن الذي يتسبب فيه العدو، والارتباكات المالية للمحولة. لكنه يرد على ذلك بشكل مختلف: فهو يتحمس لفتح مصر، التي يريد لها أن تتحول إلى مستعمرة فرنسية غنية، تعل محل مستعمرات جزر الأنتيل الضائعة. وسوف تنتج مصر وفرة من البن والسكر والقطن والذيلة والقرمزية. ويفضلها سوف تصبح فرنسا سيدة تجارة أفريقيا والهند (١٢٢) وهو يتمسك بانتهاج سياسة نموذجية تجاه أهل البلاد. فهو يحدد مبادئ تاجرة للديوان، الذي أنشأ في رشيد، حيث يسرف في تقديم نصائح حسنة إليه بشأن ضرورة معارسته لهيئة برانصاف (١٢٣). وهو يقوم بحولة استطلاعية داخل إقليمه مع مارمون وفيفان بينون

ودبلوماسيو للتوصل إلى تأكيد السلطة الفرنسية وتأمين الاتصالات مع القاهرة (١٢ - ١٩ سبتمبر). ولما كان قد تحرك دون حذر، فإنّه يسقط في كمين في قرية كفر شماس هلمو (شماسي الملح ؟) التي يتم إحراقها انتقاماً. (١٢٤)

وفي ٢٠ سبتمبر يبدأ ماركسون عملياته على طول قناة الإسكندرية. وهو يتمتع بقوة مؤلفة من ألفي رجل. ويقوم بتوزيع جزء منهم على مواقع ثابتة بينما يكرس الجزء الآخر لأنباء مهام طابور متحرك. وهو يجد هذا لتخلي الأمير إبراهيم (عن الفرنسيين - المترجم) «وفقاً لكل ما تسنى لي جمعه من معلومات، فإنني أعتقد أن إبراهيم الشوربجي ليس متهماً إلا بالخوف. لقد كان موقفه صعباً، وكان مواجهواً في وسط يهيمن عليه العرب» ولم تقدم إليه أية حماية، وكان يواجه مخاطر عظيمة. إن كثيرين من المشجعان كان من شأنهم أن يتصرفوا بالشكل الذي تصرف به». (١٢٥)

وفي ٣٠ سبتمبر، تصل المياه إلى الإسكندرية، ويجرى البدء بعمل الخزانات. وخلال عدة أيام تصبح القناة نفسها صالحة للملاحة، الأمر الذي يسمح بنقل الجزء الأكبر من اللدائع والعتاد الحربي الذي ظل في المناء بعد النزول إلى القاهرة.

عقد الديوان العمومي

منذ بداية سبتمبر، يبدو فتح القلعة، بالرغم من العمليات التي ما تزال جارية، متقدماً بما يكفي في نظر بوناپارت، بحيث يتسنى له اتخاذ قرار بعقد ديوان عمومي في القاهرة لعموم مصر. ويتعين على كل إقليم أن يرسل إليه وفداً مؤلفاً من ثلاثة وفلاحين من مشايخ البلد وزعماء العرب. ويتعين على الجنرالات لاختيار هؤلاء الأعيان «من بين الأشخاص الأوسع نفوذاً بين الناس، والأكثر تميزاً في البلاد بمعارفهم ومواقفهم وأسلوب ترحيبهم بالفرنسيين؛ وعليهم أن يحرصوا على عدم لاختيار أحد من أولئك الذين يقفون ضمتنا بشكل سلبي» (١٢٦). وموعد الاجتماع هو العاشر من سبتمبر من العام السابع (الأول من أكتوبر ١٧٩٨). وبسبب تأخر وصول بعض الوفود، يجرى تأجيله إلى ١٤ سبتمبر (٥ أكتوبر).

وفي ذلك اليوم، تبدو عملية تهتة القلعة ناجزة وتسمح أمور كثيرة بتوقع انحنياز علم إلى صف الفرنسيين. على أن الحدث الرئيسي، والذي يتمثل في دخول الإمبراطورية العثمانية إلى الحرب وحملة الدعاية التي تلتها، سوف يقلب الوضع.

دخول الإمبراطورية العثمانية إلى الحرب وحرب الطغاة سليم الثالث

خلال الشطر الثاني من القرن الثامن عشر، أدرك المسئولون السياسيون العثمانيون انقلاب علاقة القوى بين الدول الأوروبية والإمبراطورية الإسلامية العظمى. وقد أوضحت لهم حرب ١٧٦٨ - ١٧٧٤ أن محير دولتهم نفسه قد صار مهددًا. على أنهم كانوا مؤمنين إيمانًا عميقًا بالتفوق للتواصل للحضارة الإسلامية، القائمة على الدين الحق، وانتهوا إلى تفسير الوضع القائم بوصفه نتيجة لانحطاط المؤسسات السياسية، الصحيحة من حيث أساسها، ومن ثم فإن للمصلحين الأرائل يثنون على عودة إلى روح وأشكال السلطة التي عرفها عصر السلاطين الفاتحين العظام في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ومثل هذا البرنامج، على الرغم من أنه لا يمثل محاكاة لأوروبا، هو بالفعل برنامج ثوري، بقدر ما أنه يهدد الاستحواذ على مغانم ضخمة من جانب جماعات اجتماعية وسياسية مختلفة.

وفي المجال العسكري بالتحديد يبدو الإصلاح أكثر ضرورة. لكن التحرك في هذا القطاع ينطوي على مجازفات سياسية كبرى. فالمؤسسات العسكرية القديمة كمؤسسات الأنكشارية (المرتبطة كما في القاهرة بطبقات التجار والحرفيين للدينية) ترفض أية دعوة إلى الانضباط القديم كما ترفض أي تكيف مع التقنيات القتالية الجديدة. وهي مستعدة للتصدي بالسلاح لأي تغيير سياسي يهدد هيمنتها في المجتمع ويمكنها تبرير تحركها باسم الدفاع عن المجتمع الإسلامي ضد تعسف سلطة مستبدة. وهذا الدافع عن الإسلام، يتلخص به أنصار الإصلاحات بدورهم عندما يطالبون بتزويد الدولة بالإمكانات اللازمة لمقاومة الدول الأوروبية التي تتزايد خطورتها باستمرار كما يشهد على ذلك ضم القرم إلى روسيا.

وقد أدركوا أن المقاومة لا يمكن أن تتم إلا عبر اللجوء إلى الفئتين العسكريين الأوروبيين، لكنهم يطمنون لئلا يصر هذا اللجوء إلى أوروبا على مسائل التقنية الخاصة حتى لا يضطروا إلى نهج أسس مجتمعهم حينها. وإيا كان الأمر، فمن الخطر بما يكفي بالفعل الهجوم على التنظيم العسكري التقليدي. وهكذا، فعلى مدار القرن، بذلت محاولات مختلفة باستخدام أوروبيين، متحولين بهذه الدرجة أو تلك من الإخلاص إلى اعتناق الإسلام، في النهاية، ثم باستخدام خبراء مؤمنين من جانب دول أوروبية، كفرنسا.

ويتجلى هذا الوضع في لزمة النموذج الوزاري للحكم، الذي يتمثل في تخفيف عجز الصلاطين، من خلال عمل رجال دولة قوياء. والتعاقب السريع للصدور العظام في القرن الثامن عشر يترجم بوضوح الارتباك السياسي للميز للعصر. ويجري إدخال تغيير جذري مع صعود سلطان يملك نية الحكم، أو، على أية حال، إعطاء جهاز الدولة توجهات جديدة، وهذا السلطان هو سليم الثالث. (١٢٧)

والحال أن سليم الثالث، الذي ولد في ٢٤ ديسمبر ١٧٦١، قد تلقى تعليمًا مفتوحًا بشكل غير عادي على العالم الخارجي بالنسبة لأمير عثماني جرت العادة على أن يكون معتكفًا في السراي. وبسرعة بالغة، فإنه يحيط نفسه بمجموعة من الشباب الذين يشاطرونه الحس الإصلاحى عينه. بل إنه قد قام في عام ١٧٨٦ بإرسال أحد رفاقه، إسحق بك، إلى بلاط فرساي لطلب عون لويش السادس عشر ضد الخطر الروسى. وقد ذكر بون طائل بالصداقة التقليدية بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية، فهو لم يتلق غير رفض مهذب من جانب بلاط فرنسا. وعلاوة على ذلك، فإن الحكومة الفرنسية تأمر بسحب مستشاريها لحظة بدء الحرب الثانية. وهكذا فعندما يرتقى سليم الثالث للعرش، في إبريل ١٧٨٩، تجد الإمبراطورية نفسها منخرطة، بون حليف حقيقى، في حرب مشنومة مع النمسا وروسيا. ويتعين إيلاء الأولوية للمسائل العسكرية، والسلطان الجديد هو أحد الأنصار الأكثر عزمًا لسياسة مقاومة الغزوات الأوربية. على أن الوضع يتزايد تدهورًا في أواخر عام ١٧٨٩.

وتؤدى الثورة إلى الإسراع بفك ارتباط السياسة الفرنسية بالمسائل الشرقية، الذي بدأ بعد موت فيرديناند. ومن ثم يتعين على العثمانيين الاتجاه إلى حلفاء جدد. وتمهيدًا لما سوف يشهده القرن التاسع عشر، فإن مصير الإمبراطورية يستند بشكل مطرد على الآليات للعقبة للتوازن الأوروبى. وفي عام ١٧٩٠، كان أبطال المشهد هما دولتا الشمال، إنجلترا وروسيا، الثانية لأنها لا تستطيع السماح بتوسعات بون تعويضات من جانب جيرانها النمساويين والروس، والأولى لأن التوسع الروسى على حساب الدول الإسلامية يهدد إمبراطوريتها الهندية الأخذة في التشكل. وهذه النواحي التى تقود إلى تقارب مع الإمبراطورية العثمانية تجعل هذا الالتقاء مشكًا تعلمًا، لأن هذه الدول، بمجرد تحقيق مصالحها، مستعدة للتخلى بون أسف من مصالح الإمبراطورية العثمانية. وسيدرك القاب العلى ذلك إيراكا أليما في السنوات التالية.

والحال أن الثورة والتقسيم الثاني لبرلندا يدفعان دول القارة الأوروبية إلى التخلي مؤقتاً عن المسألة الشرقية. كما أن عودة إنجلترا إلى البحر المتوسط تسهم في ذلك إلى حد بعيد. وترتبط هذه اللحظة الجوهرية بأزمة لوشاكوف للدولة في ربيع عام ١٧٩١. فإذا ما استولى الروس على هذا الحصن العثماني، فإنهم يصبحون سادة لجميع المضايق الشمالية للبحر الأسود. وكان بيت ودنايس (المتحدث بلسان المصالح الأنجلو - هندية) على استعداد لإرسال أسطول إنجليزي إلى البحر الأسود للتصدي لذلك الخطر. وفي نهاية الأمر، يتغلب الروس، ويسمح التدخل الإنجليزي بالتسوية النهائية لصالح يلسي في يناير ١٧٩٢. ولأول مرة، يضطر المسؤولون الإنجليز إلى الفصل في نزاع بين مصالحهم المباشرة في أوروبا، وهي هنا تجارة البلطيق المهمة، ومصالحهم الطويلة الأجل في الشرق. ويستهل اللورد إيلجين عندئذ بداياته العيسلية، بتحليده من مخاطر سيطرة روسيا في البلقان والقوقاز، ومن مخاطر سيطرة فرنسية في البحر المتوسط كما يستهل بداياته الدبلوماسية بالتفاوض مع بروسيا على المعون الذي يجب تقديمه إلى العثمانيين، ويبدأ السطاع عن وحدة أراضي الإمبراطورية العثمانية في الاندراج في المذهب السيامي للمستولين الإنجليز، إن حماية الهند إنما تمر عبر البحر الأحمر ومصر وشرق البحر المتوسط. (١٢٨)

الإصلاحات والثورة الفرنسية

إن عودة السلم بالنسبة للإمبراطورية العثمانية معاصرة لنشوب حروب الائتلاف الأول. وتسعى لجنة الخلاص العام وخليفتها إلى الحصول من الباب العالي على نود إلهاء فعال ضد النمسا وروسيا. كما أنها تسعى إلى انتهاج سياسة شرقية تدفع الإمبراطورية إلى التدخل في الحرب (١٢٩). وبشكل حكيم، يرفض الباب العالي ذلك مع احتفاظه بصلات صداقة مع الدولة الثورية، الأمر الذي يثير عظيم سخط دول الائتلاف الأول.

والشيء الأهم، بالنسبة للسلطان، هو تكوين جيش جديد، النظام الجديد، وفق النموذج الأوروبي وفي توازن مع القوات العسكرية التقليدية التي يجرى الإبقاء عليها بسبب ثقلها العيسلي. واعتباراً من عهد حكومة الإنارة، تقبل فرنسا أداء هذا العمل بإرسال مستشارين مدربين إلى القسطنطينية. (١٣٠)

كما أن جهد الإصلاحات يجد ترجمة له في الظهور، الحاسم والنهائي هذه المرة، للطباعة باللغة التركية في القسطنطينية وفي افتتاح أعظم على العالم الخارجي. ولأول مرة، تنشئ الإمبراطورية سفارات دائمة في أوروبا. فمؤد عام ١٧٩٢، يجرى افتتاح سفارة في لندن؛ وفي عام ١٧٩٥، يجرى القدود على برلين وڤيينا، ثم يجرى القدود على باريس في عام ١٧٩٦. وهؤلاء السفراء، خاصة في فرنسا، يستثيرون فضولا عظيما من جانب الجمهور. (١٤١)

بل إن الثوار الفرنسيين قد حاولوا الاضطلاع بجهد دعائي (١٤٢). فسفارة فرنسا تتمتع بدار نشر صغيرة تصدر بشكل عرضي، بالفرنسية، صحفاً تورد أخبار أحداث فرنسا؛ ثم إن للنصوص الأكثر أهمية، مثل إعلان حقوق الإنسان أو مختلف الدساتير الفرنسية، قد ترجمت إلى التركية، بالرغم من الصعوبات الواضحة في العثور على مصطلحات (تركية) مفاظرة بدقة لبعض المصطلحات (الفرنسية). والحال أن عناصر الأقليات المسيحية، خاصة اليونانيين والأرمن، يبدون جد متجاوبين مع هذه الأفكار الجديدة ولا يترددون في ارتداء للشارات الثورية كلفشارة للثلاثية الألوان. ويستثير هذا للولف انزعاج الحكومة العثمانية.

ويتزايد الانزعاج عندما يقوم فرنسيو جيش حملة إيطاليا خلال صيف عام ١٧٩٧ بتدمير البندقية والاستيلاء على الجزر الأيونية. إن بونابارت الذي يلكر في الشرق، يجرى اتصالات مع حكام الولايات البلقانية الأقوية ومع يوناني الإمبراطورية. وهذا التحرك لا يمر دون رصد من جانب الباب العالي. فهو يحتج رسمياً لدى السلطات الفرنسية ويعيد غالبية للمستشارين العسكريين الفرنسيين ويرفض الاعتراف بمعاهدة كامبو - فورميو التي تكرر اختفاء البندقية. إنها ثلثي شريك تقليدي للباب العالي يفتنى (حيث كانت بولندا أول شريك يفتنى). ويرى العثمانيون في ذلك محققين نذير خطر جديد، وتبدو فرنسا بالنعبة لهم قوة عظيمة توسعية إضالقية قائمة على حدودهم وذات اطماع إقليمية خطيرة. ومع موت لويس - بوباييه، صليبر فرنسا، يتأخر تاليران في تعيين خلف له، ويترك بيير بولمان، وهو ترجمان يملك دراية عظيمة بالشئون العثمانية، كقائم بالأعمال. فوفقاً للخطة التي وضعت بالاشتراك مع بونابارت، يتعين على تاليران نفسه الذهاب إلى القسطنطينية، وهو يحدد تعليماته الخاصة التي يقدمها إلى حكومة الإدارة في ١٦ مارس ١٧٩٨،

«إن كل ما قيل في هذه التعليمات يجب أن يفتح للمواطن...» (١٤٢) بأن حكومة الإدارة لا تريد لا الحرب ولا القطيعة مع الإمبراطورية العثمانية. إنها، في واقع الأمر، عازمة على احتلال مصر للدفاع للهيئة أعلاه، ولأنه وسيلة أكيدة لإضعاف وتدمير الإنجليز في الهند؛ لكن ذلك لا يمكنه على أية حال أن يدفعها إلى اللجوء لحقوق السلطان في الأجزاء الأخرى من إمبراطوريته. فهي تترك جيداً أن دمار هذه الإمبراطورية لا يمكن إلا أن يصبح في صالح النمسا وروسيا. ومن ثم فإن وجودها، من أكثر من زلوية، إنما يندرج ضمن المصالح الواضحة للجمهورية، شريطة أن تظل هذه الأخيرة حائزة لمصر. ومن ثم فإن المواطن... سوف يبتل كل ما في وسعه لفتح الباب العالي إلى سهل التصالح ولإقناعه بأن حكومة الإدارة التنفيذية ليس لديها أي مخطط للاتحاد مع أعدائه الطبيعيين في أوروبا وإنما مستعدة أكثر من ذي قبل لأن تقدم إليه البراهين المقنعة على ذلك». (١٤١)

والحال أن الاستعدادات في طولون في ربيع عام ١٧٩٨ قد فسرها الباب العالي، محققاً، بأنها خطر أكيد على أرض عثمانية، بينما حصل بوناپارت من تاليران على تأكيد بأن يؤخر لأطول وقت ممكن التحرك الدبلوماسي سعياً إلى الحفاظ على سرية مشروعة. وسرعان ما تتكشف فائدة الشبكة الجديدة من السفارات، فبالرغم من نفي الفرنسيين للتكبر، يحذر العثمانيون جميع الولايات من خطر العلوان، ويوضحون أن من شأن عمل كهذا أن يستتبع بالضرورة دخول الإمبراطورية إلى الحرب (١٤٥). ولا يصل التحذير إلى المماليك والفرنسيين إلا في أواخر يوليو ١٧٩٨ (١٤٦).

ومما يزيد من تعقيد الأمور أن الإمبراطورية تضطر إلى التصدي في الفترة نفسها لتمرده ياقانوغلو الرهيب في بلغاريا الغربية. فخلافاً للسلطات شبه المستقلة الأخرى، ينتهج ياقانوغلو سياسة حرب سائرة ضد الباب العالي ويسعى إلى أن يحشد حوله جميع خصوم الإصلاحات. وتنشغل الجيوش العثمانية الرئيسية بمحاربتة، وتتم محاصرت في عاصمتها فيدين، عندما يصل نواب الاستيلاء على ملطية. (١٤٧)

القطيعة مع فرنسا

تكثف السفارة الإنجليزية تحركاتها لدى العثمانيين للقتنمين بالفعل بالخطر الفرنسي. وفي ١٧ يوليو يصل نواب الاستيلاء على الإسكندرية عبر شهادات شفوية. ويتأكد حمزید من التفصيلات عبر رواية قبطان ميناء الإسكندرية (لهمان ريس) الذي تمكن من

الهرب إلى قبرص. وينقسم للمستوطنون العثمانيون إلى من يريدون السخول في حرب ضد فرنسا، ومن يحلمون بالتوصل إلى تسوية مع الفرنسيين ويستعدون لتبني جانب من مبرراتهم. (١٤٨)

لكن ترتيبات الحكومة العثمانية لا تستمر طويلاً. ويهدى سكان العاصمة صخطهم، فيما هذا انتصار فرنسا، «حكمة الشارة الثلاثية الألوان» وانتصار باسقانوغللو الذين يهتجون لظهور جبهة جديدة تحول الأنظار من جبهة بلغاريا الغربية. وكانت حجة فرنسا قد شلت طريقها إلى شريحة من النخبة الليبروتراطية الإمبراطورية، لكن خطر التتمرات الشعبية، وضغوط الدول الأوروبية الأخرى، وعزم السلطان قد حسمت الموقف (١٤٩). وبوجه خاص، فإن الباب العالي يرى في إنجلترا الدولة العظمى التي حتم القدر أن تصبح حليفة له. ومنذ أول أغسطس، يقترح على سبنسر سميث عقد معاهدة تحالف إهدى تضمن حرمة أراضي الإمبراطورية العثمانية ووحدتها. وعلى الرغم من أن للقائم بالأعمال الإنجليزي لا يملك الصلاحيات الضرورية لعمل كهذا، فإنه يؤيده بحرارة. (١٥٠)

ويتدهور موقف الفرنسيين بسرعة، فهم يجدون أنفسهم مجبرين على عدم الخروج من منازلهم، وكان ذلك في العاصمة ثم في الولايات، ثم جرى احتجازهم ببساطة لاستخدامهم كرهائن لضمان أمن المصريين (١٥١). ومن ثم فإن عمل بوناپارت قد يمر بالكامل كل شبكة الثغور التجارية التي كانت الثورة قد أربكتها بالفعل. وتامر السلطات بإعداد فتوى من جانب العلماء ضد الفرنسيين إلى جانب رسالة باهوية من جانب بطريرك القسطنطينية اليوناني؛ (١٥٢) والحال أن بيانات بوناپارت التي زعمت أنه يتصرف بناءً على رضاء من جانب الباب العالي إنما تعزز السخط الشعبي ضد السلطة، (١٥٣) وتضطر هذه الأخيرة إلى اتخاذ الموقف الأكثر تشدداً لإثبات صلابتها. ومن المؤكد أن بوناپارت لم يكن يتوقع هذا الأثر السيء لدعايته، ومعها إلى التدخل ضد العنوان الفرنسي، يدعو الباب العالي إلى تضامن كافة المسلمين.

البهاان العثماني

إن نها تدمير الأسطول الفرنسي في أبو قير، والذي وصل إلى القسطنطينية نحو ٢١ أغسطس ١٧٩٨، إنما يعزز إرادة القتال لدى العثمانيين. وفي ٢ سبتمبر، جرى

احتجاز الدبلوماسيين الفرنسيين، وفقاً للمعرف، في قصر الأبراج السبعة. والحال إن تاليران، الذي كان قد أدرك بسرعة أن وضع سفير في القسطنطينية يخطر بالآ يكون سعيداً البتة، كان قد تخلى منذ وقت طويل عن هذا المنصب وعين فيه السفير السابق للمؤتمر، بيكورش نو سان - كروا. (١٥١) وكان هذا الأخير قد أجرى استعطفاته، لكن قطع العلاقات الدبلوماسية بحول دون رحيله. والواقع أن الباب العالي ينشر في ٩ سبتمبر ١٧٩٨ بياناً الحرى، إن فرنسا قد خانت بفخامة الصليقة التقليدية التي كانت تربطها بالباب العالي؛ وهذه الخيانة جد مشينة، بقدر ما أن الإمبراطورية العثمانية، خلال ائتلاف بول أوروبا ضد فرنسا، قد تمسكت بحيل مطوف وسمحت بإملاك فرنسا التي تتهديها للهامة بالمؤن. وكان جزاء ذلك أن فرنسا قد انتهجت سياسة تخريب في الولايات الأوروبية للإمبراطورية، لم تقمت على مهاجمة مصر مع سعيها إلى كسب الوقت عبر مناورات تسويقية لدى الباب العالي.

«واستناداً إلى ما شهدناه حتى الآن من تصرفات تعسفية وتحكمية من جانب حكومة الإدارة، فإنها لا تهدف إلا إلى زعزعة نظام وانسجام العالم برمتى وتمزيق الأواصر التي تربط بين الشعوب والأمم. وتبعاً لما يناسبها، فإنها تستخدم تارة الحشائش السرية وتلجأ إلى الوسائل المستترة، وتستخدم الحديد وال نار على المكشوف تارة أخرى، لكي تطيح بدساتير الدول، وتقيم، كما فعلت في إيطاليا، كثرة من الجمهوريات الصغيرة التي تود فرنسا أن تكون الجمهورية الأم لها، ومن الواضح أنها تنتزع لنفسها في كل مكان حق تسوية الشئون العامة على هواها.

«ولما كانت مصر هي بوابة للدينيتين المقدستين، للمدينة ومكة، فإن هذه المسألة تتميز بالنسبة للمسلمين بالأهمية الكبرى وفقاً للبيانات التي أصدرها الباب العالي بالفعل في هذا الشأن [...] فإن الهجوم الجائر والمهاغت والأعمال العنصرية من جانب فرنسا يجب، بموجب شرائع العدل والرحمة وعمون الله سبحانه وتعالى، دفعها بالقوة، وعلى ثقة تامة من رحمة وعمون الله سبحانه وتعالى، فقد اتخذنا ترتيباً على ذلك جميع التخليير لنقطع الاعتمادات برأ وبهراً، وتقدر، لقهر وسحق الأعداء، أن من الواجب للدين على كل مسلم الخروج للحرب ضد فرنسا» (١٥٥).

ويأعلان الجهاد على هذا النحو، فإن الباب العالي يتعين عليه تحديد سبل تحركه. ويجري إرسال سلسلة بأكملها من الأوامرات (١٥٦) إلى مختلف الأقسام الإدارية للإمبراطورية لتجنيد القوات. (١٥٧)

وساعتئذ، يصبح الشيء الأهم هو التعرف على رأى أحمد باشا الجزائر. فإذا ما اختار هذا الأخير الوفاق مع الفرنسيين، فإن وضع الباب العالي سوف يصبح صعباً. ومما يسعد هذا الأخير، أن سيد عكا قد أترك أن الفرنسيين في مصر يشكلون خطراً أعظم بكثير على سلطته من خطر الباب العالي، الأبعد بكثير، والذي يحتفظ معه بلثماً، بوجه عام، بعلاقات طيبة. وهو يتصل من تلقاء نفسه بالإنجليز الذين يبدى لهم رغبته في القتال. (١٥٨)

التحالف مع روسيا وإنجلترا

تأثر قرار الدخول في الحرب بالضغط الروسي أيضاً. على أن پول الأول كان قد أبدى في بداية عهده رغبته في اتباع سياسة سلمية وساعية إلى تضميد الجراح بعد الحروب الطويلة التي خيضت في زمن كاترين العظيمة. لكن وجود الفرنسيين في البحر المتوسط، وخاصة في البحر الأدرياتي، إنما يشكل في نظر حكومته خطراً على الأطماع الروسية في المنطقة. وقد جرى تفسير حشد القوات في طرلون بوصفه علامة تهديد وشيك لروسيا، ويتم وضع أسطول البحر الأسود في حالة استنفار. ويقود الاستيلاء على مالطه إلى اتخاذ قرار بحاربة فرنسا، فمن اللازم حشد جيش يتألف من ستين ألف رجل على الحدود الروسية - العثمانية، ويتمركز الأسطول البحري الروسي على مقربة من المضائق، ومنذ ٢٤ يوليو جرى اقتراح تحالف على إنجلترا. (١٥٩)

وهكذا يجد الباب العالي نفسه مدفوعاً إلى التحول مع روسيا، وترسو السفن الروسية قبالة القسطنطينية في ٢ سبتمبر ١٧٩٨ وتبدأ للحادثات العسكرية في ٥ سبتمبر. وبالرغم من المطالب الإنجليزية، فإنه يجري إيلاء الأولوية للهلقان. والحال أن الجزء الرئيسي من الأسطول العثماني، الذي أصبح من جديد مهماً بفضل عمل سليم الثالث، يجري إرساله للاستيلاء على جزر البحر الأيوني، بالتعاون مع الأساطيل الروسية. وينجز الفريقان حشدتهما في ١٩ سبتمبر في عرض الدردنيل الذي يغادرانه في الأول من أكتوبر. وتسقط الجزر بسرعة في أيدي الأتراك والروس (سيرجيو في ١٢ أكتوبر، زانت في ٢٤ أكتوبر، سيفالونيا في ٢٨ أكتوبر، سانت - مور في ١٢ نوفمبر، وإيثاكا في ١٥ نوفمبر). وعندئذ يجري حصار كورفو، القاعدة الفرنسية الرئيسية. (١٦٠) وسوف يقاومه الجنرال شايو حتى ٢ مارس ١٧٩٩.

وكانت إنجلترا قد لوت الأولية للدفاع عن الهند. وبمجرد تلقى خبر رحيل الفرنسيين في لندن، سارع مونتانس، الذي كان آنذاك وزيراً للحربية، بإصدار الأمر بإرسال تعزيزات إلى الهند. وبما أن قوات إنجلترا البرية ضعيفة، فإنها تضطر إلى سحب قوات من البرتغال، بالرغم من التهديدات الفرنسية لهذا البلد. (١٦١) والمسافة جد طويلة لأنه يتعين المرور عبر طريق رأس الرجاء الصالح. ويأمل البريطانيون في أن تصل قواتهم إلى الهند قبل الجيش الفرنسي الذي تصوروا أنه سوف يتجه إليها عبر البحر الأحمر. ومن ثم فمن باب الاحتياط يتعين حصار ذلك البحر. والباب الأعلى نفسه هو أول من يقترح إرسال أسطول إنجليزي إلى البحر الأحمر بالرغم من قرب الهندتين للفرنسيين، ومن ثم فإن الحظر العثماني القديم يختلف بسبب الظروف. (١٦٢)

والحال أن انتصار أبو قير (الذي سميته الإنجليز بمعركة النيل) يومه البريطانيون بأن الجيش الفرنسي قد بات محكوماً عليه بالهلاك بسرعة. ويؤكد نيلسون بقوة أنه قد لجهز من الناحية العملية على الخطر الذي يمثله جيش بوناپارت. ورسائل الفرنسيين، التي يعترض الأسطول البريطاني سبيلها ويستولى عليها والتي يصارع الإنجليز إلى نشرها (١٦٣)، تعطي صورة مبالغاً فيها عن جيش يائس ومتفسخ بالكامل. وحتى نهاية الحملة، سوف تقلل حكومة لندن من شأن القدرة القتالية للجيش بالصماح لنفسها بأن تنخدع بمظاهر مزاج الجنود الفرنسيين للتحرف. إلا أنه يتعين عليها الآن إنجاز سد مدخل شرق البحر المتوسط بمحاصرة مالطه. وهذا امر سهل بقدر ما أن المطلقين يتمربون من تلقاء أنفسهم ضد الفرنسيين الذين يقوهم الجنرال فويوا، في ٢ سبتمبر ١٧٩٨، ويحاصرونهم في لافليت. ثم أن الأسطول البرتغالي، العائد من سواحل مصر، وبعد وصوله في نابولي، سوف يقدم دعمه إلى المتمردين في ١٩ سبتمبر. وفي ٢٤ أكتوبر، ينضم إليه نيلسون الذي كان عليه أن يصلح أولاً في نابولي الأعطاب التي أصيبت بها سلفه خلال معركة أبواتير. على أن فويوا سوف يقاوم في لافليت حتى ٤ سبتمبر ١٨٠٠. (١٦٤)

والحال أن الانتهاكات الدائمة للحياة من جانب مملكة نابولي والصلاليتين لا يمكن اغتفارها من جانب الفرنسيين، وذلك بقدر ما أن الحزب الداعي إلى الحرب والذي تقوده الملكة قد أصبح الحزب المهيمن في نابولي. وهو يلجأ إلى جنرال نمساوي، هو الجنرال ماك، لتنظيم جيش نابولي. وبالرغم من تحفظات ماك على حالة جيشه، فإنه يضطر إلى

الانتقال إلى القتال. ومنذ ٢٣ نوفمبر ١٧٩٨، يهاجم جمهورية روما، وهي دولة تابعة للجمهورية الفرنسية (١٦٠). ويطلق مسرح جديد للعمليات في جنوب إيطاليا.

حكومة الإطارة وحملة مصر

لنت كارتة أبو قير والقطيعة مع الباب العالي إلى إتمام حكومة الإدارة إنه لم يعد من الوارد إرسال تعزيزات إلى مصر. فالموارد البحرية للهزيلة المتوافرة في البحر المتوسط يجب تخصيصها للجزر الأيونية. والتعليمات لخاصة إلى بونابارت والتي تمت الموافقة عليها في ٤ نوفمبر ١٧٩٨ لا تفعل سوى الاعتراف بواقع فعلي. إن جيش الشرق معزول بالكامل عن للتروبول في حين أن الحرب تعاود النشوب في أوروبا. ولما كانت حكومة الإدارة عاجزة عن إصدار أوامر محددة إلى بونابارت، فإنها تترك له حرية اتخاذ قرار بشأن ما يجب عليه عمله، البقاء في مصر بالصمود في وجه الهجمات التركية، أو مواصلة طريقه إلى الهند. بهدف إثارة الانتفاضة الهندية الكبرى ضد إنجلترا أو الزحف على القسطنطينية للتعجيل بالانقسام العظيم للإمبراطورية العثمانية (الأمر الذي يمكنه أن يؤدي إلى شقاق بين أعضاء الائتلاف الأخذ في التشكل)، إن عليك الاختيار، بالاتفاق مع نخبة البواسل والرجال المتميزين المحيطين بك، إلا أننا، أيًا كانت الوجهة التي تتجه إليها جهودك، لا ننتظر من عبقرية وحظ بونابارت غير ترتيبات واسعة ونتائج باهرة. (١٦١) والعزلة شديدة بحيث أن البرقية المؤرخة في ٤ نوفمبر ١٧٩٨ لن تصل إلى الشخص المرسل إليه إلا في ٢٥ مارس ١٧٩٩...

وفيما يتعلق بشرقى البحر المتوسط، فإن الحكومة الإنجليزية تقرر أن ترسل إلى هناك سيدنى سميث، أخ سبتمبر سميث، لتولى قيادة حصار مصر والتنسيق العمليات مع العثمانيين. وهذا التدخل للمهمات سوف يكون مثقلا بالعواقب بقدر ما أن اللورد إيلجين يعين، في الوقت نفسه، سفيراً لدى القسطنطينية. لكن هذا الأخير سوف يتأخر في تسلم مهام منصبه، تاركاً حرية التصرف في تلك الأثناء للأخوين سميث.

الصعابة العثمانية

وهكذا، على غضون أشهر قليلة، تجد أعداء حملة مصر ترجمة لها في تشكيل ائتلاف ثان ضد فرنسا الثورية يوحد إنجلترا والإمبراطورية العثمانية وروسيا والمستعمرتين. ومن المفارقات أن المؤتلفين يضطرون إلى إهمال مصر لأن الجزء الرئيسي

من أسطولهم يوجد في البحر الأبيض وسط البحر المتوسط ولأن إنجلترا لا تحوز قوات كافية لجيشها البري. ومن جهة أخرى، فإن الإمبراطورية العثمانية تحتاج إلى وقت لكي تحشد قوات مهمة وتهاجم مصر براً. ولا يعني ذلك أن العثمانيين لا يفعلون شيئاً من أجل تحرير مصر. على العكس تماماً، ففي مراجعة الدعاية للرئاسة من جانب الفرنسيين للذين يصورون أنفسهم على أنهم إنما يتصرفون بالاتفاق معهم، سوف يردون سلاح الدعاية إلى صندوقهم.

فهم يوزعون في جميع أرجاء الشرق الأدنى نصاً يزعم أنه صورة ما وقع من الاتفاق بين طائفة الفرنسة الفراعنة الأبالسة والأمر الذي بهوه، والمجلس الذي لروه وحده، وإجتماعهم في ذلك على أخذ إقليم مصر وغيرها، بأنواع الحيل ومكرها، وأبواب الحرب والقتال، والطعن والجهل؛ [...] نقلت هذه الصورة عنهم بيد بعض عيون المسلمين بالتركية، فعريت بالعبارة العربية. (١٦٧)

وتبدأ هذه المنازلات المزعومة باستعانة الأفكار الرئيسية، ثراء مصر، الحكومات البسيطة ومظالم للماليك، ضرورة محاربة الإنجليز في الهند. وبعد تأكيد صحة نسب النص على هذا النحو، يجرى الانتقال إلى صميم الموضوع، حيث لا يعلو الأمر كله أن يكون خداعاً من جانب الفرنسيين، وترسلون أخباراً إلى أمراء مصر البهيية، وتعرفونهم بطريق للكر والخديعة، إننا مقصدين بأمراء مصر وأعيانها، أن نعمل معكم كل خير، ونبعد عنكم كل ضرر، ونجعلكم مستقلين ومنفردين بأحكامكم في سائر إقليمتكم، ولا نجعل لأحد عليكم سبيلاً، وتكونوا أقوى قبلاً، ونخرجكم من تحت يد من يحكمكم من الأنام، من كل خاص وعام، بحيث لا تكون عليكم يد من أحد وتكون وإياكم حالة واحدة إلى الأبد، وإننا أخذنا بلاداً أخرى من غير بلادكم، جعلناها لكم، فأنتم تولي بها وأخرى، ونفوض أمر البلاد إليكم، ونعتمد في أمورنا عليكم، فإننا كنتم إياها الأمراء على هذا للنوال، حصل لنا ولكم المقصود الأعظم وامتنع الاختلال، ومعلوم عننا أن فيكم قوة لذلك، واستعملنا لما هنالك، بل هممكم أعلى، ورأيكم أجلى، لأنكم موصوفون بالقوة والشجاعة، معروفون بالمهابة والبراعة، فهناك على ذلك أربنا أن نكون معكم إياها الأمراء على هذا المجال [كذا]. ومعينين لكم في سائر الأحوال، (١٨٦).

والواقع أن نوايا الفرنسيين شيطانية، فقد اتفقت آرائهم وارتبطت أشوارهم على الهجوم على سائر بلدان المسلمين وأقطار عباد الله الموحدين [...] فإننا وصلنا أقطارهم

وحللنا ديارهم، فلضعيف منهم نباشره بالحرب والخراب، والقتل والنهب، والقوى منهم تنصب له شرائك للكر والحيل حتى تطمئن خراطهم وتأمين ضمائرهم، إلى أن يقعوا في لشراكنا ونعمل فيهم ما شئنا من مقاصدنا ونلقى بين سائر المسلمين للكائد الخفية بالفساد، لإيقاع العداوة للبليدة للاتحاد، في أحوالهم وأنيانهم [...] فإن أعظم ما يشمت جموع الإسلام ويقل حد سنانهم عن الانتظام، هدم قبلتهم، وحرق مساجدهم، وإذا ظفروا بانظارهم وهدمت كعبتهم، ومسجد نبيهم، وبيت مقدس لهم، انقطع أملهم وتفرق شملهم، وملكنا ديارهم، فإن الأمور لا يدركها إلا اتفاق الجمهور، لنقتل جميع رجالهم، ومن يعقل من صبيانهم، فحينئذ لقتسم ديارهم وأموالهم وأملاكهم ويحول بقية الناس إلى أصولنا وقواعنا ولساننا وديننا، فیمتحن الإسلام وقواعده وشرائعه، وتدرس رسومه وآثاره من وجه الأرض من شرقها وغربها، وجنوبها وشمالها وعربها ومجمها.

وبالرغم من حاجة التعبيرات، فإن مراسي برنامج الحضارة في الأهل الطويل يجري إسراكها بوضوح.

وختاماً، يدعو العثمانيون جميع المسلمين إلى الاتحاد في مقاومة الفرنسيين، وإلى التزام الحذر وتغادي الشراك التي ينصبها هؤلاء الأخيرون لبث الفرقة بين صفوفهم، وفي تلك الأثناء، يجهز الباب العالي للمساعدات لتحرير مصر: ونحن في طرف السلطنة السنية، نشرنا وأياتنا العلية وبحول الله وقوته وباهر عظمته، تملكهم عساكرنا المنصورة، وتقطعهم سيوفنا المشهورة، وقد سيرنا عليهم شجعان لا يبالون بالموت لإعلاء كلمة الله، وغزاة يقحمون على النار محبة في دين الله، لننتقلب بقدرة الله لديارهم، لعل الله تعالى يردنا بهلاكهم ودمارهم، فنجعلهم إن شاء الله هباءً منثوراً، كأنهم لم يكونوا شيئاً مذكوراً [...] «يا أيها الغضب من الله» [...] أمين، أمين» (١٦٩).

وعلاوة على المواجهة العامة بين الإسلام والثورة الفرنسية، فإن الهدف المباشر واضح. وهو يتمثل في مواجهة انعقاد الديوان العمومي الذي دعاه بوناپارت إلى الانعقاد. والحال أن شهر أكتوبر ١٧٩٨ سوف يشهد المواجهة بين دعايتين، وسوف يسمع بمعرفة الاتجاه الذي يميل إليه الرأي العام المصري.

حواشي الفصل الرابع

- Bonaparte au Directoire, le 2 fructidor an VI (19 août 1798), - ١
Correspondance..., IV, pp. 503 - 504.
- Campagnes...*, XIX, p. 547 - ٢
 مراسلاته آنذاك، فإن مصطلح الأمور العظيمة يوجد فيها في مناسبات عديدة.
- Courier de l'Égypte*, n° 1, le 12 fructidor an VI, 29 août 1798. J'ai - ٣
 maintenu l'orthographe du texte. Voir aussi B6 6, le procès - verbal de la
 rupture du canal du Caire fait en présence du général en chef Bonaparte (en
 arabe et en français).
- ٤ - عهد بوناپارت إلى مارمون، في الأول من فبروكتيدور من العام السادس (١٨ أغسطس
 ١٧٩٨)، بقيادة طاهور متحرك يجمع قوات بوموى وديوب ومكلف بتأمين وصول المياه البحر إلى
 الإسكندرية ومراقبة الأسطول الإنجليزي،
- Mudda*, pp. 25 - 26. - ٥
- Récit équivalent dans les *Aja'ib* et la *Mudda*. - ٦
- LA JONQUIÈRE, II, pp. 481 - 482. - ٧
- Histoire Scientifique*, III, pp. 376 - 376. - ٨
- Texte dans B 6 6. Il est analogue à celui du *Courrier d'Égypte* et a - ٩
 été imprimé à Alexandrie.
- B6 6, copie datant de l'an VII à Toulouse d'une lettre du général - ١٠
 Dupuy au citoyen Deville négociant à Toulouse
- Arrêté portant création de l'institut d'Égypte, *Correspondance...*, - ١١
 IV, pp. 534 - 539.
- Liste dans la *Correspondance...*, IV, pp. 539 - 540. - ١٢
- Décade Égyptienne*, I, 15. Cela correspond au début de l'an - ١٢ مكر
 VII (fin septembre 1798). *La Décade Égyptienne* s'inspire de la *Décade
 Philosophique, Littéraire et Politique*, organe des idéologues. Ce journal
 salue d'ailleurs la naissance de sa cadette : "C'est une sœur que notre *Décade*
 a en Égypte, comme l'Institut national y a un frère.: (an VII, 1^{er} trimestre,
 pp. 563).

Étude essentielle sur la question, Amin Sami WASSEF, - ١٢
L'information et la presse officielle en Égypte jusqu' à la fin de l'occupation française, Le Caire, I.F.A.O., 1975 et Ahmad Husayn AL SAWI, *Fajr al saḥāfat, dirāsāt fi i' lam al Hamla al firansiyya*, Le Caire, 1975 (L'aube de la presse en Égypte : étude sur les moyens d'informations de l'expédition française).

N°2, le 16 fructidor an VI (2 septembre 1798). - ١٤

N° 3, le 20 frimaire (sic pour fructidor) an VI (6 septembre 1798). - ١٥

N°4, le 24 fructidor an VI (10 septembre 1798). - ١٦

JABARTI, COUQ, p. 50 et *Mudda*, p. 40. - ١٧

١٨ - الجبرتي، المدّة، ص ٤٠؛ من المحتمل أن الهبوط قد انتقل من ٢٢٠٠٠ بارة يومياً إلى ١٠٠٠ بارة. ويحدد قرار أصدره بوناپارت في ١٨ فريكتيدور من العام السادس (٤ سبتمبر ١٧٩٨) مرتبات أعضاء الديوان بـ ١٥٠ فرنكا في الشهر. أما نفقات عمل الديوان ونفقات شرطة المدن فقد لحظت عن طريق ضريبة على البور، *Correspondance...*, IV, p. 641.

١٩ - إن بوسيلج هو الذي يوجه بوناپارت إلى هذه السياسة، *Histoire Scientifique*, III, p. 146.

٢٠ - في المدّة، يتهم الجبرتي الألقاب بالتصرف كـ «الحكام» وبالتكثيف المتعمد للمعاملات السيئة ضد المسلمين (ص ص ٤٠ - ٤١). وفي هجائب الآثار، تختل الإشارة الطائفية. (COUQ, p. 50). Cuoq traduit hukkam par gens de tribunaux, il me semble qu'il s'agit là de gouvernants comme l'a traduit Moreh (rulers).

٢١ - المدّة، ص ص ٤٤ - ٤٥. تختل هذه الملاحظات من هجائب الآثار (COUQ, p. 150) بل إن موت محمد كريم لا يشار إليه إلا في وفيات سنة ١٢١٢ وليس في سياق تنازل الأحفاد.

٢٢ - بل إن نقولا الترك يرى في ذلك سبباً رئيسياً لسخط المسلمين، حيث إن محمد كريم هو من نسل النبي. (WIET, p. 32).

٢٣ - إننا ما تابعنا تسلسل أحداث المدّة الذي يطبع الحدث في اليوم نفسه (وليه)، أما كتّاب هجائب الآثار، فإنهم يتضمن الصحيفة نفسها، لكن الإشارة إلى موت محمد كريم لا يجرى إدخالها فيها بعد، ومن هنا تاريخ سابق بخمسة أيام. ويمرّ ذلك الفتره حدوث تعديلات متأخرة لهذا النص الأخير وإمكانية حدوث ارتباك في تحديد التاريخ. ومن جهة أخرى، لابد من الإشارة إلى أنه، وفقاً لمراسلات نابوليون الأول، فإن الأمر الخاص بارتداء الشارة الوطنية الفرنسية إنما يرجع إلى ١٨ فريكتيدور من العام السادس (٤ سبتمبر ١٧٩٨) (IV, p. 647).

Mudda, p. 46. - ٢٤

٢٦ - اليوم الثاني للمعم للعام السادس (١٨ سبتمبر ١٧٩٨). يستمر النص على النحو التالي : « إن النجاح الذي لمرزى بوناهارت في هذه المسألة إنما يثبت أن جميع الناس، حتى الأقل تعليمًا ومن ثم الأكثر عرضة للأوهام والتحييزات، ليسوا غير مستجيبين لهذه اللغة للعقل والحكم، خالصة عندما ينطق بها من يملك بين يديه القوة والسلطة. إلا أنه ما أكثر الدم الذي أريق من أجل آراء ومن أجل التباسات فهم في التعاقب الطويل المعصور والثورات الإمبراطورية إلى بوسع نهاية القرن الثامن عشر، الرائعة تمامًا بالمآثر العسكرية لأمة عظيمة، أن تكون رائعة أيضًا روعة باللغة بالاتصال المتواصل للعقل على الأوهام والتحييزات.

Detroye, cité par LA JONQUIÈRE, III, p. 16.

- ٢٧

Correspondance..., IV, p. 585, à Marmont le 28 août 1798.

- ٢٨

Ibid, p. 586.

- ٢٩

Correspondance inédite..., Égypte, II, p. 5.

- ٣٠

B6 7, 1^{er} septembre 1798, *Courier (sic) de l'Égypte*, du 2^e jour - ٣١
complémentaire de l'an VI (18 septembre 1798).

Correspondance..., IV, pp. 528 - 529.

- ٣٢

Correspondance..., IV, pp. 621 - 622, le 31 août 1798.

- ٣٣

Instructions dans LA JONQUIÈRE, II, pp. 534 - 535 et - ٣٤

Correspondance... IV, pp. 529 - 530. يقدم حيدر الشهابي النص العربي للرسالة للرسالة إلى الجزائر (Asad RUSTUM et Fouad E. BOUSTANY, *Le Liban à l'époque des émirs Chéhab de l'émir Haidar Ahmad Chéhab*, Beyrouth - Jounieh, 1984, II, pp. 239 - 240 وهو جد مختلف عن النسخة الفرنسية الواردة في مراسلات نابليون بالرغم من تمثيه للنص مع أسلوب الدعاية الفرنسية آنذاك (لقد تحرك الفرنسيون بناءً على طلب من الباب العالي لإخضاع للملك للتمرد. وهم يريدون بعد ذلك الزحف على الهند...)).

Texte du rapport de Beauvois dans LA JONQUIÈRE, II, pp. - ٣٥
536 - 539 et B6 7.

WIET, texte arabe, pp. 34 - 35 et RUSTUM, II, pp. 329 - 240. - ٣٦

Courier de l'Égypte, du 24 fructidor an VI (10 septembre 1798), - ٣٧

وصول هبة قلعة من حكا إلى دماط : حملت بها أن الجزائر بلدا بما شعب بالشايكة إلى مواصلة تجارة مع مصر، وإلى التعاضد في ود مع الفرنسيين.

LA JONQUIÈRE, III, pp. 66 - 68.

- ٣٨

B6 8, septembre 1798 Réponses du Douanier de Damiette aux – ٢٩
demandes qui lui ont été faites.

٤٠ – Correspondance..., IV, pp. 679 - 680. إن مالى هو للكلف يحمل هذه
الرسالة.

٤١ – Le 13 septembre, Correspondance..., IV, p. 681.

٤٢ – LA JONQUIÈRE, III, p. 10 et Correspondance..., IV, pp. 667 - 670.

٤٣ – Histoire Scientifique, IV, p. 93. كان هناك ثلاثة أشخاص على الأقل يحملون
اسم مصطفى في خدمة الفرنسيين : أمير الحج، والشيخ الحارثي وأحد القوافل الإنكشارية، إلا أنه
لا بد وأن الأمر يتعلق هنا بموظف عثماني من موظفي الشؤون المالية.

٤٤ – Ensemble des textes dans la Correspondance..., IV, pp. 705 - 716.
إن إجمالى التحصيلات في لواخر العام السادس يرتفع إلى أقل من ثلاثة ملايين، جزء واحد فقط
منها هو الذى يتألف من نرد، وهو ما يعتبر غير كاف إلى حد بعيد بالنظر إلى نفقات الجيش
للخدمة. (LA JONQUIÈRE, III, p. 39)

٤٥ – الجبرتي، المقدمة، ص ٥٢ - ٥٤. ويستعيد كتاب ههنا الآثار النص نفسه، لكنه لا
يتضمن العبارة الواردة هنا. وحتى نفهم جيداً اتساع الهلك، فإن بعض المجالات التى جرى للمسار
بها لن تصحب من اختصاص القانون الإسلامى (المشرعية) إلا بعد ثورة ١٩٥٢. كما يشير
الجبرتي إلى أن نهوان القاهرة، خلال تلك الفترة، لم يدع إلى الاعتقاد من جانب الفرنسيين وأن
أعضائه قد كفوا عن الذهاب إليه. على أن بوتاهارت كان قد عين تليان موطناً لدى الفيلون لكن
يخلف بوتاهارت، لى ١٤ فبرواي ١٩٥٢ من العام السادس (٢١ أغسطس ١٧٩٨)،
Correspondance..., IV, 622. وكان عليه أن يقدم إلى بوتاهارت تقريراً يومياً عن الشكايات
والملاحظات في الديوان.

٤٦ – ولو كانت حكومة الإنجليز الفرنسيين قد فشلت في كبح حملاتهم، لما بقى في
القاهرة شخص سوى واحد إلا واعتبروه عميلاً للمماليك. Histoire Scientifique, IV, pp. 96 - 97.

٤٧ – يؤكد ناهوليون أن الرسالة كانت فرمان إعلان حرب من جانب الباب العالي وأنه عندما
وجد [ناهوليون] نفسه وحده معه، طلب منه أن يسلمه أصل فرمان. وقد نفي المسلمات أن لديه
أى علم به، وتردد ولربك، وأخيراً سلمه إليه. (XIX, p. 594)

٤٨ – JABARTI, Aja'ib, 3 Rabi al Thani et Mudda, pp. 48 - 49. La
Mudda ne mentionne pas la réponse à Bonaparte, mais donne les paroles de
la foule.

٤٩ – JABARTI, Mudda, p. 39. C'est l'Histoire Scientifique (IV, p. 96) -
qui mentionne les Coptes et fit le lien avec Sitt Nafisa et la seconde affaire.

- JABARTI, *Mudda*, pp. 50 - 51. *Correspondance...*, IV, p. 649. — ٥٠
- Mudda*, pp. 61 - 63. — ٥١
- Je suis l'avis de C.F. Beckingham, le mystérieux "Rashitruh al - ٥٢
 afranjil" présent aux côtés de Mourad ne peut être que Rosetti et non un
 certain "Rachiteau" que traduit avec un point d'interrogation Moreh (compte
 rendu de la *Mudda* dans le *Bulletin of the School of Oriental and African
 Studies*, 1977, pp. 655 - 656).
- LA JONQUIÈRE, III, pp. 12 - 15 — ٥٣
 كانت قرية المرشدين قد أنشئت خلال
 حملة إيطاليا. وكانت تلصق نور حراسة وديف للقلعة العام. أما للسرية التركية، التي ابتدأتها
 وابتدأتها كواتر فرنسية، فيبدو أنها قد انتهت بالكامل في قرية المرشدين في يونيو ١٧٩٩.
 (VERNET et MICHALON, p. 22 et p. 28).
- ٥٤ [لا يورد الأصل الفرنسي هذه الحاشية. - للترجم]
- JABARTI, *Mudda*, p. 55. — ٥٥
- LA JONQUIÈRE, III, pp. 37 - 38 et VERNET et MICHALON, — ٥٦
 pp. 37 - 38.
- VERNET et MICHALON, p. 42. — ٥٧
- LA JONQUIÈRE, III, p. 47. — ٥٨
- LA JONQUIÈRE, III, pp. 57 - 58. — ٥٩
- Mudda*, pp. 55 - 56. — ٥٩
- Ordre du jour du 6 fructidor an VI (23 août 1798). — ٦٠
- Ordre du jour du 16 fructidor an VI (2 septembre 1798). — ٦١
- Ordre du jour du 29 fructidor an VI (15 septembre 1798). — ٦٢
- Ordre du jour du 7 fructidor an VI (28 septembre 1798). — ٦٣
- Histoire Scientifique*, III, pp. 384 - 385. — ٦٤
- Courrier de l'Égypte*, n° 8, du 6 vendémiaire (27 septembre — ٦٥
 1798).
- LA JONQUIÈRE, III, p. 27. — ٦٦
- Joseph - Marie MOIRET, *Mémoires sur l'expédition d'Égypte*, — ٦٧
 Paris, 1983, pp. 63 - 64.

٦٩ - تؤكد هذه النية رسالة إلى أخيه جوزيف في الفترة نفسها.

٧٠ - Sur la place du 13 vendémiaire dans les fêtes républicaines, voir
Mona OZOUF, *La fête révolutionnaire*, Paris, 1976, pp. 217 - 218.

٧١ - *Courrier de l'Égypte*, n° 11, le 20 vendémiaire an VII (11 octobre -
1798).

٧٢ - Voir le rapport du capitaine de génie Sabatier à Caffarelli, LA -
JONQUIÈRE, II, pp. 305 - 306.

٧٣ - Rapport du Lazowski au même et surtout lettre de Zayonchek à
Bonaparte du 26 thermidor an VI (13 août 1798) (SKALKOWSKI, pp. 75 -
77 et pp. 80 - 82).

٧٤ - ٢٩ ثيرميدور من العام السادس (١٦ أغسطس ١٧٩٨) *Correspondance*, IV, p. 488.
وهو ينهى رسالته قائلا : « إنني أحس أن وضعك حرج هائلًا ، وأنا على ثقة تامة من حسن
نواياك ومن برائتك بطلب الإنسان أن كن على ثقة من أنني لمنحك الإنصاف الذي تستحقه »

٧٥ - Voir le journal de Damas sur la marche vers Munsoura, LA -
JONQUIÈRE, II, pp. 385 - 388.

٧٦ - Voir le récit du survivant dans le journal de Laugier, LA -
JONQUIÈRE, II, pp. 467 - 470.
دمياط بشهر ونصف الشهر، قد كتب نصًا بأربع الأسلوبية، بحسب تعبير ويت : « لم يكن موسع
المصريين أبدًا احتمال الفرنسيين، وذلك بسبب الاختلافات في الدين واللغة والملبس، ناهيك عن
عداوة قديمة كانت موجودة بين الفرنسيين والمصريين منذ زمن السلطان الظاهر بيبرس، ولقد
خللت ذكرى ذلك من خلال الاسم الذي سميت به المدينة، للنصورة، (أعدنا الترجمة إلى العربية
من الفرنسية لتعبر العنود على نسخة من مذكرات نقولا الترك. - للترجم [pp. 35 - 36 de la
traduction de Wiet).

ويقدم كتاب *L'Histoire Scientifique* (III, pp. 321 - 322) تنقيحات ثمينة. لقد
استلذد المهلجمون من يوم سوق كى يدخلوا بعدد كبير دون أن يؤدي ذلك إلى الإحساس بالخطر.
ومنظم الهجوم هو شيخ عربي اسمه أبو قورة، من قبيلة البكرية. وكان هناك ناهيان آخران : الفتاة
صفيرة في الثانية عشرة من عمرها، وأميها، وهي زوجة جندي خيال. والحال أن أبو قورة قد
أهترى الفتاة الصفيرة بمائة تقرر ثم تزوجها بعد ذلك. (في الحاشية : مات أبو قورة في عام
١٨٠٨. والحال أن لوملة، ابنة الجندي الخيال الفرنسي، قد ورثت ممتلكاته ونفونده، بوصفها وصية
على الأبناء الذين أنجبهم منه. وهذه اللوالة، للبهجة من جانب عربيها، والمحترمة من جانب فتاة
الإقليم، ما تزال تحكم حتى اليوم (١٨٣٠) قبيلة البكرية، وعند جميع سكان الضفة اليمنى للدبل
لا يكون التزويج باسمها بلا ملل أبداً.

والواقع أن مورا يخبر نوجا، في ١٧ فيفريير من العام السابع (٨ أكتوبر ١٧٩٨)، بأن
الزعيم العربي قد اشترى امرأة فرنسية سبيته في المنصورة. وهذه المرأة حبلى (B6 9).

Le diwan de Mansoura au diwan du Caire, B6 4. Comme l'a - ٧٧
remarqué LA JONQUIÈRE, ce texte comporte une erreur de date de 10
jours (II, pp. 470). VIAL écrira à Dugua le 4 fructidor (21 août 1798) qu'il
ne croit pas à la véracité du rapport du diwan (B6 6).

LA JONQUIÈRE, II, pp. 471 - 472. - ٧٨

Ibid, II, pp. 545 - 546. - ٧٩

Ibid, II, pp. 548 - 549. - ٨٠

ANDRÉOSSY, "Mémoire sur le lac Menzaleh, d'après la - ٨١
reconnaissance faite en vendémiaire an 7", *Décade Égyptienne*, I, p. 188.

Nicolas TURC, p. 21 - ٨٢ : فيال إلى نوجا، ١١ فيفريير من العام السابع B6
6. وفي ٧ فيفريير، في رسالة إلى نوجا أيضاً، ينصح بالاتصال بمصطفى لقا، مدير الديوان،
للحصول على التفاصيل بشأن تمرد للمنصورة. والحال أن مصطفى لقا قد ولد نمساوياً وهو
يتحدث بالإيطالية بطلاقة تامة. ومن جهة أخرى، فإنه يكتب إلى مينو، في الأول من فيفريير
(١٨ أغسطس ١٧٩٨)، ويعبر عن القور هممه بسبب متاعبه ونسبها على الأسطول، وهو
يفكر في أن يطلب إعادته إلى فرنسا (B6 6).

٨٣ - فيفريير إلى نوجا، ٩ فيفريير من العام السابع (٢٩ أغسطس ١٧٩٨). والقري
الأربع في محلة نياي وچيناي وجمجمون ونسوق (B6 6). وقد أمر باستجواب شهود عن حادث
المنصورة. وأرسل إليه نوجا قائد الكتيبة كازال مع وحدة قوية لتعزيزه (Dugua à Bonaparte,
le 28 août 1798, LA JONQUIÈRE, II, pp. 545).

٨٤ - فيفريير إلى نوجا، ١٧ فيفريير من العام السابع (٣ سبتمبر ١٧٩٨). B6 7.
والقري هي بين بين وبيلا ويهوت وكفر بهوت والمسيرة وبميرة وكفور.

Vial à Dugua, le 21 fructidor an VI (7 septembre 1798), B6 7. - ٨٥

٨٦ - Murat à Dugua, le 10 fructidor an VI (27 août 1798) من جهة أخرى،
LA JONQUIÈRE, II، منطلقة في مسكته في منطلقة، pp. 550 - 551.

Murat à Bonaparte, le 15 fructidor (1^{er} septembre 1798), B6 7. - ٨٧

Murat à Bonaparte, le 18 fructidor VI (4^{er} septembre 1798), LA - ٨٨
JONQUIÈRE, III, 132. وكان مورا يسمى بـ «مورا بك»
الفرنسية، P. 25.

Fuglère à Dugua, la 13 fructidor an VI (30 août 1798), B6 6. – ٨٩

Dugua à Bonaparte, le 18 fructidor an VI (4 septembre 1798), – ٩٠
LA JONQUIÈRE, III, 130.

Bonaparte à Dugua, le 20 fructidor an VI (6 septembre 1798), – ٩١
Correspondance..., IV, p. 656.

Rapport de Verdier, LA JONQUIÈRE, III, pp. 134 - 136 (autre – ٩٢
l'original, on trouve un texte un peu différent venant de la collection
Napoléon en B6 7). « إن هذه الحملة قد أحدثت لنا ممتناً في البلاد باجتماعها لنا ثلثة السكان، (٢٠ فيروكتيدور من العام
السادس، ١٦ سبتمبر ١٧٩٨)، B6 8 .

Fuglère à Dugua, le 5^e jour complémentaire de l'an VI (21 – ٩٣
septembre 1798), B6 8.

Bonaparte à Berthier, le 5 vendémiaire an VI. L'ordre du jour du – ٩٤
1^{er} vendémiaire an VII (le premier jour de l'année républicaine, 22
septembre 1798) rapporte le fait d'armes de Verdier.

٩٥ – في ٥ فينديمير (٢٦ سبتمبر)، يرى لاملان القرية وهي تحترق، عند زيارته لدمياط،
لاملان إلى بوتاهارت، ١١ فينديمير (٢ أكتوبر) B6 9 .

Ensemble de la correspondance militaire dans LA JONQUIÈRE, – ٩٦
III, pp. 170 - 176. Voir aussi le rapport de Crespin sur les opérations de
Murat et Lanusse, le 10 vendémiaire an VII (1^{er} octobre 1798), B6 8.

Au Directoire, le 26 vendémiaire an VII (17 octobre 1798), – ٩٧
Correspondance..., V, p. 91. استغاثت القبايل العربية فوراً من الخوفا التي أدت إليها
وصول الفرنسيين، وولغا لكتيب *Histoire Scientifique* (IV, p. 55). فإن الهنلاي واحوا
بنفسهم !

«عاش الشعب الذي طرد مراراً من القاهرة !

«عاش الشعب الذي أتاح لنا رؤية القرى !

«عاش الشعب الذي أتاح لنا أكل الفطير !

[أعدنا ترجمة النشيد من الفرنسية لتحذر العدو على الأصل العربي – المترجم].

٩٨ – إن أندريوس، الذي يسأل أحد المشايخ عما إذا كانت قريته قد شهدت لطامون في
تلك السنة، يسمع الرد التالي : «لقد شهدنا لطامون والحرب».. *Histoire Scientifique*, IV, p. 51.

٩٩ - مودا إلى بوناپارت، ٢٥ فيفيمير من العلم السابع (١٦ أكتوبر ١٧٩٨)، B6 10. إن الشيخ موسى، الذي يبدو أنه هو الذي ياتر بهذا الصدد للولاء للسلطة الفرنسية، سوف يرحل لتتبعه إلى بوناپارت. فوجيير إلى بوناپارت، ١٧ فيفيمير من العلم السابع (٢٧ نوفمبر ١٧٩٨) ، وليس هناك مصري أكثر حزمًا في تعلقه بنا من هذا الرجل (B6 12) .

١٠٠ - وهكذا، فإن الفلاحين في بشبيت هم الذين يقومون في ١١ برومير من العلم السابع (الاول من نوفمبر ١٧٩٨) بإرشاد الجنود الفرنسيين مباشرة إلى البهت التي يوجد فيها الهدوء ، فوجيير إلى بوناپارت، ١٢ برومير من العلم السابع (٢ نوفمبر ١٧٩٨)، B6 11 .

Les instructions sont du 16 septembre 1798, LA JONQUIÈRE, - ١٠١
III, pp. 138 - 139.

١٠٢ - انظر تقرير كازال إلى كلاريفالي ، إنه ياتر خسائر الفرنسيين بخمسة قتلى وخمسة عشر جريحاً وياتر خسائر العرب بخمسة مات قتيل، B6 8 .

Extraits du journal de Damas dans LA JONQUIÈRE, III, pp. 139 - ١٠٢
- 152.

١٠٤ - 24 - 22 Nicolas TURC, pp. مجرد تحرير دمياط من جميع التهديدات، لا يتكرر الكتب بعد اسم حسن طويار.

Histoire Scientifique, IV, p. 7. - ١٠٥

١٠٦ - في رسالته إلى دوجا في يوم المعركة، ياتر فيال بشكل أكثر تواضعاً خسائر العرب بثلاثمائة قتيل (B6 8) . ويستعيد كتاب *Histoire Scientifique* هذا الرقم، IV, P. 8 .

Le texte est signé de Berthier, B6 8. - ١٠٧

Lettre du 21 septembre 1798, B6 8, texte arabe et traduction - ١٠٨
française.

LA JONQUIÈRE, III, pp. 154 - 155. - ١٠٩

١١٠ - فيال إلى بوناپارت، ١١ فيفيمير B6 9 . في هذه الرسالة، يحدد على تواصل مهمات الفلاحين على مراكب الاتصال والتي تكبد الجنود الفرنسيين خسائر جسيمة في الأرواح.

Dugua à Bonaparte, le 14 vendémiaire an VII (5 octobre 1798), - ١١١
B 6 9.

Journal de Damas, LA JONQUIÈRE, III, p. 164. - ١١٢

Damas à Dugua, le 21 vendémiaire an VII (12 octobre 1798), B6 - ١١٢
9.

Vial à Bonaparte, le 23 vendémiaire an VII (14 octobre 1798), - ١١٤
B6 9.

١١٥ - Bonaparte à Reynier, le 26 thermidor an VI (13 août 1798), LA JONQUIÈRE, III, pp. 382 - 383.

١١٦ - لقد جاء الفرنسيون إلى مصر لتخليص الشعب من العبودية والظلمة على استبداد المماليك، إننا لا نريد إلحاق أي أذى بسكان هذا البلد. والحال أن عدداً من بينهم قد لجأوا إلينا، بينما حمل آخرون السلاح ضدينا. وببوت هؤلاء الآخرين وحدها هي التي قام الفرنسيون بنهبها. إننا نعرف أن عدداً من المشايخ قد هربوا بجهلهم. ومنذما تصل هذه الرسالة إلى علمهم، فإتة يجب عليهم أن يعودوا للعمل على إحياء رفاهية بلدهم... B6 5, B 6 5, proclamation du mois d'août 1798, texte arabe et français.

١١٧ - Reynier à Bonaparte, le 30 thermidor an VI (17 août 1798), B6 105 (correspondance du général Reynier), publication partielle dans LA JONQUIÈRE, II, pp. 526 - 527.

١١٨ - رينيه إلى بوناپارت، ٢ فركتيدور من العام السادس (٢٠ أغسطس ١٧٩٨) من المملكية،

«إن العرب الفلاحين المراكبيين للجهاد من لدى عشرة قرية قريبة من هنا بمسافة أربعة أو خمسة فراسخ قد اجتمعوا وشكلوا قوة من مائة فارس والزموا السكان الآخرين بحمل السلاح دفاعاً عن قراهم. وقد طلبت إبلاغ الشيخ صميحة زعيمهم، بالمجيء والتحدث معي. إلا أنه لم يأت.»

١١٩ - Reynier à Bonaparte, le 14 fructidor an VI (31 août 1798), B6 105.

١٢٠ - Reynier à Bonaparte, le 20 fructidor an VI (6 septembre 1798), B6 105.

١٢١ - LA JONQUIÈRE, III, p. 182.

١٢٢ - LA JONQUIÈRE, III, p. 191. Voir aussi la lettre de Reynier à Bonaparte du 7 vendémiaire an VII (28 septembre 1798), B6 105 et B6 8.

١٢٣ - LA JONQUIÈRE, III, pp. 189 - 190.

١٢٤ - Voir par exemple sa lettre du 24 vendémiaire an VII (15 octobre 1798), B6 105.

١٢٥ - إن لقب الشورويهي، «مفيد للبلد»، واسع الانتشار. وهو أعلى رتبة يحوزها غير المماليك.

١٢٦ - على سبيل المثال، هذا البيان الصادر عن رينيه والموجه إلى سكان الشرقية في ١٩ فركتيدور من العام السادس (٥ سبتمبر ١٧٩٨) والذي يعطي فكرة واضحة من التنظيم الجديد وعن علاقاته بمشايخ القرى : «إنكم تصلون في لحظة سوف تسمعون فيها بلوائد طرد للمماليك وبلوائد الحكم الشعبي الذي يقيمه الفرنسيون في هذا البلد. لقد جرى تنظيم إدارة للإقليم، وأنتم

في بلبس ديوان مؤلف من هيد الرحمن الندي بلجر والشيخ إبراهيم شحاته والشيخ هيد الرحمن محمدى والشيخ محمد ثروت والشيخ على المكي وخبين آخرين سوف اختارهما من بين مشايخ القري الإقليم، وهذا الديوان مكلف بالسهر على مصالحكم وتنفيذ القوانين وإطلاعهم على الشكاوى التي قد يتلقاها عن المضايقات التي تحدث من جانب الموظفين ومأموري الإدارة وجهات الضرائب وكذلك إيرادات ممتلكات المالك التي تنتمي الآن إلى الجمهورية الفرنسية، كما إن مكلف بالإشراف على التوزيع المتناسب ليهاء الفيلسوف ومنع هيش التجار في الموازين والمكاييل وكذلك في أسعار المواد الغذائية وقيمة النقود، ومنع الحروب التي تنود بين القري وأعمال الصوصية وقطع الطرق ومعالجة الأشرار والقري التي تلجأ إلى التمرد. وسوف نرود [الديوان] بالقوة المسلحة اللازمة لذلك.

«إن سرية من الإنكشارية بقيادة أحد الأغوات سوف تكلف بالانصياع للديوان وتنفيذ أوامري».

«وسوف يكلف الأمين المعلم جرجس فيلاتوس بجهة الإيرادات التي كانت تخص المالك في السابق وبجهة الضرائب».

«وسوف يتواصل مشايخ القري مع هذه السلطات المختلفة وينقلون أوامرها في اللجالات التي تتحمل المسؤولية عنها. وإذا ما رفض البعض ذلك، فإنني أنذرهم بأنني سوف أعاقبهم بقسوة».

«عاشت الجمهورية الفرنسية، للهد لله ولنبيه محمد» . B6 105 ، مما يوسع له أن الملك لا يضم النص العربي».

B6 6 – ١٢٧ ، يحظر الأمر الهومي أيضاً على قادة الإقليم فرض مصادرات دون تصريح من القائد العام».

Ensemble des textes dans *Kléber et Bonaparte...*, I, pp. 238 - - ١٢٨ 244.

Kléber à Bonaparte, le 21 fructidor an VI (7 septembre 1798), - ١٢٩
Kléber en Égypte..., pp. 300 - 302 et réponse de Bonaparte, *Correspondance...*, IV, pp. 672 - 673.

١٣٠ - تقرير مارمون إلى بوناپارت، ١٩ فركتيدور من العلم السادس (٥ سبتمبر ١٧٩٨)
«إن مدينة الإسكندرية، في الحالة التي تمر بها اليوم تكون من ثم قارة على النطاق، لكنها تحتاج إلى نشاط ومواهب في الشخص الذي سوف يعهد إليه بالمسؤولية عنها. إن هناك حاجة إلى شخصية قوية قادرة على قيادة سكان الفيلسوف وعلى إثارة حمية كبيرة حيث لا يوجد جنود [بريون] ولا بد أخيراً من منح عزيمة لهؤلاء الجنود البحريين الذين حل لتود الهمة ليهم محل الاختيال».

«ولرد إن أضيف أيضاً إن قائد الإسكندرية يجب أن يتحلى بالصفاة والبراعة وذلك بسبب العلاقات التي تنشأ يومياً مع العرب ويبدو لي أن ذلك الذي يبدو مرشحاً للحلول محل الجنرال

كلير لا يملك لها من الخصال التي تعتبر ضرورية. إن الإسكندرية إنما تتميز بأهمية جد عظيمة اليوم خاصة وأنها تضم جميع ذخائر الجيش، بحيث إنني أرى أن من واجبي أن أحذرك من الهذال مانسكور؛ لقد اتبعت لي الفرصة لكي أحكم عليه مباشرة في الأيام القليلة التي قضيتها معه وأنا اعترف بأنني قد أسهت بالهلع عندما خطر ببالي أن من المحتمل تكليفه بتولى مسؤوليات هذا الموقع B6 7.

وكان مرمون قد عرف بوثاهرات في طولون وكان مساعده في إيطاليا، الأمر الذي يفسر مثل هذه الرسالة الإعلامية. وهو من جهة أخرى بالغ الفتاء على عمل كلير في الإسكندرية الذي أقدم للجمهورية خدمات لا حد لها.

Kléber et Bonaparte..., I, p. 340.

— ١٢١

Lettre à Bonaparte, le 15 fructidor an VI (1^{er} septembre 1798), — ١٢٢
LA JONQUIÈRE, III, p. 108.

Menou au Diwan de Rosette, le 22 fructidor an VI (8 septembre — ١٢٢
1798), B6 7.

Rapport de Menou à Bonapart, le 23^e jour complémentaire (19 — ١٢٤
septembre 1798), LA JONQUIÈRE, III, pp. 113 - 116.

المفكرة بتوبيخ من جانب بوناپارت.

Marmont à Menou, le 5 vendémiaire an VII (26 septembre — ١٢٥
1798), LA JONQUIÈRE, III, p. 125 et B6 8.

Ordre du jour du 20 fructidor an VI (6 septembre 1798), B6 7; — ١٢٦
c'est le même ordre du jour qui rend obligatoire la cocarde tricolore.

L'ouvrage essentiel dont je suis ici les analyses est le livre de — ١٢٧
Stanford J. SHAW, *Between Old and New, The Ottoman Empire under Selim III*, Harvard University Press, 1971.

Sur cette question, voir Allan CUNNINGHAM, "The Oczakoc — ١٢٨
Debate", *Middle Eastern Studies*, I, 1965 et A.I. BAGIS, *Britain and the Struggle for the Integrity of the Ottoman Empire, Sir Robert Ainslie's Embassy to Istanbul, 1776 - 1794*, Istanbul, Editions Isis, 1984.

Sur cette question, les ouvrages de référence restent E. de — ١٢٩
MARCÈRE, *Une ambassade à Constantinople, la politique orientale de la révolution française* (surtout consacré à Descorches de Sainte - Croix), Paris, 1927 (2 volumes), A. DRY, *Soldats Ambassadeurs sous le Directoire* (le général Aubert - Dubayet), Paris, 1906, et H. DÉHÉRAN, *La vie de Pierre Ruffin, orientaliste et diplomate*, Paris, 1929.

Voir Frédéric HITZEL, *Le rôle des militaires français à - ١١٠ Constantinople*, Mémoire de maîtrise, Paris IV, 1987 et Avigdor LEVY, "Military Reform and the Problem of Centralization in the Ottoman Empire in the Eighteenth Century", *Middle Eastern Studies*, 18, 1982.

Voir l'ouvrage classique de M. HERBETTE, *Une ambassade - ١١١ turque sous le Directoire*, Paris, 1902.

Voir en particulier Bernard LEWIS, "Les répercussions de la - ١١٢ Révolution française en Turquie", in *Le retour de l'Islam*, Paris, 1985.

١١٣ - هناك بيلغى محل اسم السفير لأن القرار لم يكن قد اتخذ بعد.

١١٤ - LA JONQUIÈRE, II, p. 592 إن حكومة الإنارة مستعدة لأن تعرض على الباب العالي تحالفاً لاسترداد القرم، أي لخوض حرب مع روسيا.

١١٥ - بيان الحرب العثماني ضد فرنسا ، «بمجرد إبلاغ الباب العالي باعتزام فرنسا مهاجمة مصر، استقدمي السيد روفان [...] على الفور إلى اجتماع وُسئل رسمياً من هذا الأمر. وقد لجأ بانه ليس لديه أي علم من مشاريع حكومة الإنارة، وإن كان رايه الخاص هو أنه إذا خاضت فرنسا بالفعل هذه الحرب، فمن الأرجح أن ذلك لن يكون إلا للفر من البكوات ولإيذاء تجارة الإنجليز في الهند. وقد جرى الرد عليه بأنه إذا ما هاجم الفرنسيون مصر بهذه الطريقة أو استناداً إلى أي دافع أيأ كان، فإن الباب العالي سوف يعتبر هذا التحرك إعلاناً للحرب؛ وأن التسلم والصيانة للقائمين بين الدولتين منذ زمن طويل سوف يتحولان من التلحيين القانونية والسياسية إلى حرب وعداوة وأنه، بما أن الباب العالي لا يمكنه البقاء القنازل عن شهر واحد من أرض ولايته المصرية، فإن الأمة الإسلامية سوف تهب عن بكوة لبيها لإزالة هذه الأماكن المقدسة؛ وأنه، إذا كان بكوات مصر يستحقون عقاباً ما، فإن إنتزاعه بهم يجب أن يتم من جانب الباب العالي الذي يتبعونه، وأن تدخل فرنسا في هذا الشأن سوف يكون مخالفاً تماماً لحقوق الأمم؛ وأن بلاط إنجلترا، لكونه الصديق جد الحميم للباب العالي، لن يكون بوسع البقاء السكوت على مرور الجيوش الفرنسية عبر ولاياته لإيذاء تجارة الإنجليز، وأنه، بناءً على ذلك، حتى وإن لم يكن لإنزال الفرنسيين في مصر من هدف آخر غير هذا المشروع، فإنه سوف يتبع للجهل لإعلان حرب؛ وأن عليه أن يدرك ذلك تماماً وأن يسارع إلى إبلاغ حكومة الإنارة به» (HERBETTE, *OP. CIT.*, pp. 319 - 320).

١١٦ - SHQW, *Between Old...*, pp. 255 - 256. L'envoyé ottoman doit être celui signalé par Kléber (*Kléber et Bonaparte*, I, p. 249) et par JABARTI (*Mudda*), pp. 48 - 49.

١١٧ - سبنسر سميث (القائم بالأعمال الإنجليزي) إلى لندن، ١٠ يوليو ١٧٩٨ ، «بما أن الصمت الغريب نفسه يجرى التمسك به باستمرار فيما يتعلق بحصار فيدين، فإن القلق العام في

اللحظة الحاضرة موزع أساساً بين ذلك وتلقم حملة طولون؛ والتي لا نعرف عنها بأي شكل مؤكد
ظهر نجاحها الأول في ملطية الذي وصلتنا أخباره عن طريق أزمير. Public Record Office, FO 78 19.

١٤٨ - سبنسر سميث، ٢٥ يوليو ١٧٩٨. تقرير مخبر يوقع بالحرف م ويكتب
بالفرنسية، عن ملولات الديوان العثماني: «قبل يومين، كان الأتراك يريدون القضاء على
الجمهوديين وكان هؤلاء يريدون الهرب» (العودة إلى السكينة بفضل الشرطة وانخفاض أسعار
المواد الغذائية) «الأسباب التي ساقها أحد أعضاء الديوان الفرنسيين لبيان أن الباب العالي لا يجب أن
 يعلن الحرب على الفرنسيين إن لم ينهبوا إلى سوريا إلا للتشلى من القبكات الذين أمانوهم وإن
 لم يكونوا يريدون غير اللورد بمصر للذهاب إلى الهند». FO 78 19. من الممكن أن يكون م هو
مرانجي دوسون، المترجمان الأرمني لسفارة السويد، صاحب الكتاب الشهير *Tableau général*
de l'Empire Ottoman (Paris, 1788 - 1824) ومستشار سليم الثالث ونصير
فرنسا. (SHAW, p. 429, note 35).

١٤٩ - يخترع ناپوليون قصة ضابط من ضباط المصريين، قريب من سليم الثالث، جاء إلى
مصر عبر طرابلس الغرب بفضل قافلة الحج، «رأى القائد العلم؛ وأطلعه على المواقف الحقيقية
للباب العالي. وطلب - وهو ما أجيب إليه في الحال - أن يتم التأكيد له على جميع حقوق الملكية في
مدينة مكة؛ وأن يجرى تعيين أحد العثمانيين في منصب الأمير - أفا وأن يتم تجهيد قوة من جنود
مسلمين لحراسة قافلة مكة؛ وأخيراً أن يقدم له القائد أيضاحات حول مشاريعه، مؤكداً له أن الباب
العالي ملزم على عدم عمل شيء دون ترو وعلى عدم السماح لنفسه بأن تتغلب عليه أية عاطفة.
وقد ألقم هذا الضابط أكثر من أربعين يوماً في مقر القيادة العامة. وقد حدث أنه ارتاح إلى ما قلناه له
للشايخ عن مواقف السلطان الكبير [بونابارت] والفرنسيين؛ ودخل عن طريق البحر الأحمر،
بحجة الذهاب إلى مكة، ووصل إلى القسطنطينية خلال شهر ديسمبر - (XXIX, PP. 565 - 566)
وهذا الأمر لا يتماشى مع التسلسل الزمني للأحداث (إن الفرنسيين يصلون لحظة صوة
الحجاج) ولا تؤكد حنوته أية شهادة أخرى. إن الرسول العثماني الوحيد هو ذلك الذي وصل بعد
قوات الأوان إلى الإسكندرية للتحذير من هجوم الفرنسيين (انظر أعلاه). وهذا المثال مميز لأقوال
ناپوليون في سانت - هيلين حول الحملة، والتي غالباً ما تتماشى مع رغبات ناپوليون بأكثر مما
تتماشى مع الواقع.

Spencer Smith, le 3 août 1798, FO 78 19.

- ١٥٠ -

١٥١ - على سهيل المثال، ذلك للتحلف من فرمان الباب العالي إلى سلطات روميليا: «إنني
أصدر الأمر إليكم بأن تقوموا بإلقاء القبض على وحس جميع الفرنسيين الحقيقيين ومحبيهم
- مع تخصيص أماكن مناسبة لهم بحسب الحاجة - للتواجد في مدن وقرى ولاياتكم
وبواثركم، والذين صوبت إليكم الأوامر باحتجازهم، وذلك في مقابل الرعايا والتجار العثمانيين
للتواجد في مصر في مقابل سكان مصر، وكذلك ممتلكات وسفن [الفرنسيين]؛ وبأن تقوموا
بجرد وضع الأختام على متاجرهم دون السماح بخساح أي شيء منها، وبإيداع كل شيء في مكان
آمن وبحراسته وإرسال سجل له على وجه السرعة إلى القسطنطينية؛ وبعدم السماح لأحد
بزيارتهم وبعدم السماح لهم بالاتصال سرّاً أو علناً أو بالتواصل مع أي كان، وبالسهر بحرص

Joseph KABRDA, "Quelques firmans concernant . خاوس على حراساتهم ليل نهار. les relations franco - turques lors de l'expédition de Bonaparte en Égypte
1798 - 1799). *Cahiers de la Société Asiatique*, T.X, 1947, pp. 72 - 73.
وزير العلاقات الخارجية عند الفرنسيين للوجودين في نفود الشرق - ١٨٤٢ (LA
JONQUIÈRE, II, p. 237).

Sur la réaction de l'Eglise Orthodoxe et sa condamnation de la - ١٥٢
Révolution Française, voir Richard CLOGG, "The Dihdhaskalia Patriki
(1798) : an Orthodox Reaction to French Revolutionary Propaganda",
Middle Eastern Studies, V, 1965.

Ruffin à Talleyrand, le 23 thermidor (10 août), LA - ١٥٢
JONQUIÈRE, II, p. 601.

١٥٤ - كان بوسع حكومة الإنارة إلزام تاليران بالذهاب إلى القسطنطينية، حيث إن وزير
الشؤون الخارجية ليس لمير موظف وليس سياسياً في نظام دستور العام الثالث. وإذا كانت حكومة
الإنارة لم تفعل ذلك، فمن المرجح أن ذلك يرجع إلى أنها رأت أن وجود تاليران في باريس أكثر
فائدة، في لحظة عرفت فيها فرنسا أزمة سياسية خطيرة مع الولايات المتحدة. وكان تاليران يعرف
الأمريكيين بشكل أفضل من معرفته للعثمانيين. ومن جهة أخرى، فإن بيكودش كان المتخصص
في الشؤون العثمانية الذي كانت هناك حاجة إليه. Voir Carl Ludwig LOKKE,
"Pourquoi Talleyrand ne fut pas envoyé à Constantinople", *Annales
Historiques de la Révolution Française*, X (1933), pp. 153 - 158.

HERBETTE, op. cit., pp. 322 - 323.

- ١٥٥

١٥٦ - من الناحية النظرية، يعتبر الفرمان أمراً رسمياً يحمل شعار (طغراء) السلطان،
خلالاً للهويولودو (القد تقرر)، القرار الصلبر من الوزراء وعن موظفين من درجة ابنى. ومن
الناحية العملية، جرت العادة على أن تسمى بالفرمانات أيضاً الأوامر الصادرة عن أهم الوزراء، بمن
في ذلك وإلى مصر، (SHAW, *Ottoman Egypt in the age of the French Revolution*,
p. 115).

١٥٧ - انظر FO 78 22 ، موجز لجنة أوامر صابرة من القباب العالي وموجهة إلى القباشيات
مهر - ميران والسلطات الأخرى المكلفة بالعمل على إنقاذ مصر وحراسة الجزر والسواحل
والأماكن الأخرى التي تحتاج إلى حماية والاضطلاع بالاستعمالات المقررة قرب القبايات وإحصاء
للإلهيات المخصصة لهذا الهدف وفق العدد المقرر تجهيزه حصراً من جانب الزعماء والتجارين
والعسكريين الآخرين في مختلف ولايات الإمبراطورية الذين تلقوا أمراً بالتحلف.

Lettre de Samuel Hood commandant la flotte anglaise devant - ١٥٨
Alexandrie le 16 septembre 1798 FO 78 20.

INGRAM, *Commitment to empire...*, pp. 69 - 78.

- ١٥٩

SHAW, *Between Old...*, pp. 263 - 266 ; Boris MOURAVIEFF, - ١٦٠
L'alliance russo - turque au milieu des guerres napoléoniennes, Neuchatel,
 1954; p. PISANI, "L'expédition russo - turque aux Iles Ioniennes", *Revue*
d'Histoire Diplomatique, II, 1888, pp. 190 - 222.

CHARLES - ROUX, *L'Angleterre et l'expédition française en - ١٦١*
Égypte, I, I, p. 27, Le Caire, 1925.

Ibid, pp. 65 - 68. - ١٦٢

Copies of original letters from the Army of General Bonaparte - ١٦٣
in Egypt, intercepted by the fleet under the command of Admiral Nelson,
Londres, 1798 - 1799, 2 volumes et plusieurs éditions, édition française à
Hambourg en 1799 et à Paris (avec des observations de E. Th. Simon), an
VII

LA JONQUIÈRE, III, pp. 246 - 252. - ١٦٤

Albert SOREL, *L'Europe et la Révolution française*, V, - ١٦٥
Bonaparte et le Directoire, pp. 345 - 349.

Texte intégral de la lettre du Directoire à Bonaparte dans La - ١٦٦
 Jonquière, III, pp. 261 - 268.

B6 5. Ce texte a été publié par la première fois par Martin en - ١٦٧
 1815 (I, pp. 243 - 251) et par *l'Histoire Scientifique* (IV, pp. 142 - 153).
 Bernard Lewis en a traduit des extraits (*La Révolution Française...*, pp. 93 -
 94) à partir d'une biographie arabe de Jazzar Pacha conservée au British
 Museum, Karal en a donné le texte turc (*Fransa Misir...*) p. 108 et suivante.
 Plus récemment, une version arabe a été publiée. Sayyid Mustafa Salim
Nusus yamannyya an al hamla al firansiyya ala Misr (textes yéménites sur
 la campagne française d'Égypte), Le Caire, 1975. Michel TUCHSCHERER
 a traduit l'ensemble de ces textes yéménites dans son mémoire de D.E.A. à
 l'Université d'Aix - en - Provence en septembre 1982, *Présentation et*
traduction commentée de textes du chroniqueur yéménite Lutf Allah Jihaf,
relatifs à l'expédition de Bonaparte en Égypte. Je suis ici deux versions qui
 se complètent, l'une venant des archives françaises et l'autre étant celle de
 Martin.

Texte de B6 5. - ١٦٨

Texte de Martin dans les deux dernières citations. - ١٦٩

الفصل الخامس

توطيط الوجود الفرنسي

التمردات والتشدد

ثقة الفرنسيين

من الواضح تماماً أن الفرنسيين على علم بوجود رسائل وخطابات مرسلة من جانب العثمانيين، لكنهم، من الناحية الرسمية، يكتفون بتكذيب محتوياتها، لإعلان الحرب من جانب العثمانيين ليس غير فرية اخترعها للمالك لأجل خداع الشعب المصري^(١). على أنهم إذا ما نجحوا في إلقاء القبض على حملة للرسائل، فإنهم ينزلون بهم عقوبة - عبرة، هي الإعدام^(٢). ويجرى اتخاذاً لتدابير تصب في إضلالية كمنع التحدث في الشؤون السياسية، وطرد غير المصريين، خاصة للخارجية (وهو إجراء سرعان ما يجري التخلي عنه بسبب استحالة تطبيقه، فمصر لم يعد لها اتصال بالعالم الخارجى)، وإرغام سكان القاهرة على تعليق للصاييح ليلاً في الشوارع على حسابهم^(٣).

لكن هذه هي تدابير التحسب الوحيدة التي يجري اتخاذاها. فمن الواضح أن بوناپارت يثق في رسوخ سيطرته على مصر وفي كفاءة دعايته. واجتماع وفود الأعيان القادمين من كل أرجاء مصر للعسلى هو في نظره برهان هذا النجاح. وقد قرر عقد الديوان العمومى الذى سيشارك فيه مفوضان فرنسيان هما مونج وبيرتولليه^(٤). وهو يعرض على هذين الأخيرين مقاصده :

«إن الهدف من عقد الديوان العمومى [...] هو التسمي إلى تعويد أعيان مصر على أفكار الاجتماع (النهائى) والحكم. وعليكما أن تبينا لهم أننا قد دعوتهم إلى الاجتماع لأخذ مشورتهم ولعرفة ما يجب عمله من أجل سعادة الشعب، وما سوف يقومون به هم أنفسهم إذا ما نالوا الحق الذى منحنا آياه الفتح».

وسوف يتوجب مناقشة شئون تنظيم الدواوين الإلهمية، والقضاء المدني والجنائي والميراث وحقوق الملكية، وجهلية الضرائب؛ وسوف يتعين عليهما إطلاعهم على أننا نرغب في عمل كل ما من شأنه الإسهام في سعادة البلد، الذي يتعرض لإرهاق وكدر من جراء نظام سيء للضرائب أكثر سوءاً من دفعها بالعمله (٥).

اجتماع الديوان

يمتد الديوان اجتماعه الأول في أحد بيوت حي الأزيكية في ٧ أكتوبر ١٧٩٨. ويعرض للفوضان، أمام القنول، خطاباً يبدو للجبرتي كلاماً جد مزخرف وجد حائل بالتحريفات كالعادة (٦)، أي مرأى باختصار، ولا بد من الإشارة إلى أن جمهوراً عربياً بهذه الأهمية إنما يستمع، للمرة الأولى على الأرجح، لموجز قصير للفلسفة التاريخ التي صاغها مصر التنوير؛ إن قطر مصر هو مهد الفنون والمعلوم والقراءة والكتابة؛ وقد ملكته إمبراطوريات عظمى؛ أهل بابل واليونانيون والعرب والترك. وهؤلاء الأخيرون هم الأسوأ بين جميع الفاتحين، فقد خربوا للبلد خراباً تاماً. وقد جاء الفرنسيون لتحريره، وهم ينتظرون من المجلس نصائحه حول التدابير الواجب اتخاذها من أجل ازدهار البلد.

والخطاب قليل الوضوح بالنسبة للمستمعين، فعرههم هم البدو وأتراكهم فلاحون يلبسوا الحس وجهلاء (٧). وبالنسبة للجبرتي، فإن الشيء الأكثر إثارة للاستغراب في هذا الكلام هو الحديث عن جهل وغباء الحكومة التركية وعن حسن سلوك الجيش الفرنسي (٨).

وعندئذ يقترح للفوض الفرنسي اختيار رئيس للاجتماع ومناقشات الديوان. ويعرض أحد الأعضاء على الفور اسم الشيخ الشرقاوي. لكن الفرنسيين يوضحون أنه يلزم إجراء اقتراح مكتوب. ويتبع للشاركون هذا الأسلوب الغريب والمعتد في الاختيار، وبطبيعة الحال، فإن الشرقاوي هو الذي يتم انتخابه.

والحال أن الشرقاوي، المنحدر من أسرة متواضعة بإحدى قرى الشرقية، والمولود في عام ١١٥٠ للهجرة (١٧٣٧)، قد حقق صغوراً وظيفياً رائعاً بفضل الأزهر الذي التحق به في البداية كتلميذ. وعندما أصبح مستاذاً، فإنه يكتب تعليقات عديدة على أعمال لها قدسيتهما ويصبح زعيماً صوفياً كبيراً، الأمر الذي يعود عليه بهبات ملحوظة تضع نهاية

لللبؤس الذي عاش فيه حتى تلك الحين. وهو يصل إلى مرتبة شيخ (عميد) الأزهر العلمية، بفضل سائس مقلدة، وذلك بالرغم من منافسة الشيخ الصاوي. ولما كان محدث نعمة على المستوى الاجتماعي، فإنه يحيط نفسه بأبهة تجعله مثيراً للمسخرة، إن ضخامة عمامته تصبح مضرب الأمثال. على أنه يعرف كيف يتصدى للمعاليك، باسم الدفاع عن الفلاحين، وخاصة للمتزمين الذين ينتمى هو نفسه إليهم. وهو يستفيد من الوظائف التي يمنحه إياها الفرنسيون لكي يزيد ثروته عبر الحصول على أتعاب من أسر العسكر للتوسط لدى السلطات وعبر الاستيلاء في هذه الفترة المضطربة على ممتلكات النازحين أو الأموات المهجرة^(٩). وهو لا يتريد في إبلاغ القائد العام بوجود وصل من طرف أحمد باشا الجزار مكلفين بالدعوة إلى الجهاد ضد الفرنسيين^(١٠).

وفي عام ١٨٠٦، لحظة عودة العثمانيين، سوف يهرؤ تعاونه مع الفرنسيين بهذه الكلمات: «و حقيقة حال الفرنسيات الذين حضروا إلى مصر إنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبايعية يقال لهم نصارى قاتوليكية [كاثوليك]، يتبعون عيسى عليه السلام ظاهراً وينكرون البعث والدار الآخرة ويعتد الأنبياء والمرسلين ويقولون إن الله واحد لكن بطريق التعليل ويحكمون العقل ويجعلون منهم مدبرين يديرون الأحكام يضعونها بعقولهم ويسمون شوائع ويزعمون أن الرسل محمداً وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء وأن الشوائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم ولذا جعلوا في مصر وقراها الكبار قواوين يديرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم وكان في ذلك رحمة بأهل مصر فإنهم جعلوا في جملة ديوانها جملة من المشايخ وصاروا يراجعونهم في بعض أشياء لا تليق بالشرع والسبب الذي ألوجب لأهل مصر وقراها بعض الانقياد إليهم عجزهم عن مقاومتهم بسبب هروب للمعاليك الذين معهم آلات القتال وأنهم عند قدومهم كتبوا كتباً وارقوا في البلاد وذكروا فيها أنهم ليسوا نصارى لأنهم يقولون إن الله واحد والنصارى تقول بالتثليث وإنهم يعظمون محمداً ويحترمون القرآن وإنهم يحبون العثمانيين ولم يأتوا إلا لطرد المعاليك الظلمة لأنهم نهبوا أموالهم وأموال تجارهم ولا يتعرضون للرعايا في شيء^(١١)».

وهذه الشهادة شهر البرية من الحرص على المصلحة للشخصية والتي تجد تكملة لها في وصف اللغزات التي اقترنها الفرنسيون، إنما تشير، حتى في المبررات التي تسوقها إلى النجاح الأول لدعاية بوناپارت. ومن الواضح أن الحجة الرئسية - ملاوة على الخيانة

الحقيقية من جانب الممالك للعاجزين عن حماية الأمة للمسلمة - إنما تتمثل في الشعور بأن العمل الذي أقدم عليه الفرنسيون قد تم بموافقة الباب العالي. وبوسع المرء التعاون مع الفرنسيين لتخفيف الأضرار التي تلحق بالمسكان والاستفادة من ذلك في تنمية مصالحه الشخصية أو مصالح جماعته الاجتماعية. ولم يك كبار العلماء مستائين بالمرة من تصددهم للمسرح السياسي، إن تصفية شركائهم للممالك إنما تبرز هذا الدور الذي كان صعودهم الاجتماعي والسياسي في العقود السابقة قد سمح بتوقعه.

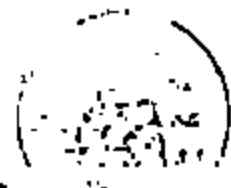
وفي اليوم التالي، يفتح الاقتراح جديد بتكوين ديوان خاص مؤلف من ٢٨ عضواً، ثم من ١٤ عضواً مكلفين بالإعداد لمناقشات للديوان العمومي. وعلاوة على الشرقاوي، فإن أربعة علماء آخرين يلعبون فيه دوراً مهماً: البكري، الحساوي، الفيومي، المهدي (١٢).

أما الشيخ البكري فهو متعاون بحكم المصلحة. والحال أن عائلته المنحدرة من كافة أسلاف الإسلام الكبار، أبو بكر، الخليفة الأول، علي، وفاطمة، ابنة النبي، وعمر، الخليفة الثاني، قد أصبحت بعد ذلك أخوية (طريقة) صوفية قوية، هي البكرية. ومنذ عام ١٧٨١، أصبح زعيم الطريقة نقيباً للإشراف أيضاً. وقد تميز خليل البكري في شبابه بسوء سلوكه؛ ولذا جرى إثارة ابن عم له لتولي قيادة البكرية وعمر مكرم كنقيب للإشراف. وهو لا يصعد إلى قيادة الطريقة إلا بعد موت ابن عمه. ثم يستند إلى دعم الفرنسيين لكي يحصل في أن واحد على منصب النقيب والدخول للمهمة المترتبة على ذلك. وهو يصبح شخصية مهمة ومؤثرة، لكنه يصبح أيضاً رمزاً لتعاون جد مفرط، الأمر الذي سوف يكلفه غالياً عندما ينقلب اتجاه الرياح (١٣).

وأما الشيخ مصطفى الحساوي، فهو اسماً مثقف ذكي ولستاذ كبير. وقد كان ضحية في الأزهر لمتاوريات الشرقاوي، ويبدو أنه يلعب دوراً جد باهت في مختلف نوازين الفرنسيين (١٤). أما الفيومي، فهو بوجه خاص وصيبي أصيل، وعلى الرغم من كونه أزهرياً، فإن مؤهلاته الجامعية محدودة، وقد اكتسب أهمية ما بانشغاله بشئون الأمراء. وخلال الحملة العثمانية، تولى حماية نسائهم اللاتي بقين في القاهرة، وهو يستأنف هذه المهمة عند وصول الفرنسيين. ولا يتردد في دعوة الفرنسيين مراراً إلى تناول العشاء في بيته ويلهمهم ثلة مبررة. وهذا الرجل الغزيه الكريم والمحبوب من الجميع لا يترك عند موته غير ديون (١٥).

والمؤكد هو أن الشيخ المهدي هو الشخصية الأكثر إثارة للاهتمام بين الجميع، فهذا

الرجل القبطى الأصل يهجر عائلته ودياره فى الحادية عشرة من عمره لى يتحول إلى اعتناق الإسلام ويصبح تلميذاً ومجاهداً لأحد أساتذة الأزهر الكبار، وسرعان ما يبرز بوصفه واحداً من النكى شيوخ الجامع وأكثرهم بلاغة. ولما كان على جانب كبير من جمال الجسم، فإنه يترك انطباعاً جدياً قوى فى نفوس معاصريه. وهو يحيا حياة شخصية زاهدة تماماً مع مضاعفته للأعمال التى تعود عليه بثروة ملحوظة. وسرعان ما يتصل بالفرنسيين ويصبح الشخصية الأوسع نفوذاً فى الدوائر الدبلوماسية. والجهرتى بحبيبه على تمكنه من تهتة الفرنسيين بأقواله الملائمة عندما لظمت الأمور تسير سيراً سيئاً بين الفرنسيين والمصريين. وهو يتمكن من كسب إعجاب بوناپارت الذى يتحدث عنه ممتدحاً له فى مناسبات عديدة، وينجح فى تمسين أسلوب البهائيات الفرنسية. وهو يصبح صديقاً للمستشرق ج. - ج. مارسيل الذى سوف ينشر حكايات عربية يرد نسبها إليه (١٦).



القراوات

هؤلاء العلماء الكبار كلهم ملتزمون. ومن ثم فإنهم ليست لهم مصلحة فى تغيير لنظام الضرائب فى مصر. ^{والحال أن تلك الضرائب من عهد محمد علي} المناقشات الأساسية لهذا الديوان العمومى. أما مشايخ البلاد، فهم يبنون أنصاراً لإلغاء الالتزام الذى سوف يكونون من بين المستفيدين منه. ومن ثم فإن هناك صراعاً عنيفاً حول هذه المشكلة (١٧). أما المسائل الأخرى فهى لا تثير جدلاً كبيراً.

ويتم تثبيت تنظيم الدواوين المحلية مع الوجود الدائم لديوان عمومى لمصر كلها سوف ينفق أعضاؤه من هذه الجمعيات. ويتعين إبقاء القواعد الخاصة بالمواريث على حالتها لأنها مستمدة من القرآن. وينطبق الشيء نفسه على تنظيم القضاء، وينتصر الملتزمون إذ يجرى الإبقاء على النظام مع الاكتفاء بإلغاء الأعباء الإضافية التى تفرضها للمالك فى العقود السابقة، وإذا وجد القائد العام أن من المناسب العمل على تنظيم الأقاليم لحساب الجمهورية، والوفاء باحتياجات صندوق الخزينة العامة [...]. فإن عليه الأمر بجباية الضرائب وفقاً للأعراف القديمة، مع إلغاء للظالم التى فرضت بشكل متتابع فى ظل حكم للمالك الاستبدادى. والرعايا يتوسلون إليه أن يسمح بتخفيف أعبائهم لما فيه خير وازدهار الحكم، لأن المظالم المتراكمة هى التى خربت القرى ومحت ثروة الرعايا البؤساء وتسببت فى دمار الأقوياء وفى شقاء للزارعين الذى لا حد له.

ويعتزل الحل الوسط في القضاء على الأتالة البدوية، «عندما يغير العرب وقطاع الطرق الرئيسية على الطرق في جزء من الإقليم، سوف يتولى المساعد المسلم إبلاغ ذلك فوراً إلى القائد وإلى مستشار الحكومة، اللذين سوف يرسلان القوات الضرورية لوقف المفوضى، وإذا ما تعين ذلك، فإن القائد نفسه سوف يخرج على رأس الجيش لمعاينة الأشرار بحسب جرائمهم؛ الأمر الذي سوف يعود بالازدهار على البلاد؛ وبالسكينة على السكان ويكفل سهولة جباية الضرائب».

ولابد من مطالبة البدو بالخضوع للسلطات عبر تقديم رهائن. أما أولئك الذين سوف يرفضون ذلك فسوف يجرى اعتقالهم متمردين، «إن القائد ومستشار الحكومة سوف يتخذان تدابير لدفعهم إلى التكفير عن تمردهم، مع استخدام جميع الوسائل التي تميزها الأعراف القديمة». وتبقى المسألة الملحة الخاصة بتسجيل الملكيات. ويرى الديوان أن ذلك مستحيل في الوقت الحالي؛ «ولابد من مراعاة أن استعراض الحجج والاطلاع عليها يتطلبان الكثير من الجهد والوقت من جانب المندوبين وبعيهاً متاعب للملاك؛ لأنه لمراجعة جميع حجج القاهرة، لن تكفى عدة سنوات إلا بصعوبة».

ويقترح الديوان حلاً مؤقتاً «ومن ثم فإن الديوان العمومي يرى أنه إذا كان من الضروري تدبير أموال لنفع وراثت الجيش، فسوف يكون من الأنسب إلى أبعد حد فرض ضريبة ثابتة، تتناسب مع أهمية الملكيات والمواقع التي توجد فيه. وهذه الملكيات في مدينة القاهرة تتكف من الوكالات والحمامات والنور والمساكن والمعاصر والسرجات والمطاحن والملكيات للسورة والمكاكين والقهاوى [...] وهذه الملكيات لن تدفع غير نصف هذه الضريبة في الإسكندرية ورشيد وبمهاط؛ لكن مدن وقرى مصر الأخرى لن يجرى إخضاعها لها نظراً لأنها تدفع ضرائب أرض أعلى بالفعل من قدراتها» (١٨).

ويصلح بوناپارت إلى تطبيق التدابير التي يوصى بها الديوان. ويصدر الأمر في ٢٥ فيفري من العام السابع (١٦ أكتوبر ١٧٩٨)؛ إذ يجرى الأمر بإجراء تعداد لمدى لدور القاهرة من جانب المهتمين للمماريين ويتعين على الجهة الألباط البدء بجباية الضريبة الجديدة (١٩). وبعد يومين، يتوجه بالشكر إلى الديوان من خلال المفوضين الفرنسيين ويطلب إليهما أن «يرجعه خطاباً إلى سكان البلد، لإشعارهم بمدى أهمية الأ حقوق إلى الأقوال القائمة والمعرضة التي يروج لها أعدائهم حول وصول للملك، إن ذلك ليس من هلكه غير إزعاج الفرنسيين والنسب في خراب قراهم. لليهر نصحبهم بعدم الإصغاء لهذه

المشائعات الفائرة والتي لا أساس لها؛ وليهدوا الطائفة ويحيوا في انسجام حسن مع الفرنسيين وليوحدوا جهودهم مع جهودهم من أجل القضاء على العرب قطاع الطرق ومنعهم من تخريب الأرياف ومضايقة الفلاحين للتعبئة؛ ولا يمكن تمضى هذه النتيجة للسعي إلا عبر الانسجام الحسن مع الفرنسيين (٢٠).

اتزعاج سكان القاهرة

هذا الانسجام الحسن لا يدوم طويلا. وخلال انعقاد الفهوان العمومى، يتزايد الاتزعاج فى القاهرة. للتدابير المتخذة ضد الطامون، خاصة الإلزام بتهوية جميع الأمشة والملابس، والمصحوبة بزيارات منزلية للتحقق من تطهيرها، وتصرفات الفرنسيين الغربية كظهور أعلام بيضاء على القلعة، ثم هذه التفتيشات التى يقوم بها الهندسون المعماريون (٢١) إنما تفتك خصوصية الأسرة والتى تعد عنصرا رئيسيا من عناصر الحياة الإسلامية. وبالتسبة للمسلمين، فإن كل هذه العلامات تنذر بالمذبحة الشاملة التى تنهات بها الدعاية العثمانية.

وكان قد جرى نشر هذه الدعاية فى مساجد العاصمة من جانب المعممين، علماء للرتبة الأدنى. والواقع أن الفرنسيين عاجزون عن فهم ما يقال فى خطب الجمعة أو فى التداشات الداعية إلى الصلاة. وشيئا فشيئا، كان كبار العلماء قد لقوا مرجعيتهم. ومسألة فرض ضرائب على نور القاهرة توضح ذلك جيدا؛ فبالنسبة لهم، كان ذلك تخفيفا ملحوظا بالقياس إلى الضريبة الأولى، وهو تخفيف تم الوصول إليه بفضل روحهم للتصالح، لما بالنسبة للمعممين، فإن هذه الضريبة ليست غير حزية أخرى، وهى الضريبة القاصرة من الناحية النظرية على غير المسلمين. وجميع الاستعدادات التى اتخذها الفرنسيون لكفالة أمنهم، كنزع سلاح السكان، إنما يجرى النظر إليها من جانبهم على أنها إنزال للمسلمين إلى وضعية الذميين، للمعممين غير المسلمين، الأشخاص الذى يتميزون بمكانة نبية واجتماعية أدنى. والسخط عظيم بقدر ما أن المسيحيين واليهود قد استغلوا من تعاونهم مع الفرنسيين لأخذ نوع من الثأر الاجتماعى ولإذلال المسلمين بدورهم، وقد حاول المستولون الفرنسيون تجنب هذا المسار للسوء إلى سلطانهم، ولكن شكايات المسلمين لا تصلهم فى أغلب الأحيان لأن الترجمات تختارون أساساً من بين هؤلاء الذميين

السابقين^(٢٢). ومن ثم فإن للعممين «يدعون السكان إلى الجهاد ضد الكفار» ويمكن للفتنة القاهرة الأولى أن تبدأ (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) (٢٣).

الفتنة

إن مصطلح «الفتنة» والذي يعنى فى الأصل «تجربة» ومن ثم «امتحان - محنة» إيمان شخص ما، قد أشار فى البداية، فى التاريخ الإسلامى، إلى القلاقل الأهلية للجماعة، خاصة تلك التى قادت إلى ميلاد المذهب الشيعى. ومنذ ذلك الحين، فإنه يكتسب معنى «تصدع» نظام الجماعة. وعلى الرغم من أنه يفقد نسبياً مفهومه الدينى ليعنى مجرد «التمرد»، فإنه مفهوم بالغ السلبية فى حد ذاته. وسوف يستخدم فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر للإشارة إلى الثورة الفرنسية (الفتنة الفرنسية)^(٢٤). أما إن للجبروتى يستخدمه فإن ذلك لما له دلالة، فذلك بشكل جزئياً من شجبه للفتنة الأولى التى جرى الانخراط فيها بون مراعاة لنسبة القوة العسكرية.

ويستحضر كاتب الأخبار للمصرى بشكل محدد جماعتين اجتماعيتين فى هذه الفتنة. فمن جهة، نجد «العممين»، علماء للرتبة الأدنى وطلاب الأزهر، ومن جهة أخرى، نجد سكان الأحياء الشعبية ومغاربة القاهرة، الذين يشكلون فى نظره «رعاءاً إساقلاً» حقيقيين، إلا ما استعصنا عبارة شهيرة لسياسى فرنسى من القرن التاسع عشر. ويؤكد الكتاب الفرنسيون هذا التحليل^(٢٥). ويقول الجبروتى صراحة أنه لا يوجد زعيم حقيقى لقيادة التمرد^(٢٦). وتحدث المصادر الفرنسية عن مجلس من ثلاثين شخصاً وتعطى للدور الأول للمهيع طائفة هيمان الأزهر، سليمان الجوصلى^(٢٧).

وهذا الرجل يصوره الجبروتى بأنه شخص متسلط وطموح، حوّل طريقته إلى تنظيم حقيقى لاقتصاب الأموال. ولما كان يحب الترف والحياة للسارة البهيجة، فإن تورطه فى الزامرة سوف يكون نتاج إفراط فى الطموح^(٢٨). أما الزعيم الآخر فهو أحد الأشراف، للعهد بدر اللقضى، الذى لا تتوافر عنه غير معلومات قليلة^(٢٩). وعلاوة عليهما، كان هناك علماء شبان يتحدث عنهم الجبروتى بتعاطف.

وتظهر الحركة فى البداية كفتنة كلاسيكية من فتن الاحتجاج على المظالم، كما فى زمن الأمراء، ولكن مع الفارق المهم الذى يتمثل، هذه المرة، فى عدم وجود علماء للتوسط،

على العكس، إن التحرك يتم ضد رأى كبار المشايخ الذين يفضلون الحذر والترقب. ومن ثم توعد النكاكين أبوابها وتوجه للمظاهرة إلى مقر القاضى العمسكو، السلطة العليا فى الهراركية القضاية العثمانية، وذلك لمطالبته بالتوصل إلى إلغاء رسوم التسجيل. ويضطلع هذا الأخير بمهمة دفع الجمهور إلى التعلل. ليجرى الاعتناء عليه ونهب داره^(٢٠). وتتشكل مظاهرات أخرى انطلاقاً من جامعى الحسين والأزهر الكبيرين. وعندئذ فإن قائد الموالع، الجنرال ديبوى، إذ يجرى إخباره بهذه المظاهرات، يسعى إلى إلقاء القاضى حتى يتمكن من تهدئة الجمهور. وولفًا للجبروتى، فإنه لو كان قد نجح فى الوصول إلى القاضى، لكان من الأرجح عندئذ أن تنتهى المسألة^(٢١)، لكنه يصاب فى الطريق جماعة من الثائرين الذين يهاجمونه وحراسه، ويتم قتله، كما يتم قتل عدد من رفاقه ويسحب الناجون جهته.

والحال أن إعلان مصرع جنرال فرنسى، يحسبه هديون بوناپارت، هو الذى يؤدى إلى تعميم الانتفاضة. ويتم ذلك نحو الساعة العاشرة من صباح ٢١ أكتوبر ١٧٩٨. وفى كل مكان تقريباً من المدينة، يجرى الهجوم على دور الأروبيين والمسيحيين، باستثناء الأماكن التى كان ما يزال يوسع المرجعية الأنبية لكبار المشايخ أن تلعب دورها فيها [الأنكية (الشيخ البكرى)، هابدين وقيسون (الشيخ الفيومى)، قناطر المسبح (أمير الحج)] وساحتى بولاق والقسطاط للمجاورتين. كما أن وجود جنود فرنسيين بأعداد مهمة فى تلك الأماكن يلعب دوراً هاماً. وفى المقابل، فإننا إذا ما صدقنا ما يذهب إليه كتلى «القاريخ العلمى»، فإن الثوار يحتجزون للشيخ المسابات، ويحلقون شعره على نحو مهين، ويلبسونه بزة جندى [فرنسى] قتل ويبيعونه فى السوق بثلاثة عشر قرشاً^(٢٢). ولا بد من الإشارة إلى أن جيران الفرنسيين يفعلون كل ما فى وسعهم لإنقاذهم من هجمات السكان، مخاطرين بأرواحهم هم أنفسهم فى أغلب الحالات^(٢٣). أما بيت كافاريللى، حيث توجد الأليات العلمية للجنة، فهو يتعرض للهجوم من جانب الثوار الذين يسمرون بشكل منهجى كل أشياء الفرنسيين. وتتكاثر أعمال النهب، على حساب المسيحيين كما على حساب المسلمين.

القمع

كان بوناپارت قد غادر القاهرة لزيارة القروضة، فى الساعات الأولى من النهار، وذلك

بالرغم من بدء التجمهرات (٢٦). وهو يرجع إلى الأنيكية في منتصف النهار ويعد بخلافه
يهوى إلى الجنرال بون. ولما كان منشغلا باستعادة الاتصالات بين مختلف النقاط
المنفصلة التي يتواجد فيها الفرنسيون، فإنه يدع الانتفاضة تتطور. وكما في ١٢
فبراير، فإنه يكرس الجانب الرئيسي من جهده لإقامة مواقع للمدفعية لسحق مراكز
التمرد.

وصباح اليوم التالي، يقترب بدو مشارف القاهرة من المدينة. ويرسل بوناپارت
فرساته لاحتوائهم. ويلقى الهولندي الرائد سولكوفسكى، معاون بوناپارت، مصرعه لدى
موته من مهمة جمع معلومات عن الوضع الخارجى. وهندل يمثل مشايخ الليهوان أمام
القائد العام. وفي النهاية يستقبلهم هذا الأخير بغضب، ثم يلين ويطلب إليهم تنظيم بعثة
مصالحة لدى الثوار الذين يتخلون من الأزهر ملأً لقيامتهم. ويفسر الثوار هذه البادرة
على أنها إقبرهان على ضعف الفرنسيين ويرفضون استقبال المشايخ.

وتبيل الظهيرة، يبدأ النصف الفرنسى الذى لا يرحم، ويهوى ضرب جميع المناطق
التي يحتلها المتمردون ضرباً قاسياً. ويركز الفرنسيون بشكل خاص طلعاتهم على حى
الأزهر، ولما كان المتمردون قد زلزلهم بالكامل طوفان النار الذى يحدث نماراً حسيماً، فإنهم
يتخلون تدريجياً عن متاريسهم للجنود الفرنسيين الذين استأنفوا الآن الهجوم، ويسعون
إلى التفاوض. ويرفض بوناپارت أية ترضية. ونحو الساعة العاشرة مساءً يستسلم زعماء
التمرد؛ فهم يريدون تجنب أن يقع المتمردون الآخرون ضحايا للقمع، وتهدر طلقات متفرقة
أيضاً في الساعات الأولى من الليل (٢٧). وفي فجر ٢٣ أكتوبر، يهيمن النظام على
القاهرة (٢٨). ويتلقى بون الأمر بلجتيح الأزهر (٢٩).

ويخرج الجبرتي من هذا العمل البربري؛ ثم دخلوا الجامع الأزهر وهم راكبون
الخيول، وبينهم للشاة كالوعول، وتفرقوا بصحنه ومقصورتها، وربطوا خيولهم بقبلة،
وعاثوا بالألوفة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وحشروا خزائن الطلبة والمجاورين
والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاص والسبلات والمخبئات بالدواليب
والخزانات، وشقوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وأرجلهم ونعالهم ناسوها،
وأحدثوا فيه وتفوطوا وبألوا وتمخطوا وشربوا الشراب، وكسروا أوانيه ولفقوها بصحنه
وتواحيه، وكل من صانعه به عرود ومن ثيابه أخرجوه (٣٠).

ويهرول مارسيل وسط الجنود لينتقل قدر الإمكان للخطوط المهمة، وسوف ينجح
بذلك في الحفاظ على مصحف رائع مكتوب على جلد الجمل (٣١). لقد أدت الفتنة إلى

مصرع ما بين مائتين وثلاثمائة فرنسي ويبدو أنها أتت إلى مصرع ما يزيد عن ذلك العدد بعشر مرات بين صفوف المصريين^(٤١).

التهويلات

يجرى إعلان علني عام، إلا بالنسبة للزعماء ولأن قاموا بأعمال السلب والنهب. ويلاحق بارتيليمي وأغا الأنكشارية هؤلاء الأخيرين، ويكتفان الاعتقالات التعسفية ولا يتقدمان في اللجوء إلى التعذيب للحصول على معلومات. كما أنهما يبحثان عن الأسلحة^(٤٢) ويطلب بوناپارت نفسه من مشايخ الديوان أن يقدموا إليه أسماء «المعممين» المتهمين بتحريك التمرد. ويحاول المشايخ للراوثة، لكنهم سرعان ما يدركون أن الفرنسيين قد حدثوا بالفعل أسماء الزعماء واعتقلوهم فيما عدا السيد بدر القنسي الذي كان قد نجح في الهرب، و«شيخ العميان» الذي مات خلال القصف. ويطلب للمشايخ معاملة هؤلاء العلماء من زاوية مكانتهم السلمية، ويقبل بوناپارت احتجاجهم في بيت الشيخ البكري^(٤٣).

لما سكان القاهرة، الذي أثار القمع خوفاً، فإنهم يسارعون إلى لوتداه للشرطة الثلاثية الألوان، لكن السود يجرء على الفرنسيين فيحظرون عليهم ذلك بسبب مروقتهم^(٤٤). وينتد على طلب من القائد العام، يشجب للمشايخ قومات السلطان بوصفها لحاويل حاكها المملوك. ويجري إصدار الأمر إلى جميع السلطات بتسليم جميع الكتابات المخزنة على التمرد إلى الفرنسيين^(٤٥). والواقع أن بوناپارت يريد إبقاء القمع عند أدنى مستوى له، وذلك بالرغم من احتجاجات الجيش الذي يطلب بإزالة عقوبات قصوى. والموقف الأكثر حدة هو موقف العلماء والفنانين مثل فيثان بينون الذي يكتب إلى مينو: «إن الأول من برومير قد مرق إلى حد ما حجاب حب البشر الذي أربنا نشره على وجه مصر. وأنا اعتقد أننا مصرون بلا ريب إلى أن نكون الأقوى؛ ثم إن هذا مبدأ من مبادئ القرن؛ أما الكاثوليكية فهي جد مرثية وهم يصرون على اعتبارنا كاثوليك...»^(٤٦)

ويصدر الحكم بإعدام «المعممين» الستة المقبوض عليهم، لكن بوناپارت، بدلاً من الاتجاه إلى إعدام علني كما فعل في حالة محمد كريم، يأمر بإعدامهم بشكل شبه سري في القلعة (١٤ برومير من العام السابع - ٤ نوفمبر ١٧٩٨)^(٤٧). ولا يتمكن المشايخ من الحصول على شيء من بوناپارت عبر الوساطة.

وما يجهلونه هو أن القائد العام يرى - مخطئاً على الأرجح - أن السلطات نفسه هو ملهم التمرد، وتنتسب أسرة السائلت إلى النبي، عن طريق الحسن والحسين، حليديه، في كن واحد، ومنذ القرن الرابع عشر، تقود طريقة السائلت الوفاكية المصرفية جد للهمة.

وكان محمد أبو الأنوار السائلت قد حصل على تعليم جد ناجز كلفيه شرعى وكصولى، وأصبح زعيماً للطريقة في عام ١٧٦٩. ومع احتفاظه بالشكل الوفاكى للميزة للعلماء، برز بوصفه رجل أعمال هديم الذمة، حيث أساء استخدام مكانته الاجتماعية القوية لتحقيق الثراء لنفسه. وهو يثير خوفاً عظيماً في صدور خصومه ومرعوسيه، ولما كان ملتزماً، فإنه يبنو بالغ القسوة تجاه فلاحيه بشكل يتجاوز ما هو معتاد في هذا الوسط، وقد تمكن من التصدي ظالماً لحسن بلها الجزارلى في عام ١٧٨٦، عندما أراد هذا الأخير بيع أفراد أسر للعاليك الذين لجأوا إلى مصر العليا في سوق النخاسة. وبالرغم من تحفظه تجاه الفرنسيين، فإنه موضع اهتمامات كثيرة من جانب بوناپارت، وقد اتجه إلى دعوتهم إلى زيارته في بيته، وأجبرتى أصحابه عندما يزور الفرنسيين، وهذا الأخير يستفيد من ذلك لكي يتفرج على تحفهم الفنية وخاصة الرسوم واللوحات التي تستثير إعجابه^(٤٩).

وعلى النمو التالي يقدم بوناپارت الشيخ لكبير الذي جاء لتوه من الإسكندرية، وهذا هو زعيم التمرد.

«لماذا إذا لا تلمر بإعلانه رمياً بالرصاص؟»

«لا، إن هذا الشعب جد خريب هنا، من ملاتنا. ولا بد له من زعماء: وأنا أحبذ أن يكون له زعماء من نوع مماثل لهذا النوع، الذي لا يستطيع امتطاء سهوة جواد، ولا استخدام السيف، بدلا من أن يكون له زعماء من نوع مراد بك [...] إن إعدام هذا العجوز العاجز لن يؤدي إلى أية فائدة ومن شأنه أن تترب عليه عراقب أسوأ مما تتصور»^(٥٠).

وفي اثر الانتفاضة، يتخذ القائد العام تدابير لتأمين سلامة الفرنسيين، ويصبح أعيان أحياء القاهرة ضامدين لحفظ النظام العام ويتعهدون بإخطار السلطات بالهبط عامل من عوامل تكدير الأمن^(٥١).

ويجرى تعزيز الانضباط، ويتعين على الجنود أن يكونوا مسلحين ومستعدين دائماً للوجود في مراكز التجمع في حالة نشوب للاقبل. ويتم إنشاء ثلاث وحدات يونانية لتأمين سلامة الواصلات النهرية. وهي تتألف من بحارة لسطول مراد بك السابق، الذين أثبتوا ولاعهم للفرنسيين خلال أحداث (التمرد). ويوجه خلص، يعزذ بوناپارت تحصينات

القاهرة ويميل إلى تركيز الثكنات الفرنسية في جزيرة الروضة وفي الجزيرة، وهي أماكن تقع خارج المدينة في ذلك العصر^(٥٢). وهناك نهد صورة مصقورة لمدينة كولونيلية (استيطانية) في أرض الإسلام^(٥٣).

وحدة الفعل ضد الأتاليه

تمثل أحد الشواغل الأولى لبيروتية في إخطار الهندرات الذين يقودون الأتاليه بما جرى في القاهرة، وذلك سعياً إلى تهديد الشائعات التي تتحدث عن مصرع بوناپارت وعن انحصار المتمردين والتي انتشرت في كل مكان تقريباً^(٥٤). كما يتعين تجنب امتداد الحركة إلى مجمل الدلتا. ويجري إصدار أوامر في جميع الأتاليه بأن يسلم مشايخ البلاد إلى الفرنسيين جميع حملة الفرمانات العثمانية للتداول.

فالدعاية العثمانية كان لها أيضاً تأثير خارج القاهرة، والمشارف للبلطجة للمدينة هي دائماً قليلة الأمن بالنسبة للفرنسيين. وزيارة الهندرات الفرنسيين إلى الأهرام لا تتم إلا بحراسة عسكرية جيدة تمسحاً لهجوم محتمل من جانب البدو الذين التزموا من جهة أخرى اقتراباً خطيراً من العاصمة خلال الفتنة. ويجري تكليف بارتيليمي بتخليص الضاحية من هؤلاء الجيران للزعميين. وهو يفعل ذلك بطريقته ويرجع من كل غارة من غاراته بهضج رؤوس للبدو. وعندما لا يجد بدواً، فإنه يترد على الفلاحين الذين يلقون المصير المحدد للبدو. والحال أن الفرنسيين، بالرغم من علمهم بفعله، يدعونه يتصرف كما يحلو له^(٥٥).

إلا أنه أساساً في إقليم طنطا، وهو موقع كبير مزارع وفي مصر، هو مزار السيد البدوي، بدأت الفتنة، وحتى قبل أن تبدأ فتنة القاهرة. وكما في العاصمة، فإن معسكة جبهة الضرائب تكمن في منشأ الفتنة. والحال أن الأعيان يرفضون للثول أمام السلطة الفرنسية. ويلجأ الفرنسيون في البداية إلى اللطافة ولا يدخلون للمدينة، بينما يراهن السكان على دعوى القسطنطينية المزمومة الذي وعد به رومان زائف من باشا سوريا. وتقلقل وحدة فرنسية في المدينة في ٧ أكتوبر، وهو يوم سوق يجذب سكان الأرياف. ويهاجم الجمهور الوحشة التي تضطر إلى الانسحاب إلى خارج المدينة. ومن ثم يطلب فوجيهر تعزيزات^(٥٦). ويرد بوناپارت بأنه يجب مراعاة هذه المدينة للقسيسة قدر الإمكان وأنه سوف يعمل على

تدخل الديوان العمومي من أجل تهديد الخواطر؛ ويرسل الجنرال لانوس مع تعزيزات لتهتة هذا الإقليم الواقع في البلتا تهتة كاملة (٥٩).

والمهمة الأكثر إلحاحاً هي القضاء على البدو الذين يدعمون المتمردين. ويعتمد فوجيبر على مشايخ البلاد المحليين، ضحايا المالك والعرب (٦٠). وينجح لانوس في تصفية أبو شاهر، شيخ العرب القوي، الذي كان قد حرك المقاومة ضد الفرنسيين منذ البداية. وهو يستولي على خزائنه (أكثر من اثني عشر ألف جنيه من الفضة). وتسقط في أيدي الفرنسيين قري هذا الشيخ العشرون (٦١). ويؤدي هبوط النيل إلى إبطاء العمليات، ويتركز الاهتمام على جبهة الضرائب من القرى. وترسخ طنطايون مقاومة خاصة، لكن الفرنسيين يفضلون عدم احتلالها بشكل دائم وذلك بسبب طابعها القيني وسعيها إلى تجنب بعثرة قواتهم (٦٢).

وفي بلهيس، يضطر دينيه هو أيضاً إلى التصدي لهجوم في ٢١ أكتوبر. وهو هجوم منسق قامت به عدة جماعات من البدو. وينجح دينيه في صدده بسهولة (٦٣). وهو يرى أن هذا الهجوم قد نظمته ممالك إبراهيم بك وأنه يرحب فلاحين وبدو (٦٤).

وإمام ضد الفرنسيين لهم، يتسحب البدو إلى داخل الأراضي. ولما كان هبوط النيل ما يزال غير مناسب، فإن الفرنسيين يجهزون صعوبة في ملاحقتهم. ومن ثم فإن الجنرال الفرنسي ينهمك في عمليات تخريب للسكان سعياً إلى التوصل إلى إضعاف القهائي. ويستمر هذا الوضع على مدار شهر نوفمبر. وتتكون لدى الفرنسيين باطراد قناعة بأنه لن يكون بالإمكان الوصول إلى أي شيء دائم ما دام إبراهيم والجزار ينجحان في إرسال عملاء لإثارة الإقليم (٦٥). وتتوقف قوة المقاومة على أهمية الروابط بين الفلاحين والبدو والتي لم يتمكن الفرنسيون بعد هذا، خلافاً للحال في بقية البلتا، من فك عراها.

الإنجليز قبالة الإسكندرية

لكن الأحداث الأهم تدور في إقليم الإسكندرية. ففي ١٩ أكتوبر ١٧٩٨، يعين بوناپارت مينو قائداً لجمل منطقة البحيرة والإسكندرية ورشيد، جامعاً بذلك تحت قيادته العليا كل حرب البلتا (٦٦). وفي اليوم نفسه تنضم سفن عثمانية إلى سفن هود الإنجليزية التي تحاصر الميناء. ووجهها يجد تفسيراً له في الدوافع السياسية بأكثر مما في أسباب

عسكرية، فلهذه هو إشعار الفرنسيين والسكان المحليين على حد سواء بأن العثمانيين قد دخلوا الحرب (٦٧).

ويترك مارمون القناة لكي يضم قواته إلى قوات مانسكورد. وكان القائد العثماني قد أبلغ قبطان لاويال، الباقية دائماً في ميناء الإسكندرية، بأن عليه الحصول على تصريح من الفرنسيين للانضمام إلى أسطوله (٦٨). ويحتل القبطان للأمر ويجري اتصالات مع المحتلين. وولاً لهما، فإنه ما نطمت الإمبراطورية العثمانية لم تدخل في حرب ضد فرنسا، فليس هناك ما يمنعه من الانضمام إلى السفن العثمانية للوجوه خارج الميناء. على أن مفروضيه، الذين لا يهتمون غير تصديقه، يرفضون السماح له بمغادرة الميناء.

وكان هود قد اتصل بالمقاومة الداخلية خاصة بعبد الله باشي الذي انتقل في أحد الأوقات إلى سفينة، وحاول التوفيق بين مراد بك والعثمانيين (٦٩). وينظم مارمون شبكة تجسس مضاد على الساحل بهدف القبض على عبد الله الذي كان قد رُصد في المنطقة (٧٠).

واعتباراً من ٢٤ أكتوبر، يقصف الأسطول الأنجلو - عثماني الإسكندرية وأبو قير بحسب الترتيب؛ وتعتبر الخسائر تافهة، لكن بوناپارت يفضل إرسال مورا لمراقبة مؤخرات الإسكندرية وأبو قير. وهو يخشى بشكل خاص من نشوب انتفاضة في هذه المدينة الأخيرة (٧١). والواقع أن مورا يجد منطقة هامة بشكل عام، وذلك بالرغم من أن الإنجليز والعثمانيين كانوا قد نجحوا في تأمين اتصالات مع السكان.

وكما هي القاعدة في ذلك العصر، فبمجرد انتهاء القصف، يتم اتصال بين الفريقين المتخاصمين. وبوناپارت بحاجة ملحة إلى معلومات عن وضع مصر الخارجى وقد لوفد المترجمان براسيفيتش وموظفًا عثمانيًا اسمه إبراهيم أفا وضابطين فرنسيين إلى الأسطول (الإنجليزى - العثماني) المشترك. ويواصل المسئولون الفرنسيون الاعتقاد بأن دخول العثمانيين الحرب ليس غير شائعة كاذبة يروج لها الإنجليز والماليك. ويتمشى هذا الاعتقاد كثيراً مع أمانهم وقد عززته تأكيدات قبطان لاويال (٧٢).

وفي ٥ نوفمبر، يصعد للتدوين إلى الأسطول حيث يتم استقبالهم أحسن استقبال، ويكرر لهم الجميع أن الباب العلى قد دخل بالفعل في حرب ضد فرنسا، وأن ملطه محاصرة وأن أسطولاً روسياً عثمانياً قد توجه إلى مهاجمة الجزر الأيونية. لكن مارمون ومانسكورد يرفضان تصديق هذه الأخبار (٧٣). ولا يملك هود إلا أن يتالم لعدم الفرنسيين غير للتوقع (٧٤).

سياسة المصالح

في بداية نوفمبر ١٧٩٨، اضطر الفرنسيون إلى الاعتراف بأنه ليس من السهل الحصول على ولاء المصريين. وإذا كان من الواضح أن هناك حركة ثورية في مصر، فإنها تتجه ضدهم، وبأن على القناصل المصرية التي فرضها إيلاس الجيش، مثلما تتجه ضد الأحكام الإدارية العسكرية التي اضطروا إلى اعتمادها لإعادة تنظيم مصر ولتأمين سلامة الفاتحين. وهذه الأعمال كلها تترجم بوصفها انتهاكات واعتداءات على الشريعة الإسلامية وهو ما يفضي إلى إضفاء شرعية دينية على التمردات. ومن الواضح أن بوداپارت كانت لديه مبررات لكي يتبنى في بياناته خطاباً إسلامياً، لكنه - لصوء حظه - يبدو أنه لم يفتح السكان المصريين للفتة.

إن دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب وحرب الدعاية الفعالة التي تخوضها، يؤديان إلى تحديد العمل السيكولوجي الذي يقوم به الفرنسيون، والذي خطط تخطيطاً جيداً على أية حال، إن كثيرين من المصريين قد صدقوا بالفعل أن الفرنسيين قد جاءوا لمحاربة المماليك بموافقة من الباب العالي، وهم الآن يتصرفون من لوهمهم. والفشل السياسي تام على هذا المستوى. وفي المقابل، فإن السيطرة الفرنسية قد وجدت دعماًها الضرورية في القبول السلبي أو الإيجابي من جانب جماعات اجتماعية كمشايخ البلاد وكبار العلماء الذين تتمثل الأولوية المطلقة بالنسبة لهم في استعادة النظام العام الذي تحلل بشكل خطير من جراء أكثر من عقدين من الفتن. والحق أن حزب النظام هذا لا يقبل الفرنسيين إلا على مضض، لكنه يسمح بدعم السيطرة على البلاد على أحسن راسخة.

ومن الطبيعي أن هذه السيطرة يجب أن تهدد امتلاكها في فتح مصر العليا سعياً إلى القضاء على الخطر الدائم الذي تمثله هوية هجومية من جانب موالد بك. وعلى عاتق ميزية تقع هذه المهمة الصعبة.

مصر العليا

مهمة روزيتي

بعد معركة الأهرام - وتمشيا مع مخطط الحروب للملوكية - ينسحب مراد بك إلى مسافة جد بعيدة في مصر العليا. وكان بوناپارت قد أرسل إليه روزيتي للتفاوض على (شروط) ولائه للفرنسيين وأصدر لوامر من أجل احتلال الأقاليم الجنوبية الأكثر قرباً من القاهرة. ومنذ بداية شهر أغسطس ١٧٩٨، تصطدم العناصر الفرنسية الأكثر تقدماً، تحت قيادة الجنرال رامبون، بمقاومة مهمة فجرتها، بين أمور أخرى، مصابرات الجبل (٧٥).

ويستقبل مراد بك روزيتي استقبالا حسناً للغاية، لكن الأول، في إثر أخبار معركة أبو قير على الأرجح، يرفض مقترحات الفرنسيين ويعلن استعداد له لدفع تكاليف رحيلهم (٧٦). والحال أن هزيمة الفرنسيين البحرية تشجع مراد بك على إعادة تجميع القوات المملوكية في مصر العليا. وهو يتصالح مع حسن بك الجندوى، المملوك السابق على بك، والذي يسيطر، بشكل مستقل عن العاصمة، على جزء من مصر العليا ويطلب تقديم يد العون له من جانب معلمى مدينتى مكة والمدينة المقدستين.

اليوم

في ١٦ أغسطس، يهدد بوناپارت إلى بيزيه ورفاقه، وكذلك إلى الأسطول النهري الذي يقوده العميد البحري بورييه، بمهمة العمليات ضد مراد بك. ولا يضم فيلق حملة بيزيه أكثر من ثلاثة آلاف رجل. وهو يخرج من القاهرة في ٢٥ أغسطس على متن الأسطول النهري ويصل إلى بنى سويف في ٣١ أغسطس ١٧٩٨. وتتمثل التعليمات الصادرة إلى بيزيه في مهاجمة مراد بك بمجود عثوره عليه وبالحمد الأقصى من القوات. ويصل إلى علم الجنرال الفرنسي أن المماليك يحتشدون في الفيوم، تلك الواحة الشاسعة التي تغذيها ترعة متفرعة من النيل، هي ترعة بحر يوسف. وهو يشن غارة جسيمة لتدمير أسطول مراد بك بعيداً عن ملتقى بحر يوسف والنيل. ثم يتدفع حتى أسهوط، في ١٥ سبتمبر ١٧٩٨، لكنه يفشل في محاولته ويرجع إلى القواء لكي يتمركز عند منخل بحر يوسف حيث يحشد قواته. وفي ٢٤ سبتمبر، تدخل الفرقة إلى الترعة.

وخلال الأيام الأولى، تنشأ المصائب الوحيدة عن بداية هبوط النيل. واعتباراً من ٢ أكتوبر، تبدأ الاشتباكات مع للملك مع بينما يغادر الجنود زوارقهم للهبوط على البر. وفي ١٦ أكتوبر، يقاتل مراد بك الفرنسيين في سيدمنت. ومرة أخرى، ينكسر سلاح الفرسان المملوكي الرائع على المربعات الفرنسية. فالآن يعرف الجنود بشكل تام قواعد المناورة وقد توقعوا أن للملك سوف يكونون أكثر قريباً لإطلاق وصلصاتهم القاتلة. وفي إحدى اللحظات، تخلف (الجنود الفرنسيون) قليلاً (عن تشكيل المربعات) وتم اجتياح أحد المربعات، إلا أنه سرعان ما يتم تشكيكه (٧٨). على أن ديزيه قد اضطر إلى ترك عدد من الجرحى للملك لكي يتسنى له تشكيل المربعات (٧٩).

وعندئذ يغادر للملك الفيوم منسحبين إلى المنيا بينما يستولى الفرنسيون على المركز الأهم في الواحة، مدينة الفيوم (١٢ أكتوبر ١٧٩٨). وفي الأسابيع التالية، ينظم ديزيه ذلك الإقليم. ويحصل زايونشيك على قيادة إقليم بني سويف. وتظل الاتصالات صعبة مع القاهرة: لمراد بك يغير تكتيكه ويحفز الكثير من التمردات القروية الصغيرة. وكانت هجمات معادية للفرنسيين حاصرة عن الباب العلوي قد وزعت في كل مكان تقريباً في الإقليم (٨٠). وكما في البلتا، فإن العرب هم الذين يخوضون القتال، لكنهم يطلقون هذا دعماً مباشراً من جانب للملك، وهم يهاجمون مدينة الفيوم نفسها في بداية نوفمبر. وتحل حرب العصايات محل لصدام على جبهة محدودة. وما أن يبدو أن الفرنسيين هم الأقوى، فإن للملك والبدو يتركون الفلاحين ضحية للقمع الذي يمارسه الغزاة. ولا يتردد ديزيه في أن يقدم عبرة بدميره قرية سيرميني (٨١)، وتؤدي الأعمال الانتقامية التي يمارسها الفرنسيون وكذلك الانضباط الذي يفرضه ديزيه على جنوده سعيًا إلى منع كل نهب وكل سلب إلى تهتة سريعة للبلاد. ثم إن ديزيه يحصل من بونابارت على جانب من التعزيزات بقيادة بيليار.

المعلم يعقوب

يتكشف مراد بك عن خصم عنيد ورهيب. ثم إنه، بفضل عهد الله باشي، يتصل بالإنجليز (٨٢). لما ديزيه فهو يجد عوناً في شخص الأمين القبطي الذي أرسله بونابارت، وهو المعلم يعقوب. وهذا القبطي، الذي ولد في عام ١٧٤٥، في القاهرة، وفقاً لبعض المصادر، وفي ملوى في مصر العليا وفقاً لمصادر أخرى، حصل إلى أروع المدارس التي يمكن

أن يطمح إلى بلوغها واحد من بنى جلسته. وبفضل قدراته، يصبح أمين سليمان بك، أحد أهم ممالك على بك ثم إبراهيم بك. وكان سيده يحوز كل إقليم أسير على شكل التزام. وبما يشكل فعلا استثنائياً بالنسبة لقبلى، شارك والصلاح بيمينه، إلى جانب سيده، فى المعارك ضد العثمانيين فى مصر العليا فى عام ١٧٨٦. وقد اقتن فى عام ١٧٨٢، فى زواج ثانٍ، بحليبة مسيحية، من المرجح أنها كاثوليكية يونانية من حيث الأصل، وهو ما يجعله على اتصال بهذه الطائفة جد الدينامية. ومن المؤكد أنه قد تأثر بالنزعة المصرية لكبار البكوات للممالك المتأخرين، وذلك بالرغم من أنه قد انماز لوداً إلى الفرنسيين بعد الاستيلاء على القاهرة (٨٢). وهو ينظم الشئون المالية لحملة يزيه بفضل درايته الثامة بالآليات الخريبية المصرية ويلعب دوراً رئيسياً فى تكوين شبكة مخابرات مكلفة بإبلاغ الفرنسيين بتحركات للممالك.

مصر الوسطى

يزور ديزيه القاهرة للتسجيل بإرسال التعزيزات ويعهد إليه بوناهارت بالجانب الرئيسى من سلاح الفرسان الذى جرى تشكيله بمهقة فى ذلك الوقت، ألف فارس تحت قيادة جنرال اللواء دالو (٨١). وفى ١٥ ديسمبر، يتسنى لديزيه أن ينشر فى بنى سويد الجانب الرئيسى من قواته، أربعة آلاف رجل مع فرسان دافو وتسع قطع منطعية. ويمكن لزحفه نحو الجنوب أن يبدأ فى صباح اليوم التالى.

ويتجنب مراد فى البداية كل معركة وينسحب، تاركاً الفرنسيين يصلون إلى المنيا فى ٢١ ديسمبر وأسيوط فى ٢٥ وجرجا فى ٢٩. ويعتبر يعقوب عظيم الفائدة بالنسبة للفاتحين؛ وفقاً لشهادة بيليار: «إن السكان يعتبرونه السلطان الكبير وفرقتنا، التى تشكل جيش مصر العليا، يجرى النظر إليها على أنها جيش المعلم يعقوب. ويستفيد الجنرال من ذلك لتوفير اللؤن لقواته والمحصل على معلومات عن الأعداء. والعرب (المعلم يعقوب - المترجم) له حليشة وفيرة للعد وهو يحرص، إذ يعمل لحسابنا، على ألا ينسى مصالحه.

ويسعى سليمان بك إلى دفعه إلى العودة إلى معسكر للممالك، لكن المعلم يرد عليه بأنه مستعد للتوسط لحسابهم لدى الفرنسيين (٨٥).

ويبدو ديزيه في أن واحد في مظهر الفاتح وفي مظهر السامى إلى التهمة، وهو لا يتردد في وقف زحف فرقته لتصوية النزاعات القروية، «جمع الجنرال ديزيه المشايخ؛ وقدم كل منهم أسبابه» ثم جرى وضع ما لكلٍ وما عليه في ميزان العدل، ولنتهى الرجال، الذين كانوا قبل ذلك بنصف ساعة، يريدون محو أعدهم الآخر، إلى استحسان الأفكار المحكمة أو الأوامر التي صدرت عن الفاتح ورجعوا أصدقاء متحابين (٨٦).

وفي جرجسا، يطمئ ديزيه التوقف قليلا. لكنه جد بعيد عن الأسطول النهري ويتوجب عليه تقرب وصوله حتى يستأنف زحفه. وهو يكفل سلامة مواصلاته بقمعه عدة حركات فلاحية في مصر الوسطى. ويوجه خاص، يجرى إحراق قرية طهطا الكبيرة وذبح جانب من سكانها في ٢١ نيفوز من العام السابع (١٠ يناير ١٧٩٩) (٨٧). وهذا التوقف الطويل يسمح لمعاد بك بإعادة تنظيم قواته كما يسمح له على نحو خاص بالحصول على عون متطوعين قاسمين من الحجاز، إقليم مدينتي مكة والمدينة المقدستين.

إمارة مكة

منذ القرن السادس عشر وإمارة مكة تشكل جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. ثم إن السلطان هو حامى للمدينتين المقدستين، وهي حماية تمثل إحدى وظائف الخليفة. لكن العملية المحلية كانت بيد أمير يتم اختياره دائماً من بين صفوف لحفاد النبي، الأشراف. وكان هؤلاء الأخيرين عديدون يشكّل بالغ في ذلك الإقليم. وفي القرن الثامن عشر، امتدت حركة لا مركزية السلطة إلى الحجاز وأصبحت السلالة الحاكمة للخريفية مستقلة ذاتياً تجاه العثمانيين. ولم تعد السلطة الإمبراطورية تتجلى إلا من خلال الوجود - خلال الحج - لأميرين للحج، هما قائمك قافلة مصر وقافلة الشام. أمّا باشا جدة، وهو موظف يعين كل سنة من جانب الباب العالي، فلم تك له سلطة تزيد عن سلطة زميله في القاهرة.

لكن سلطة أمير مكة كانت هي نفسها جد ضعيفة. وفي شبه الجزيرة العربية نفسها، كان عليه أن يواجه صعود الوهابيين. وكان العثمانيون قد رموا بالهرطقة دعوة محمد بن عبد الوهاب، بنزعها البيروقراطية الراسخة ورفضها لكل ما يبعد الإسلام عن التوحيد المطلق. وقد رأى الأمير أن من المناسب فرض ضريبة على الحجاج الوهابيين، وهو إجراء كان قاصراً حتى ذلك الحين على الحجاج الشيعة. الأمر الذي أثار غضب الوهابيين. والحال أن هؤلاء الأخيرين، بفضل تحالفهم مع إمارة نجد التي يتزعمها آل سعود، قد

استهلوا حرباً ضد الأشراف. وقد حصلت قوات آل سعود للهزيمة بالشريف غالب، الأمير منذ عام ١٧٨٨، بينما وجد الباب العالي نفسه عاجزاً من تقديم العون له. وفي عام ١٧٩٨ عقدت هدنة وأصبح موضع الوهابيين أن يؤدوا حجهم إلى مكة دون تفرقة. على أن الجميع كانوا يدركون أن ذلك الوضع وضع هش.

لكن الأمير أيضاً لم يك غير الأول بين لأشراف متعاونين. فكل عشيرة شريفية (لو هاشمية) كان لها جيشها المخلص المؤلف من إيراها ومن حلفاء بنو ومن مرتزقة يمنيين ومن صبيد سود. وكان الصراع على السلطة واقعاً دائماً (٨٨).

وكان الحجاز يعتمد اعتماداً شديداً على مصر على المستوى الاقتصادي وذلك بسبب إيرادات الأوقاف التي تمول صيانة الأماكن المقدسة وبسبب قافلة الحج الأفريقية وبورجده في تجارة البن. وينزعج الأمير غالب من خطر الوهابيين. وإذا يشعر بالمرارة تجاه غياب العون من جانب الباب العالي ضد هؤلاء الأخيرين، فإنه يرى أن الفرنسيين يميلون إلى تنصيبه كمرجع ديني متميز، بل ومنافس للسلطان - الخليفة الذي يهيمن على الباب العالي. وعندئذ فإنه يختار مراعاة جانب سادة مصر الجديد.

وكما سوف يفعل خليفته الأبعد، حسين، في عام ١٩١٤، فإنه يرفض إعلان الجهاد ضد خصوم الباب العالي. لكنه لا يستطيع منع للعشائر الشريفية الأخرى من الدعوة إلى الجهاد ضد الفرنسيين. والحال أن شخصاً يدمى محمد للفريسي الهيلاني الهلشمي هو الذي يعلن الجهاد في المسجد الحرام في مكة، المكان الأكثر قدسية بالنسبة للإسلام. وبعد البناء صدى مباشراً بين سكان الحجاز الذين يزيدون التبرعات بينما يتدفق المتطوعون على موانئ البحر الأحمر. وهم أكثر من خمسة آلاف، وهو رقم ضخم قياساً إلى سكان الإقليم (٨٩). والحال أن هذه الحركة، الشعبية بلا جدال، إنما تترجم بشكل واضح البعث الإسلامي في أواخر القرن الثامن عشر والفاعل بشكل خاص في الإقليم مع الدعوة الوهابية.

الرحلة على أنشوان

هؤلاء إذا هم الخصوم الجدد الذين يواجههم دينه عندما يستأنف رحلته إلى الأمام في ٢١ يناير ١٧٩٩. ويتنظره مراد بك في سمهود ومعه، على ما يبدو، نحو ألفين من المماليك ومئة آلاف من البدو والفلاحين، والمتطوعين الحجازيين، حيث لابد أن العدد الإجمالي يصل إلى أربعة عشر ألف رجل. وإذا كانت للربعات الفرنسية، كالعامة، تصنع

للمعجزات، فإن هذه هي المرة الأولى التي يجرى فيها طع فرسان دائو ضد الممالك. والحال أن هؤلاء الآخرين، وفقاً لتأكيدهم للعتاد، ينسحبون بسرعة، الأمر الذي يجرى إلى تلكه جيش مراد الضخم (٢٢ يناير ١٧٩٩) (٩٠).

ويزحف ديزيه بالقصى سرعة ممكنة صوب الجنوب سعياً إلى إبادة الممالك وحلفائهم إبادة نهائية حاسمة. ويهجم المتطوعون الحجازيون بجسارة على الفرنسيين، لكنهم، إذ يتمرسون في إحدى القرى، يجرى تمزيقهم إرباً على أيدي فرسان دائو. وينحيهم الفرنسيون جانباً، لأنهم لا يهتمون إلا بمراد بك الذي يواصل الاختفاء. وقد تخلى الآن عن خوض أية معركة وأصبح من الصعب الإمساك به. وعلى سهيل الاحتياط، يأمر بإعدام الحفيد الأخير للشيخ همام، ذلك الزعيم الهوى الذي جعل من نفسه، قبل هزيمته على يدى بك، سلطة مستقلة في مصر العليا. وهكذا فإن الفرنسيين لن يتسنى لهم الاعتماد على الدعم القوي من جانب هذه العائلة المعادية للممالك، وهم يكتفون بتأبين الضحية (٩١).

وفي ٢٤ يناير، يمر الجيش أمام دندره، وبالنسبة للفرنسيين، فإن آثار دندره التي تكاد تكون على حالتها الأصلية والتي لا يشتبهون في تاريخها السحيق، تبدو إلهاماً ووحياً. ويشهد شيفان ديدون على هذه الثورة الجمالية: «سرعان ما علمتني دندره أنه لا يجب البحث عن جمال العمارة إطلاقاً في مجرد الأنساق القورية والأيونية والكورنثية، وأن الجمال يوجد في كل مكان يوجد فيه إنسجام الأجزاء. وقد قادني الصباح إلى هذه الآثار وأخذني للسما منها شاعراً بالإثارة أكثر من شعوري بالإشباع. لقد رأيت مائة شيء وغاب عني ألف شيء؛ لقد دخلت لأول مرة إلى محفوظات العلوم والفنون [...] إن العلوم والفنون، التي يوحد بينها الذوق الحسن، قد زينت معبد إيزيس؛ وعلم الطلك والأخلاق والميتافيزيقا تجد هنا أشكالاً. وهذه الأشكال تزين الأسقف والأقاريز والأركان، بقدر من الذوق والجمال يذكر بتزيين أبراج سكاتنا الرشيق والصغيرة لصالوناتنا» (٩٢).

ويشير كل شيء إلى أن اكتشاف مصر القديمة، وإن كان يؤدي إلى تهديد احتكار اليونان الجمالي، لا يتم إلا ضمن وعبر غرام التنوير العلمي بالأسرار.

* وفي ٢٦ يناير، يحاذي الجيش آثار الكركك والأكصر. وهذه المرة، فإن الجيش هو الذي يلجأ حملته، أمام ملمح هذه الأطلال الهائلة، هذه الانقراض الضخمة والمدمرة والتي تحتل مكانة جد ضخمة في تاريخ العصر القديم، توت كل صفوف الفرقة الفرنسية

بالتصديق. فالصقوف تتشكل بشكل عفوى وتحمل وترفع الأسلحة تهيئة على نقاط الطبول والألحان للموسيقية،^(٩٢).

ولا يملك دهنون وقتاً إلا للقيام ببعض الرسوم ويستأنف الزحف معبرته، ويواصل مراد محادثة الوادى صوب الجنوب على الضفة اليسرى للنيل سعياً إلى تأمين الاتصال مع الألفى بك الذى لجأ مع جزء من المماليك إلى واحات الصحراء الليبية. وفى ٢٨ يناير، يترك ديزيه جزءاً من قواته فى إسنا تحت قيادة فريمان، وإذ يصبح أكثر قدرة على الحركة السريعة، فإنه يأمل أخيراً فى الإيقاع بالمماليك. وفى ٣٠ يناير، يصل إلى إدفو وفى ٢ فبراير يصل إلى أسوان حيث ينتقل إلى الضفة اليمنى. ويحصل بيليار على مهمة للتمركز فى هذا الموقع لمنع عودة للمماليك. وبقرغم من مقاومة قوية من جانب السكان، فإنه يحتل جزيرة فيله فى ٢٩ فبراير، بما يشكل فرصة جديدة للإمحاب بالآثار. ويتوالى الزحف هنا، لأن مراد ينسحب وراء الشلال الأول. والحال أن الفرنسيين، وإن كانوا من الناحية الاسمية سادة لمصر كلها، إنما يتعين عليهم تأمين اتصالاتهم، وذلك بقدر ما أن حسن بك الجبلوى قد بدأ من جديد بالفعل حركة هبوط صوب الشمال، بمحاذاة الضفة اليمنى. كما أن ديزيه، منذ ٥ فبراير، يرتد مع الفرنسيين إلى إسنا، بعد أن قسم قواته إلى وحدتين تهيطان فى كن واحد ضفتى النيل. وهو يصل إلى إسنا فى ٩ فبراير دون أن يدخل فى اشتباك مع للمماليك.

وبشكل رمزى، يقم الجنود الفرنسيون عند مخرج أسوان عموداً حربياً يحمل النقش القالى «طريق باريس»، ولم ١١٦٧٣٤٠،^(٩٣). وشأنهم فى ذلك شأن العثمانيين قبلهم بثلاث عشرة سنة، فإنهم قد وصلوا إلى حدود مصر والقنطرة، لكنهم، شأنهم فى ذلك شأنهم، لم ينجحوا فى القضاء على معاليك مراد بك؛ وكل ما هناك أن هؤلاء الآخرين قد تفارقوا، الأمر الذى لا يستبعد الخطر إلا بشكل مؤقت للغاية.

تخطيط الفتح والمحاولة الأخيرة للتفاوض

المقايضة

تؤدى عمليات ديزيه إلى تمرير بوناپارت من أى انزواج فيما يتعلق بمصر العليا. أما فى القاهرة نفسها، فإن شيئاً من التوتر يستمر مائلاً فى بداية شهر نوفمبر ١٧٩٨.



٣٣ - الشيخ الشرقي.













٢٩ - (١) دہزیہ فی لسیوط.



(ب) الدہوان العسکری.



والحال أن الهنرال بهستان، الذي خلف بهوى في قيادة المدينة، يتلقى عدة تقارير استخباراتية عن قوب نشوب انتفاضة شعبية (٩٥). ومجرد رغبة للشيخ السادات في ترك منزله القريب من الأزهر تكفى لإثارة الخواطر، ويتعين على الفرنسيين مطالبة بالتخلي عن عزمه (٩٦). ويجرى اتخاذ تدابير وقائية عسكرية ويتم تكثيف الدوريات في المدينة وضواحيها. أما للسكان، فيجرب إرهابهم دوماً بالقمع، وكما في مجمل فترة الاحتلال، تتكاثر اللوشايات. ولا يفلت الأقباط من هذه اللوشايات. إذ يجرى اتهامهم بإخفاء ممتلكات للملك على الرغم من تعاونهم مع الفرنسيين. لكن بوسيلج، أمين الشئون المالية للحملة، يتدخل دفاعاً عنهم: «إننى أجرب على تنكيركم بأن سمعت الأقباط عن استثمارات للمالك يظل نتيجة للإرهاب الذى نشره المالك؛ وبأن الأقباط، كما اتبع لى أن أكون شاهداً على ذلك عدة مرات [...]، يخافون من الأعمال الانتقامية الخاصة من جانب المؤتمنين على ممتلكات للمالك ومن أن يصبحوا ضحايا لهم إذا ما أعلنوا عن أسمائهم. وإذا كانوا هم أنفسهم قد حازوا أشياء لم يعلنوا عنها، فإن بالإمكان رد صمعتهم إلى جشعهم. ومن المؤكد بالنسبة لى أن الخوف وحده لو المصلحة هى التى يمكن لها دفعهم إلى ذلك وليس تعلقهم بالمالك الذى يحول دونه بما يكفى لاختلاف الأديان وذلك بشكل مستقل من الفائدة التى يمكنهم الحلم بجنيها من حكومة جديدة. وهناك حسد للأقباط؛ وقد كانوا عملاء للاستبداد؛ ولابد أن لهم كثيراً من الأعداء ومن ثم الرشاة بهم، وإذا لم يجر إرغام هؤلاء الآخرين على إثبات صدق وشاياتهم، فإن الأقباط سوف يلقون بشكل متتابع ثقتكم وسوف تخسرون عوناً يمكن أن يكون ضرورياً لكم على مدار فترة تالية» (٩٧).

والواقع أن الأقباط يتطلعون إلى تحرر تام من وضعيتهم الآنسى. وقد تدخل البطريك تسلاً مباشراً لدى القائد العام فى هذا الاتجاه، لكن هذا الأخير يرى أن عليه مراعاة للرأى العام المسلم وهو يعيل بالأحرى إلى وقف هذا التطور. وهكذا فإن حق ممارسة العبادة القبطية علناً لا يتم منحه البتة. وفى المقابل، فإن العلاقات العلنية للخضوع كمنع امتطاء الجياد أو حمل الأسلحة أو ارتداء ملابس كملايس المسلمين يجرى إلغاؤها. ويؤكد بوناپارت بشكل واضح على المقابل الذى ينتظره من الأقباط: «إذا كانت كل الأيام قد تميزت من جانبى بأعمال الخير، وإذا كنت قد ردت إلى الأمة القبطية كرامة وحقوقاً لا تنفصل عن الإنسان، فإن لى الحق، بلا ريب، فى أن أطالب الأفراد الذين يشكلونها بالكثير من الحماس والوفاء فى خدمة الجمهورية» (٩٨).

وبالرغم من توقف اجتماعات ديوان القاهرة، فإن بونابارت يستخدم العلماء للتأثير على الرأي العام. وفي ١٠ نوفمبر، يجرى بأمره إلصاق بيان موقع من جانب هؤلاء الآخرين في شوارع القاهرة يشيد برحمة بونابارت الذي، لحبه للمسلمين، منع جيشه من ذبح السكان ومن تدمير المدينة (٩٩). وفي الأسبوع التالي، يجرى التنكير على النحو نفسه بأن الفرنسيين هم أصدق أصدقاء المسلمين وديانتهم، وبأن الروس يريدون القضاء على الإسلام، وبأن إبراهيم ومراد هم أعداء الباب العالي، وبأن هذا الأخير قد قبل الوجود الفرنسي في مصر (١٠٠).

وهذا كله لا يحول دون مراصلة أعمال تحصين القاهرة وفق خطط كافاريللي. ويهدى الجبرتي إعجابه بأدوات العمال الفرنسيين وخاصة تلك الآلة العجيبة التي توفر جانباً كبيراً من جهد النقل، العربة ذات العجلتين (١٠١).

تظهر الفرنسيين

كما يتعين على القائد العام أيضاً أن يبرز سياسته أمام الفرنسيين، المتأثرين دائماً بذكرى انتفاضة القاهرة، والذين يطالبون بقمع أكثر نموذجية. وهو يستخدم صحيفة لوكوربيه فوليجيه لتقديم روايته للأحداث: إن الفرنسيين لا يمتلكون فكرة دقيقة عما حدث ولأن قليلين جداً منهم هم الذين يعرفون مجمل الحقائق التي يعتبر للنظر فيها ضرورياً لتأسيس حكم خال من الأخطاء، إن رجال دين مرعوسين، ملأ صدورهم الحسد تجاه المزايا الممنوحة لكبار المشايخ، هم الذين قابوا الحركة. وقد استخدموا عدداً جد كبير من أولئك الأفراد، للمعتاد وجودهم في المدن الكبرى، إما أملاً في النهب، أو رغبة في التغيير، أو إشتهاء لكل ما هو مثير، والذين يعتبرون مستعدين دائماً لتعزيز التجمهرات والمشاركة في التمردات (لا يمكن لذلك إلا أن ينشط الذكريات جد الحديثة بالنسبة لفرنسي ١٧٩٨). أما جميع الأعيان وجزء كبير من السكان فقد كانوا مخلصين للفرنسيين.

ووفقاً لهذه الاعتبارات ولعقد من الاعتبارات الأخرى التي تغيب عن الأفراد والتي وصلت إلى علم الشرطة، فمن الثابت أن جزءاً جد ملحوظ من سكان البلد قد قدم خدمات إلينا أو التزم الحياد، ومن ثم فمن غير العدل ومن الوحشية بشكل لا حد له إنزال عقاب

ليس جماعى نون الاجتهاد فى تمييز الجنة فرداً فرداً، فمثل هذه الأعمال الخاضعة قد تستولى على الحكومات الضعيفة والجهالة التى، خلال سيااسة السكينة، ترضى كل روابط الأمن ثم تضطر إلى التضحية بالجنس البشرى على مذبح خوفها ما إن يهددها أبسط خطراً ولا يمكن (لمثل هذه الأعمال الخاضعة) أن تكون لائقة بالفرنسيين المستعدين استعلاً طبيعياً للرحمة والمغفمين بالشجاعة. إن الفرنسيين يضربون أعداءهم بقوة، لكنهم لا يستسلمون لغضب لعمى. إنهم يتمسكون على مرأى من التاريخ وهم يعرفون بآية قسرة حكم (التاريخ) على الأعمال الوحشية التى الترفها الأسبان فى أمريكا والإنجليز فى الهند (١٠٢).

الطلبات بالعودة إلى فرنسا

لا يجهل بوناپارت أن العداء لسياسته الخاصة بالثوارب مع المسلمين ليس غير ترجمة لرفض أعم، عند العدد الأكبر من الفرنسيين، لوجودهم فى مصر. والعوامل الرئيسية لهذا الرفض هى خيبة الأمل التى فجرتها مجريات الفتاح، والمصاعب المادية الناشئة عن الأزمات المالية الدائمة والإحساس بالعزلة الذى خلقه الحصار الإنجليزى. وتتكاثر بين أوساط الضباط مطالبات بإجازات وبالعودة إلى أوروبا، وذلك بالرغم من مخاطر الرحلة. والحال أن الأطباء، الذين يصدرن شهادات تبرر هذه الطلبات، إنما يجرى توبيخهم علناً من خلال الأمر اليومى الصادر فى ١٩ فريمبر من العام للصباح (٩ ديسمبر ١٧٩٨). أما أولئك الذين يقدمون طلبات غير مبررة فيجرى التشهير بهم علناً وبالاسم أمام الجيش. على أن بعض المقربين من بوناپارت يطلبون الرحيل. ويتردد بيرتييه كثيراً، موزعاً بين حبه لمدام فيسكونتى وصحبته لبوناپارت. وهذا الأخير هو الذى يفوز فى نهاية الأمر. لما سوسى، الآن العام بالصرف، وهو صديق للقائد العام منذ ما قبل الثورة، فإنه يحصل على التصريح جد للمنتهى (١٠٣). ويحل محله دور الشاب (الأول من فريمبر من العام الصباح - الأول من نوفمبر ١٧٩٨). وحين ترسو السفينة فى صقلية نون علم بالحرب بين نابولى وفرنسا، فإن الركاب الذين يهبطون على البر (ومن بينهم سوسى) يجرى نبحهم على يدي السكان (٢٠ يناير ١٧٩٩).

أما تولوميو الذى لا يحتل تسلط بوناپارت والذى فصل مذكرة مكرسة لأطلال

الإسكندرية، تم تقديمها إلى المعهد (للمجمع العلمي) للمصري تحت عنوان «الزمن يهمر الأشياء»، وهي مبادرة اعتبرها الجميع استغراباً ضد بوناپارت، فإنه يحصل على إجازته بمجرد طلبه لها (١٠٤). وإذا برحل رحيلاً سافراً بعد وقت طويل من رحيل سوسى، فإن سفينته يجرى اعتراضها من الأخرى على سواحل إيطاليا الجنوبية. وعند إلقاء القبض عليه، تساء معاملته إسامة بالغة وذلك بسبب الدور الذى كان الفارس القديم من لوسان ملطه قد لعبه فى استسلام أخوية الفرسان. وعند الإفراج عنه، يموت بعد ذلك بوقت قصير، لأن الأسر كان قد قوض صحته. أما الهذلول بهما، والد (الكاتب) الكسندر، والذى جمع بشكل غير متماسك بين نزعة جمهورية معارضة لبوناپارت والبحث عن الكنوز المملوكية، فهو يحصل هو الآخر على الإجازة التى يطلبها (١٠٥).

اللهو والتسلية

يفعل بوناپارت كل شيء من أجل تقليل سأم الفرنسيين. وهو يشجع المشاريع التى يمكنها إلهاء الجيش. وتحبى فرق الموسيقى العسكرية حفلات موسيقية فى جميع الأيام بعد الظهر، قرب المستشفيات العسكرية، سعياً إلى بث البهجة فى صدور المرضى. ويجرى تشجيع الفرق للمسرحية المؤلفة من الهواة. وهى، فى التو والحال، سوف تسلى الجنود، و، فى المستقبل، سوف تكون وسيلة فعالة لتمدين المصريين (١٠٦). ويتم تزويد القوات بإمدادات غذائية كافية لأن تهديد قدر الإمكان شعورها بالاعتزال (١٠٧). ويجرى التصريح بإنشاء مقام على الطراز الأندلسى. وفى ٢٠ نوفمبر يتم لفتتاح منشأة للاستمتاع بوقت الفراغ على غرار تيفولى فى باريس حيث توجد حديقة فرنسية الطراز وقاعات للعب ولحفلات الاستقبال، وقاعة للمطالعة.. إلخ. وفى تلك المناسبة، يلاحظ بوناپارت هولين فوريه، وهى زوجة ملازم فى قوة القناصة (١٠٨).

وكمصدر آخر للإلهام، تعاود للماسونية الظهور على شكل محال غير منظمة. والواقع أن الثورة كانت قد قضت على ماسونية النظم القديم ويتواجد كثيرون من الماسون المقسماء فى صفوف كوابل الجيش، ويصبح بوسعهم الاستطاعة من الانفراج السياسى لإحادة إنشاء محال مستلهمين الأعراف القديمة. ولدى عولتهم من مصر سوف ينظمون وضعهم بمطالبة المراجع الأعلى بمنحهم بصائر منظمة، وهو ما سوف يحصلون عليه. وفى ظل الإمبراطورية، فإن إنشاء أصل مصرى سوف يعود على هذه المحال، وقد أصبحت

أبوات للسلطة الإمبراطورية، بهيبة سرية مؤكدة وبشهادة ولاء لشخص ناهوليون في أن واحد. كما سوف يجرى الإكثار في هذه الأوساط من دعاوى الارتباط بجيش الشرق والمسيحة إليه نصيباً، وهو جيش مؤلف على الأرجح من ماسون سابقين ولاحقين بأكثر مما هو مؤلف من ماسون حاليين. وسوف يجرى التأكيد، دون أن ينفي الإمبراطور ذلك، على أن الجنرال بوناپارت قد استلزام هو نفسه من إقامته في مصر لكي يكون ماسونياً (١٠٩).

التدابير الصحية

كما يهتم القائد العام بالحالة الصحية للجيش، وهو يهدي في مصر اهتماماً بالخدمات الصحية سوف يلقده عندما يصبح إمبراطوراً. والحق أن الفرنسيين في مصر يتعين عليهم مواجهة أمراض غير معروفة في أوروبا، ومرض الرمد - النشوى عن ارتداد الضوء والذي يسبب عمى مؤقتاً أو دائماً - إنما يصيب عدداً كبيراً من الجنود. والطامعون خطو مثل باستمرار، ويجرى تكثيف تدابير الوقاية، وذلك على الرغم من عدم الدراية دائماً بأسباب هذا الداء (١١٠). والإجراء الوحيد الفعال، وهو الحجر الصحي، يتخذ طلباً منهجياً مع إنشاء محاجر صحية في اللواتي والمدن الكبرى. ويجرى تكليف لجان قضائية بإصدار الأحكام بشأن المخالفات للقواعد الصحية. وقد تكون علوية الإعدام ضرورية ضد أولئك الذين لا يراعون الحجر الصحي، وعزل المرضى وإعلاء الغرضهم. وهكذا سوف يتم التوصل إلى منع انتشار الوباء في البلاد، وليس إلى منع انتشاره داخل مدينة كبرى عندما يدخلها. ويجرى إنشاء ثلاثة مستشفيات عسكرية، حيث تقام واحدة في قلعة القاهرة، وتقام الأخرى في مدخل البحر الأبيض المتوسط قرب النيل. ويسهر القائد العام بشكل خاص على ضرورة حصول المرضى على رعاية جيدة ويتم إنزال علقب صارم بالموظفين للمهملين أو المخطئين. (١١١)

المخطط [البجيج العلمي]

يشكل المعهد المصري مركزاً للتقارير حول مختلف الأمراض في البلاد وينشر التعليمات من أجل منع هذه العلل وعلاجها. وهذا جزء من نشاطاته، التي لم تكد تتوقف من جراء تمرد القاهرة، الذي كان قد تسبب مع ذلك في مقتلان عديد من الآلات العلمية (١١٢). ويجرى تكثيف رحلات التحقيق عن الآثار في أثر الجنود الذين يقومون بالفتح. كما تجرى دراسة الزراعة والحرف المصرية بهدف تسجيلها ونظمها في أن واحد،

بالاهتمام باستغلال أكثر عقلانية ماثل باستمرار. وهكذا يقترح المعهد إنشاء حديقة للنباتات مكرمة للمحاصيل الكولونيلية (القطن، البن، الذيلة، قصب السكر.. إلخ)، تحت إشراف مستوطنين سابقين في سانتو دومينجو وسوف تكون بمثابة مدرسة زراعية بالنسبة للمصريين (١١٣).

إلا أنه لا يجرى الاهتمام إلا بالأشياء. وكان يجهنم قد ارتأى تنظيم خدمة طبية بالنسبة للمصريين. وسعى إلى احتواء تحفظاتهم تجاه المنشآت الأوروبية، فإن يرى هو وزملاؤه التحرك عبر المؤسسات الخيرية الإسلامية. وقد أدت هذه الأخيرة، والتي أعاد الفرنسيون تنظيمها، إلى تعويد السكان على الطب الجديد. وهو يؤكد بشكل خاص على ضرورة إنشاء مدرسة للحكيمات ونشر التطعيم. كما أن الملازم سوف تصبح مراكز لتعليم ونشر اللغة الفرنسية. وتبقى لهذا التعليم أنواع من المدارس الأولية (١١٤). على أن غياب الإمكانيات المالية يحول دون تحقيق هذا المشروع الذي لن يتجسد إلا بعد ثلاثين سنة، في عهد محمد علي.

والمعهد هو أداة الحضارة بامتياز. ومكتبته ومعامله مفتوحة للمصريين الذين يجرى استقبالهم بأقصى حد من الحفاوة. وقد زاره الجبرتي عدة مرات. وتفتتت المكتبة التي تسمح بالوقوف على جميع العلوم. ويحوز الفرنسيون حشوداً تمثل عديداً من الموضوعات، من النسي والخلفاء الراشدين وأماكن الإسلام المقدسة إلى الأدوات التقنية وإلى اللوحات النباتية والتشريحية. وهم يجرعون تجارب علمية أمام زائريهم، دون أن يتربصوا في التأثير عليهم بتلاعبات على الكهرباء (١١٥). إلا أنه إذا كان العلماء يعتبرون ذلك كله، محققين، غير عادي، فإن بالنسبة لهم ليس غير نتاج العقل الذي يعتبر، في ترتيب المعرفة، أدنى منزلة من الروح. وهكذا فإن الشيخ للهدى، عند حضوره مناقشة في المعهد حول اسمك للنيل، يطلب الكلمة لكي يقول: إن النسي قد أعلن أن هناك ٣٠٠٠٠ نوع من المخلوقات، ١٠٠٠٠ على الأرض وفي السموات و ٢٠٠٠٠ في الماء. ومن ثم فإنه لا يجب التهويل من شأن وقع العلوم الأوروبية، في عصر كانت الثقافة الإسلامية التقليدية ما تزال مهيمنة فيه سيطرة تامة (١١٦).

ولا يهمل المعهد الثقافة العربية. ويعرض مارسيل لامل زملائه في خطوط هريضة أشكال الأنبياء العرب، ترجمة للنسوة الاستهلالية للقوانين (الفتاوى)، مقتطف من كتابات الجغرافيين العرب من مصر، لوحة عن الحكايات العربية. وبالنسبة للشعر، يعرض قصيدة لنفولا الترك حول فتح مصر مهتلة إلى بونهارت،

الشهم بوناهارته	ليث للوغى والاقتدار
من فاق قدراً وأرتقى	لوج العلا وسما للفخار
تدب توحد بالورى	بشهادة ذلت إعتبار
نهر المعالك حمة	ونحز البلاد مع الديار

وهذا المثال يسمح لمارسيل بأن يفسر لزملائه عناصر الكتابة الشعرية العربية (١١٨). ويبتهج بوناهارت بهذا النص الذى يفكر فى إحدى اللحظات فى نشره مستقلاً ليتم توزيعه فى الشرق كله (١١٩).

والحال أن مارسيل، المستشرق الشاب والمثقف، وصديق نقولا الترك والمهدى، هو أيضاً مدير للطبعة الوطنية التى تنشر صحيفتى العملة والبهانات الرسمية والأوامر اليومية واللقوائم التنظيمية والتنبيهات الطبية. وهو يقوم بتشغيل أول مطابع بالعربية وبالفرنسية تقام فى القاهرة، ويدرب فى هذه المهنة متدربين مصريين من الشبان. وهكذا فإن الطباعة هى من عمل الفرنسيين فى مصر فى حين أنها من عمل الحكومة العثمانية فى اسطنبول ومن عمل الرهبان المسيحيين فى جبل لبنان. وعونة الطباعة إلى الظهور فى مصر فى عهد محمد على سوف تكون نتاج كل هذه المؤثرات (١٢٠).

المنظاد

كما يشهد العلم استخدمات سياسية له. ويورد بوناهارت التأثير على المصريين بإطلاق منظاد فى ساحة الأزبكية (٢٠ نوفمبر ١٧٩٨)، ويعطو المنظاد لبضع دقائق، إلا أنه بسبب خلل فنى، يسقط على الأرض. وبالنسبة للجبروتى فإن هذه المعجزة التى يجرى القيام بها على الملأ ليست أكثر من «الطيارة التى يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح» (١٢١) ويجرى استئناف التجربة فى ١٦ يناير ١٧٩٩، حيث يقطع المنظاد شوطاً أبعد لكنه يسقط على الأرض فى مدى بصر للتفرجين، وهو ما يلهم للجبروتى هذا التعليق الجديد: «لو ساعدها الريح وغابت عن الأعين لتمت الحيلة وقالوا أنها سافرت إلى البلاد البعيدة بزعمهم» (١٢٢).

ويضطر الفرنسيون إلى الاعتراف بالفشل التام لهذه المحاولات، ولقد صدقنا من

الانعدام المطلق للفضول من جانب بعض الأكراد ولعننا الوحيدين الذين رصدنا ذلك؛ وقد رأينا منهم من يجتازون ساحة الأزيكية دون أن يتكروما بتوجيه أنصارهم إلى الموقع الذي شد أنظار الجميع». (١٢٢)

الأحوال المالية

كما رأينا فإن الصور الإمكانيات للمالية هو الذى يحد بشكل ملحوظ من مشاريع الفرنسيين التمهيدية. وكان بوناپارت قد نظم إنارته للشئون المالية على هيئة إنارتين تتبعانه بشكل وثيق. فمن جهة، فيما يتعلق بالنفقات، نجد خزينة الجيش التى يرأسها الآن العام بالصرف سوسى والذى خلفه نور. وهو يأتى بصرف النفقات لأمين الصندوق العام استيف، الذى يلود هيراركية صرافى الفرق، ويتعين على القائد العام باستمرار أن يحظر على الجنرالات تجاوز الاعتمادات للخصصة لهم من أجل قيامتهم الإلليمية أو تعديل بنود صرفها. وهذا واحد من بواعث الخلاف الأول بين بوناپارت وكليبر. ومن جهة أخرى، فإن الإنارات تتبع الإنارة العامة للشئون المالية، وهى الإنارة المندية للرئيسية للحملة، والتى عهد بها إلى بوسيلج. وإنارته مختلطة فهى تضم الأمناء الأقباط والموظفين الفرنسيين إلى جانب موظفى الشئون المالية العلمانيين (١٢٣).

والوضع معقد بقدر ما أن الفرنسيين بحاجة إلى عدة أشهر لهم ليات النظام الضريبي لمصر العثمانية. والحلجز القوى والثقافى والتخصص الضيق للموظفين المحليين الذين يفتقرون إلى النظرة الكلية يجعلان المهمة صعبة، وذلك بالرغم من المساهمة التى لا تقدر بثمن والتى يقدمها عدد من الأقباط كالمعلم يعقوب، وخاصة للعلوم التى يقدمها القندية عثمانيون كحسين القندى (١٢٤).

ومن ثم فإن الفرنسيين لا يسعون إلى تعديل مبادئ إنارة لا يحسنون فهمها. وهم يكتفون بإضافة إنارة التسجيل التى تنطوى علوة على ذلك على ضريبة عقارية وضريبة مهنة على التجار والصرفيين، والقروض الإجبارية. وبما أن ثلثى الالتزامات قد أصبحا ملكيات عامة، فإنهم يعرضونها لى مزلنات. ويمنى هذا العرض بإخفاق تام يهدد مجمل نظام الالتزام. ومن ثم يتعين اتخاذ إجراء تحفظى، وتمشياً مع منطق السياسة الفرنسية للفرنسيين والتى تملبها الظروف، يقدر بوناپارت بموجب أمره اليومى الصادر لى ١٢

بلوفيوذ من العام السابع (الأول من فبراير ١٧٩٩)، جعل جميع مهايخ القرى غير الممنوحة كالتزامات ملتزمين لقراهم. وعلى الرغم من أن ذلك يعتبر بالأحرى نقلاً بأكثر مما يعتبر تحولاً، فإن الدولة تصبح من جديد مخاطب الفئة الأعلى بين فئات المجتمع الريفي ويتم وقف التطور نحو تأسيس طبقة من كبار ملاك الأرض فعلياً وإن لم يك بحكم قانون. وسعيًا إلى حماية الفلاحين، لا يمكن للملتزمين الجدد أن يطلبوا من دافعي الضرائب إليهم أكثر مما كان مطلوباً في العام السابق. وهذا التدقيق لحسابات الالتزام يترافق مع انتهاء تفويض ضريبي، وهو إجراء مؤات للفلاحين لأن الملتزمين السابقين كانوا قد اعتادوا أن يقدموا بشكل متزايد موعد سداد الضرائب إلى درجة أن السنة الضريبية تقدمت ستة عن السنة الفعلية (١٢٦). ومن الواضح أن الفلاحين يواصلون مقاومتهم السلبية التقليدية لجهالة الضرائب، التي لا تتم في أغلب الأحوال إلا بفضل الوجود الفعال لوحدة فرنسية.

وهكذا فإن الفرنسيين، دون خطة حقيقية موضوعة سلفاً، وبسبب الضرورات الأكثر إلحاحاً، قد بدءوا في تعديل هيكل مصر الريفي بشكل ملحوظ. لكن الأزمة المالية تستمر في المدى للبلش، جارةً إلى تاخرات طويلة بشكل متزايد في دفع للمرتبات والمستحقات. على أن انتهاء هبوط للتيل يسمح بالعودة إلى ظروف حركة طبيعية في اللقا ومن ثم يسمح بجهالة لسهل للضرائب؛ ويجري تنفيذ إحصاء للممتلكات العامة بدشاط (١٢٧). ويتم تأسيس شركة مصر، للكلفة بجميع للمضاربات التجارية، والجيش مساهم فيها لكن التجار المسلمين والمسيحيين مساهمون فيها هم أيضاً. وهؤلاء الآخرون يرون فيها بشكل خاص شكلاً جديداً لانتزاع ضرائب منهم (١٢٨).

والواقع أن حصار مصر كان قد لوقف تجارة الترانزيت أو التصدير للربحة. والخاسرون الكبار هم كبار التجار المسيحيين والمسلمين. وفي المقابل، يبدو أن أسعار المواد الغذائية تنخفض في تلك الفترة وأن النشاط الاقتصادي الذي ولده وجود الجيش إنما يهد الطبقات الشعبية من باعة للتجزئة والعمالين والصرفيين والحمارين والقولدين والمومسات... إلخ، والمتصلين بالجنود على نحو دائم (١٢٩). وهؤلاء الآخرون يعتادون دفع ما عليهم وهم، بوجه خاص، لا يقيمون علاقات «حماية» مع التجارة للدينية الصغيرة، خلافاً لنظرائهم للعلمانيين. وحتى إذا كان عوام المدن قد قدموا الجمهور المحرك لانتفاضة القاهرة، فإنهم الفائزون على المستوى الاقتصادي. ومن جهة أخرى فإنهم يستفيدون من

الوضع، بما يثير عظيم ضغط علماء متزمتين مثل الجبرتي، لإحياء عهد من الاحتلالات الصولية الخارجة على السنة إلى هذا الحد أو ذلك (١٢٠).

استعادة الديوان

في أواخر ديسمبر، يشعر بونابارت أن الوضع في القاهرة ملائم لاستعادة الديوان. ويهاته إلى سكان المدينة يشير إلى الصورة شبه الخلاصية التي يتصورها من رسالته الشرقية وذلك قبيل الحملة على سوريا.

«العاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله وإرادته وقضائه، ومن يشك في ذلك فهو لحق وأعمى البصيرة. وأعلموا أيضاً أمتكم أن الله قدر في الأزل هلاك أعداء الإسلام وتكمير الصليبان على يدي، وقدر في الأزل بعد ذلك أن أجيء من المغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها وأجرا الأمر الذي أمرت به ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه. وأعلموا أيضاً أمتكم أن القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل وأشار في آيات أخر إلى أمور تقع في المستقبل [...].»

«وأعلموا أيضاً أنني أقدر على إظهار ما في نفس كل واحد منكم لأنني أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه وإن كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذي عنده ولكن يأتي والي يظهر لكم بالمعاني أني كلما فعلته وحكمت به فهو حكم إلهي لا يرد وأن اجتهد الإنسان بخاية جهده ما يمنعني من قضا الله الذي قدره وأجره على يدي، فطوبى للذين يصارعون في اتحائهم وسمتهم معي مع صفا النية وخلص السريرة» (١٢١).

ويوضح الجبرتي أن القائد العام بحسب نفسه المهدي أو النبي نفسه في حين أن مسلكه يثبت العكس (١٢٢).

وسوف يتلف الديوان العمومي الجديد من ستين شخصاً، من علماء وموظفين منبهتين من الميليشيات ومن تجار القاهرة ومن الأقباط (١٢٣). وسوف ينتخب أعضاؤه ديواناً مصغراً ويأتمن من أربعة عشر عضواً حيث يشكل العلماء الأغلبية ويستأنف دور المهلّغ والوسيط لدى السلطات الفرنسية ودور مندوب رعاية هذه السلطات نفسها لدى المصريين.

تلخيم القضاء

في الفترة نفسها، يضطر بوناپارت إلى إضفاء تنظيم انتقالي على القضاء. وكانت أحكام الإعدام قاصرة على قضاة المالك المباشر وليس على قرارات القضاة. والحال أن ميتو كان قد أحضر أمام مجلس عسكري خائفاً يهونياً كان قد قتل سيده، وهو أخ له في الدين. وعلى الرغم من أن المجلس العسكري قد أعلن أنه غير مختص بالنظر في القضية، فإن ميتو قد أمر بإعدام المتهم رمياً بالرصاص (١٢٥). وسعيها إلى تجنب عودة حالة معاملة، فإن بوناپارت، في أمره اليومي الصادر في ٢٠ نيفوز (١٢ يناير ١٧٩٩)، يقرر أن جرائم سكان مصر إنما يرجع اختصاص النظر فيها بشكل طبيعي إلى المحاكم الإسلامية. إلا أنه إذا كانت هذه الجرائم تهدد الأمن العام لو إذا ما قرر قائد الإقليم تحويل القضية إلى محكمة فرنسية، فسوف تتشكل عندئذ لجنة قضائية مؤلفة من أكبر ثلاثة ضباط في الإقليم ومفوض حربي ورئيس الديوان والمنسوب الفرنسي. ولن يكون بالإمكان تنفيذ أحكام الإعدام إلا بعد تصديق القائد العام عليها. والواقع أن الدواوين الإقليمية وديوان القاهرة سوف يكون لها دور نشيط في العمل القضائي. وهكذا فإن للفرنسيين سوف يضطرون إلى مراقبة عمل المحاكم وسوف يكتشفون أهمية حكم النية الذي يحول اللعد الأكبر من أحكام الإعدام بسبب جرائم القتل إلى تعويض مالي يدفع لأسرة الضحية، وتهدف هذه القاعدة إلى الحد من أعمال النار الطويلة والدموية بين مختلف العشائر الفلاحية. ويأمل الفرنسيون في القضاء يوماً ما على هذا التعويض الذي يلغونه على أنه زلل بري.

انضباط الجيش

كما يسهر بوناپارت على صون الانضباط في الجيش. وهو يسعى إلى تجنب كل ما من شأنه أن يهدو في نظر السكان المصريين على أنه استفزازات من جانب الجنود الفرنسيين. فكفالة حماية للسكان تهدو بالنسبة له وسيلة دعائية رائعة. وهكذا، فإن لا يتردد في الحكم بالإعدام على ثلاثة جنود متهمين بقتل مصرية خلال محاولة سرقة. وكان الديوان قد عرض القضية على بوناپارت (١٣٦). والأرجح أن المحكوم عليهم كانوا أبرياء ويعرف الجنرال ذلك، وفقاً لما القضى به ليدجينييت: «إن أي قائد عام يجب أن يتمتع بسلطة هائلة. فكيف يمكن بحق الشيطان معالجة رجل تعهد إليه الدولة أحياناً بأرواح مائة ألف

رجل ويحق معاقبة الجرائم باللغة الجسلة بما يتراعى له... فعاندا بعد ذلك؟ لقد اتعنت هؤلاء للمتعبين قبل الحكم عليهم. وعندما جذبت أنطوان من ياقة قميصه وقلت له: «تعال، أيها الشقي، حتى أواجهك بشريكك»، كان غير مصدق؛ ومع ذلك لميألهم من رجال، يلاهم من أناس يتعين عليهم وحدهم كسب معركة [...] كما أن الأتراك كانوا بحاجة إلى أن أقسم عبدة [...] إلا تعرف كيف مات هؤلاء للدفعيون؟ لقد ماتوا كقهاصرة، بل وهم يبدون حبهم لي، وقد ذهب أحد زملائهم لشرب النبيذ معهم في السجن. وهناك قال لهم: «هناك على أية حال شيء ما حقيقى فى كل ذلك، وإلا ما كان بوناپارت قد حكم عليكم فى نهاية الأمر، فأجابوه: «اسكت، إنك لا تفهم ما تقول، لقد جانبك الحساب هذه المرة أيضاً كما فى مرات أخرى كثيرة، والأمير سيان، لنشرب نخباً فى صحته». (١٣٧)

وفى غرب الدلتا، يظل الاضطراب متوطناً بفضل عمل عهد لك باشى الذى ينجح فى إيجاد اتصال بين بدو أولاد على والإنجليز والمماليك (١٣٨). ويحدد الفرنسيون دمنهور بوصفها المركز الرئيسى للمقاومة (١٣٩). وتعرض للهجوم سفينة نهرية تقطع للسافة بين رشيد والقاهرة. وينجح الفرنسيون فى الإغلات ويستقبلهم شيخ بلد قرية الجداى الذى يدافع عنهم بالسلاح (١٤٠). ويقرر مينو العقاب بقسوة ويأمر بإلقاء القبض على المتصلين بالإنجليز وبالمماليك وإعدامهم رمياً بالرصاص (١٤١). وهكذا فإن مشايخ قرية إيكو، قرب أبو قير، يجرى إعدامهم رمياً بالرصاص علناً فى رشيد فى ٢٢ برومير (١٢ نوفمبر ١٧٩٨) (١٤٢).

ولمقط بعد ارتياح مينو إلى هذا القمع، يقرر إرسال مورا وطابوره للتحرك إلى دمنهور التى يتم احتلالها فى ٢٧ نوفمبر. ويجرى إعدام الزعماء المشتبه فيهم رمياً بالرصاص وفرض خرائب باهظة على المدينة (١٤٢). وبعد ذلك مباشرة، يتحرك مورا لمطاردة البدو (١٤٤). ويجرى إحراق عدة مخيمات عربية، لكن الشخصيات الأكثر أهمية تنجح فى الإغلات. ولا يجد لوتيرك أعياناً يمكن أن يصبحوا مسئولين عن دمنهور غير لشخاص بلا مرجعية حقيقية (١٤٥). وبعد تهديد البلد بهذه الطريقة، يستدعى بوناپارت مورا إلى القاهرة ويخلف الوجود العسكرى فى المنطقة.

وفى الإسكندرية، كان ماتسكور قد أثبت أنه لا يمتلك الفضال المطلوبة لتولى قيادة مواقع على هذه الدرجة من الأهمية. فهو يبدو عاجزاً عن إنزال العقاب الصارم فى الوقت المناسب فى مسألة اختلاس فى الإبرة. وكان مينو ومارمون قد أهلكا القائد العام بانعدام كلمة قائد الإسكندرية. وكان هذا الأخير قد لاقم قضيته بإرساله رسولا إلى الأسطول

الإنجليزى دون أن يحصل على تصريح بذلك (١٤٦). ومن ثم يقرر بونابارت تعيين رفيقه مارمون لتولى هذه القيادة. ومينو هو الذى يبلغ مارمون بترقيته (١٤٧). ويتوصل مانسكود إلى الحصول على موافقة بإعاقته إلى فرنسا شأنه فى ذلك شأن دولومير.

بعثة بوشان

إذ يبدأ بونابارت فى الانزعاج من الوضع الأوروبى، إثر أخبار قليلة الوضوح تصل إلى مصر، فإنه يقرر إرسال رسول إلى الأسطول الإنجليزى، وهو يختار ملازم جنود الطليعة جيبير الذى يكلف بأن يعرض بشكل حذر إمكانية عقد صلح بين فرنسا وإنجلترا. ويتم اللقاء فى ٢٢ نوفمبر. ولا يحصل جيبير إلا على القليل من المعلومات الجديدة لكنه يقدم عروضاً يدعو أن محاوريه يستقبلونها استقبالا إيجابيا (١٤٨).

ولا يجد بونابارت فى هذه المعلومات تشجيعاً، فإنه يقرر عندئذ إيفاد القنصل ومالم الفلك بوشان إلى القسطنطينية. وكان هذا الأخير قد وصل فى الوقت المناسب إلى مصر بعد رحلة سياحية فى الإمبراطورية العثمانية لكى يتولى قيادة مواقع أرساد فلكية. وهو يرحل على متن سفينة «الريال» العثمانية الشهيرة التى تنتظر منذ شهور التصريح لها بمغادرة الإسكندرية ولتى تحصل منذ البداية بحركات المقاومة. ويتعين على بوشان التأكيد على الصداقة التقليدية بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية. والواقع أنه يتعين عليه إجراء تفاوض حيث يجد الفرنسيون أنفسهم فى مركز القوة: «إذا طرح عليك فى أى وقت السؤال: هل سيوافق الفرنسيون على الرحيل عن مصر؟ فعليك الرد بأنه ليس هناك ما يحول دون ذلك، شريطة أن يتمكن الإمبراطوران من إنهاء تمرد باسغان - أوغلو وأن يتخلوا عن مشروع تقسيم تركيا الأوروبية؛ وأنتا، من جهتنا، سوف نفعل كل ما من شأنه أن يكون مؤاتياً للإمبراطورية العثمانية ويحميها من أعدائها؛ لكن المدخل الأول إلى أى تفاوض، كما إلى أية مصالحة، هو صدور فرمان يأمر بالإفراج عن الفرنسيين فى أى مكان تم فيه إلقاء القبض عليهم، خاصة فى سوريا.

«ويجب عليك قول وفعل كل ما من شأنه أن يكون مناسباً للوصول إلى هذا الإفراج؛ ويجب عليك أن تعلن أنك لن تهيب بأذى لن أفزو سوريا، ما لم يجر الإفراج عن جميع الفرنسيين الذين تم إلقاء القبض عليهم، و، فى حالة ميلهم إلى احتجازك، سوف يكون بوسعى الاتجاه إلى غزة». (١٤٩)

والواقع أن السفينة تجد نفسها عاجزة عن الخروج إلى عرض البحر ولا ترحل إلا فى

١٢ فبراير ١٨٠٠، في لحظة كانت فيها الحملة على سوريا قد بدأت بالفعل. ويتم اعتراض سبيلها قبالة رودس من جانب الإنجليز الذين يقبضون على للمبعوث الفرنسي. وهذه العروض تثير غضبهم، فهم يخشون من أن يأخذ العثمانيون العروض الفرنسية ملأخذ الجهد. وهم يوضحون للعثمانيين أن بوشان ليس غير جاسوس فرنسي وأن رحلته السياحية في الشرق في السنوات الماضية إنما كانت تهدف إلى التحضير لحملة بوناپارت. وهم مستعدون للحكم عليه بالإعدام بتهمة التجسس ويطالبون بعقوبت خد للقبطان العثماني الذي وافق على أخذه على متن سفينة (١٥٠). وفي نهاية الأمر يتمكن العثمانيون من تهنة الإنجليز. وفي ٣ مارس ١٧٩٩، يتم تسليم للفنصل الملكي، وربما الجاسوس، في رودس، إليهم. ويجري التحقيق معه من جانب الويس الهندي في القسطنطينية ثم إرساله للحاق بالديبلوماسيين الفرنسيين الآخرين المحتجزين في قصر الأبراج العسبة. (١٥١)

كما يرسل بوناپارت إلى فرنسا فورية حاملاً رسائل أصبح إرسالها ملحقاً بقدر ما أن القائد العام يريد الانفراد بزوجة للملازم الفرنسي. ويرحل الرسول في ٢٨ ديسمبر من ميناء الإسكندرية وفي اليوم التالي يجد نفسه أسيراً لدى الإنجليز. وبعد نقله في البداية إلى نابولي، تجرى إعادته إلى الإسكندرية حيث يتم الإفراج عنه بناء على وعد بالأعواد للمحاولة، الأمر الذي أثار عظيم ارتباك البعض في مصر. إلا أنه لا يبدو أن الإنجليز كانت لديهم نية خبيثة، نظراً إلى بطء انتشار المعلومات في تلك العصر. والواقع أن القائد العام كان قد تمكن، في غيابه، من أن يجعل مدام فورية عشيقه له، نون مقاومة كبيرة، على ما يبدو، من جانب للمعنية. وبفضل سلطاته كقاض، يأمر بوناپارت عندئذ بطلاق الزوجين. وعندئذ فإن الجنود الذين يملكون سراية بالتاريخ يلقبون السيدة بـ «كليوباترا».

طاعون الإسكندرية

تنزل كارثة حقيقية بالفرنسيين اعتباراً من ١٥ ديسمبر ١٧٩٨، إن الطاعون يعاود الظهور في الإسكندرية. وإذا يأخذ مارمون علماً بجسامة الموقف، فإنه يأمر بفرض حجر صارم (١٥٢). كما يسمى إلى تعزيز هيئة السلطات للسلمة، وذلك، على الأرجح، لكي يتمكن على نحو أفضل من الإمساك بزماء للمدينة في هذا الوضع الصعب (١٥٣) وفي ١١ يناير، كان الفرنسيون قد لقوا بالفعل خمسة وتسعين رجلاً، بالرغم من الاحتياطات

للتخلفة، وكانت نسبة الوفيات عالية بشكل خاص بين الفريق الطبي، ومما يدعو إلى الاستغراب، أنه لا تحدث وفيات بعد بين المسلمين^(١٥٦). وتؤدي حالة المواصلات التي أصبحت صعبة بسبب الوباء إلى مفارقة الوضع الغذائي للمدينة وتجهيز مارمون على طلب العون من ميناء «بحق الرب، عزيزي الهندل، لا تتدخل هنا وارسل المال إلينا. إن الجميع يصرخون من البؤس... ارسل إلينا قمحا، فنحن لا نملك منه إلا ما يكفي لثمان وأربعين سلعة. إن سحق القوات لا حد له، ولن يكون من الغريب أن تتور. ولذا يجب أن ترسلوا إلينا عوناً، إنهم يموتون من الجوع^(١٥٥)».

إلا أنه ينبغي مواصلة منع الاتصالات بين عملاء للمالك والاسطول الإنجليزي. ويتم إلقاء القبض على مشهور مغربي في ٢ يناير قرب أبو قير. وبعد ذلك بثلاثة أيام يجري إعدامه رمياً بالرصاص. ويتم رصد جماعة من الممالك مع عبد الله باشي بصيبتها إلى الاقتراب من اسطول العدو، إلا أنه لا يتم النجاح في اعتراض سبيلها^(١٥٧). وسعياً إلى وقف الاتصالات بين الإنجليز والمقاومين، ينظم الفرنسيون عندئذ أسطولاً صغيراً من الزوارق الخفيفة بين الإسكندرية ورشيد وذلك بالرغم من الدوريات البحرية البريطانية. ويتم على الفور نصف أي تجمع مريب على الساحل^(١٥٨).

وفي شرق الدلتا، يستكمل بوناپارت فتح مصر باحتلال السويس. ويستولي الجنرال بون على المدينة دون مقاومة ملحوظة (٧ ديسمبر ١٧٩٨). وينهك الفرنسيون على الفور في إهانة فتح للميناء أمام تجارة البحر الأحمر، أي أمام البين الذي ينقل عبر جده. كما يحلمون بالتمكن من الدخول في اتصال مع الجزر الفرنسية في المحيط الهندي.

نوايا الخيالات

على ساحل البحر المتوسط، يواصل رينيه النضال ضد العدو ويواصل بشكل خاص مراقبة ما يمكن أن يجرى من سوريا. وأحال أن تقارير الجواسيس، على الرغم من تناقضها في أغلب الأحوال، تزيد المؤشرات على نوايا إبراهيم بك وأحمد باشا الجزائر الهجومية. وينجح رسل مالك عديون في اجتياز الخطوط الفرنسية والانضمام إلى مراد بك في مصر العليا^(١٥٩). على أن إحدى هذه الرسائل (التي ينقلها الرسل) يتم اعتراض سبيلها وتوفر معلومات ثمينة.

إنها رسالة من الصدر الأعظم نفسه، يوسف باشا، مؤرخة في أول ديسمبر ١٧٩٨ وموجهة إلى إبراهيم بك (من الأرجح أن نسختها للموجهة إلى مراد بك هي النسخة التي تم

اعتراض سبيله). وبعد استعراض لتمرد القاهرة حيث تجرى المبالغة بشكل زائد عن الحد في حجم الفسائر الفرنسية، يهنئ يوسف باشا الزعميين المملوكيين على مقاومتها الشاملة للفرنسيين، ويعلن التحضير لتحرك مشترك ضد مصر تحت قيادة والى دمشق، عبد الله باشا،

«من الضروري إننا لن نتهلوا للسير في مصر مع هذا القائد وأن تحشدوا معاً خير الإمكانيات لسحق هؤلاء الكفار [...]؛ وسوف يجرى، من جهة الهر، إرسال جيوش عظيمة إلى القائد المذكور سوف تنضم إلى القوات التي لديه بالفعل وسوف يجرى، من جهة البحر، تزويده على نحو بالغ السرعة بكل المؤن [...]، ولذا ينبغي عليكم أن تواصلوا بحماسة كافة استعداداتكم، وأن تستثيروا حمية البكوات والكشاف والقوات والعرب بإلهامهم مدى جلال القتال في سبيل الله بالنسبة لهم (١٦٠)».

الرحلة إلى السويس

كل هذه المعلومات تقنع بوناپارت بأن الخطر جدى، والقيام بحملة وقائية على سوريا يفرض نفسه. وهو يفكر في البداية بأن يعهد بقيادة العملية إلى كليبر حيث أنه وضع قيادة عملية مصر العليا بين يدي بهزيه (١٦١). وهو يكتف رينيه بالبدء في تهيئة للمستودعات في الموانئ الحدودية الحصينة. والحال أن قطية، التي تسيطر على مدخل ساحل البحر المتوسط في سيناء، سوف تخدم كقاعدة انطلاق للجيش الفرنسي. والمشكلة الأكثر حيوية هي مشكلة نقل المؤن والذخيرة؛ ففيضان النيل، ثم هبوط النيل، وأخيراً أمطار الشتاء الشديدة في الدلتا وغياب طرق سالكة، كل ذلك يجعل من الصعب نقل كميات ضخمة من الأشياء الضرورية لجيش يخوض حملة. ويرى بوناپارت الاستخدام المنهجي للجمال كنواب نقل (١٦٢). ويتقدم زحف الجيش.

كما ينبغي التأكيد من حياة بدو سيناء، وكان الزحف على القاهرة قد أثبت أهمية ذلك، ثم أنهم هم الذين يملكون الجمال الثمينة. وفي ٢٩ فريمبر (١٩ ديسمبر ١٧٩٨)، يعين رئيساً لجميع حرب مصر يحمل لقب الأغا، هو محمد إفا بن عبد الرحمن. ويتعين عليه التعرف على جميع القبائل التي تحارب الجمهورية، وأن يكون لديه جواسيس لمراقبتها في تحركاتها، سعياً إلى التمكن من إخضاعها وإجبارها على التزام الطاعة. (١٦٣) ويقرر القائد العام زيارة منطقة السويس بنفسه.

وبسبب هذه الرحلة استراتيجية في المقام الأول، فلا بد من صون اتصالات مع الدول المحيطة على البحر الأحمر والتي يمكنها نقل رسائل إلى الجزر الفرنسية في المحيط الهندي

بل وإلى أولئك الأمراء الهنود المشاهير الذين من المتصور أن المرء قد جاء لتقديم العون لهم. ويجب السهر في الليلان على التنبؤ بالمتخلفة بشأن الهند. إلا أن هناك أيضاً الرغبة في دراسة إمكانية ربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط عن طريق قناة وفي التعرف، في لحظة أولى، على خط القذبة التي كانت تربط البحر الأحمر بالنيل. ويحرص بوناپارت حرصاً مطلقاً على ربط اسمه بهذا العمل الضخم.

وهو يمهّد بقيادة القاهرة ونواحيها إلى كليبر خلال فترة شيايه ويقابل المدينة في ٢٤ ديسمبر برفقة بيرتييه وكلفاريلي ودومارتان وجانتوم وبور، أي الأركان العامة، الهندسة والمدفعية والبحرية ومعتمدة الجيش الإدارية. ويوجد للعهد (للمجمع العلمي) ممثلين له في الأشخاص مونج وبيترتر وديكوتيل ولويير وكوستاز ومما له دلالة أن شيخ تجار القاهرة المحروالي يشارك في الرحلة مع تجار آخرين، وتتاح لهم الفرصة للإعجاب ببساطة وباعتدال حياة القائد العام (١٦٤).

وفي السويس، يتحدث بوناپارت مع قباطنة سفن البحر الأحمر وهو يبشر آنذاك باستئناف للعلاقات التجارية، خاصة مع الحجاز. والحادث المهم الوحيد هو أن القائد العام وصداً من رفاقه، الذين يضلون طريقهم خلال ليلة ٢٨ ديسمبر، يفلتون بالكاد من الفرق بحيث يصعد مد البحر بسرعة بالغة في تلك المنطقة. وهو يشير بنفسه إلى أن ذلك كان من شأنه أن يمثل موضوعاً جد رائع لمؤسسة تدور حول فكرة فرعون جديد (١٦٥). ويجري عقد اتصالات مثمرة مع بنو سينا وعلى طريق العودة، يتفقد بوناپارت تحصينات بلبيس، ويستفيد من وجود حرسه القوي لمهاجمة مخيمات البدو للتمرد. ويحصل إلى علمه أن القوات العثمانية الأمامية قد احتلت القريش، ويرجع إلى القاهرة مساء ٦ يناير.

الاستعدادات لحملة سوريا

منذ تلك الساعة، يجري تكريس بقية شهر يناير للتحضير لحملة سوريا. ويكلف بوناپارت الطواشير المتحركة على طول الدلتا، لكي يخضع البدو بشكل حاسم ونهائي و، خاصة، لكي يستولى على مؤنهم وجمالهم. ويبرز فيردييه ومورا بشكل خاص في هذا النشاط. ويجري أخذ رهائن عديدين لضمان سكينه مصر. ويتمثل تجديد تقني مهم في إنشاء للقائد العام الفوج من راكبي الجمال يقصد من ورائه أن يكون سريعاً سرعة البدو ومن ثم يمكنه أن يكون أقدر على صدهم (١٦٦). كما أنه سوف يكفل النقل السريع

للمرسائل وتنوير الخطوط الأمامية للجيش ومراقبة المناطق الحساسة. ويجيء أفراد من صفوف المشاة، إلا أنه يجري معهم سلاح الفرسان. والذى العسكرى لرجاله شبه أوروبا، شبه شرقى.

ويفكر بوناپارت فى إنشاء مطبعة عربية يمكن نقلها ويصدر التعليمات للترتبة على ذلك (١٦٧). وهو يأمر بتدقيق قوائم الجمل على الصالحة وتطية، فقد حدثت تصدعات للشحن مع النقل بالزوارق فى بحيرة للنزلة. أما العتاد الأثقل، خاصة مدافع الحصار، فيعتبر نقلها برًا بسبب عدم كفاية الإمكانيات. ومن ثم يقرر القائد العام النقل بحرًا، وذلك بالرغم من خطر اعتراض الدوريات الإنجليزية.

وهو يعيد توزيع القيادات الإقليمية بتوسيعها وذلك بقدر ما أنه يسحب قوات متزايدة لتعزيز جيش حملة سوريا. وهو يشكو من البطء الذى يهدى مارمون فى إرسال قوات إليه. والحال أن هذا الأخير يتمسك بمراعاة حصاره للقواعد الحجر. وفى المقابل، فإن اللواء، الذى ظهر فى الوقت نفسه فى دمياط والذى يهدى ثلث الأعراس التى يهدىها اللواء فى الإسكندرية، لا يجرى تعريفه إلا بأنه حمى وبائية أو معدية بالرغم من وجود الدبيلات الطاعونية (١٦٨). ولا يستطيع بوناپارت أن يسمح لنفسه بفرض حصر دمياط فى الوقت الذى يتجه فيه إلى تركيز قواته فى شرقى للبلتا...

ويتمركز لاجرانج فى قطية (١٦٩)، فى ٧ يناير ١٧٩٩. ويشرع على الفور فى تحصين موقعه، خوفًا من هجوم محتمل من جانب العثمانيين من العريش. وينضم إليه بعد ذلك بوقت قصير رينيه وبقية لفرقة. وفى ١٧ يناير، يتلقى كليبر الأمر بتولى قيادة لفرقة السابقة وإقليم دمياط. ويتعين عليه إعداد تحرك قواته صوب قطية. أما بوجاء، الذى حل محله كليبر، فإنه يحصل على قيادة إقليم القاهرة. وهذا وضع مؤقت لأن مينو قد عين لتولى هذا الموقع المهم خلال مدة حملة سوريا. وفى الساحة، يدرك كليبر الصعوبات الهامة التى يواجهها إمداد الجيش (١٧٠). وهو يصل إلى قطية فى ١٦ فبراير ١٧٩٩. وسرعان ما يتحرك رينيه فى اتجاه العريش. ويتعين على فرق الجيش الأخرى التحرك بالتتابع نحو مواقع حشد الجيش.

وبوناپارت هو آخر من يغادر القاهرة فهو ينتظر التاجر هاملان الذى وصل توًا إلى مصر، حاملاً أنباء جديدة من أوروبا. والحال أن تردى مركز فرنسا فى أوروبا مع بدء حروب الانتلاف الثانى إنما يثير الانزعاج. وعشية الرحيل إلى سوريا، يبلغ بوناپارت

حكومة الإنلرة بالاستعباده للعودة إلى فرنسا، «إنا نكثت، خلال شهر مارس، صحة تقرير
للواطن هاملان وحملت فرنسا السلاح ضد الملوك، فسوف أرجع إلى فرنسا. وأنا لا أسمع
لنفسى فى هذه الرسالة بأية تأملات حول مواقع أحوال الجمهورية، إذ لم يصلنى أى خبر،
منذ عشرة أشهر. ونحن كلنا على ثقة تامة فى حكمة وقوة القرارات التى سوف
تتخذونها». (١٧١)

والى ١١ فبراير، يخبر القائد العام القاهرة ليلىق بجهته الصغير المؤلف من ثلاثة
عشر ألف رجل (١٧٢) كلهم من للخضرمين القانرين على حمل السلاح، والذين يشكلون
قوة صدامية نادرة الخصال. لكنه يستعد فى الوقت نفسه للعودة إلى فرنسا. وهذا هو عين
ما يصور قدرته على إجراء حسابات دقيقة للإمكانات وعلى تقدير مختلف الاحتمالات
وصولاً إلى «تلك النتائج العظيمة التى يستشفيها الخيال الجامع والمتحمس». (١٧٣) والعودة
ليست غير باب للخروج يدهم مفتوحاً فى حالة فشل للحلم الشرقى. فمصر الواقعية
ليست مصر التى يحلم بها الفاتح. وعلاوة على الضرورة الواضحة التى تتمثل فى تدمير
الحشود العثمانية الخطرة فى سوريا عبر عملية وقائية، فإن حملة سوريا - أوبالأحرى
حملة فلسطين - إنما تجد تفصيلاً لها فى الحسابات وفى الأحلام على حد سواء. وهى
تمسك بأسرار للمستقبل بأكثر مما تمسك بالحقائق الواقعية الحاضرة. إنها الفتاحية لوبديلة
«لعبه كبرى» لم تنته بعد.

حواشي الفصل الخامس

١ - على سهيل اللال، رسالة مينو إلى بونابرت، بتاريخ ٢٠ أيلول من العام السابع (١١ أكتوبر ١٧٩٨) : « سوف يكون لنا علينا أن نوزع، بهذه المناسبة، عددًا من المكاتبات بالمرية، سعيًا إلى نهاية هؤلاء السكان المتعصاة وسعيًا إلى إطلاعهم على خبث مراد وإبراهيم بك، وذلك بقدر ما أن هذين الأخيرين يوزعان هما أيضًا مكاتبات لها تأثيرها ؛ إنني أبحث عن هذه المكاتبات؛ والحال أن ديوان رشيد هو الذي ينبغي إلهاء... » *Correspondance inédite ... Égypte*, II, p.105.

٢ - الجبرتي، اللغة ومجاليها الأكلر، ١٦ ربيع الثاني (٢٧ سبتمبر ١٧٩٨)، الإعلام العلني لالذين من حاملي الرسالة.

Ibid. CUOQ commet, semble - t - il, un contresens en traduisant : - ٢ "avis est donné aux gardiens de l'ordre public de s'abstenir de plaisanteries et de lazzis sur les affaires qui touchent à l'autorité", au lieu d'"interdire au public de faire des plaisanteries ..." (p. 59).

Arrêté du 12 vendémiaire an VII (3 octobre 1798), - ٤ *Coorespondance*, V, p.36.

Aux commissaires ..., le 13 vendémiaire an VII (4 octobre 1798), - ٥ *Coorespondance*, V, pp.41 - 42.

٦ - اللغة، ص ٦٠، لابد أن الجبرتي، الذي لم ينتم إلى الديوان الأول، قد شارك في الديوان العمومي. ويمكن استنتاج ذلك من لغة التفاصيل التي لا يمكن أن تتوافر إلا لشاهد عيان.

Jabarti donne tels quels ces noms qui diffèrent grandement, on l'a - ٧ vu, des ethniques utilisés dans l'Empire Ottoman. C'est probablement pourquoi il parle de galimatias.

Dans les *Aja'ib* seulement. Cette phrase n'existe pas dans la - ٨ *Mudda*.

JABARTI, nécrologie de l'année 1227 ; il note que l'on mit sur son - ٩ cercueil un turban encore plus grand que celui qu'il portait de son vivant.

Le 6 octobre 1798, NAPOLÉON, XXIX, P.596.

- ١٠

١١ - Extrait de *Tuhfat an - nazirin fi man waliya Misr ...*, édition de 1281, pp. 182 - 183. La traduction est de Gilbert DELANOUE, *Moralistes et politiques musulmans ...*, I, p. 85.

JABARTI, *Mudda*, p. 63. - ١٢

JABARTI, nécrologie de l'année 1223. DELANOUE, I, pp. 251 - 254. - ١٣

١٤ - الجبرتي، وفيات سنة ١٢١٦. لا يجب الخلط بينه وبين الحنولي أحمد الحنولي للعصر له (DELANOUE, I, pp. 185 - 242.)

١٥ - الجبرتي، وفيات سنة ١٢٢٤. انظر أيضاً رسالة تليان إلى مينو، بتاريخ ١٨ أيلول من العام السابع (٩ أكتوبر ١٧٩٨)، والتي جاء فيها أن الفهمي هو من القلائد الذين يعتبرون أصيلة للفرنسيين (B6 9). ويتعلق الأمر بمطالب حول ممتلكات الوفاء، انظر في ٢٠ أيلول من نفس سنة من القري للطلع (B6 9).

JABARTI, nécrologie de l'année 1230. NAPOLÉON. *Campagnes - ١٦ d'Égypte, Correspondance ...*, XXIX, p. 575 :

«إن الشيخ المهدي، الأكثر بلاغة والأوسع علماً والأكثر شهاباً بين مشايخ الجامع الأزهر، كان أيضاً الأكثر إلماماً. لقد ترجم البيانات في أبيات شعرية عربية. إن أبياتاً شعرية قد جرى استظهارها ولا تزال ترد في أصناف صحراء أفريقيا وشبه الجزيرة العربية، (التأكيد نفسه في P.582) ، ويظهر ذلك إلى مدى نجاح المهدي في مطابقة رومانسية بونابارت الاستشرافية.

١٧ - إن رواية ناپوليون موحية فيما يتعلق بهذه المسألة، حتى وإن كان ناپوليون يشوه الحقائق ويرتكب تشويهات تتعلق بالتسلسل التاريخي للأحداث ، ولم يتردد النيبوان الكبير؛ لقد أعلن بالإجماع أن قوانين الغرب تتماشى مع روح كتب الحليّة [القرآن] وإن بلاد العرب كانت محكومة بهذه المبادئ في زمن الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين؛ وأن لهذا الإقطاعي، الذي يذهب إلى أن الأرض كلها تخص السلطان، قد جاء به المقول والفتار والأتراك؛ وأن أجدانهم لم يخضعوا له إلا مكرهين. وقد أجرى مثلاً حامية حول القضاة على الملتزمين وتحرير لراعي الأثر. وكان الأئمة خائفين على ممتلكات للساجد. وكان الملتزمون إقليمية في النيبوان. لما مشايخ البلد للرسول منسوبين عن القري لهم وحدهم الذين أكتوا على تحريرها، *Campagne d'Égypte, Correspondance ...*, XXIX, p. 592. وفي بقية نصه، يتحدث عن الإلغاء الفوري للالتزام، والذي لن يتكرر إلا بعد ذلك بكثير.

١٨ - ريو نيبوان مصر العمومي على الأسئلة التي وجهها إليه لذلك العام، *Correspondance Inédite ...*, Égypte, I, pp. 412 - 419.

- ١٩ *Correspondance ...*, V, pp. 87 - 88.

٢٠ - *Correspondance ...*, p. 95. في ٢٠ أكتوبر جرى نشر القرار المتعلق

بالقوانين، إن ثلثها سوف يتكلم من علماء وسوف يتكلم ثلث ثلث من تبار، بينما سوف يتكلم
الثلث الأخير من مشايخ البلد (PP. 107 - 109).

JABARTI, *Mudda*, pp. 64 - 65. - ٢١

JABARTI, *Mudda*, pp. 67. *Histoire Scientifique ...*, IV, pp. 137 - ٢٢
- 141.

JABARTI, *Mudda*, p. 67. - ٢٢

Sur ces questions : voir Bernard LEWIS, "Les concepts - ٢٤
islamiques de Révolution", in *Le retour de L'Islam*, Paris, 1985, pp. 51 - 67;
From Fitna to Thawra", *Studia Islamica*, 1987, pp. 149 - 174 ; Leon
ZOLONDEK, "French Revolution in Arabic Literature", *The Muslim Word*,
vol. 57, n° 3, 1967, pp. 202 - 211.

٢٥ - *Histoire Scientifique ...*, IV, pp. 182 - 183. إذا كان لوياش الناس وبعض
الكبراء وزمرة الأشياع قد برزوا في التمرد من خلال ارتكاب فظائع خسية، فإن الطبقة المتوسطة
قد بدت أكثر عقلًا وأكثر إنسانية.

Mudda, p. 68. - ٢٦

Histoire scientifique ..., p. 154. - ٢٧

Nécrologie de l'année 1213. - ٢٨

٢٩ - هجائب الآثار، ربيع الثاني ١٢١٩، فلم بوساطة غير مثمرة بين محمد علي والأمراء.

٣٠ - تتفق رواية للمدة ورواية التاريخ العلمي، تمامًا حول سهر الأحداث، بما في ذلك حول
شعارات كشعار الموت للكفارة.

٣١ - للمدة، ص ٦٨. إن الشيخ الشرفي، المعتقل، قد رفض الانضمام إليه منكرًا وجوده
في بيت.

IV, p. 159. JABARTI ne mentionne pas cet incident. - ٣٢

Ibid, pp. 182 - 183. - ٣٣

La JONQUIÈRE, III, p. 279, qui cite le journal de Detroye. - ٣٤

٣٥ - إن حوليات الجبرتي تصبح مشوشة في تلك اللحظة وتميل إلى الخلط في يوم واحد
بين ما حدث في اليومين. وتعتبر المصادر الفرنسية دقيقة، فقد تم استقبال المشايخ بعد موت
سولكويمكي، *Histoire Scientifique ...*, pp. 175 - 176.

Bon à Bonaparte, à dix heures du soir, B6 10. - ٣٦

Bon à Bonaparte, le 2 brumaire an VII, B6 10. - ٣٧

Berthier à Bon, le 2 brumaire an VII, B6 10. - ٢٨

Traduction de CUOQ, p. 73. La Qibla est une niche qui indique la - ٢٩
direction de la prière.

Histoire Scientifique, IV, p. 180. - ٤٠

LA JONQUIÈRE, III, p.282, *Histoire Scientifique*, IV, pp. 181 - ٤١
182.

JABARTI, *Mudda*, p. 76. - ٤٢

JABARTI, *Mudda*, p. 77. - ٤٣

JABARTI, *Mudda*, p. 78. - ٤٤

Histoire Scientifique..., IV, pp. 187 - 190. LA JONQUIÈRE, III, - ٤٥
pp.287 - 288.

Le 9 brumaire an VII (30 octobre 1798), LA JONQUIÈRE, III, - ٤٦
p.284, III, p. 284. Sur Denon, voir Ibrahim Amin GHALL, *Vivant Denon ou
la conquête du bonheur*, Le Caire, I.F.A.O., 1986.

٤٧ - يقول الجبرتي إنهم قد اعملوا رمياً بالرصاص، أما «التاريخ العلمي»... فهو يزعم أن
بارتيليمي قد تولى قطع رؤوسهم (IV, P. 191). وتؤكد صحيفة لوكورنييه نو ليجهيت قطع
رؤوسهم (٢٠ يومير من العام السابق). ولا نعرف أين دفنوا. وفي تسجيله لوفيات سنة ١٢١٣،
يعتبرهم الجبرتي شهداء؛ وهو ما يشير إلى تصدد تال ليه، أقل عداوة للمتمردين مما في الحقيقة.

٤٨ - Shaykh al Sadat signifie shaykh des Sayyid, des descendants du
Prophète. Anwar al Sadat s'appelait originellement al Sadati, ce qui signifie
"suivant de la confrérie des Sadat", c'est après la révolution de 1952, qu'il a
transformé son nom en Sadat probablement plus noble à ses yeux
(Mohammed HEYKAL, *L'automne de la colère*, Paris, 1983, p. 21).

JABARTI, nécrologie de l'année 1228, c'est une des rares - ٤٩
occasions où le chroniqueur parle de lui - même; DELANOUE,
Moralistes..., I, pp. 254 - 256.

NAPOLÉON. *Campagnes d'Égypte...*, XIX, p. 602. - ٥٠

٥١ - محضر بالفرنسية والعربية لتعهد تجار القودية (بهي الأزهر) أمام الجنرال
بونابارت: «إننا نتعهد أمام الملاء بأن [...] نحفظ هوارع حينما خالية من أية فتنة، وبأن نوجه كل
عنايتنا إلى نفع الأشرار والأوباش، وبأن نهضمهم عنا، وبأننا في حالة علمنا بأن غرباً ما من حينها
يود إثارة القوي، سوف نكون ملزمين بأن نوجه إلى ذلك نظر قائد الموقع أو انما الإنكشارية.
[...]. وإذا ما حدث، لسوء الحظ، أن نب في حيننا اضطراب ما نون أن يتسنى لنا الإبلاغ عنه قبل

والوعه، فإننا سوف نكون كلنا معروضين لأن نعتبر مسؤولين عنه فرداً فرداً، ٢٦ أكتوبر ١٧٩٨، B6 10 [إمدنا ترجمة التعمد من الفرنسية لتعذر العثور على النص العربي. - للترجم].
لنظر أيضاً في المصدر نفسه القائمة الكاملة لمهاجر لحياء القاهرة، والمسؤولين عن ضمان سكة
السكان في لحياتهم.

LA JONQUIÈRE, III, pp. 289 - 291. - ٥٢

٥٢ - وهكذا فقد خطرت لهولاءات الفكرة، غير المعروفة في عصره والتي تتمثل في
الأهمية التي يكتسبها، بالنسبة لمن يطرئون الاحتلال وأن يخطعون له، عدم الاختلاط في الداخل
مزيج للطرفين، والتي تكتسبها، خلافاً لذلك، إقامة مقر وحى الطرف الأول بعيداً عن سكنى
الطرف الآخر. والحال أن المدينة الفرنسية، بـ مراقبها الرئيسية، للوجود في الروضة وبالخدمات
التي اتمتها بالفعل بشكل منفصل في قصر العينى وفى الهيزة، قد تشكلت خارج وعلى جانب
المدينة الأهلية، تماماً مثلما حدث ذلك منذ ذلك الحين في مراكش.

CHARLES - ROUX, *Bonaparte gouverneur d'Égypte*, Paris, 1936, p. 251.

LA JONQUIÈRE, III, p. 285 - 286. - ٥٤

٥٥ - على سبيل المثال، بيان مينو بشأن تمرد القاهرة. إن المهليخ الذين لن يخاصوا لهذا
الأمر وسوف يعتبرون شركاء للبكوات ولعملائهم وسوف يعاقبون بالإعدام، B6 11.

٥٦ - *Histoire Scientifique...*, IV, pp. 129 - 131. لقد اختير للعب دور الجلاء
بسبب براعته في قطع الرؤوس.

Fugière à Bonaparte, le 15 vendémiaire an VII (6 octobre 1798), - ٥٧
B6 9.

Fugière à Bonaparte, le 19 vendémiaire an VII (10 octobre 1798), - ٥٨
B6 9.

LA JONQUIÈRE, III, pp. 293 - 295. - ٥٩

Fugière à Bonaparte, le 30 vendémiaire an VII (21 octobre 1798), - ٦٠
B6 10.

Lanusse à Bonaparte, le 2 brumaire an VII (23 octobre 1798), B6 - ٦١
10.

Lanusse à Bonaparte, de Tantan, le 3 frimaire an VII (23 - ٦٢
novembre 1798), B6 12.

Reynier à Bonaparte, le 2 brumaire an VII (23 octobre 1798), B6 - ٦٣
105.

Reynier à Bonaparte, le 6 brumaire an VII (27 octobre 1798), B6 - ٦٤
105.

Reynier à Bonaparte, le 9 frimaire an VII (29 octobre 1798), B6 – ٦٥
105.

LA JONQUIÈRE, III, pp. 318 - 320. – ٦٦

Manscourt à Bonaparte, le 28 vendémiaire an VII (19 octobre – ٦٧
1798), LA JONQUIÈRE, III, pp. 311 - 314.

Dépêche de Pisani (drogman de Hood à Spencer Smith, FO 7820 – ٦٨
et LA JONQUIÈRE, III, pp. 312.
lettre turque au capitaine de la ، الذي جاء للتحذير من خطر هجوم فرنسي،
carabelle, du 19 octobre 1798, B6 10.

Hood à Spencer Smith, le 26 octobre 1798, FO 78 20. – ٦٩
Correspondance de Napoléon, V, p. 94 : à Marmont, le 26 vendémiaire an
VII (17 octobre).
«إن المؤتمر عهد الله، مساعد مراد بك، قد مر، منذ ثلاثة أيام، بقرية الشعراء،
مع ٣٠ من العرب، ويعتقد أنه قد ذهب إلى مشارف الإسكندرية، وأتمنى لو كان بوسعك إلقاء
القبض عليه؛ إنني على استعداد تام لدفع ألف ريال فرنسي مكافئة على تسليمه؛ إنه الشخص
نفسه الذي كان على متن سفينة الأميرال الإنجليزية. وإذا كان بوسع المرء التحدث إلى العرب، فإن
هؤلاء الناس سوف يفعلون أشياء كثيرة في مقابل ألف سكين» [عملة ذهبية إيطالية. - المترجم].

٧٠ - مرمون إلى بونابارت، ١٢ برومير من العام السابع (٢٣ أكتوبر ١٧٩٨) : «جاني
عرب مسالمون لإبلاغي بأن عبد الله باشي كان البارجة بالقرب من هنا مع ملازمين؛ وقد تحدث
إليهم طالباً تزويده بالقرب للذهاب إلى الأسطول الإنجليزي. وقد وعدتهم بخمسمائة سكين إذا ما
ساقوه إلى». وفي الرسالة نفسها، يشير إلى أنه «بعد ربع ساعة من مغادرة مواقعا على القناة، قام
الفلاحون بصفائحت في كل مكان، وبعد ذلك بخمس عشرة ساعة، جفت القناة».

Bonaparte à Murat, le 9 brumaire an VII (30 octobre 1798), LA – ٧١
JONQUIÈRE, III, pp. 190 - 191.

٧٢ - مرمون إلى بونابارت، ١١ برومير من العام السابع (الأول من نوفمبر ١٧٩٨) : «إن
قبطان السفينة مقتنع تماماً بصنفة الباب العالي لنا، وهو لا يفكر في أي عمل معاد وهو يزعم أن
الفرقة التركية الموجهة أمام ميناء الإسكندرية قد تم حشدتها في جزر الأرخبيل من جانب الإنجليزي
وأنها تخضع الآن لأخطائهم». وهو يعلن خبر الوصول الوشيك للقاهولان بلان إلى الإسكندرية
للاطلاع على واقع الأحداث المصرية ويطلب السماح له بالخروج للقائه، B6 11. Les mémoires
du duc de Raguse (Marmont) donnent la même lettre mais datée
inexactement du 2 octobre 1798 (Paris, 1857, I, p. 419.

Ensemble des textes dans LA JONQUIÈRE, III, pp. 334 - 339. – ٧٣

FO 78 20, le 11 novembre 1798. – ٧٤

Chef de bataillon de génie Souhait, mémoire sur la marche de la - ٧٥
colonne du général Rampon sur Arfieh, B6 5 (une autre copie en B6 2) et
lettre de Donzelot à Belliard le 24 thermidor an VI (B6 6).

WIET, Nicolas Turc, p. 28. - ٧٦

Bonaparte à Desaix, le 18 fructidor an VI (4 septembre 1798), LA - ٧٧
JONQUIÈRE, III, pp. 197 - 198.

Mémoires du duc de Rovigo (Savary), édité par Désiré Lacroix, - ٧٨
Paris, 1900, I, p. 83.

Ensemble de textes sur la bataille de Sediman dans LA - ٧٩
JONQUIÈRE, III, pp. 208 - 220.

٨٠ - زاپونتشيك إلى بوناپارت، ٥ برومير من العام السابع (٢٦ أكتوبر ١٧٩٨) : «ظهر في
القرى بيان من السلطان، جرى فيه إشعار سكان مصر بأن هنأ من الباشاوات مع عدد كبير من
الجنود سوف يحصلون لمساعدتهم ضد الفرنسيين». SKALKOWSKI, p. 108

Desaix à Bonaparte, le 21 brumaire an VII (11 novembre 1798), - ٨١
B6 11.

٨٢ - بوناپارت إلى نيزيه، ٣٠ برومير من العام السابع (٢٠ نوفمبر ١٧٩٨) : «إن مساعد
مراد بك، عهد الله بالحق، والذي كان على الأسطول الإنجليزي، قد مر أسس ٢٩، بجانب الأهرامات.
وكان معه سبعة من العرب والثمان من المماليك». LA JONQUIÈRE, III, p. 357

La base des études sur Yaqoub reste Le Livre de Gaston - ٨٣
HOMSR, son lointain descendant, *Le général Jacob et L'expédition de
Bonaparte en Égypte*, Marseille, 1921.

٨٤ - كان من المقرر أن يشارك الرجل الذي سوف يصبح فيما بعد ماريشالاً في عمليات
نيزيه منذ البداية، إلا أنه اضطر إلى البقاء في القاهرة بسبب أزمة إسهال؛ وقد استخدم بوناپارت
أفدك كلامه في تكليفه بإعادة تنظيم سلاح الفرسان وخاصة تدبير الخيل. voir VIGIER,
Davout, *Maréchal d'Empire*, Paris, 1898, pp. 67 - 68. وإذا ما صدقنا يوميات
بيليار، فإنه يبدو جد طموح : «إن الجنرال د. [ناتو] شهيد الفيرة على القيادة التي منحت له؛ وهو
يخشى كثيراً من أن يتوصل الجنرال ديما إلى وضعه تحت إمرته؛ وهو يطمح إلى أن يكون قائد
فرقة، ويعتمد على الواقع إن كان سعيداً لحد؛ وإذا لم يتم النجاح ضد المماليك باستخدام سلاح
الفرسان، فإنه يبدو عازماً على الانتحار بإطلاق الرصاص على رأسه. وإذا ما نال ترقية، فإن ذلك
سيكون إنصافاً له؛ إنه منذ وقت طويل قائد لواء وهو ليس عنهم الإمكانات وفقاً لرأي قائد الفرقة

الفرسان؛ إلا أن عليه على الأقل حجب طموحه. وإذا ما حدث انتصار، فسوف يشعر بالارتياح، ونحن أيضاً؛ وإذا لم يحدث انتصار، فإنه سوف يواصل قناته دون تنفيذ للمشروع الذي ارتكبه.

Journal de Belliard, LA JONQUIÈRE, III, p. 510. - ٨٥

٨٦ - يوميات بيليار، LA JONQUIÈRE, III, p. 512 إنه يرى أن الفرنسيين سوف ينجحون في القضاء على حملات الدار القروية.

٨٧ - سوف يولد رقعة الطوطم الشهير بعد ذلك بسنتين في تلك الناحية.

L'étude essentielle sur cette question est l'article de M. ABIR, - ٨٨
"The Arab rebellion of Amir Ghalib of Mecca, 1788 - 1813", *Middle Eastern Studies*, VII, 1971.

Michel TUCHSCHERER a traduit le passage du chroniqueur - ٨٩
yémenite concernant la prédication et l'expédition des volontaires en Égypte,
op. cit., pp. 47 - 64.

٩٠ - LA JONQUIÈRE, III, p. 528 يدين الجبرتي هذه الخيانة الجديدة من جانب
المماليك قياساً إلى واجبه (نهاية شعبان ١٢١٣).

NAPOLÉON, *Campagne d'Égypte*.. XXIX, pp. 628 - 629. - ٩١

Discours du citoyen Denon, pour être lu à l'Institut du Kaire, à - ٩٢
son retour de la Haute - Égypte, *Décade Égyptienne*, II, pp. 282 - 283.

Mémoires du général baron Desvernois, édité par Albert- ٩٣
Dufourcq, Paris, 1898, p. 164.

Vivant DENON, *Voyage dans la Basse et la Haute - Égypte*, - ٩٤
Paris an X - 1820, p. 129.

Destaing à Bonaparte, le 15 brumaire an VII (5 novembre 1798), - ٩٥
B6 11.

Destaing à Bonaparte, le 20 brumaire an VII (10 novembre 1798), - ٩٦
B6 11.

Destaing à Bonaparte, le 19 brumaire an VII (9 novembre 1798), - ٩٧
B6 11.

Bonaparte à l'intendant général de l'Égypte, le 17 frimaire an VII - ٩٨
7 décembre 1798), *Correspondance*, V, pp. 238 - 239. في هذه الرسالة، يقابل من
جهة أخرى بين مسلك مشايخ (القرية أم الحى ؟) السارمين إلى تسليم ممتلكات المماليك وسوء

نية متدين من الأقباط في هذا المجال.

JABARTI, 1 jumada al akhira 1213.

- ٩٩

JABARTI, 8 jumada al akhira 1213; *Courrier de l'Égypte* du 24 - ١٠٠
brumaire an VII (14 novembre 1798).

Fin du mois de jumada al akhira 1213.

- ١٠١

١٠٢ - *Courrier de l'Égypte*, 7 frimaire an VII (27 novembre 1798).

هذا النص خبر موقع، لكن كل أسلوبه يسمح بتصور أنه يرجع إلى قلم بوناپارت خاصة وأن الإشارة الخمنية إلى القس رينال واضحة، وكان بوناپارت الشاب معجباً كبيراً بكتاب *L'histoire philosophique et politique des Européens dans les deux Indes* ويبدو أن فوربي قد انخرع عن هيئة تحرير صحيفة الكورنييه بسبب هذا النص. ونحن لا نملك خبر رواية تيهينيت لرد فعل بوناپارت على هذا النص : «إنه لحق ولود أن أقول لكم ملأنا. إن هذا الرجل، الذي لم يطلب قط وإن اطلب أبداً وأيه، قد جاء إلى هنا، في صلاتي، لكي يتحدث حديثاً طناناً عن التمرد وعن أسبابه ونتائجه التي يخشى منها و، أخيراً، جاء لكي يبلغني بما يجب عليّ عمله. ويوسمكم إن تصوراً بأي شكل استمعت إليه لقد برزت له بادي ذي يده لن للساعة قد انتهت، وأن التناهي للصارمة التي يقترحها عليّ لا هي سياسية ولا هي إنسانية وأن الخوالبين يقتمون دائماً هذه المشورات للتطرفة وأن المرء لا يجوز له إنشاء رأي في الانتفاضات لجود أنه قد شارك في حركات بلرئيس، وأنتى أملك عندها التصور الذي كودته بشأنها».

١٠٣ - Sur ce personnage, voir Jacques DECOURSAC, *Un ami dauphinois de Napoléon Bonaparte, Simon de Sacy, ordonnateur en chef de l'armée d'Égypte, 1764 - 1799*, Paris, 1932.

Voir Kléber et Bonaparte, II, p. 541.

- ١٠٤

١٠٥ - LA JONQUIÈRE, III, pp. 391 - 392; *Correspondance inédite, Égypte*, I, p. 511.

١٠٦ - في رسالته الخاصة بنقل السلطات إلى كليبر في عام ١٧٩٩، سوف يحدد بوناپارت على هذه الخطوة : «لقد طلبت بالفعل في عدة مرات فرقة من الكوميديين؛ وسوف أولى اهتماماً خاصاً لإرسال فرقة منهم إليك. إن هذا الأمر جد مهم بالنسبة للجيش وبالمناسبة للبه في تغيير عادات البلد». Kléber et Bonaparte, II, p. 514.

Campagnes d'Égypte..., XIX, p. 605.

- ١٠٧

١٠٨ - LA JONQUIÈRE, III, p. 385 لم يكن مسموحاً للعسكريين الفرنسيين، الجنود والضباط على حد سواء، بالمصطحاب زوجاتهم معهم. وقد جرى التجاوز عن عدد معين وقامت السيدات عموماً بالرحلة من أوروبا إلى مصر متنكرات في ملابس الذكور.

١٠٩ - Le seul témoignage certain est un diplôme d'initiation accordé à

Marc - Aurel, l'imprimeur de l'armée et ami de jeunesse de Bonaparte, publié par Georges de FROIDCOURT, "Une loge inconnue à l'armée d'Égypte en 1799", *Annales Historiques de La Révolution Française*, 1937, pp. 557 - 560. Pour l'ensemble de la question, voir les travaux de François COLLAVERI, *La Franc Maçonnerie des Bonaparte*, Paris, 1982 et *Napoléon, Empereur Franc - Maçon*, Paris, 1986.

Sur la peste, voir le grand livre de Daniel PANZAC, *La Peste - ١١٠ dans l'Empire Ottoman, 1700 - 1850*, Louvain, 1985, en particulier les pages 327 à 333. لم يكن الطاعون متواصلاً في مصر (سوف يصبح متواصلاً بعد ذلك بعشرين سنة)، لكن البلد كان يصاب بالعدوى بشكل متكرر من طريق موانئ البحر المتوسط. وسوف يظل الطاعون هناك خلال مجمل مدة الحملة وسوف يتبين أن التدابير المتخذة عندها الفعالية إلى حد بعيد.

Sur les questions médicales, voir DESGENETTES (le médecin - ١١١ chef de l'armée), *Histoire médicale de l'armée d'Orient*, Paris, trois éditions, 1802, 1830 et 1835; Larrey (le chirurgien - chef), *Relation historique et chirurgicale de l'expédition de l'armée d'Orient*, Paris, 1803; HOUDARD (L), "Le service de santé de l'armée d'Égypte", *Revue des Études Napoléoniennes*, février - octobre 1934.

١١٢ - وهو ما يأسف له الجبرتي، ١ جمادى الآخرة سنة ١٢١٢.

Décade Égyptienne, I, pp. 81 - 82 et 104 - 109. Voir aussi, - ١١٢ l'article de C.L. LOKKE et G. DEBIEN, "L'expédition d'Égypte et les projets de cultures coloniales", *Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Égypte*, XX (1940), pp. 337 - 356.

Rapport sur le Môristan ou hôpital du Caire, Rapport sur le plan - ١١١ d'organisation d'un hospice civil au Caire, *Décade Égyptienne*, I, p. 272 et II, p. 5. Le second rapport est cosigné en plus de Desgenettes par Monge, Caffarelli, Daure, Berthollet et Larrey.

JABARTI, fin du mois de jumada al akhira 1213. - ١١٥

١١٦ - NAPOLEON, *Campagnes d'Égypte...*, XXIX, p. 589. المقصودة هي جلسة ١١ شهر ميونور من العام السابع، وتشير روايات أخرى إلى ٥٠ ألف نوع من الأسماك في ظن المهدي، voir GOBY, *Le Premier Institut d'Égypte...*, Paris, 1987, p. 51.

Dans un article qui a constitué une véritable révolution dans – ١١٧
l'historiographie de l'expédition d'Égypte, Anouar LOUCA a bien montré
l'échec immédiat de l'entreprise de Bonaparte, "La renaissance égyptienne et
les limites de l'œuvre de Bonaparte", *Cahiers d'histoire égyptienne*, 1955,
VII, pp. 1 - 20.

Décade Égyptienne, I, p. 83 et suivantes. – ١١٨

DESGENETTES, *Souvenirs...*, pp. 48 - 51. – ١١٩

١٢٠ - إن باعها مصر، خلاصة في العقود الأولى لحكمه، إنما يستلهم أسساً أفكار
للمصلحين العثمانيين في القرن الثامن عشر. وينسب إنشاء مطبعة بولاق جزئياً إلى شخصية
دوفائيل أنطون زاخود الراهب، المسمى بدون رافاييل، وهو كاثوليكي يوناني ولد في القاهرة في
عام ١٧٥٩، وحصل على دراسات إكليريكية في روما في عام ١٧٧٥، ورسم قساً في عام ١٧٨٢.
وهو يوزع آنذاك وقته بين سوريا وإيطاليا ومصر التي يتواجد فيها عند وصول بونابرت. ويصبح
العضو الشرقي الوحيد في المعهد (للمجمع العلمي) المصري. ويعمل مترجماً للوثائق الرسمية
وترجمانياً للديوان في ظل ميتر. وهو يمثّل في القاهرة حتى عام ١٨٠٣ حيث يجرى إلى فرنسا.
وعندئذ يصبح مستقلاً للعربية في مدرسة اللغات الشرقية حيث يكون من بين تلاميذه هلمهوليون
ولما كان معروفاً بميوله البونابرتية في بداية عهده الملكية، فإنه يتعرض لمضايقات إدارية، الأمر
الذي يقوده إلى العودة إلى مصر عام ١٨١٦. وعندئذ يدخل في خدمة محمد علي ويصبح مؤلف
أول كتاب تنشره مطابع بولاق، وهو عبارة عن قاموس إيطالي - عربي. وهو يترجم الأمير
لماكياثيلي إلى العربية بناءً على طلب صريح من الباشا. وفيها بعد، يشارك في تأسيس مدرسة
الطب في ليو زعبل إلى جانب كلوت بك. وهو يموت في عام ١٨٢١ في القاهرة. والحال أن للسيرة
العملية لهذا الكاثوليكي اليوناني إنما تمثل إحدى الصلات المباشرة الثابتة للحقبة بين الحملة
ومحمد علي مع إشارتها أيضاً إلى الدور الدينامي المسيحي الشرق في النهضة العربية.

Charles BACHATLY a disposé des papiers personnels de Don
Raphael qui ont fourni la matière de ses deux excellents articles dans le
Bulletin de l'Institut d'Égypte, "Un manuscrit autographe de Don Raphael"
(XIII, 1931, pp. 26 - 35) et "Un membre oriental du premier Institut
d'Égypte, Don Raphael" (XVII, 1935, pp. 237 - 260).

Traduction de CUOQ, p. 87 (20 jumada al akhira 1213). – ١٢١

Traduction de CUOQ, p. 105 (9 sha'ban 1213). – ١٢٢

Courrier de l'Égypte, 21 nivôse an VII. – ١٢٣

L'étude la plus globale des questions financières est celle de M. – ١٢٤
CHEVALIER, "La politique financière de l'expédition d'Égypte", *Cahiers
d'histoire égyptienne*, VII (1955) pp. 165 - 185, 223 - 243, VIII (1956), pp.

47 - 68, 176 - 197, 213 - 240. Il a pu utiliser le fonds Marcel (papiers de l'orientaliste) alors conservé à l'Institut d'Égypte et qui est actuellement indisponible.

L'étude essentielle est celle de S.J. SHAW qui a traduit du turc - ١٢٥
ottoman les réponses de Husayn Effendi aux questions des Français, dans
son étude *Ottoman Egypt in the age of the French Revolution*, Harvard
University Press, 1966. كان لقب الأندلسي يتم حمله أساساً لذلك من جانب
موظفي الشؤون المالية، والذين كانوا في غالبيتهم عثمانيين. وقد شكلت هذه الوثيقة أساساً
لجميع العروض المالية حول الشؤون المالية لمصر، بما في ذلك عروض «وصف مصر».

١٢٦ - إن هذا التحديث لا يحدث إلا بشكل تدريجي للغاية خلال السنوات الثلاث للحملة،
على أن الجبرتي يشهد على نتيجة : إن الفرنسيون لما استقر أمرهم بمصر ونظروا في الأموال
الميرية والخراج فوجدوا ولائاً الأمور يقبضون ستة معجلة ونظروا في الديارات القديمة وأطلعوا على
العوائد الصالحة ودلوا أن ذلك كان يقبض ثلاثاً مع المراملة في رى الأراضى وعنده، فاختاروا
الأصلح في استباب العمل وقالوا ليس من الإتصاف المطلوبة بالخراج قبل الزيادة بسنة وأعملوا
وتركوا ستة خمس عشرة فلم يطلقوا للمتزمين بالأموال الميرية ولا للفلاحين بالخراج فتخلصت
الفلاحون وراج حالهم وتراجعت أرواحهم مع ضم تكليفهم كثرة المقارم والكلف وبحق طرق المعينين
ونحو ذلك. ربيع الآخر ١٢١٦.

١٢٧ - ٢٥ برمود من العلم السابع (١٥ نوفمبر ١٧٩٨)، إنشاء لجنة مكلفة بالاعتماد
منطقة القاهرة. ٢٢ برمود (١٢ ديسمبر ١٧٩٨)، تعيين أخ الجبرتي رينيه مفتشاً للممتلكات.
LA JONQUIÈRE, III, p. 372.

LA JONQUIÈRE, III, p. 373. - ١٢٨

NICOLAS TURC, P. 31. - ١٢٩

JABARTI, 6 sha'ban 1213 et fin sha'ban 1213. - ١٣٠

Aux habitants du Caire, le 1^{er} nivôse an VII (21 décembre - ١٣١
1798), *Correspondance*, V, pp. 287 - 288.

١٣٢ - الجبرتي، المنة، ص ٩٥. في مجلتي الآثار، يكتفى بالتشديد على حملة هذه الأقوال.

Liste nominative dans le *Courrier de l'Égypte*, le 9 nivôse an - ١٣٣
VII (29 décembre 1798). نجد أربعة عشر هلالاً، ليس من بينهم الجبرتي أو السابلات.

١٣٤ - لم أنجح في إعادة رسم قائمة الأربعة عشر. إن غالبية مراسلات الديوان لا تحمل
كتوابع غير توابع الرئيس الشرقاوي وتوابع أمين مصر المهدي. ويضم البيان المنشور لدى حودة
بوفايات من سوريا علاوة عليهما أسماء البكري والصارى واليهومي كمهاجر، وعلى كتفها
ويوسف باشا - تشاوش كموظفين وأحمد العمروفي كتاجر، بما يمثل خمسة علماء من ثمانية

المسلم. ومن المرجح إلى أبعد حد أن الديوان تكبراً ما كان يجمع بعدد كبير من الأعضاء.

LA JONQUIÈRE, IV, p. 19. - ١٣٥

JABARTI, fin rajab 1213. - ١٣٦

DESGENETTES, *Souvenirs d'un médecin de l'expédition d'Égypte*, Paris, 1893, pp. 10 - 12. - ١٣٧

Rapport fait par le nommé Ahmed Mager, fellah de Rahmanieh - ١٣٨
en date du 19 brumaire an VII (9 novembre 1798), B6 11.

Leturcq (qui a remplacé Bribes à Rahmanieh) à Menou, le 19 - ١٣٩
brumaire an VII (9 novembre 1798), B6 11.

Courrier de l'Égypte, le 20 brumaire an VII (10 novembre - ١٤٠
1798). يهني الأمر اليومى الصادر إلى الجيوش في ١٦ برمودر علناً هذا الشيخ الذى سوف يحصل
من يد القائد العلم على عيادة مبطنة بالبراء.

Menou à Dumuy (Aboukir), le 20 brumaire an VII (10 novembre - ١٤١
1798), B6 11.

Courrier de l'Égypte, le 14 brumaire an VII (4 décembre 1798). - ١٤٢

Murat à Bonaparte, le 10 frimaire an VII (30 novembre 1798), - ١٤٣
B6 12.

Détails dans le *Courrier de Égypte*, du 25 frimaire an VII (15 - ١٤٤
décembre 1798).

Leturcq à Bonaparte, le 19 frimaire an VII (9 décembre 1798), - ١٤٥
B6 13.

LA JONQUIÈRE, III, pp. 419 - 428. - ١٤٦

Menou à Marmont, le 12 frimaire an VII (2 décembre 1798), B6 - ١٤٧
13.

LA JONQUIÈRE, III, pp. 393 - 400 et B6 11. - ١٤٨

Instructions pour le citoyen Beauchamp, le 21 frimaire an VII - ١٤٩
(11 décembre 1798), LA JONQUIÈRE, III, pp. 406 - 409.

Spencer Smith au ministère ottoman, Constantinople le 17 mars - ١٥٠

1799, FO 78 21.

Voir Albert ESPITALIER, "La mission de Beauchamp à – ١٥١
Constantinople en 1799", *Revue d'Histoire Diplomatique*, 1911, pp. 591 -
606.

Règlement officiel imprimé en arabe et en français daté du 18 – ١٥٢
nivôse an VII (le 7 janvier 1799) B6 16.

١٥٣ – مازمون إلى ميخو، ١٢ ديلوز من العام السليح (الأول من يناير ١٧٩٩) ١٠ إن هريد
تزويد الجورياتي، الثالث للسلم، بقوة حراسة من ٢٠ فارساً كالقوة للوجوه مع إبراهيم
الشوريحي في مذهبور، وذلك للتقيام بجولة في إقليم البحيرة، B6 16.

Marmont à Menou, le 22 nivôse an VII (11 janvier 1799), B6 – ١٥٤
16.

Marmont à Menou, le 3 pluviôse an VII (22 janvier 1799), LA – ١٥٥
JONQUÈRE, IV, p. 39.

Dumuy (Aboukir) à Menou, le 13 nivôse an VII, réponse de – ١٥٦
Menou le 15 nivôse et annonce de l'exécution par Dumuy le 17 nivôse (6
janvier 1799), B6 16.

Menou à Bonaparte, le 3 pluviôse an VII (22 janvier 1799), LA – ١٥٧
JONQUÈRE, IV, p. 41.

١٥٨ – إن سلتجليه - لهرير الذي يقود أحد هذه للراكب يشهد على تعسف التعليمات
إننا بالتصرف على هذا النحو، كنا نتجارب مع التعليمات الصلابة إلى، إلا أنه لابد لي من
الاعتراف بأنني قد استسلمت كثيراً إلى حد ما لتلذذات بحارتي الذين رأوا في أبسط تجمع للعرب
اشراراً، حتى وتمتعوا بلذة مطارتهم. ويبدو أنني ملوم بالمسؤولية من موت عدد من الفلاحين.
"Souvenirs de l'expédition d'Égypte", *Revue des Etudes Historiques*, XIV,
1912, p. 416.

Voir le registre de correspondance de Reynier, B6 105. – ١٥٩

١٦٠ – B6 13 . يشهد الصدر الأعظم في حاشية على توزيع البعثات على العرب : إن
عليكم الاهتمام بتوفير لوسع تأكيد لكان ذلك للمكاثبات الموجهة في مظهر في لم للمكاثبات
الأخرى. وسوف تضيقون إليها بحسب الحال مكاثبات من صنعكم في الاتجاه الذي تتطلبه
الظروف وسوف توزعون جميع [هذه الأوبال] على العرب. إننا نجهل حتى الآن المسلك الذي
لتخونه والأحوال التي هم عليها الآن.

Kléber et Bonaparte, II, p. 537. – ١٦١

- LA JONQUIÈRE, III, pp. 477 - 478. - ١٦٢
- Correspondance...*, V, pp. 286 - 287. - ١٦٣
- La source essentielle pour cet épisode est dans le *Courrier de l'Égypte* du 27 nivôse an VII (16 janvier 1799). - ١٦٤
- Campagnes d'Égypte...*, XXIX, pp. 610 - 611. - ١٦٥
- Ordre du 20 nivôse an VII (9 janvier 1799), *Correspondance...*, V, pp. 311 - 312. Le dromadaire est le nom du soldat, chameau est celui de sa monture. - ١٦٦
- Ordre du 25 nivôse an VII (14 janvier 1799), *Correspondance*, V, pp. 331 - 332. - ١٦٧
- ١٦٨ - LA JONQUIÈRE, IV, pp. 42 - 43 يهدو أن الوفاء كان مع ذلك أقل فتكا من ولاء الإسكندرية وأن مدينتي من المسلمين الفرنسيين كانوا قريبين عندما تلقوا أن الوفاء ولاء طاعون.
- ١٦٩ - إن لاجرانج، الذي ولد في عام ١٧٦٢، كان قد برز خلال حملة إيطاليا. وخلافا لكثيرين من قدامى المحاربين في مصر، فإنه لا يبدو أنه قد تعرض لنزع الحظوة عنه في ظل الإمبراطورية، بالرغم من أنه كان قد خدم الملك جيروم في ويستفاليا. وسوف يموت كوجيه الفرنسي في عام ١٨٣٦.
- ١٧٠ - Sur toute cette période, voir *Kléber et Bonaparte*, II, pp. 346 - 377.
- ١٧١ - Le 22 pluviôse (10 février 1799), LA JONQUIÈRE, IV, p. 143.
- ١٧٢ - ١٢٩٤٥ بالضبط وفقاً للاجونيكيير (IV, P. 149).
- ١٧٣ - انظر الفصل الخامس بالإعداد للحملة.

الفصل السادس

فلسطين أو بطايات اللعبة الكبرى

اللعبة الكبرى

الإنجليز والفرنسيون

إن الجيل نفسه الذي شهد الثورة الصناعية والثورة الفرنسية، قد شهد حدثاً ثالثاً، لا تكاد تكون له هو الآخر سابقة، هو فرض الهيمنة الأوروبية على العالم. ونظرة للمستشرق الأمريكي الكبير مارشال ج. س. هوجسون هذه تجد تأكيداً لها في السنوات الثلاث لحروب الائتلاف الثاني الذي حرضت عليه حملة مصر، وهي لحظة أساسية يكتسب فيها كامل مغزاه تحول للصالح الأوروبية من العالم الجديد صوب العالم القديم، وهو التحول الذي بدأ في منتصف القرن الثامن عشر. والهند هي مفتاح جميع الأبواب. ومن الواضح أن الهدف الاستراتيجي للفرنسيين، في الأجل القصير كما في الأجل الطويل، هو تدمير القوة الإنجليزية في شبه القارة (الهندية)، لكن للصنوليين الإنجليز في الساحة كانوا قد توقعوا تحرك الفرنسيين.

إن ويلسلي، منذ مستهل عام ١٧٩٨، يتذرع بالخطر الفرنسي لكي يبرر مشروعه الرامي إلى القضاء على التوازن الهندي وإقامة إمبراطورية إنجليزية. وبدا الحملة الفرنسية يبرر بشكل بعيد تصرفه. وهو يتذرع به للقضاء على القوتين اللضادتين للقوة الإنجليزية، سلطنة ميسور التي يلقب على رأسها تيبو صليح و أفغانستان التي يلقب على رأسها زمان شاه، واللتين يجرى تصويرهما كحليفين، ليس فقط ممكنتين بل وعليتين، لفرنسا ثورية كان يمكنها من ثم تطوير القوة الإنجليزية في الهند. وسمياً إلى مواجهة التهديد الأفغاني الذي يستهدف الأنسوس - الواقع أن الأفغان كانوا قد بنوا من تلقاء أنفسهم زحفاً على بلخي في خريف عام ١٧٩٨ ووصلوا إلى لاهور - يعتمد ويلسلي على

عمل يحول الأنظار عن الصاحبة الرئيسية للنم من فارس التي تترك على رأسها السلالة الحاكمة الفارسية. ويتمكن الصين في يناير ١٧٩٩ من وقف الفارة الأفغانية وتؤدي الضغوط الإنجليزية والتهديدات الفارسية إلى إجبار زمان شاه على الانسحاب إلى كابل. ومن ثم فإن أمن الهند إنما يستند على سياسة تصويب أفغانستان وفارس. لذلك هو الطريق البري إلى الهند.

وبعد تحرره مؤلفاً من التهديد القادم من الشمال، يتجه ويلسلي الآن إلى الجنوب لهزيمة مهسور، نقطة نهاية الطريق البحري. وبعد معركة قصيرة، يلقى تيهو صاحب الهزيمة ويلقى حتفه في سيرينجاپاتم في ٤ مايو ١٧٩٩. وعندئذ تسقط الدول الهندية الأخرى بشكل نهائي تحت النفوذ الإنجليزي إلى هذا الحد أو ذاك بأن تُستوعب أو بأن تصبح محميات^(٧). وعندئذ يمكن لويلسلي أن يفكر في التحول صوب الشمال لمواجهة غزو فرنسي محتمل، لأنه يعلم الآن أن بوناهارت قد غامر مصر للزحف على سوريا.

اللعبة الكبرى

وهكذا فإن السياسة الإنجليزية الموضوعة في الهند تمتد شعاع فعلها حتى فارس. ويتمين عليها بالضرورة مواجهة السياسة الموضوعة في لندن وفي السفارة (الإنجليزية) في القسطنطينية. ولا تعود هناك سياسة أرض لا تنافس عليها بين الهند والبحر المتوسط. فكل طرف يرسل عملاءه على طول الطريق البري إلى الهند. إنها اللعبة الكبرى التي سوف يصفها كيهلينج فيما بعد بكثير في كتابه. فالسيطرة الأوروبية لن تكون أبداً مشروعاً مشتركاً، بل فعل قوى متنافسة تتحارب فيما بينها. وهذه الحرب هي صراع على النفوذ.

وسوف ينتقل الأوروبيون صراعهم إلى مجمل العالم القديم. والفعل إنما يعني بالدرجة الأولى مواجهة الفعل المتوقع من الخصم، لكنه يعني أيضاً اللعب على الأوتار السياسية والثقافية والاقتصادية والأيدولوجية للمجتمعات الشرقية. والحال أن مستشرقاً، أي مجموع المعارف التي يراكها الغرب عن الشرق، إنما يصبح السلاح الأساسي لعملاء كل دولة. وهو لا يخدم إلا بشكل ثانوي في تبرير الواقع الإمبريالي.

ومعبر هذه اللعبة هو سلسلة الدول الإسلامية الممتدة من البحر المتوسط إلى الاندوس. ولاعبو الأنوار هم دبلوماسيون ومغامرون وسياسيون وعلماء. والخاصية

الغريبة هي أن اللعبة الكبرى تدور أولاً بين صفوف البريطانيين، وسوف يستمر ذلك حتى بداية القرن العشرين. فانبثاقاً من مركزين لاتخاذ القرار هما الهند وبريطانيا العظمى، سوف يعمل الموظفون الإنجليز بعضهم ضد البعض الأخر، وسوف يكون لكل فريق منهم مرشحوه الشرقيون نحو الأطماع المتناقضة.

وهكذا فإن لندن ترسل هارفورد جونز مندوباً إلى بغداد، مكلفاً بأن ينظم على المستوى المحلي المقاومة لزحف فرنسي محتمل على الهند. وعندما يصل إلى الموقع في ٢٠ سبتمبر ١٧٩٨، فإنه يصطدم على الفور بمعارضة السفارة (الإنجليزية) في القسطنطينية. فكل عمل سينسر سميت إنما يستند إلى تعزيز الهيكل الداخلي للإمبراطورية العثمانية. وهو لا يستطيع قبول عمل يسير في الاتجاه المضاد، التشجيع الممنوح لشبه دولة للملك الهمة في العراق، والتي يتزعمها سليمان الأكبر، الذي يعتبر استقلاله الذاتي أكبر بكثير من الاستقلال الذاتي لمالك مصر. والحال أن هارفورد جونز، المشتبك مع سينسر سميت بشأن هذه المسألة، يقرر، في المقابل، التحالف معه للاعتراض على السياسة الهندية. فالرجلان يريان أن أفغانستان السنية، لا إيران الشيعية، هي التي يجب أن تشكل العقبة الرئيسية في وجه زحف بونابارت للفرنسيين.

وقد تمكن سينسر سميت من توصيل التحالف الفعلي، القائم بين روسيا والإمبراطورية العثمانية، إلى حلف قانوني، تم التوقيع عليه في القسطنطينية في يوم ٢ و ٥ يناير ١٧٩٩. وتكفل المعاهدة وحدة أراضي الإمبراطورية العثمانية، ومن ثم إعادة دمج مصر بها، وتنص على تنسيق عمل الدول الثلاث، أي - بالدرجة الأولى - حظر أي صلح منفرد. ويعني هذا الحلف في المحل الأول التمهيد المؤقت للأطماع الروسية في الإمبراطورية العثمانية لحساب نضال ضد الخصم المشترك. لكن الجميع يعرفون أن روسيا، بمجرد القضاء على الفرنسيين، سوف تصانف مخططاتها الرامية إلى تقسيم الإمبراطورية. وفي الأجل المتوسط، فإن الصراع عن الطريق البري يجب أن يشمل استعراضاً للقوة أمام الخطر الروسي.

الإسلام السياسي

والأداة المباشرة لهذا الفعل ليست شيئاً آخر غير الشكل الأول للإسلام السياسي والذي يبرزه العثمانيون منذ بداية سبعينيات القرن الثامن عشر، فكرة الخلافة. ويرى

سينعمر سميت وهارفورد أنهما قد علنا على الوسيلة الأكثر فعالية لوقف بونابارت في زحفه إلى الهند. وقد أدركا كلمة حرب الدعاية التي يخوضها الباب العالي منذ خريف عام ١٧٩٨. وشأنهما في ذلك شأن جميع المسئولين الأوروبيين، فإنهما لا يستطيعان تصور الخلافة إلا بوصفها نوعاً من باهوية إسلامية^(٣). ومن ثم فإن هدف سياستهما سوف يتمثل في تأكيد هيمنة الخلافة العثمانية على مجمل الطريق إلى الهند. وبما أن الإسلام السياسي يتغذى إلى حد بعيد على الإيمان للتواجد لدى الغربيين عن قوته، فإن من الواضح أن العثمانيين يحذرون من تصدير المسئولين الإنجليز من خلال إيمانهم. واللعبة الكبرى هي أيضاً لعبة التصورات التي يكونها الغربيون عن الشرق والتي يعيدها الشرق بالتالي إليهم.

وهكذا فإن سليم الثالث يصعد بالكتابة إلى تيهو صاحب لإبلاغه بالعدوان الفرنسي، فهدد بالهزيم بالمرّة، ضد الإمبراطورية العثمانية، ويوضح له الخطر الرهيب الذي تتعرض له المدينتان للقدسستان في شبه الجزيرة العربية والتهديد للقاتل الذي تشكله الثورة الفرنسية بالنسبة للإسلام. وللإسهام في الدخال ضد هؤلاء «الفرنسيين» إلى جانب «إخوانه المسلمين»، يتعين على سلطان ميسور أن يتوصل إلى تلامم يتسرع ما يمكن مع الإنجليز وأن يرفض جميع عروض الفرنسيين الزائفة^(٤). وبشكل متعلل من جهة أخرى، لا يستخدم السلطان (العثماني) في هذه المراسلات صفة خليفة جميع المسلمين التي يسبقها الإنجليز عليه بهالغ السخاء.

وهذه السياسة الإسلامية الخاصة بإحياء الخلافة لا يمكن أن تجد مجالاً لها إلا في عالم الإسلام العنّي ومن ثم فإن أفغانستان والدول السنية في شبه القارة الهندية هي مرتكزاتها. أما فارس الشيعية - العدو التقليدي للعثمانيين - فإنها مستبعدة من منظومة النفوذ هذه. إلا أنه بينما يتحرك إنجليز الإمبراطورية العثمانية للتوصل إلى تحالف أفغاني ضد هزو فرنسي قائم من البحر المتوسط، فإن إنجليز الهند يسمعون إلى تحالف فارسي ضد أفغانستان التي يجري تصويرها على أنها حليف لفرنسا. والحال أن الخطر الحقيقي، منظوراً إليه من كلكتا ومن بومباي، إنما يجرى من الأفغان، وليس الخطر الفرنسي غير فزاعة يراود بها التهديد لدى لندن لسياسة توسع منهجية. ومن ثم يتعين على لندن أن تلعب دور الحكم بين السياستين المتعارضتين. وفي عام ١٨٠٠ يحرز خط القسطنطينية الفلبة، وسوف يجري استخدام القوات التي يعيدها ويلعبها لفتح أفغانستان في البحر الأحمر.

وفي مرحلة أولى، يتمثل العمل الإنجليزي ضد حملة مصر في دعم نهاية الجلب العالي الإسلامية ومحا إلى الهند، بما يشكل بوهنا إضالياً على أن إنجلترا تأخذ مأخذ الجهد تملأ خطر زحف برى على الهند في أوائل عام ١٧٩٩. وعلى المستوى البحري، يقرر الإنجليز إتمام حصار مصر، بالتمركز في البحر الأحمر وباحتلال جزيرة بريم، لمنع خروج الفرنسيين انطلاقاً من السويس. كما يجرى التخطيط لمراقبة المخليج الفارسي في حالة اتجاه الفرنسيين، بعد اجتياز سوريا، إلى استخدام ميناء البصرة. وهذا المجهود للمحوظ يقود إلى سحب الأسطول الإنجليزي من المحيط الهندي، بما يؤدي إلى ترك التجارة مع الصين عرضة للتهديد من جانب أسبان مانيل، كما يقود إلى التخلي عن المشاريع الرامية إلى فتح للمستعمرات الهولندية والفرنسية في المحيط الهندي وفي المحيط الهندي وهذه نتيجة غير متوقعة للحملة.

السياسة السامية

بشكل مباشر أكثر، سوف يُعهد بالنضال ضد بوناپارت إلى أغ سبنسر سميث، سبنس سميث، وهو شخصية تتميز بأصالة قوية. وهذا الرجل، الذي ولد في عام ١٧٦٤، والذي يكبر بوناپارت قليلاً، يدخل البحرية في عام ١٧٧٧. ويحصل على حماية عائلية واسعة، يحصل مسوفاً سريعاً، ويصبح قبطان سفينة في التاسعة عشرة من عمره ويشارك في حرب استقلال الولايات المتحدة. ثم يتولى مهمات استطلاعات بحرية على سواحل نورماندي ثم على سواحل مراكش وسيكون مستشاراً بحرياً لملك السويد جوستاف الثالث في حرب السويد ضد روسيا. ولا يجرى منحه ألقاب النبالة والشرف بسبب مآثره الحربية، فإنه يشارك في عملية رصد لسواحل الإمبراطورية العثمانية في اللحظة التي تنشب فيها الحرب مع فرنسا، ويشارك في حصار طولون. وهو يلمع مع إحراره الأسطول الفرنسي خلال سقوط المدينة إثر عمليات نصف بوناپارت لها.

وبعد هذه المأثرة يختم على طول السواحل الفرنسية للمحيط الأطلسي والمانش لكي يؤمن الاتصالات مع مختلف التمردات الملكية. ويتم أسره في أبريل ١٧٩٦، خلال غارة على مصب السين. ويتواجد معه سكرتيره الملازم رايت ومهاجر فرنسي هو الكونت بو ترومان الذي يتظاهر بأنه إنجليزي اسمه بروملي. ويجري احتجازهم في سجن تامبل ومهران ما يدخلون في اتصال مع المنظمات السرية الملكية جد القوية في هذه الفترة من

تاريخ حكومة الإنمارة. وهم يتابعون بانتباه التطور السياسي الذي يقود إلى انقلاب ١٨ فريوكتيدور. ويكتب سيدنى سميت إلى بوناپارت طالباً الإفراج عنه في تبادل للأسرى، لكن هذا الأخير لا يتدخل. وفي نهاية الأمر، يهرب مع رفائه في فبراير ١٧٩٨، في عملية قام بها فيليپو، وهو ملكي وزميل دراسة لبوناپارت (٥).

والحال أن خبرته المتنوعة، وواقع أنه حر من كل ارتباط وتغفل أسرته سوف تساعد على ترشيحه للخدمة في الإمبراطورية العثمانية في مواجهة بوناپارت. وهو يحصل في أن واحد على وظائف دبلوماسية وعسكرية. وهذا التداخل للسلطات، غير المؤدى عندما يكون أخوه سينسر سميت قائماً بالأعمال في القسطنطينية، سوف يكون سبب نزاع متصل مع اللورد ايلجين عندما يتولى هذا الأخير مهامه كسفير، وسوف يقود إلى كارثة حقيقية بالنسبة للسياسة الإنجليزية.

ويحصل سيدنى سميت على قيادة سفينة حربية، هي التيجر (النمر) (وهي سفينة فرنسية سابقة كان قد تم الاستيلاء عليها في عام ١٧٩٥). وهو يأخذ في خدمته حاشية فيليپو، شارل فروتيه، الأخ غير الشقيق للجنرال فروتيه، إلى جانب اثنين آخرين). ويصل إلى القسطنطينية في ٢١ ديسمبر ١٧٩٨، في الوقت المناسب تماماً لحضور توقيع معاهدة التحالف مع الإمبراطورية العثمانية. وهو يدخل على الفور في تفاوض مع العثمانيين لتحديد مسلسل العمليات. وفي ١٧ يناير ١٧٩٩، يقابل الرئيس الهندي، المتحدث بلسان الباب العالي في مجال الشؤون الخارجية. ويعرض فكرته الأساسية. ويفضل درايته التلمة بالحالة الذهنية للفرنسيين في لواخر الفترة الثورية، يبدو له أن من الممكن القضاء على خطر جيش الشرق من خلال مجرد حرب سيكولوجية. وسلاحه السري ليس شيئاً آخر غير حاشيته من الملكيين وخاصة فيليپو الذي يحضر الاجتماع، «تابع للفارس (سيدنى سميت) حديثه موضحاً للوزراء المجتمعين أن أحد الأساليب الأكثر أهمية والتي يمكن للكولونيل فيليپو أن يكون مفيداً فيها لمصالح الباب العالي، إنما يتمثل في أن يجتنب بتأثيره غالبية الضباط الساخطين في جيش بوناپارت، والذين يرى أن العديدين منهم ينتمون إلى الحزب نفسه الذي ينتمي هو إليه. ومن ثم سوف يكون من السهل تمليق ردتهم، أما وسيلة جعلهم نالعين بعد ذلك للقضية السامية فهي لا تعتمد إلا على التشجيع الذي يرى الباب العالي تقديمه بأن يعرض عليهم في أن واحد الخدمة في الجيوش المشتركة لوجع العودة بحرية إلى حيث كانوا في وطنهم حيث سوف يسارعون، إذ يجدون أنفسهم

محل اضطهاد لو، على الأقل، محل لزيارة من جانب حكومة الإدارة، إلى التوحد مع الصلخطين ومن ثم زيادة عدد أملاكها البلخطين. وعندما أخذ الكولونيل فيليبو الكلمة هو الآخر، أضاف أن مثل هذه العروض من شأنها أن تكون لها نتائج جيدة وأن هناك عديدين من الضباط مع بونابارت كانوا في السابق تحت إمرته وأنهم لا يريدون شيئاً أحسن من خدمة قضية الملكية؛ ومن الطبيعي أن صاخطين آخرين على الحملة يتمنون العودة إلى حيث كانوا في فرنسا، وأنه بين صفوف الجنود أنفسهم هناك من سوف ينتهزون أول فرصة تسنح لهم للعودة إلى حيث كانوا مع ذويهم، فهم لا يوجدون هناك (في مصر - للترجم) لبنة إلا بحكم الإلزام والإجبار^(٦).

ويورد المسئولون العثمانيون للزعجون بأنهم لا يمكنهم استخدام جميع الضباط الفرنسيين في جيشهم. لكن سيهني سميت يصارع إلى طمانتهم؛ إن المقصود بشكل خاص هو إقناع العدد الأكبر بالعودة إلى فرنسا عن طريق تبادلات لأسرى صوريين سعياً إلى تكوين بؤرة قوية للضغط ضد حكومة الإدارة. ولتأمين نجاح هذه الخطة، يجب على العثمانيين قبول العادة الأوروبية الخاصة بتبادل الرسل بين المتحاربين. وفي التو والحال، يطرح سيهني سميت مشروع هجوم على الإسكندرية سعياً إلى منع الفرنسيين من تعزيز مركزهم في مصر. ويعلن العثمانيون أنهم لن يكونوا مستعدين إلا في شهر مارس للتحرك انطلاقاً من سوريا، ويقولون فكرة عملية مشتركة بيناً وبحراً. ويجد العميد البحري نفسه وقد حصل على قيادة العمليات من العثمانيين أنفسهم. وسوف تكون روس قاعدة الانطلاق. ويدافع من شاغل إنساني حلقى، ويطلق من روح التضامن الأوروبي وسعياً إلى كسب سمعة مؤاتية لمخططاته، ينجح في الوصول إلى تحسين ملحوظ لأحوال حبس الفرنسيين المحتجزين في العاصمة^(٧). وفي ١٧ فبراير، يغادر القسطنطينية متجهاً إلى شرق البحر المتوسط. وفي ذلك التاريخ، كان الجيش الفرنسي قد بدأ بالفعل زحفه إلى فلسطين.

حسابات بونابارت

يصدق الإنجليز إمكانية حملة فرنسية على الهند. فما هي في الواقع طموحات بونابارت؟ إنه، من جهة، يحتفظ بإمكانية العودة إلى فرنسا، ومن جهة أخرى، فإنه قد زعم طيلة حياته أنه كان يستهدف إما الهند، أو إمبراطورية الشرق أو العودة إلى فرنسا عن

طريق القسطنطينية. والشواهد عديدة؛ فقد أوردنا في مذكراتهم للقرون إليه من زمن
القنصلية ومن زمن الإمبراطورية مثل سيجور أو منام أو ريموسا أو كولانكور؛ وقد كرد
ذلك في مناسبات جد عديدة في صلت هيلين؛ وأكد في روايته لحملة سوريا. إن التوازن
مع الإسكندر الأكبر نائم في جميع هذه الأحاديث. على أن غالبية المؤرخين لا يؤمنون
بواقع هذا المشروع (٨).

ولا يجب أن ننسى أن جموح الطموحات عنده يراعى دائماً حسب ملائكت القوة،
خاصة في تلك الفترة. ومن ثم يجب البحث عن عناصر هذا الحساب.

إن السياسة «الإسلامية» التي اعتمدها منذ النزول إلى الإسكندرية قد فشلت في
تحقيق مخططه الأكبر؛ أن يحشد حوله، كفاتح شرقي جديد، كافة المسلمين. لحرب الدعاية
التي شنها الباب العالي، والتي من المؤكد أنه لم يتوقعها، قد خربت هذا المشروع.
والاستعراض الوحيد الذي تسنى له للتوصل إليه، هو تأكيد السلطة الدينية المستقلة
لشريف مكة والسعى إلى رفعها إلى مستوى سلطة مضادة لسلطة خليفة القسطنطينية.
وسوف يعاود الفرنسيون والإنجليز إجراء المناورة نفسها خلال الحرب العالمية الأولى (٩).
لما تأكيد شخصية سياسية مصرية أصيلة فهو فكرة ثانوية في دماغه وهو لا يمكنه
بحال أن يخدمه في زحفه على الهند.

اللزعة العربية

بما أن بونابارت لا يمكنه بعد اللعب بورقة الإسلام السياسي، التي يحتكرها
العثمانيون والإنجليز، فإنه يتجه عندئذ إلى جانب آخر من جوانب البرنامج الذي رسمه
قولني، تحرير شعوب الشرق. وسوف يسعى إلى وضع اللزعة العربية في مواجهة
الإسلام. وتلك هي الفكرة الرئيسية للفترة من أكثر الفقرات غرابة في كتابه «حملتنا مصر
وسوريا». وهو لم يؤرخها بشكل محدد لكنه وضعها في روايته قبل الحديث عن حملة
سوريا. وهي تبدو بوصفها محصلة للنقاشات التي أجراها بونابارت مع العلماء.

«لمس السلطان الكبير (بونابارت) وتر للوطنية العربية، لما تخضع الأمة العربية
للأتراك؟ كيف تهيمن على مصر الخصيعة، وشبه الجزيرة العربية المقسمة، شعوب جاءت
من القوقاز؟ وإذا ما هبط محمد اليوم من السماء على الأرض، فإلى أين سوف يذهب؟ هل
يذهب إلى القسطنطينية؟ لكن هذه مدينة نبوية، بها من الكفار أكثر مما بها من
إيمانين؛ وجوده هناك يعني أنه يضع نفسه وسط أعدائه. كلا، إنه سوف يفضل مياه

النيل للباركة؛ وسوف يجرى لإقامة في مسجد الجامع الأزهر، ذلك المفتاح الأول للكعبة
للقيسة؛ عند هذه الكلمات تهلت وجوه أولئك الشيوخ الأجلاء، ومالت أجسامهم، ورددوا،
مكتولى الأيدى، «طبيب، طبيب، الله هذا صحيح تماماً».

«ومنذ تم هزل مراد بك عزلة تامة، قال لهم ناپوليون: «إننى أريد إعادة ملكوت
العرب؛ لمن الذى يمنعنى من ذلك؟ لقد سمعت للملك، للملأيشيا الأكثر حسارة فى
الشرق. وعندما يعود للتفاهم بيننا، وعندما تترك شعوب مصر كل الخير الذى أريد عمله
من أجلها، فإنها سوف تتعلق بى بإخلاص. إننى سوف أحيى زمن مجد الفاطميين (١٠)».

ورداً على بوناپارت الذى يطلب مساندة العلماء، يشير هؤلاء الأخيرون إلى ضرورة
تحول الجيش الفرنسى لولا إلى اعتناق الإسلام. وعندئذ يرد بوناپارت بالإشارة إلى عقبتى
الختان وتحريم الخمر. فيرد العلماء بأن الختان ليس غير عمل محبب لكنه ليس إلزامياً،
وبأن للره يمكنه شرب النبيذ مع بقائه مسلماً لكنه - نتيجة لذلك - بعد الموت لا يدخل
الجنة. وعندئذ يتوصل الشيخ المهدي إلى حل وسط مبنى على استشارة شريف مكة. وبعد
مناقشات طويلة، يجرى اعتبار إثم شرب الخمر إثمًا يمكن التكفير عنه بالإكثار من أعمال
الخير.

وهذه الرواية لا تجد أى تأكيد لها فى المصادر العربية، لكن الإشارات إلى أصول
الشرعية الإسلامية والردود للنسوب إلى الشيخ المهدي إنما تسمح بتصديق صحة جزء على
الأقل من هذه الرواية التى رويت فى سانت - هيلين. ويتفق ذلك تماماً مع العلاقات التى
انتهى الأمر بها إلى التعرّض بين بوناپارت والعلماء. وفى روايته التالية، يتفاخر الأول بإمكانه
من كسب ولائهم المخلص بهذا النوع من الكلام، أى بإمكانه من خداعهم، لكنه يعرف كيف
يتلوك مبالغاته ويعترف بالواقع؛ «لقد كان المشايخ يعرفون جيداً أننى لست مسلماً وأنهم
لن يتوصلوا إلى جعلى مسلماً، لكن الحكمة السياسية وحدها هى التى تجعلنى أحاببهم
واتملقهم وأساندهم. ولم يك للمشايخ يريدون الكثير منى؛ وكانوا معتنين لمواقفى الخيرة،
لأشكال المراعاة التى أبدوها. وكانت السياسة تملئ على ذلك... (١١)».

هنا نصل إلى مفارقة نزع بوناپارت العربية. إنها من حيث الأساس علمانية
وتاريخية. وهى تتبع الفكرة الرئيسية الكبرى لمخطط التاريخ الذى رسمه التنوير، العرب
من حيث هم شعب - محطة للحضارة بين العصر القديم والرينسانس الأوروبى. وهنا
التصور لهر مفهوم لمن يتحدث إليهم. فبالنسبة لهم، لا توجد عروبة غير عروبة النصب،

إلى الانتماء إلى القبائل الكبرى لهبه الجزيرة العربية، وأساساً من زاوية زمن الفتح العربي،
لو فتح العالم على الإسلام، لو إننا عروية إسلامية لأن اللغة العربية هي لغة القرآن وهو ليس
شيئاً آخر غير كلام الله نفسه.

وعندما يُنصق القائد العام في ٢١ ديسمبر من العام السابع (١١ ديسمبر ١٧٩٨) إلى
زيارة الشيخ السانك بمناسبة عيد مولد السيدة زينب، فإن المرء يشهد حوار طرشان
حقيقياً، سبق الحديث تناول العشاء وتلاه. وقال الجنرال بوناپارت للمشايخ، إن العرب قد
رعوا الفنون والعلوم في زمن الخلفاء، لكنهم اليوم في جهل عميق وأنه لم يبق لهم شيء
من معارف أسلافهم، ورد الشيخ السانك بأنهم يبنون لهم القرآن الذي يحوى جميع
المعارف. فتسامل الجنرال عما إننا كان القرآن قد بين طريقة سبكه المدافع. وعندئذ أجاب
جميع المشايخ للحاضرين بحسرة إن نعمه (١٢).

وبالرغم من اطمئنان بوناپارت الشديد إلى تحليله، فإنه لا يدرك أنه عندما يتحدث
عن العظمة التاريخية للعرب، فإنهم يردون عليه قائماً بالحديث عن الإسلام. وهو يرى أن
من الواضح أن تمرده عربياً ضحكاً على وهك النشوب في سوريا وإن من الواجب تهيئة
لنولى قبلته. وبعبارة عن العرب أيضاً، فإن مجمل الفئة الثالثة الشرقية تعتبر عدوة للأتراك
كما أن الفئة الثالثة الفرنسية، المنحدرة من أصول غالية - رومانية هي عدوة
الارستقراطيات ذات الأصل الهرماني. ومن ثم فإن الهدف الأول لحملة سوريا، ملاوة على
القضاء على خطر اليهود العثمانية، هو تعزيز الإمبراطورية نفسها، على الأقل في
جزئها الآسيوي، عبر تمرد شعوبها. ومن ثم فإن لبوات اللعبة الكبرى ماثلة بالفعل،
لإنجليز يستخدمون الإسلام السياسي والفرنسيون يستخدمون النزعة القومية، مع
تشديد خاص على النزعة العربية.

فلسطين

من الواضح أن هذا التصور العام إنما يستند إلى تفسير أكثر تحديداً للحقائق
السياسية لسوريا الطبيعية، بلاد الشام. ويبدو أن هذه المنطقة الشاسعة قد صرفت في
العقود الأولى للقرن الثامن عشر نحواً اقتصادياً وديموغرافياً قوياً، خاصة في الجزء
الجنوبي منها، فلسطين (١٣).

فالسكان الحضريون هناك مهمون، إذ تصل نسبتهم إلى نحو ٢٠ في المائة، أي أعلى من المتوسط الذي عرفته أوروبا الغربية في تلك الفترة. وهذه الظاهرة الكلاسيكية في المنطقة تجد تعزيراً لها عبر إعلان فتح الساحل. وسعيًا إلى التحيلولة بون حوطة للصليبيين، كانت السلطة المملوكية قد منعت من الناحية العملية أي انقراض حضري ساحلي وكانت امتدادات القراصنة الفرنجة (خاصة للملطييين) قد كرسّت هذا الوضع. ومنذ بداية القرن الثامن عشر، ينتهج العثمانيون سياسة مخالفة ويقربون تدعيم المدن الساحلية. وعندئذ فإن حوطة الأمن تسمح بالتطور السريع لجعل المدن الساحلية، وهي مدن جديدة، بالرغم من إنشائها في مواقع قديمة^(١٤). وهذا التطور يقود إلى تكثيف للعلاقات الاقتصادية مع أوروبا، التي تصبح سوقاً متزايدة الأهمية للمنتجات الزراعية للمنطقة، خاصة القز والتبغ والقطن. وتتأسس سلطات محلية على إرادات الزراعة للتنامية التي تسيطر عليها من خلال الائتلافات الطبقية. ويفضل تكوين جيوش محلية، تنجح هذه السلطات في استعانة الأمن الداخلي بصنفا للتزايد الفعلي للهدوء، ويتوسّعها كذلك للمساحات المنزوعة ومن ثم زيادة دخولها. وهذا الوسط المناسب يسمح بنمو أكثر أهمية للسكان الريفيين والمصنّعات.

والواقع أن الزراعة الفلسطينية إنما تتميز بوجود قري على المرتفعات وذلك بسبب الانعدام التقليدي للأمن. ويجرى استغلال الأرض القريبة بشكل دائم من جانب أسر مستقلة. أما الأرض البعيدة، والتي تتمثل في الواديان والسهول الساحلية، والأكثر عرضة للأخطار بكثير، فهي تستغل بشكل جماعي (مشاعة) من جانب جماعات تربط بين أفرادها وحدة اسم السلف الأعلى (حَمُولَة) توزع فيما بينها الأراضي بشكل دوري، وذلك عمومًا، في نهاية فترات إزاحة الأرض. وبحكم البعد، تظهر مراكز ثانوية، على انخفاض مراكز موجودة بالفعل في أغلب الأحيان. وخلال الفترات الطويلة لانعدام الأمن، يهجر السكان الأرض الزراعية البعيدة لكي يتركزوا في المنطقة القريبة من القرية - الأصلية^(١٥). ووجود هذه الأطلال يعطي للرحالة الأوروبيين انطباعًا بالتحول للزراعة قديمًا إلى فترات العمالة. ويجب لللتزم الحضريّة العقارية جعله الجماعة القروية مسئولة بشكل تضامني من مجموع للمبالغ التي يجب دفعها، كما أن تأكيد الأمن للمتعلق من جراء صد الهدوء يعتبر استثمارًا اقتصاديًا جد مربح لأنه يسمح باستغلال الأراضي المنخفضة.

الجزائر

إن أول من استفاد من هذا التطور هو ضامر العمر الزيداني، حليف وصديق على بك. فهو إذ يجمع لحسابه الالتزامات الضريبية من الجليل إلى البحر وإذا يدخل في علاقة وثيقة مع التجار الفرنسيين، ينجح في تأسيس قوة إقليمية حقيقية حول عكا، عاصمتها وعين رمز لحياء موانئ الساحل السوري - الفلسطيني. وقاعدة سلطته محلية وتستند إلى تحالفات عديدة مع الأعيان. ولم يك يوسع للباب العالي أن يقبل تكوين كيان مستقل كهذا غير ناشئ، خلافاً لأشباه دول الإمبراطورية العثمانية الأخرى، عن جهاز الإدارة الإمبراطورية نفسه. ولذا فقد صاند منذ البداية أحمد باشا الجزائر الرهيب الذي أدرك تماماً، وهو الغريب عن المنطقة، ضرورة البقاء على الدوام ضمنى إطار للشرعية العثمانية، بل والاستفادة منها إلى أقصى حد لد قوته مع احتفاظه بربية ملائمة تجاه بصائص السلطة المركزية^(١٦).

وإذا جرى تقليد الجزائر في عام ١٧٧٥ مجرد صلاحيات حكم مدينة عكا، فإنه يتركب - أولاً - على القضاء على آخر آل الزيداني. وهذه الخدمة التي يؤتيها تسمح له بالحصول على قيادة ولاية صيدا التي يواصل حكمها من عكا. وعندها يجرى تكليفه بالتوصل إلى إخضاع جميع الكيانات المستقلة للحمية لحساب الباب العالي ولحسابه هو نفسه. واعتباراً من عام ١٧٨٥، في زمن أزمة خاصة عندما لا يتم تأمين قافلة حجاج آسيا، فإنه يحصل على مقاليد ولاية دمشق. وهو ينجح من جهة أخرى في مد سلطته إلى جنوب فلسطين. وهكذا فإنه يجمع مجمل مكونات القيادة السورية - الفلسطينية في ديسمبر ١٧٩٨ لمواجهة التهديد الفرنسي.

وممارسته للسلطة تتميز بوحشية نادرة. وعدوه الأكثر أهمية بعد القضاء على آل الزيداني هو حليفهم الأقرب، شيعة جبل عامل (جنوب لبنان الحالي). وكان هؤلاء الآخرون قد استفادوا من حلفهم لد سيطرتهم إلى الأراضي المجاورة. ومن عام ١٧٨١ إلى عام ١٧٨٢، يدمر الجزائر كل البلد الشيعي، ويتسبب في خراب ومجازر لا تنسى أبداً. وتحتاج هذه الجماعة إلى عقود حتى تفيق من الخسائر التي وجهها إليها سيد عكا. وبعد ذلك بوقت قصير، يجرى الدور على القبائل البدوية لكي تلقى معاملة مماثلة تؤدي، لفترة طويلة، إلى تولف اعتماداتهم على السكان المستقرين. ثم يتقلب على إمارة الجبل اللبناني.

ومن الناحية الشكلية الرسمية، فإن أمير الجبل ليس غير ملتزم مكلف بجباية الضريبة من سكان الجبل، وهو يجمع ناتج امتيازات ضريبية، هي المقاطعات، التي تعوزها عائلات من أعيان الدروز والموارنة. وهذه البنية الحقوقية تتوج الواقع الاجتماعي بهيكلية سلطات وجماعات عائلية، فالأمير والأعيان هم في كنف واحد يمثلو السلطة المركزية ومظهر شخصية محلية قوية (١٧). وفي اللحظة التي يمد فيها الجزار نفوذه إلى الجبل، تبدأ المغامرة الحكومية للأمير بشهر شهاب. والحال أن هذا الممثل لسلالة حاكمة ذات أصل مسلم سني، إنما يعتبر هو نفسه مارونياً ويخفى عن الجميع للهبات التي يمارسها. وإذا كان مرشحاً من جانب الجزار، فإنه يتولى الحكم في عام ١٧٨٨. والواقع أن سيد عكا يساند بالتتابع جميع المرشحين لهذا المنصب، الأمر الذي يسمح له بالحصول على هبات مالية ملحوظة وبأن يملك دائماً وسيلة للضغط على الأمير. ويتمكن بشير من تأكيد سلطته في تسعينيات القرن الثامن عشر، لكنه يظل تحت سيطرة الجزار بشكل وثيق.

وما كان لكل هذا العمل للمركز حول عكا أن يتم دون تكوين جيش قوى من المرتزقة، خاصة للفارسية، الذين يتجاوز عددهم عشرة آلاف رجل في أواخر تسعينيات القرن الثامن عشر. ولتغطية مثل هذه النفقات، يمد الجزار سيطرته على الامتيازات الضريبية ويضغط على الفلاحين إلى درجة استنثاره، على ما يبدو، لنزوح ديفي يؤدي إلى إقفار الأرياف واختزال للحاصل. ثم إنه يهشن احتكارات، لحسابه، لبيع المنتجات الزراعية للأوروبيين. والحال أن التجار الفرنسيين، الذين يفتقون بذلك إمكانية الشراء بسعر أرخص من المنتجين، هم المضحايا الرئيسيون لهذا الوضع. وعندئذ يتطور تناحر بينهم وسيد عكا يعود إلى طردهم في بداية تسعينيات القرن الثامن عشر. وبالنسبة لحكومة باريس، فإن الجزار هو عين النموذج الأولى للمستبد الدموي والوحشي، الذي يجهل القوانين الليبرالية للاقتصاد السياسي والمشعب بكرامية خاصة للفرنسيين.

لكن شخصية الرجل أكثر تعقيداً. فمن المؤكد أنه سياسي عظيم بشكل نموذجي لوليا لحمد على، خاصة في سياسته الاقتصادية. وهو متاور رهيب يجيد البقاء ضمن الحدود التي يفرضها الباب العالي. وهو يزن تأخير مدفوعات للخزينة، وهي إيرادات ضرورية للخزينة الإمبراطورية، وذلك بشكل يمثل معه تسليمها خسارة لتأخرات ملحوظة. والرعب الذي ينشره في ممتلكاته هو وسيلة المحبة في الحكم، لكنه يعوق بذلك في تلك المنطقة صعود الأعيان المحليين الذي نهجه في كل الإمبراطورية العثمانية. وهو، من حيث عمله وعزمه، يكرنا بمؤسسي تلك الإمبراطورية.

والحال أن صراعه مع بونابارت سوف يتخذ بعداً لا يقبل الشك. إنه سوف يصبح سيف الإسلام وسوف يبنو، في ثورة للمعركة، بوصفه للهدى الذي ينتظره جميع المسلمين^(١٨).

خطة بونابارت

بالنسبة للفتاح الفرنسي، يمثل الجزائر العقبة الأخطر أمام طموحه إلى السيطرة على الشرق. ولما كان بونابارت على علم تام بالوضع السياسي في سوريا - فلسطين، فإنه يفكر أن الوسيلة الوحيدة لإثارة السكان السوريين هي أن يحشد حوله جميع ضحايا الجزائر: أنصار آل الزيداني في الجليل، شيعة جبل عامل والأمير بشير مع دروزه وموارثته الجليليين. وهذا البرنامج السياسي للمعوس تملأ، لأنه لا يدعو أن يكون إعادة تشكيل للاختلاف السياسي الذي نشته ضامر العمر وعلى بك في أوائل سبعينيات القرن الثامن عشر، إنما يجري تفسيره بشكل أعم على أنه ثورة العرب على الأتراك، حركة سوف تعطى دفعة إلى انتفاضة تشمل بكثير من جانب الأمم الخاضعة للعثمانيين، خاصة الأرمن واليونانيين. إن ربيع الشعوب هذا سوف يشهد انهيار الدولة العثمانية^(١٩). والزحف على القسطنطينية، على رأس جميع هذه الشعوب المتحالفة، إنما يعني بالنسبة للإسكندر الجهد تحقيق مشروعه، تأمين دوام الوجود الفرنسي في مصر واتحاد الفرنسيين والشرقيين.

هذا التصور للأمور، يستعيده بشكل علوي المرشد الفكري لبونابارت، فولني (الذي عاد من الولايات المتحدة بعد رحيل الجيش الفرنسي إلى مصر)، ويعرضه في الصحافة الفرنسية في ٢٦ برومور من العلم السابع (١٦ نوفمبر ١٧٩٨). فهدف بونابارت لا يمكن أن يكون هو الزحف على الهند؛ ذلك أن العقبات الجغرافية والبشرية ضخمة، خاصة في غيلب البحرية. وعلى تيبور صاحب وزمان شاه تحرير البلد وحدهما. وفي المقابل، فإن بونابارت سوف يتولى إصلاح مصر، بالقضاء على علامات الاستبداد وتشجيع الزراعة والصناعات وينشر التعليم. إنه، باختصار، يخلق أمة و، باستخدامه لطاقة الحماس القوية، يعيد إلى العرب مجد أسلافهم؛ ويوضح لهم أن الجيش الفرنسي هو الأداة المعجزة للدعوة إلى تطبيق أوامر العناية الإلهية، التي تريد إحياء قوة العرب القدماء، وتخليصهم من نير البرابرة العثمانية، وتنقية شريعة النبي التي حرّلتها الجهلاء والزناينة، وتلخصين مصر جديد لآسيا من العظمة والعلم والمجد.

وهذه هو لولا إنشاء «مستعمرة فرنسية - عربية». وبمجرد تعزيز وضعه في مصر، فإنه يزحف على سوريا حيث يتربص النروز والموارثة والعرب. وجنبا إلى جنبهم، يثير الأكراد والأرمن والفرس والتركمان ويستولى على القسطنطينية. ومن هناك، يرجع إلى لودويج ويحمر اليونان والبانها ثم بولندا، مجهزا على القوة الروسية، ويصبح بوسع الحكومات أن تحصل على السلام، وقد سئمت أخيرا من كل هذه الحروب، والمعارك والمراثي والجرائم والحماقات التي أضنتها». (٢٠)

إلا أنه لكي يتحقق الحلم، لابد له لولا من أن يمر بعكا، حيث ينتظره الجزائر.

حملة سوريا

الحرب

تلقى رينييه وجنود فرقته أمر الزحف قبل الآخرين وتشكيل طليعة للجيش. وهم يصلون أمام العريش في ٧ فبراير ١٧٩٩. ومنذ البداية، يصطدمون بمقاومة قوية من جانب الوحدات العثمانية، التي تملأ حصون المدينة، وتنزل بهم خسائر مهمة. والحال أن كليبر - الذي يستدعى لتعزيزهم - ينضم إليهم مع فرقته في ١٢ فبراير. وينظم رينييه هجوماً في ليلة ١٤ - ١٥ فبراير ويحتاج للعسكر العثماني، مجبراً الجانب الرئيسي من قوات العدو على الانسحاب وترك قلعة العريش لقواته هو. ويصبح يومع الفرنسيين بدء الحصار دون للمجازلة بالتعرض لانتفاض علىهم من الخلف. وسوف يصف نابوليون، في سانت - هيلين، هذا الهجوم المفاجئ بأنه «واحد من أجمل العمليات الحربية التي يمكن شنها» (٢١). إلا أن بوناپارت عندما يصل مع بقية الجيش في ١٧ فبراير يلوم رينييه على خسائره وعلى التنظيم السيء للإمدادات. والواقع أن قائد الفرقة ليس مسئولاً عن هذا التقصير، الرجوع إلى سوء إعداد إمدادات الحملة، ففي اللحظة التي يجرى فيها الجيش حشد في العريش، لا يملك من الناحية العملية إمدادات تسمح له بمواصلة زحفه. ويحتاج رينييه على ما يعتبره ظلماً (٢٢).

ولذا كان العثمانيون، منذ بداية القرن الثامن عشر، وخاصة في حروبهم مع الروس، قد قصروا في حروب الحركة في مواجهة الجيوش الأوروبية، فإنهم على العكس من ذلك خطرون في حرب الحصار (يمكن استعانة هذا للتأكيد بالنسبة للقرن التاسع عشر مع حصار بليشنا الشهير بل وبالنسبة للقرن العشرين مع معركة البرينيل) (٢٣). وهكذا، فإن للمقاومة غير المتوقعة من جانب الفرنسيين والتي تهيئها قلعة العريش إنما تضع جيش الغزو في وضع صعب. ويخاطر بوناپارت إلى طرح شروط لاستسلام جد ملائمة، فهووسع الحامية الانسحاب بكل أشكال الشرف الحربي، وذلك بشرط التعهد بعدم الخدمة في سوريا لمدة سنة وخاصة بشرط ترك مؤناتها للفرنسيين.

وفي مساء ٢٠ فبراير، يستسلم العثمانيون ويغادرون القلعة. وعلى الفور، يحتلها الفرنسيون وينتهكون الاتفاقات، إذ يجرى نزع سلاح الرجال الألف ومائة، ويجرى إرسال

للمماليك (التابعين لإبراهيم بك) إلى مصر، وتجهيد للارتزقة للمغاربة (عدة مئات) بالقوة للعمل في الجيش. وعندئذ يرحل من تبقى من الجنود إلى سوريا، معتبرين أنهم غير ملزمين بعد باتفاق لم يحترمه الفرنسيون منذ البداية. وتسمح الإمدادات التي تم الاستيلاء عليها في الجيش بالتحرك حتى مخرج سيناء. ويحتد كليبر على انعدام مسئولية القائد العام الذي، إذ يثق في حظه السعيد، يرفض مصير الجيش بمغامرة القفزة على التزود بالإمدادات بفضل مستودعات الخصم (٢٤).

ويستأنف الجيش زحفه منذ ٢١ فبراير. وتتشكل الطليعة من كليبر وفراته التي تعززها قوة الفرسان التي يلقونها مودا. وتجرى إعاقة رينيه ودجالة إلى مؤخرة الجيش، ويعهد إليهم بأن ينقلوا بأسرع ما يمكن العتاد والإمدادات للتروكة في مصر. وتتوه فرقة كليبر، بعد أن ضللتها طليعتها، إما بوناپارت الذي يتبعه بعد ذلك مباشرة، مع حاشية صغيرة، فإنهما يقامران بأن يحسبا حملة من للمماليك. وفي ٢٤ فبراير، يستولى الفرنسيون على غرزة حيث يجدون مخزونات مهمة من الإمدادات الغذائية والذخيرة، الأمر الذي يثلج صدورهم إلى أبعد حد. وتنقسم القوات العثمانية؛ فالوحدات العثمانية بالمعنى الدقيق للمصطلح تنسحب إلى يافا، بينما ينسحب للمماليك والقوات المحلية إلى القدس ونابلس. وبهزيمة ثقيلة، يفضل الجزائر على الصدام الجبهوي، غير اللاتم بالخصبة له، استراتيجيته ضد استخدام الحصون الساحلية. وسوف يسمح ذلك له بتأخير الفرنسيين وإجبارهم على البقاء على الساحل. وعندئذ يمكن لسيد عكا أن ينتظر وصول التعزيزات للعثمانية وأن يخوض حرب عصابات، انطلاقاً من داخل الأراضي، على خطوط مواصلات الفرنسيين. وهو يعرف أنه ما دامت قواته الأساسية لم تتعرض للدمار، فلن يكون هناك انحياز مهم للقناة.

يافا

في ٢٨ فبراير، يستأنف الجيش زحفه ويستولى على الرملة في أول مارس. وهناك يتم العثور، مرة أخرى، على مؤن ملحوظة، وهو ما لا يحول دون غارات سلب للحصولات من جانب الجنود وعدد من عمليات النهب التي لا تبرزها أية مقاومة. وفي ٣ مارس ١٧٩٩، يصل كليبر أمام يافا ويتمركز في شمال المدينة سعياً إلى عزلها عن عكا ونابلس. والحال أن عملية استطلاع، قام بها الجنرال دالماس في اتجاه تلك المدينة الأخيرة، إنما تشير إلى

صعوبة التسلل داخل الأراضي، فالواقع الدفاعية الراسخة للقوى للقائمة على المرتفعات ومجموعات الانتصار التي نظمها الجبلون بشكل هفوى تعدُّ من المجال الذي يحتله الفرنسيون في السهل الساحلى (٢٥). ويسمى الفرنسيون بوجه عام أولئك الجبلين بالذاهليين.

وتبدأ محاصرة يافا منذ ٣ مارس. وكانت المدينة مشهورة بحصار دام عدة أشهر عملته ضد على بك في عام ١٧٧٣ وبالمذابح التي ارتكبها هناك أبو الذهب في عام ١٧٧٦، بعد أكثر من شهر ونصف شهر من الحصار. وهى القائمة الأساسية لتراجع العلمانيين. ويتباحث كاتاريللى الذى يقود سلاح للهندسين وبومارتان للسؤل عن اللطعية لتحدد خطة الهجوم. ويرد للحسرون على أعمال للحاصرة بفارات قوية. وفى صباح ٧ مارس، يأمر بوناپارت بالهجوم. وتسيطر المدينة بعد الظهور وينكب الجنود على نهب منهجى. ومن بين جنود الحامية الذين حصل عندهم إلى خمسة آلاف، يسقط ألفان فى المعارك، بينما تستسلم الآلاف الثلاثة الباقية لمساعدى بوناپارت، بوجين نو بوكرنيه وكوروازييه، فى مقابل وعد بالإبقاء على أرواحهم. وعندئذ يعود واحد من أكثر أحداث الأسطورة النابوليونية صولاً، فبوناپارت يخرج من المجموعة للمصريين، الذين حصل عندهم إلى نحو خمسمائة رجل، ويعيدهم إلى بلدهم. ثم يتدرب بوجود مقاتلى حامية العريش الذين حملوا السلاح بالرغم من اتفاق الاستسلام (الذى لم يحترمه الفرنسيون أنفسهم) والذين لابد أن عندهم لم يك ليزيد من ثلاثمائة إلى أربعمائة (٢٦)، لكن يحكم على جميع الأسرى الآخرين بالإعدام. رمياً بالرصاص. والحجة الأخرى التى تساق هى أنه لم يك لديه ما يكفى من القوات للسيطرة عليهم وإرسالهم إلى مصر. على أن عدة مئات من المصريين قد نقلوا بالرغم من ذلك إلى مصر. والذليح الحقيقى للقرار ليس عسكرياً، بل هو نافع سياسى. إذ لا يجهل بوناپارت أن أبو الذهب قد استولى على فلسطين بهذا الشكل. ويورد قولنى قصة ما حدث آنذاك: «لقد عانت المدينة وهلات السلب والنهب، فالتصله والأطفال والشيوخ والرجال البالغون قد مروا كلهم على حد السيف» وأمر محمد (أبو الذهب)، الذى لا يقل جهنه عن بربريته، بتشديد حرم من جميع رؤوس هؤلاء التعساء، تحت ناظره، ليكون أثراً باقياً لانتصاره: ومن المؤكد أن عدد هذه الرؤوس قد وصل إلى ألف ومائتين. وهذه الكارثة، التى تمت فى ١٩ مايو ١٧٧٦، تنشر الرعب فى البلاد كله. بل إن الشيخ ضاهر يهرب من مكاء (٢٧).

إن مذبحة يافا تخفيه بالدرجة الأولى كوسيلة للاستيلاء عبر الرعب على بقية الفلسطينيين، وخاصة عكا. ولابد من إضافة أن استشراف بونا هارت يهدى جوانب جد محيرة. فهو إذا كان يصور نفسه مخلصاً على أنه بطل تمدينى، فإن الشرق هو أيضاً بالنسبة له، وفقاً لما باح به لحلم نو ريموسا، فرصة للتخلص من حضارة جد مزعجة. فعند بداية الحملة، يستخدم الفرنسيون في سياستهم القمعية عدفاً شهير معتاد في الأراضي المحتلة في أوروبا. لقد استعملوا بشكل متكرر تماماً علقت الإرهاب (اليعاقوبى - للترجم) وحرب القناديل. ومنذ بداية العصر الاستعماري، فإن حقوق الإنسان، التي دشنت في أوروبا لأجل الأوروبيين، كان من الصعب أن تنطبق على الشرقيين؛ فإيا كان ما حدث، لم يعود هؤلاء الأخيرين على عتف الاستبداد ؟ وهل عرفوا شيئاً آخر غير الإكراه ؟ لقد قدم مير وصفاً شهيراً لمذبحة يافا، «عندما وصلوا أخيراً إلى الكتبان الرملية في جنوب - شرقي يافا، جرى إيقادهم أمام بركة ماء ركدة. وعندئذ أمر الضابط الذي يقود القوت بتقسيم الحشد إلى مجموعات صغيرة؛ وبعد توجيه هذه المجموعات إلى عدة نقاط مختلفة، جرى قتلها هناك رمياً بالرصاص. وقد استغرقت هذه العملية للربعة الكثير من الوقت، بالرغم من عدد الجنود المخصصين لهذه التضحية للشهوة والذين، ولابد لي من إعلان ذلك، لم يتحملوا، إلا بهالغ التفرد، تلك الطقوس القبيحة المفروضة على أيديهم الظلمة. والحال [...] أن الأتراك [...] يتوضئون في هذا الماء الركدة [...]، ثم إذ يشربون على الأيدي فيما بينهم، بعد أن يضعوها على قلوبهم وأقلامهم، شأن المسلمين في تبادل التحية، يتبادلون وداعاً أيدياً. لقد بنا أن أرواحهم الجسورة تتحدى الموت. [...]

«كان جنودنا قد استغلوا خراطوشاتهم؛ وكان لابد من ضرب [الصفوف الأخيرة] بالحرية وبالسلاح الأبيض. وتشكل - لأنه لابد من قول ذلك - هوم مرعب من الموتى والمحتضرين للذين تنزف منهم الدماء، وكان لابد من سحب الجثث التي قضت بالفعل للإجهاد على التعساء الذين كانوا لم يتم الإجهاد عليهم بعد، في حصى هذا المتراس للرعب، المخيف». (٢٨)

ولابد أن العدد الإجمالي لضحايا الجزيرة يرتفع إلى ألفين وخمسمائة. وفي ٩ مارس، توجه بونا هارت بياناً إلى سكان فلسطين؛ إنه لم يأت لحاربة السكان، بل لحاربة الجزاء، وهو بعد بكلفة حرية ممارسة العبادات والحياة الكاملة للممتلكات. ويواصل تصوير نفسه في صورة كائن فوق بشري؛ «يجدر بكم أن تعرفوا أن جميع الجهود البشرية غير

مجدية ضدى، لأن كل ما تقدم عليه لابد أن يكتب له النجاح، ولولئك الذين يصالوننى سوف يكسبون ولولئك الذين يعانوننى سوف يهلكون. ومثل ما حدث فى يافا وفى غزة لابد له من أن يجعلكم تعرفون أننى إذا كنت لا أرحم أعدائى فإننى كريم مع أصدقائى، وأننى رؤوف ورحيم خاصة مع الفقراء (٢٩).

ويخاطب، بالأسلوب نفسه، سكان القدس والنابلسيين طالباً منهم الإذعان، وإننى رؤوف ورحيم مع أصدقائى، لكننى رهيب كالصامقة تجاه أعدائى (٣٠).

كما يجد الجيش فى يافا عتاكاً حربياً مهماً وإمكانيات عظيمة. وكان توسع الجنود أن يمارسوا النهب على مهل، لكن الطامعون مائل بالعمل، وتظهر الحالات القاتلة الأولى منذ اليوم التالى للاستيلاء على المدينة. والتجذب لى نصر، يجرى عزل المرعى والتكذيب العلنى لخبر أنهم قد أصيبوا بالداء الذى يظفر الرهب. والتأثير على الجنود، فإن بوناپارت، الذى يهدى ثقته لى نصره والذى يريد على ما يبدو إظهار الفرات خارجة عن المألوف، ثلثته لى ذلك شأن ملوك فرنسا فى الأزمنة السابقة، يقوم بزيارة طويلة للمصلين بالطامعون، وهو مشهد سوف يلهم لوحة جروس الشهيرة (١١ مارس ١٧٩٩). وإذا كان بوناپارت لا يصاب بالداء، فإن يافا تصبح مع ذلك بؤرة نائمة للطلّعون لى مؤخرات للجيش.

بداية حصار عكا

فى ١٤ مارس، يجرى استئناف الزحف ويحاذى الجيش فى الأيام التالية جبل الكرمل. وعندما يصل إلى حيفا فى ١٧ مارس، يكتشف وجود عنو جديد، صليبيون حربيين إنجليزيين. إنه سيدنى سميث مع الصليبيون الوتهجرو والوثيسييه. ويمثل وصول الإنجليز كثرة بالنسبة للفرنسيين. فأسطولهم الصغير للكلف ينقل مدفعية الحصار، جد الثقيلة بحيث يصعب نقلها عبر الصحراء، يتم اعتراضه على الفور وأسره، مما يحرم بوناپارت بذلك من عتاده المخصص للحصار (٣١). ويتعين عليه إصدار الأمر بإرسال قافلة جديدة من الإسكندرية لتحل محل العتاد المفقود. وفى يومى ١٩ و ٢٠ مارس، يبدأ الجيش مع تلك محاصرة عكا بينما يغطى لى وفراقته للوقع من جهة الجليل.

ومنذ ١٩ مارس، يمثل عباس ضاهر، حفيد ضاهر العمر، أمام بوناپارت، وهذا الأخير يوليه فوراً على اللجال التقليدى لال الزيدانى، إلهيم طبرية، ويرسل رسائل إلى شيعه جبل عامل ويكتب بنفسه إلى الأمير بشير، مبلّغاً إياه بحصار عكا ويعزمه على القضاء على استبداد الجزار.

«إن نهى تتمثل في جعل الأمة الفرنزية مستقلة، وتخفيف الخزينة التي تلعبها وتسليم ميناء بيروت لها إلى جانب المدن الأخرى التي تعتبر ضرورية لها لمختلف تجارتها.
«وأرجو أن تجهيتوا بأنفسكم، بأمر ما يمكن، أو ترسلوا رسولا للاجتماع بى هذا، أمام عكا، حتى تتخذ جميع الترتيبات الضرورية لتخليصكم من أماننا المشتركين.
«وهو سببكم أن تعلنوا، في جميع قرى الأمة الفرنزية، أن أولئك اللذين يريدون أن ينقلوا إلى المعسكر مؤثراً غذائية، وخاصة النخب والعرق، سوف يحصلون على أمانها غير منقوصة» (٢٢).

والواقع أن مبدأ من الجبليين يحضرون فوراً إلى المعسكر للفردسى لبيع مؤن من كافة الأنواع للفرنسيين ولشراء أسلحة. ويرى الضباط الفرنسيون في ذلك علامة تحالف سياسي أخذ في التشكل مع الدروز. والواقع أن الأمر يتصل أساساً بأمنصار آل الزيدانى وبالشيعة بأكثر مما يتصل بالدروز وبالموارنة. ويكتفى الأمير بشير بالتفاوض عن تجارة يصعب عليه منعها على أية حال (٢٣).

وكان لوصول الأسطول الإنجليزي للصغير أثر ملحوظ على حصار عكا. وإذا كان العثمانيون قد استدانوا بالفعل من إمكانية التزود بالإمدادات عن طريق البحر (لعلوا ذلك في أياها عندما انقطعت الاتصالات البحرية) بشكل مستقل عن الإنجليز، فإنهم سوف يحصلون على مساعدة من عمليات القصف التي تمارسها السفن الإنجليزية وخاصة من وجود متخصصين مثل فيليبس، عهد إليهم فوراً بالعمل لدى الجزار. وهم لن يشعروا بأنهم وحدهم في اللصقة. إن سيدنى سميث، الراغب في الإغلاء من سوره الخاص، سوف يتفكر بأنه قد رفع معنويات سيد عكا الذي كان يستعد للاستسلام. ولا يتلق ذلك بالمرّة مع سيكولوجية الرجل الذي كان ينوى، منذ البداية، للقاومة بقواته الخاصة. وعلاوة على وحداته للقوة من المرتزقة، فإن معه جميع سكان المدينة الذين لم يتردد في تسليمهم. وهو يأمر بذهاب المسيحيين لتجنب أى ظهور خامس محتمل وخاصة لإظهار إصراره. ومسيره بأفأ، بدلا من أن يرعب للدافعين، يوضح لهم أنه ما من مخرج هناك سوى الموت في المعركة أو النصر. وليس أمام الجزار أكثر من اللعب على وتر الذود عن الإسلام لكي يتسنى له الوصول إلى إثارة حمية قواته. وهو، من جهة أخرى، مناوئ لوجود وحدات مهمة تتبع الباب العالي في إقليمه، الأمر الذي يوضح أنه يهتم فعلا بالمستقبل. ويبدو الإنجليز له أكثر حيانا ونلقين في نهاية الأمر لإبقاء سكان الجبل اللبناني في فلكه السياسي.

ويمر الأسبوع الأول للحصار بون حوادث مهمة. وينشئ الفرنسيون خطوط تحصينهم لد الخنادق إلى الحصون الخارجية للمدينة. ويتم إنشاء هذه الخطوط بقدر كبير من العيوب. ويحتج كليبر على ذلك، فهناك جهل بتوزيع انتشار الخصم، وبومارتان وكافاريللي لا يتفقان على الخطة التي يجب اتباعها، ويفضل بونابارت خطة صديقه كافاريللي ولا يأخذ في الحصان للشاريع التي يقدمها قائد المنطقة. ولا يتردد المحاصرون في شن غارات لتهديد أعمال التحصين. ويتجه مورا إلى الجليل سعياً إلى تعزيز أنصار آل الزيفلني بفرسانه، ولتغطية الجيش ضد هجمات محتملة من الشمال (دمشق) أو من الجنوب (نابلس). وتجرى إقامة مستشفيات الجيش في قرية شفا عمرو، حصن ضاهر القديم، والتي تبعد عن عكا مسافة ثلاثة فراسخ.

ويجرى شن الهجوم الأول في ٢٨ مارس ١٧٩٩. وينجح الجنود في اجتياز الخندق الواقع أسفل الحصون للاستيلاء على ثغرة في السور الخارجي، إلا أنه يتكشف أن هذه الثغرة غير سالكة وأنها معرضة تماماً لنيران المحاصرين. إن العثمانيين يربون بسهولة على المعابر. وتحدث خسائر فادحة، مائة رجل من بينهم عدد من الضباط المهمين (٣٦). والحال أن الجزار، الذي انزعج للحظة على مصير مدينته، يقرر الاعتماد على نصائح فيليبو والإنجليز (٣٥). وهو يأمر بإنشاء خط ثانٍ للتحصين خلف السور القديم ويجري نشر جانب من مدافع البحرية الإنجليزية (ومن بينها مدافع كان قد تم الاستيلاء عليها من الفرنسيين) على البر. ويدرك المهاجمون أن الحصار قد أصبح مسألة خطيرة وطويلة وأن زمن الانتصارات السهلة قد ولى.

وفي ٣٠ مارس، يحىء النور على المحاصرين لشن غارة عنيفة على المواقع الفرنسية. ويجرح عدد من الضباط الإنجليز، من بينهم رايت، سكوتير سيدنى سميث. ويعد الفرنسيون لعماً يجب لانفجاره أن يسبق الهجوم الثاني. ويجري شن هذا الهجوم في الأول من إبريل. وبالرغم من بطوالة لان الذي يتولى القيادة في الساحة وعلى الرغم من أن الخندق قد أصبح الآن شبه مدموم بالانقلاض المختلفة، فإن الثغرة تظل دائماً غير سالكة أيضاً. ويتعين على بونابارت انتظار وصول ما تبقى من هتلك الحصار لاستئناف الهجوم. ويعيد الفرنسيون استخدام القنابل التي تطلقها السفن الإنجليزية (٣٧). ويجري إعداد لعم جديد. ومن الجهة الأخرى، يشن الإنجليز غارة أخرى في ٧ إبريل، وينشأ نوع من الدوتين،

إذ يجري تبادل القصف، وتتقدم الخطوط الفرنسية ويكثف المحاصرون الدارات الصغيرة لعرقلة هذا التقدم.

الجليل

كان الجزار قد دعا جميع سكان الإقليم إلى أن يهربوا ضد الفرنسيين باسم الذود عن الإسلام. وهو يعتمد بشكل خاص على النابلسيين وعلى السكان السفين للساحل بدءاً من صيدا. ويرسل بوناپارت ليل في هذا الاتجاه مع طابور متحرك. ويحقق اتصاله بالشعبة الثائرين تحت قيادة الشيخ نصور ويستولى على صور. وتتمركز حامية صغيرة من الشيعة والفرنسيين في المدينة، بما يغطي مكا على الطريق الساحلي (٢ - ٥ أبريل ١٧٩٩).

وفي الوقت نفسه، يصل مورا حتى الأردن ويتوقف أمام مرتفعان الجولان. وإذا لا يجد مخاطر وشيكة في المنطقة، يرجع إلى مكا بعد أن عين أعداء للجزار مسئولين عن المنطقة.

وكان جونو قد سار في اتجاه الناصرة حيث يرحب به السكان الذين يعتبرون في غالبيتهم مسيحيين. ويتعين عليه للبقاء في اللويع، وذلك بسبب خطر تمركز مهم للنابلسيين في جنين. وينضم للاحون عديدون من منطقة القدس إلى فلاحى نابلس. وفي ٨ أبريل، يصد جونو في كفر قانا هجوماً للفرسان بفضل مناورة الانتشار على شكل مربع. وهذه المأثرة الحربية الرائعة، بالنظر إلى أن الخصوم كانوا أكثر عدداً بكثير، سوف يسميها بوناپارت بـ «معركة الناصرة»، لاعتبارات الدعاية الأوروبية. لقد كان مضطراً إلى الاعتراف بأن قانا لا تبدو ثوراتية بما يكفي. وهو يقرر أن يرسل إلى الجليل على سبيل التعزيز كليبر وفرقة، للمعزة بفرسان مورا.

ويصل كليبر إلى الناصرة في ١٠ أبريل (٢٨) وفي اليوم التالي، يصد بدوره للخصم قرب قانا. إلا أنه لما كان لا يعرف من أي اتجاه سوف يصل العدو، لأن مرشديه يخبرونه بوصول قوة مسلحة مهمة قادمة من دمشق، فإنه يفضل للحفاظ على مواقعه في منطقة الناصرة، بينما يسيطر مورا مع لرمساته على طريق دمشق. وبعد نجاحات رائعة، يستولى على طبرية في ١٧ أبريل، حيث يجد مستودعات مهمة للملح الغذائية. وخلال قيامه بهذه

العملية، التي أمرت بها الأركان العلية، بكتشف كليبر الذي يتحرك بدوره على طريق دمشق سعياً إلى الهجوم على جيش العدو من الخلف. وإذا علم بوناهارت بهذه الحركة، فإنه يقرر عنده أن يوجد هو نفسه مع فرقة بون في منطقة الناصرة (١٥ أبريل ١٧٩٩).

وفي صباح ١٦ أبريل، تتعرض فرقة كليبر لهجوم في سهل إيسندرون، وعلى الفور يجرى تشكيل المربعات، وهي تقاوم بثبات الهجمات العديدة التي يشنها جيش معاد، يتألف من الهند ووحشات دمشق وثلبس المحلية، الأعلى بكثير من حيث العدد (لم يقتل من فرقة كليبر غير رجلين بينما جرح ستون). وفي منتصف ما بعد الظهر، يصبح وضعه حرجاً بسبب خطر نفاد الذخيرة، وفي تلك اللحظة تعلن طلقة مدفع وصول قوات بوناهارت. وعلى الفور يدفع كليبر قواته إلى الأمام بينما يتشتت شمل الجيش العثماني ويقرر في اتجاه دمشق، بعد أن وجد نفسه محاصراً بين الفرقتين الفرنسيتين اللواتي من أربعة آلاف رجل. وهذه المعركة، المعروفة باسم معركة جبل طابور، تنتج للفرنسيين السيطرة على الجليل. ويجري على الفور إحراق ثلاث قرى، من بينها جنين. وعندئذ يوقف الداهليسون حرب عصاباتهم. ويتردد بوناهارت للحظة في الزحف على دمشق نفسها، لكنه يتخلى عن الفكرة بسبب خطرها، ويعيد معه جزءاً كبيراً من القوات، تاركاً لكليبر ولعباس ضاهر مهمة الإمساك بزمام الجليل. ويمر بالناصرية حيث يحتضر لينتور دو هاردي، ترجمانه ومستشاره الشرقي، متأثراً بالإجهاد والمرض. ويحل محل الترجمان المعوز تلميذه، الشاب كميديه جويبر. والآن يمكن استئناف حصار عكا دون خطر التعرض لهجوم قادم من الداخل.

بشور والإنجليز

يبدو أن الحظ يبتسم من جديد لبوناهارت، فخلال شبابه، كانت القافلة البحرية الفرنسية الثانية قد نقلت إلى بالما عتاد الحصار. إلا أنه يبدو أنه يستسلم آنذاك لفكرة الاكتفاء بالاحتفاظ بالمدينة والرجوع إلى مصر (٣٩).

إن الانتفاضة الشوقية الشهيرة لا تتحقق، بالرغم من ولاء آخر لنصار كل الزيداني وبعض الشيعة. والشخص الوحيد، القادر بالفعل على شن حركة واسعة، هو الأمير بشير. والحال أن هذا الأخير يتخذ موقفاً حكيماً قوامه الترقب والانتظار. وقد رفض الرد على رسائل بوناهارت. وهو يعرف بالفعل أن الجزار يأخذ عليه عدم مجيئه لتقديم العون إليه في عكا. ومن جهة أخرى، فإن الدروز يبدون معانين بقوة لأي تعاون مع الفرنسيين.



٤١ - معركة الأهرام.



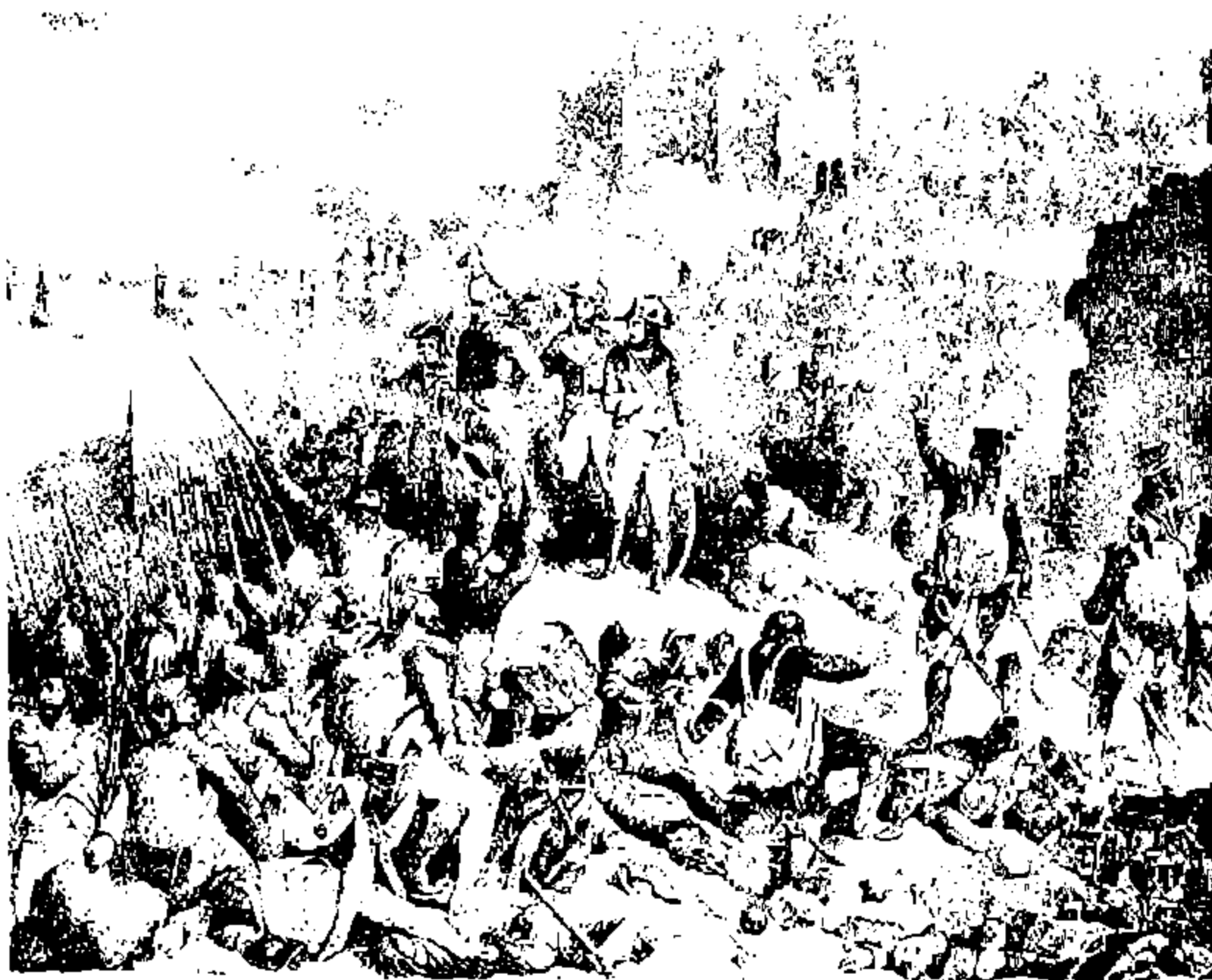
٤٢ - بوناپارت يعطى عن متمردي القاهرة.



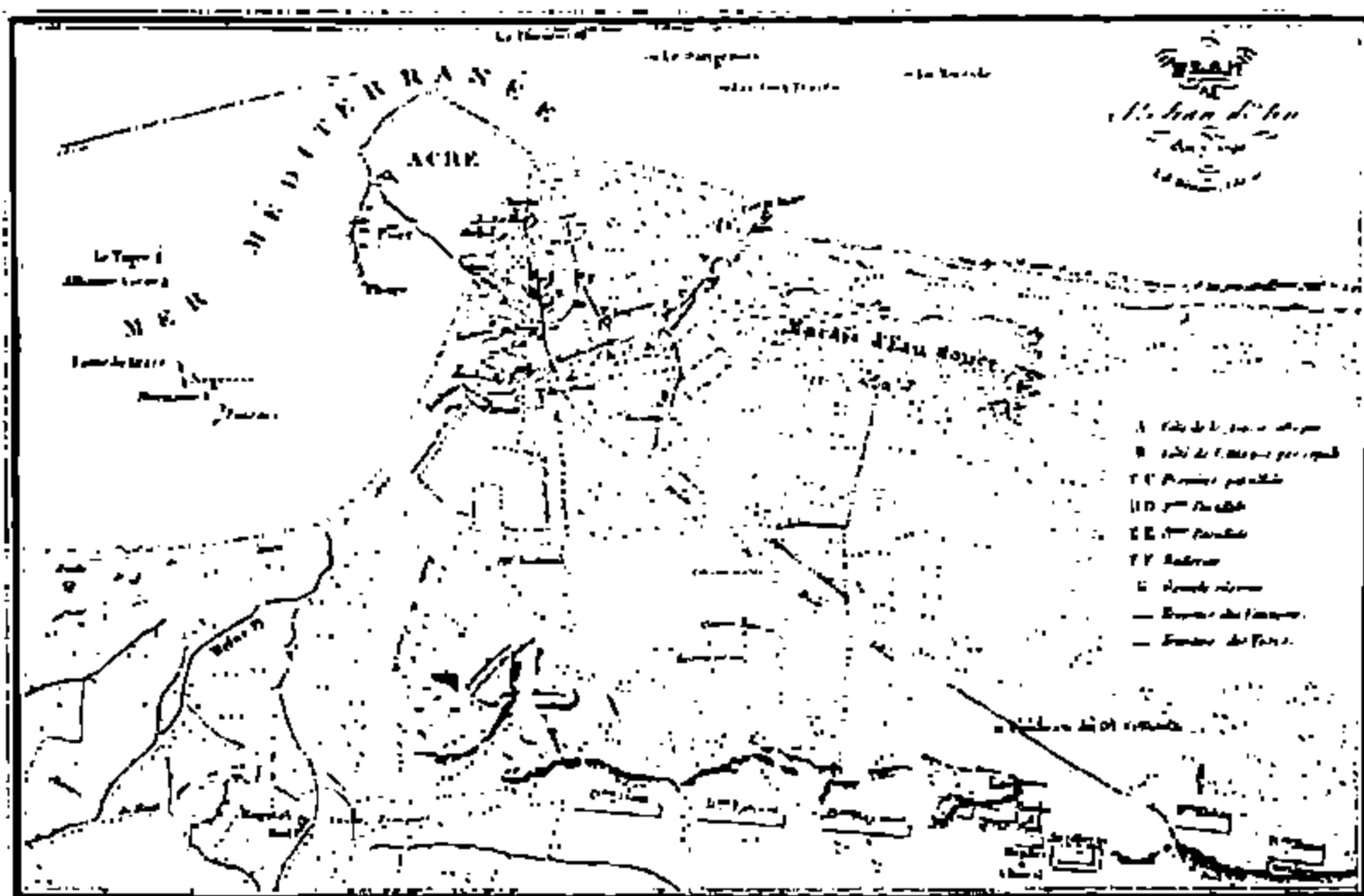
۴۲ - ہوناہارت ہنود عیون موسیٰ۔



٤٤ - معركة جبل طاهور.



٤٥ - ہوناہارت امام اسوار عکا.





٤٧ - (١) عودة بوناهارت إلى القاهرة.



(ب) الانسحاب من سوريا.



وبلجها للبعض إلى إقليم حلب وإلى حوران السورية (٤٠). ويستفيد سبيدي سميث من الفرصة التي يتيحها أسر اثنين من للمسيحيين الذين كانوا ينقلون العرق إلى الفرنسيسيين لكي يدخل في اتصال مع زعماء الجبل. وفي ١٤ أبريل، يحذرهم من مشاعر بوناپارت الحقيقية،

«مع العرب، يريد بوناپارت للتظاهر بأنه مسلم، متفاهراً بأنه قد هدم الكنائس، وكسر الصليبان وخرب كرمسى قباها، ولذا فلا غرابة في أن يعلن عكس ذلك لسكان الجبل، إنه بعد دون أن يتمسك بوعوده، وعندها يصل إلى غايته، يتخلى عن كل شفقة.

«لما فيما يتعلق بنا، فإننا نتمسك بما نقول، لأننا من أصل كريم وعلى ديانة المسيح، إن سياستنا مخلصية؛ وهي ضد الظالم ومن أجل إغاثة المظلوم [...]»

«إننا ننصحكم بعدم الدخول في أية علاقة مع الفرنسيسيين حتى لا تثيروا ضيق الدول. لا تثقوا بهم على الإطلاق ولونوا بحمايتنا. ورغبة منا بدفع الصداقة في الدخول في محادثات معكم، فإننا نطلب إليكم أن ترسلوا إلينا رسولا سوف نبلغه مخلصين بكل ما هو في صالحكم ولما فيه خيركم». (٤١)

ويستخدم سبيدي سميث للسلطات التي منحها له الباب العالي لكي يطمئن الأمير بشير. ويرسل هذا الأخير إلى عكا رسلا مكلفين بالإعداد لمصالحة مع الجزائر. ويقدم سميث حمايته لمسيحيي لبنان ويرسل علانية لللازم رايت للشفاء من جراحه لدى الأمير بشير (٤٢). والرسالة إلى بشير واضحة: «قبل إرسال رسالتي السابقة، كنت قد تحدثت عنكم مع أخى أحمد باشا للجزائر، الذي أود أن تكونوا على علاقة طيبة به. وقد قررنا أن تكون علاقاتنا صداقة معكم إنا ما أعلنتم عنكم للفرنسيسيين. والحال أنني، وقد بهنت ذلك، أرى عرض الأمر على المصدر الأعظم وإبلاغه بأنكم حليف لنا والموصول منه على فرمانات تسير في الاتجاه الذي نتمنونه.

«إننا نطلب إليكم أن تكونوا على استعداد مع رجالكم ترقباً لوصول المصدر الأعظم ومن المناسب نصيح السكان للمسلمين والمسيحيين على حد سواء بالنأي عن الأمة للملحة وبالإلواء للحكومة العثمانية. فالويل لمن لا يصرفون إليكم؛ إننا نعتبر إمتكم إمتنا وأمركم لأمرنا».

والحال أن الأمير بشير، بسماحه بذلك يتدخل الإنجليز لتسوية نزاعه مع الجزائر، إنما يدخل للمرة الأولى الدول الأوروبية في السياسة اللبنانية، وهو واقع سوف يصبح دائماً...

وكعلامة لا جدال فيها على سيطرة فكرة الانتفاضة الشرقية على ذهن بوناپارت، سوف يلجأ ناپوليون في سانت - هيلين إلى تشويه صورة الواقع وسوف يبتدع في مذكراته وجود اتفاق سرى مع الأمير بشير ، «الذي كان لمعركة جبل طابور الأثر للرجوع منها: إن الدروز واللواتي وسكان سوريا للمسيحيين و، بعد عدة أسابيع، مندوبي أرمينيا للمسيحيين، قد تنفقوا على المعسكر الفرنسي. وبموجب اتفاق سرى مع الدروز، تم الاتفاق على أن يأخذ القائد العام لحسابه ٦٠٠٠ درزي و ٦٠٠٠ ماروني تحت قيادة ضباطهم، لمشاركة الجيش السوري في الزحف على دمشق» (٤٣).

وهو يضيف في مكان آخر أن الاتصالات تعتمد أيضاً إلى فارس، وأنها بداية علاقات مع بلاط طهران (٤٤). والأرجح أنه لم يحدث شيء من ذلك، إن رفض الأمير شهاب كان كلياً لإغراق حلمه الشرقي. وسوف تكون لهذه المسألة نتيجة غير متوقعة: فسوف يُعزى إلى بوناپارت مشروع إنشاء دولة يهودية في فلسطين. والواقع أن القائد العام لجيش الشرق لا يبدو أن هذه الفكرة قد راوتته في أي وقت من الأوقات. لكن مناخ نهاية العالم الذي يرافق الثورة الفرنسية قد شجع الحركات الألفية اليهودية والبروتستانتية والحركات الخلاصية اليهودية في أوروبا. واستناداً إلى بعض النصوص التوراتية، يجري التنهؤ بتجمع للشعب اليهودي في الأرض المقدسة. كما أن وجود جيش فرنسي في فلسطين قد بدأ للبعض بداية لتحقق تلك النبوءة. والصحافة الأوروبية، الإنجليزية والفرنسية على حد سواء، سوف تعلن الخبر في وقت حملة سوريا تلك (٤٥).

عمل الإنجليز السيكولوجي

يطبق سيدني سميت خطة عمله التي تتألف من إشعار إبطال الأمة العظمى بأن أفضل ما يمكن أن يحدث لهم هو أن يصبحوا أسرى له حتى يمكنهم العودة إلى أسرهم. وكذلك سوف يصبحون أعداء للسلطة التي قاتلتهم إلى مثل هذه الخاتمة (٤٦). وهو يستفيد من العلاقات التفاوضية لترويج أخباره للدمرة للروح المعنوية من الوضع الأوروبي وبهذا في نقل الأفكار الرئيسية لسميته: إن حكومة الإنلرة قد نفت الجنود عمداً لتوردهم موارد الهلاك، وإن جيشاً عثمانياً ساحقاً ينحط عليهم لإبانتهم، إلا أن منازل بالإمكان إنقاذهم. «إن أولئك الذين يريدون من بينكم، أيها كانت رتبهم، الإغلات من الخطر الذي

يتهددهم، يجب عليهم، نون أقل تأخير، إعلان نواياهم لقناة القوت البرية والبحرية للنول للتحالفة، وليكونوا على ثقة من أنهم سوف يجرى إرسالهم إلى الأماكن التي يريدون الذهاب إليها وأنه سوف يجرى تزويدهم بهيئات سفر كي لا يتعرضوا للإزعاج خلال رحلتهم من جانب النول للتحالفة أو من جانب السفن المسلحة التي تجوب البحار لميسارهم من ثم إلى الاستفادة في الوقت المناسب من نوايا البلب العالي الخيرة ويعتبروها فرصة ملائمة للإفلات من الهزيمة للربعة التي جرى معهم فيها^(٤٧).

والحال أن كل الإنسانية التي لها العميد البحري تجاه الجرحى والأسرى الفرنسيين، يبدو أنها تضمن تنفيذ هذا الوعد للفرى. وفي وجه هذا للخطر، لا يرى بوناهارت غير حل واحد، فضع مسلك سيبنى سميت هنا. فأمره لليومى الصابر فى ١٩ أبريل، على شكل رسالة إلى بيرتية، يتهم العميد البحري بنقل أسرى فرنسيين على سفينة يوجد الطاعون على متنها. وبالتواطؤ فى قتل مسيحيى عكا ويقطع رؤوس جثث الحدود الفرنسيين الذين قتلوا خلال الهجمات. والهدف الفعلى لهذا النص هو منع أى اتصال مع الإنجليز، وبما أن هذا الضابط يرفض من جهة أخرى تنفيذ أى بند من بنود اتفاق التبادل للعقود بين الدولتين، وبما أن لقواله فى جميع الاتصالات التي جرت، ومواقفه منذ أن خرج إلى البحر، هى أقوال ومواقف معتوه، فإن مرادى هو أن تصدر الأوامر إلى مختلف قادة الأسطول بالوقوف عن أى اتصال مع الأسطول الإنجليزى، الذى يتجول حالياً فى هذه البحار^(٤٨).

وهذه الرسالة تصيب العميد البحري فى أعماق أعمقه. وهو يعلن استعداداته للنار لشرفه بالسلاح فى مبارزة. ومن الواضح أن ذلك ظهر وارد وتستمر المبارزة الحقيقية للمثلة فى حصار عكا.

الفشل

تشهد الأيام التالية لعودة بوناهارت إلى عكا مواصلة أعمال الحصار. ويرسل المحاصرون منقبين عسكريين ضد محاولات تلقيم الحصون. وينجحون من الناحية العملية فى وقف أعمال الفرنسيين. وعندئذ يقرر بوناهارت شن هجوم جديد. ويبدأ القصف فى ليل ٢٢ أبريل ويشتد الهجوم فى صباح ٢٤. إنه فشل جديد. للثمرة تظل دائماً

غير سالكة بينما تتأكل احتياطيات ذخيرة المدفعية تآكلًا ملحوظًا. وفي ٢٧ أبريل، يموت كافاريللي من جرح أصيب به قبل ذلك بعدة أيام. وبعد خسارة فينتور، يعتبر ذلك خسارة فادحة بالنسبة للجيش (٤٩). ويستمر الجمود في الأيام التالية. وأخيرًا، تصل مدفعية الحصار في ٣٠ أبريل من يافا. وفي أول مايو، يُمنى هجوم جديد بفشل جديد. وفي اليوم التالي، يموت فيليبو من الإنهاك وخسرية الشمس. وفي ٤ مايو، لا يعود هجوم ليلى بشن جديد أمام مقاومة العثمانيين والإنجليز. وتصبح الخسائر الفرنسية في الضباط ملحوظة.

وفي ٧ مايو، بعد نصف المحاصرين للغم الذي أعده بومارتان، الذي حل محل كافاريللي، يقرر بوناپارت شن هجوم شامل. ويؤدي وصول أسطول عثمانى تعزيزي إلى اختزال القصف. وهو يحمل فوجًا بأكمله من قوات النظام الجديد التي شكلها سليم الثالث، وهي قوات جديدة تربت تدريبًا أوروبيًا في السنوات السابقة على أيدي ضباط فرنسيين. ويصبح من اللازم بالنسبة للفرنسيين الاستيلاء على المدينة قبل دخول العثمانيين إلى الميناء. وفي هذه المرة يتغلب الفرنسيون على الخط الخارجي للحصون. ويقاتل سيدني سميث والجزار في الصف الأمامي لرجالهم. ويتبارى العثمانيون والإنجليز في التنافس على القتال. وتتعرض معنويات المدافعين بوصول العثمانيين والملك بالرغم من نفور سيدنكا من السماح بوجود قوات الباب العالي في عاصمته (٥٠). وفي اليوم التالي، تقود فرقة لان الهجوم. بل إن وحدة تتمكن من الدخول إلى المدينة، لكنها لا تتأخر في الاضطرار إلى التهازل بخسائر جسيمة. ويصاب الجنرال بجراح ويتم قتل عدة ضباط آخرين.

ويدرك سيدني سميث وبوناپارت وهان الهجوم القريب. فالأول، في رسالة وقعت في أيدي الفرنسيين، يكتب: «مما لا شك فيه أن بوناپارت سوف يشن هجومًا جديدًا، حيث يمكن لاحتياز الثغرة من جانب مائة رجل في المرة الواحدة. والحال أن المدينة ليست ولم تكن قط قابلة للدفاع عنها وفق قواعد الفن (العسكري)؛ إلا أنه وفقًا لترتيب مختلف تمامًا، سوف يتم الدفاع عنها، ليس لأنها تستحق الجهد في حد ذاتها، وإنما لأننا نرى أن بوناپارت يريد الزحف إلى فتوحات جديدة عبر هذه الثغرة. وعلى نتيجة هذه المعركة يتوقف رأى حشد للمشاهدين على الجبال المجاورة. والذين لا ينتظرون غير وقوع الحدث لكي ينحازوا إلى المنتصر؛ وبمثل تلك التعزيزات للخصم لتنفيذ مشاريعه المعروفة، فإن القسطنطينية بل وفيينا سوف تتحسمان هزات عنيفة» (٥١).

والثاني يدلي بأسرار مماثلة لبوريين: «إلا نجحت، كما أعتقد، فإنني سوف أعثر في المدينة على خزائن الهاشا وعلى أسلحة لثلاثمائة ألف رجل. وسوف أثير وأسلح كل سوريا،

التي طالما احتجت على وحشية الجزاء، الذي رأيت أن السكان كانوا يدمون بسقوطه إلى الله في كل هجوم. وسوف أرحل على مضطج وحلب. وسوف أزيد حجم جيشي، في التقدم عبر البلاد، بجميع السلفطين؛ وسوف أعلن للشعب إلغاء العبودية وحكومات الباشاوات الاستبدادية. وسأصل إلى القسطنطينية على رأس جماعير مسلحة. وأطرح بالإمبراطورية التركية. إنني سوف أؤسس في الشرق إمبراطورية جديدة وعظمية سوف تغلذ مكانتي في التاريخ، وربما أعود إلى باريس عبر أمرونة أو عبر فيينا، بعد القضاء على بيت النمسا (٥٢).

ولكن هذا الهجوم الأخير، يستدعي بونابارت فرقة كليبر التي ترجع من الجليل. ولدى وصوله، يحتج الأكراسي على الأسلوب الذي فرض به الحصار. فبالخسائر جد جسيمة بالنظر إلى التهوين اللئيم من قوة عتاد العدو. وبونابارت ليس دغير جنرال يحتاج إلى عشرة آلاف رجل كل يوم. وكليبر، الذي كان حريصاً على عمله جنود والذي لقد أصدقاه عديدين في للهجمات المتتالية، لا يستطيع قبول هجرة هذا العتاد (٥٣).

وهو الذي يلقود القوات في ١٠ مايو. ويشير هجرمان متتاليان ومكلفان في الرجال إلى أن مكا تظل دائماً منبهة بالرغم من الدفعة التي تمكن كليبر من منحها لرجالها. وفي مساء اليوم نفسه، يقرر بونابارت رفع الحصار. فهو يعرف أن القوات منهكة ولها سوف ترفض القيام بمحاولة جديدة. والطامعون مائل بشكل دائم منذ الاستيلاء على يافا. وكان يجهضت، بتطعيمه نفسه بصديد خراج، قد نجح في التأثير على معدويات الجنود الذين أصبحوا لا يخافون من اللد كثيرًا. إلا أنه بالرغم من كل شيء، لا طائل من مواصلة تعرضهم لهذا للخطر.

ويحاول بونابارت معرفة ما إذا كان بوسعه نقل الجرحى والمدفعية بحرًا، لكن الأسطول الفرنسي، أمام التفوق الإنجليزي للقوى، كان قد أثر الانسحاب والعودة إلى السواحل الفرنسية. واعتباراً من ١٢ مايو، تتعرض عكا لقصف عنيف، هو الوسيلة الوحيدة المتوافرة للتخلص من الذخيرة التي يتعدى ثقلها على أية حال. ويتم الجلاء عن الجليل وتركه لأنصار آل الزيداني. ويترك هؤلاء الآخرون أنهم لن يتمكنوا من الصمود في الساحة ويفضلون السير في ركاب الجيش الفرنسي.

واعتباراً من ١٥ مايو، يأمر سيديتي سميت بالتوزيع الواسع لبيان الباب العالي الذي يدعو الجنود الفرنسيين إلى الفرار من الخدمة. والحال أن ردة فعل الجيش الأولى تتمثل في حركة غضب. على أن خيبة الأمل للرهيبة المترتبة على الإقامة في مصر ومسلكت قائده

الذي لم يوفق، في عكا، بملاء جنوده. كانوا قد زعموا معنويات الجيش بدرجة ملحوظة. وسوف تقوض الوعود الإنجليزية، بلا خضج، عزم الجنود. وفي ١٧ مايو، يعلن بوناپارت للجيش إنهاء الحصار. وهو يتستر على فشله بإيهام أنه قد تم القضاء على أي تهديد لمصر من فلسطين؛ وأنه لابد من العودة إلى مصر لمواجهة موسم عمليات الإنزال الذي كان قد بدأ مع نهاية الربيع. والواقع أن حين خطر إنزال عثمانى إنما يعتبر - بشكل واضح - دليلاً على أن القدرة العسكرية للمعنى لم تصب بسوء، ثم إن الجيش العثماني الجرار - الذي يتشكل منذ السنة السابقة - لم يصل بعد إلى سوريا. ويستثناء وحدة قوات النظام الجديد، فإن بوناپارت لم يواجه غير القوات المحلية. واعتباراً من اللحظة التي لا ينشب فيها التمرد الكبير، فإن وضعه إنما يصبح مكشوفاً أكثر فأكثر، وكان ذلك في مصر لم في سوريا. وهو يدرك ذلك، ويتعين عليه التحدث عنه بكلمات ملتوية للجيش: «أيها الجنود، إن إمامنا مسيرة مجابهة مشاق وأخطار؛ وبعد أن نجحت هذه الحملة في حرمان الشرق من القدرة على عمل شيء ضئيل، وبما تعين علينا صد جهود خصم من الغرب. عندئذ ستجفون فرصة جديدة للمجد، ولذا ما تعيز كل يوم، وسط كل تلك المعارك، بمصرع مقاتل جهور، فلابد أن ينهض مقاتلون جسودون جديون ويأخذوا مكانهم بدورهم وسط ذلك العدد الصغير الذي يهب لخدمة وسط الأخطار ويمسك بنصية النصر» (٩٩).

وهو يصدر الأمر بتدمير الذخيرة والمخلف التي يتعذر نقلها. ولما لم يك لديه أي مورد لتوفير الذخيرة، فإن قصف عكا يتواصل بعنف، الأمر الذي يعود بفائدة إضافية تعثل في الإيحاء بهجوم وشيك. وفي ليلة ٢٠ - ٢١ مايو، يطوى الجيش الخيام ويتجه صوب الجنوب. ومنذ الوصول إلى حيفا، ثور مشكلة المصابين بالطاعون. لكن الجيش لا يملك مستوصفات نقالة ومخاطر العدوى شديدة (في عصر لا نراية فيه بالياتها الحقيقية) بحيث أنه يجري التبدد في ترك للمرضى. وينتفع سببني سميث إلى مؤخرات الجيش الفرنسي لالتقاط الرجال للتروكين. وهو يهدف إلى نقلهم إلى نحياط ليصبحوا دعاة متحمسين له (١٠٠).

الأساليب

يضمي الفرنسيون بالجزء الأكبر من المخلف ويكرسون جميع وسائل النقل للجرحى والمرضى؛ أما بقية الجيش، بمن في ذلك القائد العام - بشكل لافت للانتظار - فإنهم يسهرون على الأكلام. ويبدأ النابلسيون والبدو في ملاحقة الجيش، لكن الجزار مع

تواتر بفضلون البقاء في هناك، الأمر الذي ينفذ الفرنسيين من كارثة قريبة من كارثة الانسحاب عن روسيا في عام ١٨١٢. ويرصد كليبر في يومياته مشاهد الهجر والتخلي، «يؤلف عريف من الكتيبة ٢٥ مصلاً بالطاعون متروكاً على الطريق، ويقطع زناره. ويتوصل إليه المريض أن يترك له الليرات الأربعة الذهبية التي يحتويها الزنار؛ إنني لو قدمتها إلى عيسى، فلربما أبقى على حياتي، ويورد عليه العريف: «إنك تخدع نفسك، دع لي على الأقل هذا الأمل». ويصل كهرنر ويأمره برد الزنار. [...] وينادي لأحد رماة الكتيبة ١٩، وهو مصاب بالطاعون، أحد رفاقه ويتوصل إليه أن ينهي حياته. وفي ثبات وحزم، يقدم رفيقه إليه هذه الخدمة» (٥٦).

وفي ٢٤ مايو، يتجمع الجيش من جديد في يافا. وبعد إعادة تنظيم لترتيب السير، يستأنف الانسحاب في ٢٦ و ٢٧ مايو. وتثور من جديد مشكلة الجرحى والمرضى الذين يتعذر نقلهم. وهذه المرة، وبالرغم من احتجاجات بيجينييت، يأمر بوناپارت بتوزيع الأفيون عليهم. وكان قد رفض طلب مساعدة العميد البحري سيني سميت. ولا يزيد عدد المهلكين عن ثلاثين، لكن الدعاية الإنجليزية والأسطورة النابوليونية السوداء قد ضخمت من عددهم بشكل ملحوظ (٥٧). وسوف يصل سيني سميت إلى يافا في ٣٠ مايو وينفذ سبعة من الضحايا الذين نجوا من الأفيون (٥٨).

ويقود كليبر المؤخرة ويحصل على أمر بتخريب للسطين. ويتعين عليه تدمير للحاصليل وتطهير سياسة الأرض للحروقة وراءه (٥٩). وفي ظل الإمبراطورية، سوف يهرز نابليون ذلك العمل أمام شابتال كما سوف يهرز بوجه عام كل عملية تخريب: «أذكر أنني سمعته مرة بشيد بموهبة ويلينجتون للعسكرية عند انسحابه إلى لشبونة، الذي نقله أمام ماسينا؛ لقد دمر هذا الجنرال كل شيء في طريقه؛ دمر الطواحين، وأحرق المواد الغذائية واقتاد معه السكان والبهائم. وقال الإمبراطور: ذلك رجل مضطر إلى الهرب أمام جيش لا يجرؤ على الصمود في وجهه، لكنه يوجِدُ صحراء تمتد ثمانين فرسناً بين العدو وبينه؛ إنه يعوق مسيرته؛ ويضعفه بحرمانات من كل نوع؛ وهو يعرف كيف يدمره دون أن يحاربه. وليس هناك في أوروبا من هو قادر على تنفيذ هذه التدابير غير ويلينجتون وأنا. إلا أن هناك ذلك الفارق بينه وبينى، وهو أن فرنسا هذه، التي تعتبر أمة، تلومنى، بينما تؤيده إنجلترا. إننى لم أكن قط حراً إلا في مصر. فهناك أيضاً سمحت لنفسى باتخاذ تدابير مماثلة. لقد دمر حديث كثير عن حريق بالاتينات وما زال مؤرخونا التعصاء يفترون في هذا

لصدد على لربيع الرابع عشر. إن مجد هذا العمل لا يخص البتة ذلك الملك. إنه يخص
برمه وزيره لولوا، وهو، في نظري، أروع عمل قام به في حياته، (٦٠).

والحال أن مرور الجيش الفرنسي التيميري سوف يتلوه على نحو مساق، في
المستقبلين التاليين، مرور الجيوش العثمانية التيميري. إن الجزائر سوف يعتصم أغلب
الوقت بعكا، غير منشغل بعد بالانفاج عن التخوم الصحراوية. وهذا التدهور للنظام العام
سوف يولد قلقاً ملحوظاً من جانب بنو سيناء والذقب للمناطق الزراعية لجعل
فلسطين (٦١). وهكذا فإن نتيجة ما يزيد عن نصف قرن من إعادة الفتح البشري للسواحل
الساخنة سوف تجد نفسها اثر بعد عين إلى حد كبير، شأنها في ذلك شأن النمو
الديموغرافي الذي رآها. والحال أن الفلاحين الفلسطينيين لن ينجحوا إلا في النصف
الثاني من القرن التاسع عشر في معاودة الاستقرار في الأراضي المنخفضة، وذلك بفضل
استعانة شاملة للنظام العام ترافق العودة الأخيرة للنظام العثماني، لكن ذلك سوف يكون
من أجل مكابدة منقصة المستوطنين الصهيونيين الذين سوف يجبرون الفلاحين تدريجياً
من جديد على الارتداد إلى خط المرتفعات. ومن ثم فإن عواقب تغلغل بوناهارت في
فلسطين سوف تنتج بكلكتها بشعة على مستقبل ذلك البلد.

وطبيعاً أن اجتياز سيناء في بداية شهر يونيو يعتبر مرهقاً. إن الجنود على حافة
التمرد وهم يلعنون قلعتهم العام علناً. لكن كليبر، بفضل هيئته الشخصية وشعبية
للتزايمة، ورغم أنه ليس بعيداً عن مشاطرة رأي الجنود، يتجح دون لعم في منع التمردات
الوليدة (٦٢). ويترك بوناهارت قوة جبارة من الجنود في العريش التي سوف تصبح الموقع
الأمامي الذي يحمي مصر التي يعيد إليها بقية الجيش. وقد جعله يستريح في الدلتا قليلاً
قبل أن ينظم دخولاً ظاهراً إلى القاهرة، فيما عدا فرقة كليبر التي تحصل على مهمة الدفاع
عن شرق الدلتا. ويأمر القائد العام بعقرات قاسية ضد المهيجين يمكن أن تصل إلى حد
الإعدام فوراً إذا ما حدث تحلل للانضباط خلال عملية ضد العدو (٦٣).

وهذه العلامة واضحة للدلالة، لقد فقد ثقة رجاله.

محور خلال حملة سوريا تحول بيلو إلى اعتناق الإسلام

كانت خطة الإنجليز الأولى تتمثل في نصف الإسكندرية، على أن يظلوا إنزال للقوات العثمانية التي تجمعت في دويس. وفي اللحظة عينها - التي يبدأ فيها الفرنسيون اجتياز سيناء - يتم تنفيذ الجزء الأول من الخطة. فالهجوم الإنجليزي يبدأ في ٣ فبراير ١٧٩٩ ويستمر لثلاثة أسابيع مع لقطاعات ترجع إلى حالة البحر، لكن الفشل تام بسبب رموخ التحصينات التي ألقاها الفرنسيون في الشهور السابقة، فالبطاريات التي نصبها مارمون، المنبثق من صفوف سلاح المنطعية، ترغم السفن الإنجليزية على التزام البعد إلى مسافة معتبرة. وهماها للهجمات الإنجليزية أقل من ضحايا الطاعون الذي يواصل بلاياه خلال تلك الفترة. وهذه الهجمات مصحوبة بعدد من انتفاضات الفلاحين والبدو المحنونة. وتخرج الطواوير الفرنسية لورا) لقمع هذه الحركات التي لا تتميز بأهمية كبيرة (٦٤). ويدرك سينى سميت، الذي تولى قيادة الوحدة البحرية الإنجليزية في ٣ مارس، أن مصرح العمليات الحقيقى هو فلسطين ويقطع في وقت مناسب بما يكفى للاستيلاء على للدافع الفرنسية للنقولة بحر). وهكذا يولد الاتصال مع الوحدات العثمانية التي لن تصل إلى عكا إلا متأخرة.

والحال أن الهجوم الإنجليزي لم يزعج القبة الفرنسيةين الباقين في مصر. ومينو، الذي كلفه بوناپارت بقيادة البلاد مع تركه قيادة حرب البلتا لمارمون، يستفيد من وجود سفن العدو لكى يبالى في رشيد. وهو يكثف التدخلات والنصائح الطبية للوجهة إلى أعين المدينة (٦٥). أمّا دوجا، الذي يمارس النهاية في القاهرة، فإنه يحتفظ بمنصبه. ويتضح السبب العميق لتخلف مينو عندما يجرى إعلان ذبا تحوله إلى اعتناق الإسلام وزواجه من مصرية تنتسب إلى الرسول، وهذه الزيجات من مسلمات ليست نادرة، فالعسكريون الفرنسيون يقيمون في منزلة اضطرارية والبعض لا يكتفون بالمومسات اللاتي تلاحقهن السلطات، بسبب الأمراض التناسلية. وحتى تتم الزيجات، يتوجب التحول إلى اعتناق الإسلام، ويحتج الجبرتى من جهة أخرى على هذه الأعمال غير النزيهة، لكن نوافع مينو بالدرجة الأولى نوافع سياسية. وهو يشير بذلك إلى تعلقه بفكرة إنشاء مستعمرة

مؤسسة على التقلب بين الفرنسيين والمصريين، بما يتطابق مع فكرة بوناپارت العميقة. وهو نفسه، شاته في ذلك شأن كثيرين من جيله ومن وسطه، يتبنى نزعة تلييهية (تسلم بوجود قلبه وتنكر الرصائل والبعث)، تقوده إلى النظر إلى الإسلام بتعاطف. وسوف يمارس من جهة أخرى بعض طقوس العبادة. ويبدو أنه، في فترته المصرية على الأقل، كان يكن حبا حقيقيا لمسلميه التي سوف تنجب له ولدا^(٦٦). وكما يمكن للمرء أن يتوقع، فإن هذا التحول إلى اعتناق الإسلام سوف يجر على الجنرال الفرنسي كثيرا من التهكمات من جانب رفاقه في السلاح، الذين لا يحترمونه احتراما كبيرا بالفعل.

وهذا التخلي الجديد يقود بوناپارت إلى تثبيت نوجا في مناصبه كحاكم لمصر. وسوف يبدو هذا الأخير سياسيا ماهرا وإداريا حكيما في ظروف سوف تصبح صعبة أكثر وأكثر. أما مهنو، فهو يحصل على إدارة فلسطين التي جرى البدء في فتحها. ومن جديد، يزيد من تخلفاته^(٦٧) ولن يكون على وشك اجتياز سيناء إلا في لحظة عودة الجيش. وسوف يواصل بوناپارت إبداء تسامح غير عادي مع هذا الجنرال الذي لم يصل إلى موقع مسئولية مرتين متتاليتين.

طوجا

تبدأ إدارة نوجا في أفضل الظروف. فقد تطابق رحيل الجيش مع بداية رمضان، فاختزال عند الفرنسيين يُدخل للطمأنينة على صدور سكان القاهرة الذين يمكنهم أن يواصلوا الحياة القليلة الحافلة لشهر الصوم هذا فالاحتفالات الدينية شأنها في ذلك شأن لقاءات الأسر والأصدقاء تتم كما لو كان ذلك في زمن سلم، ويشجع على هذا المناخ الطيب انخفاض الأسعار فيما عدا أسعار السلع المستوردة. ويشارك الفرنسيون في مأتب الإفطار بل ويعتونها لأجل مدمويهم المصريين^(٦٨). وتتميز نهاية تلك الفترة بتبادلات للمعاملات بين الضباط الفرنسيين والأعيان. وتتميز فترة غياب بوناپارت بوصول بلاغات تتحدث عن انتصارات الجيوش الفرنسية في سوريا وفي مصر. ويتمسك أسلوبها العربي تحسنا ملحوظا منذ تكليف الشيوخ المهدي بإعادة تحرير ترجمات للترجمات^(٦٩).

ومن المؤكدة أنه تشوّر عدة حوادث بين المسيحيين والمسلمين لكن الفرنسيين يحكمون لصالح هؤلاء الآخرين ويجبرون الأوائل على احترام قواعد مراعاة الشعور العام

المفروضة عليهم تقليدياً خلال شهر رمضان. أما الأعمال الهمجية أو التعدييات التي يرتكبها الجنود الفرنسيون فإنهم يلقون عنها عقاباً قسياً ويجري دفع تعويضات لضحاياها (٧٠). وفي الأرياف، تستمر زعزعة استقرار الموقف من جراء هزات الهدو في غربى الدلتا ومن جراء الفتن الفلاحية في الشرق، والراجعة إلى سوء إدارة قائد الكتيبة سوهيه في الصالحية، وإلى رحيل الحاميات الفرنسية من إقليم المنصورة والذي يؤثر على استعادة النظام هناك، وأخيراً في مصر الوسطى من جراء هبوطٍ للمماليك اللذين أفلتوا من مطاردة ديزيه (٧١). والحال أن الطواهير الفرنسية المتحركة، بالرغم من ضعفها من حيث الفرسان والناشئ عن عمليات سحب الفرسان للعمل في سوريا ومصر العليا، تبدو مؤثرة في مجال القمع. وحتى أواخر مارس ١٧٩٩، يمكن لتوجا من ثم أن يرى أنه لا يواجه مشكلات كبرى.

تموط أمير الحج

في النصف الثاني لمارس ١٧٩٩، يأخذ الموقف في التدهور، ويرجع ذلك أولاً إلى مشكلة أمير الحج. وكان بوناپارت قد عين في هذا المنصب أهم موظف عثمانى بقى في مصر، وكان هذا الأخير قد تعاون في البداية تعاوناً سافراً مع الفرنسيين، غير متردد في الاحتفاظ بعلاقات شخصية معهم (٧٢). وكان بوناپارت قد أمره باللاحاق به في سوريا مع عدد من مشايخ الديوان القاهرة سعياً إلى ضرب مثل طيب للسكان المحليين. وبدلاً من اجتياز سيناء، يكتف الأмир الذرائع للبقاء في شرق الدلتا الذي تسوده القلاقل بالفعل، بينما يبحث للمشايخ الذين يصحبونه عن كل المبررات للمكثة للعودة إلى القاهرة. ويثير هذا الموقف رغبة توجا، الذي يأمره بالمثل فوراً أمام القائد العام. وهذا القرار مبرر لأن الفرنسيين يعلمون أن الأмир يدعو بشكل سافر إلى التمرد وأن أنصاره قد شنوا للتو هجوماً على طابور فرنسى. ويأمر توجا بالقبض على أفراد بيته في القاهرة ويبلغ الأмир بأنه لن يجرى إطلاق سراحهم إلا عندما يصل إلى سوريا (خلال النزاعات بين المماليك، لم يك يتم الهجوم على العائلات مموماً). وهو يرسل على الفور طابوراً متحركاً ضده وضد أنصاره. وفي العاصمة، تروج الشائعات عن عمل مشترك بين المماليك والهدو والأمير، لكن أعضاء الديوان الرئيسيين يتحركون لحفظ النظام، وفي معساة أمير الحج، أحسن المشايخ

البكرى والشرقاوى والمهدى وكل الديوان التصرف تماماً، وقد لکنوا لى على هدوء القاهرة وعلى جهاز الأمير عن أن يسبب فيها لبسط مناصب، حتى وإن كان على رأس قواته (٧٢).

وينشط المهدى بالتعاون مع الفرنسيين وينشغل باعتراض سبيل جميع محاولات التمرد الحضرى. وبسرعة بالغة، يجرى تهديد شمل جماعات الأمير ويهرب هذا الأخير إلى سوريا مع تظاهره أمام الفرنسيين بولائه (٧٤). ولا يوجه نوحاً اتهامات إلى الشيخ الخيامى الذى، خلافاً للمشايخ الآخرين، بقى مع الأمير بينما كان تمرد واضحاً، لكنه يؤكد أنه عندما أراد أن يجد عللراً لهذا الخائن، قلت له: «إننى أعرف خيراً منك ما كان يجرى لى معسكر الأمير طوال الفترة التى كنت فيها هناك، إنهم لم يقولوا لك كل ما كانوا يريدون، وقد خشوك بوجه خاص، لأنه نون ذلك ما كان لك أن تتبع الأمير وأنت الذى أهديت دائماً براهين ولاتك للفرنسيين. لا تحاول تبرئته، إنك لن تفلح فى ذلك. انس الوقت الذى قضيته معه، وارجع إلى مسلكك السابق وسوف تجد منى الأمن والثقة اللذين منحك إياهما القائد العام». وقد اتفهم برأسه بأن يتطع كل اتصال مع الأمير، وأمرت بمراقبة مدى تمسكه بقسمه (٧٥).

وكان يمكن لهذا الحدث أن يكون أكثر خطورة مما يوحى به فشله الذى يدعو إلى الرثاء. وهو بشكل إنذار لبونابارت، «إنكم سوف ترون [...] أن رجلاً يتمكن من حشد المماليك المبعثرين، والعرب الأعداء، والمساخطين، ويعطى لحركاتهم شيئاً من الوحدة، يمكن أن يراوده الأمل الذى يستند إلى أسس واقعية فى إلحاق لذى كهبر بنا فى حالة الضعف التى نمر بها. وأنا على ثقة من أنكم قد فكرتم فى ذلك، حتى قبل رحيلكم، وإن توصلاتى لم تك مجددة فى حلکم على العودة بسرعة؛ لكن بإمكانى الإمساك عن قول إننى أرغب فى ذلك بحارة» (٧٦).

واقف الحج

يعنى حادث الأمير إلى رحيل قليلة الحج الذى اعتمد عليه بونابارت كثيراً بالنسبة لسياسته الإسلامية. وكان القائد العام قد أمر بوجه خاص بإعلان كسوة رائعة، هى الكسوة التى تقدمها مصر بشكل تقليدى لكساء كعبة مكة. ويهتم سكان القاهرة بمصير هذه الهدية. ولا يوافق نوحاً على رحيل القافلة برأ ويعلن أن الكسوة سوف يتم إرسالها بحراً،

الأمر الذي يسمح له بحسب الوقت. وهو يأمر بنشر ذلك الخبر عبر قافلة طريقها الشمالية التي تمر دون حواشي كبرى بالقاهرة، وذلك بالرغم من عدد من انزعاجات المسئولين الفرنسيين. ويتوجب على المصريين الرافقين في الذهاب إلى المهنتين المنصتين أن يصلوا من السويس (٧٧). والواقع أن شريف مكة كان قد تجاوب مع عروض الفرنسيين وأبدى استعداده لأن يكون وسيطاً في التراسل مع تيهو صاحب (٧٨). وقد أرسل هذا من المركب الشراعية للعملة بالهن إلى السويس، طالباً إعفاءها من الرسوم الجمركية (٧٩)، وذلك بحسب الضرائب التي حصلتها الدورية البحرية الإنجليزية التي سمحت للمجازيين بمواصلة رحلتهم. ويؤدي الوجود البحري الإنجليزي إلى طبع الشريف إلى الحد من اتصالاته مع الفرنسيين. وفي نهاية الأمر لا يتسنى للكسوة مغادرة السويس و، لأول مرة منذ الفتح العثماني، لا يجرى احترام هذه العادة التي يتمسك بها المصريون تمسكاً شديداً (٨٠).

المهاليك الأسرى

كما يهتم القديوان بمصير المماليك الذين تم أسرهم في سوريا وفي مصر. وهو يتوسط لمصلحة الزعماء الذين لا يحتفلون، بوجه عام، مهانة الهزيمة والأسر. ولما كانوا محطمين معنويًا، فإنه يجرى الاكتفاء بممارسة مراسلة خفيفة عليهم. وفي المقابل، يثير للمماليك الشبان مشكلة حرجية. وكان الفرنسيون يريدون دمجهم في الجيش، لكن الدمج يبدو مستحيلًا من الناحية العملية. لما تشكل وحدات خاصة بهم، فهو يشكل خطراً غير مقبول. ويقترح نوجا على بوناپارت نهاية حل: «بينهم كثيرون من المسيحيين يرغبون في العودة إلى ذلك الدين، فليس بالإمكان تشكيل وحدة أو عدة وحدات منهم ثم إلحاقها بأنواع مختلفة؟ ربما كانت تلك هي الوسيلة لاجتذاب عدد أكبر من هؤلاء الأشخاص حيث يتسنى لهم أن يروا أن رفائهم يتمتعون بحياة تحرك لديهم الأمل في الحصول على مثل لها هم أنفسهم بدلاً من أن يحنوا لأنفسهم، كما هو حالهم إلى الآن، في شقاء» (٨١).

ثم إن عددًا كبيراً من المماليك الشبان يحبون بهذه الدرجة أو تلك من العصرية في القاهرة ويهدمون بإثارة قلقت فيها. وينضم إليهم عدد من العجائزين الذين فروا من مصر العليا. والقديوان نفسه يطلب فرض حمل لوراني تحقيق للشخصية للسيطرة على هذه

الجملة الخطرة. لكن للمهاجرين أنفسهم، بشكل متناقض، يؤثرون عنهم عندنا من المالكين غير المسجلين في الشرطة وغير الحاصلين على حق. وتلك هي حالة الشيخ البكري الذي يرجو بذلك أن يتمكن، في حالة انقلاب الوضع السياسي، من أن يثبت أنه قد مارس لعبة مزبوجة. والحال أن للفرنسيين، غير الغافلين، يلقعون إليه ملاحظات ملحة (٨٢).

تمرد الطيوان

في الفترة نفسها، يصطدم دوجا بالديوان في مجال يعتبره هذا الأخير أساسياً، حماية النساء للمسلمات. والقصة، الكاشفة بما يكفي للعلاقات بين الفرنسيين والمصريين، تستحق إيرادها من خلال رواية دوجا لها (ولذلك بقدر ما أن الجهرتي لا يذكرها).

إن محظية اسمها خديجة، كانت تخص سليمان كاشف البواب، قد جرت الوشاية بها لدى قائد الموقع على أنها تدبر نوعاً من مكان مشبوه، ولم تك هذه المرة تحوز صك حصانة كان قد منح لها منذ وقت بعيد ولم تبرزه، وغداة اقتيادها إلى قائد الموقع، مع جاريتين أخريين، يوم ٢ مساءً [كذا]، أخذت تصيح عبر نافذة، يوم ٢، عندما دخل الجنود عندها لأخذ الأعلام، «أيها المسلمون، أخرجوني من هنا، إنهم يقتصبونني». ولم ينتبه أحد من نزل الهنرل إلى هذه الصيحة، ولم ينتبه أحد إليها. لكن هذا الكلام تكرر وشكا رجال ونساء إلى الديوان من أن محارم النساء قد انتهكت وأنهن لم يعدن في أمن. وفي يوم ٤، في جلسة الديوان، قدم الشيخ المهدي عن هذه المسألة، دون التحقيق فيها، تقريراً ساخناً، نبهني إليه المواطن فورييه، ولما جاني بقدر ما أنني لم أسمع به يتحدث عن شيء، أنا الذي كنت قد دعوت جميع للشايخ في الليلة السابقة إلى تناول العشاء عندي حيث مر كل شيء على ما يرام بالنسبة للجميع. وقد ذهبت فوراً إلى نزل قائد الموقع لأتعرف هناك على هذه المسألة. ووجدت هناك الشيخ المهدي والمواطن بانوف. وطلبت إحضار الجارية وحقت معها وجعلت الشيخ يحقق معها. وقد تبين من إجاباتها أنها كانت لها تعاملات كثيرة مع الفرنسيين منذ إقامتهم في مصر بحيث أنها كانت تفهم كل ما نقوله وترد عليه بالعربية قبل ترجمته، وأتوالتها تكلي لإثبات أنها لم تك تدافع عن شرفها، عندما صاحت، بل كانت تريد إطلاق سراحها. وقد انتهزت تلك الفرصة لكي أوضح للشيخ المهدي الخطر الذي يكمن في القيام بتهجمات متعجلة دون التحقيق في الوقائع، وانعدام حكمته في عدم تحدثه معي في مسألة من شأنها التأثير على سكينه للمدينة وتقديم ذرائع لنوى النوايا السيئة. وقد

شرحت له مهادنة السلطات العسكرية، وأن سلطتي أعلى من سلطة الهنرال بهستان، وهي فكرة لم يك قد تمكن بعد من استيعابها، وتم الاتفاق على أن يجرى في المستقبل إبلاغ من جانبه ومن جانب المشايخ الآخرين بكل ما من شأنه تعزيز السلام الذي يعود التمتع به هنا. وفي المساء، طلبت إعادة خديجة عندي مع جاريتها. وتحدثت إلى لأول مرة عن صك الحصانة للوجود عند لقا الأنكشارية. وصرفتها هي وجاريتها مع الأمر بتزويدهن بسكن يمكن أمنات فيه و، لتوفير أسباب عيشها، نهت الأمر بحيث يمكنها التمتع بعدة قراريط (٨٢) استردتها لقاء مقابل.

ويوجد في هذه المسألة كلها تعجل في إلقاء القبض على نساء صدر لهن صك حصانة واستهتار بتركهن بمصحن، وخبت من جانب خديجة واشتهاء من جانب المشايخ إلى إزعاج قائد الموقع إننا ما أتيت الفرصة لللائمة (٨٤).

وتنقضا مسألة ذات طابع مماثل عندما يتم التوصل إلى اكتشاف مدفعين بمصاحبة عند محظية سابقة أخرى لأحد للماليك، هي الست جولسافه. ومن سوء حظ بهستان أنه يأمر بالاحتجازها في ناره، الأمر الذي يستثير تدخلا جديدا من جانب الديوان. وينصح بوسيلج بنقل المرأة إلى بيت أحد الأعيان ويختار نوجا للشيخ البكري (٨٥).

وعلى الرغم من أن نوجا قد اصطدم بحساسية أعضاء الديوان حول هذه المسألة، فإنه يتولى حماية مصالحهم للمادية. وهكذا، فإنه يتدخل لمصلحة للشيخ السرسى، اصدیق الفرنسيين، ويجمع إيرادات التزاماته التي يرفض للفلاحون دفعها (٨٦). ويبدو من الواضح أن الفلاحين لا يحترمون بعد التوجيهات نحو الالتزامات الأخيرة. والواقع أن جباية الضرائب تتم مباشرة على أيدي الفرنسيين وإدارتهم الضريبية. وبوجه عام، فإن السلطات الجديدة في الساحة ترى أن مطالب للمتزمين جائزة، ويحظرون، في أغلب الأحوال، كل نقل للحيازة إلى ملتزمي للضرائب السابقين (٨٧).

والديوان أيضا أداة نافعة لتنظيم الوقاية من الطاعون، الذي يظل دائما في موانئ الدلتا وفي سوريا خاصة، خلال الأشهر الأولى من عام ١٧٩٩. ويتعين منع الوباء، عن طريق تدابير حجر صحي فعالة، من الوصول إلى العاصمة. كما يتعين على الديوان إبلاغ مجموع السكان بالتعليمات الصحية. وهو مكلف بتنظيم شبكة تطهير من الماء عند مشايخ البلاد. وسعيًا إلى تجنب العدوى، يجرى حظر البقاء بالنسبة لجميع فئات السكان (٨٨).

محمد طاهر

إن فترة التقلب الأنطلس التي تلتو المع تمرد الأمير، هي فترة جد قصيرة، وفي أواخر أبريل، يضطر نوجا إلى مواجهة خطر أكثر أهمية بكثير. وهو خطر حركة مهدية (القية)، تعتبر واحدة بين أوائل سلسلة طويلة سوف تميز وادي النيل في القرن التاسع عشر. والحال أن مغربيًا، ينسب الانتماء إلى العائلة الشريفة في مراكش، ويقدم نفسه على أنه رسول لله قاهر على جعل أنصاره غلبين، ينجح في إثارة غرب لمتا النيل وخاصة إنليم بمنهور، بؤرة المقاومة منذ بداية الاحتلال الفرنسي. ومنذ البداية تصور للصنادير الفرنسية الرجل على أنه «مشعوذ يهودي» [...] يعتبر نفسه قائمًا لأولاد علي، القبيلة العربية التي تمكن الآن مريبوط. وهو يزعم امتلاك سر استخلاص الذهب من أي شيء يضع يديه عليه، والقدرة على شل الرصاصات والقنابل التي تطلق عليه وعلى جماعته والقدرة على إلقاء القنابل معلقة في الهواء (٨٩).

والأقل انتماءً إلى عالم السحر، هو هجومه المفاجئ على بمنهور في ليلة ٢٤ - ٢٥ أبريل ١٧٩٩. إن الحامية الفرنسية، التي تتألف مما يزيد قليلا عن مائة رجل، تبدأ عن آخرها. وعندئذ ينضم آلاف من الفلاحين إلى الحركة، وبعد معركة قصيرة يموت فيها إبراهيم الشويجي (٩٠)، تنسحب القوات الفرنسية التي كانت قد جاءت لمساعدة حامية بمنهور. ويطلب مارمون بشكل فوري إرسال تعزيزات تعتبر ملحة بقدر ما أنه يخشى من هجوم بحري إنجليزي ومن وصول جيش مغربي أبلغه مرشدوه بسيره في الصحراء، في اتجاه الإسكندرية. ويصبح الوضع أكثر إزعاجًا أيضًا لنوجا لأن مساعد مراد بك، محمد بك الألفي، الذي جاء من مصر الوسطى مع قوة من المماليك، ينجح، في اللحظة نفسها، في الالتفاف حول القاهرة لكي يعيث فسادًا في شرق اللمتا بينما يقوم الأسطول الإنجليزي بمقاهرة بحرية لملم السويس.

لكن رد الفرنسيين سريع. إن دافو ينجح في تعقب الألفي وفي تشتيت شمل قواته بينما يجرى إرسال تعزيزات إلى السويس. ويوجه خاص، يجرى توجيه للجهود الحربية إلى دمنهور حيث يمارس طاهور متحرك تحت قيادة لانوس أعمالا انتقامية رهيبة في ٩ مايو ١٧٩٩. إن الجندي يأخذ ثاره من مدينة دمنهور ومن سكانها. ففي البداية، جرى قتل ٢٠٠ لو ٣٠٠ من هؤلاء السكان على مشارف المدينة وهم يلودون بالفرار؛ وبعد ذلك، أبحث

هذه اللهبنة الشائعة للمسلح لأموال الذهب والقتل. إن دمنهور لم يعد لها وجود، وقد تم إحراق ما بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠ من سكانها أو إعدامهم رمياً بالرصاص. (٩١).

وتؤدي قوة القمع وعجز المهدي إلى دفع الفلاحين إلى التخلي عن قضيته. ويعيد هذا الرجل جميع أنصاره الآخرين ويدفع إلى التلصق على أمل الارتباط بقوات الألفى للملوكية. لكن لانوس الذي يخرج لمطاربته، يشتت بشكل حاسم قوات المهدي في ٤ يونيو ١٧٩٩ في كفر نجوم. وعلى الرغم من أن المهدي يشار إليه على أنه لم يمت، فإنه يختفي بعض الوقت من المصادر الفرنسية للعاصرة. ويؤمن ناپوليون في سانت - هيلين أن المهدي قد مات خلال معركة دمنهور. وكانت جثة الملك المهدي نفسه بين جثث القتلى، على الرغم من أن إلهيانه قد زعموا لوقت طويل أنه حي وأنه سوف يظهر عندما يحين الوقت لذلك. إن المصريين، في جميع الأزمات، كان من السهل تحريكهم باسم المعبر، وكان الحديث يدور عن العجل أبيس أم عن لوزوريس أم عن محمد (٩٢).

وهذه الرواية للأحداث جد مماثلة لرواية الحكاية الشرقية، «الذئب الذي» التي كتبها في ١٧٨٨ - ١٧٨٩ والتي يشير فيها للبطل الجمهور عبر تكثيف الحيل والدجل. ففي تلك الحكاية، نجد أن الذئب الزائف «يعتمد أكثر من ذي قبل على هذيان الشعوب، عندما تؤدي خسارة معركة إلى تخریب أعماله واختزال أنصاره وإضعاف إيمانهم». عندئذ لا يبقى له غير الإمكانية الوحيدة في أن يموت متخذاً الاستعدادات لكي لا يتم العثور على جثته حتى يصود الاعتقاد بأنه قد رفع إلى السماء وبأنه سوف يعود (٩٣). وهذا، خلق بوناپارت لقاءً غريباً مع أساطير شهابه التي ربما تكون قد جسدت، بشكل أفضل منه، وهمه الشرقي.

والحال أن وجود إبراهيم الشوريجي وأولاد على ونور المغاربة في هذه المسألة إنما ينكران على نحو غريب بأعمال عبد الله باشي في الستة السابقة في الإقليم نفسه. فهل كان المهدي والممثل السابق لمراد بك في الإسكندرية شخصاً واحداً؟ إن أي مصدر مباشر لا يشير إلى ذلك بشكل واضح. فالفرنسيون لم يقوموا بالمقارنة والجبرتي ونقولا الترك كانا لا يكانان ببرحان القاهرة بحيث يتعذر عليهما تقديم تفاصيل محددة. لكن نصاً غريباً لسيدني سميث، يتصل بمحاولاته الترامية إلى الاتصال بمراد بك في عام ١٨٠١، يشير إلى مصرع عبد الله باشي في تاريخ شهر محدد، على أيدي الفرنسيين، وهي معلومة يؤكدتها مصدر فرنسي (٩٤). وفي المقابل، يشير الجبرتي ومصلح آخرى إلى أن أحد محركي تمرد القاهرة الثاني ليس أحداً آخر غير قائد تمرد البحيرة في الستة السابقة (٩٥). ويبدو من

الواضح أن المهدي وعبد الله باشي شخصان مختلفان؛ حيث لقي الأول مصرع
الثاني في معركة دمنهور.

وخلال عيد الأضحى الإسلامى للكبير، فى ١٥ مايو ١٧٩٩، أثار حريق
عظيم اهتمام نوجا. وتم اغتيال فرنسى فى حى الإفرنج. ويسمح تحقيق
وينشأ لمساعدو الشرطة اليونانيون، بإلقاء القبض على الجانى. وهو معلوم
العشرين من عمره تصرف بمفرده بدافع من حماسة للعهد الدينية. لكن هذا الـ
بخشى الفرنسيون من أن يروا فيه بداية لتفاضة بينما بخشى القاهريون من أن
بداية لقمع شديد، يتضح أنه ليس غير عمل معزول بلا عوالب جسيمة، الأمر
الجميع (٩٦).

تشاؤم نوجا

إن تجربة إدارة مصر فى هذه الظروف الصعبة قد جعلت نوجا متشائماً
بمستقبل الوجود الفرنسى على الرغم من نجاحاته. وهو يطلب بإلحاح من
العوية من سوريا مع جيشه. وهذه المعلومات هى أحد نواجع رفع حصار عكا. أ
المؤقت، الذى هزه مصرع استقلال عبيدين فى سوريا ومصر العليا، يرى بشكل
الفرنسيين يندفعون صوب الفشل؛ «إننا نفتقر هنا [...] إلى المال والمال، وإ
والذخيرة والخشب والسلاح وصداقة السكان. فهل سوف تعالج عوية الجيش .
كل ذلك؟ إننى أتمنى ذلك من كل قلبى، لكننى أعترف لك إننى أنتظر بنفاد صبرا
الحسنة التى تذهب كل يوم بأرواح بعض أبطالها الرثيسيين [...] إننا نلقد
يوم، أكان بالسلاح أم بالأمراض ونحن لا نرى كيف يمكن أن يأتينا أناس من فرد
يمكن تجهدهم من هذا البلد، باستثناء عدد غير كبير من اليونانيين، لن يكونوا
يمكن الاعتماد عليهم» (٩٧).

وليس بوسع نوجا أن يدرك أن الحركات التى معيت لثلاثا خلال ربيع ١٧٩٩
حركات بهذا الاتساع. وبإستثناء إقليم دمنهور، فإن الفلاحين لم يشاركوا فى هذ
التي حشدت أساساً عندك من القبدو والمخارية والمعاليك. وقد وجهت المعارك ضربة
إلى القبدو الذين يترددون الآن فى محاربة النظام الفرنسى والذين يقبلون بشكا

معاهدات الصلح المعروضة عليهم. وكان مشايخ البلاد، في غالبيتهم، مخلصين للنظام الجديد الذي عاد عليهم بالأمن ويحرم معين فيما يتعلق بهيكل الالتزام. ومن ثم فإن السيطرة الفرنسية تمر بعدة مراحل، فتح سريع لتلوله انتفاضات جد عنيفة ثم تأسيس نظام جديد.

مصر العليا

وهذا التطور يوجد من جديد في مصر العليا، مع قدر من التأخر ومع التعقيدات الراجعة إلى وجود المماليك الدائم.

وفي بداية شهر فبراير ١٧٩٩، يدرك ديزيه أنه، في مطاردته لحراء بك حتى النوبة، قد ترك خلفه وحدات من الحجازيين وجماعات مسلحة من المماليك تتحرك بنشاط متزايد. ومنذ ٩ فبراير، يصطدم دافو بعثمان بك في معركة لفرسان عنيفة حيث تعتبر الخسائر شبه متساوية في الفريقين. وهو يجمع في طريقه إلى الصحراء العربية (٩٨) حيث لا يمكنه مطاردته. وفي ١١ فبراير، فإن الحجازيين هم الذين يهاجمون الحامية الفرنسية في لنا، ويتم صدقهم بخسائر جسيمة، ويلقيهم ديزيه مركز انتشاره في قوص لكي يتمكن من التدخل بسرعة في كل مصر العليا، وذلك بقدر ما أنه يجري إشعاره بوصول متطوعين جدد من الحجاز. وهو يدرك أنه لن يكون سهلاً للمنطقة إلا إذا سيطر على ميناء القصير على البحر الأحمر، وهو الأمر الذي لا مفر منه بين مصر العليا وشبه الجزيرة العربية (٩٩).

وفي فبراير، تفشل محاولة لاحتلال ذلك الميناء عن طريق حملة بحرية، تنطلق من السويس، وذلك بسبب مقاومة الحامية وضعف الأسطول الفرنسي الصغير. ولا يمكن تحقيق العملية إلا عن طريق البر، لكن ديزيه، الذي يتعين عليه مواجهة كثير من الأعداء في الوادي، لا يستطيع الآن بعثرة قواته. وهو يطلب تعزيزات مهمة، إلا أنه لا يحصل على شيء وذلك بسبب حملة سوريا. ومن ثم فإنه ينشئ تشكيل طواوير متحركة، تتحرك على طول الوادي، مدعومة بأسطول نهري يحمل المؤن لمطاردة أعدائه الذين يشنون الهجوم انطلاقاً من الصحراء. وهو يحارب بشكل خاص حشود الفلاحين، الذين يتغلب عليهم المماليك والحجازيون، بعد أن دفعوهم إلى الثورة، عندما تشتد قوة الضغط الفرنسي. وفي ٣ مارس، يشن الحجازيون هجوماً خاطفاً على أسطول ديزيه الصغير، الذي سمح لنفسه بالابتعاد عن القوات البرية. والحال أن سفينة ليهتالي، وهي السفينة الفرنسية الرئيسية، يتم

إحراقها. والخسائر جسيمة، نحو خمسمائة بحار وجندى ناهيك عن المئتين (١٠٠). ومن ٨ إلى ١٠ مارس، مصطفى بكيل، الذي يقود أحد الطوابير، بالحجازيين في معركة عنيفة قرب قوص، ويلحق بهم خسائر جسيمة، خاصة بعد معارك متلاحمة. لكن موقفه خطر، لأن استهلاك الجزء الأكبر من ذخيرته. وقد قدم فيليان دينون، الذي يرافقه، وصفا مؤثرا لتلك الفترة من حملة مصر العليا.

«إننا، نحن الذين كنا نتأخر بآثنا أكثر عدلا من للماليك، قد ارتكبنا بشكل يومي وبشكل شبه اضطراري عددا من المظالم؛ إن صعوبة تمييز أفعالنا من حيث الشكل واللون قد قادتنا إلى قتل للاحين أبرياء كل يوم؛ فالجنود، المكلفون بالذهاب في عمليات تفتيشية، لا يفوتهم أن يعتبروا مكيبين للتجار التعساء الذين يصلون في قافلة، وقبل محاكمتهم [عندما يكون هناك وقت لمحاكمتهم]، يتم إعدام اثنين أو ثلاثة منهم رميا بالرصاص، ويتم نهب أو تهديد جزء من شخصيتهم. [...] ونصيب السكان، الذين لا شك في أننا جئنا إلى مصر من أجل سعادتهم، ليس أحسن حالا؛ فإذا كان العرب يظلمهم، لدى اقتربنا، إلى ترك بيوتهم، فإنهم عندما يعودون بعد رحيلنا، لا يجدون فيها غير القرباب الطينية التي تتألف منها الجدران. [...] وإذا ما قمنا في قراهم، فإننا ندعو هؤلاء التعساء إلى العودة، وإذا فإنهم سيعاملون كمتمردين متحالفين مع أعدائنا، ومن ثم فإنهم سوف يتعرضون لمضايقة العبيد الضوبي؛ وعندما يستسلمون لهذه التهديدات، ويجيئون لدفع الميرى، يحدث أحيانا أن نتصور أن عددهم الأكبر تجمهر، وأن مصيبتهم أسلمة، وبنائما ما يتعرضون لإطلاق النار بشكل عشوائي عليهم من جانب الرماة أو من جانب رجال الدوريات قبل أن يتسنى لهم توضيح مقصدهم. [...] وصحيح أنهم إذا ما لزموا بوزهم ودفعوا للميرى واستجابوا لكل احتياجات الجيش، فإن ذلك يجنبهم مشكلة الرحلة والإقامة في الصحراء؛ وقد شهدوا استهلاك مؤنهم على نحو منظم، وكان يوسعهم استهلاك حصتهم، وكانوا يحتفظون بجزء من ممتلكاتهم، ويبيعون بعضهم للجنود، ولم يقتصب غير عدد قليل من نصائبهم أو بناتهم؛ لكنهم وجدوا أنفسهم أيضا مذنبين بالتعلق الذي أبدوه نحونا، وذلك بحيث أن للماليك عندما كانوا يحلون محلنا كانوا لا يتركون لهم مالا أو جوازا أو جملا؛ وغالبا ما كان شيخ البلد يدفع رأسه ثمنا للانحياز للزعم الذي يتهم به (١٠١)».

التمهيد

اعتبار من أواخر مارس، يبرز الانتشار العسكري الفرنسي كفاءته. إن الخصوم يتم

الاشتباك معهم فور نزولهم إلى الوادي. وفي أبريل، يستخدمون بالقوات التي يقودها ديزيه نفسه في بير البر، وإذا تقدم الجنرال دون تبصر، فإن فرصان دافو يتلقون ويدفعون ثمنًا لذلك خسارة عند من الضباط المهمين. وفي الأيام التالية، يجري ضرب الحجازيين من جهة طهطا ومن جهة حرجا على التوالي. والحال أن دافو، الذي يطارده المماليك، يضطر إلى هبوط الوادي لكي يدخل إلى الدلتا بحثًا عن الألفي، كما رأينا من قبل. وفي أوائل مايو، يمكن لـديزيه أن يعتبر أن الوادي قد أصبح هادئًا تقريبًا، ويرسل بيلهار لاحتلال القصير، ويقضي هذا الأخير وقتًا في الأعداد لحملته ولا يرحل إلا في ٢٦ مايو. وبعد مسيرة مرهقة لمدة ثلاثة أيام في الصحراء، يستولي دون مشقة كبيرة على الحصن، سادًا بذلك مدخل مصر من طريق البحر الأحمر. ويحصل دونزولو على قيادة المواقع الجديد، الأمر الذي يعود عليه بمرتبة جنرال لواء بصفة مؤقتة (١٠٢). وبعد تشتيت شمل الحجازيين ودحيل الألفي إلى سوريا، فإن الخطر الباقى هو معظم ممالك مراد بك، الذين يظلون طلقاء يصعب النيل منهم في واحات الصحراء الليبية.

وعندئذ يمكن لـديزيه أن يبدأ في إدارة منطقته. وهو يكتفب الإغلاقات الضريبية بسبب الخراب الذي أحدثته المعارك. ويشجع استئناف التجارة ويسعى بشكل خاص إلى الاعتماد على مخابر البلاد. وهو يجمعهم في مجلس حيث تتم، وفقًا لفيثان ديتون، مناقشة مصالح الحكم والمزايا للمنتوحة للمزارعين، والمكافآت التي يجب منحها لأولئك الذين يحققون تميزًا في السنة التي توشك على البدء [...] وأوضح ما توصلت إليه حول محاولات هذا المجلس هو أنه لم يتم هناك اقتراح تجديلات دون أخذ رأى السكان، وأنهم قد وعدوا بكافة أنواع التشجيع، وأنهم قد قالوا، تشریفًا لهؤلاء الرجال الشجعان، لدى اختتام المجلس، «إن هذا المجلس يشبه مجلس زمن الأمير همام حيث لم يك الحديث يدور عن فرض ضرائب تعسفية، بل عن ما يمكن أن يكون أكثر نفعًا للجميع» (١٠٣).

وكما في الدلتا، فإن الفرنسيين يسعون إلى استعادة النظام بمنع تعديات البدو. وبالنسبة لـديزيه، فإن الحل للدائم الوحيد هو تحويل البدو إلى سكان مستقرين. وهذا هو ما يوضحه لبيلهار، في ١١ يونيو، «إننى أود أن تحيا جميع القبائل في وفاق. وللتوصل إلى السيطرة عليها، فإن هناك طريقتين: أما الطريقة الأولى، وهي طريقة للمماليك، فإنها تتمثل في إضعافها عن طريق الانقسامات المستمرة، ومن ثم، دفعها دائمًا إلى حمل السلاح. لكن الطريقة الثانية هي الطريقة التي يجب لها أن تكون مناسبة لنا؛ إنها تتألف من تهدئة جميع

القبائل والحفاظ على سيادة المسلم فيما بينها كلها، حتى يمكن للبلد كله، بعد تحويلها إلى مراعاة للمسلم بهذا الشكل، أن يكون هادئاً وغير معرض لأي خطر. إن الهدف الكبير لسياستنا هو إما القضاء على العرب بالقوة - وتلك وسيلة بربرية - أو تمدينهم، وجعلهم مزارعين لكثير ما يمكن. وهذه الوسيلة تتماشى مع إنسانيتنا وتقاليدنا. وإذا ما تمت تهديئة جميع العرب، ومنحهم ملكيات تقرب فيما بينهم، وتشجيع الزراعة، وتحريك النفوس بينهم من الاعتماد على الماشية، لسرعان ما سوف نراهم مرتبطين بأرضهم... وعند إخضاعهم، سوف يلغعون الضرائب ويقومون بتسميد الأرض... (١٠٤)،.

وفي النصف الأول من يونيو، يبدأ ديزيه في التحضير لحملة ضد مراد بك، لكن تدابير الأمن التي يجب فرضها على القبائل البدوية تحول دون تحقيق مشروعه، ويصل إلى علمه نبأ وصول بونابارت إلى مصر ويرى أن عليه التحسب لمواجهة جماعات المماليك المسلحة المتولدة في الدلتا والتي من المؤكد أنها سوف تجبر على التقهقر مع عودة القوات الفرنسية. وفي تلك اللحظة حينها يقرر مراد بك ترك الواحات للهبوط على مصر السفلى، ومن المؤكد أنه يسعى إلى ضم قوات إلى قوات الجيش العثماني التي يتراقب الجميع نزولها للوحدانية.

وحيل بوناپارت

الحرب ضد البحر المتوسط

الحرب في البحر المتوسط هي إحدى السمات المميزة للائتلاف الثاني. وهي نتيجة للتحالف الفرنسي - الأسباني ضد إنجلترا ولحملة مصر في آن واحد. وفي إيطاليا، فإن هجوم نابولي ضد الفرنسيين مع احتلال روما كان حدثاً عابراً فقد تمكنت الجيوش الجمهورية بسهولة من القضاء على هذا الخصم المفرور واستولت على نابولي في ٢٤ يناير ١٧٩٩. وعندئذ يلجأ البوربون إلى صقلية بينما ينشئ الفرنسيون جمهورية شقيقة جديدة، هي الجمهورية الهارتينوبية. ومنذ تلك اللحظة، تنصب المهمة الرئيسية للأسطول البريطاني في البحر المتوسط على الدفاع عن صقلية ومحاصرة الموانئ الأسبانية. وهذه الأنباء للشجعة تدفع حكومة الإنلرة إلى إعداد مجهود بحري جديد: عمل مشترك بين الأسبان والفرنسيين تحت قيادة بروي. وسوف يتولى هذا الأخير قيادة أسطول بريست، ويتفغل في البحر المتوسط، وينضم إلى الأسطول الأسباني، ويحمل تعزيزات إلى مالطة وإلى الجزر الأيونية ثم إلى الإسكندرية (١٠٠). والحال أن الأميرال، وهو منظم ممتاز، ينجح في تحريك أسطول بريست وعلى متن سفنه مؤن غذائية تكفي لسته أشهر، في ٢٦ أبريل ١٧٩٩. وفي ٤ مايو، يصل الأسطول قرب مضيق جبل طارق الذي يجتازه دون مشكلة، حيث يهرب الإنجليز أمام تفوق الفرنسيين العددي. وفي المقابل، فإن الانضمام إلى الأسبان لا يخلق ذلك بسبب الأوامر للتضاربة الصادرة عن الحكومتين.

وحتى لو كان هذا الأسطول القوي قد تحرك على الفور متوجهاً إلى شرق البحر المتوسط، لوصل جد متأخر بالنسبة لحسم حصار عكا. وإيا كان الأمر، فإن بروي يفضل التحرك للمرسو في طولون، التي يصل إليها في ١٣ مايو، لإصلاح بعض أعطال سفنه. ويؤدي تقادم الوضع العسكري الفرنسي في إيطاليا وخسارة موانئ البحر الأدياتي إلى دفع حكومة الإنلرة إلى تعديل تعليماتها: فانتظاراً لإتمام الانضمام إلى الأسبان، يتولى بروي تأمين دعم الإمدادات للفرنسيين في إيطاليا في شرق البحر المتوسط. وبعد ذلك سوف يتحرك الأسطول المشترك إلى مصر، ولكن من أجل تحقيق مهمة مختلفة تماماً.

وفي بداية مارس، جرى استئناف الحرب ضد النمسا التي تنضم إلى الائتلاف

الثاني. وقد اجتازت الجيوش الفرنسية نهر الراين حيث حاربت وأجهزت على الانسحاب إلى الضفة اليسرى للنهر. وفي إيطاليا، في أوائل أبريل، تبدأ الانتكاسات. وتطلب بعض الأوساط الباريسية بالفعل، بتحريك من أخوة بوناپارت، عودة البطل إلى فرنسا لتولى قيادة الجيوش الفرنسية. والحال أن مبعوثاً خاصاً مؤلفاً من جانبهم، وصل إلى مصر في ٤ مارس، قد أبلغ في عكا للقائد العام لجيش الشرق بالمصاعب السياسية وبالاستئناف العام للحرب الأوروبية (١٠٦).

إن الجهد الذي يجب بذله في أوروبا نفسها لا يسمح بعد بسحب قوات لإرسالها إلى مصر. على العكس تماماً، إن حكومة الإدارة تدرس للجلاء وعودة جيش الشرق إلى فرنسا. وهذا هو معنى التعليمات الصادرة إلى بوناپارت، والمصورة في ٢٦ مايو ١٧٩٩. إلا أن «عليك أيها المواطن الجنرال أن تنظر في ما إذا كان يوسعك أن تترك في مصر باطمئنان جزءاً من قواتك. وفي هذه الحالة، فإن حكومة الإدارة تخولك أن تعهد بقيادتها إلى من تراه مناسباً» (١٠٧).

ويتلقى بروي الأمر بالاتجاه إلى مصر ومعه هذه التعليمات، ولكن بعد تحقيق الانضمام إلى الأسبان. ولا يحقق بروي هذا الانضمام إلا في ٢٢ يونيو في قرطاجنة. والواقع أن إسبانيا ليست في حرب إلا مع إنجلترا، وليس مع النمسا وروسيا والإمبراطورية العثمانية (١٠٨). وهي لا تقبل اتحاد الأسطولين إلا لاسترداد مينوركا من الإنجليز وهي مستعدة للعمل في مقابل ذلك فيما يتعلق بمالحة، وليس أكثر من ذلك. ويساوم بروي بحدّة من أجل وحدة للعمل. لكن النتيجة النهائية هي أن الأسطول المشترك المؤلف من إحدى وأربعين سفينة سريعة الحركة يتحرك إلى الأطلسي وأن السفن الفرنسية تدخل بريست في ٨ أغسطس ١٧٩٩ ... وهذا الانقلاب لمسار الأسطول يزيل كل إمكانية للجلاء عن مصر بينما لا يتلقى بوناپارت تعليمات حكومة الإدارة.

الهزائم الفرنسية

خلال تلك الوقت، يؤدي وصول قوات روسية إلى إيطاليا وإلى سويسرا إلى التعجيل بهزيمة الفرنسيين. وتؤدي انتفاضة شعبية قادها الكاردينال روفو إلى حصر القوات الفرنسية للتروكة في الجمهورية الهارتينوبية (كان الجانب الرئيسي من الجيش الفرنسي يواجه تهديداً في إيطاليا الشمالية). وتهبط قوة من الجنود الروس - العثمانيين المدعومين بالأسطول الإنجليزي قرب نابولي (وهذا فإن الإمبراطورية العثمانية، المهتدة في وجودها،

تقوم بأخر عملية عسكرية لها في إقليم كثيرًا ما هددته في القرنين الخامس عشر والسادس عشر (١٠٩). ويمنح الكاردينال دوفو اتفاق جلاء للفرنسيين ولأنصارهم. ففي مقابل الرحيل عن نابولي، سوف يجرى نقلهم إلى طولون أو العفر عنهم بالنسبة لما قلموا به من نشاطات سياسية. ويذهب نيلسون وآل هاميلتون والزوجان الملكيان لاتفاق الاستسلام بالرغم من احتجاجات الكاردينال ويتجهون إلى قمع رهب. والفرنسيون وحدهم هم الذين يمكنهم مغادرة الإقليم، وهذا التنازل للاتفاق من جانب نيلسون لا يتعرض للوم على إلا من جانب لوكس، زعيم المعارضة البرلمانية، والملك جورج الثالث. بل إن اللوردين جرنفيل وسبنسر، العضوين في الحكومة، سوف يحصل بهما الأمر إلى حد تأييد مصلك البطل القومي (١١٠) (يونيو ١٧٩٩).

وفي يوليو وأغسطس ١٧٩٩، يفقد الفرنسيون الجزء الأكبر من إيطاليا، وتهبط قوة أنجلو - روسية في هولندا وينتصب تمرد ملكي في الجنوب الغربي بينما يهدد الثاندييه بالتمرد من جديد. ويجري اعتبار حكومة الإدارة مسئولة عن مسلسل الهزائم هذا. وفي المجلس، يؤدي لوردان معقوبي جديد، استخدمته جماعة المراجعين، القوية من الأيديولوجيين الذين يطمنون تغييرًا للمؤسسات، إلى خروج أغلبية حكومة الإدارة التي تعتبر متهمه بالمسئولية عن تدهور الوضع. وحملة مصر تمثل أحد العناصر الأساسية في قرار الاتهام. فهناك استياء شديد من غياب الجيش الفرنسي الأفضل وقائده. وفي معمان السجال، يجري اتهام حكومة الإدارة بأنها كانت تريد «أن تتخلى وتلن في صحراء العرب صفوة جيش إيطاليا وقائده الأشهر على مر الزمان وأكثر قادة جيوشنا كفاءة» (١١١). وهذه الهجمات المتكررة، والتي تقود إلى سقوط تاليران في ٢٠ يوليو ١٧٩٩ (يمارس لعدة أسابيع عمله بصورة مؤقتة)، والأنباء غير المباشرة التي تصور حملة سوريا على أنها كارثة دموية (كان قد تم اعتراض سبيل رسل بريد بوناپارت وأدى ذلك إلى الاقتصار على قراءة الأخبار التي توردها الصحف الإنجليزية والألمانية) إنما تقود إلى التخلي عن أي أمل في مخرج إيجابي للمشروع، وإلى التمسك إلى الجلاء عن مصر بكل السبل. والعمل الأخير لتاليران في وزارته هو اقتراح بدء مفاوضات مع الباب العالي، من خلال م. دو بوليتي، القائم بأعمال إسبانيا في القسطنطينية (١١٢).

وفي ٢٤ فبروكتيدور (١٠ سبتمبر ١٧٩٩)، تقر حكومة الإدارة الجلاء عن مصر، ولو بالقسوى الشروط، إلا يخدم الجيش وقائده بعد ذلك في عمليات الحرب الجارية. وسوف

يكون بونابارت حراً في قبول أو عدم قبول هذا الاتفاق. وملاوة على الفائدة المباشرة في السياسة التخليقية لهذا الإصرار على هزيمة بونابارت، فإنه يسمح بتصور وجود مقاصد خفية من جانب تليران وسييس وبارك (إن الأخيرين يظنان عضوين في حكومة الإدارة). وفي ١٨ فينديمير من العام الثامن (١٠ أكتوبر ١٧٩٩)، تكتب حكومة الإدارة إلى بونابارت إنها ما تزال مهتمة بمصر وإن الوساطة الأسبانية غير مجدية ولن الباب العالي، من جهته، قد أبلغ فرنسا باستعداده لمناقشة الجلاء دون وسيط ولن القائد العام لجيش الشرق يملك الصلاحيات الكاملة لإجراء هذه المفاوضات (١٣٣). وفي عشية ذلك اليوم، هبط بونابارت في فريجى، لكن الخبر لن يُعرف في باريس إلا في ٢١ فينديمير، حيث يقابل بمظاهر الفرحة من جانب السكان...

إعادة تظهير الجيش

إن بونابارت الموجود في مصر معزول تماماً عن أوروبا. فلم ينجح في الوصول إليه أحد من رسل حكومة الإدارة الرسميين وشبه الرسميين الذين أرسلوا إليه في الفترة الأخيرة (١١٤). ومن ثم فإن عليه اتخاذ قراره على ضوء المعلومات المتوفرة في الساحة وحدها. وكان فشل حصار عكا قد أثقله جانباً كبيراً من حماسه للشرق. وهو لم يعد يحد مصر في التحدث مع المصايخ (١١٥). إنه يفكر في أوروبا. إلا أنه يتعين عليه أولاً توطيد الوجود الفرنسي في مصر ودفع خطر الجيش العثماني، الذي احتشد في تونس، والذي شكلت وحداته المؤلفة من قوات النظام الجديد، والموجودة في عكا، طبيعته. وهو يفعل كل شيء لكل يخطئ عن سكان القاهرة فشل حملة سوريا على ١٤ يونيو ١٧٩٩، تدخل القوات الفرنسية إلى المدينة دخولا مهيئاً، في مشهد استعراضى يشارك فيه بنشاط أعضاء الديوان المكلفون باستقبال الأبطال (١١٦). لكن مراقباً لكياً كالجبرتي يمكنه أن يلاحظ حالة الإنهاك التي تهيمن على الجنود (١١٧). وبعد ذلك مباشرة، ينهمك بونابارت في إعادة تنظيم لجيش الشرق، إذ يجرى تفقد المستشفيات والتحصينات؛ ويجرى تشكيل طوابير متحركة لكي تجوب الأقاليم وتجهى الخرائب المتأخرة؛ ويتم إسفال تعميل على أشباه ألوية المشاة مع اختزال عدد العسرايا في الكتيبة الواحدة، وتكوين سرايا استطلاعية مكلفة بالقتال في الخطوط الأمامية وضم مدفعية إلى كتائب المشاة. أمّا الفيلق للماطية والبحرية، التي يعتبر أدلؤها من أكثر الأدعاءات قصوراً، فيجرى حلها ودمج رجالها بوحدات المشاة الأخرى؛ بل إن

القائد العام بنوى شواء عبيد سود من السودان لسد الفراغات الناشئة من الخصائر الفرنسية. لكنه، بما يشكل علامة ليهضاً على آرائه الجديدة، يصدر الأمر، منذ ٢١ يونيو، بتسليح الفرق اللطتين، «لا مويرون» و «لا كاربيير»، للوجوبتين في ميدان الإسكندرية (١١٨).

والى جانب تدهور إمالة تنظيم الجيش، فإن توطيد الوجود الفرنسي يمر عبر تدهور جمع صلومة شعبياً إلى إثناء السكان عن المقاومة، إن جميع للفقارية والجهازيين، الذين جاءوا إلى مصر لمحاربة الفرنسيين، والذين تم أسرهم، يجرى الحكم عليهم بالإعدام، كما يجرى إعدام للملك الذين عادوا إلى القاهرة دون تصريح. وبالنظر إلى العدد الكبير للإعدامات في القلعة، فإن درجة يحصل من القائد العام على تصريح بالاستعاضة من الإعدام رمياً بالرصاص بالإعدام بقطع الرؤوس، وهو ما سوف يسمح بتوفير للخيرة. ولابد من الإشارة إلى أن الفرنسيين يستخدمون جنودين محليين. وهم لا يستوردون الإجراء الأحدث والأكثر تمدناً والذي يتمثل في الإعدام بالهليلوتين. أما للمؤسسات جد للعمليات، والثلاثي ينشرون بين الجنود الأمراض التناسلية، فيجرى إغراقهم في النيل من باب الأعمال للمراعى للشرطة الإسلامية التي تحرم على مسلمة العلاقات مع كافر (١١٩).

مخاطبة النزعة القومية المصرية

بعد أن كان يونانبارت قد وجه دعايته في اتجاه الإسلام السياسي ثم في اتجاه النزعة العربية، وبعد هذا الفشل للزواج، فإنه يتحول إلى النزعة المصرية. فعشية إنزال للقوات العثمانية، يصبح من غير للمقول الحفاظ على أسطورة وجود فرنسي يستند إلى تصريح من الباب العالي. على العكس، فهو، على المستوى الرمزي، سوف يجهز على الصلة الأخيرة للتعبية الإنارية والتي تربط مصر بالباب العالي، ففي ٢٦ يونيو ١٧٩٩، يأمر بإلقاء القبض على ابن القاضي العسكري، رئيس الهراركية القضائية في مصر. والحال أن هذا للنصيب كان يعود، نلتماً، منذ القرن السادس عشر، إلى عثمانى يعينه الباب العالي. وكان حائزه الأخير قد شارك في تمرد أمير الحج ثم لجأ إلى سوريا. ويتدخل الديوان على الفور ويمنه الشيخ السانكت الفرنسيين إلى انعلم المنطق لديهم: «إنكم تقولون دائماً أن الفرنسية أحبب العثمانية وهذا ابن القاضي من طرف العثمانى. فهذا الفعل مما يعسء الظن بالفرنسارية ويكذب قولهم وخصوصاً عند العامة».

ويقبل الفرنسيون أن يكونوا متسامحين، بشرط أن يعين الديوان قاضياً جديداً.

وبشكل منطقي، يتم انتخاب أحمد للعريشي، فقيه للذهب الحنفي (الحنفية هي للذهب الرسمي للدولة العثمانية، على الرغم من أن سكان مصر يتبعون في غالبيتهم مدارس أخرى للتفسير الشرعي). ومنسئد يكشف بوناپارت، في بيان إلى العلماء، للعنى العميق لمباورته،

«وانتم يا أهل الديوان تهذون الناس إلى الصواب والنور من جنابكم لأهل العقول. وعرفوا أهل مصر أنه انقضت وقرضت دولة للعثمانلى من أقاليم مصر وبطلت أحكامها منها. وأخبروهم أن حكم العثمانلى أشد تعبا من حكم الملوك وأكثر ظلما.

«والعاقل يعرف أن علماء مصر لهم عقل وتبوير وكفاية وأهلية للأحكام الشرعية. يصلحون للقضاء أكثر من غيرهم فى سائر الأقاليم.

«وانتم يا أهل الديوان عرفونى عن المنافقين والمخالفين أخرج من حقهم. لأن الله تعالى أعطانى القوة العظيمة لأجل ما أعاقبهم. فإن سبيلنا طويل ليس فيه ضعف.

«ومرادى أن تعرفوا أهل مصر أن الصدى بكل قلبى حصول الخير والسعادة لهم، مثل ما هو بحر النيل الفضل الأنهار وأسعدنا كذلك أهل مصر يكونون أسعد للخلائق أجمعين، (١٢٠).

وهذا العمل من جانب بوناپارت يتمّ تطورا جرى البدء به فى مصر على بك حيث يهنا تعصير الهيراركية القضائية. ويتولى الفرنسيون مزل آخر للقضاة العثمانيين ويحصل الموظفون الجدد على راتب منتظم. لكن للعثمانيين، بالنسبة لجمهرة السكان، إنما يهدون منسئد بوصفهم المحررين للوحيدى من السيطرة الفرنسية. ويجرى للنظر إليهم بشكل أساسى كجنود للإسلام وللجهاد. وسوف تجيء خيبة الأمل بعد ذلك، مع رحيل الفرنسيين.

كما يحافظ بوناپارت على سياسته الخاصة بالانفتاح على أفراد للصفوة السياسية المصرية وهو ينجح فى إعادة شخصين مهمين إلى مصر، الأول هو عمر مكرم، نقيب الأشراف السابق، الذى كان أسيرا فى يافا. ويجرى تقديمه إلى القائد العام من جانب الشيخ المهدي ويتم رد ممتلكاته المصروفة إليه (١٢١). أما الثانى فهو حسن طوبار الذى أعلن خضوعه. وهو أيضا يسترد ممتلكاته، إلا أنه يتعين عليه ترك ابنة رهينا فى للقاهرة. وهو يتعهد بأن يضع نفسه فى خدمة الفرنسيين فى إقليم لميلط (١٢٢).

البحيرة

لكن الوضع في الأرياف، خاصة في البحيرة، جد مختلف تماماً. وهكذا فإن جماعة مسلحة من المعاليك، تدهمك في تعديات على الفلاحين، يتم الوشاية بها من جانبهم عند الفرنسيين الذين يحبسون أروانها ويعذبون بعضهم (١٢٢). على أن الوساطة النشيطة من جانب القسيس المسهرى، الذى يرأس فيوان الإسكندرية، تسمح بالتوصل إلى تهدئة عامة لجميع القبائل البدوية في الإقليم (١٢٣).

والواقع أن قبيلة الهنادى وحدها هي التى تحترم الاتفاق، بل وتشترك إلى جانب الفرنسيين في مطاردة المخلعين، إلى درجة أنه يجرى تلقيب الرادها: بـ «البدو الفرنسيين» (١٢٤). وبالرغم من كل شيء، يتم في الإقليم نفسه الهجوم على سفينة نهرية تقل الجنرال دومارتان ويشارك في الهجوم فلاحون وبدو. وينجح للطاقم في الهرب. لكن الخسائر الفرنسية تعتبر جسيمة، إذ تصل إلى خمسة عشر قتيلًا، بينهم الجنرال دومارتان نفسه، الذى يلقى حتفه متأثرًا بجراحه. ويغضب كليبر لعدم تكريم رفيقه. وهو عدم تكريم يرجع إلى موقفه في مكا (ما كان لدومارتان أن يكون بلا جريرة حين يثبت أنه كان على حق في معارضته لكافاريللى فيما يتعلق بالخطة التى يجب اتباعها بالنسبة للحصار) (١٢٥).

هونايات وطيجينيت

تتجلى آثار حملة سوريا حتى تلخل للعهد (المجمع العلمى) الذى استأنف جلساته، التى كانت تلك الحملة قد لوقفتها. ويطلب هونايات إعداد دراسة عن الطاعون، مستهدفاً من وراء ذلك على الأرجح رد للمستولية عن فشل حصار عكا إلى تلك المرض. وهو يبدو عنوانياً بشكل خاص تجاه الأطباء، الأمر الذى يثير غضب ديجينيت، وتتصاعد حدة النبرة. ففي بداية الحملة، كان رئيس الأطباء، بناء على طلب من هونايات بلا ريب، قد أكد علناً أن الوباء ليس وباء طاعون، معياً إلى عدم نشر الخوف في صفوف الجيش. أما وأن الظروف قد تغيرت، فإن الجنرال يريد الآن التعرف على البناء الذى لم يتمكن هذا «السجل» ديجينيت من التعرف عليه. ويرد هذا الأخير بوصف زميله في العهد بأنه «مستبد شرقى» يستخدم

أحرصاً مصلحاً حتى نلخل حرم جمعية مصالحة وأبيهة، (١٢٧) ويشير أصل هذه الحادثة إلى عزم بوناپارت على العودة إلى فرنسا سليم الهيبة.

وهذه الرغبة في مغادرة مصر وهذا الجهل بالوضع الأودبي يظهران من جديد في تقريره إلى حكومة الإنارة والمؤرخ في ٢٨ يونيو ١٧٩٩. ومن المؤكد أنه يبدى تفاؤلاً مصطنعاً، ولكن لكي يطلب تعزيزات، لقوامها خمسة عشر ألف رجل على الأقل، وإلا فإن فتحه معرض للهلاك. وإذا كان مستحيلاً عليكم إرسال كل هذه التعزيزات، فلابد من الجئنا إلى السلم، لأنه لابد من حساب لنا، من الآن وحتى شهر ديسمبر، سوف نفقد ٦٠٠٠ رجل آخرين [...] وسوف يختزل عدتنا في الفصل للقادم إلى ١٥٠٠٠ رجل، وإذا ما طرحنا منهم ٢٠٠٠ رجل في المستشفيات، و ٥٠٠ رجل من المحاربين القدماء، و ٥٠٠ عامل غير مقاتلين، فلن يبقى لنا غير ١٢٠٠٠ رجل يشملون للفرسان وسلاح المنفعة والحفارين وضباط الأركان العامة، ولن يكون بوسعنا مقاومة إنزال مصحوب بهجوم عن طريق الصحراء (١٢٨).

هبوط مراد بك

إن فترة الهدوء الهش التي تعقب عودة الجيش من سوريا لا تنوم إلا أقل من شهر. فعند أواخر يونيو، تفيد الأنباء أن مراد بك قد غادر الواحات وأنه يتحرك بمحاذاة الوادي. وينشئ ليرزيه على الفور تشكيل طوابير متحركة مكلفة برد للقائد للملوكي إلى الصحراء. وهذا الأخير جد سريع في هبوطه إلى الدلتا وهو يتواجد اعتباراً من ٢٥ يونيو على تخوم اليوم. والحال أن كل ما يمكن ليرزيه أن يهنئ نفسه عليه، هو أنه قد نجح، عبر الذكرى المشتركة لعنف معارك الشهور السابقة ولنعومة إدارته، في تطادي نشوب انتفاضة عامة في مصر العليا. وإذا وصل إلى علم بوناپارت أن مراد بك يقترب من مصر السفلى، فإنه ينشئ بدوره طوابير متحركة تتحرك لاعتراض طريق خصمه. وبعد عدة مكائد ومعركة مع الفرنسيين في ٩ يوليو، حيث يفقد مراد بك متاعه، ينجح هذا الأخير في الدخول إلى إقليم الجيزة وفي إقامة معسكر قرب الأهرام في ١٢ يوليو. ويصبح مقصده واضحاً، فهو يسعى إلى الانتقال إلى البحيرة. وفي اللحظة نفسها، يتم العلم في القاهرة بمرور أسطول مهم للملوك أمام العريش ثم أمام دمياط.

ويتولى بوناپارت نفسه قيادة طابور متحرك قوامه ألف رجل. ويجبر وجوده مراد بك على الانسحاب إلى اليوم. وهناك يطارده الطابور المتحرك الذي يقوده الجنرال فريان

وفي نهاية الأمر، مع استمراره مطلق السراح، يضطر إلى العودة من جديد إلى مصر العليا.

سياسة سميت والعثمانيون

بينما كان بونابارت يعيد تنظيم تشكيل الجيش الفرنسي، لم يبق سيني سميت بلا نشاط. فبعد أن تابع انسحاب الجيش الفرنسي، عاد إلى داخل فلسطين وزار الأماكن المقدسة. ومن هناك، زار لبنان ليعرض طابعاً ملموساً على التعهدات التي كان قد أبدلها خلال حصار عكا تجاه الأمير بشير. وهو يتجهج، لكي يتسنى له التصرف، بسلطات خولها له سليم الثالث، ويعلن عن ترتيب عام للسلطات في المنطقة مع الوصول القريب لجيش عثماني يقوده الصدر الأعظم نفسه. وهذا التدخل في نطاق سيطرة الجزار يثير سخط الأخير الذي ينسحب عنده من المعركة مع الفرنسيين وينهمك في تحصين عكا، هذه المرة ضد هجوم محتمل من جانب الجيش العثماني.

وينتقل العميد البحري بعد ذلك إلى قبرص حيث يتعين عليه التصدي لتمرد من جانب السكان، لأسباب تتعلق بالخرائب، ضد السلطة العثمانية. وهو يتدخل من أجل تهدئتهم (١٢٩). وما أن يطمئن إلى تباعد خطر أسطول بروي، فإنه يحصل على تجاوب الباب العالي مع مطالب مختلفة له. إلا أن من المستحيل منحه قيادة القوات العثمانية التي تقدر إنزالها في الإسكندرية، لكن قائدتها، مصطفى باشا، سوف يتلقى أكثر التعليمات حزمًا باتباع نصائح الإنجليز. أمّا فيما يتعلق برؤساء الجبل، فسوف يجري إرسال إشعار إليهم مفاده أن الأمير بشير وأخاه وكذلك الأمير جنبلاط، أمير الدروز، لكونهم خدماً مخلصين للباب العالي، سوف يجري توظيفهم في مصر، وأن معك الشيخ [...] (١٣٠) - الذي كان مخلصاً على الدوام للباب العالي، والذي كان خلافاً لكل توقع، حيث اضطر إلى التقصير بشكلٍ ما - إنما يرجع إلى أنه قد أجبر على ذلك من جانب الفرنسيين، وأنه يستحق العفو عنه، وأن سكان جبل لبنان، لما كانوا معذورين وجديرين بتعطف الباب العالي عليهم، يجب إعادة الطمأنينة إليهم ومعاملتهم معاملة إيجابية (١٣١).

وهكذا، فإن الباب العالي، نزولاً على طلب سيني سميت، يمد حمايته إلى أمراء الجبل. ومن المؤكد أن مقصده الخاص إنما يتمثل في استعادة ثقل مضاد لقوة سيد عكا التي تعززت بانتصاره على بونابارت.

ويعد أن تمكن سيدنى سميث من حشد القوات العثمانية في قبرص، فإن بوسعه للمشاركة في الهجوم المقرر في منطقة الإسكندرية. ويصل أسطول الإنزال قبالة المدينة في ١١ يوليو ١٧٩٩، لكن إنزال القوات لا يبدأ إلا في ١٤ يوليو في أبو قير. وفي مواجهتها، فإن للمستول من الموقع الفرنسي، قائد الكتيبة جويلر، لا يتمتع إلا بقوة قوامها ثلاثمائة رجل وبمحمون مزيلة. ومن الواضح أن مارمون، بصحبة الهندال ديستان، الذي جاء إليه بظهوره للتحرك، يحاول القيام باستعراض للقوة، لكنه يدرك بسرعة عدم التناسب جد الهائل للقوى. ويتطلب الأمر من العثمانيين ثلاثة أيام لإحاق الهزيمة بالحامية الفرنسية الصغيرة التي تقاتل بهسالة قبل أن ترضخ. وبالنسبة لخصوم الفرنسيين، فإن الحملة تبدأ بداية جيدة إذ يتسنى إتمام بقية عملية الإنزال دون مصائب.

موقعة أبو قير البحرية

ما أن يتلقى بوناپارت نبأ الإنزال العثماني في ١٥ يوليو، حتى يصدر الأمر إلى الطواوير المتحركة بالتدقيق على الرحمانية. وهو، في الحركة نفسها، يتأهب لأن يرسل إلى هناك الجانب الرئيسي من القوات المبعثرة في البلاد، بما في ذلك القوات المتمركزة في مصر العليا. والشئ الأكثر إلحاحاً، في اللحظة التي كانت فيها القوات مبعثرة لتأمين حفظ النظام في البلاد، هو التمكن بأسرع ما يمكن من تركيز الحد الأقصى من القوات. وكلما كان الفوز بالنصر سريعاً، كلما كان أثر غيب الحاميات الفرنسية للمختلفة أقل فعالية. فمن شأن معركة طويلة أن تكون ضارة إلى أقصى حد بالوجود الفرنسي، لأنها سوف تستوجب، حتى في حالة النجاح، إعانة فتح للبلاد من جديد. وسعياً إلى تأمين مؤخراته، يحدد بوناپارت أيضاً واحداً من بيانته البراقة الموجهة إلى الديوان، حيث يصور نفسه على أنه البطل الذي اختاره الله للنزود عن الإسلام ضد المسيحيين (القائلين بأن الله ثالث ثلاثة).

وفي هذه العمارة خلق كثير من اللوسقو [الروس - المترجم] الإفرنج الذين كراهمتهم ظاهرة لكل من كان يوحد الله وعداوتهم واضحة لمن كان يعبد الله ويؤمن برسول الله، يكرمون الإسلام ولا يحترمون القرآن، وهم نظراً لكفرهم في معتقدتهم، يجعلون الآلهة ثلاثة وأن الله ثالث تلك الثلاثة، تعالى الله عن الشركاء. ولكن عن قريب يظهر لهم أن الثلاثة لا تعطى القوة وأن كثرة الآلهة لا تنفع. بلى، إنه باطل لأن الله تعالى هو الواحد الذي

يعطى النصر لمن يوحده، هو الرحمن الرحيم، للمساعد للمعين، للقوى للعاملين للوحديين، للملاحق رأى الفاسدين المشركين. وقد سبق فى علمه القديم وقضائه للعظيم أنه أعطانى هذا الإقليم، وقدر وحكم بحضورى عنكم إلى مصر لأجل تغييرى الأمور الفاسدة وأنواع الظلم وتبديل تلك بالعدل والراحة مع صلاح الحكم. وبرهان قدرته العظيمة ووحدانيته المستقيمة أنه لم يقدر للذين يعتقدون أن الآلهة ثلاثة قوة مثل قوتنا، لأنهم ما قدروا أن يعملوا الذى عملناه، ونحن للمعتقون وحدانية الإله ونعرف أنه العزيز القادر والقوى القاهر للغير للكائنات والمحيط علمه بالأرضيين والسموات القائم بأمر المخلوقات هذا ما فى الآيات والكتب للنزلات. ونخبركم بالمسلمين إن كانوا صحبتهم يكونوا من المفضوب عليهم لمخالفتهم وصية النهى عليه أفضل الصلاة والسلام بسبب اتفالههم مع الكافرين للحجرة اللثام، لأن أعداء الإسلام لا ينصرون الإسلام. ويأويل من كانت نصرته بأعداء الله وحاشا لله أن يكون المستنصر بالكفار مؤيداً أن يكون مسلماً، ساقطهم المقايير للهلاك والتدمير مع السفالة والرنانة. وكيف لمسلم أن ينزل فى مركب تحت بهرق الصليب ويسمع فى حق الواحد الأحد الفرد الصمد من الكفار كل يوم تخريف واحتقار. ولا شك أن هذا المسلم فى هذا الحال أتبع من الكافر الأصلى فى الضلال، (١٣٢).

والواقع أن سكان القاهرة يتربصون بتحريك ذبا تحريرهم. وتحدث صدمات مع المسيحيين ويلجأ الشيخ المهدي إلى شتى الحيل لكي يقتل إلى لئلى حد أمام السلطات الفرنسية من شأن الوشايات للسنة إلى المسيحيين والتي تحدث من انتفاضة وشيكة الوقوع (١٣٣). ويفضل وساطة المشايخ، لا يجرى اتخاذ أى تدبير من تدبير القمع.

ويرى بعض المسئولين الفرنسيين أن استقلال الديوان زائد عن الحد وأن تدخله فى الأمور يتم دائماً على حساب للتعاونيين المباشرين مع الفرنسيين. وفى ٦ أغسطس، يكتب بومبيج تلك إلى بوناپارت:

«إن الشيخ السانات هو الرجل الذى أرتاح إليه أكثر من سواء. ولسيد عمر [عمر مكرم] يتصرف بشكل جيد للغاية. والشيخ البكرى رجل خائف. أما الآخرون فهم خونة أو متعصبون. والشيخ المهدي رجل طموح يسعى إلى كسب الشعبية والشهرة، وهو مستعد لأن يضحى بجميع الفرنسيين بدلاً من أن يفقد درجة واحدة من مكانته. على أنه يواصل الاجتماع بهذا باستمرار» (١٣٤).

ويشكو الما الأنكشارية من هذه الإهانة لعمله و، لدى عودة بوناپارت، فإنه يوجه توجيهات إلى المهدي والصلوى اللذين لم يكونا «يونوا» (طبيين). وسوف يتمكنان بسهولة

من تهمة نفسيهما والعودة إلى كسب الحظوة لدى القائد العام بطلبهما إليه أن يحلثهما من انتصاره. ولا بد من قول إن أعضاء الديوان قد تمكنوا بجلاء من رصد انتصار أبو قير بمسارعتهم إلى تهتة الفرنسيين (١٣٦).

وسوف تكون معركة أبو قير مبارزة في السرعة سوف يتكشف فيها بوضوح احتراف الجيش المنبثق عن الثورة. إن الحشد يتم في الرحمانية من ١٩ إلى ٢١ يوليو، باستثناء فرقة كليبر التي، إذ تجيء من مياط، تقطع القشوط الأطول. وفي اليوم التالي، يبدأ الجيش تحركه ويتمركز في بركة غيطاس، التي تقع في منتصف الطريق بين الإسكندرية ورشيد، حيث أن القائد العام لا يعرف ما إذا كان الجيش العثماني ينوي الزحف على المدينة الأولى أم على للمدينة الثانية وهو يعرف عندئذ أن العدو يكتفى بتحسين رأس الجسر الذي أقامه نون الرغبة في الشروع بالتحرك. ويقرر بوناپارت الزحف مباشرة على أبو قير، نون أن ينتظر كليبر الذي لا يصل إلى الرحمانية إلا في ٢٢ يوليو بعد أن اجتاز الدلتا في ثلاثة أيام. ويجري تكريس يوم ٢٤ للاقتراب من مواقع العدو. ويتمتع بوناپارت بقوة قوامها عشرة آلاف رجل على الأمل وبصلاح لفرسان قوى نسبيا يتألف من ألف رجل، لكن القوات العثمانية لا تتمتع بتفوق عددي حقيقي. وكان العثمانيون يفتقدون بشكل خاص الحساسة، يدل على ذلك إيثارهم لحرب الحصون التي يجنون أنفسهم فيها بشكل مريح على الحركة والزحف إلى الأمام الذي كان من شأنه تفجير انتفاضة هامة في الدلتا. وخط الاتصال الوحيد الذي يقطع هو الخط بين الإسكندرية ورشيد. ويتوسل أعيان هذه المدينة الأخيرة إلى الفرنسيين طلبين منهم البقاء، بل ويعرضون محاربة العثمانيين. وفي حالة جلاء الفرنسيين، فإنه يبدو أنهم سوف يحملون السلاح ضدهم سعياً إلى تجنب الأعمال الانتقامية (١٣٧).

ويبدأ الهجوم في فجر ٢٥ يوليو. ويتم التقدم بصعوبة وذلك بسبب التحصينات العثمانية. وعندئذ يشن مورا واحداً من أنواع هجمات الفرسان في حياته ويحطم دفاع العدو. وينتأب الجيش العثماني الذعر ويندفع صوب البحر. ويصل عدد الفرق إلى آلاف وينجح مورا في أن يأسر بنفسه مصطفى باشا، قائد الجيش العثماني. وفي ساحة المعركة يعينه بوناپارت قائد فرقة. والحال أن هجوم الفرسان هذا الذي يستغله سلاح المشاة فوراً سوف يتكرر في مارينجو. فالفرسان لم يعد نورهم الوحيد هو الاستطلاع قبل المعركة أو استغلال النصر. ثم إن الهجوم، الذي أشير إليه في القواعد العسكرية في أواخر زمن النظام القديم، لم يك بالمرغم من ذلك ممارسة مألوفة، وذلك بسبب الخسائر في الجهد في

زمن كان فيه التزود بالجهنك مكلفاً وصعباً. ويمكن للمرء للتراض تأثرٍ واسعٍ إلى هذا الحد أو ذلك بالممارسات المملوكية. أما فيما يتعلق بأغواق العثمانيين، فإنّه يشكل نموذجاً تمهيدياً لإغراق الروس في أوستيرليتز (١٢٨).

ولا يصل كليبر إلا في المساء. وتجربة الحماسة بسبب النجاح الرائع الذي أحرزه قائده يعلن هذه الحماسة، «قال له كليبر في لحظة حماسة، وهو يعلنه: «أيها الجنرال، إنك عظيم كالعالم، وهو ليس عظيماً بالقدر الذي يتسع لعظمتك» (١٢٩).

ويظل هناك ثلاثة آلاف عثماني متحصنين في قلعة أبو قير، ويوجّه بوناپارت إليهم إنذاراً بالاستسلام، لكن نكرى يافا ما تزال ماثلة بما يكفي لمنع المدافعين من الاستسلام. ويحصل لأن على مهمة خوض الحصار، لكنه، إذ يصاب بجراح، يخلى المكان لمينو (٢٨ يوليو). ويشير هذا التكليف إلى رغبة بوناپارت في أن يعطى لهذا النصير المخلص فرصة لكي يخوض أخيراً معركة على قدر من الأهمية. ويجري تنفيذ الحصار وفقاً لأصول الفن الحربي بفضل النصائح النكية التي يقدمها للمستولون عن اللطيفة وعن سلاح الهندسة. وبعد مقاومة رائعة، ومن جراء الإذنهك الناشئ عن الحرمانات، وخاصة العطش، يضطر العثمانيون إلى الاستسلام في ٢ أغسطس ١٧٩٩.

ويلقى سيدنى سميت المسئولية من الهزيمة على القادة العثمانيين الذين لم يتبعوا نصائحه الثمينة، خاصة النصائح الداعية إلى الاستيلاء على رشيد فوراً للتمكن من عزل الإسكندرية. والشئ الأكثر أساسية في نظره، هو أن العثمانيين لم يخصصوا قوات كافية بالمقاييس إلى الهدف المنشود، وهو الاستيلاء على الإسكندرية. والحال أن عدد الجنود العثمانيين لم يتجاوز سبعة آلاف رجل، ينتمي ألفان منهم إلى قوات النظام للجهنك، وذلك في مواجهة جيش فرنسي أكثر تفوقاً بكثير من حيث العدد والتنظيم (١١٠).

ويمتدح نجاح أبو قير للفرنسيين عدة أشهر من التقلبات الأنفاس. فموسم عمليات الإنزال قصير في مصر، فخلال الشتاء، يكون البحر بالغ السوء، وبعد شهر أغسطس، يجعل فيضان النيل كل محاولة للإنزال عبثية لأنه يشل التحركات نحو الداخل (وهذا هو ما حدث للقديس لويس) [للك لويس التاسع الذي أسر في المنصورة - المترجم]

والحال أن بهزبه، الذي لم يفعل غير تدشين حركة جلائه عن مصر العليا، يبدأ من جديد مطاردة مراد بك. ويحاول هذا الأخير كسب الوقت بعرضه إجراء مفاوضات. وبعد أن

فاجأه الطاهور المتحرك الذي يقوده قائد اللواء مودان (١١ - ١٢ أغسطس ١٧٩٩)، يظل القائد للملوكى مطلق الصراح لكنه يصبح أقل خطورة لأن أنصاره يتفرقون.

وفي ١٧ أغسطس، تتعرض القصير لقصف من جانب الأسطول الإنجليزي في البحر الأحمر ولم يك من شأن الخصائر للنسبة للجسيمة إلا أن تؤدي بشكل خاص إلى التفاف السكان حول الفرنسيين مستعدين لحمل السلاح ضد إنزال إنجليزى. لكن الهدف (الإنجليزى) إنما يتمثل بهصامة في ولف تجارة الهندة والحد من اتصالات الفرنسيين مع قوى البحر الأحمر.

السياسة السميث وبوناپارت

يتمثل أحد شواغل بوناپارت الأولى في إرسال رسول إلى فرنسا مكلف بإعلان نبا انتصار أبو قير الرائع. وتصل السفينة في ٢٥ سبتمبر إلى مرسيليا ويتم إعلان للمائرة الحربية في ١ أكتوبر ١٧٩٩. ويحدث هذا الإعلان في لحظة يتعزز فيها النهوض الفرنسى: هانتفاضة الجنوب - الغربى كانت قد سحقته في موريه في ٢٠ أغسطس، وكان برين قد لحق الهزيمة بفيلق أنجلو - روسى كان قد نزل في هولندا (١٩ سبتمبر) بينما أحرز ماسينا انتصاراً حاسماً في زيورخ على سوفوروف (٢٩ سبتمبر). على أن الواقع الذى سعى بوناپارت إلى إحيائه بتحقيق، فسوف يجرى نسيان (هزيمة) عكا وسوف يصبح اسم الفتاح من جديد مرادفاً للنصر.

وقد أجرى سيدنى سميث التحليل نفسه. إن شيئاً لم يعد يدعو بوناپارت إلى البقاء في مصر وبوناپارت وحده هو الذى يهلى الجيش الفرنسى في ذلك البلد. وبالنسبة للعميد البحرى، فإن على السياسة الإنجليزية أن تختار. فإذا كان هناك اعتقاد بأن الدفاع عن الإمبراطورية الاستعمارية، الأخذ في التشكل في الهند، أكثر أهمية من الحرب الرامية إلى استعادة التوازن الأوروبى، فلابد من ترك بوناپارت يخامر مصر، بالرغم من احتجاجات الحلفاء الأوروبين. وسوف يستتبع رحيل الجنرال الفرنسى في الأجل القصير الجلاء عن مصر، بالنظر إلى مزاج الجيش والذى يرمز إليه كليبر. وبميل مسلك سيدنى سميث إلى توليد أمن لهند قبل شن الحرب ضد الثورة. ويمكن للعميد البحرى أن يرى أن رؤساءه يوافقون على ذلك، إن كل الحرب السيكلوجية التى يخوضها منذ وصوله إلى شرقى البحر المتوسط تميل إلى خاتمة كهذه للمقاومة الفرنسية في مصر وقد أبلغ رؤسائه على نحو منتظم بتفاصيل عمله.

والى ٢ أغسطس، يبدآن مفاوضات من أجل اتفاق لتبادل الأسرى ويرسل سكوتير، جون كيث، للتحدث مع بوناپارت ويسلم كيث القائد العام مسلحاً حديثاً نسبياً ويجرى فيها استعراض الهزائم الفرنسية بالتفصيل وهو ينقل إليه شفهياً معلومات إضافية. وإن يعرف أحد لهذا المحتوى الدقيق للمناقشة (١٤١)، لكن المراقبين للعاصرين قد شعروا على الفور بأهميتها . وفى ٥ أغسطس، يخبر بوناپارت الإسكندرية إلى القاهرة وفى ٩ أغسطس يتصنى لسيدينى سميت أن يكتب إلى اللورد سبنسر : لقد أرسلت السفينتين ليسيروس وكامليون مع سفينتين حربيتين تركيتين كبيرتين، للتجول على مسافة بعيدة من غرب الإسكندرية، سعياً إلى منع هاى بنغازى من إرسال مؤن إلى بوناپارت وسعياً إلى اعتراض سبيل الأميرال جانتوم الذى، ولدى أسباب لاعتقاد ذلك، سوف يحاول التحرك مع لرقاطين وحركة وسفينة شراعية. وربما ينجح بوناپارت نفسه فى الإفلات برقبته من الطرق تاركاً القيادة لكليبر. وإذا ما حدث ذلك، فإن كليبر سوف يرضخ أمام نداءات الجيش ويتفاوض من أجل إعاقته إلى الوطن، عندما يتم حشد قوة كافية ضده لتحرير مثل هذا الإجراء... إنه جندى وهو لا يراهن على فتح الهند أو على خصوبة للمستعمرة الجديدة؛ وهو يفضل لو كان على ضفاف الراين على أن يكون فى أى مكان آخر وكل الهاتين يحبون لو كانوا فى أى مكان على أن يكونوا فى مصر. وقد حصلت على برايمين على ذلك خلال الاتصالات التى أجريتها مؤخراً معهم، وسوف يكون من الضعيف أن نتمكن من ممارسة ضغط بالغ القوة عليهم لنطعمهم إلى اتخاذ قرار بالجلاد. (١٤٢)

لقد جرى من ثم إبلاغ بوناپارت بوضع فرنسا العسكرى الصعب والحال أنه كان قد أشار بالفعل لحكومة الإنلرة إلى أنه سوف يسارع إلى العودة فى ظرف كهذا . وهو يعرف بالتأكيد من الإنجليز أن حكومة الإنلرة تطلب استدعاءه (إن البريطانيين وهو على حد سواء يجهلون أن حكومة الإنلرة مستعدة لقبول استسلام بحيد جيشه وفى نهاية الأمر شخصه حتى انتهاء الحرب). وتسمع معركة أبو قير البرية له بالرجوع مرفوع الرأس. وأيا كان الأمر، فإن حلمه الشرقى قد انتهى إلى الفشل، حتى وإن كان (الجنرال) بوناپارت، وقد أصبح (الإمبراطور) نابليون، يواصل حتى نهاية حياته الاحتفاظ بحنين إليه. وبما أن إمبراطورية الشرق مراب، فإنه ما تزال تبقى له إمبراطورية الغرب.

وكانت النية الأولى لسيدينى سميت هى أسر بوناپارت. وهو يصدر الأمر بذلك إلى مختلف الوحدات البحرية الإنجليزية فى البحر المتوسط، التى تنهك فى تفتيش السفن للمحايدة وخاصة فى تفتيش أى بحار يمكن أن يشبه جنرالاً كورسيكياً لصيراً. لكن الحميد

البحرى لا يمكنه ان يعرف فى أية لحظة محددة سوف يقود بوناپارت الرحيل. ومن الواضح ان هذا الأخير سوف يختار الصرية الأتم لهذا المشروع، فعلاوة على خطر احتمال أسره من جانب الدوريات البحرية الإنجليزية، سوف يجازف بتمرد عام للجيش، إننا ما علم هذا الأخير بمشروع قائده.

وخلال إقامته الأخيرة فى القاهرة، يتعين من ثم على القائد العام ألا يسمح بتصرف شئ عن نواياه مع الإعتد لتسمية خلف له. وهو يتوجه بالخطاب مرة أخيرة إلى نيوان القاهرة مستعيداً الحديث عن دوره كمرسل من الله، «لو ليس حقاً [...] أنه قد جاء فى كتبكم أن كائناً أرقى سوف يصل من الغرب، مكلفاً بمواصلة عمل النبى؟ [...]»

«لو ليس حقاً [...]» لأنه قد جاء فيها أيضاً أن هذا الرجل، هذا الوكيل لمحمد، هو أنا؟.

ويبدو للشايخ معجبين بكل الاستشهائات التى يسوقها بوناپارت على نحو مكثف من الكتب المقدسة، لكنهم يواجهون ببرود جليدى كل تطبيق يجريه لها على شخصه (١٤٢).

ويشكل جدى أكثر، إيراكاً منه لواقع أن الخطر الحقيقى إنما يجرى من الجيش العثمانى الكبير، الذى نخلت عناصره الأولى سوريا منذ قليل، يتوجه بالخطاب إلى الصدر الأعظم الذى يقوده. وهو يرسل إليه رسولا هو رشدى أفندى، سكرتير مصطفى باشا؛ وينكر بمشاريع اقتسام الإمبراطورية العثمانية من جانب حلفاء الباب العالى، كروسيا والنمسا، وبالصدقة التقليدية بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية. وهو يقترح قلب التحالفات وقيام فرنسا والباب العالى بشن حرب مشتركة ضد روسيا، وذلك مع إيهائه بأكثر الأشكال غموضاً بإمكانية للتوصل إلى ترتيب بشأن مصر (١٤١).

تسمية الخلف

وكان عليه اختيار خلف له. ولما كانت لديه مشاريع محددة بشأن استيلاء على السلطة فى فرنسا، فقد قرر أن يأخذ معه الجانب الرئيسى من أنصاره، الذين سوف يكونون مفيدين له فى موعده مع القدر؛ بيرتييه، أندريوسى، مارمون، لان ومورا ومن بين المدنيين مونج وبيرتولليه. أما جونو وبيزيه، غير المتوفرين فى التو والحال، فيتعين عليهما الانضمام إليه فيما بعد. وسعيًا إلى الغاية نفسها، فإنه يأخذ معه حرسه الشخصى، وهو جزء من قوة طلائع الجيش. وسوف يفسر السبب فى ذلك فى سانت - هيلين، «لقد كننا ضروريين لى. كان لدى مشروعى. وكان على حملتهم، ولا شك أن ٢٠٠ رجل يمكن الاعتماد عليهم وينتمون إلى الصفوة كننا شيئاً بالغ الأهمية». (١٤٠)

ومن ثم لا تبقى غير ثلاثة أسماء يمكن ترشيحها للخلافة: مينو وكليبير ودينبيه. أما الأول، بالرغم من كل التسامح الذي يثيره لدى بوناپارت وبالرغم من مواهبه الفعلية كإنباري، فإنه لا يمكن أن يكون مناسباً للمهمة، وذلك بسبب لعدم تجربته في قيادة وحدات مهمة، وبسبب افتقاره إلى الهيبة بين صفوف الجيش. وأما دينبيه فإنه يملك بلا جدال ملكة قيادة الرجال وديهة استراتيجية من الطراز الأول، لكنه صغير (إنه أصغر من بوناپارت بعشرين) وهو علاوة على ذلك سريع الغضب. وأما كليبير فهو وحده الذي يملك الكفاءة العسكرية (على الرغم من كونه قائد فرقة، فقد قاد في ألمانيا قوات كانت أهم أحياناً من قوات جيش الشرق)؛ وهو متوج بهالة هيبة غير عادية أمام الجنود (لهذا الرجل الصارم فيما يتعلق بالانضباط، معروف بأنه يميل إلى توليد نمل وجله وبأنه حريص على راحتهم)، وهو، برغم نظيه لذلك، يهدى كفاءة عظيمة في الشئون الإدارية. وكان يمكن لدينبيه أن يكون منافساً له، لكن بوناپارت يحتاج إليه في فرنسا، وربما كان هناك أيضاً في اختيار بوناپارت نوع من الخبث من جانب بوناپارت الذي كانت له علاقات خلافية دائماً مع هذا الأكراسي، إنه يرغب على تولى قيادة عامة، وهو الذي رفض دائماً هذا الشرف للحفوف بالمخاطر.

ويوجه إليه بوناپارت سلسلة باكملها من التعليمات حول أسلوب حكم مصر. فهو يؤكد على الاختلاف بين العرب والأتراك. ولا بد للعلماء من أن يحتفظوا بدورهم كوسيط وذلك بالنظر إلى تأثيرهم العظيم على الشعب، ودورهم القديس ورقة طباعهم ((إنهم ليسوا جنوداً)). والمسيحيون مفيدون إلا أنه لا يمكن تحريرهم تحريراً واسعاً وذلك بسبب تعيزات المسلمين. ويجب الاعتماد على شريف مكة لمراوغة مرجعية السلطان - الخليفة. ويمكن دمج الماليك في النظام الفرنسي، بمن فيهم إبراهيم ومراد، الذي سوف يجرى عرض لقب الأمير عليه. ولا بد للجيش الفرنسي من أن يتخذ مظهرًا شرقيًا من حيث الزي كما من حيث التجنيد حتى يبدو في أعين السكان جيشاً قومياً.

والخطر الحقيقي الوحيد الذي يهدد جيش الشرق، هو هجوم مشترك لجيش عثماني يجرى برًا ولإنزال لجيش إنجليزي، لكن الفرنسيين أقوياء بما يكفي لإحاق الهزيمة بالجيشين على التوالي، ولا بد من التمكن من الفصل بينهما، وهذا هو الدور الحيوي لمواقع العريش. وفي وجه الخطر، فإن الأولوية يجب أن تعطى لتركيز حشد الجيش الفرنسي، بما يستتبع احتمال الجلاء عن الجانب الأكبر من البلد. والمواقع الأخير الذي يجب

الحفاظ عليه هو موالع الإسكندرية، الذي يمكنه تحمل حصار طويل بما يسمح بانتظار تغير الظروف السياسي للعالم.

ويجب السعى، من طريق المفاوضات، إلى فك الائتلاف بوضع العثمانيين في مواجهة الروس وإيقاعهم في هذه الحرب لا تنفيذ إلا الإنجليز. لكن العدو الأكبر هو الطاعون الذي يجب مكافحته بتطبيق التدابير الصحية تطبيقاً صارماً.

ومن ثم: أولاً ما حدث، من جراء أحداث خارج الحسبان، وكانت جميع المحاولات غير مثمرة ولم تترك في شهر مايو أية تعزيزات أو إنهاء من فرنسا، وإنا ما حدث، هذه الستة، وبالقوم من جميع التدابير الوقائية، إن كان الطاعون في مصر وقتل لك أكثر من ١٥٠٠ جندي، وهي خسارة جسيمة لأنها ستكون أعلى من الخسارة التي تسببها لك أحداث الحرب غالباً، فإنني أعتقد أنك في هذه الحالة لا يجب عليك البتة للخامرة بخوض المعركة القريبة، وأنه سوف يكون مسموحاً لك بعقد الصلح مع الباب العالي العثماني، حتى عندما يتوجه للجلاء عن مصر إن يكون للشرط الرئيسي. وسوف يتعين فقط تأجيل تنفيذ هذا الشرط، إذا كان ذلك ممكناً، إلى حين عقد الصلح الشامل (١١٦).

موقعة بوناپارت

يعرف بوناپارت، من خلال الأسرى الفرنسيين الذين تبادلهم مع الإنجليز، أن سيدني سميت قد استند احتياطياته من المياه والمواد الغذائية وأنه يتعين عليه التحرك فوراً لإعادة التزود بالمؤن من قبرص. ويتعين على بوناپارت الانتظار إلى حين اختفاء الوحدات البحرية الإنجليزية التي تحاصر الإسكندرية، وهو ما يحدث في ١٢ أغسطس. وما أن يتم إخباره بذلك، حتى ينهي استعداداته الأخيرة ويغادر القاهرة في مساء ١٨ أغسطس، تحت ذريعة القيام برحلة تفقدية في مصر السفلى. وهو يدعو كليبر إلى الاجتماع به بسرعة في رشيد في ٢٤ أغسطس، إلا أنه ما إن يصل إلى الساحل، حتى يتم تأكيد اختفاء الأسطول الإنجليزي له. وهكذا، فإنه حتى دون أن يدخل الإسكندرية، يبحر في ٢٢ أغسطس مع رفاقه. وتتاح له الفرصة للتحدث مع مينو الذي يوجه إليه تعليماته الأخيرة، ويصلحه الرسائل للوجهة إلى كليبر والخاصة بنقل السلطات. وبما أن مارمون يعود إلى فرنسا، فإنه يخوله قيادة الساحل الغربي للبلد بشرط اعتماد كليبر لهذا التحويل. ويتم إبلاغ مينو بتوايا بوناپارت؛ لقد طسمت حكومة الإنلرة كل شيء، وأساعت إلى كل شيء. إن فرنسا تتأرجح بين الحرب الخارجية والحرب الأهلية؛ وقد تعرضت للهزيمة والإذلال وتوشك أن تهلك. وقد نذر نفسه لإنقاذها، مخاطراً بركوب البحر. وإنا ما وصل، فالويل للثورة وهذا

للنهر، ولصائص الزمر. إنه سوف يحصى حساب الجميع. وفي مصر، كان وجوده نائلاً عن الحاجة؛ ثم إن بوسع كليبر أن يحل محله في كل شيء... (١١٧).

وفي أول النهار تبتعد عن الساحل المصري للفرقة البحرية الفرنسية الصغيرة، والتي تتألف من فرقاطتين وصليبتين حربيتين صغيرتين، تحت قيادة العميد البحري جانتوم. والعملة محفوفة بالمخاطر. وإذا كان بوناپارت، في مغامرته لمصر، لا يعرف نوايا العميد البحري (الإنجليزي سيدي سميث - المترجم)، فإنه يعرف أن الجزء الأكبر من البحرية البريطانية قد دخل إلى غربي البحر المتوسط بحثاً عن أسطول بروي. ومن حسن حظ الفلاح للشلب أن سيدي سميث يضيع وقتاً طويلاً في إعادة التزود بالمؤن، وذلك من جراء سوء نية وإلى قبرص (١١٨)، ولا يتم استئناف حصار الساحل المصري إلا بعد شهر من رحيل للسفن الفرنسية. ثم إن الغالبية العظمى من السفن الإنجليزية كانت قد عادت، في ٢١ يوليو، إلى المحيط الأطلسي مقلية لثر الأسطولين الفرنسي والأسباني بقدر من التأخر. أما نيلسون، البقي في البحر المتوسط، والذي لم يعد أمامه التحسب لمعركة بحرية، فإنه كان قد نشر قواته بشكل سكوني من أجل محاصرة اللوانى الفرنسية والأسبانية. وهكذا فإن تحرك بروي غير المتوقع قد حذر غربي البحر المتوسط من أي خطر بالنسبة لبوناپارت، الذي يمر دون أن يرصده أحد (١١٩).

وفي الأول من أكتوبر، تصل الفرقة البحرية إلى أجاشيو حيث تقم أسبوعاً. ويصبح الخطر أكثر جساماً قرب طولون التي يرى المسافرون أنها تخضع لحصار من جانب بحرية بحرية إنجليزية قوية، وهكذا، فإن الجميع يتزعجون عندما تظهر في الأفق، في ٨ أكتوبر، سفن شرعية، ويبتهج الجميع لعدم رصدهم من جانب هذا الأسطول الإنجليزي الخطير. وكما أشار نولن، فمن الأرجح أن السفن كانت قافلة من السفن التجارية للملاحة، لأن لم تك هناك أية سفينة بحرية إنجليزية بين كورسيكا وبروفانس في الأيام الأولى من أكتوبر.

إن بوناپارت، الذي استولت على خياله معجزات يهونا ونكريات مقبرة الأهرام، يجتاز البحار غير عابى بهوارجها ومهاويرها، فكل شيء يمكن اجتيازه بالنسبة لهذا العملاق، الأحداث وأمواج البحر للتلاطم (١٢٠).

وفي ٩ أكتوبر ١٧٩٩، ينزل بوناپارت في فريجي. ويتجه على الفور مع رفاقه إلى باريس، مجازلاً بإحداث كارثة صحية واسعة النطاق بعدم احترامه لقواعد الحجر الصحي، الإلزامية بالنسبة لكل سفينة قادمة في بلد يعتبر الطاعون نائماً فيه. وعلى امتداد طريقه، يجري الترحيب به كمنقذ. وهو يصل إلى العاصمة في ١٦ أكتوبر ١٧٩٩.



٤٩ - تمثال الكرنك للضخم.



٥٠ - السيد مصطفي باشا.



Foucault

۵۱ - (ا) بوسیلج.



Fuller

(ب) تگلیان.



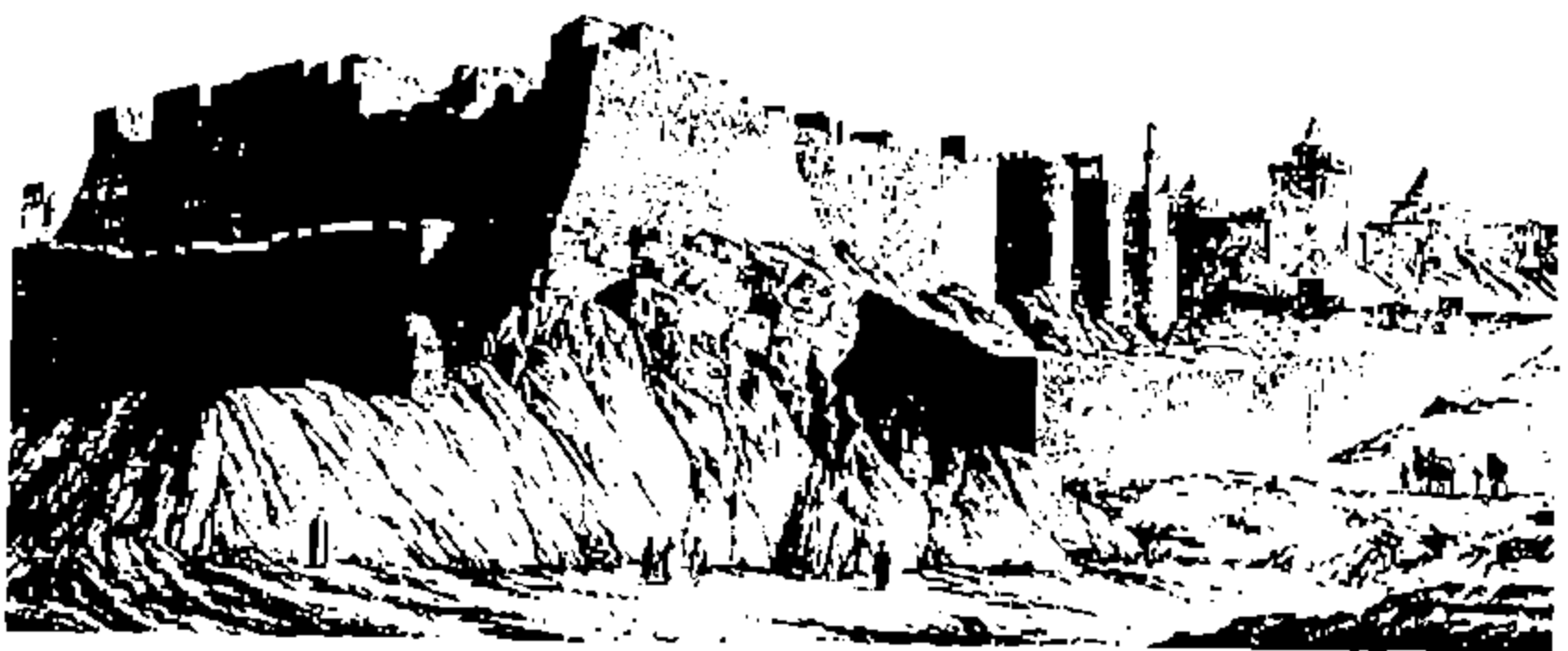
Smith

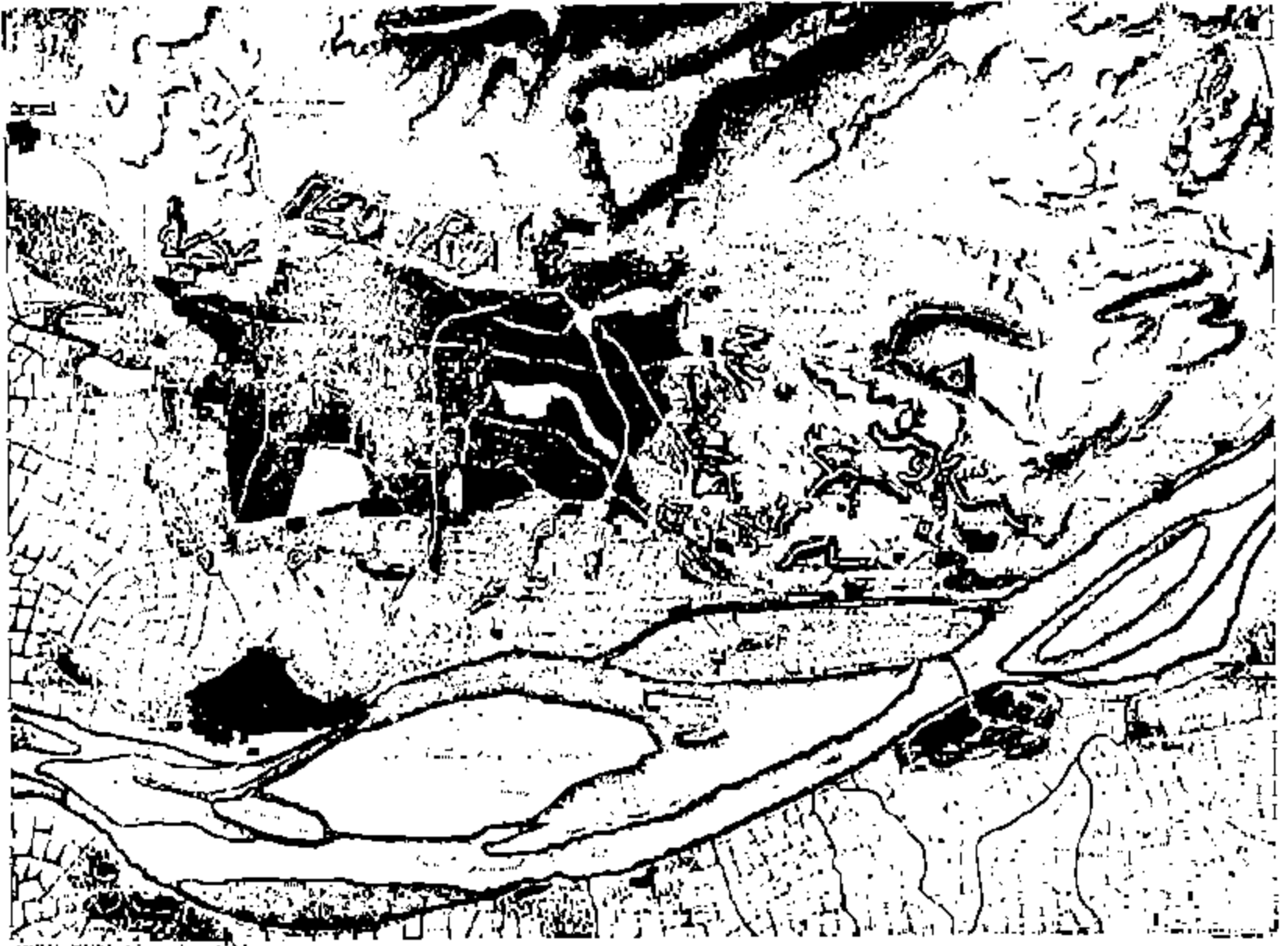
(ج) سیدنی سمیث.



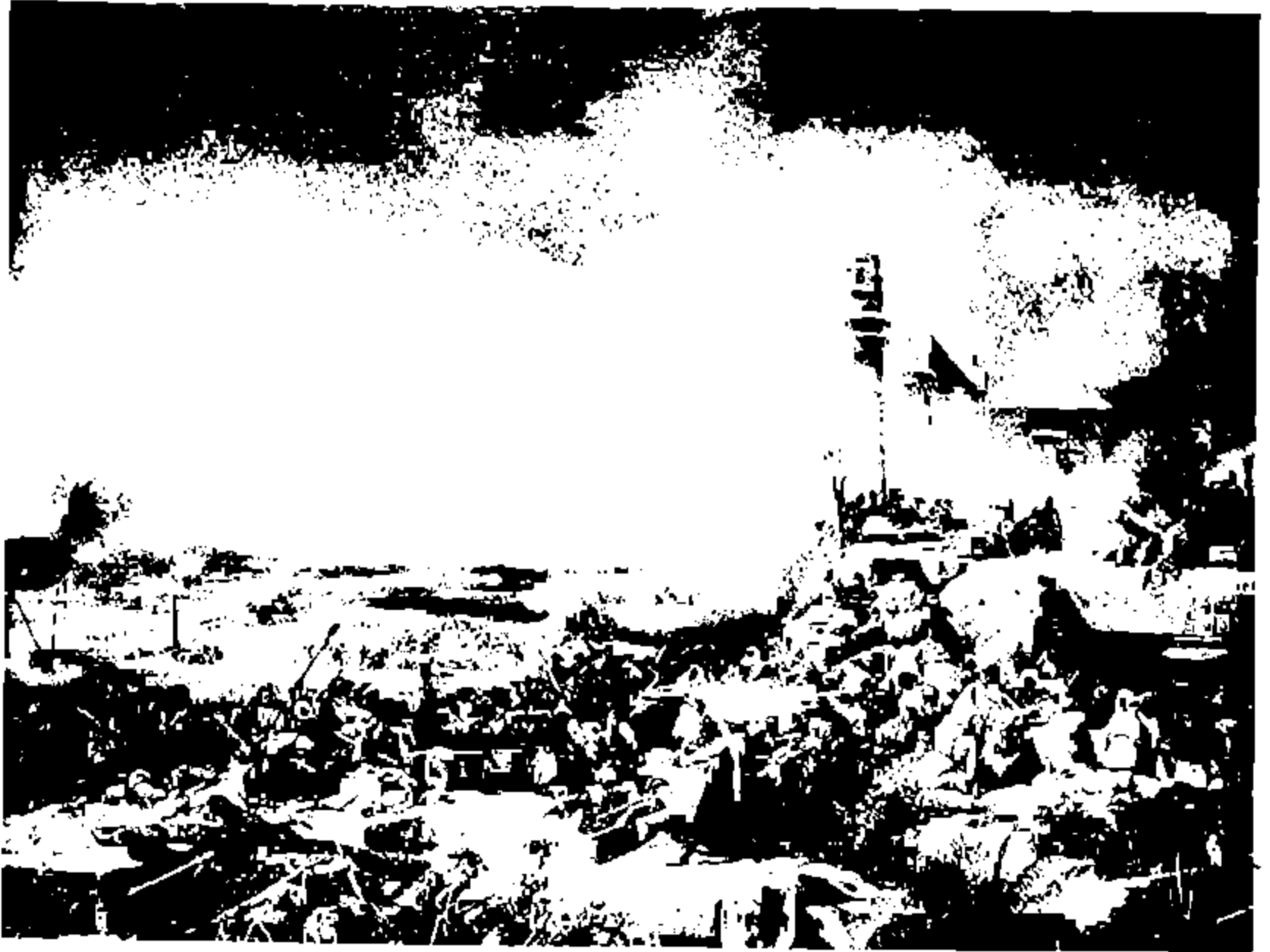
Miller

(د) کلپور.





٥٢ - خريطة عامة لهولاق والقاهرة وجزيرة الروضة والقاهرة القديمة والجبزة.



٥٤ - معركة هليوبوليس.



٥٥ - إعدام سليمان الحلبي على الخازوق.



۵۶ - مینو

۵۶

حواشي الفصل السادس

Venture of Islam, Conscience and History in a World Civilization, - ١
The University of Chicago Press, 1974, T. III, p. 177.

Sur ces épisodes complexes que je ne fais que résumer ici, voir - ٢
INGRAM, *Commitment to Empire...*, pp. 114 - 191. Le développement qui suit s'inspire de l'ensemble des analyses de cet historien de l'Empire britannique.

- ٣ هكذا يوضح جونز ان نداء صليبي عن سليم الثالث وموجهاً إلى زمان هاه كانت له الدولة لوامر البابا إلى شعوب وملوك أوروبا في القرن الرابع عشر، وهي لوامر لا يمكن للملك عدم الانصياع لها إلا مجازاً بصياح تلجه، cité par INGRAM, p. 258

Texte anglais dans FO 78 21. - ٤

Sur la vie de Sidney Smith, voir sa biographie par Peter - ٥
SHANKLAND, *Beware of Heroel, admiral Sir Sidney Smith's War against Napoleon*, Londres, 1975. Sur l'évasion de la prison du Temple, voir DESMAREST (Pierre - Marie), *Quinze ans de haute police*, Paris, 1833, pp. 178 - 185.

FO 78 21 : Conférence tenue entre leurs Excellences Ismet Bey, - ٦
Ahmed Hatif, Reis Effendi plénipotentiaires ottomans, Chelebi Mohammad Effendi Ministre de la Guerre, assistés par l'Armedgi Effendi et le Dragoman de la Porte d'une part, et le chevalier Sidney Smith (dans l'absence de M. Spencer Smith par indisposition) assisté de M. Pisani, Interprète et accompagné par M.M. le colonel Phelypeaux et Keith, secrétaire de l'autre dans la maison du Reis Effendi à Constantinople jeudi 17 janvier 1799 (10 Shaban 1213).

- ٧ إن جوزيف فونورد دو بوليني، ممثل إسبانيا، غير المتحالفة مع فرنسا إلا في الصراع مع إنجلترا، قد ابلغ تاليران بأعمال الأخوين سميت اللذين نجحا أيضاً في العمل على أن يتم اعتبار العسكريين الفرنسيين الأسرى لإنجلترا خاضعين من ثم لقواعد اتفاق تال لتبادل الأسرى؛ [رسالة] من القسطنطينية، بتاريخ ١٨ يناير ١٧٩٩، A.F., *Correspondance Politique*, *Turquie*, Vol. 199 وهذا تطبيق فوري للخطة التي لرتأها سيني سميت.

Voir la mise au point historiographique dans le livre de Jean - ٨
TULARD, *Napoléon ou le mythe du sauveur*, Paris, 1977.

٩ - إن سياسة القسطنطينية تتمثل في تحقيق أكبر اختزال ممكن للتفوذ الديني الشريف مكة؛ إن السلاطين خلفاء؛ وقد ذهبوا فعلاً في إلغاء [هذا التفوذ]. أما سياسة الجنرال الفرنسي فقد كانت على النقيض من ذلك. لقد كان مهتماً بإحياء الاعتبار الديني لهذا الأمير الصغير، الذي كان يدور في ذلك مصر بحكم احتياجاته. وقد انخفض هذا التفوذ لتخلف تفوذ أهل القلوى في القسطنطينية. إنه [الجنرال الفرنسي] لم يفتقر لحسب، بل وشجع بمختلف السبل، لتصل العلماء بالشريف، الذي لم يتلخز عن فهم كل ما شمله هذه السياسة من فوائد لاعتباره والمصلحة. لقد كان الشريف مع التوطيد السلطة الفرنسية في مصر، وقد اتخذ موقفاً إيجابياً إزاءها باستمرار في كل ما يتوقف عليه. *Compagnes d'Égypte et de Syrie...*, XXIX, pp. 582 - 583.

Campagnes..., XIX, p. 575. - ١٠

١١ - BERTRAND, *Cahiers de Sainte - Hélène*, Manuscrit déchiffré et annoté par Paul Fleuriot de Langle, Paris, 1959, II, p. 189.

١٢ - *Courrier de l'Égypte*, le 2 nivôse an VII (22 décembre 1798).

١٣ - من الصعب إجراء تقدير للعدد الإجمالي لسكان سوريا في تلك الفترة. والرقم الذي يقترحه حاييم جيربر (Haim GERBER) (The Population of Syria and Palestine in the Nineteenth Century, *Asian and African Studies*, XIII (1979), pp. 58 - 80)، وهو ١٢٠٠ ٠٠٠ من بينهم ٢١٨٠٠٠ بالنسبة لفلسطين، يبدو لي جد منخفض. أما انطوان عبد الخور الذي يشدّد على أهمية التحركات السكانية دون أن يقدم رقماً إجمالياً محدداً، فيبدو أنه يميل بالأحرى إلى إعتبار هذا الرقم ١٧٠٠ ٠٠٠ في عام ١٨٢٥ (*Introduction à l'histoire* ١٨٢٥) (*urbaine de la Syrie Ottomane*, Beyrouth, 1982, p. 82)، وهو رقم لا بد من أن يكون قريباً من رقم عام ١٨٠٠. ويقترح الكسندر هيلوش بالنسبة لفلسطين في عام ١٨٥٠، رقم ٣٥٠ (The Demographic Development of Palestine, 1850 1882, *International Journal of Middle East Studies*, XVII (1985), pp. 485 - 505) بعد فترة ركود معينة. ويبدو أن الاتجاه هو اتجاه نمو بالرغم من التذبذبات المعاكسة والظواهر أن فترة أواخر القرن الثامن عشر (كما في حالة مصر) كانت بالفعل مرحلة تميزت بانخفاض السكان.

١٤ - Amnon COHEN, "Ottoman Rule and the Re - Emergence of the Coast of Palestine", *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée*, n° 39, 1985, pp. 163 - 175.

١٥ - Sur cette question, voir l'article très éclairant de Scott ATRAN, "La Masha'a et la question foncière en Palestine, 1858 - 1948 *Annales, Économies, Sociétés, Civilisations*, 42 (1987), pp. 1361 - 1390.

١٦ - Sur Jazzar, le livre de E. LOCKROY, *Ahmed le Boucher, la Syrie*

et l'Égypte au XVIII^e siècle, Paris, 1888, est très vieilli quoiqu' agréable à lire. La synthèse fondamentale est le livre d'Amnon COHEN déjà cité, *Palestine in the XVIIIth Century*, Jérusalem, 1973.

Sur les structures et les réalités de la société du Mont Liban à – ١٧ cette époque, voir les premiers chapitres de l'ouvrage fondamental de Dominique CHEVALLIER, *La société du Mont Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe*, Paris, 1971.

JABARTI, nécrologie de l'année 1219.

– ١٨

١٩ – ليس بونابارت هو الوحيد الذي يجرى تحليلاً كهذا : إن تقريراً مفصلاً من التوايح أرسل إلى نابليون في برومير من العلم السابع (أواخر أكتوبر – نوفمبر ١٧٩٨) لا يرى، بالنسبة لجيش الشرق، غير إمكانية واحدة للقهر الإمبراطورية العثمانية، «الثورة» : إن بونابارت سوف يجد في سوريا اللوز وشعوب جبل لبنان الأخرى. وسوف يدعوها إلى الاستقلال وإن تكون صمته تجاه دعواته. وفي هذه الفترة نفسها، تشجع حكومة الإنارة الثوار اليونانيين وتنشئ وكالة لتكون المكلفة بالتحرير لانتفاضات في البلدان البلقانية العثمانية (A.E., *Correspondance Politique, Turque*, Vol. 199).

Le Moniteur, 26 brumaire an VII : le texte est repris avec éloge – ٢٠ dans le *Courrier de l'Égypte* des 3 et 12 thermidor an VIII, malgré l'échec de l'expédition.

Campagnes..., XXX, p. 20.

– ٢١

Reynier à Bonaparte, le 29 pluviôse an VII (17 février 1798), LA – ٢٢ JONQUIÈRE, IV, pp. 185 - 187.

٢٣ – يتفاخر العثمانيون بذلك، ويورد هلمر هذه الجملة عن واصف : «صحيح أن الجندي للمسلم إذا لم يكن محتماً بسور ثائراً ما يقاتل بكل البسالة التي هو أهل لها. إنه يذعن عندما يرى طرق النجاة مفتوحة حوله. لقد أثبتت التجربة ذلك كثيراً، وهذا ما أدى إلى دفع بونابارت، لتفصل الفرنسيين الأول الآن، إلى القول بأن عشرة آلاف جندي جيدي الانضباط يكفون للانتصار في أرض مكشوفة على جيش من مائة ألف مسلم؛ لكن جيشاً من مائة ألف رجل لا يكفي لقهر عشرة آلاف مسلم محتمين بإحدى القلاع» (Histoire de l'Empire Ottoman, XVI, p. 361)

Kléber et Bonaparte, p. 55.

– ٢٤

Rapport sur la reconnaissance faite par le général Damas sur la – ٢٥ *route de Naplouse*, LA JONQUIÈRE, IV, pp. 245 - 246. مبنية بشكل جيد رائع على مرتفعات ذات مدخل صعب. ووسط الصخور والأحراش، نجد حقول قمح، بما يشكل برهاناً على أن استبعاد الباشاوات لم يمتد أبداً إلى هذه الجبال، التي تتمتع بطعام جيد سهل.

«إن سكان الجبال هؤلاء يطلقون النار بإحكام بالغ، نحويين ومختبئين دائماً. وعندما ينزل
للره إلى المكان الذي تنطلق منه النيران، فإنه لا يكثر عليهم البتة ويتعرض لطلقات البنادق من
الأحراش المجاورة» وهذا نوع من الحرب جد قاتل. [...]»

«إنهم يتوالفون منذ الأحراش الأخيرة ولا يجترئون البتة على الخروج إلى الأرض المكشوفة.
[...]»

«ولذا ما أراد المرء التطفل في هذا البلد، فلن تكون هناك حاجة لا إلى للدافع ولا إلى
الفرسان، لأنهم سوف يجبرونك على المرور بشعاب صعبة إلى أقصى حد؛ لكن الهجوم يؤدي
متنقلاً إلى الارتباك»

٢٦ - لابد أن حامية العريش كانت تتألف على أقصى تقدير من ألف ومائتي جندي؛ وقد
جرى إجهاد جزء لا بأس به على الخدمة في الصفوف الفرنسية؛ وإذا كان جميع الآخرين قد
تواجدوا في يافا، فلابد من أن تدخل في الهجوم نسبة من الخسائر مساوية لنسبة بقية الحامية.
ومن ثم فإنهم لا يشكلون غير جزء طفيف نسبياً من الأسرى، والحال أن نابوليون سوف يزعم
في سنت - هيلين أن الوحيدين الذين اعتصموا رمياً بالرمصاص في يافا هم قدامى مقاتلي العريش
(LA JONQUIÈRE, IV, pp. 268 - 269).

VOLNEY, *Voyage...*, p. 93. - ٢٧

J. MIOT, *Mémoires pour servir à l'histoire des expéditions en - ٢٨*
Égypte et en Syrie, Paris, 1814, pp. 146 - 149. C'est le frère de Miot de
Melito, voir le *Dictionnaire Napoléon*.

Correspondance..., V, p. 456. - ٢٩

٣٠ - 458 - 459 *Correspondance...*, V, pp. 458 - 459. المرحوم والرحيم؛ من صفات الله ...

٣١ - Voir la lettre de Sidney Smith à Saint Vincent, devant Acre le 23
mars 1799, dans BARROW (John), *Life and Correspondence of Admiral Sir*
Sidney Smith, Londres, 1848, I, pp. 266 - 269.

٣٢ - *Correspondance...*, le 30 ventôse an VII (20 mars 1799), pp. 477 -
478 في ذلك الزمن، غالباً ما كان الأيوبيون يخلطون بين العروذ والوارثة. ولحق أن التناحرات
بينهم لم تكن بعد من النوع الذي سوف يظهر في القرن التاسع عشر.

٣٣ - LA JONQUIÈRE, IV, p. 318 et Yassine SOUEID, *Histoire*
militaire des Muqata'a libanais à l'époque des deux Émirats, Beyrouth,
1985, II, pp. 561 - 562.

٢٤ - خاصة، العميدان لوجهيه وإيسكال؛ وقد أصيب قلندا كتيبة الهندسة ساي (أخ جان - بالهتيس ساي)، وسوهيه وقلند السرية لوييه إصابة جسيمة وماتوا بعد ذلك متأثرين بجراحهم.

٢٥ - Sidney Smith à Saint - Vincent, devant Acre, le 4 avril 1799, BARROW, I, pp. 273 - 275.

٢٦ - بل إن نظم مكانة للاتخط [الخط القنابل الأصماء] قد أدنى للجند ، LA JONQUIÈRE, IV, p. 368.

٢٧ - *Histoire Scientifique...*, V, pp. 278 - 281.

٢٨ - Sur la campagne de Klébre en Galilée, voir *Kléber et Bonaparte*, pp. 433 - 476.

٢٩ - Lettres de Berthier et de Bonaparte à Dugua, le 19 et 20 avril 1799, LA JONQUIÈRE, IV, pp. 434 - 437.

٤٠ - Haidar CHEHAB, II, p. 197.

٤١ - Haidar CHEHAB, III, pp. 399 - 400 et Michel CHEBLE, *Une histoire du Liban à l'époque des Émirs*, Beyrouth, (réédition) 1984, pp. 170 - 173; même référence pour la seconde lettre de Sidney Smith.

٤٢ - سيدنى سميث إلى سينسر سميث، ١٤ مايو ١٨٠٠، «الذي رسولان من فرد ومسيحي جبل لبنان، جاء طلبية لرسالتى إليهم والداعية إلى إرسال رسل، وهما يعلننى بأن كل ما يطلبه منهم سوف يجرى عمله ضد العدو، بعد أن رأوا مدى قوتنا وقدرتنا على حملتهم». BARROW, I, p. 298 انظر أيضاً رسالته إلى نيلسون بتاريخ ٢٠ مايو ١٧٩٩ حيث يوجز سياسته، «لقد بعين الاعتبار أن أفكار السوريين فيما يتعلق بهسالة هؤلاء الفرقة للزحومة التى لا تقهر لابد وانها قد تغيرت منذ أن رأوا الخيبات التى تعرض لها الجيش للحاضر يوماً إثر يوم فى عملياته أمام مدينة عكا، فقد كتبت رسالة تعميمية إلى أمراء وزعماء مسيحيي جبل لبنان وكذلك إلى مشايخ الدروز، داعياً إياهم إلى حجب الإمدادات من المعسكر الفرنسى، وقد أرسلت إليهم فى الوقت نفسه نسخة من بيان بوناپارت الكافر الذى يتلخّر فيه بالإطاعة بالهباء، وهى رسالة مرقد عديم المبادئ»، وقد كان لهذه الرسالة كل الوقائع الذى تضمنته، «لقد أرسلوا إلى على الفرد رسولين يعلنان لا الصلابة وحدها، بل والطاعة ويؤكدان لى أنهم، بوهذا على الطاعة، أرسلوا مجموعات لإلقاء القبض على الجبلين الذين يعثر عليهم حاملين ذبيحاً ويأرود مدافع إلى المعسكر الفرنسى ويضعون تمت تمرلى ثمانين سجيناً من هذا النوع. وهكذا فإننى أشعر بالارتياح إذ لحد أن زحف بوناپارت إلى مسافة أبعد شمالاً قد تم وقفه عملياً من جانب شعب ملقّل يسكن بلداً يستحيل اختراقه» Ibid, p. 308

وتتحدث المصادر العربية عن ابن أخ لسيندى سميث. ومن المؤكد أن هذا الأخير كان عليه أن

يقدمه بهذه الصلة لكي يبدو في صورة شرقية أكثر ولكي يضل أهمية أكبر على النخلة التي يريد إهدائها للجهليين. أما واقع أن هذا الشخص هو رايت، فيجري الإشارة إليه في رسالة من سيدني سميث إلى أخيه تصل تاريخ ١٤ مايو ١٧٩٩ : «رايت في بيروت، أفضل»؛ HOWARD, *Memoirs of Admiral sir Sidney Smith*, Londre. 1832, II, p. 403 (لا يقول النص الذي يورده بارو إلا : «رايت على الشاطئ، أفضل»)

Campagnes..., XXX, p. 60. - ٤٢

Campagnes..., XXX, p. 44. - ٤٤

Voir H. LAURENS, "Le projet d'État juif en Palestine attribué à - ٤٥
Bonaparte", à paraître dans la *Revue d'Études Palestiniennes* en fin 1989.

٤٦ - «إنني هنا استمتع تملأاً بطريقتي المفضلة، وذلك بتكدير أبطال الأمة العظمى وجعلهم يشعرون أن أفضل شيء يمكن أن يحدث لهم هو أن يصبحوا أسرى لي، لأنهم بهذه الطريقة سوف يملأون بطونهم ويرجعون إلى عائلاتهم حيث سيقيمون بطريقة الحال بشتهم ومعارضة أولئك الذين أرسلوهم إلى هذه للهمة الحمقاء، إلى رايت، ٧ مارس، L. BARROW, p. 270.

٤٧ - *Histoire Scientifique...*, V, pp. 392 - 394. تشير غلبة المصائر إلى أن توزيع بيان الباب العالي قد تم نحو منتصف مايو، إلا أن رد فعل بوناپارت أصبح غير مفهوم إن لم نلتزم أن عمل سيدني سميث السيكولوجي قد بدأ قبل ذلك بشهر.

٤٨ - LA JONQUIÈRE, IV, pp. 440 - 441. يجد المؤرخ العسكري الكبير أن الظروف التي ألهمت هذا الأمر اليومي لم تتعد بشكل جيد. على أن التناظر واضح بما يكفي بين أمر بوناپارت اليومي وبيان الباب العالي بحيث يتعذر عدم الاعتراف بانتشار الأفكار من طريق الاتصالات بين المحاصرين والمحاصرين. وعلاوة على ذلك، فإن ناهوليون يذكر ذلك بوضوح في سائنت - هيلين ليرتلان (الذي كان مع الحملة) : «لقد تعاملت مع سيدني سميث بوصفه معتوها، لأنه كان يزعجني في الصميم، لأنه كان ناساً، بذل جهده في بث وتشجيع روح خبيثة في الجيش بتكراره أنه سوف يسهل العودة إلى فرنسا. أما الشيء الجيد الذي فعله فهو أنه أخذ معه، خلال حصار عكا، فيليبس الذي قدم إليه نسلخ جيئة»

٤٩ - مما لا دلالته أن هاتين المبتتين هما اللتان هنتا انتباه الجبرتي (٧ نو الحجة و ٢ محرم سنة ١٢١٢).

Sidney Smith à Saint - Vincent, le 9 mai 1799, BARROW, pp. - ٥٠
284 - 219.

٥١ - A Evan Napean, le 9 mai 1799, LA JONQUIÈRE, IV, p. 483. هذا ثالثاً : لا تجرى الإشارة هناك على سبيل المثال إلى وصول شخص مع قوات الباب العالي يدعى السيد ثروت وهو ليس أحد آخر غير ثروتية، وهي معلومة جرى التأكيد عليها في رسالة سيدني سميث التي سبق الاستشهاد بها.

Mémoire de M. Bourrienne sur Napoléon, édité par Désiré - ٥٢
Laroin, Paris, I, pp. 363 - 364.

Sur cet épisode, voir *Kléber et Bonaparte...*, I, pp. 57 - 61 et II, - ٥٢
pp. 475 - 478.

Proclamation à l'armée, devant Acre, le 28 floréal an VII (17 mai - ٥٤
1799), *Correspondance...*, V, pp. 553 - 554.

٥٥ - ولقد أرسلتهم إلى سمياط حيث سوف يحصلون على العون الإضافي الذي تتطلبه
حالتهم والذي لم يكن يوسعي منحه لكثيرين. إن إصرارهم من الاعتراف بالجميل لنا كانت
ممتازة بإلقاء اللعنات على اسم قائمهم الذي صرغهم بهذه الطريقة، كما القوا، إلى الهلاك، بدلا
من أن يستلطف التفاهل بشكل مائل ومشرف مع الإنجليز، والذي قطعهم بزعم زائف وخبيث
مؤله أنني صرغست الأسرى السابقين مصلحاً للإسلامة بحدوى الطاعون. ومما يشرف الجيش
الفرنسي أنه قال إنه لم يحصل هذا الزعم وهكذا فقد ارتد على من أطلقه. وقد تأكد وصول
الجرحى إلى مصر من خلال رسالة من ألبيراس إلى بوجا، أرسلت من سمياط بتاريخ ١٢ بروريل
من العلم السليم (٣١ مايو ١٧٩٩)؛ وكان عندهم ١٥٠. ويستفيد سيديني سميث من ذلك لكي
يرسل بيان الباب العالي ويضيف: «إن كل شيء يدفعكم إلى الاستعداد للجلاء عن الإمبراطورية
العثمانية دون تأخير، مستفيدين بذلك من السبيل الوحيد للفتوح لإنقاذ الجيش الفرنسي». L.A.
JONQUIÈRE, IV, pp. 591 - 593.

Kléber et Bonaparte..., pp. 543 - 544.

- ٥٦

٥٧ - حول أحداث بلنا، انظر التحليل الحاسم الذي قام به. LA JONQUIÈRE, IV, pp. 575 - 583.
وسوف يجرى رفع عند الضحايا إلى أكثر من ٥٠٠، ومن هنا اتساع المناظرة
وإخلاص المدافعين عن بونابارت الذين شاركوا في حملة مصر، إنهم لن يحاولوا معرفة كنه حقيقة
المسألة.

Lettre à Nelson du 30 mai, BARROW, I, p. 308. Curieusement, - ٥٨
les archives militaires (B6 23) conservent une traduction de cette lettre. La
présence du calendrier révolutionnaire montre qu'il s'agit bien d'une
traduction d'époque. C'est peut-être une indiscretion calculée de la part du
commodore. LA JONQUIÈRE, la donne in extenso, IV, pp. 588 - 592.

Bonaparte à Kléber, le 9 prairial an VII (28 mai 1799), - ٥٩
Correspondance..., V, pp. 568 - 569.

CHAPTAL, *Mes souvenirs sur Napoléon par le comte Chaptal* - ٦٠
publié par son arrière - petit - fils, Paris, 1893, pp. 303 - 304.

Amnon COHEN, *Palestine...*, pp. 108 - 109; Clinton BAILEY, - ٦١
"The Negev in the Nineteenth Century : reconstructing history from bedouin
oral traditions", *Asian and African Studies*, XIV(1980), pp. 35 - 80.

LA JONQUIÈRE, IV, p. 597. - ٦٢

LA JONQUIÈRE, IV, pp. 612 - 613. - ٦٢

Dugua à Bonaparte les 26 pluviôse et 29 pluviôse (14 et 17 - ٦١
février 1799), B6 108. هو الذي كلف بالتفاوض مع
البنو، وصولاً إلى تهديتهم وسوف يصبح مصفراً ممتازاً للمعلومات (Dugua à Leclerc, le 3
ventôse an VII "21 février 1799").

٦٥ - يضم الملف B6 18 مراسلات لوزيرة لبنو مع المسلمين. وهي ذات طابع تكراري
مصرف ولا تقدم الكثير، ورسالة إلى مارمون بتاريخ ٦ فيكتوز من العام الثامن (٢٤ فبراير
١٧٩٩) هي مهموم حقيقي على الأقليات التي تشكل القنبلة القمعية للبلدية لمصر، وهو يهاجم
بشكل خاص اليهود. إنهم جنس ملوث وحظير لا يقدم أية خدمة وهم يحكم مهنهم لكبر سارقين
للجنس الإنساني [...] إن هؤلاء الناس جميعهم قد خضعوا ويخضعون يومياً إنارة القاهرة، ولقد
وصولي إلى هناك، سوف أتهبأ لهم حرب حتى الموت عليهم لأنني أكن فوق كل شيء الكراهية
الأكثر حسماً للمحتالين.

L'étude la plus complète sur le mariage de Menou qui rassemble - ٦٦
toutes les informations que nous possédons, y compris les actes originaux
du mariage découverts au siècle dernier, est l'article de René KHOURY, "Le
mariage musulman du général Abdallah Menou", *Egyptian Historical
Review*, XXV (1978), pp. 65 - 93.

٦٧ - إنه لا يعلن رحيله لليونان رشيد إلا في ١٠ مايو ١٧٩٩. B6 22.

JABARTI, ramadan 1213. - ٦٨

Plusieurs mentions dans la correspondance générale de l'envoi de - ٦٩
textes à al Mahdi : voir par exemple, B6 108, lettre de Dugua à Poussielgue
le 27 pluviôse an VII (15 février 1799). JABARTI note avec plaisir
l'élégance des textes obtenue grâce aux demandes insistantes des membres
du diwan (14 shawwal 1213).

JABARTI, ramadan 1213 et B6 108, Dugua à Poussielgue le 26 - ٧٠
pluviôse (14 février 1799).

Dugua à Bonaparte, Précis de la situation des provinces de - ٧١
l'Égypte au 19 ventôse an VII (9 mars 1799), LA JONQUIÈRE, V, pp. 23 -
27.

٧٢ - *Kléber et Bonaparte...*, p. 537. حتى سبيل اللال، تابل زيارات مع كلير

Dugua à Bonaparte, le 6 germinal an VII (26 mars 1799), LA - ٧٣
JONQUIÈRE, V, pp. 36 - 37 et B6 109.

٧٤ - وقد ادخلوا الترك، فإن لها الإنكشارية مصطفى لها قد صحبه إلى سوريا وقد اعلم
الجزار بومله جاسوساً (WIET, p. 38) والواقع أن حوليات دغولا الترك هي واحدة من أكثر
الحوليات تشوهاً أما حوليات حيدر الخهلي فهي أفضل إلى حد ما (II, 253).

Dugua à Bonaparte, le 18 germinal an VII (7 avril 1799), B6 109. - ٧٥

Dugua à Bonaparte, le 14 germinal an VII (3 avril 1799), LA - ٧٦
JONQUIÈRE, V, p. 45.

JABARTI, Ramadan et Shawwal 1213; Dugua à Bonaparte, le 14 - ٧٧
germinal an VII (3 avril 1799), LA JONQUIÈRE, V, p. 44.

٧٨ - لقد نشر سلفيستر دوساسي رسائل الشريف في كتابه *Chrestomatie Arabe*, Paris, 1827, III, pp. 319 - 327
انتظر أيضاً الجبرتي، ذو الحجة ١٢١٣ و B6 183. رسالة
بوسيلج إلى الشريف، والمؤرخة في شهر جهرمينال. وقد قدم هذا الأخير له شرحاً حقيقياً للثورة
الفرنسية، «منذ عشر سنوات، يعلن الفرنسيون ويرجون مبادئ الحرية المدنية والدينية. وقد
راعوا في كل مكان عقائد الشعوب؛ ولم يهاجموا غير التعليم التسامح وهذا الانعيلم للتسامح هو
العدو الأكثر تعديداً للمسلمين. إن الفرنسيين هائهم شأن للمسلمين لا يؤمنون إلا بالله واحد وهم
مثلهم مسلمون بالقدر ويخضعون لأوامره القاطنة. وتلك قوايديهم من كل ما هو معروف بفعل
في قوانين الشعوب الأخرى. وهم رهيبيون في الحرب وكرماء في النصر وفاعلون للخير في
السلام».

٧٩ - Le texte imprimé de Jabarti, aussi bien dans les *Aja'ib* que dans le *Mazhar* porte la forme erronée *ibn* (fils), au lieu de *bunn* (café), ce qui conduit CUOQ (p. 136) à traduire : "quant aux Français, ils exonérèrent le fils du Chérif de toute taxe", alors que le sens évident dans le contexte est bien le "café du Chérif". Les erreurs de transcription ou même d'écriture dans les manuscrits originaux de Jabarti sont nombreuses, et il est regrettable de ne pas disposer d'édition critique de cet auteur (sauf pour la *Mudda*).

JABARTI, fin dhu al hijja 1213.

- ٨٠

Dugua à Bonaparte, le 1^{er} floréal an VII (20 avril 1799), B6 109. - ٨١

٨٢ - B6 109 : ترجأ إلى بوسيلج، ٢٠ فلوريال من العام السابع (١٧٩٩) :
«يجب، أيها المواطن النحرير، إلهام الشيوخ البكرى إلى أي مدى وتعارض هذا المسلك مع مصالحه
الخاصة ومع سلامته الشخصية، إلى أي مدى سوف يكبر القائد العام الذي يمكن [لهذا المسلك] أن

يسرى إليه في نظره والغير) فإنه لكون الأمر يتعارض مع السكينة العامة، فإنه لا يجب أن ينعش إذا ما أصدرت لأمر بإلقاء القبض دون تمييز على الأشخاص الذين يوجدون في القاهرة دون تصريح منسب بصرف النظر عن الشخص الذي يحميهم. وبما أن ترجمانك أفضل من ترجماني، فلتعمل على أن يستجيب الشيخ البكري عن طيب خاطر لتحذيرك لأنه بحاجة إليك، ولتعمل على إلزامه جادة الصواب هو ورفاقه أيضاً. إنهم يسعون كلهم إلى تلمين حيل لاستغلالها في حالة حدث غير متوقع.

٨٢ - إن جارية المملوك السابقة هذه تحوز من ثم جزءاً من التزام، وهو شيء مكشوف في هذا الوسط.

Dugua à Bonaparte, le 6 germinal an VII (26 mars 1799), B6 109. - ٨٤
Le commandant de la place est le général Destaing. J'ai retranscrit les noms arabes du texte.

B6 21 : Destaing à Dugua, le 2 floréal an VII (21 avril 1799), - ٨٥
Poussielgue à Dugua, le 3 floréal an VII (22 avril 1799) et B6 109 : Dugua à al Bakri, le 3 floréal an VII. Jabarti, là encore, ne mentionne pas cet incident.

B6 109, Dugua, à Lanusse, le 6 germinal an VII (26 mars 1799). - ٨٦
٨٧ - هذا هو موافق مارمون، الذي أصدر بهاداً بهذا المعنى، في ٢ جبرميدال من العام السابع (٢٢ مارس ١٧٩٩)، بالنسبة لكل غريمي اللطفا (B6 20). وقد ألقى نوحاً هذا القرار بعد ذلك بأنهم طيلة (B6 109).

Jabarti, 17 shawwal 1213, fin dhu al qa' da; Dugua au diwan du - ٨٨
Caire, le 5 floréal an VII (24 avril 1799), B6 109.

Dugua à Bonaparte, le 11 floréal an VII (30 avril 1799), LA - ٨٩
JONQUIÈRE, V, p. 73. لا يقدم الجبرتي ونقولا الترك غير معلومات جد طفيفة عن أصل الرجل. ويبدو أن مؤشرات تالية تشير إلى أنه من فارس.

Lefebvre à Dugua, le 23 floréal (12 mai 1799), LA JONQUIÈRE, - ٩٠
V, p. 89.

Lanusse à Dugua, le 21 floréal an VII (10 mai 1799), LA - ٩١
JONQUIÈRE, V, p. 87.

Campagnes..., XXX, p. 78. - ٩٢

Voir mes *Origines intellectuelles de l'Expédition d'Égypte*, en - ٩٣
particulier les pages 252 - 253.

٩٤ - المقصود هو إرسال رسالة إلى مراد بك، «تلمت طويلاً قائمة الزعماء العرب التي

قدمها إلى الصير صمويل مود والعميد البحري تويريدج، سلفاى للباشويان في المركز البحري قبالة الإسكندرية واللذان كنت قد اعليتهما هناك في الصحة للخدمة، فور معركة النيل مباشرة، واللذان وجدنا في اتصالهما بالشاطيء، رجالا ثوي نفوذ غير منتمين للسيطرة الفرنسية. وقد اخترت بعد إمعان التفكير اسماً من هذه القائمة جرت الإشارة إليه على أنه ابن عبد الله باشا، حاكم بيموتون، بين الإسكندرية والنيل، والذي كان أحد ضحايا تنظيم الإرهاب الذي ألقاه بوناپارت، والذي تهلى منذ بداية هبوطه إلى الإسكندرية؛ دون أن يأخذ في اعتباره، وإن كان من المحتمل أن كثيرين قد استسلموا للخوف من جراء ذلك، إن اقارب الناجين سوف يشعرون بالضغط وهو أمر من المؤكد أن من شأن كورسيكي أن يذكره.

«وكان اسم العربي هو إبراهيم بن عبد الله باشا، وهو معروف بأنه قد انسحب من حطام بيت والده ودخل إلى درة، على الساحل المواجه لكانتيا، بعيداً من السلطة والأسلحة الفرنسية».

وعد الإنزال البريطاني، وقابل سيدي سميت رجله الذي يعلن له أنه سوف يحمل بنفسه الرسالة إلى مراد بك: «إنني لن أرسل رسالتك، إنني سوف أحملها بنفسي، فهذا هو واجبي، لأن الفرنسيين قتلوا والدي في بلماطريس، وأنتم تطاردون من قتلوه». ويشير سيدي سميت إلى أنه هو الذي سلم الإسكندرية للإنجليز في عام ١٨٠٧ (BARROW, II, pp. 38 - 44) لما كتب *Victoires, conquêtes, désastres et revers des Français*, Paris, X, 1818, pp. 304 - 306 فهو يشير إلى موت عبد الله باشا في مذبحة في ذات الوقت الذي يموت فيه إبراهيم الشوريحي، لكنه يشير أيضاً إلى موت المهدي في المعركة نفسها. ولا نجد بعد ذكر عبد الله باشا بعد ذلك التاريخ.

JABARTI, shawwal 1214.

- ٩٥

LA JONQUIÈRE, V, p. 93 (lettres de Poussielgue et de Dugua), - ٩٦

B6 22, Interrogatoire du coupable; JABARTI, 14 dhu al qa' da 1213.

Dugua au général Damas, le 17 floréal an VII (6 mai 1799), B6 - ٩٧
109.

٩٨ - الصحراء العربية هي الصحراء للمتعة بين وادي النيل والبحر الأحمر خلافاً للصحراء القلبية التي تبدا عند الضفة اليسرى للنيل.

LA JONQUIÈRE, III, pp. 553 - 569.

- ٩٩

٩٠٠ - عندما يصل الخبر إلى علم بوناپارت في مكاء، ينتابه شعور داخلي بقرب ضياع إيطاليا. ووفقاً لبوريان، فإن «هذا الخبر للحزن، بتفاصيله المريعة، واسم المركب، قد أثر تأثيراً قوياً في نفس القائد الذي قال لي بنبرة نهوئية: «عزيزي، إن فرنسا قد خسرت إيطاليا، لقد قضى الأمر، إن حدسي لا يخطئ أبداً». وقد أوضح لي أنه لا يمكن أن تكون هناك في الواقع أية علاقة بين إيطاليا ومركب جرى تسميته على بعد ثمانمائة فرسخ منها كان قد منحه اسم ذلك البلد. ولم يكن بوسع شيء أن يحوله مما استشعره في البداية؛ وسوف يتحقق الحزن بعد قليل».

Vivant DENON, *Voyage...*, pp. 158 - 159.

- ١٠١

١٠٢ - إن دونزيلو هو جندي جاء من صفوف جيش النظام القديم. وقد خدم في البداية على الراين وسرعان ما سوف يصبح من المخلصين لبوناهارت.

Vivant DENON, p. 190. - ١٠٣

LA JONQUIÈRE, V, p. 262. - ١٠٤

Instructions du Directoire à Brulx, le 25 ventôse an VII (15 mars - ١٠٥ 1799), LA JONQUIÈRE, V, pp. 136 - 138.

١٠٦ - المقصود هو شخص اسمه بطرس بوكلي، وهو تاجر سودي ولد في مصر ورسى في فرنسا، تشهد على وجوده للمصادر الفرنسية (LA JONQUIÈRE, V, pp. 666 - 668) ونقلوا الترك (WIET, p. 64) وقد جرى الخلط بينه وبين يوداني اسمه يوديلكي الذي يقال إنه قد أرسل بعد ذلك بوقت طويل من جانب جوزيف بوناهارت والذي لن يحصل أبداً. وفيما بعد سوف يتولى آل بوناهارت رعاية أسرته، إن ابنه سوف يخدمان في الجيش الإمبراطورية وحظيه ليس شخصاً آخر غير الهنريال يوديلكي الذي خدم في ظل الإمبراطورية الثانية.

LA JONQUIÈRE, V, pp. 166 - 168. - ١٠٧

١٠٨ - بالشكل نفسه، لم تدخل الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الأولى في حرب ضد الإمبراطورية العثمانية، وخلال الحرب العالمية الثانية لم يعلن الاتحاد السوفييتي الحرب على اليابان إلا في الأسابيع الأخير للحرب.

١٠٩ - «ثم إن تعزيزاً غير متوقع حصل عندئذ للكاردينال من جهة أخرى؛ فبعد الاستيلاء على كورفو مباشرة، يظهر جزء من الأسطول الروسي - التركي في مياه ناهولي. [...] ويضع [...] سوريوكين تحت تصرف الكاردينال خمس مائة وستين رجلاً، تحت إمرة القائد بيل، وينظم إليهم أربعة وثمانون تركياً تحت قيادة أحمد بك. ومن الواضح أن هذا الدعم من جانب الكفار والمقيم إلى جيش الدين المقدس قد سبب بعض القلق للكاردينال؛ على أن بعض الهرطقة والمنشقين كانوا قد قدموا له بالفعل عوناً جيد مفيد وقد قال أحمد بك بخلاف بالغ: «إننا نشرب الخمر وندافع عن المسيحيين».

وبعيداً عن الطرفة، فإننا نجد بهلاء يرتدج التضامن الديني بين الملل المسيحية الرئيسية والإسلام ضد إلحاد الثورة.

SYBEL..., p. 79. - ١١٠

LA JONQUIÈRE, V, p. 179. - ١١١

Le 3 septembre 1799, extrait du mémoire dans LA - ١١٢ JONQUIÈRE, V, pp. 184 - 185.

A.E., *Correspondance politique*, Turquie, Vol. 201. - ١١٣

Le comte BOULAY DE LA MEURTHE, dans son livre *Le Directoire et l'Expédition d'Égypte* (Paris, 1885) a fit un relevé précis et minutieux de toutes les tentatives de communication du Directoire avec l'armée d'Orient et a montré que le dernier messenger est arrivé comme on l'a vu le 3 mars 1799.

BERTRAND, *Cahiers de Sainte - Hélène...*, II, janvier 1819, p. - ١١٥

263. «عندما مات فيكتور في مصر، كان ذلك خسارة كبيرة بالنسبة لي. ولم أجد اتصت مع الأتراك بالاهتمام نفسه. وقد قال لي المشايخ «إننا لم نعد نطعمك. مع فيكتور كان كل ما نقوله يثير الخيال وينفذ. والآن ما زلنا نطعم، لكن الأمر لم يعد كما كان عليه؛ ولم يكن بالإمكان بعد تقريباً إجراء مناقشات من القرن»

Description dans *l'Histoire Scientifique*, VI, pp. 4 - 7. - ١١٦

JABARTI, 10 Muharram 1214. - ١١٧

Détails de toutes ces mesures dans LA JONQUIÈRE, V, pp. 191 - ١١٨
- 226.

LA JONQUIÈRE, V, pp. 230 - 232. - ١١٩

١٢٠ - الجبرتي، ٢٤ محرم ١٢١٤؛ CUOQ, pp. 165 - 166 ذلك هو النص العربي الذي قدمه كاتب الحوادث للمصري. أما النص الفرنسي فهو يبرز اختلافات. بالنسبة للجملة الأخيرة «يترتب من ثم على اليونان وشعب مصر أن يريا في هذا المسلك برهانا جدي خاص على المشاعر التي أكتننها في قلبي لسماحتهم ولاذبحارهم» وإذا كان النيل هو النهر الأول في الشرق، فإن شعب مصر، في ظل حكمي، يجب أن يكون أول الشعوب. ٩ ميسيدور من العلم السابع (٢٧ يونيو ١٧٩٨).

JABARTI, 3 safar 1214. - ١٢١

LA JONQUIÈRE, V, pp. 236 - 237. - ١٢٢

JABARTI, 6 safar 1214. - ١٢٣

Histoire Scientifique, VI, pp. 169 - 170. - ١٢٤

Courrier de l'Égypte, 3 thermidor an VII (21 juillet 1799). - ١٢٥

LA JONQUIÈRE, V, pp. 246 - 251. - ١٢٦

LA JONQUIÈRE, V, pp. 240 - 243 et Jean Edouard GOBY, - ١٢٧

Premier Institut d'Égypte..., pp. 45 - 48. وقع الحادث في ٤ يوليو ١٧٩٩ وسوف يطلب بيهيئيت أن يعود إلى فرنسا وهو طلب لن يجلب إليه. وسوف تتشابه هذه المسألة مع مسألة المصابين بالطاعون في يافا. والحال أن الكاتب الإنجليزي ويلسون هو أول من تحدث عن هذه المسألة في عام ١٨٠٢. وسوف يلهم بيهيئيت الرواية التي ظهرت في كتاب *Victoires*.

conquêtes, désastres, revers et guerres civiles des Français. الأشهر الأخيرة من وجود بونابرت، وهو ما سوف يستتبع هذا التعليق في يوميات بورتان، * مارس ١٨٢١ (III, PP. 90 - 91) : «قرأ الإمبراطور الجزء الخاص بحملات مصر (في) *Victoires et Conquêtes* إنها [الحملات] لا تروى بشكل سيء...» [...] إن الشهيد الوحيد الذي صدمني هو أن أجد على لسان نيهيڤيت أنه قد دخل في شجار معي، خلال إحدى جلسات المعهد، بدعوى أنني أريد أن يعلن أنه «الولا الطاعون»، لما انتسب الجنرال من سوريا؛ وأنتى بعد ذلك لم أظفر له [شجاره]؛ وأنه، نيهيڤيت، منحوماً من الجيش، قد احتد على بالكلام، بالرغم من وجود جندين أمامي، إلخ. وأنه لمن الزيف أن يقال أنني قد وضعت جنديين في أي وقت من الأوقات أمام مقعدي وأن مثل هذه المناقشة قد حدثت؛ إن هذا واضح للعيان. وخلال الجلاء من مصر، يبدو أن نيهيڤيت قال لويلسون إنه قد علمت في المعهد جلسة سرية وأنها قد تناولت تسميم الجرحى في يافا. وعندما رأيت ذلك الكلام في رواية ويلسون، في باريس، كان من اللطيف أن أعزل نيهيڤيت فوراً. وكنت أريد أن أعمل ذلك، لكنني، بوصلي رجلاً طيب القلب، كما هي عانتني، والتقت على استخدامه كرئيس لأطباء الجيش. وربما تحت إلحاح من محرر العمل بأن يخرج ما نذر في جلسة المعهد تلك التي تحدث عنها إلى ويلسون، قدم هذه الرواية الغريبة تماماً عن استقلاله ما حدث في يافا.

«والحقيقة أن المشاجرة مع نيهيڤيت كانت القليلة» لقد قال نيهيڤيت لأدري إن الداء ليس هو الطاعون؛ وإن الإمبراطور لم يزد ولم يلمس «المصابين بالطاعون» في يافا إلا لأنه كان يعتقد أن الداء ليس هو الطاعون؛ وأن لدى حومة الجنرال، قال له بورتوليه إنه لم يكن حذراً بالمرة؛ وإنه لم تكن هناك ضرورة لأن يخطر بحياته على هذا النحو ولا لأن يعرض نفسه لترك الجيش دون قائد، وذلك دون مبرر، دون فوائد فعلية. وقد أجاب نيهيڤيت بأن الرواء ليس وباء الطاعون، وبأن نيهيڤيت قد أكد له ذلك. وقد أكد بورتوليه العكس؛ وأنه لا شك هناك بالمرة في أن نيهيڤيت قد عرض له خطأ جد عظيم وجد خطير؛ وأن يوسع أن يسأل أدري. وقد أمر نيهيڤيت بالاستدعاء لأدري الذي رأى أن الرواء هو في الواقع وباء الطاعون؛ ثم أمر بالاستدعاء لنيهيڤيت. وجرت مناقشة جد حامية. وكانت المناقشة بين نيهيڤيت وبورتوليه، وليس مع الإمبراطور. وكان نيهيڤيت غيوراً من بورتوليه، الذي كان طبيباً والذي كان يتناول العشاء، هو ومونيخ، مع الإمبراطور، الأمر الذي كثيراً ما أثار فيه نيهيڤيت الذي لم يكن يتناول العشاء هناك.

«إن كل الرواية عن جلسة المعهد زائفة وهناك شهود على قيد الحياة. إنني لم أأخذ معي قط جنوداً إلى المعهد، هذا غير صحيح. وأنا أعتقد أنه لم يجر قط تسميم أحد في يافا. وعندما رحلنا، كان جميع المصابين بالطاعون قد متوا.»

١٢٨ - Le 10 messidor an VII, *Correspondance...*, V, p. 623.

١٢٩ - في ٣٠ يونيو ١٧٩٩، توجه نداءً إلى سكان الجزيرة، يدعوهم فيه إلى الإيمان مع اقتراح التوسط لأجلهم، FO 78 23.

١٣٠ - يهانس في المخطوط، إلا أن من المؤكد أن المقصود هو الشيخ مهلب ضاهر، الذي انضم إلى سيدني سميث بدلاً من أن يتبع الفرنسيين كبعض أنصاره.

١٣١ - FO 78 24 ، تستأنف الرسالة المذكورة تحت شكل آخر بعد ذلك ، « مثلما أصرتم وطلبتم تملأ ، فقد جرى توجيه رسائل مختلفة من جانبنا إلى قادة الدروز للذكوريين وإلى آخرين من اللاتمين إليهم ، حيث وجهنا رسالة إلى كل واحد منهم على حدة ، قبلناهم من خلالها أنكم قد بهتتم أنه إذا كان أي أحد منهم قد قصّر تجاه الباب العالي ، فإن ذلك إنما يرجع إلى أن الفرنسيين قد أجبروه على ذلك ، وإذهم سوف يبدون من الآن فصلاً خطوهم وولاءهم لهيئة ولأوامر الباب العالي ، وأنكم قد طلبتم العفو عنهم واستخدمهم في شدة ومصر وأنه نتيجة لما ذكرتموه ، فإننا توجه إليهم الرسائل المذكورة لكي تؤكد لهم على حسن معاملتنا وعلى ترحيبنا بهم وكذلك لكي نشجعهم ونحازنهم إلى القتال » .

Le 3 thermidor an VII (21 juillet 1799), *Correspondance...*, V, - ١٣٢
pp. 624 - 625; texte arabe dans JABARTI, 16 safar 1214.

١٣٣ - الجبرتي، ١٦ صفر ١٢١٤ إن نوحا، وقد أصبح قائداً للقاهرة، يخد في رسالته على سكية للنبي. (LA JONQUIÈRE, V, pp. 387 - 394)

١٣٤ - *L'Histoire Scientifique...*, VI, p. 229. يخيف مارسيل هناك نظاماً من صديقه : « فيما بعد حاز الشيخ المهدي تقديراً عظيماً وقد أدى مسلكه في عدد من الظروف الصعبة إلى تهديد كل نوع من الشك فيما يتعلق بارتباطه للخلاص بفرنسا. وكانت حرب مصالبات الديوان ضد المتعاونين قد بدأت قبل ذلك بفترة لصالح، انظر على منبهل للثال رسالة نوحا إلى بونهارت بتاريخ ١٩ سبتمبر من العام السابق (٧ يوليو ١٧٩٨) : « إن أعضاء الديوان يرتبون كل يوم عملاً ما ضد سلطة الأتاه. والحال أن العثمانيين الأنشط في هذا التحرك هما البكري والمهدي. ويختتم نوحا رسالته بما يلي : « لقد دعوت أعضاء الديوان بالفعل إلى الاقتصار على ممارسة وظائفهم، ولرجوع، أيها الجنرال، أن تصدر أمراً إليهم بذلك وإلا فإن الأتاه لن يرتاح أبداً » . (B 6 110)

JABARTI, 9 rabi al awwal 1214.

- ١٣٥

١٣٦ - B 6 28 ، الديوان إلى نوحا (٢٣ تيرميدور - ١٠ أغسطس ١٧٩٩) ، « طلبنا رسالتكم التي تبلغنا بخبر الاستيلاء على حصن أبو قير والملاهيضات التي أحاطت به. لقد أدى هذا الخبر إلى عظيم فرح الديوان [...] . وقد ترجمنا رسالتكم إلى العربية وهي موجودة في المطبعة منذ البارحة. وبمجرد حصولنا عليها، سوف ننقلها إليكم. وإذا ما وصلكم رسالة ما من القائد العلم، فإننا نرجوكم أن تقوموا بإرسالها إلينا على الفور حتى يكون فرحنا تلياً بالوقوف على نجاحه وحتى نجد عزاءاً من غيابه. حفظكم الله » [أمننا ترجمة النسخ من الفرنسية لتعذر الوصول إلى الأصل العربي. - المترجم] .

١٣٧ - *Victoires, conquêtes, désastres, revers et guerres civiles des Français de 1792 à 1815*, Paris, 1818, XI, pp. 21 - 22. L'auteur de la partie concernant l'expédition d'Égypte est un ancien officier de l'armée d'Orient.

Napoléon fera lui - même l'analogie pendant cette bataille; - ١٣٨

général comte DE SÉGUR : *Histoire et mémoires*, Paris, 1873, II, p. 474 :
"En un instant nous vîmes ce miroir, blanchi par les frimas, se noircir de la multitude éparse de fuyards aventurés sur ce dangereux appui, que brisaient sous leurs pas nos boulets impitoyables. A cet aspect, l'Empereur, resté sur les hauteurs, s'écria : C'est Aboukir!".

Vivant DENON, p. 220.

- ١٢٩

Sidney Smith à Nelson, le 2 août 17799 et causes de la défaite - ١٤٠

d'Aboukir (sans date), BARROW, I, pp. 364 - 369.
العثمانية تصل إلى ثلاثة أضعاف تقديرات سيدنى سميث. وكما يشير هذا الأخير في رسالة أخرى إلى نيلسون، فإن العثمانيين لم يكونوا يعرفون صدمع الحليلى : ألم يكن الأتراك يعرفون أي شيء عن أعدائهم، وكانوا يقاومون كل المحاولات الرامية إلى التنظيم، الذي قد يؤدي إلى الامتثال للانضباط (BARROW, I, p. 379)

١٤١ - يقدم كتاب التاريخ العلمي هذه الرواية من اللقاء : إن الإنجليزى اقد تطول مع الجنرال مونغوم للفتوحات المباشرة واسهب في التحدث إليه عن الخطر الذي تواجهه فرنسا، وخيبات الكهرباء التي منيت بها للتو، والمستقبل الخطر الذي يحلق بها، ثم اتجه إلى الحديث عن استعمار مصر وعن قلة أهميته بالنسبة للجمهورية الفرنسية في الأزمنة الراهنة، وأخيراً، وعلى سبيل تلخيص كل شيء، انتهى إلى دعوة الجنرال إلى التخلي من فتحه حتى يتمكن من الذهاب لاسترداد إيطاليا من الروس. وقد تظلمر بونابارت بالانزعاج؛ ولكنى بطلب إرجاء المفاوضات إلى حين هونت من رحلة سوف يقوم بها في مصر العليا (VI, P. 264). ولابد من الإشارة إلى أننا نجد بين محردى الكتاب تروملان الذي كان، تحت اسم بروملى، أحد المقربين من سيدنى سميث. وقد شاركه في الإنزال في أبو القهر وورد اسمه في النص قبل ذلك بقليل.

١٤٢ - نقلاً عن Georges DOUIN, "Le retour de Bonaparte d'Égypte en

France", *Bulletin de l'Institut d'Égypte*, XXIII 1941, pp. 184 - 216.
للقال، غير المشهور، يعتبر أساسياً لفهم هذا الحدث مثار الجدل. وقد تمكن بوان، صبر تعليقاته مختلة، من استنتاج أن جون كيث قد أبلغ بوظفارت بأن حكومة الإدارة قد استلمته رسمياً، بل وأضاف أنه سوف يحصل على قيادة جيش إيطاليا. والواقع أن هذه الشائعة الأخيرة قد راجعت في الأوساط الدبلوماسية البروسية وكان بالإمكان من الناحية الفنية لطلاع سيدنى سميث عليها.

Histoire Scientifique, VI, pp. 273 - 275.

- ١٤٣

Correspondance..., V, pp. 723 - 726.

- ١٤٤

١٤٥ - BERTRAND, I, pp. 96 - 97. الأوجه أنهم كانوا أقل من ذلك إلى حد ما. وفي

التو والحال، فإن بوسمهم لئله خدمة في حالة صدام مع سفن إنجليزية.

١٤٦ - Ensemble des textes dans LA JONQUIÈRE, V, pp. 593 - 606. إن استخدام القنوم الجريجوري غريب (شهر مايو) ، ويبدو أن ذلك يشير بوضوح إلى أن القنوم القوي، حتى في حالة بونابارت، لم يكن قد أصبح الإيداع الحقيقي للزمن.

١٤٧ - *Histoire Scientifique...*, VI, pp. 292 - 293.

١٤٨ - سينتني سميت إلى نيلسون، ٨ نوفمبر ١٧٩٩ ، لقد اقلت الهارب بالعبودية من القيسوس ومن وحدة الأسطول التركي التي كانت مرابطة غربي الإسكندرية، تحسباً لرحيله، بهدف امتلاك سبيله، والأهم من ذلك بكثير، بهدف الحيلولة دون وصول إمدادات من فرنسا إلى مصر. ومن سوء الحظ بالنسبة للهدف الأول، أن القيسوس قد تأخرت لأيام قليلة في بحثها عن اللؤلؤ، وذلك من جراء عناد الوالي التركي في بلقا في حجه لإمدادات كان هناك وعد بالحصول عليها. وقد جرى إخبار الباب العالي بمصلك وسوء يتم التحقيق فيه على النحو المناسب، (BARROW, I, p. 380).

١٤٩ - Georges Douin, dont je suis ici l'exposé, a dépouillé tous les journaux de bord des navires de guerre anglais présents en Méditerranée dans la période considérée.

١٥٠ - CHATEAUBRIAND, *Mémoires d'Outre - Tombe, III^e partie, Vie de Napoléon, l'Expédition d'Égypte.*

الفصل السابع

كليبر

نقل التركة

سقط حوجا

يرجع كليبر إلى دمياط بعد فشله في الاجتماع مع القائد العام، وبحسب تعبيره، فإن «المصفر قد طار من العرش». وهو لا يعرف بعد أنه قد عينه خلفا له. ويبلغه ميتو بذلك في ٢٤ أغسطس ويحصل بدوره على اعتماد قبيلته للبحيرة وللشمال الغربي. وفي التو والحال، لا يعترض كليبر على رحيل بوناپارت، إنه يعرف للجازقات التي تتطلبها اجتياز البحر للتوسط، لكنه يشعر بالصدمة تجاه الشكل السري للرحيل (١).

ويسارع القائد الجديد إلى التوجه إلى القاهرة لتولى قيادة جيش حرم بصرية واحدة من جزء ملحوظ من قاعدته. وهو يصل إلى العاصمة في ٢١ أغسطس ١٧٩٩. وكان حوجا قد كفل النهاية المؤقتة بكفالمته للمعبودة. لكن كليبر يجد فيه شخصا غاضبا على بوناپارت. القائد القاهرة لم يجر إبلاغه بقرار قائده ولم يصدق هذا القرار حتى اللحظة الأخيرة، بل وقام بتكذيبه في أمر يومي، مهندا كل من يروج لهذه الشائعة بمعاملة معاملة العصاة. إلا أن ما يجعله ممرورا ليس واقع أنه قد جرى الهزء به، حوجا يشعر أنه ضحية لمتهمان حقيقيين للثقة من جانب شخص كان يكن له الاحترام (٢). فهناك على طلب من بوناپارت جاء هذا القائد العسكري الذي يلتزم من الستين من العمر (ولد في عام ١٧٤٤) إلى مصر، مضحيا بمنصب جديد (كان قد انتخب لتوه نائباً) وتاركاً أسرته. وهو غاضب لأنه لم يك من الفريق المصير من المميزين الذين رحلوا مع بوناپارت. وقد جرى تركه في القاهرة لأكثر من عشرة أيام، مع هيئة أركان تعرضت للفوضى من جراء رحيل بيرتنيه ومع خدمات ملية مشلولة،

«لم تعد هناك هيئة أركان هامة، والتزود بالكساد متوقف، والأموال قاصدة، وآكن

الصرف ليست لديه موارد لتسيير خدماته. وربما لمكن لعدة أيام في وضع مماثل أن تلحق ضرراً لا يمكن إصلاحه... [...] ولنا لرفق هذا نسخة من المعلومات التي تلقيتها من سوريا. وعلى الرغم من أنها لا تشير إليه إلى خطر جد ملح، فإنها تسمح بتصوير حشد يمكن التعجيل بتحريكه اعتماداً على الأثر الذي يمكن أن يحدثه رحيل بونا هارت. [...] ولا يجب أن نهمل شيئاً حتى يتسنى لنا التصدي له على نحو جيد. إننا ننتقصنا الأسلحة، وإن كان بوسعنا إنتاج شيء منها في الجزيرة، كما ننتقصنا الجمال لنقل لخنثر للنفعية، وننتقصنا القنابل وينتقصنا أخيراً البازو، ما لم يجر على الفور تنشيط المنشأة للجزيرة بالفعل لإنتاج ذلك؛ والأوامر الضرورية لكل ذلك لا يمكن إصدارها إلا من جانب قائد عام (٢).

تولى كليبر لمنصبه

يُرمز وقع تولى كليبر لمنصبه إلى حسن اختيار القنصل الأول. فقد تم تخليفه بالفعل على الرحيل تخليفاً واسعاً لدى الجنود بشعبية كليبر جد الضخمة وأمكن وقف انهيار المعنويات. وترى غالبية الجنود في رحيل بونا هارت اعترافاً باستحالة إقامة دائمة في مصر دون إرسال عون ملحوظ (١). أما كليبر، الذي يعرف أن الجيش قد مل وجوده في مصر - لأنه هو نفسه ليس بعيد من أن يرى، منذ تلك اللحظة، أن إطالة أمد الحملة لم يعد بوسعها أن تعود بشيء على الوطن - فإنه يتكلم في أمره اليومي الأول باللغة التي يتمنى الجنود سماعها :

«أيها الجنود،

«إن نوافع قهرية قد دفعت القائد العام بونا هارت إلى السفر إلى فرنسا.

«والحال أن الأخطار التي تمثلها ملاحقة تتم في فصل غير ملائم تقريباً، في بحر ضيق ومغطى بالأعداء، ما كان بوسعها أن توقف هزمه؛ فهو يسأل من أجل خيركم.

«أيها الجنود، إن عوناً قوياً سوف يصل إليكم، وإلا فإن صلحاً مجيداً، صلحاً يليق بكم وبأعمالكم، سوف يعينكم إلى وطنكم» (٢).

وهكذا، فمُنذ اليوم الأول، يتصور القائد العام الجديد إمكانية العودة إلى فرنسا، وهو ما يعزز شعبيته. كما أنه يهتم بتأمين معاملة متساوية في دفع الرواتب. وهو يعلن رغبته في استقبال مندوبي الأعداء الذين يجيئون لعقد اتفاقات لتبادل الأسرى مع إبداء

لارتياحه في الدوايا الإنجليزية، إذا ما أخل أي مندوب بمهمته وأحدث في صفوف الجيش أو في البلد استعرازا غائرا ما للتكليب على الانشغال أو على التمرد، فسوف يعتبر منذ تلك اللحظة بلحاظ من تهديد عملاء أو زعماء الخائفة، وسوف يفتق في الساحة على أول شجرة (٦).

والتأثير على المصريين، يهدى القائد العلم أسلوب تصرف قائم على القوة والهيبة. وفي مناسبات خروجه على الملأ، يحيط نفسه باستعراض متفاخر صاخب، يهدف إلى التأثير على السكان. وفي مواجهة الديوان، يهجر الهذيان الإسلامي - الديوي - القومي الذي تميز به سلفه ليعد بشكل متزن بالاهتمام بخير السكان (وهو مخلص في ذلك لكن مصلحة الجيش هي بالنسبة له أول الأولويات)؛

«أنتم أيها العلماء وأنتم الذين تستمعون إلي جميعكم،

«إنني أود من خلال أعمالي الاستجابة لطلباتكم والتمسائكم، لكن الأعمال بطيئة ويبدو أن الشعب قد تولى إلى معرفة للصير الذي ينتظره. حسنا! قولوا له إن حكومة الجمهورية الفرنسية، بتكليفى بحكم مصر الخاصة، قد كلفتني على نحو خاص بالسير على وإغاثة الشعب المصري، وهذه المهمة، من بين جميع مهام قبائلي، هي الأهم على قلبي.

«إن الشعب المصري يؤسس رفاهيته على نيته خاصة؛ ومن ثم فإن العمل على احترامه هو أحد واجباتي الأساسية. وسوف أفعل ما هو أكثر من ذلك؛ إنني سوف أعمل على صون كرامته وسوف أسهم، قدر استطاعتي، في عزته ومجده.

«وبعد أخذ هذا التعهد على نفسي، فإنني لا أقدم اعتبارا يذكر للأشرار، إن أهل الخير سوف يرأفونهم وسوف يطلعونني على تحركاتهم. وبهذا يمكن للذينه والخير أن تشمل الحماية، فإن الشرير لابد من أن يرتعد؛ إن الصيف مسلط على رأسه.

«لقد كسب بوناپارت، سلفي، حقوق ولاء من جانب العلماء والمشايخ والكبراء من خلال التمسك بمسلك نزيه ومستقيم؛ وسوف أتمسك لنا أيضا، بهذا للمسلك، وسوف أسهر على خطاه وأحصل منكم على ما منحتهموه له. فلترجعوا من ثم إلى بني شعبكم ولتوحيدهم حولكم ثم قولوا لهم: «اعلمنوا؛ إن حكم مصر قد انتقل إلى أيدي أخرى، لكن كل ما يمكن أن يتعلق بعصابتكم وبرأفيتكم سوف يكون متصلا ومستمرا» (٧).

وهو يحاول التخويف وينجح في ذلك. والجبرتي يقول لك بوضوح، فالمشايخ لا

يحبونه باسماء وخرى كيوناهارت الذي نجح في إراحة جلسائه الشرقيين (٨). ويؤكد بقولا الترك: «هم لهم الانتعاش من هيبتهم والانفعال من صولته. إذا كان هذا المقدم أسفا برغام، ذا قوام وامتنال، [...] له صورة ترمض الكبود وترعب الأسود. فنزلوا من أمامه وهم في خشية من كلامه (٩)».

والحال أن عيد أول فينديمير (٢٢ سبتمبر ١٧٩٩) التقليدي، وهو بداية العام الثامن ونكوى لتأسيس الجمهورية، إنما يوضح هذا التوجه للزواج لكليبر. ففي مواجهة للشايخ، يحشد كل صولة ممكنة. وأمام الجنود، يعلن اقتراب الربيع الأخير من السامة، «لقد ساندتم الجمهورية، وللمعلم عنها بهساتكم؛ وفي الشمال، وفي الجنوب، وفي الشرق وفي الغرب، وسعدتم جنونا، أما الأعداء، الذين راحوا بالفعل، في حمى الفرور، يخططون لتقسيم مقاطعاتنا، فإنهم لم يكذبوا لهم الوقت لكي يحصبوا، مرعوبين، الحدود التي يمكن لكم التوقف عندها».

«لكن وإياتكم، يارقاق السلاح الهواصل، مكللة بكلايل الفار، وما أكثر الأعمال التي تحتاج إلى إنجاز، وما أكثر الأمجاد التي تتطلب ثمنا. لحظة مثابرة أخرى، وأنتم مستعدون لبلوغ ونيل الإنجاز والمجد؛ لحظة أخرى، وسوف تمنحون للعالم سلاماً دائماً، بعد أن حاربتموه» (١٠).

حاشية كليبر

سرمان ما تتشكل حول القائد العام الجديد جملة من الأصدقاء والشركاء للكلفين بدراسة وضع الجيش. وهذا ضروري جداً بقدر ما أن كليبر، الذي خدم أساساً في الأقاليم وسوريا، لا يعرف الملفات معرفة جيدة. وتتألف الحاشية من رجال ممتازين كنيجينييت، للحبوب والمحترم من الجنود؛ والجنرال نطلس، القائد الجديد للأركان العامة، وهو جمهوري متحمس، كان قد نخل الخدمة العسكرية في حرس لافاييت الوطني في ١٢ يوليو ١٧٨٩ (ولد في عام ١٧٦٤)؛ وهيكتور نور، الطالب للمعجزة للإبلارة (آلن الصوف العام للجيش وهو في الرابعة والعشرين من عمره) بالغ الزهو بمواهبه الحقيقية؛ وهوسيلج، المدير العام للشؤون المالية ورجل الحكومة الذي اضطر، شأنه في ذلك شأن بوجا، إلى الشكوى من عدم عرقان يوناهارت بالجميل؛ ولورييه، عالم الرياضيات الذي رأس المعهد (المجمع العلمي) والذي خدم لدى الديوان؛ وبوجا، المرتبط بكليبر باحترام وبحب متبادلين، وأخيراً تاليان، محل التربة إلى حد ما بصحب ماضيه وميله إلى النسيانس

السياسية (إن هذا الرجل الذي كان يطمح في مسار حياة عملية ثان من خلال العمل مع بوناپارت، لا يمكنه التغافل ما يعتبره تخلياً من جانب حاميه الجديد).

ويتمتع كل هؤلاء الرجال بنزاهتهم الكبرى ويكفائهم المعترف بها. وهم يمثلون الفضل ما أنتجته الثورة الفرنسية من رجال جدد مكلفين بأهم المسؤوليات. إنهم جميعاً جمهوريون مخلصون، خيب أملهم بوناپارت. ولذا فإنهم يصعدون حكماً صارماً على المحصلة النهائية لعمل الفاتح.

ولابد من الإشارة إلى أن بوناپارت، قبل زمن القنصلية، قد تكشف عن إناري متوسط القدرات؛ وبالرغم من جهات الضرائب الملحوظة التي تمت في إيطاليا، كان دفع رواتب جيش إيطاليا لا يزال متأخراً في بداية حملة مصر، وقد استخدم الأموال التي دبرتها حكومة الإدارة في تصفية متأخرات الأشهر السابقة لسلسا. والحال أن مصر أقل ثراءً بما لا حد له من إيطاليا الشمالية، وقد أوقفت الحرب على الفور واحداً من أهم مصلحي إيراداتها: تجارة الترانزيت بين قارات العالم القديم الثلاثة. والواقع أن بوناپارت، وهو يتحرك خطوة خطوة، ملتصقاً بالحرب بسبب عدم القدرة بالمنطق المصري العثماني، للعرض لمقاومة السكان للسلطة والتي تعد القوة الكبرى للمصريين في مواجهة الدولة، كان مضطراً إلى مواجهة المهمة للرفعة للتمثلة في تأمين احتياجات جيش، وإعادة تجهيزه بشكل يكاد يكون تاماً، مع إنشاء شبكة من المرافق الحصينة وإنشاء جهاز إنارة يحصل على رواتب ويحظر عليه تمويل نفسه تمويلًا مباشرًا من اللاديين. والنتيجة تدعو إلى ارتقاء. إن بيروس، الذي ترك منكرة لمينة حول أحوال الجيش المالية^(١١)، يقدر بأقل من تسعة ملايين فرنك حجم الضرائب غير العادية التي يمكن لبوناپارت جبايتها في ملطة وفي مصر، ويقدر بما يزيد قليلاً من ثمانية ملايين فرنك الإيرادات العادية في عام ١٧٩٢ للهجرة. ولابد من إضافة بعض الموارد التي لا تعرف حصيلتها كرسوم التسجيل، والعجز مثير لأن بوسيلج ونور ينفقان على التكيد لكليب، في نهاية أشهر سبتمبر ١٧٩٩، على أنه يزيد عن عشرة ملايين من الفرنكات، تمثل متأخرات الرواتب بينها أكثر من أربعة ملايين من الفرنكات (وهكذا فبينما يجري الاقتراب من العلم الثامن، تبقى رواتب شهور من العام السادس غير مدفوعة).

ومن الواضح أن عدم دفع الرواتب هو أحد المصادر الأساسية لضيق الجيش، ويعد كليب على الفور خطة سداد تدريجي للمتأخرات، تعتبر متفائلة إلى حد ما، ويجب لولا

النجاح في سداد شبه منتظم للنفقات الجارية وإعطاء الأولوية لمطالب الجنود المحليين. خاصة السرية اليونانية (١٢). وتنشأ للمصائب من الخراب الذي أحدثته الحرب. فالمعارك، وخاصة الجنود، يعمرون شالبيه للراكب التي تنقل الحبوب على النيل، إذ يستولون عليها لاستخدامها كوقود للتبليط. ولما نض مصر العليا يتعذر نقله، في جانبه الأعظم، إلى مصر السفلى، والحال أن الإقليم الأول، خلافاً للإقليم الثاني، ينفخ خسائره حيناً. وقد تسببت العمليات العسكرية في اختلال شبكة الري الجماعية وهذا هو أحد الأسباب الأولى التي جرى التقدير في اعتماد أرصدة لها. وعلاوة على ذلك، فإن فيضان عام ١٧٩٩ يتكشف أنه أقل من المتوسط بكثير (١٣)، الأمر الذي يعني زراعة لربح أقل في السنة التالية. وبما أن بونابارت قد لعب على مسكوكات النقد، مشجعاً سك عملة منخفضة القيمة، الأمر الذي عاد عليه، في البداية، بإيرانات مكية ملحوظة، فإن مصر تشكو الآن من شح نقدي، حيث تطرد العملة الرديئة العملة الجيدة. ويقدر بوسيلج إيرانات الأشهر التالية بما يتراوح بين مائتي ألف وثلاثمائة ألف فرنك في مقابل مليون وثلاثمائة ألف فرنك للمنطقة.

وهذه الخسارة للمال يمكن أن تكون قاتلة. إن للوردوين الأوروبيين والمصريين يكفون من بيع الأغذية التي يستهلكها الجيش بالخسارة. وسلاح الفرسان يعوزه الشعر والتبن ويجازف ببساطة تامة بالاختفاء. وأعمال التحصين، بما في ذلك أعمال تحصين العريش، تتوقف من الناحية العملية من جراء عدم وجود أموال لنفع أجور العمال والتحصينات التي أنشئت في ظل بونابارت يتكشف أنها تهتز، ولا تقاوم بوجه عام آثار فيضان النيل. والمنفعة لتفتقر إلى البارود. والجنود بلا أحذية ويزاتهم ليست في حالة جيدة. أما البحرية فقد خسرت كل ما كان قابلاً للاستخدام فوراً مع عوامة بونابارت ويتوجب بذل نفقات ملحوظة للامتاع بسفن مستعدة للخدمة. ويسبب غياب الأموال، تهازل المستشفيات بالتوقف عن العمل. والمهاجر الصحية في حالة يرثى لها، الأمر الذي يجعل تدهور الحجر الصحي جد مريعة. والمسؤولون الصحيون يدعون أن الوصيلة الوحيدة للنضال، في حالة ظهور وباء الطاعون، هي اصحاب الجيش فوراً من المنطقة للوبوء.

استهانة زمام الأمور

وخلال كل شهر سبتمبر ١٧٩٩، لا يتوقف الوضع المالي للريخ للجيش عن مفاجأة كليبر. فمن كل حطب وصوب، تجري مطالبة بأموال لأسباب وجيهة، حيوية غالباً بالنسبة

للمستقبل. وعلى الفور، يتخذ إعلان تنظيم إدارية، موجهة إلى إحلال التمسك محل الفوضى التي تركها يونانبارت. وترمز الأوامر اليومية الصادرة في ٢٨ فيبرواي من العام السابع (١٤ سبتمبر ١٧٩٩) إلى بداية الإصلاح؛ إن مصر يجري تقسيمها إلى ثمانى دوائر. وفي كل دائرة، يوجد وكيل فرنسي وأمين قبطي ولأول مرة، صراف، يشرف على جميع جبايات الضرائب ويحول على الفور جميع الأموال للجهة إلى الصراف العام في القاهرة، والهدف المنشود هو القضاء على كل معضلات محلية:

«إن أي أمين قبطي أو وكيل فرنسي يتبين أنه قد قام ببيع، ولو كان لا يزيد عن خمسة فرنكات، دون إذن من الصراف العام، أو يتبين أنه قد احتفظ عنده بأموال لمدة تزيد من أربع وعشرين ساعة، سوف يجري عزله وسوف ينفذ غرامة قدرها ثلاثة آلاف قنار» (١٤).

وسوف يجري إعداد دفتر للقوى والضرائب وإمساكه بصورة منتظمة على نحو تلجئ سعيًا إلى التمكن من الوقوف بشكل دقيق على موارد البلاد (١٥). وبما يشكل قراراً له آثار أكثر أهمية، فإنه يلغى الالتزامات الأخيرة؛ «لا يجوز تأجيل أية قرية على شكل التزام بالنسبة لعام ١٧٩٤، وجميع حجج التأجيل التي يمكن أن تكون قد صدرت بالفعل في هذا الصدد تعتبر باطلة ولاغية. [...] وسوف يسهر قادة الدوائر بشكل خاص على تنفيذ (هذه الأوامر) ويأمرون بإلقاء القبض على ومعاينة كل أولئك الذين يحاولون - بصفة ملتزمين - جباية ضرائب ما، في كل أرجاء ديارهم» (١٦).

وقبل تنفيذ إعلان تنظيم أعمق بكثير للإدارة المصرية، يقرر كليبر إجراء استقصاء منهجي بشأن جميع لدور إدارة الجيش ومصر من زاوية الإيرادات والنفقات، لكننت عينية لم تلبية. وعلى لجنة هذا الاستقصاء، للؤلؤة من سبعة من كبار مديري الجيش، إجراء مراجعة لأعمال العمليات المالية منذ مغادرة طرابلس. وسوف يجري نشر نتائج هذا الاستقصاء بمجرد إنجازه (١٧).

وسعيًا إلى جعل إدارة الشؤون المالية أكثر كفاءة، ومعارية الفساد الدائم في جهاز الموظفين هذا، يجري كليبر مركزة للقرارات لحساب القاهرة. ويجري اختزال سلطات الجنرالات قادة الأقاليم، وخاصة في مصر العليا. ويحتج مينو على هذا التجريد، لكنه يفضل البقاء في وشيد، بدلا من الذهاب إلى الإسكندرية، للواقع العسكري الرئيسي لدائرة. ومرة أخرى، يبدو كل ما يتميز به من انعدام للدينامية لكي لا ينفذ أوامر القائد

العام الواضحة. وفي مصر العليا، يتعزز الحد من سلطات بيزيه بالترقية (المشروعة) للريان إلى رتبة قائد فرقة، مع تولي قيادة مصر الوسطى (اتحادهم المنها وبني سويف والفيوم) (١٨). ويشكل تلك الخطوة الأولى نحو عودة بيزيه إلى القاهرة، ففي لواخر سبتمبر، يستدعيه كليبر لتولي قيادة فرقة في شرق ليبيا لمواجهة جيش الصدر الأعظم الذي يقترب من مصر. وفي ١٧ أكتوبر، يصل بيزيه إلى القاهرة، كسفا لعدم نجاحه في القضاء على خصمه الكبير مراد بك الذي يكن له احتراماً كبيراً. ومرة أخرى، في لواخر سبتمبر ١٧٩٩، تنجح القوات الفرنسية في استدراج مراد بك قرب الفيوم بفضل استخدام لوج ولكبي الجمال. ويشن المماليك هجوماً ويحطمون ثلاث مرات بالمربع الفرنسي الذي يقوده الجنرال للمساعد بوليه. وفي ٢٢ أكتوبر، يعبر مراد بك النيل لينفل إلى الصحراء العربية. ويتظاهر بالاتجاه إلى السويس، ثم يتحول جنوب مصر العليا، موزعاً في سيره بيانات الصدر الأعظم وفرمانات الباب العالي التي تحض السكان على التمرد، دون أن يحرز نجاحاً كبيراً مع ذلك (١٩).

الخطوة كليبر

بالرغم من جميع هذه التنازلات، والتي تتطلب وقتاً لكي تؤتي نتائج إيجابية، يبلى كليبر من مستقبل الفرنسيين في مصر. وفي تلك اللحظة يتعاظم ضغطه على بوناپارت الذي يعتبره مسؤولاً عن هذه الورطة الراهية، ويتضاعف كل شيء بانزعاجه على مصير فرنسا، فهو لم يتلق انتهاء من أوروبا منذ تلك الأنهاء التي أبلغه بها بوناپارت لتحرير رحيله. وعندئذ فإن استثمار الحملة يبدو له شيئاً عبثياً. فالفرنسيون، بسبب عدم وصول تعزيزات، لا يملكون إمكانيات للبقاء، كما أن الوطن في خطر. ومن ثم فإنه يجب التفكير في جلاء مشرف يسمح بعودة جيش من المضمومين إلى ساحات المعارك الأوروبية. وكما أن بوناپارت قد بدأ بنية حكومة الإنارة في استديانها، فإن كليبر، في الظروف نفسها، يرى وهو على حق أن الحكومة تود عودة الجيش.

وسوف يبالغ عن هذه القضية في سلسلة بأكملها من الرسائل التي يأمر بإرسالها إلى فرنسا في لوائل فينديمير من العام الثامن (الأيام العشرة الأخيرة من سبتمبر ١٧٩٩). ورسائله الموجهة إلى حكومة الإنارة، والتي سوف يطلق عليها بوناپارت في سانت هيلين، ليست غير مريضة اتهام طويلة لسلفه (٢٠)، لقد انخفض الجيش الفرنسي إلى

نصف لوته الأصلية؛ وهو عار ومنهك وضحية للأمراض؛ ولابد من توقع هجوم مشترك من جانب العثمانيين والروس والإنجليز، كما أن للماليك لم يقض عليهم؛ ومن شأن بدء مفاوضات مع العثمانيين أن يسمع، في أسوأ الأحوال، بكسب وقت، و، في أحسن الأحوال، بالتوصل إلى تأمين بقاء الفرنسيين إلى حين عقد الصلح العام، مع الاعتراف بسيادة الباب العالي وفتح الخزانة السنوية (وهو وضع جد مماثل في نهاية الأمر للوضع الذي سوف تعرفه مصر من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩١٤).

ويرفق كليبر بهذه الرسالة رسالة من بوسيلج تصف حالة الشؤون المالية في مصر بما يبرز استحالة الأمل في موارد إضافية، ورسالة أخرى، من صراف الجيش استيف، تكشف شبه الإفلاس المالي لجيش الشرق. وسوف يكتب تاليان بعد ذلك بوقت قصير، إلى باراً مباشرة، في الاتجاه نفسه.

وهذه الرسائل، بالرغم من أنها قد كتبت في فينديمير، لا تخرج من الإسكندرية إلا في ١٢ برومير من العام الثامن (٤ نوفمبر ١٧٩٩). ويجري اعتراض سبيل السفينة قرب طولون من جانب الإنجليز ويرمى حامل البريد الرسائل إلى الماء بعد قيامه بوضعها في منديل مربوط بالقنينة. لكن القنينة تمزق نصيب المنديل، وتطفو الرسائل على وجه الماء. ومنعقد ينتشلها الإنجليز الذين يرون فيها تأكيداً لرأيهم، إن جيش الشرق هو من أضعف الجيوش. ويسارع البريطانيون إلى نشر هذه الرسائل لكي يوضحوا لأوروبا والفرنسا الحالة التي ترك فيها بوناپارت جيشه (٢١).

لكن سيدني سميت يجد بالفعل متعة في أن يرسل إلى كليبر صحفاً إيطالية تورد الهجمات، التي ثارت في المجالس، على سياسة حكومة الإدارة بوجه عام، وعلى حملة مصر، بوجه خاص. ويطلب كليبر الهلع تجاه تعارض القبلات السياسية وينشر في صحيفة لوكوربيه دولهيهيت الجانب الرئيسي من المناقشات. وهو يريد بذلك إضعاف مواقف أنصار بقاء الفرنسيين في مصر. ومن ثم يمكن للجندوة قراءة التصريحات النارية التي ينلى بها النائب ريل في مجلس الخمسمائة،

أيها المواطنين النواب، مما لا جدال فيه أن انتهاك الأراضي العثمانية، الذي تم من خلال حملة مصر، هو المصدر الرئيسي للمصائب التي يواجها الوطن، فهو الذي جر الأتراك إلى الانضمام إلى الائتلاف الجديد وأتاح للنمساويين والروس، الذين تخلصوا من كل انزعاج تجاه تلك الدولة، أن يرسلوا من ثم ضمتنا قوات أكثر تفوقاً، وما يزال بوسعهم

أن يرسلوا قوات حتى كفر رجل. إن حملة مصر، التي جرى الاضطلاع بها برغم أنف الدستور والتمثيل القومي، هي من ثم للمؤامرة الأكثر واقعية والأكثر خطورة التي ما تزال قائمة ضد الأمن الداخلي والخارجي للجمهورية. [...] ألا ترى في الواقع هنا نظاماً جلياً مع الانتلاف ومشروع تسليح كل الأرض ضدنا. ولكن هل تريدون تهديد هذه المؤامرة [...] هل تريدون دفع الروس إلى العودة إلى بلادهم؟ لعقدوا الصلح مع الأتراك [...] وضحووا لهم أن الأمة الفرنسية لا تقبل العنف الذي ارتكب ضدهم... .

وينشر العدد نفسه بيان الجهاز التشريعي إلى الشعب الفرنسي والذي يدعو إلى الفضل ضد الفرواوشيك للتراب الوطني (٢٢).

ويعمل سهدنى سميت على نشر بياناته للقوضة للروح المعنوية على أيدي المالكين أنفسهم الذين يوجهون رسائل مكتوبة بالفرنسية إلى المحتلين، واعدن إياهم بالعودة إلى فرنسا إذا ما استسلموا أمام الجيش العثماني الذي يماثل في العدد عدد حبات رمل البحر. ويتصنع الجنرالات احتقار هذه المناورات التي يعزونها محقين إلى العميد البحري (٢٣).

الإنزال في دمياط

في الساحل الشرقي للعلتا، حل محل كليبر فيردبييه، الذي يفوز هناك برتبة قائد فرقة. وهو يتولى المهمة الصعبة التي تتمثل في تأمين اللواصلات مع حصن قطية والعريش (٢٤). وسعياً إلى ذلك، يستخدم للساعي الحميدة لحسن طوير الذي يسمى الآن إلى تقديم نفسه في صورة الصديق الأمين للفرنسيين؛ وهو يشكل لهم شبكة لاستخبارات لجمع المعلومات من سوريا ويبلغهم بالرسائل التي يتلقاها من العثمانيين (٢٥). ويواصل هؤلاء الأخيرون الارتباب فيه (٢٦). ومع ظهور العناصر الأولى للجيش العثماني الكبير في فلسطين، فإن شرق العلتا يصبح منطقة ذات أهمية حاسمة.

وكان سهدنى سميت قد اختار، بالرغم من عدم ملائمة للوسم، تنظيم إنزال عثماني قرب كفر دمياط في أواخر أكتوبر ١٧٩٩ (٢٧). وهدفه هو مواصلة الضغط على الجيش الفرنسي بملحه إلى إخراجك أنه من شرط الانتصارات لن يكتب له الوجود، وأن الجلاء الفضل (٢٨).

ويورد فيرندييه بسرعة على التهديد العثماني، وفي أول أكتوبر، على رأس قوة قوامها ألف رجل، يشن هجوماً بالحرب على الإنكشارية. وينتهي هذا الهجوم للتهور الاتحادي بانتصار رائع، ويجري إلقاء العثمانيين في البحر بخسائر جد جسيمة.

لكن الانتصار - بما يشكل علامة على ذلك الزمن - يتلوه على الفور عصيان إحدى الوحدات التي شاركت في المعركة، فهي تطالب برفع متأخرات وواتب عدة أشهر. وينقل فيرندييه للطلب، لكن كليبر لا يبدى مرونة. فسعى إلى تقديم عبرة، يحل شبه اللواء (بما يشكل إجراءً متطرفاً، لأن الوحدات تعتز اعتزازاً جد بالغ بوحدتها)، ويأمر بمحاكمة قادة التمرد عن طريق مجلس عسكري. وسوف يعاد تشكيل شبه اللواء بعد ذلك بوقت قصير، بعد عملية تطهير. وبالنسبة لكليبر، فإن التحذير واضح: إن الجنود قد نكس صبرهم والجيش على حافة التمرد العلم، ولم يتم احتواء التمرد الآن إلا بسبب الحب العميق الذي يكنه الجنود له.

* مصطفى مصطفى

إذا كان كليبر قد توصل بسرعة بالغة إلى إدراك أن الحملة قد منيت بالفشل، فإنه يظل عميق التمسك بمكسبها الأكثر نولاً، العمل العلمي. وشك في ذلك شأن بيزيه ودينيه، فإنه يحب صحة العلماء وهو لا يرجع لحياله في القائمة الأولى لأعضاء المعهد (المجمع العلمي) إلا إلى رفض بوناپارت لإشراك اللجنة الفرق (٢٩). ويجري إصلاح هذا الخلل في ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ عندما يصبح كليبر وبيزيه ودينيه أعضاء في المعهد.

ويتواصل اكتشاف مصر. وبعد عودة فيقلان دينون من مصر العليا، فإن لجنة من العلماء، يرأسها فيرندييه وكوستان، تمل محله للاضطلاع بعمل منهجي أكثر، صار ممكناً بفضل للتهنئة التي قام بها بيزيه. ويرجع للجانب الرئيسي من الاكتشاف الأركيولوجية إلى صيف وخريف ١٧٩٩. والحال أن كليبر، قبل تعيينه قائداً عاماً، كان قد وصل به الأمر إلى حد التفكير في المشاركة في هذه الأعمال (٣٠).

وعشية معركة أبو قير البرية، فإن القائد بوشار، المكلف بإجراء تحصينات في رشيد، يكتشف حجراً يحمل نقشا ثلاثي اللغات، من بينها الهيروغليفية والحروف اليونانية. والد ابنك العلماء على الفور أهمية هذا الحجر الذي عثر عليه في رشيد. ويخطو

ريج ومارسيل خطوة كبرى أولى في لك لغز الحجر بتوضيحهما أن الكتابة الثالثة التي يشار إليها على أنها «غير معروفة»، هي المصرية القديمة المكتوبة بحروف عالية صريحة (٣١).

ويهتم فورييه بالشباب إبراهيم الصباح، حفيد الوزير السابق لظاهر العمر، والذي يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً. وكان كافاريللي قد تعلق به وبدأ في تعليمه اللغة الفرنسية والجغرافيا والرسم. وهو يعمل كأمين مكتبة مسؤول عن الكتب العربية وكتراجمان للعلماء. وكان فورييه ومونج وبيرتوللي قد فكروا في إرساله إلى فرنسا حتى يستكمل تعليمه. وسوف يوافق كليبر على التصريح له بذلك (٣٢). والواقع أن الشاب سوف يلحق بالجيش في فرنسا وسوف يكتب بالعربية تاريخاً لظاهر العمر (٣٣). ومن المرجح أنه الشاب الشرقي الوحيد الذي تلقى تعليمًا أوروبياً خلال حملة مصر. ولابد من الإشارة إلى أنه كان أيضاً كاثوليكيًا يونانيًا.

ويتمثل أول تجديد كبير من جانب كليبر في إضافة لجنة جديدة مكلفة بدراسة مصر الحديثة إلى اللجان التي تدرس مصر القديمة. وهذه اللجنة، التي تتكون في ١٩ نوفمبر ١٧٩٩، تتلف، بين آخرين، من نهجينييت وفورييه وثليان وروزيتي ودوجا. ووجود جميع هؤلاء المقربين إلى كليبر إنما يوضح تماماً الأهمية التي يوليها لها. إن جميع جوانب مصر الإسلامية وأردة في البرنامج التشريعي، الأعراف المدنية والدينية، الإدارة، الشرطة، الحكم والتاريخ، الحالة العسكرية، التجارة والصناعة، الزراعة، التاريخ الطبيعي للسكان، الآثار، النقوش والأزياء، الجغرافيا والهيدروليكا (٣٤). وهدف اللجنة يتم عن اهتمام بتطبيق من جانب كليبر بالمؤرخين. إن عليها «إعلاء الأجيال القائمة من البحث، تحت إطلال القرون ولي بحر التخمينات، مما كانت عليه مصر في الزمن الذي انتقل فيه الفرنسيون من الملكية إلى الحكم الجمهوري» (٣٥).

ولا يسمح كليبر لنفسه بأن تستولي مصر القديمة على جماع فكره : فهو يفكر في مشروع عمل علمي ضخم يتناول أيضاً كافة الجوانب الأخرى لمصر، وسوف يشكل للعلماء فريقاً تعارونياً. أما التاجر هاملان الذي كان كليبر قد استدعاه من مصر العليا - كان بونابارت قد سمح له بشراء الضرائب العينية في مقابل دفع نقود مباشرة لخزائن الجيش - فإنه يتعهد بتقديم الأموال الضرورية للطبع والنشر (٣٦). ويتم اتخاذ القرار التأسيسي في ٢٢ نوفمبر ١٧٩٩، ويمكن اعتبار أن الأكراسي هو بالفعل لب هذا الأثر

الأبى الجديد بالاسم الفرنسى، وصف مصر (٣٧). ويوسعه أن يكتب بالتخار فى ٨ يناير ١٨٠٠ إلى حكومة الإنارة،

والقد جرى إصطلاه اهتمام خاص لوصف مصر القديمة. والحال أن الخرائط الطوبوغرافية والرسوم التصويرية والخرائط ورسوم العمارة سوف توضح هذه الآثار لأوروبا؛ وترتبط بذلك بحوث جد مسهبة من التاريخ وعلم الفلك والفنون ومماثلت للمصريين القدماء. وقد طلبت جمع كل أجزاء هذا العمل الأخير للتميز بطبيعة الحال من الملاحظات الخاصة بمصر الحديثة. إن رجال الألب والفنانيين الذين يملكون هذه المجموعة مستعدون لأن يجعلوا عملهم متاحاً للجميع تحت إشراف الحكومة، وهم يجدون، فى الاتحاد الذى شكلوه، إمكانات التكفل بنفقات النشر. وهذا المشروع الأبى الذى سوف ترحب به كل حكومات أوروبا، سوف يكون محل تقدير كبير فى بلد تشجع فيه الحرية جميع الفنون. والكتاب الذين يؤلفون هذا العمل التجميعى إنما يتطلعون إلى شرف منح عملهم طابعاً قومياً، وهم يعرضون مشروعاتهم عليكم بشكل محدد.

إن الأبحاث المتعلقة بالحالة العامة والحضارة المصرى إنما تقدم موضوعاً مهماً للفلسفة والسياسة، للقوانين والعادات والتاريخ والحكم والصناعة والتجارة وإبداعات هذا البلد تستحق دراسة أشمل بها لا يمكن انتظارها من الرحالة الفرنسيين أو الأجانب الذين سيقفون، وقد جمعت الأشخاص الذين يدعون إلى أكثر ملائمة للتفلسف فى هذا العمل، ومنحتهم كل السلطة والإمكانات التى يحتاجون إليها، (٣٨).

اتفاق الهريش

بعثة نيكورش

مع نها وصول بوناپارت إلى فرنسا، اخذت حكومة الإنارة إرسال مبعوثها المكلف باستئناف المفاوضات مع العثمانيين، نيكورش دو سانت - كروا. ومن الواضح تماماً أن بوناپارت يقدم صورة متفائلة نسبياً لوضع جيش الشرق. وهو يوافق على مشروع بعثة نيكورش، ويدعو إلى إرسال تعزيزات (يجري قبول ذلك من حيث المبدأ على الرغم من الافتقار إلى القوات والمال والسفن)، ويحدد ما كان قد أملاه على كليبر، عقد مفاوضات مع العثمانيين بهدف كسب الوقت، وتقسيم وعد لهم ببرد مصر عند عقد الصلح الشامل والاحتفاظ بها حتى تلك الحين كأداة موازنة تجاه إنجلترا (٢٩).

وتجرى تسمية نيكورش بموجب قرار سرى لحكومة الإنارة في ١٤ برومير من العام الثامن. وهو يتركب على العمل فوراً، وفي ١٨ برومير يكتب مشروعاً لعرضه على الحكومة حول النهج الذي يجب اتباعه في المفاوضات. وفي اليوم نفسه (٩ نوفمبر ١٧٩٩) يبدأ انقلاب بوناپارت. ويتعرض كل شيء للتهديد ولن يجد نيكورش اعتماداً لبعثته من جانب القناصل إلا في ٧ و ١٢ فريمر من العام الثامن. ويتوجب إرساله إلى مصر والاهتمام بإجراء مفاوضات مع العثمانيين. ويعرف بوناپارت، الذي يجمع في يديه الآن كل السلطات، أنه سيكون من المستحيل قبل عدة أشهر إرسال شيء آخر إلى جيش الشرق غير الكلمات الطيبة وذلك بقدر ما إن الإسمهان يرفضون بإصرار أية مشاركة في النزاع في شرق البحر المتوسط. وتستند التعليمات التي يصدرها القناصل إلى نيكورش في ١٦ فريمر (٧ ديسمبر ١٧٩٩) إلى الأمانى بأكثر مما تستند إلى تحليل للعلاقات الفعلية للقوة: إن عليه اقتراح ترتيب بترك مصر الآن وإلى الأبد في قبضة فرنسا مع سيادة إسمية للباب العالي ولحق خزينة، ويجب إبقاء مصر خارج سيطرة قوة أوروبية أخرى، ولن يتم قبول الجلاء إلا إذا فقد الجيش أكثر من ألف وخمسمائة رجل من جراء الطاعون في غياب عون مهم حتى شهر فلوريال (٢١ أبريل - ٢٠ مايو ١٨٠٠). ويجب تأخير هذا الإجراء لأطول أمدة ممكنة، ويتعين فصل الباب العالي عن الإنجليز، واستعادة التجارة مع الإمبراطورية العثمانية، مع التوصل إلى فتح البحر الأسود أمام التجارة. ويجب الإفراج عن الفرنسيين الذين يحتجزهم العثمانيون، ويتوجب وقف الأعمال الحربية لمدة ستة أشهر للتوصل إلى التصديق على الاتفاقية.

ولا يتسنى للفرنسيين الأول (بونابارت) إصدار الأمر إلى بروي بالخروج من بريست موحداً الأساطيل الأسبانية والفرنسية إلا في فبراير ١٨٠٠. ويتعين عليه مهاجمة جزر البليار، ثم فك الحصار عن مالطة، وتخصيص أسطول صغير لنقل عدد من الجنود والأسلحة إلى جيش الشرق^(٤٠). ومرة أخرى يهدى الأسبان عزوفهم للعتاد تجاه هذه الحملات في البحر المتوسط، فهم يريدون قصر مشاركتهم في الحرب على النزاع مع إنجلترا. أما وجود روسيا والإمبراطورية العثمانية في عداد خصومهم فإنه - قلما - يبدو ملائماً لهم.

وفي ٤ نيفوز من العام الثامن (٢٥ ديسمبر ١٧٩٩)، يصل ديكورش إلى مارسيليا. وإذا لا يجد مئناً للذهاب إلى مصر، فإنه يتجه إلى طولون. وتقر أساطيل بونابارت من الرحيل، إنما لأن فرنسا كانت منهكة بالفعل في هذه النهاية لعام ١٧٩٩، أي لأن السلطة الجديدة كانت لا تزال أضعف مما كانت عليه حكومة الإنارة. وكان النظام السابق قد حاول قدر الإمكان الحفاظ على الاتصال مع مصر. وعلى مدار أشهر، فإن كليبر لن يتلقى من ثم إنباء من فرنسا إلا من طريق الصحف التي يجد الإنجليز والعثمانيون أن من المناسب توصيلها إليه.

تدشين المفاوضات مع العثمانيين

ما إن يدرك كليبر حالة الانحطاط التي تميز الجيش، فإنه يفكر في استئناف للمبادرة الدبلوماسية التي قام بها سلفه. ولما لم يك قد تلقى رداً من الصدر الأعظم، فإنه يرسل إليه رسالة جديدة. وهو يذكر بضرورة إتحاد الفرنسيين والعثمانيين ويستأنف استخدام كلام الدعاية التي ميزت الأشهر الأولى للحملة؛ فهو يوضح أن للماليك وحدهم هم أعداء الفرنسيين وأن هؤلاء الآخرين قد حافظوا على كل علامات السلطة العثمانية في مصر (وهو ملزم بعد حقيقياً بعد مبادرات بونابارت الأخيرة). ويقترح كليبر تدشين مفاوضات مباشرة حول وضع مصر، قد يكون قلب التحالفات في نهاية الأمر على حساب روسيا نتيجة لها :

إن الفرنسيين لا يخشون لا أعداءهم ولا عند هؤلاء الأعداء كما أنهم لا يخشون الحرب، وقد قدموا البراهين على ذلك منذ عشر سنوات؛ لكنهم إن خاضوا الحرب ضد

صديقهم القديم الباب العالي، فهذا يعنى انهم يخوضونها ضد انفسهم، بل اننا مضطرون إلى الأسف لانتصاراتنا، لأنها تضعف جيوشكم، التى يجب أن نتحد معها بسرعة، لمحاربة أعدائكم الحقيقيين (١١)».

ويكلف القائد العام على اغا، أمين خزانة مصطفى باشا، أسير أبو قير، بحمل هذه الرسالة إلى الصدر الأعظم، ويقدم للمبعوث تقريره إلى السلطات العثمانية ويقدم بوجه خاص روايته لرحيل بوناهارت، «لقد انتقل إلى أبو قير وتماثت تحت ثريعة ما مع سكرتير القائد الإنجليزي سميث. وقد اتجه السكرتير إلى تقديم تقرير عن المقابلة إلى القائد الذى سرعان ما رفع الرسالة وأمر بتحرك الأسطول الإمبراطورى وانتدفع فى اتجاه دمياط. ومع رفع الحصار عن أبو قير والإسكندرية، فإن بوناهارت، يتبعه خمسة جنرالات وحو ١٨٠ جندياً، قد رحل من أبو قير ولاذ بالفرار. وقد علمنا بالخبر فى القاهرة. ولا شك أن الخوف والذعر قد دفعاه إلى هذا القرار. ولكن هل تفاهم معه القائد سميث لتسهيل هربه أم إنه قد أراد خديمه لأسره بعد ذلك فى البحر وإرساله إلى للعسكر الإمبراطورى أو إلى القسطنطينية؟ هذا هو ما يجهله الباشا رئيسى [...]».

«لا شك أن بوناهارت قد هرب لكونه يرى استحالة التمكن من مقاومة قوات صاحب الفخامة الصدر الأعظم الذى لم يخطر له قط أنه مهيا للزحف على مصر. أما الفرنسيون الآخرون فإنهم فى قلق وحيرة وإندمال وربما كان ذلك هو الذى ما زال يبقوهم فى البلاد، لكنهم يحاولون فى الوقت نفسه إخفاء قلقهم. ومن السهل على أحد الاقتراب منهم والتمكن من معرفة ما يقومون به. إلا أنه يبدو، استئلباً إلى ما يمكن تحصيله من خلال التخمينات ومختلف الروايات وجانب من تحركاتهم، أنهم لن يبقوا لحظة واحدة لو كان ساحل الإسكندرية وأبو قير خالياً من الصلح الإنجليزي والعثمانية» (١٢).

والحال أن تحرق كليبر إلى بدء للمفاوضات، وتقرير أمين الخزانة والوقوف على الانحطاط العام لمعنويات الجيش الفرنسى إنما تبين للعثمانيين أنهم فى مركز قوة، وهم لم يخطئوا فى ذلك، على بداية شهر أكتوبر، يرى كليبر أنه لا يتمتع إلا بقليل من القوات بحيث لا يمكنه مواجهة الجيش العثمانى الكبير :

«مهما فعلت، فإننى لا يمكننى حشد ٧٠٠٠ رجل ضد جيش الصدر الأعظم الأخذ فى الزحف، إن فرقة وينيه قد تركت هنا وحدها، قبل رحيله إلى بلبيس، ٩٠٠ رجل غير قانون على الدخول فى معركة، وإن كان قد جرى مع ذلك التعامل معهم على أنهم

موجودون تحت الصلاح، والشئ نفسه ينطبق على الفترة الأخرى. وقد أحدثت أمراض الرمد كوارث مرعبة، ومن باب تعزيتي، تم التأكيد لى البازحة على أن أربعة ضباط قد ماتوا من الطامون فى الإسكندرية؛ لرجو إفاقتى بما إذا كان لك صحيحاً^(١٣)،.

والحال أن رشدى أفتدى يرجع إلى القاهرة فى ١٥ فينديمير (٧ أكتوبر ١٧٩٩) ومعه رد للصدر الأعظم على رسالة بوتنهارت، ويتكشف الرد عن هجاء لاذع للعدوان الفرنسى الذى يتم على حساب حليف وصديق، إن الجيش العثمانى لا يقهر؛ وهو، علاوة على ما يتمتع به من قوة، يتمتع بحق الأمم المشروع؛ وقد قضى الله بمعالجة الفرنسيين على المجازد التى ارتكبوها ضد فرنسيين من بنى جيلتهم بشكل يتعارض مع الشرائع والقوانين. إلا أنه إذا كان فرنسيو مصر يريدون العودة إلى بلادهم لإنقاذ أرواحهم، فإن الباب العالى مستعد «بحكم شريعة محمد، التى لا تسمح بمحاربة من يطلب العفو والمغفرة، لأن يتيح لهم الجلاء بوزن شرط.

«ومع أن الصلح هو فى جميع الأزمنة خير من الحرب، فإن هذا الصلح لا يمكن عقده فى مصر بأى شكل من الأشكال. لكنكم إن رحلتم، بركوب سفن الباب العالى، فلن يكون هناك ما يدعوكم إلى الخوف خلال السفر، لا من جهة الروس ولا من جهة الإنجليز حلفائنا وسوف تتجنبون إراقة الدماء البشرية والهلاك الذى لا طائل من ورائه لكثيرين من التمسلم الذين سوف ينلسون تحت سنايك جياد المسلمين».

وربما على مصطفى باشا ورشدى أفتدى، اللذين يطلبان من كليبر رده، لا يملك هذا الأخير إلا أن يلوح بالحرب وبالنصر. وعندئذ يتوصل العثمانيان، للنزعجان، إلى بدء المفاوضات هما نفساهما. وهما يشاركان القائد الفرنسى رأيه إلى درجة قبول مبدأ قلب التحالفات، أن تتحالف إنجلترا وفرنسا مع الإمبراطورية العثمانية ضد روسيا؛ ثم إن النظام المملوكى فى مصر سوف يعتبر لاغياً وسوف يحل محله حكم الباب العالى^(١٤). وسوف يتوجه رشدى أفتدى على الفور إلى الصدر الأعظم لإبلاغه بهذه المفاوضات.

الصلح سميث والبنان

خلال ذلك الوقت، ينتاب سميث قلق على حسن تنفيذ خطته. وهو يرتاب فى العثمانيين، وصحيح أنه كان قد حصل من الصدر الأعظم على تأمين لأرواح مسيحيي جبل لبنان ضد الجزائر، بنقل الأمير بشير وعند من أعين الجبل إلى للعسكر العثمانى^(١٥). لكنه لا يثق فى القوة الفعلية للجيش العثمانى الكبير، ويحاول تجنب كل

مواجهة، بين هذا الجيش والجيش الفرنسي. واشتعل الإنزال في محيط سوف يعزز اعتقاده هذا.

وهو يخشى، من جهة أخرى، من تدفئة سريعة للعلاقات بين العنوين. والحال أن العثمانيين لم يطلعوه على الفور باستئناف الاتصالات مع الفرنسيين. ثم إن فرانكفون، ترجمان السفارة الروسية، قد قلده بأن الصدر الأعظم لم يبلغه على الفور بمراسلاته. وكل ذلك يقوده إلى التدخل بنشاط في المفاوضات^(١٦).

وفيما يتعلق بالمسألة اللبنانية، سوف يحصل الأمير من الصدر الأعظم على حق ممارسة السلطة على كل جبل لبنان وعلى جزء من وادي البقاع^(١٧). ومنطق الحدث عثمانى؛ لقد أدرك الجزار جيداً أن الباب العالي يسعى إلى الاستقلالية من الموقف لاستعادة سلطته للباشرة على الولايات العربية، وهو يرفض كل تعاون مع الصدر الأعظم. ويسعى هذا الأخير إلى موازنة سلطة سيد عكا بدعم سلطة الأمير بشير. وبذلك، يتجاوب أيضاً مع مطالب حلفائه المسيحيين الأروبيين.

تدخل السلطان العثماني

يلعب بطء المواصلات دوراً كبيراً في تلك العصور. وفي ٢٢ أكتوبر ١٧٩٩، يتلقى كليبر رد الصدر الأعظم على الرسالة التي حملها أمين خزنة مصطفى باشا، بينما يشق رشدي القندي طريقه لاقتراح قلب التحالفات. والنبذة مختلة تماماً؛ فالصدر الأعظم يتحدث الآن عن التفاوض على الصلح وي طرح المسألة الجوهرية الخاصة بصلاحيات كليبر بالنسبة لتفاوض كهذا. وبما أنه لا يثق بالمرء في أن الجنرال يملك مثل هذه الصلاحيات، فإنه يقترح الاقتصر على مناقشة الجلاء عن مصر، والذي يهدى استعداداً لضمان أمنه التام^(١٨). على أن تدشن الإمبراطورية العثمانية فيما بعد مناقشات حول الصلح مع مفوضين فرنسيين لهم كل الصلاحيات. وهذه للرسالة مصحوبة برسالة إلى مصطفى باشا يقصد بها أن يطلع الفرنسيون عليها. ويجري التأكيد في هذه الرسالة على استحالة اختراق الحصار البحري لمصر - بما يستبعد كل وصول لتعزيزات فرنسية -، وعلى الثقة التي يمكن للمرء أن يقابل بها الحديث العثماني عن سلامة الجلاء؛ إن هدف هذه الرسالة هو إلزامكم بعمل كل ما يعتمد عليكم من أجل إنقاذ أرواح هؤلاء الفرنسيين التعساء الذين خدمهم الجنرال بوناپارت خدماً بالغ المظاهرة.

وبالنسبة لسعيدنى سميت، لقد حان الوقت للتدخل فى المفاوضات. وفى ٢٦ أكتوبر، يكتب إلى كليبر لكى يذكرك بالإطار الذى تحدده معاهدة تحالف الباب العالي مع إنجلترا ودوسيا. فكل اتفاق على جانب من الأهمية لابد من أن يحصل على موافقة الحلفاء، وأيا كان الأمر، فإن المسألة لا تبدو أن تكون مسألة تفاوض على الجلاء من مصر، وليس على الصلح مع الإمبراطورية العثمانية، وهذا الجلاء يحتم موافقة إنجلترا التى تهيمن على البحر المتوسط. والحال أن العميد البحرى، المخلص لتاكتيكه، يلعب على التعارض بين كليبر وبوناپارت : «لقد لجبرت الجنرال بوناپارت بسماحى له بحرية المرور، على تولى قيادة جيش إيطاليا الذى لم يعد له وجود بالفعل. ووصوله دون تصريح مرود من جانبى، سوف يكون واحداً من تلك الفرص السعيدة التى يمكن للحظ تملأاً حرمانه منها. لقد هزف من أن يأخذ معه إلى وطنهم من يمثلون القوات شهمة لطموحه ومن ثم لقد بقى لشخص آخر أن يتولى هذا العمل الإنسانى الذى سوف يجد للمرء أن الباب العلى مستعد للموافقة عليه، إلا أنه لا يجب للمرء أن يستنتج من ذلك أننى أطلب إلى الجيش الفرنسى أن يقبل إحساناً».

وفى ٣٠ أكتوبر، يبلغ كليبر العميد البحرى أنه ليس مهتماً إلا بالصلح الشامل. وهو يرد بإياه على التعريضات التى يقوم بها الإنجليزى من طرف خفى، «إن للمرء رافع فى أى مكان يخدم فيه بلاده، والحال أن من للؤكد أن مصر، البلد الأكثر خصوبة على الأرض، ليست منفى أكثر من البحار الهائجة التى اضطردتم إلى سكنها». وفى ٨ نوفمبر، يأمر مصطفى باشا بأن يكتب إلى الصدر الأعظم أنه مستعد لإرسال ملوطين يملكون كل الصلاحيات للتفاوض على الصلح الشامل. وفى اليوم التالى، ١٨ نوفمبر من العام الثامن (٩ نوفمبر ١٧٩٩)، يتلقى رد الصدر الأعظم على المهمة الثانية التى قام بها رشدى القندى. وقد تعرض هذا الأخير للتوبيخ لتفاوضه على أمور ليست من اختصاصه بالمرّة. ويتعلق وقف المفاوضات دائماً بمسألة الصلح الشامل، فالعثمانيون لا يرغبون إلا فى الجلاء عن مصر. وبالرغم من هذا الاختلاف، فإن كليبر يطلب فى ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ بدء المفاوضات ويصح إلى أنه مستعد للتراجع.

«إلا أنه أخيراً أياً كانت رغبات فخامتكم وحتى عندما لا يتصل الأمر إلا بمجرد الجلاء عن مصر، لعمري لا غنى عنه التوصل إلى تفاهم، بل إننى أؤكد أننى سعيّاً إلى إجراء مفاوضات فى هذا الصدد قد أصدرت إلى مندوبينا تعليمات بحيث لا يمارفونكم دون التوصل إلى التجاوب مع الباب العالي وإلى التجاوب معكم».

التعليمات الصادرة إلى المفاوضين الفرنسيين

في ٢٨ نوفمبر، تصل إلى القاهرة رسالة المصدر الأعظم، التي يجرى فيها اقتراح سفينة سيدنى سميث، كمكان لإجراء المفاوضات. وهكذا فإن العميد البحري سوف يكون في مركز المفاوضات. ويتصور كليبر أن بوسعه كسب وقت وإضعاف الجيش العثماني الكبير بإجباره على المرافطة في فلسطين خلال شتاء ١٧٩٩ - ١٨٠٠. وهذا هو ما يكتبه إلى حكومة الإنارة في ٣ ديسمبر ١٧٩٩، مع تنبيهه إلى أنه، دون وصول تعزيزات، سوف يكون في حالة لا تسمح له بهذه المعركة القلعة. ويبدو أن كل شيء يسير في هذا الاتجاه لأن الوقت غير المناسب يرفع السفن الإنجليزية على مفارقة للشارف البحرية للإسكندرية. وعندئذ يقترح سيدنى سميث انتظار للمفاوضين الفرنسيين في دمياط، ويعين كليبر هذين للمفاوضين، وهما بوسيلج، المؤيد الحازم للجلاء، وديزيه، الذي اختاره كليبر لتوسط في هذه المسألة، متجنباً بذلك معارضة الجندى الأكثر هيبة بعده.

والحال أن التعليمات، للحرية في ٧ ديسمبر، إنما تتمثل في التوصل إلى وقف للقتال، وحل التحالف بين الباب العالي والحلفاء الأوروبيين، ورد الجزر الأيونية إلى فرنسا، ورفع الحصار عن مالطة وعودة العلاقات الطبيعية بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية، في مقابل الجلاء عن مصر. وهكذا يتطلع كليبر إلى إنهاء الحملة بشروط جد مشروعة، لو، على الأقل، تأخير الزحف العثماني دائماً،

«إلا أنه إذا كان وضعنا في أوروبا متردداً إلى درجة غزو حلوينا بالفعل والاستيلاء على موانئنا الرئيسية أو مهاجمتها، وهو ما سوف يسهل على المفاوضين الفرنسيين معرفته من الصحف التي لن يتأخر أحد عن إطلاعها عليها؛ فمن المرجح جداً عندئذ أن للمفاوضين الخصوم لن يقبلوا الشروط الواردة أعلاه وأنهم سوف يصرون على العكس من ذلك على مجرد الجلاء عن مصر. وفي هذه الحالة، يجب على المفاوضين الفرنسيين إعلان أن القائد الفرنسي لن يقبل أبداً مثل هذا الجلاء إلا بناء على أوامر من حكومته. ويجب عليهما طلب مرور آمن لإفكاد رسول غير عادي إلى حكومة الإنارة التنفيذية وطلب وقف للأعمال الحربية حتى عودته، أي لمدة أربعة أشهر».

ويجب إجراء مفاوضات إقليمية مع الإنجليز حول حرية العودة الفورية للجنة العلوم والفنون والجرحى الجيش الفرنسي. ويقبل سيدنى سميث ذلك من حيث المبدأ على أمل أن

مثل هذه المقادير سوف تسمى الرغبة لدى آخرين في التفتاء لثراها. ويصل هوسيلج وديزيه إلى سباط في ١٣ ديسمبر، لكن القوات غير للنسب يهتلى سيدنى سميت بلثما في عرض البحر. على أن العثمانيين لا يريدون التوسع في الفخ الفظ الذى ينصبه لهم كليبر ويواصلون زحفهم.

سقوط العريش

إن طليعتهم تصل أمام العريش في ٨ ديسمبر ١٧٩٩ (٤٩). وعلى الفور، يذهبك تروملان والكولونيل بوجلاس اللذان يرافقان القوات العثمانية في الحرب السيكلوجية التى يهتلى سيدنى سميت من شأنها، ويذهبو بوجلاس الفرنسيين إلى الاستسلام أمام نفوق خصومهم العندى الكاسح ويتمكن تروملان - الذى يلعب دور رسول - من نقل رسالة إلى الجنود تعدهم بحماية العثمانيين وبالعودة إلى فرنسا إذا ما تخلوا عن المواقع.

ويرى كازال، الذى يفود الحصن، أنه لا يملك الحديث عن الجلاء، لهذا اللجال يخص القائد العام. لكن كليبر كان قد أخبر الجيش، من خلال بياناته ومن خلال صحيفة لوكونديه بوليجهيت، بالخطوط العريضة للتفاوض. ثم إن سيدنى سميت كان قد تمكن، بعد معركة سباط، وبفضل تبادلات للمنويين، من نشر رسائله بين صفوف الجنود الفرنسيين. وليس غريباً في هذه الظروف، عندما يبدأ الحصار العثماني بالفعل في ٢٢ ديسمبر، أن يكون رجال القوة غير متحمسين للفكرة للقتال في وضع على هذه الدرجة من العزوة، وبينما يبدأ الجلاء عن مصر قريباً. وفي مساء ٢٥ ديسمبر، يجرى تقديم عرضة موقعة من جانب ثمانين جندياً وصل ضابط إلى القائد :

«الحكمة، الحذر، تذكر ما حدث في يافا

«ن الجنود المكونين لحامية العريش إلى المواطن قائد الحصن

«يحسن بك، أيها المواطن القائد، تسليم الحصن الذى تقوده إلى العدو، في وقت لا يتأخر عن اثني عشرة ساعة. فاعتقاداً منا بأننا لم بعد بوسعنا المقاومة، بالنظر إلى أنه لم بعد هناك لا معنات ولا أنوية للجرحى، ندموك إلى إنهاء هذا الأمر وسوف تحظى بتقدير رفائقك».

والحال أن كازال وضباطه، اللذين أخذ منهم للغضب كل ماخذ، يجمعون الحامية في

الفجر ويحاولون تذكر الجنود بواجباتهم بالرغم من صيحات التمرد. وفي نهاية الأمر، يأمر المتمردين بالذهاب لتسليم أنفسهم فوراً إلى العثمانيين، في حين أنه واليوصل سوف يطلقون من شرف الجيش. وهذا المشهد يخيف الرجال الذين يعودون إلى أخذ أملكهم في الصلوف. وهم يصعدون صموداً مشرفاً خلال يومين ثم يبدأون في الفرار. وبينما يحدث الضباط الجنود على القتال، فإن عدداً من الجنود يرفعون راية الاستسلام ويعلمون أنفسهم للعثمانيين، فاتحين لهم الحصن. وبما أن فرنسيين آخرين يظلون لولياء لواجباتهم، فإن الفوضى سرعان ما تصل إلى ذروتها. ويوقع كازال في النهاية استسلاماً يتيح له الحفاظ على الشرف العسكري والعودة إلى الخطوط الفرنسية. لكن العثمانيين لا يراعون ذلك ويتمكنون في نهج الأسرى. وعندئذ ينحدر مستودع البارود بما يؤدي إلى خسائر مهمة في صفوف المهاجمين (٢٩ ديسمبر). أما الفرنسيون الناجون (نحو مائة وستين رجلاً، ولا بد أن أكثر من مائتين قد لقوا مصرعهم) فيسقطون في الأسر. ويجري إرسالهم إلى يافا وإعلنتهم من هناك إلى دمياط التي يصلون إليها في ١٥ فبراير ١٨٠٠ بعد رحلة مرهقة. وسوف يؤدي مجلس حربي، عقد في مارس التالي، إلى تحديد المسؤوليات وسوف يرد الاعتبار إلى كازال وضباطه.

تفويض الجيش

لست مسألة العريش خير علامة بين علامات أخرى على انهيار معنويات الجيش. جزءاً من متمردي الحامية قد جاء من شبه اللواء الذي كان قد حل في دمياط. وفي القاهرة، يكتشف دوجا في الشهر نفسه شبكة مصرية لتدريب الجنود الفرنسيين لحساب الماليك^(٥٠). وفي يناير، يحدث في الإسكندرية تمرد عسكري جديد، لكن خطورة بكثير، منذ مغابرتكما مصر نشبت انتفاضة جديدة للقوات في الإسكندرية، [...]، لقد جرى شهر السلاح، كما جرى الحديث بصوت عال من الاستسلام للإنجليز، وإذا كان هذا للمسمى لم ينجح، فإن ذلك إنما يرجع لحسن الحظ إلى أنه لم تك هناك ساعتها سفن للعبور قبالة الميناء^(٥١).

والحادث الذي فجر هذا التمرد هو وصول بقية حليقة بونابارت إلى الإسكندرية، بمن في ذلك مدام فورييه، والتي يسارع كليبر إلى إعانتها إلى فرنسا، وكان الجنود قد ظنوا أن كليبر نفسه قد ترك الجيش وغادر مصر.

ثم إن مراد بك ميناء، في لؤلؤ ديسمير، هبوطاً جديداً صوب مصر الوسطى. وإذا
يمر عبر الصحراء، فإنه يظل مطلق السراح، بما يحتم إبقاء قوات في المنطقة، في حين أن
من شأن معركة ضد الصغير الأعظم حشد القوات الفرنسية للتوافة في شرقى النيل.
وينبه نوجا كليبر إلى أنه يبدو له أن من الصعب الإمساك بزملم القاهرة اعتماداً على قوات
تقل بنسبة النصف عما كان عليه الحال أثناء حملة سوريا أو معركة أبو قهر. والحال أن
جميع منشآت الجيش الكبرى موجودة في القاهرة. وإذا ما تم تدميرها، فإن هذه الخسارة
وحدها سوف تستتبع خسارة مصر والجيش الذى لن تكون له هناك بعد لا مستشفيات
ولا مستودعاته (٥٢).

قرار الجلاء عن مصر

من الواضح الآن - بالنسبة لكليبر - أن العثمانيين سوف يواصلون الضغط وأن
يسمحوا له بكسب الوقت. لكنه، من جهة أخرى، يعلم من طريق الإنجليز أن بوناپارت قد
رسم في كورسيكا (٥٣). ولذا فإنه يطلب إلى تاليان العودة إلى فرنسا كمندوب لدى الجرحى
العائدين إلى الوطن. والحال أن تاليان، الذى كتب لتوه إلى بارا ليهشرح ضرورة الجلاء عن
مصر، إنما يتعين عليه أن يكشف للرأى العام الفرنسى الحقيقة من الحملة (٥٤). ومن
الواضح أن المسؤولين الفرنسيين يجهلون نوا الإطاحة بحكومة الإنارة التى مو عليها الآن
أكثر من شهر. ويواصل مينو وحده كتابة مذكرات حول ضرورة الحفاظ على مصر
كمستعمرة، لكنه لا يحظى بالثقات كبير فى صفوف الجيش.

والى الأيام العشرة الأخيرة من ديسمبر ١٧٩٩، يجرى استئناف الاتصالات بين
المفاوضين الفرنسيين والعميد البحرى فى دمياط. ويقبل الطرفان مبدأ هدنة بعمرى
ملعولها خلال مدة المفاوضات. وكالعادة، يسلم ميهدى سميت صحفاً أوروبية. وتنتهى
قراءتها بإقناع كليبر بعدم جنوى مواصلة المشروع المصرى.

وإذا كان لابد من تطبيق الفقرة الثانية عشرة من رسالة الجنرال بوناپارت على ظرف
ماء، فمن الواضح أن هذا الظرف هو الظرف المائل: لقد ضاعت إيطاليا، وخرج الجيش
البصرى من البحر المتوسط وحوصر فى ميناء بريست. وسقط الأسطول الهولندى تحت
سيطرة الأعداء، ووصل الإنجليز والروس إلى هولندا، وتم دحر مولر على الراين، وجرى

ترك الدفاع عن حدود الأكراس لسكانها، وانبعثت الفاندييه من رملها واحترقت ميينس. والجهاز التشريعي يقترح اعتبار الوطن في خطر ثم يتخلى عن هذا الاقتراح، ليس لأن الخطر غير موجود في الواقع، وإنما لأن للرسوم الذي يمكنه الإشارة إليه لا يتضمن أي علاج له، فما الذي يمكن أن يكون أكثر إزعاجاً من ذلك؟

«وبناءً على ذلك وبناءً على الوضع الأكثر من صعب الذي أجده نفسي فيه والذي يصبح من يوم لآخر أكثر صعوبة، فإنني أعتقد، بصفتي قائداً وبصفتي مواطناً، أن على المتحور من مزاعمي الأولى والسعى إلى الخروج من بلد لا يمكنني، من أكثر من زلوية، الاحتفاظ به؛ وهو أمر لا يبدو حتى أن هناك من يهتم به في فرنسا، اللهم إلا لمجرد البرهنة على فتحه. إن الأمل في تعزيز سريع وكاف قد بلغنا إلى العمل على كسب الوقت، إلا أنه مع بمار الأمل، فإن الوقت الذي نقضيه هنا هو وقت ضائع بالنسبة للوطن، فلنسارع إلى أن نقدم له عوناً لا يملك هو تقديمه إلينا.

«وترتيباً على ذلك، فإنه ما إن يعرض عليكما مجرد حياد الباب العالي خلال الحرب وحرية الخروج من مصر مع الأسلحة والمهمات والذخائر، ومع حق الخدمة في أي مكان وضد أي كان لدى عوبتنا إلى فرنسا، فإن عليكما عقد المعاهدة دون تردد وسوف تسارع إلى التصديق عليها (٥٥)».

وتأكيد خبر سقوط العرش يقود القائد العام إلى دفع ممثليه الديپلوماسيين إلى إتمام الاتفاق بأسرع ما يمكن. وفي ٧ يناير، يخاطب المصدر الأعظم لإشعاره بقبوله لهذا الجلاء الفوري من مصر، في مقابل تقديم وسائل نقل للعودة إلى فرنسا والمؤن الغذائية اللازمة للجيش الفرنسي في تلك الفترة وانسحاب الإمبراطورية العثمانية من الائتلاف. ولا يهتم القائد العام إلا بأشكال الرحيل وليس بمبدأ الرحيل. ومن باب الاحتياط، فإنه يوجد مع جميع القوات للتوافرة في الصالحية حتى يتسنى له أن يكون أكثر قرباً من الجيش العثماني، ومحاربته في نهاية الأمر في حالة فشل المفاوضات.

وسرعان ما يدرك بيزيه وبوسيلج اللذان استهلا للناقشات مع سيدني سميث على متن البارجة تهجر رفض محادثتهما التطرق بأي شكل من الأشكال إلى مسألة تسوية سلمية، لكنهما يدركان أيضاً صعوبة الحث إلى تسهيل كل ما من شأنه أن يؤدي إلى الجلاء، وهما يبرهنان من جانبهما على الإصرار نفسه. ويبلغهما الإنجليز، في ٨ يناير ١٨٠٠، بوصول بوناپارت إلى باريس. ويشته بيزيه في أن إصرار العميد للبحري على التوصل إلى الجلاء إنما ينبع من عدم ثقته في قيمة الجيش العثماني،

ولم تك لدى حاجة لنزع السيف سيدنى سميت إلى الصلح. فليس لديه غير هدف واحد، رغبة واحدة، أمنية واحدة، هي التفاوض لكي يثبت لنا أن من الواجب علينا الخروج من هنا بأسرع ما يمكن. فالمجد الذى سوف يعود عليه من وراء ذلك فى بلاده، ولدى الروس ولدى الأتراك، يهدد رأسه. ويهدد أنه يخشى من أن يراه وقد طار منه، فهو يهدد مدرجاً. إن الانتكاسات التى يتعرض لها العثمانيون يهددونها لجعلها أقل تمتعاً بحبهم. وامتد أنه يكفى أن تحدث بضع انتكاسات أخرى حتى يقبل هؤلاء الطيبون للتصالح. اضربوا للصبر الأعظم وسوف يفعلون كل ما تريدون. فالسياسة المتعلقة لن تدخل إلى رؤوسهم إلا بعد كثير من التصحيحات؛ ضربة قوية أخرى وسوف ينتظم كل شيء، وعلى الأقل لهذا هو ما أتصوره. لقد نفذ صبر سميت لأنه لا يملك أخباراً عنك؛ إنه يضرب الأرض بقدمه؛ ويصرخ - «يجب على الجنرال كليبر أن يرد على: إن ما لفته له نزيه؛ ولنا اعتقد أنه أكثر حكمة من الجنرال بوناپارت» - وأنت ترى من ذلك، قائد الجنرال، أنه لا يطلب أكثر من التفاوض. وكل ما يريده هو أن نرحل بأسرع ما يمكن. وعندما يطلب عدو شيئاً ما بالحاج، فإن ذلك إنما يرجع إلى أن ذلك الشيء يملك عليه فؤاده أو يسبب له كثير من المتاعب؛ وهذا - فى اعتقادى - سبب لعدم تقديم هذا الشيء إليه بسهولة» (٥٦)

والأرجح أن كليبر إنما يرد على هذه الرسالة عندما يقول لديزيه صراحة، إنما لن نتلقى أى نية من فرنسا ببساطة تامة لأنه لا وجود هناك لتعزيزات يمكن إرسالها وأن هناك من سيجد راحة فى أن يترك لى الاهتمام بحل هذه المسألة إنما لى بتكرم بالشثناء على أو لى يثبت زيفه. وأياً كان الأمر، فإنه إذا كان قد تم إعطاء تعزيزات، فمن المؤكد أن بوناپارت سوف يصلها. فهذه هي اللحظة المناسبة الآن أكثر من ذى قبل لى يعمل على تأمين نجاحاته فى أوروبا، فدونها سوف يخضع ويسقط فى وقت أقل من الوقت الذى ارتفع فيه. ويهدى كليبر استعداداته لتوك القياية إلى ديزيه إن كان هذا الأخير وثقاً من التصرف بشكل أفضل. وتحليله واضح: «بالنسبة لى، لنا الذى لا نريد أن نرى للبهة اغتيال بقية هذا الجيش جزءاً جزءاً، دون فوائد فعلية بالنسبة للوطن، بالنسبة لى، أنا الذى اعتبرت هذه الحملة فاشلة تماماً، فور حدث أبو القهر الكارثى وإعلان الباب العالي للحرب، فإننى سوف أثار فى قرارى دون أن أزمج نفسى بما إذا كان اللوم أو الشناء فى انتظارى. إن أجعل مكافأة لى كانت تتمثل دائماً فى راحة ضميرى، وهو يقول لى إننى أفعل الخير. ومن جهة أخرى، فإننى أعتقد إننى أملك الأسلحة الكافية للدفاع عن نفسى ضد أولئك الذين يريدون مهاجمتى» (٥٧)

وفي ١٢ يناير، يجرى استئناف للمفاوضات، التي تدور هذه المرة في العريش نفسها مع الصدر الأعظم والريس الهندي (المتحدث بلسان الخارجية). وفي ١٥ يناير، يكتب كليبر إلى مفوضيه أنه يتخلى عن مطلبه الداعي إلى انسحاب الإمبراطورية العثمانية من الائتلاف. وهنا أيضاً فإن أخبار أوروبا (التي ترجع إلى أكتوبر ١٧٩٩)، والتي قام الإنجليز بتبليغها، تلعب دوراً حاسماً. ويرى القائد العام أن من المستحيل الأمل في الحصول على تعزيزات ولن من الأنسب «التفكير في أن نقدم إلى وطننا العرن الذي لا يسعه تقديمه إلينا، ولا حتى الوعد بتقديمه إلينا». وترتيباً على ذلك، فإنه يتخذ للخطوة الحاسمة: «إنني أصرح لكما بالتجاوز والاقتصار على التفاوض على مجرد الجلاء مع الاكتفاء بتجنب إضفاء صيغة الاستسلام على هذا الاتفاق والحرص على جانبكما، على العكس من ذلك، على إضفاء طابع معاهدة عليه».

الاتفاق

يرى ديزيه وپوسيلج أن قائدهما يقدم للعثمانيين تنازلات من جانب واحد، وبلا طائل، وأن قبول الجلاء - حتى وإن كان مشروطاً - والذي جرى إشعار الصدر الأعظم به، لم يؤد إلا إلى إضعاف موقف الفرنسيين في المفاوضات. وهما يريان - في المقابل - أن فكرة مغادرة مصر سوف تؤدي إلى الوقف الفعلي للأعمال الحربية بين الإمبراطورية العثمانية وفرنسا وأن بالإمكان الأمل في التفاوض على هدنة شاملة وعلى الإفراج عن الفرنسيين المحتجزين ورد ممتلكاتهم إليهم. على أن ديزيه يؤكد لكليبر أنه سوف يكون من السهل ضرب الجيش العثماني ثم استئناف المفاوضات من مركز قوة. لكن كليبر لا يريد معارك. فهو مع ثقته التامة في قيمة رجله، لا يقبل للجازفة بمصير آلاف من الفرنسيين في مناصرة معركة. إن كل شيء في شخصه يرفض أن يكون بوناپارتما يلعب مع التاريخ.

ومنذ ذلك الحين تتقدم المفاوضات بسرعة. وبفضل سيدني سميث، يتم الحصول على الموافقة على مبدأ الإفراج عن الأسرى. لكن العثمانيين، متذرعين بتحالفاتهم، يرفضون هدنة خلال الفترة للمعركة حتى الوصول إلى الصلح الشامل. والحال أن العميد البحري هو أول من يقترح خطة جلاء تمثل أساساً للمناقشات في مواجهة الاقتراحات للمضادة التي يقدمها الفرنسيون (١٥ - ١٦ يناير ١٨٠٠). وهي تتصل خاصة بتقديم المؤن

الغذائية للجيش الفرنسي في مقابل ترك الضرائب المفروضة على مصر، كما تتصل بموعد مغادرة القاهرة التي توجد بها مستودعات الجيش. وحول هاتين النقطتين، فإن كليبر، الذي يتابع للمفاوضات من الرب والذي لا تفصله عن المريش غير مسيرة يومين أو ثلاثة أيام، يبدو مستعداً للذهاب إلى حد قطع المفاوضات. وهو، من جهة أخرى، يعقد مجلساً حربياً من ثلاثة قادة للفرق وستة قادة للألوية سعياً إلى الحصول على الموافقة على قراراته. وتتضح بعض الانشغاقات، خاصة انشغاق دلفور^(٥٨)، لكن الجميع يوقعون على المحضر الرسمي الذي يحدد مبررات القرارات والذي يسهر في الاتجاه الذي يريده كليبر. وفي ١٨ يناير، يتسنى للمفاوضين إدراك أن المفاوضات تصل إلى مرحلتها النهائية ويرسلان إلى المعسكر الفرنسي آخر صحت يتعلمانها والتي ترجع إلى الفترة الممتدة من ١ إلى ١١ نوفمبر ١٧٩٩. وبما أنها ليست صحتاً فرنسية الأصل، فإنها لا تذكر خبر استيلاء بوناپارت على السلطة، والذي حدث في ٩ و ١٠ نوفمبر.

وفي ٤ يوليوز (٢٢ يناير)، يتم توقيع الاتفاق. ويصدق عليه كليبر في ٨ يوليوز مع بعض التحفظات على نقاط في الترجمة التركية. ويتعهد الفرنسيون بالجلء عن مصر، في مدة لا تزيد عن ثلاثة أشهر، على سفن يتولى العثمانيون تقديمها. وسوف تستمر الهيئة ما دام رحيل الفرنسيين لم ينته. وسوف يترك هؤلاء الأخيرون مواقعهم في مصر بدءاً بشرق الدلتا. وسوف يتم الرحيل من القاهرة في اليوم الخامس والأربعين بعد ذلك. أما الساحل الغربي (إقليم الإسكندرية) فسوف يكون كثر إقليم يوجد فيه الفرنسيون. وسوف يوجد الجنود العثمانيون على بعد مسافة معقولة لتجنب أي احتكاك. أما المحتجزون فسوف يجرى الإفراج عنهم وسوف يستردون ممتلكاتهم. ولن يكون أي أحد من سكان مصر عرضة للتكدير بسبب علاقاته مع الفرنسيين. ويلزم الاتفاق حلفاء الباب العالي بما يلي:

المادة ١١

«سوف يجرى تسليم الجيش الفرنسي، من جانب الباب العالي كما من جانب بلاط حلفائه، أي بلاط بريطانيا العظمى وروسيا، جوازات السفر وتصاريح للبرود الأمن والقوافل الضرورية لضمان عودته إلى فرنسا».

المادة ١٢

«عندما يخرج الجيش الفرنسي من مصر، فإن الباب العالي وكذلك حلفاءه يعدون بأنه، حتى عودته إلى أرض فرنسا، لن يتعرض الهيئة للتكدير، كما لن القائد العام كليبر

والجيش الفرنسي في مصر يعلن من جانبها بعدم ارتكاب أى عمل عدوانى خلال المدة المذكورة، لا ضد الأساطيل، ولا ضد بلاد الباب العالي وبلاد حلفائه وأن السفن التى سوف تنقل الجيش المذكور لن تتوقف فى أى ساحل آخر غير ساحل فرنسا اللهم إلا فى حالة الضرورة القصوى».

ويتعهد العثمانيون بتوفير مبالغ مهمة لإمالة الجيش خلال الفترة الممتدة حتى نهاية إقامته فى مصر، وهو ما يحدد المسؤولين الفرنسيين من شاغل مهم.

والحال أن سيدنى سميث - الذى شارك بنشاط بالغ فى المفاوضات - لا يوقع على الاتفاق، لكن أحداً لا يشك فى قيمة التعهد المأخوذ باسم إنجلترا. والواقع أن العثمانيين والفرنسيين يفكرون بالفعل فى مستقبل علاقاتهم وهم غير مستائين من رؤية غياب العامل الإنجليزى.

لوايا كليبر

يمكن لكليبر من ثم أن يعلن لرجاله لهذا الذى طال انتظارهم له ،
«أيها الجنود،

إن التقاءً وثيقاً للظروف لست فى حل الآن من إطلاعكم عليه، قد دفعنى إلى وقف مسار انتصاراتكم وإلى التفاوض مع أعدائكم، بدلا من محاربتهم. وهكذا فبموجب المعاهدة التى عقدتها للتو، سوف ترون وطنكم من جديد فى غضون أربعة أشهر وسوف تواصلون خدمته بأسلحتكم وجيوشكم بأسلوب أكثر كفاءة مما تسنى لكم عمله حتى الآن فى هذه البلاد.

«أيها الجنود! لو كنت قد استشرت فى تكليفى بحمل للعبء الذى خلفه لى الجنرال بوناپارت، فإن من المؤكد أننى ما كنت لأقبل تلك البهتة، لأننى أشعر شعوراً بالغ القوة بأن قواى لا تتناسب البتة مع أهمية المواقع الذى احتله، فى ظروف جد صعبة، لكنكم تعرفون أننى لم يك بوسعى الاختيار.

«على أننى أجد عزاءً فى الإيمان بأننى إن كنت لم أفعل لكم كل ما تستحقه شجاعتكم وإخلاصكم للجمهورية، فإننى قد فعلت على الأقل كل ما كان ممكناً عمله من الناحية الإنسانية فى الوضع الصعب الذى وجدت فيه الجيش. إن أولئك الذين لا يسبون

الأكلن من بينكم أمام صوت الحقل سوف يعترفون لي بذلك، وأنا لا أشتري كثيراً رخصه الآخرين.

«أيها الجنود ! إن تعهدات رسمية وتبائلية تربطنا بالجيش العثماني؛ ولدى الاقتناع الأكثر عمقا بأنه لا يدور برأس الصدر (الأعظم) ولا برأس لحد من قلعة للمسلمين خيانتها، ولكن هل يمكن لهم دائماً في مؤسساتهم التي تبني كل شيء أن يعتبروا مسؤولين عن مسلكه مريضهم ؟ كلا بالتأكيد، ولذا فإن عليكم أنتم للذين تحبون في ظل انضباط حكمهم ومتعلل أن تتفانوا لو أن تتجنبوا الاحتكاكات التي قد تستتبع أوخم العواقب، وأخطر النتائج. إنني لن أتترك بلا عقاب أية إهانة قد تعمكم، لكنني سوف أعاقب أيضاً بموجب كل صرامة القوانين من يكونون سبباً لها من بينكم».

والحال أن ناپوليون في سانت - هيلين وفي أثره، عدد كبير من المؤرخين الاستعماريين، خاصة شارل رو، قد شجبوا موقف كليبر (٩٩). والواقع أنه يجب أن نذكر مسلكه إلى لحظتين. فهو - في البداية - قد سعى إلى كسب الوقت بالرفق من للصاعب المالية، حيث كان هناك هو ترقب وصول التعزيزات. ثم، وبسبب الانعكاس المتواصل للاتصال المباشر مع فرنسا وتحت تأثير تمرينات الجيش القتالية، أراد التعجيل بالأمور سعياً إلى التمكن من التدخل مع رجاله في ساحات المعارك الأوربية التي يتوقف عليها مصير فرنسا.

ومن المؤكد أن المشكلات العسكرية المطروحة عليه في مصر هي مشكلات واقعية: صعوبة تحقيق حشد القوات في مواجهة بكوات مصر العليا، خطر التمردات الحضرية والريفية والخطر الذي يمثله الجيش العثماني الكبير الذي يعتبر عدده أكثر أهمية بكثير من عدد جنود الجيوش التي جرى إلحاق الهزيمة بها في جبل طابور وهو قير. إلا أنه لم يشك قط في حقيقة الأمر في القدرة على الانتصار على أولئك الخصوم. والخطر بالنسبة له بعد ذلك إنما يكمن في الضعف المتواصل لجيش لا يتلقى تعزيزات.

ومن المؤكد أن كليبر، سعياً إلى تهديد قراراته، قد قلل من قيمة الإمكانيات العسكرية لقواته. فاعيد القوات للقاتلة التي يعطيها في مراسلاته مع فرنسا والتي اعترض الإنجليز سبيلها، هي إعيد لقل من الأمداد للتوافرة في الواقع بكثير. والبرهان على ذلك إنما يكمن ببساطة تامة في تفكيره المتواصل في المشاركة في المعارك الأوربية في ربيع ١٨٠٠، وهو أمر من شأنه أن يكون مستحيلاً لو كانت القوات الواقعة تمت إمرته في الحالة التي يصلها في مراسلاته بالفعل.

لقد حصل كليبر في العرش على شروط أفضل بكثير من الشروط التي كانت حكومة الإنارة مستعدة لقبولها في أواخر صيف ١٧٩٩. وانقطاع الاتصالات مع فرنسا والصواب العديدة التي ترجع إلى بوناپارت نفسه منذ عام ١٧٩٧ تميز له التصرف بمثل هذه الدرجة من حرية الحركة. وتتمثل مغرية التاريخ للمساوية في أن كليبر قد تصرف، حتى النهاية، من زاوية حكومة كان يكن لها الاحتقار، هي حكومة الإنارة، ومن زاوية مثل أعلى كان يعز، هو الجمهورية. والحال أن الحكومة والمثل الأعلى لم يعد لهما وجود بعد انقلاب ١٨ برومير، وهو من عمل رجل لحرمة في البداية ثم اختلف معه - ليس بسبب أعماله للبلشوة بقدر ما كان ذلك - بسبب الخطر الذي يمثله، وهو خطر التضحية بالوطن في سبيل طموح شخصي.

هيليوبوليس

لأ ١٨ برومير

يسمى كليبر مساعده وصديقه، لوجوست ناماس (شقيق الجنرال ناماس)، لحمل اتفاق الهلاء إلى جانب مبررات مسئلكه إلى حكومة الإنلرة. لما هو فإنه يرجع إلى القاهرة التي يصل إليها في ٢ فبراير ١٨٠٠. وبعد ذلك بأيام قليلة، يرسل إليه سيدنى سميت صحيفة ذي صن الإنجليزية التي تروى انقلاب ١٨ برومير. ويتوهم نيهينيت المقال الإنجليزى، بينما أخذ كليبر «يريد في كل لحظة وهو في حالة من التأثر والذهول» «هذا هو مشهد كرومويل تماماً» (٦٠). أما مينو، للوجود في الإسكندرية، فإنه يسارع إلى إبقاء لوجوست ناماس ليتمكن من حذف الانتقائات للوجهة إلى عمل بونپارت في الرسائل. وعلى العكس من ذلك، يتعمسك كليبر بعدم حذف شيء من رسائله ويحث رسوله على التسرع بسرعة. «إن ما كان صحيحاً البارحة هو صحيح اليوم أيضاً وسوف يظل صحيحاً على مر القرون. وليس هناك ما يدعو الجنرال بونپارت إلى الخوف منى؛ فهو الآن - بدلاً من أن يكون طرفاً، أصبح قاضياً في مسألة يعرفها مثلما أعرفها تماماً. وإذا كان عادلاً، فلا بد للجيش ولى أيضاً من توقع الاستقبال الأكثر تميزاً. وإذا كان غير عادل، فإنه سوف يجر العار على نفسه بالرغم من قوته وعندئذ فإن جريمة ذلك ستكون من عمله» (٦١).

إن ما يزلزل كليبر في أعماق أعماله، ليس هو مصير مصر - فهو متأكد من أنه قد اتخذ القرار الصحيح -، بل هو بالأحرى مصير الجمهورية. وشأنه في ذلك شأن كثيرين من الجمهوريين المخلصين، فإنه يجد نفسه موزعاً بين رفض الديمقراطية التي تعنى الإرهاب، ورفض البونپارتية التي لا تعنى سوى الديكتاتورية. وهذه المعضلة تجد تعبيراً عنها في الملاحظات التي يكتبها في تلك اللحظة في مذكرته الشخصية :

« - ما رأيك في أحداث ١٨ برومير ؟

« - إن فرنسا ما كان يمكن إخضاعها على يد مهرج أحقر من هذا المهرج.

« - من ثم فإنه لن ينفذ الوطن البتة ولا بد لى من أن نستنتج أيضاً مما نقوله إنك

لست نصيراً للمستور على الإطلاق ؟

« - إنه (المستور) ليس غير قناع خبيث، رأى الطاغية أن من المناسب التستر به

مؤلفك وسوف يلقيه من النافذة إن لم يجر إلقاءه هو نفسه منها، قبل أن يصبح غير مجدٍ بالنسبة له...

- د - إحدى لم التقط قط من الوحل شارة للبعثبة الدموية والد وجدت إن مما لا يليق
بي - بعد النور الذي أجهزنى القدر على لعبه فى هذه الثورة - تأمين سيد ولو للعبيد.
هـ - أنت لا تؤمن إنن بأن يوسع الجمهورية إن توجد ؟
و - بلى، لأنها لم تعد موجودة، على الأكل وفقاً للمعنى الذى يرتبط بهذه الكلمة، (٦٢).

والحال أن جيش الشرق - الجمهورى للبول - ليس شديد التعلق بهوناهارت الذى سحب، من جهة أخرى، الضباط الذين يشكلون حاشيته العسكرية للباشرة. وهو يشكل خطراً بالنسبة للنظام الجديد، البالغ الهشاشة، كما سوف تبين ذلك السلائس السياسية الدائمة حتى مارينجو. ويرى كثيرون فى باريس أن كليبر يمكن أن يشكل معارضة جمهورية انطلاقاً من جيشه. وتروج شائعات مفادها أن كليبر قد عقد مجلساً حربياً جرى فيه اعتبار هوناهارت متهماً بالتغلى عن جيشه (٦٣). ولذا فإن القنصل الأول (هوناهارت)، غير المهتم ببعثة ديكورش - الموجود دائماً فى طولون فى انتظار سفينة - يهتم بإمكانات إرسال رسول عسكري إلى مصر (٦٤). وهذا الرسول هو الجنرال المساعد لاتور - موبور، الذى يصل إلى القاهرة فى ١٤ فينتوز (٥ مارس ١٨٠٠). وهو يحمل معه رسائل من بورتيه، وزير الحربية، ومن الجنرال كلارك، مدير للمستودعات الحربية، لكنه لا يحمل أى رسائل من القنصل الأول. وتشهد الرسائل بإصلاح أحوال فرنسا الذى تم بفضل عمل القناصل، لكنها لا تقدم أية تعليمات حول المسلك الذى يجب اتباعه. ويصل الأمر ببورتيه إلى حد قول: «لقد علمنا عن طريق القسطنطينية أن الصدر الأعظم قد تراجع إلى دمشق دون أن يظهر أمام جيشكم. وهذه أمجاد جديدة يحول دون كسبها».

وتثير هذه الوقاحة غضب كليبر الذى يرد بشكل جارح على بورتيه، «لقد كنت أنتظر بعض التعليمات الجديدة، وتأكيدي إيجابياً بإرسال عون من الرجال والأسلحة، وبدلاً من ذلك، فإننى لا أقرأ غير استبشارات مبهمة بالذكريات».

«إننى امتنع، أيها المواطن الوزير، عن إبلاغك بالتأملات التى لوحى إلى بها هذا المسلك، وبوسعك أن تخمنها بسهولة تامة. كما أننى امتنع عن إبلاغك ببقاء من هذا البلد،

إذ يبدو أن بوسع القسطنطينية أن تخضع بشكل بالغ الروعة. لكن مالا يمكنني الامتناع عنه، هو إقائتكم بتسلم الرسالة التي تفضلتم بكتابتها إلى عند سفركم إلى فرنسا، وبما أن الظروف قد تبطلت، فأدنى أمانكم اليوم بإخبار الجمهور الحاضر بما عرضتم توضيحه بالقوى الألوان لحكومة الإنليرة (١٥).

لكن كليبر يفعل ما هو متوقع منه وينظم حشد ولاء الجيش للنستور الجديد وإليك تدرك جهنماً، أيها المواطن الجنرال، أن النستور الجديد هو أكثر ما يهمنا من بين كل ما أرسلته إلى من صحف وكتب وكراسيات. لقد قرأته وتسنّى لي أن أدرك أن الشجرة قد غرست بشكل بالغ الرسوخ؛ لكن هذه هي الشجرة الرابعة التي نزرعها منذ عشرة أعوام. والحال أن الشجرات الأولى لم تؤت ثماراً لينة لو أن ثمارها كانت مرة تماماً. وأنا أرجو الكثير من هذه الشجرة الأخيرة، على أنني قبل أن أقدم لها طريفة مديحة، أود أن ألتحق بولكير ثمارها. إن الجيش، ولا يجب الشك في ذلك بالمرّة، سوف يقبل هذا العقد الاجتماعي للعام الثامن، وسوف قبله معه. وسوف يجرى تقديمه إليه ما إن يجد نفسه أكثر وحدة إلى حد ما (١٦).

ويسارع ميديو بالفعل إلى الكتابة إلى بوناپارت لشرح ترك مصر وتفنيد الأسباب التي قادت إلى ذلك (١٧). وإذا كان جميع الضباط لا يتفهمون رأي ميديو، فإن البعض يهدمون في الانزعاج على مستقبل حياتهم العملية؛ ويبدو مستقبل فرنسا أقل عرضة للخطر وذلك بفضل النجاحات التي أحرزتها حكومة الإنليرة في آخر مهدها وبفضل وجود سلطة أقوى في باريس. وحتى إذا ما حافظ كليبر على قراره، فسوف يبرز توتر للوضع الفرنسي عندما تبدأ المصائب.

اللورد إلجين والكوان سميت

لكن الفرنسيين ليسوا الوحيدين الذين يعرفون نزاعات الأشخاص والسياسات. فعندما كان شقيق ميدي سميت قائمٌ بالأعمال في القسطنطينية، كان هذا الأخير يتمتع بكل هامش المناورة الضروري للتصرف كما يحلو له. واتفاق العرش هو محصلة سياسة متعاضدة تماماً جرى اتباعها منذ وصوله إلى شرق البحر المتوسط. ويتميز وضع العميد البحري من جراء الهيبة التي اكتسبها خلال حصار عكا، وهو النجاح العسكري الإنجليزى

الوحيد في حرب الائتلاف الثاني كما أنه عزاء للرأي العام من إخفاقات الإنزال في هولندا. وأحل أن المؤتمر الأخير الذي عقده سبنسر سميت مع الرئيس القندي في القسطنطينية، في ٣٠ أكتوبر ١٧٩٩، كان قد وافق على بدء المفاوضات مع كليبر مع إشارته بالفعل إلى تناقض السياسة الإنجليزية، فالواقع أن سبنسر سميت يدرك الخطر الذي تشكله عودة جيش الشرق، بالنسبة لحلفاء إنجلترا الأوروبيين، ويختار للتو المؤتمر عدم تقرير شيء وإبلاغ الصدر الأعظم والعميد البحري بذلك (٦٨).

وبعد ذلك بوقت قصير، في مستهل نوفمبر ١٧٩٩، يصل السفير الإنجليزي اللورد إيلجين أخيراً إلى القسطنطينية. وشاغله الأول هو إعفاء سبنسر سميت من وظائفه الدبلوماسية. ويكتب هذا الأخير على نشاطاته في شوكة شرق البحر المتوسط ويشن حرب عصابات إنارية ضد اللورد إيلجين. ويكتشف السفير الجديد أن سيدني سميت يتطلع هو الآخر إلى اللقب الدبلوماسي لوزير مفوض. ولذا فإنه يكتب فوراً إلى الرئيس القندي ليؤكد له أن صلاحيات العميد البحري لا تسري إلا على توقيع معاهدة التحالف إلى جانب أخيه (٦٩). وعند وصول نها وصول اللورد إيلجين، يسأل الصدر الأعظم العميد البحري عن اللورد الذي لابد له من لحيه. ويحاول سيدني سميت طمأنة العثماني موضحاً له أن إيلجين هو مالك أرض اسكتلندي كبير له نفوذ بالغ على الحكومة الإنجليزية. ويلهم الصدر الأعظم أن الإنجليز لهم أيضاً أملاك جبال، يجب مراعاتهم، لكنه يجد أن اسم إيلجين يعني بالعربية النجم، مما يعد تنذير شؤم (٧٠).

ومنذ ١٧ ديسمبر ١٧٩٩، يكتب العميد البحري إلى اللورد إيلجين ليرسم له لوحة من اللوائح. وهو يؤكد على عدم انضباط الجيش العثماني الذي يعتبره علجاً عن خوض معركة جالة ضد الفرنسيين (٧١). وبسرعة بالغة، يقف السفير في وجه عمل العميد البحري، خاصة فيما يتعلق بعمليات تبادل الأسرى. ويرد عليه سيدني سميت بأنه يجازف بذلك بفتح الجيش الفرنسي إلى اليأس وإطالة أمد الحرب (٧٢). لكن إيلجين يخشى من أن العثمانيين قد يفكرون، بعد الجلاء من مصر، في قلب التحالفات.

ومنذ ما قبل التوقيع على الاتفاق، يعرف العميد البحري معارضة السفير الذي يرى أن هناك من يعمل على إفتصاب صلاحياته. وعندما يصل نها الاتفاق إلى القسطنطينية، في منتصف فبراير ١٨٠٠، يدخل إيلجين معركة ضد سيدني سميت. فهو يرى أن هذا القرار يتعارض مع مصالح السياسة البريطانية التي يجب لها ألا أن تسعى إلى الحلول

دخل فرنسا في القسطنطينية وهو ما يستلزم إطلاق أمد الحرب، وبالرغم من كل شيء فإنه مستعد لاحترام التمهيلات للتخنة ويهتم بوسائل النقل التي يجب إرسالها إلى مصر. ويفكر البعض في حاشيته في عدم تطبيق للاتفاق أو على أية حال في تهديد جزئي للشروط الممنوحة للفرنسيين (٧٢). ومثال نابولي، مصلك نيلسون في السنة السابقة، مائل لتشجيعهم. وسعيًا إلى السيطرة على نحو أفضل على العميد البحري، فإن اللورد إيلجين يرسل سكرتيره جون فيليب مورييه للانضمام إلى السفن الإنجليزية في شرق البحر المتوسط وللعمل كمفاوض لدى الجيوش العثمانية (٧٣).

ويبدو من الواضح أن مورييه يقترح على سيدني سميت تطبيق خدعة حربية تتألف من أسر الفرنسيين، ما إن يركب هؤلاء الآخرون البحر، وهم مصنفون للاتفاق. ومثل هذا الاقتراح يثير غضب العميد البحري. وهو يكتب إلى اللورد إيلجين في ٢٠ فبراير ١٨٠٠ أنه قد أدى دائماً واجباته على النحو الذي يليق بسلطان إنجليزي وأن مثل هذه الحيلة غير شريفة. وسوف يعارض بكل قوته هذا الحدث بالعهد (٧٤).

خروج الحكومة البريطانية

إذا كان إيلجين يبدو معانياً لتطبيق الاتفاق، فإن المقاومة الرئيسية تجيء من لندن. على أن سيدني سميت كان قد أبلغ حكومته بحالة متقدمة بسياسة عمله السيكلوجي الذي يعتبر قرار الجلاء محصلتها. لكن أعضاء الوزارة كثر انجذاباً إلى صورة الأحداث التي رسمها لهم نيلسون. فالرجل الخلف في أبو قير يرى أن انتصاره البحري قد حكم على الجيش الفرنسي بالدمار على نحو لا سبيل إلى علاجه. وهو لا يستطيع قبول فكرة جلاء بسيط. ويعارض منذ البداية مشروع العميد البحري (٧٥). والحال أن هذا الأخير، وهو من الناحية النظرية مؤيد لنيلسون، لم يتبع تعليمات رئيسه متذرعاً في ذلك بالمهام الدبلوماسية التي يعتبر مسؤولاً عنها من جهة أخرى.

وكان نيلسون قد احتج منذ البداية على هذا الخلط للمهام العسكرية والدبلوماسية (٧٦). وهو يرى أن سياسة سيدني سميت، خلاصة في تصوية للعلاقة اللبنانية، إنما تجر بريطانيا العظمى إلى التدخل في أعمال لا تخصها وتهدد بجرها إلى عمليات عسكرية لا طائل من ورائها كحطرية أحمد باشا الجزائر (٧٨).

وقد هاجم نيلسون باستمرار عمل العميد البحري، ولم يك من شأن رسائل الفرنسيين التي تم اعتراض سبيلها، والحفاظة بالشكايات، سوى إراحة المسؤولين الإنجليز إلى هذا الرأي. وأخيراً، فإن الصورة الكارثية التي تستمد من التقارير التي يرسلها كليبر، إنما تبرز هذا التفسير. ويجد الإنجليز لذة خفية في نشر هذه النصوص المهيئة لبونا هارت وترويجها في أوروبا.

وبناءً على إشعار من خلال رسائل اللورد إلجين الأولى، فإن الأميرالية الإنجليزية تقر في ١٥ ديسمبر ١٧٩٩ عدم الاعتراف بقيمة جوائز السفر التي منحها سيدني سميت وتقرر أن تعيد إلى مصر كل فرنسي يحاول العودة إلى بلاده في هذه الظروف (٧٩). ويرى المسؤولون الإنجليز أن اتفاقاً وقعته العثمانيون وحدهم ليس ملزماً للأعضاء الآخرين في الائتلاف. ومن ثم فإن الاتفاق، قبل أربعين يوماً من التصديق عليه، يجري اعتباره باطلاً. وأحال أن نيلسون، المعادي للفرنسيين بعنف بالغ دائماً، يوافق على هذا القرار ويؤكد في ٢٢ ديسمبر: «لقد قرأت بسرور كل ما نر بين بونا هارت وكليبر والصدر الأعظم وأنا أرسل إلى اللورد إلجين بعض الوثائق البالغة الأهمية التي تشير إلى وضع الفرنسيين جد المؤسف. إلا أنني لا أستطيع إرغام نفسي على الاقتناع بأن يومئذ منهم مغادرة مصر تماماً؛ وإنما ما فعلوا ذلك، فإنني لن أقبل أبداً أن يعود واحد منهم إلى القارة الأوروبية خلال الحرب. إنني أرغب في أن يهلكوا في مصر وفي أن يندموا بذلك للعالم مثلاً عظيماً على عدالة العلي للتقدير (٨٠)».

والحال أن اللورد كيث، وهو رئيس نيلسون في البحر المتوسط، الأمر الذي يشير عظيم فم هذا الأخير من جهة أخرى، إنما يسارع مخلصاً إلى الكتابة إلى كليبر، منذ تلقيه تعليمات الأميرالية في ٨ يناير ١٨٠٠، لكي ينبيه إلى النوايا الإنجليزية. وسوف يتعين على سيدني سميت نقل الرسالة فوراً. لكن عوامل تأخر النقل كثيرة بحيث إن كل شيء يحدث بعد تبادل أوراق التصديق. وعندما يبلغ سيدني سميت نيلسون، في ٢٠ يناير ١٨٠٠، بإبرام الاتفاق، فإنه بعيد عن الشك في أهمية المعارضة التي أثارها (الاتفاق) بالفعل لدى مسؤولي بلاده. وفي المقابل، فإنه يوضح جيداً رهاناته الحقيقية: «بما أن الهدف للعظيم لعملياتنا في هذه المنطقة هو رد مصر إلى حليفتنا (الإمبراطورية العثمانية) ورد الأمن إلى للممتلكات البريطانية في الهند، وهي مزايا لا تقارن بعدد من التضحيات الزهيدة، فإنني لا أشك في أن سياستكم سوف توافقون معي في أننا قد حصلنا عن طريق المفاوضات على كل

ما كان يمكن الحصول عليه من طريق انتصار (عسكري)، في الوقت الذي لا يمكن فيه للمرء أن ينوي إبادة أو حتى إلال عدو شعاع بوتما ضرورة لذلك. وبشكل مستقل عن ذلك، فإنه لا يجب أن يغيب عن النظر أن جيشاً منضبطاً من للخضرمين، حتى وإن كان مستأً من وضعه، إنما يمكنه، إذا ما دفع إلى اللبس، أن يحافظ لمدة طويلة على امتلاك بلد شبه محصن، ملء بالسندود والتقنات، التي تجعل من الصعب دخوله، حتى عندما يمكن في نهاية الأمر وضعه في حالة من اللودية، اعتماداً على إمكانات ثلاث إمبراطوريات، عندما يجرى استخدامها (٨١).

الحلفاء أو أوروبا

إن للسالة الحقيقية تكمن هنا. وبالنسبة للعميد البحري، فإن العثمانيين ليسوا فقط عاجزين عن تمهير الجيش، بل إن وجود هذا الجيش الأودي في الشرق، حتى وإن كان ضعيفاً، إنما يعتبر عامل زعزعة لاستقرار الموالع البريطانية على طريق الهند. وما إن يفكر المرء من زاوية للمصالح الحيوية للإمبراطورية البريطانية الآخذة في التشكل، فإن الأولوية يجب أن تولى لجلاء الفرنسيين عن مصر. وبالنسبة للندن، فقد حانت لحظة الاختيار، إن الاعتراف بالحل الذي يقترحه سيدني سميث إنما يعنى الإغلاء من شأن للمصالح الإمبراطورية على حساب التوازن الأودي (٨٢). وعند وصول خبر الاتفاق، فإن الحلفاء في الائتلاف يحتجون بقوة لدى حكومة لندن (٨٣). وبالنسبة لهم، فإن الاضطرار إلى محاربة جيش فرنسي إضافي ليس منظوراً بالغ الجاذبية، خاصة إذا كان تحت قيادة كليبر.

ومن ثم فإن الحكومة البريطانية سوف تتردد طويلاً. إن مالم يك توسع كليبر قط أن يحلم به في حساباته الأكثر مكرًا بسداجة يوشك أن يحدث، إن مصير الائتلاف ذاته هو الذي يصبح عرضة للخطر. وفي نهاية الأمر، فإن السلطات البريطانية تفضل اللجوء في أن واحد إلى التنصل علناً من سيدني سميث وتحمل المسؤولية في الوقت نفسه عن قراراته. فاجتماع مجلس الوزراء المتعقد في ٢٨ مارس ١٨٠٠ يوافق على الاتفاق بقدر ما أن سيدني سميث قد نفذ كلام بريطانيا العظمى، بالرغم من أنه لم يك يملك صلاحيات لذلك، ويقدر ما أنه لم يعد هناك وقت للتراجع. وسوف يتعين على الدبلوماسيين البريطانيين أن يشجروا بشدة أمام الحلفاء مسلك العميد البحري وأن يعتذروا.

ومن المؤكد أن الأسباب التي جرى التذرع بها للتصديق على الاتفاق كانت فاعلة. لكن السبب الأكبر، مع كونه على ما يبدو أقل وضوحاً، هو إنراك مجمل مشكلات طريق الهند التي تكشفت خلال أشهر النشاط الدبلوماسية للحصوم بين البحر المتوسط وخليج البنغال. فقد إنراك للسؤولون البريطانيين أن روسيا تهدد أيضاً مصالحهم الشرقية (٨٤). وقد أعلن هول الأول نفسه رافداً كبيراً لأخوية ملطة وطالب بالجزيرة. ويوجه خاص، فإن مؤامم سوفوروف في مستهل خريف ١٧٩٩ قد قادت القهصر إلى استدعاء القوات الروسية من أوروبا الغربية. وهذا القنصل يسمح بالتفكير في عودة من جانب روسيا إلى سياستها الشرقية. إماً على شكل وضع الإمبراطورية العثمانية تحت الحماية بحجة الدفاع عنها ضد الفرنسيين الموجودين في مصر، أو عبر حرب توسع على حساب فارس (سوف تبدأ هذه الحرب بعد ذلك بأربع سنوات). ومن ثم فإن إنهاء الوجود الفرنسي في مصر يصبح أكثر إلحاحاً.

وجرى إرسال التعليمات التي تصرح بعودة الجيش الفرنسي إلى اللورد كيث واللورد إلجين وسيندي سميت. لكن الوضع في مصر، في تلك الأثناء، كان قد تبدل تماماً.

تطبيق الاتفاق

على أن الأمور كانت قد تحركت بالفعل. فمنذ توقيع الاتفاق، قدم الصدر الأعظم عرضاً إلى الفرنسيين. فهو يرى أن الصلح قد تحقق ويقترح وساطة عثمانية في النزاع الأوروبي. وهو يطلب إرسال مفوض فرنسي إلى القسطنطينية، تتمثل مهمته الرسمية في مناقشة رد الممتلكات الفرنسية، بينما تتمثل مهمته الفعلية في مناقشة الصلح الشامل (٨٥). ويسمح مصطفى باشا لكثير بلهم أن الباب العالي يمكن تماماً أن يكون بحاجة إلى فرنسا لمواجهة أطماع روسيا (٨٦). ويحذر بوسيلج منكرة بناءً على طلب الصدر الأعظم. ومن الضروري الحصول على موافقة إنجلترا، ولابد لذلك من أن يكون أكثر سهولة اليوم بقدر ما إن إنجلترا مهتمة اهتمام الباب العالي بالتصدي لتوسع روسيا، لأن هذا التوسع سرعان ما سوف يهدد ممتلكاتها في الهند.

والأمر أن فرنسا سوف تجد نفسها مجبرة على التحالف مع روسيا. ومن ثم فإن على الباب العالي أن يلعب دوراً دبلوماسياً كبيراً في أوروبا،

«إذا ما أرادت كل دولة تلهم مصالحها أخيراً، فسوف يكون من السهل التوصل إلى

صلح هامبل وثمانه عبر نظام جديد للتوازن السياسي يجب للباب العالي أن يكون مركزه.

«ويجب على إنجلترا وفرنسا تقديم قدر من التضحية ويتعين على النمسا، من أجل توازن أوروبا، ومن أجل صلح الباب العالي، ألا تكون بالغة القوة في إيطاليا، ويتعين عليها أن تعيد دولة البندقية أو أن تتنازل عن فتوحاتها التي تمت منذ استئناف الحرب، مع حفظ الحق في رؤية ما سوف يكون من الأنسب عمله من بين هذين الأمرين، حتى تتغلب روسيا عما تحتله في البحر المتوسط.

اوسوف يكون من السهل إحكام ترابط هذا النظام، بتوحيد الدول التي ينسبها كالباب العالي ويروسيا وإنجلترا وفرنسا وأسبانيا.

«تلك هي الأفكار التي يمكن للباب العالي بموجبها أن يقرر ضرورة الصلح وأن يهيئ الأطراف المتحاربة لهبة شاملة، يتم العمل خلالها في مؤتمر لجميع دول أوروبا على إقامة هذا الصلح على الأسس التي من شأنها أن تجعله دائماً (٨٧)».

وهكذا فإن الباب العالي، الذي يبدأ بالكاد في الانسحاب في اللعبة الدبلوماسية الأوروبية، يتصور أنه قادر بالفعل على أن يصبح للحدود الأساسية لأوروبا متصالحة. ويدرك كليبر وهوسيلج على حد سواء إسرائيل جيداً أنهما غير مفوضين لمناقشة مثل هذه النظريات الضخمة؛ ويحيلان المسألة إلى الحكومة الفرنسية (وهي حكومة الإدارة بالنسبة لهما دائماً، في تلك اللحظة)، إلا أن هوسيلجما أن يريا أن الاتفاق يقود إلى اتفاق ملائمة بالنسبة للسياسة العامة لبلدهما.

والآن، يخاطب كليبر ديوان القاهرة لإبلاغه بعربة السلطة العثمانية. وهو يبرر هذا الاتفاق بتذكيره بأن بونابارت لم ينازع قط السيادة العثمانية على مصر. وهو يهني الديوان على عمله في تهئة النزاعات، لكنه ينبه إلى أنه لن يجرى اغتالار أية مفاوضات خلال فترة الجلاء (٨٨). وبالنسبة لأعضاء الديوان، فإن أول اتصال مع السلطات العثمانية يمثل خيبة أمل مريرة. فالموظفون المرسلون إلى القاهرة هم موظفو الضرائب المكلفون بجباية الضرائب الموجهة إلى تغطية نفقات جلاء الجيش الفرنسي. ويهبر الجبرتي عن الله من هذه المصيبة الجديدة (٨٩).

لكنه يلاحظ بعد ذلك أنه لم يحدث قط دفع للضرائب بمثل هذا السرور. والأعيان

والعوام لا يخلون فرحتهم ويكبلون الإهانات للفرنسيين الذين يعنون للرحيل. كما أن نقولا الترك يتحدث هو أيضاً عن الفرحة التي لا توصف والتي استولت على جميع المصريين^(٩٠). على أن النهضة لا تنوم إلا لعدة أسابيع، وهو ما يسمح بأن يمر صيام رمضان دون حوادث، إذ تجلو القوات الفرنسية في نظام جدد عن شرق الدلتا ومصر العليا، وتتجمع في غرب القاهرة، في منخل الحى الأودوى الذى ظهر بين المدينة والقيل. وفى تلك الأثناء، يحتل العثمانيون اللواتح التي يتركها الفرنسيون لما مراد بك، المنزعم على مصيره بالرغم من كلمات العثمانيين للطمئنة، فإنه يقيم معسكره على الضفة الغربية للنيل^(٩١). بينما يبقى إبراهيم بك مع الصدر الأعظم.

وتجىء الحوادث الأولى من تمركز الطليعة العثمانية في المطرية، في شمال شرقى المدينة. ويؤدى القرب الشديد جداً إلى زيارة جنود الصدر الأعظم للمدينة وينشب احتكاك مع الجنود الفرنسيين. والحال أن مصطفى باشا، الذى يحكم المدينة باسم الصدر الأعظم، يتدخل على الفور ويأمر بقطع رؤوس الجنود المسؤولين عن الحادث^(٩٢) بينما يكثف الضباط الفرنسيون تعليمات التحلى بالحكمة والانضباط الصارمة إلى رجالهم. وفى المقابل، يطلب العثمانيون جلاءً أسبق عن القاهرة. ويرفض الفرنسيون مذكورين بأن الانسحاب من مصر العليا لم يستكمل وبأنهم لا يمكنهم ترك مستودعات الجيش الرئيسية^(٩٣).

وتجىء الأخبار السيئة من جهة الإنجليز. فى ١٧ فبراير، تظهر امام الإسكندرية دورية بريطانية جديدة. ويرسل الجنرال القائد للمدينة إليها مندوباً لإبلاغها بقرب رحيل سفينة حراسة فرنسية وفقاً لشروط الاتفاق، لكن محدثه يردون بأنهم مزودون بأوامر أعلى من أوامر سبهنى صميث وبأنهم سوف يعمدون لرفض حصار تام للميناء. ويطلب كليبر تدخل فوراً من جانب الصدر الأعظم لتهديد سوء التفاهم هذا ويعلن أنه سوف يرفض الجلاء عن القاهرة فلم تهر تسوية مسألة حرية مرور الجيش الفرنسي^(٩٤). وفى الأيام التالية، يتمسك الفرنسيون بهذا القرار، بالرغم من سماحهم للعثمانيين بإرسال وحدة إلى مصر العليا. على أن نهزيه ورفاقه (دافو، سافارى، واپ، كولبير...) يتمكنون، بسبب اختلاف الصلح الإنجليزي، من مغادرة الإسكندرية فى ٣ مارس ١٨٠٠. ويستعد نوحا وإيال وهوسيلج للحاق بهم.

رسالة اللورد كيث

في ١٠ مارس ١٨٠٠، يتلقى كليبر رسالة مزعجة من سيدني سميث، مرسله من قبرص في ٢٠ و ٢١ فبراير. والحال أن جون كيث، سكرتير سيدني سميث، هو الذي يحملها. ويسارع الفرنسي فوراً إلى إبلاغ الصدر الأعظم بمضمونها ويعلن له أنه يوقف جميع تدابير الانسحاب مالم يسمح مؤتمر جديد بتصوية المشكلات الجديدة^(٩٥). والواقع أن سيدني سميث كان قد نقل رسالة اللورد كيث للوجهة إلى القائد الفرنسي والمكتوبة في لؤلئ يناير ١٨٠٠:

«على متن سفينة صاحب الجلالة الملكة شارلوت»، في مهنوركا، في ٨ يناير ١٨٠٠.

«سيدني»

«بالنظر إلى أنني قد تلقيت أوامر مؤكدة من صاحب الجلالة بعدم الموافقة على أي اتفاق مع الجيش الفرنسي الذي تقربونه في مصر وفي سوريا، اللهم إلا في حالة إلقاء السلاح واستسلامه كأسير حرب وتخليه عن جميع السفن وعن جميع الخبثات في ميناء ومدينة الإسكندرية للدول المتحالفة وفي حالة حدوث استسلام بعدم السماح لأي جنود بالعودة إلى فرنسا مالم يكونوا مهابطين، فإنني أرى لزماً على إيلاهكم بأن جميع السفن التي يوجد على متنها جنود فرنسيون والتي تبحر من هذا البلد بموجب جوازات سفر موقعة من جهات أخرى غير الجهات التي تملك حق منحها، سوف يجبرها ضباط السفن التي تقربنا على العودة إلى الإسكندرية، وأن السفن التي سوف تقابل عائدة إلى أوروبا، بموجب جوازات سفر ممتوحة بناءً على اتفاق خاص مع إحدى الدول المتحالفة، سوف يجري الاستيلاء عليها وسوف يعتبر جميع الأفراد الموجودين على متونها أسرى حرب^(٩٦)».

ويؤكد سيدني سميث أنه سوف يحترم الآن الهدنة، فعندما تعلم حكومت اللورد الذي لعبه في المفاوضات، لن يكون بوسعها سوى الاعتراف بمشروعيتها. وهو الآن يحضر أمام الإسكندرية على أمل تنظيم لقاء مع كليبر. وعند وصوله، يجد هناك هوسيلج الذي يتحدث معه. ويتناول الرجلان عهداً معيناً من القرارات:

«في هذه الحالة التي تمر بها الأمور، يرى السيد سميث أن الجلاء يجب أن يبلى عند اللحظة التي وصل إليها الآن، باتخاذ ترتيبات في هذا الاتجاه مع الصدر الأعظم؛ وهو يود أن

تتاح له إمكانية التحدث معك بشكل مباشر حتى يتحقق توافق بهذكما. وهذا يبدو مستحيلا في هذا الظرف، فأنت لا يمكنك مقابلة القاهرة، وسميت لا يمكنه مقابلة الصليبية (تيجو) لكي يذهب بعيداً جداً عن نوريته البحرية، فهو يريد أن يظل هناك لكي يتصدى لجميع الحالات التي قد تنشأ، وهو يريد بحزم تنفيذ الاتفاق على نحو ما تم الاتفاق عليه. وقد اطلعني على الرسالة التي كتبها بناءً على ذلك إلى الصدر الأعظم والتي تتمشى تماماً مع هذا الاتجاه. وهو يكلف السيد كيث سكرتيره بالتفاهم معكم على ما تعتبرونه ملائماً - أي التروي - مع بقاء الأمور على ما هي عليه، حتى يتمكن من إزالة جميع المصاعب، وهو ما لن يؤدي إلى تهديد وقت كثير، ما دام أنه لم يتم بعد من جهة أخرى إبعاد شيء من الأشياء الضرورية للجلاء ولا من الأشياء التي يجب على الأتراك تقديمها. ولابد من الذهاب للبحث عن السفن وعن البراميل وعن ألف شيء آخر في صقلية ومن جانب القسطنطينية. فلا شيء يوجد لا في قبرص ولا في سوريا.

وصوف يمارس بوسيلج مهمة موازية لمهمة سكرتير العميد البحري وسوف يمثل أمام اللورد كيث ليرد إلى رده (٩٧).

مهمة جون كيث

منذ وصول جون كيث إلى القاهرة، بحجة استطلاع إمكانات تأمين للدعوات للجيشين العثماني والفرنسي، فإنه يقوم بزيارة الأعيان الرئيسيين المرتبطين بالفرنسيين. ويبدو الاقباط الأكثر انزعاجاً. ويرى كيث أنهم كانوا مهبرين على التعاون مع الفرنسيين وينصح للمعلم يعقوب بالذهاب إلى معسكر الصدر الأعظم لعرض خدماته. وهو يحصل على ضمانات من جانب إبراهيم بك، الذي أصبح من جديد شيخ البلد على مصر ومن نصوح باشا (٩٨)، الوالي المسمى للحلول محل مصطفى باشا في القاهرة. وينزعج الجميع من إمكانية انتفاضة معادية للمسيحيين من جانب سكان المدينة. كما أن سكرتير العميد البحري يخشى من تعارض عنيف بين مراد بك والعثمانيين. ولذا فإنه يحاول التفاوض على ولاء الزعيم المملوكي الكبير بالاجتماع مع الست نفيسة وروزيتي (٩٩).

وفي ١٠ مارس - بعد لقاء مع كليبر - يزود جون كيث المعسكر العثماني، ويشدد على ضرورة وقف زحف الجيش إلى المطرية حيث توجد الطليعة. والشيء الأساسي

بالنسبة له هو تجنب حدوث اتصال بين الجيشين. وفي ١٢ مارس، يلتقى مرة أخرى بكليبر الذي يهتث على أمانه واستقامة سيدنى سميث. وفي اليوم التالي، يسارع إلى فحص موقف مراد بك مع القصة نفيسة وروزيتي. وبعد ذلك بوقت قصير، يتحفظ عليه الفرنسيون في مقر مراقب، مع الكثير من وجوه المراقبة من جهة أخرى. وإن يجرى الإفراج عنه إلا في ١٦ مارس، مع وصول رسول بريطاني جديد، هو اللازم رايث.

والحال أن جون كيث، وهو مراقب ممتاز، كان قد رصد خلال إقامته القصيرة وجوه لوة ووجوه ضعف الوجود الفرنسي. وهو يختم تقريره بالإشارة إلى أن الفرنسيين سوف يأسف على رحيلهم الفلاحون وجميع مشايخ وعلماء مصر لأنهم لم يرتكبوا للظلم المألوفة من الأتراك ومن للماليك ولأنهم قد عملوا بوجه علم على تخفيف العبء الضريبي عن الأرياف. كما أن للصيحيين، على الرغم من أنهم قد تعرضوا لعبء ضريبي جسيم وإن كانوا قد استفادوا من سلم وأمن لم يسبق لهم الإحساس بهما، يبدوون أنصاراً لبقاء الفرنسيين. وفي المقابل فإن لواء الفرنسيين هم البدو، للتمردون دائماً بحكم طابع حياتهم، والماليك الذين جربوا من سلطاتهم وامتهاناتهم، والطبقات للتوسطة في المدن الكبرى والتي جرى إخضاعها لانضباط ولنظام لم تعرفهما من قبل. والجيش الفرنسي يتميز بمعنويات جيدة فهو سعيد بالعونة إلى الوطن، لكنه مستعد، وهو جيد التسليح، للقتال تحت قيادة قائد يثق به ثقة عظيمة. والحال أن نواباً ١٨ برومير قد ترتبت عليه إمادة تنشيط اتجاه مؤيد للبقاء في مصر (١٠٠).

الاتصالات مع مراد بك

الواقع أن كليبر - على الرغم من اعتزاله بأمانه سيدنى سميث - إنما يشعر بضغط عميق على تهديد اتفاق العريش. وبحسب التعبير الرائع الذي استخدمه نقولا الترك، فإنه أخذ يمعج مجيئ الدفوف بصوت أنظ من صوت الوحوش؛ (١٠١). وهو يتخذ على الفور تدابير احتياط ويضع على أهبة القتال جيشه، الذي أصبح الآن محتشداً بالكامل في الجزيرة، باستثناء حاميات الساحل الغربي للدلتا. وهو يشعره بتأجيل الرحيل ولسبابه، ويطلب منه الثقة،

«أيها الجنود الإننى مكلف بالسهر على حمايتكم بالدر ما إننى مكلف بالسهر على

تياكم للهد. وسوف أحقق أمالكم، لكننى أطلب منكم، فى جميع الأحوال، الثقة والطاعة^(١٠٢).

ويرسل كليبر فورديه إلى الست نفيسة سعياً إلى اقتراح حلول حازمة، إن الفرنسيين على وشك القطيعة مع العثمانيين، ويجب على مراد بك الانحياز إليهم. وعند تحقيق الصلح الشامل، سوف يجلو الفرنسيون عن مصر وسوف يصبح سيداً لها. والحال أن زوجة مراد بك قد قالت إن زوجها سوف يقبض بلا شك إن لم يتلق ببالغ العسرة إشعاراً على هذه الدرجة من الأهمية، وأنه الآن جد قريب من القاهرة، وأنها قد أرسلت إليه هذا الصباح خصيها الأول الذى لم يعد بعد على أية حال. [...] وأنها سوف ترسل إليه فى الساعة رجلاً موثقاً به سوف يحمل إليه بأمانة الاقتراحات للمشار إليها، وأنها لا يمكنها أن تعرف تماماً نوايا زوجها حتى ترد بأنه سوف يقبلها، لكنها تعرف أنه مستعد بشكل خاص للتوصل إلى ترتيب مع الفرنسيين. [...] وأضافت أنه لو كانت الظروف قد سمحت بهذا هذا للسعى قبل ثمانية أيام خلت، لكان نجاحه مؤكداً، [...] وأنها علاوة على ذلك لا يمكنها أن تستقبل إلا بالسرور اقتراحاً يميل إلى منع زوجها من القتال، بالنظر إلى أنه قد يهلك فى ذلك العمل. وقد أضافت بعض الأقوال الأخرى وقالت إنها تفضل على أى شيء آخر الصلح بين الفرنسيين والعثمانية والمماليك والإنجليز، وأنه إذا ما أصر هؤلاء الآخرون على صد طريق البحر، فعلى الصدر الأعظم أن يخرج بنا عن طريق البر^(١٠٢).

والحال أن كليبر - شأنه فى ذلك شأن الرسول البريطاني - يرى أنه يجب - قبل كل شيء - التوصل إلى أن يوافق الجيش العثمانى زحفه على القاهرة. وفى ١٥ مارس يوفد كمفوض لدى الصدر الأعظم الجنرال داماس وجلوتيه، الذى حل محل بوسيلج فى الإشراف على الشؤون المالية. ويتعين عليهما التوصل إلى بقاء الفرنسيين فى القاهرة وفى البلتا وكذلك التوصل إلى دفع النفقات الإضافية لإعاشة الجيش الفرنسى خلال هذا التمديد غير المتوقع لإقامته فى مصر. ومن غير الوارد التساهل فيما يتعلق بهاتين الخططتين وإن يجلو الجيش إلا عندما يتلقى تعهداً من قادة الأساطيل الإنجليزية والروسية بضمان اجتيازه الحر للبحر المتوسط^(١٠٤).

ويكتب مينو من جهته من رشيد إلى كليبر أنه مستعد للموت إذا كان ذلك ضرورياً فى سبيل الجمهورية. وعلى ذكرى الهدية الرحيل هذه، سوف يرد كليبر من خلال داماس فى الأسبوع التالى بأن مينو، لكونه لم يأت إلى مواقع القاهرة الذى انتدب إليه قبل ثلاثة



۵۷ - (۱) لاسکاریس.



(ب) رهبان لقیط.





Rogin

(ا) رينيه.



Damas

(ب) داماس.



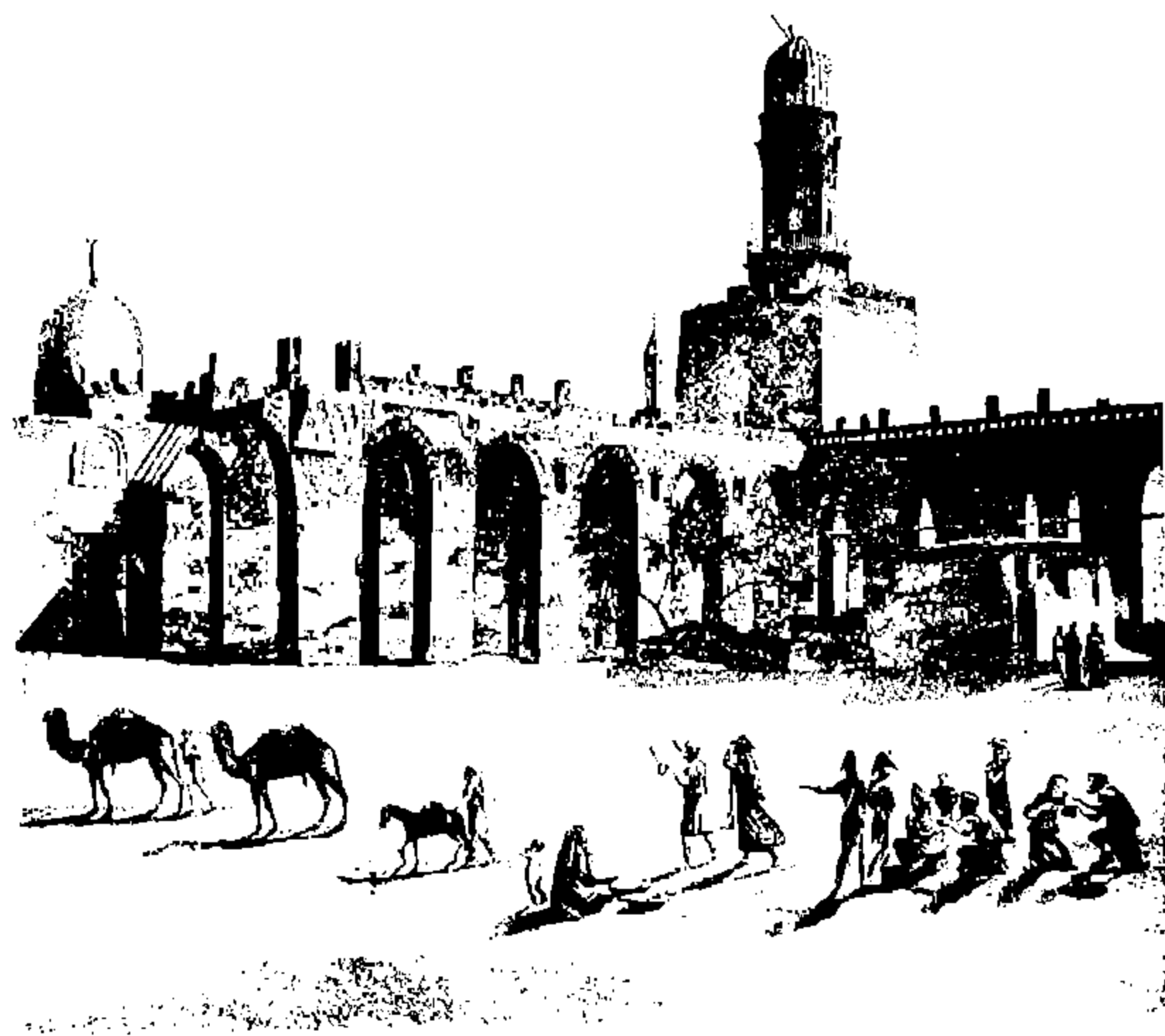
Liran

(ج) لريان.



Lanos

(د) لانوس.



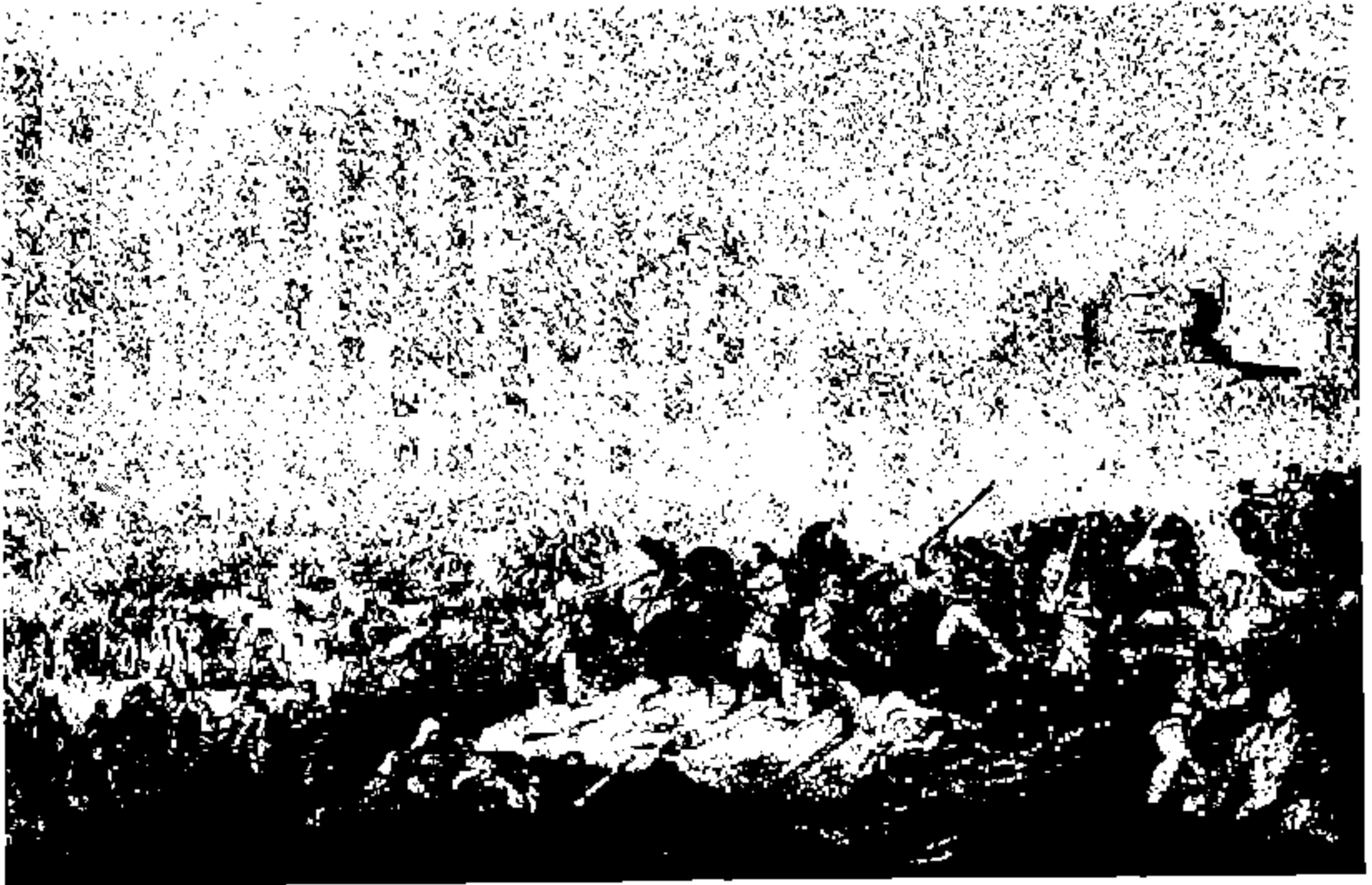
٦٠ - مسجد الأزهر باب النصارى (مسجد النصارى بباب النصارى).



٦٩ - دیناں دیناں وادی دیناں







٦٤ - معركة كلنوب.

اشهر، قد أصبح نسباً منعزلاً وجرى تركه للكرات من الاقتصاد السياسي^(١٠٥). والحال أن مينولن يقرر لعلماء هذا الرد المهين.

مفاوضات الفرصة الأخيرة

في تلك الأثناء، يتوجه المصدر الأعظم بالخطاب إلى سيدنى سميت ويوضح له حجم فهمه للموقف البريطاني. وهو يحثه بالإسراع على أن يرسل إلى كليبر رسالة تطمئن هذا الأخير إلى أنه ليس هناك ما يدعو إلى الخوف. ومن الصعب أن نحدد هذا ما إذا كان المصدر الأعظم قد أدرك بالفعل خطورة الموقف أو ما إذا كان يدير خدعة للتوصل إلى رحيل الفرنسيين (إن نسخة من الرسالة للوجهة إلى العميد البحري جرى نقلها إلى الفرنسيين)^(١٠٦). والحال أن موريه، الموجود في المعسكر العثماني بحث محدثه على الحزم وينصحهم بالتمسك بصرامة بهنود الاتفاق خاصة فيما يتعلق بمواعيد الجلاء عن المن للمصرية^(١٠٧). بل إنه يفتوح تكذيب رسالة اللورد كيث. وسوف يؤدي هذا للموقف المتناقض للرسل الإنجليز إلى تعقيد الموقف تعقيداً خاصاً.

ويصل الملازم رايت إلى المعسكر العثماني في صباح ١٥ مارس. وهو يناشد المصدر الأعظم إدراك خطر استئناف المعارك، ويؤكد أن الجيش العثماني إنما يوجد في وضع غير مؤات على المستوى العسكري. لكن موريه يتصرف في الاتجاه المضاد، ويدفع العثمانيين إلى المطالبة بالجلاء عن القاهرة، وتتركز جميع القوات الفرنسية في الجزيرة على الضفة الغربية، حيث يعتبر النيل بذلك الخط الحاصل. لكنه عاجز عن ضمان تطبيق الاتفاق باسم اللورد إلجين. ويشكبه رايت في أن فرانكيني، ترجمان السفارة الروسية، يستخدم دوره لهم كمتوكلين لمنع الأمور إلى استئناف الأعمال الحربية سعياً إلى السماح بإرسال جيش روسي إلى مصر^(١٠٨). وفي هذا التشوش الذهني بالتحديد، يدخل العثمانيون المؤتمرون الأول مع الفرنسيين، حيث لم يدع الرسل الإنجليز إلى المشاركة فيه.

ويؤكد العثمانيون في ذلك المؤتمر لقتناعهم بأن البريطانيين سوف يرفعون قريباً الحظر الذي فرضوه على الخروج. وفي المقابل، يتهم الفرنسيون سيدنى سميت بسوء النوايا، ويرفضون الجلاء عن القاهرة وإقليمها، بالرغم من مطالبات محدثهم للملحة. ويطلب هؤلاء الآخرون الطلب الخاص بتقديم الأموال والمؤن الغذائية الإضافية. وسرعان ما

يتم الوصول إلى طريق مسدود، «ما الضمانات التي سوف يقدمها الأتراك إلى الفرنسيين وما طابعها؟

١ - سوف يتم تسويتها في مؤتمر آخر.

٢ - إذا أصر الإنجليز على منعنا من الخروج من مصر، فما السبل التي سوف يتخذها الصدر إنن؟

٣ - إن الطلب العالي يضمن بالكامل سلامة رحلة الفرنسيين من الإسكندرية وحتى فرنسا. وهو يضمن أيضاً جميع نقاط معاهدة العريش. وإذا كانت هذه الوعود تلهمكم الثقة، فلا يلزم إثارة للمصائب، إن لم يك كل كلام لا داعي له.

٤ - إن حصن نوايا الأتراك لا يدع أي مجال للشك، لكن للفوضيين الفرنسيين يذكرونهم برسائل الأميرالات الإنجليز ويبينون لهم أنهم لا يمكنهم البتة الإبتعاد عن التعليمات الصادرة إليهم وأنهم سوف يبلغون القائد العام بملاحظاتهم (١٠٩).

ولمّا هذا الوضع، يقرر المتفاوضون رفع الجلسة إلى اليوم التالي حيث سوف تجرى دعوة الرسولين الإنجليزين إلى الحضور. ويؤدد رايت وجون كيث على الفور للعسكر الفرنسي. ويجرى استقبال الأول استقبالا ودياً جداً من جانب كليبر الذي يهله بانزعاجه، إذا كان الجلاء سوف يقىخ إلى الخريف انتظراً للرد النهائي من جانب الحكومة البريطانية، فإنه لن يصبح محل اهتمام كبير من جانب الفرنسيين. وهذه الثقة توضع تماماً الأهمية التي يمتها بالنسبة لكليبر الدور الذي يمكن لجيشه أن يلعبه في الحرب الأوروبية. وتستمر المعايمة خلال العشاء. ويعبر الجنرال الفرنسي عن إعجابه باستقرار النظام السياسي الإنجليزى: وهو لا يبال من أن يرى فرنسا يوماً ما متمتعة بمثل هذا النظام كما أنه لا يبالغ عن يوناهارت عندما يعرض له رايت، بناءً على طلبه، تصور الراى العام البريطانى للرجل. وفي المساء، عندما ترجع المعايمة إلى تناول مصر، يشدد كليبر على رفضه ترك القاهرة، ويطلب انسحاب العثمانيين حتى الحد الشرقى للدلتا.

ولدى عودة رايت إلى المعسكر العثمانى، في اليوم التالي، فإنه يرجع إلى الحديث عن خطر استئناف القتال. ولا يقبل الصدر الأعظم بقاء الفرنسيين في القاهرة إلا لمدة ثمانية أيام إضافية. ويشرح مورييه لرايت أهمية القضاء على الجيش بفضل خدمة حربية، فعلاوة على القضاء على الخطر الفرنسي على الهند، سوف تؤدى هذه العملية إلى إفساد الأمور

بشكل نهائى بين الفرنسيين والعثمانيين (١١٠). وتبدأ الجلسة الثانية للمفاوضات بين المفوضين نوى الصلاحيات الكاملة، لكن المأزق هو هو دائماً، فالعثمانيون يطالبون باستحاب الفرنسيين إلى الجزيرة ومؤلاء الأخيرين يتمسكون بمواقفهم.

روح كليبر بالأشهرار

فى مساء يستقبل كليبر رايته. ويتأمله هذا الأخير الإبقاء على سوريا معلول الاتفاق، لكن الجنرال يرد عليه بأن موقف المفوضين للعثمانيين لا يدع له غير القليل من الأمل. بيد أنه قبل أن يواصل رايته التحرك بين العسكريين. وفى ١٧ مارس، يجرى استئناف الحديث بين الرجلين. ويتحدث كليبر عن خلافات مع بوناپارت خلال حصار عكا، ثم يتحدث عن لرائه حول الثورة، وهو يتكلم بكثرة من روبسبير وعن حزنه، ويستفسر من أخبار بيشيرو (هذا الجنرال من جنرالات الثورة الذى انتقل إلى للعسكر الملكى، وتم ترحيله إلى جوايانا بعد ١٨ فركتيدور، ولجأ فى النهاية إلى لندن بعد أن تمكن من الهرب). وهو يتناول المسألة الملكية، إن للملكيين دمويون قارباً كاليماقية، وقد فقد الأمراء اعتبارهم لرفضهم القتال إلى جانب انصارهم فى الثانية بر فى أى مكان آخر (فيما عدا الأمير نو كونديه). وكان لابد من إقصاء فرع الأورليانيين من العرش بسبب موقف زعيمهم فى السنوات الأولى للثورة. ولذا كان لابد لعودة (الملكية) أن تحدث، فلابد لذلك من اختيار عائلة غريبة عن فرنسا، ليست بحاجة إلى إشباع روح الثار (١١١). أما فيما يتعلق ببوناپارت، فإنه يقول: «إن الأواصر بيتنا ليست جد حميمة». إلا أنه لا يمكن للمرء بعد أن يحكم على طابع حكمه ولنا ما رأى، لدى عودته إلى فرنسا، إن الشرفاء يؤيدون الحكم الجديد، وسوف تلووه مئذنة أمان ماغى أن يرى لخيراً قيام حكم مستقر.

ولاً يرجع كليبر إلى الحديث عن المسائل المباشرة أكثر، فإنه يعبر عن رغبته تجاه ترجمان سفارة روسيا وتجلة مورييه. أما فيما يتعلق بجيش الصدر الأعظم، فإنه، من الناحية العسكرية، لا يسأل أكثر من قافلة كبيرة. والجيش الفرنسى مستعد للمعركة والانتصار لكيد. ويحاول رايته أن يثنيه من ذلك بتذكيره بأن جيشه، حتى فى حالة انتصاره، سوف يكون دائماً عرضة لأن يصبح أضعف إلى حد ما وذلك بسبب غياب العون. إلا أنه يجرى التأكيد له على أن بوناپارت سوف يرسل بالتأكيد تعزيزات على سفن منفصلة يمكنها اختراق الحصار الإنجليزي. ويبدو كليبر واثقاً من إمكانية الإبقاء فى مصر ويدين له أنه قد اتخذ قراراً بخوض المعركة نور تلقيه رسالة للورد كيث. والتحول

السيكولوجي الآن كامل. ويصالح رايت كليبر إن كان، بعد استئثار القتل وفي حالة قبول الحكومة البريطانية للاتفاق، سوف يقبل تطبيعته. ويرد عليه القائد العام بأنه إذا ما هزم، فإنه هو ورجاله سوف يموتون وهم يقاتلون لأنهم لا يمكنهم التفكير في الحصول على أي عفو من جانب أعدائهم، لما إذا انتصروا، فإنه لن ينسى أبداً مسلك الإنجليز ولن يصفى بعد إلى مقترحاتهم. وهو ينهي حديثه بتوجيه الشكر مرة أخرى إلى سيدي سميت لإشعاره في الوقت المناسب.

ويدرك رايت أن الجيش الفرنسي مستعد بالفعل للقتال وأن بعض الزعماء الماليك قد أبلغوا الفرنسيين بأنهم على وشك التحالف معهم ضد العثمانيين. ويصدر كليبر الأمر بإلقاء القبض على العثمانيين الموجودين داخل الخطوط الفرنسية (١١٢).

موقعة هيلوبوليس

في ١٨ مارس، يجتمع المفوضون الفرنسيون والعثمانيون مرة أخرى. ويشدد العثمانيون دائماً على الجلاء عن القاهرة لأن الجنود متحمسون ويهددون بعدم الانصياع لأوامر قائمتهم. ويطلب ممثلو الجانب الفرنسي ضمانات ويتكبرون بأن الإمدادات الموعودة بموجب الاتفاق لم تسلم حتى الآن إلا بصورة غير منتظمة إلى حد بعيد. ووفقاً للجانب الآخر، فإن حالات عدم الانتظام هذه إنما ترجع بالفعل إلى واقع أن العثمانيين لا يحتلون عاصمة مصر. وإذا كان قد تسنى تصور حل ممكن للإمدادات، فإن المأزق يظل كلياً دائماً فيما يتعلق بالنسحاب الفرنسيين إلى الساحل الغربي لمصر. وفي اليوم نفسه، يتخذ كليبر خطوة أخرى وينشر في الأمر اليومي للجيش رسالة للورد كيث مع التعليق الموجز والشهير: «لها الجنود، إننا سوف نرد على مثل هذه الرسالة للوقاحة بإحرار انتصارات: لننتهيوا للقتال».

وهذا الإعلان للوجز الرابط الجيش يشعل حماس الجيش، الساخط سخطاً عميقاً على غير الإنجليز. إن التفسير الذي كان قد أدى إلى عصيانات يتلاشى مرة واحدة ولا يتطلع الجميع إلا إلى القتال. ويعقد كليبر في صباح اليوم التالي مجلساً حربياً يوافق على استئثار القتال ويكتب إلى المصدر الأعظم لإبلاغه بالطبيعة، وإن النزاهة التي أبديتها في التنفيذ الحقيقي لاتفاقياتنا سوف تعطى لسموكم فكرة من حجم الأسف الذي أشعر به من جراء طبيعة غير عالية إلى هذا الحد في هذه الظروف تتعارض مع الفوائد المشتركة لمصالح الجمهورية الفرنسية والباب العالي. وقد برهنت تماماً على عمق رغبتي في أن أرى بعضاً

لأواصر المصلحة والصليقة التي جمعت منذ زمن طويل بين الدولتين. ولقد فعلت كل شيء لتوضيح صفاء نواياي. إن جميع الأمم سوف تشهد بذلك وسوف يؤيد الله بالنصر عدالة قضيتي. والدم الذي نحن مستعدون لإراقته سوف يرتد على المسؤولين عن هذا الشقاق الجديد.

ويكتف المصدر الأعظم للفرمانات لدعوة المصلحين إلى الجهاد ضد الفرنسيين ويرفض الانسحاب مع جيشه إلى شرقي الدلتا. وفي مساء اليوم نفسه، يتخذ الجيش تشكيل قتال. ويتجهل الجنود القتال. والحال أن كليبر يتمتع بفرقتين، هما فرقتا لريان وديديه، وقوامهما نحو أحد عشر ألف رجل مع الفرسان. وفي الساعة الثانية صباحاً، في ٢٠ مارس ١٨٠٠، يجري تشكيل مربعين بكل فرقة. وفي الساعة الرابعة، يبدأ الزحف على المعسكر التركي. ويبقى مراد بك وممليكه بلا حركة على مقربة من ساحة المعركة. ويتم التغلب على المعسكر العثماني بسرعة. ويقبل كليبر التفاوض مع خصومه، لكن هؤلاء الآخرين يقضون على المساعد هوبو، المكلف بالتفاوض، ويحسبون معاملته. وعندئذٍ يجري استئناف القتال. ومرة أخرى ينكسر سلاح الفرسان الشرقي على المربعات الفرنسية. على أن قائده، نصوح باشا، ينجح في حشد جانب منه ويهرب إلى القاهرة. وفي المساء، تلحق الهزيمة بالجيش العثماني. ويرسل كليبر لإجرائه، مع لواء، لتعزيز حامية القاهرة ويبدأ مطاردة الجيش العثماني مع بقية قواته.

وفي اليوم التالي، ٢١ مارس، يتدخل بلبيس. وتستسلم الحامية العثمانية في اليوم التالي وتحصل على الإنز بلالحاق ببقية الجيش في الصالحية. ويحاول المصدر الأعظم إجراء مفاوضات جديدة، لكنه، أمام صلاية كليبر، يتخلى عن جيشه ويهرب مع قوة حرس ممتازة إلى سوريا. ويؤدي رحيله إلى التفكك التام لكل ما بقي من جيشه الكبير. وعندئذٍ ينهك العرب في نهب وذهاب جامع لكل ما هو عثماني، الأمر الذي يثير عظيم خيبة أمل الجنود الفرنسيين الذين لا يهدون بعد من الناحية العملية ما يمكن الاستيلاء عليه. وتشير استطلاعات الفرسان، الذين تم إرسالهم إلى الخطوط الأمامية، إلى أنه لم يعد هناك شيء غير الجثث حتى في لمخل الصحراء. لقد تم القضاء على الخطر العثماني. لكن التقارير تتدفق من الوضع في القاهرة حيث نشبت للتو ضد الفرنسيين انتفاضة قوية، اعنف بكثير من الانتفاضة الأولى. ويضطر كليبر إلى العودة إلى العاصمة بينما يتولى جزء من قواته محاربة الانتفاضة التي نشبت في الدلتا.

إعادة الفتح

الانتفاضة القاهرة

كان سكان القاهرة على غير علم بالمحادثات التي أدت إلى انهيار الاتفاق. وعندما يسمعون طلقات مدافع معركة هيليوپوليس، فإن شعورهم بالمفاجأة يبلغ كثر مدى له. وسرعان ما يتحول إلى انتفاضة ضد الفرنسيين، وإذا ما صدقنا الجبرتي، فإن الحركة تنبع أساساً من تلك الطبقات الخطرة المميزة لأكبر مدينة في مصر. وبعد ذلك بوقت قصير، تبدأ الحركة في اتخاذ طابع منظم تحت تأثير عمر مكرم، نقيب الأشراف السابق، وأحمد المحروني، شيخ التجار.

وفي الساعات التالية، تصل العناصر الناجية من المعركة. فيحصل - أولاً - إبراهيم بك ومماليكه، ثم نصوح باشا وعدد من المسؤولين العثمانيين - وفقاً للجبرتي - فإنهم هم الذين يعطون الأمر بالهجوم على المسيحيين، لكنهم - وفقاً لنقولا الترك - يفعلون على العكس من ذلك كل شيء لتهنئة السكان باسم المبدأ العثماني للتقليدي الخاص بحماية جميع رعايا السلطان (١١٣). وتبدأ المذبحة التي تشكل إيماناً حقيقياً بنهاية الزمان وفقاً للكاتب الكاثوليكي البيرناني. ويمسلة من الفرنسيين، يقاوم المسيحيون بالتمترس في بيوتهم ويطلق النار على المعتدين عليهم. ويتضامن الجنود الأرمن في الجيش العثماني مع إخوتهم في الدين ويحاربون العامة.

وفي الحمى القبطي، ينظم المعلم يعقوب المقاومة، وبفضل عمله، لا ينجح المهاجمون في الدخول. ولا يتروى الجبرتي في مقارنة شجاعته بشجاعة لكثير القهكات المماليك حسارة، حعن بك الجناوى (١١٤). وسوف ينجح في الصمود لعدة أيام وفي استعادة الاتصال مع القوات الفرنسية. وفي ٧ أبريل ١٨٠٠، سوف يعينه كليبر في منصب «الحاكم الأما القبطية» وسوف يمنحه قوة حراسة من ثلاثين جندي فرنسي «للنطاق عن سلامته الشخصية ولتأمين احترام سلطته» (١١٥). أما الأعيان الأقباط الآخرون فإنهم يلجأون إلى ضباط عثمانيين يكفلون سلامتهم، وكما حدث في الانتفاضة الأولى، لقد لوحظت أيضاً أعمال شغب من جانب مسلمين سعوا إلى إنقاذ للمسيحيين من المذبحة، ويشير كليبر إلى ذلك في تقريره:

وخلال هذا العصيان، تسببت الشكالك الكثرة بين الأفراد في عدد من أعمال الاغتيال؛ كما لوحظت أيضاً علامات سخاء وولاء، وهذا الدين نفسه الذى يبدو أنه يدفع العدد الأكبر إلى الانتقام، إنما يلهم آخرين العزم على التمسك بالمبادئ، بما يعرض أرواحهم للخطر^(١١٦).

وفى ٢١ مارس ١٨٠٠، تجرى إقامة متاريس فى شوارع القاهرة، ويبحث المقاتلون بنشاط عن كل ما يمكن أن يصلح كأسلحة، وفى الأيام التالية يجرى إخراج جميع الأسلحة التى كانت مخبأة، والتى أفلتت من عمليات التفتيش التى قام بها الفرنسيون، وتجرب تعبئة العمال لإصلاحها، بل ويجرى سبك مدافع جديدة، وهذه المعرفة للتقنية التى تثير إعجاب الفرنسيين إنما ترجع فى جانب كبير منها إلى معارف صناع الأسلحة اليونانيين الذين كان مراد بك قد جلبهم. والحال أن القنابل التى تطلقها المدافع الفرنسية يجرى ردها وهى ما تزال ساخنة على من يطلقونها، ويحاول جزء من السكان - خاصة الأعيان - للهرب إلا أنه يجرى منعهم عن ذلك. وينظم المقاتلون أنفسهم بحسب الأحياء، وعلى هذا الأساس يتحد سكان القاهرة والمماليك والجنود العثمانيون. ويوجه عام، فإن قادة الأحياء هم كبار المماليك المنتهين إلى حزب إبراهيم بك، وهذا التنظيم العفوى والكفاء يدهش الفرنسيين ويستثير إعجابهم^(١١٧). وتنضم مدينة بولاق إلى الانتفاضة. أما مراد بك، الذى جرت دعواته إلى الانضمام إلى المعركة، فإنه يرفض كل تحرك، ومما يدعو إلى العسكرة أنه يرد بأنه يهتم بحفظ النظام فى قطاعه وأنه قد حلول الحصول على أوامر من الصدر الأعظم، لكن رسوله كان بطيء التحرك إلى الشرق ولم يجده.

ويخلى قادة العثمانيون عن السكان خبر هزيمة الصدر الأعظم ويزعمون أن هذا الأخير سوف يهب سريعاً لتقديم العون إلى المدينة. ويجرى البحث عن المتعاونين مع الفرنسيين وإعدامهم. بل إن الشيخ البكرى يتعرض للإذلال وتنهال عليه الشتائم. ومن المؤكد أن اغتصابه لمنصب نقيب الأشراف هو السبب فى ذلك. ويهتم التجار والبورجوازيون بتوفير المؤن للسكان. للقاتلون ملحوظ، لكن الفرنسيين ينجحون تدريجياً فى فرض حصار قاس حول المدينة وسرعان ما ترفع المجاعة رأسها. ويكسب المقاتلون الأولية فى الحصول على الطعام^(١١٨). ويرى الأعيان التقليديون سلطتهم وقد أصبحت محل استهزاء. إن قادة أكثر شعبية يظهرون كذلك للمفرى الشهير الذى من المرجح تملأ أنه مهدى البحيرة السابق^(١١٩). وهو يحشد حوله قوة يكملها من المتحورسين

وكنك من الحجازيين الناجين من معارك مصر العليا. وهم يرتكبون أسوأ الفظائع ويكثفون عمليات النهب على حساب للصحيين - ووفقاً للجبرتي - فإن مسلكه لا يليق بالمرّة بمسلك مقاتل من مقاتلي الجهاد (١٢٠).

وتنصحب القوات الفرنسية الباقية في القاهرة إلى مقر القيادة العامة، في قطاع الأزبكية الذي دمرته المعارك تماماً، وهو الأمر الذي أثار عظيم حزن الجبرتي. وخارج هذا المقر، يمسك الفرنسيون بزمام الحصون الخارجية والقلعة. وانطلاقاً من هذه اللواقع، يخلصون المدينة الثائرة. ويحاول المتمردون انتحار هذه النقاط التي تطوق للمدينة، لكنهم يفشلون متكبدين خسائر ملحوظة أمام قوة نيران خصومهم. ومنذ ذلك الحين، يصبح محكوماً عليهم بأن يظلوا في وضع دفاعي في وجه جيش فرنسي يتزايد أهمية، مع عودة القوات التي كانت قد خرجت لمطاردة الصدر الأعظم. وفي ٢٢ مارس بعد للظهور، تصل طوابير النجدة الأولى إلى القاهرة وتلك الحصار عن مقر للقيادة العامة. وفي ٢٤ مارس، يجرى فريقان بتعزيزات جيدة ويتولى قيادة للعمليات. وتصطدم محاولاته الرامية إلى دخول للمدينة بمقاومة شرسة من جانب السكان وتتمنى بالفشل. ويكثف الخصمان الحرائق وأعمال التخريب.

معرض كليبر

يرجع كليبر في ٢٧ مارس. وهو يدرك على الفور أن حرب الشوارع لنذر بأن تكلفه أرواح الكثيرين من الرجال. وتفتقر مدفعيته إلى الذخيرة ويتعين عليه انتظار إرسالها إليه من الإسكندرية ودرشيد. ومن ثم فإنه يوقف الهجمات ويعد لتطويق منهجي للأحياء للمتمردة. وهبط هو خوض حرب حصار حقيقية. كما أنه يسعى إلى اللعب على تدهور الوضع ولتقسام خصومه. وهو يستخدم في ذلك مصطلح باشا الذي أصبح من جديد أسيراً في هيليوپوليس. ومن خلاله يكثف التهديدات والوعود. ويرد للمشايخ الرئيسيون على رسائله ويذكرون بأنهم مدينون بالطاعة للسلطان. وسواء كان ذلك من باب الجهل أم من باب القهزل، فإنهم يظلون بذلك في الوضع الذي كان سائداً قبل هيليوپوليس، ويعبرون عن استعفانهم للعمل على تأمين انسحاب سلمى للفرنسيين من القاهرة (١٢١).

وهذا الموقف يدفع كليبر إلى تعديل سياسته المصرية. وهو يقدر عند المتمردين بنحو تسعة آلاف إلى عشرة آلاف عثماني وهو رقم من المؤكد أنه مبالغ فيه إلى حد بعيد

ويكفي من المالك ويثلاثة آلاف من مصري الأرياف وخمسة عشر ألفاً من سكان القاهرة (يون حساب العمال) .

«إن هؤلاء السكان قد غرد بهم الشيخ للصناعات، وشجعهم ومولهم للصرف وتجار البن وعدد آخر من هذه الطبقة، لكن الشيء الملحوظ بشكل خاص، هو أن جميع الرجال الذين كانوا مرتبطين بخمستنا، والذين شملناهم بالمراعاة وأغدقنا عليهم الجميل، هم الذين بأسروا بالفعل يتزعم للمصريين وأصبحوا أشرس أعدائنا. وربما كان ذلك هو الأسلوب الأكثر فعالية لنيل العفو عنهم. وإذا كان ذلك هو بلعهم، فبما لا شك فيه أننا سوف نشهد عودتهم إلينا بانصياع أكثر، عندما نسترد السلطة. وفي هذه الحالة للأمور، كان الشيء الرئيسي هو فصل المالك عن الحزب العثماني، والحال أن العداوة القائمة منذ زمن طويل بين هاتين الطبقتين من الرجال، يبدو أنها تجعل الأمر سهلاً، لكن الفرحة التي يستشعرها للمالك في العودة إلى رؤية العاصمة، مقر حكم إمبراطوريتهم، بعد نفي دام نحو عامين، والأنصار العديدين الذين سوف يجدونهم من جديد، والفكرة التي كونوها من أنفسهم والتي تجعلهم يتصورون أنهم لا يمكن محوهم، تحول الآن يون تطور هذه العداوة، وإذا ما وصلوا اعتبار العثمانيين أعداء، فإنهم يعتبرونهم مع ذلك قتل خطراً منا. وسوف يقولون لي بأي حق تود استبعادنا من أرض نملكها منذ خمسمائة سنة ١٢» .

الاهانة مع مواط بك

إذا كانت عروض كليبر تمنى بالفشل مع مالك إبراهيم بك، فإنها تجد صدى إيجابياً من جانب حزب مراد بك. والحال أن هذا الأخير، الذي شجعت الاتصالات التي جرت من خلال الست نفيسة والمنزعج لنزعاجاً مشروحاً من نوايا العثمانيين، قد أثار الحفاظ على حياد متعقل خلال معركة هيليوپوليس. وما يعرضه كليبر عليه هو تسوية مماثلة تماماً للتسوية التي كان العثمانيون قد قدموها إليه بعد فشل محاولتهم الترامية إلى إعادة الفتح قبل ذلك بعدة سنوات. وكل شيء متماثل: فمن الواضح أنه بسبب الفشل في القضاء على قوته بالرغم من مطاردة حتى الشلال الأول يتوجب للتفاوض معه، بشرط التخلي عن الدرائع المستخدمة لغزو مصر، كتحرير الشعب المصري من طغيان للمالك.

وبعد مدة أيام من التفاوض، يجرى عرض المقترحات الفرنسية (١٢٢) ويقبلها الزعيم للملوكي الكبير. والمفاوض هو عثمان بك البرديسي. ويعلن الفرنسيون تقديرهم لهذا الخصم الذي قنومهم بهذه الدرجة من الشجاعة. ويجري الاعتراف له بصفة الأمير الحاكم

لحصر العليا كما يتم التنازل له بهذه الصفة عن الأرض على كل من الضفتين، بدءاً من وبما في ذلك ناحية بلصفورة، بإقليم جرجا، وحتى أسوان، مع الالتزام بأن يطلع إلى الجمهورية الفرنسية لليرى المقرر لحاكم مصر. وهو يتعهد من جهة أخرى بأن يدع الفرنسيين يعيدون احتلال ميناء القصير على البحر الأحمر وبأن يزود حاميته بالإمدادات الغذائية.

ومذا الحكم لا يعنى امتلاك امتيازات ضريبية لهذه سوف تظل من اختصاص الدولة، بما أن التمتع بالإيراد وحده هو من اختصاص حاكم مصر العليا، فإنه لن يتمتع بملكية أية قرية لحساب أشخاص مرتبطين به، مع حفظ حقه في تدبير إعاشتهم بالشكل الذي يراه مناسباً.

وتكفل الحكومة الفرنسية للملكيات التي حصل عليها الأفراد بشكل شرعى ولا يجوز اقتراف أى تعد عليها.

ويتعهد كل من الطرفين على نحو تبادلى بإعادة الفارين والفلاحين الساعين إلى الهرب من الضرائب. وسوف يقدم الممالك المساعدة إلى الفرنسيين إذا ما تعرض هؤلاء الأخيرون لخطر عدوان معاد لهم. ويلتزم الفرنسيون بالدفاع عن مصالح مراد بك عند التوصل في نهاية الأمر إلى تسوية عامة للمعاشاة المصرية. (١٢٤)

وفي التو والحال سوف يحل مراد بك إغراء أقصى عند ممكن من ممالك بيت إبراهيم بك للقاتل في القاهرة بالفرار، وسوف يتعاون مع المعلم يعقوب في نقل أكبر كمية ممكنة من الحبوب من مصر العليا، كما أنه سوف يطرد من تلك المنطقة جميع العثمانيين المتواجدين فيها، بمن في ذلك القائد العثماني، الذي أرسل لجباية الضرائب (مع قوات مهمة) قبل لانهيار اتفاق الحريش. وفي اللقاء الأخير أعلن مراد بك سوف يذيع في مدينتي القاهرة وبولاق خبر الصلح الذي تعاهد عليه مع القائد العام وسوف يكون بوسعه أن يعد من جانب هذا الأخير بالعفو للعام والفردى عن كل الذين ينصلون من العثمانية للانضمام إما إلى حزبه أو إلى حزب الفرنسيين (١٢٥).

وسوف ينفذ مراد بك بشكل صارم جميع بنود المعاهدة وسوف يحرص على أن يعلن على الملأ، في مناسبات عديدة، صداقته وإخلاصه للفرنسيين.

تجسرو الانتفاضة

مع تفاوضه مع ممالك مصر العليا، يواصل كليهر سياسته الخاصة بالتفرقة وذلك باتصاله بالقادة العثمانيين في القاهرة. والحال أن هؤلاء الأخيرين، أمام تدفق القوات

الفرنسية حول العاصمة، قد أتركوا أن جيش الصدر الأعظم قد أبعد. وعندئذ فإن التمرد يبدو بالنسبة لهم بلا طائل وتبدو للمفاوضات أفضل. وهم يكتفون بمشايع الديوان بالتفاوض على خروجهم الحر إلى سوريا. وهؤلاء الوسطاء يلقون، في مراسلاتهم مع الفرنسيين للمسؤولية عن الانتفاضة على العثمانيين. ويتم التوصل إلى الاتفاق في ١٠ جبرمينال (٣١ مارس ١٨٠٠) إن القوات العثمانية يجب أن تجلو من المدينة في ٢ أبريل، وسوف يقدم الفرنسيون المؤن الضرورية لاجتياز الصحراء. ولا بد للمعارك أن تتوقف فوراً (١٢٦).

وعندما يعلم سكان القاهرة باستسلام قلدتهم، فإنهم يثوبون ويسهثون معاملة عدد من المشايخ. والمغامر المغربي من بين أنشط قادة التمرد. وبالنسبة للكثيرين، فإن عرض الفرنسيين هو برهان ضلهم. ويخطر العثمانيون إلى إبلاغ كليبر بأنهم قد فقدوا السيطرة على الموقف. «صحيح تماماً، كما تقولون، إنه بعد توقيع معاهدة فإنه يتعين بذل جميع الساعي لتنفيذ بنودها، لكن هناك استحالة من جهتنا. فمذ حركة هذه الليلة، وصل الغليان الذي يسود في القاهرة إلى مدى بعيد لا يسعني وصفه لكم. إن جميع الجنود قد جاءوا لمهاجمتي [...] والجنود لا يتحدثون إلا عن تمزيق القاعة إرباً. ومنذ هذا الصباح، فإن جميع سكان القاهرة، حتى النساء والأطفال، يملأون الشوارع ويهتفون بأنهم لن يسمحوا بخروج أحد [...] وقد توحد السكان والجنود معاً؛ ويجري التهديد بقتل كل من يتحدثون عن الخروج؛ إنها فوضى يستحيل وصفها. والجنود جد عنيدون بحيث لا يمكننا الآن معاقبة أحد منهم على هذه اللقائل. وفي ظرف كهذا، لا بد من التحلي بالصبر والسماح بمرور يوم أو يومين» (١٢٧).

ويرفض كليبر السماح بأي تأجيل إضافي. وبينما يقوم بهذه الدبلوماسية الفعالة، يهاجر مساعده إعلنة فتح البنتا. ويتم الاستيلاء على نسياط من جانب بيليار الذي يسمق تمرداً من نفس نوع تمرد القاهرة. ويحدث الشيء نفسه في اللحظة الكبيرة وفي طنطا. ويحكم على المدن الثلاث بقطع غرامات حرب جد باهظة. وتؤدي السرمة التي تم بها قمع الانتفاضات الحضرية الإقليمية إلى منع تعميم الحركة. والواقع أن الأرياف كانت قد عانت من غياب النظام الفرنسي بأكثر بكثير من معاناتها من إعلان الفتح. والحال أن زوال وضع السيطرة على البلد كان قد جر إلى عودة هجومية من جانب هؤلاء الأخيرين الذين كثفوا التمددات على حساب الفلاحين وسكان المراكز. وولاً للجبرتي، فإن الفوضى كانت شاملة؛ فلم يك يوسع أحد أن يخرج من المدن، واستولى النهابون على الدواب وصورت

ثمارة للحاصل، وعونة الفرنسيين هي التي تسمح بطرد هؤلاء الأعداء للسكان للمستقرين^(١٢٨). وفي هذه الظروف، فمن الواضح تماماً أن من المستبعد أن تكون هناك إمكانية لانتفاضات ريفية ضد الفرنسيين الذين يجرى استقبالهم لهم كمنقذين.

الهجوم الأخير

في نهاية الأسبوع الأول من أبريل ١٨٠٠، يمكن لكثير إلا أن يعتبر أنه بمسك في يديه بجميع الأوراق، لقد أعيد فتح مصر السفلى؛ وسوف يهتم مواد بك بمصر العليا؛ ولم يعد هناك خطر عثمانى؛ والنفخيرة الضرورية من أجل إعادة الاستيلاء على القاهرة قد وصلت. وفي ١٠ أبريل، يرجع رهنبيه مع فرقة من الشرقية. إن كل شيء جاهز للمرحلة الأخيرة لإعادة الفتح. وبما أن المقاومة تظل دائماً جد شرسة، فإن كثير يقرر أن يقدم عبدة وأن يركز مجهوده على ضاحية بولاق^(١٢٩). وكانت هذه المدينة قد رفضت الاستسلام برغم ورود العفو المتكررة. وفي ١٥ أبريل^(١٣٠)، تتعرض للمدينة لقصف مكثف، ثم تهجم القوات الفرنسية عليها. ولا يكفى ذلك لزعة عزم المدافعين. وعندما يمارس الفرنسيون أعمال الحرق للنهج للبيوت. وال حال أن للمدينة التي يتم الاستيلاء عليها هي مدينة مدمرة بالكامل. وتلقى روايات الجبرتي وروايات نقولا الترك فيما يتعلق بأعمال النهب والاعتصامات العديدة التي ارتكبت عندما من جانب المهاجمين. ومن جهة أخرى، فإن كثير يأخذ ذلك في الحسبان بالنسبة للهجوم التالي على القاهرة. والأمر لليومى الصادر في ١٦ أبريل يتميز بنبرة قاسية :

«إلى الجيش،

«أيها الجنود، إنكم سوف تهاجمون بعض أحياء مدينة القاهرة. وأنا ما أقدمتم على النهب فستكون تلك نهايتكم: إن كل بيت سوف يصبح قبراً لكم. إن الغنيمة لن تفلتكم البتة، إننى أملككم بها؛ إلا أنه قبل ذلك لابد من نهر وتدمير أعدائنا.
«وبناءً على ذلك، فإننى أصدر الأمر بمعاينة كل من يضبط متلبساً بالنهب بالإعدام»^(١٣١).

وتؤدي عاصمة عنيفة، وهي حدث غير متوقع في هذا الفصل، إلى تأخير الهجوم الأخير على القاهرة. وعند هذا الهجوم، فإن بيليار ورجاله، الذين وصلوا في ١٨ أبريل، هم الذين يعتبر قنومهم ميموناً. ويحدث هذا الهجوم في الليلة نفسها، مع تفجير لغم يدمر المركز الرئيسى للعثمانيين في الأزبكية، بينما يضطر المدافعون عن المدينة إلى التراجع.

والحال أن المشايخ، الذين دخلوا من جديد في اتصال سوى مع كليبو، إنما يحثون نصوح باشا على الاستسلام (١٢٢). وكان مراد بك قد أرسل عثمان بك البربري إلى القاهرة للتفاوض على الاستسلام. وبوجه إعلان خبر التحالف بين مراد والفرنسيين خربة بالغة القسوة إلى معنويات المماليك الآخرين، وكذلك الحال بالنسبة لخبر إرسال الضباط العثمانيين الذين تم أسرهم في ليبيا. ويؤدي ذلك إلى تكذيب وسائل العدو الأعظم الزائفة، التي لختلقها المصروف، والتي كانت تتحدث عن الوصول للشوشيك للجيش العثماني. ويدفع ذلك السكان إلى لحتقار العثمانيين الذين يعتبرونهم مسؤولين عن هذا الوضع الكارثي. ويحاول اللغربي من انتفاضة شعبية جديدة، ضد الاستسلام الذي يتوقع اقترابه، لكن الضباط العثمانيين ينجحون هذه المرة في قمع للحركة. وفي ٢١ أبريل، يجري قبول الاستسلام؛ ويلزم على العثمانيين والمماليك الجلاء عن المدينة في مدة لا تتجاوز ثلاثة أيام، ويتم منع العدو عن السكان. على أن قادة التمرد الرئيسيين يفضلون الرحيل مع العثمانيين وكذلك الحال مع عدة آلاف من السكان (١٢٣).

ويخسر رينيه وفاقته القوات العثمانية. ويثير نظام الجيش الفرنسي عظيم إعجاب نصوح باشا. فكل شيء يتم بون حوائث وجلاء العثمانيين ينتهي بسرعة. ويبدو إبراهيم بك رغباً في الانضمام إلى الفرنسيين، بشروط مشابهة لشروط مراد، لكنه يتخلى عن ذلك في آخر لحظة (١٢٤). ويجري استكمال إعادة فتح مصر عن طريق حملة صغيرة على السويس حيث كان البريطانيون قد نزلوا مع حجازيين. وفي أوائل اللوردال من العام الثامن (٢١ - ٢٦ أبريل ١٨٠٠)، يرد الفرنسيون خصومهم بسهولة ويترك الإنجليز للمهائم بعد إحراق السفن التجارية ومنشآت للمهائم. ويذكر التقرير: «إن الإنجليز، بتدميرهم ثروة للرجال الذين دفعوهم إلى القتال من أجلهم الباردة، وبتخليهم عنهم، سرعان ما سوف يحولون إلى تأييدنا المهائم السكان، للذين فوجئوا بأن يجدوا في تصرفات المنتصرين عليهم مروعة تقابل ما كابنوه من غدر من جانب حلفائهم». (١٢٥).

الضريبة الاستثنائية

كانت القاهرة مدمرة تماماً عندما عاد الفرنسيون إلى دخولها، في ٢٦ أبريل ١٨٠٠. وعلى الفور يدعو القائد العام المشايخ إلى الاجتماع به ويعلن لهم أنه يمنح عفواً عاماً لجميع السكان. ويهني الجميع أنفسهم على شهامة الفرنسيين. لكن السكينة لن تدوم طويلاً. إن كليبر، الذي نجح في استعادة السيطرة الفرنسية بكفاءة تشهد على امتياز قدراته كرجل

حرب وسياسة، إنما يقرر الاستقالة من الوضع لكي يسوى المسألة المالية تصوية نهائية. ومن باب العقلب على التمردات العنصرية، فإنه يفرض ضريبة استثنائية باهظة؛ والهدف من هذه الضريبة هو الوصول إلى المبلغ الضروري، الذي يسمح بتصفية للتأخرات ويتمين النفقات على اختلاف طابعها، حتى نهاية العام لثامن. والحال أن إجمالي الضريبة، التي يجب دفعها مئة مرات نفداً ووعيداً، سوف يبلغ نحو ثمانية عشر مليون فرنك، يقع عبء أكثر من عشرة ملايين فرنك منها على القاهرة وحدها. أما للمسيحيون واليهود، الذين تم إعطاؤهم من الضريبة، فسوف يجبرهم ميثاق على دفعها بنأى على طلب المسلمين. ومن جهة أخرى، فإن بعض التخفيضات سوف تؤدي إلى تخفيضها إلى سبعة عشر مليون فرنك (١٣٦).

وفي الاجتماع غير العادي للدهوان في ٣ مايو ١٨٠٠، يجرى إبلاغ المشايخ بالمصير الذي ينتظرهم. إن كليبر يلومهم من جهة على تعاونهم مع العثمانيين، ويلومهم، من جهة أخرى، على عدم منعهم لتمرد السكان؛ لكنهم يردون بأن الفرنسيين هم الذين أعانواهم إلى الانسواء تحت سلطة السلطان وبأنهم قد تم تجاوزهم بالكامل. وهم أول من سوف يدفعون الضريبة، خلاصة السبلات، الذي يجرى إلزامه بدفع نصف مليون فرنك. أما البكري، بسبب أشكال سوء المعاملة التي تعرض لها، والمهدى، الذي نجح، كعاقبة، في مداراة الفريقين في أن واحد، فيجرى إعطاؤهما من دفع الضريبة. ويجري كل شيء بملاحظة بالغة وفي مناخ تخويف جسدي (١٣٧).

ويكلف المعلم يعقوب بجباية الضريبة المفروضة على المدينة، بينما يقرر المهدي والأقباط توزيع الضريبة بحسب فئات السكان. وتخدم نقابات الحرفيين والتجار في جمع الضريبة. ولا يمر ذلك دون مفاتم بالنسبة للبعض ودون حركات احتجاج شعبية على الجهة. وهكذا فإن نقابة الإسكافية قد ألزمت بدفع لثني عشر ألف وثلاثمائة وخمسة وثمانين قرشاً إسبانياً؛ ويتولى رئيسها التحصيل والفرض أي إشراف. وتجتمع النقابة من تلقاء نفسها، وتختار لنفسها رئيساً آخر وتطلب حسابات الرئيس السابق. وبما أن هذا الأخير يرأس، فإن الإسكافية يطلبون حماية الفرنسيين، الذين يجرون تحقيقاً ويلزمون الرئيس السابق بدفع مبلغ ألف ومائتي قرش كان قد احتفظ به دون وجه حق (١٣٨).

التفريع التسلسلات

لكن أول دفع للضريبة في مصر هو الذي يبدو جموحاً أكثر من سواء. وقد رأينا أن

كثير قد اختبه في كه للسؤل من انتفاختي القاهرة. على أن الجبرتي، الذي لا يراعي
جانبه بشكل خاص، لم يعطه دوراً مميّزاً في روايته للأحداث. ويجري إلقاء القبض على
الصلوات، وسجنه في القلعة، وخبره مرتين في اليوم لإجهاده على دفع ضريبة الضخمة.
وهذا العجز الذي يبلغ من العمر ثمانية وستين عاماً يتوصل إلى كثير أن يجنه هذه
للحيلة للهينة، «لنسم لك بالله الذي خلق كل شيء وجعلك سلطاناً منصوراً، إن كل ما قيل
لك هنا هو نتائج نساك أعدائي وأنه زائف. وقد كنت على النوم منذ وصول القائد العام
بونهارت والفرنسيين إلى القاهرة صديقاً لهم. ولنسم بالله أنني أميل إليهم. وعندما نخل
العثمانية وسلكوا سبيل القتال، لم تكف عن تمنى انتصاركم. والجميع يشهدون على ما
أقول، ومن بينهم الشيخ المهدي. والمال الذي أخذوه، إنما أخذوه بالقوة وبالاحتفال كالمال
الذي أخذه أحمد للحرواني [...]».

«ولم يحدث قط أن والدي ولا من ربيوني قد ضربوني. على العكس، إن الكبراء
والعلماء قد كرموني واحترموني دائماً. وقد أهدى الأمراء الاحترامات نفسها [...]»

«وإنما ما أمتنى لما هي الثمرة التي سوف تأتي من موت عجوز عاجز له أطفال
وحاطة، إن استقامت أنفسهم سوف يخلصون من ذلك، وسوف يكون دمار بيت الصلوات
للكرم منذ خمسمائة سنة هو نتيجة ذلك وسوف يكتب في التاريخ أن الجبرال كثير قد
مروا بيت في القاهرة، وهو مالا تربوته بالتأكيد. أما فيما يتعلق بأولئك الذين يؤكدون
أنني دفنت للمل، فليجيبوا إنك لإخراجه ما يلزم عليهم بالأمراء (١٢٩).

ويشهد الجبرتي على مناخ الاضطهاد واليأس الذي يصيب جامعة مصر في أثر
تدهور كثير. إن السكان يفترون للنبي لكي يقيموا في الريف، لكنهم لا يستطيعون
العيش هناك طويلاً بسبب غياب اللورد، ويصارعون إلى العودة بلدى ما أن الفرنسيين
يهبطون بمصاهرة ممتلكات الغائبين. ويهدو المسيحيون متجهين ويتصرفون كما لو كانوا
يريدون القضاء على الإسلام. ويمر عهد الأحمى بون إحسان به فالسكان جد مرهقين.
ومن خلال أمره اليومي الصادر في ٢٩ فلوريال من العلم الثامن (١٩ مايو ١٨٠٠)، بحلول
كثير الحد من أعمال العنف هذه :

«إن القائد العام يتلقى يومياً شكاوى من سكان مدينة القاهرة حول المظالم
والتعديت الأخرى التي يرتكبها في حقهم بأكثر الأشكال تعسفاً قاتبة الأسماء؛ وإلى هذه
الشكاوى، يضيفون اليوم الشكاوى من تعد ليس أقل استحقاقاً للعقاب. إن عدداً من
الإفرنچ والمسيحيين الآخرين المحاولين إلى هؤلاء القاتبة، يحدون لهم زيفاً، لو صنفاً،

البيوت الحمدية التي يجرى فيها إخطاء الأشياء التي كانت قد نهبت منهم، خلال التمرد، واستثنائاً إلى هذه الوشائات، بأمر قلعة الأقسام، اعتماداً على سلطتهم الخاصة، بزيارات تفهيمية إلى المنزل، ويسمحون للمسيحيين بأن يأخذوا - دون أى إجراء آخر - الأشياء التي يقولون أنها كانت ملكهم. وحيث إن مثل هذه الإجراءات لا يمكن إلا أن تثير الذعر والخوف في الصدور، بدلا من أن تعبها إلى السكينة والثقة اللذين تستند عليهما الراحة العامة، فمن الملح القضاء عليهما (١٤٠).

كما يحظر كليبر على قادة الأقسام اتخذا أى إجراء من هذا النوع دون تصريح من قائد اللواء. وتجب الإشارة إلى أن اثنين منهم يؤكدان براعتهما ويقعان شهادات من الأعيان المسلمين في اسميهما تدافع عن شرفهما (١٤١).

تشكيل قوات محلية

تفرض إعادة الفتح توقع إقامة طويلة الأجل في مصر. والحال أن المشكلة الأساسية، بسبب غياب إرسال تعزيزات، هي مشكلة الأعداد. وسوف يتجه كليبر إلى تجنيد قوات محلية. وهو لا تخافه أية أوهام فيما يتعلق بقهرتها العسكرية بالمقارنة مع القيمة العسكرية للقوات الأوروبية. ويمكن للفائتتها أن تكون عظيمة، بالنسبة لحفظ النظام الداخلي، بما يسمح بإرسال الجانب الرئيسي من القوات الفرنسية إلى حدود مصر، في حالة هجوم أنجلو - عثماني. وهو يشكل فيلقاً يونانياً انطلاقاً من السرايا الموجودة بالفعل، ويعهد بقيادته إلى بهاس أوغلو، الرجل الذي كان في السابق محل ثقة مراد بك. أما فلسطينيو الجليل الذين كانوا قد هبوا لنصرة قضية آل الزيداني، والذين لحقوا بالجيش الفرنسي، فإنهم يشكلون نواة قوة إنكشارية واعدة للجهاد. ويجرى ضم للمالك الذين انتقلوا إلى خدمة الفرنسيين إليها. وسوف يصبح هؤلاء كلهم، في ظل ميون، كتيبة للمالك، التي يقودها اليوناني بارتليمي سيرا. وينتقل عدد من الإنكشارية الذين كانوا يخدمون في وثائق الشرطة إلى وحدات قتالية أكثر. كما أن عدداً من العبيد السود للجلوبين من السويين، والذين تم شراؤهم لكي يصبحوا جنوداً، يجرى دمجهم في شبه لواء فرنسي ويخدمون كرماء بالبناتق وضاربين للطبول وناخبين للمزامير. وأخيراً يكلف كليبر المعلم يعقوب بتشكيل فيلق قبلي. وكان هذا الرجل الأخير قد اضطلع بنشاط عظيم جداً في المجال الضريبي، وكان ذلك فيما يتعلق بإطلاع الفرنسيين على أسرار نظام

الضرائب الذي خلفه العثمانيون لم فيما يتعلق بجبلية الضرائب. وهو مرتبط بواحد من فرسان ملطة السابليين، هو تيودور نو لاسكاريس، الذي استولى عليه حب مصر وتعلم العربية. وقد أصبح لاسكاريس مستشاراً للمعلم وهو يساعد على أن يصوغ في لغة سياسية لوروية، ما يستشعره القبطي. بهذه الدرجة أو تلك من التطوش، بالنسبة لمستقبل بلاده. وقد أصبح هذا الارتباط جد وثيق بحيث إنه من غير الممكن أن نميز، في المشاريع المتعاقبة لكل من الرجلين، ما يخص الأول وما يخص الثاني (١٤٢). ويتم الاضطلاع بتجديد هذا الفيلق بشكل نشيط في مصر العليا. وهكذا فإن أكثر من ألف من الأقباط يشكلون وحدة مشهورة بتمسكها وانضباطها. وقد تباينت أعداد هذه القوات الشراعية بحسب الفترات، لكن العون ملحوظ ويلعب دوراً عظيماً في النمو العددي للقوات للمجهزة للقتال، فهي تصبح خمسة عشر ألفاً وثلاثمائة وسبعة وثلاثين رجلاً في ٢٥ مايو ١٨٠٠، ثم تصبح ثمانية عشر ألفاً ومائتين وستة وستين رجلاً في ٢ أكتوبر ١٨٠٠، ثم تصبح عشرين ألفاً ومائة وثلاثة وسبعين رجلاً في ٢٠ فبراير ١٨٠١ (١٤٣). وكثيرون من هؤلاء الشراعيين سوف يلحقون بالفرنسيين في عام ١٨٠١، عند الجلاء عن مصر، وسوف يخدمون في الجيوش الفرنسية للإمبراطورية. وسوف نجد، من جبرار إلى جوياء، شواهد كثيرة عليهم في مجموعة الرسوم الخاصة بالجيش العظيم، والتي تشكل مقدمة للرسم الاستشراقي في القرن التاسع عشر.

إحاطة التنظيم المالية

وهذه الضرورة الخاصة بالاندراج في الاستمرار إنما تجد نفسها مرة أخرى في استئناف إعادة تنظيم الهيكل المالية التي كان قد جرى البدء بها بعد رحيل بوناپارت والتي تركت عند التوصل إلى اتفاق العريش. وتسمح الضرائب الاستثنائية بتصفية متأخرات الرواتب والديون المختلفة ويتمين للمطومات خلال عدة أشهر. ويضاهي إلى تلك مصاريف السفن العثمانية، مع شحناتها، والتي كانت قد دخلت إلى موانئ مصر وثلاثة من سريان مفعول اتفاق العريش. ويلغى الأمر اليومي الصادر في ٨ فلوريال من العام الثامن (٢٨ أبريل ١٨٠٠) إنارة الشؤون المالية. ويجري تكليف لكن للصرف العام لاستيف بالإشراف على الإيرادات العامة. ويتم إلغاء تواجد وكلاء فرنسيين في الأقاليم. ويجري الخلط بين جميع مكونات الضرائب الخاصة بالأرض تحت للمسمى الشامل الخلع بالضريبة العامة النقدية. ولا يتصل ذلك إلا بالأراضي التي انتقل فيها الالتزام إلى الفرنسيين (الغلبة

الكبرى). وسوف يجرى تحديد الضرائب مدفوعة من زاوية نتائج فيضان النيل. والأمناء الأقباط هم الذين سوف يتولون جبايتها، لكن جميع اللطوعات سوف تكون مضمومة بمسوغات، ولتغطية نفقات الأمناء، فسوف يكون لهم الحق في ثمانية في المائة من ناتج الضريبة، هي الكافاة الوحيدة لهم. ولن يكون هناك بعد تأجير التزامي للقرى المنتحية إلى للجال العام (١١١). والقرى، التي لم تسجل على أنها التزامات، تصبح ملكية للجمهورية (١١٢).

ومن ثم فإنه يجرى الانتقال من الامتياز الضريبي العثماني إلى ضريبة مباشرة حقيقية. والحال أن الرسوم العديدة التي لفت، بحجة نفقات الإدارة الإقليمية أو الجباية، إلى زيادة ملحوظة للضريبة التي تطلبها الدولة (للقرى)، قد جرى دمجها بهذه الأخيرة. وهذا القضاء على الوسطاء يسمح بالأمل في قلة أعظم للضريبة. ولا يحدث معاس بالالتزامات الأخيرة إلا أن بالإمكان طلب دفع رسومها نقداً (يجيء الجانب الرئيسي من اللطوعات العينية من مصر العليا التي عهد بها إلى مراد بك الذي لا يجب عليه أن يدفع للفرنسيين غير المهور). ويمكن اعتبار أن الالتزام قد اختلف، بالفعل، في جزء كبير من مصر بالنسبة لسنة ١٢١٤ الضريبة. كما أن الرسوم الضريبية الأخرى تدار بشكل مباشر إلا في بعض الحالات التي يجرى الحفاظ فيها على نظام المزايدات. ويحصل حسن طوبار على معاملة خاصة ويحتفظ بالتزاماته الضريبية. ومن المؤكد أن كليبر لا يرى في عمله الإنلري غير عمل ظرفي يهدف إلى تأمين الحصول على المزيد من الإيرادات النقدية. لكنه يجرى بالتوازي مع ذلك تحقيقاً للتعرف بدقة على إيرادات مصر. وهو يشرح مقصده لشانالييل، فارس مالطة السابق، الذي أصبح وكيلاً فرنسياً وخبيراً في مجال الشؤون المالية لمصر:

إن إجراء إصلاحات عظيمة في الإدارة إنما يتطلب إعادة تنظيم عظيمة، وليس نهني متفتحاً جداً لتهته لا يتكرر عمل كهناذي أربع وعشرين سامة، حتى وإن طلبت عوناً معرفياً من بعض الأشخاص العلميين. [...] لقد قطعنا بالفعل شوطاً بعيداً في إمداد تلك الكتاب للشهير الخاص بطبيعة الضرائب في مصر؛ ولم يعد أمامنا غير معرفة مالا حد له من تلك الرسوم الصغيرة غير المسجلة بالمرة والتي يبدو أنها مكرسة بحكم العرف فقط، ثم معرفة حصنة كل قرية ومسميات هذه الأخيرة؛ وكل ذلك يحتاج إلى وقت جد طويل، ما دام يجب العمل مع الأقباط (١١٦).

تموض موقله كليبر

وتشير كل هذه الأعمال إلى التموض البالغ للأسابيع الأخيرة في حياة كليبر، ومن

الصعب للغاية تصيد نواياه الحقيقية بعد هيليوپوليس. ومن المؤكد أنه يجهز نفسه بوسائل امتلاك جد طويل لمصر. إن جانباً كبيراً من العوامل التي كانت قد قادتته إلى قرطبة في الجلاء قد تلاشى، لقد جرى القضاء على تفسخ القوت بإحساس كل جندي بأن الإنجليز قد أمانوه شخصياً، والمسألة للغاية تجد تسوية لها لعدة أشهر؛ والجيش العثماني قد كف من أن يكون خطراً. وأياً كان رأى كليبر في نظام بونابارت، فإنه يدرك أن التفاوض قد بدأ في الأشهر الأخيرة لحكومة الإنلرة، وأن بونابارت يملك إمكانات مواصلة وقد عمل بنشاط من جهة أخرى على حشد ولاء جيشه للنظام الجديد.

أيها الجنود !

إن مصالح الجمهورية قد جعلت من الضروري تأكيد دستور جديد، وأنا مكلف بعرضه عليكم لقبوله. وأنا أود أن يكون قبولكم إجماعياً وأن تعملوا، بالرغم من المسألة التي تفصلكم عن مواطنكم، على توحيد كرائكم ومصلحتكم وأمانكم مع آراء ومشاعر وأمانى الأمة بكاملها (١١٧).

ومع انهيار الاتفاق، يجد جيشه نفسه في استعجال التدخل في أوروبا، في المعارك الكبرى التي تنهيا للوقوع. إن كليبر محكوم عليه بالبقاء في مصر. ولمى بيهاتته إلى الجيش، لا يتحدث بعد عن العودة، لكنه لا يقدم كذلك أى مؤشر على نواياه في الأجل الطويل. ويشير حواره الأخير مع مينو إلى دوام تحفظاته. إن قائد رشيد السابق لم يصل لهذا إلى العاصمة بالرغم من مطالبات كليبر الملحة له بالحضور، وهو يرفض الآن مرض تولي قيادة القاهرة. وعندئذ يقترح عليه كليبر تولي قيادة مصر الوسطى، ويتكرر الرفض. وهو لا يصل إلى النتيجة إلا بعد الاستيلاء على العاصمة. وأمام نفاذ صبر كليبر الذى يوضح له أنه، فيما عدا تولي للقيادة العامة، لا يعرف ما هو للنصب الذى يمكن أن يقترحه عليه، فإنه يقبل تولي قيادة مصر الوسطى، وكملة، لا يصل إلى موافقه. على العكس، إنه يستغل إقامته في القاهرة لكي يحول كليبر إلى قبول الفكرة الاستعمارية. وهو يفعل ذلك بشكل بالغ السوء، حيث يصف اتفاق العرش بأنه خطأ سياسى. ويجر على نفسه هذا الرد القاسى من الأكراسى:

«إن لمولى لا حد له لأننى مازلت إلى اليوم لا أعتقد أن اتفاق العرش كان خطأ سياسياً، ولأننى لا أعتقد أن الانتصار الذى لمرزى الجيش يمكن أن يكون موضوعاً للنشوة، ولأننى مازلت إلى اليوم على إيمان بالغ العمق بأننى قد تمكنت، عن طريق هذه

للعاهدة، من إيجاد مخرج معقول من المشروع الأكثر تبهيراً، ولأننى مازلت إلى اليوم على اقتناع باننا لا يمكننا الأمل فى أى عون من فرنسا وباننا لن نشكل مستعمرات فى مصر أبداً، لو على الأقل خلال هذه الحرب، ولو لجرد أن زعمى القطن وزعمى النخل لن يتجوا بسرعة جنوداً وحديداً مسبوكة. [...] وفى جميع الحالات، ستنهى منذ هذا الحد مناقشاتنا السياسية. إنك، أيها الجنرال، تدبر وجهك صوب الشرق، أما أنا، فلأننى لست وجهى نحو الغرب؛ ونحن لن نتلق أبداً (١٤٨).

مشاريع السلطان الجديد

أما سيدنى سميث - للتألم لفشل عمله - فإنه يتطلع إلى استثنائه بإعطاء اتجاه إضافى له، إنه لا يمكنه بعد انتظار شىء من الإمبراطورية العثمانية، إن للجانب الرئيسى من قواتها المسلحة قد يمر فى معركة هيليوپوليس وفى الأيام التى تلتها. أما الجزائر، الساخط على إعادة توطيد سلطة الأمير بشير، فإنه يتصرف كملك مستقل ويرفض التعاون مع الصدر الأعظم. بل إنه يبدو مستعداً لإعلان الحرب عليه. وأياً كان الأمر، فإن الجيش العثمانى الكبير نفسه، بسبب عدم انضباطه، ما كان ليقتدر على أن يمثل خطراً جدياً بالنسبة للفرنسيين. والحال أن العميد البحرى كان قد فكر بالفعل، قبل الهزيمة العثمانية، فى العودة إلى فكره الأولى الخاصة باستخدام جنود جيش الشرق فى الصراعات السياسية الداخلية فى فرنسا، وما لم يوناهاوت يتصرف ككرومويل جديد، كديكتاتور جمهورى، فإن كليبر سوف يكون مونكا ممتازاً، جنرالاً يعيد للكلية (١٤٩). وتستند هذه الفكرة إلى تصريحات كليبر لرسول العميد البحرى عشية معركة هيليوپوليس، ويلاحظ سيدنى سميث أن الجنرال قد أسقط اسم الشرق من التسمية الرسمية لجيشه إلا فيما يتعلق بخاتمه، وهو يحلل الحالة الذهنية للجيش الفرنسى فى اتجاهين، حزب «استعماري» يؤيد إقامة قائمة فى مصر، ويستشعر تعزلاً بانتصار هيليوپوليس، وحزب مؤيد للجلاء، يحكم للثقل من مصر ويحكم الرغبة فى الخدمة فى أوروبا، حيث تدور المعارك الحاسمة. ومن شأن وصول جنود فرنسيين أن يعزّز الاستعماريين. والحال أن العميد البحرى لا يملك السفن الضرورية لمنع هذا الإرسال. ومن ثم يجب استئناف المفاوضات مع كليبر (١٥٠).

وتصبح المسألة معقدة بشكل خاص. فمن جهة، يتتاب العثمانيون الغضب مما حدث

في مصر، ويرون أن استئناف الأعمال الحربية كان حثاً بليغاً من جانب الفرنسيين وخيانة حقيقية، وقد يراغبون أي اتصال جديد مع الفرنسيين. ومن جهة أخرى، فإنه لو جرى استئناف هذه الاتصالات، فلابد من مراعاة أن كل شيء سوف يجرى هذه المرة من غير الإنجليز وأن العثمانيين سوف يقترحون على الفرنسيين جلاءً برياً مصحوباً في نهاية الأمر بقلب التحالفات، إن جيش الشرق سوف يحارب الروس إلى جانب العثمانيين. ويعرف سيدي سميت الاتجاه العام للمقترحات التي قدمها كليبر قبل معركة هيلوبوليس وهو لا يجهل أن هذه الأفكار تسر أكثر من مسئول عثماني. ومن جهة أخرى، فإنه يحاول نون طائل كسب مراد بك إلى صف القضية العثمانية، ويعرف أن القوة التي استعانها الزعيم للملوكي الكبير تزعم الباب العالي إزهاجاً ملحوظاً (١٥١).

القضية مع الإنجليز

على أن الصدر الأعظم كان قد سمى، منذ وصوله إلى سوريا، إلى استئناف الحوار مع كليبر، ولكن لكي يخلط، بنبرة تهديدية، بالتطبيع الفوري لاتفاق العرش. وقد أهد كليبر الرسالة مع التعليق التالي: «حيث إن الرسالة أعلاه غير لائقة في تعبيراتها وزائفة وبلا معنى في مزاممها، ومثيرة للسخرية في تهديداتها، فليس بالإمكان الرد عليها» (١٥٢). إلا أنه لابد من التحدث ولو لمجرد تسوية حالة الرهائن. فالعثمانيون يحتجزون عدة ضباط من بينهم برنو، مساند كليبر، والفرنسيون يحتجزون وجهاء عثمانيين، من بينهم مصطفى باشا (١٥٣). ويجري إرسال هذا الأخير إلى نسيط، لمبايلته، لكنه يموت في هذا المناء. وسوف ينفن هناك بمظاهر التكريم العسكري من جانب الفرنسيين. والحال أن مسألة التبادل هذه سوف تتأجل كذلك لبعض الوقت قبل أن يتسنى تحقيقها.

وعلى الرغم من أن كليبر يعترف لسيدي سميت بأمانة مصلكه، فإنه يقرر عدم الحفاظ على الاتصالات مع الإنجليز، لو على الأقل، الحد من هذه الاتصالات قدر الإمكان. وعندما يبلغ اللورد كيث كليبر بأنه قد حصل على تصريح بالسماح بانتقال الجيش الفرنسي إلى لوردوا، فإن الأمر يصل بكليبر إلى حد عدم الرد. ويحذر من هذا الموقف الاكتشاف الذي يتم في نسيط لأوراق مورييه، التي تركها هذا الأخير وراءه، بعد معركة هيلوبوليس. ففي تلك الأوراق يشار في عدة مواضع إلى مشروع «الخدمة الحربية» الذي لا يمكن أن يكون غير أسر الفرنسيين خلال جلائهم عن طريق البحر. ويجري نشر هذا

النص في صحيفة لوكوربيه بوليهيهيت مع الإشعار بأن أى شخص يجرء من طرف مورييه إلى جيش الجمهورية سوف يعتبر جاسوساً ويشتكى على شجرة. والشيء نفسه سوف يحدث له إذا ما جاء هو نفسه (١٥٤). والحال أن مورييه كان قد كلف من جانب اللورد إيلجين بتوضيح أنه لم تعد هناك عقبة أمام تنفيذ اتفاق العريش. والإشعار واضح ويصف سيدنى سميث لرفض كليبر (١٥٥). وفي أوائل يونيو، يحاول العميد البحري استئناف الاتصال ويرسل للملازم وايت إلى الإسكندرية للتحدث مع كليبر. على أن لانوس الذى يقود الميناء يحظر عليه الذهاب إلى القاهرة ويعينه إلى الأسطول الإنجليزى (١٥٦).

المفاوضات مع العثمانيين

على أن كليبر يحرص على الحفاظ على علاقات مع العثمانيين. وهو يخشى من عودة هجومية لجيش الصدر الأعظم. وعندما تشير معلومات إلى وجود حشود عثمانية إلى سيناء، فإنه يرسل ريديه مع تعزيزات إلى شرق الدلتا (١٥٧). لكن ذلك ليس غير إنذار زائف. وبعد ذلك بوقت قصير، يضطر سيدنى سميث إلى التخلص من حصار الإسكندرية لإعانة تزويد السفن بالمؤن ولإجراء بعض الإصلاحات. ويحل محله الأسطول العثمانى، الذى يقوده القايدون باشا. لكن هذا الأخير معك لسيدنى سميث الذى يعتبره مسؤولاً عن الكارثة العثمانية الأخيرة. وتبدو هذه الحركة مزعجة ويقرر كليبر الوجود بنفسه مع تعزيزات في منطقة الإسكندرية. وبما أن ريديه لم يك قد عاد بعد إلى العاصمة وبما أن مينو لم يك قد ذهب أبداً إلى مواقعه في مصر الوسطى، فإن كليبر يعهد إلى الثانى بقيادة القاهرة (٢ يونيو ١٨٠٠)، مع أمره بالتنسيق مع ريديه حول التناهي التي يجب اتخاذها عندما يعود. والواقع أن نية الأميرال العثمانى مختلفة تماماً فهو هناك من أجل بدء مفاوضات مستقلة عن المفاوضات التي يسطع بها الصدر الأعظم من جانبه من أجل تطبيق اتفاق العريش (١٥٨). وفي أول يونيو، يرسل القايدون باشا إلى قبر، إسحق بك، صديق سليم الثالث في شبابه، والذي اعتاد التردد في السابق على بلاط فرساي.

وما أن يعرف مينو للخبر حتى يبلغ كليبر بأنه قد سمع من إسحق بك من صديقه السابق، شواسول - جوفيه، السفير الأخير للملكية في القسطنطينية. فهذا الموظف العثمانى الكبير، وهو أحد أول للتكلمين (العثمانيين) بالفرنسية بطلاقة، هو وصولى

خطر سار، بعد أن كفلت له فرنسا معاشاً، في إثر شواسول - جوفيه في خدمة روسيا^(١٥٩). ويطمئن كليبر ميتو على الفور إنه يعرف منذ وقت بعيد سمعة إسحق بك، الشهيد الود والشهيد التآمر. إنه لن يجد هذه المرة الفرصة للاستغلال صيفه الجميلة وبلاغته الفرية^(١٦٠). إلا أنه يبدو من الواضح أن كليبر يتوى استئناف المفاوضات، وهدفه هو إجراء مراسلات مع القسطنطينية، سعياً إلى تحريك الريبة فيما بين الإنجليز والعثمانيين وإلى التوصل إلى الفوز بحياد الإمبراطورية العثمانية إلى حين عقد المصلح الشامل^(١٦١).

مخطوط طيزيه

في الوقت الذي يسبق انهيار اتفاق العريش، تصدى لجنة مسؤولين فرنسيين مغادرة مصر. وهكذا فإن نوجا قد عاد إلى فرنسا، وكذلك بوسيلج، بعد مهمتهما لدى اللورد كيث. أما بيزيه فقد رحل هو الآخر، بناء على تعليمات من بوناپارت، مع حاشيته المباشرة في ٢ مارس ١٨٠٠. وبعد اعتراض الأسطول الإنجليزي لسبيله، عومل معاملة لينة من جانب اللورد كيث الذي أقرج عنه في نهاية الأمر، بحسب القبول للتأخر للاتفاق من جانب الحكومة البريطانية. وهو ينزل في طولون في ٥ مايو، ويقضى مدة طويلة في الحجر الصحي ثم يصل إلى مقر القيادة العامة للجنرال بوناپارت في إيطاليا، في ١١ يونيو. ويعهد إليه القنصل الأول بقيادة فرقتين، تشكلان قوة منفصلة عن بقية الجيش الفرنسي. وفي صباح ١٤ يونيو ١٨٠٠، فإن بوناپارت، الذي لا يصدق وجود الجانب الرئيسي للقوات النمساوية، لم يك قد بدأ بعد حشد القوات الفرنسية، وعندما يتم الهجوم عليه في مارينجو. وفي أوائل ما بعد الظهر، يضطر الفرنسيون إلى التفتقر بنظام جيد، أمام مطاردة جد فائرة من جانب النمساويين. لكن بيزيه، الذي سمع نوى للدافع، يصل مع رجاله. ويقود مجلس حربي سريع أن جنود بيزيه، مدعومين بمنفعة مارمون والقوات التي أمكن إعادة تشكيلها في ترتيب قتالي، سوف يخوضون معركة مؤخرة تهدف إلى السماح بإفلات الجيش الفرنسي. والحال أن بيزيه بمشاته، وكيليرمان بفرسانه، يهجمان بالندفاع على الجيش النمساوي الذي لم يتوقع مثل هذا الانقلاب. وتتحول الهزيمة إلى انتصار غير متوقع. ويلقى بيزيه مصرعه في بداية المعركة، لكن سلطة بوناپارت التي كانت حتى تلك الحين مزعومة، تصبح الآن واضحة بشكل حاسم^(١٦٢).

الاحتلال لكليبر

فى اليوم نفسه، وتقريباً فى تلك الساعة التى يظهر فيها بيزيه فى ساحة معركة مارينجو، فإن كليبر، الذى يتنزه فى حدائق مقر القيادة العامة بالقاهرة مع المهندس المعماري بروتان، يرى قريباً يقترب منه. ولما كان قد حسبته صاحب الشمس، فإنه يمد إليه يده. وعندئذ يجرى طعنه هو ورفيقه عدة طعنات بسكين. ويندفع جنود الحراسة الذين استنفرتهم الصرخات ويجدون قائدهم العلم مشرباً على اللوت (١٦٦). ويتشربونها فوراً فى القاهرة. ويخشى السكان من مذبحة شاملة، انتقاماً من الاحتلال، بينما يتصور الفرنسيون أن الاحتلال هو إشارة لبداية انتفاضة جديدة. ولحسن الحظ يتم العثور على القاتل الذى كان قد لاذ بحديقة مجاورة. وهو حلبى اسمه سليمان. ويجرى على الفور التحقيق معه وتعذيبه على يد بارتيليمى الذى يحصل على كل حقائق المسألة.

لقد تصرف الرجل بمفرده. وقد اكتفى بكشف مشروعه لمشايع من الأزهر حاولوا ثنيه عنه دون أن يقوموا مع ذلك بإبلاغ السلطات الفرنسية. ويجرى دعوة الشبهخين الشرقاوى والعريشى إلى الاجتماع فوراً وتصدر إليهما الأوامر بالتحرك لإلقاء القبض على عدد من الأزهريين. وتجتمع محكمة عسكرية فى ١٥ و ١٦ يونيو، وتحكم على الحلبى بقطع زنده، وبخزنته علناً. ولا يحق للأزهريين غير الاكتفاء بقطع رؤوسهم. والحال أن الجبرتى، وهو محور النسخة الأخيرة من حواشيه فى عصر فتن وأعمال تدمير، سوف يعلن الجانب النموذجى للإجراءات التى اتبعتها الفرنسيون، إن هؤلاء الناس الذين لا يستوشدون إلا بالعقل، قد سلكوا مسلكاً أكثر لياقة وأكثر عدالة من مسلك المسلمين المزعومين الذين يخربون مصر. وخلافاً لبعض التعليقات، فإن ذلك لا يعنى تأكيداً لتفوق العقل على الوحي الإسلامى، بل هو مجرد إدانة أدبية لأولئك الذين يحكمون مصر فى وقت التحرير النهائى للمحليات (١٦٦).

ومع مصرع البطل، يطلق المدفع طلقة كل نصف ساعة. وفى صباح ١٧ يونيو، تعلن سلسلة من طلقات المدفعية الصلابة من القلعة ومن مختلف الحصون بداية التراسم الجنائزية. والحال أن الجثمان، الذى يجرى نقله على عربة مغطاة بمطرش مخملى أسود موشى بعبرات فضية، والمحاط بمجموعة من الأسلحة تذكراً للنصر وبخونة ويسيف الجهل، إنما يهترق أولاً شوارع القاهرة ثم يتوجه إلى مزرعة إبراهيم بك فى مدخل الحى الأندلسى خارج المدينة. ويملأ فوراً بالبنين، ثم يتابع الجيش، وهو يضع أكاليل الغار

والصنوبر. وبعد الدفن، يتحرك الحاضرون لمشاهدة منظر إعدام القاتل. ويجرى البدء بقطع رؤوس للشايخ المرتعدين، ثم يحرق بارتياح زبد القاتل ويتجه إلى خوزقته. ويتصرف الحلبي بهشاشة، مريدًا الشهادتين وآيات من القرآن. ويمج الحاضرون للشهد بصرمة ويتفرقون. على أن الحلبي يحيا مع تلك أربع ساعات. والحال أن جنبها فرنسيا شقوقا، ما إن يغادر الجميع المسرح، يتناول الشقى كأسا ليشرّب منه بما يعجل، وهو على علم بالسبب، يموت في الحال.

وهذه الطقوس الغريبة، حيث تجتمع العبادة الكلاسيكية الجديدة للأبطال القتلى في سبيل الوطن مع الشعائر الإسلامية، من المرجح أنها كثر تجلّ جنائزى للجمهورية. فبرحيل كليبر، يختلج مفهوم جمهوري معين عن الوطنية والثورة. وبالنسبة له، فإن صعود بوناپارت ليس هو سبب لإنهيار النظام، بل هو عرض من أعراضه. وشكّه في ذلك شأن كثيرين من الجمهوريين للخلاصين والمتقنين، كان قد وصل إلى تمنى تجربة ملكية ليبرالية وديمقراطية.

وبما أن الروح العلمية لا تغيب أبداً، فإن لارى ينجح في أخذ جثمان سليمان الحلبي لضمه إلى مجموعته. وعلى مدار سنوات سوف يجرى عرض جمجمة قاتل كليبر على طلبة الطب سعياً إلى تمكينهم من رؤية علامة الجريمة والتعصب، قبل أن تنتهى إلى متحف الإنسان (١٦٥).

حواشي الفصل السابع

Kléber et Bonaparte..., II, pp. 506 - 508 .

- ١ -

٢ - من هنا منك رسالته إلى بوناپارت والمؤرخة في ٢٦ أغسطس ١٧٩٩ : «امن للممكن أنك لم يكن لديك ما يكفي من الثقة في أحد ممن تركتهم هنا لكي تقول لهم إنك تتركهم هنا وإن الأحوال في أوروبا قد فرضت ذلك وفوراً » إن جميع أولئك الذين جاءوا إلى هنا لم يفعلوا ذلك إلا لأنك كنت قائد الحملة وانهم بسبب تعلقهم بك قد ضحوا أيضاً بأمن ما لديهم وذلك دون إبداء شكوى. إن الأمل في رؤية عائلاتهم من جديد، وصمتك وهزيمك قد أصابهم باليأس لأنك لم تقدم مبررات لذلك. لقد كان يوسمك أن تفعل ذلك وأنا على ثقة من أن ذلك كان واجباً عليك. B6 100

Capitaine de LA GREVERIE, *L'armée d'Orient sous Kléber*. Cet - ٢
officier avait été désigné après la mort de La Jonquière pour continuer la grande entreprise. Ce travail a été certainement interrompu par la guerre mondiale. On ne dispose que d'une étude préliminaire, concernant les deux premiers mois, parue dans la *Revue d'Histoire Rédigée à l'Etat - Major de l'Armée*, en 1911 et 1912. l'auteur y marque un intérêt plus grand pour la psychologie des personnages que La Jonquière, qui était plus intéressé par une stricte érudition militaire. On ne peut que regretter l'inachèvement de cette entreprise. Citation de Dugua, 1911, p. 186.

٤ - (pp. 270 - 271) MIOT يرصد ميرو جيلاً المراحل المختلفة لربود فعل الجيش على رحيل بوناپارت : «لقد كانت ثقتنا فيه جد عالية بحيث إننا رأينا أننا قد كتب علينا الموت في إفريقيا، عندما علمنا أنه قد أبحر من الإسكندرية. ذلك هو الانطباع الأول الذي تركه لدى الجيش رحيل القائد العام. وسوف يحل مزاج سييء بعد الأسف وسوف يصبح هذا المزاج علماً. لقد تذكر البعض ما قاله عندما علم بطشيع اسطولنا وأخذوا عليه فصله مصيره من محير الجنود الذين فعلوا كل شيء من أجل مجده؛ ومعنى بعضهم الآخر إلى إيجاد مدبر له بالحديث عن دوافع قوية لرحيل جد سيء وجد سريع إلى هذا الحد؛ إن هؤلاء عظيمة هي وحيها التي يمكن أن تكون قد دفعت إلى ترك مصر؛ لقد ذهب لإقلاق فرنسا؛ لكن بعض الأشخاص الأكثر ذكاءً رأوا أن لديه إمكانيات طموحه، على أن الجميع، من خلال تأمل مواقفنا السابق، قد اتهموه بنكران الجميل ويسوء الدنيا. وتلك هي مصيرة الذهن الإنساني، فهو بعد أن يستنفذ جميع السياقات الأكثر انفعالية للإيجابية، جميع إمكانيات مستقبل محزن، يتعلق تعلقاً ملحاً بالهشيم الأكثر خفوتاً لأمل طامحاً ما يكون كلاباً، وهكذا فإن الأمل، في تغير مؤات في فرنسا والأمل الأكثر خفوتاً أيضاً في سلام قريب وكريم قد انبأ شيئاً فشيئاً إلى تهمة القلق الذي كنا فيه. لقد وهنت بوناپارت بعون عاجل، وقد اعتمدنا على ذلك مرارتهن على الأهمية التي لا بد وأن سوف يوليها للحفاظ على قبحه.

وأخيراً، فإن اسم كليبر قد لُحِزَ تهبة الخواطر الأكثر انزعاجاً؛ لقد كان يتمتع بالاحترام والثقة من جانب الجنود، وقد كان أملاً لهما.

Kléber à l'armée, Le Caire, le 14 fructidor an VII (31 août 1799), - ٥
ROUSSEAU, *Kléber et Menou en Egypte depuis le départ de Bonaparte*, Paris, 1900, p. 8.

Ordre du Jour du 19 fructidor an VII (5 septembre 1799), - ٦
ROUSSEAU, p. 14.

Kléber aux membres du diwan du Caire, le 17 fructidor an VII (3 - ٧
septembre 1798), ROUSSEAU, p. 10.

JABARTI, 29 rabi al awwal 1214. - ٨

WIET, p. 83. - ٩

Courrier de l'Égypte, le 10 vendémiaire an VIII. - ١٠

"Les finances de l'Égypte pendant l'occupation française", *La - ١١*
Revue Britannique, 1882, pp. 437 - 497.

Kléber à l'ordonnateur en chef, le 3 vendémiaire an VIII (25 - ١٢
septembre 1799), B6 113.

JABARTI, 7 jumada al ula 1214 - ١٣

١٤ - Textes dans ROUSSEAU, pp. 31 - 34. في ٢٢ فريكتيدور، اعتبر كليبر
بالفعل المصريين والوكلاء المحليين مسؤولين مالياً عن جميع تحويلات الأموال (25 - 24 PP).

Ordre du jour du 30 fructidor an VII (16 septembre 1798), - ١٥
ROUSSEAU, pp. 41 - 42.

Ordre du jour du 2^e jour complémentaire an VII (18 septembre - ١٦
1799), pp. 52 - 53.

Ordre du jour du 2 frimaire an VIII et *Courrier de l'Égypte* du 10 - ١٧
frimaire an VIII (1^{er} décembre 1799).

١٨ - ١٩ فريكتيدور من العام السابع (٥ سبتمبر ١٧٩٩). إن إريان، الذي ولد في هام
١٧٥٨، كان قد قام بخدمة عسكرية أولى في ظل النظام القديم، ثم دخل الحرس الوطني. وقد خدم
على الجبهة ثم في إيطاليا. وسوف يخوض جميع الحملات الإمبراطورية حتى بوتلو
(*Dictionnaire Napoléon*).

Histoire Scientifique, VI, pp. 411 - 413. Kléber au Directoire, le - ١٩
25 Brumaire an VIII (16 novembre 1799), ROUSSEAU, p. 114.

Je l'ai publiée en l'annotant dans *Kléber et Bonaparte*, II, pp. 515 – ٧٠ - 532.

Cela constitue tout le tome III des *Copies of Original Letters from – ٧١ the French Army*, Londres, 1800.

٢٢ - *Courrier de l'Égypte* du 9 brumaire an VIII (31 octobre 1799). لم يصل رسل إلى مصر في تلك الفترة. ومن ثم فلم يكن بالإمكان تقديم الصحف إلا من جانب الإنجليز، وهو ما يتطابق تماماً مع استراتيجية تدمير المعنويات التي ابتدعها سيدي سميت. ومن جهة أخرى، فإن كليبر يكتب إلى مينو في ٢٦ أكتوبر أنه قد تلقى للتو البصرة التي تضم رسائل جون كيث الخامسة بالطلاق قبل الأسرى. (ROUSSEAU, p. 100).

B6 110, Dugua à Lagrange, le 16 vendémiaire an VIII (8 octobre – ٢٣ 1799).

٢٤ - إن [فيرييه] الذي ولد في عام ١٧٦٧، ودخل الخدمة في عام ١٧٨٥، قد خدم في جيش البيرينيز، ثم في جيش إيطاليا. وسوف يكون ملحقاً من مورا وسيبقى جزءاً كبيراً من خدمته التالية في إيطاليا فيما صد مشاركة في حرب إسبانيا ومشاركة أخرى في حملة روسيا. (*Dictionnaire Napoléon*). وكانت زوجته من أصل إيطالي، ومعروفة من جانب الجنود، خاصة خلال حملة سوريا. وقد زعم البعض أنها كانت عشيقته لكليبر في مصر.

٢٥ - على سبيل المثال، B6 31, 16 et 21 septembre 1799، رسائل زعيم عرب الحريش، القسم يعقوب، إلى زعيم عرب الدلتا، حسن طوبار، وفرمان الباب العالي ضد الفرنسيين. إن مضمون النص هو مضمون النصوص السابقة: إن الفرنسيين هم أعداء المسلمين والمسيحيين، ولا يجب الانسياق لكلامهم للمسؤول. وإن الجيش الذي لا يتهرب والجرار الذي يفوقه الصمد الأعظم سوف يخلص مصر قريباً.

٢٦ - B6 133، كليبر إلى فيرييه، ٢ برومير من العلم الثامن (٢٤ أكتوبر ١٧٩٩)، إن حسن طوبار يلهينا بتفاصيل وديق للغاية يقدمها إلينا على أنها رسائل مهمة ويطلب تصاريح بتصدير بعض الأقمشة، في حين أنني على يقين من أن القوائم التي تذهب إلى سوريا تعمل كلها تقريباً لحسابه. إلا أنه يجب التحلي بالصبر والاستقامة من الرجل لعدم وجود دليل القتل. لا تسمح لأن ياتكشاف شيء.

٢٧ - انظر FO 78 24 : Minutes du conseil de guerre tenu à bord du vaisseau de sa Majesté Britannique le Tigre, à l'ancre devant Limassol, le 8 octobre 1798. إن توملان (بروملي) هو الذي ولعب دور الرسول بين سيدي سميت والصمد الأعظم في دمشق. وكان على سيدي سميت إن يهديه في الأيام التالية حملاً من جانب الإنكشارية الذين اغتالوا باترونا بك، مسؤوليته عن هزيمة أبو القير (FO 78 24 : Sidney Smith au Caimacam Pacha le 10 octobre 1799).

٢٨ - سيدي سميت إلى نيلسون، ٨ نوفمبر ١٧٩٩، إن إلناهم بأن اتصالات

كالانتماءات على قوائم سوف تقتل معهم قتالا تلاحميا، بالرغم من انها غير نظامية، لابد وان تكلفهم غالبا في نهاية الامر، هو حقيقة اسمى، بطبيعة الحال، إلى إضمارهم بها من أجل حثهم على التصالح مع الجلاء دون مزيد من إرادة الجماع، BARROW, I, p. 379.

Bonaparte avait proposé la désignation de Berthier, mais Monge - ٢٩
s'y était opposé en rappelant les railleries de ce dernier savant. Pour ne pas vexer son chef d'état - major, Bonaparte avait envers les alors décidé de ne désigner aucun général de division (GOBY, *Le Premier Institut d'Égypte...*, pp. XIII - XIV).

Kléber et Bonaparte..., II, p. 504. - ٣٠

Histoire Scientifique..., VI, p. 435. - ٣١

Note concernant le jeune Ibrahim Sabbach par Fourier, secrétaire - ٣٢
de l'Institut, mars 1800, B6 42.

Notre Ibrahim Sabbagh doit être le Mikhall Sabbagh auteur de - ٣٣
cette biographie, voir Abdul Karim RAFAQ, *The Province of Damascus*, Beyrouth, 1966, p. 331.

Histoire Scientifique..., VI, pp. 417 - 418 et *Courrier de L'Égypte*, 10 frimaire an VIII et 10 nivôse an - VIII (31 décembre 1799). - ٣٤

Kléber au président de la commission, le 4 frimaire an VIII (25 - ٣٥
novembre 1799), ROUSSEAU, p. 122.

Kléber au président de l' Institut, le 1^{er} frimaire an VIII (22 - ٣٦
novembre 1799), ROUSSEAU, pp. 123 - 124.

HAMELIN, " Douze ans de ma vie", *La revue de Paris*, - ٣٧
novembre - décembre 1926, pp. 830 - 831 :
عليهم العزيمة التي كلنوا معتزين بها من حق، كلنوا يحبون في حذر متواصل احبهم من الآخر
وكلنوا يراهمون تباين بحوثهم فيما بينهم. وقد قال لهم فوريه دون طائل ان هذه الأعمال للبعثرة
لا تصعد للخطر وان من الضروري جمعها وتنسيقها حتى يتسنى تحويلها إلى هيكل عمل كبير
من مصر. والحال ان الهنرال كليبر الذي كان يرى الرأي نفسه قد جمعهم عدة مرات متتدة دون ان
يتمكن من التوصل إلى شيء حاسم؛ وفي نهاية الامر، خطر له ان يقترح عليهم ان يكون ناشراً لهذا
العمل المهم. وقد راقبوا على ذلك، وارسل الهنرال في طلبى. وجرى الاتفاق على عقد اتفاق يدخل
فيه كل واحد من زوايا اهمية ومساحة أعماله. وكان هذا التلخيص هو النقطة الأصعب. إلا انه بفضل
قوة كلام الهنرال، أمكن التلخيص عليها. وقد تمهنت بتلخيص الأموال اللازمة وخمسة لكل واحد
جزء من الأرباح يتناسب مع العمل الذي سوف يسلمه إلى في فرنسا. وقد وقع الجميع على هذا
الاتفاق كما وقعت عليه. توجد نسخة من الاتفاق في (B6 62).

Courrier de l'Égypte, le 3 pluviôse an VIII

- ٢٨

M. A. E., *Correspondance politique, Turquie*, Vol. 201 et - ٢٩

BOULAY DE LA MEURTHER, *Le Directoire...*, pp. 215 - 217.

Détail de toutes ces mesures dans Jean THIRY, *L'aube du* - ٤٠

Consulat, Paris, 1948, pp. 235 - 239.

B6 111, Registre secret du général Kléber (contient toutes les - ٤١

pièces de la négociation dont un grand nombre d'inédites, sauf indications contraires, je renvoie à ce registre), le 5e jour complémentaire an VII (21 septembre 1799).

FO 78 24, Extrait du rapport du Capigi Bashi Ali Aga, Haznadar- ٤٢

de Moustafa pacha, ci - devant seraskier d' Ahranone (?) et aujourd'hui prisonnier au Caire, envoyé au camp impérial avec des lettres.

B6 111, Kléber à Menou, le 12 vendémiaire an VIII (4 octobre - ٤٣

1799).

B6 111, Notes de la conférence tenue le 20 vendémiaire an VIII - ٤٤

(12 octobre 1799) entre le général Kléber et l'Effendi Mahmed Ruchdy en présence du citoyen Poussielgue, administrateur général des finances, et de Moustafa Pacha, le citoyen Brasewich ayant servi d'interprète.

FO 78 22 - ٤٥ ، سيني سميث إلى سبنسر سميث، ٢٠ أكتوبر ١٧٩٩ : «أرجو أن

تراقب الوزارة الجليلة بسائس الفرنسيين عن قرب حيث إنهم يستأنفون الآن نظامهم الفاسدة الأولى بالإسلام مع أن بوسعي أن تؤكد وأتأكد أن معظمهم لا يبن له. أما وإن الحال كذلك، فإنني أحاول إبعاد المسيحيين عنهم بتحريرهم من الضيقة لهم يدعون الأمور تمر عندما تأخذ الحراء لون الأرض. وأرجو أن تكون قد نهجت في إبعاد كل أنصارهم عنهم بين مسيحيي جبل لبنان والقدس ويمكنني الزعم بأن ولاءهم وانصياعهم للسلطة الشرعية سوف يتميزان بالثبات والاستمرارية إذا ما تلقى صاحب الجلالة الإمبراطورية على الإتصالات أرجائي بأن يشمل برعايته هذا النوع من رعاياه، بحيث يتم منع مظالم ووحشية المولاة البعيدين الذين يتتبعون الفرمانات الخيرية التي أصدرها لأجل راحتهم. إن قانون وتاريخ للمسيحيين ليسا غير معروفين للوزارة العلية والجليلة، إنهما يومئذيانهم بالتحلي بالصبر واطاعة حكومة البلد الذي يسكنونه وأنا على ثقة من أنه لا يمكن لأي شيء سوى التذكير أن يدعهم إلى اشتباه غير كالنير الفرنسي بديلا عن الحكومة الأبوية للإمبراطور السلطان سليم الأكثر عدلا والأكثر شهامة».

FO 7823, Franckini à Sidney Smith le 27 octobre et Sidney Smith - ٤٦

à Spencer Smith le 9 novembre 1799.

Dominique CHEVALLIER, *La société du Mont Liban...*, p. 96. - ٤٧

يشير إلى أهمية دور سيدي سميت في هذه المسألة وأكثر هذا العمل على المدى الطويل ، إنه سوف يكون عنصراً تاريخياً مهماً لطلاب إقليمية في تصور تالية.

Quand Kléber parle de préliminaires de paix bien qu'il ne soit pas – ٤٨
mandaté par le Directoire, il a à l'esprit le précédent de Leoben où en avril 1797, Bonaparte, en même temps qu'un armistice avait conclu des préliminaires de paix sans en avoir reçu les pouvoirs du gouvernement.

Gaston WIET a publié en 1945 au Caire le journal du capitaine – ٤٩
Bouchaud (l'inventeur de la pierre de Rosette rédigé en 1805 sur la prise d'El Arich. Il l'a complété d'un certain nombre de pièces. Il faut y ajouter le récit du commandant du fort, Cazals (B6 38), les dépêches de Tromelin et du colonel Douglas à Sidney Smith (FO 78 23) et une traduction en français d'un journal de marche d'un membre de l'entourage du Grand Vizir (FO 78 29). On possède rarement autant de documents sur un événement de ce genre.

٥٠ - B6 36 ، دوجا إلى كليبر، ٤ نيفوز من العلم الثامن (٢٥ ديسمبر ١٧٩٩) ، علمت مساء البارحة مند عويتي إلى منزلي من اللواتن صليديا، حارس مستودع اللحوم، ان شخصاً لمير معروف له قال في اللقي امامه وامام للوطنين ايميني وبيرجون الفرنسيين الذين تركوا في يافا قد انضموا إلى الأتراك للزحف خشنا، وأن عديهم اريعمكة وانه قد جرى تجنيد فرنسيين للعمل لصالح المماليك. وفي اليوم التالي، تسمح عمليات لفتيش بإلقاء القبض على عدد من الفرنسيين الفارين والمصريين الذين يوفرون لهم اللوى. ويكتب كليبر في اليوم نفسه إلى دوجا امراً بقطع رؤوس المصريين ويحول الفارين إلى مجلس حوى وانه قد توصل بنفسه إلى اكتشاف مؤامرة أخرى ليست أقل أهمية وأكثر سرية. ويشته في أن روزيتي يريد التدخل في اتصال مع الإنجليز ويتلقى تحذيراً بشأن علاقات الاجتمالية (يلمس إلى دوجا، ١٩ نيفوز - ٩ يناير ١٨٠٠). ومن المؤكد أن حالات الفرار تصبح كثيرة في تلك الفترة. وسوف تشكل اساس جماعة المماليك الفرنسيين الذين سوف يلعبون دوراً معيناً بعد عام ١٨٠١.

Kléber au général Desaix et au citoyen Poussielgue, Au quartier – ٥١
général de salahieh, le 29 nivôse an VIII (19 janvier 1800).

B6 36, Dugua à kléber, le 15 nivôse an VIII (5 janvier 1800). – ٥٢

B6 38, Friant à Kléber, le 2 nivose an VIII (23 décembre 1799). – ٥٣

B6 38, Tallien à Kléber, le 10 nivôse an VIII (31 décembre 1799). – ٥٤

Kléber à Desaix et Poussielgue, le 13 nivôse an VIII (3 janvier - ٥٥ 1800).

Sans date, Desaix à Kléber, *Histoire Scientifique...*, VII, pp. 15 - ٥٦ 16.

Rousseau, pp. 190 - 191. - ٥٧

٥٨ - *Histoire Scientifique...*, VII, pp. 72 - 73. سونجي، روبين، نالو، لاجرانج، رامبون، فريان، رينيه، بلمس، كليبر ونور، سكرتير للجلس.

Voir en particulier son article "La Convention d'El Arich", *Revue - ٥٩ d'Histoire Diplomatique*, XXXVII (1923), pp. 48 - 88 et 304 - 347.

DESGENETTES, *Souvenirs d'un médecin...*, p. 32. - ٦٠

A Auguste Damas, le 25 pluviose an VIII (14 février 1800). La - ٦١ copie qui se trouve en B6 41 porte en marge une annotation du général Damas évidemment postérieure : lettre du général Desaix au général Bonaparte d' Alexandrie le 2 ventose pour s'excuser d'avoir signé le traité d'El Arich, faire sentir la différence de cette lettre avec celle par laquelle le général Kléber écrivait dans le même temps sur le même sujet telle que la réponse ci - jointe.

Kléber et Bonaparte..., II, pp. 556 - 557. - ٦٢

٦٢ - نشر أولاً في كتبه *Paris sous le Consulat*, تقرير الشرطة. وجد بينها في ٢٥ جبرميثال (١٥ أبريل ١٨٠٠) :

« إن بعض متحزبي الجنوب، اللاجئين في باريس، يبدو أنهم بحجة إلى زعيم الحشد متهمي وساخطين المديريات الجنوبية. وقد تطلعوا بأبصارهم إلى الجنرال كليبر و، دون أن يعرفوا رايه، يقولون إن بلادهم سوف تزود بثلاثمائة ألف رجل للإطاحة بالحكومة الحالية. (I, P. 269) ؛ وكذلك في ٦ فلوريال من العام الثامن (٢٥ أبريل ١٨٠٠) »

« إن المحرضين الذين يدعون أن توسعهم أن يجهنوا في الأموال للفاضة التي يتفوه بها العمال الذين بلا عمل، دلائل على الاستعداد للحركة، يلحقون إلى أن جيش مصر سوف يوجه ضد سلطه، خاصة الضباط، وأنه قد انعقد مجلس حربي بعد رحيل الجنرال بوناپارت، برئاسة الجنرال كليبر، تقرر فيه أن هذا الرحيل قرار. (I, p. 292).

٦٤ - إن غياب معلومات بشأن مشروع عودة اسطول بريست إلى البحر المتوسط نال بالنسبة للسرعة التي جرى بها إرسال لافور - مريود. وقد قام أموري فيقر بترسيبه بإعداد قائمة بالسفن المرسلة إلى مصر بعد ١٨ يومير حتى نهاية الحملة. ومن بين إجمالي ٤٢ سفينة قبل أغسطس ١٨٠٠، لم يرسل إلا سفينتان في يناير ١٨٠٠. ولا يدل ذلك على التفات للاهتمام من

جانب الفصل الأول، فالسفن الـ ١٠ التي ترحل بعد ذلك في أقل من ستة توشرح ذلك تماماً، بل يدل على العجز الذي يواجهه عن إرسال رسائل، ولا حتى تعزيزات، في الفصل الأنسب لاختراق الحصار الإنجليزي، والأصح بكثير بلشاً على مواصلة خلال الشهر، *Réflexions sur la perte de l'Egypte, 1798 - 1801*, maîtrise, paris I, 1985 (bibliothèque Albert Soboul), pp. 192 - 194.

Kléber au ministre de la guerre Berthier, le 16 ventôse an VIII (7 - ١٥ mars 1800).

Kléber au général Clarke, directeur du dépôt de la guerre, le 16 - ١٦ ventôse an VIII (7 mars 1800).

٦٧ - B6 42, ٢٨ فينتوز (١٩ مارس ١٨٠٠). لا يجرى الهجوم على كليبر بالاسم. ويجرى إلقاء المسؤولية الرئيسية على كامل إدارة الأقباط الذين حالوا دون الاستغاثة من ماليات مصر. وقد انخل بوتشارت إشارات وعمليات شطب على النص.

٦٨ - FO 78 23.

٦٩ - FO 78 28, sans date mais début de l'année 1800.

٧٠ - BARROW, I, p. 381 : «عندما أعلن السير سيدي سميت خبر تعيين اللورد إيلجين للمصدر الأعظم، انتابه الأسى الشديد لاستبدال صديقه وتساؤل : «ولكن لماذا يجب أن يكون هناك أي تغيير ؟ لقد سارت الأمور بيننا على خير ما يرام، سارت الأمور على خير ما يرام. وقد أبلغه السير سيدي أن السفير المعين الجديد هو من كبار ملاك الأرض في اسكتلند، وأنه يتمتع بنفوذ قوى وأن الحكومة الإنجليزية قد اعتادت إرضاء مثل هؤلاء الأشخاص، بتعيينهم في مناصب رفيعة، وهو أفضل شيء يمكنها تقديمه. ومثل ذلك قال المصدر : «أه ! يمكنني أن أقولهم من ذلك إذا أن حكومتكم لها أيضاً زعماء جبالها الذين يتعين عليها إرضائهم».

ثم سأل من اسمه : ما هو الاسم. وذكر له سير سيدي الاسم بالعربية، فقال : «لوه ! لكن إيلجين اسم سيدي جداً - إنه «الجن» - إنه الشيطان. كيف يمكن للحكومة الإنجليزية أن ترسل إلينا شخصاً كهذا ؟. وكان «بكوات الجبال» (بهربكوات) أميان ولايات تعربوا عليها من سلطة الباب العالي في الأناضول.

٧١ - FO 78 23.

٧٢ - A Lord Elgin, d'El Arich le 18 janvier 1800, FO 78 29.

٧٣ - CHARLES - ROUX, *La Convention d'El Arich...*, pp. 305 - 309.

١ - كانت أسرة مورييه مستقرة في لزيمير. وقد احتل إيزاك مورييه هناك منصباً. وكان له أربعة أبناء من بينهم سكرتير إيلجين و«جيمس جوستينيان»، مؤلف الكتاب أجي بابا. انظر Georges KROTKOFF, "Hammer - Pugstall, Hajji Baba

and the Moriers", *International Journal of Middle East studies*, XXIX (1987), pp. 103 - 108.

Sidney Smith à Lord Elgin, le 20 février 1800, BARROW, II, pp. - ٧٥
19 - 23.

٧٦ - على سبيل المثال، رسالة نيلسون إلى سيدني سميث بتاريخ ١٨ مارس ١٧٩٩، بشأن منح تصاريح سفر للفرنسيين المغتربة بمصر : إن هذا يتعارض تعارضاً مباشراً مع رأيي والذي يتمثل في عدم السماح لأي فرنسي بمغادرة مصر. ولذا فإنني أجد لزاماً علي أن أكتبك بأن أصدر إليك الأمر بالآلا تمنح أية سفينة فرنسية أو أي رجل فرنسي تصريحاً بمغادرة مصر، *Letters From Lord Nelson*, compiled by Geoffrey Rawson, Londres, 1949, p. 222.

٧٧ - نيلسون إلى سيدني سميث، ٨ مارس ١٧٩٩ : إن منصبك كوزير مشترك لدى الباب العالي يحتم بصورة مطلقة أن أعرف من الذي يخاطبني - ولذا فإن علي أن أوجهك، متى كان عليك إبلاغ أمور وزارية، إلى أن يتم ذلك بالاشتراك مع أخيك الموقر، وعدم خلط الأمور البحرية بالأمور الأخرى، لأن ما قد يكون لغة جد لائقة بالنسبة لمنسوب لصاحب الجلالة، قد يكون مخزياً لظك المرافعة للاحترام من الصفوف المختلفة في خدمتنا. إن توسع مندوب أن يستخدم نبرة إملاء مع أحد الأمهالات لكن ضابطاً برتبة نقيب سوف يتعرض للتوبيخ لو فعل الشيء نفسه (Ibid, p. 220).

٧٨ - نيلسون إلى اللورد كيث، ٢٠ مارس ١٨٠٠ : إنني لا يمكنني اللواتية تحديفاً على تدخله كضابط بريطاني في النزاعات بين الحكومة العثمانية وبلدنا مكا، ودون أي اتصال آخر مع اللورد إيلجين، لا يمكنني اللواتية أبداً على أن نهاجم مكا، لكنني قد كوتت رأياً حول هذا الموضوع، وإنني لأجوز على القول بأنه سوف يكون متفقاً مع رأيك. (Ibid, p. 281).

Texte dans H. G. PERIN and C. LLOYD, *The Keith Papers* : - ٧٩
Selected From the Letters and Papers of Admiral the Viscount Keith, Londres, Navy Records Society, 1927 - 1955, III, pp. 203 - 204 et BARROW, II, pp. 9 - 11.

Cité et traduit par CHARLES - ROUX, p. 343, d'après *Dispatches - and letters of Vice - Amiral Nelson*, Londres, 1845, IV, p. 157.

Traduction de CHARLES - ROUX, p. 315 et texte original dans - ٨١
BARROW, II, p. 78.

INGRAM, *Commitment to Empire...*, pp. 356 - 357. . - ٨٢

Keith Papers, III, p. 214. - ٨٣

INGRAM, pp. 364 - 366. - ٨٤

- Desaix et Poussielgue à Kléber, le 5 pluviôse an VIII (25 janvier – 80
1800).
- Notes de la conversation qu'a eue le général kléber avec Moustafa – 81
Pacha le 10 pluviôse an VIII (30 janvier 1800).
- Mémoire remis le 8 pluviôse au Grand Vizir sur la demande qu'il – 8V
en avait faire au citoyen Poussielgue.
- Kléber au diwan du Caire, à ceux des différentes provinces de – 8A
l'Égypte, quartier général de Salheyeh, le 12 pluviôse an VIII (1^{er} février
1800).
- JABARTI, 3 ramadan 1214 (29 janvier 1800). – 89
- WIET, p. 95. – 90
- Curieusement, CUOQ (p. 200) traduit "Khayyama" par "couvrir – 91
d'honneurs", au lieu d' "établir son camp".
- JABARTI, 5 shawwal 1214, Wiet, p. 96. Le récit de Nicolas Turc – 9V
pour cette période est très précis et correspond parfaitement au contenu des
archives françaises.
- Damas au Reis Effendi, le 28 pluviôse an VIII (17 février 1800). – 92
- Damas au Reis Effendi, le 7 ventôse an VIII (26 février 1800). – 94
- Kléber au Grand Vizir, le 19 ventôse an VIII (10 mars 1800). – 90
- Traduction de la lettre de Lord Keith, commandant en chef la – 96
flotte anglaise de la mer Méditerranée au général en chef Kléber recue dans
la lettre de Sir Sidney Smith du 21 février. L'original en B6 42 et le registre
B6 111 portent tous les deux le soulignement indiqué ici.
- Poussielgue au général en chef Kléber , le 19 ventôse an VIII (10 – 9V
mars 1800).
- Selon les sources européennes comme arabes, la graphie de ce – 9A
nom prend des formes différentes et souvent très éloignées les unes des
autres, voir les exemples donnés par WIET, p. 99.
- John Keith à Sidney Smith, le 10 mars 1800, ADMI 402. – 99

John Keith à Sidney Smith, le 16 mars 1800, ADMI 402, voir - ١٠٠
aussi une traduction française d'une lettre de John Keith au même le 12 mars
1800 en B6 42.

WIET, p. 97. - ١٠١

Kléber à l'armée, le 20 ventôse an VIII (11 mars 1800), - ١٠٢
ROUSSEAU, pp. 238 - 239.

Fourier à Kléber, le 23 ventôse an VIII (14 mars 1800), 6 42. - ١٠٣

Kléber à Damas et Gloutier, le 24 ventôse an VIII (15 mars - ١٠٤
1800).

ROUSSEAU, p. 239. - ١٠٥

Le texte turc avec la traduction française se trouve en B6 42. - ١٠٦

Morier à John Keith, le 13 mars 1800, ADMI 402. - ١٠٧

Rapport de Wright à Sidney Smith, ADMI 402. ce document - ١٠٨
extrêmement riche est, à ma connaissance, totalement inédit. Il permet de
suivre l'évolution psychologique de Kléber.

Conférence tenue le 24 ventôse an VIII entre les commissaires - ١٠٩
français et les commissaires turcs, le Reis Effendi et le Defterdar, à la
mosquée de Sibilli Hallem en avant de la Coubée.

١١٠ - تقرير راييت، لم يكن على علم باجتماع ١٦ مارس بين الفرنسيين والعثمانيين. وفي
نهاية الأمر، قرر الطرفان الاجتماع يوم للمبعوثين الإنجليز.

١١١ - يمكن الاعتقاد بأن راييت يخترع هذا الجزء من المحادثة في تقريره، لكن هذه الأفكار
تجد تعبيراً عنها في كراس يوميات كليبر.

١١٢ - كليبر إلى بامبس، ٢٦ فينتوز من العلم الثامن (١٧ مارس ١٨٠٠) : « يجب إلقاء
القبض على عثمانلية بولاق والقاهرة القنينة والقاهرة متى كان ذلك ممكناً يوم حرمانهم من
المزايا ونحن تعرضهم لأية معاملة سيئة » (B6 42) .

١١٣ - يحدد نقولا لترك بصورة منتظمة على رفض ممثلي السلطة الشرعية فوض أي
مصير سيء على الأقليات. وقد رأينا أنه قد اتهم عمر مكرم بأنه كان يريد نهج للصيحيين عند
إعلان نزول الفرنسيين. ولابد من الإشارة إلى أن الجبرتي قد حمل العثمانيين مسؤولية الجهاد
عند المسيحيين لكان ذلك في « مظهر القديس » لم في « حجاب الأكار » .

وتلخص الملاحظات حول اختفاضة القاهرة، عن بيان « باسم الباشا، يدعو إلى مراعاة
المسيحيين والمماليك والأتراك واليونانيين واليهود والأرمن، بلعباً الشعب إلى مهاجمة

الفرنسيين، *Revue d'Égypte*, 1895, pp. 203 - 218. وهي ترجع جزئياً إلى قلم كليبر وتشكل مسودة للتقرير، الذي بداه كليبر وأتمه بطماس، والمقدم إلى الحكومة الفرنسية من الأحداث التي جرت في مصر، منذ عقد معاهدة العريش وحتى نهاية بربريال من العام الثامن. وقد نشر هذا النص الرسمي في القاهرة بعد موت كليبر. كما أن كتاب *Revue d'Égypte* ينشر يوميات معركة هيليوپوليس وحصار القاهرة، والتي كان سكالكوفسكي قد أعاد نشرها ناسباً إياها إلى لازوفسكي (PP. 371 - 405).

١١٤ - في مجانب الآثار، لكنه في مظهر التقييس، خلافاً لذلك، لعين كربة.

B6 43, Ordre du général Kléber le 17 germinal an VIII (7 avril - ١١٥ 1800).

Rapport fait au gouvernement..., p. 30. - ١١٦

١١٧ - *Victoires, Conquêtes...* XII, pp. 124 - 125. «إن الجهود الأكثر خروجاً على اللقب، الأمر الذي ما كان يمكن لأحد قط توقعه من لناس جد متأخرين في الحضارة والصناعة، قد تجلت في هذا الطرف شهر العادي إلى أبعد حد. لقد طور الأتراك والسكان نشاطاً لا يمكن لشيء آخر أن يمنحه لهذا بربري غير التعصب، حيث يحل محل حب الوطن».

١١٨ - يزعم كتاب «التاريخ العلمي» أن الثوار وحدهم هم الذين سوف يستفيدون من الحصص اليومية (VII, P. 413).

١١٩ - هذا هو ما يؤكد الجبروتي، ويؤكد «التاريخ العلمي» جزئياً، «إن بعض الروايات ذات الصلة الضعيف، لا بد من قول ذلك، قد تحدثت عن وجود في القاهرة لذلك للوالي محمد أو الرسول للهدى، الذي كان قد حرض سكان البحيرة. وهذا يعني أن الرسول للهدى لم يهلك في مذبحة بطلقة مدفع لو أن رجلاً آخر من التنوع نفسه قد احتمل اسمه وإعماله» (VII, P. 414).

١٢٠ - في مجانب الآثار، إما في مظهر التقييس، فإنه يجرى تصويره بشكل محايد أكثر ويتم الاعتراف بغيراته كمقتل، انظر. *Delanoue Moralistes...*, I, p. 61. وهذا التفسير مماثل للتفسير الخاص بالمعلم المطلوب.

١٢١ - (B 6 42)، ٢٩ مارس ١٨٠٠، للواقعون هم السانبات والبهكري والشرقاوي والصارى والهدى والقيومي والحرولي وأحمد محرم وإبراهيم ملطي.

Notes..., pp. 214 - 215 - ١٢٢

Le général en chef Kléber à Mourad Bey, le 12 germinal an VIII - ١٢٣ (2 avril 1800).

Traité avec Mourad Bey, le 15 germinal an VIII (5 avril 1800). - ١٢٤

Note officielle de la part du général en chef Kléber, concernant - ١٢٥

la conduite à tenir par le très illustre et honoré Mourad Bey, en conséquence de la convention du 15 germinal an VIII.

Conditions convenues entre le général en chef Kléber – ١٢٦
commandant l'armée française et Nessif Pacha, commandant l'armée turque
pour l'évacuation du Caire, le 10 germinal an VIII.

B6 43, Nassouf, gouverneur d'Égypte à Moustafa Pacha, 6 Zei el – ١٢٧
Cade 1214 11 germinal an VIII (1^{er} avril 1800).

Jabarti, événements de l'année 1214. – ١٢٨

Sur l'histoire de Boulaq, voir Nelly HANNA, *An Urban History of Bulaq in the Mamluk and Ottoman Periods*, Le Caire, I. F. A. O., 1983. – ١٢٩

١٣٠ – من الغريب أن الجبرتي في مظهر التقديس كما في هجائب الأكلر يعطي تاريخ ١٧
أبريل ويخلط تاريخ الهجوم على بولاق بتاريخ للعاصفة الكبيرة، في حين أن كتاب *Victoires et conquêtes* يوضح أن الاستيلاء على بولاق قد سبق للعاصفة (XII, P. 736). وتسمح وثيقتان في الملف (B 6 43) بالتحقق من تاريخ ١٥ أبريل : أمر من كليبر بتاريخ ١٥ أبريل إلى الجنرال قائد سلاح الهندسين بشأن الهجوم على بولاق والعفو للمنوح للسكان في ١٦ أبريل.

B6 43, Kléber général en chef à l'armée, Au quartier général du – ١٣١
Caire, le 16 germinal an VIII (16 avril 1800).

Victoires et Conquêtes..., XII, p. 138. – ١٣٢

١٣٣ – الجبرتي، ذو الحجة ١٢١٤. إن التقرير، المكتوب بقلم دلماس في هذا الجزء، يذكر
مدد القاهريين الذين ساروا في أثر العثمانيين بثلاثة إلى أربعة آلاف.

Histoire Scientifique..., VII, p. 462. – ١٣٤

p.55. – ١٣٥

PEYRUSSE, *Les finances de l'Égypte...* pp. 459 - 461. – ١٣٦

١٣٧ – الجبرتي، ٨ ذو الحجة ١٢١٤. يرفع كتاب «التاريخ العلمي» الخيرية للفروسة على
السلطات إلى ٨٠٠ ٠٠٠ فرنك (VII, P. 470).

PEYRUSSE, op. cit., p. 460. – ١٣٨

B6 45, lettre du shaykh al Sadat à Kléber, original arabe et – ١٣٩
traduction d'époque.

ROUSSEAU, P. 293.

- 110

B6 45, Déclaration en faveur du capitaine Gervais par les notables du 8^e arrondissement, idem pour le capitaine Giraud (3^e section).

Sur la question très controversée des rapports de Lascaris et du mu'allim, voir mon essai de mise au point : "Le chevalier de Lascaris et les origines du Grand Jeu", *Cahiers de l'Orient*, 7 1987), pp. 189 - 210.

MICHALON et VERNET, op. cit, p. 33.

- 111

ROUSSEAU, pp. 273 - 277.

- 112

Ordre du 23 prairial an VIII (12 juin 1800), B6 45.

- 113

Le 2 prairial an VIII (22 mai 1800), ROUSSEAU, p. 296.

- 114

Ordre du jour du 18 floréal an VIII (8 mai 1800), B6 44 et ROUSSEAU, p. 286.

- 115

Le 3 prairial an VIII (23 mai 1800), Rousseau, p. 301.

- 116

ADMI 402 : Sidney Smith à Nelson, le 1^{er} mars 1800, à Lord Keith, le 8 juin 1800. Voir aussi Historical Manuscripts Commission : *Reports of the Manuscripts of J.B. Fortescue, Esq, Preserved at Dropmore* (vulgairement) *Dropmore Papers*, VI, pp. 161 - 162.

- 117

Sidney Smith à Lord Keith le 5 avril 1800 et à Lord Elgin le 21 avril 1800, BARROW, I, pp. 390 - 393 et pp. 403 - 411.

- 118

FO 78 29 : Sidney Smith à Morier (et par là à Lord Elgin), le 20 avril 1800, au Caimacam Pacha le 9 juin 1800; extrait d'une dépêche du Grand Vizir à la Porte, le 1^{er} avril 1800; Morier à Elgin le 12 et le 13 avril 1800 et le 28 avril 1800.

- 119

B6 43 : Le Grand Vizir au général en chef Kléber, au quartier général de Jaffa (sans date), arrivée au Caire par un Tartare le 30 germinal an VIII (20 avril 1800) et réponse à la lettre ci - dessus, mise en bas non signée et expédiée par le même Tartare, parti le 8 floréal (28 avril 1800).

- 120

B6 44 : Kléber à Sidney Smith, le 16 floréal an VIII (6 mai 1800), à Damas, le 1^{er} prairial (21 mai 1800).

- 121

Courrier de l'Égypte du 21 prairial an VIII, du 18 messidor et du 27 messidor (10 juin, 7 et 16 juillet 1800). B6 45 : correspondance entre Morier et Kléber.

- 122

- B6 45 : Sidney Smith à Kléber, devant Jaffa, le 9 juin 1800. - ١٥٥
- B6 45 : Lanusse à Kléber, le 25 prairial an VIII (14 juin 1800). - ١٥٦
La lettre arrivera après la mort de Kléber.
- B6 45 : Kléber à Reynier, le 20 floréal an VIII (10 mai 1800). - ١٥٧
- B6 45 : traduction d'une lettre du Grand Vizir arrivée au Caire le 8 juin 1800. - ١٥٨
- B6 45 : Menou à Kléber, le 17 prairial an VIII (6 juin 1800). - ١٥٩
- B6 45 : Kléber à Menou, le 19 prairial an VIII (8 juin). - ١٦٠
- Mémoires du Comte Reynier*, 11 e édition, Paris, 1800, pp. 88 - ١٦١
89.
- Dictionnaire Napoléon*, articles Desaix et Marengo. - ١٦٢
- ١٦٣ - اما بيروتان لسوف يخلصى من جراحه.
- ١٦٤ - الجبروتى، ٢١ محرم ١٢١٥ و 82 - 81 pp. I, *Moralistes...*, DELANOUE, يجب وضع المسألة كلها فى سياستها، لقد استخدم الفرنسيون التعذيب ليدفع الحلبي إلى تقديم اعترافات. وما يهم الجبروتى هو انتظام الإجراءات وعدم إنزال عقاب بأحد غير الأشخاص المتهمين.
- ١٦٥ - كانت لدى لارى مجموعة من جماعه من اجاى إلى الاختيال السياسى. وقد حصل من القنصل الأول على جمعة كالدويل التى لن ترد إلى أسرته إلا فى ظل حوكة الملكية.

الفصل الثامن

میلو

الخيار الاستراتيجي

تسمية ميلو

لم يكن قد جرى التصيب لاختيار خليفة لكليبر. والمسألة جد بعيدة، بحيث لا يمكن لباريس تسمية أحد. وكل شيء يعود بين قادة الفرق في القاهرة، أو بشكل أدق بين الأكبر سنًا بينهم: رينيه الذي تعتبر قراراته العسكرية مماثلة لقرارات أكثر جنرالات الثورة روعة والذي رقى إلى هذه الرتبة في عام ١٧٩٦ وهو في الخامسة والعشرين من عمره، ومينو الذي لم يتميز قط حقًا في القتال مع أنه كان قائد فرقة في الثالثة والأربعين من عمره، في عام ١٧٩٣. ومنذ وصول نيا الاغتيال، يتألى كل من الرجلين على القرارات التي يجب اتخاذها. وفي نهاية الأمر يُلغى رينيه مينو قليل الحماس بتولى القيادة العامة بصورة مؤقتة إلى حين وصول قرار من باريس. وكان مينو قد قدم حجة جديدة، إن تغييره لميته قد جعله قليل الشعبية بين الجنود، وهو لا يحوذ خبرة حربية حقيقية. لكن القواعد العسكرية محدثة، فمن الواضح أن مينو هو الأكبر سنًا في الرتبة الأعلى. ويعلن رينيه وجميع الجنرالات استعفانهم لتقديم للشورة إليه في مجال العمليات العسكرية...^(١)

وفي الظاهر، فإن هذا الحل الوسط قد يبدو ممتازًا. أما في الواقع، فإنه يهمل تمامًا التعامل بين الخيارات الكبرى لحكم مصر، خاصة بين إدارة البلاد والعمليات العسكرية. ثم إن رينيه سرعان ما بأسف لتنازله عن المواقع لمينو ويتصرف كناقض متزايد العداء لخليفة كليبر. بل إنه، خلال جنازة كليبر، يلغى من المكانة البروتوكولية الأعلى التي اختص بها مينو نفسه من كون قائد الفرق الآخرين^(٢). وعندما يتخذ مينو قراره الأولى بصفتة قائدًا

حلماً مؤقتاً، فإنه (رونييه - المترجم) يبدى علناً استياءه من تلقى أوامر، ويؤكد أن على
مهند أن ينتظر تهيئته من جانب جنرالات مجتمعين في مجلس حربي. وبالنسبة له، فإن
ذلك هو السبيل الوحيد الذي يمكنه من خلاله إخضاع الشرعية على سلطته، فالبعد عن
التروبول وصعوبات الاتصال تحول دون تلقى أوامر. وهو يقول: «ومن جهة أخرى، فإن
كل حقوق الأتسمية قد أبطأها الدستور الجديد، وجميع التعيينات يجب أن تتم
بالاختيار» (٣).

وهذه الحملة

إن مصرع كليبر، هذا القائد للحبوب وجد المحترم من الجنود، قد وجه ضربة بالغة
القسوة إلى معنويات الجيش. فالنظور الذي كان يكتسب نلتما لمصر، يتحول إلى كره حقيقي.
والحال أن الرغبة في العودة (إلى فرنسا)، والتي احتجبت مؤقتاً بعد انتصار هيليوپوليس
إنما تعود الانبثاق بدرجة أكبر وذلك بقدر ما أن القائد العام الجديد لا يتمتع بخصال سائس
الرجال الضرورية لنفع الجنود إلى نصيان مشاق للنفي.

والحال أن معنى الحملة لم يك واضحاً قط للجنود. لقد قيل لهم إنهم قد جاءوا إلى
مصر لتحريرها من المماليك. إلا أنه قد تم للتو عقد اتفاق معهم. وقد جرى التأكيد لهم
على أنهم حلفاء للإمبراطورية العثمانية، وما هم يقاتلون جيوشها منذ عامين. والتفسير
الذي بنا لهم أكثر منطقية والذي دعمه مواقف كليبر في الأشهر الأولى لقيادته، هو أن
حكومة الإنارة قد أرسلتهم إلى مصر للتخلص من بونابارت، وبما أن هذا الأخير هو الآن
السيد الجديد لفرنسا، فإن البقاء في مصر لم يعد له أي معنى.

ويعرف مهند هذا القلق الذي ينتاب الأنهار. وفي بيان موجه إلى الجيش، في ٥
ميسيدور من العام الثامن (٢٤ يونيو ١٨٠٠)، بعد عشرة أيام من مصرع كليبر، يشرح له
السبب في وجوده في مصر: لقد كانت الحملة عملية وقائية تهدف إلى منع أعداء
الجمهورية من الاستيلاء على مائطه وعلى مصر؛ وكان لابد من إنقاذ تجارة شرق البحر
للتوسط للهمة والتي ترتفع مكاسبها سنوياً إلى نحو خمسين مليوناً (من الفرنكات -
للمترجم)؛ وما يؤسف له أن الهلب العالي قد خدع من جانب أعداء فرنسا وشن الحرب
عليها؛ وقد أنت انتصارات جيش الشرق إلى تدمير أماله، وهذا هو السبب في أنه قد لجأ إلى
الاحتلال حتى تلج الفوضى في صفوف الجيش؛ واليوم، لا يمكن أن يكون من اللورد
التفكير في معاهدة للجلاء، لبونابارت هو وحده الذي يمكنه اتخاذ مثل هذا القرار. (٤)

وهذا النص يخدمه كرد عندما يسلكه ضباط شبه لواء. جاءوا للاضطلاع بمسمى جماعي، متى ينوى إعانة الجيش إلى فرنسا. ويحاول داملس، في الفترة نفسها، أن يبين له أن حالة الجيش لا تسمح بالبقاء في مصر وأنه يجب الاستقالة من اللوائح للتفاوض على جلاء في أحسن الشروط. والحال أن مينو، الذي يأخذ على هذا الجندال أنه قد أثار كليبر عليه، إنما يحيل مرة وإلى الأبد إلى بيانه. وينحاز رينيه، في مواجهة مينو، إلى صف داملس (٥).

ويأمر مينو بنشر بقية لوراني مورييه ويتهم الباب العالي علناً بأنه مسؤول عن اغتيال سلفه، وذلك سعياً إلى تحويل الجنود عن الآمال الزائفة التي اشتمتها الدعاية الأنجلو - عثمانية. ثم إن اللازم رابت، الذي كان قد طرد من الإسكندرية بناءً على أمر من كليبر، والذي عاد عبر طريق سوريا كمفاوض بلثما، إنما يطرد مرة أخرى من مصر. وكان قد طُبع مطلباً بجريمة إغراء جنود فرنسيين وكان بالإمكان القبض عليه كجاسوس (٦). وقد أترك سيدي سميت على الفور أن صعود مينو إلى القيادة العامة إنما يعني انتصار الحزب الاستعماري (٧) ولا يدعش لرفض مينو أي نقل إلى أيهما يتعلق بمسألة الأسرى. على أن الصدر الأعظم ما يزال يحلم باستئناف للمفاوضات، وهو يوجه بياناً إلى الجيش الفرنسي ينفي أية مسؤولية عثمانية عن اغتيال كليبر (٨). وهو يصطدم بذات الدفع بعدم القبول، كما أن العروض التي يقدمها القابولان باشا وإسحق بك تقابل بالرفض. والاتصالات الوحيدة للسجوح بها إنما تتعلق بإطلاق سراح بونو الذي هو الآن أسير عند القابولان باشا. ويعطى ذلك مجالاً لتبادل الرسائل والهدايا بين مينو والقابولان باشا حتى عودة بونو إلى مصر (٩).

تصالح الجيش مع الواقع

وهذا الرفض الواضح والبات لاستئناف المفاوضات حول المعامل الأساسية إنما يضع نهاية لالتباسات سياسة كليبر، لكنه يضع أيضاً نهاية لدعاية الفرنسيين التسريحية. وإذا كان لم يعد هناك ما يدعو الإنجليز إلى الانزعاج من قلب للتحالفات يتم في نهاية الأمر من جانب العثمانيين، فإنهم يجدون أنفسهم مرغمين على هجر العمل غير المباشر العزيز على قلب سيدي سميت. وحتى إذا كانت الحكومة البريطانية تضطر، في استرجاعها لما كان، إلى الاعتراف للعميد البحري بأنه كان يتميز ببعد النظر في مسألة اتفاق العرش،

لأن الحرب الإنبارية ضد الأخوين سميت والتي يخوضها اللورد إيلجين، تجد ترجمة لها، بعد بضعة أشهر، في صحف سبندر من القسطنطينية (١٠) وفي صحفهم لوضع سيدنى والتهمة للنظامية في تورط عسكري أكبر لبريطانيا في مصر وذلك بسبب إغلاقات العثمانيين للتجارة.

وفي التو والحال، فإن تأكيد سياسة واضحة، إنما يبدو أنه قد لقي استقبالا طيباً من جانب جمهوره الجيش. وعلى الأقل، فإن فريمان يؤكد، «إن كل فرد، وقد انتزع بأنه سوف يظل في مصر لفترة طويلة، قد مضى إلى نسيان فرنسا قدر الإمكان. وفي كل مكان، فإن الضباط القادة والعسكريين لم يهتموا إلا بتزيين مساكنهم. وقد أقيمت الحفلات والمآسي وأعيد فتح قاعات العروض للمسرحية، وأخيراً، ساد القول بأننا ما نحن مستعمرون (١١)».

ويشير غيلب العصيان في الأشهر التالية إلى أن الجنود قد تخلوا عن الأمل في عودة قريية وأنهم غير قاصدين على ممارسة ضغوط على القيادة. والحال أن معركة هيلوبوليس كانت قد حوت على الجيش العلم من الأوهام. لكنه ليس متحمساً على الإطلاق للمشروع الاستعماري. فالرغوة للأمر الواقع هو الشعور بالسائد الذي أثاره نزاع الجنرالات. ويرتكب مينو الخطأ الجسيم الذي يتمثل في اعتبار هذا الموقف تأييداً. إن تصور الاحترام الشخصي الذي يتمتع به يؤدي إلى أن تهجج خطابه لا يثير البتة أرواح الجنود الذين يتذكرون بلاغة كليبر البسيطة والمؤثرة.

والحال أن مينو، للتورط بالفعل في مشاحنات مع المقربين من كليبر، سوف يزيد من احتداد سخريتهم الخبيثة عندما يطلب تسليم تركة الجنرال القليل إلى خزائن الجيش. فلما س يعارض ذلك بتأكيد أن هذا الإجراء إنما يتعارض مع القوانين ويعلم أنه مسؤول عن حقوق اللورد. ويريد مينو تمرير المسألة بإصدار أمر إلى اللجنة الإنبارية ببيع متعلقات كليبر الشخصية. لكن اللجنة ترفض مشيرة إلى أن ذلك لا يدخل في اختصاصاتها. وبعد عدة أيام من المناقشات، يتقرر بلامس، إن تصفية الممتلكات تتم على يد نور، إلا فيما يتعلق بالأشياء التي يحتفظ بها مينو، لكن الأمن يسلم إلى بلامس، ممثل اللورد الذي يجري تسليمه أيضاً عشرين ألف فرنك، هي الثمن التقديرى للأشياء التي يحتفظ بها القائد العام. لكن مينو يحاول أن يعرف ما إذا كان كليبر قد دفع من راتبه ثمن الأشياء للشار إليها (خاصة الكتب) ويختزل بنحو ثمانية آلاف من الفرنكات التعويض المقرر. وفقاً لرئيسه، على أية حال، فإن هذا التعويض لن يسلم أبداً إلى بلامس (١٢). ومن جهة أخرى، فإن هذا الأخير يخلي كتابات كليبر الشخصية لأنه يخشى - وهو على حق في ذلك - من أن يحاول مينو وفيما بعد هوناهارت الاستيلاء عليها، وذلك بسبب صراحة الأكراسي المعروفة تماماً (١٣).

المشروع الاستعماري

إن الرغبة في الاحتفاظ بمصر وولفس مواصلة التلاعب بالكلمات بمصاربة العثمانيين مع لبعاء للجهء لاستعادة سلطتهم، إنما يسمحان لينو برفع الستار عن الهدف الحقيقي للمشروع المصري، إيجاد مستعمرة. وعلى الفور، يرى رينيه ويلامس في ذلك لغتصلاً جديداً، لأن الحكومة الفرنسية وحدها هي التي تملك الحق في تأكيد قرار كهذا، وأن من الأفضل الحفاظ على خيالية فكر سلفيه حول هذا الموضوع. ولا يتصل النزاع بمجرد مجرد الوجود الفرنسي في مصر، بل يتصل كذلك بالتمديد الحقوقي لصلاحيات مينو. فإذا كانت مصر مستعمرة، فإن مينو حينئذ هو حاكمها الذي يمثل اللانصل. وبسبب انقطاع الاتصالات مع فرنسا، فإنه يملك حق سن القوانين كونه دولة والاضطلاع بإصلاحات أساسية. وبالنسبة لخصومه، فإنه لا يعارض غير مهام حكم مؤقت، انتظاراً لتسمية الحكومة الفرنسية لخليفة حقيقي لكليبر. ومن ثم فإن عليه الحد من قراراته والأ يتصرف إلا بالتشاور مع نظرائه، كافة الفرق.

الشؤون المالية

في مرحلة أولى، يستأنف مينو فحص إدارة مصر الذي بداه كليبر ومطاردة الأعمال التعسفية. وفي أول يوليو ١٨٠٠، يصدر الأوامر إلى أثنى المصرف وإلى القنصلات الذين يتولون صلاحى للنفعية والهندسة، وإلى مسؤولى مختلف الخدمات، بأن يقدموا إليه تقريراً تفصيلياً عن حالة مجالات كل منهم، يتضمن عدد الأفراد ووظائفهم ودرجاتهم وعدد الحصص الغذائية اليومية التي يتمتعون بها. وسوف يسمح ذلك «بالتوصل إلى إيجاد نظام حكم ومقتصد للإدارة»^(١٤).

وتؤدي سلسلة بأكملها من الأوامر اليومية الصادرة من أغسطس إلى نوفمبر ١٨٠٠ إلى تحديد إجراءات التحقيق المنتظم من النفقات كما تؤدي إلى مراجعة عامة لهذه النفقات منذ بداية الحملة. ويطلع القائد العام الجديد إلى أن يسوى بصورة نهائية مسألة تهجير الأموال التي اشتكى منها سلفاه. ومرة أخرى يجرى حظر للصايرات التي تتم دون تصريح من القائد العام^(١٥). ويجرى تغيير وظيفة الصراف العام للجيش إلى وظيفة مدير عام ومحاسب لجميع إيرادات مصر العمومية. والحال أن المدير الجديد، استيف، يعاون محصل رينيه وصراف رينيه^(١٦).

ومسألة الإيرادات الضريبية هي المسألة الأصعب على التصوية، فهي تطرح مسألة

مكانة الأقباط. والحال أن مينو لا يكن لاحتراماً يذكر لهم وهؤلاء الآخرون غير مرتاحين لتحويله إلى امتناق الإسلام. ويتعين من جديد على المعلم يعقوب وموظفي اللقية الآخرين أن يرسموا لوحة للإدارة المالية لمصر (١٧). وسوف يجرى التحقق من صدق حسابات الأمراء الأقباط وسوف يتعين على الأمراء الخمسة الكبار أن يردوا إلى السكان جميع المبالغ التي تجهى دون وجه حق من جانب رؤوسهم (١٨). لكن الصراف العام استيف يتولى الدفاع عن موظفيه، إن شكايات الفلاحين لها ما يبررها، لكن الفرنسيين هم الذين يتحملون المسؤولية وذلك بسبب الضريبة العامة التي فرضوها. ويجرى إلزام الأقباط بتوزيع عبء الضريبة على الأراضى المروية بمياه الفيضان كما على الأراضى غير المروية والمعلقة عامة من دفع الضرائب. ويرى استيف أن من المناسب تركهم يتصرفون حتى لا يتوقف تحصيل الإيرادات من جراء الاصفاء في هذه اللحظة لشكايات الفلاحين التي اهتموا بتقديمها (١٩). ويتمسك مينو بمواقفه مجبراً الأقباط على المشاركة بمستوى مليون ونصف للمليون فرنك في الضريبة غير العادية التي فرضت على المدن بعد انتفاضات مارس - أبريل ١٨٠٠ (٢٠).

لاسكاريس

يسمح قرار البقاء في مصر بعودة مشاريع إعادة تنظيم البلد إلى الظهور. وفي أوائل يوليو ١٨٠٠، نجد أن لاسكاريس، رفيق المعلم يعقوب، يقترح على مينو «وسيلة بقائنا بشكل دائم في مصر عبر مجرد صلب التعصبات المتعارضة لسكانها». وهو يرى، اعتماداً على واقع أن مصر كانت دائماً «مهد التعصب» أنه إذا كان الدين الجمهورى لا يستطيع، في التو والحال، أن يجد أتباعاً له بسبب بساطة ممارساته، فإنه بالقضاء على جميع أشكال التفرقة الدينية من خلال رفع جميع الطوائف (الدينية) إلى درجة واحدة من النفوذ السياسى، سوف يتسنى لتلك (الطوائف) التي نال منها الإسلام وحط من شأنها أن تزهر على حسابها، إلى الدرجة التي تمكنها من الوصول إلى عدد مساوٍ من المشايخين. ومنذ تلك اللحظة، فسوف يكون بوسع الفرنسيين أن يحكموا عبر «هذا التوازن للتعصبات المتعارضة». وفي المرحلة الثانية، فإن الأنصار الجدد للفلسفة سوف يصبحون عديدين بشكل متزايد إلى درجة تحويل المصريين «إلى طائفة واحدة ومتماثلة هي طائفة الفرنسيين». ومطبق هذه السياسة الرائعة لا يمكن أن يكون غير القائد العلم الذى،

باجتذابه ثقة السكان، سوف يعمل على إحياء هذا البلد الشهير «إلى ما كان عليه في الزمن الماضي، مركزاً للثورة والمعارف ولتجارة العالم».

ويرد عليه مينو بأنه لا يدري أن يصبح زعيم طائفة وأن «ديانته العقلية الصغيرة» تكفيه. والشهادة مثيرة للاهتمام فيما يتعلق بالوقوف على مدى إخلاص مينو إلى اعتناق الإسلام.

على أن لاسكاريس لا يفقد الأمل، وفي ٢٥ ثيرميدور من العام الثامن (١٢ أغسطس ١٨٠٠)، يكتب من جديد إلى مينو. وهو يعترف بأنه يضع المشاريع كما يصنع الآخرون المقترحات والأحذية وكما يضعرون الدساتير والأطفال، إلخ. وهذا المشروع الجديد، الذي لا يمكنه أن يعود عليه إلا «بشهادة حماقة يمنحني إياها بالفعل»، إنما يتمثل في بناء سد ضخم عند رأس الدلتا، يجتمع معه بناء عاصمة جديدة لمصر، هي مينوبوليس، التي سوف تكون نقطة اللقاء بين منتجات أفريقيا ومنتجات البلدان التي تطل على البحر المتوسط، وستكون موقع الانصهار بين الغرب والشرق. وهذا المشروع يستحق القناطر الشهيرة، التي شيدها محمد علي، لتنظيم رى الدلتا.

والواقع أن اللغز يكشّف في بقية نصه عن هذه الحقيقى. إنه يدرس إمكانية تخلى فرنسا عن مصر إثر مساومة على الصلح الشامل، «في هذا الفرض، سوف يكون من المهم للغاية ترك حزب قوى، يمكنه البقاء هناك مسلحاً لكي يحافظ هناك على نفوذنا السياسى والتجارى ومساندة الفرنسيين في نهاية الأمر في حالة تعرضهم للهجوم من جانب الحزب الأخر».

والحال أن الحديث إنما يدور عن الاضطلاع في مصر العليا بتوحيد جميع أعوان الفرنسيين مع معاليك مراد بك. كما أن هؤلاء الأعوان سوف يبقون مراد بك في الحزب الفرنسى. وحتى يتم ذلك، فإنه يجب في التو والحال تعزيز القبلق القبطى الذى يقوده يعقوب تعزيزاً ملحوظاً. لأن كل شيء، مرة أخرى، إنما يتوقف على القبطى. ولاسكاريس يعرفه وفقاً لموضحة بعث مصر، وهى الإيديولوجية الرسمية للحملة، إنه حفيد لولئك المصريين القدماء الذين ما زالوا يظهرون دهشة العالم بأثارهم، يالها من ذكريات تستحضرها هذه الآثار يالها من معارف يالها من سياسة باختصار، يالها من حضارة تبوح بها للشعوب التي تتخيل هذه الأهرامات، هذه المعابد، هذه البحيرات، هذه القنوات « ويمكن أن نرى في لاسكاريس واحداً من أسلاف النزعة الفرعونية للسياسة التي عرفتها لولآخر القرن التاسع عشر.

ويرد عليه مينو بأنه ليست لديه أية فكرة في الألباط. وعندئذ يواصل لاسكاريس مشروعه القبطى بعد تعديله وذلك فى رسالة إلى القائد العام مؤرخة فى ٢٩ فبرواييل من العام الثامن (١٦ سبتمبر ١٨٠٠). فهو يواصل النفاذ عن صديقه ويقترح هذه المرة إرساله، مع بعض الجنود الفرنسيين وخمسة آلاف أو ستة آلاف من للمسيحيين الشرقيين إلى الذوبة لإنشاء مستعمرة دائمة هناك ومريحة بالنسبة للفرنسا. فهناك سوف يكون للحزب المصرى للمالى الفرنسا قاعدت راسخة فى حالة جلاء الفرنسيين عن مصر، وسوف يكون لاسكاريس هو مفوض الحكومة الفرنسية هناك، ومن ثم فإن عودة الفرنسيين سوف تكون سهلة.

والحال أن مينو، الذى يكن قسراً من التعاطف للفرنس مألطة السابق، يعينه، فى الشهر نفسه، مديراً للرسموم الالتزامية. ويواصل لاسكاريس الإصرار على مشروعه الدوى ويرسل إلى بوناپارت مرثية يعقوب المترجمة على روح ليزيه. وخلافاً لما يؤكد نص التقديم للنشور فى الأمر اليومى والذى ينسب القصيدة إلى المعلم، فإن المعجم للمستخدم والإشارات الضمنية إلى العصر الإغريقى الرومانى الكلاسيكى إنما تسمح بالتراض أن كاتبها الحقيقى هو لاسكاريس.

«إلى الأبد ستحيا فى الأجيال القادمة وفى عرفانى بالجميل، إن طيفك العزيز يرفرف بالفعل فى رحابة الفضلاء مع طيف أبطال العصر القديم، وهو يتحد بالفعل مع روح بوناپارت الحارسة، ومن هذا الاتحاد الذى يحرك شديد رهبة الأعداء وشعوب الأرض سوف تولد رفاهية وحضارة الشرق» (٢١).

مشاريع الإصلاح المخطط

ينتهز خصوم مينو الخيال الظاهر لمشاريع لاسكاريس للإبقاء بأن مشاريع القائد العام ليست أفضل حالاً (٢٢). ويرسل أشخاص آخرون إلى مينو مقترحاتهم الإصلاحية الخاصة بمصر. إن لويير، مدير الجسور والطرق، يقترح إعادة حفر القناة التى تربط الإسكندرية بالنيل، والبدء فوراً فى عمليات المساحة (٢٣). وهذا المشروع، الذى ينسب مبادرته إلى كليبر، لن يتحقق إلا فى بداية حكم محمد على تحت اسم ترعة للممودية.

وفى ٢٥ ميسيدور من العام الثامن (١٤ يوليو ١٨٠٠)، يوجه شخص يدعى بالمس،

وهو وكيل فرنسي سابق في إقليم البحيرة، منكرة حول إبرارة ملكيات مصر. وهي من حيث الجوهر عبارة عن لوحة جد مثيرة لوضع الزمامة. ويقترح بللاس نظاماً جديداً لضرائب الأرض يسمح بالاستغناء عن خدمات الأقباط ويزيادة إيرادات الفرنسيين. وينطوى هذا الإصلاح على تعديل الأراضي وتصنيفها بحسب القيمة إيراداتها، كما ينطوى على علاقات مباشرة بين الفرنسيين والفلاحين. ويفسر بللاس عدم التناسب للمهم بين إيرادات المالكين العقارية وقلّة الضرائب في العهد الفرنسي بمسلك الوكلاء الأقباط .

«لا بد أن أولئك الذين اطلعونا على موارد مصر كانوا غير أمناء إلى حد بعيد تجاهنا ولا بد من إرجاع الصعوبات التي يجدها الشعب في دفع ضرائحه، ليس إلى مجهز، بل إلى سوء نيته، وتعصبه، والتعريضات الفاسدة التي قام بها لصداؤنا، وخلصه إلى الضرائب السرية التي تدفعها (الشعب) للبهكوات وللعرب والتي يمكن للمرء أن يشتبه في أن الأقباط قد قاموا بجبايلتها لحسابهم» (٢٤).

أما المدير السابق للثوئر، باجليانو، فهو يقترح من جانبه مشروع امتيازات خاصة بالأرض يسمح بمكافأة الجنود وأولئك الذين تعاونوا معهم في فتح مصر، نون تجريد السكان للخليصين للفرنسيين من ملكية الأرض. والحال أن الحديث إنما يدور من جعل الفلاحين مالكيين تماماً لأراضيهم في مقابل دفع رسم إضافي. ولما كانوا أكثر اهتماماً ببيع محصولهم، فسوف يكون توسعهم لقاء هذا الرسم بسهولة. وينطوى هذا للمشروع على الإلقاء النهائي للالتزام، وفي الأجل الطويل في نهاية الأمر، الانتهاء من خدمات الأقباط، وهو سوف يربط الفلاحين على نحو حاسم ونهائي بالقضية الفرنسية (٢٥).

ولمناقشة كل هذه المشاريع، واستخلاص مشاريع أخرى منها وإعداد تصور شامل للتنظيم الذي يجب إعطاؤه للمستعمرة الجديدة، بنشئ مهنر مجلساً خاصاً بالمساعدة على تحمل العبء الذي كلف به مؤقّتاً، إلى حين وصول لوامر حكومة الجمهورية الفرنسية، (٢ سبتمبر ١٨٠٠). وسوف يضم المجلس جميع قادة الفرق والألوية، وأقدم الضباط للقادة لمختلف الأسلحة ورؤساء الخدمات الإدارية الرئيسية. ولا يجب على المجلس الخاص أن يناقش مسائل الحرب والسياسة الخارجية، لهذا مجال محفوظ للقائد العام، بل يجب عليه أن يناقش جميع الأمور الأخرى والمتصلة بالتجارة والزمامة والشؤون المالية وبالتشريع المدني والجنائي والعلوم والفنون والعلاقات التي يجب أن تنشأ بين المتوطين ومصر، وبين سكان البلد والفرنسيين للقيمين فيه (٢٦). والواقع أن مهنر قد

بالغ في تقدير شعبية برنامجهم بين صفوف المسؤولين الفرنسيين من الحملة وهو يدرك بسرعة أن هذا المجلس الصغير العدد يهتد بأن يصبح مواقع لاحتشاد جميع معارضي سياسته الذين يتزعمهم رينيه. ولذا فإن المجلس لن ينعقد في الموعد الذي تحدد له (٢٧). وفي المقابل، سوف يدعو مينو جميع الفرنسيين الموجودين في مصر إلى أن يندمجوا إليه بشكل سرى جميع مشاريعهم ومقترحاتهم الخاصة بتنظيم البلاد (٢٨).

مشايخ القرى

لكن مينو لا يفتح بتللي ومناقشة المشاريع، فهو يبدأ في التصرف. إن الضرائب غير العادلة التي فرضها كليبر قد سمحت، كما هو متوقع، بتصفية متأخرات الرواتب، ويتكويّن فائض طفيف. لكن الوضع سرعان ما يصبح مزعجاً من جديد، إن نفقات الجيش تتجاوز الإيرادات إلى حد بعيد. ثم إن مينو، الذي لا يملك لا هيبة بونابارت ولا هيبة كليبر، لا يمكنه الأمل في تأمين شعبيته لدى الجنود إلا بتأمين راحتهم ورفع مرتباتهم. ولا بد له من استخلاص موارد جديدة.

وهو يتجه عندئذ إلى مشايخ القرى. وفي ٢٢ أغسطس ١٨٠٠، يحدد نظاماً ضريبياً جديداً خاصاً بهم. وهو يزعم، بشكل مرءٍ، أنه إنما يتصرف باسم حماية مصالح الفلاحين ضحايا تعديات المشايخ ويرى أن الهدايا، التي جرى العرف على أن يقدمها المشايخ للملتزمين، إنما تشبه ضريبة شخصية. واعتباراً من بداية العام التاسع، سوف يتعين على المشايخ، بمن في ذلك أولئك الذين لا يزالون في الالتزامات الخاصة، أداء رسم سنوي يدفع نقداً حتى يتسنى تثبيتهم في وظائفهم وسوف يحصلون على فرمان بتقليدهم هذه الوظائف. والحال أن القرى التي يصل عددها إلى ألفين ومائتين وثلاث وخمسين قرية والخاضعة للسلطة الفرنسية قد جرى تقسيمها إلى ثلاث لئات، وسوف يتعين على المشايخ الدفع تناسباً مع ذلك، بحسب إيراداتهم (٢٩). وسوف تجرى مضاعفة الرسم السنوي بالنسبة للعام التاسع وذلك سعياً إلى تدارك عجز الدفع الذي ميز السنوات السابقة.

وسوف يجرى تشكيل جهاز مفتشين من مشايخ البلد سعياً إلى الإشراف على دفع الرسوم وتلمين حسن سلوك المشايخ تجاه فلاحيتهم. وسيتم إنشاء موقعين للمديرين العموميين للمشايخ، موقع يحتله فرنسي وآخر يحتله مصري. وهما اللذان سوف يشرفان على نشاطات المفتشين (٣٠). وسيكون الشيخ الفيومي هو أول حائز للمنصب (٣١).

ويتواصل التطور الذي جرى البدء به في المستلكن السابقين. وتتمثل قوة الأهمية في أن
مشاريع القرى يصبحون تدريجياً موظفين في الدولة.

التدابير المالية الأخوة

^٤ يتواصل العمل في مجال الزراعة بإنشاء لجنة للزراعة تتبع للمعهد (المجمع العلمي)
وتتألف من شامبي ونوليزل ونهكتو. وهي مكلفة بإنشاء حديقة عليها تبنى حبوب مرسلة
من فرنسا وتحسين النباتات الأصلية في مصر (٢٢). ومن جهة أخرى، يكلف القائد العام
لويهر بأن يأمر مهندسيه بإجراء فحص شامل لشبكة القرى في وادي النيل وتحديد الأعمال
الأكثر إلحاحاً التي يجب الاضطلاع بها، ولن يتم تخلا أي قرار بشأن الأعمال غير المألوفة
من موانعة مينو الذي سوف يستشير هو نفسه مهندسي للجسور والطرق (٢٣). ويثير
ذلك سخط للمهندسين الذين يدعون، بحكم كونهم أعضاء في لجنة العلوم والفنون، أنهم
ليسوا مدعوين إلى تسوية عملهم طبقاً لتعليمات القائد العام. وأمام احتجاجاتهم، يرد
مينو على لويهر :

«إنني أقول إن بيترون، عندما كان ولياً على مصر، كان يعتقد أنه لن يتمكن من أداء
خدمة أكبر للجمهورية الرومانية إلا ببحث زراعة البلد الذي تحتله الآن. وقد تم ذلك عبر
إنشاء شبكة ري بالطبع.

«ويبدو أنني قد أخطأت في التدابير التي اتخذتها، فقد نسيت أنه لا يجب على المرء
أبداً إصدار أوامر إلى العلماء. وسوف أصبح خطئي؛ وسأكتفى بإصدار الأوامر إلى الجنود
الذين لا يملكون، كما لا أملك مثلهم، لا المواهب ولا الادعاءات (٢٤).

وسعياً إلى تدبير إيرادات إضافية لنفسي، يبتدع مينو رسوماً جديدة غير مباشرة.
ويحجج مكافأة غش السبائك، بجرى فرض رسم سعفة على أعمال الصياغة، قيمتها ٥ في
الماخ من قيمة السبائك المشغولة. وسوف يتولى بيهيرتر نقش ثلاث سككات تمثل النيل
على شكل عجوز مضطجع يستند إلى جرة ينبثق منها هذا النهر، وأبا الهول ورأس
إيزيس (٢٥). واختيار هذه الرموز، التي تعتبر من الناحية العملية انتهاكاً للمقنعات في نظر
المسلمين، إنما يكشف عن المسافة الفاصلة بين مينو - برغم تحوله إلى اعتناق الإسلام -
وبين رعاياه المصريين.

وتتعلق تدابير أخرى بتحديد رسوم جمركية جديدة على الواردات والصادرات مع
سهولة بيروقراطية على توزيع السلع (٣٦). ويجرى طرح ضرائب للمخ في مزايمة: وسوف
تجبي الضريبة في مواقع الإنتاج بحيث لا يتسنى لأحد فرض احتكار على تجارة هذا المنتج.
ويجوز فرض ضرائب على القنص وعلى صيد الأسماك (٣٧). أما الضرائب المفروضة على
إنتاج العرق فيعهد بها إلى ملتزمين، وهو ما يجرى إلى إنشاء جهاز من المفتشين على
المشروعات مكون من بين أكثر أفراد الجيش إصلاة بالعجز (٣٨).

كما يفرض مينو ضرائب منتظمة على الاستهلاك (سوف يتم اختيار المفتشين هذه
المرة من بين سكان البلد) (٣٩)، وعلى سفن النقل في وادي النيل (ومن هنا التسجيل
الضري في للسفن وتعداد الملاك) (٤٠). أما وظائف الحراف والقباني والكيال فيجوز
تحويلها إلى وظائف عمومية، حيث يتعين على حائزيها دفع عمولة سنوية حتى يتسنى
لهم مزاولة مهنتهم (٤١). وسعيًا إلى توزيع الضريبة توزيعاً أفضل على مجموع السكان
المصريين، يفرض مينو ضريبة سنوية على طوائف الصرافيين والتجار (١٢٩٤٠٠٠ فرنك
بالنسبة لكل مصر، من بينها مليون فرنك بالنسبة للقاهرة وحدها) وعلى الطوائف الدينية
لغير المسلمة (١٢٧٠ ٠٠٠ فرنك من بينها مليون فرنك بالنسبة للأقباط) (٤٢). وتنزع كل
هذه القرارات إلى إيجاد إنارة عقلانية من طراز لودوي في مصر.

وفي نسق الأفكار نفسه، يحول مينو نظام بيت المال القديم (جهاية متعسفة إلى هذا
الحمد أو ذاك لضرائب على التركات) إلى ضريبة منتظمة ذات معدل موحد نسبته ٥ في المائة
على التركات مع الإلزام بالإعلان اللوري لجميع الوفيات التي تؤدي إلى تركة (٤٣). ولما كان
القائد العام يعتبر مصر مستعمرة، فإنه يطبق الإجراء على جميع الأفراد الموجودين دون
تميز على أساس الجنسية أو الدين، وفي زمن المماليك، كانت كل أمة تسعى إلى نيل
امتيازات خاصة. وفي ظل حكم هائل ومسترشد بقوانين مصلحة، فإن هذه الامتيازات
تعتبر لاغية، وكل من يملك ذات الحق في أن تحمي القوانين والحكومة لابد له من دفع
حصته من النفقات العامة وأن يخضع من ثم لذات الضرائب (٤٤).

وجميع المزايدات ومزايدات الضرائب المتاحة للملتزمين سوف تعلن عن طريق
ملصقات بلغتين، العربية والفرنسية. وسوف تجرى قراءة قائمة الشروط باللغتين قبل
الفتح للمزايدات. ولا يسري مفعول مجمل للقرارات الضريبية إلا مع بداية العام للتاسع
وسوف يتطلب الأمر مرور عدة أشهر حتى تعود بإيرادات مهمة. وبما أن إيرادات الزراعة

تجد نفسها في الوضع نفسه بسبب فيضان النيل وبما أن دفع الرواتب قد استهلك بسرعة ما تبقى للنفقات الجارية في الخزنة، فإن مينو يأمر بالسحب من الاحتياطي غير العادي الذي راكمه كليبر لمواجهة الاحتياطات غير المتوقعة لمعركة عسكرية. وذلك لأن القائد العام الجديد، الراغب في ربط الجنود به، لا يمكنه أن يسمح لنفسه بوقف دفع المرتبات ولو بصورة مؤقتة (٤٥).

ميلو والجيش

يتوجه مينو إلى الجيش بلغة مزبوجة. فهو يذكره بكون توقف بأنه قد حصل على رواتبه بصورة منتظمة بفضل (٤٦). وهو يبدو مهتماً بحسن إدارة المستشفيات (٤٧)، ويتوفير الثياب (٤٨) وينوعية الخبز المقسم إلى الجنود (٤٩). وهو يشدد على المراقبة الصارمة للأحكام الصحية وذلك بقدر ما أن الطاعون يعاود الظهور في الإسكندرية (٥٠). لكنه يهاجم أيضاً مسلك الجنود السيئ تجاه السكان وهو يعلن أنه سوف يعاقب بقسوة المصادرات غير المشروعة، والاعتداءات على النساء، وخاصة السرقات التي يبدو أنها تصبح الظاهرة الأكثر انتشاراً. ربما أن هذه التحذيرات لا تكفي، فإنه يعيد التذكير بها في أمر يومي معصب يعبر فيه عن استيائه من مسلكتهم.

«أيها الجنود، فلتكونوا إلاً نبلاء في تعاملكم مع المصريين. ولكن، ماذا أقول؟ إن المصريين اليوم فرنسيون؛ إنهم إخوتكم. فلتحرصوا على مراعاة للشيوخ؛ ولتحرصوا على احترام النساء، ولتحرصوا أخيراً على أن تكونوا عادلين. ما هو اللحد الذي سوف تكسبونه عندما تسيئون معاملة رجل يرتعد من مجرد مظهركم، عندما تخطفون أو تهينون امرأته؟ فلتعاملوه إنك بمثل ما تريدون منه أن يعاملكم به، إن كنتم في مكانه وكان في مكانكم. أيها الجنرالات، بإقامة الأسلحة، أيها الضباط من جميع الرتب، فلتكربوا بلا توقف هذه اللغة على الجنود الذين ياتصرون بأمركم؛ قولوا لهم إنهم عندما يضطرون إلى استخدام أساليب القسوة، فإنني لكون أكثر حزناً من أولئك الذين لعانهم؛ وقولوا لهم إنني بينما أقضي الأيام والليالي في الاهتمام بما قد يعود عليهم بخير ما، فإنهم مدينون لي، بل ودرجة أكبر، مدينون لشرفهم هم، بأن يتصرفوا كجمهوريين حقيقيين ونبلاء» (٥١).

وهذه المصالاة بين الفرنسيين والمصريين، وعلى مينو من شأنها حتى في المجال الاقتصادي. ففي أوتل شهر يوليو ١٨٠٠، يدفع نقص القمصة الثياب مسؤولي الجيش إلى اقتراح إنشاء مصنع في مصر. ويرى مينو في ذلك على الفور فرصة لتحويله إلى مركز تعليم لتدريب المصريين على الطرق الحديثة. لكن المنهيين، الذين يخشون من منافسة في

المستقبل للصناعة الفرنسية، يرفضون ذلك. ويؤكد كونته على الملأ أنه لن يعلم المصريين شيئاً وأنه لا يقبل الاشتراك في المشروع إلا بشرط السماح للفرنسيين وحدهم بدخول الورش وأن يتم، في حالة الجلاء عن مصر، إخراج المعدات أو تدميرها. ويضطر مينو إلى التراجع أمام احتجاج العمائين (٥٢).

صيف ١٨٠٠

إذا ما قرأنا الجبرتي، لتبين لنا أن الشاغل الرئيسي للمصريين، أو للقاهريين على أية حال، خلال صيف عام ١٨٠٠، كان هو دفع الضرائب غير العادية. والحال أن التدابير الضريبية الجديدة، التي من المتوقع سريان مفعولها في الخريف، قد أتت كمصائب جديدة. بل إن الأمر سوف يصل بكاتب الحوليات المصري إلى حد القول بأن الفرنسيين وأموالهم الأقباط هم الباسة حقاً. إن الملزمين أنفسهم لم يتصرفوا بمثل هذا الشكل مع رعيته... (٥٣)

وكان الأثر المباشر لهذه التلميذ هو تخفيف المبادلات واستثارة ارتفاع للأسعار، في حين أن الفترة السابقة كانت قد تميزت بأسعار جد منخفضة (٥٤). كما أن الجنود الذين يحصلون الآن على رواتبهم نقداً يصبحون ضحايا لهذا الارتفاع. والواقع أن الاقتصاد الحضري منهك تماماً من جراء الضرائب جد الباهظة، أما مزارع مينو بشأن رفاهية البلاد في ظل حكمه فهي لا تتمشي مع أي شيء في الواقع. وتستفيد الأرياف استفادة أفضل من الوضع، لكن أزمة المواصلات تحول دون مراعاة احتياطات مهمة من المؤن الغذائية التي يحتاج إليها الجيش.

والأقلهم المصرية هائلة. وحسن طوبار الذي يموت في ١٠ ديسمبر من العام، الثامن (٢٩ يونيو ١٨٠٠)، يحل محله دون صعوبات أحد قاربه (٥٥). أما البند فهم محتون دائماً من جانب الطوابير للتحركة وقد عثت معطيات تهتت جديدة مع القبائل. ويرجع محمد بك الأعلى مرة أخرى إلى الصحراء الشرقية ويؤزم أنه يريد اللحاق بمواد بك في مصر العليا. وبما أنه لا يقرر الذهاب للحاق به، فإن مينو يرسل ركبى الجمال لاقتفاء أثره. وهم لا ينجحون في اعتراض سهيله، لكنهم يستولون على متاعه ويرغمونه على الانسحاب (٥٦). وبعد ذلك يؤدي الفيضان إلى جعل كل حركة من المستحيلات.

وبما أن إملاء تنظيم مصر قد قطعت في نظر مينو شوطاً بعيداً، وبما أن البلد والجيش يبديان سكوناً تاماً، فإنه يصبح بوسع الاقتراب من الجناح الثانى لسياسته والذي يتمثل في استعادة سياسة التعاون مع المصريين.

السياسة المصرية

القضاء

إذا كان مينو يجد المدافع إلى آرائه الخيرية في حرصه على خير السكان المصريين، فإنه لم يستأنف بعد سياسة بوناپارت، وهذه السياسة، المبنية على التعاون بين المصريين والفرنسيين، لا بد لها من أن تؤدي في الأجل الطويل إلى صهر الشعبين في إطار الحضارة الطائفة، وتحول إلى اعتناق الإسلام إنما يبدو له وسيلة إضافية تسمح بتحقيق هذا الهدف، وهو، في المقام الأول، يجيز له إصلاح المؤسسات الإسلامية. وهذا هو تطبيق الإصلاحات الثورية على مصر، وهو يكشف الجيش بهذا الهدف منذ بداية شهر أغسطس ١٨٠٠. «إن مدينة القاهرة هائلة للغاية، والضرائب فيها ترفع بشكل جد ممتاز - حتى وإن كان توزيعها بالغ الصوء -، إن أرستقراطية الثروات تهيمن في هذه المدينة هيمنة ربما تكون أقوى مما في أي مكان آخر، وذلك بشكل يؤدي معه نفوذ الأقوياء فيها إلى سحق لا يتوقف للشعب الذي يتحمل مجمل عبء الضرائب تقريباً. ويندرج بقوة في مقاصد القائد العام لاختزال هذا النفوذ إلى أقصى حد ممكن وإنهاض طبقة الفلاحين العاملة» (٥٧).

وفي ٢٢ أغسطس ١٨٠٠، ينشئ لجنة فرنسية مكلفة بدراسة سير عمل القضاء والتحسينات التي يجب إدخالها عليه. ويشكل لوميس التنظيم الداخلي للبلد والعلاقات المدنية التي يجب أن تنشأ بين الحكومة الفرنسية والسكان. ثم إن لجنة ثانية مؤلفة من المشايخ الأوفى علماء سوف تجتمع للإجابة على تساؤلات المفوضين الفرنسيين (٥٨). والخطوة التالية هي الأمر اليومي الصادر في ١٠ فيفري من العام التاسع (٢ أكتوبر ١٨٠٠) والذي يعيد تنظيم إدارة القضاء.

واعتباراً من ذلك التاريخ، فإن محاكم كل مصر (بما في ذلك المحاكم للوجودة في الأراضي التي تم التنازل عنها لمراد بك) سوف تمارس عملها القضائي باسم الجمهورية الفرنسية. وسوف يكون على جميع القضاة، أيًا كانت مهنتهم، نيل تعيينهم في وظائفهم من الحكومة الفرنسية. ويجري إلغاء شراء وظائف القضاة. وتتم استعانة بهوان مؤلف من مسلمين فقط ومهمته هي الصهر على كل ما يتعلق بسير عمل المؤسسات الإسلامية (تعيين القضاة الشرعيين، المساجد، الأوقاف، التعليم، الحج...). وسوف تكلف القوة العامة



٦٥ - سيدنى سميت عند الانزال قرب الإسكندرية.



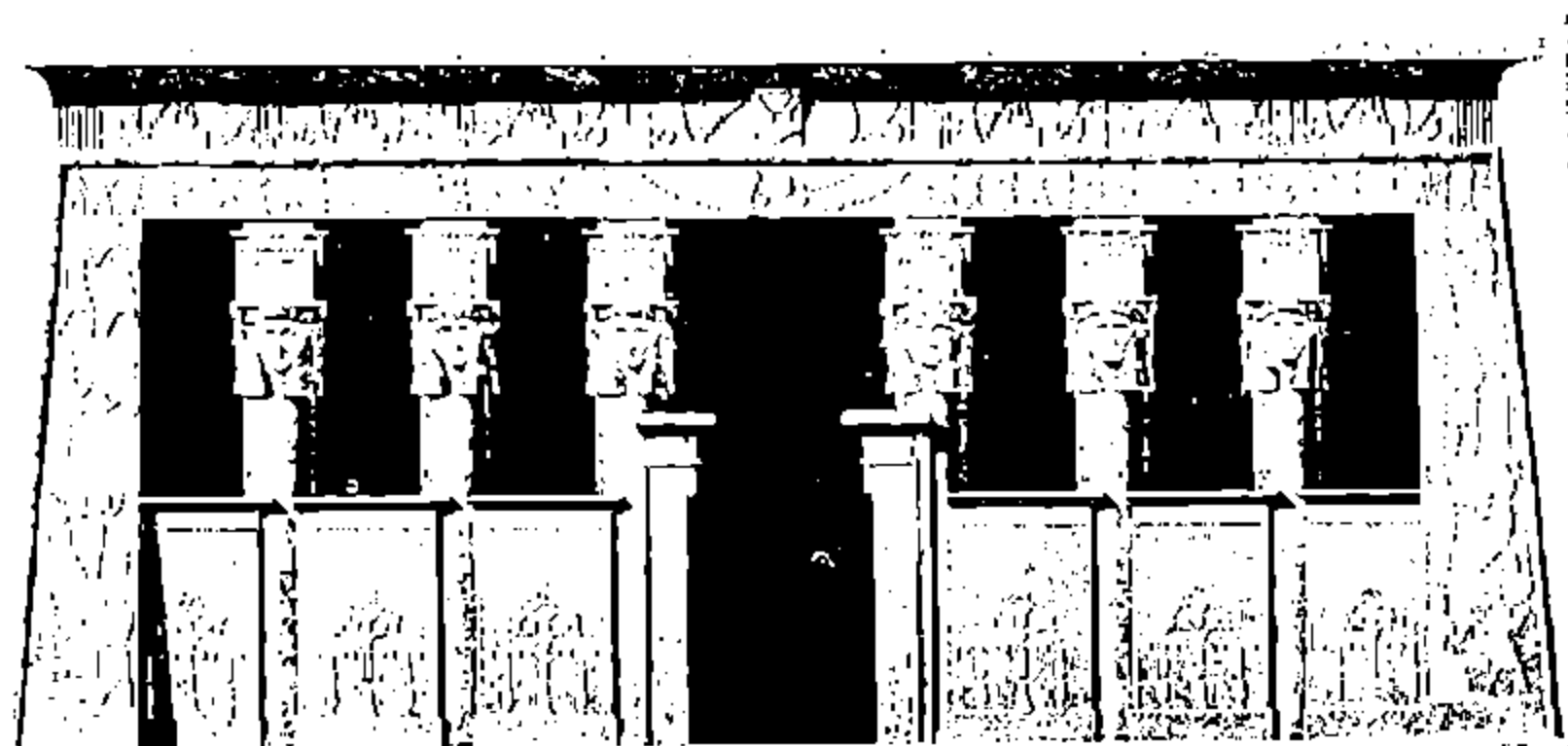
Ⓜ

Mohammed Ali
علي محمد

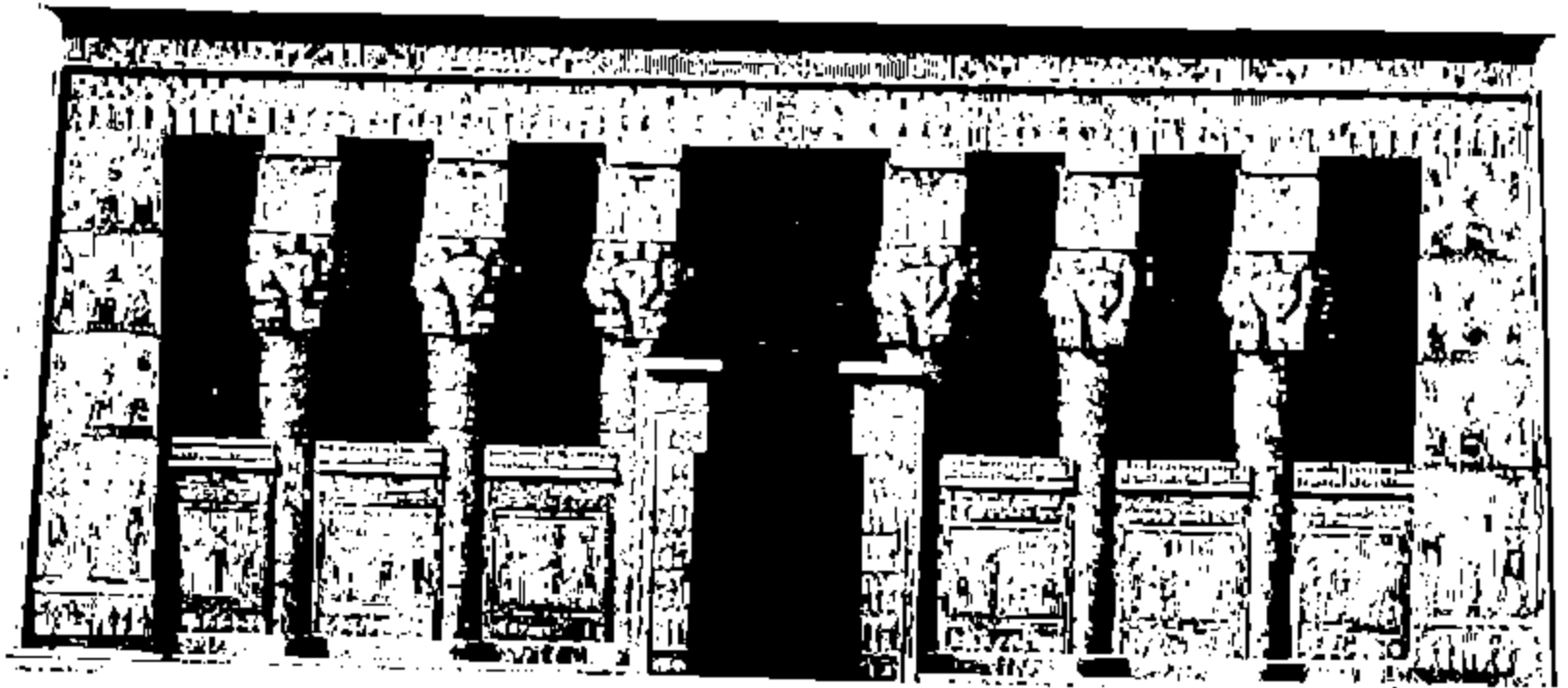
٦٦ - (١) محمد علي، ولي مصر.



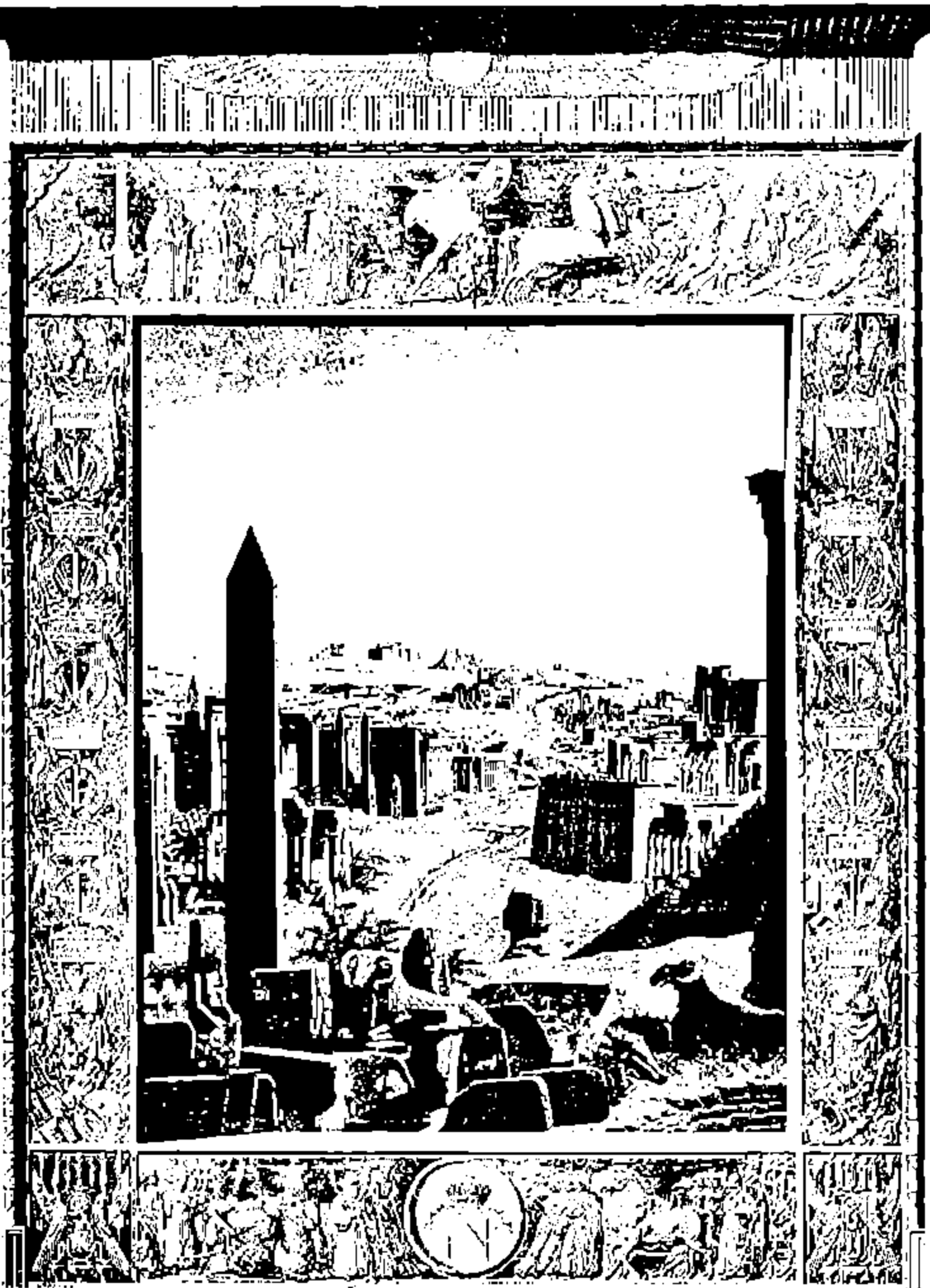
(ب) چندہان من فیلق راکی الجمال.



٦٧ - واجهة معبد إيزيس. استرجاع فيثان بينون.

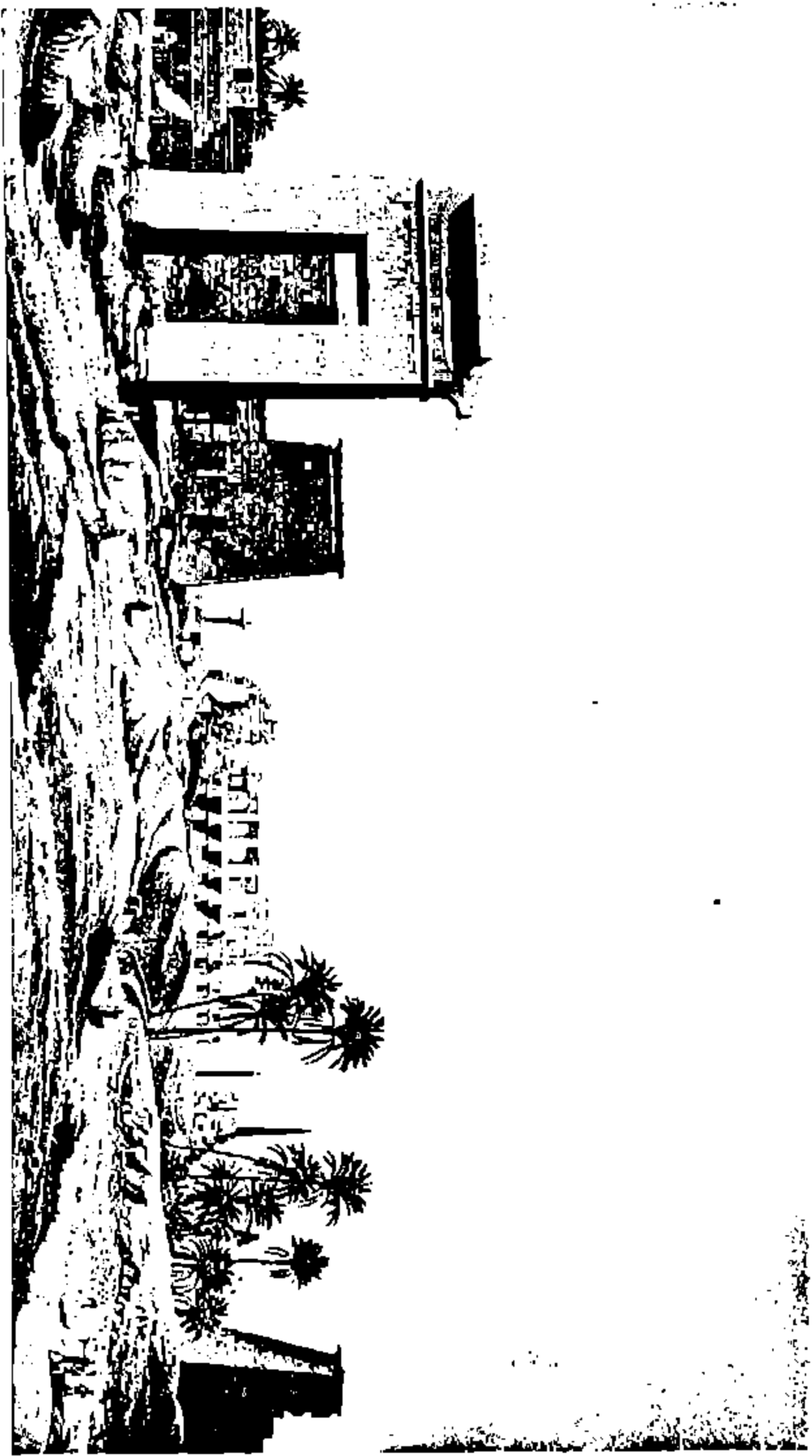


٦٨ - واجهه معبد عشنونة. استرجاع پولوا وديفيلبييه.

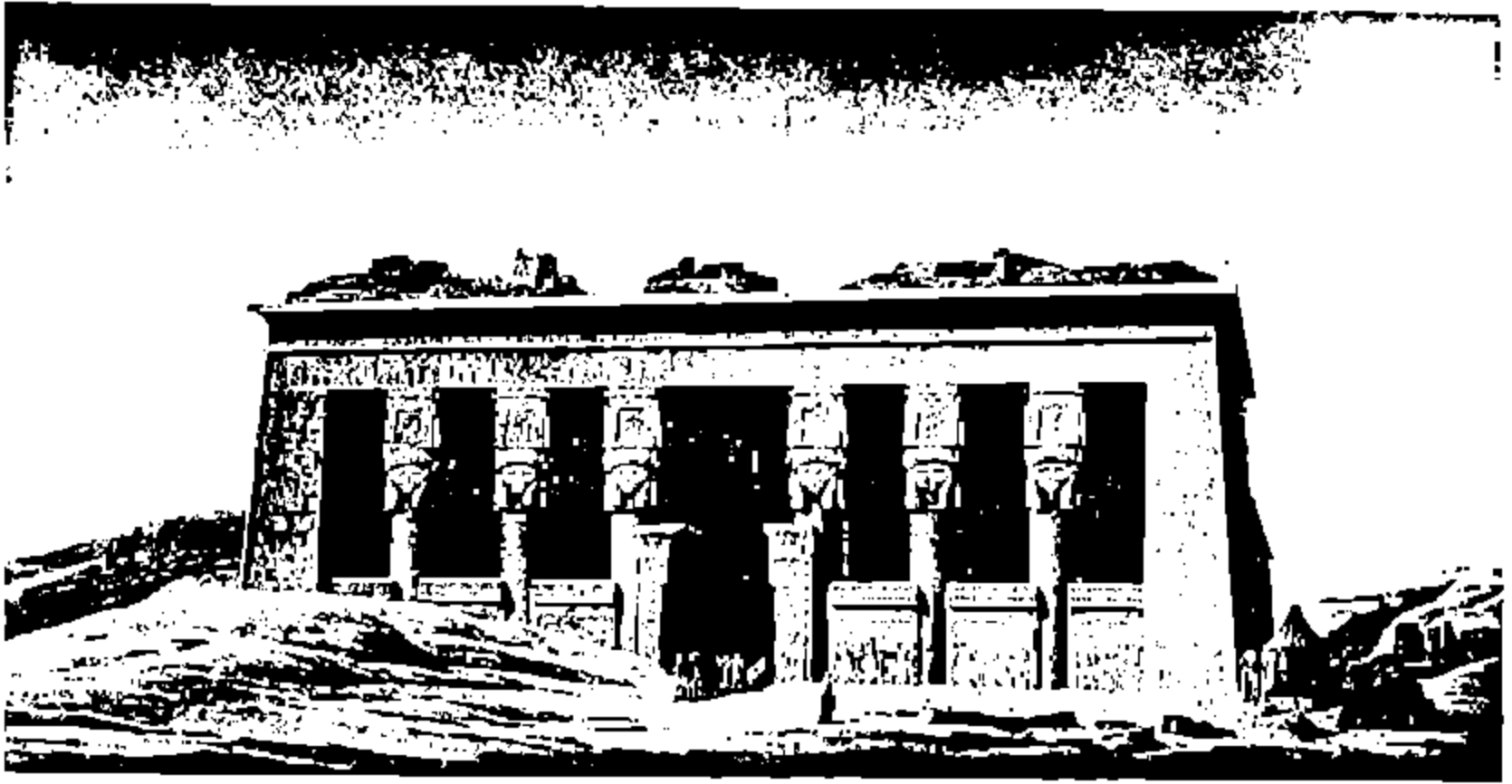




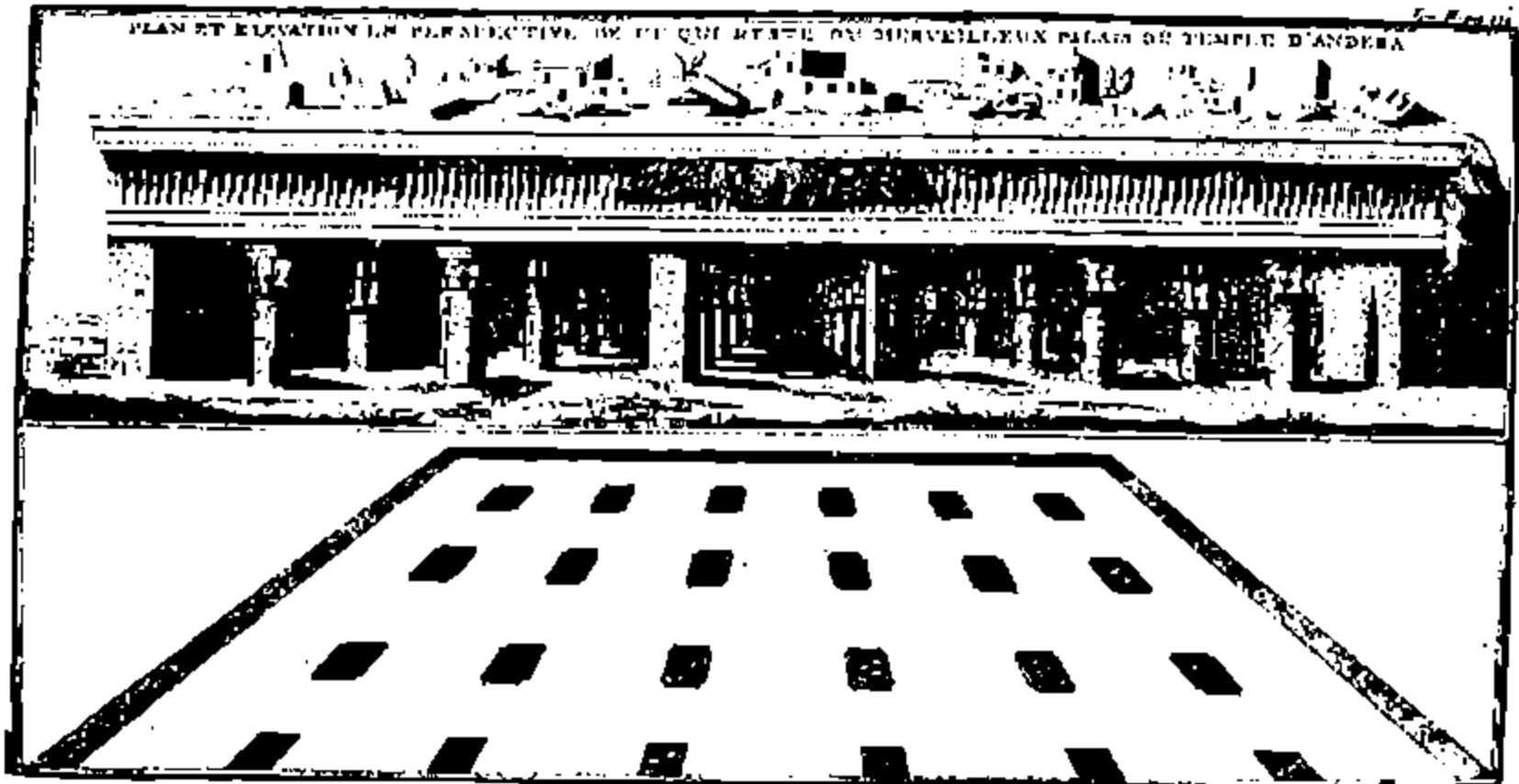
٧٠ - الكرنك. بوابة الهيروجليت ومعبد خونسو كما صورهما دينون.



۷۱ - المکرتک. دہلیہ الہیہرجیت ومعد خرنسو کما سورہما سورہیل.



(ا) رسم سیسہل فی عام ۱۷۹۹ء.



(ب) رسم لوکاس فی عام ۱۶۹۹ء.

بتطبيق القانون، لكنها سوف تكون تابعة على نحو صارم لقرارات القضاة الشرعيين. وسوف يتمتع غير المسلمين بمحاكمهم الخاصة للنظر في لحوائهم المدنية. أما جرائم القتل فسوف يجرى إصدار الأحكام فيها بموجب التشريع المصري، وسوف تنفذ السلطات الفرنسية عقوبة الإعدام. ويجرى على نحو صريح إلغاء العانة، جد للتأصلة في الأرياف المصرية، والخاصة بدفع للدية، أو تقديم تعويض مالى للأسرة التى يتعرض أحد أفرادها للقتل، سعياً إلى تجنب ظهور مسلسل ثار دموى. وأما السرقات وأعمال العنف المرتكبة بين فرنسيين ومصريين، وبين غير مسلمين من طائفة واحدة أو من طوائف مختلفة، فسوف يحكم فيها عن طريق لجنة خاصة يسميها القائد العام. لكن الجرائم ذاتها في حالة ارتكابها بين مسلمين وغير مسلمين سوف تتبع محاكم القضاة الشرعيين.

الديوان الجديد

كان عدد أعضاء الديوان الجديد تسعة، للشيخ الشرفاوى والفهومي والأمير والمهدى والبهكري والسرسى والجبرتي (كاتب الحوليات نفسه) والشريف السيد على الرشيدى^(٩٠). وكان مينو قد أخرج عن الصادات، إلا أن هذا الأخير قد جرد من الجزء الأعظم من ممتلكاته وهو لا يمارس بعد تدخلا عاماً. ومن جديد يصبح فوربيه مفوضاً فرنسياً لدى الديوان.

وجنباً إلى جنب إعادة تكوين الديوان، يوجه مينو بياناً مطولاً إلى سكان مصر، لقد جاء الفرنسيون لجلب السعادة إلى مصر. وهو، مينو، يتعهد بالعمل على الزوال النهائي للمظالم، ويؤمن إدارة منتظمة تحترم حقوق السكان، وبحماية الفلاحين من تعديات الملتزمين ومهاوى البلد الذين لن يكون بوسعهم طلب أكثر مما يبيحه القانون وإلا فإنهم سوف يقعون تحت طائلة تهريدهم من ممتلكاتهم، ولن تتكرر بعد كلفة الاختلاسات التى تتحمل للمسؤولية عنها الطبقات العليا.

إلام آلت للممتلكات التى تخص للمساجد؟ إلام آلت الأوقاف الخيرية الضخمة التى أنشأها أجدادكم؟ هل آلت إلى صيانة للمساجد؟ إننى أراها في كل مكان خربة أو على وشك الانهيار. هل آلت إلى إطعام الفقراء؟ إنهم في كل مكان يموتون جوعاً؛ والشوارع والطرق فاصّة بهم، هل آلت إلى رعاية المرضى والعجزة والعميان وجميع من لا مورد لهم؟ إن السود التى كان من المتصور أن تحصل عليها هي كالمساجد في الدج اختلال؛ والتعساء

المعزولون فيها إنما يشبهون بالأحرى ضحايا حكم عليهم بفقن الحياة، يشبهون رجالاً مجتمعين لتلقى ما يخلف نكبتهم، فمن إنك الذي استهلك كل هذه الممتلكات، كل هذه الأوقاف؟ إنهم رجال أتوا نجاهوا حتى الآن في خداعكم، وقد انقضى هذا الزمن. كما أنني أكرر لكم أنني قد تلقيت الأمر من الجمهورية الفرنسية ومن القنصل بوناپارت بأن تعمل على مساعدتكم؛ وأنا لن أتوقف عن عمل ذلك، لكنني أنبهكم أيضاً إلى أنكم إن لم تكونوا مخلصين للفرنسيين، وإن سولت لكم أنفسكم من جديد - مدفوعين بنصائح خبيثة - أن تهو ضياعنا، فإن ثارتنا سوف يكون رهيباً، وأشهد الله ونبيه على أن جميع اللصائب سوف ترتد على رؤوسكم. هل تتذكرون ما حدث في القاهرة وفي بولاق وفي اللحظة الكبيرة وفي مدن أخرى في مصر؟ إن دماء أبنائكم وأخوتكم وأبنائكم ونسائكم وأصدقائكم قد سالت كأموال البحر؛ وقد دمرت بيوتكم، وخربت ممتلكاتكم والتهمت النيران. فما الذي كان سبباً في كل ذلك؟ النصائح الخبيثة التي استمعتم إليها، الرجال الذين خدعوكم. فليكن هذا الدرس عبرة لكم إلى الأبد كونوا حكميين، ووعاء؛ اهتموا بأعمالكم، بتجاريتكم؛ أحرثوا أراضيكم؛ وفي جميع الأماكن لن تجدوا في الفرنسيين غير أصدقاء كرماء، وحماة ومفاليحين؛ اتسم لكم على ذلك باسم الله الحي القيوم، باسم الله الذي هو على كل شيء شهيد، الذي يهد أمر كل شيء، والذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (٦٠).

وبالنسبة للمهاجرين، فإن استعادة الديوان هي وسيلة للتمكن من جديد من التوسط لدى الفرنسيين ولتخفيف معاناة السكان إلى حد ما. وفي الجلسة الأولى، في ٣ نوفمبر ١٨٠٠، يسترد الشرقاوي والمهدي وظيفتيهما كرئيس وكأمين بحسب الترتيب. ويدرك المهاجرين بسرعة بالغة أن مجال اختصاصهم قد أصبح محدوداً أكثر مما في السابق. فالديوان الجديد ليس أكثر من محكمة استئناف في مجال القضايا الإسلامية. والمسائل المالية كالمسائل المتعلقة بالالتزام ليست من اختصاصهم (٦١).

وأحد الأعمال الأولى التي يطلبها مينو منهم هو كتابة رسالة إلى بوناپارت، والأرجح أن المهدي هو الذي يحررها، وليس النص غير تفريط طويل لعمل بوناپارت وبالتبعية لعمل مينو.

«نحن أصدقاء للفرنسيين، الذين نسعد لمعانتهم، كما يسرهم ما يسرنا، غمرنا الفرح حين علمنا أنكم قد سرتم لإحراز نصر مبين، وأنكم قد اجتزتم الجهال مع قوائكم ومنفعتكم، وإن سرعة زحفهم لم تدع لأحد أية برهة لالتقاط الأنفاس؛ وأنكم قد انضمتم

إليهم بشخصكم في اللحظة التي كان وجودكم فيها ضرورياً لهم لإحراز النصر، وأنكم قد
شملتكم رعاية السماء؛ وأن بشهر النصر قد أعلن انتصاراتكم؛ وأن الطاف السماء قد
لاحظت بكم نون أي انقطاع؛ وأن الحملة الإلهية قد صاحبت كل مساعيكم. ومن ثم فقد
أحرزتم النصر. إننا نحمد الله على نجاحاتكم ونسبكم سيف الله، الذي يصيب نصله
أعداءكم ومن يفلومونكم. واليوم نؤكد لكم بأكمل الإخلاص وبصرامة تتناسب مع ثقتكم
أن الطائفتين المصرية والفرنسوية ليستا بعد غير شعب واحد توحدته الصلابة الوثيقة
والخلاصة؛ وهذا الاتحاد لم يكف عن التزايد يوماً بعد يوم، وذلك برعاية صديقنا المشهور
مهد الله مينو، للتميز بين جميع الرجال، والذي تجعله حكمته ونبل مشاعره جديراً
بالاحترام بين جميع أهل زمانه. إننا ندعو العلى القدير أن يتكرم وأن يثبته على رحمت
وحكمة إدارته.

وسوف ينتشى بوناپارت انتشاءً عظيماً بهذا النص بحيث أنه سوف يأمر بنشره
بالعربية مع ترجمة فرنسية بقلم سلفستر دوساسي في المونيتور^(٦٢). ويؤثر مينو بتر
للجاملات الموجهة إليه في مقتطف الرسالة الذي يقدمه في أمره اليومي الصادر في ٣
نومبر من العام للتسع (٢٣ نوفمبر ١٨٠٠).

ولم تكن تنبيهات مينو كلاماً في الهواء. إن تاجر زيت، تمت الوشاية به، وفقاً
للجبروتى، لإدلائه بعبارة مشؤومة ضد الفرنسيين، يجرى الحكم عليه فوراً بالموت ويتم
إعدامه^(٦٣). وفي بيان جديد إلى السكان، يستشهد القائد العام بهذا المثل لكي يتكرر
بإصراره على إنزال العقاب القاسى بكل من يلمى بالقول من شأنها التحريض على
التمرد^(٦٤).

القضاء على الالتزام

إن موضوع الانزعاج الرئيسى بالنسبة للطبقات المصرية العليا هو مصير الالتزام .
وقد فسروا الفلاحون المصريون بيان مينو بأنه دعوة إلى الكف عن دفع أى شيء للترضى
للضرائب. والحال أن هؤلاء الأخيرين كانوا قد تعرضوا لعبء ضريبى جسيم فرضه
الفرنسيون عليهم خلال فرض الضرائب غير العافية وكانوا مضطرين إلى الاستئانة. ولما
كانوا قد خنقوا مالياً، فإنهم يوجهون عريضة جماعية إلى ديوان القاهرة ويوضحون أن

الالتزام يجب أن يعتبر ملكية حقيقية، إن السلطة، يدفعهم للميرى للطلب العالي، قد أصبحوا ملاك القرية وليس الفلاحون والبرهان على ذلك هو أنهم قد تمتعوا بحق التصرف في هذه الممتلكات وبيعها أو شرائها خلال حياتهم، وبعد موتهم، تصبح هذه الأراضي حرة، ومنفذ، كان أقرب اليه يستردونها بدفع رسوم التسجيل ويتصرفون فيها بالشكل الذي يحلو لهم، وهذا هو السبيل للتبع في مصر وفي البلدان الأخرى لمواعاة جانب الرعية لا تجريهم من أسباب عيشهم.

والا لم يدفع الفرنسيون لهم ما يحدون به، فإن للمتزمين مستعدون لمغادرة مصر والعيش كمتسولين^(٦٦). ويعلن الديوان عدم اختصاصه بمعالجة الأمر ويحيل المسألة إلى السلطات الفرنسية^(٦٧). ويرد مينو من خلال فورييه بأنه لا ينوي القضاء على الالتزام، لكل ما يهدف إليه هو العمل على مراعاة حقوق الشعب المصري^(٦٨). وكما هي العادة مع مينو، فإن كل شيء ينتهي بتوجيه بيان إلى سكان مصر يوبخ فيه مقبى العريضة، المشتبه في أنهم يكونون مشاعر عصيان بل وتمرد، ويوبخ الديوان الذي نعى واجباته، على قبول العريضة^(٦٩).

والواقع، أن احتجاجات للمتزمين إنما تدفع الفرنسيين إلى إعادة فتح ملف الضرائب الريفية. ويدرك استيف أن من المستحيل تمييز الضرائب، التي يحصل عليها ملتزم الضرائب بشكل شرعى، من الجبايات غير المشروعة؛ فإن كل شيء مشروع ووفقاً لهم ووفقاً للعرف ولا شيء يبدل على ذلك. على أن استيف يرى أن الدخل الحقيقي للمتزم يرتفع في المتوسط إلى ثلث الضريبة الإجمالية التي تؤديها القرية وهو يقترح ترك $\frac{7}{12}$ من الضريبة للمتزم، وهو ما لا بد له من أن يكفيه. بل إن هناك كثيرين منهم يكسبون من النظام الجديد للأمور^(٧٠). وبعد ذلك بوقت قصير، فإن قائد الكتبة توسار الذي لا يعرف جيداً شير مصر العليا يقترح إلغاء الزراعة الجماعية والتوزيع العنوى للأراضي كما يقترح جعل جميع الفلاحين ملاكاً، الأمر الذي سوف يسمح بزراعة أكثر كثافة. ولا بد لذلك من القضاء على سلطة للمتزمين ومشايع للبلد؛ وبعد ذلك بوقت قصير، سوف يجرى العمل على جلب مستوطنين فرنسيين وسوف يحملون إلى المصريين بذرة وقنوة الجد والنشاط^(٧١).

ويحظر استيف على للمتزمين التواجد في أراضيهم. وهو يخشى من أنهم، بحجة البحث عن متأخرات الميرى من عامى ١٢١٣ و ١٢١٤، سوف يبحثون بالفعل عن جباية للميرى من عام ١٢١٥ في حين أن الفرنسيين لم يتخذوا - بعد - قراراً نهائياً. وبعد ذلك

بأربعة أيام، يفرغ مهنو من مشروعه الخالص بالإصلاح الشامل للضرائب الريعية، الذي يبدؤانه لم ينشر قط في الأوامر اليومية. على أن هذا للمشروع هو المحصلة للمنطوية للتطور المتبع منذ بدايات الحملة (٧٢).

ويبدأ النص بالضرب صلفاً من الماضي، «إن جميع الرسوم المستحقة والمنطوية حتى اليوم، تحت أي مسمى ولأي سبب أيها كان، من جانب فلاحى قرى مصر، تعتبر وتظل ملفاة بالكامل اعتباراً من عام ١٢١٥ للهجرة» (٧٤).

ولن توجد بعد غير ضريبة واحدة وسوف يخضع لها جميع الملاك بلا استثناء. وسوف يجرى تقسيم الأراضي إلى ثلاث فئات بحسب نوعياتها. وهذه المرة يعتبر الالتزام ملفياً تماماً، «إن قرى مصر التي تخص ملتزمين خالصين سوف تخضع بالمثل لأنباء واحد للضريبة المشار إليها ولن ترفع بعد أيها من الرسوم القديمة التي كانت مدينة بها، لكن الجمهورية الفرنسية [...] سوف تترك لدى الحياة لحساب هؤلاء الأفراد [الملتزمين] معاشاً سنوياً، مأخوذاً من ضريبة هذه القرى، وذلك ليحل محل جميع الرسوم المعينة والنقدية التي يتمتعون بها الآن على أراضي فلاحى قراهم».

وسوف يتم تحديد المعاش كما أعلن استيف ذلك بنسبة $\frac{7}{24}$ من الضريبة المحصلة. وسوف يتعين على الملتزمين الامتناع عن أي تدخل في شؤون القرى، وسيحصل مشايخ البلد على نسبة $\frac{3}{24}$ من الضريبة التي سوف تتم جباية ورسومها للقرية عليها من المنبع. أما شيخ البلد للمكلف بجباية الضريبة والمعاون القبطي الذي يساعد، فسوف يحصلان على نسبة $\frac{1}{24}$ من الضريبة (بنسبة $\frac{2}{24}$ للشيخ وبنسبة $\frac{1}{24}$ للأمين). والحال أن المعلم هو الذي سوف يعين الشيخ الذي سيأخذ اسم الأمين، والمعاون القبطي. وسوف يجرى تكريس نسبة $\frac{1}{24}$ لأعمال القرى. ويتم إلغاء أعمال الصخرة للجانية تماماً، وسيجرى الاضطلاع على القود بمصنع عام للأراضي حتى يتسنى تحديد الملاك وإنجاز تصنيف الأراضي. ويتم إلغاء المنطوعات المعينة ويتوجب دفع كل شيء نقداً. وتتمركز الزراعة من كل نظام جماعي.

لكن قوة الأشياء سوف تحول دون تطبيق إصلاح مهنو. لكن هذا الإصلاح يؤذن بإصلاحات مستهل حكم محمد علي، خاصة فيما يتعلق بإلغاء الالتزام وإيجاد مساحة للأراضي، وهي الإصلاحات التي سوف تحدث بعد ذلك بعشر سنوات. على أن منطوقها لن يكون هو نفسه وذلك بقدر ما أن محمد علي سوف يسعى على العكس من ذلك إلى القضاء على أي اتجاه نحو ملكية الأرض (في العقود الأولى لعهد علي الأقل). وليست

هناك ضرورة لاستدعاء أوامر نسب مباشر بين عمله وعمل مينو. ومن حيث الجوهر فقد استفاد محمد على من الضربة القاضية التي وجهت إلى الالتزام خلال السنوات الثلاث لسيطرة الفرنسيين. وحتى إذا كان الالتزام سوف يحاول، بعد رحيلهم، إعادة التشكل، فإن الاستنزاف المالي للطبقة السائدة القديمة واستمرار الفتن حتى عام ١٨١١، سوف يقودان إلى إيجاد نظام جديد سيضع الدولة، مثلما وضع نظام الفرنسيين، في علاقة مباشرة مع مشايخ القرى. وخلافاً للحال في الأقاليم الأخرى للإمبراطورية العثمانية، فإن عائلات الملتزمين في القرن الثامن عشر لن تكون هي عائلات كبار ملاك الأرض في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر (٧٥).

مينو والمشايخ

إلى جانب المسائل الضريبية، يهتم مينو بنشر المعارف. وهو يخطط لإنشاء صحيفة عربية تحمل اسم التنبيه، التي يتوجب تحريرها والإشراف عليها من جانب أعضاء الديوان. وسوف يكون عليها نشر مراسيم الحكومة الفرنسية، ومراسيم الديوان، وأخبار الأحداث الأوروبية والآسيوية، وبعض المناهج المتصلة بالفنون والعلوم. وبطبيعة الحال، فسوف يتعين إضافة مقالات حول الأخلاق ومبادئ كل حكم صالح (٧٦). ويبدو أن هذا المشروع لم يصل إلى شيء، ويرجع السبب الرئيسي في ذلك إلى لا مبالاة أعضاء الديوان.

وينصب اهتمام مينو أيضاً على الحشيش. ويجري فرض حظر صارم على التعااطي على شكل مسائل مركز أو على شكل عشب للتبخين. ولا يستهدف ذلك سوى المسلمين. وسوف تجرى معاقبة للخالفين بالسجن لمدة تتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر (٧٧). ومن هذا النوع من العلامات ندرك ظهور الحديثة في مصر.

وفي المقابل، فإن أعضاء الديوان يشكرون مينو على الإصلاحات التي أدخلت على مقياس النيل. والأرجح أن للهدى هو الذي كتب هذا النص للملء بالمندائح للجنرال الفرنسي: «إن هذا الإصلاح هو نصب تذكاري لكم حتى آخر الزمان. فليحفظ الله صنيعكم للشعوب، ولهمد في عمركم وليحقق الاستقرار إلى الأبد لأسلوب إدارتكم وليأمن بأن تكونوا دائماً موفوري الفضيلة والرحمة من أجل شعوبكم. ولتعلموا أنكم للثناء أهل كقائد وكإنسان» (٧٨).

وفي ذات الوقت الذي يوجه فيه الديوان إليه المديح والثناء، فإن الديوان يطلب إلى مينو إنزال عقاب قاس باحتفالات الطرق الصوفية المسرفة، ويسارع مينو إلى النزول على رغبات

الديوان ويأمر السلطات العسكرية بتوقيف وحبس الرجال الذين، كما يوضح ذلك ديوان القاهرة، يزعمون أن لهم قداسة ويجوبون الشوارع عرايا أو شبه عرايا، ويتهمكون على اللأ في أعمال تدان وتقمع بهالغ العرص في جميع البلدان التي يتواجد فيها أبسط احترام للأداب العامة (٢٩) .

وتتواصل العلاقات الطيبة مع للتهنئات التي يوجهها الديوان إلى مينو بمناسبة مولد ابنه سليمان مراد چاك مينو. والحال أن مينو، الذي نثر بذلك تأثراً مخلصاً، إنما يغتنم تلك الفرصة ليوجه خطاباً مطولاً تجرى قراءته في الديوان. وقد سجل الجهرتي نصه للعربي. ويجرى فيه تعجيد القرن الذي يلصق عن النظام الذي لرضه لله على الكون، إكان ذلك في الطبعة أم في أخلاق البشر. وهو يعلن إنشاء سجل مدني حقيقي للمصريين ، إلى جانب التسجيل الإلزامي بالفعل للوفيات سوف يضاف تسجيل المواليد والزيجات وحالات الطلاق (٨٠). ويرد الديوان برسالة مطولة يجرى فيها للثناء من جديد على مآثر مينو: إن للسجل المدني سوف يكون في الواقع جد مفيد على نحو خاص فيما يتعلق بتسوية مسألة التركات (٨١). والحال أن مينو، المنتشى، يأمر بنشر هذا النص الذي يجرى فيه تصويره على أنه الرجل الذي يبدو أنه قد قُدر له أن يواصل، في بلاد مصر، وأن ينجز جميع المشاريع المجيدة لبوناپارت ولخليفته الأول (لكن العزة لاسميهما على اللوام) (٨٢).

السلطات الثقافية

من جديد، يتردد المشايخ وأعضاء الطبقة السائدة على مؤسسات الفرنسيين. وهم يترددون بشكل خاص على الأوبرا التي لقامها الفرنسيون لللو (٨٣). ويرد المعلم يعقوب على ذلك بإقامة مأدبة عظيمة لكهار ضباط الجيش، يقدم بعدها تمثيلاً لكوميديا عربية (٨٤).

ولعل الشيء الأكثر أهمية بالنسبة للمستقبل، هو أن المشايخ يزورون المطبعة الوطنية التي يديرها مكرمبيل. ويتردد عليها المهدي والفيومي والصاوي عدة مرات. ويندهش الشيخ محمد الفاسي، الذي عرف مطبعة القسطنطينية، وعدد من السوريين الذين شهدوا مطبعة كسروان في لبنان، من سرعة وبقة لعمال الفرنسيين، ويكتشف للشيخ البكري عالماً جديداً :

إنه، بين لسئلة أخرى، يصل ما إذا كانت فرنسا تحوز للكثير من المطابع، وما إذا كان

هناك عدد كبير منها في الأجزاء الأخرى من أوروبا، وفي أي بلاد تعتبر أكثر كثافة، إلخ. وعند إجابته على جميع هذه الأسئلة، فإنه يتعامل أيضاً عما إذا كانت هناك منشآت طباعية في روسيا، ويبدو جد مستغرب من الإجابة التي قدمت إليه وهي أن هذه الدولة لم تبدأ التمدن بالفعل، ولم تبدأ التحضر إلا عندما أدخلت المطبعة إليها. وهو يتعامل عندئذ عن الأثر الذي يمكن أن يكون للمطبعة على حضارة شعب، ويبدو أنه قد فهم واستحسن الأساليب التي قدمت إليه، خاصة تلك للمستعمدة (لولا) من سهولة النسخ الطباعي وتوزيع عدد كبير جدا من نسخ المؤلفات الجيدة التي عندما تظل مخطوطات لا يمكن أن يطلع عليها لغير عدد قليل من الأشخاص، والمستعمدة (ثانياً) من استحالة خضاع كل هذه النسخ أو بمارها لتمام من جراء أي نوع من الأحداث، وهو ما يمكن أن يحدث لأفضل المخطوطات. وهو يقول عندئذ أن هناك عدداً كبيراً من الكتب الجيدة العربية التي سوف يكون طبعها مفيداً إلى أبعد حد في هذا البلد؛ وأنها مجهولة من جانب العدد الأكبر من الناس وأنه يتمنى مخلصاً أن يكون بالإمكان نشرها عن طريق الطباعة. ثم خرج وهو يقول إن جميع العلوم مصدرها الله وأنه إذا ما شاء الله، فلن يكون هناك أي شيء يتعذر على الناس الاضطلاع به أو يتعذر عليهم النجاح فيه، (٨٥).

ومبر الإيفال البطيء لهذا النوع من الأفكار في أوساط العلماء، للتجاوية بالفعل فيما يتعلق بالعلوم، وبالنسبة للآداب، وهي الأوساط التي يسميها هيلبير ديلاو بالعلماء انصار التنوير (٨٦)، لتتبع النهضة الثقافية التي سيشهدها القرن التاسع عشر. إن الطهطاري الشاب سوف يجد لسائلة منفتحين على أفكار وعلى أوضاع أوروبا. وسوف يشجعونه على زيارة فرنسا وعلى تسجيل قصة رحلته، التي تعتبر معلماً أساسياً في تاريخ الفكر العربي (٨٧).

الأقليات

يكن مينو عدوة صميقة للأقليات المسيحية واليهودية التي يعتبرها متطفلة على الاقتصاد المصري. وبين الأقليات، فإنه لا يحترم إلا للمعلم يعقوب. وهدف سياسته هو القضاء في نهاية الأمر على إقباط المال والضرائب. ومينو، الرجل الذي ينتمي إلى زمن التنوير، يتخذ موقف التشجيع للتجارة ومصر تعاني معاناة شديدة من انقطاع العلاقات التجارية. على أنه يهاجم مباشرة الكاثوليك اليونانيين ويأمر بمراقبة نشاطاتهم في دمياط من جانب الجنرال رامون. ويتيح ذلك له الفرصة لكي يعبر بوضوح عن رأيه في المسيحيين.

«سأقول لك، بهيئنا، إننى قد عرفت، منذ أن جئت إلى مصر، أن المسيحيين هم أكثر سكان هذا البلد خسة وحقارة وبين المسيحيين، يحتل للشوام اللقام الأول. بخلاء، مخادعون، جهلاء، حقودون، وخسيسون إلى أقصى حد، تلك هى صورتهم [...] ومهمتى هنا هى أن أجلو تقريباً كل وجه مصر، بالتوفيق دائماً بين مصالح الجمهورية ومصالح الجيش ومصالح السكان. ولاهد للوصول إلى ذلك من القضاء على تلك الروح المدمرة والتي تمثلت نتيجتها، فى ظل حكم البكوات، فى تركيز كل الثروة العامة فى أيدي عدد صغير من الأفراد» [...] [وعندما] جئنا إلى هنا، فإنهم [للمسيحيين] قد تصوروا أننا لسنا غير ممليك فرنسيين ومسيحيين سوف يحلون محل مماليك جيورجيين ومحمديين. وقد تصوروا أن السادة الجدد سوف يستخدمونهم بالشكل نفسه الذى استخدمهم به السادة السابقون، وهنا بالتعديد بنلوا يخطئون لأول مرة فى حياتهم، لأننى أريد تأسيس للمستعمرة الجديدة على الأمانة والأخلاق، (٨٨)

مواظبه

بما أن مينو قد قرر أن يجعل من مصر مستعمرة، فإنه لا يسعه إلا يرتاب فى مراد بك. وكان هذا الأخير قد توصل إلى اتفاق مع الفرنسيين لأنه يخشى، وهو محق فى ذلك، من نوايا العثمانيين، ولكن أيضاً لأن كليبر بدا له راضياً فى إعانة جيشه إلى أودها فى مستقبل قريب، الأمر الذى يضع الزعيم للملوكى فى وضع ممتاز لإعادة الاستيلاء على مصر بسهولة.

ويلوم مينو كليبر على أنه قدم كثيراً من التنازلات إلى مراد (٨٩). وهو لا يستطيع سوى الحفاظ على الاتفاق الذى وقع عليه سلفه مع تمسكه بتطبيقه تطبيقاً صارماً وبمراقبة تحركات الزعيم للملوكى الكبير. ولا يمكن أن يكون هناك، بينه وبين مراد، الاحترام للتبادل الذى وجد بين هذا الأخير ومقاتلين مثل ديزيه وكليبر.

وينصب الخلاف على سرجة استقلال مراد عن الفرنسيين. وقد أراد مينو توضيح نواياه علناً بسعيه الصاغر إلى مد تطبيق أحكامه العديدة إلى أراضى الزعيم الملوكى لكى يوضح تماماً أن هذا الأخير إنما هو تابع لفرنسا. على أن العلاقات كانت طيبة فى بداية حكم مينو: وقد سارع مراد إلى تهنئة الجنرال الفرنسى على صعوده إلى المنصب الأعلى (٩٠).

ويجرى الاضطلاع بمفاوضات سعياً إلى إدخال تعديلات على الشروط المالية المتعلقة بالزعيم للملوكى ويتم التنازل له عن قرى إضافية فى مقابل زينة للخزينة التى يدفعها

سيد مصر العليا (٩١). وفي المقابل، وبالرغم من رأى باملس للملك، يرفض مينو أن يسلم له المدافع العشرة التي يطلبها من أجل الدفاع عن القصور ما إن ظهرت سفن بريطانية في عرض البحر قبالة هذا المكان. فهو يخشى من انقلاب الماليك في حالة إنزال إنجليز في البحر الأحمر (٩٢). على أن مراد بك يتعهد بتأمين مصر العليا في حالة هجوم عثماني (٩٣) ويؤكد أن جميع الماليك، بمن فيهم ماليك إبراهيم، مستعدون للانضمام إليه، وإن إبراهيم بك وحسن بك لا يريدان بعد أن يعاود الانضمام إليهما أحد من أولئك الذين معنا، ويعون الله، فإن أولئك الذين معنا سوف يجيئون إلينا، إنهما الآن تحت تحفظ العثمانية، مع أولئك الذين كانوا معهما من جماعتهما في يافا. ولولا أنهم مراقبون نهائياً وليلاً، لكان الجزء الأعظم قد جاء بالفعل. وعندما تتحرك القوات، سوف يتمكنون بمشيئة الله من الهرب والمجيء إلينا. إنهم موجودون الآن [هناك] مرغمين وليس من باب الصدقة، فهم يعرفون أن العثمانيين لا يريدون خيراً للماليك. إننا نقول لكم الحقيقة نون أي لك أو نودان. وما نخبركم به صحيح، إننا لن نصحب أي شيء خاص أو عام، وليس لدينا أي سر نخفيه عنكم لأننا ننتظر كل الحماية من الجمهورية وبدونكم لن نتمكن من أن نكون في سلام مع العثمانية (٩٤).

والحقيقة المباشرة، التي تظهر لمينو، هي أن مراد قلدر على أن يوحد خلفه جميع الماليك، وأنه على اتصال بهم ومن ثم بالعسكر العثماني، وأنه يستطيع، عن طريق البحر الأحمر، التدخل في اتصال مع الإنجليز. ومنذ ذلك الحين، فإنه يطلب إلى دونزيلو، للراسل الرئيسى لمراد بك، أن يراقبه بانتباه (٩٥). ويعلم مراد بك بذلك ويعلن رايته؛ وهو يرى أنه قد تعرض للاقتراء عليه (٩٦). على أنه يواصل تقديم معلومات عن القوات العثمانية في سوريا (٩٧)، الأمر الذي لا يمكن له إلا أن يفوق رغبة القائد العام.

وفي مستهل بلوغيوز من العام التاسع، يعاود مهدي البحيرة الظهور في ذلك الإقليم الذي يسعى إلى دفعه إلى الثورة مرة أخرى. لكن الهدوء، للرعيين من قبوة عمليات القمع السابقة، يرفضون مشايعته. وإذا تطارد الطواهير للتحركة الفرنسية للمهدي؛ فإنه يضطر إلى الهرب إلى الجنوب ويدخل في أراضي مراد بك. ويقال أن الزعيم المملوكي، المخلص لتعهداته، إنما يتمكن بسهولة من تهديد شمل الجماعات للسلطة الأخيرة التي تتبع للمهدي القديم، ولكن نون أن يتمكن من الإمساك بشخص للراكشي الملقب (٩٨).

وبتوسط مراد بك لدى مينو من أجل الألفى، الذي انتهى أخيراً إلى الانضمام إلى معسكره، ويرسل عثمان بك البرنيسى إلى مينو (١٨ بلوغيوز من العام التاسع - ٧ فبراير ١٨٠١). ويلوم القائد العام مراد بك على عدم تسليمه إليه عدد الفرنسيين هذا. والبرنيسى مكلف برسالة أخرى. فهو يخبر مينو بقرب إنزال جيش إنجليزى على ساحل

للبحر المتوسط، والذي سوف يتزامن معه اجتياز سيناء من جانب الصدر الأعظم مع القوات العثمانية. ومن المقرر أن يتم إنزال ثانٍ لقوات أنجلو - هندية في السويس. ويرى مراد أن الفرنسيين لا يمكنهم الصمود أمام هجوم ثلاثي، لو أنهم، على أية حال، سوف يخرجون منه ضعفاء بشكل لا يمكن إصلاحه. ولذا، فإنه إذا اختار مينو التفاوض، فإنه يرجوه ألا ينسى مصالحه. أما إذا اختار مينو القتال، فإن مراد على استعداد للانضمام إليه مع مملوكيه للانضال ضد الغزاة. وقد نقلت إليه هذه المعلومات الثمينة عن طريق إبراهيم بك نفسه، الذي ما يزال يتراسل معه. ويحدد مينو على عثمان بك البرديسي ويتصنع عدم تصديق صحة المعلومات المنقولة. ويرد عليه: «بأنه ليست لديه حاجة لا إلى المعون ولا إلى وساطة أحد؛ وبأن من الأفضل لمراد أن يبقى هائلاً في الأقاليم التي منحت له والأ يتراسل مع سوريا. وقد ذكره عثمان بأن مراد بك قد احتفظ بعلاقات تخاير مع جيش الصدر الأعظم، بناءً على طلب الجنرال كليبر نفسه، وإبلاغه بمخططات العدو المشترك؛ وقد رد مينو بأنه لا يقتدى بمصالح كليبر وبأنه لا يريد مثله بيع مصر؛ وبأن هذه للرسالات التي يجريها مراد بك لا تسره، وبأنه يشك في وجود مخططات شريرة لديه وبأنه لا ينظرون لنزعاج إلى استقباله وتسليمه للمماليك الذين يجيئون من سوريا للانضمام إليه. وقد رد عليه عثمان بك بأن مراد قد سمح له دائماً بأن يستقبل أولئك الذين ينتمون إلى بيته، وكذلك أولئك الذين مات بكواتهم، وذلك سعياً إلى اختزال جيش الصدر أيضاً» (٩٩).

ومكنا فإن مينو يهمل اتخاذ احتياطات خاصة مشية الإنزال الإنجليزي ويحرم من المساعدة الثمينة من جانب مراد بك الذي كان يوسعه استخدامه مع مراقبته عن قرب. ويرجع ذلك إلى أن الزعيم المملوكي، في تصوره، ليس مجرد عقبة أمام سياسته الاستعمارية، بل هو أيضاً رمز لسياسة كليبر. والحال أن مينو قد نجح في خلق شقاق لا علاج له مع جميع رفاق كليبر الذين يشكلون قيادة الجيش.

تهرب الجنرالات

الزعم العسكري

في كتبهم الخاصة بالفكريات أو بالذكريات، غالباً ما يذكر من كانوا من قبل في مصر بأن الجيش كان منقسماً إلى فريقين كبيرين يجمع أحدهما أولئك الذين جاءوا من جيش (حملة) إيطاليا ويجمع الآخر أولئك الذين جاءوا من جيش (حملة) لمانيا. وهذا التمايز، الواقع في النهاية بالتأكيد، خاصة فيما يتعلق بالجنود العائدين للصربيين إلى اكتساب روح الفريق، إنما يخفى واقع المسألة. فالتباين الأساسي يتعلق بعالم الضباط، خاصة في الراتب

العليا. إن تشكل وظيفة عسكرية حقيقية، بدءاً من التجنيدات الضخمة التي شهدتها الفترة الممتدة من عام ١٧٩١ إلى عام ١٧٩٤، إنما يقود إلى تشكل زمر من الضباط تلتف حول قائد كبير. ومن الواضح أن زمرة بوناپارت كانت تتألف ممن سبق لهم العمل في جيش (حملة) إيطاليا، على الرغم من أن للمرء يجد في هذه الزمرة بعض الجنرالات المنتمين إلى جيوش أخرى، والذين اتفروا حول الجنرال الشاب، كما هي الحال مع ديوييه. والواقع أن بوناپارت، حتى يتسنى له تحقيق طموحاته الشخصية، كان قد أعاد معه إلى فرنسا الجانب الرئيسي من رجاله ولد وأبنا مدى قوة خيبة أمل أولئك الذين لم يقع عليهم الاختيار. ويشكل مينو استثناءً. وعلى الرغم من أنه جد مخاطر للأوساط السياسية الجمهورية، فقد أثار بوناپارت تركه في مصر وذلك على الأرجح لأنه قدر فيه حماسه للمغامرة المصرية والذي صار نادراً.

أما كليبر، دون أن يسعى إلى ذلك بالفعل، فقد شكل حوله، خلال قيادته، زمرة جديدة من الضباط، يعتبر باماس ودينييه أفضل ممثلين لهم. والحال أن الهيبة والمحبة اللتين نجح الجنرال الأكراسي في بثهما في صدور أفراد حلشيت، كما في صدور جميع أفراد الجيش، قد تحولتا بعد الاغتيال إلى عبادة حقيقية. ومثلما يحدث غالباً في مثل هذه الظروف، فإن الإخلاص تجاه شخص ميت إنما يحول إلى جسد ملهم جامد ومقدس ما كان، في حياة البطل، موافقاً ومسلطاً عمليين، أو على أية حال قابلين للتعديل، تبعاً للظروف. وهكذا فإن تكون ولياً للكرسي كليبر إنما يعني أن تصبح نصيراً لإجراء مفاوضات مع الباب العالي لإيجاد نهاية مشرقة لمشروع سيء الترتيب، باختصار أن تكون «معدياً للاستعمار».

ولا يستثير مينو احتراماً كبيراً في صدور رفاقه في السلاح. إن لاحتقارهم المتزايد للمهنية السياسية المدنية للثورة قد دفعهم إلى إبانة ماخسبه كرجل سياسي. وعمله العسكري يخلو من مآثر حربية بالرغم من رتبة قائد الفرقة التي وصل إليها. وهو يبدو بوجه خاص جنرالاً سياسياً. وتلك لبوناپارت إنما يستثير التقرؤ. ومسلطه في مصر، تحوله إلى إعتناق الاسلام بامتناعه لوتخلفه عن المسؤوليات التي كانت تعهد إليه، ليس من شأنها تجميل الفكرة التي يمكن للمرء أن يكونها عن شخصه. وحماسه للاستعمار ومذكرات الاقتصاد السياسي للسبغة التي حررها تصير في اتجاه مضاد للسياسة التي اتبعها كليبر. وقد بدأ منذ وقت مبكر بوصفه زعيم اتجاه «الاستعماريين». وبينما كان

يتشبهت بالبعد عن المسؤوليات خلال الأشهر الأولى للقيادة كليبر أخذ يتكلم بنبرة ظفيرة وحاسمة عندما علم باستيلاء بوناپارت على السلطة ومن المعروف أنه قد حافظ على إجراء مراسلات خاصة بخارج الطريق الهيدرلكي، مع الانفصل الأول. ومن السهل استنتاج أنه قد شجب فيها سياسة كليبر.

على أن القواعد العسكرية واضحة. وهي تجعل منه ثالث قائد هام لجيش الشرق. وعند صعوده إلى ذلك للنصب، كان قد أعلن أنه سوف يعتمد على نصائح كبار الضباط. وسرعان ما يدرك هؤلاء الآخرون أنه لا مجال لشيء من ذلك. لمينو يعتكف في مكتبه الخاص بمختلف الوثائق، موحياً بأنه منكب على العمل ليل نهار وبأنه يفعل كل شيء بنفسه. ويضطر زائروه إلى للكوث طويلاً في قاعة الانتظار وينتهون أحياناً إلى عدم إجراء لقاء. ولذا فإن الزيارات تصبح نادرة وتقتصر على مسائل الخدمة (١٠٠).

إن التأكيد القوي والمفاجئ لتحويل مصر إلى مستعمرة إنما يقابل بوصفه هجراً لسياسة كليبر وشجياً لها. وفي هذا الاتجاه نفسه يسير إعلان ٥ ميسيدور من العام الثامن حول إسلب الوجود الفرنسي في مصر. وإعلانه تنظيم الإدارة تتم نون استشارة الكوادر العليا للجيش التي لا يتم إبلاغها بالقرارات للتخنة إلا عبر نشرها في الأوامر اليومية. والوعود الكثيرة للخدمة إلى الجنود والخاصة بتحسين حالتهم المراهنة إنما تبدو بالقصر نفسه كلوم لعمل سلفه. ثم إن النبرة الخطابية والمتعمسة بالفضائل والتي يستخدمها القائد العام الجديد إنما تبدو بامتة على الصغرية ومزيرة بالمقارنة مع اقتضاب ووضوح كلام كليبر.

الخلاف السياسي وتنازع الأشخاص

إن النزاع بين مينو وجنرالاته مزبوج، فهناك أولاً المسائل الواضحة التي تتعلق بالأشخاص، خاصة مع رهنبيه، الذي يأسف بمرارة لأنه لم يك حاضر الزمن بما يتيح له تولى القيادة عند مصرع كليبر، إلا أن هناك أيضاً، وبسرعة بالغة، خلافاً كلياً وعميقاً حول السياسة التي يتبعها مينو، والتي تعتبر كارثية من جميع زوايا النظر. وكما هو معتاد في هذا النوع من المواقف، فليس من شأن لاختلاف الرأي إلا أن يزيد من احتداد التوتر ويجري تفسير كل شيء على أنه تهجمات شخصية ومباشرة. وعيب مينو الأكبر سوف يتمثل في تحويل ما لا يعدو أن يكون في البداية غير تصورات سياسية متناقضة إلى عدوات تؤدي إلى استحالة سير العمل الصحيح للألة الحربية وتصبح سبباً للفشل النهائي.

وقد رأينا، خلال جئازة كليبر، أن رينيه يحتج على الدور الذى يفتصبه مينو لنفسه، ثم رأينا أن تركة الهنرال الأناسى تصبب سبب جليل عنيف بين داماس والقائد العام. والبال أن رينيه وداماس لا يخليان، فى الشهور التالية، معارضة لالهنرال، وهما يحتفلان علناً اقتداء بهير المتخذة، واللى تعتبر عموماً حماقات، خطرة أحياناً. على أن تسوية الحساب الأولى قد حدثت بين مينو ولانوس الذى كان قد خلفه فى قيادة الإسكندرية وغرب الدلتا.

كان لانوس قد هنا القائد العام للجند بحرية عند توليه لمنصبه (١٠١)، إلا أنه بينما كان خصماً لاتفاق العريش، فإنه يذهبك الآن فى الشاء على الجلاء عن مصر. ويدرج مينو على الدور فى زمرة خصومه (١٠٢). وتؤدى مسألة زالت من تعليقاتها الاختلاسات والتحايلات (وهى تتعلق بحملات بيع الشحنات المصانة من السفن العثمانية التى دخلت ميناء الإسكندرية بعد انهيار اتفاق العريش) إلى إلهاب الموقف، ويرى لانوس أنه قد أهدى فى شرفه ويطلب لجنة تحقيق. وسوف تنتهى هذه اللجنة إلى تبرئة من الاختلاسات للزعومة، لكن مينو، فى تلك الأثناء، ينحى لانوس عن قيادته التى يعهد بها إلى لريان (مستهل أكتوبر ١٨٠٠) (١٠٣).

وسعى إلى تقديم مبرر مقبول لهذا القرار، فإن القائد العام يأمر بالمناسبة نفسها بالتبديل الكامل للقوات للرابطة فى الإقليم، وهو إجراء يعتبره البعض عديم للمسؤولية بسبب عودة الطامون إلى الظهور فى الإسكندرية، فهذه التحركات تبدو لهم أفضل وسيلة لنشر الرهبة. وعندما يرجع لانوس إلى القاهرة فإنه يصبح العدو الشخصى لمينو. ويرى فريق من الجيش أن مينو قد إساء استخدام مناصبه الرفيعة لكى يحوى مسألة شخصية، إنه ما كان ليفكر للانوس بهذا أنه قد حل محله فى قيادة رشيد والإسكندرية هذه التى كان شديد الغرام بها (١٠٤).

وفى القاهرة، يتواصل تنهد العلاقات بين مينو وداماس الذى أصبح المدافع الشرس من تركة كليبر المالية وتراثه السياسى. إن داماس، قائد الأركان العامة للجيش، يخذل حرقاً لأوامر مينو مع إنتقاله لها ومع إسطاره لها بالسفيرة علناً (١٠٥). ويرد مينو على ذلك بالاعيب حقيرة على أمل إرغام مرؤوسه على التنى. لكن هذا الأخير يعاند:

«إننى أحبطك علماً [...] أنه بالرغم من أنك لن تفلح فى زيادة لشئمزالذى بأكثر مما فعلت، فإنك لن ترغمنى على ترك موقعى إلا بأن تجعلنى أتحقق من عدم قدرتى على شغله، إلا أنه بما إننى قد ولّيت بتبعائه على نحو مشرف منذ سنة، وبما إننى لا أبدو خيال

مائة [كذا] أيضاً في أعين الجميع، فسوف يكون عليك محكمتي قبل تجريدي منه. وإذا ما أمكنني، من خلال التوقف عن الخدمة تحت أوامرك، تفادي الاضطهاد الذي ينتظرني، فإن علاقاتنا سوف تنتهي سريعاً.

وبالإضافة إلى ذلك، ليها المواطن الجنرال، فإنه أياً كانت للمضايقات التي تعدها لي، فسوف تكون لدى الشجاعة لتحملها، بون أن تتأثر بذلك الخدمة التي كانت بها (١٠٦).

وبلغاً مينو العمل بفتحته باملس من وظائفه في ٥ سبتمبر ١٨٠٠. ويطلب هذا الأخير تحويله إلى اللثول أمام مجلس حربي. ويتدخل لريان ورينيه، و، سعياً إلى إظهار أن باملس لم يجره من الاعتبار، يتم منحه قيادة مصر الوسطى. إن كل شيء واضح، بالنسبة لخصوم مينو، لقد قرر القائد العام اضطهاد جميع أصدقائه كليبر القدامى. وبالنسبة لكثيرين فإن مينو قد أظهر برهان ضعف يسمح بإمكانية مناقضة قراره، إنها رخاوة كان من المستحيل تصورها في ظل سلفيه (١٠٧).

توسط وضع ويلو

على أن مينو يستشعر تعزز وضعه من جراء وصول لوجوست باملس في أواسط سبتمبر ١٨٠٠ حاملاً رسائل من فرنسا. إنها موجهة إلى كليبر. ويقدر معين من سوء النية، كتب وزير الحربية، كارنو، إلى كليبر أن اسطول بريست سوف يتحرك متجهاً إلى مصر مع تعزيزات قوامها أربعة آلاف رجل ومدد من الذخيرة، وذلك في الوقت الذي ذاع فيه خبر معاهدة العريش. وتؤدي معركة هيليوپوليس إلى تبادل للوقوف ويلزم الانفصال الأول كليبر رسمياً بالحفاظ على فتحه حتى الصلح القائم ليكون وسيلة مقايضة. وهو يرى أن العثمانيين مستعدون لترك الجيش الفرنسي في مصر كلوة مساعدة بدلاً من ترك الاستحواذ عليها للإنجليز. وسوف تصل خلال الشتاء تعزيزات قرية. وتجرى تهنئة كليبر على انتصاره ويتم إبلاته بمصرع بيزيه (١٠٨). والواقع أن بوناپارت لم تكن لديه الوسائل لإرسال نيكوروش وحده إلى مصر (١٠٩)، وتحليل موقف العثمانيين إنما يبدو صدي لرهبات الانفصال الأول بأكثر مما هو صدي للواقع.

ومن جهة أخرى فإن مينو، الذي تتسلط عليه فكرته الاستعمارية، لا يتجه إلى استئناف الاتصالات مع العثمانيين كما تدهوه الرسالة إلى ذلك ضمناً. وفي خطابه في الأول من أيلول يتهنئهم من العام التاسع (٢٣ سبتمبر ١٨٠٠)، عيد الجمهورية، بتذكر علم

الحرية الذي يعرف في الشرق بفضل الجنود الفرنسيين، هذه الأعلام للنسبة التي أراها وسط كتلتكم، ليست هي إشارة الحضارة بالنسبة لجزء من العلم، كان مرموقاً في الأزمنة الفاهرة، ثم محاد الاستبداد وقضى عليه، لكنكم سوف تعملون على بعه من زمانه ؟

وهو يكتف للصبح لهنناهارت، «أيها الجنود، لا تخافوا كثيراً إننا على الحرية، إن عبقرية هنناهارت وسراحد الفرنسيين قد كسبتها إلى الأبد، فالجمهورية موجهة وسرعان ما سوف يقويكم السلم إلى غلبة أعمالكم».

وهو يستند إلى رسالة كارنو محلولا الإيحاء بأنها من هنناهارت ويشير إلى أهمية إقامة جيش الشرق في مصر بالنسبة لمجد ومصالح الجمهورية (١١٠). وفي اليوم نفسه، يرقى ستة ضباط كبار إلى رتبة قائد اللواء، متجهاً بذلك إلى تكوين زمرة العسكرية الخاصة (تؤثر التعيينات على مجمل الهراروكية). وبالنسبة لكثيرين من الطموحين فإن اللواء لينو يهتو بومله وسيلة الترقى السريعة. إن له الآن حزيه في الجيش (١١١).

ومعياً إلى مواصلة تكثيف حس الكرامة لدى جنوده، ينشر مينو مقتطفات من بيانات الوزير الإنجليزي نانكلس أمام مجلس العموم، ففي هذه البيانات يجرى للتهجم بعنف على الجيش الفرنسي :

«إن هذا الجيش الفادر يجب أن يكون هبرة، لمصلحة الجنس للبشرى تتطلب بماره. ولاهد لنا من أن نأمل أنه، إذ يتعرض للمضايقات على جميع الجبهات، وإذا يدخل في صراع مع الأوتة وتثيؤ المناخ، لن يرجع لبيتة ناعم الهال إلى الخصلة التي بدأ حملته منها» (١١٢).

ومن الواضح أن بوسع مينو بعد ذلك أن يندد بالوزراء الإنجليز الذين ارتكبوا «حقيقة تروجه الإهانة إلى جيش الشرق في مهاتراتهم للبرلمانية» (١١٣).

مطوور

في أوامره اليومية، خاصم مينو بصورة منتظمة الإدارة المالية ومصصلحة الجيش الإدارية. ومن الطبيعي أن أكن الصوف العام دور قد استشعر أنه مستهدف من وراء هذه التهمات واحتج على ذلك بقوة. وعندئذ يحاول مينو كسب مودته، لكن الاهتمام الذي يوجهه للقائد العام إلى المسائل الإدارية إنما يختزل بطبيعة الحال استقلال أكن الصوف للشباب والطموح، والناروى لروح الإصلاحات التي يجرى الاضطلاع بها. وهو يشكك في

فعالياتها وينقل المناقشة إلى التقييم التي يجب اتخاذها من أجل استئناف العمليات العسكرية؛ إن الأموال التي كان كليبر قد خصصها لهذا الاحتمال توشك على أن تستهلك للصماح بالدفع الفوري للمرتبات ومخازن المواد الغذائية التي كان كليبر قد أرتأى إنشائها لا يتم إمدادها بالمؤن؛ والإسكندرية التي كان عليها تخزين ما يكفي كل الجيش من المواد الغذائية لمدة عام، تجد أن المخزون لا يكفي إلا لمدة شهرين. لقد أصبح لعن الجيش مهدداً (١١٤).

وعندئذ يعرض عليه مينو وظيفة للفتش العام على المراجعات، وهو ما يعادل ترقية. ويقبل نور هذا التقييم ويتولى سارتيلون في ٢٢ أكتوبر ١٨٠٠ وظائف آتن للصرف العام. وعندئذ يكتشف سلفه أن مينو قد عينه في وظيفة مفتش عادي، وهو يفضى على هذه العمالة غير الشريفة، ويطلب تحويله للممثل أمام مجلس حربي ليحكم ما إذا كان قد فقد لامتباره. وعندئذ يتعهد مينو بالوفاء بوعده. لكن نور لا يحصل في الواقع على أية مسؤولية ولا يرفع له راتبه بسبب عدم تولي الأموال، وهو يتنهد لمنازعة سلطة مينو الذي، وفقاً له، لكونه قائداً عاماً لا يملك السلطة الشرعية لكي ينحبه أو لكي ينقله بون تصريح من الحكومة. ويرد مينو بأنه بوصفه حاكماً للمستعمرة، فإنه يمثل تلك الحكومة، وأن الشرعية إلى جانبه. وفي هذه المناقشة القانونية، يبدو أن نور قد حصل على المشورة من تاليان الذي يطور الفكرة التي تلعب إلى أن مينو لا يمثل الجمهورية إلا تجاه السكان المغلوبين وليس تجاه الفرنسيين. ومن ثم فإن هؤلاء الأخيرين، مدنيين كانوا أم عسكريين، إنما يخضعون لقوانين المتروبول وليس للأحكام التي يصدر بها مينو مواسم. وهكذا، على سبيل المثال، فإن للرأسيم المتعلقة بحقوق الوراثة لا تنطبق على الفرنسيين، بالرغم من قرارات مينو للعكس (١١٥).

المخطط [المجمع العلمي]

كما ينجح مينو في إثارة استياء أعضاء لجنة العلوم والفنون. فعند التوصل إلى اتفاق العريش، كان مينو قد منحهم الأولوية، مع من أصبحوا يعجز ما في الجيش، في الرحيل عن مصر. إلا أنه لم يتسن تحقق هذا الرحيل. وإذا بقيت في مصر مرضمين، فإنهم يقررون تنظيم حملة استكشاف جديدة في مصر العليا كان عليها أن تقوهم حتى النوبة، بل والحبشة. ويحكم عليهم مينو بالانتظار وقتاً طويلاً ويرفض في نهاية الأمر تقديم موافقة على هذا المشروع. وهو يريد استخدام العلماء في مشاريعه الاستعمارية. والحال

إن للمهندسين، خاصة مهندسي الجسور والطرق، ورون أنفسهم وقد جردوا من حرية اختيار موضوعات دراساتهم لكي يجرى إلحاقهم بالمشاريع الكبرى الخاصة باستغلال مصر. ومنذ ذلك الحين، فإن العلماء يستأنفون بشكل فردي بحوثهم التي يركزونها على الدلتا ومصر الوسطى. على أن مهنة هواصل الإيمان بمشروع وصف مصر الذي دشنته كليبر. وهو يلقى عقد هاملان الذي جعل منه عملية تجارية خاصة، ويلزم أن تتحمل الدولة جميع تكاليف النشر. (١١٦)

تحول خاصة الفرق

إن استياء كولنر الجيش العليا هو من ثم استياء عام. والأمر اليومي الصابر في ٦ برودير من العام التاسع (٢٨ أكتوبر ١٨٠٠) يشمل البارود. فميدوا. في تعليقه على الأنباء الطبية الواردة من فرنسا، ومستريحاً إلى نجاحات بوناپارت، يهجم معارضيها، «أيها الجنرالات والضباط والجنود، وأنتم بالجميع الفرنسيين للوجودين في مصر، خلوا عبدة مما يحدث في فرنسا؛ إن كانت هناك بينكم، وأنا بعيد عن تصور ذلك، أحزاب وحشائس وخلافات في الآراء وفي الوثبات فيما يتعلق بالشأن العام، فلتنسوا كل ذلك. ولتذكروا أن هذه الشكايات لا تطبق بالجمهوريين، الذين لا يجب لهم أبداً أن يفكروا إلا في الكرامة والوطن. [...] وإذا كان هناك بينكم بعض الأفراد الذين يعتبرون أنفسهم أعداء شخصيين لي، فإنني أصفح عنهم سلفاً، إلا أنه إن كان هناك أعداء للجمهورية، فإنني سوف أكون صارماً تجاههم، وسوف يجهون لنفي لتمييز بقسوة لا يمكن لشيء تهديتها؛ إنني إن لم اتصرف على هذا النحو، فلن أكون أملاً لأن أكون قسماً لكم».

ولا يشعر ناملس ودينييه بأنهما قد تعرضا لهجوم، فإنهما يجبران قادة الفرق الآخرين للوجودين في القاهرة، فيرينيه ولانوس وبيليار، إلى تحرك جماعي لتقديم احتجاج إلى القائد العام. ويون إعلان ذلك، فإنهم يقتحمون من الناحية العملية مكتب مهنة ويعرضون شكواهم؛ لا يمكن منح مصر اسم للمستعمرة دون الحصول على تصريح بذلك من الحكومة الفرنسية؛ إن مثل هذا الإجراء الذي يزعم السكان يهدد بتعزيز الائتلاف للعادي لفرنسا؛ وإصلاحات الضرائب تزعم السكان ومن شأنها استثارة تمردات؛ «يجب تخفيف وتلويح التلويح التعسفية لا القضاء على ما هو قائم. إن العديد من الرسوم الجديدة غير مائلة، وجائرة، وباهظة. وذلك هو حال الرسوم المفروضة على الصرافين وعلى اليونانيين وعلى الطوائف ومن بينها بشكل خاص الرسم المفروض على مطابخ البلد».

والذين يعتبر تنظيمهم قويًا، بما يتيح لهم امتلاك للوسائل الأكثر ملاءمة لتحريك الثورة التي يريدونها في مصر.

والفرنسيون لا يجب أن يخطعوا لذات القوانين التي يخضع لها السكان المظلومين. بل إنه يجري الاعتراض على عين أسلوب الحكم الذي يمارسه ميئو:

«إن اللغة التي كتبت بها غالبية الأوامر اليومية غير لائقة من جميع النواحي، فالجيش وجميع الفرنسيين الذين جاءوا في أثره يجري يومياً تصويرهم كزمرة من قطاع الطرق، كرجال لا شرف لهم، ويبدو كما لو أن هناك معيماً حثيثاً إلى تهديد تهجمات دانلس وكما لو أن هناك رغبة في دفع أوروبا وفرنسا إلى اشتهاه أن يتأوه الجيش كله في هذه المداخلات.

«إن الجيش لا يمكن أن يقاد بالأسلوب الذي يقاد به أحد الأندية، فالجيش له قوانينه ولوائحه الإدارية الداخلية ومن ينتهك هذه القوانين واللوائح مذنب أثم.

«ولا مراء في أن سلطة قائد جيش ما هي سلطة عظيمة، لكن الحكومة تضع في مقابلها عناصر ثقل مضادة وعناصر مقابلة لها. وهذه العناصر تتمثل في آتس الصرف العام وبشكل خاص في استقلال الخزنة؛ والحال أن الجنرال ميئو قد تلاعب بهاتين السلطتين، بل وقام بإلغائهما.

ويجري النظر إلى تدابير النقل والعزل على أنها غير مشروعة، في غياب حكم صادر عن مجلس حربي. ولا بد من إلغاء الجانب الرئيسي من التظهير التي اتخذها ميئو (١١٧).

ويهدد الجنرالات تحريكهم الجماعي بضرورة الاحتجاج على الشائعة الرائجة التي تنهب إلى أنهم يشكلون تكتلاً معادياً للجنرال ميئو وخاصة للقنصل الأول، وبضرورة الصبر على سلامة الجيش التي تهددها تظهير ميئو؛ فالتعيينات، خارج صاحة للمعركة، لجنرالات قوية، إنما تلحق الضرر بانضباط الجيش؛ وتعيين الفيومي مسؤولاً عن مشايخ القرى غير مناسب وذلك بسبب موقف الرجل في الماضي (انتفاضة القاهرة الأولى وتمرد أمير الحج)، ومواقف ميئو تجاه نكري كليبر موالف شائن؛ «عندما علم في القاهرة إنه قد جرى فتح أكتتاب في فرنسا لإقامة تمثال للجنرال بوزيه، انضم كثيرون من الأشخاص إلى ذلك موقعين على أكتتاب مماثل، ومقترحين إرسال أكتتاب آخر إلى فرنسا لإقامة تمثال للجنرال كليبر أيضاً. وقد قدمت هاتان القائمتان اللتان تضمنان توقيعاً عند كليبر من المكتتبين إلى الجنرال ميئو الذي رفض التوقيع على القائمة الخاصة بالجنرال كليبر، ولم يدرج في جدول الأعمال غير القائمة الخاصة بالجنرال بوزيه».

ويرد مينو على جميع هذه المطالب بالإشارة إلى ضرورة مدحه وقتاً للتفكير ولا يتزحزح إلا فيما يتعلق بمسألة الاكتساب في إقامة تمثال لكليبر وبمسألة حقوق الوراثة (١١٨). والواقع أن المحصلة الوحيدة للمقابلة إنما تكمن في زيادة احتياد العلاقات إلى حد ما بين القائد العام وقادة الفرق. ويتلقى مينو رسائل بلا توقيع تدموه إلى محاربة «كاثوليكت» (خونة) للجيش (١١٩).

ويخشى باملس من أن يكون مينو قد صلب التقرير الأخير لكليبر الذي حذر خاتمة؛ وهو يرسل نسخة منه إلى مورو في ألمانيا حتى يعمل على نشره خارج فرنسا في حالة منعه من النشر (١٢٠). وهو يفسر هذا المنع برغبة مينو في أن ينسب إلى نفسه تأثير قرارات كليبر المتعلقة بالضرائب غير العادية ومن بين هذه التأثير دفع متأخرات الجنود وتكوين وحدات عسكرية محلية. ويكتب رينيه من جهته إلى مورو شاكياً من مصلك مينو، ويؤكد لاختيار مورو بجلاء إن معارضي مينو إنما يهتمون إلى ذلك للتأثير من الجيش الذي لا يميل بشكل خاص إلى بوناپارت.

تثبيتات مينو

تعمل علاقة القوى فجأة إلى صف مينو مع وصول رسالة إلى القاهرة تثبت في وظائفه كقائد عام للجيش. وينشر مينو الرسالة فوراً في الأمر اليومي الصادر إلى الجيش (١٣ برومير من العام التاسع - ٤ نوفمبر ١٨٠٠). ويرفق كارنو بهذا التعمين خلاصة موجزة عن الوضع الأوروبي، إن فرنسا الظائرة تعرض للصالح على أوروبا.

«إنكم سوف تعجلون بهذه اللحظة للنشوة، أيها المواطن الجنرال، بسيروكم على خطى سلفيكم ويتدعيمكم بحزم لا يتزعزع، وباستكمالكم بكل ما لديكم من إمكانيات، للقواعد الراسخة لصون وإزدهار مصر، إلى أن يحسم الصلح الشامل بشكل نهائي مصير هذا الفتح التاريخي والشمين. ولتكونوا على ثقة بأن الحكومة لا تهمل على الإطلاق ما يمكن أن يهم جيش الشرق: إنه موضع اهتمامها الثابت» (١٢١).

ويبدو أن بوناپارت قد تردد في تسمية خليفة لكليبر. رينيه، على الرغم من كونه جندياً ممتازاً، لا يبدو له (لبوناپارت) أنه يملك مواهب سائس الرجال الضرورية لقائد. أما مينو فإن لا يملك خبرة عسكرية كافية لقيادة جيش مقاتل. وهو يفكر للحظة في لانوس،

الثالث في ترتيب الأقسامية، والذي كان يمكن أن يكون اختياراً مناسباً (وبشكل حكيم في الخطوة نفسها، كان يمكن له - لبونهارت - أن يستدعى مينو ورينيه إلى فرنسا). لكن مينو يحتل للنصب بالفعل، وقد كان خصماً لاتفاق العريش، وقد تحول إلى اعتناق الإسلام، الأمر الذي لابد له من أن يسهل علاقاته مع السكان، وهو يملك قدرات الإناري الضرورية لمثل هذا المنصب وهو بوجه خاص أحد الاتباع الأوفياء الأكثر جهاً بالولاء للقنصل الأول (١٢٢). ورسائل مينو التي تقدم رؤية من أكثر الرؤى تفلؤلاً عن المشروع الاستعماري، إنما تدل على حد بعيد أحلام بونهارت العميقة بحيث يصعب ألا تؤثر على اختياره.

ومع سعي مينو وانصاره إلى الوصول إلى تسوية مع قادة الفرق بعرض جوائز سفر عليهم للعودة إلى فرنسا - وإن كان هؤلاء الآخرون يرفضون، مؤثرين أمر استدعاء من باريس يطلبونه بإلحاح من القنصل الأول - (١٢٣)، فإنهم يفاقمون الموقف بقتلهم على لكري كليبر. إن شاسيه، قائد اللواء، يكتب إلى القنصل الأول متحدثاً عن عدم كفاية واختلاسات كليبر ولانوس ورينيه وآخرين (١٢٤). ولاجرانج، الذي أصبح رئيساً للأركان العامة بعد تنحية نامس، يكتب إلى بونهارت أن كليبر لم يتصرف إلا بدافع الحسد، وأنه ليس له أي فضل في انتصار ميلويوليس وأن انصاره، خاصة نامس، يتآمرون على تسليم مصر إلى العثمانيين (١٢٥). والرسائل الثلاثة الموجهة إلى فرنسا مليئة بالشائعات المتباينة.

ويراكم مينو المضايقات تجاه رينيه ويتجسس على خصومه. ومن جراء الرهونة أو التحدي، يسمى ابنه الذي ولد للتو، سليمان، وهو عين اسم قاتل كليبر...

ملاوكة سيطرته سبيته الأخيرة

وهكذا فإن الرجل قد أصبح مهيقاً تملأ لكي يكون ضحية لواحدة من تلك الملاوكة التي أصبح سبيته سبيته لستاناً فيها (١٢٦). للعديد البحري ينقل إلى فريان (١٢٧)، الذي يتولى القيادة في الإسكندرية، أعيناً من صحيفة جازيت دو فريانس. وهي تنقل رسائل من صحيفة كوربيه دو لوندور، خاصة مقتطفات من رسائل إنجليزية مؤرخة في ١٠ و ١٥ يوليو ١٨٠٠ قادمة من سولحل سوريا (١٢٨). وتقدم هذه الرسائل تقريراً جد دقيق عن وضع جيش الشرق عند موت كليبر وتنتهي إلى ما يلي: «يبدو اليوم أن اتفاق العريش لا يمكن

إحباطه من جديد إلا عبر ثورة الجنود الفرنسيين يعزلون من خلالها الجنرال مينو ليحلوا محله قائداً مستعداً للجلاء عن مصر (١٢٩).

ويحتد غضب مينو عند قراءة هذه الوثيقة ويكتب إلى بيرتييه، الذي أصبح وزيراً للحربية، أنه قد وجد في صحيفة جازيت دو فرانس خطة أملاكه، وقد أرسلت إلى هذه الصحيفة من فرنسا، ولا أعرف من الذي أرسلها. ويبدو أن لرائك الذين يريدون زعزعة مصر قد وجدوا وسيلة لنقل مشاريعهم إلى أوروبا سعياً إلى معرفة ما إذا كانوا سوف يجدون فيها اتصالاً (١٣٠).

وفي الوقت نفسه، تصل انتهاء محاولة اغتيال القنصل الأول في شارع سان - نيكيز والاتهام الموجه إلى إنجلترا بأنها قد نظمت، أو على أية حال شجعت، محاولة الاغتيال هذه. والحال أن مينو، في أمره اليومي الصادر في ٢٣ يوليو من العام التاسع (١٢ فبراير ١٨٠١)، يورد للمعلوماتين خاطئاً الحابل بالثبيل ويهاجم خصومه: «أيها الجنود، بلى، لا مرء في اننى لابد وأن أكون مستهزئاً لهذه الزمرة الغريبة؛ فلنا، منذ اللحظة الأولى التي شرقت فيها بقبائلكم، قلت لكم إنه لا أحد سوى حكومة الجمهورية هو الذي يمكنه إصدار الأمر إليكم بالجلاء عن مصر؛ وقد قلت لكم إن الإخلاص الذي تدينون به لوطنكم إنما يلزمكم ببذل كافة التضحيات؛ وقد قلت لكم وأكرر من جديد إن الموت هو بالنسبة للجندي أفضل ألف مرة من خضاع الشرف. وإذا كان علينا أن نهلك في مصر، فلننا سوف نموت كجمهوريين صائقين يولون بواجبهم؛ إما إذا رحلنا عنها دون أمر من الحكومة، فلننا سوف نفقد كرامتنا أمام العالم».

ويشعر قادة الفرق أنهم مستهترون بهذه التعريضات، وهو لم يحسم في هذا الأمر اليومي غير الإنجليز: «إنهم يريدون محاولة دفع الجيش إلى العصيان؛ وقد ألقوا بيانات تدعو إلى الثورة في مدينة القاهرة. وكما أبلغنا بذلك الجنرال لريان، فإن لهم مكاتبات في الإسكندرية. ومن الواضح أنهم هم الذين كتبوا للقتال المنشور في العدد ١٧ ١٠ من الجازيت دو فرانس (١٣١).

وهو ما يرد عليه رينيه، محقاً في ذلك، بأن مينو قد لعب لعبتهم بنشره القتل في الأمر اليومي (١٣٢).

ومن ثم ففي مناخ العداوة السائدة هذا بين مينو وقادة فرقته يعلن لريان ظهور سفن شراعية إنجليزية عديدة قبالة الساحل الغربي لمصر.

أوروبا ومصر

لم تكن الدول الأوروبية قد نصبت مصر. وثبا معركة هيلوبوليس وإعلان فتح مصر حصل إلى فرنسا بعد انتصار مارينجو، وثبا مفاوضات مع النمساويين، وهي تقطع في نوفمبر ١٨٠٠، لكن مرور يالحق بالنمساويين بعد ذلك مباشرة هزيمة حاسمة في هوهيتلينين (٣ ديسمبر ١٨٠٠). وتعيد هذه ستيير (٢٥ ديسمبر ١٨٠٠) وصلاح ليونديفيل (٩ فبراير ١٨٠١) بين فرنسا والنمسا الوضع الذي أوجده صلح كامبو فورميو. لما القيصر پول الأول الذي أخذ منذ لواخر ١٧٩٩ يشعر بخيبة الأمل من جراء موالف النمساويين الذين يعتبرهم مسؤولين عن الهزائم الروسية في سويسرا، فهو يرى في صعود بوناپارت عودة إلى النظام الملكي. ومنذ لوائل عام ١٨٠٠، يتقارب مع فرنسا ويوجد دول الشمال (روسيا، النمرك، السويد) ضد دعاوى إنجلترا بحق السيطرة على البحار. ومن الممارقات أنه على الرغم من حفاظه على معاهدة التحالف مع الإمبراطورية العثمانية، والتي تبدو له وسيلة لفرض حماية حقيقية على تلك الدولة، يعقد الصلح مع فرنسا ويفكر في حمل ضد الهند. وأحال أن رفض الحكومة البريطانية التنازل له عن مالطة، بالرغم من أنه قد أصبح راعياً كبيراً للأخوية، صاحب للسيادة الشرعى الوحيد على الجزيرة، هو الذي دفعه إلى ذلك الطريق (١٣٦). وتصبح المخاوف التي ساورت بريطانيا خلال اتفاق الحريش واقعاً. ويشكل ملائم بالنسبة لبريطانيا العظمى، سيتم اغتيال القيصر في ٢٤ مارس ١٨٠١، وسوف يغير سياسته ابنه وخليفته الكسندر. وأحال أن مصرع پول الأول، بعد اغتيال كليبر، ومحاولات اغتيال القنصل الأول، سوف تبدو في نظر الفرنسيين بوصفها ممارسة منتظمة يلجأ إليها أعدائهم. وهكذا، فإن عام ١٨٠٠ قد شهد التفكك التدريجي للائتلاف، الذي تشكل كرد فعل للحملة على مصر.

الفصل الأول

إن بوناپارت، وقد أصبح الآن أكثر لطمثاناً إلى رسوخ سلطته في فرنسا، يمكنه أن يكرس قوى أكثر لإنقاذ المشروع الشرقى. وفي سبتمبر ١٨٠٠، يحاول توسيع الهمنة البحرية، التي تم التوصل إليها عن طريق معركة مارينجو، حتى تشمل العمليات البحرية، الأمر الذي من الواضح أنه كان من شأنه أن يسمح بتعزيز حامية ملطة وجيش الشرق. ويرفض البريطانيون هذا الاقتراح، غير المناسب إلى حد بعيد بالنسبة لهم. ويجدون

تعزيتاً لإصرارهم في سقوط ملحة في الشهر نفسه. وتجاه العثمانيين. فإن استئلاف التحركات من أجل صلح يهين مصر تحت الاحتلال الفرنسي مع سيادة نظرية للباب العالي. إنما ينتهي إلى الفشل، وذلك بالرغم من أولهم بوناپارت المتكررة في هذا الصدد (١٢٧). على العكس، إن الإمبراطورية (العثمانية)، بالرغم من هزائنها في السنوات السابقة، تنهك في مجهود جديد من أجل استرداد مصر بمساعدة الإنجليز.

ومنذ ذلك الحين، لا يبقى بعد سوى إرسال تعزيزات تفتقر الحصار الإنجليزي. وبشكل ضياع ملحة صعبة إضافية، لكن فصل الشتاء يقلل كفاءة الانتشار البريطاني ويصمغ بمرور عدة سفن. ثم إن استيراد إيطاليا يتيح إمكانية استخدام موانئ في وسط البحر المتوسط. وهكذا يتسنى إبلاغ جيش الشرق على نحو منتظم بنجاحات السياسة الفرنسية في أوروبا. ويحصل إلى علمه أن الجهاز التشريعي والمحكمة الدستورية قد أجازا قانوناً يشهد له بخدمة الوطن على نحو مرموق. وتشهد خطب بارين - ريال وجان - باپتيست ساي (١٢٨) بمآثر الجيش - للمستوطنة، الذي يحمل أمل الحضارة. (١٢٩)

وعلاوة على هذه التشجيعات الأنيبة، فإن السفن تنقل تعزيزات (أقل من ألف رجل) وبعض الذخيرة. لكن هذه السفن هي طليعة أسطول فرنسي عهد بقياته إلى جانتوم، البحار المقرب إلى بوناپارت منذ أن كفل عروته من مصر. وفي ٢٢ يناير ١٨٠١، ومختلفاً من المناخ غير المناسب الذي يشتت الأسطول الإنجليزي، ينجح الأميرال مع سفته الحربية الصبح في الخروج من بريست. إلا أنه كما هي حالة القوات البحرية الفرنسية، فإن الأسطول الفرنسي، بدلاً من أن يتوجه إلى مصر مباشرة وفقاً للتعليمات الصادرة إليه وبينما كان الساحل المصري خالياً من السفن البريطانية إنما يتحرك إلى طولون. وكان لابد من صدور أوامر متكررة من الانفصال الأول لإجبار جانتوم على العودة إلى اجتياز البحر في ٢٥ أبريل ١٨٠١. وإلا وخشى عذبة من أن يجد الأسطول البريطاني وقد عك مع الربيع، فإنه يقرر إنزال القوات الفرنسية في برفه حيث يمكنها الزحف من هناك على مصر، ويتم الإنزال على مقربة من برفه في ٢٣ يونيو. وعلى الفور، يدرك المسؤولون الفرنسيون أنهم لا يمكنهم العثور هناك على وسائل اجتياز ستتملك الكلبو متر الصحراوية التي تفصلهم من مصر، ويميدون رجالهم بحكمة إلى السفن، وترجع الحملة الصغيرة إلى طولون في ٢٠ يوليو ١٨٠١ (١٣٠).

القرار الإنجليزي

بالنسبة لإنجلترا، فإن خروج روسيا من الائتلاف ومعركة مارينجو ومعركة

هيايوليس إنما تشير بشكل حاسم إلى ترتيب الأولويات. إن الائتلاف الثاني، أي حلفاء بريطانيا العظمى، قد فشل في أوروبا كما في مصر. ولما كانت لا تستطيع من ثم التصرف بشكل مباشر، خلافاً لعلتها، فإن عليها تسوية للمسألة المصرية قبل التوصل إلى الصلح الشامل الذي يتوقع الجميع عقده في عام ١٨٠١. وإلا فإنها سوف تضطر إما إلى الاعتراف بهيمنة الجيش الفرنسي في مصر، والتهديد اللطم الذي يشكله بالنسبة للهند، أو إلى مواصلة حرب أصبحت عبءاً شعبية.

وفي ٢٠ أكتوبر ١٨٠٠ يتم اتخاذ قرار باستخلام القوات التي عانت إلى الوطن من هولندا ثم أرسلت إلى إسبانيا، من أجل القيام بحملة على مصر. وسوف يكون على هذه القوات تعزيز القوات العثمانية. ثم إن مصر سوف تكون ملتقى طرق بين أوروبا والهند مع إرسال حملة أنجلو - هندية مكلفة بإنزال إضافي على سواحل البحر الأحمر. ولن يكون بوسع الباب العالي إلا أن يقبل هذا القرار الثاني، لأنه يسمح بممارسة ضغط كاف على شريف مكة الذي تحلل إلى حد بعيد من ارتباطاته بالسلطة المركزية. وهو مشهور بالرغبة في إيجاد توازن إقليمي في الشرق الأدنى على حساب الباب العالي، سوريا تحت حكم الجزائر، مصر السفلى في أيدي الفرنسيين، مصر العليا تحت سيطرة مراد بك وحجاز مستقل ومتلجر مع الثلاثة الآخرين^(١٤١). وترمز خيارات خريف ١٨٠٠ إلى تنويع الاتجاه الذي تم تدشينه في السنوات السابقة، وإرسال التزامن لجيش قائم من الهند، ومن ثم من الشرق، ولجيش آخر قائم من أوروبا، ومن ثم من الغرب، إنما يعنى أن كل ما هو موجود بين البحر المتوسط والأنطوس يصبح مجالاً جغرافياً موحداً في نظر المسؤولين السياسيين الإنجليز.

الملامح

الحملة الإنجليزية

على الرغم من أن معركة هيليوپوليس قد برزت التحليل السياسي الذي قام به سيدنى سميث، فإن خيبة أمل العثمانيين وعداوة اللورد إيلجين تقوiban السلطات البريطانية إلى تنحيه جانباً. بل إنه كان بالإمكان سحقه من شرقى البحر المتوسط لو لم تكن سياسته بالساحل المصرى قد جعلت وجوده ضرورياً. والحال أن قيادة العمليات البحرية إنما يعهد بها إلى اللورد كيث، القائد الأعلى للأسطول البحر المتوسط (كان نيلسون قد أرسل إلى بحر الشمال وإلى البلطيق لمحاربة عصابة الحيدك للسلاح التي تستمد الوحي من روسيا). ويحصل أهيركرومبى على قيادة قوة الحملة. وهو جندى محترف، مجرب (ولد فى عام ١٧٣٤)، ومحترم من جانب أقرانه. وهو يتخذ كمستشار له بالنوين، القنصل البريطانى للسليق فى الإسكندرية والنصير للتحصن لسياسة إنجليزية فى مصر، وكان سيدنى سميث، من جهته، قد جند هلمر، المستشرق النمساوى الشهير فيما بعد، وأعدا إياه بالسماح له بزيارة مصر فور انتهاء العمليات العسكرية.

والحال أن ملطة، التي تم الاستيلاء عليها مؤخراً، إنما تخدم كموقع حشد للقوات البريطانية اعتباراً من أواخر نوفمبر ١٨٠٠. وكما فعل بوناپارت من قبل، فإن الإنجليز يجندون قوة من الجنود اللاطين تتألف من خمسمائة رجل. ولا يرفع لك عند القوات البريطانية إلا إلى خمسة عشر ألف رجل من بينهم اثنا عشر ألف رجل من المقاتلين. ويجب أن نضيف إلى ذلك نور جيش الصدر الأعظم والقوة الأنجلو - هندية التي يتعين عليها الوصول عن طريق البحر الأحمر، ويجهز الجانب الرئيسى من القوات للجنة من الهزائم المتتالية فى مولندا وأسيانيا. إن الإنجليز ليسوا معتلين على النصر كخصومهم. وتراهن الوزارة البريطانية كثيراً على حالة التدهور المميزة للجيش الفرنسى، والتي أكتتها بصورة منتظمة وسائل الفرنسيين التي تم اعتراض سبيلها، وهى ترى أن الفرنسيين، بعد بضع انتكاسات، سوف يطلبون الاستقالة من اتفاق قريب من اتفاق العريش. وبما أن الحرب قد انتهت فى القارة (الأوروبية)، فإن الحكومة البريطانية لا ترى هناك أى اعتراض. ويمكن للخطر أن يجرى من الخارج، من أسطول جانتوم ومن عودة هجومية للأسطول الروسى إلى البحر المتوسط (١٨١٢).

ويتم الاتحاد مع الوحدات العثمانية فى خليج مرمريس، فى جنوب مطل الأناضول

على بحر إيجة، في أوائل شهر يناير ١٨٠١. وعلى طريقه، يعترض اللورد كيث السفينة
التي تعيد تليان إلى فرنسا. والحال أن تقدير قوة الجيش الفرنسي الذي يقدمه العضو
السابق في المؤتمر إلى الإنجليز إنما يبدو لهم مبالغاً فيه إلى حد بعيد (١٤٣).

وفي مرمريس، يجرى إنزال القوات إلى البر سعياً إلى تمكينها من الاستراحة.
ويجرى تدريبها على تقنيات الإنزال. ويشعر الفرسان بخيبة أمل عظيمة في الجهاد التي
يقدمها لهم العثمانيون. ولا يمكن استخدام غير مائتي جواد بالنسبة للفرسان وخمسين
بالنسبة للمدافعية، لما المتبقي فيعاد بيعه أو يجرى إعدامه، ويمكن تفسير هذه المفاجأة
القصيدة بالشقاق بين اللورد إليجيه وسبنسر زميل. فهذا الأخير، الذي يمثل شركة
المشرق (ليفانت كومپاني)، كان قد حذر على موظفيه بالتعاون مع السفارة، الأمر الذي أدى
إلى إصابة نشاط هذه المؤسسة بالشلل التام (١٤٤). وهكذا فإن الفرنسيين يهتمون بتفوق
قوى في سلاح الفرسان.

كما إن الأنباء الأخرى مزعجة للإنجليز. فجيش الصدر الأعظم يبدو أثقل وزناً مما
كان متوقعاً وهو يبدو، في نظر العسكريين البريطانيين، في حالة متقدمة من التفكك.
وبالنسبة للإنجليز، فإن العيوب العثمانية الكثيرة هي أيضاً علامات على انحلال
الإمبراطورية (١٤٥). وقد حصل الفرنسيون على تعزيزات وهم أولئك من الإنجليز
بكثير.

على أن أبهركومبي يظل مخلصاً للتعليمات الصادرة إليه ويعيد قواته إلى ركوب
البحر في ٢٢ فبراير. ويصيب ضعف الجيش العثماني، فإنه لا يسعى إلى التقاء سريع بين
الحملتين، كان يعنى العمل في منطقة دمياط. وهو يفضل العمل في منطقة الانتشار
الفرنسي الحيوية، أي منطقة الإسكندرية - أبو قير - رشيد (١٤٦). وفي أول مارس، يرى
الساحل المصري، وفي اليوم التالي، يدخل الأسطول، ومجموع سفنه مائة وخمسة
وتسعون (١٤٧)، إلى خليج أبو قير. ويحول اللناخ السوء نون إلى إنزال قبل ٨ مارس ١٨٠١.

الإنزال الإنجليزي

يؤدي مشهد السفن الإنجليزية الأولى، التي سبقت وصول الأسطول بأيام قليلة،
إلى إثارة انزعاج فرعان في الإسكندرية. لكن مينو يهون من الخطر. فهو يعتقد أنه لا
جهد كبير من جانب الإنجليز الذين يعرفون صلحتنا مع الروس وتحرك إسطنبول (١٤٨).
وهو يوجه بيانات طنانة إلى الديوان بأسلوب الرعب من أسلوب بوناپارت: «إن الله هو الذي

يقود الجيوش، وهو الذى يعطى النصر لمن يشاء. وسيف ملائكتك الوهاج يصيب الفرنسيين دائماً ويجهز على أملاكهم» (١١٩).

وهو يحذر من أن القمع سوف يكون مريعاً فى حالة سوء السلوك، فهو سيكون كالقمع الذى أمقب انتفاضة القاهرة الثانية. والديوان بدوره يتنبه مهايخ الأحياء إلى أنهم مسئولون عن حفظ النظام. وبما أن الضرائب غير العادية تجيء دائماً، وبما أن الفرنسيين، من جهة أخرى، يكثفون التدهير للقمعية لمحاولة وقف انتشار وباء الطاعون الذى وصل إلى العاصمة، فإن الخوف من نشوب انتفاضة شعبية يدفع كثيرين من المصريين إلى مغادرة القاهرة. ويلاحظ الجبرتي أن الفرنسيين يفعلون الشيء نفسه بالانسحاب إلى القلعة التى يجرئون إليها عدة أعيان كرهائن من بينهم المهرج الساعات وميداً من أعضاء الديوان (١٢٠).

ويعتقد مينو أن الهجوم الإنجليزي ليس غير عمل ثانوى لتحويل الأنظار، وأن العمل الرئيسى سوف يحدث فى شرقى الدلتا، مع وصول جيش الصدر الأعظم. وهو يقلل من قيمة القيادة البريطانية (١٢١).

أما فريان فهو يخطئ لأنه لا يطلب على الفور إرسال تعزيزات مهمة. بل إنه يوافق على آراء القائد العام. لكن مينو ينسى أسلوب بونليارت الأساسى، والذى طبق خلال معركة أبو قير البرية وأشار إليه مجدداً فى التعليمات الصادرة إلى كليبر: فى حالة هجوم متزامن، يجب حشد جميع القوات للتوالتة لمقاتلة القوات للعانية، قوة بعد الأخرى، مع إيلاء الأولوية لمقاتلة القوات التى تهبط من البحر. ولا يمكن أن يكون له حذر بقدر ما أنه يعرف ضعف الجيش العثمانى ويقدر ما أنه يرى أن القوات البريطانية قليلة. ومع وجوه ثلاثة وعشرين ألف رجل تحت السلاح، فإنه يتمتع بقوة تساوى تقريباً ضعف قوة الإنجليز.

ثم إنه، بدلا من أن يركز القوات الفرنسية، يبعثرها بين شرق وغرب الدلتا حتى يواجه الهجوم المزدوج. ويؤثر رينيه وقاعة الفرق على هذه الأوامر التى يعتبرونها خرقاء وإجرامية ويتوصلون إلى مينو أن يركز جميع القوات فى أبو قير (١٢٢). فهم يرون أن الصدر الأعظم لن يجتاز سيناء إلا بعد نفا انتصار إنجليزى. ويظل مينو أصم تجاه نصائح مدروسية. والحال أن التأخر الذى اتخذته الإنزال البريطانى يبدو له برهاناً على امتياز الأسلوب الذى نشر به القوات. ويكرر رينيه للحظة فى خلع مينو، لكنه يتخلى عن ذلك من باب المراعاة للانضباط (١٢٣). وهذا النزاع الجديد بين الجنرالات، فى مثل هذه الظروف،

إنما يستلزم انزعاج الجيش. وخبر النزاع واسع الانتشار بحيث أن الجبرتي نفسه يتحدث عنه، بشكل بالغ الدقة.

ويرسل فريان بضع قوات لدعم السيطرة على رشيد وذلك سعياً إلى تجنب وقوع هذه المدينة ضحية لهجوم عسكري إنجليزي مفاجئ ويتمركز مع ألف جندي في أبو قير، تاركاً الدفاع عن الإسكندرية للعاجزين وللبحارة. وهو يخوض معركة غير متكافئة ضد الإنزال الإنجليزي في ٨ مارس، وبالرغم من أليات الجسارة التي تهددها قواته فإنه يضطر إلى الانسحاب إلى الإسكندرية. ويدين الإنجليز بنجاحهم إلى العدد الكبير لزوارق المنطعية والقوارب والذي سمح باجتياح الخطوط الفرنسية (١٥٤).

وعند وصول خبر نجاح الإنزال الإنجليزي، يقرر مينو الزحف على أبو قير مسلحاً بقيادة القاهرة لبيليار. وهو يريد ترك قوات مهمة للمعركة ولريثيه للسيطرة على طريق سوريا، لكن هذين الجنرالين يخالفان أوامره ويعيدان كل قواتهما إلى القاهرة (إن هذا الطريق، بالرغم من كونه أطول، إلا أنه أسرع للزحف على منطقة الإسكندرية، وذلك بتجنب الاجتياز العمودي للبلد). ويغادر معظم الجيش العاصمة في ١٢ مارس. ويعتقد مينو أن غيابه لن يدوم طويلاً وأن «الدور الحظية التي توف على فرنسا وحظ بونابارت» لن يتخلها عن الفرنسيين (١٥٥).

الحفافات الفرنسية الأولى

بعد رحيل مينو، يكتب بيليار إلى مراد بك لإبلاغه بالسحق الوشيك للقوات الإنجليزية وإبلاغه، في التو والحال، بسحب القوات الفرنسية من مصر الوسطى والتي يقومها بونزيلو. ويتلقى الزعيم المملوكي تعليمات بتأمين الحفاظ على النظام في المناطق التي يجلو منها الفرنسيون (١٥٦). ويرسل فورييه إلى مينو رسالة من الديوان. ووفقاً له فإن الرسالة بنت تمركز عسوى تعالماً، وهو مالا يتمشى مع رأى الجبرتي. ويشدد الفرنسيون على واقع أن الإنجليز مسيحيون وأن غايتهم هي إصابة الصليب إلى مصر (١٥٧).

وفي تلك الأثناء، كان لانوس، مع فرقته، قد انضم إلى فريان في الإسكندرية، في ١١ مارس ١٨٠١. وتوتلع القوات التي يتمتع بها الجنرالان إلى خمسة آلاف رجل، وقد أثر

فريان انتظار وصول مينو حتى يتحرك (١٥٨)، لكن لانوس يفتعه بمهاجمة الإنجليز فوراً. لهما إن لم يقوموا باحتواء الإنجليز في شبه جزيرة أبو قير، فإن هناك خطر قطع الاتصالات مع بقية الجيش.

وفي ١٢ مارس، ينتفع لانوس إلى مهاجمة القوات الإنجليزية التي تنجح في استيعاب الصدمة. وبعد عدة ساعات من المعارك العنيفة (١٥٩)، يضطر الفرنسيون إلى الانسحاب إلى الإسكندرية. وفي رسالة إلى لان، ينتقد لانوس مينو وشأنه في ذلك شأن بيزيه عشية معركة مارينجو، يستشعر نهايته القريبة، «إن وضعنا ليس ميؤساً منه، لكنه ليس جميلاً. ولبل مغادرة القاهرة، قلت أنا والجنرال رينيه للقائد العام إنه يجب أن ينتفع جيشه إلى أبو قير دون إضاعة للوقت، إلا أنه لم يتكرم بالإنصات إلينا. وليست هذه هي اللحظة المناسبة للبكاء على ما فات. إن ما ن فكر فيه هو القتال. وليت طلعي أن أكون محظوظاً في المعركة القائمة مثلما كنت محظوظاً بالراحة، إنني لم أمان إلا من كلمة قوية في الكلف أصابتنى بها رصاصة كروية عند ملاصقتها لي» (١٦٠).

وفي ١٧ مارس، فإن حصن أبو قير، العجز عن الصمود أمام القوات الإنجليزية، يستسلم بحاميه المؤلفة من مائة وتسعين رجلاً (١٦١). وفي اليوم التالي فقط، يصل مينو إلى الإسكندرية مع الجيش. وقد استغرق وصوله وقتاً أطول بكثير من الوقت الذي استغرقه وصول بوناپارت في عام ١٧٩٩ (وإن كان صحيحاً أن هذا الأخير قد جمع بشكل خاص الطواير للمتحركة التي كانت تتحرك بالفعل). ويتمتع القائد العام بعشرة آلاف رجل مع ألف وخمسمائة من الفرسان. ويستفيد الإنجليز من تفوق عددي طفيف ومن مواقع أقوى (لقد تحصنوا قرب المدينة بين المعينة والبحر)، لكن الفرنسيين لديهم سلاح فرسان مهم، وهو سلاح غير موجود من الناحية العملية لدى خصومهم.

مهرجة ككالوب

يقترح رينيه ولانوس على مينو مهاجمة الأعداء بأسرع ما يمكن، بالرغم من عدم مؤاتاة الموقع (بالنسبة للفرنسيين). إن أي تأخر إضافي سوف يفيد الغزاة الجدد. ويوافق مينو ويلتزم اتباع خطة قائد الفرق. وكان على المعركة أن تحدث في ٢١ مارس. وكان على رينيه الذي يقود الجناح الأيمن أن يشن هجوماً زائفاً مع راكبي الجمال، بينما كان على

الهجوم الحقيقي أن يحدث بعد ذلك بوقت قليل لاحتلاكنا على الجناح الأيسر الذي يقوده لانوس، والمدموم بالقلب الموزعة قيادته بين رامبون وديستان. ويتمثل الهدف في عزل الإنجليز عن البحر ولطمعهم إلى بحيرة للعبية، وسوف تبدأ العمليات قبل الفجر سعيًا إلى تضليل الإنجليز فيما يتعلق بنوايا الفرنسيين.

ويبلغ زعيم بنوى سينى سميت بوصول مينو ويقراره شن الهجوم في ٢١ مارس ولا يصدق المسؤولون البريطانيون صحة المعلومة بالرغم من إلحاح العميد البحري على صحتها (١٦٢). إلا أنه يجري تعزيز بطاريات المدفعية الإنجليزية.

ويبدأ الهجوم الفرنسي في الساعة الثالثة صباحاً. ويبدو هجوم رينيه جدد ضعيف في نظر الإنجليز (١٦٣). وهم يتهيئون لتلقى الصدمة الرئيسية على ميمنتهم. ويشن لانوس هجومه، لكن طوابيره تصطدم بتحصينات القوي من للتوقع وتتحرف عن الاتجاهات المحددة لها. وفي سعيه إلى ضمها وإلى ريفا إلى محور الهجوم الخامس، يعرض لانوس نفسه لنيران الإنجليز ويسقط جريحاً جرحاً قاتلاً. ويؤدي اختفاؤه إلى تردد معين وإلى قدر من الارتباك في الهجوم الفرنسي.

ومنذ الساعات الأولى للمواجهة، والتي سوف تأخذ اسم معركة كانوب، لا تنفذ الخطة بالشكل للتوقع. فرينيه لم يهاجم بقوة بالغة أما لانوس فقد كان شديد الحذر. لكن ما هو أسلسي لا يضيع. فبعد فشل المناورة، تبقى لمينو إمكانية الانسحاب إلى الخط الذي انطلق منه وتجريب الحظ بعد ذلك بوقت قليل. وهذا هو ما يقترحه عليه رينيه. لكن مينو لا يريد الإصغاء، فما دام مساعده الرائعون قد فشلوا، فإنه سوف يثبت لهم قيمته العسكرية الحقيقية. وإسراكاً منه لواقع أن الفرنسيين أكثر تفوقاً في الفرسان خلاصة، فإنه يريد محاولة تكرار هجوم الفرسان الذي كان موداً قد شنه في أبو قير والذي كان كيلبرمان قد شنه في مارينجو. وهو يأمر ألينرال رواز الذي يقود سلاح الفرسان بمهاجمة الإنجليز. ويختار رواز المنعول لهذا الأمر الأخرى والذي يتمثل في مهاجمة التحصينات البريطانية على طول الجبهة. وهو يطلب تكرار الأمر على مسمعه ويقول لرجاله: «إنهم يرسلوننا إلى للجد والموت، فلنتقدم» (١٦٤).

وبأكثر مما فعلت الهجمات الفرنسية السابقة له مباشرة، فإن هذا الهجوم بشكل سابقة لهجوم ناي في ووترلو. وفي لحظة من اللحظات يتم كسر الخطوط الإنجليزية ويسقط أهيركرومى بنوده جريحاً جرحاً قاتلاً. لكن الجهود البريطانيين ينجحون في إعادة

تشكيل وحيلتهم وفي إهانة الفرسان الفرنسيين بنيران المدفعية وهديان للشاه. وكما في ووترلو، فإن أية معضلة فرنسية لم تتبع الفرسان. والواقع أن رينيه مع رجاله لم يكن قد وكتب التحرك. ولكي يبرد موالفه، فإنه يؤكد أن مينو لم يخطره بتحريك الفرسان، وهو أمر يبدو مرجحاً لأن أمر الهجوم للصائغ إلى الفرسان كان غير متوقع تماماً. ويهلك رولز وجزء من ضباطه في هذا الهجوم البطولي. ويواصل مينو إصدار الأوامر إلى رجاله بالقتال بالرغم من تحذيرات رينيه من عدم جدوى مواصلة العمليات. ولا تنسحب القوات الفرنسية إلى الإسكندرية إلا في العاشرة والنصف صباحاً. ولا يطاردها الإنجليز المنهكون والذين تعوزهم الذخيرة.

١ وإذا كانت الخسائر مرتفعة، نحو ألفي رجل وجزء كبير من الفرسان (بلغ عدد قتلى الإنجليز مائتين وتسعة وثلاثين بينما بلغ عدد جرحاهم ألفاً ومائتين وخمسين) (١٦٥)، فإن الأضرار المعنوية تعتبر أهم بكثير. لقد فقد الفرنسيون فرصة تدمير الجيش البريطاني قبل أن يعززه الأنجلو - هنود والعثمانيون. وبالنسبة لكثيرين فإن المعركة قد انتهت ومن لعبت مواصلة القتال، والقيادة العليا أكثر انقساماً عن ذي قبل. وكل واحد يلتقي على كامل الآخرين للمسؤولية عن الهزيمة. فمينو وداماس وبستان يتهمون رينيه بالتسبب فيها بملء إرادته وذلك بتخلفه عن دعم هجوم الفرسان. ورينيه وداماس وانتصارهما يندبون بالتقصير الإجرامى الذى ألباه للقائد العلم. ويجمع الجنود بين مطامع الفريقين ويرون أن هناك ما هو صحيح في كل هذه اللزائم، وهو ما لا يعتبر مشجعاً إلهة بالنسبة لمستقبلهم... (١٦٦)

أزمة القيادة

يمكن تسمية الفترة التي تلت معركة كانوب بأنها فترة عدم الحسم. إن رينيه وداماس ينعوان إلى تركيز القوات الفرنسية انطلاقاً من القاهرة سعياً إلى التمكن من مواجهة الجيش الإنجليزي مرة أخرى في ساحة المعركة. ولا مفر من أن يتوقف على نتيجة هذا الصدام الجديد قرار الاحتفاظ بمصر أو الجلاء عنها (١٦٧). أما بيليار، الذى بقى في القاهرة، فإن عزيمته تخدم من جراء الروايات للحزنة لما حدث في معركة كانوب والتي يبلغها بها وفاته. خلاصة داماس ورينيه، ومن جراء غياب تعليمات من مينو، وهو يأمر بالجلاء عن الحى الأبدوى ويحشد جميع السكان الفرنسيين في القلعة، ثم إنه يكتب إلى مراد بك أن يرسل إليه واحداً من البكرات يملك صلاحيات كاملة لإجراء مفاوضات شاملة

تالية (١٦٨). ومشروعه هو ترك القاهرة والانضمام إلى مينو في الإسكندرية مع جميع قواته، بحيث يصبح مراد آنذاك ضامناً للوجود الفرنسي. «عندما يهبط مراد، سيدي الجندال، سيكون بالإمكان، إذا ما قررتم إصدار الأمر إلينا بالخروج بجميع إمكاناتنا، أقول، سيكون بالإمكان السماح له بالوجود في الجيزة، قلناً للقاهرة ولجمل مصر العليا نهاية من الفرنسيين خلال غيابهم وسيكون بالإمكان إجباره بهذا النوع من الثقة التي سوف نهبها تجاهه على أن يظل وفياً لتعهداته، وعلى أن يعمل، إن لم يكن على الاتحاد معنا في القتال، فعلى الأقل على حسن وتأمين وصول الإمدادات الثلاثية» (١٦٩).

وفي هذا الوضع الحرج، ينكر بأن بونتهارت لم يتوعد في الملحق في عقد مجلس حربية وفي إقرار خطة مرفوسيه... وهو يخبره من جهة أخرى بأن جيش الصدر الأعظم في طريقه إلى اجتياز سيناء. والمشروع الذي يقترحه هو الجلاء عن كل شرقي النيل وتركيز قواته لمقاتلة الجيش العثماني الذي لا يمثل خطراً رئيسياً (١٧٠).

والواقع أن مينو كان قد فقد كل ثقة في قادة لفرقة الذين يعتبرهم خونة، وهو لا يرى خلاصه إلا في وصول جانتوم مع التعزيزات، وهو ما لا يبدو أن يكون وهماً علاوة على ذلك، حيث إن عند القوات التي غطرت طولون ليس غير الفين وخمسمائة رجل (١٧١). ويبدو له أن الحل الوحيد إنما يتمثل في كسب الوقت بالتحصن في القاهرة والإسكندرية. فالمشقة الرئيسية هو الحفاظ على وجود فرنسي في مصر إلى حين عقد الصلح الشامل، وتخليصه الأوهام من جهة أخرى فيما يتعلق بوضع الإنجليز، وهو على ثقة من أن الروس يزحفون ضد الأتراك وأن السلطان قد أرسل لوامر بالامتناع في هذه الولايات عن تقديم مواد ثلاثية إلى الإنجليز (١٧٢).

وبعد ذلك بوقت قصير، يبلغ بيليار بـ «إننا على عتبة خاتمة كبرى، لأن السيد بيت واللورد جرانفيل قد عزلا من الوزارة [...] وهو ما يدل على الصلح بوضوح. وتراقب لذلك [...] نلعبوا عن أنفسكم إلى قصى مدى ضد العثمانية، على فرض أنهم سوف يهجمونكم، وهو ما أشك فيه تماماً» (١٧٣).

سقوط وشيخ

إن ما يدعم أوهام مينو هو مواقف الجيش الإنجليزي. وتمثل معركة كلنوب أول نجاح بريطاني كبير للجيش الإنجليزي منذ عقود. لكن الجيش يعاني من مشكلات إمداد ضخمة ويأمل سيدني سميت في أن يقبل الفرنسيون في التفاوض على أسس

اتفاق للعريش. ومنذ ٢٣ مارس، وبفضل هدنة، يسمى العميد البحري إلى هذه المفاوضات. لكن مينو يرد بعدم الموافقة.

وفي ٢٥ مارس، يصل القابونان باشا مع ستة آلاف رجل من الجيش العثماني. ويمثل ذلك تعزيزاً ملحوظاً بالنسبة للإنجليز. وفي ٢٩ مارس، يجند سيدنى سميت محاولته الرامية إلى إجراء مفاوضات. ويرافقه إسحق بك الذي يعمل ترجماناً للقابونان باشا. وتفشل هذه المحاولة كسابقتها. وفي اليوم نفسه، يموت أهيركرومبي متأثراً بجراحه. ويخلفه الجنرال هتشينسون. ووضعه الشخصى صعب: فنجاح الحملة كله سوف ينسب إلى سلكه، لكن الانتكاسات للمعنة سوف تعزى إليه هو. وهو يرى أنه لا يملك إمكانيات الاستيلاء على الإسكندرية. ويرفض اتباع نصائح سيدنى سميت الذي يحثه على التقدم بأسرع ما يمكن سعياً إلى استثمار الكسب المحرز في كانوب (١٧٤). ويستأنف العميد البحري علاقاته مع زعماء اللبدو ويتوصل إلى الدخول في اتصال مع مراد بك. ويطلب إليه الزعيم للملوكي الكبير التوسط له لدى العثمانيين وتهيئة انضواء مملكته. والحال أن ابن عهد الله باشي، للسمى في النصوص الإنجليزية بعدد الله المغربي، هو الذي يلعب دور الوسيط (١٧٥).

ولا يرسل هتشينسون قواته للاستيلاء على رشيد إلا في ٨ أبريل، أي بعد أسبوعين من معركة كانوب ١ وعلى الفور، يجلو عن المدينة لوجيبر الذي يقود رشيد مع قواته الهزيلة، لكن الإنجليز يخشون من مواجهة مقاومة قوية ويتراجعون في التقدم. وبعد يومين من المناوشات، يستولون على المدينة. أما حصن جوليان الذي تطلق منه حامية صغيرة فعرف يصمد لعشرة أيام أخرى. وينسحب لوجيبر إلى الرحمانية. وهو يطلب الحصول على تعزيزات لتأمين اللواصلات بين الإسكندرية والقاهرة ولتضع الإنجليز من دخول للبلقا. ويرسل مينو إليه لاجرانج مع فرقة رينيه. ومنذ تلك اللحظة فإن هذا الأخير يجد نفسه مجبراً من أية قيادة، الأمر الذي يدفعه إلى مضاعفة هجومه العلني على الأسلوب الذي يدير به مينو الأمور. ويكلف اللند العام من الترقيات إلى رتب قائد الفرقة وقائد اللواء، سعياً إلى التمتع برجال مخلصين له.

ذو ال الحظوة عن سلك سلك

في أواسط أبريل ١٨٠١، نجد أن الجيش الفرنسي، بعيداً عن أن يحقق تركناً ما، قد أصبح موزعاً إلى ثلاث مجموعات، خمسة آلاف مع بيليار في القاهرة لمواجهة العثمانيين،

أربعة آلاف مع لاجرانج في الرحمانية في مواجهة الجانب الفرنسي من الجيش الإنجليزي، وستة آلاف مع مينو للدفاع عن الإسكندرية، وعدة حاميات مبعثرة في الدلتا. لكن هتشنسون ليس مريضاً على شن هجوم مباشر على الفرنسيين. وفي ١٢ أبريل، يأمر بكسر السدود بين بحيرة للمعدة (ذات الماء المالح) وبحيرة مريوط للمجلفة القديمة. وتلك كارثة بيئية، فالإسكندرية تحاط عملياً بالمياه فهما هنا كورديون ساحلي ضيق (١٧٦). والحال أن الهيئة الطبيعية تجعل من الصعب على لاجرانج وهيليار الاتصال بالإسكندرية.

وإثر الاستيلاء على رشيد، نجد أن العثمانيين، بالرغم من بيان من السلطان يمنح عفواً عاماً لسكان مصر، إنما يكتفون للعاملة السيئة على حساب المسيحيين. ويحتج سيني سميت على ذلك ويتدخل في الأمر بقوة. والحال أن القاهودان باشا الذي لم يغفر للعميد البحري للمسؤولية عن معركة هيليوپوليس، إنما يطلب محبه. ويقبل ذلك هتشنسون، الذي لا يقرر من جهته نشاط العميد البحري الزائد عن الحد. وعندئذ يتعين على بطل عكا البقاء بلا حراك على متن سفينته (١٧٧)، مما يستثير عظيم أسف الجيش الإنجليزي الذي يتمتع في صفوفه بشعبية بالغة. ويجري إعانة كل جماعته من المهاجرين الفرنسيين إلى القسطنطينية.

تواكب الأخطاء

منذ يعلم الإنجليز والفرنسيون على حد سواء بموت مراد بك الذي حدث نحو ٢٠ أبريل ١٨٠١ (١٧٨). وكان الزعيم المملوكي قد بدأ هبوط الولدي مع رجاله، لكن وباء الطاعون الذي يعيث بماراً في البلد قد أرغمه على تفريق مملكته، الذين أصبحوا إصابة لاسية بالوباء (١٧٩). ومع دخوله في اتصال مع الإنجليز، فإنه قد أحترم احتراماً دقيقاً تعهده تجاه الفرنسيين بتقديمه لهم إمدادات غذائية من مصر العليا. ويجتمع البكوات ويعينون عثمان بك الطنبورجي زعيماً لهم. وهو يوافق الهبوط سعياً إلى التمكن من توحيد جميع الحملات المسلحة للمملوكية ورهما لمراقبة تطور الوضع في مصر السفلى (١٨٠).

وفي بداية شهر مايو، ينحرف الأنجلو - عثمانيون على الرحمانية في طابورين موحدى الاتجاه، حيث يأخذ الطابور الأول طريق المنهور، بينما يأخذ الطابور الثاني، والأكثر أهمية، للمسار المهادي للنيل انطلاقاً من رشيد. ويصممهم اسطول نهري جد قوى

وعلى الطريق، ينضم إليهم مهدي بمنهود السابق الذي يقال إن مراد بك هو الذي أرسله (١٨١). ويواصل لاجرانج سد طريق القاهرة، لكنه يجد نفسه الآن في دونية عديدة سائرة. وهو لا يمكنه أن يأمل إلا في حركة هجومية من جانب مينو تأخذ خصومه من الخلف. والحال أن الانتشار الأنجلو - عثمانى، الذي لا يتبع مبدأ التركيز الأولى بأكثر مما يتبعه الفرنسيون، إنما ينقسم الآن إلى أربعة أجزاء: أبو قير، دمنهور، رشيد، بلبيس (جيش الصدر الأعظم). ويمكن القول إن الفرنسيين والإنجليز والعثمانيين يراكمون الأخطاء الاستراتيجية دون قلق ما، لكن هتشنسون، بالرغم من حذره وتمهله، وهو ما يؤدي إلى تعرضه لانتقادات عنيفة كتلك التي يتعرض لها مينو، لا يتردد في تحريك رجاله. لما مينو، بعد أن كان قد وعد لاجرانج بالتحرك، فإنه لا يتحرك من الإسكندرية.

وكان بيلهار قد تلقى من مينو تعليمات بتدمير الجيش العثماني في مصر السفلى: فعلى أية حال، لم يتمكن ألف وخمسمائة فرنسي من إلحاق الهزيمة بعشرين ألف عثمانى في جبل طابور ١٩ (١٨٢) لكن بيلهار يرى أنه لو سحب من القاهرة الجزء الأكبر من حاميتها للتصدي للعثمانيين، فإن المدينة سوف تصبح بلا دفاع وهو يرى أن العثمانيين سوف يكون بوسعهم الاستيلاء عليها عن طريق هجوم عسكري جسور تدعمه انتفاضة محلية. ومن ثم فإنه يسحب من المواقع الفرنسية في الدلتا حاميات فرنسية هزيلة ويركز إمكاناته للدفاع عن عاصمة مصر. وهو يبرر قراره عن طريق مجلس حربي يجمع كبار الضباط، الأمر الذي يسمح له بدعوة مينو إلى ضرورة تحقيق الانسحاب في صفوف القيادة (١٨٢). وفي تلك الأثناء، يواصل استنقاؤه في الإسكندرية للوشاية له بمسلك مينو، إن هذا الأخير يبدو أنه ينوي معاملة بيلهار بالطريقة التي عامل بها رينيه ويلماس (١٨٤).

ويحاول لاسكاريس اللعب بورقة المعلم يعقوب ويقترح على مينو تعيين القبطي رسولاً خاصاً للفرنسيين مكلفاً بالتوفيق بين الفصائل المملوكية للختلفة وزيادة عدد عملاء فرنسا في مصر العليا (١٨٥). وهو يرجع إلى فكرته الخاصة بتشكيل حزب «مصري» يضمن المصالح الفرنسية، ويلتف حول يعقوب وسليمان بك، الحامي السابق للقبطي (١٨٦).

لما هتمان بك فإنه يجدد إمارات صلاته للإنجليز والفرنسيين. ويصرح له هؤلاء الآخرون بالدخول مع رجاله إلى مصر الوسطى (١٨٧). ولما يعقوب، الذي نظم شبكة استخبارات فعالة، فهو يبلغ الفرنسيين بأن الطليعة العثمانية التي تمركزت في بلبيس

تتألف من ستة آلاف رجل، بينما يتركز المصدر الأعظم في الصالحية مع الفين من الانكشارية (١٨٨).

والحال أن بيليار، إذ يرى نفسه مهدداً في كُن واحد بحشد القوات الإنجليزية التي تحتل المسار المحاذي للذيل عن طريق الرحمانية والقوات العثمانية التي تصل من شرق الدلتا، فإنه يطلب إلى مينو التحرك مع قوته إلى القاهرة لكي يواجه جيوش الأعداء في الأرض المنهسطة للكشوفة (١٨٩). إلا أن الوقت كان قد تأخر كثيراً، فإمام الضغط الأنجلو - عثماني، يترك لاجرانج الرحمانية وينسحب إلى القاهرة (١٠ مايو ١٨٠١). ويصبح الجيش الفرنسي منقسماً بشكل نهائي إلى جزئين، وتتأثر بذلك تأثراً ملحوظاً معنويات القوات (١٩٠).

ترصد بيليار الحربي

تتضاعف الانتقادات والتهجمات ضد مينو. ويعتبر هذا الأخير أن يبدو نشيطاً، وذلك بقدر ما أن الإنجليز، المعتادين تماماً على الحرب العيكولوجية دائماً، قد روجوا إشاعة مفادها أن رينيه قد عين للتو من جانب القنصل الأول قائداً للجيش، بينما لا يحتفظ مينو إلا بإدارة مصر (١٩١). ويأمر مينو بإلقاء القبض بالقوة المسلحة على رينيه وداماس وبور وحدة ضباط ومسؤولين آخرين عن الجيش (١٣ - ١٤ مايو ١٨٠١). ويجري احتجازهم على سفن سوف تبحر إلى فرنسا وبعد ذلك بعدة أيام، يغادرون مصر نهائياً. وسوف يعترض الأسطول الإنجليزي سبيل السفينة التي تقل داماس وبور، وسيتم أسر الرجلين، في حين أن رينيه سوف يصل نون مشكلات إلى فرنسا، وهو ما سوف يسمح له بمواصلة حملته ضد مينو.

والحال أن التعزيزات التي جاء بها لاجرانج إنما تسمح لبيليار بمحاولة القيام بحملة ضد الطليعة العثمانية في بلبيس، ويمكنه الآن توحيد نحو ستة آلاف رجل مع ترك حامية مهمة في القاهرة، وهو يخرج في ١٥ مايو ويقابل العدو في اليوم التالي، ويختفى العثمانيون ويتجنبون أية معركة حاسمة. وهكذا فعندما رأيت أن العدو قد عازم على عدم الرحيل من مصر، ولأنني إن حاربت بهذه الطريقة، لسوف استخدم جزءاً من ذخيرة مدفعيتي، وسوف أخسر رجالاً نون أن يتسنى لي انتزاع أي مكسب، ولأنني كنت أخشى من أنني لو تقدمت فإن كل سلاح الفرسان التركي سوف يستنهد من وراء ظهري لمحاولة

عمل شيء في القاهرة، ولأنني كنت أعتقد أن الإنجليز سوف يواصلون زحفهم، لقد قررت العودة إلى القاهرة للعمل على سد طريق النيل ووضع بطارية لوية قاسية على وقف الأسطول النهري الإنجليزي وتهيئة الجيزة للدفاع (١٩٢).

والحال أن تردد بيلهار الغريب، والذي تبرده جزئياً لكرى متلوبة سلاح الفرسان العثماني خلال معركة هيليوپوليس، إنما يؤدي إلى ضياع آخر فرصة لضرب القوات الأنجلو - عثمانية بالتتالي. والواقع أنه لا الضباط ولا الجنود يريدون القتال. إن الخلاف في صفوف القيادة العليا وعجز مينو الواضح عن توجيه العمليات العسكرية قد جردا الجنود، الذين تهاوت عزيمتهم بعد هيليوپوليس، من أي إصرار على مواجهة معركة جديدة.

ويجد هذا الانهيار للجيش الفرنسي تعبيراً جديداً عنه في استسلام كتيبة راكبي الجمال. والكتيبة - التي غادرت الإسكندرية في ١٤ مايو تحت قيادة قائد اللواء كاثالبييه للبحث عن بعض اللؤن للمدينة المحاصرة - والمؤلفة من خمسمائة رجل تصانف الجيش الإنجليزي قرب الرحمانية (١٧ مايو ١٨٠١). وهي تتخذ تشكيل استعداد للقتال وتستفيد للحظة من تفوق عددي واضح على القوات التي تواجهها. ولذا نصعباً إلى كسب الوقت، يبدأ الضباط الإنجليز مفاوضات ولا يجدون، لعظيم نهضتهم، غير صعوبة قليلة في التوصل إلى استسلام الفرنسيين. ويكفي طمأننتهم على العودة الفورية إلى فرنسا وحرية التصرف في ممتلكاتهم الشخصية حتى يستسلموا (١٩٣).

الجيش الإنجليزي في القاهرة من المستعمرات

وهذه النجاحات الأخيرة ترفع معنويات الإنجليز والعثمانيين إلى أعلى مستوى، أما الهدوء فإنهم - طموحاً منهم إلى للمشاركة في عمليات سلب ونهب مريحة، ينضمون بأعداد كبيرة إلى جيش الصدر الأعظم. ويزود إبراهيم بك هتشنسون ليطلب إليه تأمين حماية إنجلترا له (١٩٤). وفي ٢٠ مايو، ينضم إليه عثمان بك مع ممتلكات مصر العليا، المرتابين هم أيضاً على الدوام في النوايا العثمانية (١٩٥). ويجتمع المسؤولون الإنجليز والعثمانيون لتحديد بقية العمليات، بينما يجلو الفرنسيون عن مواقعهم الأخيرة في الدلتا. وبالنظر إلى عدم تمكنهم من الذهاب إلى الإسكندرية أو القاهرة، فإنهم يركبون البحر متجهين إلى لوردوبا. ويسر الإنجليز بعضهم لكن آخرين ينجحون في الوصول إلى موانئ إيطاليا.

وعلى خلاف رجل كبروتاهارت تعلماً، فإن هتشنسون يتقدم ببطء بالغ ويحتاج إلى خمسة أسابيع لقطع المسافة من الرحمانية إلى القاهرة، وهو يخشى دائماً من عودة

هجومية للفرنسيين ويحرص على تأمين تنسيق تحركات جيشه مع تحركات جيش الصدر الأعظم. كما أنه ينتظر انتهاء من القوة الأنجلو - هندية.

وكان ريتشارد ويليسلي، الذي أصبح مركيزاً في عام ١٧٩٩، قد مهد إلى الجنرال بورد وإلى أخيه هو، كورنر، ويلينجتون فيما بعد، بقيادة هذه الحملة (الأنجلو - هندية). لكن كورنر وويليسلي يضطر إلى ترك الجيش لمرضه، وسوف تتاح له فرص أخرى لكي يلعب في الحرب ضد الفرنسيين، وبما أنه لا وجود هناك لخطر بحري، فإن السفن تتحرك بشكل مبهثر ولا يتسنى تحقيق أي اجتماع لها لا في مخا ولا في جده. ولا يتم تركيز السفن إلا في القصير في لوانثل مايو ١٨٠١، مع وصول وحدة أخرى من القوات قائمة من مستعمرة الكاب الجديدة. وهذا الجيش القادم من للمستعمرات والذي يتألف من نحو سبعة آلاف رجل يحتل الصمراء مكثفاً للاحتياطات لتجنب للعلنة من العطش، ثم يهبط بهبط وادي النيل وأن يصل إلى مصر السفلى إلا بعد أن يكون كل شيء قد انتهى (١٩٦). وعلى الرغم من أن الجيش الأنجلو - هندي لم يشارك مباشرة في المعارك، فإنه قد لعب دوراً بالغ الأهمية في إنشاء ممالك مصر العليا من البقاء في الحلف الفرنسي. كما سمح أيضاً بممارسة ضغط بالغ القوة على شريف مكة. بل إن الإنجليز، الذين يعتبرونه قريباً من الفرنسيين، قد فكروا في إحدى اللحظات في تجريده من وظائفه (١٩٧).

استسلام القاهرة

خلال أشهر عدم النشاط العسكري هذه، لا يحاول مينو الخروج من الإسكندرية، ويتولى بيليار دون اقتناع فعلى تعزيز تحصينات القاهرة. والآن يصيب الطاعون مصر كلها. ومما يدعو للاستغراب أنه يبدو أن الساحل، الأكثر تعرضاً للإصابة بالأوبئة في العادة هو الذي أقلت من الإصابة، بما يشكل مكسباً عظيماً للإنجليز. وعدد الوفيات كبير للغاية، ويرى الجبرتي أن ثلث سكان مصر العليا قد سقطوا ضحية لوباء الطاعون (١٩٨). أما الفرنسيون بالقاهرة، بالرغم من الاحتياطات المتخذة، فإنهم يتكبدون خسائر جسيمة من جراء الوباء، إن أكثر من خمسمائة من بينهم يموتون في غضون أسابيع قليلة (١٩٩). ويجر تلاشى النظام الفرنسي إلى عوبة هجومية من جانب قبط الذين يقطعون الطرق ويكثفون عمليات السلب والنهب على حساب الفلاحين. أما مهدي بمنهور السابق، فقد نجح من جهته في دفع القرى المجاورة للقاهرة إلى الثورة (٢٠٠).

وفي القاهرة، يكثف استهداف التصريحات المطمئنة والكتابة الموجهة إلى الليوان.

والحال أن المشايخ، الذين لا يمكن تضليلهم فيما يتعلق بجسامة الوضع، إنما يردون بالعزف على الوتر نفسه (٢٠١). ويلتزم سكان المدينة للهوى. وكان الفرنسيون قد كثلوا التهديدات والجميع يتذكرون القمع الرهيب الذي شهدته العام الماضي.

ولا ينهمك الأنجلو - عثمانيون في حصار حقيقي لعاصمة مصر، ولا يتمركزون قرب المدينة إلا في أواسط يونيو ١٨٠١. وهم يكتفون بفرض حظر على الدخول والخروج تتزايد صرامته كما يكتفون بترقب رد فعل من جانب الفرنسيين. ويواصل مينو إمداد هؤلاء الآخرين بالأنباء الزائفة: «إن جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً من الجنود الفرنسيين قد استولى على أيرلندا، وفي البحر المتوسط يتحرك جيش بحري فرنسي وإسباني»، ويواصل توجيه نصائح لم يطبقها قط مثل: «فلتطاردوا الإنجليز والعثمانيين؛ ولا تدعوا لهم لحظة لالتقاط أنفاسهم» (٢٠٢). وهذه المعلومات التي تحصل في ١٥ يونيو يجرى الاحتفال بها على الفور بإضاحات ليلية، الأمر الذي يدفع الإنجليز إلى تصور أن الفرنسيين يتهبئون للخروج في غارة (٢٠٣). ويتلو استيف رسالة من مينو في ميوان يجمع كل أعيان القاهرة ويعلن لهم «إننا قد تلقينا رسالة من [...] مينو و [...] هو يبلغنا بأن فخامته قد تلقى أنباء من القنصل الأول بونابارت تقول إنه قد احتل جزءاً كبيراً من بلاد الإنجليز وأن أسطولاً فرنسياً وإسبانياً يوجد جهة الأرخبيل [بحر إيجة].

ولا يرى الجبرتي في ذلك إلا أحلام يقظة وأوهاماً وأكاذيب تهدف إلى تهينة السكان (٢٠٤). وهو ليس الوحيد الذي يرى ذلك، فبيليار يكتب تلك صراحة إلى مينو: «ما عاد من الجائز للمرأة، سيدي الجنرال، أن ينخدع فيما يتعلق بوضعنا. فأنا أعتقد أن انتظار وصول عون إنما هو من قبيل التعلل بالأوهام. إن الحكومة التي تعلم منذ ثمانية أشهر بحملة الإنجليز، كان بوسعها أن ترسل إلينا مثل هذا العون لو كان ذلك ممكناً [...]». وحملة أيرلندا التي تتحدث عنها في رسالتك لا بد لها من أن تهدد أي أمل في رؤية أسطول مشترك في البحر المتوسط.

ويمكن الصمود حتى للنهاية في الإسكندرية لسوف يجرى الجلاء بعد ذلك مباشرة إلى أودويا. أما في القاهرة، خلافاً لذلك، «فإننا إذا ما أجبرنا على إلقاء السلاح، فكيف يمكن اجتياز الطريق من القاهرة إلى البحر، ونحن محاطون بجيش من الفرسان الأتراك، الذين لا نمة لهم ولا شفقة عندهم، ومعرضون للهجوم من جانب العرب، ومطوفون بجميع سكان البلد الذين هم أعداء أيضاً» (٢٠٥).

إن الإنجليز لا يحوزون إمكانات لتأمين انضباط للعثمانيين، ويرى بيليار أن «جيش

مصر قد أدى واجبه. ولما كانت الأحداث، فإنه سوف يكسب بلثماً لاحترام العظم. فمئذ ثلاثة أعوام، قتل نون أن يتزود بمجندين جدد، ومئذ ثلاثة أشهر ونصف الشهر، لحبط عدو والفر العدد وإتاج للحكومة وقتاً لإرسال عون. وإذا كانت لم تفعل ذلك فهذا يرجع إلى أنها لم تتمكن من ذلك. لأن الجنرال بوناپارت، الذي يعتبر هذا الجيش أسرته، كان سيفعل كل ما هو ممكن من أجله، لو كان ذلك بمقدوره (٢٠٥).

ومكنا، فحتى قبل استئناف المعارك، كان قائد القاهرة مستعفاً للاستسلام بشروط الحصول على شروط قريبة من شروط اتفاق العريش. وهو يعقد مجلساً حربياً يحشد جميع الضباط القادة. وهو يشير أمامهم إلى المخاطر (الفعلية) التي يمثلها الطاعون، وإلى حالة الإمدادات (التي لا تكفي إلا لأسابيع قليلة)، وإلى صعوبة الدفاع عن محيط بهذه الدرجة من الاتساع استناداً إلى قوات جد قليلة كهذه، وإلى خطر نشوب انتفاضة شعبية، وهو يميل إلى الاستسلام. لماً لاجرانج، نصير مينو، فهو لا يعترف بحق التفاوض مع الإنجليز، نون تصريح من القائد العام؛ وأما دونزيلو، للتخصص في شؤون مصر العليا، فهو يقترح الانسحاب وشن حرب مماليك ضد الإنجليز؛ ولما نوباء قائد القلعة، فإنه يدعو إلى المقاومة حتى آخر رجل. لكن جميع الضباط الآخرين أنصار للاستسلام: إن الفرنسيين أتل عبداً بكثير مما في وقت معركة هيليوپوليس وأصلوهم الآن لوردوبيون جييو التنظيم؛ ومن ثم فإن مواصلة القتال لن تخدم شيئاً. والنتيجة مقروءة سلفاً (٢٠٦). ولا يشير أحد إلى واقع أن هناك ما يكفي من الإمدادات حتى بداية فيضان النيل (٢٠٧)، والذي كان يمكن له أن يجعل وضع الأنجلو - عثمانيين مزعزماً. وعلاوة على ذلك فإن ذلك كان هو ما يخشاه هتشنسون أكثر من أي شيء آخر (٢٠٨).

وفي ٢٢ يونيو ١٨٠١، يرسل بيليار رسولاً لطلب وقف للقتال. وتتم الاستجابة إلى هذا الطلب على الفور. وتبدأ المفاوضات في اليوم التالي. ويتم توقيع الاتفاق في ٢٧ يونيو. وتعتبر الشروط مماثلة لشروط اتفاق العريش إلا فيما يتعلق بالأجال، (إلا يجب للجلاء أن يبدأ) بعد عشرة أيام من التصديق على الاتفاق؛ وفيما يتعلق بالشروط المالية، فقد رفض العثمانيون بقوة تقديم أية مساهمة، وهم يتذكرون التضحيات المالية الجسيمة التي فرضها اتفاق العريش وليسوا على استعداد لتكرار المعاناة. وفي المقابل، فإن الفرنسيين، خاصة العلماء، يمكنهم أن يأخذوا معهم كل الأشياء التي تخصهم، وسوف يجرى إرسال ضابط فرنسي إلى مينو لكي يقترح على حامية الإسكندرية الاستقالة من معاملة معاملة.

وفي الأيام التالية لذلك، يجرى الإفراج عن جميع الأسرى المسلمين، ويرفرف العلم

العثماني على أسوار القاهرة. أما بهان العفو العام الذي نص عليه اتفاق الاستسلام فيجوز
إحصائه على الجدران. ويمكن لجميع المصريين الراغبين في الرحيل مع الفرنسيين أن
يفعلوا ذلك. ويلقى استهف خطبة وداع أو بالأحرى خطبة وعد بلفاء جديد أمام أعضاء
الديوان،

«أيها المشايخ والعلماء، لا تسمحوا للشكوك أن تخامركم، لفراننا لا يمكن إلا أن
يكون مؤقتاً. إنني على أتم ثقة من ذلك. ذلك أن بولتيينا لن تفشلا، مع الوقت، في إعادة
نسج أواصر الصداقة القديمة التي وجدت بينهما والباب العالي العثماني، الذي وصل إلى
شفير الهاوية التي حفرها له الإنجليز، حيث لن يرى بعد أخيراً في استسلام مصر للذي أراد
الفرنسيون غير الرغبة الواضحة التي أبدوها في الاتحاد معه من أجل إذلال كبرياء ونزوات
أولئك الخاصيين للكون البحار وتجارة العالم» (٢٠٩).

ويلاحظ الجبرتي أننا إزاء نسج من البلاهات والأقوال الاهتباطية التي لا فائدة من
إيرادها (٢١٠). وفي اليوم نفسه، يزور المشايخ الصدر الأعظم الذي يصحبه إبراهيم بك
والمحرق وعمر مكرم.

وفي تلك الأثناء، يخرج الجيش الفرنسي جثمان كليبر من مقبرته. وتقام مراسم
جنائزية تأهيدية جديدة بينما يبكي الجنود أمام تابوت قائدهم المحبوب. وسوف يعيدونه إلى
فرنسا، لكن ناپوليون سوف يتركه على مدار عهده، معتقلاً سياسياً حقيقياً في فهو قلعة
إيف بمرسيليا (٢١١) وسوف يتعين الانتظار إلى حين عودة الملكية حتى يتم دفن الجنرال
الأكزاسي في ستراسبورج.

وفي ١٤ يوليو، يغادر الفرنسيون القاهرة ويهبطون النيل حتى رشيد، وينتهي
ركوب السفن الإنجليزية في ٩ أغسطس ١٨٠١. ويرتلح عدد الراحلين إلى ثلاثة عشر ألف
وستمائة رجل من بينهم تسعة آلاف جندي عامل، أما الباقون فإنهم يتألفون من المرضى
ومن موظفين مدنيين ومن مصريين (٢١٢).

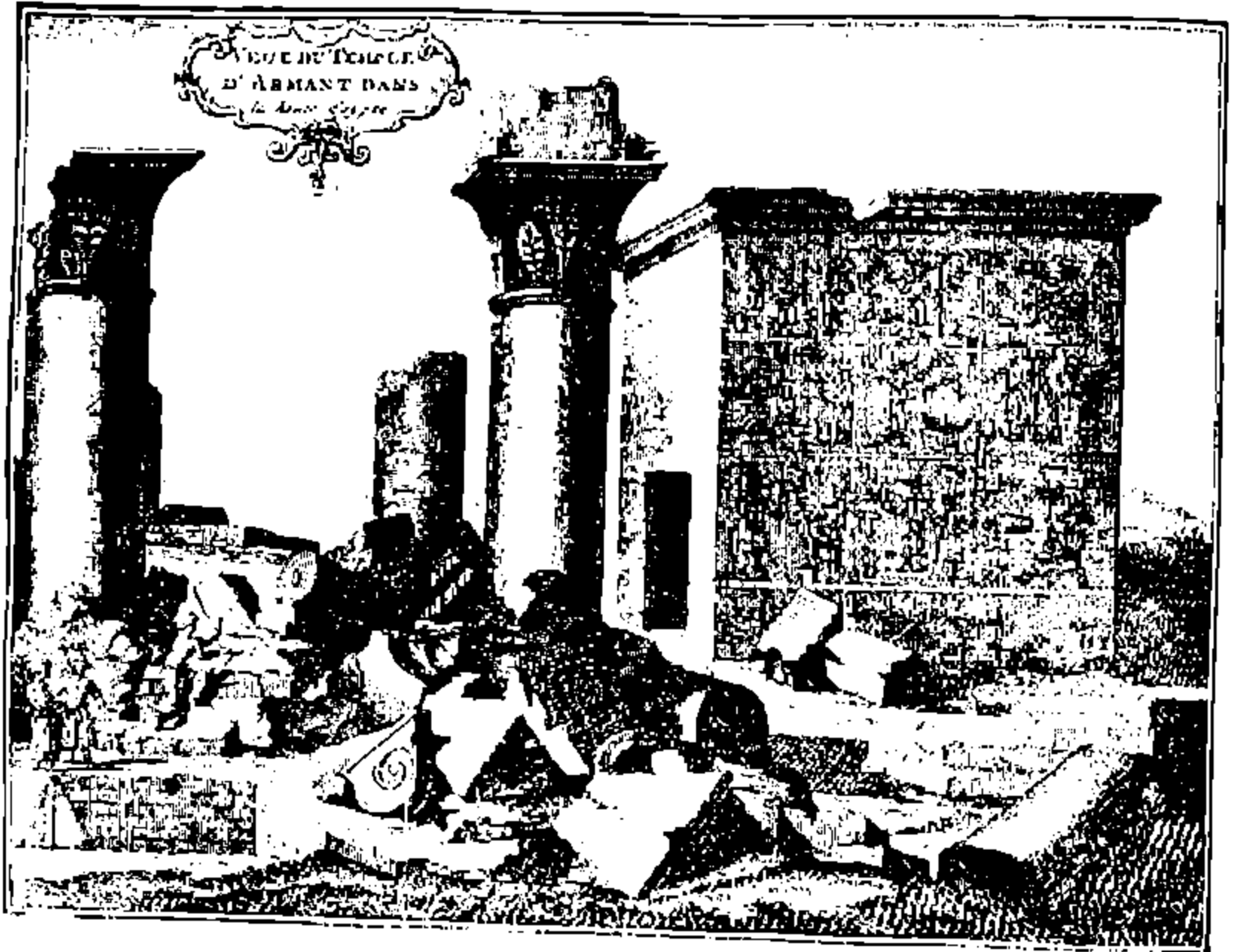
مشروع استئصال خطر

كان لاسكاريس ويعقوب ومارسيل قد فكروا في إحدى اللحظات في تطبيق مشروع
بوتزيلو الخاص بالانسحاب إلى القوية، إلا أنه بما أن أحداً لا يريد السير معهم، فإنهم

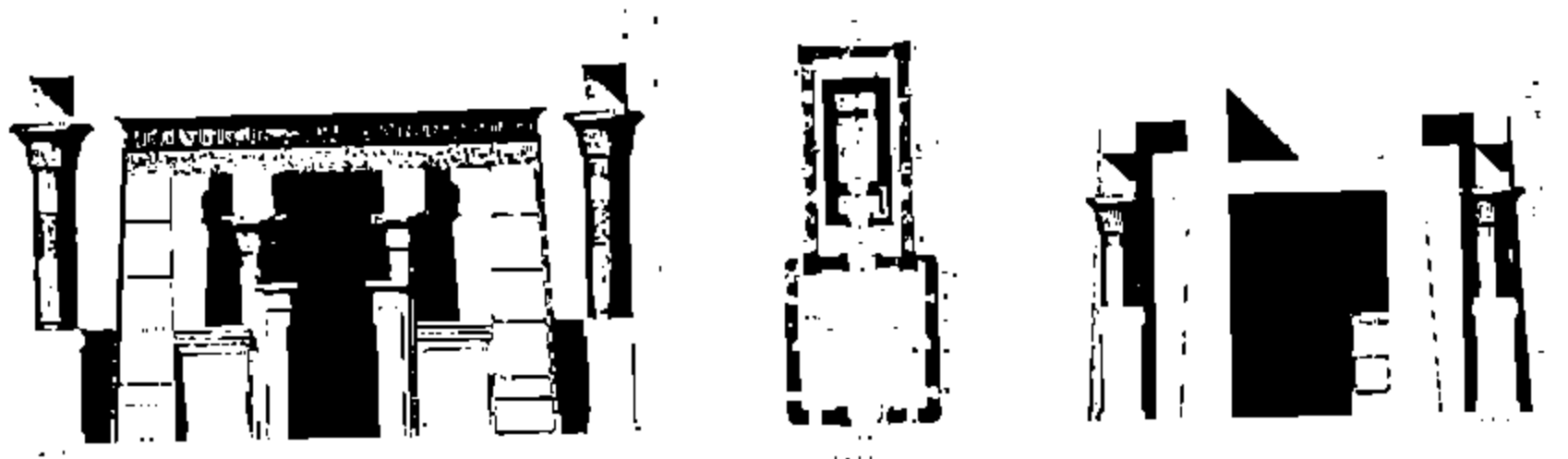
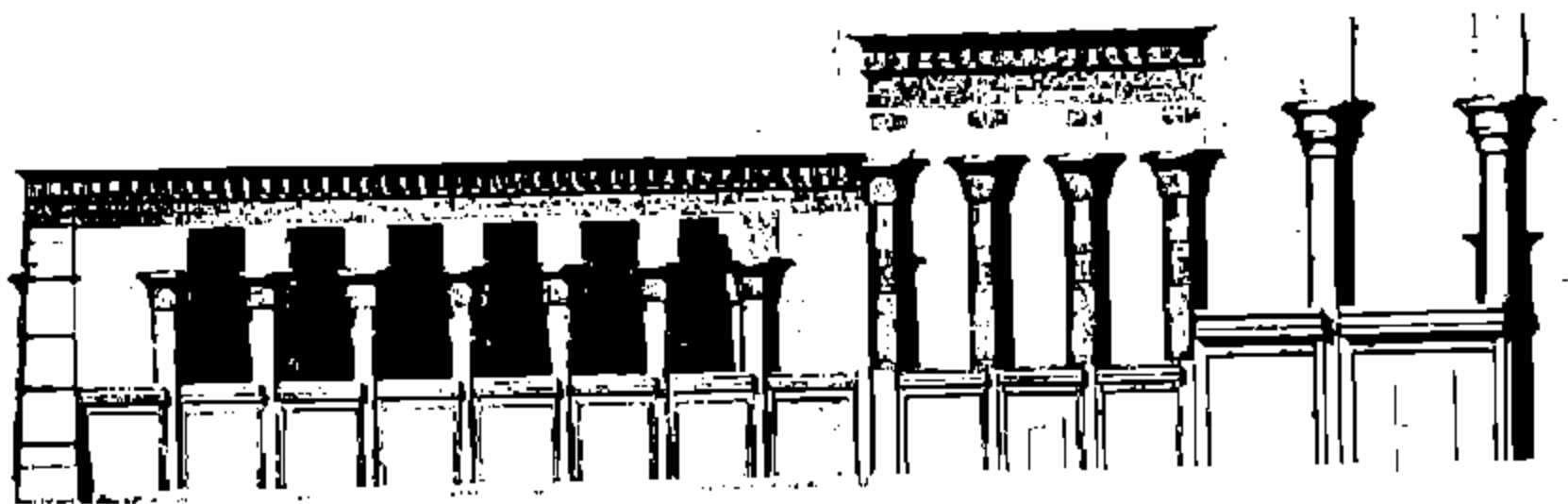


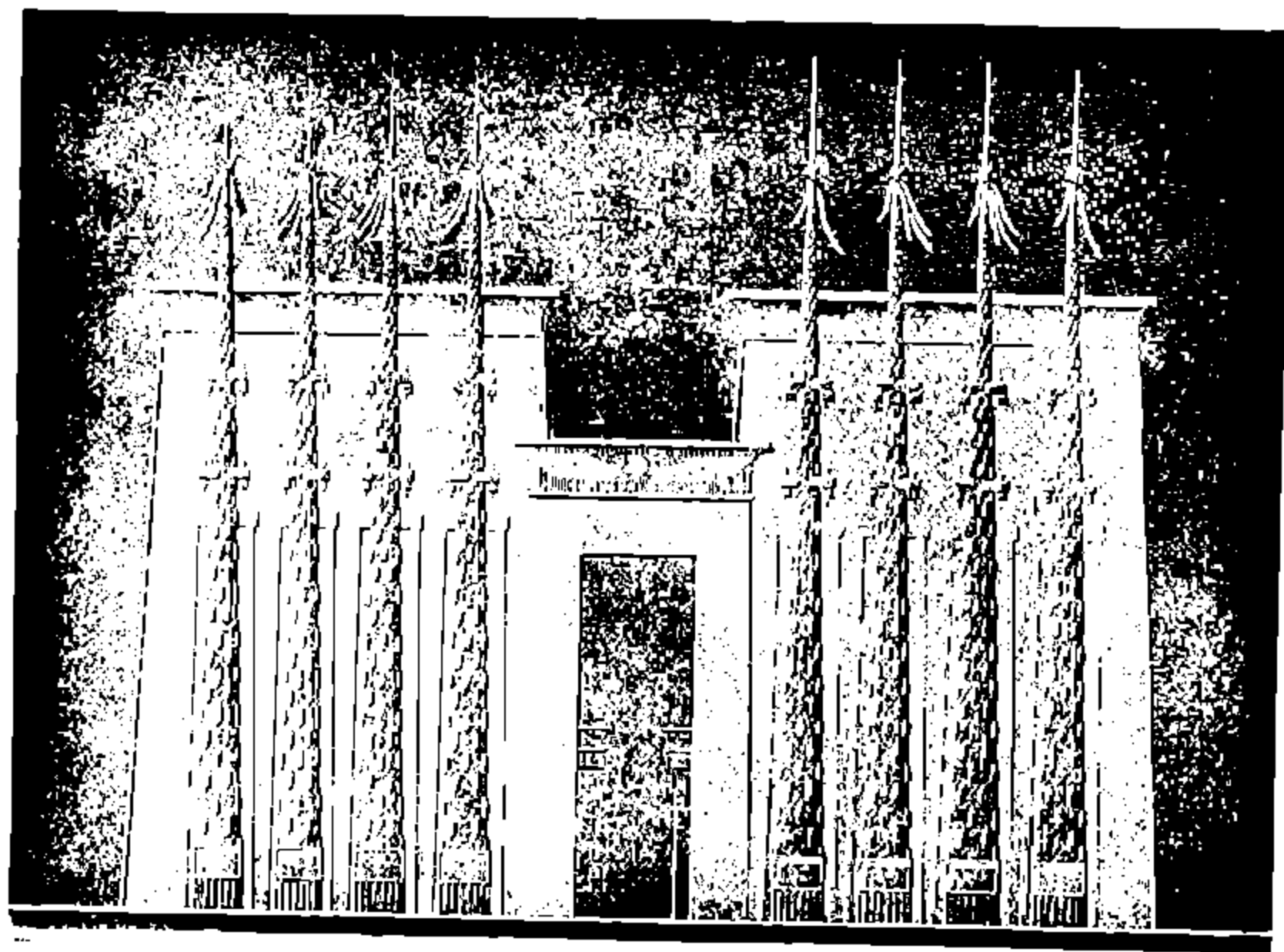


(۱) رسم لوتیرتر. ۷۴ - معبد ارمنت.



(ب) رسم لوكلس.

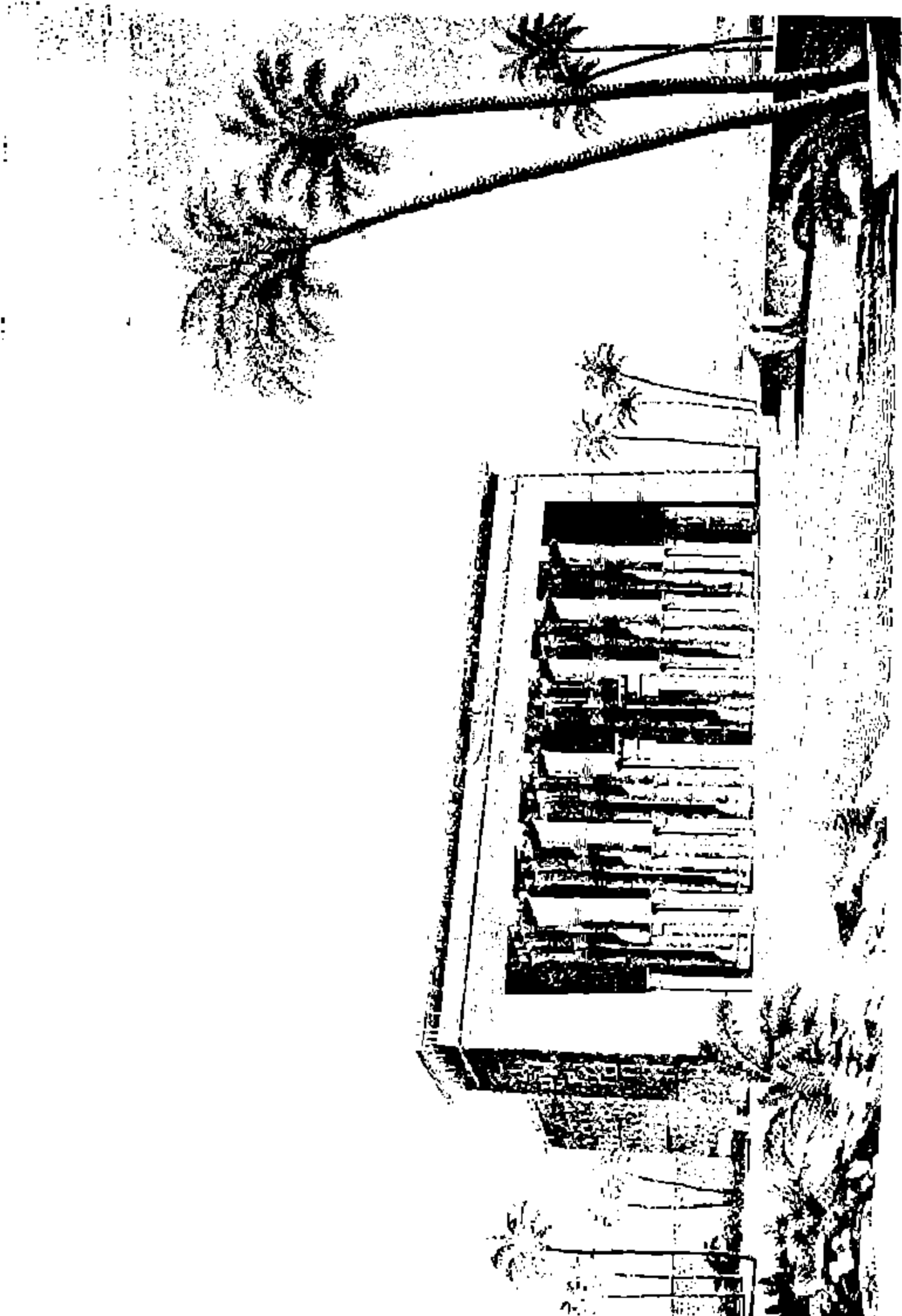


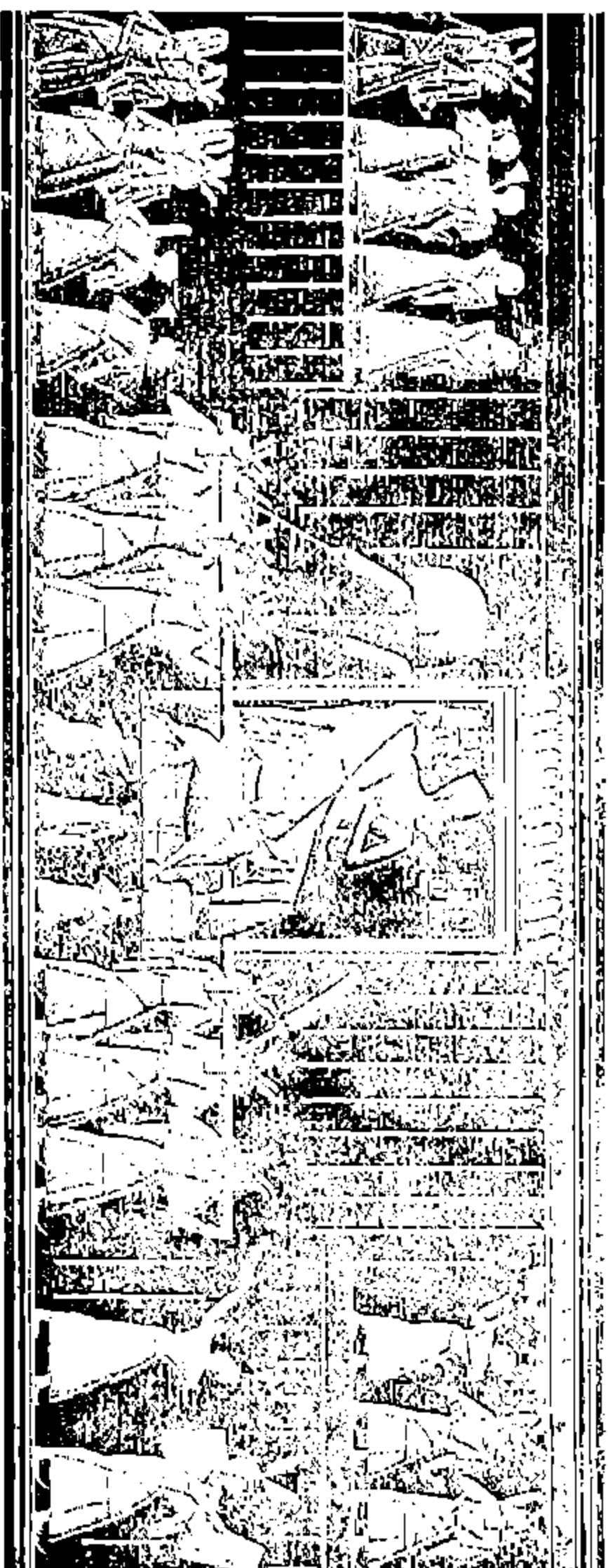


۷۶ - نقش معبد خونسو.

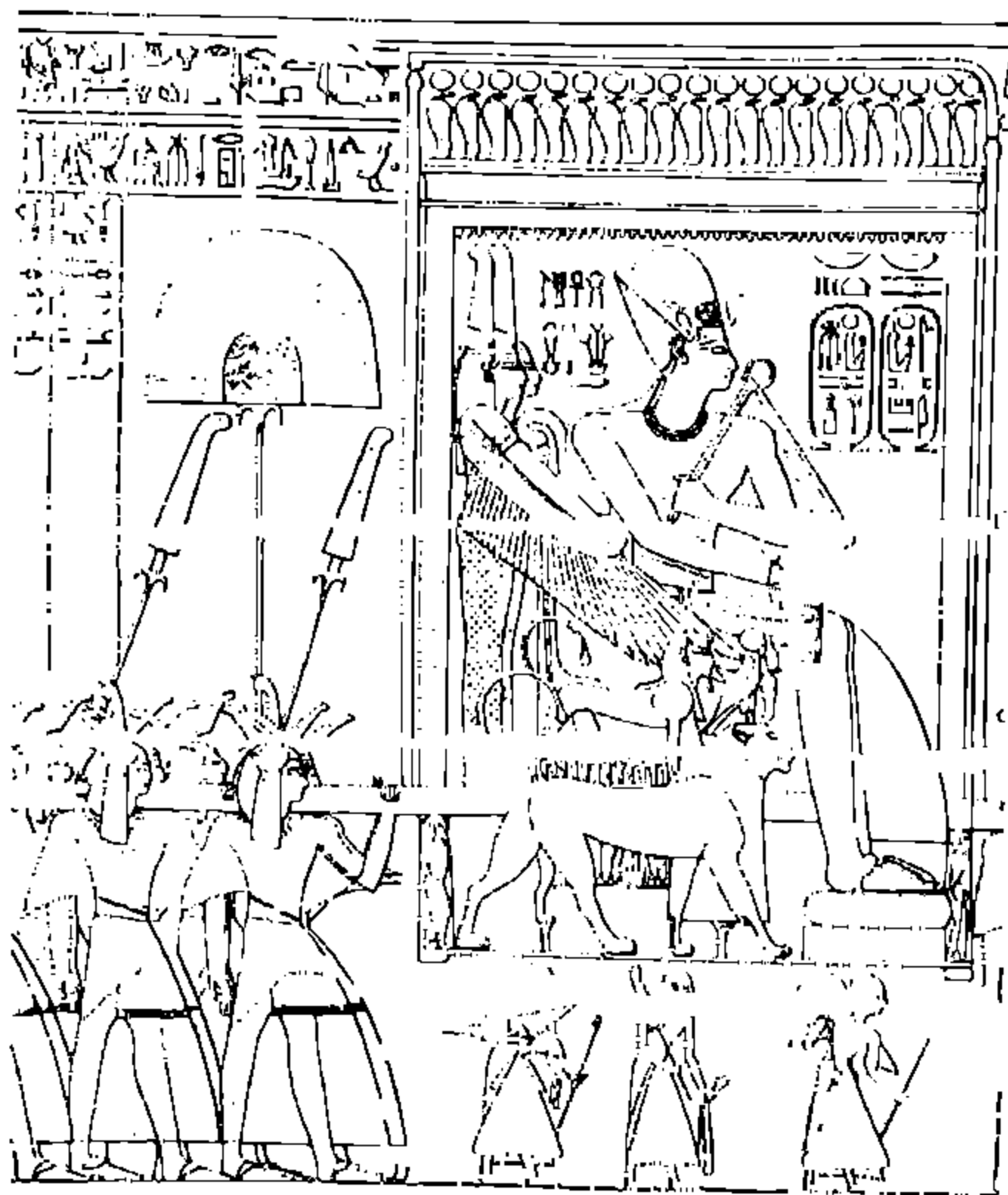


٧٧ - معبد قناو الكبير. رسم حالة الأماكن.





۷۹ - الملك محمود الأعلى كرسيه.



٨٠ - الملك معمولاً على كرسيه. استرجاع حديث.

يضطرون إلى السير مع بقية الجيش. ويقوم العلمانيون بجهود لدى المعلم حتى يدخل في خدمتهم (٢١٣). لكنه يرفض. وهو يركب البحر مع لاسكاريس على متن السفينة ولا يبالس، في ١٠ أغسطس ١٨٠١.

ومنذ إقلاع السفينة، أجرى قبطانها، جوزيف لاموندز، لقاءات عديدة مع المعلم، حيث كان لاسكاريس يقوم بالترجمة. وسوف يلخص لاموندز لرؤسائه مناقشاته على النحو التالي:

قال لي إنه يرى أن أية حكومة مهما كانت إنما تعتبر أفضل لبلاده من حكومة الأتراك، وأنه قد انضم إلى الفرنسيين انطلاقاً من الرغبة الوطنية في تخفيف معاناة مواطنيه [...] وأنه ما زال يتطلع بالاستعانة بالدول الأوروبية إلى عمل الخير لبلاده وهو يتصور أن رحلته إلى فرنسا سوف تؤدي إلى هذه النتيجة. وقد دفعه الفرنسيون إلى تصور أن بلدهم يتمتع بقوة مهيمنة في أوروبا؛ وهو لا يكاد يعلم شيئاً عن قوة إنجلترا البحرية العظمى، على أنه يدرك أن رغبته في أن يرى مصر متمتعة بالاستقلال، هي رغبة محكوم عليها بالفشل، في غياب تأييد من جانب بريطانيا العظمى. وقد قال لي صديقه لاسكاريس [...] الذي تولى ترجمة كلامه في محادثاتنا، أن الجنرال المعلم يعقوب هو رئيس مفوضية حصلت على سلطات أو هيئت من جانب أميان مصر بهدف التفاوض مع دول أوروبا على استقلال هذا البلد (٢١٤).

ويعتقد يعقوب بعد أيام قليلة من ركوب البحر، وقد جرى اتهام العثمانيين بأنهم قد نسوا القسم له قبل رحيله (٢١٥). ولا تخمد هزيمة لاسكاريس من جراء ذلك ويكتب مذكرة موجهة إلى الإنجليز يستعيد فيها الأفكار الرئيسية التي تم الإعراب عنها في المحادثة على إنجلترا حماية مصر مستقلة تشتري المنتجات الإنجليزية، فهي ليست غير قوة زراعية. وسوف تكون الحكومة الجديدة سلطة مستقلة، تستند إلى سكان معتزلين بالازدهار للمستعبد. وسوف تتحرك في اتجاه استعادة الحضارة في مصر. ويقترح لاسكاريس إشراك المفوضية المصرية في المفاوضات العامة التي لا بد وأن تلتو لإنهاء الأعمال الحربية للاتلاف الثاني.

ويشير مجمل الأفكار للمستخدمة إلى أن واضعها هو الفارس المالطي السابق، لمعجمها هو معجم الاقتصاد السياسي لأواخر القرن الثامن عشر، ومفهوم الحضارة هو الذي قدمه التنوير الأيديولوجي لعمل بوناپارت في مصر. ومن الصعب للغاية معرفة ما

كان يوسع يعقوب أن يفكر فيه بالفعل، والشيء اللهم هو أنه للمرة الأولى يعزى معجم سياسي غربي إلى أحد الشرقيين. وسوف يتعين الانتظار عشرين سنة حتى يستخدم محمد علي بدوره مفهوم الحضارة.

ويأمل لاسكارييس في أن يبقى على اتصال بالإنجليز. والواقع أن تقرير القبطان أيمونينز سوف يهجم لأكثر من قرن من الزمان في الأرشيفات الإنجليزية حتى اللحظة التي سوف يكتشفه فيها جورج دولن وينشره في عام ١٩٢٤. وسوف يرجع لاسكارييس إلى الشرق بمشاريع جديدة لاستقلال لبنان ثم لاستقلال العالم العربي.

والحال أن مشروع استقلال مصر، الذي يعاد اكتشافه في اللحظة التي سوف تؤكد فيها مصر بصوت عال ويقوة إرادتها في التحرر من السيطرة البريطانية، سوف تعتبره مدرسة باكملها من المؤرخين المصريين أول نص قومي مصري عظيم. لكننا لا نعرف بدقة كائية فكر للمعلم يعقوب لكي نعرف ما كانت عليه نواياه الحقيقية.

الدواعي الأولى بين العثمانيين والمماليك

في التو والحال، وبرغم العفو الذي أعلنته العثمانيون (٢١٦) وضمنته اتفاق القاهرة، يجرى إعدام بعض المتعاونين مع الفرنسيين. لكن غضب السلطات ينصب بشكل خاص على النساء اللاتي اعتدن التردد على الفرنسيين. ويتم الحكم على عدد من بينهن بعقوبة الإعدام، ومن بين هذا العدد ابنة الشيخ البكري. ولم يفعل والدها شيئاً من أجل الدفاع عنها. والحق أنه يهتم بالأحرى بإنقاذ حياته هو. وهو الشيخ الوحيد الذي يتحول إلى ضحية للملاحظات. ويجري تجريده على التوالي من منصب نقيب الأشراف الذي يتم تسليمه إلى عمر مكرم، ثم من منصب رئيس الطريقة البكرية. وتتم مصابرة جزء كبير من ثروته ويضطر إلى أن يحيا حياة متواضعة ومنزوية (٢١٧).

ويجرى رد للمسيحيين واليهود إلى وضعيتهم السابقة، لكن السلطات العثمانية تسارع إلى التذكير بأنهم تحت حمايتها. ومنذ دخول الجنود العثمانيين، وبالرغم من أوامر النهي المتكررة الصادرة عن قلايتهم، فإنهم يعمدون لرض علاقات الحماية على تجار وحرافيس القاهرة في مقابل مبلغ مالي، وبسرعة بالغة يتم إبراك أن هناك خطر استئناف الحرب بين المماليك والعثمانيين وأن عودة النظام العام لن تتم بسهولة (٢١٨).

ويتدخل الإنجليز بالفعل لحساب المماليك. فالقادة العثمانيون يطردون الصمت نفيسة من بيتها ولا يتمكن إبراهيم بك من العودة إلى بيته، وبناءً على نصيحة من روزيتي، يطلب هتشنسون أن يسترد البكوات جميع حقوقهم ومناصبهم. ويُقَدِّمُ إليه فرمان بهذا المعنى. كما يحصل من المماليك على تعهد يدفع للخزينة للباب العالي بصورة منتظمة وباحترام سلطة الباشا العثماني. ويتفاخر الإنجليز بهذه المناجنا كارتا، لكن للمماليك الذين لا يثقون في العثمانيين، محقين في ذلك كما سوف يثبت ذلك المستقبل، يفضلون الإقامة في جزيرة الروضة بدلاً من الإقامة في القاهرة (٢١٩).

تلطط جيلو

ترتفع معنويات حامية الإسكندرية عندما تصل إلى الميناء في ٩ يونيو الحارقة «هيليوبوليس» التي انفصلت عن أسطول جانتوم. ويجري إبلاغ الحامية بقرب وصول تعزيزات. والواقع أنه يجري إبلاغ مينو بفشل الإنزال في سرته وعودة الأسطول إلى طولون (٢٢٠). لكنه، لعدم استعداده للتخلي عن لوهامه، يرفض استقبال الرسول الذي بعث به بيليار لنقل نص اتفاق الاستسلام. وهو يندد بالاتفاق في أمره لليومى: «إن القوات الفرنسية التي كانت في القاهرة والحصون المجاورة قد استسلمت دون قتال، ودون أن تتعرض المدينة والحصون للهجوم بشكل منتظم. وأنا لا أجهز لنفسي إصدار أى حكم على هذا الحدث، الذى ربما كان أغرب حدث يحدث في الحرب، لأننى أخشى أن أحيط بالعار رجالاً أثبتوا استحقاقهم لأن يسموا فرنسيين وجمهوريين» (٢٢١).

وفى رسالته إلى بوناپارت، يبدو أكثر عنفاً بكثير: «إن للؤامرة التي حيكت منذ رحيلك من أجل الجلاء عن مصر قد وصلت أخيراً إلى ثروتها [...] ويبدو أن جزءاً من معاهدة العرش قد استخدم كأساس لهذا الاتفاق الاستسلامي. وكان بوسع الجميع أن يعرفوا أنذاك وأنا أعلن ذلك مرة أخرى أمام العالم بأسره إننى قد أهديت احتجاجي على معاهدة العرش للشعبة تلك، وهي ثمرة الكراهية التي كان بعض الأفراد يكتنونها للجمهورية ولذلك الذى هو اليوم رئيسها الأول بكل ما يستحقه من تشريف، وهي أيضاً ثمرة انعدام الأخلاق وعشق للال الذى يراد نقله بأمان إلى فرنسا، إننى لاحتج أيضاً على اتفاق القاهرة الاستسلامي وسوف أدافع من نفسي حتى نهاية النهاية داخل أسوار الإسكندرية، إننى أعرف الموت لكننى لا أعرف الاستسلام».

وهو يعرف أن بوسعه الصمود أيضاً لنحو ثلاثة أشهر ويطلب إرسال ما بين خمسي

وعشرين وثلاثين سفينة حربية كبيرة وما بين عشرة آلاف واثنى عشر ألف رجل حتى يتسنى له استرداد مصر (٢٢٢). ولا تملك فرنسا إمكانات إرسال كل هذه القوات إليه، أما هو فمن المؤكد أنه لا يملك قدرات قيامتها.

والحال أن تشدد مينو سوف يقوده إلى مسلك غريب على أقل تقدير تجاه أعضاء لجنة العلوم والفنون. هؤلاء، الذين كانوا قد أمروا بالفعل من رغبتهم في مغادرة مصر خلال فترة قيادة كليبر، يجدون للقائد العام طلبهم منذ بداية حصار الإسكندرية. فليس هناك ما يمكنهم عمله في مدينة محاصرة. وبالنسبة لمينو، فإن هذا الطلب إنما ينطوي على اعتراف بالفشل النهائي ويقرب الجلاء عن مصر. وهو يبدو معانياً، وإذا كان يقبل مبدأ رحيلهم، فإنه يفعل ذلك لكي يحظر عليهم أن يأخذوا معهم مجموعاتهم الشخصية وأبحاثهم، فالمجموعات تخص الحكومة لا الأفراد، أما الأبحاث، فإنها إن وقعت في أيدي الأعداء، سوف يكون بإمكانها تزويدهم بأنكار مفيدة عن البلد، من الناحية السياسية أو العسكرية أو المالية (٢٢٣).

ومن ثم فإن العلماء يرحلون على متن السفينة الخراعية «لوانو»، تاركين في مستودع بالإسكندرية أشياءهم. ولما كان مينو لا يريد للتصديق على اتفاق القاهرة، فإنه يرفض السماح بتطبيقاته على العلماء (وهو أمر كان ممكناً تماماً). ولذا فإن لا يجرى إشعار الإنجليز بخروج السفينة. لكن قبطان السفينة يستسلم على الفور لأول سفينة بريطانية يقابلها دون أن يحاول الهرب. وبما أن العلماء ليسوا مدرجين في اتفاق استسلام، فإن اللورد كيث يعيدهم إلى الإسكندرية، فهو لا يستطيع قبول خروج أي كان من موقع محاصر (١٥ يوليو ١٨٠١). ولدى عودتهم إلى المناء، فإن مينو، الذي يريد معاقبتهم على استسلامهم للإنجليز، يحظر عليهم النزول إلى البر ويأمرهم بالعودة إلى الأسطول الإنجليزي. لكن كيث، بالرغم من تدخل سيدني سميت لحساب الفرنسيين، يرفض مرة أخرى السماح لهم بالمرور (٢٢٤). وفي هذه المرة، يلزمهم مينو بالبقاء على متن سفينتهم لمدة أيام قبل أن يسمح لهم بالنزول إلى البر حيث يجرى ختمهم إلى الحرس الوطني.

الشكايات الإنجليزية

ليست الشكايات حكراً على الفرنسيين. فعلى الأسطول البريطاني، يتهم بعض الضباط حامية اللورد كيث بالإثراء من وراء شراء تجهيزات للبحرية. وبعض قباطنة

السفن يأخذون عليه عدم الاهتمام بتزويد أطقم السفن بالأغذية للطازجة وانه مسئول بحسب إهماله عن انتشار مرض الإسقريوط بين البحارة. وتلار حرب عصاهات إنارية حثلية ضد الأميرال الذي يضطر إلى رفع الأمر إلى لندن لتبرئة ساحته. وسوف تبرى لجان التحقيق التالية ساحة اللورد كيث، لكن هذه للتاعب تؤثر على معنويات الأسطول. وعلى البر، تندشب الأزمة بين أنصار سيدنى سميث وأنصار هتشنسون. إن للمستشرق هامر - صديق العميد البحرى - يظل فى الجيش ويلعب دور مترجم رسمى، لكنه يكتب رسائل إلى عدد من الأصدقاء، يوجه فيها اللوم إلى مسلك هتشنسون، الذى كان قد طرد سيدنى سميث فى أثر سياسة شائنة، والذى يتقاضى عن إهزازات العثمانيين الكثيرة التى تتم على حساب للمسيحيين والمصريين عموماً. ويجرى نقل هذه الرسائل إلى اللورد إلجين الذى يجد متعة فى إرسالها إلى هتشنسون وفى اتهام العميد البحرى بالتمتع بشبكة تجسس شخصية. وعلى الفور يطرد الجنرال للمستشرق للمترجم ويوجد نفسه مضطراً إلى استخدام الترجمات الإسطنبوليين الذين جاءوا مع الجيش العثمانى (٢٢٦). ويكتب العميد البحرى عدة رسائل احتجاج على المعاملة للشائنة التى تعرض لها صديقه وبشكل أعم، على خطر تلويث شرف الجيش البريطانى بالسكوت على مسلك الجيش العثمانى الشائن (٢٢٧).

وإذا كانت هذه للمشاحنات بين الإنجليز لا تنحط إلى مستوى أزمة فى القيادة، بالرغم من عنف الشتائم للتهابله، فإن ذلك إنما يرجع إلى أن الجيش الإنجليزى، خلافاً للجيش الفرنسى، يسير من نجاح إلى نجاح.

استسلام الإسكندرية

ترمز عربة هتشنسون من القاهرة مع رجاله إلى استئناف المعارك حول الإسكندرية وفى يومى ١٧ و ١٨ أغسطس ١٨٠١، يشن الأنجلو - عثمانيون هجوماً قوياً سعيًا إلى إحكام وضع الحصار الذى اتخلوه فى غرب الإسكندرية. وفى ٢١ أغسطس، يستولون على حصن مريوط، وهو ما يفتح الطريق أمامهم إلى ميناء الإسكندرية القديم. وفى ٢٥ أغسطس، يستأنفون الهجوم ويردون للواقع الفرنسية إلى السور للمسمى بـ «برج العرب» وفى هذه المعارك، خسر الفرنسيون ما بين ثمانمائة وتسعمائة رجل.

ويصبح وضعهم حرجاً بشكل متزايد ويخشى كثيرون من أن يطبق مينو نيته فى

الموت في الإسكندرية مع رجاله، ويعارض نابونشيك وبستان أي اعتلاء على مينو، ويرى
فريان ورامبون وسونجيس أنه يجب للتخلص منه. وهم يولفون رامبون لمطالبة بالتفاوض
مع الإنجليز. وبعد انتصار مينو على هذه الخيانة الجديدة فإنه يقبل بهذا التفاوض. وفي
٢٦ أغسطس يطالب بهدنة مدتها ثلاثة أيام ويحصل عليها.

وفي ٢٨ أغسطس ينعقد مجلس حربى. ويتصلح الصبح للقيمة تأييداً للاستسلام
بالعدد الكبير للمرضى (خاصة المرضى بالإسقربوط)، ويخطر انتشار الطاعون ويضعف
الإمدادات. ويجرى إلقاء المسؤولية عن الفشل النهائي على استسلام القاهرة الذى سمح
للعو بتركيز جميع إمكاناته ضد الإسكندرية. ويحاول مينو كسب الوقت ويحصل على
تمديد طفيف للهدنة. لكن هلشنسون يرفض تقديم مهلات جديدة ويستسلم مينو في ٣٠
أغسطس ١٨٠١. وكان بوسعه أن يقاوم لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع أخرى، لكن ذلك ما
كان يمكن أن يعود إلا بمعاناة لا طائل من ورائها. ومنذ عدة أشهر يتمتع الإنجليز بوضع
بالغ القوة في مصر بحيث لا يمكنهم احتمال بقاء الفرنسيين فيها في إطار للمفاوضات
الجارية في لندن. وفي هذه المفاوضات، كانت بريطانيا العظمى قد جعلت من الجلاء عن
مصر الشرط الأساسى للصالح وسوف يتم توقيع الاتفاقات المبدئية على الصلح في لندن
في أول أكتوبر ١٨٠١، أي قبل ثمانى ساعات من وصول نيا إرسال مينو لمنوب إلى
الجيش الإنجليزي (٢٢٨).

ومن المشكوك فيه، حتى في حالة انتصار فرنسى على القوات الإنجليزية، أن حكومة
لندن كانت ستقبل تحول مصر إلى مستعمرة فرنسية. والتفوق للبحرى البريطانى كاف
لثامين حصار دائم لمصر وكان من شأن الجيش الفرنسى أن يتعرض لضعف مستمر، على
الأقل من جراء معارك ١٨٠١ ورياء الطاعون الرهيب. والحال أن الإصرار الإنجليزي على
عدم قبول مصر فرنسية سوف يتجلى بوضوح في السنوات التالية، فاستئناف الحرب في
عام ١٨٠٣ سوف يكون سببه هو الرفض البريطانى للجلاء عن ملحة بالرغم من التعهد
المتخذ في معاهدة أميان؛ فالخوف الذى تستثيره مشاريع بوناپارت الشرقية كاف، وسوف
يكون كافياً، لأن يلهم قراراً على هذه الدرجة من الخطورة. والحال أن الاحتفاظ بمصر
وعقد الصلح مع بريطانيا العظمى إنما يشكلان هدفين يستبعد أحدهما الآخر (٢٢٩).

الهدنة إلى فرنسا

يقبل الإنجليز أن يعود إلى فرنسا عشرة آلاف وخمسمائة وثمانية جنود وستمائة

وسنة وثمانون مئتيًا استسلموا في الإسكندرية. وخلال حملة ١٨٠١، ترتفع الخسائر الفرنسية إلى ثلاثة آلاف قتيل ماتوا متأثرين بجراحهم في المعارك المختلفة وألف وخمسمائة ملتحق من المرض وثلاثة آلاف وخمسمائة أسير (٢٢٠). ومن ثم فإننا نظل بعيدين من القرايين الجماعية التي قسمتها الإمبراطورية (الفرنسية) في أعوامها الأخيرة.

ثم إن هتشنسون بتعريض من اللصوص هاملتون، يطلب تسليم مجموعات العلماء إليه والتي لا تعتبر أشياء شخصية، وتترتب على ذلك مراسلات نشطة مع مينو الذي يتنازل في نهاية الأمر بعد أن كان قد جرب عدة تحايلات (على سبيل المثال تصوير حجر رشيد على أنه تذكارية لإقامته في مصر) (٢٢١). ويحتج العلماء. بل إن بعضاً منهم سوف يحصل بهم الأمر إلى حد التفكير في الذهاب لاسترداد أوراقهم في إنجلترا نفسها. وعندئذ يتخذ جيفروا سانت - هيلير قراراً قوياً ويرد على هاملتون الذي جاء ليطلب تسليم المجموعات: كلا، كلا، إننا لن ننصاع لهذا، إن جيشكم لن يدخل الموقع إلا في غضون يومين. حسناً! من الآن إلى ذلك الحين ستكون التضحية كلية. وسوف يكون بوسعكم بعدئذ أن تتصرفوا في أشخاصنا كما يحلو لكم. كلا، أقول لك، إنه لن يبال إن مثل هذا التسليم قد أمكن له أن يتم، إننا سوف نحرق بأنفسنا ثرواتنا، إنكم تصفون إلى أن ينكركم التاريخ. حسناً إن التاريخ يمكن أن ينكركم بالفعل، لقد كان بوسعكم أيضاً أن تحرقوا مكتبة في الإسكندرية، (٢٢٢).

وهذه الكلمات تهز هاملتون الذي يقنع هتشنسون بالتراجع فيما يتعلق بالأبحاث وعدم التمسك إلا بالتحف الفنية كحجر رشيد.

ويتم جلاء الجيش عن الإسكندرية في سبتمبر وأكتوبر ١٨٠١. ومينو، الذي أصيب بدوره بالطاعون والذي يسهر لاربي على علاجه، هو آخر الراحين. والحال أن وصول آلاف من الرجال، كثيرين منهم مصابون بالطاعون، إنما يرفع السلطات الصحية على تعبئة لجميع الأماكن للتولقة في موانئ جنوبي فرنسا. ومرة أخرى تقدم كفاءة نظام الحجر الصحي أبلتها ولا يتجاوز البناء منابر الحجر في الموانئ.

وفي باريس، يدرك بوناپارت أن الفصل النهائي للحملة إنما يرجع إلى خلاف الجهنمالات. وهو يريد في إنزال العقاب القاسي بسبب التوزيع للتكاليف للمسؤوليات عن الأزمات. وفي نهاية الأمر يصدر عفواً هاماً، إن جميع القادة للتورطيين في الخلاف مقرين من مورو، منقلس بوناپارت في الجيش، والذي يصل مجده إلى عتات السماء مع انتصار

هو هينريش الحامس. لكن رينيه يريد الثأر لنفسه وينشر مذكراته التي تعتبر مراقبة
لأعماله عنيفة ضد مينو. ويصدر القنصل العام قراراً بحظر الكتب. ويقرر ديستان ورينيه
تسوية المسألة بالصلح ويتقاتلان في مبارزة في ١٥ مايو ١٨٠٢. ويلقى ديستان مصرعه،
الأمر الذي يستثير غضب بوناپارت. ولا يمكن السماح برؤية قلعة للفرق يتقاتلون في
مبارزات. ويتم نفي رينيه بصورة مؤقتة.

أما مينو، فسوف يحتفظ حتى موته، في ١٨١٠، بحظوة بوناپارت، فسوف يعهد
إليه هذا الأخير بوظائف إدارية مختلفة في إيطاليا مع الحذر تماماً من توليته مسئوليات
عسكرية حقيقية. وبوجه عام، فإن زمرة كليبر العسكرية (داماس، رينيه، بليار
ومشايهم...) والتي يجري التوحيد بينها وزمرة موروسوف تستبعد من السلطة
الإمبراطورية. وسوف تدخل في خدمة إخوة وأصهار بوناپارت، وفي خدمة مورا خاصة،
ولن تشارك في حروب الإمبراطورية إلا في جيوش الدول التي تنود في تلك فرنسا (٢٢٢).
وسوف يحصل سافاري وداغر إلى أعلى للراتب، بعد أنهما كان ينتميان إلى حاشية ديزيه. أما
برتران، الذي اتخذ موقف العداء لتسليم الإسكندرية، فسوف يكون الضابط الوحيد للقرب
إلى ناپوليون من بين الضباط الذين خاضوا معارك ١٨٠١.

ويحرم بوناپارت على اختتام الحملة ببيان يذكر بمطامحها للتمدين، ولقد تركوا
[الجنود] لمصر ذكريات لا تموت، لعلها تؤدي يوماً ما إلى بعث الفنون والمؤسسات
الاجتماعية هناك. والتاريخ، على أية حال، لن يورد موارد النسيان، ما فعله الفرنسيون لنقل
حضارة ومعارف أوروبا إلى هناك. وسوف يروى بأية درجة من الانضباط حافظوا عليها
طوال تلك المسعة وأعلمه سيكشف على ضياعها بوصفه نائبة لغيري للث بالجنس
البشري، (٢٢٤).

حواشي الفصل الثامن

Mémoires de Reynier, pp. . 90 - 91 et *Journal de Reynier*, - ١
Vincennes, Mr. 571.

٢ - *Journal de Reynier* : « لم يكن في القاهرة بخير أربعة من لثة الفرق، بمن فيهم مينو، وكان عليهم أن يتحركوا على الزوايا الأربع لعربة الموتى، إلا أن مينو، لدى تحرك الطابور، وقف بمفرده خلف العربة وعهد إلى قائد لواء الحلول محله في الزاوية الرابعة ».

B6 147 : rapport du général Friant sur l'évacuation de l'Égypte. Le- ٢
soulignement vient du manuscrit.

Courrier de l'Égypte, le 18 messidor an VIII. - ٤

Rapport de Friant. - ٥

Mémoires de Reynier, pp. .96 - 97. - ٦

John Keith á Mr. Tooke, le 27 juin 1800, BARROW, I, p. 393. - ٧

Texte non daté dans FO 78 30. - ٨

٩- في رسالة إلى القاهودان باشا بتاريخ ٢٢ ثيرميدور من العام الثامن (١٠ أغسطس ١٨٠٠)، يشير مينو إلى علاقته مع إسحق بك : « لقد تأملت كثيراً لأن الظروف لا تسمح لي باستقبال إسحق بك الذي عرفته في الماضي والذي أكن له تقديراً خاصاً تماماً » (B 6 122).

١٠ - سوف يجرى تعيين سينسر سميت في ألمانيا. وسوف نجهده متورطاً في قضايا مؤامرة كابونال وإعدام الدوق بيتجولين، كما أن القذيف رابت قد سجن في عام ١٨٠٤، متهماً بنقل كابونال وبهشيجهو إلى فرنسا وقد عثر عليه «مفتحراً» في السجن في ٢٦ أكتوبر ١٨٠٥. انظر .

ويحمل قبره في بيار لاشيز شاهدة لاتينية كتبها سيدني سميت تنتهي بما يلي : « إن القذيف، وسط الزنزين والمعاملات الأكثر هولا من الزنزين، قد وجد في الصباح قتيلاً في سريره، في سجن الهيكل، السجن المشهور بالقطعة الليلية » (pp. 175 - 176). وبعد عام ١٨١٥، سوف يلهم العميد البحري في فرنسا وسوف يحرك بالتحديد محفل هيكل ماسونيا... ويحسب علمي، فإن المؤرخين لم يهتموا بالذكريات التي تركتها، في حلقة القنصل الأول، سانس الإنجليز في مصر، والنور الذي لعبه المهاجرون الملكيون فيها وواقع أننا نجد الأسماء نفسها في المقامرات التي عرفت في الفترة الأخيرة للقنصلية.

١١- Rapport de Friant, soulignement dans le manuscrit. Voir aussi les-
témoignages réunis par Georges RIGAULT, *Le général Abdallah Menou et la dernière phase de l'expédition d'Égypte*, Paris, 1911, pp. 100 - 101. Dans

cet ouvrage, l'auteur a voulu réhabiliter Menou et a, en tout cas, remis un certain nombre de choses en place.

Journal de Reynier et rapport de Friant B6 122, Menou à Damas, - ١٢
le 6 thermidor an VIII (25 juillet 1800).

١٣ - (B 6 49), Damas à Menou, ١٠ thermidor an VIII (٢٩ يوليو ١٨٠٠) :
« لقد تركت لحسن تقديرى اختيار الأوراق الخاصة للجنرال كليبر؛ واعتقد إننى سوف أكون مخالفاً
للتقاليد الرسمية والواجبى إن لم أسلمك جميع الأوراق التى من شأنها مساعدتك على الوقوف على
جميع الأحداث التى جرت بحسب ترتيبها الزمنى وبأكبر قدر من التفاصيل خلال المدة التى كان
فيها الجنرال كليبر قائداً عاماً للجيش». وهو يحتفظ بالأوراق الأخرى، خاصة كراسات اليوميات
الشهيرة ذات الشهرة الانتقائية الحادة لبونهارت الذى سوف يبحث عنها فى مناسبات مختلفة فى
ظل القنصلية والإمبراطورية لإعلامها. وقد نشرتها فى كتاب «كليبر وبونهارت»....».

Ordre du jour du 12 messidor an VIII (1^{er} juillet 1800). - ١٤

Ordre du jour du 20 messidor an VIII (9 juillet 1800). - ١٥

١٦ - الأمر اليومى الصادر فى ١٢ فركتيدور من العام الثامن (٣٠ أغسطس ١٨٠٠). لقد
جرى تنفيذ مجالات اختصاصات موظفى الشؤون المالية الرئيسيين فى منشور تعميمى أصدره
استيف فى ٢٠ فركتيدور من العام الثامن (١٧ سبتمبر ١٨٠٠).

١٧ - B 6 47, ١٤ ميسيدور من العام الثامن (٣ يوليو ١٨٠٠)، مذكرات واردة من حسين
القنصى والمعلم لطف الله والمعلم يعقوب حول أسلوب حياة الأراغضى.

Ordre du jour du 21 messidor an VIII (10 juillet 1800). - ١٨

B6 47, Estéve à Menou le 24 messidor an VIII (13 juillet 1800). - ١٩

PEYRUSSE, *Les finances de l'Égypte...*, p. 458. - ٢٠

Sur Lascaris et ses projets, voir AURLANT, *La vie du chevalier*- ٢١
Théodore de Lascaris, Paris, 1940, et mon article dans *les Cahiers de*
L'Orient no 7, "Le chevalier de Lascaris et les origines du Grand Jeu".

C'est ainsi que Reynier dans ses *Mémoires* cite in extenso l'un des- ٢٢
projets de Lascaris.

B6 47, Lepère à Menou, le 17 messidor an VIII (6 juillet 1800). - ٢٣

B6 47, *Observations sur l'administration des finances de l'Égypte*.- ٢٤
Comme l'auteur, ce travail s'appuie surtout sur sa connaissance de la
situation en Bahireh.

B6 50, Pagliano à Menou, le 2 fructidor an VIII (20 août 1800). - ٢٥

- Ordre du jour du 15 fructidor an VIII (2 septembre 1800). - ٢٦
- RIGAULT, pp. 121 122. - ٢٧
- Ordre du jour du 21 fructidor an VIII (8 septembre 1800). On- ٢٨
trouve en B6 53 plusieurs de ces notes confidentielles concernant
généralement la fiscalité rurale.
- ٢٩ - ٨٢٨ قرية من الفئة الأولى مع ضريبة بالنسبة للمهاجرين حجمها ٢٥٠ تالر؛ ٦٨٠ قرية
من الفئة الثانية مع ضريبة حجمها ١٧٥ تالر؛ ٧٢٥ قرية من الفئة الثالثة مع ضريبة حجمها ٧٥
تالر. وحيثما يوجد عدة مهاجرين، فإن السفاد سوف يكون جماعياً.
- Ordre du jour du 5 fructidor an VIII (23 août 1800). - ٣٠
- Ordre du jour du 20 fructidor an VIII (7 septembre 1800). - ٣١
- Ordre du jour du 3 fructidor an VIII (21 août 1800). - ٣٢
- Ordre du jour du 4 fructidor an VIII (22 août 1800). - ٣٣
- Menou à Le Père, le 6 fructidor an VIII (24 août 1800), - ٣٤
ROUSSEAU, p. 342.
- Ordre du jour du 14 fructidor an VIII (1^{er} septembre 1800). - ٣٥
- Ordre du jour du 16 fructidor an VIII (3 septembre 1800). - ٣٦
- Ordre du jour du 18 fructidor an VIII (5 septembre 1800). - ٣٧
- Ordre du jour du 20 fructidor an VIII (7 septembre 1800). - ٣٨
- Ordre du jour du 24 fructidor an VIII (11 septembre 1800). - ٣٩
- Ordre du jour du 7 vendémiaire an IX (29 septembre 1800). - ٤٠
- Ordre du jour du 16 vendémiaire an IX (8 octobre 1800). - ٤١
- Ordre du jour du 20 vendémiaire an IX (12 octobre 1800). - ٤٢
- Ordre du jour du 20 fructidor an VIII (7 septembre 1800). - ٤٣
- ٤٤ - الأمر اليومي الصادر في ٢٨ فروكتيدور من العام الثامن (١٥ سبتمبر ١٨٠٠).
ويوضح الأمر اليومي الصادر في ١٩ فيفيمبير من العام التاسع (١١ أكتوبر ١٨٠٠) أن هذا
يشمل الفرنسيين، بمن في ذلك العسكريين.
- RIGAULT, pp. 134 - 135. - ٤٥
- ٤٦ - Ordre du jour du 12 messidor an VIII (1^{re} juillet 1800). لا بد للجيش
من أن يشعر بأن الرواتب تشكل الجزء الأكثر نسبية في الدين؛ لكن القائد العلم يلتزم بأنه،
بمجرد دفع المرتبات بالكامل للجيش، سوف يصدر أوامر بالوفاء بجميع التعويضات ومتأخرات

الرواتب أو المستحقات للطلبة الأخرى التي تتكدس حرميتها. 20 messidor an VIII (9 juillet 1800), du 25 messidor an VIII, du 4 thermidor an VIII (23 juillet 1800).

Ordres du jour du 7 messidor an VIII (26 juin 1800), du 9 - ٤٧ messidor (28 juin 1800).

Ordre du jour du 20 messidor an VIII (9 juillet 1800). - ٤٨

Ordre du jour du 2 thermidor an VIII (21 juillet 1800). - ٤٩

Ordres du jour du 11 messidor VIII (30 juin 1800), des 27 et 28 - ٥٠ thermidor an VIII (15 et 16 août 1800), du 9 fructidor an VIII (27 août 1800).

٥١ - Ordre du jour du 18 fructidor an VIII (5 septembre 1800). - يضيف

النص : « لقد وصلتنا شكايات حول بعض التجاوزات المرتكبة في الحمامات العامة. إن عدداً من الرجال يريدون اقتياد نسائهم إلى هناك والاستحمام معهن. وفي جميع البلاد المتحضرة، تلتزم هذه الجريمة وتعالق القوانين عليها ، إنها مدمرة للأدب العامة؛ وبدون أدب عامة، لا يمكن أن يوجد مجتمع. وبذلك، على ذلك، فإنني أصدر الأمر إلى جميع الجنرالات والقادة العسكريين أن كانت رتبهم بأن يمنعوا ويعلقوا بكبر قدر من القسوة، مرتكبي جميع الجرائم المذكورة أعلاه. »

RIGAULT, pp. 170 - 172. - ٥٢

٥٣ - الجبرتي، جمادى الأولى ١٢١٥. كما في جميع فترات القنوط الشديد والسلم، يكتفى كاتب الأخبار بإشارات قصيرة.

Histoire Scientifique, VIII, p. 82. - ٥٤

Courrier de l'Égypte, le 9 thermidor an VIII. - ٥٥

Histoire Scientifique, VIII, pp. 58 - 59. - ٥٦

Courrier de l'Égypte, 18 thermidor an VIII (6 août 1800). - ٥٧

Ordre du jour du 4 fructidor an VIII. - ٥٨

٥٩ - وفقاً للجبرتي، فإن هذا الرجل هو أخ زوجة الجنرال مينو.

٦٠ - B 6 60، بيان بتاريخ ٦ برومير من العلم التاسع (٢٨ أكتوبر ١٨٠٠). على الرغم من أنه قد ترجم ووقع بالعربية، فإن الجبرتي لا يذكره.

٦١ - الجبرتي، ١٥ جمادى الآخرة ١٢١٥. لكنهم قد تناولوا على سبيل المثال شكايات مرفوعة إلى القاضي في الأمور الخريبية كما تشهد على ذلك الرسالة غير المؤرخة والمرسلة من الديوان إلى رئيسه حاكم الشرقية ، أنزلهم، أيها الجنرال، أن الشكوى الصادرة من سكان قرية موصلا والتي يهتمون فيها إبراهيم عاشور، شيخ قرية بلقيس، لم تصل إلينا بعد، وأنه إذا كان حكم

محكمة القاضي الذي رفعت إليه هذه الشكوى خير مرضى للشاكين، فإننا سوف ننظر في مطالبهم بعين العدل وعدم التحيز، وكان ذلك في صالحهم أم ضدهم، بحسب ما يتطلبه العدل. إن منمنا هو أن تتبع في كل شيء القواعد التي تؤسس العدل تأسيساً محكماً، والثاني، إذ نتصرف على هذا النحو، من عدم الخروج على رغباتكم وتأييدهم (B 6 50، مدرجة في أكتوبر ١٨٠٠، لكن النص العربي لا يحمل تاريخاً غير عام ١٢١٥) [أعينا ترجمة النص عن الفرنسية لتعذر الوصول إلى الأصل. - المترجم].

٦٢- Supplément au *Moniteur*, no 184, an IX, B6 56. Jabarti se contente de mentionner l'existence de la lettre sans en donner le contenu.

٦٣ - الجهرتي، ٢٩ جمادى الآخرة (١٧ نوفمبر ١٨٠٠). ينكر الجهرتي، بالنسبة لليوم نفسه، أربعة إعدامات أخرى لا يعرف أسبابها. والحال أن الأمر يتعلق بأربعة من قطاع الطرق الرئيسية ويقترب مينو بالقرآن لتبرير حكمه (الأمر اليومي الصادر في ٣٠ برومير من العام التاسع (٢١ نوفمبر ١٨٠٠)).

٦٤ - «يا أهل مصر، تفكروا ما حدث خلال حصار القاهرة الأخير. إن أناساً اشتركوا قد قدموا إليكم نصائح فاسدة وتم جرّكم إلى التمرد؛ وسألت بملوككم. إنني أريد تهنيتكم كوارث مماثلة. والبارحة، أمرت بقطع رأس المدعو يوسف، تاجر الزبد. لقد أراد إثارة الفوضى بين سكان القاهرة، بإملائه بأعلى صوته أنه لا يجب بيع شيء للفرنسيين، لأن العثمانيين سوف يصلون. إن الأشخاص الذين يريدون إثارة حركة هم أعداء لكم؛ إنهم يحسون إلى جرّكم إلى التمرد، لأنهم يعرفون جيداً أن ثلث الفرنسيين سوف يكون مريعاً، وأن آلافاً من بينكم سوف يهلكون. كونوا واثقين من التحذيرات التي أوجهها إليكم؛ إنني خير صديق لكم. تفرغوا لأعمالكم، ازدهوا لأراضيكم وانفذوا جميع النصائح الفاسدة. إن كل من سيتصرفون تصرف التاجر يوسف، سوف يعاقبون بالاعلام (أمر يومي صادر في ٣٠ برومير من العام التاسع (٢١ نوفمبر ١٨٠٠)). لا يورد الجهرتي هذا الأمر اليومي الذي يتضمن مع ذلك بياناً إلى المصريين والذي يتصل بحديثي تحدثت عنهما. النص العربي المطبوع موجود [أعينا ترجمة النص عن الفرنسية لتعذر الوصول إلى النص العربي. - المترجم].

٦٥ - الجهرتي، ٩ رجب ١٢١٥ (٢٦ نوفمبر ١٨٠٠) و ٢٧ رجب ١٢١٥ (٩ ديسمبر ١٨٠٠). قام مينو في بيانه الصادر في ١٦ برومير من العام التاسع (٧ نوفمبر ١٨٠٠) بتذكير السلطات العامة بضرورة الاهتمام بالأشخاص الملحقين بالأعلى ما هو منصوص عليه في النصوص القانونية.

٦٦ - يقدم الجهرتي، ٢٧ رجب ١٢١٥ (١٤ ديسمبر ١٨٠٠)، تلخيصاً للشكوى التي يوجد نصها في الملف B 6 58 (١٤ ربيع من العام التاسع). ومما له أهمية ملاحظة أن التوجيه يترجمون الملحق بالسيّد، إن التوحيد يتم بسرعة بين نظام الامتياز الضريبي ونظام الإقطاع، الأمر الذي يعتبر ضاراً بالنسبة للملحقين في فترة ثورة فرنسية.

٦٧ - B6 59 : le diwan du Caire à Menou, le 27 frimaire an IX (18 - décembre 1800).

٦٨ - B 6 123 ، مينو إلى فورييه، ٢٥ فريرير من العلم التاسع (١٦ ديسمبر ١٨٠٠) ،
 «يجب أخيراً أن يبدأ الشعب في التمتع في مصر بحقوقه الحقيقية، لكنني في الوقت نفسه لا
 تراوحي ولم تراوحي وأن تراوحي الدنيا ولا الرغبة في تجريد أي فرد مما يخصه شرعاً». الجبرتي،
 الأول من شعبان ١٢١٥ (١٨ ديسمبر ١٨٠٠).

B6 59 : Proclamation de Menou du 1 re nivôse an IX (22- ١٩
 décembre 1800).

B6 59 : Estève à Menou, le 30 frimaire an IX (21 décembre 1800).- ٧٠

B6 59 : Tousard à Menou, le 10 nivôse an IX (30 décembre 1800).- ٧١

B6 62 : Estève à Menou, le 26 nivôse an IX (16 janvier 1800). - ٧٢

Le manuscrit daté du 30 nivôse an IX (20 janvier 1800)- ٧٢
 commence par "Menou, général en chef, ordonne". Il se trouve en B6 62.
 Certains articles sont rédigés deux fois. Rousseau l'a publié sans en donner
 les variantes (pp. 382 - 393).

٧٤ - بدأت سنة ١٢١٥ في ٢٥ مايو ١٨٠٠.

Pour une vision de ces problèmes voir, le livre d'Afaf LUTFI al- ٧٥
 Sayyid MARSOT, *Egypt in the reign of Muhammad Ali*, Cambridge
 University Press, 1984 et ma critique de cet ouvrage dans *Bulletin Critique
 des Annales Islamologiques*, III, Le Caire, I. F. A. O., 1986, pp. 127 - 130.

Ordre du jour du 5 frimaire an IX (25 novembre 1800). - ٧٦

٧٧ - الأمر اليومي الصادر في ١٧ فينيمير من العلم التاسع (٩ أكتوبر ١٨٠٠). ويحالف
 د اليومي نفسه على الإلزام في تناول الحصول عند الفرنسيين. وكان قد ظهر من
 A. CHUQUET, " Menou et le Hachich ", *Feuilles d'Histoire*, 1909, I,
 pp.81 - 82.

B6 83. Non daté, mais une lettre de Fourier à Menou du 6 nivôse- ٧٨
 an IX (27 décembre 1800) évoque l'envoi de ce texte à Menou (B6 59) ainsi
 que la demande de répression des manifestations des Santons. La réponse à
 Fourier est du 9 nivôse et se trouve dans B6 123.

٧٩ - الأمر اليومي الصادر في ٩ نيلوز من العلم التاسع (٢٠ ديسمبر ١٨٠٠). يزعم
 الجبرتي أن للبلنوة جاءت من مينو (شعبان ١٢١٥)، لكن رسالة فورييه تظهر إلى العكس.

Jabarti, texte arabe 25 sha'ban 1215 (11 janvier 1801); B6 (minute- ٨٠
 du texte français) et B6 83 (copie); pas de variantes significatives entre les
 textes français et arabe.

٨١ - B 6 61. ٢١ نيفوز من العام التاسع (١١ يناير ١٨٠١)؛ رسالة الإرفاق من لودفيغ الذي يشير إلى ملاحظات للخارج ، «لقد لاحظوا فقط أن العدد الكبير لحالات الطلاق يزيد من مصائب هذا التسجيل وأن الحالات لم تسجل حتى الآن بقدر كبير من الحرص لأن مقدمي البيانات تجرى مطالبتهم برسم طفيف أصبح بامناً لتقليل عدد حالات تقديم البيانات».

٨٢ - *Courrier de l'Égypte*, le 6 pluviôse an IX (26 janvier 1801).

٨٢ - الجبرتي، ١١ شعبان ١٢١٢ (٢٨ ديسمبر ١٨٠٠). *Courrier de l'Égypte* في ٦ يوليوز من العام التاسع إلى لوبرا صغيرة فيها في مصر بلذك ووضع موسيقاها ريجيل، اسمها «الطحلذان»، إلى جانب عروض مسرحية مزلية وتوضع ، «إن عددًا من كهنة شخصيات القاهرة بين الأتراك وكثيرين من المسيحيين والسيدات الأوروبيات قد حضروا هذه العروض المختلفة».

٨٤ - *Courrier de l'Égypte*, le 24 pluviôse an IX (13 février 1801).

٨٥ - *Courrier de l'Égypte*, le 24 pluviôse an IX (13 février 1801).

٨٦ - *Moralistes et Politiques....*, II, pp. 343 - 379.

٨٧ - Anouar LOUCA, *Voyageurs et écrivains égyptiens en France au XIX^e siècle*, Paris, 1970.

٨٨ - B 6 123، مينو إلى رامبون، ٥ نيفوز من العام التاسع (٢٦ ديسمبر ١٨٠٠). رسائل رامبون موجودة في الملف B 6 59، وهي تتعلق خاصة بالتاجر الكبير بازيل فخر.

٨٩ - في رسالته إلى وزير الشؤون الخارجية، بتاريخ ٢ فينيمير من العام التاسع (٢٤ سبتمبر ١٨٠٠)، يبحث عن أعمار لكثير في الوضع العسكري وقت حصار القاهرة. (ROUSSEAU, pp. 357 - 359)، وهو ما يعنى اعتبار الوضع الحالي مؤسفاً.

٩٠ - B 6 47، مراد بك إلى مينو، ١٥ صفر ١٢١٥ (٨ يوليو ١٨٠٠) ، تقول لنا في رسالتك أن الجمهورية الفرنسية قد وضعت الحكم بين يديكم. وهذا مما يزيد من فرحتنا لأننا قد سمعنا عنكم من قبل بالفعل أشياء طيبة والثناء عليكم على الصحة الجمية، [أمننا ترجمة النص من الفرنسية لتعبر الوصول إلى الأصل. - المترجم].

٩١ - B 6 47، معاهدة موقعة من جانب استيف ولباس مع ممثل مراد بك (ميسينور من العام الثامن).

٩٢ - B6 118, Damas á Mourad Bey le 1^{er} thermidor an VIII (20 juillet- 1800) et B6 122, Menou á Donzelot le 2 thermidor an VIII.

٩٣ - B6 49, Mourad Bey á Menou, le 9 rabi' al awwal 1215 (31 juillet- 1800).

٩٤ - B6 61, Mourad á Donzelot, 26 safar 1214 (19 juillet 1800, daté par- erreur dans les archives au 2 août 1800).

- B6 123, Menou à Donzelot le 13 vendémiaire an IX (5 octobre - ٩٥ 1800).
- B6 55, Donzelot à Menou, le 8 Brumaire an IX (30 octobre- - ٩٦ 1800).
- B6 59, Donzelot à Menou, le 25 frimaire an IX (16 décembre- ٩٧ 1800).
- B6 63, Delegorgue à Menou le 12 et 13 pluviôse an IX (1 et 2 - ٩٨ février 1801), Friant à Menou, le 13 pluviôse; *Histoire Scientifique*, VIII, pp. 110 - 111.
- Mémoires de Reynier*, pp. 153 - 155. - ٩٩
- Journal de Reynier*. - ١٠٠
- B6 46, Lanusse à Menou, le 2 messidor an VIII (21 juin 1800). - ١٠١
- RIGAULT, pp. 102 - 104. - ١٠٢
- ١٠٢ - B6 123, RIGAULT, pp. 187 - 190. مبدؤ إلى لانس، ١٢ فيفيمبير من العام الثامن (٥ أكتوبر ١٨٠٠)، إله يستخدم مصطلح «متازعات الزوجين» لوصف ذله مع لانس.
- Histoire Scientifique*, VIII, pp. 59 - 61. - ١٠٤
- Rapport de Friant. - ١٠٥
- B6 118, Damas à Menou, le 8 fructidor an VIII (26 août 1800). - ١٠٦
- Histoire Scientifique*, VIII, pp. 63 - 66. - ١٠٧
- B6 47, le ministre de la guerre au général Kléber, le 13 messidor- ١٠٨ an VIII (2 juillet 1800). L'arrivée au Caire d' Auguste Damas, le 1^{er} jour complémentaire de l'an VIII (18 septembre 1800), est annoncée dans le *Courrier de l'Égypte* du 3 e jour complémentaire de l'an VIII et la mort de Desaix est indiquée dans le numéro suivant.
- ١٠٩ - كان قد أصدر الأمر بالفعل إلى بروى بالتواجد في البحر المتوسط مع أسطول بريست، لكن ذلك كان بهدف فك حصار مالطة، وإذا أمكن، إرسال تعزيزات إلى مصر، *Correspondance de Napoléon*, VI, pp. 181 - 182 : à Bruix, le 3 ventôse an VIII (22 février 1800). وفي أواخر مارس، يظل الأسطول الفرنسي - الأسباني في بريست بسبب الحصار الإنجليزي الذي لا يجتريء البحارة على محاولة كسره ويفكر بونابارت في استخدام القوات البحرية في القيام بعمل في الأندلس. (Ibid, pp. 262 - 263). وعند وصولها

أنتان المريش، أمر بإبلاغ الصحف بأن قوات التمزيز قد ارتفعت إلى ستة آلاف رجل (p. 358).
ولد كتب كارنو رسالته بإيعاز من بونابرت، الذي كان آنذاك في ميلادو (1re messidor an VIII)
(20 juin 1800, pp. 476 - 477).

Courrier de l'Égypte, le 6 vendémiaire an IX (28 septembre- ١١٠
1800).

Histoire Scientifique, VIII, pp. 67 - 68. - ١١١

Courrier de l'Égypte, le 30 vendémiaire an IX (22 octobre 1800). - ١١٢

Courrier de l'Égypte, le 6 brumaire an IX (28 octobre 1800). - ١١٢

Histoire Scientifique, VIII, pp. 74 - 75. - ١١٤

RIGAULT, pp. 194 - 198. A. DE TARL'E, "Menou et Daure en - ١١٥
Égypte", *Feuilles d'Histoire*, 1910, I, p. 517 - 525.

Histoire Scientifique, VIII, pp. 90 - 93; Menou à Bonaparte, le 2- ١١٦
vendémiaire an IX (24 septembre 1800) (ROUSSEAU, pp. 345 - 347) ; B6
62, lettre de protestation de Hamelin (rentré en France), le 26 nivôse an IX
(16 janvier 1801) ; B6 124, Menou à l'Institut le 16 pluviôse an IX (5 février
1801) : « إن التاريخ إذا ما تحدث للأجيال القادمة عن معاركه وانتصارات الجنود الفرنسيين في
مصر، فلابد له من أن يحدثها أيضاً عن أن فرنسيين آخرين جنديين بالاحترام لما لديهم من علم
ومعرفة قد أوجدوا في الوقت نفسه الحضارة وأعلنوا العلوم إلى ذلك كما لو كانوا يمدونها إلى
مهدبا القدم. إن تاريخ حملة الفرنسيين الصليبية الحديثة في مصر لن يكون من ثم كتاريخ حملة
القرن الثالث عشر الصليبية، وهو تاريخ جنون ديني؛ إنه سوف يصبح تاريخ بحث لشعب ربما
كلت جميع الشعوب الأخرى مدينة له بعناصر جميع العلوم، وجميع المؤسسات. »

١١٧ - B 6 55، ملاحظات تليت على الجنرال مينو من جانب قلعة الشرق في لفتهم به
في ٦ برومير من العام التاسع (٢٨ أكتوبر ١٨٠٠). إن لريان للوجود في الإسكندرية يوافق على
تحرك قلعة الشرق وهو يتخذ موقفاً معادياً لتجهيزات مينو، لريان إلى باريس، الإسكندرية في ٢٦
برومير من العام التاسع (١٩ نوفمبر ١٨٠٠) B 6 57. أما في تقريره الخاص بالهلاء عن مصر،
فإنه، خلافاً لذلك، يوجه اللوم إلى التحرك الجماعي وريتهم روتينية بأنه كان يريد إقصاء مينو.

١١٨ - B 6 55، مذكرة تفسيرية للأسباب التي بلغت قلعة الشرق [...] إلى عقد اجتماع
مع الجنرال مينو في ١٦ برومير من العام التاسع حول مصالح جيش الشرق وسرد ما حدث في
هذا الصدد.

B6 56, le 11 brumaire an IX (2 novembre 1800). - ١١٩

B6 118, Damas à Moreau le 12 brumaire an IX (3 novembre- ١٢٠
1800).

١٢١ - Ordre du jour du 15 brumaire an IX (6 novembre 1800).

١٢٢ - *Campagnes d'Égypte...*, XXX, pp. 153 - 156. يزعم تهاويون أنه لم تكن لديه أية فكرة من هذا الانتظار الطم إلى أية مؤامرات عسكرية والذي جرى تمييزه منذ ذلك الحين في مينو. وهو يسكت من خلافات الجيش ويرى أن الحزب للزيد للجلاء قد أمكن لمينو تشتيت عمله في غضون أسابيع قليلة.

١٢٣ - Par exemple, en B6 118, Damas au Premier Consul, le 6 frimaire an IX (27 novembre 1800). لا يندج مينو إلا في التخلص من تليان الذي يتهمة بأنه مسؤول من كل شيء. إن هذا الرجل، الخليلج جداً في نظرية التمردات إن لم نقل ما هو أكثر من ذلك، قد أراد إثارة تمرد هنا. إن هناك من الرجال الذين كان عليهم بحكم مواقعهم أن يكونوا القوة للجيش، قد أمضوا الصمم إلى تلميحاته، لكن الجنود وخصائهم قد ظهروا في كل مكان بالظهور الذي يجب عليهم الظهور به، متمسكين بلا حدود بالانضال الأول وبالشرف وبالسلطة الشرعية، B6 83, au Premier Consul, le 7 frimaire an IX (28 novembre 1800).

١٢٤ - B 6 55، الأول من برومير من العام التاسع (٢٢ أكتوبر ١٨٠٠)، لكن الرسالة لا ترسل إلا في ١٥ ديسمبر ١٨٠٠. ويقدم ريخيه نصها في مذكراته، مستعيفاً بشكل جزئي عن الأسماء بأحرف لاري (pp. 183 - 190).

١٢٥ - B6 62, le 29 nivôse an IX (29 janvier 1801), repris dans les *Mémoires de Reynier*, pp. 172 - 176.

١٢٦ - لا توجد أية مباشرة في الأرشيفات على عمل من جانب العميد البحري، لكن رسائل سيني سميث كثيرة في الأشهر الأولى من عام ١٨٠١. ومنذ ما قبل مصرع كليبر، كان قد حلل انقسام الجيش إلى استعماريين ومصلحين للاستعمار. وقد أدرك بسرعة أنه لن يمكن الحصول مباشرة من مينو على شيء، و، منذ بداية يوليو، اقترح استراتيجية للثمة على التعارض بين مينو وكبار ضباطه « بحيث إنني أعرف مواقف الضباط الرئيسيين، الذين سوف يكون من السهل فصلهم عن رجل لا يمكنهم احترامه، وذلك في لعبتنا الوحيدة 3 (à Lord Elgin, le 3 juillet 1800, BARROW, II, p. 64).

١٢٧ - من الواضح أن فريان هو الذي تلقى النص، انظر رسالة الشكر للوجهة من مينو بتاريخ ١٠ يوليو من العام التاسع (٣٠ يناير ١٨٠١) في الملف B 6 124. ومن جهة أخرى، فإن الجيوش وشهد إلى توزيع نصوص بالفرنسية من أربع وثلاث من جانب عملاء عثمانيين في مصر وذلك، في ٩ رمضان ١٢١٥ (٢٤ يناير ١٨٠١) « إن التزامن هو أكثر من مزيج... »

١٢٨ - وهو ما يتطابق من حيث التاريخ والمكان مع رسالة سيني سميث التي أشرنا إليها بالفعل.

١٢٩ - Texte intégral du document dans RIGAULT, pp. 272 - 274.

١٣٠ - B6 63, Menou à Berthier, le 18 pluviôse an IX (7 février 1801).

١٣١ - B6 63, le 25 pluviôse an IX (14 février 1801).

- B6 63, le 26 pluviôse an IX (15 février 1801). - ١٢٢
- RIGAULT, p. 281. - ١٢٣
- Mémoires de REYNIER*, pp. 178 - 179. - ١٢٤
- B6 63, Friant à Menou, le 30 pluviôse an IX (19 février 1801). - ١٢٥
- ١٢٦ - بعيداً من تأثير شخصية بول الأول الغربية الأطوار، فإن السياسة الخارجية للتيبة في عهد هي من وضع حلقة من كبار الدهريين الروس للعائين لنور الأجنبي في تعهد السياسة الإمبراطورية، انظر. Boris MOURAVIEFF, *L'alliance russo - turque au milieu des guerres napoléoniennes*, Paris, 1954, pp. 67 - 74.
- ١٢٧ - يبلغ العثمانيون الإنجليز بتفاصيل المحادثات التي أجراها تاليران مع السفير العثماني الموجود في باريس M. Talleyrand, ministre des Affaires étrangères de France, et Seyd Ali Effendi, ci - devant ministre de la Sublime Porte de l'autre, tenue en conséquence de l'invitation du premier le 19 de la lune de Gemaziel Evel (8 octobre 1800).
- ١٢٨ - سوف يصبح هذان الرجلان في المستقبل معارضين للإمبراطورية، انظر للمحتين اللتين للمهما. م. تولار في *Dictionnaire Napoléon*. إن جان - باپتيست ساي، عالم الاقتصاد الكبير، هو أخ هوراس ساي، رئيس هيئة لركان سلاح المهندسين، الذي مات في عكا.
- ١٢٩ - الأمر اليومي الصادر في ١٢ فينتوز من العلم التاسع (٣ مارس ١٨٠١). يظهر مصطلح الحضارة في خطب الخطيبين.
- ١٣٠ - Sur cette affaire, AURIANT, "Le contre - amiral Ganteaume et l'Égypte", *Revue Bleue*, pp. 647 - 652 et Charles - Roux, *Bonaparte et la Tripolitaine*, Paris, 1929.
- INGRAM, *Commitment...*, p. 383. - ١٤١
- Instructions de Lord Keith, in *Keith Papers*, p. 241. - ١٤٢
- Robert Thomas WILSON, *History of the British Expedition to Egypt*, Londres, 1803, p. 3. - ١٤٣
- Lord Elgin à Lord Grenville, le 21 novembre 1800, FO 78 30. - ١٤٤
- Lord Elgin à lord Grenville, le 9 février 1801, FO 78 31. - ١٤٥
- Abercromby à Lord Elgin, le 21 janvier 1801, FO 78 31. - ١٤٦
- Détail des bâtiments dans les *Keith Papers*, pp. 267 - 269. - ١٤٧

B6 125, Menou à Reynier, le 14 ventôse an IX (5 mars 1801). - ١٤٨

B6 125, Menou au diwan, le 14 ventôse an IX (5 mars 1801), - ١٤٩
JABARTI 20 shawwal 1215.

JABARTI, shawwal et dhu al qa'da 1215. - ١٥٠

B6 126 et B6 64, Menou à Reynier, le 16 ventôse an IX (7 mars - ١٥١
1801). « إنتنى اميل نائماً إلى الاعتقاد بأنه إنا ما حدث تحرك حقيقى ما، فإنه سوف يجرى من
جهة سوريا. ولا يود الإنجليز شيئاً الفصل من أن تتم إهانة الصدر الأعظم، لأنهم يريدون الدخول
في عملية لقتسام والأرجح أن تلك كانت غايتهم عندما استقروا في روسيا.

« وقد وصل إلى علمى أيضاً أنه لا يوجد اتفاق بين جنرالاتهم البحريين والبحريين. إن اللورد
أبهركرامبي الذى يقود القوات البرية هو رجل قليل الجسارة لا يريد الإساعة إلى سمعته ويعتبر
السيد سينيلى سميت مفامراً.

B6 64, Reynier à Menou, le 13 ventôse an IX (4 mars 1801). - ١٥٢

١٥٢ - 205 - 202 pp. *Mémoires de REYNIER*, خاصة 204 - 205 pp. « لاشك
أنه لما كان مصر على البقاء في القاهرة وعلى شق صفوف الجيش، فإن الوسيلة الوحيدة لإزالة
مصر كانت تتمثل في اختيار قائد آخر؛ وربما كان يوسع الظروف وبعد الحكومة أن تسمح بقرار
كهناء، لكن ذلك كان سيشكل مثلاً خطيراً بالنسبة للانضباط، ما كان يمكن إلاً لتجارات كبيرة أن
تبرره. ولم يكن هناك ما يسمح بنيل هذه النجاحات، ولم يكن بالإمكان التنهز بأن الإنجليز سوف
يمكرون سبعة أيام بلا نزول، ومن جهة أخرى، فإنه كان سيكون بالإمكان القول، بعد النصر، إن
الجنرال مينو هو الذى لحرزه أيضاً.

١٥٤ - قدرت خسائر الفرنسيين بأربعمائة الفيل وجريح، (*Victoires et Conquêtes*,
XIV, p. 41)، أما خسائر الإنجليز فقد قدرت بأكثر من خمسمائة - 15 pp. (WILSON,
16).

B6 126, le 20 ventôse an IX (11 mars 1801). La formule se - ١٥٥
retrouve dans plusieurs lettres de Menou.

B6 132, Belliard à Mourad Bey, le 24 ventôse an IX (15 mars - ١٥٦
1801).

B6 64 : Fourier à Menou, le 28 ventôse an IX (19 mars 1801) et - ١٥٧
lettre du diwan. JABARTI, 3 dhu al qa' da 1215 : "le commissaire donne
ordre aux membres du diwan d'envoyer une lettre au général en chef pour le
saluer, ce qui fut fait" (CUOQ, p. 297).

١٥٨ - تقرير فريمان الذى يلقى كل المسؤولية عن أحداث اليوم على كامل لانوس، غير
للوجود بعد للدفاع عن نفسه.

١٥٩ - في رغبته الرامية إلى الدفاع عن سمعة مينو، يصل الأمر بريجيو إلى حد التلميح إلى أن الجنرالين قد تصرفا بالامبالاة وتنصل معيذين وأن ما حدث في ١٢ مارس هو بالأحرى مظهر معركة (pp. 298 - 299). وهذا ليس رأي ويلسون الذي يقدر الفسائر الانجليزية بـ ١١٠٠ جريح والتبيل في مقابل ٥٠٠ عند الفرنسيين (p. 23) ، وهذا ليس شيئاً تافهاً بالقيل إلى الأمد المخدرة في المعركة...

Lanusse à Lannes, le 23 ventôse an IX (16 mars 1801). - ١٦٠

WILSON, p. 29. - ١٦١

WILSON, p. 29. - ١٦٢

١٦٣ - WILSON, p. 30. « كان كل شيء هادئاً في الثالثة والنصف صباحاً، عندما سمع نوى رصاصات بتلقية على طرف الجهة اليسرى. وبعد ذلك مباشرة أطلق أحد المدافع نيرانه، ولدت تلك طلقات متناثرة من البنادق، ثم بدأت طلقات مدافع آخرين. والعتاة تحول الانتباه إلى تلك الجهة. وكان الجميع على ثقة من أن مجوماً عاماً على وشك الوقوع، إلا أنه سرعان ما اتضح أن النيران كانت جد ضعيفة على الجهة اليسرى بحيث يصعب أن تكون الجهة التي يستهدفها العدو بشكل أساسي. والواقع أن هذا كان هو الشعور العام؛ والحال أن الجنرال مورد، الذي كان الضابط العام في تلك الليلة، والذي تحرك إلى الجهة اليسرى لدى أول إنذار، قد تأثر تأثيراً كبيراً بهذه الفكرة، بحيث إنه تحول إلى الجهة اليمنى. »

RIGAULT, pp. 304 - 405. - ١٦٤

WILSON, p. 37. - ١٦٥

١٦٦ - هذا على سبيل المثال هو ما يمكن فهمه من موقف فيجو - روسيون الذي يلقى اللوم بالتتابع على ميخو وريتييه ، - "Fragment des mémoires militaires du colonel Vigo - Roussillon (1793 - 1837)", *Revue des deux Mondes*, août 1890, pp. 745 - 746.

Rigault, pp. 311 - 312. B6 65, Damas à Belliard, le 6 germinal - ١٦٧
an IX (27 mars 1801).

B6 133, le 5 germinal an IX (26 mars 1801), Belliard à Mourad - ١٦٨
Bey et à Donzelot.

B6 133, Belliard à Menou, le 6 germinal an IX (27 mars 1801). - ١٦٩

B6 133, Belliard à Menou, le 14 germinal an IX (4 avril 1801). - ١٧٠

١٧١ - ٢٥٩٠ رجلا بالضبط ، Amaury FAIVRE D'ARCIER, *Réflexions sur la perte de l'Égypte, 1798 - 1801*, mémoire de maîtrise, Paris, I, 1985 (bibliothèque Albert Soboul), p. 187.

B6 127, Menou à Belliard, le 15 germinal an IX (5 avril 1801). - ١٧٢

B6 127, Menou à Belliard, le 19 germinal an IX (5 avril 1801). - ١٧٢

SHANKLAND, Beware of heroes..., pp. 135 - 136. - ١٧٤

BARROW, II, pp. 42 - 43. - ١٧٥

Gratien LE PÈRE, "Extrait d'un mémoire sur les lacs et les - ١٧٦
déserts de la Basse - Égypte", *Description de l'Égypte*, T.XVI, Paris, 1825,
pp. 202 : « قطع الجيش الأنجلو - تركى سدود قناة الإسكندرية على بعد سبعة آلاف وخمسمائة
متر من بوابة رشيد، الواقعة إلى شرقى الصور القديم لتلك المدينة. إن مياه هذه البحيرة، للالحة
ملوحة مياه البحر، والذي يرتبط بها عن طريق المعدي، قد تعلقت بشكل متعاقب من خلال ثلاث
أو أربع فتحات، حتى نهاية شهر بريريال (١٥ يونيو ١٨٠١) واحتلجت إلى ستة وستين يوماً لكي
تتلا تماماً حوض ماريوتيس القديم. »

١٧٧ - هتفنسون إلى كيث، ٢٠ أبريل ١٨٠١، كيث إلى القليوبان بكشا، ٢١ أبريل ١٨٠١.
كانت الطريقة في عرض الصلح المتتالية التي قدمها العميد البحرى إلى الفرنسيين دون التشاور
مع الأميرال العثماني.

١٧٨ - يقدم رينيه و «التاريخ العلمي» تاريخ ٢ فلوريال من العلم التاسع، أي ٢٢ أبريل
١٨٠١، لكن الجهرتى يشير إلى ٤ ذو الحجة، أي ١٨ أبريل ١٨٠١. ويعرف الخبر في القاهرة في ٦
فلوريال من العلم التاسع (B 6 133، بيليار إلى مينو). أما رسالة عثمان بك الطنبورجى إلى
سيدنى سميث والتي يعلن فيها موت الزعيم النهى مؤرخة في ٢١ أبريل.

B6 67, Belliard à Menou, le 4 floréal an IX (24 avril 1801). 5 mai- ١٧٩
1801), BARROW, II, p. 46.

Uthman Bey al Tanbourgi à Sidney Smith le 21 avril 1801. - ١٨٠

١٨١ - WILSON, pp. 69 - 70 : « على الطريق، انضم إلينا مولاي محمد، أمير فارس،
الذي جاء من طرف مولد بك؛ وكان ملازمه الليلين، لكنهم رجال جد واثقين، مجهزين تجهيزاً
جيداً وكان هو نفسه على صهوة فارس عربية، جد ممتازة. كان السكان يعتبرون الرجل الغريب
قديمًا، وقد اكتسب وده هذا الطابع، ولا يمكن إرجاع شعاعته إلا إلى إحساسه بأنه لا يفتقر، ولما
كان على الدوام صديقاً حازماً للفرنسيين، فقد قاد الانتفاضة في مهنور، عندما كان بونابارت في
سوريا، وقد أسهم بالكثير في تأخير استسلام القاهرة التالي. وتم تخصيص مكافأة لمن يلقى
برأيه، لكنه أحرز من ولاء جماعته انتصاراً عظيماً : إن هيئة السوداوين حاربان بشكل ملحوظ،
ورجعه متوردة، وهو أتى إلى أهد حد : وهو يرتدى عملة وصباغة بيضاوين، لهما حواف مذهبة،
ويقتلى من على كتفيه بحزام مريض مقصب بالذهب كعص موسى باللون الأحمر ومقصب
بالذهب : ونراعه بأرغان بشكل فائق؛ وفروسيه ورشاقته جديرتان بالإعجاب : والواقع أن كل
حركة من حركاته تتميز بالرشاقة؛ وهيئة المتواضعة ولكن النبيلة، وتعبير معين عن اللباقة في
كل فعله، بل كنان فكرة مباشرة من مزاعمه وشخصيته. وقد تنبأ بالذخاج للإنجليز، وظل صديقاً
متحمساً لهم؛ إلا أنه بعد سقوط القاهرة، أقرز الجيش له أعداء، واضطر إلى الهرب من الاضطهاد

التركي. وقبل أيام قليلة، جاء في طلب الجنرال، الذي حصل منه على كل آيات المحابة والاحترام، لكنه الآن قد ذهب إلى القاهرة لسوء الحظ. وقد لقد معياه حيويته، وتبدو روحه كسيرة.

ومن المحتمل أنه قد جاء مع العثمانيين في مصر السفلى، ويرصد بيليار بين ضحايا معركة قرب بلبيس، دامت في ساحة المعركة خمسة من قادة الأعداء من بينهم الناصر ملاً محمد، وهو مفري كان في القاهرة في العام الماضي خلال الحصار. B 6 133، بيليار إلى مينوت، ٢٤ جبرميدال من العام التاسع (١٤ أبريل ١٨٠١).

B6 67, Menou à Belliard, le 30 germinal an VIII (20 avril 1801). – ١٨٢

B6 67, Belliard à Menou, le 4 foréal an VIII (24 avril 1801), – ١٨٢
plusieurs lettres.

B6 67, Plusieurs lettres dont celle de Minot, aide de Friant, le 5 – ١٨٤
floréal an IX (25 avril 1801).

B6 67, Lascaris (du Caire) à Menou, le 6 floréal an IX (26 avril – ١٨٥
1801).

B6 67, Lascaris (du Caire) à Menou, le 7 floréal an IX (27 avril – ١٨٦
1801) مات سليمان بك في تلك الوقت الذي مات فيه مراد بك (الجهوتي، ونهات سنة ١٢١٥).

B6 133, Belliard à Uthman Bey, le 11 floréal an IX (1^{er} mai – ١٨٧
1801).

B6 133, Rapport de Mallem Jacob du 18 floréal (8 mai 1801) – ١٨٨
transmis au général en chef.

B6 133, Belliard à Lagrange, le 18 floréal (8 mai 1801). – ١٨٩

١٩٠ – *Victoires et Conquêtes...*, XIV, p. 67. «إن هذا الحدث يهدم كل شهامة، وقد انتشر الجيش في مصعب للدمر ضد الجنرال الذي يعمل وسائل نره كارثة من هذا النوع. والحال أن مينوت، بالرغم من طمأنينته العلية، يبدو هلعاً من النتيجة للمشروعة لتراخياته السابقة. لقد لقد للمصدر الأخير الذي بقي له لإمداد الإسكندرية وكان على وشك أن يرى هلاكاً من الجوع للجنود ولجميع الفرنسيين المحاصرين معه في هذا الواقع».

Mémoires de REYNIER, p. 251. – ١٩١

B6 134, Belliard à Menou, le 28 floréal an IX (18 mai 1801). – ١٩٢

١٩٢ – إن رواية ويلسون هي رواية دقيقة بقدر ما أنه هو الذي حصل على استسلام راكبي الجمال، «لخيراً أعلن الكولونيل كاثالينييه «لأنه إذا ما سمح له بإلقاء سلاحه في مقر القيادة وليس في الصحراء أمام البدر» وإذا ما سمح للضباط بالاحتفاظ بممتلكاتهم الخاصة وسمح للجنود بالعودة إلى فرنسا مبهرة، نون أن يعتبروا بعد وصولهم إلى هناك أسرى حرب، وإذا ما سمح بإرسال ضابط إلى القاهرة لتأمين مقاصمهم من أجل سلامة المرور بالمعسكر البريطاني، فإنه سوف

يرافق على هذه الشروط. وبما أن كل هذه الشروط كانت تتمشى مع تعليمات الحكومة الصادرة إلى الهندال متخضعون، وكانت كالتسوية للشروط على الهندال مينو، فإن للهجور ويلسون قد قبلها وصديق عليها الهندال متخضعون بنفسه عند وصوله. والحال أن العرب، الذين كان بعضهم قد ساروا في أثر الهجور بمجرد مغادرتهم للإسكندرية، قد صعدوا عندما رأوا العدو يرمخ بهذه السهولة، وسوف تبلى ذكرى هذا الحدث في أذهان الهلظهم لأجيال قادمة (p. 105).

إن القرار استسلام كاتاليبه للصديق عليه من متخضعون موجود في الملف 69 B 6.

ويجد مؤلفو كتاب (XIV, p. 69) Victoires et Conquêtes (XIV, p. 69) مؤلفاً لكاتاليبه الذي نجح بذلك في حفظ أرواح عدة مئات من الجنود وفي إعانتهم إلى فرنسا بدلاً من أن يبقوا في الأسر عند الإنجليز.

WILSON, p. 113, le 25 mai 1801. - ١٩٤

WILSON, p. 119. - ١٩٥

Maurice BESSON, "Un corps anglo - indien en Égypte en 1802", - ١٩٦
Revue d'Histoire des Colonies Françaises, 1933, pp. 71 - 78.

Keith Papers, pp. 324 - 325 : Home Popham à Elgin, le 26 juin - ١٩٧
1801، استناداً إلى الطابع العام للشريف، الذي أظن أنك تعرف أنه مقتضب وأن الوريث الشرعي صحيح، لا يمكنني أن أتوقع الكثير من أي اتصال به، خاصة وأن الفرنسيين قد وعدوا بأن يظلوا مائة مائة [...] .

إن مسئلك هذا الرجل كان معادياً بشكل صريح للقضية العامة وبشكل محدد في كل شأن إنجليزي بحيث إنني أعتقد بالفعل أن بالإمكان استصدار طلب احتياطي من الباب العالي إلى اللورد ويلسون بإزالة هذا المقتضب ووضع الوريث الشرعي على العرش في الوقت الذي نتمتع فيه بكل هذه القوة في البحر الأحمر؛ وبدلاً من أن يكون ذلك عملاً عليهم الشعبية يمثل تدخلًا ضد رئيس الدولة الحميدة، فإنه سوف يحوز قبولاً عاماً لأنه مكره من الجميع بسبب مسئلك الاستبدادي والمتوحش.

Pour une étude d'ensemble des relations entre les Anglais et le chérif voir Mordecai ABIR "Relations between the Government of India and the Sharif of Mecca during the French Invasion of Egypt, 1798 - 1801", *Journal of the Royal Asiatic Society*, 1965, pp. 35 - 42.

١٩٨ - أحداث سنة ١٢١٥.

Histoire Scientifique, VIII, p. 241. - ١٩٩

Histoire Scientifique, VIII, p. 255 - 256. - ٢٠٠

Jabarti, 17 dhu al Hijja 1215 (1^{er} mai 1801); 70, le diwan du - ٢٠١
Caire à Menou le 16 pratrial IX (5 juin 1801). Extrait du discours d'Estève

du 12 juin 1801 dans Jabarti, 30 muharram 1215, avec son commentaire, "Un aveuglement sans borne comme l'Océan" et texte français et arabe complet en B6 70, ainsi que dans les actes du diwan du Caire (B.N. fonds arabe 2455).

Be 70, Menou à Belliard le 19 prairial an IX (8 juin 1801). — ٢٠٣
WILSON, p. 124. — ٢٠٢

J'ai suivi le texte des actes du diwan du Caire. Dans les *Aja'ib*, — ٢٠٤
Jabarti a transcrit de façon incomplète le texte en le rendant incompréhensible d'où de longues discussions chez ses exégètes à propos de ses connaissances géographiques. Ainsi la traduction de Cuoq donne "Il ajoutait qu'ils avaient appris l'arrivée d'une flotte française dans la mer Caspienne (Bahr al Khazar) et que bientôt cette flotte parviendrait à Alexandrie, car elle avait attaqué le territoire anglais et s'en était emparé d'une bonne partie", p. 341. Le passage de mer Caspienne (Bahr al Khazar) à mer Egée (Bahr al Juzur) s'explique par un déplacement de points diacritiques. Le reste de la transformation se comprend par le fait que probablement Jabarti ne disposait pas du texte original lors de sa rédaction et qu'il a restitué de mémoire le texte de la lettre.

B6 134, Belliard à Menou, le 26 prairial an IX (15 juin 1801). — ٢٠٥
Histoire Scientifique, VIII, p. 258 - 262. — ٢٠٦

٢٠٧ - لتحرير الاستسلام، تحرير النصوص اللاحقة إلى احتياطيات تكفى حتى ٥ يوليو ١٨٠١ (Victoires et Conquêtes, XIV, p. 83)، لكن بيليار في رسالته جد للشاشمة إلى مينو والمؤرخة في ٢٦ بريريال (١٥ يونيو) يقول: «إن لدينا أغذية تكفى لـ١٠٠٠٠، لكن ذلك من المحبوب أم من الأرز لم من الدقيق لم من الخبز». وفي تقريره إلى القنصل الأول، ١١ ميسيدور من العام التاسع (٢٠ يونيو ١٨٠١)، يتحدث عن أغذية تكفى لـ ٢٠ بين ٢٥ و ٢١ يوماً (B 6 71).

WILSON, pp. 152 - 153. — ٢٠٨
B6 71, 17 messidor an IX (6 juillet 1801), discours d'Estève au- ٢٠٩
diwan du Caire.

٢١٠ - ٢٤ صفر ١٢١٦.

THIBAudeau, préfet des Bouches du Rhône sous l'Empire, — ٢١١
utilise l'expression de "prisonnier d'État" pour le séjour de la dépouille de Kléber au château d'If (*Mémoires*, Paris, 1913, p. 288) En raison de la

publication tardive du texte, il est difficile de savoir si cette comparaison est en partie inspirée par le Comte de Monte Cristo.

٢١٢ - انظر في الملف 187 B 6، مختلف جداول الأمتلاك. الإجمالي في الملف B6 73، ١٣ ١٧٢ من العسكريين و٨٥ من المدنيين.

٢١٣ - B 6 71، القاهودان باشا حسين إلى بيليار، ١١ يوليو ١٨٠١، «إنه ليس الوحيد الذي خدمكم، لقد خدمكم أناس من الجميع وخلاصة من الأمة الإسلامية؛ لكنهم يستحقون للعفو».

٢١٤ - L'ensemble du dossier a été publié par Georges Douin en 1924 au Caire sous le titre *L'Égypte indépendante, le projet de 1801*, imprimerie de l'I.F.A. O.

٢١٥ - يقال إن المعلم، الذي دعى من جانب القاهودان باشا عشية رحيله، قد شرب قهوة مسمومة، انظر رواية فيجو - روسيون الذي شهد اللقاء مع القاهودان باشا (pp. 748 - 749).

٢١٦ - وجه المعلمانيون بياناً لدى دخولهم مصر. ولا يشير إليه لا الجبرتي ولا نقولا الترك. والدس التركي المطبوع في القامططنيدية موجود في FO 78 31 مع مخطوط ترجمة فرنسية. وهو موجه إلى سكان مصر الذين يجب عليهم وقف التعاون مع الفرنسيين.

٢١٧ - JABARTI, nécrologie de l'année 1223.

٢١٨ - JABARTI, suite de l'année 1216.

٢١٩ - WILSON, pp. 168 - 169 et lettre de Hutchinson à Sidney Smith sans date, mais juillet 1801, BARROW, I, pp. 433 - 434.

٢٢٠ - RIGAULT, p. 354.

٢٢١ - *Victoires et Conquêtes...*, XIV, p. 101 : ordre du jour 20 messidor an IX (9 juillet 1801).

٢٢٢ - B6 71, Menou à Bonaparte, le 21 messidor an IX (10 juillet 1801); ROUSSEAU, pp. 412 - 413 (texte partiel).

٢٢٣ - Menou à Fourier, le 1^{er} prairial an IX (21 mai 1801), ROUSSEAU, p. 405.

٢٢٤ - Voir la lettre de Lord Keith à Menou, *Keith Papers*, pp. 334 - 335.

٢٢٥ - Sur toutes ces affaires, voir les *Keith Papers*, en particulier l'introduction du chapitre sur l'Égypte, pp. 235 - 237.

٢٢٦ - SHANKLAND, pp. 141 - 142.

Ensemble de lettres de juin à août 1801, dans BARROW, I, pp. – ٢٢٧
425 - 438.

Rigault, pp. 381 - 382. – ٢٢٨

Sur cette question, voir mon article, "L'Égypte en 1802 : un – ٢٢٩
rapport inédit de Sébastiani", *Annales Islamologique*, Le Caire, I.F.A.O.,
XXIII (1987), pp. 99 - 116.

B6 73 : État de la distribution de l'armée française en Égypte par – ٢٣٠
les forces combinées de la Grande - Bretagne et de la Turquie.

Cette correspondance se trouve en B6 74. – ٢٣١

Histoire Scientifique..., VIII, p. 421. – ٢٣٢

٢٣٣ – إن حالة الجنرال البارون ديلبيرنوا في حالة نمولوجية ، إن سلاح ضباط الهرسار
الصالح قد فقد الحظوة ، بسبب تعلقه الديني بذكرى قائده المجيد (كليبر) . إن لحنا منهم لم يدع إلى
الخدمة لا في الحرس القنصلي ولا في الحرس الإمبراطوري ، وقد أرسل إليهم من باريس القائد
ودروسام سرايا في حين أن الضباط الذين كانوا يختارون لهذه الوظائف كانوا منذ وقت طويل
مجهزون من بين الضباط العائدين من مصر. والحال أن الفوج نفسه لم يتأخر في تخصيص دفعة
ناپليون الشريفة ، لأنه (الفوج) أعرب بصوت عال عن السخط الذي لحس به . وجرى حل الفوج
ويتمجه ديلبيرنوا إلى نابولي للعمل تحت إمرة جوزيف بوناپارت ثم مورا

Mémoires du général baron Desvernois publiées par Albert Dufourcq, Paris,
1898, p. 273.

Correspondance de Napoléon, le 22 novembre 1801. – ٢٣٤

خاتمة

الثورة الفرنسية والإسلام

«إن فاتحى أيا منّا، شعباً كانوا أم أمراء، إنما يريدون ألا تمثل إمبراطوريتهم غير أنهم لرضى موحد، ترفعوا إليه عين السلطة للتكبر، دون أن تصانف أي نهاين يجرحها أو يحجب نظرها. القانون الواحد، التناهي الواحد، القواعد الواحدة، وإلا ما أمكن الوصول إلى ذلك، اللغة التي تغزو تدريجياً واحدة؛ ذلك هو ما يجرى اعتباره تمام كل نظام اجتماعي. والدين يهمل استثناءً، وربما كان ذلك بسبب كونه عرضة للازدراء، حيث يجرى النظر إليه بوصفه زيفاً بالياً، يجب تركه يموت في سلام. لكن هذا الاستثناء هو الاستثناء الوحيد، ويمكن الاستعاضة عنه بالعمل على فصل الدين عن المصالح الدنيوية، إلى أبعد حد ممكن.

«وفيما يتعلق بكل ما عدا ذلك، فإن شعار اليوم العظيم، هو التجانس. وإنه لأمر مؤسف أنه لا يمكن هدم جميع المدن، حتى يتسنى إعادة بنائها كلها على مستوى واحد، كما أنه مما يؤسف له أنه لا يمكن تسوية جميع الجبال، حتى تصبح الأرض مستوية في كل مكان، وإنني لأعش لعم صدور الأوامر إلى جميع السكان بارتداء لباس موحد، حتى لا يحصل السبب بعد برقشة متناقرة وتبايناً مزعجاً. ويترتب على ذلك أن للخلويين، بعد التوائب التي كابدوها في هزائمهم، لابد لهم من مكابدة نوع جديد من التوائب، إنهم في النهاية ضحايا لوهم البطولة، وهم بعد ذلك ضحايا لوهم التجانس».

بنجامين كونستان

من روح الفتح والاحتساب، ١٨١٤

المحطة

إن حملة مصر هي المحطة للانطلاق لسياسة التوسع الثوري، التي أكتفينا انقلاب ١٨ لبروكتيود. وبما أن النضال يجب أن يستمر ضد بريطانيا العظمى وإن الاضطلاع بإنزال

فى إنجلترا مستحيل بسبب التفوق البحرى البريطانى، فإن حكومة الإدارة لا يمكنها تصور خيار آخر غير فرض حصار قارى أو الاضطرار بعمل ضد الهند. والحال أن تصور نابيران لتوسع فى البحر المتوسط من جانب فرنسا وحلم بوناپارت الشرقى قد قانا إلى الخيار الثانى. وقد رأى الإنجليز أن التهديد الفرنسى هو فى واقع الأمر بالغ الخطورة بالنسبة لممتلكاتهم فى الهند ولتجارتهم مع تلك المنطقة من العالم. وأيا كان الأمر، فإن الحل المتمثل فى الحصار القارى كان يمكن له، هو أيضاً، أن يجر بالضرورة إلى تشكيل ائتلاف ثان ضد فرنسا.

ومن المؤكد أن هيلب واحد من أفضل الجيوش الفرنسية كان محسوساً بصورة قاسية خلال المحطات الحرجة لهزائم صيف ١٧٩٩. على أن حكومة الإدارة قد نجحت، حتى قبل هودة بوناپارت، فى صد خطر لغزو، وفى عام ١٨٠٠، أنجز القنصل الأول هذا العمل بإرغام نول القارة (الأوروبية) على الانسحاب من الائتلاف. ولم تكن هناك حاجة لاستدعاء جيش الشرق خلافاً لتصور كليبر.

وبما أن الجيش قد علش أساساً على موارد للبلد [مصر]، فقد كانت التكلفة المالية للحملة جد متواضعة. لما الخسائر البشرية فهى بعيدة عن أن تكون جسيمة: فى ثلاثة أعوام، ثلاثة عشر ألفاً وخمسمائة ضابط وجندى وإدارى وموظف يجب طرح نحو ألفين منهم عائداً إلى الوطن. ومن المؤكد أن السبب الرئيسى للوفيات هو الأوبئة، وخاصة الطاعون^(١). إننا بعيدون عن المذابح الجماعية التى شهدتها الفاندييه والحروب النابوليونية. وحملة سانتو دومينجو وحدها، فى عام ١٨٠٢، سوف تجر، فى وقت أقل بكثير، إلى موت واحد وعشرين ألف جندى بسبب الوباء وسبعة آلاف جندى فى المعارك^(٢). أما آثار معركة أبو قير البحرية فهى أكثر جساماً، ليس بسبب تدمير عدد معين من السفن الحربية الفرنسية بلدر ما هو بسبب فقدان روح للبادرة والرغبة فى تجنب المعارك واللتين سوف تميزان مسلك ضباط البحرية الفرنسية فى السنوات التالية.

وقد فشلت الحملة أخيراً بسبب رغبة بريطانيا العظمى المتصلبة فى عدم التسامح مع هذا التهديد الدائم لإمبراطوريتها الأخذة فى التشكل فى الهند، وبسبب إصرار الباب العالي الشرس على الدفاع عن وحدة أراضي الإسلام، وبسبب استحالة إرسال تعزيزات إلى مصر من جراء غياب الأسطول، وبسبب الأزمة المعنوية للجيش، لولا بين صفوف الجنود العاديين ثم فى داخل للقهاة. والحال أن موقف بريطانيا العظمى وحده هو الذى كان محل دراسة من جانب من شجعوا على الحملة. وسوف يدرس ناپوليون، وقد أصبح

إمبراطوراً، الاضطلاع بحملة جديدة ضد الهند، لكنها في هذه المرة قارية بشكل خالص، مع تعاون الإمبراطوريتين العثمانية والفارسية (٣). ولابد أنه قد استوهم نروس حملة مصر.

الحملة الاستعمارية

إن التركة الأساسية لحملة مصر هي تركة علمية وإيديولوجية. ونحن ندين لها أولاً بهذا الأثر المهم، اوصف مصر، وهو عمل يثير الإعجاب ويكمن في أساس أية معرفة علمية عن مصر لكأنك مصر القديمة لم مصر الإسلامية. وبعد ذلك بهضيم سنوات، سوف يسمح اكتشاف حجر رشيد بك تسوار الهيروغليفية من جانب شامبوليون. وهكذا، سيتم الانتقال من إحييتومونيا أواخر القرن الثامن عشر إلى إحييتولوجيا القرنين التاسع عشر والعشرين. ثم إن الفن الفرنسي والأدبي في القرن التاسع عشر سوف يتميز بالتهيمات المصرية والشرقية، خاصة في ميداني الرسم والنخرفة.

وسوف تجرى استعادة التجربة للمصرية مع فتح الجزائر. إن عدداً كبيراً ممن سبق لهم أن خدموا في مصر سوف يخدمون هناك وسوف ينقلون خبراتهم. لكن الأزمات لا بد وأنها قد تغيرت، فهدلاً من الرغبة في إنشاء مستعمرة فرنسية - عربية قائمة على صهر الشعوب في إطار الحضارة النافذة كما أراد ذلك بوناپارت بوصفه تلميذاً نجيباً لفرنسي، سوف يجرى تشكيل نظام سيطرة واستيطان مع تشديد على المحتوى للمسيحي. والحال أن ناپوليون الثالث وحده هو الذي سوف يتمكن من استعادة فكر حبه بمشروع المملكة العربية، لكنه لن يتمكن من تحويله إلى واقع ملموس. وفي الجزائر، سوف يجرى الابتعاد من ثم من أنكار الثورة الفرنسية.

وفي المقابل، سوف تسمح حملة مصر بنسج علاقات مركبة بين فرنسا ومصر على مدار القرن التاسع عشر.

نقل الإيديولوجيات

لقد كانت لدى الفرنسيين بشكل واضح رغبة في أن يطبقوا في مصر برنامج التجديد الاجتماعي العزيز على النهضة الثوار. وقد حالت قوة الأشياء دون تحقيق ذلك البرنامج من الناحية العملية. فالأرياف وحدها هي التي استغللت لمدة جد قصيرة من

استعادة النظام العام. على أن مياكل ملكية الأرض، أي نظام الالتزام، قد تعرضت لانقلاب حاد بحيث إن العودة إلى النظام الزراعي القديم سرعان ما تتكشف استحالتها. إن مشاريع القرية سوف يصبحون من الآن فصاعداً في علاقة مباشرة مع جهاز الدولة.

وصعود محمد علي إلى السلطة إنما يتم وسط انتفاضة للفلاحين ضد سلاطتهم العثمانيين. وحدث ١٨٠٥ هو للحصيلة المنطقية للنداءات للوجهة إلى المصريين لولا من جانب العثمانيين ضد المماليك في عام ١٧٨٧ ثم من جانب الفرنسيين. وبشكل مشوش بهذا في الظهور وعى القوم، إلا أن الأمر سوف يتطلب عدة عقود أخرى حتى يتسنى له التعبير عن نفسه بوضوح. إن السيد الجديد لمصر هو قبل كل شيء مصلح عثماني ووريث عن جدارة لأحمد باشا الجزائر ولعلى بك الكبير. والواقع أن الجزء الأول من عمله الداخلي (القبض النهائي على الالتزام، وفرض احتكارات اقتصادية على الإنتاج الزراعي والحرفي، والأشغال العامة الكبرى) إنما يعد عودة إلى ممارسات مؤسسية الإمبراطورية العثمانية، ومن ثم فإنه يشكل نخباً لثلاثة قرون من التطور السياسي والاقتصادي. وبناء صرح إمبراطورية توحد الجزء الأكبر من الشرق العربي ليس غير استئناف على نطاق أوسع لمشاريع عظماء ممالك القرن الثامن عشر.

لكن الأزمات قد تغيرت هنا أيضاً. فمحمد علي، السياسي العظيم، قد أدرك بسرعة بالغة أن عليه أن يأخذ في الحسبان السياسات الأوروبية في المنطقة. إن حملة مصر قد أنهت إلى الأبد هزلة مصر وإلا كانت فرنسا تبدو أكثر من محبذة لمشاريعه، فإن إنجلترا، منذ عام ١٨٠٧، تعلن أنها خصم لها. وذلك الذي يسمى الآن وإلى مصر يحب مجالسة القناصل والرحالة الأوروبيين. ومنذ بداية عشرينيات القرن التاسع عشر، يدرك ضرورة البحث عن سند من جانب الرأي العام الأوروبي وخاصة الفرنسي، وهو ينظم عملاً دعائياً منهجياً يهدف إلى تصويره في صورة اللواصل للمسلم لعمل بوناپارت. وهو يستعيد لفته، فهذه هو أن يوطد لركان الحضارة، إلى الأبد في مصر وبوجه عام في الولايات التي يحكمها. وبينما يصور نفسه في العالم الإسلامي على أنه المنقذ عن الإسلام، فإنه يسعى إلى الظهور في أعين الأوروبيين بوصفه المخلص للثورة الفرنسية. بل إن ابنه ومساعد إبراهيم باشا سوف يعضى إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير وسوف يتفاخر بأنه المعيد لجهنم العرب.

وإنما كانت كل هذه الأفكار الرئيسية قد وجهت بشكل أولى إلى الرأي العام الأوروبي، فإنها لن تتأخر عن أن تصبح حقائق شرقية. إن محمد علي يرسل بعثات دراسية إلى

فرنسا، وأحد التلامذة الشبان المؤيدين للعلماء أنصار التنوير، رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣)، يكتب قصة رحلته إلى فرنسا. وقد أمر لوالى بنشرها أولاً بالعربية (١٨٢٤) وبالتركية (١٨٢٩)، كما يأمر بتوزيعها على موظفيه؛ وهذه القصة هي بالدرجة الأولى تبرير لسياسة «الحضارة». إن النقل عنقذ ناجز، فالإيديولوجية التمدنية تصبح الفكرة الرئيسية، الإيديولوجية الكبرى المبررة لسلالة محمد على. لكن الإسلام عند دعائها الشرقيين، بدلا من أن يكون عدو الحضارة، إنما يصبح مكوناً أساسياً من مكوناتها. وهكذا نصل، في أواخر القرن التاسع عشر، إلى الإصلاح الإسلامى المشهور الذى مثله السلفية التى، مع منازعتها لهيمنة أوروبا السياسية، لا ترفض بالضرورة مكتسباتها الفكرية والأخلاقية.

ولذا كان من الواضح أن فكرة «الحضارة» هي الفكرة الرئيسية الأولى من بين تهاجمات الفكر الثورى التى يتم تجنبها في الشرق، فإن فكرة الوطن سوف تتلوها بسرعة. إن الطهطاوى يعلن بصوت عال أن الجماعة المسلمة التى يريد العمل على تلقيها، إنما هي الوطن، مصر (٤). واستقلال مصر القلتى للتزايد، والتمصير التدريجى لجهاز دولتها والاتصال بالأفكار الغربية إنما تلخص كلها هذا التجديد التام الذى يتروج تطوراً جرى تشييده في الربع الأخير من القرن الثامن عشر. وسوف يسمح اكتشاف مصر القديمة بإضافة بعد «مرونى» إلى هذه النزعة القومية المصرية الوليدة.

ويتواجد هذا التأكيد لفكرة الوطن بين جميع شعوب الإمبراطورية العثمانية. إلا أن تحديد إطار جغرافى سوف يبدو صعباً من جراء تناخل الشعوب واختلافات الدين، خلافاً لما هو عليه الحال في مصر، وعنقذ فإن اللغة سوف تصبح معياراً للتجمع وسوف نشهد ظهور نزعة جامعة تركية ونزعة جامعة عربية. وسوف يتمثل حل آخر في مطابقة الدين ليس بطائفة بل بأمة: تلك حلقة الجامعة الإسلامية. والحال أن محاولات إقليمية محدودة أكثر، كالنزعة القومية القبطانية التى يجرى مطابقتها هالهاً بالطائفة المارونية، أو كالمسيحية القاطنة من الخارج، سوف تكون نتاج هذا المزيج من الدين والأمة.

«إن «الحضارة» و «الأمة» سوف تكونان الفكرتين الأساسيتين من بين أفكار الثورة الفرنسية اللتين يتم تجنبهما من جانب شعوب الشرق. وسوف توجد هاتان الفكرتان الرئيسيتان العظيمتان بشكل دائم في خطابات فرنسيى حملة مصر. فهل يعنى هذا أن الكتابة التاريخية الليبرالية في القرنين التاسع عشر والعشرين محطة في اعتبار أن هذه السنوات الثلاث تكمن في أسس إدخال العدالة إلى الشرق؟ الواقع أن الفكرة مغربة وقد

أشار أيديولوجيو هذه الحركات المختلفة إلى هذا الأصل، أيديولوجيو النزعة المصرية في القرن التاسع عشر بالنسبة للحضارة وللأمة وأيديولوجيو النزعة الليبرالية الذين اختلفوا تفاهماً لم يوجد قط بين بونهارت والأمير بشير^(٥)، وأيديولوجيو النزعة العربية الذين أشاروا إلى نشاطات بونهارت إلى الوطنية العربية، وأيديولوجيو الصهيونية الذين نسبوا إلى البطل نفسه مشروع دولة يهودية. كما أن الإسلام السياسي للباب العالي ولإنجليز، والذي طرح بهدف مواجهة أفكار الثورة الفرنسية، هو أيضاً الاتجاه المهيمن لنزعة الجامعة الإسلامية في القرن التاسع عشر وحركات الإسلام السياسي للعاصرة. وفي كل مرة تتوطد فيها حركة أيديولوجية وسياسية في الشرق العربي، يمكنها أن تجد اتجاهها ممهداً لها في هذا الحدث المنبثق عن الثورة الفرنسية. إلا أنه من الواضح، اللهم إلا إذا سلمنا بأزمة كمون جد طويلة لحياناً (نحو قرن بالنسبة للصهيونية وبالنسبة للنزعة العربية)، أنه يجب الاعتراف بأننا لا ندرك جيداً النسب التاريخي بين معاصري الحدث وأيديولوجيات أحفادهم البعيدين.

ولابد من العودة إلى أصل للمشكلات، وإذا ما رأى المرء أن حملة مصر هي أيضاً نتاج استشراق، هو استشراق التنوير، الذي هو سياسي بقدر ما هو علمي، وإذا ما اعترف المرء بأن الاستشراق ليس مجرد لغو أيديولوجي، فإن الحل يتكشف. إن رجال التنوير لم يفهموا الشرق للعاصر لهم -، وفشل دعايات الحملة المختلفة بثبت ذلك بوضوح -، لكنهم قد فهموا الشرق في صيرورته إلى المستقبل. وعندئذ فإن ما جرى بين عامي ١٧٩٨ و١٨٠١ في المكان الممتد بين البحر المتوسط والاندلس إنما يظهر بوصفه مختبر سياسات للمستقبل، مدخلاً يجرى فيه إعلان كل الأفكار الرئيسية الكبرى. وفي أوروبا، كانت الثورة الفرنسية هي أيضاً ذلك الإسقاط الضوئي الفارز لصيغ المستقبل السياسية وبهذا المعنى أيضاً فإن حملة مصر إنما تنتمي إليها تماماً.

حواشي الخاتمة

- 1 VERNET et MICHALON, p. 34.
- 2 Paul ROUSSIER, *Lettres du général Leclerc, commandant en chef de l'armée de Saint-Domingue en 1802*, Paris, 1937, p. 8.
- 3 Voir sur toute cette question, Édouard DRAULT, *La politique orientale de Napoléon*, Paris, 1904.
- 4 DELANQUE, *Moralistes et politiques...*, II, p. 451.
- 5 Voir à ce sujet, le remarquable article de Joseph MOUAWAD, "Bonaparte et les communautés libanaises", *Cahiers de l'Orient* n° 14 (1989), pp. 225-241.

الفصل التاسع

الحملة الفرنسية فى مصر العليا بحثاً عن مواقع الآثار أو

كشف العمارة الفرعونية

بقلم : جان - كلود جولفان

من المؤكد أن مصطلح «الكشف» هو للمصطلح الذى يصف على أحسن نحو رد الفعل للتميز بالانبهار من جانب أفراد الحملة عندما يكتشفون المعابد العظيمة فى مصر العليا. وهو يعبر أيضاً وبالدقة نفسها تماماً عن الواقع الذى يحدث فى أوروبا لكتشاف لوحات وأوصاف سوف تتمكن، بقوة لأول مرة، من عرض مصر القديمة الفاتنة هذه والتى هى مألوفة وغنية بالأسرار فى آن واحد.

واتساع العمل الذى أنجزته الحملة هو من الرحابة بحيث أنه لن يتسنى لنا استحضاره إلا فى سماته العريضة. وإذا كان واقع إن تقديم صورة إجمالية جد أمينة له فى صفحات قليلة ليس بالأمر السهل، فلنحاول على الأقل الإشارة إلى أهميته وأصلته.

والعنوان الذى اخترناه يعبر دقة واحدة عن خيار لا يمكن لطابعه الاختزال أن يذهب عن البال. وهو لا يبرر نفسه إلا بالرغبة فى تركيز اهتمامنا على العصر ومن باب التفضيل على البلد أيضاً، واللذين كانا آنذاك من بين العصور والبلدان غير المعروفة بشكل جيد، لكنه قلما يهدف إلى إتخاذ موقف يتجاهل عن عمد جودة الأعمال للجزء الأخرى، خاصة دراسة العمائر القبطية والإسلامية. ومن ثم فلن يكون بوسعنا ذكر اللوحات الرائعة المكرسة للمساجد والقصور القاهرة أو لعمائر الكثير من المدن المصرية الأخرى. وهى لوحات سوف تكون هى أيضاً، فى أوروبا، مصدر كشف، كما أننا لن نشير أيضاً إلى تلك

اللوحات التي تستحضر للشاهد الطبيعية والنشاطات البشرية التي لا حصر لها والتي تصور أيضاً في إطارها اليومي. وإذا كنا نضرب صفحاً إسفين من الصفحات الخاصة بالفترات الأحدث في التاريخ المصري، فإننا سوف نفضل لقتله أثر الحملة في اكتشافها لأقدم آثار وادي النيل. إلا أنه لا بد لنا من التذكير على نحو موجز بما كانت عليه حالة المعارف المتعلقة بالآثار الفرعونية في عتبة هذا الحدث.

الأسلاف

لقد أتاحت لنا الفرصة لكي نشير إلى أهمية أعمال رحالة عديدين قادتهم الأقدار، في ظروف مختلفة، إلى زيارة مصر العليا وتسدنى لنا أن نوضح أنها قلما سمحت بتكوين فكرة محددة عن الواقع (١). والحق أن هؤلاء الكتاب لم يكن بوسعهم في أغلب الأحوال أن يكتفوا طويلاً في مواقع الآثار أو حتى مجرد أن ينزلوا إليها. وكان على الكثيرين أن يكتفوا بتسجيل مجرد ملاحظات سريعة وقليل من الرسوم الكروكية. ولم يكن بوسعهم أن يستحضروا إلا بشكل تقريبي ما لموه في اجتيازهم لهذه البلاد (٢) من أجل غاية مختلفة تماماً عن القيام بما نسميه اليوم بالآركيولوجيا.

وتلك، على سبيل المثال، هي حالة القبطان الدانمركي ف. ل. نوردن الذي وجد لزماً عليه العزم، في ١١ ديسمبر ١٧٢٧، على رسم معهد أمون رع في الكرنك من سفينة (٣). على أن رسماً رسمه بعد ذلك بشهر ر. بوكوك، النفس البريطاني الشاب، يقدم بالفعل صورة للمواقع الأثرية تحدد جيداً الجانب الأساسي من خصائصه. ولا بد من قول إن بوكوك، وهو محاور أنكى من صلفه المباشر، قد توصل إلى التجول في الأماكن وإلى إعداد وثائق، وسوف تسمح له هذه الوثائق بنشر لوحات تعتبر جودتها مدعشة خلاصة إذا ما تذكرنا قصر إقامته في الساحة (٤). وقد تسنى له أن يقدم لهذا المعهد رسوماً ولوصالاً لا مثيل لها آنذاك. على أن هذه الأعمال، بالرغم من مآثرها التي لا يمكن الشك فيها، لم تكن كافية لكي يتمكن المرء في أوروبا من تكوين فكرة كاملة عن العمائر ومن تكوين رواية عميقة بجميع مواقع الآثار.

على أن قصوة الظروف الواقعية التي اصطدم بها الرحالة كذلك قلما تتطبع من كتابة أحد المعجيين بروسو، وهو كلود سائارى الذي قضى ثلاثة أعوام في مصر (١٧٧٦) -

(١٧٧٩) نون أن يفكر القلعة. وقد لاذ لساناري أن يترجم عشقه للطبيعة وأن يقدم صورة مثالية للبلد، من شأنها إغراء جمهور شعبي، مهياً لتقدير اللاتن. والحال أن كتابه «وسائل من مصر»، والذي يشبع هذا التهيؤ، سوف يعرف لهذا السبب نجاحاً واسعاً، لكن كل ما يتعلق بمصر العليا ما كان يمكن أن يتلخص إلا على أعمال سابقة. إن البلد، الفارق في حرب أهلية، يجرى تصويره كما لو كان لربوماً أرضياً حقيقياً حيث كل شيء هو حسن وجمال ورفاهية عيش. (٥)

وفي مقابل اللام اللاتن الذي جعل سقاري معاصريه يحلمون به، نجد تصور ثولني الذي قضى سبعة أشهر، في عام ١٧٨٣، في مصر مختلفة تماماً بشكل يلت ١ للصورة، في هذه المرة، هي صورة بلد منزو يصود فيه البؤس والفوضى والتجهيل. وتلعب العمارة سلبى بذكر ما أنها تبدو له منبع طغيان ملوك القماء وتعبيراً لتفكارها عن سلطة استبدادية بغيضة. وبالمناسبة لثولني، فإن هذه العمارة لم تنتج غير الأعمال البربرية، وهو يريد إضفاء الشرعية على تدميرها، الذي يجرى النظر إليه إجمالاً بوصفه انتقاماً عادلاً من جانب الشعب المضطهد في مواجهة أعمال تثنى على فطرسية المستعبد القمام. (٦)

والشعور الذي يعبر عنه أ. س. كاترمير نو كوينسي في عمله، «عن العمارة المصرية»، قلما يعتبر إيجابياً أكثر، وصحيح أن الكاتب الذي لم يستطع الرجوع إلا إلى أعمال نودين وهوكوك يعترف بالطابع القاصر للمصائر: «إن رسوماً على هذه الدرجة من العسحية لعناصر اليونان كرسوم الرحلة التي سوف تشير إليها لا شك أن من شأنها حفظ أفكار جد قاصرة أو جد خلطت عنها». لكن هذا الاعتراض قلما يجعله أكثر تسامحاً؛ ومن الواضح أن المقارنة مع العمارة اليونانية، استندت إلى مثل هذه الوثائق، لا يمكنها إلا أن تكون ظالمة. إن كل شيء في العمل المصري، التي ينظر إليها بهذه الطريقة، إنما يبدو له خليقاً بالإبادة، التعاتل للعمل، الثقل الجسمي، القباحة، لنعلم نسق الأبعاد، الزخرفة التي لا تعدو أن تكون نتاج المصانعة، وتعبيراً عن نوعي متقلبه. وليست هناك كلمات القسي من هذه الكلمات لترجمة تقدير عام يظل سلبياً، وشبه تجريحي. وهو يضيف أن من المؤكد أنه يجرى التفضيل على كل تنبه للشعور بالجمال لدى الإنسان إلا ما حكم عليه بمشاهدة التماثيل المصرية، أو حتى بمشاهدة تيجان أعمدة العمائر، إذ ليس هناك تاج عمود واحد بينها يمكن للخطرة للتفولة تحمل مشاهدته. (٧)

باختصار، ليست هناك رغبة لا في تقدير هذا الفن، ولا في بذل جهد لتكوين دراسة أفضل بهذه العمارة، والحال أن هذا التصور للشعر للأمور، هذا الانعكاس للشك في نسق القيم للتأسيس على قواعد الفن الأخرى التي لا تتناقص، هو الذي يسود في عشية الحملة. ويجرى الاعتراف للفن المصري بالحياة والرسوخ في لحسن الأحوال ؛ وهو اعتراف نادر تماماً، وتعارض كراه سافاري وفولاني من البلد نفسه لا يمكنه هو الآخر أن يسهل فهماً، من أوروبا، لواقع ما يزال معزولاً بدرجة بلغة السوء. وأخيراً فليس هناك خير معنى واحد يمكن فيه لهذه العمارة الفرعونية، وهي الإنتاج الخالص للاستبداد والتي كانت منذ قليل جديرة تماماً بالاحتقار، أن يكون لها فضل في نظر فولاني. إن لغة صديقة للفنون الجميلة... سوف تجد هناك موارد للوقوف على العصر القديم...، لأن هذه العناصر المدفونة في الرمال تحافظ على نفسها هناك كوهبة للجيل القادم؛ وهو يستشعر أن « من الواجب تعليق تمنياتنا وأملنا على هذا الزمن الذي ربما كان أقل بعداً مما يحسب للمرء » (أ).

وبعد أقل من خمس عشرة سنة، يجري الاضطلاع بالحملة وكان الترادف قد اطلعوا على كتابات هؤلاء الكتّاب، ولكن أي مصر التي سوف يتم اكتشافها وخاصة في أية حالة ذهنية، من تلك البلد الفاتن الذي صورده سافاري لو من تلك الواقع القاسي الذي تحدث عنه فولاني ؟

فيضان طيلوع

إن غزارة الوثائق تفرض، هنا أيضاً، القيام باختيار صعب وتفرض علينا الاستناد من باب أولى إلى شهادة لفراد الحملة الأكثر اهتماماً بالمسألة.

ومن بين هؤلاء، يحتل فيضان بينون مكانة لريفة. فهذا الرجل الأكبر سناً بكثير من غالبية رفائقه، سوف يهبط بسنوات عمره الإحدى والخمسين شيخاً لو لم يكن قد حافظ على فضوله الفكري ومواهبه المتنوعة كرسام وكراوية، وشجاعة ودوح مباشرة لفيضان بشاب. إن ثقافته الواسعة، وسحر شخصيته ولطافته أيضاً كجليل ملوك سابق تمكن دائماً من أن يجتاز بتوفيق جميع انقلابات عصره، وفكاهه لخير، قد جعلت من هذا الفولتيري الجسور رجلاً سوف يتمكن من فتح جميع الأبواب أمامه، ومن أن يجتلب دفعة واحدة عطف ورمية مينو الذي يقترب عمره من عمره أيضاً، ومن أن يفتن أيضاً العسكريين للفن سرعان ما سوف يتحرك معهم إلى مصر العليا. والحال أن شخصيته

القوية وعمره ومسيرته العملية للتقدم تماماً بالفعل إنما تجعل منه مراقباً نكياً، يتميز أساساً بتنوع نظره إلى الأشياء وإلى الناس بكثير مما يتميز بالحرص على الدقة العلمية. وخلافاً لأفراد الحملة الشبان والذين علقاً ما يشكلون فريقاً، فإن هذا الرجل سوف يعمل منفرداً.

وهذا الاستقلال الذهني جد الراسخ بخفى، هو أيضاً، لصالة على تجربته في هذا البلد الذي يحب فهم جميع جوانبه. وهكذا، فإن العمائر، بعيداً عن أن تشكل بالنسبة له موضوع اهتمام وحيد أو رئيسي، سوف يجرى استحضارها في الوقت نفسه جنباً إلى جنب الأحداث التي تقوده إلى الأمكن، في سبيلها للعلم، على نحو ما تبدو له. وإلى القاهرة، وأينما يهتم بأى الهول لدر اهتمامه بالسكان للجائدين. إن دينون يلقى دائماً حوله نظرة انضوائية تبدو، مع موعاة جميع الاختلافات، اقرب اليوم إلى نظرة مسحفى منها إلى نظرة لحد علماء الأركيولوجيا. وفي مصر العليا أيضاً، سوف يهتد منتجداً بقدر واحد من الدقة إلى العمائر القديمة كما إلى العائلات والأشياء والحكايات التي يرويها دائماً بقدر كبير من الرحلة ومن الصبور. ومن ثم فإن عمله يتميز بالحيوية والتنوع ويهتدب بالتعاطف. إنه عمل شاهد بجيد الرؤية وجيد الرواية. وقد لمكن أن يقال عنه : إنه يفكر ككاتب، كفتان وليس كعالم. الأمر الذي يجعل قراءة مخطوطه لكثير لمتلماً من قراءة مذكرات للمعهد للصعبة (٩).

ومن خلاله، يمكننا أن نتتبع التحول الحقيقي لنظرة أودوى مثقف يدخل في اتصال مع واقع جديد عليه. والواقع أن من الواضح أن العمارة الفرعونية تثير لديه، في البداية، تأملات تتناسب مع أفكار فرانز التي تشوبها. فالأمراء، على سبيل المثال، قلما تستحق ثناء : إن حجم المقطرة الذي أدى إلى الاضطلاع بهنائها إنما يبدو أنه يتجاوز حجمها للمدى : ولا يعرف المرء ما الذي يجب أن يكون أكثر إثارة للمعشة في هذا الأثر، الجنون الاستبدادي الذي لجأ على أصله لمر بتنفيد، لم الوسوخ الأحق من جانب شعب مد سواعده من طيب خاطر إلى بناء مثل هذه العمائر.

إلا أنه لن يتأخر في تفكير وأيه خلال الرحلة التي قام بها بعد ذلك بوقت قصير في مصر العليا في أثر جيش نيزيه، لأنه قد تمكن من أن يرى ومن أن يتحسس. وسوف يتطور وأيه وسوف تعبر استجاباته من نفسها بكل الاستقلال الذهني الذي يميزه. ولما كان منخرطاً في مهام الحملة وناشطاً تماماً بحيث لا يمكنه إلا بحكم بموضومية على حدود

هذه الحملة وجوانبها الواضحة، فإنه لا ينظر إلى هشاشة الوضع وأحوال الحرب إلا على أنها مجاوزة للحد. ولا يستثمر طاقته بشكل كبير من ذي قبل في الانكباب على فئة، كما لو كان لكي يحسب الجانب الأليم لهذه الحملة، فإنه يلتقط بقدر كبير من الاهتمام كل ما يمكن لحصر الحياة هذه أن تمنحه إياه. وقد جرى التعبير عن مجمل موقفه الثابت بهذه الكلمات: «ما الذي يفعله في معمران للمعركة؟ إنه يراقب. وما هو سلاحه؟ قلم رصاص... لأنه لا يحارب للملك بل يحارب للنسيان» (١٠).

ولمأم عمائر طيبة، يتقاسم بحماسة فتية لنفجار البهجة الحقيقى الذى يستولى على الجيش ويترجم تطور شعوره تجاه تلك العمارة، التى يتم للنظر إليها هذه المرة في إطار طبيعى ملائم لهما، في حين أماكن عظمتها. لقد كانت هذه المدينة أيضاً شبيهاً بالغ الضخامة بالنسبة لخيالنا بحيث إن الجيش، لملم مظهر هذه الأطلال للبعثرة، يتوقف من تلقاء نفسه، وبحركة عفوية، يصفق، كما لو أن احتلال آثار هذه العاصمة كان هدف أعماله للجيدة، وكما لو كان قد أنجز فتح مصر.

ويجرى تدشين الانسحاق إلى تقدير كامل لمشهد هذه العمائر وسوف يجد دينون من جانب الجنود، بحسب كلماته نفسها «ركباً يستخدمها كمنصة وجسداً توفر له الظل».

ولم ينسره، كان للعبد الكبير هو الآخر قد أثار فتنة الجميع والرأى المعبر عنه يتعارض بشكل صارخ بالفعل مع الأفكار التى كان مشهد الأهرامات قد تمكن من انتزاعها من دينون فأعرب عنها: «منذ اللحظة الأولى التى رايت فيها هذا الأثر، فإن ما لا يمكننى الشك فيه، هو أن الإغريق لم يبتكروا شيئاً ولم يشيدوا شيئاً يتميز بطابع أعظم من طابع هذا الأثر».

وليس بالإمكان التعبير بشكل أفضل عن التحول الحقيقى الذى يحدث في ذهنه بحرف البتير عما في كلامه من مهالفة. تعدد اللجوء إليها بلا شك لكي يترجم بشكل أفضل الدهشة التى أحس بها.

إلا أنه سرعان ما نجد أن السورة ظروف الحياة وسط حملة معرضة للمناقشات وغالباً ما تنجر إلى التمتع خلال مطاربتها لمرك بك الذى يتعذر الإمساك به، والمحن، والصن والحر للزنج، تصل دينون إلى حد الاستنزاف. وفي طريق عودته من أسوان، يكف عن الشعور بهجة الاكتشاف الأول لطيبة. فعندما يرى أطلالها من جديد تعالوه الكرامية القديمة، «آلة رتابة» [...] «آلة كآبة» إننى أستغرب برعب نظام حكم كهذا، إن الآثار التى خلفها تخيفنى وتروعنى». ١١

لكنه سوف يواصل بلا كلل عمله، فهو يعثر في مرات كثيرة أيضاً على أسباب للتحمس ويبقى مثلباً كان في الواقع على منظر حياته «متكباً دائماً على التعلم، وتوافقاً إلى أن يزيد بلا توقف ذخيرة معارفه الفولبيركا» .

وعندما يرجع إلى فرنسا مع بوناپارت منذ يوليو ١٧٩٩، فسوف يكون بوسع أن يفكر بشكل أسرع من أفراد الحملة الآخرين في نشر أعماله، لكنه، إذا كان يصل بذلك إلى استباق الجميع، فإنه يدرك أيضاً حدود عمل شخصي يعرف أنه لا يمكن أن يقارن بالنشر التالي لأعمال فريقه بأكمله. ولا يمكن اتهمه، على أية حال، بأنه قد تباعد عن رفائه عندما قرر النشر، لأنه ما من شيء كان يسمح بمعرفة ما إذا كانت ظروف الحرب سوف تتيح بعد إنجاز أعمالهم أو عودة ورائتهم. وإذا كان الوضع قد كان، لسوء الحظ، جد كارثي بالنسبة للحملة بالدرجة التي كان يمكن معها الخوف من ذلك، أفطن نكون على أية حال مرتاحين إلى التمتع، بفضل، بشهادة قاهرة على أن تقدم لنا فكرة أكمل بكثير عن مصر ؟

وعندما علم أن العلماء سوف ينشرون أخيراً عملهم، قرر دينون أن يعود عمله من كل ما يشكل «مغامرة بالبحث»، وقد فعل ذلك بشكل ناجز بحيث أن كتابه يمثل خلاصة، ولحسن الحظ بلاشك، يوميات رحلة، وهو جنس كتابية تفرق فيه الكتلب بشكل خاص. وهكذا، فإن هذه «الرحلة في مصر السفلى والعليا خلال حملات الجنرال بوناپارت في مصر»، والتي صدرت في عام ١٨٠٢ عن دار نشر ديديو، إنما تعتبر قصة تتميز بتلقائية عظيمة حظيت بنجاح ملحوظ جسده صدور طبعات جديدة عديدة. لهذا العمل، الأسهل والأكثر امتلاءً في قراءته من كتاب «وصف مصر» للتعبد للجلدات الذي سوف يليه، قد شهد انتشاراً واسعاً، ومارس تأثيراً ألبياً لا جدال فيه.

لقد شدتنا كثيراً على خصال الرجل وخصائص العمل الإيجابية بحيث لا يمكننا التردد في الإعراب عن الانتقادات التي تفرض نفسها من زاوية النظر التي نهما هنا وحدها، للمساهمة المقدمة إلى فهم العمائر الفرعونية. وعلى هذا المستوى، فإنه لابد تماماً من الاعتراف بأن لوحات دينون قلما تتميز بمأثرة أخرى غير مأثرة نشرها قبل لوحات «وصف مصر» فهي، بالقياس إليها، من زاوية تصجيلية خالصة، أدنى مرتبة للغاية. ومن المؤكد أننا سوف نجد أنها أقرب إلى لوحات بوكوك مما إلى العمل المنقح الذي راكمه العلماء الشبان الذين سوف يؤمنون كفريق تقسيم بيان دقيق عن هذه العمائر لنفسها. وقد قلنا إن دينون لم تكن لديه اهتماماتهم. إن هذا الرجل الأكبر سناً منهم، ولذا التكوين

المختلف والذي يجمع مواهب الكاتب مع مواهب الرسام، إنما يبدو بشكل خاص بوصفه شاهداً يتميز بخبرة حياتية فنية ومتنوعة. وعمله هو عمل فنان، مستقل ومنفتح في أن واحد على جمال للنظر الطبيعي كما على حياة السكان، وهو ليس عمل مهندس يحسب ويستدبط ويفكر بشكل علمي. والكاتب لا يملك لا الوقت ولا لاشتهاء الانكباب على دراسة منهجية لهذه العماثر، وإذا كان قد نشر بعض الخطط الهندسية التي تصور القواعد والارتفاعات التي لا تخلو من أهمية، فإن ذلك إنما يحتل مساحة جد محدودة في عمله. والبيان للوجز الذي يتضمن الأشكال الهيروغليفية والنقوش النيقية إنما يسمح بقياس كل لبون الوجود بين رسومه والواقع. والعلامات فيها جد مشوشة والوجوه والأوضاع ليس فيها شيء مصري حقا ولا حتى «شبه مصري» في الأغلب؛ وتلثير الفن الإغريقي الذي لم ينجح الكاتب في التخلص منه واضح فيها.

وفي الحلبة، يخلط التفاصيل الأكثر تنوعاً خلط العايل بالنايل، دون نظام. وهكذا فإن اختيار الأشياء للتضمنة في بعض لوحاته هو انعكاس لجموح خياله بأكثر مما هو تعبّر عن تصنيف منطقي. (١١) ولا تجرى مراعاة النسب الواقعية لعناصر العمارة، وإذا ما استثنينا لوحتين جد جميلتين تستعاد فيهما واجهات العمائر، فإن جميع الرسوم الأخرى تتضمن تشويهات، وأخطاء قياس مهمة أو اتجاهات خاطئة. وميل جدران أبواب المعابد وميل جدران أبواب العمائر مبالغ فيهما دائماً تقريباً، وذلك بحيث إن هذه اللوحات لا يمكنها أن تقدم عن العمارة التي تصورها غير فكرة تقريبية (١٢).

والحق أن الكاتب يكتفي في الأغلب بتمثيل العماثر من حيث هي عناصر منظر طبيعي. وهو حريص على استحضار البيئة المحيطة بالأطلال بأكثر من حرصه على أن يتتبع بدقة شكل الكتل للبنية. ويتخذ الأثر مكاناً في لوحة إجمالية غالباً ما يكون بهاؤها المثير مبالغاً فيه بشكل مألوف. وهكذا يكتشف للمرء «منظر معبد الأقصر وسط عاصفة»، أو «الأقصر» عند بزوغ النهار، أو كذلك أشعة الشمس المشرقة على قبلة (١٣)

ولابد من الاعتراف بأن هذه الأعمال لا تتميز إلا بالقليل من القيمة على المستوى الأركيولوجي منذ ظهور «وصف مصر». إلا أن من المؤكد أنها كان بإمكانها إشباع الجمهور متى كانت الأعمال الوحيدة المنشورة. ولابد من القول إن غزارة اللوحات والتصويرات، والتي لا يلتفت كثير منها إلى الجمال (١٤) وبشكل خاص حيوية النص إنما تتميز بشيء فائن، إلا أن من المؤكد أن المرء لا يمكنه أن يجد هناك وثائق جد مرضية على المستوى العلمي.

المهندسون

يختلف من ذلك تماماً العمل الذى جرى الاضطلاع به بمبادرة من جانب افراد الحملة الشبان الذين يرأسهم جبرار، مهندس الجسور والطرق. وكان هذا الفريق مكلفاً بجمع معلومات نافعة عن الزراعة والتجارة والفنون والد حدد لها كهدف رئيسى دراسة نظام النيل ونظام الري فى الإقليم. وهذا الفريق المؤلف من : جوليا وبيليليه دى تيراج وبويوا - أيميه ودوشانوا (مهندسى الجسور والطرق)، وليكوستيل ودوزيير وبويوى (مهندسى المناجم) وكاستييه (النحات)، لا يزيد للتوسط العمري لأفراده عن عشرين سنة. و«يوميات» و«كبريات» بيليليه، التى نشرها حفيد، تقدم عبر لتجربة التى عاشها شلب فى التاسعة عشرة من عمره، قصة دقيقة ومؤثرة عن حياة الحملة فى مصر العليا، منذ مغادرتها القاهرة فى ١٩ مارس (٢٩ فينتون) وحتى عودتها فى ٢٧ أكتوبر ١٧٩٩ (٥ برومير من العام الثامن). وسوف ننهل من هذه القصة لكى نقدم، على نحو مباشر قدر الإمكان، فكرة عن الظروف الصعبة التى جرى فيها الاضطلاع بأهم عمل ينجز حتى الآن فى مثل هذا الوقت القليل عن عمائر مصر القديمة (١٥).

× ويتلقى بيليليه من رئيسه أمر رحيل محدد بشكل خالص : «لحيطك علماً أيها المواطن بأن يوم رحيلنا إلى مصر العليا قد تحدد الآن بهيوم غد ٢٩. وترتيباً على ذلك أرجو منكم التواجد فى الجيزة فى الساعة التاسعة صباحاً للاستفادة من قافلة مرسلة إلى الهرقل بنزله للتواجد الآن فى أسيوط» وأرجو أن تهتموا اليوم بأن تدبروا حصولكم على الأشياء الآتى بيانها : عدد من أقلام الرصاص : ٤ رزم ورق : ٤ أنابيب لاصق : ٦ أقلام. ومن المقرر أن نصل إلى أسيوط بعنكم، ولذا لعلكم يكون من المناسب أن تكفلوا المؤن الضرورية لهذا الجزء من رحلتنا. تحية وأخوة، جبرار».

ويجد للمرء صعوبة فى أن يتصور أن مثل هذه الإمكانيات الهزيلة يمكن أن تكفى للاضطلاع بعمل على هذه الدرجة من الأهمية كالعمل الذى سوف يلى والذي غالباً ما لابد أن «تؤدى إلى إبطائه عمليات الجيش الذى لم ينجز بعد البتة فتح مصر العليا».

ومنذ الرحيل، فإن جاذبية مواقع الآثار القديمة سوف تفرض نفسها بشكل لا يقاوم على بيليليه وصديقه الذى لا يتفصل عنه، جوليا. وسوف يلى الاثنان بسرعة بالغة بمهمتهما الخاصة بتسجيل الصور الجانبية للنيل حتى يمارعا إلى اكتشاف أطلال من

بيتها أطلال أنتينوى المدينة الرومانية التى شيدها الإمبراطور هادريان لكى تدافس .
 وفى أسبوط بالتحديد سوف يبدأ حقا، بعد ذلك بوقت قصير، تعاونهما النموذجى،
 بشكل مقبلة لهذا التنقيب النهجى من الآثار المصرية والذي سوف يبارزان به.
 يقودهما إلى تلك المقابر العظيمة للدونة تحت الأرض، تحدياً لأبسط مقتضيات ا
 .. ويعترف ديفيليه «إننا لم نذكر شيئاً من مشاريعنا مخالفة لن يعارض ذلك الموقع خ
 الاستطلاعى من باب الحرص على سلامتنا» .

* على أن المخاطر لم تكن خيالية كما يشهد على ذلك أنثى ضياع السفينة الدهرية ا
 التى هاجمها وهربها «اللكيون» بكل الأسلحة الممكنة لى الاشتباكات التى يتعرض
 الجيش لى تلك الفترة لخسائر فاسحة. وعلاوة على هذه النواشب، فإن كثير
 الفرنسيين يصابون بالرمم. والحال أن الاهتمام باكتشاف مواقع الآثار إنما يظل با
 لديفيليه ولجولوا الاهتمام الأقوى من سواء وتزيد من تأهجه الأنباء التى تصله
 بنون، لأنه «ما من ضابط لا يبدى إعجابه بالأشياء الجميلة التى رآها لى طيبة» .
 يخشيان خشية عظيمة لى تلك اللحظة من ألا يتمكنوا من الوصول إلى هناك بد
 ويخشى ديفيليه من ذلك، خاصة وأنه يبنى نفسه أيضاً بأن يتمكن من الاضطلاع
 بعمل أكثر أهمية بكثير من العمل الذى لثار للتو قسراً كغيراً من الإعجاب. وبهذا المعن
 الأكل يمكن للمرء تفسير ملاحظته: «إن بنون لى طيبة. وهو لم يسجل غير
 كروكية ومشاهد، دون أن ينقل لى تخطيط هنعسى ودون أن يجرى أى قياس» . وهو
 بشكل بالغ القوضوح عن الموقف المختلف الذى سوف يتخذه هؤلاء الرجال لفهم
 عينه.

وبعيداً من أسبوط، تستمر الرحلة برأ ، لكن هذه الفترة هى فترة هبوط مياه
 ويجب اتخاذ قرار بالتردد على ضفافه «للمصعة بالماليك» . وما إن يصل صاحبانا إ
 بعد كثير من المتاعب، فإنهما لا يفكران إلا لى هدف واحد : رؤية نندره بأسرع ما يمك
 والقول بأن الحملة التى أبداها أغلب هؤلاء الرجال للشبان لا تكافأ مكافأة
 سوف يكون تهريكاً للأمر، فهم يتعرضون لعقوبات حقيقية. إن عشقتهم للآثار القد
 يروق لقائهم بأطراد. فدويرا - كيمية، الذى دخل لى الطريق لى شجار عنيف مع .
 إنما يجرى نفيه إلى القصير على البحر الأحمر. ومن حسن الحظ أن الآخرين يجد
 شخص الجنرال بيليار، للكافا بلقب «الصديق الصديق للفنون» ، محاوراً متفهماً

يحصلون على إذن بمواصلة أبحاثهم الخاصة بمواقع الآثار بل ويحصلون على قوة حراسة لحمايتهم. إلا أنه بما أن هذه القوة لا يمكن أن تكون متوفرة في أغلب الأحوال التي يتمنون فيها ذلك، فإنهم يقدرون، عند الضرورة، الاستغناء عنها «بالرغم من أنهنى المعلن من جانب الجنرال الذى يعرف، فيما يقول ديفيليه «إن بإمكاننا أن نصادف فى خروجنا الاستطلاعى لشخصاً جدياً خطيرين». وحساسية هؤلاء الرجال هى من القوة بحيث إنهم يخشون إلى ازدياد الخطر للجاذبة بإثارة انزعاج ونفور ذلك الرجل عينه الذى لمرب لهم عن تفهمهم لرسالتهم وساندتهم فى مشروعهم.

ملطوفه

يعبر اكتشاف نهره عن نفسه بلغة تؤدي إلى نسيان جميع التقديرات للسلبية التي كان بالإمكان أن تكون العمائر المصرية هدفاً لها قبلهم... لقد تم اكتشاف للعبد الكبير الذى يشكل أساس أنواع اللوحات. وسوف يكون من الصعب وصف كل ما يستثيره من انطباعات متباينة مشهد تلك الأشكال الضخمة لإيزيس والتي تحمل سلف الرواق. ويبدو أن المرء ينتقل في لمح البصر إلى عالم السحر والفتنة. إن الدهشة والإعجاب يستوليان في آن واحد على المرء.

الا يرجع هذا التسليم بلا تحفظ في جانب كبير منه إلى حساسية هؤلاء الرجال، التي تتشكل بالفعل في اتصال مباشر مع الفن المصري، والذي غالباً ما جرى الخط من شكله منذ وقت غير بعيد من جانب أولئك الذين لم يروا منتجاته الأصلية في المواقع لقتها ؟ إن فهم هذه العمارة إنما يرجع إلى التسمي أخيراً إلى فهم هذه الحضارة بشكل جديد، دون كثير من التحيزات. ولا مرء في أنه يرجع أيضاً إلى أن أفراد هذا الفريق، الأحث منّا من دينون، سوف يتوصلون بشكل أفضل منه إلى التحرر من النفوذ، المترك أو غير المترك، للفن الإغريقي والأوروبي : «إن ما يراه المرء ليست له أية علاقة بآثار عمارة الإغريق ولا بالآثار التي أنجبتها ثلاثة للفنون الأوربية» والحال أن المرء إذ يدرس مشهداً جدياً كهذا، إنما يجرب في بداية الأمر شعوراً بالارتياح وبالإشباع...».

وبالنسبة لديفيليه ولجولوا، فإن الفراعنة ليسوا بعد بالطفلة اللقيتين الذين تحدث عنهم فولني أو دينون. إن مهتمينا الشبان، وهم أفراد حملة وتمثل أحد أهدافها للعلنة في تحرير مصر من التجهيل لإدخال «التنوير الأوربي» إليها، إنما يرجعون إلى عمل

للمصريين القدماء تحية غير عادية بالمرّة بالنسبة لزمانهم : «إن قرية عربية، مكونة من أكواخ طينية حقيرة، تهيمن على الأثر الأجمل من بين آثار العمارة المصرية، ويبدو أنها موجودة هناك لكي تشهد على انتصار الجهل والبربرية على الفنون من الأنوار رفعت الفنون في مصر إلى أعلى درجات الجمال».

والهدف ليس بعد هو الاكتفاء بالمشاعر وبالتقديرات، حتى وإن كانت إيجابية، بل هو الاضطلاع بعمل منهجي وصولاً إلى تعميق، بفضل تحريك علمي حقا، للمعرفة التي لا تزال مليئة بالثغرات عن حضارة يتم الاعتراف بها اعترافاً صادقاً منذ ذلك الحين فصاعداً كواحدة من أعظم حضارات العالم. والمصانة تتمثل في القياس والتحليل والوصف والتركيز على أهداف جد محددة والعمل بشكل منطقي بصرف النظر عن تقلبات العمل.

وبراستهم للزودياك (رسم فلك الهروج) الشهير تجمع تماماً بين المخامرة والصرامة. إن موريه للشباب، الذي يجرى إدخاله عبر منفذ ينفتح على الصخرة التي يوجد فيها هذا النقش الدقيق^(١٦)، إنما يدرك على الفور أنه يطأ هيكلاً عظيماً ويتخيل المقتحمون الشركاء بسرعة باللغة أنهم قد صابغوا هناك رفات عاشق ما للفنون، على غرارهم، وفات سلف مجهول لعله قد قتل في هذه الأماكن ضحية لعماسته !

والحال أن نيفيليه وجولوا، وقد اتفاقا بسرعة من نشوتهم، إنما يتوليان، بالرغم من انزواء المكان ومن ضعف النور، التسجيل الصعب للزودياك بتقسيمه إلى قطاعات بمساعدة لسلاك معدنية إقنياً على السقف. وهما يريدان تقديم تمثيل أمين له يسمح بدراسة الدقة لمعارف المصريين القدماء الفلكية. وعندما يأخذ المرء في حساباته الصعوبات المادية التي تعين عليهما العمل فيها، فإنه لا يمكنه إلا أن يبدى إعجابه بروعة النتيجة التي تم التوصل إليها، فصرخان ما ينفذ كل شيء. ويكتب نيفيليه إلى صديقه وهو في القاهرة ويحثه على التحرك لمساعدته :

«إنكم إن لم ترسلوا إلينا أقلام وصالص، أيها الصديق العزيز، فلن يكون بوسعنا أن نقدم إليكم شيئاً من رحلتنا. لقد استهلكنا جميع اللامنا، ونحن يائسون. تحدث إلى كونتية الذي لابد وأنه قد جهّزها؛ وإذا كان الأمر خلافاً لذلك، استعمر من أصدقائك، واشتر وجهاز ما سوف تجده عند كونتية الذي سيتولى تسليمها إلى الجنرال نوجا، الذي سوف يرسلها مع أحد ركبى الجمال، هذا أمر متفق عليه».

والحال أننا لا نجد إشارة لا على اللوحات التي تزين «وصف مصر»، ولا في

ملاحظات نيفيليه، إلى استخدام مادة مركبة. لقد كانت القلام الرصاص والألواح الخشبية والحبال الرابطة والمساظر والشاتول كافية لإنجاز هذه المهمة بالرغم من انعدام الأمن والمتاعب. ولا شيء يثبط همم أولئك الرجال، ولا حتى نسوا الأتله التي تحصل إليهم أحياناً، كدنيا الكورث التي حلت بقوة الحملة المرصلة إلى سوريا.

«أبي عند إذن من رفاقنا لا مفر لنا من أن نراه يهلك في هذا البلد للقنص ؟ لم أنه قد كتب علينا بالفعل أن نخلف كل عظامنا فيه ؟»

وتواصل الرحلة بلا كلل صوب الجنوب. وبعد الطواف بأطلال قوص، تصل الحملة أخيراً، في ٢٨ يونيو، «على مرأى من مواقع مدينة طيبة القديمة»، إلا أنها لا تتمكن من البقاء هناك شهر يوم واحد. ويبدى نيفيليه وحوالوا إصجابهما في مرة أولى بأطلال الكرك ويططون إلى التحرك من جديد، مع عزمهما على العودة إليها عند أول فرصة تصنع لذلك.

وبعد ذلك بأيام قليلة، يكتشفان في إسنا، بين الأطلال المترامية في وسط المدينة، الإكريز الجميل لمعد «كان من المحتمل، لولا هذه المناسبة، أن يظل مجهولاً لزمان طويل من جانب الرحالة المعاصرين». وبعد أن سلكا ممراً ضيقاً، تفادوا إلى الداخل، وهناك، يحدث الاقتتل :

«إن صلالة هذه القلعة... والتي لم تقدم عمائر مصر الأخرى لنا عنها غير فكرة جد هزيلة، إنما تترك لدى كل منا انطباعاً مشتركاً : لقد استولى علينا إصجاب طامض معين لا نجرؤ على الإفصاح عنه بشكل ما، وبينما نخلنا نجيل النخز بشكل تداوي على الأثر وعلى رفاقنا في الرحلة، أخذ كل واحد منا يحاول التكد مما إذا كان قد خدمه بصره أو لعمري، مما إذا كان قد فقد في لمح البصر الذائقة والمبادئ التي تلقاها في دراسته للأثار الإغريقية».

ولا يمكن الإفصاح بقدر أكثر من الصراحة عن القلق الذي أثارته هذه الأشكال، هذه الجمالية الجديدة، عند الألمان الشباب للتأثرة تأثراً عميقاً بالدرزة الهيلينية وإن كانت قد تخصصت بالعمل الطابع الأصيل للعمارة الفرعونية. إنهم يعون تماماً عندئذ أنهم منفردون على جمال معين، جمال «آخر»، وهم يعبرون عن ذلك بوضوح :

«إن هذا النضال الفعلي الذي تشتهه العمارة، التي نرغب إليها بأبصارنا، ضد لوهامتنا الميالة إلى النسب والأشكال الإغريقية، إنما يصيبنا بالذهول لوقت معين : إلا أننا سرعان ما اجتاحتنا حركة إصجاب إجماعية».

وكلمة الروح التي يستخدمها بيثلييه إنما تعبر تلمحاً عن صمق التهديد الذي تعرضت له أفكارهم وعمق الجهود اللازمة من أجل فهم حقيقى لهذه العمائر والتي تبدو لهم وظائفها أيضاً، لا مجرد أشكالها، مختلفة عن أشكال وظائف العمائر التي عرفتها أوروبا. وبعد أن وجدوا أن القاعة الكبرى للمعبد مسورة من الجهة الخارجية بأسوار تعلو إلى ثلاث أرتفاعها، يستنتجون «لا بد من التراض أن المصريين لم يقوموا ببنائها إلا لأن روايات معابدهم ليست لها ذات الوظيفة التي تتميز للعابد الإغريقية». إنها ليست مجرد حمى، بل هي «مكان مقدس يجب تحريمه على أنظار الغرباء ذاتها» (١٧).

ولم تعد المسألة مجرد مسألة رسم وليس، بل هي مسألة بذل جهد لفهم الدور الذي تلعبه القاعات ومختلف العناصر المكونة لهذه العمارة، باختصار، لا يجب إهمال شيء. ويجرى تحليل الأثر وتسجيل عناصره بدقة، أكان ذلك فيما يتصل ببنيته أم بزخرفته التي تشمل هنا أيضاً، في السقف «زويهاكا» جميلاً. لقد حدث إصرار تام لواقع أن المشاهد التي تظهر على الجدران لها غاية مختلفة من غاية زخرفة القاعات وإن كانت لها وظيفة محددة وأن يوسع هذه التمثيلات أن توضح الأمور للمراقب فيما يتعلق بدور مختلف أجزاء العمائر. ومن ثم فإن النقوش الحقيقية تستحق الدراسة بالقدر ذاته الذي تستحق به الهياكل للبناء. والحال أن لغة الرسوم التي تجرى لها إنما تتعارض بوضوح من هذه الزاوية مع التسجيل للتصوير الذي قام به يهودن، حتى وإن كان الأمر لا يتعلق هنا أيضاً، من جراء ضيق الوقت بلا شك، برسوم مطابقة للأصل تماماً.

وتنكب الحملة على إعداد بيان منهجي بجميع الآثار وعلى تسجيل أكبر عدد ممكن من خصائصها. وفي مواجهة إسنا - على ضفة النيل اليمنى - يجرى تسجيل معبد كوندولاتروبوليس، وهو عمل يسترعى اليوم اهتماماً بالغاً بقدر ما أن موقع الأثر قد نمر. ويحدث الشيء نفسه بالنسبة للمعبد الصغير الذي كان موجوداً آنذاك في شمال إسنا. (١٨) ويتم أثناء كل هذا العمل بهمة، ولكن ما هو جدار يعبر من جديد عن عدم ارتياحه إلى الأعمال التي يقوم بها معارفه من تلقاء أنفسهم. وهو ينكرهم بمراعاة النظام ويطلب إليهم التركيز خاصة على مهامهم المتعلقة بقياس وادى النيل. ولا يمثل هؤلاء لكن الوسط قلما يعتبر متحمساً.

لقد إنكبنا على هذا العمل بسومة بالغة وأيضاً بعناية بالغة، لكن ذلك، لأننا نتجه بلا توقف إلى رسم ودراسة الآثار القديمة، إنما يحزن جدار، الذي يرى أن ذلك ليس من

«لخصاصنا»، وهلا توقف نجرى معه مناقشات مزعجة. بل إنه قد أراد مدعنا من الذهاب إلى أسوان، بالرغم من أن كل العمل الذي كان قد حصد لنا كان قد تم ونال البهولة».

وهم يعززون أنفسهم قدر الإمكان بالكتابة إلى دويوا - أيميه، المنفى في القصير، ويتوجه النقد إلى جيدرل : «إننى أفتنى لك أنه غير محب للأثر، لقد قضى أربع ساعات في منزله نام خلالها لمدة ثلاث ساعات»، هكذا يتحدث ديفيليه ليس دون خبث. وأخيراً، فإن رد فعل قويا يجرى القيام به بمناسبة وصول دهنون إلى إسنا يسمح بالتفاهم ويتحيد كل نوايا سيئة جديدة. وهكذا، فبعد أن قضت العملة عشرة أيام في هذه المدينة، تستأنف طريقها صوب الجنوب، وفي ١٠ يوليو، يحدث إعجاب في أفقر العمائر التي سوف يسجلها فيما بعد جومار، ثم يتم الوصول إلى طرق جبل سلسلة وكوم أمبو، حيث يجرى رصد بقايا معبد جميل يختلف عن جميع المعابد التي رأيناها حتى الآن من حيث إن له مسطلياً، بلعان جنباً إلى جنب وبوابة ضخمة شبه مهدمة تشبه بوابة مندره.

وفي يوم ٢٥، يتم الوصول إلى أسوان وتجري زيارة الفنتين، ثم جزيرة فيلة المليئة بالعمائر الهامة ويختار كامبتييه جنيراً من جدران بوابة معبد إيزيس الضخمة لكي يسجل عليه نقشاً تذكاريًا (١٩).

ومنذ ٢٦ يوليو، يتعين الرجوع ويتم الطواف من جديد بمواقع الآثار الرئيسية حتى إسنا حيث يرسل ديفيليه من هناك رسالة ملحة جديدة إلى دويوا : «إنك لم ترسل إلى أقلام الرصاص وأنت تضعنى في ورطة كبرى».

طيبة

بعد مرور قصير بأرمنت، يتم الوصول إلى طيبة في ٨ أغسطس (٢١ فيرميدور). وفي هذه المرة، فإن فرصة التمكن أخيراً من اكتشاف الآثار الضخمة لـ «المدينة ذات المائة باب» والتي تغنى بها هوميروس لن تغيب عن الصديقين اللذين يخيلمان في قرية قريبة من مدينة هابو. ويعترف ديفيليه «منذ تلك اللحظة لم أحتفظ بيومييات منتظمة لرحلاتي. لقد كان على رسومي أن تكفى للكرياتى». وإسراكاً منهما للأهمية غير العادية لعمليهما، فإن حماستهما لا تعرف بعد حداً لها :

«إننا نستشعر سروراً ما عندما نفكر بأننا سوف ننقل إلى وطننا منتجات العلم القديم ومنتجات صنعة المصريين؛ إن هذا الفتح حقيقى سوف نسمى إليه باسم الفنون».

وإناء برنامج كهذا، قلماً يحتاج وقت للتفكير في الخطر القريب تماماً ويجرى التصرف كما لو أن هذا الخطر لا وجود له، وذلك بالعمل تحت حرارة شهر أغسطس للتلتهبة، في ظروف مائية بلثماً ما كانت أقل من لولية. وديفيلبييه محروم بحيث يمكنه أن يكتب أخيراً إلى ريبو :

«... لقد استخدمت في المساحة الأقلام التي أرسلتها إليّ. وأنا أشكرك على ذلك شكراً لا حد له، لقد وصل بنا الأمر إلى حد عمل أقلام من كريات الرصاص التي نقوم بصهرها وسكبها في البوص...»

ويجري تكثيف الجهد ويمتد إلى مجمل العاصمة الجديدة :

«لقد انكببنا هندياً على رسم ووصف وتسجيل الخطط الهندسية لجميع العناصر القديمة التي تعيط هنا. وفي أغلب الأحيان، كنت أنا وهورلوا نقوم بالعمل وحدنا، إلا أنه في عدة مناسبات كان «يكوستيل وروزيير ودوشانوا وديبوي وخالصة ديترتر ونيكوتو يجيئون للانضمام إلينا وقد قسموا لنا العوز» (٢٠).

وسرعان ما يرجع «يكوستيل وروزيير وديبوي إلى القاهرة وتواصل بقية الطريق الصغير مهمتها مضيفة إلى عمل التسجيل بالمعنى المحدد للمصطلح بذل جهد تفسيري للأثار والمسبات الذي تتواجد فيه. ومن اللافت للنظر أنهم قد فسروا آثار الارتفاع العام لوادي النيل فيما يتعلق بالانغراس الأصلي للأثار وكذلك توارثها التدريجي تحت تأثير التراكم، سنة بعد سنة، لطبقات رقيقة من الطمي مترسبة عن النهر. ويصرف النظر عن الانفعال أو عدمه فإن النظرة تظل نظرة مهندس برصد وقياس ويطرس الظواهر.

وبمجرد الانتهاء من استكشاف جميع عناصر الضفة اليسرى، يجري الانكباب على دراسة عمائر الضفة اليمنى ويجري نقل قاعدة العمل إلى الأقصر التي تثير معانيها ومسلاتها الأعجاب، لكن «... هذه الأطلال ليست شيئاً بجانب أطلال الكرنك».

إن الكرنك، الذي يجري النظر إليه بلثماً بوصفه مجموع عناصر تضر عظيم، إنما يصبح موضوع دراسة عميقة وإنه لمنهش أن نأخذ في اعتابنا بأية حدة ذهن جرى تفسير التفاصيل التقنية المعقدة. فتأكل قاعدة الجدران، الملحوظ تماماً في بوابة الهرجيت يجري تفسيره من زاوية النور الذي لعبته الرطوبة في التأثير على الأحجار. والعمارة نفسها يجري فهمها بشكل محدد. وسرعان ما يدرك ديفيلبييه أن الفتحات التي تتخذ شكل نوافذ

والتي يلحظها المرء على واجهة البوابات الضخمة إنما تصاعد في الواقع على تسكين ألواح خشبية ضرورية لتعليق صاريات ضخمة كانت مزودة بأعلام عربية في أمتها. وهو يقدم البرهان الذي لا يدحض على ذلك مشيراً إلى نقش دقيق يرجع إلى زمن خونسو، حيث يجرى تمثيل بوابة عظيمة بجميع تفاصيلها الأصلية. وتبدو في هذا النقش الدقيق الصاريات ونظام التثبيت والأعلام العربية الطويلة المرفرفة في الهواء. ليس مما يثير الدهشة أن هذا النقش الدقيق للتكل والواقع في قطاع صعب المنال وسبب الإثارة لم يفلت من نظر القائمين بالإستكشاف ؟ ويلاحظ هؤلاء الآخرون أيضاً أن معبد خونسو قد بنى في جانب كبير منه بمساعدة كتل منتزعة من عمائر أقدم... وأن الكهنة قد نقلوا على أعماله رسم قدامهم... وليس بالإمكان الإشارة إلى جميع الملاحظات التي أهديت لمحاولة فهم مواقع آثار الكرنك الضخم. إن عدد وجودة التسجيلات ليست مثيرة لحسب، بل إن لهنية التركيب الفكري التي دل عليها هؤلاء المهندسون الشبان لكشف أسرار حضارة لم يكن بالإمكان بعد الرامة كتابتها ولا فهم تاريخها فهماً جيداً تماماً، إنما هي لهنية غير هائلة ١

والحال أن هؤلاء الرجال المنفتحين على الفن وعلى الواقع، ولكن غير اللصوفيين بإغواء الاستسلام لكل ما يمكن لحصر هذه أن تستحضره بحيث يتولون اكتشافها دون لهنية انتقائية، إنما يتصرفون كأركيولوجيين (علماء آثار) حذرين حقيقيين ولا يخيب عنهم سوى القليل جداً من التفاصيل. وبالإضافة إلى ذلك، فإن إعادة تركيب الشكل للمعاري لعديد من العمائر التي تلاشت ثلاثة أرباعها إنما يثير الدهشة بسبب ما تتميز به من دقة. لقد عبروا بالفعل عن أقصى ما كان يمكن رسمه واستخلاصه والفراضه في زمنهم. كما أن المرء يفتنه الحرص الذي أبدوه على تخيل حياة العمائر الكبرى التي طافوا بها، والوسط الباطني لقاعاتها خلال احتفالات معينة. ومن الواضح أنهم إذ يرصدون النقوش الدقيقة إنما يحاولون أن يكونوا عنها فكرة لأن النصوص ما كان لها أن تمثل أي عون.

وتتجارب مع الأوصاف المصحوبة بالأرقام خطط هندسية ومقاطع موسومة تماماً وتتلوها أحياناً إشارات للشكل المعماري ذلك شكل هندسي أو منظوري. ومن المؤكد أن المرء يدهش اليوم إذ يتابع التفسيرات المقدمة للجزء الأوسط من معبد الكرنك الكبير، إلا أنها ليست محالة بقدر ما أن مجمل الآثار قد نظر إليه على أنه الصمد. لقد لذ لهم إجابة أن يحلموا بصير عمله وقد ظهرت لهم رؤى وحسب ١ إلا شك أن الملوك الذين سكنوا هذا الصمد قد أضوا أبنامهم في القاعات التي تستند أسقفها إلى أعمدة وفي الأبهاء ذات الأعمدة

التي كانوا يتحركون فيها بحرية وكانوا يحتمون فيها من حرارة الهواء وكانوا يأوون بشكل خالص إلى الغرف الجرانيتية.

وربما يجد للره سألحة مثل هذه السطور، النادرة إجمالاً في مجمل العمل المنجز، في حين أن شامبوليون نفسه، وبالرغم من درايته بالهيريغليفية، سوف يصف لنا أيضاً الانطباع الذي خلفه لديه «تصرع الكرنك». (٢١)

والآن برأى ديفيليه وجهولوا مهمتهما في طيبة دون أن تثبط همتها الأنباء الأكثر إزعاجاً. لقد استولى الأتراك للتو على حصن أبو قير ويتذكر ديفيليه ، «في اللحظة التي نما فيها إلى علمنا هذا النباء، كان مصيرنا مقروءاً؛ لأن هذا النباء كان قد مر عليه شهر وكنا بعيدين عن القاهرة بمسافة مائة وخمسين فرسخاً وعن موقع المعركة الفاصلة بمسافة مائتي فرسخ. وقد نظرنا إلى أنفسنا وقلنا : هل ذلك هو جزاء الاستمرار ؟».

إنهم لن يعرفوا إلا فيما بعد أن نتيجة المعركة كانت ظفيرة؛ لكن انعدام اليقين لم يدفعهم إلى التخلي عن عملهم ولم يولد إلى إضعاف عزيمتهم.

اللجان العلمية

في ١٢ سبتمبر يرجعون إلى إسنا التي وصلت إليها للتو اللجنتان العلميتان اللتان كان بوناپارت قد شكّلهما، قبل رحيله إلى فرنسا، حتى يتسنى الاضطلاع بدراسة مصر العليا وأثراها، وذلك دون أن تكونا على علم بأن جانباً كبيراً من العمل كان قد جرى البده به تلقائياً من جانب ديفيليه وجهولوا ورفائهما.

وكانت اللجنة الأولى بقيادة كوستان (عالم الهندسة)، بينما كانت عضويتها تتألف من بلزك ولويير (مهندس معماري)، وسان - جينيس (مهندس الجسور والطرق) وكورايوف (جغرافي) ولينوار وكوتيل (المتخصصين في الآليات) ونويه وميشان (عالم الفلك) وفيار (عالم الهندسة) ولاهات (طبيب) وكوكيهر (عالم النبات) وسافيني (عالم الحيوان) وريهر (متخصص في الأنثى).

وكانت اللجنة الثانية بقيادة لورييه (عالم الهندسة) وكانت مهمتها، بين مهام أخرى، دراسة النقوش الدقيقة والسمي إلى تفسيرها. وكانت عضويتها تتألف من : كرنولييه وشابرويل ولانكريه (مهندس الجسور والطرق) وجومار (جغرافي) وفنسان (عالم

الهندسة) وسيسيل (التخصص في الآليات) وريدوتيه (رسام) ولامبيير (طبيب) وديليل (عالم النبات) وديويه (الصيدلي) وچيهرأ سانت - هيلير (عالم الحيوان) وفيلوتو (المؤلف للموسيقى) (٢٢).

وعندما يكتشفون ضخامة العمل الذي أنجز قبل وصولهم، سوف يستخلص المسؤولون النتائج التي تترتب على ذلك، ويلاحظ ديفيليه : «... لقد أتركوا لنا بدلا من المشروع من جديد إلى حد بعيد بعمل ما معنا به بالفعل، فإن من الأنسب مضاطرتنا ما كان لا يزال بعد بحاجة إلى دراسة، ومنذ ذلك الحين، واصلنا أعمالنا بالاتفاق معهم».

وهكذا يجرى تقديم دعم جدي إلى المشروع. إن الجميع سوف يتجمعون في طيبة للعمل هناك ثم يهبطون وادي النيل حتى القاهرة، مراكزهم وليرة غير غالية من الوثائق. وسوف يجرى تسجيل آثار نضرة وأبيدوس وأنتينوى والعديد من مواقع الآثار الأخرى. إلا أنه بدلا من الاضطلاع بالتنوع الطويل لهذه الأعمال وكلها يتفوق بعضها على البعض الآخر في روعته، فإنه يبدو لنا أن اللحظة قد حانت لرسم صورة محصلة العمل والإشارة إلى الأهمية العلمية للإسهام العلمي لهذه الحملات المثمرة.

إن النتائج المكتسبة مثيرة. فمن آلاف الرسوم والملاحظات المتراكمة نجى اللوحات ١١٩ التي سوف تتناول الآثار الفرعونية في «وصف مصر». وهي تشكل أهم كتلة وثائق نشرت حتى الآن بقعة واحدة حول هذا الموضوع (٢٣).

ولا مرأى لي أن أكبر جانب في مائدة هذا العمل إنما يرجع إلى ديفيليه وچولوا، ليس لجردهما قد مهرا بإمضائهما أكبر عدد من اللوحات، بما لا يقاس، وإنما لهما لأن هذه النتيجة تجسد للمساهمة الشخصية التي مثلتها كتلة الوثائق الأولى التي أعدت بمبادرتهم وحدهما. ولا بد من الإشارة بعد ذلك إلى الأعمال التي لا تقل روعة من حيث جودتها والتي قام بها جومار وشابروك وديترتر ولوبير، والتي تحتل للرتبة الثانية من حيث عدد اللوحات المنشورة. كما أن سيسيل وريدوتيه ولانكره قد قدموا مساهمة مهمة في حين أن تدخل أفراد آخرين مثل كوستاز أو لورييه يتجلى بشكل أكثر مراعاة للتحييد. (٢٤)

وتحدث أشكال تعاون بين خبراء نوى تخصصات مختلفة وذلك صعبا إلى الوصول بشكل الفضل لحيانا إلى بعض الأخطاء كتسجيل تخطيط هندسي عام لمواقع الآثار الكبرى. وهكذا فإن سان - جينيز وكورليوك سوف يسهمان في إعداد سلسلة خطط

مهندسية إجمالية جداً إلى جنب ديفيلبييه وجولوا (٢٥). والأهمية الوثائقية لمثل هذه الأعمال ملحوظة. وهي في جميع الحالات تصور لنا حالة رائعة للأماكن وتتيح لنا في الوقت نفسه، في أغلب الأحيان، الوسيلة الوحيدة لكي نكون اليوم دراية بتهيئة العامة للمواقع والتي تعرض كثير منها لخراب جسيم. ولابد من الإشارة هنا على سبيل المثال إلى أنتينوى ولومنت لو هيليوهوليس. ونحن هذا العمل لوجدنا مشقة كبيرة، بل ولما وجدنا لقل إمكانية لتصوير الخصائص العامة التي كانت واضحة كذلك لمواقع الآثار والتي تعتبر أهميتها التاريخية رئيسية. ومثال أنتينوى في هذا الصدد مثال صارخ بشكل خاص. إن رسم المخطط الهندسي الذي قام به جومار وشابرويل واللوحات التي ترجع إلى أفراد آخرين في الحملة إنما تتيح الوسيلة الوحيدة الباقية لدينا لفهم تنظيم المدن والموقوف على شكل العمائر العامة لحاضرة طيبة العظيمة التي أسسها هاسريان.

البيانات

إلا أنه، علاوة على القيمة المكتسبة بهذا العمل التسجيلي للنهج، فإن ما يثير الدهشة أيضاً هو هذا الفضول الذهني وتعدد مواقف بعض أفراد الحملة، الذين يتصرفون على ما يبدو بحرية في إعداد الخرائط ورسم تصميم العمائر، كما يتصرفون بحرية أيضاً تماماً في رسم تفاصيل البناء أو النقوش الدقيقة. والحال أن بيان هذه الأخيرة (٢٦)، إن كان يمثل مصدر معلومات أساسياً، فإنه يتميز على أية حال، بالرغم من كل شيء، بأهمية مباشرة أقل بالنسبة لبحثنا من الأهمية للباشرة للمجموعات الأثرية بالمعنى المحدد للمصطلح، ولتفاصيلها (الأعمدة، تيجان الأعمدة، العتبات وعناصر العمارة الأخرى). إن أهمية وجودة التوثيق الذي تم الاضطلاع به تعتبران فائقتين بحيث يصبح من المناسب أن نتوقف أمامها قليلاً.

ولابد لنا من الإشارة في المقام الأول إلى الأهمية الأساسية التي يمثلها، بالنسبة للموقوف على الآثار القديمة، مجموع البيانات التي تعدد الأشكال الهندسية والمقاطع والارتفاعات، والتي قام بتسجيلها ديفيلبييه وجولوا ولويهر خلاصة وكذلك بلزاك ولانكريه وشابرويل في حين أن الأفراد الآخرين لم ينتجوا منها غير القليل جداً بل إن البعض لم ينتجوا شيئاً منها. (٢٧)

والحال أن أعمال لويهر في الكرنك هي التي تقدم لنا هنا لمحة عنه و، بشكل أخص، فإن التخطيط الهندسي المنتشر في «وصف مصر» مقابلاً لمقطع طولي كبير يعيد لنا لأول

مرة تركيب للشهد الإجمالى لمعد أمون - رع الكبير (٢٨). وهذا للتخطيط الهندسى أكثر نقة من رسم بوكوك وترجع بعض هويته إلى واقع أن أجزاء مدينة من مواقع الآثار كانت كذلك ما تزال مطمورة. ومن ثم فإن المرء لا يجد على تخطيط لوهر الهندسى أثراً للرواق الذى يوجد فى نهاية بهو الأعمدة الغربى ، فلم يكن هناك ما يسمع بتخمين وجوده. وفى المقابل، فإن للجواز نفسه قد أعيد تركيب صورته على نحو جيد فى حين أن اثنين فقط من تماثيل أبى الهول هما اللذان كانا ظاهرين فوق الأرض. ويشير عمل لوهر وكذلك الشروح والوثائق التى ترجع إلى ديفيليه وهورلوا إلى أن المسألة ليست مجرد مسألة تسجيل طوبوغرافى، بل هى، بوجه عام، مسألة تنوير لجهد فكرى بشأن المعد.

والحال أنه يجرى تقديم أنسب للملاحظات وتحليل الآثار وتفسيرها وتمثيلها بعناية. ولا يجرى الاكتفاء بتسجيل إلى لهيتها، بل إن هناك رغبة حقيقية فى التفسير قدر الإمكان، وذلك بتخصيص جانب كبير من النص للأوصاف والافتراضات. وعلى سبيل المثال، فإن ديفيليه وهورلوا هما أول من فهم أن بناء بوابة الكرنك الضخمة قد ظل غير مستكمل. والبرهان على ذلك يقدمه لهما الشكل جد الخشن للجدران والتى احتفظت بنتوءات بارزة مهمة. ومن الواضح لهما أن هذه الجدران لم تكن قد محرت بعد وإنما لم تكن موضع زخرفة. ويتم استحضار بقيق أيضاً لهذا البناء الأصلي لتيجان أعمدة كشك تراقه، والمركبة من قطع متراكبة مدينة (٢٩).

ثم إنهما يؤكدان، وهو ما سوف يتكشف أنه صحيح تماماً، أن معد رمسيس الثالث لابد وأنه قد شهد قبل رواقات الصحن الكبير التى تحتويه، لو إنهما يربطان حالة خراب البوابة الضخمة الثانية إلى كارثة سوف تكون الافتراضاً سيتم إثباته فيما بعد، هى نتيجة ضعف بنائها بأكثر مما هى نتيجة زلزال : ومن المنطقى تصور أن مثل هذا الخراب إنما ينبع من عيب فى البناء (٣٠). وهذا هو السبب، بالرغم من المظهر الفعلى للآثار (ركام من الانقاض لا يتميز بشكل محدد)، فى أن رسم محيطه هو رسم بوابة ضخمة جد منتظمة. والرسم الهندسى للقاعة التى يستند سقفلها إلى أعمدة رسم بقيق وهذه الأخيرة هى أيضاً موضع وصف رائع. ويجرى استعراض أبعادها وعناصرها التكوينية وزخرفتها ويدهش المرء من أنه كان هناك تمسك للأسباب الحقيقية لانهارها. وهكذا، فقد تشير إلى أن بعض الأعمدة قد فكت انتصابها، وهو ما يجب للمرء أن يردّه إلى ضعف رسوخ الأرضية والتى تتصرب إليها الآن، كما قلنا، مياه الفيضان. وليس بعيداً جداً الزمن الذى سوف تستسلم فيه القاعة التى يستند سقفلها إلى أعمدة لهذا السبب للمدمر الفاعل دائماً (٣١).

لما وضع البراية الضخمة الثالثة وخاصة شكلها، فسوف يجرى أيضاً تخمينهما بأكثر مما سوف يجرى رسمهما، إلا أن محيطها يعد تركيب صورته بشكل جيد. وسوف تكون للهمة أصعب بكثير فيما يتعلق بمنطقة المعبد الوسطى، المعقدة والمطمورة والتي تختلر عليها آلاف الكتل. والحال أن الرغبة في إعادة تركيب صورة مجموعات معمارية في أغلب الأحيان من خلال تحقيق التناظر قد أدخلت هناك لخطأ، لكن للمرء يدهش بالرغم من كل شيء من أن الرسم الهندسي المقترح هو في نهاية الأمر جد قريب من الواقع.

وبصورة محيرة بشكل حاسم، يدرك بيفيليه وچولوا أيضاً أن الكنيسة الجرانيتية الوسطى (كنيسة فيليب كريدبييه)، والتي كانت مزينة في قديم للزمان برسوم ملونة «ناهضة ورائعة»، إنما بنيت في جانب منها بالاعتماد على كتل توظيف جديد ضخمة كان بعضها أجزاء من معلات ١

«تلك حقيقة تثبت، بإسفلتها إلى جميع الحقائق التي أشرنا إليها بالفعل، أن قصر الكركك القديم هذا قد شيد في جانب منه بأنقاض آثار أقدم منه بكثير».

وهكذا فإن جميع أجزاء المعبد الكبير يجرى التعليق عليها بدقة وحساب وأي ليس من شأنهما إلا أن يثيرا بعشقتنا اليوم أيضاً.

ويجب أن نحى جهدهم في إعادة تركيب الصورة الأصلية للعديد من معابد الوادي، حلوة على حس للملاحظة غير العادي الذي تدل عليه هذه التأملات وتسجيل تفاصيل العمارة من جانب أفراد الحملة (٢٢)، ليس فقط لأن الافتراضات التي جرى تقديمها تظل من حيث الجوهر موضعية، وإنما أيضاً، في كثير من الحالات، لأنها الافتراضات الوحيدة التي قدمت إلى اليوم (٢٣). والحال أنه لما يتميز بأهمية بالغة في نظرنا أن لولئك اللذين كانوا يعرفون للعمارة المصرية لتذاك بشكل أفضل قد وانتهم الشجاعة لمحاولة إعادة تركيب شكلها، لأن ذلك قد أسهم كثيراً في المساعدة على فهم ما كان بالإمكان أن تكون هذه العمائر شبيهة به.

وهكذا فإن كشف العمائر الفرعونية قد أضاف إلى مآثر تقويم نتائج بحث دقيق ثمار تأمل فكري عميق قام به رجال تمكنوا من التوفيق بين خصائص الصرامة العلمية للمهنة لمهندسي وفضول المؤرخ وحساسية الفنان. وشراء الوثائق المترتبة على ذلك ضخمة، خاصة إذا ما قارنه للمرء بجميع الأعمال التي سبقتها، أي كانت مآثر أصحابها.

إن هذه الحساسيات للأثلة دائماً، بالرغم من الصرامة العلمية للقصور، لا يبدو البتة في نظرتنا أنها تهدد تعبيراً عنها أفضل مما في مشاهد البيت للنظرة في أوصاف مصر. وإذا كان نيقيلييه وهوروا ولويير يظلون راضين على هذا المستوى أيضاً، فإن ذلك ضروب تميز فيه ببترا وسهيل بالتاكيد (٢٤). إن للجميع سوف يصعدون إلى أن يستحضروا بشكل ملمح بالحياة اكتشافهم لمواقع الأثار لو إلى أن يستعيدوا تحت إحصارنا مشهداً ما من مشاهد حياة للعهد كما تسنى لهم تخيله. وسوف يفضل المهندسون والمعماريون إعادة تركيب صور المشاهد القديمة على استحضار الجمال والشعر اللذين سوف يكون لهما مع ذلك مواقع بطولون بها خلال رحلتهم المصرية.

وهكذا فإن المرء يتأمل بتلذذ اللوحات التي كرسها نيقيلييه وهوروا لإعادة تركيب صور موكب الزوارق للقنصة وهي تمتاز بلوحة هيكل معابد إسنا أو بخره أو الصور التي قدمها لويير للجزء الداخلي من معبد دير المدينة الصغير (٢٥). إلا أن الشيء الأكثر جانبية يظل هو تثبيت نظرتنا على الشخصيات التي تضل حيوية على خلفية مشاهد البيت بشكل ينفعنا إلى استرجاع ملحمتها بشكل بسيط وواقعي. وعلى كثير من اللوحات، هنا وهناك، غير بعيد عن قوة الحراسة ذات الزى الرسمي للوحد أو عن خيام الجيش، فإن العلماء الشبان يجلسون على كتل حجرية أو على مقاعد صغيرة، وفي اليد ورق رسم وعلى الرأس قبعة ذات الرنين أو للنسوة واللباس سترة طويلة، وعلى الجنب سيف وبندقية في متناول اليد. وأحياناً ما تذكرنا شمسيات كهيرة بأننا في الفترة الأشد حرارة في السنة (٢٦). والقيظ المضطرب إلى انعدام الأمن وأحياناً إلى أمراض العيون إنما يجعل أهمية المآثرة للنجزة أبغ تليها في النفس.

إن ما يقدم إلينا هذه المرة ليس مجرد ريبورتاج، ليس مجرد استحضار عادي للمعائر، ليس شيئاً يتم عمله على نحو مشابه لها، بل هو نتيجة عمل انتقادي وملمح. وأخيراً، فإن اللوحة الرومانسية، الصغيرة التي شلقها ما تزين اللوحات إنما تضعنا في العصر تماماً. والأسلوب أو بالأحرى التعبير الذي يجري إضفاؤه على بعض تيجان أعمدة بندرة المحتورية أو الملح (الناپوليوني) تماماً لبعض الوجوه الملكية على اللوحات التي تستحضر النقوش الباقية في قاعة الكرنك التي يستند سقفها إلى أعمدة إنما تعتبر بلا جلال أيضاً انعكاساً لذلك (٢٧). وإذا كانت كل حقبة من تاريخنا الحديث تتميز بأسلوبها الأسيل في النظر إلى حضارة قديمة وتشوه بذلك إلى حد ما، بشكل غير واع تعلماً في

الغلب الأحيان، تمثيلاتها للواقع الذي يجري النظر إليه، فإن حملة مصر لا تقلت من هذه القائمة. لكن هذه التهديلات للجمدة في اللحظة التي رسمت فيها اللوحات لا تحول بالفعل دون تكوين فكرة مناسبة من التيمات الرئيسية والشكل العلم لزخرفة المعابد. وإمام جهد تسجيلي بهذه الدرجة من العظمة وهذه الدرجة من التعلم وهذه الدرجة من الأمانة بالرقم من كل شيء، والذي يدل حتى يتصنى الكشف في أوروبا عن جوانب جديدة مميزة لمصر، فإن الانتقالات المتصلة بمثل هذه التفاصيل لا تبدو أن تكون شكلاً لإبراز درجات شعور الإحباط الفعلي الذي يهيمن تجاه عمل استثنائي كهذا العمل.

وبهذا المعنى ويسبب القيمة العلمية التي يحتفظ بها هذا العمل النموذجي لليوم، فلا مفر من الاعتراف بأن حملة مصر، في هذا المجال المحدد، قد أنهزت ما يمثل دون شك، وبالنسبة لكل العالم اليوم أيضاً، أحد الجوانب الأقل إثارة للجدل في المهمة التي قامت بها. والواقع أن عدداً من الرجال المثقفين، للمركين تماماً للوضع الذي يجدون أنفسهم فيه، والمستنكرين للجوانب غير الإنسانية للحرب التي استحضرها يهود أو يهودية خلقها ويون مولوية، قد وصلوا هناك، بفضل جودة أعمالهم، إلى تحقيق أنبل غاية حديثة الحملة لنفسها : أن تنتقل إلى الأجيال القادمة كل ما يمكنها إسهامه من الميراث الضخم لواحدة من أعظم حضارات العالم.

الكرنك، ١٢ أغسطس ١٩٨٨ .

حواشي الفصل التاسع

- 1 Sur les premiers voyageurs en Haute-Égypte, voir : C. TRAUNECKER, J.-C. GOLVIN, *Karnak, Rénovation d'un site*, Paris, Fribourg 1984, pp. 35-102 et bibliographie pp. 227-229, voir aussi C. TRAUNECKER, *Deux missionnaires franciscains en Haute-Égypte (mai-août 1691)* dans *Orbis Biblicus et Orientalis*, 1989, pp. 171-241.
- 2 JOLLOIS et DEVILLIERS, conscients des avantages dont ils bénéficiaient, évoquent ainsi les conditions de visite de leurs prédécesseurs : « on s'empresse comme si le monument devait incessamment s'écrouler et disparaître pour toujours. Après cet examen mal dirigé, dont l'esprit et les yeux sont également fatigués, on rentre dans sa barque, plus étonnés que satisfaits », *Description de l'Égypte*, éd. Parckouche, tome II, p. 365 (*Description II*, p. 365).
- 3 F.L. NORDEN, *Voyage d'Égypte et de Nubie*, Copenhague, 1755, p. 164 et p. 101. Sur les dates de passage de F. Norden et R. Pococke, voir TRAUNECKER, GOLVIN, *op. cit.*, pp. 89, 94, 220.
- 4 R. POCOCKE, *A Description of the East and some other Countries, I: Observations on Egypt*, Londres 1743, p. 90 et s.
- 5 C. SAVARY, *Lettres sur l'Égypte*, Paris, 1785. Les descriptions des monuments de la Haute-Égypte sont tirées de l'ouvrage de R. Pococke, C. Savary ne s'étant pas aventuré au sud du Caire. Voir à ce sujet le témoignage de SONNINI de MONONCOURT dans ses *Voyages dans la Haute et Basse-Égypte*, Paris, 1799, p. 12 et TRAUNECKER, GOLVIN, *op. cit.*, pp. 96-8.
- 6 VOLNEY, *Voyage en Égypte et en Syrie*, Paris, 1783 ; réédité par J. Gaulmier, Paris, 1959, p. 156.
- 7 QUATREMÈRE DE QUINCY, *De l'architecture égyptienne*, Paris, 1803 (rédigé en 1785), passages cités, pp. 5, 210, 224.
- 8 VOLNEY, *op. cit.*, p. 129.
- 9 Pour une bibliographie sur V. Denon, on consultera J.-M. CARRE, *Voyageurs et écrivains français en Égypte*, Le Caire, 1956, p. 143 et J. CHATELAIN, *Dominique Vivant Denon et le Louvre de Napoléon*, Paris, 1973, pp. 347-50 : l'épisode égyptien : pp. 77-95 ; I. A. GHALI, *Vivant Denon, ou la conquête du bonheur*, Le Caire, 1986. Les quelques citations faites ici sont extraites de ce dernier ouvrage, *op. cit.*, pp. 149-185.
- 10 I. A. GHALI, *op. cit.*, p. 163, cette citation est de l'éditeur du *Voyage dans la Basse et la Haute-Égypte*.
- 11 V. DENON, *Voyage dans la Basse et la Haute-Égypte*, Paris, 1802. (Nous citerons les planches selon l'édition de Londres de 1809). Ce mélange d'éléments est évident, pl. L : une palette de scribe a été dessinée à côté de serrures à clé en bois, en usage à l'époque de l'expédition, et des fragments de tissus coptes.
- 12 On doit citer quelques belles restitutions de façades, comme celles du temple de Dendara (pl. XIV) et d'Esna (pl. XXXII). Les erreurs d'échelle sont très sensibles, par exemple sur la représentation de la porte d'Evergète à Karnak (pl. XVIII), les personnages sont beaucoup trop grands par rapport à celle-ci. Les proportions des éléments d'architecture représentés sur certaines planches (pl. XLVI) sont très faussées. L'exagération de la pente des pylônes et des portes est particulièrement sensible sur les planches XIII, XVIII, XX, XXIII. Les édifices ne sont pas correctement orientés les uns par rapport aux autres sur la vue de l'entrée de Medinet Habou (pl. XXI).
- 13 V. DENON, *op. cit.*, pl. XXII, XXVI, XXIX.
- 14 Certaines vues générales sont habilement rendues comme celles du temple de Louqsor (pl. XXV) ou d'Esna (pl. XXI).
- 15 Tous les extraits qui vont suivre proviennent de l'ouvrage de Marc DE VILLIERS DU TERRAGE, dont toute la matière provient des notes et documents d'un témoin direct des événements : E. DE VILLIERS DU TERRAGE, membre de la Commission des Sciences et des Arts, *Journal et souvenirs sur l'expédition d'Égypte*, mis en ordre et publiés par le baron Marc de Villiers du Terrage, Paris, 1899 (DEVILLIERS, *Journal*, pp. 94-216).

En ce qui concerne la bibliographie relative à la Commission des Sciences et des Arts, on pourra se reporter à J.-M. CARRÉ, *op. cit.*, pp. 162-7 ; et H. MUNIER, *Tables de la Description de l'Égypte*, C.C. GILLISME, dans *Monuments of Egypt, the Napoleonic edition*, pp. 1-39 et bibliographie, pp. 43-45.

- 16 Publié dans *Description de l'Égypte*, Atlas de planches III, pl. 21 (D.E., III, 21). Le cadavre fut découvert dans la seconde chapelle est de la deuxième salle hypostyle (salle B' dans F. DAUMAS, *Dendara et le temple d'Hansor*, Le Caire, 1969, pl. II).
- 17 Voir *supra*, p. 354
- 18 D.E., I, 84.
- 19 DEVILLIERS, *Journal*, pp. 174-5. Sur les inscriptions laissées en Haute-Égypte (Dendara, Karnak, Edfou, Philae) par les membres de l'expédition, voir G. LEGRAND, *Inscriptions françaises de Haute-Égypte*, Paris, 1911.
- 20 Les fonctions de ces membres de l'expédition étaient les suivantes : Descotils (ingénieurs des Ponts et Chaussées), Dupuy et Rozière (minéralogistes), Duchanoy (zoologiste), Dutertre (dessinateur, graveur), Nectoux (botaniste).
- 21 Voir *supra*, p. 355
- 22 Liste donnée par E. DE VILLIERS (*Journal*, p. 213). D'une façon générale, pour tout ce qui concerne la liste des membres de l'expédition et leur fonction on se reportera à : Marc de Villiers dans E. DE VILLIERS, *Journal*, pp. 335-354 ; J.-M. CARRÉ, *op. cit.*, pp. 148-152 ; et aux travaux de J.-E. GOBY, cités par C.C. GILLISME (*op. cit.*, pp. 45).
- 23 Sur ce total, les édifices de Haute-Égypte ont fait l'objet à eux seuls des 330 planches des 4 premiers volumes. Ceux des environs du Caire et les sites du delta représentent seulement 43 planches du V^e volume. Les 46 dernières planches sont consacrées aux documents et inscriptions recueillis.
- 24 Devilliers et Jollois, qui ont presque toujours fait équipe, sont les auteurs de près de 110 planches. Chabrol et Jomard en ont signé près d'une centaine à eux deux (dont une vingtaine ensemble). Dutertre en a fait une soixantaine et Le Père plus de quarante. Cécile et Balzac en ont signé chacun une trentaine, Redouté et Lancret, une vingtaine. Les autres membres n'en ont guère produit plus de dix et même parfois beaucoup moins si l'on exclut Saint-Genis et Corabœuf associés le plus souvent à de Villiers et Jollois.
- 25 Il faut citer ici : le plan général de Thèbes (D.E., II) de Medinet Habou (II, 2) et ceux des secteurs incluant le *Ramesseum* (II, 19), Deir-el-Bahari (II, 38), le temple de Seti I^{er} à Gournah (II, 40), ainsi que les plans de la Vallée des Rois (II, 77), de Louqsor (III, 1), Medamoud (III, 68), Dendara (IV, 2) *Antaeopolis* (IV, 38) et celui des trois enceintes de Karnak (III, 16). Saint-Genis et Corabœuf ont dressé seuls celui d'El Kab (I, 66). D'autres plans généraux sont dus à Le Gentil, Éléphantine (I, 30 en collaboration avec Jomard), Esna et *Constatopolis* (I, 73). Le plan de Behbet el-Hagar est du à Dubois Aymé et Jollois (IV, 30). Jacotin dressa ceux d'*Héliopolis* (V, 26), de Memphis (V, 1), des pyramides (V, 6) et de Tanis (V, 28). À Jomard revient le mérite d'avoir réalisé ceux d'Abydos (IV, 35 et 37), d'Antinoé (IV, 53 ; aidé de Chabrol), d'*Hermopolis* (IV, 50), d'El-Tell (Tell el-Amarna) (IV, 63), de *Cusae* (IV, 67) et d'*Athribis* (V, 27).
- 26 Le dessin des bas-reliefs n'est pas l'exclusivité des artistes (dessinateurs et peintres) tels que Dutertre ou Redouté. Jomard (géographe) en a dessiné lui aussi un grand nombre ainsi que les ingénieurs des Ponts et Chaussées, Chabrol, Lancret, Devilliers et Jollois. Cécile (ingénieur) et Balzac (architecte) en ont exécutés quelques-uns et Le Père (architecte) aucun. D'autres, au contraire, n'ont signé que des planches relatives à des objets ou des bas-reliefs, en petit nombre toutefois, comme Rozière, Bigant, Pomel, Fèvre, Lenoir, Protain, Viard s'est consacré au relevé des cartouches royaux. Le dessin des parois décorées offre un intérêt direct pour la compréhension de la fonction des salles, mais nous ne pourrions pas ici citer toutes les planches concernées. Le relevé du bas-relief du temple de Khonsou par Dutertre, représentant la façade du deuxième pylône en offre un bon exemple (D.E., III, 57), tout comme les scènes de la salle hypostyle de Karnak (D.E., III, 32, 33).
- 27 On doit à Devilliers et Jollois, un très grand nombre d'excellents relevés. Le souci de précision de l'ingénieur y est évident et le plus souvent, un grand nombre de cotes est indiqué. Ont été relevés :

les monuments de *Philae* (D.E., I, 5, 6, 24, 25, 29), le temple ptolémaïque d'Assouan (I, 38), Kom Ombo (I, 42), Edfou (I, 61), Esna (I, 72, 85), *Contralatopolis* (I, 84), Médinet Habou (II, 18), les colosses de Memnon (II, 20), les ruines de Qous (IV, 1), Dendara (II, 8, 31) et plusieurs tombes hypogées d'Assiout (IV, 44, 47-49).²⁸

28 Le Père a réalisé le plan du grand temple d'Amon-Rê à Karnak (D.E., III, 21) et celui du temple de Khonsou (D.E., III, 54), ainsi qu'une importante série de plans, coupes et élévations relatives à Edfou (I, 50-54, 62), Erment (I, 94), Médinet Habou (II, 4-6), au *Ramesseum* (II, 27) et aux tombes de la Vallée des Rois (II, 39). On peut admirer aussi la grande coupe de la pyramide de Khéops (V, 14) ou le relevé de l'« aiguille de Cléopâtre » à Alexandrie (V, 33). Balzac a relevé le temple sud d'Éléphantine, aujourd'hui détruit (D.E., I, 35, 38), dessiné les élévations et les coupes de la grande porte de Médinet Habou (avec Jomard II, 16) et des tombes de Gournah (II, 45). Grâce à lui, on connaît la forme du cirque antique d'Alexandrie (V, 39) et celle de la grande enceinte d'Abou Fedah (V, 62) car il n'en reste rien aujourd'hui. À Karnak, Jomard fit le levé du temple d'Opet (III, 58, 65 ; en collaboration avec Chabrol), et il a publié des planches concernant certaines tombes de la Vallée des Rois (II, 45 ; avec Dutertre, Redouté et Cécile), ainsi que l'obélisque oriental de Louqsor (III, 11 ; avec Devilliers, Jollois et Lancrer). Chabrol réalisa les relevés du temple de *Contralatopolis* avec Lancrer (D.E., I, 89), de l'obélisque occidental de Louqsor (III, 12 ; avec Devilliers et Jollois) et une belle coupe la grande porte nord de Dendara (IV, 5). Lancrer a assuré le levé du petit temple de Deir-el-Medineh (II, 34), celui de la porte d'Evergète à Karnak (III, 52-53). En ce qui concerne le plan du grand temple d'Amon-Rê, nous avons pu disposer du dossier de publication du *Plan topographique de Karnak* et de l'étude historique des plans de Karnak, grâce à notre collègue, M. Azim, auquel nous adressons nos remerciements.

29 À propos de cet édifice, on consultera notamment G. LEGRAIN, *Les temples de Karnak*, pp. 64-74 ; P. BARGUET, *Le temple d'Amon-Rê à Karnak*, Le Caire, 1962 ; J. LAUFFRAY, *Kémi XX*, 1970, pp. 111-164 avec bibliographie des travaux de H. Chevrier, p. 111, n. 4.

30 Telle est bien la conclusion à laquelle nous ont conduit les travaux les plus récents concernant ce sujet : M. AZIM, *La structure des pylônes d'Horemheb à Karnak* dans les *Cahiers de Karnak*, vol. VII, Paris, 1982, pp. 127-146.

31 Devilliers et Jollois avaient pressenti l'événement qui survint effectivement le 3 octobre 1899. Une partie de la salle hypostyle s'effondra brutalement en raison de la faiblesse des fondations dont le grès avait été détérioré par l'effet pernicieux des eaux d'infiltration ; TRAUNCKER-GOLVIN, *Karnak*, pp. 161-168, D.E., Texte (Édition Panckoucke), II, p. 441.

32 On ne saurait faire état ici des nombreux détails d'architecture observés (colonnes, chapiteaux, gargouilles, etc.) et des relevés partiels souvent cotés. Nous sommes heureux de pouvoir parfois disposer ainsi également de documents relatifs à des monuments qui ont disparu. Devilliers et Jollois ont étudié de nombreux détails des édifices de *Philae*, Kom Ombo, Edfou, Esna, Louqsor, Abydos, Antinoé, tout comme Le Père à Médinet Habou ou au *Ramesseum*. Jomard et Chabrol en ont fait autant à Médinet Habou, Gournah, Karnak, Dendara, Antinoé et Alexandrie. Dutertre, Lancrer, Balzac ; c'est dans une moindre mesure que Redouté et Girard ont contribué à cet effort. Nous ne citerons pas toutes ces planches, mais seulement les remarquables études comparatives des chapiteaux d'Esna faites par Cécile (D.E., I, 75), de *Contralatopolis* par Lancrer (I, 89) et d'Edfou par Devilliers et Jollois (I, 56-57).

33 Les restitutions architecturales en plan, coupe, élévation, perspective, constituent une part importante du travail des auteurs de la *Description de l'Égypte*. Elles représentent bien la synthèse de toutes les observations faites sur le terrain et des hypothèses qu'ils bâtirent pour évoquer l'aspect d'origine probable des témoins majeurs d'une architecture dont les qualités étaient ainsi révélées pour la première fois. Cet effort est d'autant plus méritoire qu'il est resté inégalé. Bien peu de temples ont depuis fait l'objet de recherches en ce sens. Mis à part Karnak dont les principales phases d'évolution viennent tout juste d'être restituées et dessinées à l'ordinateur, on serait en peine de citer beaucoup d'autres exemples de restitutions même « classiques », à part celles de Médinet Habou, faites par U. HÖLSCHER, *The excavations of Medinet Habu*, Chicago 1934.

En revanche, nous pouvons énumérer un grand nombre de restitutions faites par Devilliers et

Jollois (relatives à Kom Ombo, Esna, au *Ramesseum*, au temple de Louqsor, ou à ceux de Medamoud, Dendara et *Hermopolis*). D'autres ont été réalisées par Le Père, surtout en ce qui concerne le grand temple d'Amon-Ré à Karnak ou le *pronaos* du temple de Dendara (*D.E.*, III, 21-28 et 41, 55 ; IV, 29). La restitution de la grande porte de Dendara par Chabrol et Jomard (*D.E.*, IV, 6), ou de la façade du temple d'*Antaeopolis* (*D.E.*, IV, 41) sont également remarquables.

- 34 Ces qualités sont nettement celles d'un artiste comme Dutertre, connu en outre pour ses talents de portraitiste des membres de l'expédition ; DE VILLIERS, *Journal*, pp. 355-365. Il n'a livré aucune restitution à caractère trop technique en « géométral », mais une éblouissante série de vues d'ambiance de *Philae* (*D.E.*, I, 18), Edfou (I, 49), Erment (I, 93), des colosses de Memnon (II, 20), du *Ramesseum* (II, 25), de Karnak (III, 17, 20, 54), Dendara (IV, 4), *Antaeopolis* (IV, 43), d'Assiout (IV, 43) et des pyramides (V, 10, 12). De même, Cécile présente toute une série de sites de façon très vivante : le kiosque de Trajan à *Philae* (*D.E.*, I, 25), le temple de Kom Ombo (I, 40), le mammisi d'Erment (I, 94) et de magnifiques vues de Médinet Habou (II, 3), Louqsor (III, 3), Karnak (III, 18, 19, 43, 48, 49), Dendara (IV, 7), *Antaeopolis* (IV, 40), Assiout (IV, 46), *Hermopolis* (IV, 51), Memphis (V, 1), et des pyramides (V, 10, 12). Devilliers et Jollois nous ont offert de belles perspectives de *Philae*, Éléphantine ou du temple de Seti I^{er} à Gournah restitué, ainsi que de très belles vues intérieures du *pronaos* d'Esna (*D.E.*, I, 80) et de Dendara (IV, 30). Le Père aime à évoquer l'ambiance des monuments, telle qu'il l'imagine dans l'antiquité : nous retiendrons surtout ses vues de la grande salle hypostyle de Karnak (II, 42), de la cour du temple de Khonsou (II, 25), du petit temple de Deir-el-Medineh (II, 37) et du portique du grand temple de *Philae* (I, 18). Jomard s'est plu à évoquer la première cataracte et l'île d'Éléphantine, mais nous citerons surtout les monuments qu'il a dessinés à Antinoë (IV, 54), El Deir (IV, 63), Qasr Qaroun (IV, 69), ainsi que ses vues des pyramides (IV, 72 et V, 16). Balzac a représenté Edfou (I, 48), Erment (I, 93), Médinet Habou (II, 14-15), le *Ramesseum* (II, 24), Karnak (II, 18, 46), Memphis (V, 4) et les pyramides (V, 8). L'unique planche publiée par Conté offre une image saisissante du sphinx et de la grande pyramide (IV, 11). Le peu de planches signé par Dubois Aymé est sans doute une conséquence de l'exil à Qosseir qui lui fut imposé par Girard : citons l'obélisque d'*Héliopolis* (IV, 26) et la forteresse de Babylone (IV, 11). Tous ces travaux sont infiniment plus critiques que les loisonnantes évocations qui allaient suivre au cours du XIX^e siècle : TRAUNECKER-GOLVIN, *Karnak*, pp. 143-152. À la rigueur de savants conscients du rôle scientifique qu'ils devaient jouer s'opposera l'imagination débridée d'auteurs plus récents, pour qui l'Égypte ancienne était devenue un sujet propre à susciter rêves et phantasmes. Les planches de la *Description de l'Égypte*, au contraire, sans être dépourvues de poésie et de sensibilité montrent bien que leurs auteurs ne se sont jamais laissé entraîner à des excès quel qu'ait été leur enthousiasme. Il est rare que celui-ci atteigne le seuil de fantaisie qui est celui de la restitution de la grande porte d'Evergète à Karnak : *D.E.*, III, 51.
- 35 À ces vues déjà citées, on comparera celle dessinée par Chabrol représentant la procession de la barque d'Isis à *Philae* (*D.E.*, I, 11).
- 36 Sur aucune planche on ne peut observer l'emploi d'instruments topographiques perfectionnés. Les dessinateurs n'ont qu'un simple carton sur les genoux et des crayons. Devilliers, *Journal*, évoque bien l'emploi d'une lunette de visée, mais on ne sait si celle-ci provient du matériel qui put éventuellement avoir été récupéré sur les épaves comme celle du *Patriote* coulé à Alexandrie au début de l'expédition ou s'il s'agit d'une fabrication locale due à l'ingéniosité de Conté. Sur de nombreuses scènes on aperçoit les savants au travail. Citons celles dessinées par Balzac au *Ramesseum* (*D.E.*, II, 24-26), à Louqsor (II, 24) et à Karnak (III, 18, 46, 56). À Gizeh où on les observe en train de relever le sphinx (V, 8). Cécile les a figurés à Louqsor (III, 2), ainsi qu'à Karnak avec leurs parasols (III, 43), où ils parcourent le site en redingote, sabre au côté (III, 48, 49). On les voit encore à Dendara (IV, 7), Assiout (IV, 46), *Hermopolis* (IV, 51), Gizeh (V, 9, 13) et Alexandrie (V, 32). Dutertre en a donné des images très vivantes à Karnak (III, 17, 20), Assiout (IV, 43), et Memphis (V, 3).
- 37 L'expression particulière des visages des personnages royaux dessinés par Lancroi sur ses planches de bas-reliefs de la salle hypostyle de Karnak (*D.E.*, III, 39) rappelle incontestablement beaucoup plus le portrait de l'empereur des Français au moment où furent gravées celles-ci que le profil de Seti I^{er} ou de Ramsès II. L'expression poupine que Le Père confère aux chapiteaux du *pronaos* de

Dendara (IV, 12) ou le visage encore plus bouffi qu'y ont les têtes de la déesse Hathor sur d'autres planches (IV, 29) marquent bien leur époque. Au sujet de ces inévitables altérations selon les époques : TRAUNECKER-GOLVIN, *Karnak*, pp. 99-152 et 205-212. Le Père place dans la salle hypostyle un personnage qui nous évoque plus un éphèbe grec qu'un authentique égyptien (III, 42). D'une façon générale, sur toute les planches, les traits des Égyptiens se trouvent sensiblement « européanisés ».

الفصل العاشر

مصر القطيعة فهد «وصف مصر»

بقلم : كلود توليكر

في ١٦ أغسطس ١٧٩٩، تغادر القاهرة مجموعة من ستة وعشرين شخصاً. هؤلاء هم أعضاء لجنتين، الأولى يرأسها عالم الرياضيات فورييه، والثانية يرأسها المهندس كومستاز. وهاتان اللجنتان مكلفتان بجرد آثار مصر القديمة. وهذه الرحلة محصلة لأمنية لمرب عنها بوناپارت منذ يناير ١٧٩٩ : لقد بنا أن القائد العام يرغب في أن يتجه أعضاء المعهد ومختلف أعضاء اللجنة إلى مختلف مواقع مصر، حتى يدرسوا الأشياء الفرعية التي قد يجدونها هناك. والحال أن هذه الرغبة كانت بمثابة أمر. هكذا يروى لنا جولوا، أحد المهندسين الشبان في اللجنة، أصل هذه الرحلة إلى مصر العليا، في يومياته (١). ولم يكن هؤلاء الرجال هم أول أعضاء في لجنة العلوم والفنون يشقون طريقهم إلى مصر العليا. فبعد أكتوبر ١٧٩٨، كان فيلقان دينون قد سار في وكب جيش فيزيه الذي يطارده مراد بك وأنصاره في مصر العليا. ولدى عودته إلى القاهرة، في أراثل يوليو ١٧٩٩، تمكن من إطلاع بوناپارت على حصيلة من رسوم العمائر والمناظر الطبيعية في مصر العليا. ومن المرجح أن وجود هذه الأوراق هو الذي حث على دينون بلمتياز مرافقة بوناپارت عند رحيله من مصر وعن جيشه بعد ذلك ببضعة أسابيع، في ٢٢ أغسطس ١٧٩٩. والحال أن نشر رسوم وقصة رحلة دينون سوف يكون مفيداً للقضية بوناپارت. لكن هذا الأخير يصبر قبل إبحاره لأمر بأن تتحرك لجنتا مصر العليا بأسرع ما يمكن.

وبعد دينون، ترحل لجنة برئاسة جبرار إلى مصر العليا في ١٩ مارس ١٧٩٩ لكي تتولى القيام بمسح من القياسات والملاحظات سعياً إلى تحديد النظام الهيدروغرافي للملك وتحديد وسائل تحسين الري واستغلال الأراضي. وبين أعضاء هذه اللجنة التسعة

يبرز الشاب دوسيهير جولوا، للهندس للعديد التخصصات الفنية الذي يبلغ عمره اثنتين وعشرين سنة والشاب الصغير إنوار ديفيليه، تلميذ كلية الهندسة، الذي يبلغ عمره ثمانى عشرة سنة بالكاد عند وصوله إلى مصر (٢). ويتحسس الاثنان معاً لعماير مصر ويتوليان، بمبارتهما الخلسة، إعداد بيان بجميع الأطلال التي يمكنهما الاقتراب منها خلال مهمتهما (٣)، ليس دون تعدى نوبات غضب جبرار، غير للنتائج على ما يبدو على الفن القديم.

وقد نام هذا التعاون مدة جد طويلة وإلى انقلامهما ترجع فصول عديدة من «وصف مصر». والحال أن ديفيليه، الجهد والمجهود، ينادى زميله الأكبر منه سنًا، والذي يشير إليه كثيراً في يومياته، بصيغة «أنتم». وهما لن يرفعا الكلفة بينهما إلا فيما بعد بكثير، لدى هوبتهما إلى فرنسا. وكان التخصص الأول لجولوا هو العمارة. ولذا فإن يومياته، الأكثر انتقالاً إلى الحديث عن أحواله الشخصية من يوميات ديفيليه، تخصص مساحة واسعة للملاحظات المتعلقة بتقنيات البناء. وعندما يلتقيان باللجنة التي يرأسها كومستانز، ثم باللجنة التي يرأسها لورييه، والتي كانا قد سبقاها، فإن الجميع يقررون توحيد جهودهم وتنسيق أعمالهم (٤).

ولم تنهب هاتان اللجنتان إلى أبعد من الشلال الأول. وكان من المقرر القيام بحملة إلى النوبة، إلا أنه لم يتسن لها أن تتم. (٥) لما عالم الفلك نهكتو، وهو أحد عمداء اللجنة، فقد تمكن من السير في أثر الجنرال بيليار، في تغلفه للقصر في النوبة. (٦) ولدى العودة إلى القاهرة، يجرى توزيع أعضاء اللجنتين على أعمال متباينة، جد بعيدة في أغلب الأحوال عن الأعمال المتعلقة بالعصر القديم، لكن كل واحد يظل حائزاً للبيانات التي قام بإعدادها (٧). وإلى الجنرال كليهر ترجع مائدة فكرة نشر جماعى لرسوم ولأعمال وملاحظات لجنة العلوم والفنون (٨).

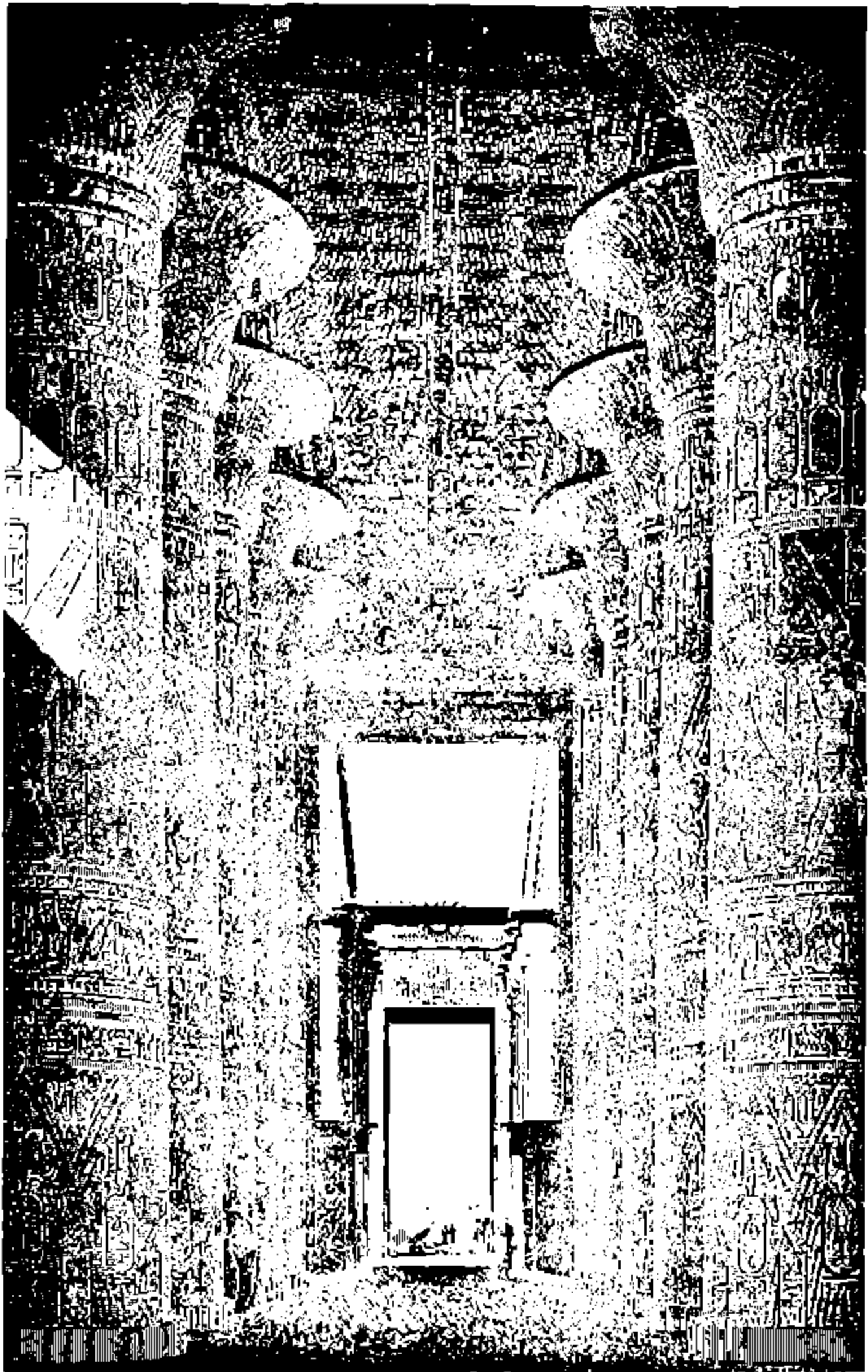
وخلال البحث عن الآثار، يكتشف العلماء والهندسون الشبان حضارة. لكن استحالة فهم النصوص التي تزين جدران المعابد إنما تمثل عقبة جسيمة. وغالباً ما يكتفى للهندسون بوصف وقيلاس ورسم الآثار ويظلون جد حذرين فيما يتعلق بالتفسيرات والتعميمات التي يمكن استخلاصها منها. وهذه الموضوعية (٩) تجعل من «وصف مصر» الضخم مرجعاً لا يزال مستخدماً بين الأركيولوجيين. فهو غنى بالمعلومات المهمة المتعلقة

بالمواقع الأثرية التي اختلفت أو تهدمت اليوم. ثم إنه يزنهم بالإشارات وبالملاحظات المعمارية التي تعد في الغالب جد نكية.

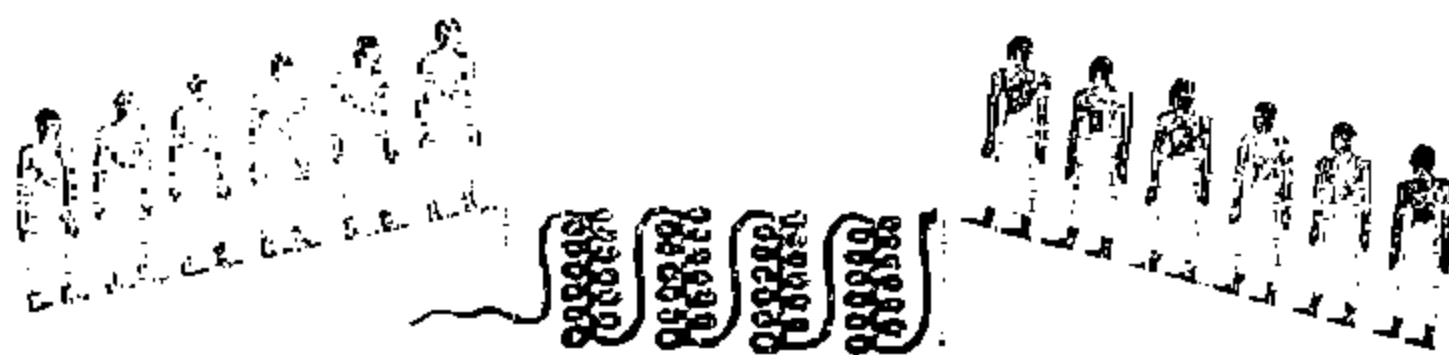
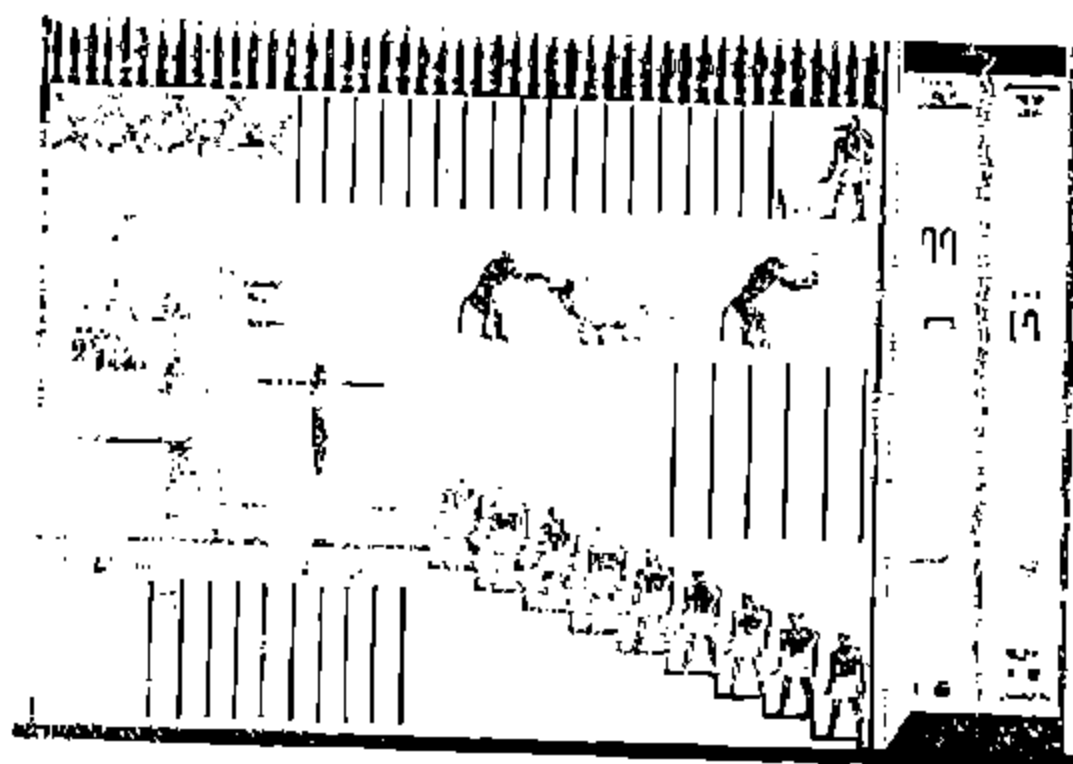
إلا أنه عندما يصافى القارئ للعصر، هنا وهناك، سعياً إلى التفسير أو محاولة لتحديد وظيفة بنائية ما، بل ونظرة إجمالية تركيبية، فإنه يبتسم ويهز كتفيه ويصرف النظر. فالآن وقد أصبح بالإمكان قراءة الكتابة الهيروغليفية ككثير من الكتابات القديمة الأخرى وحيث يفصلنا نحو قرنين من البحوث الإحييتولوجية عن تلك العصر البطولي، فإن أطروحات حولها وديفاليه وجومار ورفاتهم تبدو لنا بالية، إن لم تكن شاذة. على أن التصور الذي قاموا بعرضه على قراء «وصف مصر»، بالرغم من كونه جد بعيد عما نلمحه من الواقع القديم، إنما يعتبر متمسكاً بشكل فريد. وهو انعكاس مصر أخرى، مصر التي حملها في أنفسهم هؤلاء الرجال المنتصون إلى أواخر القرن الثامن عشر، وهي نوع من جنة عدن ينتصر فيها للعقل، ملكوت كامل يحكمه ملك حكيم.

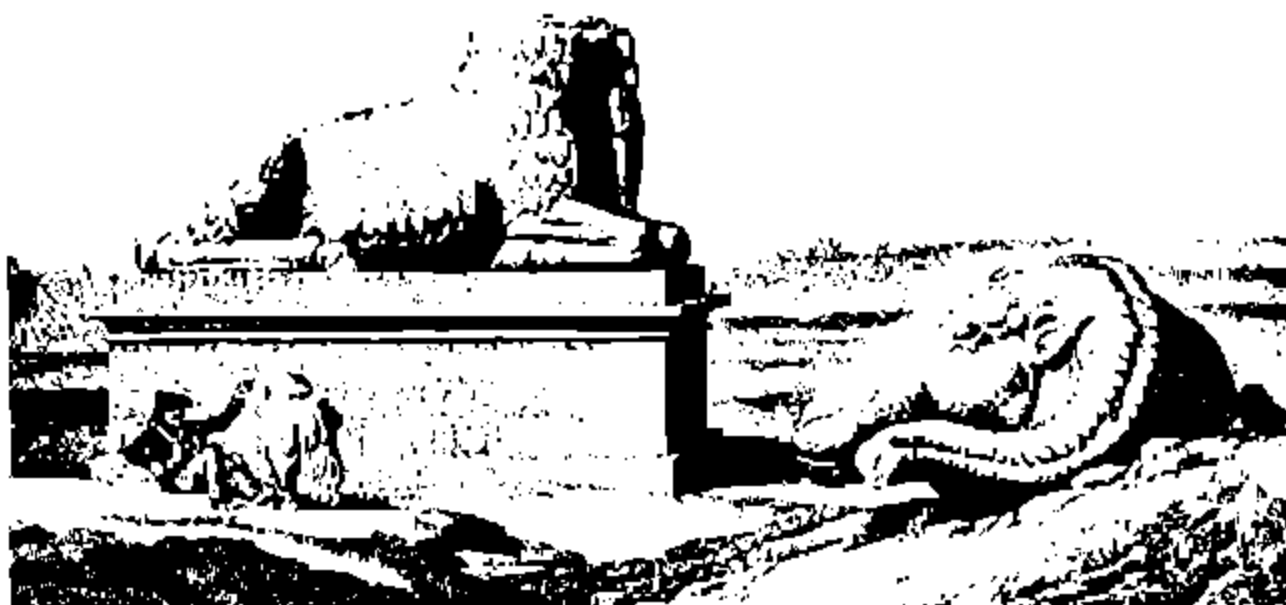
ولما كنت مشغول بالبال بمصر تلك الغريبة والمثالية في آن واحد، فقد وجدت نفسي ملزماً بقراءة كل «وصف مصر»، سعياً إلى جمع التفسيرات والاستنتاجات النهائية للملحة. ولا بد أن من السهل رسم لوحة للأخطاء والتنبهات الخاطئة، لكن مثل هذه المهمة ستكون ظالمة ومضيفة في آن واحد، إن لم تكن خطيرة. فالواقع أن المرء بعد استيعاده بالترسامة رثاء تفسيراً ما سانحاً بشكل خاص، غالباً ما يضطر إلى الاعتراف بأن الفكرة الرئيسية للملحة، أيها كلن ما تتميز به من جدية وإحكام، إنما تبدو جد فارغة. وكان يوسعى أيضاً أن أبين فقط النقاط، وهي عديدة، التي تمكن فيها للمهندسون وعلماء الهندسة والمعماريون من رؤية الأمور بشكل صائب. لكن مثل هذا النهج كان من شأنه أن يكون متهاكاً و، في نهاية الأمر، مغلوطاً من الناحية التاريخية. وفي المقابل، فإن وحدة مصر الهيمنة الصانحة تلك، المنتهقة من الاتصال بين آثار مصر العليا ورجال لم يكن هناك البتة ما قدر لهم سلفاً الاضطلاح يمثل هذه الغامرة، إنما تحفز المرء على تقديرها كما هي.

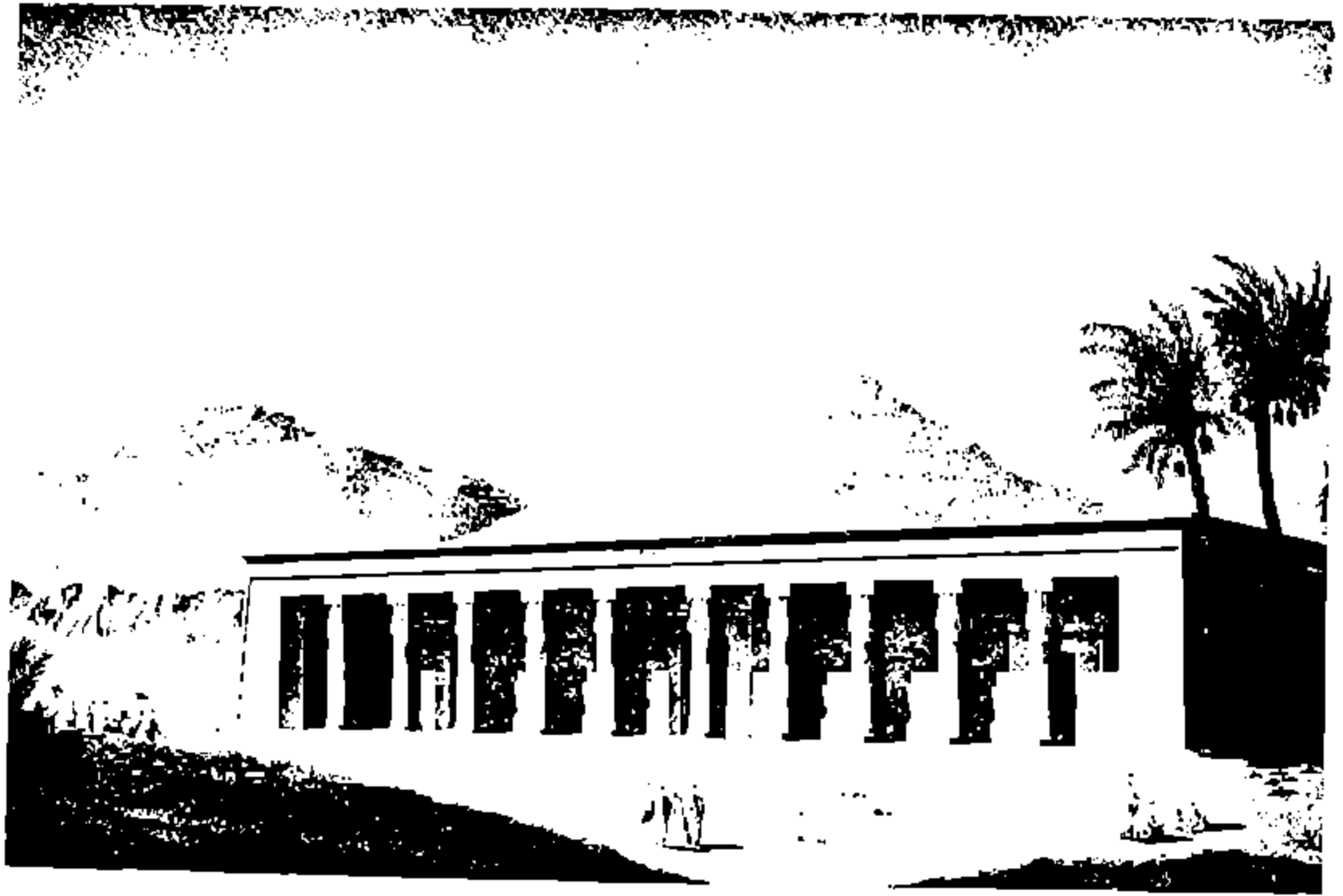
ومن ثم فإنني أقترح، في الصفحات القليلة التالية، إمعة تركيب الخطوط العريضة لمصر تلك التي يتحدث عنها «وصف مصر»، وسوف أقتصر، في هذا التناول الأول، على أهم حقائق الحضارة.

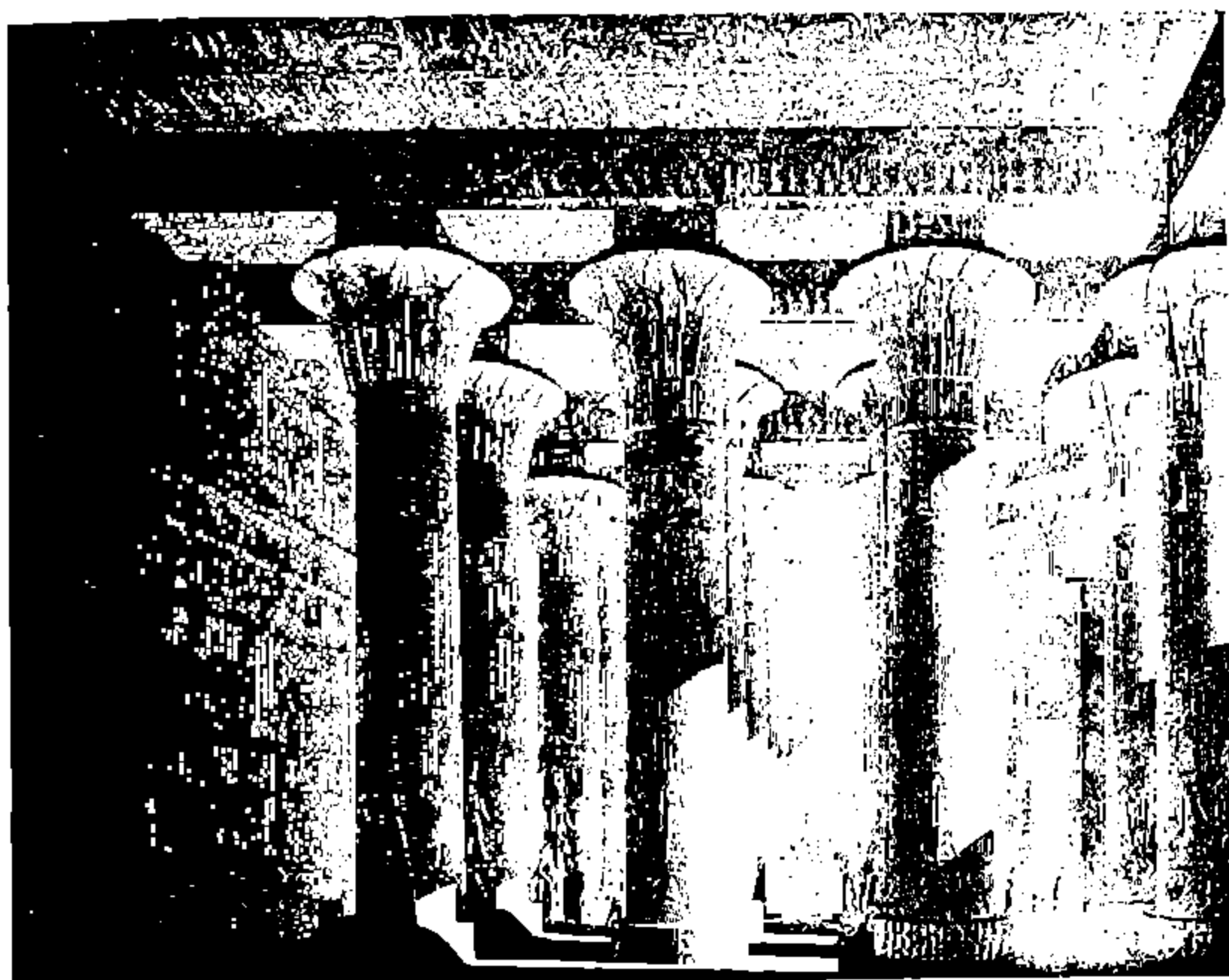


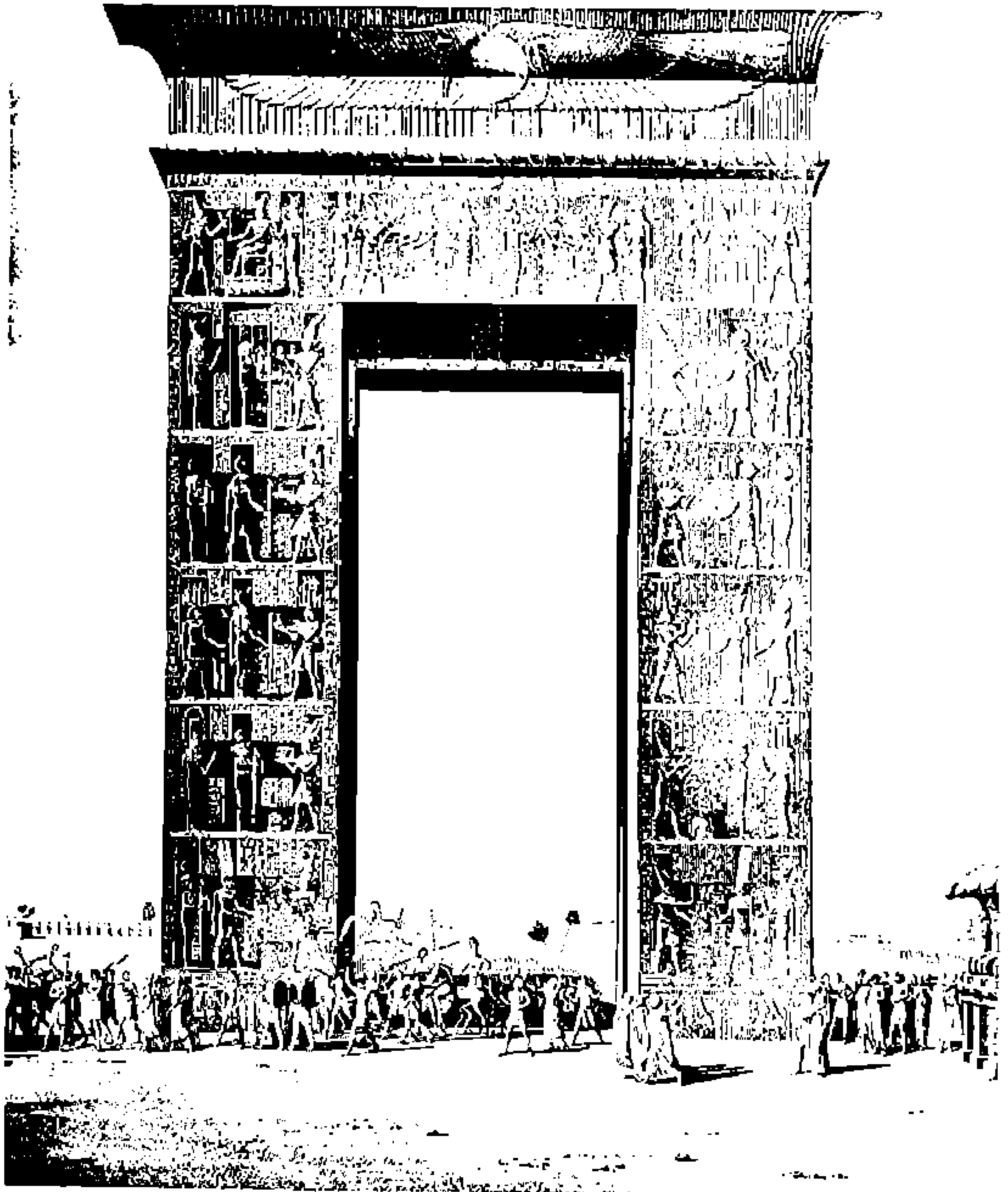
٨١ - القاعة ذات الأعمدة للقصر الكرنك.











٨٦ - بوابة النصر الجنوبية بقصر الكرنك.

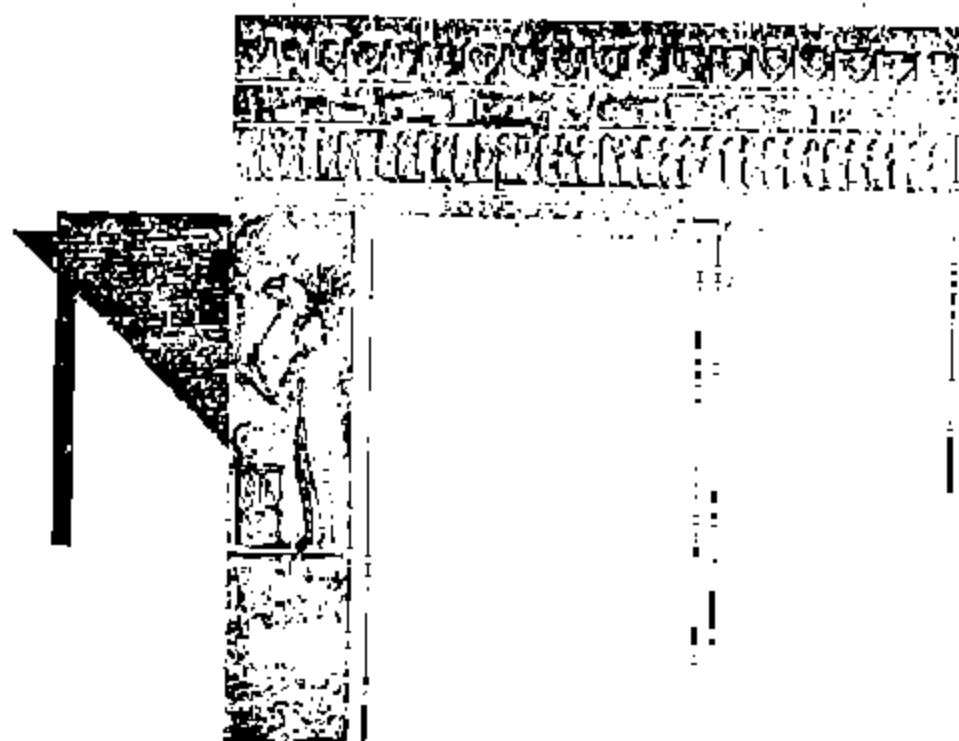




٨٨ - (١) هارپوكرات، إله طبه.



(ب) أحد الهنود، يحارب فرعون.



(ج) املاك.

الملك الحكيم

إن مصر حولوا وديفيليه وجومار ولانكره ورفلقهم هي بلد تهيمن عليه الحكمة.
إن ملوكها يتحلون بأسمى الخصال :

« على مدار قرون عديدة، تفتحت مصر بحكم مستنير وقوى : للقوانين والأعراف العامة والعادات المنزلية كانت تتبارى في تحقيق غاية واحدة؛ وكانت مؤسسة على إبراك لطبائع الإنسان، وعلى مبادئ النظام والعمل الصاعدة التي تعمر بها جميع الأمتة».

وهذا الحكم «كان ملكياً، مؤسماً على قوانين قديمة ومفصلة؛ لقد جرى تحويل الأمثلة التي ضربها لحكم الملوك إلى أعراف ثابتة» (١١). وهذا النص الذي كتبه فورييه إنما يوجز التصور الذي ساد بين صفوف كتاب «وصف مصر» عن الملكية المصرية.

إن الملك، وهو حاكم مثالي، كان قبل كل شيء قائداً عسكرياً يخضع للآلهة. وفي نقش دقيق في مدينة هابو، نجد أن «المنتصر»، الجالس على «نوع من محفة مزخرفة زخرفة ثرية»، يحمل على الأكتاف «اثنا عشر رجلاً من الفئة العسكرية» (١٢)، إلا أننا نجد «على جانبيه رموز الخصال البارزة التي تميزه : الأسد، الذي يدل على شجاعته؛ الصقر، وهو رمز انتصاراته؛ الثعبان الذي يشير إلى اتساع فتوحاته وسيطرته؛ أبو الهول، الذي يحيل بلا ريب إلى تراثه في كل ما يتعلق بالديانة وبالآلهة» (١٣). فبالنسبة لهولوا وديفيليه، كان للملك شجاعاً ومنتصراً وقوياً وحكماً وودعاً.

والقوة والشجاعة لا قيمة لهما إن لم يتولوا إلى جانبهما دعم الإله وخاصة كهنته. وتشير لوحة للكرنك إلى : «البطل وهو يتلقى الأسلحة من يدي الإله نفسيهما» وهكذا فإن جميع أعمال الملوك المصريين كانت ترتبط بالدين؛ وقد كانوا يستشيرون الآلهة للاضطلاع بحملاتهم البعيدة، وأسفل هيكل وشمس القنيس المعابد كانوا يضعون، عند عودتهم، شعارات غلبتهم. ومن ثم فقد كان للكهنة، في جميع شؤون الحكم، نفوذ لا تصح لنا النقوش الدقيقة التي تصني لنا وصفها بالشك فيه، حتى وإن كانت جميع آثار العصر القديم لن تجمع على تأكيد وجوبه» (١٤).

ومعبد فناء قصر الكرنك الكبير (١٥) هو في أن واحد مصلى الملك ومكان حفظ الكتابات البطولية التي سوف تملأ عليه مصلكه :

«ربما كان هنا، في حرم القصر، المكان الذي كان الملوك يجيئون إليه لتقديم قربانهم

قبل أن ينكبوا على شواغل الحكم. وهنا، محاطين بكل أفراد بلاطهم، كانوا يحضرون هذه الصلاة للمعزة بالمعرفة، والتي كان الكاهن الأكبر يتضرع فيها إلى الآلهة أن تنعم على الملك بجميع الخصال الملكية الحميدة، داعياً إياها أن يكون متزناً ورحيماً وفاعلاً للخير وعطوفاً تجاه الآخرين، وعدواً للكذب. وهنا، عند فتح الكتب المقدسة، كانت تنطق على الملوك نصائح وأعمال العظماء، حتى تكون قاعدة يلتزمون بها في إدارة الإمبراطورية،^(١٦).

وتترك الأعمدة الأوزيرية في معبد مدينة هابو أثراً عظيماً في نفس جولا وديفيليه: «إن هذه الأنواع من الكريستالات [التمائيل التي تستخدم كبديل عن الأعمدة] تضفي على الأثر المعماري طابع عظمة ورحمته، يستحيل على المرء ألا يتأثر بها : ويبدو أنها قد وضعت هناك لكي تذكر البشر الفنانين بالخشوع وبالاحترام الذي يجب على المرء الإعراب عنه، وهو يتغلغل في ملائكت الدين والجلال الملكي هذه»^(١٧).

«كيف.. لا يستولي على المرء خشوع ديني وعميق أمام مشهد هذا المجمع للآلهة المجتمعين، بشكل ما، لإملاء شرائع الحكمة وحب الخير للبشر والتي يراها المرء مكتوبة في كل مكان على جدران القصر ١٢»^(١٨)

وعلى مسافة أبعد قليلاً، في القاعة العظيمة التي يستند سقفها إلى أعمدة في القصر، «كان يجري تطبيق هذه الشرائع للمعزة بالحكمة والتي رفعت مصر إلى درجة جد سامية من الجلال. وهنا، كان الملوك، للنكبون على شواغل الحكم، يهتمون بتسوية مصالح لمسط رعائهم؛ وهنا، كان للملك الجالس على عرشه، يحصل في المنازعات ويستقبل سفراء الأمم الصديقة وأنعان الشعوب للخلوة؛ وهنا يجري الثناء على الأبطال، وكان يجري إتهام الأشرار لمهمهم، وكانت الجزية وتقديمات للتقرب توضع عند أقدامهم»^(١٩).

لكن شواغل الحكم تفرض أيضاً للكتمان والحد، ومن هنا بعض الترتيبات المعمارية الخاصة.

«ربما كان بهو الأعمدة هذا المكان الذي كانت تعالج فيه الشؤون الكبرى للدولة، والذي كان الملك يأتني فيه لسفراء الأمم الأجنبية بالاجتماع به، ويتلقى فيه جزية الشعوب للخلوة؛ إلا أنه لم يكن مسموحاً لهبة الدخول إلى مسافة أبعد في ملاذ عظمة الملوك هذا وربما كانت كل المنشآت التي تلي بهو الأعمدة مكرسة لما هو سرى ولا بد أنها قد ووريت

بحرص عن أنظار الغرباء. ولأمرأه في أن تلك هي الأسباب التي تبرز وجود حاجز يبدو لنا
جد مزعج لأول وهلة (٢٠).

وكان للمعد والقصر محبين بحدود، وذلك لأنه :

«كان يتجمع هناك كل أولئك الذين كانوا متصلين علي نحو مباشر لكثير بشخص
الملوك المقدس وبديانة البلد للدفاع من أغلى شيء عندهم: الدين والحكم» (٢١).

بل ويبدو، إذا ما صبقنا أ. جومار وهو يتحدث عن أطلال حورات (٢٢)، أن مصر قد
تمتعت بنوع من برلمان، إلهي ومدني في آن واحد :

«يبدو لنا أن الهدف الرئيسي للمبنى كان يتمثل في أن يكون مكان اجتماع لولاة
أقاليم مصر. وبما أن جميع عناصر الأمة كانت تجتمع هناك، فإننا نرى هناك معاهد مقامة
لجميع الآلهة، حتى يجد هناك كل إقليم فرصة لممارسة العبادة التي ينتمي إليها. ومن ثم
لقد كان هذا المبنى في آن واحد نوعاً من مجمع للآلهة ومكاناً يعالج فيه قادة الدولة الشؤون
السوية. والسرية التي يبدو أنه كان لابد لها من أن تهيم على مداولاتهم، إنما تتخذ شكلاً
محسوساً في عتامة الممرات التي كان على النواب اجتيازها حتى يصلوا إلى دلوينهم
الخاصة.

«ومن المرجح أن تلك كانت هي الوظيفة الخاصة للته [الممر السري]؛ وهو ما لا
يحول دون الاعتراف بأنه كان مكرساً لإله الشمس؛ وبأن الملك منبسط لو إلهه كان له
تبر هناك، لو كذلك للوك الآخرين الذين أسهموا في بنائه؛ كما لا يحول أخيراً دون
الاعتراف بأن قلعت أبنى مرتبة قد استخدمت في دفن التماسيح المقدسة» (٢٣).

الهالك المتحضر والشعب

لقد كانت الخصال الحربية الحميدة وتقوى الملك أمثلة ثابتة بالنسبة للشعب. إن
مشاهد المعركة التي نقشت على الواجهات الخارجية للبوابة الضخمة لمعد الأقصر
«والظلمة نائماً أمام أعينهم [...] كانت تبهت [في صدور المصريين] حب للمجد واحتراماً
محسوساً للوكهم، وتجيلاً عميقاً للآلهة، في المعابد التي كان هؤلاء الفاتحون يضعون تحت
أقدامها في تواضع رموز انتصار حملاتهم البعيدة» (٢٤).

وفي مدينة هابو، نجد أن زائراً قديماً، لا مرأه في أنه «محارب» قد سمى «وأنه تأثر

بالمآثر السامية التي نقشت صورها على جميع أسوار القصر، إلى أن ينتقل اسمه إلى الأجيال التالية بنقش اسمه «بالأحرف القبطية» قرب صورة «البطل» (٢٥).

وكانت واجبات الملك تتصل ليس فقط ببلده وبالعته، وإنما أيضاً بأسلافه :

«لقد بجل الملوك الآلهة بتزيين المعابد؛ وقدموا التحية إلى ذكرى أجدادهم بترميم وتجميل وتوسيع قصورهم القديمة، وأشبعوا زهوهم للشخصى بالتفوق على أسلافهم فى الترف وفى اللبذخ» (٢٦).

وأخيراً، فعندما كان الملوك يموتون، كان قهرهم يصبح «مستودع جميع معارف مصر القديمة... وهناك كان يجرى تصوير الخدمات التي أدوها للوطن، والأعمال التي عادت عليهم بالمجد فى الحرب، والجزية التي كانوا يجيئونها من الشعوب المغلوبة، والعلوم والفنون التي قاموا بتشجيعها وب حمايتها» (٢٧).

قصور أم هيكت ٢

«أين هي نود هؤلاء الملوك جد للمبجلين بحيث إن حكمتهم قد وضعتهم فى مصاف الآلهة» (٢٨). لم يكن من السهل، بسبب للجهل للتمام باللغة، تحديد الآثار المعمارية التي يجرى الوقوف أمامها. هل هي معابد أم قصور ؟. واعتماً على كتابات كتاب قديم، خاصة كتابات سترابون، يحاول جولوا وديفيليه تحديد الخصائص المعمارية المميزة للمعابد وللقصور :

«إن للمعابد هي، بشكل ما، زوايا معزولة وسرية كانت تعارض فيها الأسوار الأكثر احتياجاً للديانة المصرية؛ إن للصراديب المحفورة تمت بباطها، وفى الجدران التي تحيط بها لا تدع أى مجال للشك فى ذلك» (٢٩).

ووفقاً لهذا التعريف، فإن مجمع الكرنك للمعماري لا يمكن أن يكون معبداً ؛ وبالنسبة لهؤلاء الرجال المنتهين إلى لواخر القرن الثامن عشر، فإن مكان العبادة إما أن يكون مكاناً يمكن فيه للمؤمنين ممارسة عبادة علنية، أو مكاناً سرى، زاوية مقصورة على للطلعين على أسرار الديانة.

وفى هذه الظروف، فمن الطبيعي تماماً اعتبار الكرنك قصراً كبيراً ؛

«إن السؤال الذى يثور لدى المرء بشكل طبيعي تعلماً عندما يطوف بهذا المبنى،

والذى يثير بأبلغ حيوية فضول الرحالة، هو معرفة الوظيفة التى كانت مستهلفة من ورائه. ويبحث المرء، حتى فى أدق التفاصيل، عن كل ما يمكنه إلقاء ضوء ما على هذا الموضوع. ولما كان المرء غريباً عن أعراف وعادات المصريين القدماء، فإنه لا يمكنه فى أغلب الأحيان إلا أن يخامر بتخمين فى الوقت الذى يسعى فيه المرء إلى يقين. وتثبت جميع شواهد التاريخ أن المصريين كانوا شعباً عميق التعيين، ولأنهم فى جميع عادات الحياة المدنية قد سمحوا بتغلغل الروح التى تهيم عليهم، تقريباً : ومن هنا يجب للمرء أن يستنتج أن المساكن الخاصة كان عليها أن تقدم، فى زخارفها، كنائراً للعبادة الممارسة بوجه عام فى مصر؛ ومن هنا تنشأ، فى كثير من الحالات، صعوبة التمييز بين مساكن البشر ومعابد الآلهة.

حين يبلنا هذه الكتابة، لفترضنا تقريباً أن أثر الكرنك للمعابد عبارة عن قصر : وهو مع المرء أن يرى الآن أن ذلك ينتج بوضوح من الوصف الذى قبلناه له؛ وأنا ما درس المرء الأمور بانتباه، فسوف يجد قليلاً من العلاقات بين هذا الأثر للمعابد المصرية، كذلك التى تسنى لنا بالفعل الإشارة إليها. فما هى العلاقة، فى الواقع، بين توزيع الرواقات وتوزيع القاعات التى تستند أسقفها إلى أعمدة، بين غرف الملوك الخاصة وأماكن العبادة ؟ وهل يوجد، مثلاً، فى الغرف الجرانيتية المفتوحة من جميع الجهات، شئ يذكر بالتوزيعات المعتمة والتى تكتنفها الأسرار والتى تتميز بها معابد إدفو ودندره ؟

لكن موضوعات لنعت، بحكم الأسباب التى أشرنا إليها آنفاً، قد تلقى شيئاً من انعدام اليقين فيما يتعلق بالتمييز بين المعابد والقصور ، على أن هناك قاعدة لا استثناء لها، وهى أن المرء لا يجد فى المعابد غير نقوش دقيقة تتصل بالدين أو بعلم الفلك، الذى كان الدين مرتبطاً به ارتباطاً أساسياً؛ وذلك فى حين أن القصور تقدم، بالإضافة إلى تلك موضوعات تتصل بمشاهد ملوثة، ونقوشاً دقيقة تاريخية تشير إلى الحروب وإلى الفتوحات التى قام بها ملوك مصر القدماء.

والنتيجة التى نستخلصها من كل هذه الملاحظات ومن كل المقارنات، هى أنه لا شك هناك فى أن أثر الكرنك للمعابد الكبير كان قصراً. ومن المرجح أن الملوك الذين أقاموا فيه كانوا يقضون جانباً من النهار فى القاعات التى تستند لسطحها إلى أعمدة وفى أبنية الأعمدة، حيث كان الهواء يتحرك بحرية وحيث كان المرء يجد ملائمة من الحر؛ وكانوا يأوون خاصة إلى الغرف الجرانيتية ، (٢٠)

ولكن لما لا نتحدث سترابون، فى وصفه لطيبة، إلا عن معابد ولما لا يشير بالمرء إلى قصر الكرنك ؟

«لا مرء في أن ذلك إنما يرجع إلى أنه توجد، في معائر الكرنك والأتصر، زاوية صغيرة، تبدو كما لو كانت معبداً، وذلك من حيث الاختناء الذي بنيت به ومن حيث اختيار الملوك وشرائه التماثيل. إن هذا المبنى الذي أقام فيه الملوك متى كانت مصر محكومة بملوك مصريين، قد تمكن الكهنة من الاستيلاء عليه في زمن سيطرة الفرس والبطالة والرومان لتخصيصه للعبادة وحدها...»

وعند زيارة سترابون، أنت الوظيفة الروحية إلى «عدم السماح بدخول الأجانب إليه. ومن جهة أخرى، فكيف يمكن تصور أن الملوك، الذين كان المصريون يجلونهم تيجيلاً بالغ العمق، لم يكن يوسعهم الإقامة في قصر لا يقل عظمتهم وزهواً وبهيمومة عن المعابد نفسها التي أقيمت للآلهة» (٢١)

على أن هذه التفسيرات كانت بالرغم من كل شيء مترددة وأحياناً ما يتواصل الشك في توصيف جولوا وديفيليه. وهكذا، فليهما يتعلق بموضوع «الغرف الجرانيتية» (٢٢)، «يبدو أن كل شيء يشير هنا إلى مكان محاط بالأسوار والتبجيل، لم يكن يحق الدخول إليه إلا للكهنة أو لوزراء الملك». (٢٣)

وفيما يتعلق بإيفو، يقدم جولوا حجة أخرى: «إن تماثيل الجبل، للندرة في زخرفة المعابد، غزيرة في زخرفة القصور» (٢٤) لكن للمقابلة بين عمارة قصر مفتوح يدخل الهواء إليه من جميع الجهات وعمارة المعابد المغلقة والمصمتة، إنما يتم، بوجه عام، التمسك بها عن طيب خاطر، وذلك إلى درجة أن جولوا وديفيليه، عندما تختلف الأسوار الجانبية، يؤثران تجنباً لتخالل موقف (٢٥).

القصور

إن القصور، شأنه في ذلك شأن المعبد، تؤدي إليه بنايات ضخمة فخيمة كالمداخل التي تصطف على جانبها تماثيل أبي الهول والمسلات. وتعد تأثير النموذج الكلاسيكي، يرى جولوا وديفيليه في تماثيل أبي الهول في الكرنك - الشمالي وفي الأتصر تماثيل كائنات إنشوية. (٢٦) أما فوربيه فهو، في يومياته، أكثر حذراً وأكثر نقية في أن واحد: «رأس بشري أو رأس حمل، أو جسم حمل برأس أسد» (٢٧). وبالمناسبة لجولوا وديفيليه، فإن «الزخارف ليست للهبة تتجهج الهوى أو للصانفة، على العكس، إن كل شيء هناك إنما يكمن وراءه

دائع» وتتلّهل أبى الهول هذه إنما تمثل من ثم «رموزاً مفعمة بالمعنى وبالحكمة، وهى رموز مؤسسة على براءة عميقة بظواهر الطبيعة». إنها صور زويناكية ولا بد أن هذه المداخل قد بنيت لكى «تذكر بالعصر الفلكى الذى كان فيه الحمل السماوى يحتل اعتدال الخريف»، وعندما بنى المصريون هذه الرواقات، كان هدفهم من وراء ذلك هو أن «ينقلوا إلى الأجيال التالية مؤشرات أكيدة على معارفهم الرفيعة فى مجال علم الفلك» (٢٨).

لما المسلات للقائمة أمام واجهة المعبد الخارجية فهى أنواع من تنور يقدمها الشعب احتفالاً بانتصار ما :

«إلا أنه يبدو من المؤكد أيضاً أن بعض المسلات كانت نصباً تذكارية أقيمت تعجيلاً للوك عظماء، للحفاظ على ذكرى الشعوب التى غلبوها، وعلى ذكرى أشكال الرفاهية العظيمة التى تمتعوا بها، وعلى ذكرى الجزية التى فرضوها على الأمم المغلوبة. وغالباً ما كانت هذه المسلات المنحوتة من قطعة حجر واحدة هبات تقدمها إلى المعابد شعوب مصر : لقد كانت تشهد على حب الرعايا للملك وعلى تمسكهم بالدين». (٢٩)

ويرفض جولوا وديفيليه الفكرة التى تذهب إلى أن المسلات قد تكون مزولات شمسية، كما كان قد قيل ذلك، فوضعها أمام بناية كان غير مناسب بالمرة لهذا الاستعمال. وفى المقابل، وبما لئهما قد ميزا فى النقوش التى تزين المسلات بعض علامات الزودياك، فإنهما يريان «أن من المرجح تماماً أن المصريين القدماء قد سجلوا عليها، بلفتهم للهيروغليفية، معارفهم فى مجال علم الأفلاك السماوية» (٣٠).

لما البوابات الضخمة، بوابات القصر للمائلة لبوابات المعابد، فإنها مأخوذة من «قلاع حصينة» قديمة، سوف تكون قلعة مدينة هابو آخر شاهد عليها : «الواقع أنها لا بد وإنها سبقت بناء العمائر المقدسة؛ وهكذا فإن المصريين قد وضعوا فى آثارهم المعمارية لشكالا من العمائر التى كان عليها أن تذكرهم بالحياة الحربية التى عاشوها فى البداية» (٣١). وقد حدد جولوا وديفيليه بشكل جيد وظيفة التجويفات الموشورية الشكل والتحرزات المميزة لواجهات البوابات الضخمة : لقد كانت تختم فى تركيب ساريات مزينة بالأعلام. ويتأسس هذا التحديد على مقارنة العملر بتمثيل واجهة البوابة الضخمة الثانية للكرنك والذى يزين جدار معبد جنوبى (معبد خونسو) (٣٢). وإن يرصد جولوا وديفيليه وجود زخرفة فى أسفل الكرى، فإنهما لا يترددان فى الاعتقاد بأن هذه «الساريات لم تكن ثابتة وأنه لم يكن يجرى وضعها إلا فى مناسبات خاصة وفى أيام أعياد معينة» (٣٣).

أما الحجرات المرتبة في بعض البوابات الضخمة فهي لا يمكن أن تكون غير مساكين^(٤٤). والحال أن لانكريه، في دراسته لبوابات فيلة للضخمة، إنما يرى فيها مساكن الحراس ومستودعات لأجهزة للرصد الخاصة بالكهنة للفلكيين^(٤٥). والواقع أن البوابات الضخمة، في المعابد، إنما تخدم أيضاً كمرصد فلكي^(٤٦). وكثيراً ما تم العثور في هذه الحجرات على بقايا مومياوات، أكان ذلك في إدفو أم في فيلة، لكن هذه الاكتشافات لا تكفي لاعتبار هذه الآثار مقابر^(٤٧).

وفي الكرنك، في الفناء الذي يلي البوابة للضخمة الأولى، ينتصب للمعبود الذي يلعب نور كنيسة صغيرة في قصر :

«لقد حددنا حتى الآن باسم للمعبود الأثر الذي وصفناه؛ ويمكن الآن الاعتراف بكل صواب هذه التسمية؛ فهي تنبع من عين شكل التخطيط الهندسي، والتوزيع للدخلى، ونظام الحركة. إن التشابه التام لهذا المبنى مع المعبد الجنوبي الكبير لا يدع مجالاً للشك في أنه كان مخصصاً للعبادة المصرية»^(٤٨).

وقد رأينا أعلاه وظيفة هذا المبنى، فهو مكان تلقى الملك للإلهام من الآلهة، كما رأينا وظيفة اليهودى الأعمدة والذي كان الملك يعقد الاجتماعات ويستقبل فيه السفراء الأجانب.

لكن للمبنى الأوسط في القصر هو القاعة التي يستند سقفلها إلى أعمدة. وفي الكرنك، يحيط تمثالان ضخمان بمدخل القاعة العظيمة التي يستند سقفلها إلى أعمدة ،

«هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن التمثالين الموجودين في مدخل البوابة الضخمة والذين يبدوان تقريباً، بحكم وضع أحدهما في مواجهة الآخر، حارسين للقصر، إنما يقدمان تمثيلاً للآلهة معينة، أو أيضاً مجرد تمثيل للملك وأبطال لهم صفات إلهية»^(٤٩).

أما فيما يتعلق بالقاعة نفسها فهي في كُن واحد ساحة تذكارية ومقر لحكم الملك المسترشد بوصايا الآلهة :

«هنا، ربما كانت تتلاقى هذه التماثيل الثلاثمائة والخمسة والأربعون للملوك الأحرار، المولودون كلهم لأحد، والذين عرضهم الكهنة للمصريين لهيكاتييه لتفنيد الزعم الكاتب الذي راوده لرد نسب عائلته إلى أحد الآلهة (هيروكوت، الجزء الثاني، الفصل ١٤٢). فما لكبر عظمة المكان التي لا بد وأنها قد تزايدت من جراء اجتماع هذه التماثيل الضخمة»^(٥٠)

«لقد أوردنا أعلاه الفقرة التي تشير إلى الملك وهو يمارس مسؤولياته في القاعة التي يستند سقفلها إلى أعمدة^(٥١) ، «هنا أخيراً كانت تنور جميع المشاهد الجليلة التي مازلنا نراها ممثلة على جدران القصر نفسها»^(٥٢).

ومن بين هذه المشاهد، شد انتباه جولوا وديفيليه للمشهد الجدارى للدخلى الذى يصور الملك وهو يحتفل بالقداس أمام زورق لمون الذى يتحرك فى موكب، فى الداخل الغربى للقاعة التى يستند سقفها إلى أعمدة، على الجهة الشمالية^(٥٢)،

«ربما [...] لا يعتبر هذا النقش الدقيق كله غير نادر، وربما كان للملك أو الأبطال المصريين قد أمروا بأن تنحت، فى القصر الكبير فى طيبة، لوحات من نوع اللوحات التى وصفناها، عند نجاتهم من خطر محقق، أو عند إحرازهم هدف وغياتهم المشتهاة لكثير من سواها»^(٥٣).

وبعد أن ينجز الملك واجبات مسؤوليته، فإنه يخلد إلى الراحة فى حجراته الصغيرة «الجوانبية». وهى «مكان عامر بالأسرار ومحل تقديس» لا يدخله غير عدد نادر من الأشخاص للمميزين^(٥٤)، وهو مزين «بمشاهد مألوفة» وبلوحات «تتصل بالقوان والصدقات» كما تتصل «بموضوعات غرامية» «تصور شخصاً، لا شك فى أنه ملك، جالس إلى جانب زوجته، التى يبدو أنها تعانقه برقة»^(٥٥). ويمكن أن تبدو مشاهد تلقين لأسرار الديانة على أحد الجدران الداخلية لهذا الأثر المعمارى^(٥٦).

وكانت خدمة القصر تتطلب عدداً مهماً من الخدم الذين لابد وأن تحركاتهم كانت جد سرية قدر الإمكان. وهذه الرواقات المخصصة للخدم جد واضحة فى قصر أبيدوس، «التخطيط الهندسى يدل على رواقات جد ضيقة، ومن ثم فإنه يكاد يكون من غير الممكن للمرء متابعة المنحنيات دون أن يتوه. وليس من السهل بدرجة أكبر تحديد الهدف من ذلك...» على أن يوسع للمرء التراض أن هذه الأنواع من الرواقات كانت مخصصة لخدمة رجال القصر، شأنها فى ذلك شأن الرواقات الضيقة التى نراها فى قصورنا»^(٥٧).

لما فيما يتعلق بالأشخاص البارزين الذين كانوا يحيون فى حاشية الملك، فمن الواضح أنه كان لابد من إسكانهم، وقد خصصت بنايات عديدة من قصر الكرنك لهذا الهدف. وفى المنطقة الوسطى للأثر، رصد جولوا وديفيليه «غرفتين صغيرتين أو حجرتين شبه مربعيتين يبدو أنهما كانتا سكناً خاصاً...» وربما كانتا سكناً للكهنة الذين لم يكونوا يفارقون الملك، أو أيضاً سكناً لمقاتلين كانوا يحرسون شخصه المقدس»^(٥٨). وبالنسبة للمهندسين، فإن للبنى الذى يشرف على البوابة الضخمة للعاشرة كان «سكناً خاصاً»^(٥٩).

وعندما ينجز سكان القصر مهامهم ويفرغون من واجبات مسؤوليتهم، فإنهم يمكنهم أخيراً أن يخلدوا إلى الراحة. وفقاً لجولوا ولديفيليه، فإن القاعة الصغيرة التى يستند سقفها إلى أعمدة والتى تقع شرقى الغرف الجوانبية «كانت مكاناً لالتقاء جميع

الأشخاص الذين كانوا يسكنون داخل القصر؛ وربما كانت أيضاً قلعة يتم فيها عرض آثار الفنون والمفروشات الثمينة التي ترك لنا المصريين القدماء كملاج منها في مقابر الملوك وفي تلك المنحوتات التي تزين القصر الذي نصله، (٦٠).

إلا أنهم ربما كانوا يؤثرون استنشاق الهواء في الخارج على مصاطب القصر الفسيحة : «لقد كان بالإمكان أن تكون رواقات استراحة كان سكان القصر القدماء يجيئون إليها، عند انتهاء النهار، لاستنشاق الهواء العليل؛ ولعلهم كانوا يقضون هناك ليلالي الصيف الجميلة، التي يستريح خلالها حتى يأمنوا هذه سكان مصر الحاليون على مصاطب بيوتهم» (٦١).

وينطبق هذا الوصف على قصور الكرتك والأقصر الطيبة العظيمة. لكن ملوك البلاد كانوا يتمتعون أيضاً بمساكن أكثر تواضعاً.

وليس هناك شك بالنسبة لهولوا ولديفيليه في أن أثر الجرنه للعماري كان «سكنًا ملكيًا». لارتفاع واتساع القاعات وأسلوب توزيع الأضواء، تعتبر كلها مختلفة فيه عما يراه المرء في المعابد (٦٢).

«إن المرء لا يجد هنا لا تماثيل لأبي الهول ولا مصلات ولا تماثيل ضخمة... ولا يرى المرء هناك القبة بوابات ضخمة، ولا أهباء أعمدة واسعة؛ ولا شيء يشير إلى أبهة للقصور العظيمة في طيبة : إن كل شيء، على النقيض من ذلك، بسيط، ويبدو أن المهندس للعماري حرص على بناء سكن ملائم ومناسب لأكثر متطلبات الحياة اعتيادية. ووسط هذه البساطة نفسها، يثير انتباه المرء ملمح عظمة معين، لا يدع مجالاً للشك في أن مبنى الجرنه كان سكنًا ملك : لاتساعه وزخارفه وطبيعة المواد المستخدمة في بنائه قد تطلبت نفقات تتجاوز إمكانات أغنى الأفراد» (٦٣).

ولخير، لا بد من الإشارة إلى وجود قصور محصنة، كقصر مدينة هابو حيث «يدل كل شيء على سكن محصن للفتح مزهو بنجاحاته» (٦٤).

المعابد

إن المعابد، وهي آثار معمارية صارمة الملامح لديانة متخشعة وعامرة بالأسرار، إنما تتميز بوجود غرف صغيرة معتمة تحيط بقوس الأكتاف للركنزي (٦٥).

ولا يبدو أن المهندسين والفنيين قد حاولوا تحديد نمادج تخطيطات المعابد. ولا بد من

معروفة أن قاعات العبادة في عدة عمائر كمعابد إيطو وبندره وخونصو لم يكن بالإمكان دخولها بالمرّة. ويكتب حولوا وديفيليه «إن توزيع المعابد لابد وأنه كانت له صلة حميمة بالطقوس التي كانت تقام فيها، ومن ثم، بالديانة نفسها» (٦٦). وفيما بعد، عند مقارنة تخطيط معبد بتاح بتخطيط إحدى غرف معبد الجرنّة، فإنهما يتصوران أنهما قد رسدا في التوزيع الثلاثي مؤشراً على مكان عبادة. (٦٧) ولم تكن المعابد ذات وجهة مميزة، على الرغم من أن جومار يرى أن للوجهة العادية هي وجهة الشرق (٦٨). والمصطلحات المستخدمة هي للمصطلحات التي استخدمها مترابون : بروپيليه (مخل معبد يوناني)، ناوس (الجزء الداخلي من معبد روماني)، بروناوس (مقدمة هيكل)، سيكوس، التي يعلق عليها حولوا وديفيليه بإسهاب (٦٩).

أما زخرفة وعمارة للمعبد خاصة للنصوتات التي تزين أعمدة الأبهام، فهي موجهة إلى «تذكير البشر الفانين بالخشوع والاحترام الذي يتوجب على المرء إبداءه عندما يدخل إلى هذا الحمى للديانة وللجلالة الملكية» (٧٠). ولما كان المعبد دعامة للدين والملكية، فإنه يجب أن يكون متين البنيان (٧١)، ويجب حمايته، أحياناً، بسور حصين (٧٢).

لما الذي كان يُعبد في تلك البنانيات ؟ إن حولوا وديفيليه يتحفظان بحذر عن «صورة» الإله الموضوع في كوة في قلب المعبد (٧٣). ويعبر جومار عن الرأي نفسه. (٧٤) ويحذر لقل من الاحتراس، فإن لانكره يطابق بين الناوسات الحجرية الباقية في للجال في قاعات العبادة في معبد إيزيس في فيله والأوكار الحجرية للصقر المقدس (٧٥). والحال أن لوربيه يتقاسم، في يومياته، هذا الرأي (٧٦).

وكان يجرى استخدام القاعات ذات الأسقف المستندة إلى أعمدة في المعابد في عرض الصور الإلهية على الشعب. ويكتب حولوا وديفيليه بشأن معبد إسنا : «كان الكهنة يعرضون هناك صورة الإله محركين خشوع الجماهير؛ وكان هذا المكان مكاناً بسيطاً بين الكهنة والشعب، مكاناً مقدساً، ويجب تحريمه على نظر الغرباء نفسه» (٧٧). وعلى هذا النحو، يفسران وجود جدران بين أبراج الأعمدة، وهو تنظيم جد مميز للعمارة المصرية وأثار نهضة الزائرين كثيراً في عام ١٧٩٩ (٧٨). وفي القصور، رأينا أن هذه الجدران - الصوتر كانت تستخدم كستارة لمحبب الملك ووزرائه عند معالجتهم لشؤون الدولة.

وفي المعابد، لم يكن بالإمكان استخدام للمصاطب لراحة للكهنة. ووجود مزاريب ضخمة بشكل نشاناً في بلد من الواضح أن مناخه بلا امطار : «يبدو لي أن الشيء الأرجح

تماماً هو أن هدفها إنما كان يتمثل في صب الماء الضروري للوضوحات وللتطهيرات التي كانت الديانة توصي بها في حالات معينة ، إن هذا الماء كان يتدفق من المعبد نفسه وكان يعتبر أكثر روحانية وأكثر فعالية (٧٩).

والحال أن البحيرة المقدسة إما أنها كانت تستخدم في وضوحات الكهنة (٨٠)، أو أنها كانت تستخدم كمقيلس للنيل (٨١).

ولم تكن الأكشاك القائمة في أبنية المعابد مسقوفة دائماً وذلك بالنظر إلى اتساعها (٨٢). وكانت هذه العمائر القريبة مكروسة للإله ست الذي يزين وجهه الصارم تهجان الأعمدة (٨٣).

وبالنسبة لديانة قائمة لسلساً على تأمل الأفلاك ورصد الظواهر الطبيعية (٨٤)، كان من الطبيعي أن يشكل جزء من المعبد مرسداً. وفي دندره، فإن «غرفة الزودياك يبدو أنها كانت نوعاً من قوس الداس، نوعاً من مكان مكرس لتأمل الأفلاك ولتمثيل الظواهر الأرضية التي ترتبط بالظواهر السماوية. وربما كانت سكن أحد الكهنة المصريين الذي انشغل بشكل خاص بدراسة السماء، في خدمته لمعبد دندره» (٨٥).

وفي لهلة وإدفو، كانت البوابات الضخمة تستخدم كمواصد (٨٦).

وكما هو الحال بالنسبة للقصور، فقد كان لابد من توفير سكن لخدمة المعبد. ويرى لجومار أن تخيل «الكهنة القدماء [...] للقيمين في المعبد، وهم يتنزهون تحت هذه الرواقات العالية وينكبون على تأملاتهم المكعبة» (٨٧). وهناك أيضاً، كان من الممكن أيضاً للغرف المرتبة في البوابات الضخمة أن تخدم كمسكن (٨٨). بل إن جولوا وديفيليه يفكران في تخصيص الزوايا الباهرة في معبد دندره لهذه الوظيفة :

«إن الغرف الصغيرة الغامضة ليست أقل تزييناً بالمنحوتات من المرمر. ولكن ما عسى تكون وظيفتها ؟ هل كانت مخصصة لسكن الكهنة الذين يخدمون المعبد ؟ أم أن كل واحدة منها كانت مخصصة لأحد الآلهة العديدة التي كان الشعب المصري يعبدها ؟ ليس من السهل تحديد ذلك. وربما كانت لها وظيفة أخرى تماماً، لا يسعنا مجرد تخيلها وذلك بالنظر إلى عدم الوضوح الذي تركه لنا القدماء عما كان يجري في الزوايا الأكثر سرية في المعابد المصرية» (٨٩).

ويبدو أن بعض المعابد كانت لها وظيفة تلقى للوحى بشكل لسلسى، كما هو حال معبد قصر قارون، الواقع على منفذ الدرب الذي يقود إلى معبد سيوه للشهير المخصص

لنلقى الوحي (٩٠). ومن المرجح أن أئمة المعابد كانت تستخدم في هذه الوظيفة (٩١)، وهو ما ينطبق على بعض الفروقات الغامضة التي تشكل امتداداً للمعبد كما في الماميزيس للرومان في معبد دندره ، وربما كان يجري عبر ذلك دخول الكهنة الذين كانوا يتلقون في المعبد وحي الألهة (٩٢)

وأخيراً، هل من الممكن أن المعابد كانت أماكن للدفن ؟ إن هذا السؤال قد شغل كثيراً جولوا وديفيليه وزملاءهما. وهم يقترحون، بين أمور أخرى، هذا التفسير لزوية الزويك في معبد دندره : «ربما كان هذا المكان أيضاً مكان معبد كانت لأوزوريس فيه مقبرة؛ لنحن نعرف، وفقاً لشهادات هيرودوت وبيودور الصقلي، أن مقابر هذا الإله كانت جد مقدسة وجد كثيرة في مصر، وأن المدن المهمة التي لم تكن بها مقبرة له هي مدن القيلة» (٩٣).

وربما كان المعبد الصغير في مدينة هابو مقبرة. وقدس اقتباسه يحتوى على منحوت حجرى مقلوب ولم يكن بالإمكان الوصول إلى تحديد، بشكل إيجابي، لماذا إنا كان [هذا للمنحوت] واحدة من تلك الزوايا التي نجدها عادة في المعابد والتي كانت توضع فيها الحيوانات المقدسة. والحال أن عدة رحلة وعدداً من زملاء جولوا وديفيليه قد حددوه على أنه قاهوت حجرى. ويستنتج هذان الأخيران «أنه يترتب على ذلك عندئذ أن الغرفة التي تحتوى كانت مخصصة للدفن» (٩٤).

لما فيما يتعلق بمعبد دير المدينة، فإن المهندسين قد اقتنعا بأنه كان كذلك مقبرة. وتحتوى إحدى القاعات على مشهد وزن الأرواح، وبالاستناد إلى ديودور وهيرودوت، يستنتجان : «إن كل شيء ينبع من ثم إلى الاعتقاد بأنه عندما كان كبار الكهنة يموتون كانت موميلاتهم توضع في داخل هذه التماثيل الخشبية [التولييت] التي كانوا، خلال حياتهم، يضمونها في المعبد» (٩٥).

المدينة

من الواضح أن لطلال إقلهم الأقصر هي لطلال طيبة، المدينة الملكية الشهيرة التي كان بوسويه يحلم باكتشافها، قبل أكثر من قرن من الحملة [الفرنسية] (٩٦). إلا أنه لا يبقى غير القليل جداً من أشياء المدينة التي كانت تحيط بالقصور والمعابد. فكيف يمكن تخيل

العاصمة الشهيرة من خلال الآثار النابذة للباقية ؟ إن اللوحة التي رسمها مؤلفو «وصف مصر» إنما تجرنا إلى عالم أقرب إلى مدينة إمبراطورية رومانية مما إلى حاضرة شرقية.

وبعد أن جند جولوا وديفيليه الافتراض القديم الذي ذهب إلا أن المصريين القدماء لم يشيدوا عمائر إلا للآلهة، وأن جميع السكان كانوا يسكنون خياماً منتشرة حولها (٩٧)، بوصفه افتراضاً سخيفاً، فإنهما يُلدّ لهما مقارنة طيبة بالمدن الرئيسية القديمة (٩٨)؛ لكن هذه المقارنات تتعلق بالعمائر بأكثر مما تتعلق بالمدينة نفسها، حيث يظل مجمع الكرنك هو النموذج. ويستبعد جومار بحجة قلم الفكرة القديمة لفتى نهبت إلى أن المقابر كانت مساكن، بما يفصح عن «الطابع السويلى للأمة». وبما أن توسع الناس الاستفادة من مساكن مبنية من الحجر، فمن المرجح للغاية أن الآثار القليلة المحيطة بهبو الأعمدة، خارج حرم الكرنك - الشمالى، كانت مساكن خلصة (٩٩). وبالنسبة لجومار، فإن أهل طيبة كانوا يسكنون «بيوتاً من القرميد» جد متواضعة. أما عمائر الشعب الحقيقية فهى المقابر، مثلما كانت للعابد والقصور هى عمائر الدولة (١٠٠).

ومن المؤكد أن المرء يدهش لغياب سور (للمدينة) : «هل كان لطيبة سور عام، وهل لا تزال توجد بعض بقاياها» (١٠١). لقد كان من الصعب التسليم بفكرة مدينة مفتوحة. على أن جولوا وديفيليه يقترحان أمام عدد وتبعثر الأطلال، افتراض مدينة مكونة من سلسلة من الكفور أو من الضواحي ويصنّشهران دعماً لتوضيح افتراضهما ببعض قرى مصر العليا (١٠٢). وقد كانت مساحتها أكثر من ضعف مساحة القاهرة ونحو نصف مساحة باريس (١٠٣). أما فيما يتعلق بالبيوت، فبالإمكان تحديد نموذجها من تمثيلات لسيپسائ باليسترينا، ولكن كيف يمكن لهذه الوثيقة التى ترجع إلى فترة انحطاط أن تعيد تكوين صورة البيوت المصرية «هى زمن أكثر إيغالاً فى القدم» ؟ (١٠٤)

وتتمثل وظيفة الجمل فى بث مشاعر الإعجاب والخشوع فى نفوس الشعب ، ويكتب فورييه فى مقدمته التاريخية : «لقد كانت العمارة تتميز بطابع وقود وجليل؛ وكان الشعر والتاريخ والموسيقى والنحت وعلم الفلك يهت خشية الآلهة ويهت التقوى والخشوع» (١٠٥). ومن ثم فإن المدينة هى المكان للمعيز الذى يمكن فيه للجمال أن يؤدى وظيفته الاجتماعية. ومن هنا نمشة لانكريه أمام عمارة آثار موقع جد مقفر كجزيرة فيلة، التى «تتميز بتنفيذ جد محكم كما لو أن الملك قد أقامها فى وسط عاصمته» (١٠٦). ويميل جولوا وديفيليه إلى تصور أن التماثيل العديدة للبعثرة بقاياها على أطراف الصحراء كانت

مخصصة لتزيين المدينة ، لقد كانت كالمية لأن تزين زيتة رائحة جميع الأماكن العامة لمدينة كبرى (١٩٧).

وفي المقابل، فإنهما لا يتبدلان أمام آثار مالجتا ، إن هذه السلحة الواسعة الكبيرة التي تحيط بها سلسلة مزدوجة من ركام الأطلال كانت ساحة استعراض للمدينة الملكية :
«لقد كانت مضملاً، ساحة شاسعة لإله الحرب، حيث كان يجرى تدريب القوات على استخدام الأسلحة، وعلى سباقات العدو، وعلى سباقات الخيل والعربات، و، بوجه عام، على جميع التطورات العسكرية. ومن هذا المكان كانت القوات المصرية تنطلق، في ظل أسرة أو سمندليس وأسرة سينوستريس، إلى فتوحات مؤكدة. وهناك كان عدد كبير من الناس يكرم الشجاعة والبراعة بمكافآت وبتصفيقات. وهناك أخيراً كان الناس يتعلمون حسن التصرف وتقديم كل شيء من أجل رفعة الدين والوطن» (١٠٨).

أما فيما يتعلق بالمعبد الصغير في شمال الساحة، فإنه «ربما كان المكان الذي كان للظافرون في المباريات العلة يجيئون إليه لتقديم الشكر إلى الآلهة عن الانتصارات التي أحرزوها» (١٠٩). كما كان بالإمكان عرض الآلهة العسكرية على الجمهور. ومن جهة أخرى، فإن هذه الأطلال ربما كانت بوابات نصر، تدل الرحلة للقائمين من الجنوب «على عاصمة مصر القديمة، وذلك بأسلوب مهيب تماماً» (١١٠). وفي الاتجاه نفسه، فإن البوابة المقامة أمام «معبد الجنوب»، في مجمع قصر الكرنك، هي بوابة نصر (١١١). وفي إحدى لوحات «وصف مصر» (١١٢)، يصور لانكريه جيش فرعون وهو يتقاطر تحت هذه البوابة بعد أن اجتاز طريق الكباش الذي يسبقها. ثم «يتوزع» الموكب في اتجاه الجنوب، ويتحرك الملك على الأرجح للعودة إلى مقره في وسط قصر الكرنك. ويقف ثلاثة من الكهنة، جد متأثرين، لاستقبال الملك. ويحتفى جمع جد قليل بظل البوابة، ويتحرك عاشقان ويختفى طفل بين الكباش. ووراء ذلك، فإن سهل طيبة، شبه المهجور، ينشر طرقه التي لا نهاية لها وهي طرق تماثيل أبي الهول وتماثيل الكباش والتي تتحرك بينها بعض وحدات الجيش.

فلماذا عرفت هذه المدينة الموجهة في مصر العليا مثل هذا المصير ؟ يقدم حولوا وديقيلييه مبهين. أما السبب الأول فهو بينى : إن طيبة «قد اجتذبت، في عصور محددة، جمعاً من الحجاج : ولابد أنه قد ترتب على ذلك بالضرورة نشاط عظيم في العلاقات، وقد تسنى لقرايين الحجاج الإسهام في زيادة بهاء العمائر. وبهذا الشكل، مثلاً، شهدت روما الحديثة إقامة كاتدرائية القديس بطرس الرائعة بالاعتماد على جميع ثروات الجماعة المسيحية» (١١٣).

ولما السبب الثاني فهو اقتصادي ، إن ازدهار طيبة وكل مصر إنما يرجع إلى التجارة، وبالأخص التجارة مع الهند ، إن المصريين قد قلموا بالتجارة مع الهند، منذ أقدم العصور القديمة (١١٤). ووفقاً لـجولوا وديفيليبه، فإن العاصمة المصرية كانت على نحو ما استشرافاً لـالمهراء، المدينة التي جاء ثرائها أيضاً من التجارة مع الهند (١١٥)، لكنها بوجه خاص أول وأجمل ثمرة معروفة للقوة والثروات التي تعود بها التجارة على الشعوب التي تزاولها، (١١٦).

المجتمع

لما صورة لرفع سارية مين في بغيره (١١٧)، يتصل بالـجولوا وديفيليبه عن معنى هذه الصورة الغريبة. هل هي صورة للمجتمع المصري ؟ لابد أنهم كانوا يريدون هنا تصوير مشهد الاطلاع على أسرار إيزيس، مبدأ ومصدر الحكمة والحقيقة، التي كانت رموزها مرفوعة على السارية. وهذه الشخصيات التي توجد ريشة على رؤوسها، والتي تنشد إلى أعلى السارية، هل تتألف من مطلعين على الأسرار يشار إلى درجة علمهم بالمكان العالي الذي وضعوا فيه ؟ وهؤلاء الرجال الذين لا يتميزون بأية ميزة محددة، والذين يبدو أنهم ينصمون المصرية، إلا يمثلون الشعب، الذي ينحصر دوره في مجرد الإبقاء على بنیان الدين، دون أن يكون له أي حق في ادعاء معرفة أسرار (١١٨).

إن الشعب، على الرغم من كونه قد حكم عليه بالإبقاء في الجهل، لم يكن على أية حال مستبعداً عن الدين. وصور القرابين التي تزين جدران المعابد والصور مصحوبة بنصوص هيروغليفية ربما كان بعضها يعبر، ووفقاً لفوربييه، عن «مشاعر الودع التي كان لابد للشعب أن يتحلى بها» (١١٩). فبالنسبة له، لا توجد أية حاجة إلى تأويلات سامية، لأن مشهد إبهة الملكية ورسالة الطقوس الدينية يكفيان لتربيته. والأعياد الكبرى هي مصدر تسلية له. وأخيراً، فإن وجود موميאות الأسلاف في بيت الأسرة إنما يمثل «مشهداً مثيراً، قائماً على حزنه إلى أن يكون نداءً لأسلافه [...] ناهيك عن الغلبة الأنبيية للوجودة لدى المخرج، بتعويده الأتھان على فكرة وصورة الموت وعدم تركه للموت أي شيء بوسع أن يكون منفراً منه» (١٢٠).

ووفقاً لـهيرودوت، فإن للمجتمع المصري ينقسم إلى فئات مختلفة على نفسها ،

للزارعون والعسكريون والكهنة. ومن ثم فإن جومار ينهش إذ يجد في مقبرة واحدة مشاهد زراعية مجاورة لتمثيلات عسكرية. فهل يتوجب وضع المعلومات التي قلناها هيروغليفية موضع الشك ؟. يستنتج جومار : «إننا سوف نتوصل إلى فهم الأمر عندما يتسنى لنا أن نقرأ بشكل مناسب الأشكال الهيروغليفية المصاحبة لكل صورة» (١٢١). وأيا كان الأمر، فإنه يرى أن النساء لابد وأنهن كن مستعملات من مجامع الكهنة، لأنه «سوف يكون من السخف تصور أنهن كان يوسعن للمشاركة في الشؤون المعرفية والمهام الخطيرة للكهنة المصريين» (١٢٢).

إن الأشكال الهيروغليفية التي تغطي جدران المعابد والقصور هي كتابة. ووفقاً لجومار، فإن حروف الكتابة المصرية السريعة على البرديات مستمدة من الأشكال الهيروغليفية للوجوه على العمائر (١٢٣). وبالنسبة لهذا الكاتب نفسه، فقد كان يجري استخدام نوعين فقط من الكتابة : الأولى سرية، وتخص الكهنة وحدهم، والثانية يستخدمها الشعب (١٢٤). أما فيما يتعلق بالبرديات التي تم العثور عليها في المقابر، فلابد من الاعتراف باستحالة تصديق محتواها. لكن جومار يأمل أن تكون متضمنة لجميع علوم ومعارف مصر : القانون، الفلك، التاريخ الطبيعي، الميكانيكا، وهو يعترف بأن كل من يفسرها «إنما يسير على خطى الدراسات التي يميل إليها». وإذا ما حدث، لسوء الحظ «أنه لا يوجد فيها مع ذلك غير نصوص صلوات وشعائر، فسوف ينكب اللوم على الأقل على أن يستخلص منها دراسة باللغة الحقيقية للبلد» (١٢٥). وأخيراً، فإن هذا الكاتب نفسه، الذي حيره حجر ممنوع اكتشف في مدينة الأموات، ينسب إلى المصريين فضل تجريب الطباعة (١٢٦).

وقد زعم البعض أن المصريين القدماء كانوا ينتمون إلى الجنس الأسود (١٢٧)، أو حتى الصينى. وكتب آخرون أنهم من جنس الألباط نفسه. ويرفض جومار هذه الافتراضات. فهو يرى أنهم ينتمون إلى ذات الجنس الذي ينتمى إليه عرب مصر العليا الحاليون. وحتى إذا كان اللوم يتناول، هنا أو هناك، تمثيلاً لشخص ذي سمات زنجية، «فإن اللوم لا يمكنه مع ذلك أن يستنتج أن المصريين كانوا ينتمون إلى الجنس الزنجى». يواصل جولوا رينيليه سلخزين، «بقدر ما أنه لا يمكنه أن يستنتج أنه كان بين صفوف هذا الشعب إناس لهم رؤوس ابن كوى أو صقر أو إيبيس، لأنه يرى هذه الأنواع من الأشكال منحوتة على العمائر. إلا نعرف حرام المصريين بالأشكال الرمزية» (١٢٨).

لقد كان للصريون مسالمين ومطمئنين بالنزعة الإنسانية. وكانت عبادة الحيوانات المقدسة خرافة «ترتب عليها على الأقل الأثر السعيد الذي يتمثل في إلهام وصون رقة الأعراف» (١٢٩). وحتى في ساحة المعركة، فإن النزعة الإنسانية لا تلتفت إليها من حقوق؛ ففي مشهد حربي في قصر مدينة هليو، نرى جندياً مصرىً يحصل به الأمر، في اندماج الرحمة والرفقة، إلى أن «يهد يديه إلى عدو يرجو الشفقة». ثم إن للصريين عندما يقطعون أيدي وأعضاء الأعداء التناسلية، فإنهم لا يفعلون غير مصايرة عادة مألوفة في إحصاء القتلى ويمتنعون تماماً عن استخدام هذه العادة مع الأسرى الأحياء (١٣٠). أما فيما يتعلق بمشاهد ذبح الأعداء، والمثلة كثيراً على واجهات القصور والمعابد، فإنه لا يجب النظر إليها إلا على أنها رمز، إما للتذكير بالقرابين البشرية القديمة أو للإشارة إلى ثلر القوانين ومعالجة الجناة (١٣١).

إن مصر للعاطة بالأسرار هذه هي في كل واحد بعيدة وقريبة. بعيدة في الزمان، ولكنها قريبة بتأثيرها، لكل شيء مصدره مصر (١٣٢). وبالنسبة للأنكوبيه، فإن معبد فيلة هو «قدس أقدس ديانة قديمة، هي الديانة الأم لكثير من العبدات الأخرى» (١٣٣) ويحيط به كثير من الأشكال المعمارية من وادي النيل، كالتمثال التي تلعب دور الأعمدة أو النظام المعماري النوبي (١٣٤). وأياً كان الأمر، فإن مصر أم الحضارات هي الحضارة الأقدم، الحضارة التي ساعدت حجارها على بناء بعض المعالم الحالية، كمعبد خونسو (١٣٥). لكن وجود الأجنبي، خاصة الروماني، في الأزمنة الأخيرة لهذه الحضارة، إنما يدل على انحطاط محسوس في الفنون (١٣٦).

الديانة الرمزية

إن الديانة المصرية هي قبل كل شيء ديانة طبيعية (١٣٧). ولا يجب أن نسمح لأنفسنا بأن نخدعنا الأشكال الغريبة التي تزين جدران المعابد. فهذه «التكوينات الخيالية [...] قد استحضرها المصريون لكي يصوروا الظواهر الطبيعية ولكي يقدموا صورة محسوسة لها بشكل ماء. والصورة الغريبة لأسد منقر، والمصحوبة بتمثيل لإيزيس في أرض سبخة ليست غير إجراء تصويري للاحتفال بانقلاب الشمس الصيفي. والصورة الأولى تمثل الأرض ومياه الفيضان، بينما تشير الصورة الثانية إلى أن الشمس كانت كذلك في برج

الأسد (١٢٨). والحال أننا نعرف أن دورة الزودياك ليست ثابتة وأن وضع الشمس وقت امتثل الربيع (نقطة الاعتدال الربيعي [حوالي ٢١ مارس - للترجم]) تتزحزح حركته العكسية بمقدار ٣٠ درجة، أي بمقدار برج واحد كل ٢١٥٠ سنة. ونحو بداية عصرنا (بداية التاريخ الميلادي - للترجم)، فإن الشمس، في الانقلاب الشمسي الصيفي، تدخل في برج السرطان. وروبط الفيزيائي، الذي يتزامن مع الانقلاب الشمسي الصيفي، بالأسد، إنما يشهد على وضع الشمس وقت بناء المعبد ويقدم للعناصر التي تسمح بتحديد زمانه. وهكذا، فإن جومار وجولوا وديليبييه وجميع رفاقهم يبحثون عنهم بين صور المعابد من جميع الأشكال التي يمكن تفسيرها على أنها برج زودياكي، خاصة برج الأسد الذي يزين هوش إله في معبد دير شيلويت (١٢٩) وينتهي إلى تمثيل أبي الهول في الكرنك (١٤٠) موزاً بالأسد المقام في معبد لوبيت (١٤١) ومزاريب معبد فيلة. وبالنسبة للأنكرية، فإن هذا المثال الأخير هو مثال بليغ؛ إن مياه للصوف تذكر بالفيزيائي والأسد ينكر بوضع الشمس وقت الانقلاب الشمسي. ومن ثم فإن معبد فيلة إنما يرجع على الأقل إلى ٢٥٠٠ سنة قبل ميلاد يسوع المسيح (١٤٢).

ويكتب لآنكرية «عند المصريين [...] تعتبر كل زخرفة رمزاً» (١٤٣)، ويشهد جومار على هذا الجانب في زخرفة المعبد. إن الثياب للركبة والفتيحة والأطراف ليست غير رموز تخفي ديانة عميقة بالعالم (١٤٤). وأخيراً، فإنه يبدو تماماً أن الديانة المصرية التي يتحدث عنها مؤلفر «وصف مصر» تجهل ما هو مفارق للطبيعة بالرغم من قبول فكرة للسرة. ويكتب جومار:

«إن خصائص الحيوانات، وخصائص النباتات والمحاصيل الفاعلة للروح، قد تبارت، مع الظواهر الطبيعية والظواهر السماوية، في بناء هذه الديانة الرومزية؛ وهي ديانة يصعب مع ذلك علينا فهمها، بقدر ما أنها، حتى في زمن مصر القديمة، كانت غارقة في ظل العصر» (١٤٥).

على أننا نعرف بعض الآلهة، كأمون الرب الحمل (١٤٦)، وهاربوكرات، وهو إله عضو ذكورة غريب يبدو مائلاً بشكل خاص في الكرنك وفي طيبة (١٤٧). لكن هذا الإله الذي يجري عرض صورته الذكورية على الشعب الذي يعبد، ليس في الواقع غير رمز كامل للانقلاب الشمسي الصيفي:

«يجرى تصوير الإله في كامل قوته مع علامات لا لبس فيها على الرجولة ، المساقاة ملتصقتان الواحدة بالأخرى، ولا شك أن هذا يرمز إلى أنه لا يسير بعد، إلى أن يلف في مكانه... فما هو الشكل الرمزي الذي يمكنه أن يعبر على نحو أفضل مما يعبر به هذا الشكل من حالة الشمس التي وصلت إلى أعلى درجات مصيرتها نحو الانقلاب الصيفي، حيث تكون على مدار وقت معين ثابتة وفي كل لكتمال قوتها وحيويتها ؟ إن للعضو الذكوري المنتصب يشير، كما نعرف، إلى فضيلة الإخصاب والإنتاج؛ والواقع أنه خلال الانقلاب الشمسي الصيفي يبدو فعل الشمس أكثر فعالية» (١٤٨).

وتعارضات الآلهة هي انعكاس لظواهر طبيعية متعارضة. ووفقاً لهومار، ففي إنفو يعتبر أونوديس في كن واحد رمزاً للثار وللواء وللماء وللشمس والنيل، أما إيزيس فهي رمز وصورة القمر. وأما فيما يتعلق بأسطورة إنفو، فإنها تشير، من خلال نضال حورس، إلى نضال إهولو [حورس] ضد تيفون [ست]. ويخرج حورس ظافراً من المعركة ويصل إلى أعلى درجات مصيرته السماوية. ويتدفق النهر من فراهه، وتعود الحياة إلى الأرياف «وجميع هذه الآثار الأخيرة هي من عمل حورس، أو من عمل الشمس وقت الانقلاب الصيفي» (١٤٩).

ويتصل مصير الإنسان بدرجة معرفته بأسرار الطبيعة. ولاكتساب هذه المعرفة، لابد من تلقين. وهناك سلسلة من اللوحات المنقوشة تصف عملية التلقين :

«إن الشخصية الرئيسية، وهي شخصية ملك بلا وبيب، تمر بدرجات التلقين المختلفة.

«في البداية يجرى تطهيره على أيدي اثنين من الكهنة يرشانه على رأسه مياه النيل للهدنة.

«وفي للشهد الثاني، يجرى لمسح لمباركته، كما يحدث حتى اليوم في بعض طقوس الديانة المسيحية، ويجرى وضع تاج كهنوتي على رأسه له شكل تاج أسقف كاثوليكي.

«وفي اللوحة الثالثة، فإن للطقن، الذي يقوده كهنتان، يتحرك نحو نوع من لباس القناس حيث توجد صور الآلهة؛ وهو ما يعني على الأرجح أنه يصل، بعد كثير من الاختبارات، إلى معرفة الإله والأسرار المقدسة للنيلة» (١٥٠).

وهذه المشاهد جد حديثة (١٥١). فليس هناك نلص في أماكن التلقين الغامضة والصرية بالضرورة. وفيما يتعلق بإحدى مظاهر أساسيف العظيمة، يكتب جولوا وديفيليه «إن العدد الكبير للروايات والملاحات، وللأثار العمودية التي تؤدي إلى غرف سفلية، إنما

تقدم مظهر مكان مخصص لعمليات التلقين والاحتفال بالأسرار (١٥٢). وينسب جومار الوظيفة نفسها إلى بعض قلعات الهرم الأكبر (١٥٣)

وليس من السهل تفسير التمثيلات جد الوافدة في اللقطة، لكن مؤلفي «وصف مصر» لا يشكون في أن المصريين القدماء كانوا يؤمنون بـ«التناسخ» (١٥٤). وتصور الزخارف الصغيرة في «كتاب الموتى» الاختبارات التي لابد من أن يتعرض لها الميت قبل صدور الحكم الذي يحدد مصيره (١٥٥). ووفقاً لمشهد في مقبرة في وادي الملوك، فإن للدائنين يعنون إلى الأرض على شكل «حيوان نجس»، هو الخزير هنا (١٥٦).

مسور «الوصف»

كيف يمكن لنا أن نضع كلمات مصر «الوصف» القديمة هذه ؟

تتبادر إلى الذهن فكرتان. الأولى هي النخبوية، السياسية والفكرية على حد سواء. فالسلطة بين يدي ملك، مستبد معتد وحكيم، لكنه يمارسها دون التمسك وفي سرية صميلة مع اهتمامه بصعانة أبسط رعاياه. والتراث ومثال الأسلاف هما المرجع. أما الآلهة الملكية فإن المقصود بها هو التأثير على الشعب. والمثقفون والعلماء يتركون الشعب لخرفاته.

والخاصية الثانية لمصر هذه هي هيمنة العلم. فالكهنة باحثون مهتمون بقوانين الطبيعة أكثر من كونهم لاهوتيين. والملوك والمثقفون يجرى تلقينهم العلم في سرية أماكن محتجبة. والآلهة ليست غير تعبير يجرى تقديمه للعامة عن المبادئ التي تحكم الطبيعة. والذين نفس يجرى انتظار إليه بعين الرغبة. وما يثير الاستغراب والحيرة يرد إلى الأرواح الدينية. وهكذا فإن لانتكويه، إذ لا يتمكن من التصالح مع غياب المنظور في الرسم للمصري، ينسب هذا العيب في الفن المصري إلى نزعة الكهنة للمحافظة (١٥٧). أما جومار، الأكثر تصالحاً، فهو يوافق على أن الوضع الغريب للشخصيات ليس دون نموذج «لهذا هو بالضبط الوضع العادي للمسايفة» (١٥٨). ويعترف جومار بأنه سوف يصاب بخيبة الأمل إذا كانت البرديات تتضمن نصراً دينياً لا أعمالاً علمية. وأخيراً فإن جولوا وديفيليه يصوران الملك الحاكم في طيبة، خاضعاً لسلطة الكهنة السرية.

وليس من السهل أن نحدد بدقة العوامل التي قادت مؤلفي «وصف مصر» إلى رسم لوحة كهذه للحضارة المصرية.

X ويميل للرء في البداية إلى أن يرى في تصورهم عن مصر سمات مميزة للعالم المعاصر لهم. والحق أن «الوصف» يتضمن أمثلة كثيرة على الإسقاطات السائرة إلى هذا

لأحد لو ذلك. لكنها تتعلق خاصة بتناول أشكال العمائر أو عدد من التفاصيل. وهكذا، فوفقاً لـ جومار، كان مثقفو مصر القديمة ينتمون إلى طبقة أعلى وكانوا يتمتعون بلباس خاص. فهل كان يفكر في زى الأكاديميين، الذي سمعه فلفيد في عام ١٨٠١ بأمر من بونابارت ؟ ومن الأمور المميزة للغاية أيضاً تلك المقارنات العديدة بين للعمائر المصرية والمدن والبنيات الشهيرة آنذاك (١٥٩).

ويمكن للمرء أن يمش من أن هؤلاء الجمهوريين لم يكونوا مبالين إلى أن وجدوا في مصر القديمة نوع مجتمع مماثل لمجتمعهم. إلا أنه لا يجب أن ننسى أن النصوص الأولى لـ (الوصف) قد ظهرت في عام ١٨٠٩، أي بعد تدشين الإمبراطورية بكثير. أمّا فيما يتعلق بيوميات جولوا وديفيليه، فقد أعيدت كتابتها كلها بعد الرحلة إلى مصر العليا. وقد وضع ديفيليه يومياته في صورتها النهائية في عام ١٨٠١، قبيل رحيله إلى فرنسا (١٦٠).

وأحياناً ما تظهر الخلط السياسية بين الأساطير. وهكذا فإن الفكرة التي تذهب إلى أن رخاء مصر ينبع من تجارتها مع الهند إنما تستحضر بشكل مؤكد غاية الحملة الفرنسية. اليس بوسع فرنسا أن ترد إلى مصر إمبراطوريتها التجارية القديمة ؟

ولم إحدى فترات الجزء الأول من الطبعة الإمبراطورية، يتعجب جولوا وديفيليه أمام تعاقب الآثار القبطية ثم الإسلامية في مدينة هابو :

« ربما تخلى الديانة المحمدية مكانها سريعاً لعبادة أخرى ما إن يتمكن واحد من أولئك العباقرة ذوي الحمية والتمسسين، واحد من أولئك الفاتحين الذين يظهرون على فترات معينة في البلدان الشرقية، من أن يستحضر من السماء شرائع جديدة ومؤسسات دينية أخرى ». ويلد للمرء أن يتصور أن هذا الفاتح، بالنسبة لجولوا وديفيليه، يمكن أن يكون بونابارت. والحال أن المقدمة التاريخية التي كتبها فوريه، والتي تُصنّف طبعة هانكوك، قد واجهها ومصححها بونابارت بنفسه. ثم، قبل طبعتها في عام ١٨٢١، تعرضت لمقاصد القريب في زمن حوثة الملكية، حيث حذفت منها التلميحات الأكثر وضوحاً إلى بونابارت (١٦١).

وعندما يطوف المرء بمصائر أنبية مختلفة، فإنه يضمن للمصائر التي جاءت منها فكرة الملك الحكيم والفاضل، إن المسؤولين الأواثل هم الكتاب القدماء، الذين يجرى الاستشهاد بهم واستغلالهم بوفرة. وفي عدة مناسبات، يستنسخ جولوا وديفيليه النصوص اللاتينية والإغريقية التي استمدت منها حجاجهما. ويعتبر بومويه واحداً من اللهمين الأكثر حضوراً، وإن كان الاستشهاد به لا يحدث إلا فيما ندر. إن رفض جولوا وديفيليه يحكي أو حتى يتحل، هذا وهناك، مقتطفات كبيرة من مقال حول التاريخ الطبيعي المنشور في عام ١٦٨١ (١٦٢). وفي الفصل المكرس في هذا العمل للاسكندرانيين

واللاهوتيين والمصريين (١٦٣)، يجد المرء بالفعل جانباً كبيراً من الأفكار الرئيسية لـ «الوصف»، خاصة حكمة ومضائل للثقة. ويعتمد هذا الفصل الجانب الرئيسى من مائة من نصوص نيونور وهيرونات. وفى المقابل، فإن الذرمة العلمية والنخبوية ثابتان عن نص بوسويه.

إن فكرة دين نخبوى هى فكرة قديمة، فهى موجودة بالفعل فى الصفحات التى كتبها كليمن السكندرى ولوسيان الساموساتى (١٦٤). وبالنسبة للكاتب للصحفيين، فإن الحقيقة المحتجة للخصمة للملقنين هى الوحشية (١٦٥). وفى عمله، يبحث حول العلقات (١٧٥٣)، يستعيد فولتير، فيما يتعلق بمصر، الأفكار الرئيسية نفسها، «وما هو البلد الذى لم يكن فيه جمع من المؤمنين بالخرافات وعدد صغير من الحكماء ١٢، إلا أنه قلما يقرر فكر للمصريين وهو ينزعج من الفوضى فلسفتهم» (١٦٦).

إن السمة الخاصة لمصر «الوصف» هى من ثم التنازل العلمى (١٦٧). وهى أيضاً السمة الأكثر شخصية. ألا يحوز غالبية المؤلفين تكويناً علمياً؟ ويفكر المرء أيضاً فى سان سيمون. إن هذا الأخير سوف يحس بأنه على راحته فى مصر «الوصف». فبالنسبة له، يجب للسلطة أن تكون بين يدي العلماء، ويجب للشعب أن يظل خارج للمجتمع الجديد. وحتى مع أن السلان سيمونية سوف تلعب فيما بعد دوراً كبيراً فى مصر، فإن الكونت سان سيمون كان غير معروف وقت صوغ «الوصف». على أن مصر «الوصف» تقدم سمات تسمح بمقارنة مع الأنسب الطوباي.

وقد كشف جان سيرففيه فى دراسته عن اليوتوبيا عن النقاط المشتركة بين يوتوبيات جميع العصور. وينطبق عدد من معاييرها على موضوعنا، إن اليوتوبيا هى خارج الزمن، والمجتمعات الطوبائية تتميز بحنين إلى الماضى، والعالم يتحول عن طريق العمل والزراعة، والملوك والحكماء يحتلون الصدارة وينقلون المعرفة، والعلم الرسمى هو وحده المعترف به، والفكر الدينى الطوباي غامض، والكهنة هم رقباء أنبيون مكلفون بالتوبيخ والتعليم بأكثر مما هم وسطاء لدى الآله. وفى «الطلانطس الجديدة» لفرنسيس بيكون، يجتمع العلم والدين معاً فى عمل امسيافىلقرابين يتحول إلى كنيسة صغيرة فى مصر.

إن مصر «الوصف» هى الحلقة الأخيرة فى سلسلة من اليوتوبيات قبل أن تصلاد هبلرية شامبوليون على الاتجاه مباشرة إلى هذا الواقع البعيد.

حواشي الفصل العاشر

- 1 P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, publié par P. Lefèvre-Pontalis, p. 84.
- 2 Biographie de P. Jollois par P. Lefèvre-Pontalis, dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur* pp. 1-34. L'école polytechnique a été créée en 1794.
- 3 E. DE VILLIERS DU TERRAGE, *Journal et souvenirs sur l'Expédition d'Égypte*, mis en ordre et publiés par le Baron Marc de Villiers du Terrage, Paris, 1899 ; il passe l'examen de sortie de polytechnique au Caire et est nommé ingénieur le 3 novembre 1798.
- 4 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 409. Le texte de la *Description* de l'Égypte sera cité, d'après l'édition Panckoucke 1821-29, avec le nom de l'auteur du passage. L'orthographe du nom de Devilliers est celle de la *Description*. Les planches seront citées sous la forme : Atlas, I, pl...
- 5 Pour une liste des membres de la commission des sciences et arts qui ont voyagé en Haute-Égypte, voir J.E. GOBY, dans *B/E* 35, 1952-3, p. 90.
- 6 Ce projet a été discuté au cours des dernières réunions de l'Institut, voir J.E. GOBY, *op. cit.*, p. 88.
- 7 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 262-263 ; Nectoux avait 58 ans.
- 8 P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, pp. 21, 23, 72.
- 9 P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, p. 23 ; H. LAURENS, *Kléber en Égypte 1798-1800*, V.O.E. 25, 1988, pp. 79-80 ; DEVILLIERS, cité par P. Lefèvre-Pontalis dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, p. 14 et pp. 24-5 ; déjà en 1787, Kléber, alors architecte départemental, avait dessiné les projets des pavillons égyptiens du parc d'Étreppe, près de Monthéliard.
- 10 Conventions graphiques pour séparer les faits des hypothèses : JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 387 ; voir aussi LANCRAFT, I, p. 112.
- 11 FOURIER, *Préface historique*, I, pp. XII-XIII
- 12 Atlas II, pl. II n° 18 et 23. Il s'agit d'une scène de la « Fête de Min » : PM II², pp. 499 (96-97).
- 13 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, pp. 94-95. Ces animaux font partie du décor habituel du trône royal.
- 14 *Ibidem*, II, p. 484.
- 15 Temple reposoir de Ramsès III : P. BARGUET, *Le temple d'Amon-Ré*, pp. 52-53. Cet édifice servait de station pendant les grandes liturgies de sortie, notamment la « Belle fête de la Vallée ».
- 16 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 428.
- 17 *Ibidem*, II, p. 13.
- 18 *Ibidem*, II, p. 76.
- 19 *Ibidem*, II, p. 435.
- 20 *Ibidem*, II, p. 89. Cette barrière est l'ensemble des murs-rideaux entre les piliers de la façade ouest de la seconde cour du temple des Millions d'Années de Ramsès III, à Médinet Habou.
- 21 *Ibidem*, II, p. 43.
- 22 Ensemble funéraire d'Amenemhat III, à l'entrée du Fayoum.
- 23 JOMARD, IV, p. 513.
- 24 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 378. Identification du « héros » avec le roi : JOLLOIS et DEVILLIERS, III, pp. 374-375 ; P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, publié par P. Lefèvre-Pontalis, p. 111 (scènes du Ramessesum). Le plus fréquemment, les auteurs de la *Description* prennent l'image du roi guerrier pour celle d'un simple « héros » (par exemple, JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 86).
- 26 *Ibidem*, II, p. 401.
- 27 *Ibidem*, II, p. 30.

- 28 *Ibidem*, II, p. 8.
- 29 *Ibidem*, II, p. 579.
- 30 *Ibidem*, II, pp. 487-89.
- 31 *Ibidem*, II, p. 571.
- 32 Reposeoir de la barque processionnelle construit par Philippe Arrhidée. P. BARGUET, *op. cit.*, pp. 136-141.
- 33 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 461 ; voir aussi II, p. 450.
- 34 JOMARD, I, p. 310 ; Atlas, I, 57, n° 8.
- 35 Par exemple, pour les ruines du temple de Médamoud, dont seule une colonnade était alors visible, JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 607 ; Atlas III, pl. 68.
- 36 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, pp. 23, 493, 365.
- 37 *Journal* de FOURIER publié par P. Lefèvre-Pontalis dans P. JOLLOIS *Journal d'un ingénieur*, p. 206. Rectifier : un corps de lion avec une tête de bélier.
- 38 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, pp. 511, 513.
- 39 *Ibidem*, II, p. 459.
- 40 *Ibidem*, II, p. 457. Obélisques consacrés au culte solaire, voir p. 459.
- 41 *Ibidem*, II, p. 66 ; Lancet, I, p. 47.
- 42 *Ibidem*, II, p. 525, Atlas III, p. 57, fig. 9.
- 43 *Ibidem*, II, pp. 527 et 501. Cette idée, matériellement impossible étant donnée la masse de ces mâs (voir *Karnak* VII, 1982, pp. 75-92), garde quelque adeptes parmi les guides actuels, locaux ou européens.
- 44 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 414 ; P. BARGUET, *op. cit.*, p. 264.
- 45 LANCET, I, p. 47.
- 46 Edfoû : *Journal* de Fourier publié par P. Lefèvre-Pontalis dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, pp. 189-91.
- 47 LANCET, I, p. 46 ; E. JOMARD, I, p. 276.
- 48 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 428. Il s'agit du temple reposeoir de Ramsès III.
- 49 *Ibidem*, II, p. 431. Statues de Ramsès II : Atlas III, pl. 120.
- 50 Voir *supra*, p. 354.
- 51 *Ibidem*, II, p. 435.
- 52 Atlas III, pl. 33, 1 ; H. NELSON, *The Great Hypostyle Hall at Karnak*, I, n° 151-2.
- 53 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 450.
- 54 *Ibidem*, III, p. 243.
- 55 *Ibidem*, II, pp. 462-3. Voir aussi le journal de J.D. publié par P. Lefèvre-Pontalis, dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, p. 241 ; ces scènes sont en réalité des scènes d'offrande et d'accolade.
- 56 *Ibidem*, II, 467 ; Atlas III, pl. 34. Il s'agit de la série liturgique de l'introduction royale : pl. 23.
- 57 E. JOMARD, IV, p. 29, à propos du palais d'Abydos. Pour Jomard, il s'agissait du palais de Meronon (IV, p. 32).
- 58 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 472. Il s'agit des magasins nord (P. BARGUET, *op. cit.*, pp. 205-209). Même interprétation pour les magasins sud : JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 477 (P. BARGUET, *op. cit.*, pp. 159-161).
- 59 *Ibidem*, II, p. 504. Chapelle reposeoir d'Aménophis II, reconstruite par Séthi I^{er} (PM II², p. 185).
- 60 *Ibidem*, II, p. 474. Salle centrale de l'ensemble culturel appelé Akhmenou et connue sous le nom de la « salle des fêtes ».

- 61 *Ibidem*, II, p. 442 et n. 2. Voir aussi II, p. 398 (hypothèse d'un second étage en « charpente et en toile » au temple de Louqsor ; pour le second étage de la salle hypostyle, voir aussi *Journal* de J.D., publié par P. Lefèvre-Pontalis, dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, p. 239. Cette dernière hypothèse avait déjà été avancée par N. GRANGER (*Relation du voyage fait en Égypte*, Paris, 1743, voyage en 1730).
- 62 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 19. Temple des Millions d'Années (dit temple funéraire) de Séthi I^{er}.
- 63 *Ibidem*, II, pp. 352-353. Jollois pensait que ce « palais » était destiné à la « translation des rois », sans préciser toutefois s'il pensait au transport du corps du roi ou plus simplement au transfert de l'autorité royale dans une résidence royale secondaire (P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, publié par P. Lefèvre-Pontalis, p. 109).
- 64 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 66.
- 65 Temple de Khonsou, appelé le grand temple du sud : JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 534.
- 66 *Ibidem*, I, p. 374 (temple d'Eana).
- 67 Temple de Ptah : « Nous avons retrouvé dans d'autres temples trois pièces semblables à celles qui existent ici, et qui sont évidemment des sanctuaires » : JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 492 ; temple de Gournah : II, p. 359 (chapelles du culte funéraire de Ramsès I^{er}). Cette hypothèse a été confirmée.
- 68 JOMARD, IV, p. 174.
- 69 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, pp. 573-78.
- 70 *Ibidem* II, p. 13, voir aussi p. 79.
- 71 *Ibidem*, II, p. 76.
- 72 *Ibidem*, II, p. 318 (temple de Deir el-Médineh).
- 73 *Ibidem*, II, p. 427 (temple-reposoir de Ramsès III à Karnak).
- 74 JOMARD, II, p. 374.
- 75 LANCRET, I, p. 21, pp. 64-65.
- 76 *Journal* de Fourier, publié par P. Lefèvre-Pontalis dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, p. 193.
- 77 JOLLOIS et DEVILLIERS, I, p. 374.
- 78 LANCRET, devant le mammisi de Philae, souhaite même les supprimer afin que la vue puisse « jouir de toute la hauteur des colonnes » (I, p. 23).
- 79 LANCRET, I, p. 90 (gargouilles de Philae) ; pour JOLLOIS et DEVILLIERS, les deux usages ne sont pas incompatibles, quoique le second soit plus fréquent (Dendara), III, 314.
- 80 SAINT-GENIS, I, 349 (Elkab).
- 81 JOMARD, I, p. 435 (Erment).
- 82 LANCRET, I, p. 94 (kiosque de Trajan à Philae).
- 83 Lancret compare le kiosque de Philae avec ceux d'Erment et de Dendara. Thyphon est en réalité le dieu Bès, gnome hilare à l'aspect grotesque chargé d'apaiser et de désarmer les divinités hostiles.
- 84 Par exemple, JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 514 ; JOMARD, I, p. 306, III, p. 166.
- 85 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 370.
- 86 Voir *supra*, p. 358
- 87 JOMARD, I, p. 275 (temple d'Edfou).
- 88 Voir *supra*, p. 358
- 89 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 351.
- 90 JOMARD, IV, pp. 463, 472.
- 91 LANCRET, I, p. 21 (Philae) ; JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 556 (temple d'Opet à Karnak).
- 92 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, pp. 302-3.

- 93 *Ibidem*, III, p. 370. Cette hypothèse est très proche de l'usage réel de ces chapelles consacrées à la fabrication de la statuette de l'Osiris végétant des fêtes de Khoiak (F. DAUMAS, *Dendara et le temple d'Hathor*, pp. 67 et s.).
- 94 *Ibidem*, II, p. 57.
- 95 *Ibidem*, II, pp. 334 à 336. Ils suggèrent que les débris de momies trouvées dans les salles des pylônes de Philae pourraient être en rapport avec cet usage.
- 96 *Ibidem*, II, p. 12 ; C. TRAUNECKER, J.-C. GOLVIN, *Karnak, Résurrection d'un site*, pp. 58-63.
- 97 *Ibidem*, II, p. 571.
- 98 *Ibidem*, II, p. 593 à 598.
- 99 *Ibidem*, II, p. 493.
- 100 JOMARD, III, p. 3.
- 101 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 8.
- 102 *Ibidem*, III, p. 245 ; la ville de Piramsès, dans le Delta, semble avoir été composée de hameaux (LÄ, V, col. 128).
- 103 *Ibidem*, III, p. 240.
- 104 *Ibidem*, III, p. 244.
- 105 FOURIER, p. XIV.
- 106 LANCRET, I, p. 28.
- 107 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 16.
- 108 *Ibidem*, II, pp. 12 et 139.
- 109 *Ibidem*, II, p. 133 ; Temple de Qasr el-Agouz, PM II¹, p. 527.
- 110 Ces monticules sont des buttes de déblais, produits par le creusement du grand bassin-port de Malgata. Jollois et Devilliers rapprochent ce monument des cent portes de Thèbes chantées par Homère.
- 111 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 509.
- 112 Atlas III, p. 51.
- 113 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 279.
- 114 *Ibidem*, III, p. 269.
- 115 *Ibidem*, II, p. 594.
- 116 *Ibidem*, III, p. 269.
- 117 Il s'agit de l'érection de la charpente d'une sorte de tente, sanctuaire archaïque de Min.
- 118 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, pp. 376-7.
- 119 Journal de Fourier, publié par P. Lefèvre-Pontalis dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, p. 185.
- 120 JOMARD, III, p. 4.
- 121 JOMARD, III, p. 53.
- 122 JOMARD, I, p. 195.
- 123 JOMARD, III, pp. 113, 146-7.
- 124 JOMARD, III, p. 138. Plusieurs auteurs antiques proposent trois types d'écritures, dont les normes sont discutés par Jomard qui n'a pas reconnu le caractère spécifique de l'écriture démotique (JOMARD, III, p. 122 ; Atlas, II, pl. 60 avec les annotations démotiques en marge du papyrus).
- 125 JOMARD, III, p. 110.
- 126 *Ibidem*, III, p. 134.
- 127 J. LECLANT, « La modification d'un regard (1787-1826) : du voyage en Syrie et en Égypte de Volney au Louvre de Champollion », dans *CRAI* 25, 1987, pp. 9-11.

- 128 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 265.
- 129 JOMARD III, p. 88.
- 130 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 115.
- 131 LANCRET, I, p. 69, 49 (Philae); JOMARD, I, p. 310 (Edfou); voir aussi la longue argumentation de COSTAZ : VI, pp. 151-4.
- 132 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 403.
- 133 LANCRET, I, p. 9.
- 134 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, pp. 61, 77-79; JOMARD, IV, p. 341.
- 135 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, 537. Sur les réemplois et les interprétations qu'ils suscitent : JOLLOIS et DEVILLIERS, II, pp. 48, 466, 536; LANCRET, I, pp. 19-20, 111, 118.
- 136 *Ibidem*, II, p. 269 (Les magasins du Ramesseum sont voûtés parce que romains). Les Ptolémées ont au moins respecté la religion, mais sous les Romains, les rites ne sont plus qu'apparence (*Ibidem*, p. 164).
- 137 JOMARD, I, p. 232.
- 138 *Ibidem*, I, p. 335 (Memnisi Edfou).
- 139 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 143.
- 140 *Ibidem*, II, p. 511.
- 141 *Ibidem*, II, p. 556.
- 142 LANCRET, I, p. 115. Pour d'autres raisonnements de ce type, voir JOMARD, I, p. 322 (Edfou), 428 (Emment); JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 398 (Zodiaque de Dendara).
- 143 *Ibidem*, I, p. 113.
- 144 JOMARD, III, p. 59; voir aussi LANCRET, I, p. 66.
- 145 JOMARD, III, p. 166.
- 146 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 305.
- 147 *Ibidem*, II, p. 53, 376, 431. En fait, il s'agit d'Amon-Min.
- 148 *Ibidem*, III, p. 309-310.
- 149 JOMARD, I, p. 319.
- 150 *Ibidem*, II, p. 80 (Médinet Habou), p. 467; Journal de Fourier publié par P. Lefèvre-Pontalis dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, p. 103.
- 151 *Ibidem*, II, p. 18 (tombe de Padiamanope, n° 33).
- 152 JOMARD, IX, p. 491.
- 153 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 329.
- 154 JOMARD, III, p. 132.
- 155 COSTAZ, III, pp. 211-212 : Catacombe de la Métempsychose.
- 156 LANCRET, I, p. 106.
- 157 JOMARD, I, p. 314.
- 158 Par exemple : JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 436 (salle hypostyle de Kamak et Notre-Dame de Paris); p. 411 (I^{er} pylône et façade de l'Hôtel des Invalides); III, p. 3074 (surfaces de Thèbes et de Paris).
- 159 Marc DE VILLIERS du TERRAGE, *op. cit.*, p. I.
- 160 CAMPOLLION-FIGEAC, *Fourier et Napoléon, L'Égypte et les cent jours*, 1844, p. 169.
- 161 BOSSUET, *Discours sur l'Histoire universelle*, Garnier-Flammarion, 1966, pp. 360-361, à comparer avec JOLLOIS et DEVILLIERS, p. 428.
- 162 BOSSUET, *op. cit.*, pp. 357-373.

- 164 Dialogue de Momos, cité par E. HORNING, dans *Les dieux de l'Égypte*, pp. 7-8.
- 165 B. DE MAILLET, *Description de l'Égypte*, 1735, rédigée par l'abbé Le Masquier.
- 166 VOLTAIRE, *Essai sur les mœurs*, Garnier, 1963, p. 77, 81.
- 167 En 1844, Champollion-Figeac accompagne son édition de la version originale de la préface historique de notes, où il nuance l'approche scientiste de Fourier (par exemple, p. 97, n. 2).
- 168 S. CARLECY, *Histoire du saint-simonisme*, Gonthier, 1964, pp. 12-13.
- 169 J. SEVRIER, *L'Utopie*, 1985, pp. 95 et s., 116, 50.

الفصل الحادى عشر

الجوانب العلمية لحملة مصر

(١٧٩٨ - ١٨٠١)

بقلم ، شاول سعد . جيليس

والقد أسهمت إقامة الفرنسيين فى مصر إسهاماً كبيراً فى توسيع مجال العلوم كلها . تلك هى الكلمات التى تحدث بها الطبيب العسكرى جايثانو سوتيرا ، فى مذكرته من الطامون (١) . لفهم تمثل هذا التوسيع ؟ تلك هى المشكلة التى يهدف هذا البحث إلى التصدى لها .

إن لجنة العلوم والفنون ، وهى أول لجنة من نوعها على الإطلاق نشهد ضمها إلى حملة عسكرية ، كانت تضم فى البداية نحو ١٥١ عضواً ، كان ٨٤ منهم يتمتعون بتكوين تقنى وكان عشرة منهم من الأطباء (٢) . والحال أن المعهد (للجمع العلمى) المصرى ، وهو مثيل لهما وراء البحار للمعهد الفرنسى ، قد افتتح جلساته فى ١٦ أروكتيدور من العام الأساس (٢٢ أغسطس ١٧٩٨) . وخلال السنوات الثلاث التى بلم الاحتلال لفيها ، دعى إلى المشاركة [فى المعهد] ما مجموعه ٥١ عضواً . ومن بين هذا العدد ، التحق ٢٦ عضواً بهذه الشعبة أو تلك من الشعبتين العلميتين ، أى شعبة الرياضيات وشعبة الفيزياء ، وكانت الشعبتان للكونتان الأخریان هما شعبة الاقتصاد السياسى وشعبة الآلب والفنون .

وكان على المعهد أن يجتمع عند الحاجة ، ولد مقد ٦٢ جلسة ، انعقدت الجلسة الأخيرة من بينها فى الأول من جيرمينال من العام التاسع (٢٢ مارس ١٨٠١) . وكان للرئيس الأول للجنة هو مونج ، أما النائب الأول لرئيس اللجنة فهو بوناپارت ، وقد انتخب الاثنان معاً لمدة ولاية من ثلاثة أشهر . وكان لورييه هو السكرتير الدائم للجنة ، من البداية إلى النهاية . وقد نظمت أعمال اللجنة وفق القواعد التنظيمية لأعمال الأكاديميات الفرنسية .

وتمت تلاوة مذكرات، أو جرى تقديمها مكتوبة، وهكُتِ هيئة مراقبين مكلفة بتقديم تقرير عن هذه الأبحاث؛ وكان يوسع الحكومة - وهي، في هذه الحالة، السلطة العسكرية - أن تطلب رأى المعهد حول مشكلات معينة؛ وإلى كل مرة كان يعهد بهذه المهام، وكذلك بنشاطات مختلفة، إلى لجان مشكلة لهذا الغرض (٣).

وكان نشر الأعمال يتم بأشكال مختلفة، إن صحيفة لوكوربيه دو ليجهيت، التي تنقل الأخبار والأوامر اليومية القصيرة من السلطات القائمة، شأنها في ذلك شأن صحيفة المونداتور انيفرسيل، كانت تنشر، عند الحاجة، مقتطفات من تقارير المعهد. أما صحيفة لاندكاد إيجيهسيان، فقد كانت تستعيد نموذج صحيفة لاندكاد فيلوسوفيك. والحال أن بحوث المعهد التي نشرت فيها قد أعيد نشرها، في هاليفيتا، فيما بعد في المجلدات الأربعة التي صدرت تحت عنوان «مذكرات حول مصر» في باريس، عن دار نشر ب. ديون، من عام ١٧٩٩ إلى عام ١٨٠٢. وقد اغتدت هذه المجموعة الأخيرة بعدد من الكتابات التي لم تتمكن من نشرها صحيفة لاندكاد إيجيهسيان، التي توقفت عن الصدور في عام ١٨٠٠. وقد ظهرت بعض المذكرات أيضاً في نشرات علمية محكمة - في «أدال دي ميزيم يستوار ناتوريل» وفي «بوليتان دو لاسوسييتيه فيلوماتيك» وفي «جورنال دي مين، إلخ. وكتب عدد من أفراد الحملة كتبها عما شاهدوه وما قالوا عليه من معارف، وهذا هو حال ديجينيت، الذي نشر كتابه «التاريخ الطبي لجيش الشرق» (١٨٠٢). أما العمل الأشهر، في هذا الباب، فلا يزال هو عمل فينان ديون «رحلة في مصر السفلى والعلية» (١٨٠٢) وأخيراً، الكتاب الضخم، «وصف مصر» الذي ظهر، من عام ١٨٠٩ إلى عام ١٨٢٨، مؤلفاً من «المقدمة التاريخية» التي كتبها لوربيه ومن الأطلال الثلاثة التي تضم لوحات والتي نشرت في عشرة مجلدات، ومن المجلدات التسعة التي تتضمن النص المكتوب، والموزعة كلها إلى ثلاثة أقسام، «العصور القديمة» و«الحالة الحديثة» و«التاريخ الطبيعي»، الذي يحوى أطلساً، يضم خريطة طوبوغرافية وجغرافية (٤).

نلك هو العمل المنشور. أما فيما يتعلق بالعلماء أنفسهم، فقد كان خمسة من بينهم شخصيات شهيرة بالفعل، وقت ركوبهم البحر، في مايو ١٧٩٨، وهم مونج وبيرتولليه ولوربيه ودولوميو ونويه. وسوف يحوز ثلاثة آخرون الشهرة، عند عودتهم إلى فرنسا، مالميس وجيفروا سانت - هيلير وسافيني؛ ولا مرأى في أن لانكريه كان من الممكن أن يحوز الشهرة مثلهم، لولا موته، وهو ما يزال في ريعان الشباب. والحال أن عدداً من المذكرات

التي تليت أمام المعهد من جانب هذه الشخصيات العظيمة لد عاليج موضوعات تتصل
ببحوثهم الشخصية، بأكثر مما تتصل بمصر (٥). ولد أنت هذه البحوث إلى إشباع جدول
الأعمال بنماذج بحث تتصل بالعلم الخالص، ولن نتوقف أمام هذه الأعمال. كما أننا لن
نتوقف، على الطرف المقابل، أمام العلم التطبيقي، من نوع تلك الإجابات على الطلبات التي
كان يجرى إشعار اللجنة بها، لتلبية الحاجات المباشرة للجيش (٦). إن الموضوع الذي يهمنا
إنما يتجلى تحت ملمح مزيج : في المقام الأول، لعمل العلمي بالمعنى الدقيق للمصطلح،
والذي أنجز بحكم الوجود الفرنسي في مصر؛ وفي المقام الثاني، الدراسة العلمية لهذا البلد
نفسه.

علوم الرياضيات والفيزياء

من بين المنكرات التي تعالج ظواهر قويت في مصر، فإن المذكرة الأشهر تظل هي
مذكرة مونج حول السراب (٧). وقد قام بتلاوتها في الجلسة الثانية للمعهد، في ١١
فبراير من العام السادس (٢٨ أغسطس ١٧٩٨)، بعد شهر بالكاد من الزحف المؤلم
من الإسكندرية إلى القاهرة. إن شبح قرى تظهر كما لو كانت جزراً مرتعشة ومنعكسة في
بحيرة تأخذ في التراجع شأنها في ذلك شأن الأفق، بقدر تقدم المرو نحوها، قد أخضع
الجيش لعذاب الأمل فيما لا يمكن بلوغه، معرضاً إياه لخيبة الأمل للمجانية والقاسية. وقد
قدم مونج تفسيراً لتلك الظاهرة مبيناً أن حرارة الرمل، التي يزيد من سخونتها ضوء
الشمس، في الهاجرة، وسط الصحراء، تمتد للهواء القريب مباشرة من الأرض، وذلك
بدرجة كبيرة بحيث إنه يتميز بكثافة أقل من كثافة غلاف الهواء المحيط. والحال أن أشعة
للضوء القادمة من أجزاء السماء المنخفضة، والقريبة من الأفق، إنما تنعكس، كما في مرآة،
على السطح الأعلى لهذه الطبقة قليلة الكثافة. وينتج عن ذلك أثر مزيج. فهو يجعل الأفق
يبدو لقرب، من جهة صور مباشرة لقرى ولنجالات توجد بعيداً، في ذات الوقت الذي يقلبها
فيه، مكسباً إيها صورة للفرق والانعكاس في مياه ليست غير حد السماء للعكوس. ويرد
علم البصريات الحديث للظاهرة إلى أثر انكسار مزيج للأشعة - مباشر، ومقلوب -
وسط الطبقة السطحية، بأكثر مما يرد إلى انعكاس على السطح الأعلى لهذه الطبقة، لكن
المبدأ الفيزيائي الأساسي يظل هو مبدأ الأثر الذي تحدث عنه مونج.

والحال أن تحولاً حاسماً من جهة أخرى هو الذي تمثله، في المسيرة العلمية لكاتبها،

«ملاحظات» بيرتولليه حول كربونات الصوديوم، والتي تعتبر المذكورة - المترتبة على دراسة مصر - الأكثر إثارة للانتباه، بعد المذكورة السابقة (٨). لقد اتخذت مسيرة بيرتولليه العملية مساراً على نقىض النهج المعتاد، فهو يحقق الشهرة في مجال العلم التطبيقي وتنبع مساهمته في العلم الأساسي، ليس من واقع زخم الشباب للتجديد، بل من واقع تأملات رجل في عنفوان العمر، يعتمد على خبرة حياة، في مجال التفاعلات والعمليات الكيميائية. وقد تخصص في البداية في الكيمياء وفي تقنيات الصباغة، وقدم بالفعل مذكرات قصيرة حول استخدام النيلة والحناء والزهر في مصر (٩). ولدى عودته إلى فرنسا، فإن العمل الذي سوف يضطلع به في فترة نضوجه سوف يرسى لبس الكيمياء - الفيزيائية الحديثة. إن البحث حول الاستاتيكا الكيميائية، المنشور في عام ١٨٠٢، يعالج أثر العوامل الفيزيائية - الحرارة، الضغط، الضوء، الكثافة النسبية - من حيث كونها محددة لمدى وسرعة استمرار تفاعل ما، بل وفي حالات معينة، لما إذا كان هذا التفاعل سوف يحدث أم لا. ولا يمكننا على وجه اليقين أن نقرر أن تجربة بيرتولليه المصرية هي التي دفعت إلى النظر في هذه المسائل. لقد كان بالفعل غير مرتاح إلى النظرية، العائدة آنذاك، عن التآلفات الانتحابية، والتي استندت إلى اعتبارات كيميائية بصورة خالصة، ولا مراء في أنه قد انتقل من النقد إلى البحث، على أية حال. لكن مصر كانت الفرصة لذلك، والمشكلة التي طرحت نفسها عليه هي مشكلة التكوين الطبيعي لكربونات الصوديوم في بحيرات المنطرون [كربونات الصوديوم]، التي تستمد اسمها من التسمية اليونانية لهذا المنتج، والذي قامت مصر بتجارة واسعة فيه منذ العصر القديم.

وفي أواخر يناير ١٧٩٩، قام بيرتولليه، بإرفاقه مساعده رينو، بمصاحبة الجنرال أندريوس في الجولة الاستطلاعية والتي قام بها في ستة أيام في الوادي - الواقع على مسيرة أربع عشرة ساعة من غرب القاهرة - والذي يضم هذه البحيرات، وكذلك في الوادي، المجاور، لنهر لا مله فيه. وقد وجدوا أن التكوينات الكلسية التي تغطي بالبحيرات - والملحة بدرجة عالية - مشبعة بالملح ومغطاة برواسب قلووية. وبشكل واضح، فإن الملح (كلوريد الصوديوم) والكلس (كربونات الكالسيوم) يتفاعل في تفاعل تحليل مزدوج، بما ينتج الصودا أو المنطرون (كربونات الصوديوم) وكلوريد الكالسيوم. ولا يتكون المنطرون إلا على التربة الكلسية. وإذا كانت التربة طينية بشكل خاص، فلن نجد غير للملح البحري، والقليل لو لا شيء من الصودا (كربونات الصوديوم). ولا تشير الأجزاء الرملية إلى وجود هذا أو ذاك في الرواسب، لأن مياه المطر تحلل الملح وتدفع به إلى البحيرات. وفي أجزاء

البحيرات التي تنصب فيها مياه جريان التربة الكلسية، فإن للنياه تؤدي، على أية حال، إلى تحلل الصوفا (كربونات الصوديوم) بكثر مما تؤدي إلى تحلل الملح. ويترتب على ذلك أن الكلس، في هذه المناطق الكلسية، يؤدي إلى تحلل للملح، في وجود الرطوبة والحرارة، في حين أن النظرون الناتج بهذه الطريقة يبرز إلى السطح ليلقد عليه مائه ويكون طبقة صلبة. أما الناتج التابع، كلوريد الكالسيوم، لكونه مشبعاً بالرطوبة، فإنه يتشبع بالماء ويخيب في التربة، وما هو مثير في ذلك بالنسبة لبيروتوليه، هو أن التفاعل المعروف جيداً للكيميائيين، في العمل، هو عكس ذلك تماماً. ومن ثم فإن تلك إنما هي حالة نموذجية، حيث تعد الظروف، بدرجة أكثر من العناصر الكيميائية الماثلة، الاتجاه الذي سوف يأخذه التفاعل.

وفي ٤ فبراير ١٧٩٩، قدم أندريوسى تقريراً سريعاً حائلاً عن المنطقة وطوبوغرافيتها وأبهرتها القبطية التي انتهت إلى التدهور وطرق القوافل فيها التي يجوبها الهنود والجوابون^(١٠). ثم يتدخل بيروتوليه بعده بتقرير حول ملاحظاته ويعلم اعتزامه تفسير تكرين النظرون، في جلسة قالية. والواقع أنه يرحل في ١٠ فبراير مع مونج، لمراقبة بوناپارت في غزوه للأرض للقصة، التي كانت آنذاك جزءاً من سوريا. وفي ٢٩ يونيو، وفي أول جلسة للمعهد بعد عودتهما إلى القاهرة، يتم انتخاب بيروتوليه رئيساً ويتم انتخاب أندريوسى نائباً للرئيس. وكان عليه أن يبدأ بتلاوة للمذكرة التي أعلن عنها، وأبحاث حول قوانين التآلف الكيميائية، في ٨ أغسطس، ولم يستكملها قط. وفي ٢٢ أغسطس، اتجه من جديد إلى الرحيل، بصحبة مونج، إلى جانب بوناپارت، وصرأ هذه المرة، للعودة إلى فرنسا. وبحكم هذا الواقع، كان عليه أن يتلو مذكرته أمام المعهد الأم، أمام المعهد الفرنسي، خلال شهرى أكتوبر ونوفمبر. وهذه المذكرة التي ظهرت في عدد نشرة «معموار» الصادر عن أعمال المعهد في عام ١٨٠٠، والتي نشرت بشكل منفصل بالإضافة إلى ذلك، إنما تشكل عرضاً أولياً للأفكار الرئيسية لـ «البحث حول الاستاتيكا الكيميائية»، بشكل مكثف، و - لا بد من قول ذلك - أكثر وضوحاً. (١١)

التاريخ الطبيعي

إن علماء الطبيعيات هم الوحيدون الذين كان يمكن للمرء أن يتوقع أن تسهم إقامتهم في مصر إسهاماً تلماً في تطوير علمهم، وليس بشكل عرضي، كما هي حالة علماء الرياضيات والفيزياء والكيمياء. والواقع أنه باستثناء للمهندسين، فإن علماء الطبيعيات هم

الذين كانوا يشكلون الوحدة الأولى هناك. وفي النهاية، كان من المتصور أن يكون عندهم خمسة عشر، بحيث يكون لكل فرع علمي كبير خمسة. والواقع أن التي مشر فقط هم الذين سوف يركبون البحر، بالخدمة لعلم المعائن، بولوميو وفرانسوا - ميشيل دو وعزبير، برافقهما ثلاثة من مهندسي النتائج للشبان، بيبير - لوى كوردييه وفليكتور بيبيرى ولوى نيشانوا (الذين كملوا فيما بعد سلاح الجسور والطرق)؛ وبالخدمة لعلم الحيوان، إيتيان جيفروا سانت - هيلير وجيل - سيزار لولون دو سافيني، إلى جانب تلميذ ومعلم جيفروا، ألكسندر جيفرا؛ وبالخدمة لعلم النبات، أنطوان - فرانسوا كوكبيير دو مونتيري وألبر رافينو - بيليل، وإيپوليت نيكتر وهنرى - جوزيف ريديتيه. والحال أن ريديتيه، الفنان - المصور، والملحق بحدائق النباتات، لم يكن عالماً، بل كان متخصصاً في رسم الزهور، شأنه في ذلك شأن أخيه الأكبر، والأكثر شهرة، وللمسمى بـ «رومانيل الزهور». ولم يكن سافيني عالماً حيوان من حيث إعداده التعليمي، بل كان عالم نبات. وكان بيبيرتوليه قد طلب من كوفييه، الذي اعتذر، أن يكون عضواً في الحملة مع إلحاحه على سافيني، الذي كان آنذاك في العناية والعشرين من عمره، بأن يوافق على الحلول محله، مشيراً إلى أنه سوف يتمكن دائماً من تلقين نفسه في هذا العلم. أما جيفرا فقد تكشف أنه شخص غير مهال بالمرة. وأما كوكبيير، الذي لا يبدو أن يكون حدثاً، هو الآخر، فسوف يصبح أميناً لمكتبة المعهد؛ وسوف يموت بالطاعون في ٧ أبريل ١٨٠١، عشية الجلاء عن القاهرة.

ومن بين علماء المعائن، فإننا ندين بالعمل الأساسي لروزيير، وليس لبولوميو، كما كان متوقعاً بشكل مشروع. والحق أن الحملة سوف تدمر حياة بولوميو. لهذا الفارس القديم من لوسان لثوية مألوفة كان لحد رسولين - كان الآخر هو مدير الشؤون المالية بوسيلج - أرسلهما إلى لبر بوناپارت، قبل نزوله، لكي يطلبها من الراعي الأكبر تسليم الجزيرة. وفيما بعد، تعرض بولوميو للإحساس بضعف ما تجاه بوناپارت، لوضعه إياه بهذه الطريقة في وضع الخائن لأخويته. ولم يكن لديه الاستعداد ولا الأصل لكي يلعب دور جليش لهذا الفاتح الجديد. وإن ارتباطي بمشروع عسكري، وضعني (ولو بشكل غير مباشر)، تحت قيادة جنرال، قد أرفق خيالي [...] حتى وإن كان هذا الجنرال هو بوناپارت (١٢). وبعد قضاء ثمانية أشهر في مصر، يرحل عنها، مفادراً الإسكندرية مع معاصده كوردييه، في ١٠ مارس ١٧٩٩. ولما كانت العاصمة قد أرغمت سفينة على

الاحتماء بمرسى تارينت، فقد جرى الإلقاء به فى السجن، ومنعه من مخالطة أحد، على سبيل للعقاب له من جانب فرسان مائدة فلاجئين، الذين تمكنوا من التوصل إلى تفاهم مع البوريون، الرعاة للمتحمسين، فى مملكتهم فى نابولى، للثورة المضادة. وقد تم إخلاء سبيله بعد ستة وعشرين شهراً، دالت من حاله الصحية. وبعد عودته إلى باريس فى مارس ١٨٠١، حيث حاز على كرسي فى للتحف، لم يمض إلا ثمانية أشهر، ومات فى نوفمبر، بعد رحلة أخيرة فى جبال الألب.

إن اللوحة التذكارية الأكثر بلاغة لفتوحات العلم التى سوف تسجلها الحملة فى قائمة إيجابياتها، سوف يجدها المرء فى القسم الثالث من «وصف مصر»، فى هذه الأبيومات الثلاثة للوحات، والمصاحبة لمجلدى نصوص، مكرسين للتاريخ الطبيعى. ولنقرر على الفور أن للحصيلة كلها تقدم فى أن واحد أكثر، وأقل، من ذلك التاريخ الطبيعى لمصر الذى كانت هناك رغبة فى تقديمه. فهو يظل نون للرد، من حيث أنه يظل جزئياً، بالرغم من ضخامة حجمه، ومن حيث إن تركيب النصوص قليل التوفيق، إن لم نقل أنه مشوش، بكثير مما هو منهجى. وتؤكد أهميته بعد ذلك، من زاويتين «أولاً، من حيث إن المشاركين فيه سوف يواجهون مشكلات، وأحوالاً سعيدة غير عادية، سوف يكون لها صداها على عمل كل منهم وعلى تخصصاتهم، إيجابياً أم سلباً؛ ثانياً، من حيث إن المشروع بأكمله يجمع بين عوامل علمية وعوامل تاريخية واقتصادية واجتماعية وسياسية، ارتق ارتباطاً مما حدث قبل ذلك - لو حتى مما كان يمكن تصوره - بهذا التاريخ، فى دراسة أى بلد آخر.

لما الذى نجده فى التاريخ الطبيعى؟ كما هو الحال مع القسم الأول من «وصف مصر»، للقسم الخاص بالعصور القديمة، سوف يجرى تناول (التاريخ الطبيعى) بشكل جد مرض بدراسة اللوحات، حيث تظل الإحالة إلى النصوص ثانوية، على شكل تنمة. وسوف يكون الأمر على خلاف ذلك بالنسبة للقسم الثانى الكبير من العمل، والخاص بالحالة الحديثة لمصر، الذى تعتبر مذكراته أكثر أهمية بكثير من لوحاته. وقد تم تسجيل لوحات التاريخ الطبيعى بين عامى ١٨٠٥ و ١٨١٤. وكان أربعة من المشاركين مسؤولين عن ذلك، جيفروا سانت - هيلير وسافيني، بالنسبة لعلم الحيوان، ودليليل، بالنسبة لعلم النبات، وديبير، بالنسبة لعلم المعادن. ومن حيث المبدأ، كان كل واحد منهم ملزماً بتقديم سلسلة من «الشرح» الملحق بلوحاته، فى المجلدات التى تتضمن النصوص. والحال أنه لا

جيفروا ولا سافيني قد قلما بهذه المهمة، جيفروا لأنه لم يعد يريد ذلك، وسافيني لأنه لم يعد يوسع عمله ذلك. وكان لابد من أن يقوم لخران بتقديم شروحيهما، بعد نحو عشرين سنة من إنجاز اللوحات، فقد عهد بتقديم شروح لوحات جيفروا إلى ابنه، إيزيدور، وعهد بتقديم شروح لوحات سافيني إلى عالم طبيعيات ينتمى، هو أيضاً، إلى الجيل التالي، وهو فيكتور لوبوان.

ويضم الجزء الأول الفقاريات، في ٦٢ لوحة، جرى تنفيذ ٤٧ لوحة منها وفقاً لمجموعات جيفروا، وجرى تنفيذ ٢٠ لوحة منها وفقاً لمجموعات سافيني. وهي تنقسم بحسب الفئات الأربع: الثدييات والطيور والزواحف والأسماك. وقد تكفل جيفروا بكل ما يتصل بعلم الأسماك، بينما تكفل سافيني بكل ما يتصل بعلم للطيور، وفي تلك الأثناء قدم سافيني، على شكل ملحق للوطولويط والدموس وللأرانب البرية واللكباش ولتعامسيع ولسلحفاة جيفروا الأخرى، ككسرات وثعابين من عنده هو. ويشمل الجزء الثاني لللافقاريات، موزعة في ١٥ مجموعة - ثلاث فئات من الرخويات، قسم الحفريات، ثلاث فئات من شبيهات الإنسان وثلاث مراتب من الحشرات؛ قسم شوكلات الجلد؛ وأربع مراتب تتمشى أيضاً مع اسم المريجيات: الاسفنجيات، القربيات، المبيخات والطحالب -، حيث جرى تصوير المجموع في ١٠٥ لوحات، تضم الآلاف من الأشكال، وترجع كلها إلى سافيني. ويضم الجزء الثاني مكرر ٦٢ لوحة من للمملكة النباتية، ترجع إلى ديليل و ١٥ لوحة للمعادن، قام بها روزييه.

أما اللوحات التي تترك الانطباع الأكثر قوة، من حيث وضوح السمات، ودرجة التفاصيل، ودراسة الكل، فإنها تظل السلسلة المؤلفة من ١٤ لوحة للطيور، الملونة، في الجزء الأول، ومجمل سلسلة الفقاريات في الجزء الثاني واللوحات الخمس عشرة للمعادن، الملونة أيضاً، في الجزء الثاني مكرر. ومثل هذا الواقع لا يرجع إلى المصادفة. إن سافيني وروزييه كانا يراقبان بدقة، وقد قلما عونهما للنشيط إلى إعداد لوحاتهما، في حين أنه يبدو أن جيفروا وديليل قد اكتفيا بترك المهمة إلى فنانيين وصامين، مكلفين برسم الرسوم الإيضاحية. وفقاً لنماذج من مجموعاتهما، لم تسليم الرسوم إلى نقاشين. وبالنظر إلى المهارة والفن المتقن اللذين تمكن هذان الفريقان للمهنيان من البرهنة عليهما، فإن للنتائج نعتير جيدة، دون أن تدعى أنها ممتازة. والواقع أن قوة الجانبية التي أضفها سافيني على اللوحات التي كان مسؤولاً عنها، إنما تتضح إذا ما اقتصر المرء على مقارنتها

باللوحات التي ترجع إلى جيفروا، في الحالات النادرة التي حدث أن صودا فيها، كلا على حدة، حيوانات واحدة، كالنمى الأكل للفئران والحيات، أو إذا ما لقنا بمقارنة سلاسل كل منهما الخاصة باللعابين. والنتيجة عظيمة بحيث إن لوحات سالفيني سوف تشكل وصيلاً، في علم الرخويات بشكل أخص، بدلاً من أن ترد إلى مرتبة مجرد تصويرات عادية للنباتات وللحيوانات المصرية مخصصة لرحالة ملازمين لبيوتهم. (١٢)

وبالنظر إلى الأهمية الممنوحة للتاريخ الطبيعى، فإن المرء يدهش بادى ذى بدء من أن إسهام علماء الطبيعيات كان لحد أكثر الإسهامات اختزالاً في صحيفة لاديهكاد إيهيبيسيان كما في مذكرات حول مصر. وخلال مناخلة جيفروا الأولى في المعهد للمصرى، كان عليه تلاوة مذكرة حول النعام، لا تعدو أن تكون مقالاً يتميز بالتبسيط، كما أنه اعتذر لكوليبه من «الكتابة للجيش» (١٣). وخلال إقامة سالفيني في مصر، فإنه لم يكتب غير مذكرة واحدة، حول زهرة اللوتس الزرقاء، لا تعدو أن تكون أثراً من آثار تكوينه كعالم نبات. وقد أسهم «أسلوبه جد الحائق» في إقناع زملائه الأكبر سنًا، والذين كانوا حتى ذلك للحين متحفزين، بجدة الشاب وبديته كعالم طبيعيات - إذا ما استعينا بكلام جيفروا الموجه إلى كوفييه (١٤). ومن جهة أخرى، فإن روزير سوف يكتب مذكرة حول معادن وادى القصير، وقد قدم سيليل تقريرين، حول نبات الحنّاء وحول فرع جديد، هو الليمون البحرى المصرى، أما جان - لوى - انطوان رينيه، شقيق الجنرال، فقد قدم مذكرتين، واحدة حول نخيل اللبلح والأخرى حول تأبير الجميز.

هذا هو كل ما هناك، وهو ليس شيئاً كبيراً. وأخيراً، فإن علماء الطبيعيات لم يكونوا هناك لنشر مذكرات، بل لأناء مهماتهم الرئيسية، إجراء ملاحظات وجمع عينات. وقد مروا بانتكاسة، حتى قبل أن يتسنى لهم الانكباب على العمل، وذلك عندما حدث، في يوليو ١٧٩٨، إن السفينة لوپاتريوت، التي كانت تنقل معداتهم العلمية، انقلبت بعد الاصطدام برصيف بحرى وغرقت. إن للمهاضع والميكروسكوبات وملاقط التشريح والكحول والأوعية والدبابيس وكراسيات جمع الأعشاب والبراويز وأبواب مد القراشات - كل أجهزتهم قد استقرت في قاع مرسى الإسكندرية (١٥). وبالرغم من كل شيء، ففيمما صفا الميكروسكوبات، كانوا قادرين على تجهيز أرتجالى لمعدات مرتجلة، وذلك بصعوبة أقل من الصعوبة التي واجهت المهندسين، الذين حرموا هم أيضاً من أدواتهم الدقيقة جداً، للعقدة والمتطورة من جهة أخرى. وينكب الجميع بحماسة على العمل، بالرغم من اللوانع. وقد طاف جيفروا بمجتمع العلماء وصيادى السمك والفلاحين والحواة والأسواق والكهوف

تحت الأرضية وساحات عمليات الحرق تحت التربة، لكي يرسم ويشرح ويبين كل ماله - في زمنه لو في الأزمنة الأكثر إقبالاً في القدم - لقار، ولتقع يده عليه. وقد استمرت حملته حتى موته من مصر العليا، في أيار عام ١٨٠٠. ومذ لك الحين، وعلى فترات، سوف يؤدي المرض والإرهاق إلى وقف هذه الاهتمامات. وفي الأشهر الأخيرة لإقامته في الإسكندرية، من مارس إلى سبتمبر ١٨٠١، سوف ينكب بشكل خالص على التأمل الفلسفي. ومن بين علماء الطبيعيات، كان سلفيني هو الوحيد الذي رافق قوة الحملة في سوريا. ومن جهته، لقد حافظ على نشاطه حتى في مرارات الأيام الأخيرة. وعندئذ، فإن خطر استيلاء الإنجليز، كغنيمة، على الرصيد العلمي الذي قاما بجمعه، سوف يولط طاقة جيفروا وسوف يعيده إلى العمل إلى جانب زميله الأصغر سناً.

وما أنقذه هو مجموعات مهمة تماماً. وعند عودتهما إلى مارسيليا، سوف يحتاجان إلى ما بين أربعين وخمسين صندوقاً لتأمين نقلها الكامل إلى باريس. وكان على جيفروا أن يستخدم نحو ٣٠٠ بنتة - ١٥٠ لترًا - من الكحول الجديد، لكي يجدد للسائل العكر الذي كانت تحضيراته التشريحية معرضة فيه لخطر التحلل. وقد وصل إلى تحقيق أهدافه وكفل عن طريق زملائه إهداء مجموعات التشريحية من اللقاريات للمتحف. وكانت اللجنة المكلفة بلخص المجموعة مؤلفة من كوفييه ولامارك ولا سيبيد. والحال أن هذا الأخير هو الذي قدم التقرير، حيث تولى بشكل أخص أمام واقع أن الأشكال للحنطة تبدو مطابقة لأشكال الأنواع الحالية المماثلة لها (١٧). وبما أن سافيني لم يكن عضواً في الهيئة، فإنه، من جهته، سوف يحتفظ، في حوزته، بمجموعته الخاصة، وذلك لإعداد اللوحات التي كان عليه تسليمها لـ «وصف مصر». ويبدو أن الحشرات هي التي تشكل الجزء الأكثر ثراءً فيها وأنها هي التي سوف تقدم مادة مساهمته الجليلية في العلم المورفولوجي، دراسة أجزاء لقواء الحشرات والقشريات. وعلاوة على ذلك، فإنه قد ركب للهيكل العظمية لعدد من الطيور، وخاصة إيبيس، وهو موضوع كتب سوف ينشره في عام ١٨٠٥، وسوف يرسخ سمعته لدى الجمهور (١٨).

جيفروا وسافيني

لقد كانت لجيفروا وسافيني اهتمامات متماثلة واستعدادات متباينة. فلا الأول ولا الآخر قد ارتاح إلى التشريع لمجرد غايات علم قوانين التصنيف. وبوصف الأول والآخر من علماء الحيوان، لقد كان عليهما الانتقال من التصنيف إلى المورفولوجيا، لكن جيفروا كان

يستند إلى ذهنية الرومانسية بينما كان سائيني يستند إلى حرص على البنية. وكان جيلبروا يتميز بطبيعة سخية. ورسائله من مصر تفيض بتجليات التقدير والحب تجاه زملائه في المتحف، وبالأخص تجاه كولبييه، الذي يوجه إليه الجزء الرئيسى من رسائله. وسرعان ما يحسب حماسه حرجاً، بقدر ما أنه يظل دون تجاوب، ودون أن يجد تهدئات له، في المرات - التي لم تكن نادرة البتة - التي يختل به فيها الانزعاج والتساؤل عما إذا كان لم ينس. وقد بدأ بالفعل تخصص استقطاب اهتماماته الأساسية. ففي العام ونصف العام الأوليين لإقامته واللذين قضاهما بالكامل في التعرف على البلد، مرتبطاً بالوساطة للمعهد الأكثر امتزاًلاً، ومرافقاً للمهندسين في استكشافاتهم لمصر العليا ولسيناء، والمشرط في يديه دائماً، كان مشرباً بعلم الأسماك وعلم الطيور وعلم الزواحف وبالتشريح الأركيولوجى للحيوانات للحنطة، المستخرجة من سفارة أو من أماكن أخرى. وفي نهاية المطاف، سوف يتجاوز كل ذلك، في تأمل حول الأسباب النهائية، الأصلية، للأشياء. وما أدى إلى هذا التحول هو الإمساك، في البحر المتوسط، بعينات من الشفنينات للبحرية الرومانية والأسماك للكهرية. وقد كتب إلى كولبييه، في ٤ فينديمير من العام العاشر (٢٦ سبتمبر ١٨٠١)، أنه فور وصوله إلى المحجر الصمى، سوف يرسل «عملاً جديداً واسعاً حول الفيزياء والكيمياء والفسيولوجيا» إن اكتشاف السائل العصبى والعنصر الحيوى قد ألبنى إلى نظرية جد واسعة؛ وأنا أرجو أن أعود إلى فرنسا جديراً بك وبزملائى المرموقين». ويتصل اكتشافه بتماثل السائل العصبى والسائل الحرارى، وينطوى على إمكانية استخلاص الظواهر الطبيعية، بدءاً من تفاعل العناصر للكونة للسائل الحرارى - الذى يتحد مع الأوكسجين، لتكوين الضوء - والسائل الكهربائى. ويشكل لا مفر منه، كان لابد لمثل هذه الجهود [التي بلا طائل] أن تجعل من جيلبروا هنا لسفيرة فورييه الذى تمسك، منذ رحيل بورتولليه، عن طريق «تهكمات جارحة»، بإثبات أن زملاءه جهلاء وأن تلامذته وحشهم، وهم مهندسون مدنيون، هم الذين يتمتعون بقدر من المعرفة. والحال أن هدف فورييه، في رأى جيلبروا - كما أوضحه من مارسيليا -، كان يتمثل في أن يكسب في لوساطة الرأى العام صيت التبحر العلمى للفائق الذى جرت العادة في باريس على اختصاص لا جرانج ولا بلاس به (١٩).

للك تماماً هو التأكيد الذى سوف نجده من جديد، ولكن بحجم أكبر، عندما نوثق تطور جيلبروا في مرحلة النموج، على مدار عمله العلمى، في مرحلته الأكثر إنتاجاً. ومنذ عوفته إلى باريس، بدأ في نشر مذكراته، في مجلة أنال دى ميزيم ومستوار ناتورييل، حول

الاكتشافات التي قام بها في مصر ، حول سمكة نيلية، غير معروفة قبل ذلك، مؤونة بزعنفة ظهرية تتألف من ١٦ إلى ١٨ قرصاً منفصلاً، هي سمكة مزبوجة للتنفس - بشكل أبق، سمكة براشيروپتيريجينية - سعالها بالشئمة بهشير، نسبة إلى اسمها للعربي؛ وحول سمكة مفلطحة، أو سمكة مبططة، هي الأشير باربو [سمكة مصطحة ذات زعانف بشكل اللحية] التي، بعينها المائلتين على جهة واحدة من الرأس، تصمغان بشكل لا يقاوم بالتفكير في رسم ليهكاسو؛ وحول الأعضاء للكهربة للشفنيات البحرية الرمادة وللأسماك للكهربة المنملة وللجريات [أسماك نهريه بلا حراشف] الرعاشة؛ وحول تمساح النيل (٢٠). والحال أن استعماله عدد لا بأس به من هذه للذكوات، للعززة بتصوير - السلحفاة النهريه، أو سلحفاة مصر الكبرى، إلى جانب دراسة إجمالية لمجموعة الطوايط، سوف تشكل الجانب الأساسي من مساهمته الشخصية في كتاب «وصف مصر». ومن الواضح أن إثاره يذهب إلى الحيوانات المثيرة. وفي هذا الصدد، فإنه يرتبط بشخص مثل بولون، وفي هذا أيضاً، فإن أوصاله تنفتح على تصويرات، على الحيوانات بوصفها شخصيات، على عاداتها، ومسلكتها، وربما على أخلاقها. إن إحدى مقالاته في مجلة أنال تحمل عنوان «ملاحظات حول المودة المتبادلة بين بعض الحيوانات، وخاصة حول الخنمات التي يقدمها سمك الزامور [سمك صغير يتبع للسفن] إلى سمك القرش (٢١)». على أن تشريحاته هي نتاج عمل بالغ الاحتراف. إن التفاصيل واضحة وضوحاً تاماً. والرسوم والأوصاف بيّنة. لقد استوعب استيعاباً عميقاً الأعمال التي تعالج المسألة. وكان قادراً على أن يميز، بمصر ثابت، ما تمثله الجودة.

وخط القوة الحقيقي، والذي وجه اهتمامه، إنما يظهر في سلسلة من ثلاث مذكرات حول تشريح الأسماك في مجملها، نشرها في عام ١٨٠٧. وقد أعلن أنه قد خطر له، «وإنا متشغل، هذه السنة، بمناسبة الإصدار الذي سوف يتم قريباً للعمل الرئيسي عن مصر، لن أضع اللمسات الأخيرة على دراستي عن علم أسماك النيل». وحتى ذلك الحين، كان متحاناً إلى الرأي الذي كسب للتأييد، بين علماء الطبيعيات، والذي يذهب إلى أن التنظيم الداخلي للأسماك لا يبدى، من نواح عديدة، أي تشابه مع التنظيم الداخلي للقاريات بوجه عام. والحال أنه عند استئناف الدراسة المتنبهة لمجموعة عيناته الخاصة للتي عاد بها من مصر، والتي لا تقل عن المجموعة الثرية للتي جمعها كوثييه، فإن ما يكتشفه باهتمام هو أن الأعضاء نفسها، التي بدت عصية على أي مشروع للدراسة للمقارنة، إنما تبدى في الواقع تشابهات عميقة مع أعضاء لقاريات أخرى.

والحال أن هذا الانتقال إلى اللورولوجيا سوف يحول جيلروا عن علم التصديق ويقوده، في النهاية، إلى تأليف كتابه الكبير، «الفلسفة التشريعية» (٢٢). وسوف تتمثل نتيجته في المواجهة للبلشنة التي سوف تضعه في تعارض مع كوفييه، في عام ١٨٣٠، والتي أثارت الشك في فكرة جيلروا للمحورية، وحدة المستوى التحتي لكل تنظيم عند الفلاريات (٢٣). وهو لن يقترب بعد البتة من تعليقاته للخصصة لكتاب (وصف مصر). أما فيما يتعلق بالمساهمين، فقد تعين عليهم انتظار ذلك. وقد امتد انتظارهم وطال ولم ينته إلا في عام ١٨٢٤. وفي ذلك التاريخ، كان ابن جيلروا، إيزيدور، قد بلغ التاسعة عشرة من عمره، وكان والده هو الذي حوله عن مسيرته العملية كعالم رياضيات، والتي كان الشاب قد استهملها لنفسه، لكي يجعل منه مساعداً له ومعاوناً له في المختبر، ولكي يتولى أخيراً وضع تلك «اللمسات الأخيرة» على علم أسماك النيل، التي كان والده قد وعد بها بينما كان [إيزيدور] في الثانية من عمره بالكاد. وينطبق الشيء نفسه على ما يتعلق بالفصائل الأخرى، الزواحف والثدييات. وفي هذا القسم الأخير، ادّخ جيلروا بنفسه من الجزء الخاص بالطوايط، لكن ذلك هو كل ما حدث.

أما سلفيني، من جهته، فسوف يدخل المسيرة العملية بعمل يتميز باتساع عظيم لوجوه النظر لكي ينتهي، خلافاً لجيلروا، إلى التخصص الذي يبلغ أقصى مدى له. إن كتابه التاريخ الطبيعي والميثولوجي لإيبيس (١٨٠٥) هو عمل يتميز برهالة جميلة، يجمع بين التبحر الكلاسيكي والدقة التي يستوجبها علم الحيوان، في حجم موزن، متناسب تناسباً موهناً. ومع حفظ كل النسب، ومع مراعاة التخصيب العرضي وبساطة الحجم، يمكن للمرء القول بأن سلفيني قد حقق، على الضفة العلمية للحملة، ما تمكن بيثون من تحقيقه على الجانب الأركيولوجي، بكتابه «رحلة في مصر السفلى والعليا» (١٨٠٢). لقد أثار خيال الجمهور. ورد الاعتبار إلى هيرونوت وإلى الكتاب الكلاسيكيين الآخرين الذين تحدثوا عن نوعين لإيبيس في مصر، الأبيض والأسود، مع تشكيكه، استناداً إلى نصوص عبرية، في زعم هؤلاء الكتاب أنفسهم أن هذين الطائرين غير معروفين في الأماكن الأخرى. إن علماء الطبيعيات المعاصرين، الذين لم يتمكنوا من تمييز إيبيس الأبيض، في بيئته الطبيعية الأصلية، قد خلطوا بينه وبين مالك الحزين في مصر السفلى، ولكونهم قد عزلوا عن تعرض أنفسهم للخطر في مصر العليا، حيث كان (الطائر) واسع الانتشار، فقد اكتفوا بأدلة النقوش الدقيقة، حيث تظهر صوره، بدلاً من أن يقوموا بتخريب المومياوات التي كان بالإمكان الحصول عليها بسهولة. أما فيما يتعلق بابن عمه، إيبيس الأسود، فإن علماء

الطبيعية الحديثة لم يكونوا أقل ضلالا، فهم لم يتمكنوا من أن يعرفوا بالمرة النوع للهاجر واسع الانتشار، والمعروف بالفرنسية باسم الكودليس، وبشكل أدق باسم كودليس إيطاليا. وهنا أيضاً منحوا لهبات العصر القديم ثقة غير ملائمة بالمرة، من حيث إنهم قد انكبوا على البحث عن طائر يتغذى على الثعابين. إن سمعة إيبيس، في الأزمنة القديمة، قد جاءت إليه من النور الذي أهداه تجاه الثعابين والعقارب، ومن الخدمات التي لداها بالتهام الثعابين، وبالأخص الثعابين للجنة، والتي لولا تلك لغزت بلاد الفراعنة ولما تسمها سكانها. أما في الطبيعة، في واقع الأمر، وهو ما اكتشفه سافيني، فإن معنات إيبيس، إكان إيبيس الأبيض لم إيبيس الأسود، مليئة بالرخويات وبالقشريات. إنها طيور طويلة الساق تدبش بمنقارها الملوى إلى أسفل وحل للمستنقعات وضفاف النهر، وهي عاجزة تماماً عن قتل الثعابين أو عن أكلها.

فمن أين إننا جامعنا هذا النور الذي تنسبه إليها الميثولوجيا ؟ إن سافيني سوف يحاول تركيب عناصر الموضوع معتمداً على مخيلة تبرز ملامح معرفة راسخة بالكتاب اليهوديين واللاتينيين الذين تحدثوا عن مصر. فالواقع أن هذا الطائر لا علاقة له بالثعابين، التي لا تهدد مصر بحال من الأحوال، اللهم إلا بوصفها رموزاً للشر. كلا، لقد كان إيبيس محبوباً لأنه طائر يشتهي المياه العذبة والرطوبة، يصل مع الرياح الموسمية. إنه يجيء إلى حواف النهر، مبشراً بصعود المياه الآتية بالخصوبة. وهو يتبعها في انحسارها، حتى القنوات ومصارف المدن والكفور، بوصفه كائناً يتميز بالجمال وبالتعاطف، تذكر إنحناءة منقاره اللطيفة بالحياة والإنسانية، سمة اتحاد بين العالم المنزلي والطبيعة. ومن خلال نوره الموسمية، فإنه يدع نفسه يتطابق مع الزودياك ومع توت، الشبيه برأس إيبيس عطارده، الحائز لجميع المعارف والعلوم ورسول الآلهة، المختص بالشهر الأول من العام. وإذا كانت أجواف مومياوات إيبيس قد تحتوى على بقايا ثعابين، وهو ما يتأكد في أغلب الأحوال، في الواقع، فما ذلك إلا لأن من قاموا بالتحنيط كانوا حريصين على احترام حقائق تتجاوز التاريخ الطبيعي.

والحال أن سافيني، الذي يبلغ الآن السنة الثامنة والعشرين من عمره، ينكب على ذلك بترتيب ودراسة مجموعته الخاصة، نون أن يهمل مجموعات قلائدقاريات الموجودة في المتحف أو في أماكن أخرى، وذلك بهدف إعداد لوحات لكتاب «وصف مصر» ويحمل عدد من بينها الإشارة التالية : «رسمت ونقشت في ١٨٠٥ - ١٨١٢». وفي ٢٩ أغسطس ١٨٠٨، قدم تصنيفه الخاص بالطيور إلى الجمعية العمومية للجنة المحررين (٢٤). وهو يولى أكبر

حماسة للمهمة بين علمي ١٨١٠ و ١٨١٤، لأن القسم الخاص بالتاريخ الطبيعي قد تأخر منذ الآن من القسم الخاص بالعصور القديمة، والقسم الخاص بالحالة الحديثة. وكان ينوي إتمام العمل وأرضاء هيئات الإشراف، التي كانت تهدي إمارات نقله صبر متزايد. وسعياً إلى ذلك، فإنه يقرر تأجيل تسليم «شروح» لوحاته، على أساس أنها تبدو أسهل تنفيذاً، ودوتينية تقريباً، منكناً بالأحرى على إتمام التصويرات نفسها، وعلى تقديم الاكتشافات المترتبة على أعماله، والمؤثرة على علم الحيوان في مجمله.

وكان عليه أن يجمع هذه الاكتشافات في كتاب، يظل كتابه الأهم، وهو «مذكرات حول الحيوانات اللاقارية»، للنشور في عام ١٨١٦، والذي يشكل عملاً من أعمال المورفولوجيا، على غرار كتاب «الفلسفة التشريحية» لجيفروا، والذي يظهر من جهة أخرى في الوقت نفسه تقريباً، وإن كان يتفصل عنه، إكان ذلك من حيث الروح أم من حيث الموضوع. ويتألف الكتاب من جزءين، حيث يضم الجزء الأول مذكرتين بهنما يضم الجزء الثاني ثلاث مذكرات وكانت قد تليت كلها أمام الصف الأول للمعهد [العلمي الفرنسي]، في الفترة الممتدة من أكتوبر ١٨١٤ إلى يناير ١٨١٦. والحال أن للكراسة الأولى، والتي ينحصر فيها الجزء الأول، للتمشي مع العنوان الفرعي «نظرية أعضاء الفواه القشرية والحشرات»، إنما تشكل نقطة الانطلاق، في علم الحيوانات، لدراسة للمتماثلات بوجه عام، والتي سوف يواصلها القرن التاسع عشر. ونحن لا نجد في هذه الكراسة أية تخمينات تأملية أو أية معالجة فلسفية حول مخطط الطبيعة أو أدنى قول ماثور أو حكمة أو خروج من الموضوع. كما أننا لن نجد أي أثر لشيء من ذلك في أي محور آخر من محاور سافيني.

وهكذا فإن سافيني عندما شرع في عام ١٨٠٢ في ترتيب المائة التي جمعت في مصر، كما يبين للقارئ في تمهيد الموضوع، قد وجد أن من المستحيل عليه أن يحدد، لعائلات الحشرات والقشريات العديدة، خصائص تتطابق تماماً مع التصنيف الذي حده ليهته، أي نظم أعضاء مرتبة نائماً ترتيباً واحداً، بحيث يمكن للشبه أن يتضح من نوع إلى آخر. وهو يلجأ إلى أنه، بوصفه عالم نبات، هو القادر، بحكم تكوينه العلمي، على أن يفعل ذلك، في حين أن علماء الحشرات يعملون نائماً إلى التنافس في زيادة للملاحظات ممتنعين عن تعميمها أو عن إرساء أسس علمهم. والواقع أن ما لم يكن أحد قد حاول القيام به بعد قد اجتراً هو على الاضطلاع به. ولا مرأه في أن المهمة كانت فوق مستوى قواه، «لكنني أود بقوة أن أسهم بشيء في إكمال هذا العمل الرائع عن مصر، والذي يعتبر نشره مصدر شرف كبير للفرنسيين» (٢٥).

وقد بدأ بفصل الأجزاء الحسية والأعضاء الأخرى الخارجية، ودرسها كل واحد على حدة، وقد فعل ذلك بالنسبة لأعضاء الالهتلاء والحواس والتنفس والحركة، في نحو ١٥٠٠ نوع. وكان طول هذه الحيوانات، في أغلبيتها، أقل من أربعة إلى خمسة خطوط (أقل قليلاً من سنتيمتر واحد)، وكان طول بعضها أصغر من ذلك بكثير. وإمام هذه الآلاف من الرسوم للمرتبة أمامه، وجد أن عناصر أجزاء الدم الواحدة تظهر في جميع الأشكال، وأن دراسة تبدلها، من نوع إلى النوع التالي، ومن جنس إلى آخر، ومن نظام إلى آخر، هي التي تقدم سلسلة المقارنات الأكثر انتظاماً والأكثر إيجازاً. وتتصل مذكرته الأولى بالفراشات وبالأرليات (٢٦). وهو يتصدى في تلك المذكرة لحالة تعرضت لأنشط جلد، وذلك لأن باحثاً يدعى لا تريبل كان يرى أيضاً أن العرشفيات، مع نوات الجناحين، تمثل نظامي الحشرات اللذين تعتبر أعضاء الالهتلاء فيهما مختلفة لاختلاف جذرياً، في الحلقة الأولى وفي الحالة الثانية لوجودها. وقد رأى كوفييه، من جهته، أن لكل نوبة الفراش يختلفان تماماً، عند تحولها إلى فراشة. ووفقاً لما اكتشفه سافيني، الذي وجد أن من يكبرانه مخطئين، فإن الأمر ليس كذلك. فالفراشات وكذلك بوراتها، وكذلك مقدمات الأجنحة وعصبيات الأجنحة وجميع الحشرات الهراسة للأهلية، لها شفتان، شفة عليها وشفة سفلى، ومخطمان ولسان، تحتل دائماً مهن للمواضع الخاصة بها. والحق أنها جد متبدلة، وجد مختلفة وجد مصفرة، بحيث أنه قلما يكون قريباً إلا يتمكن المرء للبهت من التعرف عليها. إن الفكيين، بوجه خاص، يبدوان كما لو كان مرشحاً دقيقاً، ملموماً على نفسه، ومؤلفاً من شفتين لا يشبهان الفكيين في شيء. والواقع أن سافيني، بهذا التشخيص، إنما يحدد التعريف المورفولوجي لمجموعة الحشرات بالمعنى المحدد للمصطلح، أي لمجموعة سلسليات القوائم، التي تتميز بصمت قوائم ويقرنى استشعار، المهنحة أو غير المهنحة، الخاضعة للتحويل أو غير الخاضعة للتحويل.

ويبقى التقسيم الفرعي الثاني لللافقاريات المفصلية (ترجع تسميتها بمفصليات الأرجل إلى زمن تال)، النخيلخيات (كثيرات الأرجل)، والعنكبوتيات والقشريات، والتي كان ليهته قد أعاد تجميعها تحت اسم الحشرات. وهي موضوع مذكرة سافيني الثانية، حيث كان عليه أن يتذرع بالتماثلات، ببراعة وبجرأة تثيران الانبهار، مؤكداً أيضاً، وبرهانة، التشابهات التي حسبتها الدراسة الأولى (٢٧). فهنا أيضاً، نجد أن الأجزاء الحسية هي مفتاح التصنيف فيما عدا أن بعض الأعضاء للرجولة في سلسليات القوائم غائبة تماماً في عدد من النظم والعائلات. وفي الحالات للشابهة، فإن الأعضاء التي تساعد على المضغ سوف

تكون مماثلة لتلك الأعضاء التي تخصصها نظم أخرى للحركة. والمثال الأكثر وضوحاً لذلك هو السلطعونات. فهي تتميز بمخطين وزوجين من الفكك، و، بعد هذه الهياكل، تتميز كذلك بثلاثة أزواج من الفكك الإضافية. ومن ثم يتضح أن الأعضاء للكونة لقوائم سلسيات القوائم قد تحولت إلى فكك في السلطعونات، التي تتميز حلاوة على ذلك بخمسة أزواج من الزوائد للحركة، ومن هنا جاء اسم عشاريات الأرجل، حتى عندما تحوز، إذا ما أخذنا في حسابنا القوائم - الفكك، ستة عشر عضواً على شكل قوائم، تختص الستة الأولى منها بالاحتذاء. وفي المقابل للمخالف تماماً، فإن النقابات (حيوانات مفصلية بحرية تنقب الأرض) تتميز، شأنها في ذلك شأن العنكبوتيات، بغياب قرون الاستشعار، كما تتميز بغياب المخطعات والفكك. لكنها تتميز، في المقابل، بزائفتين تؤهبان دور الفكين، وتتعاون خمسة أزواج من القوائم للدورة، والتي تشكل، من طريق قواعدها، ما يشبه الفكك، وتشكل، عن طريق أطرافها، كلابات مشابهة لكلات مخطعات ملوية. ويحدث ذلك بشكل كامل بحيث يمكن للمرء القول بأن النقابات تتحرك بمساعدة عشرة فكك، هي في الواقع قوائم أيضاً، يشبه الأولان منها قوائم - فكك العنكبوتيات، وهي مهسات لدمية محرومة من وظيفة التحريك - وتشبه الثمانية الأخرى قوائم هذه الحيوانات نفسها، وهي لا تملك عموماً وظيفة لكل بالمرّة.

وقد جمعت للذكرات الثلاث التي تكوّن الجزء الثاني من المجموعة في ملزمة تحمل العنوان الفرعي «أبحاث تشريحية حول القربيات للركبة وحول القربيات للهسيطة». والحال أن عبداً جد قليل من المذكرات التي تليت أمام المعهد، في تلك السنوات، هو الذي نال تقارير جد لورية وجد تفصيلية كذلك التي سوف تدرسها لأبحاث سافيني لجان من بين أعضاء مشاهير مثل كوفييه ولا مارك ولا ترييل. وسوف يستفيد كوفييه من المذكرتين الأوليين في هذه المجموعة، لكي يستعرض مجمل مجال المديخات (جنس حيوانات بحرية من للجوفات) والمريجات (حيوانات نهائية للشكل كالأسفنج وغيره) والقوارض الحجارة، فالحق أن ملاحظت سافيني «تشكل فتحاً في تاريخ الحيوانات المركبة» (٢٨). والخلاصة أن سافيني قد بين أن تنظيم الأكسيونات - وهو اسم يميل إليه منذ تلك الحين، بدلاً من اسم المديخات، الأكثر غموضاً - هو أكثر تعقيداً مما كان متصوراً، وأن عدة أجناس من المريجات إنما تتصل بحيوانات مركبة، هي، في هذه الحالة، مستوطنتات القربيات، وأن مجمل نظام هذه الحيوانات يبدو قريباً إلى أبعد حد من للرخويات.

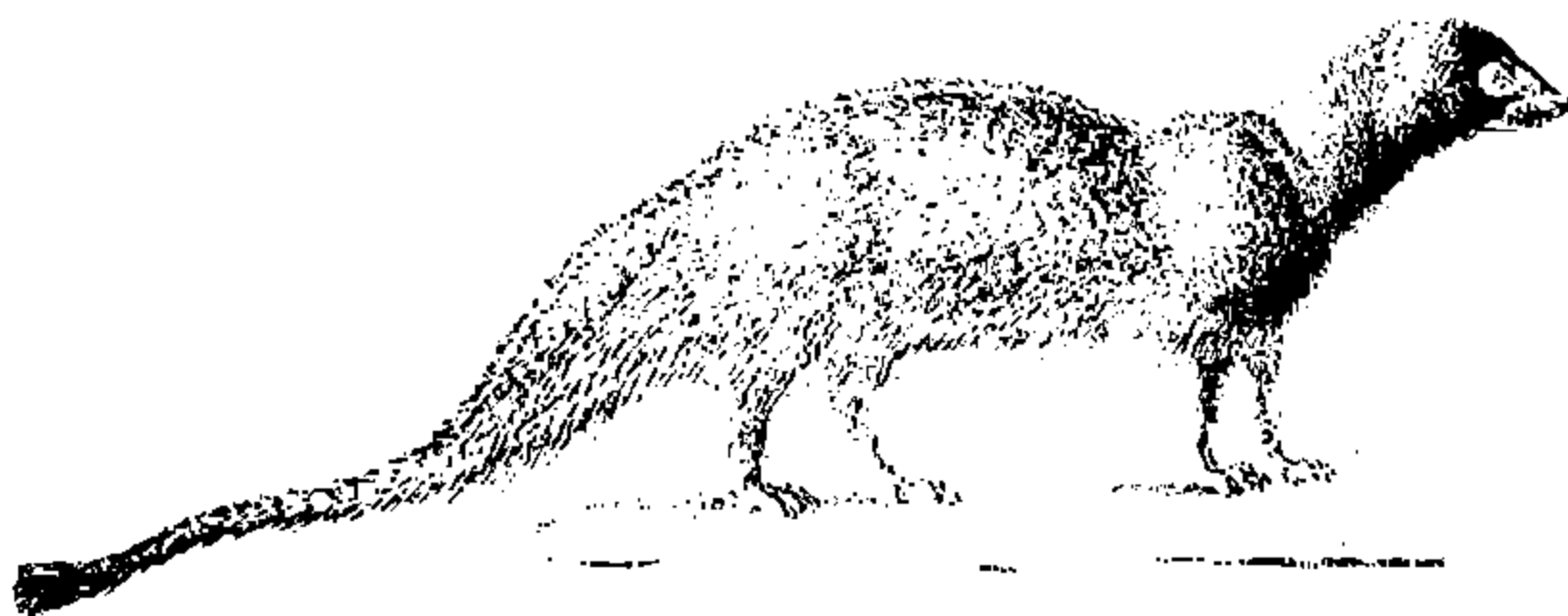
والحال أن الجزء الثاني من هذه المذكرات حول الحيوانات التي بلا فقارات والتي كتبها

سائينى، وهو الجزء الخاص بالقريبات - وليس الجزء الأول، الذى لا تزال له أهمية أكبر، حول نظرية الدم - ، سوف يجرى تنقيحه، لكن يظهر فى «وصف مصر»، شأنه فى ذلك شأن العمل الأخير الذى تمكن من استكماله، «نظام الحلقيات» (٢٩). وعند مواجهة الأنواع التى كان قد جمعها من البحر الأحمر ومن البحر المتوسط مع تلك الموجودة بالفعل فى المتحف، عمل على تطوير تصنيف هذه المجموعة جد الواسعة من الكائنات، والتى تتميز بتشوش معين، والتى كان كوثييه قد جمعها تحت اسم «الدونات ذات الدم الأحمر». وقد قام سائينى بثلاثة بحثه أمام المعهد، فى ثلاث مرات، من مايو إلى يوليو ١٨١٧، قبل أن يقدم نصها للنهائى، فى ٢٠ نوفمبر ١٨٢٠. وفى تلك الأثناء، كان قد تعرض للإصابة الأولى بأفة عصبية سوف تعمره، عملها، من حاسة البصر، وتجعله عاجزاً مدى الحياة. عندما تعلمه من جديد، فى عام ١٨٢٤، «وهو فى ريعان العمر، ضحية لإخلاصه للعلم» - إلا ما استعصا كلمات لا ترييل ولا مارك ، فى حين أن هذا الأخير قد وجد نفسه هو الآخر، فى أخريات أيامه، قريباً من أن يكون لسمى (٣٠). وقد افترض كل منهما أن سائينى لابد وأنه قد أصيب بـ «جذومة» آله فى مصر، حتى مع أنه كان، وهذا من سخريات القدر، واحداً من القلائل الذين لم يصابوا البتة بـ «الرمم» جد المنتشر فى الصحراء.

ولم يتسن لسائينى قط أن يقدم للملاحظات التى كان من الواجب أن تكون مرافقة للوحته. ولا يقتصر الأمر على أنه لم يكن بوسعه بعد أن يعمل، فلم يكن بالإمكان التحدث إليه عن عمله. وبسبب من القضية، فإن اللجنة المكلفة بالنشر قد قامت، تحت إلحاح من وزير الداخلية، المركيز دو لاكوديرير، وفى عمل يؤكد ما لها من سلطة، بتكليف عالم الطبيعيات الشاب، فيكتور لودوان، بالوفاء بمهمة التعديلات والتفسيرات، قدر الإمكان، استناداً إلى مصادر قانونية وإلى مجرد شهادة اللوحات نفسها (٣١). ويبدو تماماً أن أوليمب لوتيليه نوسانتفيل، الذى صاحب سائينى فى حياته، وللذى لم يدخر جهداً فى رعايته وعناية مخلصه، قد اضطر إلى الانحياز إلى الطريق الداعى إلى عدم إبلاغه البتة بهذا القرار. والحال أن لودوان سوف يقترب للعديد من الأخطاء ويهمل أشياء كثيرة أيضاً. أما فيما يتعلق بسائينى، فإنه لم يصب قط بالعمى التام، بل كان يجد أحياناً سبيلاً إلى القراءة إلى حد ما، وكان بوسعه أن يدرك ما حدث. وما تزال اعتراضاته وتصحيحاته واضحة، على نحو ما سجلها فى نسخته من «وصف مصر»، والموجودة فى المكتبة البلدية لمسقط رأسه، مدينة پروفان (٣٢). ولما كان لم يعد بوسعه احتمال ضوء النهار، فقد اضطر، على مدار سنوات، وحتى موته فى عام ١٨٥١، إلى أن يلف رأسه بحجاب اسود، إلا ما تعين عليه أن

يستريح في غرفة مفتوحة للنوافذ. والحال أن المنشور الوحيد الذي بقي عليه الاضطلاع به هو عبارة عن وصف وتصنيف للنباتات، ذات البنية شديدة التميز، والتي نتجت عن الانهيار للتواصل لإمكاناته البصرية (٣٣). وقد عاش حتى آخر أيامه، تقريباً، وفي ولده نهار دائم.

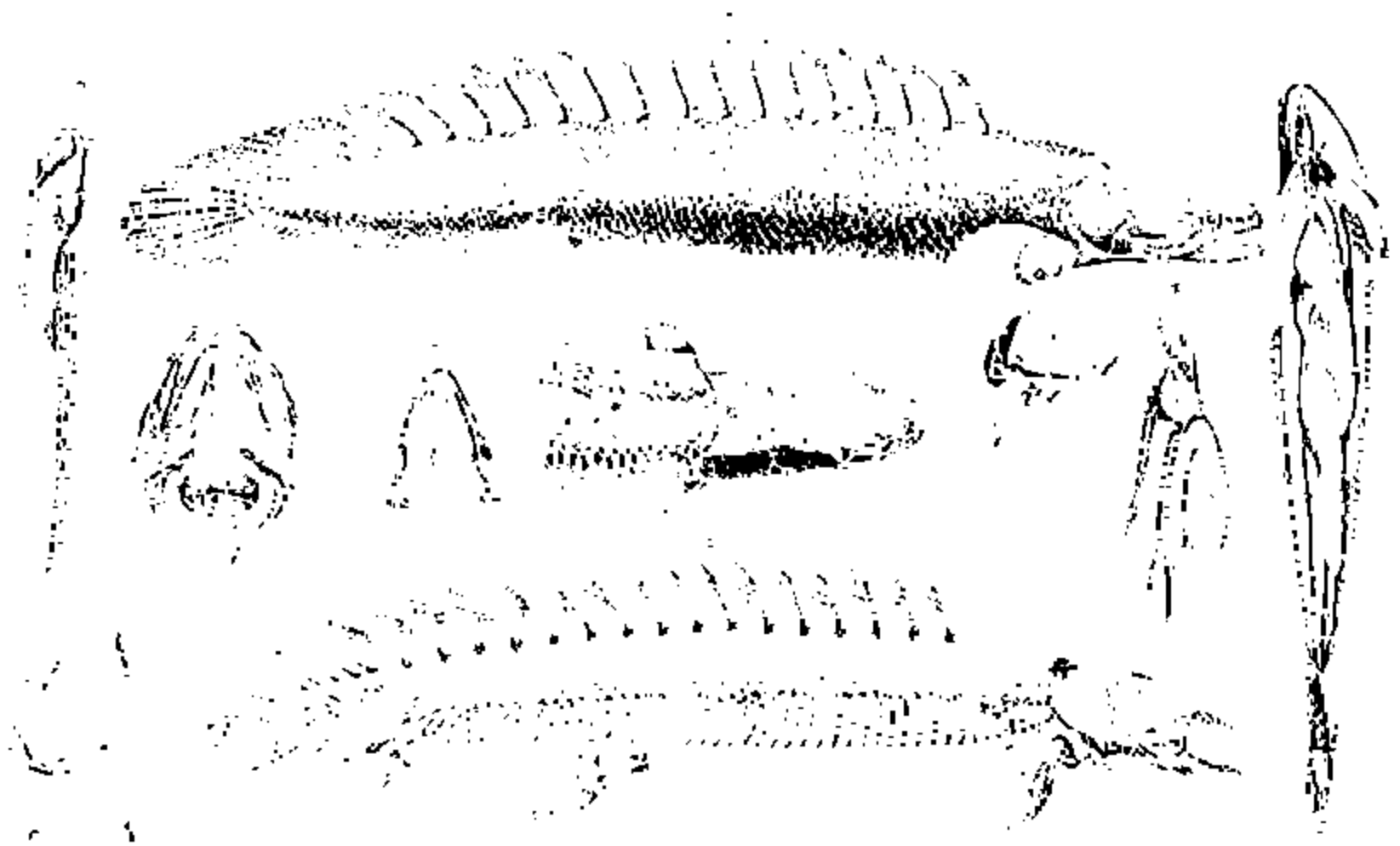
ويظل علم النبات، في صفحات «وصف مصر»، أقل تماسكاً، على للمستوى العلمي، مما هو عليه الحال مع علم الحيوان (٣٤). وسوف يذكر جيفروا، في رسالة مؤرخة في بدايات إقامته، أن علماء النبات سرعان ما أحسوا بخيبة الأمل في أن يجدوا في مصر شيئاً لا يعرفونه بالفعل في أوروبا (٣٥). وقليل جداً ما نشره عن مصر إيبوليت نيكوتو، الذي كان قد مارس وظائف عالم نبات الصراي للملكي ومدير بستان الصراي الملكي في پورت - لو - برنس (٣٦). أما (الباحث) الشلب كوكيبيير فسوف يهلك من الطاعون، في الأيام الأخيرة للاحتلال. والحال أن منكرة صغيرة كان قد حررها، مقارنةً فيها بين أزهار فرنسا وأزهار مصر، تظهر في «وصف مصر»، من باب تكريمه بعد موته (٣٧). وفيما عدا هذا الاستثناء، فإن كل شيء إنما يرجع إلى بيليل. وسوف يسلم ٦٢ لوحة إلى الجزء الثاني مكرر، مصحوبة بـ «شروحها» في للجلد الذي يتضمن النص الذي تتصل به (٣٨). وهو يجري تصنيفاً لعدد من النباتات التي عمل على تصويرها، مع إرفاق أسمائها العربية، والتسمية الاصطلاحية التي وضعها لهنّ، إلى جانب مجموعات كبيرة أخرى (٣٩). وقد سلم، علاوة على ذلك، مذكرات حول النباتات البرية وحول النباتات للزراعة. ومنكرة أخرى أيضاً حول شجرة الدوم، كانت موضوع بحث مقتضب كان قد تلاه (٤٠). وكان بيليل مجتهداً، دون أن يبدى القبة الحماسة التي أبدىها بلحث مثل جيفروا أو مثل سائينى. وفي عام ١٨٠٢، ذهب إلى أمريكا كنائب النصل، مكلف بالشؤون التجارية في لانسليه ويلمينجتون في كارولينا الشمالية. وكان قد انهمك في دراسات حول الطب قبل أن ينخرط في حملة مصر، وسوف يستأنف هذه الدراسات، في نيويورك وفي فيلادلفيا، ليصبح أستاذاً في الطب في عام ١٨٠٧. وقد جرى استدعاؤه كذلك إلى باريس ليتولى الإشراف على الجزء الخاص بعلم النبات في «وصف مصر». وسوف يقدم، في عام ١٨٠٩، رسالته العلمية النيويوركية (حول الهزال الحشري) أمام كلية الطب، وينتشر حياته ويواصل في أن واحد مهنته وإعداد نباتاته المصرية استعجاباً للنشر. وفي عام ١٨١٩، سوف يعين أستاذ كرسي لعلم النبات في كاليفورنيا، في مونتبييه، التي أقام فيها حتى موته، في عام ١٨٥٠ (٤١).



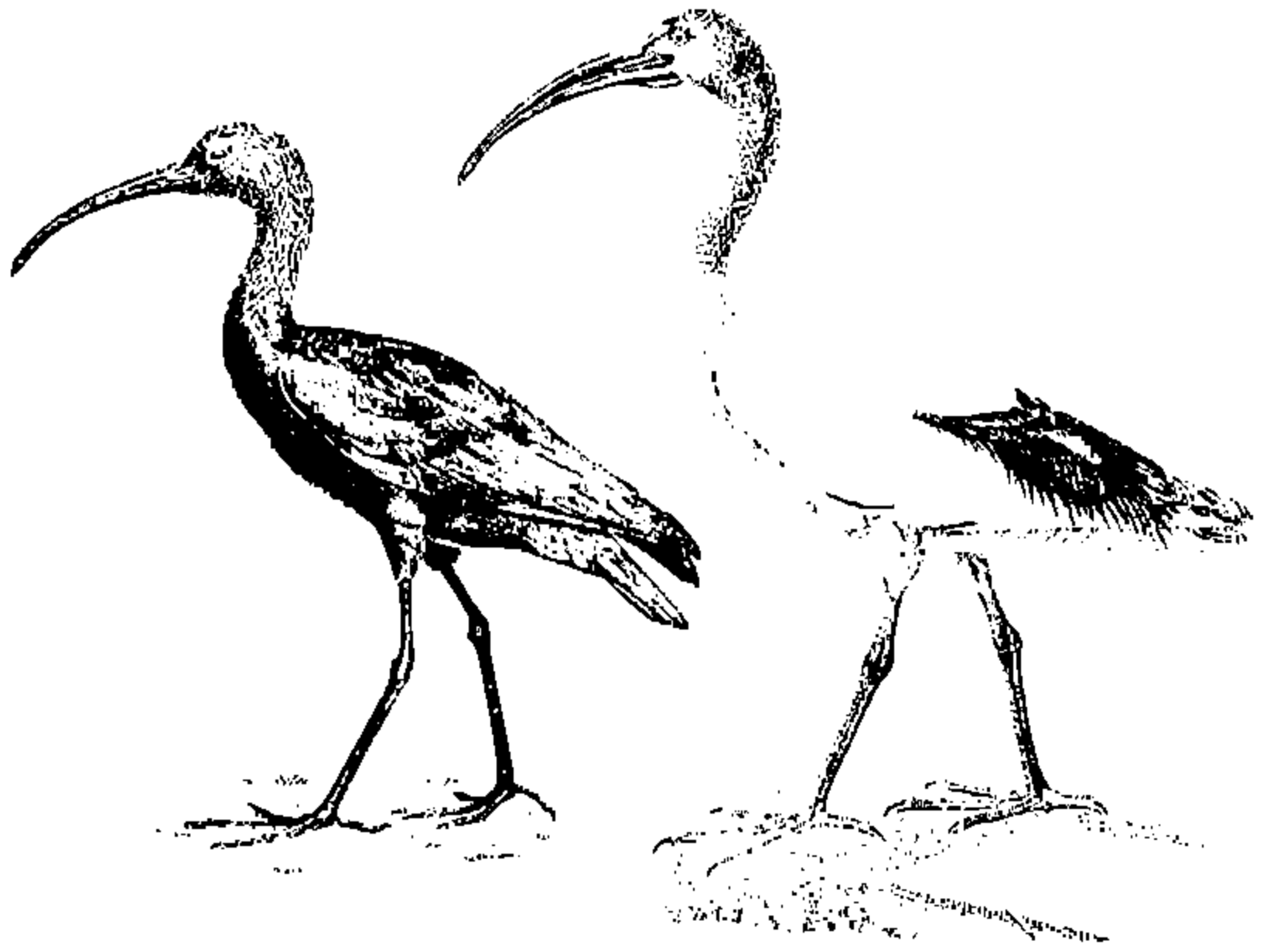
۸۹ - (۱) نمس.

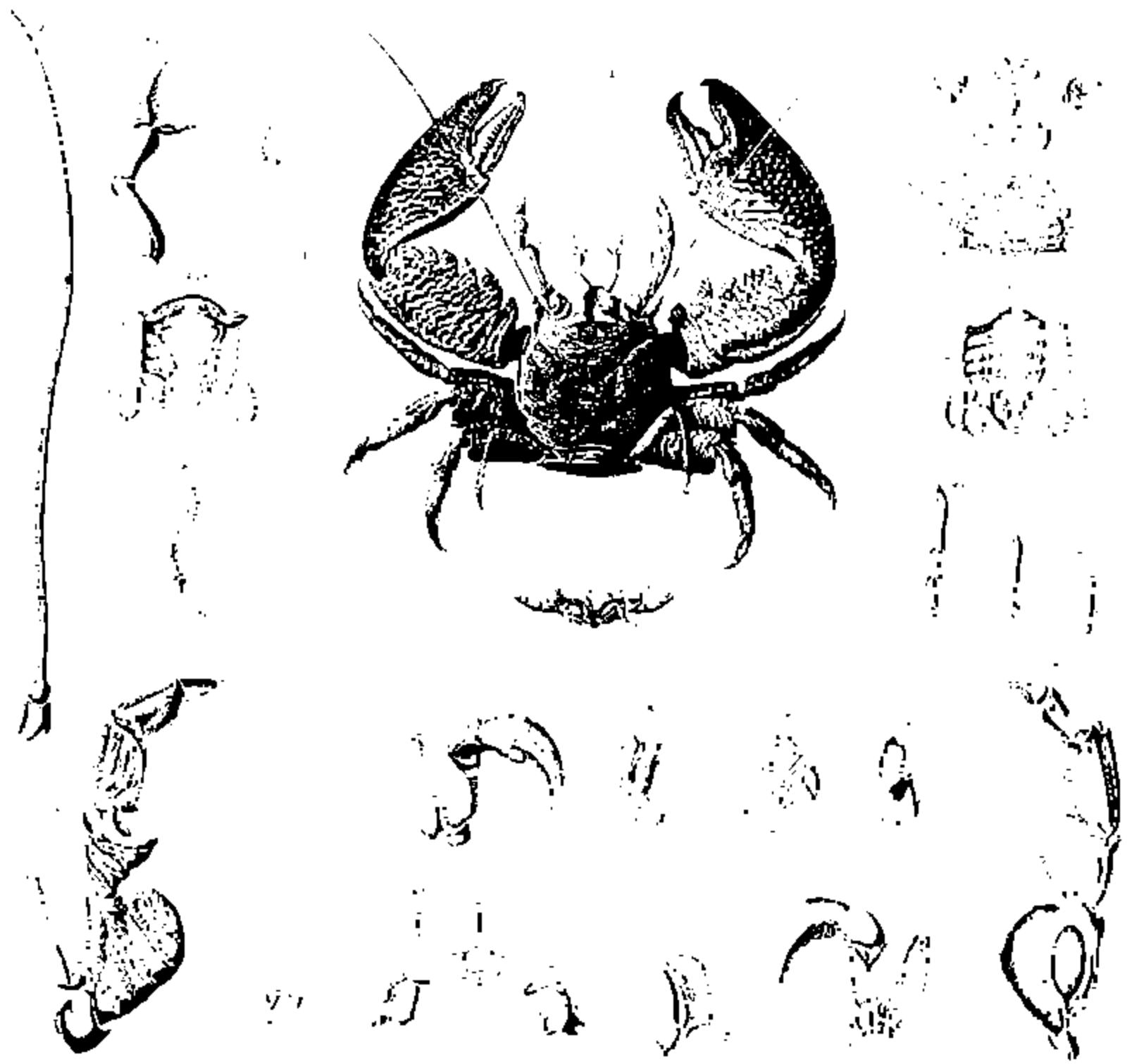


(ب) جرانیت شرقی.



٩٠ - السمكة النهرية الشمنمية ببشير.





علم الأرض

إن علم المعادن الذى يقدمه «وصف مصر» هو، فى المقابل، أكثر إثارة للاهتمام بكثير. فاللوحات الخمس عشرة تتميز بجمال فائق. وهى تتضمن ١١٢ تصويراً، كلها ملونة، تصور الصخور والتحجيرات الرثيسية، التى قوبلت خلال استكشاف البلد ودراسة آثاره. والحال أن صاحبها، فرانسوا - ميهيل نو روزييه، كان مهندس معادن. وسوف تشكل مساهمته فى «وصف مصر»، مساهمته الأولى والأخيرة التى قدمها إلى العلم والبحث. ويبدو تماماً أنه قد تعرض لنسيان كامل، ظالم تماماً بقدر ما أن هذه للمساهمات تعتبر رائعة. لقد كان روزييه، بشكل واضح، رجلاً واسع الاطلاع ومجتهداً فى أن واحد، يتميز بثقله وبنوق وبمخيلة غير مألوفة، وإن كان الحديث يدور عن رجل ينتمى إلى جيل لم تكن هذه الخصال نادرة فيه البتة، بين أولئك الذين يميلون إلى فنون الهندس. وقد تمكن من أن يؤمن لنفسه تعاون مهندس كثر للمعادن، هو إيبوليت - فيكتور كوليه - بيكوتيل، إلى جانب تعاون مهندس شاب للبارود، هو جان - نيكولا شامبى.

وفى تلك المرحلة من تطور علم الأرض، كان علم المعادن لا يزال فى طريقه إلى الانفصال عن سديم التاريخ الطبيعى، ليتحول إلى جزء لا يتجزأ من علم الجيولوجيا الجديد تماماً. وقد خطط روزييه لوحاته بشكل واضح بحيث تشكل نملاج، موضحاً الخدمة التى يمكن أن يقدمها إلى العلم الجديد رسم الصخور، للنقد تنظيراً مناسباً. وكانت فنون الجرافيك، المستخدمة فى تصوير أشياء الطبيعة، قد وصلت إلى الكمال، فى السنوات الثلاثين السابقة. وقد استفاد روزييه من التباين الواضح، فيما يتعلق بالجمال والبلغة، بين لوحات واحد مثل بوفون، والتى وصلت إلى الامتياز، فى زمانها، والتصويرات الأرقى بكثير، خاصة للزئبقيات، والتى تدين بها إلى ريدوتيه الأكبر. وكان لابد أيضاً من أن يتمكن الجيولوجيون من صوغ تصنيف دقيق وتسمية مصطلحية راسخة، تسمح بتعريف الأنواع المعدنية، باستخدام لغة منهجية. وكان يكفى روزييه أن يستشهد بأوصاف مختلفة لصخور مصر - كوصف نو سوسير : «صخرة ناتجة عن خليط من الصوان للشكاف والفيلسبات للصخر والتورملين الأسود على شكل صفائح صلبة بدرجة متوسطة» - حتى يبين أنه لا رجل العلم ولا الرجل العادى، حين يقرأ هذه السطور، لا يمكن أن يرضى عنها إلا إذا كانت مصحوبة بعينة أو تصوير للمعدن المقصود. وحتى من يمكنه دخول

معمل لعلم المعادن، يمكنه أن يحصل على فوائد معينة من تمثيل تصويرى. ويمكن الاضطلاع بذلك بحيث يبدى السمات للميزة لمعدن محدد، لا مرأى فى أن المرء لا يجدها البتة مجتمعة فى أية عينة. وكان بالإمكان، ومن الضرورى من جهة أخرى، توضيح عناصره بالكثافة، لكن الشكل الخاص وحجم كل عنصر من العناصر، والألوان والمواضع الدقيقة، وخاصة التراكيب، هذه السمات لا يمكن توضيحها إلا عن طريق التصوير الجهرالميكى^(١٢).

تلك كانت الامتيازات النظرية التى هيمت على تخطيط ورسم لوحات علم المعادن. وقد جرى تنفيذ أغلبها على يدى كلوكيه، أستاذ الرسم السابق فى مدرسة المعادن، بينما كانت اللوحات الأخرى من عمل أميدييه وريجنيه. وقد تقاسم ستة نقاشين مهمة إعداد اللوحات، معتمدين فى أغلب الأحيان على تقنيات متنوعة - الرسم بالنقش، الرسم بالنقط، الرسم بواسطة المنحت - لتوضيح تنوعات وجه الصخرة الواحدة. وكان الخط جد دقيق بحيث يصعب تصور سحب طباعى ملون عن طريق تحرير لوحات متعاقبة. ومن ثم فقد تم اللجوء إلى لوحة واحدة، تصطب فقط اللون المهيمن. وبعد ذلك، كان يجرى إضفاء لمسات جديدة باليد على كل ورقة، كما كانت تتطلب ذلك التقنية التى أعلى من شأنها ريديوتيه. وفور تجهيز التصاوير، كانت تقدم، ليس البتة وفقاً لنظام تصنيف خاص بعلم المعادن، بل بالأحرى وفقاً لتوزيع الأشياء نفسها، فى مصر، والحال أن غاية «وصف مصر»، على أية حال، لم تكن تتمثل إلا فى «تقديم نظرة عامة بهذا البلد». وهكذا فإن اللوحة الأولى تبين أنواع الجرانيت، «صوان»، الكتاب القدماء، والمحمولة فى منطقة أسوان والشلالات؛ وتبين اللوحة الثانية الرخام السماقى فى الصحراء الواقعة بين النيل والبحر الأحمر؛ وتبين اللوحة الحادية عشرة الأصناف الأحفورية لضفاف لبحر الأحمر. ومن جهة أخرى، فى بلخ المؤلف، وفى الجزئين للخاصين بالعصور القديمة وبالحالة الحديثة، كما فى الجزء الخاص بالتاريخ الطبيعى، فإن مذكرات أخرى مكرسة للطوبوغرافيا أو للزراعة - ويرجع عدد منها إلى رونيير نفسه - قد عالجت من أن لأخر لحوال معادن أقاليم مختلفة. لكن الاستعراض كان بعيداً عن أن يكون تاماً، وقد اضطلع بإسفال الكثير من المعلومات التفصيلية عن الأقاليم للهملة، بحيث تكون «شروحه» ملحقة لهذه المذكرات^(١٣). وفى إعداد هذه المذكرات يبرز، فى مكان مناسب، عرضة الخاص عن «التكوين الطبيعى لمصر»، الذى أضف إليه، من ثم، هذه «الشروح»، على شكل ملحق^(١٤).

ويحدد عنوان هذه المذكرة أيضاً : «علاقاته بالمؤسسات القديمة لذلك البلد» . والواقع أن مثل هذا العرض، الذي يتخذ حجم كتاب، للجغرافيا الطبيعية، والذي يرجع إلى مهندس معائن، غير معروف من جهة أخرى، إنما يعتبر جد مميز للمسؤوليات ذات الأهمية البالغة الاتساع التي أخذها المشاركون في «وصف مصر» على عاتقهم. وكان من شأن هذا العمل، لو تولاه آخرون، لو لو جرى الاضطلاع به في سياق أيديولوجي أكثر، أن يبدو عملاً متعجرفاً. ويتمثل الأمر في أن روزيبر قد أراد إثبات كيف أن الحضارة تنبع من شروطها للمادية. على أن تحركه يلتزم التزاماً رصيناً بالحقائق. وهو يرى أن مصر، أكثر من أي بلد آخر، تستدعي مثل هذا التحليل وذلك، أولاً، بحكم أهميتها التاريخية، من حيث كونها أصل الحضارة، وثانياً، لأن الظروف الطبيعية، التي تحكم الحياة في المجتمع، إنما تتول هناك بدرجة كبيرة إلى طرف الاعتماد على النيل. فما من بلد آخر يوضح مثل هذا الاعتماد لمجتمع جد متطور، خاضع لمجموعة فريدة من العوامل الطبيعية، التي يمكن دراسة كل منها على حدة. [...] ذلك هو ما أملى بشكل إجباري الأعراف الأولى، وحدد طابعها وذلك أيضاً، على ما يبدو، هو الأقل تغيراً^(١٥). والحال أن التوقف على الحالة الطبيعية لمصر هو الذي سوف يزيننا علماء، ليس فقط فيما يتعلق بشعوبها الأصلية في العصر القديم، وإنما أيضاً فيما يتعلق بإدراك أعراف الشرق واليونان وشعوب أوروبا القديمة. إن عناصر إنساب كهنتها، ولغونها ونظم مقاييسها وأساليب تقاويمها ومفاهيمها الطبيعية والفلكية، إنما ترجع كلها إلى مصر. وكان روزيبر نفسه على علم بما كان معروفاً عن أصول الزودياك وتقسيمات السنة والشهور واليوم والمقاييس ووحدات القياس الخطية ونوات الزوايا. والحال أن بحثه لنظام للمصريين للتوى، وهو موضوع يتميز بجاذبية شديدة لدى العلماء، والذي سوف يستلقت انتباه مهندسين آخرين من زملائه، إنما يظل بلا مراء للمساهمة الأكثر استحقاقاً للاهتمام في هذه المذكرة الضخمة والتي تعتبر مصدراً غنياً بالإحصاءات للنهرة^(١٦).

الطوبوغرافيا والإحصاء وعلوم الإنسان

في الترتيب الأولي للحدد لكتاب «وصف مصر»، كان من المقرر أن تشكل الطوبوغرافيا القسم الرابع، أو بالأحرى الأول، من العمل، حيث يسبق، إذا ما رسمنا إطاره، العصور القديمة والحالة الحديثة والتاريخ الطبيعي^(١٧). لكن هذا الترتيب سوف يتعرض

للاختلال وذلك بسبب ضرورات الأمن العسكري حين جرى إبلاغ اللجنة للكلية بالعمل، حيث لم يكتب الدوام طويلاً لصالح أمان، بأن الإمبراطور قد أمر بوجوب أن «تظل» خريطة مصر «سراً» وأن تكون سرّاً من أسرار الدولة،^(١٨) وفي عام ١٨١٤، يصدر أخيراً للتصريح، من جانب عهد عريّة الملكية، بنشر الخريطة للطوبوغرافية لمصر ولعدة أجزاء من البلدان المجاورة، على شكل ملحق للعمل فور إنجازه. ولن تظهر إلا في عام ١٨٢٨. ولهذا، فإن للذكرات التي قصد بها أن تشكل ملحقاً لها، سوف يجرى توزيعها في مجلدات النص التي تتضمن الأقسام الثلاثة الأخرى، حيث تبرز، في غلبتها، في نهاية الأمر، في الأجزاء الثلاثة الخاصة بالحالة الحديثة. أما الخريطة نفسها، ومقياس رسمها 1/100 000، فهي مقسمة على ٤٧ ورقة، مرقمة ترتيباً مرتباً، من الجنوب إلى الشمال، حيث تبدأ بالاضلاّات وانتهى من خلال التدرج بشكل يشمل الدلتا وسيناء وسوريا. وفي ارتباط معها، وبشكل يؤدي إلى تحقيق التركيب، تجيء الخريطة الجغرافية، المؤلف من ثلاث ورقات، ومقياس رسمها 1/100 000. كما أن «لوحة تجميع»، في ورقة واحدة، تضع كل جزء في مكانه، في مشهد كلي لمصر برمتها. والواقع أن إجمالي سبعة وثلاثين ورقة من قوة العملة كانوا قد انتهوا إلى عدد من عمليات قياس، على هذه الدرجة أو تلك من الأهمية، سبعة مهندسين جغرافيين، ثلاثة عشر ضابطاً من ضباط سلاح الهندسة، اثنا عشر مهندساً من مهندسي الجسود والطرق، اثنان من طلبة الهندسة، وثلاثة جنرالات (أنطونيوس وريتييه وسانسون)^(١٩). ولدى هويتهم إلى فرنسا، تلقوا كلهم أمراً بأن يسلموا ما لديهم من رسوم كروكية، إلى جانب البيانات التي قاموا بجمعها، إلى مستودع الحرب العام. وقد تم هناك رسم الخرائط ونقش الزنكات، تحت قيادة الكولونيل بيير جاكوتان، من قوة المهندسين الجغرافيين، والذي كان هو نفسه قد وجه الأعمال في الساحة، في مصر. وسوف يتطلب إعداد الخرائط جهد ٢٢ نقاشاً.

والحال أن اللوحات تشكل رونقاً رائعاً وإن الأطلس يشكل انتصاراً للفنون الجغرافية. وعند مقارنته برسم الخرائط المتراثر لذلك، من مصر، فإن المرء يكون محقاً عندما يرى فيه عمل محترفين. والحال أن ما وجه خطوات الحملة هو عبارة عن خريطة جميلة تماماً. وكانت قد رسمت في عام ١٧٦٥ من جانب راسم خرائط شهير مبدئي، هو الفارس بانفيل، الذي فعل ذلك من خلال جمع الكتب والخرائط السابقة. إلا أننا إذا سمعنا إلى تفهيم الخريطة للطوبوغرافية لمصر، استننا إلى القواعد المقررة لرسم الخرائط في عام ١٨٠٠، فإن للحكم سوف يكون مع ذلك بين بين. فالواقع أنها لم تكن، من الناحية الفنية،

على المستوى، ولا يرجع ذلك إلى مجرد أن النموذج المرجعي، خريطة فرنسا التي رسمها كاسيني، كان قد أصبح قريباً من أن يكون بائناً؛ بل إن الظروف نفسها قد حلت دون تطبيق إجراءات ذات دقة مماثلة في الصحابة - وفي المقابل، على مستوى المفاهيم، فإن خريطة مصر، قد مثلت تقدماً على زمانها. فقد ظهرت برسم خرائط للوضوعات الذي سوف يطوره القرن التاسع عشر، استجابة لاحتياجات السلطات العامة، التي لا يمكن أن يلبيها مجرد رفع للقاييس الطبيعية - فمن بين هذه الاحتياجات بيان طرق للواصلات، مثلاً، أو للوارد الطبيعية والتوزيعات السكانية أو التوزيعات الإقليمية للنشاط الاقتصادي.

والحال أن للرجو، وطبقاً لاعتراف هاجوتان نفسه، في مذكرته، (مذكرة حول تركيب خريطة مصر، كان يتمثل في استخدام الإجراءات العلمية الأكثر دقة للاضطلاع برقع محكم للبلد. ذلك أن الهندسة قد ابتكرت في مصر. وكان لابد من قياس خطوط القياس في الصحابة، وتحديد طول قوس من القواس خط الزوال، وهي عملية لم تستكمل قط، في خطوط العرض التي كان للرد متواجداً فيها، وتكوين سلاسل مثلثات على كل الأرض، على نحو ما فعلت تلك خريطة كاسيني بالنسبة لفرنسا، وتحديد للجمل للصحابة المستنتج من الملاحظات الفلكية. ولم يكن بالإمكان تصور شيء على هذه الدرجة من الطموح. وكان لابد لوحداث الطبوغرافيين أن تطلب إرسال حراسات مسلحة، كما كان ذلك هو الحال بالنسبة للمهمة التي نصبت للمشروع الذي تمتع بتأييد بوناپارت، أي المهمة المحددة للتمثلة في الاضطلاع من جديد بتحديد المسار القديم الذي كان يربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط، في العصور القديمة^(٥٠). وكان لابد للنتائج من أن تتأثر بضباب معدات التحديد، التي اختفت في أغلبها عند جنوح السفينة لوباتريوت، والتي اختلف ما بقي منها خلال ذهب للقر العام، الذي كان يشغله كلاريللي، خلال انتفاضة أكتوبر ١٧٩٨. إلا أنه حتى لو كانت هذه المعدات المتقنة متوافرة، لما كان بالإمكان استخدامها لإجراء رفع طبوغرافي لجمل البلد. فلم يكن هناك توافر لمشغلين مؤهلين لها. ولم يكن هناك وقت. وكل ما كان يمكن تصوره هو الارتداد إلى الإجراءات الأكثر قصوراً، لقياسات أو الرسوم الكروكية للاستطلاع، اعتماداً على مهندسين طبوغرافيين يعمل كل واحد منهم من جهته.

ويتصل الأمر بمجموعتين من الإجراءات التي لا يستهان بها. وعلى أيدي المطبقين الأنكباء لها، فإنها تلبى بشكل طبيعي متطلبات القضية. ومن مساحة إجمالية قوامها ٣٠١٠ فراسخ مربعة (لأن للهندسين، في مجموعهم، كانوا ما يزالون يفكرون، ويعبرون

حساباتهم دائماً، من زاوية الوحدات القديمة، مخصصين النظام المترى للتقارير الرسمية)، كانت مساحة نسبتها نحو ٤٠٪ هدف رفع بآلة المسح وبالمطمار (قياس من ١٠ أمتار) وبمقياس المساحة (مقياس زوايا مدرج، مزود بعضامة (جزء من آلة لمسح الأراضي) متحركة)، في حين أن بقية المساحة قد رفعت بالخطوة، لقياس المساحات، وبالبوصلة، فيما يتعلق بالزوايا. وفي الحالة للثلاثية، لرفع منفذ عن طريق التثليث (مسح أرض بالاستعانة بعلم حساب المثلثات تبسيطاً لرسمها)، فإنه يكفى، من الناحية النظرية، تحديد نقطة فلكية واحدة لتحديد إحداثيات (خطوط العرض والطول التي تتعين بواسطتها المواقع على سطح الأرض) الشبكة. وفي الظروف المتواجدة، في مصر، فإن عالم الفلك الأكثر حنكة في اللجنة، وهو نيكولا - أنطوان نويه، قد كثف للملاحظات، لتحديد خطوط عرض وخطوط طول إجمالي ٣٦ موقعاً، لتخفيف الأخطاء المرتبطة بتنفيذ عمليات القياس (٥١).

ومنذ وقت بعيد، فإن نويه، عميد للعهد (للمجمع العلمي) للصري، قد ظهر في مظهر كادح، إن لم نقل نابه حمل، علم الفلك. فعمله في مصر، وقد كان عملاً غير عادي، كان مكرساً برمته لتحديد ولتبريق البيانات الفلكية والأرصادية. ويبدو أنه قد تمكن من صون أجهزته، بين أمتعة الشخصية. وهكذا فقد كانت بحوزته بآلة مضاعفة من طراز بورد، قطرها ٢٥ سم، ومنظار أكروماتي (منفذ للضوء بلا تحليله) من طراز دولوند يتميز بانفراج قدره ٢٣سم، مركب على قائم نحاسي، ويرى بآلة نصف قطرها ٢٥سم، مركبة على عمود نحاسي أيضاً، وميقات من طراز لري بورتو، رقم ٣٤ في سجلات للصانع، إلى جانب بوصلتين، واحدة لرصد الانحراف وواحدة لرصد الليل. ومن المؤكد أن تحديد خطوط العرض لم يستتبع سوى تدخل العملية البسيطة نسبياً، التي تتمثل في رفع لارتفاع الشمس، في موعد محدد. وبالنسبة لتحديد خطوط الطول، كان لابد من إجراء مقارنة، بالنسبة لتلك الأحداث الفلكية المحددة، بين الساعة التي تحدث فيها في مصر، وساعة ظهورها المتوقع، من زاوية المتوسط الزمني في خط الزوال في باريس. ويقدم تفاوتات المواقيت قياساً للتفاوت في خط الطول، بواقع ساعة لكل ١٥ درجة. وقد استند نويه، من جهة، في أغلب الأحوال، على ملاحظة خسوف توابع كوكب المشتري، ليس دون مراعاة احتجاجات كوكب الزهرة وكوكب المشتري بالقمر، وكذلك لاحتجاب النجم δ من مجموعة برج العقرب. وكان يوصيه الرجوع إلى نسخته من كتاب معرفة الأوقات، إلا أنه لم يتخلف عن التحاقق من عدد من تقويماته الفلكية، لدى عودته إلى باريس. وفي أيامنا أيضاً،

يستطيع السائح أن يرى النقوش التي تذكر بتحصيناته، على نحو ما نقشها إزميل الفحات كلستيكنس على حجارة معابد فيلة والكرنك. ولابد أنها كانت صحيحة تماماً. فقد حدد موقع الإسكندرية ما إن تمكن من وضع قدميه على الأرض، حيث نفذ أيضاً تثلثاً للمدينة والمناطق المجاورة لها، بالاتفاق مع ضابط البحرية فرانسوا - ماري كينو، مثلما فعل بعد ذلك، مع شركاء آخرين، في القاهرة. إلا أنه، قبل وصوله إلى هناك، أدى حدث وقع في رشيد إلى إفساد حركة ميقاته. وقد شملت الصدفة أن يكون عضو آخر في قوة الحملة، هو عالم الفلك جوزيف بوهمان، حائزاً هو الآخر لميدقات من طراز بيرتو، رقم ٢٩، وقد تركه لدويه حتى يتسنى له استخدامه. على أن صعوبات درجة الحرارة سوف تؤثر على انتظام حركته، وذلك بشكل يخص خلال حملة سوريا. وسوف يستأنف دويه رصد مؤشرات المواقيت، للرفوعة بعد ذلك، بإحالتها إلى الملاحظات التي اضطلع بها في الإسكندرية، لتعهد التصحيح الذي يجب إدخاله عليها، بما يعوض هذا المصدر الجديد للخطأ، دون أن يتمكن على أية حال من الوصول إلى ذلك، إلا جزئياً. ولدى عودته إلى باريس، وهو بسبيله إلى نقل النتائج التي توصل إليها، اعتمد الإجراء الذي حددته نيونيز دو سيهور بالنسبة لخريطة كاسيني، لحساب الإسقاط على خط الخريطة. وسعيًا إلى ذلك، فإن نقاط تقاطع على فواصل قدرها ٢٠ دقيقة من قوس الطول أو قوس العرض قد وضعت بشكل تدريجي، وكذلك النقاط الجغرافية الأساسية الست والثلاثين، في نظام الإحداثيات المتعامدة المحدد بخط الزوال للار على قمة هرم الجزيرة الأكبر، وبخط اللوازي لخط العرض للار على النقطة نفسها. (٥٢)

والحال أن «وصف مصر»، في مذكراته ودراساته المكرسة للطوبوغرافيا، يستجيب بكامل الأشكال لهفته للعلن، على نحو ما يهتبه عنوانه. ويتضح أن للمصطلح إنما يتضمن في أن واحد إعانة تركيب السمات الظاهرة لمكان، ورصد ما يجري في هذا الإطار، لأن الوصف، وهو إلى حد بعيد من عمل مهندسين، إنما يتصل بمجتمع البشر، الذي يعاد وضعه في إطاره الطبيعي. وفي ٢٨ برومير من العام الثامن (١٩ نوفمبر ١٧٩٩)، منذ عودة أعضاء البعثة للكلية بدراسة آثار مصر العليا إلى القاهرة، أنشأ كليبر لجنة للمعلومات حول الحالة الحديثة لمصر، والمؤلفة من أعضاء المعهد. وقد توزعت على عشر لجان فرعية الأعمال التي كان عليها الاضطلاع بها، حيث تألفت اللجنة العاشرة، لجنة «الجغرافيا والهيدرولوجيا»، من جاك - ماري لوپير، رئيس مهندسي الجسور والطرق،

الذى كان قد قاد عمليات رفع قناة القنماء من السويس إلى البحر المتوسط، ومن هير جاكوتان، قائد للمهندسين الجغرافيين. ولا يبدو بشكل واضح ما إذا كان الأمر للصادر بإجراء الاستقصاء يكون جزءاً لا يتجزأ من رفع الخريطة قد صدر بمبادرة منهما أم بمبادرة من لجنة الإشراف. وأياً كان الأمر، فإن جاكوتان ولوهير هما اللذان وضعاً التوجيه الدقيق، الموجه إلى المهندسين الذين اضطلعوا بعمليات القياس.

وينقسم (هذا التوجيه) إلى ثلاثة أجزاء. فقد حدد الجزء الأول الإجراءات التى يجب استكمالها لرفع الخريطة، فى الساحة. وحدد الجزء الثانى عناصر جدول يجب ملؤه، من عشرة خانات. وقد حدد الجدول رقم ترتيب لكل موقع، وقد ورد اسمه بالعربية وبالفرنسية. وكان على المهندس أن يسجل الاسم، من زاوية علم الأصوات أو بالأحرف العربية، بأكبر قدر من الدقة يتيح له إدراكه، وذلك انتظاراً لإخضاعه للتصحيح، ما إن يصبح ذلك ممكناً، من جانب شخص قد متخلف فى اللغة العربية. وتتلو تلك الخانات للخصمة لإدراج عدد السكان والأمور، وحالتهم، وعملهم ونوع زراعة البلد، وأنواع الأشجار وطبيعة التجارة والصناعة، وأخيراً للملاحظات والإشارات الخاصة. وقد اضيفت إلى تلك كراسة إضافية، مخصصة لوصف جميع الأشياء الجديدة بالملاحظة. أما الجزء الثالث فقد بين للملاحظات، الأكثر عمومية، التى يجب الاضطلاع بها فى الإقليم. ماذا عن وسائل المواصلات، بركة كانت أم نهريّة ؟ ما هى حالة القنوات وضفافها ؟ وما هى حالة الجو ومياه الشرب ؟ ماذا عن تربية للماشية، ومدى وفرة الحيوانات البرية والزرادع، مزعجة أو خطيرة ؟ ما الذى يمكن أن يقال عن الأشجار والغابات، والزراعات والأحجار والمناجر والآثار الصالحة للأعمال الفنية ؟ وكان على المهندسين أن يتحدثوا قبل كل شيء عن السكان، وعن طابعهم؛ وأن يوضحوا لماذا يعتبر بلد ماغولاً بالسكان أكثر من بلد آخر؛ وأن يحددوا القبائل البدوية فى الأراضى المجاورة، وعندها، وأماكن تضييقها، وتحركاتها، وكمية الجياد والجمال التى تملكها. ماذا عن تطور الزراعة وكيف يمكن تحسينها ؟ وما هى الفنون والحرف الممارسة فى الإقليم ؟ وهل تتم التجارة بالمقايضة، أم بالنقد، وما هى السلع التى يتم الاتجار فيها ومع من تتم التبادلات ؟

ولم يكن هناك غير عدد قليل من الأقاليم التى توافر فيها ما يكفى من الوقت لاستكمال هذا الجدول، فى تمامه، لكن عين مفهوم للشروع لا يصبح مع ذلك أقل استحقاقاً للاهتمام. وسوف تشهد مسألة اللغة على مدى الجدية ومدى الحماسة اللتين

أهنتهما اللجنة، في حرصها على الاضطلاع بكل شيء وتقديمه بشكل صحيح. ويشد
الأنظار فوهان من المعلومات، عندما يفتح للره الأطلس. إن الكتابات، التي تبرز على وجه
الخرائط، إنما تشير إلى أسماء مواقع ساحات معارك الحملات المتعاقبة، وأسماء المدن
والقرى والكفور، حيث تظهر هذه الأسماء بالفرنسية والعربية في آن واحد. وسعيًا إلى
تسجيل أسماء المواقع هذه، اعتمدت اللجنة على خدمات نقلش، يدعى ميللر، الذي اضطلع
بتعلم الكتابة بالعربية. والحال أن مستشرقًا كان مع الحملة، وهو ريمى ريج، سعيًا منه إلى
ضمان تعلمه السريع، قد قدم له دروسًا خاصة. ولم يبدأ نقش الأسماء على الزنك إلا بعد
أن اجتاز الامتحان الذي أجراه له لانجليه، الأستاذ بكلية اللغات الشرقية، والمستعوب
الشهير، سلفستر نوساسي. وعندما تم إنجاز المهمة بسرعة، قام فولنى، المعلم بجميع
أمور الشرق الأدنى والشرق الأوسط، بزيارة مستودع الحرب. وقد اتنى على الخريطة،
وعلى رسم الأسماء العربية، لكنه وجد أن النظام للتعتمد في التسجيل والنقل إلى القارئ
الفرنسي كان معقدًا ومرهقًا للعينين ومعتقًا إلى التماسك. ويرجع ذلك إلى أنه لم يكن
هناك نظام مضبوط سارى المفعول. وقد استفتات اللجنة من هذا الظرف لكي تستحدث
نظامًا كهذا، على شكل تسجيل سوف يظل متصلًا ومفهوماً من جميع للمستشرقين،
وسارى المفعول في أية لغة أوروبية. وسعيًا إلى هذه الغاية، فإن مدير مستودع الحرب، وهو
الجنرال سانسون، قد شكل لجنة خاصة، مؤلفة من باحثين ورجال علم - من بينهم
فولنى وسلفستر نوساسي ولانجليه ومونج وبيرتولليه ولاكروا، أضيف إليهم عدد من
الأعضاء، ناطقون بالعربية كلغة أم. وقد اجتمعوا في أربع جلسات وانطلقوا على التمسك
بالنظام الذي اقترحه للدعوى إيلليوس بقطر، المترجمان السابق للجيش. ونجد بيانًا لهذا
النظام في ختام مذكرة جاكوتان التي تعالج تركيب الخريطة. والحال أن إجراء جميع
التسجيلات من جديد قد تطلب ثمانية عشر شهرًا أخرى من العمل. ويتصل الأمر بالعمل
بحيث تكون الخريطة منعجمة مع النصوص، وبحيث تسجل على الخريطة جميع أسماء
الأمكن - أو جميعها تقريبًا - التي تظهر في المذكرات، بحيث يمكن للمرء التعرف عليها
بسهولة، بالرغم من أشكال الخط للتباينة، التي اعتمدها مثل هذا العدد الكبير من الكتاب
المختلفين.

ولد استعان الطب، بدوره، بالطوبوغرافيا. ومن المؤكد أن طب القرن الثامن عشر،
بشكل عام، قد عبر عما سماه واحد كروزيير بالتكوين الطبيعي لإقليم من الأقاليم،

بالتكليف (انكباباً) خاصاً على المناخ، والتكوين الجسدي للرجال والنساء والأطفال. وكان
 ديهينيت رئيس طباء القوة المحتلة، بينما كان لارى رئيس جراحيتها. ولما كان الوسط
 المصري قد بدأ بوصفه مثيراً للانتباه، في نظر الأوروبي، على أية حال، فمن الطبيعي تماماً
 أن ديهينيت كان يريد، دخولاً إلى الموضوع، رسم «طوبوغرافيا طبيعية وطبية لمصر»،
 سوف يستفيد في إعلانها من تعاون نوبل، فيما يتعلق بالجزء الجغرافي^(٥٣). وعلى مدار
 مدة إقامته، لم يكف عن إبداء اهتمامه بديناميك السكان، في مصر، وسوف يعد قوائم
 وفيات مدينة القاهرة، من سنوات الاحتلال الثلاث. ويبدأ كتابه «التاريخ الطبي لجهش
 الشرق» بمسائل الإلتهام، ويعرض تطور السياسة المطبقة، في مجال تدبير الرعاية الصحية
 العامة والصحة وتنظيم للمستشفيات. أما لارى فسوف يتناول بالبحث الأمراض خاصة.

وإنها لمدرسة جديدة، في مجال كتابة التاريخ الطبي، تلك التي تقدم تفسيراً ذا طابع
 سياسي، لهذا التحول لنظرة الطبيب، من المريض إلى علم الأمراض. والحال أن المدرسة
 الباريسية هي التي سوف تتحول، وفقاً لهذا للنظور، إلى مؤسسة تعارض فيها المهنة
 الطبية، للؤلؤة من الآن فصاعداً بهذه الصفة، سلطة على ممثلي الطبقات العاملة المعرضة
 للأمراض، مشيدة بنية معرفتها وسلطانها، على حساب سلامتهم البدنية^(٥٤). ومن المؤكد
 أن لارى كان ينتمي إلى جيل أمثال بيشا وبيثيل. على أنه لا يمكن اعتباره منبهاً للأول أو
 للأخير فيما يتعلق بالأوصاف التي قدمها للأمراض التي صاندها في مصر، كما لا يمكن
 أن نرى في ذلك آثار النظام الجديد الذي جرى تدشينه في الأوتيل - ديو في باريس،
 والمقابل، إننا ما شئنا الاتجاه إلى مسألة أبعد، لإعادة تعديد لمركز موقع السلطة في بنية
 المجتمع الفرنسي. أما فيما يتعلق بالأمراض التي قدم وصفاً لها، فإن الأمر يتصل بـ
 «الرمم» (غالباً، نوع من قترالكوما)، والطاعون الببلي، والتيتانوس، والحمى الصفراء،
 وحمى ورم وضمخ الخصيتين، والجذام، وداء الفيل. ولم يكن هناك شك، في تصوره، في أن
 علم أسباب الطاعون والحمى الصفراء والتيتانوس، على أية حال، قد أدخل هاملاً خارجياً،
 سماه تارة بمصطلح «التهروس» وتارة أخرى بمصطلح «الجرثومة». والحال أن مفهومه
 للمرض لن يجعله يتخلى من شيء، فيما يتعلق بالنوعية وبالموضوعية، لأي من المفاهيم
 التي سوف تشق طريقها إلى طب القرن التاسع عشر، وللنبذة من بيئة الممارسة
 الأكاديمية، المؤسسة حديثاً في باريس^(٥٥). ومنذ أن أدى وجوده في مصر إلى إبعاده عن
 كل ذلك، فلا بد من تصور أن المفاهيم التي طبقتها لارى، من الممكن أن تكون قد جلت من
 الملاحظة.

ويضم «وصف مصر» على وجه الإجمال، نحو ١٢٦ مذكرة متميزة. ويشكل عدد منها دراسات ذات موضوع واحد. ولا يكاد يوجد بينها غير عدد طفيف من الدراسات ذات الحجم للتواضع. ومن بين هذا الإجمالي، يتصل ٢٠ عنواناً بما جرى العرف على تسميته، منذ تلك اللحظة فصاعداً، بأركيولوجيا للعصور القديمة ويتصل ٢١ عنواناً بالتاريخ الطبيعي، بالمعنى الدقيق للمصطلح. وإذا ما كان على المرء أن يصنف المذكرات الخمس والسبعين الباقية، وفقاً لأسلوب مفارق تاريخياً، تبعاً للشكل الذي يمكن به لموضوعها الرئيسي أن يندرج في جدول التخصصات المعاصرة، فإن توزيعها سوف يكون على النحو التالي :

٢٤	الجغرافيا الطبيعية	٢	التاريخ
٣	الهيدروجرافيا	٤	تاريخ العلوم
٢	علم الأحوال الجو	٢	الطب
٢	علم الزراعة	٢	علم الاجتماع
٧	التكنولوجيا	٢	الديموجرافيا
٤	علم المقاييس والموازن	٨	الأنثروبولوجيا - الإثنولوجيا
١	الاقتصاد	٣	اللغويات
٣	العلم السياسي	٤	علم الموسيقى

فهل يمكن القول بأن للعلوم التي تضمها هذه الآلاف من الصفحات تتصل بالعلوم الاجتماعية والإنسانية ؟ كلا على الإطلاق، إذا كان العلم الاجتماعي يتحدد بوصفه معرفة ينتجها رجال علم، جرى تكوينهم لمثل هذا التخصص في العلوم الاجتماعية والإنسانية. ولكن على أي نحو يمكننا أن نصف، صنفًا، المعرفة، الدراية بمجتمع، التي ينتجها عدد مهم من الرجال الذين يحوزون تكوينًا علميًا، وتقنيًا، والذين يضعون كل طاقاتهم وموهبتهم، في وصفه، وتحليله ؟ وعندما يبحث الجراح لاري البنية الجسمانية للمصريين، القدماء والمحدثين، هل يقوم بعمل من أعمال الأنثروبولوجيا الجسمانية ؟ وعندما يصنف مهندس الجسور والطرق دهبوا - أمية بدو إقليم القصير، والقبائل العربية التي تسكن الصحراء بوجه عام، هل يتعلق الأمر بالأنثروبولوجيا الثقافية ؟ وعندما يجرى للمهندس الجغرافي إسم جومار دراسة مقارنة لسكان مصر القديمة وسكان مصر الحديثة، هل تعتبر تلك الدراسة دراسة ديموجرافية ؟ وعندما يبحث مهندس الجسور والطرق

ميشيل - أيج لانكريه مسائل الضرائب والإدارة للحلية في السنوات الأخيرة لنظام للماليك، هل يجب على المرء أن يرى في تلك الدراسة دراسة من دراسات العلم السياسي ؟ أو، ربما، دراسة من دراسات التاريخ الإداري ؟ وعندما يكتب رئيس للمهندسين جبرار بحثاً حقيقياً من صناعة وزراعة وتجارة مصر كلها، إقليمياً بعد إقليم، ألا يعتبر ذلك بحثاً في الاقتصاد ؟ (٥٦)

من المؤكد أنه توجد بين هذه النصوص بعض النصوص التي كانت من عمل كتاب خبراء بالفعل في الموضوع، فيما يتعلق بالجزء الأودوي من موضوعهم. وهكذا فإن الدراسة التي كتبها الإداري استيف، حول شؤون مصر المالية، إنما تشكل أول دراسة منهجية للإقطاع، في الإمبراطورية العثمانية. والمذكرات الأربع التي، مأخوذة في مجموعها، تعرض مجمل نظرية، وتطبيق، الآلات الموسيقية المصرية، اللسيمي والصيغة، ترجع إلى للموسيقى فيلوتو، الذي كان قد تعلم العربية وكان من علماء الموسيقى (٥٧). لكن المذكرات قد كتبت، في غالبيتها العظمى، إن لم يكن حرفياً كرد على جدول استفسار طرحه جاكوتان، على مهندسيه الطبوغرافيين، فمن المؤكد على أية حال، إنها قد كتبت في عين روح هذا الجدول. ولا مرء في أن كون الكتاب غرباء، ظلوا خارجيين تجاه ما يعرضونه، يجب أن ينظر إليه على أنه ميزة. لموقفهم يظل موقف المراقب، المنتبه إلى الظواهر. وكان من الشائع، بالنسبة لهم، أن أي بلد آخر، في العالم كله، لم يكن موضع دراسة جد متصلة كمصر، ولا حتى فرنسا بالتأكيد. لكن الأمر لا يتصل فقط بالثابرة. إن أية مجموعة من الفرنسيين ما كان يوسعها أن تهدي، في دراسة مجتمعتها الخاص، مثل هذا التجرد، بالنظر إلى ديناميته السياسية الداخلية. (٥٨)

ولا يمكن القول بأن المعلومات التي جمعت بهذا الشكل قد أثرت تأثيراً مباشراً على قيام العلوم الاجتماعية من حيث هي تخصصات، اللهم إلا فيما يتعلق بالجغرافيا. بالنسبة لهذا التخصص، من المؤكد أن الحالة كانت كذلك. فقد كان استكشاف مصر أشبه بالمدخل، الذي ساعد على اختراق إفريقيا، وكانت الجمعية الجغرافية، المؤسسة في عام ١٨٢١، تضم في عداد مؤسسيها جاكوتان وكوستاز وجومار وفورييه وشابول دو فولفيك (٥٩). إلا أنه، فيما عدا هذا الاستثناء، فإن قيام بوناپارت بإلغاء شعبة العلوم الأدبية والسياسية التي كانت قد تأسست في البداية، خلال التغيير الذي فرضه على المعهد الفرنسي، في عام ١٨٠٢، سوف يكبح، من الناحية الرسمية، تطور العلوم الاجتماعية، ولن

يشهد شيء على الإطلاق، أو تقريباً، على أن المرشحين للقب ممارس العلوم الاجتماعية، الذين تركوا بهذا الشكل لصيرهم الخاص، قد استفادوا من المواد ذات المصدر المصري، على مدار مراحل نشرها. وسوف يتبدى أثرها بالأحرى بالنسبة لما يتصل بالمسيرة العملية التالية للمشاركين الذين كانوا قد جمعوها، والذين سوف يبقى عدد معقول منهم في خدمة الدولة. فالأسلوب الذي تحملوا به مسؤولياتهم، إنما ينبع من عين تلك المكونات التي سوف يتمكن واحد كسان سيمون، وكأوجست كونت من بعده، من استخلاصها من الفلصقات، المنبثقة من عقلية جيلهم - عدد من المهندسين المخول لهم ممارسة السلطة الفنية، إنارة تبحث أحوال الحقائق. والحال أن لوربيه قد كتب المقدمة التاريخية لكتاب «وصف مصر» عندما كان مديراً لايزير. وفي هذه الصفحات، يحرص على التذكير بأن «سلسلة اللوحات تمثل من ثم الأشياء الموجودة، القابلة لأن تلاحظ وتوصف بدقة، والتي، لهذا السبب، يجب اعتبارها عناصر وطبعية سواء بسواء لدراسة مصر، وكان شابرول دو فولفيك، وهو مهندس للجسور والطرق، في الخامسة والعشرين من العمر في عام ١٧٩٨، قد رسم عندئذ من هذه اللوحات، بالاشتراك مع زملائه. وسوف يسلم أيضاً «بحثاً حول عائلت سكان مصر المحدثين»، ويدخل في تعاون مع ميشيل - أنج لانكريه، في كتابة «مذكرة حول قناة الأسكندرية»^(٦٠). والحال أن شابرول، الذي كان مديراً لنباتة مونتوت من عام ١٨٠٦ إلى عام ١٨١٠، سوف يجمع، بقصد النشر، كل ما أتتحت له معرفته عن الأنابيب الليجورية، التي كان مسؤولاً عنها، في ظل الإمبراطورية العظمى. وقد أصبحت كلمة «الإحصاء» التي تستعيد عنوان مذكرته، كلمة رائجة، لوصف ما سوف يظل صفة مميزة لإنارة، مفرمة بالإحصاءات وبتعدادات الأشياء، وهذا منذ زمن حكومة الإنارة.^(٦١) وسوف ينهى شابرول مسيرته العملية بمنصب مدير العيون. وهناك يبدأ إعداد طوبوغرافيا للمدينة، على غرار مجموعات «إحصاءات حول مدينة باريس»، التي لم تنرس بعد دراسة كافية، والتي مثلت، في مصدر إلهامها نفسه، سجل «حالة حديثة» لعاصمة لفرنسا.^(٦٢)

الحق أنه، حتى بعيداً عن الاجتهاد الضخم في تصنيف البيانات والمعلومات، حول مصر نفسها، حول عصورها القديمة وحالتها الحديثة وإطارها الجغرافي، فإن الجانب الأكثر استحقاقاً للاهتمام في مشاركة العلماء هذه في حملة مصر إنما هو العلاقة التي تبرز بشكل لولي على هذا النحو بين المعرفة المؤسسية على قواعد استنباط والسلطة في

النظام العيسى. والحال أن ما اضطلع به بوناپارت، باحتلاله لمصر، يمكن تماماً اعتباره محاولة لولى لتلك الإمبريالية التى تولد فى القرن التاسع عشر، من حيث إن المشروع كان له مكون ثقافى، تمدنى، كان غائباً حتى ذلك الحين، فى الاستعمار السابق، المنبثق عن المبركانتيلية. وما توصل الفرنسيون إلى تسميته، بعد ذلك، بـ «رسالتهم التمدنية»، إنما يستمد أصوله من حركة التنوير فى جانب منه ومن ليهولوجية الثورة فى الجانب الآخر. وقد مثلت الدربة - العملية التقنية الوجه الإجرائى للثقافة، للمعرفة للتمدنية. وقد أبرك بوناپارت كل ذلك، ليس بشكل مجرد، وإنما بشكل حصى، عملى، مثلما فعل ذلك بالنسبة لكل ما بدا أن له صلة ما بممارسة السلطة. ومن للمؤكد أن نهجته الابتكارية هى التى تخيلت هوس فسيحة من فساتل العلم الفرنسى على ضفاف النيل، فى وسط كان لا يزال مختلفاً بشكل جذرى، غير لودوى، خلافاً لما كانت عليه حالة المستعمرات الفرنسية لو البريطانية، فى تلك الأيام. إن الإنجليز، من جهتهم، لم يضطلعوا بشيء من هذا القبيل فى الهند.

وعناصر المعرفة الوضعية التى نجمت عن ذلك ليست عديدة الأهمية - ليزيله العراب؛ التماثل الذى يسمح بأن تستخدم السلطعونات، فى اغتذائها، أعضاء تخصصها للحيوانات القريبة منها للحركة، لو الذى يسمح بأن تستخدم النقايات، فى الحركة، زوائد لا تستخدم، فى حالات أخرى، إلا فى الاغتذاء؛ معدل الوفيات من جراء الطاعون الديلى. على أنه من غير المحتمل أن العلوم التى نشأ كل منها عن هذه النتائج، كان يمكن أن يتغير تغييراً محسوساً، لو لكشف هذه النتائج علماء آخرون فى ظروف مختلفة. على أن هذه الظروف سوف تكتسب فى الواقع أهمية، وأهمية حاسمة، بالنسبة لرجال العلم الذين جرى إقحامهم (فيها). والحال أن الوضعية الاجتماعية والإدارية والمهنية لعلماء منخرطين بالفعل فى عملهم، من أمثال مونج وبيرتولليه وفورييه وچاكوتان ودينون ولارى وبيجينيت، قد بلغت أوجها، بحكم عين قريبهم من هذا المحرك للعملية التاريخية، وهو بوناپارت. لماً ما إذا كانت الحملة قد نالت، فى المقابل، قدراً زائداً من اللجد، من جراء دعوة العلم إلى للمشاركة فيها، فإن ذلك سوف يظل، بلا مرأ، مسألة رأى.

وفيما يتعلق بالعلماء الأقل حنكة، من أمثال جيفروا وسلايى ودوزيير وماليس وعشرات للمهندسين والفنيين الذين اتجهوا إلى عمليات الرمح للطوبوغرافية، وإلى رفع الآثار، وإلى تنفيذ رسمها، والذين انكبوا على دراسة البلد، فإنهم قد وجدوا فى مصر لى

الفترة التكوينية من حيواتهم، عندما كانوا لا يزالون، بالنسبة لعدد من بينهم، في مرحلة تلميذ حالي في المرحلة الدراسية الثالثة. والمشكلات التي سوف تؤدي إلى خوضهم لبداياتهم، على المستوى العلمي، إنما تنشأ من واقع وجودهم في مصر. ومن المؤكد أنه يمكن قول الشيء نفسه عن الظروف التي هيمنت على بدايات غالبية العلماء الشباب. لقد كان عليهم أن يتمكنوا من مواجهة، ومن الرد على كل ما كان من شأنه أن يحدث لهم، على شكل مشكلة يجب حلها. وما ميز التجربة المصرية هو الطابع الاستثنائي للظروف التي تعرضوا لها.

لكن الحوادث التي لا سابق لها قد تحولت إلى مناهجات. وهذا التحول يرمز إلى بدايات نشر العلم الأوروبي، وامتداده، وسط مجتمعات إفريقية وآسيا، تحت رحمة الفتح العسكري والسلطة السياسية سواء بعسواء. وبالرغم من صعود النفوذ السياسي البريطاني، الذي سرعان ما أصبح مهيمناً، بعد الفتح قناة السويس - التي أشرف الفرنسيون على شقها - في عام ١٨٦٩، فإن وجوداً فرنسياً باثماً، على المستوى الثقافي والذهلي، هو الذي سوف يصوغ تطور النظام التعليمي، والتنظيم الاقتصادي والإنشائي، لمصر، وهذا، حتى منتصف هذا القرن الذي مازلنا نحيا فيه.

مواشع الفصل الحاد عشر

- 1 Gossan[?] SQTIRA, « Mémoire sur la peste observée en Égypte pendant les années 7, 8, et 9 », *Mémoires sur l'Égypte* 4 (An XI-1802), p. 156.
- 2 Jean-Édouard GOBY, « Composition de la Commission des Sciences et Arts d'Égypte », *Bulletin de l'Institut d'Égypte* 37, 1^{er} fascicule, 1955-1956, pp. 315-342. M. Goby a publié nombre de mémoires, d'une méticuleuse érudition, portant sur l'histoire de l'expédition. Pour un inventaire détaillé de ces titres, on se reportera à la Bibliographie qui suit mon Introduction historique à l'ouvrage cité *infra*, note 4. Je tiens à signaler ce que je dois à M. Goby, qui a pris la peine de relire une première version de l'essai que je présente ici, et dont la vigilance m'a évité de laisser passer certaines erreurs et inexactitudes. Et je suis également redevable, à cet égard, à M. Jean-François Roberts, qui a su en relever quelques autres, à l'occasion de la présente traduction.
- 3 Les comptes rendus de l'Institut, dont les procès-verbaux furent perdus peu après le retour en France du corps expéditionnaire, ont été restitués par M. Jean-Édouard GOBY, « Premier Institut d'Égypte : Restitution des comptes rendus des séances », *Mémoires de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres* 7 (nouv. série), Institut de France, 1987. Les références renvoyant à ce mémoire se conforment à la numérotation des notices de l'auteur, pour identifier les activités.
- 4 L'ouvrage sera désigné ci-après par l'abréviation *D.E.*, suivie des initiales *A.*, *E.M.*, ou *H.N.* Pour ce qui est de la genèse et de la publication de l'ouvrage, et quant à son importance dans la fondation de l'égyptologie, on se reportera à l'Introduction et aux notes, in Charles C. GILLISPIE et Michel DEWACHTER (éd.), *Monuments de l'Égypte* (Paris, Hazan, 1988), qui reproduit les cinq volumes de planches d'Antiquités. Une deuxième édition de la *D.E.* fut mise en chantier par l'éditeur Panckoucke, avant même que la première n'eût été terminée. La parution s'échelonna de 1820 à 1829. Dans cette édition, les textes sont publiés en 26 volumes in-octavo. Les références du présent essai renvoient toujours à la première édition. Une table des matières détaillée, donnant la localisation des mémoires et explications, avec la concordance des deux éditions, est fournie par Henri MUNIER, *Tables de la Description de l'Égypte* (Le Caire, 1943). Voir encore Michael W. ALBIN, « Napoleon's Description of Egypt : Problems of Corporate Authorship », *Publishing History* 8, 1980, pp. 65-85. Je remercie M. Robert S. Bianchi, du Brooklyn Museum, de m'avoir indiqué cette référence. [Les planches d'Antiquités sont également reproduites, avec les planches d'Histoire naturelle, et de l'État moderne, in Michel SIDHOM (éd.), *Description de l'Égypte*, t. 1, *Planches*, Paris, Institut d'Orient, 1988 — *N.d.T.*]
- 5 C'est ainsi que, le 11 thermidor an VII (29 juillet 1799), MONGE donna lecture d'une première version d'un mémoire de géométrie infinitésimale, publié par la suite dans le *Journal de l'École polytechnique* (11^e cahier, 1802). C'était là le premier de trois mémoires, réunis par la suite dans son *Application de l'analyse à la géométrie* (1807) ; voir GOBY (1987), n° 313, et René TATON, *L'Œuvre scientifique de Monge* (Paris, Presses universitaires de France, 1951), pp. 221-228. POURIER présenta quatre mémoires traitant de mathématiques pures (GOBY [1987], n° 203 et 221, 263, 274, 533). Le premier, avec l'intitulé de « Notes sur la Mécanique générale », était sans doute issu de l'étude qui avait fait l'objet de sa première publication, un mémoire sur les vitesses virtuelles, paru dans le *Journal de l'École polytechnique* (5^e cahier, 1798), son seul travail publié, en matière de mécanique classique, auquel il avait mis la dernière main peu avant de partir pour l'Égypte. Les titres des trois autres mémoires se rapportent à la théorie des équations, qui devait former le second grand volet de ses recherches mathématiques, le premier volet ayant été constitué par l'investigation de la diffusion de la chaleur. On a souvent dit que ce dernier intérêt était né de son séjour de trois années sous le climat d'Égypte, mais, dans les attestations écrites, rien ne vient soutenir cette hypothèse. Parmi les autres mathématiciens, CORANCEZ, un disciple, somme toute mineur, de Lagrange, devait présenter une communication sur la théorie des équations, ainsi qu'une autre, portant sur la construction du balancier des montres, permettant de minimiser l'effet de la dilatation due à la chaleur (GOBY [1987], n° 171 et 232, 483). MALUS, un élève de Monge, lui-même officier

du génie, et ne faisant pas partie, initialement, de la commission des Sciences et Arts, soumit un mémoire sur les équations différentielles (GOBY [1987], n° 396). Un mémoire sur la lumière, marquant son entrée dans la carrière, dans le domaine où il allait développer l'essentiel de son œuvre, en physique, était destiné à être lu devant l'Institut, mais n'y fut jamais présenté. Arago l'a résumé pour nous (« Malus », in François ARAGO, *Œuvres complètes*, t. III, 1859, pp. 131-134). BERTHOLLET, enfin, devait lire un mémoire sur la formation de l'ammoniaque, et un autre sur l'analyse eudiométrique de l'atmosphère. Ce dernier mémoire comparait les proportions d'oxygène et d'azote dans l'atmosphère au Caire et à Paris, mais restait sans autre incidence, pour ce qui est de l'Égypte (GOBY [1987], n° 031, 301). [Pour les autres aspects de l'œuvre accomplie par les scientifiques qui participèrent à l'expédition d'Égypte, ainsi que pour ce qui est du contexte plus général, où s'insèrent leurs travaux, on se reportera à l'ouvrage de Nicole et Jean DROMBES, *Naissance d'un nouveau pouvoir : Science et savants en France, 1793-1824*, Paris, Payot, 1989 — N.d.T.]

- 6 GOBY (1987), pp. 95-96, dresse l'inventaire des demandes soumises à l'Institut par Bonaparte, portant sur des questions telles que la fabrication de la poudre à canon, l'amélioration des fours pour la cuisson du pain, l'approvisionnement en eau, le remplacement du houblon dans la fabrication de la bière, etc.
- 7 Gaspard MONGE, « Mémoire sur le phénomène d'Optique, connu sous le nom de *Mirage* », *Décade égyptienne* 1, an VII-1799, pp. 37-46 ; repris in *Mémoires sur l'Égypte* 1 (1800), pp. 64-78.
- 8 Claude-Louis BERTHOLLET, « Observations sur le natron », *Mémoires sur l'Égypte* 1, pp. 271-279. Des extraits de ce mémoire furent également publiés in *Annales de Chimie* 33, 1800, pp. 343-348. L'ouvrage de référence sur Berthollet est celui de Michelle SADOUN-GOUMI, *Le Chimiste Claude-Louis Berthollet, 1748-1822, sa vie — son œuvre*, Paris, Vrin, 1977.
- 9 GOBY (1987), n° 064, 165, 202.
- 10 Antoine-François ANDRÉOSSY, « Mémoire sur la Vallée des Lacs de Natron, et celle du Fleuve sans eau... », *Décade égyptienne* 2, pp. 93-122.
- 11 Académie des sciences, *Procès-Verbaux* 2 [t. CXIII, an VIII], pp. 18, 20, 21, 38, 39 ; C.-L. BERTHOLLET, « Recherches sur les lois de l'affinité », Institut de France (Sciences mathématiques et physiques), *Mémoires* 3, 1801, pp. 1-96.
- 12 Déodat GRATET DE DOLOMIEU, extrait d'un mémoire rédigé en prison à Messine, en juillet 1799, in Alfred LACROIX, *Déodat Dolomieu, membre de l'Institut national (1780-1801). Sa vie aventureuse. Sa captivité. Ses œuvres. Sa correspondance* (Paris, Perrin, 1921 : 2 vol.), t. I, p. 3. Pendant son bref séjour en Égypte, Dolomieu devait se montrer plus curieux d'archéologie et d'agronomie, que de minéralogie et de géologie. Les mémoires et rapports qu'il rédigea sont réunis in A. LACROIX et G. DARESSY, « Dolomieu en Égypte, 30 juin 1798-10 mars 1799 », *Mémoires présentés à l'Institut d'Égypte* 3, 1922. Voir encore Tonnes Christian BRUNN-NEERGARD, *Journal du dernier voyage du C^{te} Dolomieu dans les Alpes* (1802).
- 13 Ce sont des considérations d'ordre scientifique, plutôt que d'érudition historique, qui amenèrent Paul PALLARY à reproduire, en 1926, les planches de Mollusques de Savigny, en identifiant les espèces que V. Audouin n'avait su nommer, et en rectifiant ses attributions incorrectes, in « Explications des planches de J.C. Savigny », *Mémoires présentés à l'Institut d'Égypte* 11, Le Caire, 1926.
- 14 Étienne GEOFFROY SAINT-HILAIRE, « Observations sur l'aile de l'Auruche », *Décade égyptienne* 1, pp. 46-51 ; ID., *Lettres écrites d'Égypte...* (E.-T. HAMY [éd.], Paris, Hachette, 1901), Lettre n° XXIII, 29 vendémiaire an VII (20 octobre 1798), pp. 95-96. Geoffroy devait encore livrer une « Note relative aux appendices des Raies et des Squales », traitant de ces organes sexuels que présentent les mâles, et dont la fonction lui apparut, par l'analogie des structures, de conformation semblable, qu'il avait observées lors de la dissection de reptiles de Haute-Égypte (*Décade égyptienne* 3, pp. 230-233). Il devait par ailleurs solliciter une assistance pour un plan d'expériences visant à déterminer si les sexes coexistent « dans les germes de tous les animaux ». Ce sujet constituerait l'un de ses

thèmes de prédilection, dans les recherches qui occupèrent une période ultérieure de son existence, mais rien n'indique qu'il ait poussé la question plus avant en Égypte. Le Rapport apparaît dans les *Mémoires sur l'Égypte* 3, pp. 385-387.

- 15 Marie-Jules-César LELOGNE DE SAVIGNY, « Description d'une nouvelle espèce de *Nymphaea* », *Décade égyptienne* 1, pp. 69-74 ; repris in *Mémoires sur l'Égypte* 1, pp. 105-112 ; une version modifiée parut sous le titre plus spécifique, « Description du *Nymphaea caerulea* », in *Annales du Muséum d'Histoire naturelle*, an XI-1802, pp. 366-371. La lettre de Geoffroy est celle indiquée *supra*, note 14.
- 16 Pour ce qui est de la récupération des restes de la cargaison, en 1985, voir Patrice BRET, « Opération Patriote : EDF sur les traces de Bonaparte », *L'Histoire*, n° 105, novembre 1987, pp. 88-90.
- 17 Georges CUVIER, Jean-Baptiste DE MONET, chevalier DE LAMARCK, Bernard-Germain-Étienne DE LA VILLE, comte DE LACEPÈDE, « Rapport des professeurs du Muséum, sur les collections d'histoire naturelle rapportées d'Égypte, par E. Geoffroy », *Annales du Muséum d'Histoire naturelle* 1, an XI-1802, pp. 234-241.
- 18 Marie-Jules-César LELOGNE DE SAVIGNY, *Histoire naturelle et mythologique de l'Ibis* (1805). La collection de Savigny, ainsi que cinq volumes des vélins originaux des planches, échut à sa compagne, Olympie Letellier de Sainteville, qui en fit legs à la ville de Versailles, où ils avaient vécu, et où ils s'étaient éteints, l'un et l'autre. On pouvait encore voir la collection à la bibliothèque de la ville de Versailles, et ce, jusqu'en 1919. Cette année-là, un bibliothécaire indiscret, impatient de faire de la place, et peu soucieux de démarches qui auraient pu en assurer la conservation au Muséum, ou en quelque autre lieu, fit descendre les spécimens à la cave. Et c'est là qu'on les laissait se délabrer, jusqu'à ce que Paul Pallary en identifie les pièces subsistantes, en 1927. Voir P. PALLARY, « Marie Jules-César Savigny. Sa vie et son œuvre », 1^{re} Partie, « La vie de Savigny », *Mémoires présentés à l'Institut d'Égypte* 17, 1931.
- 19 E. GEOFFROY SAINT-HILAIRE, *Lettres écrites d'Égypte, op. cit.*, Lettres n° LVIII, 4 vendémiaire an X (26 septembre 1801), et LXII, 29 frimaire an X (19 décembre 1801).
- 20 E. GEOFFROY SAINT-HILAIRE, « Histoire naturelle et Description anatomique d'un nouveau genre de poisson du Nil, nommé Polypète », *Annales du Muséum d'Histoire naturelle* 1, 1802, pp. 57-68 ; ID., « Description de l'Achire barbu... », *ibid.*, pp. 152-155 ; ID., « Mémoire sur l'anatomie comparée des organes électriques de la Raie torpille, du Gymnote engourdissant, et du Silure trembleur », *ibid.*, pp. 392-407 ; « Observations anatomiques sur le Crocodile du Nil », *ibid.* 2, 1803, pp. 37-52. Geoffroy écrivait d'abondance. On trouvera une bibliographie complète de ses publications in Théophile CAHN, *La Vie et l'œuvre d'Étienne Geoffroy Saint-Hilaire*, Paris, Presses universitaires de France, 1962.
- 21 E. GEOFFROY SAINT-HILAIRE, « Observations sur l'affection mutuelle de quelques animaux, et particulièrement sur les services rendus au Requin par le Pilote », *Annales du Muséum d'Histoire naturelle* 9, 1807, pp. 469-476.
- 22 Le premier tome (1818) constitue ce que l'on s'accorde à considérer comme le chef d'œuvre de Geoffroy. Dans ce volume, il défend la thèse de l'unité de type, en se fondant sur l'examen comparatif de cinq groupes de structures anatomiques chez les Vertébrés de classes et d'ordres fort divers. Le deuxième tome (1822) témoigne d'un déplacement ultérieur de son centre d'intérêt, en ce qu'il s'attache à l'étude des variations au sein même des espèces, en mettant l'accent sur la tératologie, et spécifiquement sur les déformations anatomiques chez l'Homme.
- 23 Toby A. APPEL, *The Cuvier-Geoffroy Debate: French Biology in the Decades before Darwin*, New York, Oxford University Press, 1987.
- 24 Marie-Jules-César LELOGNE DE SAVIGNY, « Système des Oiseaux de l'Égypte et de la Syrie », *D.E., H.N.* (Texte), t. I, 1^{re} partie, 1809, pp. 63-114. Une note liminaire avertit le lecteur de ce que « Ce système des Oiseaux devoit faire partie d'un travail plus considérable. » Cela ne devait jamais être. Il s'agit là de l'un des deux seuls mémoires scientifiques à paraître exclusivement dans la *D.E.*, plutôt que d'y être repris, après une longue existence antérieure, sous forme de publication en

revue. Quant à l'autre mémoire, il s'agit du « Système des Annélides », du même SAVIGNY (voir *infra*, note 29).

- 25 Marie-Jules-César LELOGNE DE SAVIGNY, *Mémoires sur les animaux sans vertèbres* (1816), t. I, pp. III-IV. Pour toutes précisions bibliographiques sur ces mémoires, on se reportera à Henri DAUDIN, *Cuvier et Lamarck : Les classes zoologiques et l'idée de série animale, 1790-1830* (Paris, Alcan, 1926, 2 vol.), pp. 314-315.
- 26 M.-J.-C. LELOGNE DE SAVIGNY, « Observations sur la bouche des Papillons, des Phalènes et des autres Insectes lépidoptères ; suivies de quelques considérations sur la bouche des Diptères, des Hémiptères et des Aptères suceurs », lues à la première classe de l'Institut, le 16 octobre 1814 ; in *Mémoires sur les animaux sans vertèbres*, op. cit., t. I, pp. 1-37. Le Rapport présenté par LAMARCK figure in Académie des Sciences, *Procès-Verbaux* 5, 24 octobre 1814, pp. 408-411.
- 27 M.-J.-C. LELOGNE DE SAVIGNY, « Observations générales sur la bouche des Arachnides, des Crustacés et des Entomostracés », lues à la première classe de l'Institut, le 19 juin 1815 ; in *Mémoires sur les animaux sans vertèbres*, op. cit., t. I, pp. 39-117. Voir le Rapport de LAMARCK, CUVIER, et Pierre-André LATREILLE in Académie des Sciences, *Procès-Verbaux* 5, le 3 juillet 1815, pp. 521-526.
- 28 M.-J.-C. LELOGNE DE SAVIGNY, « Observations sur les Alcyons gélatineux à six tentacules simples », lues à la première classe de l'Institut, le 6 février 1815 ; in *Mémoires sur les animaux sans vertèbres*, op. cit., t. II, pp. 1-23 ; ID., « Observations sur les Alcyons à deux oscules apparents, sur les Bourlilles et sur les Pyrosomes », lues le 1^{er} mai 1815, *ibid.*, pp. 25-66. Voir le Rapport présenté par CUVIER, *ibid.*, pp. 67-81, et in *Procès-Verbaux* 5, le 8 mai 1815, pp. 496-500. Le troisième mémoire de cette série était constitué par les « Observations sur les Ascidies proprement dites, suivies de considérations générales sur la classe des Ascidies », in *Mémoires sur les animaux sans vertèbres*, op. cit., t. II, pp. 83-132.
- 29 M.-J.-C. LELOGNE DE SAVIGNY, « Tableau systématique des Ascidies, tant simples que composées, mentionnées dans les trois Mémoires suivants ; offrant les caractères des ordres, familles, genres, et l'indication sommaire des espèces », D.E., H.N. (Texte), t. I, 2^e partie, pp. 1-58 ; ID., « Système des Annélides, principalement de celles des côtes de l'Égypte et de la Syrie, offrant les caractères tant distinctifs que naturels des ordres, familles et genres, avec la description des espèces », *ibid.*, 3^e partie, pp. 1-128. Savigny inséra une note, signalant que, après communication de sa monographie à l'Académie des Sciences, il l'avait enrichie de quatre genres nouveaux, et ajouté cinq espèces à cinq autres genres, sans y apporter de modification par ailleurs.
- 30 P.-A. LATREILLE et LAMARCK, « Rapport sur le travail de M. Savigny relatif aux *Annélides* », Académie des Sciences, *Procès-Verbaux* 7, le 6 mars 1820, pp. 22-28.
- 31 Pour les attendus officiels de ces dispositions, on se reportera à la Note introductive à la 4^e partie du premier tome de texte de l'*Histoire naturelle*, qui réunit les « Explications sommaires des planches dont les dessins ont été fournis par M.J.C. Savigny pour l'histoire naturelle de l'ouvrage », dues à Victor AUDOUIN, ainsi qu'un court extrait de l'*Histoire naturelle et mythologique de l'Ibis*.
- 32 Sur la maladie de Savigny, voir Paul PALLARY, « Marie Jules-César Savigny, sa vie et son œuvre », 1^{re} Partie, « La vie de Savigny », *Mémoires présentés à l'Institut d'Égypte* 17 (1937), chapitres XII-XIX ; 2^e Partie, « L'œuvre de Savigny », *ibid.* 20 (1932), pp. 97-107 ; 3^e Partie, « Documents concernant la vie et les œuvres de M.J.-C. Savigny de 1798 à 1845 », *ibid.* 23 (1934), pp. 87-146. PALLARY donne retranscription des notes de SAVIGNY concernant les explications d'AUDOUIN, 2^e Partie, op. cit., pp. 28-38.
- 33 M.-J.-C. LELOGNE DE SAVIGNY, « Remarques sur certains phénomènes dont le principe est dans l'organe de la vue, ou fragments du journal d'un observateur atteint d'une maladie des yeux », *Mémoires de l'Académie royale des sciences de l'Institut de France* 18, 1840, pp. 385-416 ; ID., « Remarques sur les Phosphènes ; Fragments du journal d'un observateur atteint d'une maladie des yeux », Académie des sciences, *Comptes rendus* 7, 1838, pp. 69-75. Selon l'opinion de mes collègues du Wilmer Ophthalmological Institute de l'Université Johns Hopkins, l'affection dont souffrait Savigny n'était pas sise dans les yeux. Ils concluent que les symptômes constituent une « description classique d'épilepsie du lobe temporal ». L'étiologie habituelle, chez l'adulte, se rapporte à l'existence

d'une tumeur, quoiqu'il soit rare qu'un adulte présentant une telle atteinte survive à la manifestation initiale aussi longtemps que le fit Savigny. Une autre éventualité, fort rare, serait un glomé de faible activité. Communication personnelle à l'auteur, du docteur Alfred Sommer, en date du 19 septembre 1988.

- 34 Voir cependant Paul ASCHERSON et Georg SCHWEINFURTH, « Illustration de la flore d'Égypte », *Mémoires présentés à l'Institut égyptien* 2, 1889, pp. 25-260, Avant-propos.
- 35 E. GEOFFROY SAINT-HILAIRE, *Lettres écrites d'Égypte*, op. cit., Lettre n° XV, à Antoine-Laurent de Jussieu, 25 thermidor an VI (12 août 1798), p. 67.
- 36 GOBY (1987), p. 107. Je tiens mes informations, quant aux activités antérieures de Nectoux, de M. James E. McClellan III, qui vient d'achever la rédaction d'un ouvrage sur Science et colonialisme à Saint-Domingue. NECTOUX devait cependant publier son bref *Voyage dans la Haute-Égypte au-dessus des cataractes, avec des observations sur les diverses espèces de séné qui sont répandues dans le commerce* (1808), illustré par Redouté.
- 37 Antoine-François-Ernest COQUEBERT DE MONTBRET, « Réflexions sur quelques points de comparaison à établir entre les plantes d'Égypte et celles de France », *D.E., H.N. (Texte)*, t. I, 1^{re} partie, pp. 59-62.
- 38 Alyre RAFFENEAU-DELE, « Flore d'Égypte. Explication des planches », *D.E., H.N. (Texte)*, t. II, pp. 145-320.
- 39 Alyre RAFFENEAU-DELE, « *Florae Aegyptiacae illustratio* », *D.E., H.N. (Texte)*, t. II, pp. 49-82.
- 40 A. RAFFENEAU-DELE, « Mémoire sur les plantes qui croissent spontanément en Égypte », *D.E., H.N. (Texte)*, t. II, pp. 1-10; ID., « Histoire des plantes cultivées en Égypte — 1^{er} Mémoire. Sur les céréales graminées, les fourrages, et les grains de la classe des plantes légumineuses », *ibid.*, pp. 11-24; ID., « Description du Palmier *Doum* de la haute-Égypte, ou *Cucifera Thebaica* », *ibid.*, t. I, 1^{re} partie, pp. 53-58; voir GOBY (1987), n° 085.
- 41 Sur Delile, voir la notice due à Jean MOTTE, in *Dictionary of Scientific Biography*, vol. IV (1971), pp. 21-22.
- 42 François-Michel DE ROZIÈRE, « Discours sur la représentation des roches de l'Égypte et de l'Arabie par la gravure, et sur son utilité dans les arts et dans la géologie », *D.E., H.N. (Texte)*, t. II, pp. 41-48.
- 43 François-Michel DE ROZIÈRE, « Explication des planches de minéralogie », *D.E., H.N. (Texte)*, t. II, pp. 683-725.
- 44 F.-M. DE ROZIÈRE, « De la constitution physique de l'Égypte, et de ses rapports avec les anciennes institutions de cette contrée », *D.E., H.N. (Texte)*, t. II, pp. 407-682.
- 45 ID., *ibid.*, p. 408.
- 46 ID., *ibid.*, 3^e partie, Section première, pp. 497-534; pour d'autres examens de la question, voir Pierre-Simon GIRARD, « Mémoire sur le Nilomètre de l'île d'Éléphantine et les mesures égyptiennes », *D.E., A., Mémoires*, t. I, pp. 1-48; Edme-François JOMARD, « Mémoire sur le système métrique des anciens Égyptiens, contenant des recherches sur leurs connoissances géométriques et sur les mesures des autres peuples de l'antiquité », *ibid.*, pp. 495-802; Samuel BERNARD, « Notice sur les poids Arabes anciens et modernes », *D.E., E.M.*, t. II, 1^{re} partie, pp. 229-248; ID., « Mémoire sur les monnoies d'Égypte », *ibid.*, pp. 321-468.
- 47 Le 18 février 1802, Chaptal, alors ministre de l'Intérieur, convoqua les membres de l'Institut d'Égypte à son bureau, pour procéder à la désignation de la Commission chargée de l'exécution de l'ouvrage. Furent choisis : Monge, Berthollet, Fourier, Costaz, Desgenettes et Conté. Voir Pierre JACOTIN, « Mémoire sur la construction de la carte d'Égypte », *D.E., E.M.*, t. II, 2^e partie, pp. 1-118; pp. 18-19.
- 48 D'HUNEBOURG, pour le ministre de la Guerre, à Berthollet, en 1803 (mais sans date), Bibliothèque nationale NAFr. 3577, Registre 2, où se trouvent réunis les procès-verbaux de la Commission chargée de la D.E.

- 49 Un mémoire manuscrit, dû à P. JACOTIN, donne une liste différente, et plus complète, s'écartant de celle que publie l'Atlas, à la page recensant les collaborateurs : « Exposé des moyens employés pour parvenir à la confection de la Carte de l'Égypte », Bibliothèque nationale, département des Cartes et Plans, GeDD. 2564. Il s'agit, manifestement, d'une première mouture de certains passages du mémoire cité *supra*, note 47.
- 50 Jacques-Marie LE PÈRE, « Mémoire sur la communication de la mer des Indes à la Méditerranée par la mer Rouge et l'isthme de Soueys », *D.E., E.M.*, t. I, pp. 21-186. Sur cette équipée, voir C.C. GILLISSE, *Monuments de l'Égypte*, op. cit., pp. 10-12 ; voir encore Jean-Édouard GOBY, « Histoire des nivellements de l'isthme de Suez », *Bulletin de la Société d'études historiques et géographiques de l'isthme de Suez* 4, 1951-1952, pp. 99-170.
- 51 L'exposé que donne JACOTIN de ces deux procédés, loc. cit. (*supra*, note 47), pp. 12-13, est d'une clarté admirable, et pourrait bien figurer, tel quel, dans un traité de topographie moderne. Chaque secteur de territoire, imparti à un ingénieur, était délimité de manière à y faire entrer au moins deux des points de référence de Nouet, en en plaçant un à chaque extrémité, où le secteur adjacent venait s'abouter, en ménageant une marge de recouvrement. Ils permettaient ainsi de contrôler l'exactitude des cheminements effectués dans chaque secteur, tout en les raccordant aux suivants.
- 52 P. JACOTIN, « Mémoire sur la construction de la carte d'Égypte », loc. cit., pp. 29-30 ; Nicolas-Antoine NOUET, « Observations astronomiques faites en Égypte pendant les années VI, VII et VIII [1798, 1799 et 1800] », *D.E., E.M.*, t. I, pp. 1-20.
- 53 René-Nicolas DUFRICHE DES GENETTES, alias DESGENETTES, « Lettre circulaire... aux Médecins de l'Armée d'Orient, sur un plan propre à rédiger la Topographie physique et médicale de l'Égypte », 25 thermidor an VI (12 août 1798), *Décade égyptienne* 1, pp. 29-33. Voir GOBY (1987), p. 99.
- 54 Telle est la thèse que défendent ceux qui se réclament de Michel FOUCAULT, *Naissance de la clinique, une archéologie du regard médical* (Presses universitaires de France, Paris, 1963).
- 55 Jean-Dominique LARREY, « Mémoires et Observations sur plusieurs maladies qui ont affecté les troupes de l'armée Française pendant l'expédition d'Égypte et de Syrie, et qui sont endémiques dans ces deux contrées », *D.E., E.M.*, t. I, pp. 417-524.
- 56 Les titres de ces mémoires étant parfois fort longs, peut-être suffira-t-il d'en donner les localisations : Jean-Dominique LARREY, *D.E., E.M.*, t. II, 1^{re} partie, pp. 1-6 ; Jean-Marie-Joseph-Aimé DUBOIS, dit DUBOIS-AYMÉ, *D.E., E.M.*, t. I, pp. 193-202 ; *Id.*, *ibid.*, pp. 577-606 ; Edme-François JOMARD, *D.E., A., Mémoires*, t. II, pp. 88-142 ; Michel-Ange LANCRET, *D.E., E.M.*, t. I, pp. 233-260 ; Pierre-Simon GIRARD, *D.E., E.M.*, t. II, 1^{re} partie, pp. 491-714.
- 57 Martin-Roch-Xavier ESTÈVE, *D.E., E.M.*, t. I, pp. 299-398 ; Guillaume-André VILLOTEAU, *D.E., A., Mémoires*, t. I, pp. 181-206 ; *Id.*, *ibid.*, pp. 357-426 ; *Id.*, *D.E., E.M.*, t. I, pp. 607-846 ; *ibid.*, pp. 1012-1016.
- 58 L'examen le plus intéressant de cet aspect de la question, est apporté par une thèse de 3^e cycle, inédite, présentée par Stéphane CALLENS, « Étude sur la Description de l'Égypte, Histoire d'une enquête (1798-1830) », en septembre 1985. Je tiens à exprimer ma reconnaissance à M. Callens, d'avoir bien voulu me laisser un exemplaire de son étude remarquable.
- 59 Alfred TIERRO, *La Société de Géographie, 1821-1946* (Centre de recherches d'Histoire et de Philologie, Hautes Études médiévales et modernes 5, n° 52, Paris, Librairie Champion, 1983). L'auteur de cette thèse reste sceptique, quant aux prétentions de la Société. À mon sens, son *Bulletin* semble bien montrer une discipline en cours de constitution.
- 60 Gilbert-Joseph-Gaspard-Antonin CHABROL DE VOLVIC, *D.E., E.M.*, t. II, 2^e partie, pp. 361-526 ; GOBY (1987), n° 403 ; CHABROL DE VOLVIC et M.-A. LANCRET, *D.E., E.M.*, t. II, 1^{re} partie, pp. 185-194.
- 61 G.-J.-G. CHABROL DE VOLVIC, *Statistique des provinces de Savone, d'Oneglia, d'Acqui, et de partie de la province de Mondovì, formant l'ancien département de Montenotte* (1824 : 2 vol.). L'histoire de la statistique, en son état pré-mathématique, commence à retenir l'attention des chercheurs, tels Jean-Claude PERRON, *L'Âge d'or de la statistique régionale française (An IV-1804)*, Paris, Société des études robespierristes, 1977 ; Lilliane VIRÉ et al., *La Statistique en France à l'époque*

napoléonienne, Paris, École des Hautes Études en sciences sociales, 1982 ; et Marie-Noëlle BOURGUET, *Déchiffrer la France : la statistique départementale à l'époque napoléonienne*, Paris, Éditions des archives contemporaines, 1988.

- 62 *Recherches statistiques sur la Ville de Paris et le département de la Seine* (4 vol. : 1821, 1823, 1826, 1829). Fourier avait reçu la charge, à titre essentiellement honoraire, de directeur du Bureau de la Statistique, qui réunissait les données. Sur ce programme, on pourra se reporter au compte rendu, fort intéressant, publié par Edme JOMARD, in *Bulletin de la Société de Géographie*, 1^{re} série, 2 (1824), pp. 305-322 ; ainsi que celui qu'il publia in *Revue encyclopédique* 21, 2^e série, t. I, janvier 1824.

ثبت الفرائض والأشكال ومصادرها

- ١ - مسألة هليوبوليس. ١٠
- ٢ - سلطات القصر والمعابد. ١١
- ٣ - الجذاج المصري كما رسمه كليبر، الجذال فيما بعد. ١٢
- (أ) مشهد جنوبي.
- (ب) الواجهة.
- ٤ - (أ) معبد آمينوفيس الثالث ذو الأصدة في الفنتين. ١٣
- (ب) موكب.
- ٥ - «مجمع الآلهة» للجمهوريين في فناء معبد مدينة - هابول - إملاء هراتج الحكمة، على الملك. ١٤
- ٦ - (أ) بورتوللي. ١٥
- (ب) تولوميو.
- (ج) استقبال بوناهلوت في المعبد.
- ٧ - (أ) كاتاريللي. ١٦
- (ب) بلزك.
- (ج) جومار.
- ٨ - مشاهد من ملطه. ١٧
- خريطة مصر الوسطى والعلية. ٦٠
- خريطتان : النيلتا ومصر السفلى. ٦١
- فلسطين وسوريا. ٦١
- ٩ - للملوك. ١٠١
- ١٠ - ثياب المصريين. ١٠٢
- ١١ - زواج مصري. ١٠٣
- ١٢ - رى الأراخس. ١٠٤

١٠٥	١٢ - دولاپ الأرمية لوالدة قري.
١٠٦	١٤ - نحلسون وحنانون.
١٠٧	١٥ - مشهد بلخلى القصر قاسم بك.
١٠٨	١٦ - شخصيتان مصريتان ، الشامو (إلى اليسار) ، سالم الفلك (إلى اليمين).
١٥٨	١٧ - مراد بك.
١٥٩	١٨ - شيخ من القاهرة (إلى اليسار) ، ترجمان مراد بك (إلى اليمين).
١٦٠	١٩ - بحر من الإسكندرية.
١٦١	٢٠ - بونهارت يمتح سيفاً للقائد العسكري للإسكندرية.
١٦٢	٢١ - (أ) عرب بلدية رشيد. (ب) مسئولان بحكومة الإسكندرية (إلى اليسار) ، رأس عربى (إلى الوسط) ، الشريف كريم ، حاكم الإسكندرية (إلى اليمين).
١٦٣	٢٢ - مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى.
١٦٤	٢٣ - رشيد.
١٦٥	٢٤ - خريطة معركة أبو قير.
٢٢١	٢٥ - حريق السفلية.
٢٢٢	٢٦ - مأخذ الماء من قناة القاهرة.
٢٢٣	٢٧ - (أ) الوشاح الثلاثى الألوان يهديه بونهارت إلى أحد بكوات مصر. (ب) بونهارت يشهد عيد مولد النبى محمد.
٢٢٤	٢٨ - مشاهد من مصر السفلى.
٢٢٥	٢٩ - مشاهد من مصر السفلى.
٢٢٦	٣٠ - ثلاث قرى على فرع دمياط.
٢٢٧	٣١ - (أ) بورتريه سليم الثالث. (ب) قصر الأبراج السبعة.
٢٢٨	٣٢ - المعهد (للمجمع العلمى) المصرى.
٢٨٤	٣٣ - الشيخ الشرقاوى.
٢٨٥	٣٤ - الشيخ المهدي.

٢٨٦	٢٥ - الخين البكرى.
٢٨٧	٢٦ - الخين القوي.
٢٨٨	٢٧ - معركة سيمنت.
٢٨٩	٢٨ - مبداء الإسكندرية الجديد.
٢٩٠	٢٩ - (أ) نيزه لى لسيوط. (ب) الديوان العسكرى.
٢٩١	٤٠ - (أ) و(ب) رسمان كاريكاتيريان انجليزيان.
٣٥١	٤١ - معركة الأهرام.
٣٥٢	٤٢ - بونپارت يعلق عن متعمري القاهرة.
٣٥٣	٤٣ - بونپارت يزور هيون موسى.
٣٥٤	٤٤ - معركة جبل طهرو.
٣٥٥	٤٥ - بونپارت اسلم اسوار عكا.
٣٥٦	٤٦ - خريطة عكا.
٣٥٧	٤٧ - (أ) مونة بونپارت إلى القاهرة. (ب) الانسحاب من سوريا.
٣٥٨	٤٨ - التصير.
٤٠٠	٤٩ - مثال الكركه الضخم.
٤٠١	٥٠ - السيد مصطفى باشا.
٤٠٢	٥١ - (أ) بوسيلج. (ب) تقيان. (ج) سولنى سميت. (د) كليبر.
٤٠٣	٥٢ - قلعة القاهرة.
٤٠٤	٥٣ - خريطة عامة لبحولال والقاهرة وجزيرة الروضة والقاهرة القديمة والجديدة.
٤٠٥	٥٤ - معركة هليوبوليس.
٤٠٦	٥٥ - اعدام سليمان الحلبي على الخانق.

- ٥٦ - مينو. ١٠٧
- ٥٧ - (أ) لاسكاريس. ١٧١
- (ب) رعيان القبط.
- ٥٨ - البرابرة للسمكة بابل الجبل. ١٧٢
- ٥٩ - قلعة فرق جيش الشرق ١. ١٧٣
- (أ) ريشيه.
- (ب) بللس.
- (ج) فريان.
- (د) لانوس.
- ٦٠ - مسجد قديم قرب باب النصر (مسجد الحاكم بأمر الله الفاطمي). ١٧٤
- ٦١ - سينى سميت والجزائر في مكان. ١٧٥
- ٦٢ - مودا في أبو قير. ١٧٦
- ٦٣ - كليبر، القائد العام. ١٧٧
- ٦٤ - معركة كانوب. ١٧٨
- ٦٥ - سينى سميت عند الانزال قرب الإسكندرية. ٥٣٦
- ٦٦ - (أ) محمد على، والى مصر. ٥٣٧
- (ب) جنديان من ليلق راكبي الجمال.
- ٦٧ - واجهة معبد بخره. استرجاع ثيثار ديون. ٥٣٨
- ٦٨ - واجهة معبد بخره. استرجاع برلوا وديفيليه. ٥٣٩
- ٦٩ - لرسم المواجه لعنوان كتاب وصف مصر. ٥٤٠
- ٧٠ - الكرنك. بوابة ليفيرجيت ومعبد خونسو كما صورهما ديون. ٥٤١
- ٧١ - الكرنك. بوابة ليفيرجيت ومعبد خونسو كما صورهما سيسيل. ٥٤٢
- ٧٢ - واجهة معبد بخره. ٥٤٣
- (أ) رسم سيسيل في عام ١٧٩٩.
- (ب) رسم لوكلس في عام ١٦٩٩.
- ٧٣ - زوايا بخره. ٥٨٦

- ٧٤ - معبد لرمنت. ٥٨٧
- (أ) رسم توتيرار.
- (ب) رسم لوكلس.
- ٧٥ - مخطط ومقطع ودفع معبد لرمنت. ٥٨٨
- ٧٦ - تلال معبد خونصور. ٥٨٩
- ٧٧ - معبد قار الكبير. رسم حالة الأماكن. ٥٩٠
- ٧٨ - معبد قار الكبير. ٥٩١
- ٧٩ - الملك محمولاً على كرسية. ٥٩٢
- ٨٠ - الملك محمولاً على كرسية. استرجاع حديث. ٥٩٣
- ٨١ - القاعة لتت الأصدة للقصر الكرنك. ٦٦٤
- ٨٢ - الوجه الجنوبي لمذبح الزودق الجرانيتي. ٦٦٥
- ٨٣ - أبو هول كبشى بالكرك. ٦٦٦
- ٨٤ - قصر الجيرة. ٦٦٧
- ٨٥ - معبد إسنا. ٦٦٨
- ٨٦ - بوابة النصر الجنوبية بالقصر الكرنك. ٦٦٩
- ٨٧ - عيد في بخره. ٦٧٠
- ٨٨ - (أ) ماريوكرات، إله طيبة. ٦٧١
- (ب) لعد الهنود يحارب فرعون.
- (ج) أملاكه.
- ٨٩ - (أ) دمس. ٧٢٠
- (ب) جرانيت هولي.
- ٩٠ - السمكة النهرية الفخمية بيهير. ٧٢١
- ٩١ - إيهيس الأبرض أو للفس، إيهيس الأسود. ٧٢٢
- ٩٢ - سلطعونيات. ٧٢٣

المحتويات

٥	إلى القارئ
٦	شكرواقتير
٧	تمهيد

الفصل الأول - الحملة

١١	جيوپوليتيكا التوير
١١	العالم القديم
١١	الإمبراطورية العثمانية
١٤	فرانسا والشرق
١٧	مفهوم جديد : الحضارة
٢٠	بوتلپارت والأردن والشرق
٢٠	إخفاي الجمهورية
٢٢	بوتلپارت والشرق
٢٤	الاستشراق والأردن
٢٦	مطاردة بوتلپارت
٢٦	الانزعاجات الروسية
٢٧	تاليران
٢٧	القرار
٢٩	بوتلپارت في باريس
٢٩	الجيش وحكومة الإدارة
٣١	إنجلترا لومصر
٣٣	القرار
٣٥	تنظيم الحملة
٣٦	الجيش

٢٨	بوتهايات والعلماء
٢٩	القطيعات
٤٩	بوتهايات في طوائف
٥٠	الأسطول
٥٢	لجتهاز البحر المتوسط
٥٢	مالطه
٥٥	الرحلة البحرية
٥٦	تياصون
٥٧	بوان بوتهايات إلى الجيش
٦٢	حواشي الفصل الأول

٧٢ الفصل الثالث - السلطة والمجتمع في مصر العثمانية

٧٢	الإمبراطورية العثمانية ومصر
٧٣	الفتح العثماني
٧٤	تجارة مصر
٧٦	الانظيم السياسي
٧٧	المعاليك
٧٩	المصريون
٨٠	تحويلات الترخيص السليخ عطر والتامن عطر
٨٠	التحويلات السياسية
٨٢	الاقتصاد
٨٤	الأرياف
٨٧	الاستثمار الريفي والري الجديد
٨٩	علي بك ومصر وإنشاء الدولة المملوكية الجديدة
٨٩	علي بك
٩٠	إخماد المنازعات في مصر
٩٢	بيان علي بك

٩٣	لهاهر العبر
٩٤	الفضل
٩٥	التصور الأندلسي
٩٦	أبو العجب والحكم الإسلامي الصالح
٩٦	الخلافة
٩٨	توليد سلطة أبو العجب
٩٨	العلماء
١٠٠	حملة سوريا الثانية
١١٠	حوت الطمانين ومشكلة المجتمع المدني الإسلامي
١١٠	إبراهيم ومراء
١١١	زمن الفان
١١٢	مجالون
١١٣	الهاب العالي ومصر
١١٤	إسقاء الشرعية الإسلامية على التمردات
١١٦	الفضل العظمى
١١٧	حوت إبراهيم ومراء
١١٨	سياسة مراء بك العسكرية
١١٩	التحديات
١١٩	لزمة نهاية القرن
١٢١	حوافن الفصل التالي

الفصل الثالث - الانتصارات والانتكاسات

١٢١	الاستيلاء على الاسكندرية
١٢١	البيان الموجّه إلى الشعب المصري
١٢٣	الإنزال في الإسكندرية
١٢٥	سياسة الأحرار
١٢٧	رهان بونلبارت
١٢٩	الزحف على القاهرة
١٢٩	رد فعل الحائيك
١٤١	مظهور

١٤٢	رشيد
١٤٢	حلف الجيوش
١٤٤	للعائلة والصرب
١٤٥	خبرائيت
١٤٧	سلم الجيوش
١٤٨	الفرنسيون والعائلة
١٤٨	الأهرام
١٥٠	استسلام القاهرة
١٥٢	القاهرة
١٥٢	بونابارت في القاهرة
١٥٢	السياسة الإسلامية
١٥٥	إنشاء إدارة جديدة
١٥٧	الأثر القبطي للبيان
١٦٨	إخراج إبراهيم بك من سلطنة النزاع
١٧١	الإسكندرية ورشيد وأبو تير
١٧١	كثير في الإسكندرية
١٧٣	ميدوني رشيد
١٧٥	مشكلة الأسطول
١٧٧	معركة أبو تير البحرية
١٨٠	إعادة تنظيم الانتشار الفرنسي
١٨١	رحيل الإنجليز
١٨٣	حواشي الفصل الثالث

الفصل الرابع - التهلون والمقاومة

١٩٥	محاولة الإغراء
١٩٥	حظ بونابارت
١٩٦	عهد وفاء النيل
١٩٧	مولد النبي
١٩٨	إنهاء العهد المصري

١٩٩	لوكسنبورج
٢٠٠	لوتيا والألمان
٢٠٢	الإسلام والخلافة الثلاثية الألوان
٢٠٢	مكة والوازن
٢٠٥	حصار مصر وتزايد الضغط الفرنسي
٢٠٦	الزجاج السكان
٢٠٧	المقاومة
٢٠٨	النظام العلم والصحة والسياسة الجبلية
٢٠٩	عيد الجمهورية
٢١٠	لوتيا لوتيا
٢١١	فتح الفتحة
٢١١	الاتحاد الفرنسي
٢١٢	المصورة
٢١٣	مبطل
٢١٣	الهند
٢١٥	مبطل الهند
٢١٦	حسن طوهر
٢١٨	الشرقية
٢٢٠	الإدارة الجديدة
٢٣٠	الإسكندرية وريشيد
٢٣٢	عقد البيان العمومي
٢٣٣	نحول الإمبراطورية العثمانية إلى الحرب وحرب البعثة
٢٣٣	سلم الثالث
٢٣٥	الإصلاحات والثورة الفرنسية
٢٣٧	القطعة مع فرنسا
٢٣٨	البيان العثماني
٢٣٩	التحالف مع روسيا وإنجلترا

٢٤٠	حكومة الإدارة وحالة مصر
٢٤٢	العملية العثمانية
٢٤٥	حوادث الفصل الرابع

الفصل الخامس - توصيات لوجود الفرنسيين

٢٦١	التمردات والتفرد
٢٦١	القوانين
٢٦٢	اجتماع النيران
٢٦٥	القرارات
٢٦٧	لنزع سكان القاهرة
٢٦٨	النتائج
٢٦٩	الفتح
٢٧١	العقوبات
٢٧٢	رد الفعل في الأقاليم
٢٧٤	الإنجليز قبالة الإسكندرية
٢٧٥	سياسة المصالح
٢٧٧	مصر العليا
٢٧٧	مهمة بديري
٢٧٧	القيم ...
٢٧٨	المطعم يعلوب
٢٧٩	مصر الوسطى
٢٨٠	إمارة مكة
٢٨١	الزحف على إسوان
٢٨٢	تنظيم الفتح والمحاولة الأخيرة للتفاوض
٢٨٢	الانقضاء ..
٢٩٢	تكملة الفرنسيين
٢٩٤	المطالبات بالعودة إلى فرنسا
٢٩٥	الهدوء والتسوية

٢٩٥	التأثير الصحية
٢٩٦	للمعهد (المجمع الطبي)
٢٩٨	للتطبيق
٢٩٨	الأحوال المالية
٣٠٠	استعادة النيران
٣٠١	تنظيم القضاء
٣٠٢	التخطيط للجيش
٣٠٢	مكة بوشان
٣٠٥	طلعون الإسكندرية
٣٠٦	نوايا المصلين
٣٠٦	الرحلة إلى السويس
٣٠٨	الاستعدادات لحملة سوريا
٣١١	حواشي الفصل الخامس

٢٢٧ للفصل السادس - فلسطين أو بدايات اللعبة الكبرى

٢٢٧	اللعبة الكبرى
٢٢٧	الإنجليز والهند
٢٢٨	اللعبة الكبرى
٢٢٩	الإسلام السياسي
٢٣١	مبنى سميت
٢٣٣	حسابات بولنهاره
٢٣٤	الزعة العربية
٢٣٦	لفلسطين
٢٣٨	الجزائر
٢٤٠	خطة بولنهاره
٢٤٢	حملة سوريا
٢٤٢	العريش
٢٤٢	يافا

٢٤٦	بداية حصار عكا
٢٤٩	الجليل
٢٥٠	بشير والإنجليز
٢٦٠	عمل الإنجليز السيكلوجي
٢٦١	الفشل
٢٦٤	الاتساع
٢٦٧	مصر خلال حملة سوريا
٢٦٧	تحول مينو إلى اعتناق الإسلام
٢٦٨	نوجا
٢٦٩	تمرد أمير الحج
٢٧٠	ولف الحج
٢٧١	الممالك الأخرى
٢٧٢	تمرد اليونان
٢٧٤	مهدي بختيوار
٢٧٦	تفكك نوجا
٢٧٧	مصر العليا
٢٧٨	التهمة
٢٨١	رحيل بونليارت
٢٨١	الحرب في البحر المتوسط
٢٨٢	الهزائم الفرنسية
٢٨٤	إعادة التنظيم للجيش
٢٨٥	مخاطبة النخبة القومية المصرية
٢٨٧	البحيرة
٢٨٧	بونليارت وبهجيت
٢٨٨	مبوط مراد بك
٢٨٩	صينلي سميت والعثمانيون
٢٩٠	معركة أبو قير البرية

٣٩٤	ميدنى سميت وپوتپارت
٣٩٦	تسمية الخلف .
٣٩٨	عودة پوتپارت
٤٠٩	حواشى الفصل السادس .

الفصل السابع - كليبر

٤٢٧	قتل التركة
٤٢٧	سخط نوحا
٤٢٧	تولى كليبر منصبه
٤٢٨	حاشية كليبر
٤٢٠	استعادة زمام الامور
٤٢٢	سخط كليبر
٤٢٤	الانزال فى معياد
٤٣٦	رحيل مصر
٤٣٧	اتفاق العرش
٤٤٠	بعثة بيكرش
٤٤٠	تشجيع الفارسيات مع العثمانيين
٤٤١	ميدنى سميت ولبنان
٤٤٣	تدخل ميدنى سميت
٤٤٤	التعليمات الصادرة إلى المفوضين الفرنسيين
٤٤٦	ملوك العرش
٤٤٧	تسريح للجهش
٤٤٨	قرار الهلاء عن مصر
٤٤٩	الاتفاق
٤٥٢	نوايا كليبر
٤٥٤	مبايرونليس
٤٥٧	نبا ١٨ يرمير
٤٥٧	الورد يلاجين والخوان سميت
٤٥٩	

٤٦١	حرج الحكومة البريطانية
٤٦٢	الهند أوفديا
٤٦٤	تطبيق الاتفاق
٤٦٧	رسالة اللورد كيث
٤٦٨	مهمة جون كيث
٤٦٩	الاتصالات مع مراد بك
٤٧٩	مفاوضات الفرصة الأخيرة
٤٨١	بوح كليبر بالأسرار
٤٨٢	معركة ميليوهايس
٤٨٤	إعادة اللتح
٤٨٤	لتقاضي القاهرة
٤٨٦	معرض كليبر
٤٨٧	المعاملة مع مراد بك
٤٨٨	تجزر الانتفاضة
٤٩٠	الهجوم الأخير
٤٩١	الطريقة الاستثنائية
٤٩٢	الشيخ السادات
٤٩٤	تشكيل قوات محلية
٤٩٥	إعادة التنظيم المالية
٤٩٦	عمولى مولاى كليبر
٤٩٨	مشاريع سهدنى سميت
٤٩٩	التعليمة مع الإنجليز
٥٠٠	للمفاوضات مع العثمانيين
٥٠١	مصر دينيه
٥٠٢	الحقول كليبر
٥٠٥	حراشى الفصل السابع

الفصل الثامن - ميلو

٥٢١	الخيار الاستعماري
٥٢١	تسمية ميلو
٤٢١	معنى العملة
٥٢٢	تصالح الجيش مع الواقع
٥٢٢	المشروع الاستعماري
٥٢٥	الشؤون المالية
٥٢٥	لصكاري
٥٢٦	مشاريع الإصلاح الأخرى
٥٢٨	مشاريع القوي
٥٣٠	التدابير المالية الأخرى
٥٣١	ميلو والجيش
٥٣٢	صيف ١٨٠٠
٥٣٤	السياسة المصرية
٥٣٥	القطاء
٥٤٤	السيان الجديد
٥٤٦	القطاء على الالتزام
٥٤٩	ميلو والمشاريع
٥٥٠	الصلاص الثقافية
٥٥١	الالتفات
٥٥٢	مراد بك
٥٥٤	تمرد الجنرال
٥٥٤	الزمر العسكرية
٥٥٦	الخلاص السياسي وتنازع الأشخاص
٥٥٨	توطد وضع ميلو
٥٥٩	لور
٥٦٠	المعهد (الجمع الطمى)

٥٦١	تحرك قادة الفرق
٥٦٢	تشيت ميلو
٥٦٤	مطاردة سينلي سميت الأخيرة
٥٦٦	أوروبا ومصر
٥٦٦	الانفصال الأول
٥٦٧	القرار الإنجليزي
٥٦٩	الانتهيار
٥٦٩	العملة الإنجليزية
٥٧٠	الانزال الإنجليزي
٥٧٢	الإخفاقات الفرنسية الأولى
٥٧٢	معركة كانوب
٥٧٥	لزمة القيادة
٥٧٦	مقطوع رشيد
٥٧٧	زوال الخطوة من سينلي سميت
٥٧٨	تراكم الأخطاء
٥٨٠	تريد بيليار الغريب
٥٨١	الجهش الإنجليزي القادم من المستعمرات
٥٨٢	استسلام القاهرة
٥٨٥	مشروع استقلال مصر
٥٩٥	الزاعات الأولى بين العثمانيين والمماليك
٥٩٦	تكتيد ميلو
٥٩٧	الطقات الإنجليزية
٥٩٨	استسلام الاسكندرية
٥٩٩	العمدة إلى فرنسا
٦٠٢	خواص الفصل الثامن
٦٢٢	خاتمة
٦٢٢	الثورة الفرنسية والإسلام

٦٢٣	المحصله
٦٢٥	الحمله الاستعماريه
٦٢٥	نقل الايديولوجيات
٥٢٩	حواشي الخاتمة

الفصل التاسع - الحملة الفرنسية ضد مصر العليا بحثا عن الآثار أو كشف العمارة الفرعونية بقلم: جان-كلود جولفان

٦٢٢	الاسلاف
٦٢٤	ليون سينون
٦٣٩	المهندسون
٦٤١	نكره
٦٤٥	طبية
٦٤٨	الجهان العلمية
٦٥١	البيانات
٦٥٥	حواشي الفصل التاسع

الفصل العاشر - مصر القديمة ضد «وحد مصر»

٦٦١	بقلم: كلود تريايكر
٦٧٢	الملك الحكيم
٦٧٤	الملك المنتصر والشعب
٦٧٥	تصر أم معبد ٩
٦٧٧	القصر
٦٨١	المعابد
٦٨٤	المدينة
٦٨٧	المجتمع
٦٨٩	النبالة الرمزية
٦٩٢	مصره الهمسة
٦٩٥	حواشي الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر - الجوانب العلمية لعمله

[١٧٩٨ - ١٨٠١] بقلم : فاروق جليبي

٧٠١

علوم الرياضيات والفيزياء

٧٠٣

التاريخ الطبيعي

٧٠٥

جغرافيا ومناخ

٧١٠

علوم الأرض

٧٢٤

التوبوغرافيا والإحصاء وعلوم الإنسان

٧٢٦

حوادث الفصل الحادي عشر

٧٢٩

ثبت الخرائط والأشكال ومصابرها

٧٤٧

المسجون في الكتاب

٧٦٦

المساهمون في هذا الكتاب

- هنري لورنس، استاذ بجامعة السوربون - باريس - فرنسا.
- شارل هيليسبي، استاذ بجامعة برنستون - برنستون - الولايات المتحدة.
- جان - كلود جولقان، مدير بحوث بالمركز الوطني للبحث العلمي - فرنسا.
- كلود ترونيكر، مسئول عن البحوث بالمركز الوطني للبحث العلمي في
ستراسبور - فرنسا.
- بشير السباعي، كاتب ومترجم مصري.
- منير الهجراني (عماد حليم)، فنان وناقد ومصمم للخطوط والمطبوعات
وخبير في الخط العربي والطباعة.

المترجم

١ - ترويانور الصمت، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٤.

٢ - مراهبا الانثجنتسها ، دار النيل ، الإسكندرية ، ١٩٩٥ .

من الأصل المترجمة :

١ - ز. ١٠. ليفين : الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر، دار لبن خليلون، ١٩٧٨.

٢ - ز. ١٠. ليفين : التطوير والتنمية، تطور الفكر الاجتماعي العربي الحديث، مكتبة منبول، القاهرة، ١٩٨٧.

٣ - تيمولي ميتشل : استعمار مصر، سينما للنشر، القاهرة، ١٩٩٠ (بالاشتراك مع أحمد حسان).

٤ - تيمولي ميتشل : مصر في الخطاب الأميركي، مؤسسة عياله نيلوسيا، ١٩٩١.

٥ - جريج حنين : لا مبررات للوجود، أصوات القاهرة، ١٩٨٧ (بالاشتراك مع ألور كامل).

٦ - كرامستلتن كاتاني : الصائد، دار إلياس، القاهرة، ١٩٩١.

٧ - تزايتان تريويك : فتح أمريكا، مسألة الآخر، سينما للنشر، القاهرة، ١٩٩٢.

٨ - روبرت ماتوران (شولك) : تاريخ الدولة العثمانية، جزان، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٣.

٩ - فليپ فلرغ ويسك كوياج : المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركى، سينما للنشر، القاهرة، ١٩٩٤.

١٠ - انوارو جاليانو : الضرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية ، دار النيل ، الإسكندرية ، ١٩٩٤ (بالاشتراك مع أحمد حسان) .

١١ - توماس ماستاك : الإسلام وخلق الهوية الأوروبية ، دار النيل ، الإسكندرية ، ١٩٩٥ .

أعمال أخرى لهلوج لورنس

- ١ - الأصول الفكرية لعجلة مصر، الاستشراف المتاسلم في فرنسا من عام ١٦٩٨ إلى عام ١٧٩٨، دار نشر إيزيس، المعهد الفرنسي للدراسات الاناضولية، اسطنبول - باريس، ١٩٨٧ (بالفرنسية).
- ٢ - كليبر في مصر، كليبر وبوناپارت، المعهد الفرنسي للكتاب الشرقية، القاهرة، ١٩٨٨ (بالفرنسية).
- ٣ - «عصر التنوير في مواجهة الإمبراطورية العثمانية : صوغ تصور» في كتاب : الإمبراطورية العثمانية وجمهورية تركيا وفرنسا، تحرير جان لوى باكي - جرامون وحيد باطو، دار نشر إيزيس، المعهد الفرنسي للدراسات الاناضولية، اسطنبول - باريس، ١٩٨٦ (بالفرنسية).
- ٤ - «العقل في التاريخ»، في كتابي المراجعة المصرية، مارسيليا، ١٩٨٤ (بالفرنسية).
- ٥ - «صورة الشرق في القرنين السابع عشر والثامن عشر» في كتاب : الشرق : المفهوم والتجديد، أعمال ندوة معهد البحوث حول حضارات الغرب الحديث، دار نشر جامعة باريس - السوربون، ١٩٨٨ (بالفرنسية).
- ٦ - «الشرق والاصل»، في كتاب : البدائية واساطير الأصول، ١٦٨٠ - ١٨٢٠، الناشر السابق (بالفرنسية).
- ٧ - «بوناپارت والشرق والامة العظمى» أنال إستوريك دو لا ريفولوشيون فرانسييز، العدد ٢٧٣، يوليو - سبتمبر ١٩٨٨، ص ٢٨٢ - ٣١٤.

الحملة الفرنسية في مصر بونا بريت والاسلام



لتطور المجتمعات الشرقية والأوروبية، وبين هورتريهات المشاركين في الأحداث ومسيرة العمل العلمي الملحوظ الذي قام به الفرنسيون في مصر، إنما يُعدُّ تاريخاً كلياً لتلك اللحظة الأساسية في مسار العلاقات بين الغرب والإسلام.

إن قوة استحضار الأحداث الدرامية للثورة الفرنسية الآخذة في الانتهاء، والغموض المحير الذي تميز به بونا بارت المنبر بالشرق وبتحولات عالم إسلامي يمر بالفعل بتجديد سافر، وهي قوة استحضار تدعيمها وفرة من الصور المندمجة اندماجاً وثيقاً بالنص، سوف تفتن القارئ الراغب في اكتشاف أصول عالمنا المعاصر.

أندريه ميكيل

استاذ بالكلية دو قرانس